

تأليف

الشيخ الإمام العالم الورع

الشريف محمد بن الحسن بن عبد الله الحسيني الواسطي

رحمه الله تعالى

(٧١٧ - ٧٧٦هـ)

عُني به

محمد إبراهيم الحفنر — محمد زكريا قاسم المقداد

محمد مصطفى الخطيب — عبد الله عبد السلام حميدان



دار المنهاج

الطّبعة الثّانية
١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٨م

دار المنهاج للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية ـ جدة ـ حي الكندرة ـ شارع أبها تقاطع شارع ابن زيدون
هاتف رئيسي 6326666 ـ الإدارة 6300655 ـ المكتبة 6322471 ـ فاكس 6320392
ص. ب 22943 ـ جدة 21416


مجمع الأحباب
وتذكرة أولي الألباب

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب

يحوي هذا السِّفر الأثريّ .. سِيَرَ الصَّفوة مِن الجيل المثاليّ ، ومَنْ ترسَّمَ خُطاهم .

فهو دستورُ وضّاءُ ، تجلَّتْ فيه حقائقُ التّنزيل ، وازْدانَ بحقائقِ المعْرفة ومحاسِنِ أولئك العظام الّذين هُدُوا إلى الكلِم الطّيّب ، ونَسجُوا روائع الحِكَم .. ممّا يَهْدي إلى النّهْج القويم .

وما مِن مُخلصٍ نَهَلَ مِنْ مَعِينه .. إلّا وبرقَتْ أُسارِيرُ الإيمانِ في أعماقه ، وسَرتْ روحُ التّوفيقِ في أوصالهِ .. وكأنّما خُلِقَ خَلْقاً جديدًا .

ومنهم الإمام :

يحيى بن معاذ الواعظُ الذكَّار الرَّازي

رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال يحيى بن معاذ : إلـٰهي ؛ وعزتك وجلالك ؛ إن حبي لك ـ وأنت تعلم ـ إنما جاء طائعاً راغباً ، ومعصيتي لك ـ جل جلالك ـ إنما وقعت منِّي كرهاً ، فهب لي كراهية ذنبي لطواعية محبتك يا أرحم الراحمين .

وكان يقول : إلـٰهي ؛ إن لم ترحمني رحمة الكرامة عليك . . فارحمني رحمة الذلة والفقر والانقطاع إليك ، إلـٰهي ؛ بكرمك وفضلك أَصِلُ غداً إليك كما بنعمتك دُللت اليوم عليك .

وقال : إنْ وَضَع الله عز وجل علىٰ عباده عدله . . لم يُبق لهم حسنة ، وإنْ أنالهم فضله . . لم يُبق عليهم سيئة .

وقال : مفاوز الدنيا تُقطع بالأقدام ، ومفاوز الآخرة تُقطع بالقلوب .

وقال : ابنَ آدم ؛ لا يزال دِينك متمزقاً ما دام قلبك بحب الدنيا متعلقاً .

ورأىٰ رجلاً يقلع الحجر في يوم حار وهو يغني ، فقال : مسكين ابن آدم ، قلع الأحجار أهون عليه من ترك الأوزار .

وسئل : متىٰ يعلم الرجل أنه قد أصاب الطريق وأَمِن هـٰذا الخلق ؟ فقال : إذا استَحْلَوه واستَمَرَّهم ، وأحبوا لقاءه وكره لقاءهم .

وقال : خرج الزاهدون من الدنيا بِداءٍ لا يشفيهم إلا دخول الجنة ، وخرج العارفون من الدنيا بِداءٍ لا يشفيهم إلا رؤيته سبحانه وتعالىٰ .

وقال : لا يفلح من شممتَ منه رائحة الرياسة .

وقال : جِماع الأمر في شيئين : سكون القلب مع الله عز وجل علىٰ حصول ما قسم من رزقه ، والاجتهاد في مرضاة الله عز وجل .

وقال : **إن لَقِيَني القضاء بكيد من البلاء . . لقيت القضاء بالالتجاء والدعاء .**

وكان يقول : لا تستبطىء الإجابة إذا دعوت وأنت سددت طرقها بالذنوب وأكل الحرام .

وقال : اترك الدنيا قبل أن تتركك ، واجتهد في مرضاة ربك سبحانه وتعالىٰ قبل لقائه عز وجل ، واعمر بيتك الذي تسكنه قبل انتقالك إليه ؛ يعني : القبر .

وقال : مَن كان قلبه مع الحسنات . . رجوت أن تغفر له السيئات إن شاء الله تعالىٰ ، ومَن كان قلبه مع السيئات . . فليخش علىٰ حسناته ألاَّ تقبل . [انتهىٰ « الحلية » ١٠/٥١ـ٥٣] .

وقال أبو الفرج : قال محمد بن محمود السمرقندي : سمعت يحيى بن معاذ يقول : الذي حجب الناس عن التوبة طول الأمل ، وعلامة التائب : إسبال الدمعة ، وحب الخلوة ، والمحاسبة للنفس عند كل هِمَّة .

وكان يحيى بن معاذ يدعو : اللهم ؛ لا تجعلنا ممن يدعو إليك بالأبدان ويهرب منك بالقلوب يا أكرم الأكرمين . أو كما قال .

وقال يحيىٰ : يابن آدم ؛ ما أكملك لو بادرت أَمَلك ، وما أجلَّكَ لو بادرت أجلك ، وما أقواك لو خالفت هواك .

وكان ليحيى بن معاذ أخ أكبر منه اسمه إسماعيل ، فلما هجر يحيى الخلق . . قيل لأخيه إسماعيل : مع مَن تريد أن يعيش أخوك وقد هجر الخلق ؟ قال : فذَكَرَ ذلك ليحيىٰ ، فقال له : ألا قلت مع مَن هجرهم فيه ؟

وقال يحيىٰ : ذنب أفتَقِرُ به إليه أحب إليَّ من طاعة أُعجب بها(١) .

وقال : **ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال : إن لم تنفعه . . فلا تضره ، وإن لم تفرحه . . فلا تغمه ، وإن لم تمدحه . . فلا تذمه .**

وقال : ليكن بيتُك الخلوةَ ، وطعامك الجوع ، وحديثك المناجاة ، فإما أن تموت بدائك ، وإما أن تصل إلىٰ دوائك .

وقال : كيف أفرح وقد عصيتُكَ ؟! وكيف لا أفرح وقد عرفتك ؟! وكيف أدعوك وأنا خاطىء ؟! وكيف لا أدعوك وأنت أكرم الأكرمين ؟!

---

(١) هٰذا كقول ابن عطاء الله السكندري رحمه الله : معصية أورثت ذلاً وافتقاراً . . خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً .

وقال : مصيبتان تقع للعبد لم يسمع الأولون والآخرون بمثلهما في ماله عند موته ، قيل : وما هما ؟ قال : يؤخذ ماله كله ، ويسأل عنه كله .

وقال : إن المتقين يجتهدون في المبادرة إلى الفرائض وحسن أدائها ، وإن المغرورين يطلبون فضائل الأعمال ، وما يعلمون أن تقويم الأعمال في تصحيح العزائم .

وقال : هلم إلىٰ جوار الله عز وجل بغير عمل من الجوارح ، ولا نصب ولا تعب ؛ فإنك بين ما مضىٰ من عمرك وبين ما قد بقي ، أما الماضي : فتصلحه بالتوبة والندم ، وهُما ليسا من أعمال الجوارح ، إنما هما من أعمال القلوب ، وامتناعك عن المحظورات ليس عملاً بالجوارح ، إنما هو شيء نويته ، فحينئذ قد نجوت بغير عمل بالجوارح ، ولذلك كانت أعمال القلوب من أرفع الأعمال وأعزها . أو كما قال .

وقال : دواء القلب خمسة أشياء : قراءة القرآن بالتفكر ، وخلو الباطن عن الحرام وما فيه شبهة ، وقيام الليل ، والتضرع إلى الله تعالىٰ في الأسحار ، ومجالسة الصالحين .

وقال يحيىٰ : حقيقة المحبة لا تزيد بالبر ولا تنقص بالجفاء .

وقال : يابن آدم ؛ طلبت الدنيا طلب من لا بد له منها ، وأنت راحل عنها مع أنك قد كُفِيتَها ؛ فإن الله عز وجل قد تكفَّل برزقك وإن لم تطلبها ، وطلبت الآخرة طلب من لاحاجة له بها مع أنها دار إقامتك ، وإنك لا تنالها إلا بالجد والاجتهاد ، فما أعجب أمرَك وأقلَّ فهمَك!

وكان يحيىٰ يقول : الليل طويل ، فلا تقصره بمنامك ، والنهار نقي ، فلا تدنسه بآثامك .

وكان يقول : إن العاقل المصيب من عمل ثلاثاً : ترك الدنيا قبل أن تتركه ، وبنىٰ قبره قبل أن يدخله ، وأرضىٰ ربه عز وجل قبل أن يلقاه جل جلاله .

وكان يقول : الدنيا خراب ، وأخرب منها قلب من يعمرها ، والآخرة دار عمران ، وأعمر منها قلب من يطلبها .

وكان يقول : أخوك مَن عرَّفك العيوب ، وصديقك مَن حذَّرك الذنوب ، ولقد عجبت ممن يحزن علىٰ نقصان مالِهِ كيف لا يحزن علىٰ نقصان عمره ؟!

وكان يقول : لو قال لي ربي عز وجل : يا عبدي ؛ ما غرك بي ؟ لقلت : إلـٰهي وسيدي وعزتك وجلالك . . بِرُّك بي .

وكان يقول : استسلم القوم عندما فهموا ، ومِن قوة اليقين . . ترك ما ترىٰ لما لا ترىٰ ، وإن اضطُرِرتم إلىٰ طلب الدنيا . . فاطلبوها بقدر حاجتكم إليها ، ومع ذلك لا تحبوها ، واشغلوا بها أبدانكم ، وعلقوا بغيرها قلوبكم ؛ فإنها دار مَمَرٍّ وليست بدار مقر ، الزاد منها ، والمقيل في غيرها .

يابن آدم ؛ لا تتأسف علىٰ مفقود لا يرده عليك التأسف ، ولا تفرح بموجود لا يتركه في يديك الموت ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ .

وكان يقول : إلـٰهي وسيدي ؛ ضيعت بالذنب نفسي ، فارددها بالعفو عليَّ .

واعلم : أنه لا يقع للمؤمن سيئة . . إلا وهو يخاف أن يؤخذ بها ، والخوف حسنة ، ثم يرجو أن يعفو عز وجل عنه ، والرجاء حسنة .

وكان يقول : هـٰذا سروري بك وأنا خائف ، فكيف سروري بك إذا أمِنْتُ ؟! وهـٰذا سروري بك في دار الفناء ، فكيف سروري بك في دار البقاء ؟

وكان يقول : مَن أحب زينة الدنيا والآخرة . . فلينظر في العلم ، ومَن أحب أن يعرف الزهد . . فلينظر في الحكمة ، ومَن أحب أن يعرف مكارم الأخلاق . . فلينظر في فنون الآداب ، ومَن أحب أن يستوثق من أسباب المعاش . . فليستكثر من الإخوان ، ومَن أحب ألاَّ يؤذىٰ . . فلا يؤذي ، ومَن أحب رفعة الدنيا والآخرة . . فعليه بالتقوىٰ .

وكان يقول : لست آمركم بترك الدنيا ، إنما آمركم بترك الذنوب ، ترك الدنيا فضيلة ، وترك الذنوب فريضة ، ولا حكم للفضائل مع وجود الفرائض ، فإنك إلىٰ إقامة الفرائض أحوج منك إلى الإتيان بالفضائل .

وكان يقول : الدنيا خمر الشيطان ، مَن سكر منها . . فلا يفيق إلا في عسكر الموتىٰ نادماً مع النادمين .

وقال يحيى بن معاذ رحمه الله : إن مِن سعادة المرء أن يكون خصمه فَهِماً ، وخصمي لا فهم له ؛ يعني : نفسه . [انتهىٰ « الصفوة » ٤/ ٦١ـ٦٧] .

وقال يحيى بن معاذ : ما من مؤمن يعمل سيئة . . إلا وتلحقه حسنات ، منها : خوف العقاب ، ورجاء الثواب . أو كما قال .

وسئل : مَن آمِنٌ من الخوف غداً ؟ قال : أشدهم خوفاً اليوم .

وقال حجة الإسلام الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : قال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله : الزاهد الصادق : قُوته ما وجد ، ولباسه ما ستر ، ومسكنه حيث أدرك ، الدنيا سجنه ، والقبر مضجعه ، والخلوة مجلسه ، والاعتبار فكرته ، والقرآن لا يفارق تلاوته ، فهو ذِكره ، والرب سبحانه وتعالىٰ أنيسه ، والذِّكر حديثه ، والزهد قرينه ، والحزن شأنه ، والحياء شعاره ، والجوع إدامه ، والحكمة كلامه ، والتراب فراشه ، والصمت غنيمته ، والصبر معتمَده ، والتوكل حسبه ، والعقل دليله ، والعبادة حرفته ، والجنة مبلغه[1] .

وقال : علامة الزهد السخاء بالموجود .

وقال : علامة الزهد ثلاثة : عمل بلا علاقة ، وقول بلا طمع ، وعز بلا رياسة[2] .

وقال : وجدان العبد للرزق من غير طلب . . دليلٌ علىٰ أن الرزق مأمور بطلب العبد[3] .

وقال : الطاعة خزانة من خزائن الله عز وجل ، ومفتاحها : الدعاء ، وأسنانه : لقمة الحلال[4] .

وقال يحيى بن معاذ : التواضع حسن في كل أحد ، ولـٰكنه في الأغنياء أحسن ، والتكبر قبيح في كل أحد ، ولـٰكنه في الفقراء أقبح .

وقال : يخرج العارف من الدنيا وما قضىٰ وطره من شيئين : بكاؤه علىٰ نفسه ، وثناؤه علىٰ ربه سبحانه وتعالىٰ .

وقال : أحلى العطايا في قلبي رجاؤك ، وأعذب الكلام علىٰ قلبي ثناؤك ، وأحب الساعات إليَّ ساعة يكون فيها لقاؤك يا ذا الجلال والإكرام ، لا إلـٰه إلا أنت .

وقال : الجوع نور ، والشبع نار ، والشهوة مثل الحطب يتولد منه الإحراق ، ولا تنطفىء ناره حتىٰ يحرق صاحبه .

وقال : علامة الشوق . . فطام الجوارح عن الشهوات .

وقال : الورع علىٰ وجهين : ورع في الظاهر ، وهو : ألاَّ تتحرك إلا لله سبحانه وتعالىٰ ، وورع في الباطن ، وهو : ألاَّ تُدخل قلبك سوى الله عز وجل .

---

(١) الإحياء (٤/ ٢٣١) .
(٢) الإحياء (٤/ ٢٤٢) .
(٣) الإحياء (٤/ ٢٤٥) .
(٤) الإحياء (٢/ ٩١) .

وقال : مَن لم ينظر في الدقيق من الورع . . لم يصل إلى الجليل من العطاء .

وقال : لو رأت العقول بعيون الإيمان نزهة الجنة . . لذابت النفوس شوقاً إليها ، ولو أدركت القلوب كُنْهَ ما يجب من المحبة لخالقها جل جلاله . . لانخلعت مفاصلها إليه سبحانه وتعالىٰ ولَهاً عليه عز وجل ، ولطارت الأرواح إليه من أبدانها دهشاً وشوقاً ، فسبحان من أغفل الخليقة عن كُنْهِ هٰذه الأشياء ، وألهاهم بالوصف عن حقائق هٰذه الأشياء .

وقال : أعظَم المصيبة على الحكيم في اليوم . . أن يمضي عنه ولا يأتيه فيه هدية من ربه سبحانه وتعالىٰ ؛ يعني : حكمة جديدة .

وقال : الدنيا أمير مَن طلبها ، وخادم من تركها ، الدنيا طالبة ومطلوبة ، فمَن طلبها . . رفضته ، ومَن رفضها . . طلبته .

الدنيا قنطرة الآخرة ، فاعبروها ولا تعمروها ، وليس من العقل بنيان القصور على الجسور .

وقال : الدنيا عروس ، وطالبها ماشطتها ، والزاهد ينتف شعرها ، ويسود وجهها ، ويمزق ثيابها ، ومَن طلق الدنيا . . فالآخرة زوجته ، فالدنيا مطلقة الأكياس ، لا تنقضي عدتها أبداً ، فخل الدنيا ولا تذكرها ، واذكر الآخرة ولا تَنْسَها ، وخذ من الدنيا مايبلغك الآخرة ، ولا تأخذ من الدنيا ما يمنعك عن الآخرة .

وقال : مَن فاتته ثلاث خصال . . فقد عدم التواضع :

ـ علمه بما خُلِق له ، وهو : عبادة الله عز وجل ، ومعرفته سبحانه وتعالىٰ .

ـ وما خلق منه ، وهو : ظاهر .

ـ وما يعود إليه ، وهو : أظهر .

وقال : التائب يبكي ذنبه ، والزاهد يبكي غربته ، والصدِّيق يبكي خوف زوال الإيمان .

وقال : فكرتك في الدنيا فقط تلهيك عن ربك عز وجل وعن دِينك ، فكيف إذا باشرْتَها بجميع جوارحك ؟!

وقال : الدنيا لا تعدل عند الله تعالىٰ جناح بعوضة ، وهو سبحانه وتعالىٰ يسألك منها عن جناح بعوضة .

وقال : إن الله عز وجل رضي عن قوم فغفر لهم السيئات ، وسخط علىٰ قوم فلم يقبل منهم الحسنات .

وقال : إن الدنيا بحر التلف ، والنجاة منه الزهد فيها .

وكان يقول : يا غفول ، يا جهول ؛ لو سمعت صرير القلم حين يجري بذِكرك في اللوح المحفوظ . . لَمِتَّ طرباً .

وقال : أنت لا تثق بضمان الله عز وجل لرزقك وتخاف الفقر ، وتثق بضمان عبد حقير فقير مثلك لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، ثم صرخ ، وقال : واسوءتاه منك إذا شاهَدْتني وهمتي تتعلق بغيرك! ويا خجلتاه ويا فضيحتاه كيف لا أقوم عمري علىٰ جفون عيني في طلب رضاك ؟! أو كما قال .

وكان يقول : إلـٰهي وسيدي ؛ إن كانت ذنوبي قد عظمت في جنب نهيك . . فإنها ـ وعزتك وجلالك ـ قد تلاشت وصغرت في جنب عفوك .

إلـٰهي وسيدي ؛ لا أقول لا أعود ؛ لما أعرف من ضعفي وتنفيذ قضائك وقدرك ، ولـٰكن أسألك ألاَّ أعود .

إلـٰهي ؛ إن أحببتني . . غفرتَ سيئاتي ، وإن مقتني ـ والعياذ بك ـ لم تقبل حسناتي ، ثم قال : أوَّه! قبل استحقاق قول أوَّه .

وكان يقول : لو سمع الخلائق صوت النياحة على الدنيا في الغيب من أَلْسِنة الفناء . . لتساقطت القلوب منهم حُزناً ، ولو سمع الخلائق دمدمة النار على الخلق . . لتصدعت القلوب فرقاً .

وقال : لا تجعل الزهد حرفتك لتكتسب به الدنيا ، ولـٰكن ابتغ به رضوان الله تعالىٰ عليه لتنال به الآخرة . أو كما قال .

وقال : تعلق الناس بالأسباب ، وتعلق الصديقون بمسبب الأسباب سبحانه وتعالىٰ .

وقال : مَن كانت الحياة في الدنيا قيده . . كان إطلاقه منها موته .

وقال : لو لم يكن للعارفين إلا إقدارُهم علىٰ هاتين النعمتين : متىٰ ما شاؤوا ذكروه ، ومهما رجعوا إليه قبلهم ووجدوه . . لكان يحق عليهم ألاَّ يخالفوه سبحانه وتعالىٰ .

وقال : إن العارف عبادته في ثلاثة أشياء :

- المعاشرة بالخُلق الجميل .
- وإدامة الذِّكر للجليل سبحانه وتعالىٰ .
- ومراقبته علىٰ جميع الأحوال .

وقال : المَغْبون يوم القيامة : من انقرضت أيامه بالبطالات ، وبسط آماله وجوارحه علىٰ ما منه الندامات والحسرات ، ثم مات قبل الإفاقة من السكرات .

وقال : مَن أصبح بالدنيا مشغوفاً . . أصبح الخير عنه مصروفاً .

وقال : إن العبد علىٰ قَدْر حبه لله عز وجل . . يحبِّبْه إلىٰ خلقه ، وعلىٰ قَدْر توقيره لأمره . . يوقره خلقه ، وعلىٰ قَدْر التشاغل بعبادته . . يعظِّمه في صدور عباده ، وعلىٰ قدر سكون قلبه علىٰ ما وعده الله تعالىٰ به . . يطيب له عيشه ، وعلىٰ قدر حلاوته لعبادة ربه واستلذاذه بها . . يجد ما كان يأمل منه ، وعلىٰ قدر ذِكره . . يديم عليه ألطافَ بره ، وعلىٰ قدر استيحاشه من خلقه . . يكون أنسه به ، واللهِ ؛ لو لم يحصل للعبد من الثواب علىٰ أعماله إلا ما عجل له في دنياه . . لكان كثيراً ، فكيف بما يصير إليه من جزيل ثواب وعظيم عطاء إلىٰ ما لا يحيط به الوصف مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر علىٰ قلب بشر ؟!

وقال : لا تجد أجهل ممن يبيع الجنة بما فيها من النعيم المقيم والخلود الدائم بشهوة ساعة في الدنيا .

وقال : إن للتائب فخراً لا يعادله فخر في جميع فخاره ، فرَح الحق جل جلاله بتوبة عبده .

وقال : إن أهل المعرفة كالوحوش في الأرض ؛ لا يأنسون إلى الخلق ، والزاهدين غرباء في الدنيا ، والعارفين غرباء في الآخرة .

وقال : لا تكن ممن يفضحه يوم موته ميراثه ، ويوم حشره ميزانه .

وقال : الدرجات التي يسعىٰ إليها من يريد الآخرة سبع : التوبة ، ثم الزهد ، ثم الرضا ، ثم الخوف ، ثم الشوق ، ثم المحبة ، ثم المعرفة .

فبالتوبة تطهروا من الذنوب ، وبالزهد خرجوا من الدنيا ، وبالرضا لبسوا قراطق[١]

---

(١) **القراطق** : جمع قرطق ، وهو نوع من الألبسة .

العبودية ، وبالخوف جازوا قناطر النار ، وبالشوق أُدخِلوا إلى الجنة ، وبالمحبة وصلوا إلى النعيم ، وبالمعرفة وصلوا إلى الله عز وجل .

وقال : علىٰ حسَب تعلق قلبك بالدنيا . . يكون بُعدك عن الله عز وجل ، وكما أنه لا يمكن أن يكون وجودك في موضعين . . فكذلك قَلْبُك لا يمكن أن يكون في مكانين ، فإن كنت ذا قلبين . . فاجعل أحدهما للدنيا والآخر للآخرة ، ولٰكن إنما أنت صاحب قلب واحد ، فاجهد أن يكون متعلقاً بالآخرة .

وقال : إن العبد إذا لاحظ أن الأشياء كلها من الله عز وجل . . وجد لها طعماً آخر لا يُعبِّر عن لذته . انتهىٰ .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : إن يحيى بن معاذ الرازي انتقل من الري إلىٰ نيسابور وبها مات ، وكانوا ثلاثة : إسماعيل ، ويحيىٰ ، وإبراهيم ، كلهم زُهَّاد عُبَّاد ، إسماعيل أكبرهم ، ويحيىٰ أوسطهم .

وقال محمد بن محمود السمرقندي : سمعت يحيى بن معاذ يقول : الكلام الحسن حسن ، وأحسن منه معناه ، وأحسن من معناه استعماله ، وأحسن من استعماله ثوابه ، وأحسن من ثوابه ابتغاء رضوان الله عز وجل .

وكان يقول : أعمال كالسراب ، وقلوب من التقوىٰ خراب ، وذنوب بعدد الرمل والتراب ، وتطمع مع هٰذا في الكواعب الأتراب ، هيهات هيهات! أنت سكران بغير شراب .

وقال : إن العارفين غاية آمالهم عفوه ورضاه سبحانه وتعالىٰ عنهم . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٦٠ـ٦٧] .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ : قال يحيى بن معاذ رحمه الله : الفوت أشد من الموت ؛ لأن الفوت انقطاع عن الحق جل جلاله ، والموت انقطاع عن الخلق .

ويقال : إن يحيى بن معاذ تكلم يوماً في مجلسه ببلخ إلىٰ أن وصل في الكلام إلى الغني الشاكر والفقير الصابر ، وفضل الغني على الفقير ، وأقام الدليل علىٰ ذلك ، فدفع إليه بعض الأغنياء ثلاثين ألف درهم ، فوصل الخبر إلىٰ بعض المشايخ ، فقال : لا بارك الله له في هٰذا المال ، فاتفق أنه خرج إلىٰ نيسابور ، فوقع عليه اللصوص ، فأخذوا ذلك المال منه ، فعرف من أين دخل عليه الداخل .

وكان يحيى بن معاذ يقول : إذا زكَّاك الأشرار . . فهو هُجْنَةٌ بك[1] ، وإذا أحبوك . . فهو عيب عليك ، ولقد هان عليك من احتاج إليك . انتهىٰ [« الرسالة القشيرية » ٢٧] .

وقال يحيى بن معاذ : الأيام خمسة : يوم مفقود ، ويوم مشهود ، ويوم مورود ، ويوم موعود ، ويوم ممدود .

المفقود : أمس ؛ فابكِ علىٰ ما فرطت فيه .

والمشهود : اليوم ؛ فتزود فيه مهما استطعت .

والمورود : غداً ، لا تدري أتُدرِكه ، أم لا ؟ فلا تشتغل به ولا تهتمَّ له .

والموعود : اجعله من بالِكَ ، واذكره في جميع أحوالك ، واعمل له ولا تنسه ؛ فإنه آخر أيامك .

والممدود : يوم يقوم فيه الناس لرب العالمين ، فانظر لنفسك كيف يكون وقوفك ذلك اليوم ؟ وما جوابُ سؤالك فيه ؟ والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

ويقال : إن جمعاً تذاكروا يوماً عند يحيى بن معاذ في الفقر والغنىٰ ، فقال : إن الفقر والغنىٰ لا يوزنان يوم القيامة ، وإنما يوزن الصبر والشكر ، تعالَوا نصبر ونشكر .

وكان ليحيى بن معاذ ابنة صغيرة طلبت من أبيها يحيىٰ شيئاً ، فقال لها : يا بنية ؛ اطلبي ذلك من الله عز وجل ، فقالت : يا أبت ؛ أوَما يستحيي العبد من الله عز وجل أن يسأله في شيء من الأكل ؟!

وقال في « بهجة الأسرار » : قال يحيىٰ : إذا أحب القلب الخلوة . . فقد يوصله حب الخلوة إلى الله عز وجل والأنس به ، ومن أَنِس بالله . . استوحش من غيره .

وقال : أيها المريدون ؛ إن اضطررتم إلىٰ طلب الدنيا . . فاطلبوها ولا تحبوها ، وطلبكم بقدر حاجتكم لا غير ، أشغلوا بها أبدانكم ، وعلقوا قلوبكم بغيرها ، إنها دار ممر وليست بدار مقر ، الزاد منها والمقيل في غيرها .

وقال يحيىٰ : لو لزمت باب ربك سبحانه وتعالىٰ . . لَمَا هربت منه ، ولو أَنِست به جل جلاله . . لَمَا فتر لسانك عن ذِكره ، ولا قلبك عن النظر إليه تبارك وتعالىٰ ، ولـٰكن عينك بدنياك مسحورة ، ونفسك في سجون الآمال مأسورة ، فلو أطلقت نفسك من أسرها

---

(١) **هُجْنَة** : نقص وعيب .

وأخرجتها من حصارها . . لخرجت من ضيق محابس الدنيا إلىٰ سَعة بساتين التقوىٰ .

فقيل له : كيف الطريق إلىٰ هٰذا ؟ فقال : اجعل الخلوةَ بيتَك ، والحكمة دليلك ، والتوكل معاشك ، والذِّكرَ حرفَتك ، واجتنب أكثر الخلق تجنباً ، وتقرب إلىٰ مولاك جل جلاله بأداء الفرائض وإكثار النوافل وسائر الطاعات تقرباً ، فإن فعلت ذلك . . قرَّت عينك ، وأمنت مما يهجم عليك غداً ، ولٰكنك مغرور ، والمغرور مردود .

وقال يحيىٰ : كنت بمكة ـ شرفها الله تعالىٰ ـ أتكلم علىٰ جماعة من أهل التجريد ؛ فإذا أنا بإبراهيم الهروي رحمه الله قد جاءني من ورائي من حيث لا أعلم ، فدق علىٰ ظهري ، وقال لي : يا يحيىٰ ؛ أسترحت ؟ أنت ألست بعرفة ، وأنشد يحيىٰ لنفسه :

طلِّقِ الدنيا ثلاثاً	واتخذ زوجاً سواها
إنها زوجةُ سوءٍ	لا تبالي مَن أتاها
أنت تعطيها مُناها	وهي تعطيك قفاها
فإذا نالت مناها	منك وَلَّتْكَ وراها

وقال يحيىٰ : مَن ظن أنه ينال ما نال القوم بغير مقاساة الجهد والصدق والإيثار ودوام المراقبة . . فهو متمنٍّ ، ومن لم يكن معه ثلاث خلال . . فليس بعارف :

الأولىٰ : النظر إلى الخلق بعين الحقيقة مع محافظته على الشريعة ، فما كان مِن المعاصي وسائر المنكرات . . يكرهه ويسعىٰ في إزالته بقدر استطاعته ، مع الإيمان بكونه مقدوراً .

الثانية : ليعلم أن الله عز وجل علىٰ عباده في طاعاتهم أعظمَ المنن حتىٰ تغرق عبادتهم في المنة ، وحينئذ فلا يتعلق بقلبه مجازاة ، وإنما يفعل ما فعل من الطاعات امتثالاً لأمره سبحانه وتعالىٰ وابتغاء رضوانه ، ولقد رَضُوا به ، وأنه لو قام عمر الدنيا علىٰ جفون عينيه . . لَمَا قام بما يجب عليه ، ويخاف كل الخوف ألاَّ يقبل منه ؛ قال تعالىٰ : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ .

الثالثة : ليكن نظره في جميع النعم الظاهرة والباطنة إلى الله عز وجل لا إلى النعم ؛ ولهٰذا قال العارفون : تعلَّق الناس بالأسباب ، وتعلَّق الصديقون بمسبب الأسباب سبحانه وتعالىٰ .

وعلامة الصدق في ذلك : ألا يكون طلبهم إلا مِن الله عز وجل ، ولا نظرهم إلا إليه سبحانه وتعالىٰ ، ولا اعتمادهم إلا عليه تبارك وتعالىٰ . انتهىٰ .

وقال في « **لوامع أنوار القلوب** » : سمع يحيى بن معاذ رجلاً يقول : لو متنا .. لاسترحنا ، فقال له : يا بطال ؛ ضجرت فطلبت الراحة ، استطلت العذاب ونسيت الثواب ، إنما ترفع الدرجات بقدر العقوبات ، ما قدر مَوْتَةٍ واحدة في محبته ؟! والله ؛ لو مت في كل لحظة ألف ألف موتة .. لكان ذلك قليلاً في جنب دعوى المحبة ، وإنما صعبت هٰكذا ؛ لئلا يدعيها كل بطال .

وكان يقول : علىٰ قدر حبك لله عز وجل .. يحبك الخلق ، وعلىٰ قدر خوفك من الله سبحانه وتعالىٰ .. يخافك الخلق ، وعلىٰ قدر طاعتك لله .. يطيعك الخلق ، وعلىٰ قدر شغلك بالله .. يشتغل الخلق في أمرك ، والصبر على الخلق مع رعاية الحق من علامات الإخلاص ، واستدراك الوقت من علامات الرضا ، ودوام البكاء من علامات توقير المحبوب جل جلاله .

وقال يحيىٰ : حقيقة المحبة ما لا ينقص بالجفاء ، ولا يزيد بالبر .

وقال رجل ليحيىٰ : أوصني ، فقال : أوصيك بالحق فكن معه ، وأوصيك بعملك فطيبه ، وأوصيك بنفسك فارحمها ، وأوصيك أن تتقي السيئات كما تتقي النار ، وأوصيك بقيام الليل والالتجاء إلى الله عز وجل في كل وقت ، لا سيما في الأسحار ، وكثرة الاستغفار ، وأوصيك بالصدق في كل ما تأتي وتذر ، واسأَلِ الله سبحانه الفردوس الأعلىٰ ، والنظر إلىٰ وجهه الكريم سبحانه وتعالىٰ .

وقال يحيىٰ : كل موجود من الدنيا لا يكون لك عوناً علىٰ تركها .. فهو عليك لا لك .

وكان يحيىٰ يقول : ما أَوحَشَ مَنِ الدنيا أُنسَه ، وأَضْيَعَ مَنِ الذنوبُ غَرْسَه ، ولو عقل ما يفعله .. لترك ما يجهله .

وقال يحيىٰ رحمه الله : ثمرة البكاء ضحك في الجِنان ، ومجالس الذِّكر معادن الثواب ، ومجالسة الفقراء علامة الإرادة ، وإظهار التوكل بغير صدق عناء ، ولبس الصوف قبل إماتة شهوة النفس جهالة ، وترك المكاسب مع الحاجة إليها والتكسب علىٰ وجود الاستغناء عنه كلفة ، والصبر على العزلة علامة وجود الطريق ، والتعبد علىٰ تضييع العيال جهل ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

وسئل يحيى بن معاذ الرازي عن ترك الجِد في الكسب فقال : وكيف لا يُترك وفي ملازمة الكسب والجِدِّ فيه انصراف قلبه عن حب الموت ؟! وفي كراهية الموت حب البقاء ، وفي

حب البقاء امتداد الأمل ، وفي امتداد الأمل وقوع الحرص ، وفي وقوع الحرص حب الجمع ، وفي حب الجمع كراهية الموت ، وفي كراهية الموت الفرار من الله تعالىٰ ؛ لأن الله تعالىٰ يقول : ﴿ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ، والجمَّاع المكب على الدنيا لا يحب الموت أبداً .

توفي يحيى بن معاذ سَنة ثمان وخمسين ومئتين . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء
رضي الله عنه

روى الحافظ أبو نعيم رحمه الله بإسناده : عن أبي القاسم الجنيد رحمه الله قال : صحبت أبا العباس بن عطاء عدة سنين متأدباً بآدابه ، وكان له في كل يوم وليلة ختمة ، وفي رمضان كلَّ يوم وليلة ثلاث ختمات ، وأقام في ختمة واحدة يستنبط منها مُوْدَعَ القرآن بضع عشرة سنة ، ويَستَرْوِح إلى المعاني المودعة فيها ، ثم مات قبل أن يختمها .

وقال الجنيد : سمعته يقول في قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ فقال : في البيت مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وفي القلب الاستغراق بحب رب إبراهيم ، وللبيت أركان ، وللقلب أركان ، فأركان البيت الصخور ، وأركان القلب معادن النور .

وكان أبو العباس بن عطاء يقول : مَن ألزم نفسه بمتابعة السُّنة . . عمَّر الله تعالىٰ قلبه بنور المعرفة ؛ فإنه لا مقام أشرف من متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع أوامره ونواهيه ، وفي جميع أخلاقه الجميلة ، وآدابه الشريفة الجليلة ، قولاً وفعلاً ونية ؛ قال الله عز وجل : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ ، فجعل تعالىٰ طاعته طاعته صلى الله عليه وسلم ، ومحبته محبته ، وأمرَه أمرَه فقال : ﴿ مَن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ ، وقال : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ .

وسئل ابن عطاء ، فقيل له : ما علامة أولياء الله عز وجل ؟ فقال : أربعة أشياء :

ـ صيانة سره فيما بينه وبين الله عز وجل .

ـ وحفظ جميع جوارحه فيما أمر الله تعالىٰ ونهىٰ عنه ، فلا يفقده حيث أمره ولا يراه حيث نهاه .

ـ واحتمال الأذىٰ فيما بينه وبين الخلق .

ـ ويداري الخلق علىٰ قدر عقولهم .

وقال الحافظ : قال ابن عطاء : كل من شاهد الحق بالحق . . انقطعت عنه الأسباب ، وما دام مشاهداً لغير الحق جل جلاله . . فهو في الحجب يرتع . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ٣٠٢ـ٣٠٤] .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري : قال ابن عطاء رحمهما الله : التقوىٰ لها ظاهر وباطن ، الظاهر : محافظة الحدود ، والباطن : النية والإخلاص . [انتهىٰ « الرسالة القشيرية » ٨٨] .

وقال في « بهجة الأسرار » : قال ابن عطاء في قوله عز وجل : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ : إن الدود كان قد سلطه الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ جسده ، خلا قلبه ولسانه ، فكان القلب غنياً بالله ، واللسان رطباً بذِكر الله ، فأكَل الدود جميع جسمه[1] ، حتىٰ بقيت أضلاعه مشتبكة والعروق ممدودة ، حتىٰ ما بقي للدود شيء يأكله ، فسلط الله تعالى الدود بعضه علىٰ بعض ، فأكل بعضه بعضاً حتىٰ لم يبق غير دودتين ، فجاعتا ، فشدت إحداهما على الأخرىٰ ، فأكلتها ، وبقيت واحدة ، فجاعت ودنت إلى القلب ، فعند ذلك قال : ﴿ مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ ﴾ أنْ فقدت حلاوة ذِكرك من قلبي ؛ لأنه لو جُمِّع عليَّ البلاءُ كله بعد ألاَّ أفقدك من قلبي . . لم أجد للبلاء ألماً ، ثم قال : ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ ولم يقل : ارفع البلاء عني ؛ أدباً للخطاب ، إذ المعنىٰ : أنا عبدك والأمر لك ، ثم إن الحق جل جلاله قال : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ﴾ ، يا عجباً ، هو أعطىٰ وهو أثنىٰ سبحانه وتعالىٰ ! !

وسئل عن الفرق بين التسليم والتفويض ، فقال : المعرفة تشير إلى التسليم ، والعلم يشير إلى التفويض ، فالتسليم هو التبري من الحول والقوة تصديقاً ومعرفة ، والتفويض معاينة الاضطرار ، وليس مَن أسقط عن نفسه حالاً كمن لم يشهد لنفسه حالاً .

وسئل عن تواجد بعض المشايخ عند السماع ، فقال : هو صحيح ، فقيل له : إن الصحابة والتابعين لم يبلغنا عن أحد منهم تواجُدٌ ، فقال : أما الصحابة رضوان الله عليهم : فكانوا قد كوشفوا بالشريعة في سرهم ، فكانوا في الظاهر بحال الوصول إلى الله سبحانه

---

(١) هـٰذا مما يستحيل في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولقد سبقت الإشارة إلىٰ ذلك (٢/ ٣٤١) .

وتعالىٰ ، ومن جاء بعدهم في حال السَّيْر إلى الله ، ومعلوم أن كل من كوشف بشيء لم يعرفه قبل ذلك . . وقع به الانزعاج ، ومن كان عارفاً به . . لا يقع به انزعاج .

ألا ترىٰ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عُرج به إلى السماء . . كشف له عن الملكوت معاينة ، فرآها مشاهدة بالعين ، وكشف لأبي بكر الصديق رضي الله عنه في سرِّه ، فلما رجع النبي صلى الله عليه وسلم وأخبرهم بما رأىٰ وعاين . . قال له أبو بكر الصديق رضي الله عنه : صدقت يا رسول الله ، فوافق ما شهد أبو بكر في سِرِّه ما شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم عِياناً فلم يقع به في ذلك انزعاج ؛ لتقدم عِلم ذلك له في سِرِّه .

وقد روىٰ جماعة من الحفاظ : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه الصلاة والسلام ليلة المعراج : « يا جبريل ؛ إن قومي لا يصدقوني بهٰذا » ، قال : يصدقك أبو بكر[1] ؛ إذ قد كشف له علم ذلك في سره رضي الله عنه .

وأنشد ابن عطاء لأبي الحسين النوري رحمهما الله :

الوجد يُطرِب من بالوجد راحته	والوجد عند حضور الحق مفقودُ
فكان يُطربني وجدي فأفقدني	عن رؤية الوجد مَن بالوجد موجودُ

وقال ابن عطاء : مَن عرف الله عز وجل بالربوبية . . اعتقد الثقة به ، ومَن عرف الله بالبر . . اعتقد المحبة له ، ومن عرف الله بالوفاء . . اعتقد التوكل عليه ، ومَن عرف الله بالغِنىٰ . . اعتقد الافتقار إليه ، ومَن عرف الله بالعظمة . . اعتقد الهيبة له ، ومَن عرف الله بالعدل . . اعتقد الخوف منه ، ومَن عرف الله بالإحسان . . اعتقد القصد إليه ، ومَن عرف الله بالرحمة . . اعتقد الرجاء له ، ومَن عرف الله بالاطلاع . . اعتقد الحياء منه ، ومَن عرف الله تعالىٰ بالمعروف . . اعتقد الرغبة إليه سبحانه وتعالىٰ ، والمؤمنون جميعهم يعتقدون أنه سبحانه وتعالىٰ هو الموصوف بجميع هٰذه الصفات ، وسائر نعوت الجلال والجمال سبحانه وتعالىٰ .

وقال ابن عطاء رحمه الله : للأبرار مراكب ، ولكل مركب غاية إليها يصيرون ، فمَن ركب مركب الخوف . . نجا ، ومن ركب مركب الرجاء . . وجد ، ومَن ركب مركب التوكل . . كُفي ، ومَن ركب مركب التفويض . . وصل ، ومَن ركب مركب الشوق . . أدرك ، ومَن ركب مركب الإنابة . . وجِل ، ومَن ركب مركب حسن الظن . . أصاب ،

(١) أخرجه بنحوه الطبراني في « الأوسط » (٧/١٦٦) .

فمركب الخوف للهرب ، ومركب الرجاء للطلب ، ومركب التوكل للراحة ، ومركب التفويض للسرعة ، ومركب الشوق للنظر ، ومركب الإنابة للدخول ، ومركب حسن الظن للظفر .

وسئل عن الفرق بين الخشية والخوف ، فقال : الخشية من السقوط عن درجات الزُّلَف[1] ، والخوف من اللحوق في درجات المقت . انتهىٰ .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : قد ذكرت عن بعض العارفين الفرق بينهما ، وهو : أن الخشية من شرط العلم ، والخوف من شرط الإيمان ، وهو قريب مما قاله ابن عطاء ، أو هو هو لرجوعه إليه بطريق الملازمة ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

وقال في « المناقب » : سئل ابن عطاء : إلىٰ ماذا تسكن قلوب العارفين ؟ **فقال** : إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ .

وسئل عن معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾ فقال : ما لم يعطف الرب جل جلاله علىٰ عبده بالرحمة . . لم ينعطف العبد إلى الله عز وجل بالطاعة .

وقال ابن عطاء : روي أن آدم عليه الصلاة والسلام كان يدعو بهـٰذا الدعاء : اللهم ؛ لا تجعل حظنا منك الحرمان ، ولا نصيبنا مما نؤمِّلُ منك الخذلان .

اللهم ؛ لا سهل إلا ما جعلته سهلاً ، سهِّل علينا طاعتك ، والتلذذ بذكرك ، والتنعم بقربك ، والاجتناب لسخطك ، والإنابة إلىٰ موافقتك .

وقال : مَن استصغر عطاءه . . استعظم بلاءه ، ومَن كان الغالب عليه أمر معاده . . بان له ذلك في توحده وانفراده ، ولقد عظمت مصيبة مَن جهل ربه سبحانه وتعالىٰ واتهمه في قضائه واختياره ، فذلك العبد الخائن الخاسر في أحواله كلها وهو لا يشعر .

وكان يقول : مكتوب في التوراة : (يابن آدم ؛ إن أعطيتك الدنيا . . اشتغلت بحفظها ، وإن منعتكها . . اشتغلت بطلبها ، فمتىٰ تتفرغ لعبادتي ؟!) .

وقال : لا يصح الإيمان إلا بمراعاة الأدب ، فمَن ترك الأدب . . فقد ترك المروءة ، والمروءة مروءتان : مروءة الدِّين ، ومروءة اليقين ، فمروءة الدِّين إصلاح السريرة فيما بينه وبين الله تعالىٰ ، ومروءة اليقين إصلاح الإرادة فيما بينه وبين الإخوان وسائر المسلمين .

---

(١) **الزلف** : جمع زلفىٰ ، وهي : القربىٰ والمنزلة .

وقال : الاختيار في دفع البلاء زيادة في البلاء .

وقال : مَن غلب هواه وجزعه علىٰ صبره . . افتضح .

وقال : قرت عيون السحرة[1] بسجدة واحدة ، فما بال عين من سجد خمسين سنة ؟!

وقال في كلامه على الناس : أين المحبة والرضا ؟ فإن لم يكن . . فأين الصدق والصفاء ؟ فإن لم يكن . . فأين الانتباه والحياء ؟ فإن لم يكن . . فأين التوبة والوفاء ؟ فإن لم يكن . . فأين التضرع والبكاء ؟ فمن عَدَّىٰ ذلك كلَّه . . فليَبْكِ علىٰ نفسه أيام حياته .

وقال : **القرآن الكريم كله يرجع معناه إلىٰ شيئين : مراعاة العبودية ، وتعظيم حق الربوبية . [انتهىٰ]** .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) أي : السحرة الذين كانوا عند فرعون ، عندما بان لهم الحق سجدوا لله سجدة أنارت قلوبهم ، فثبتوا في وجه فرعون ، ولم يثنهم عن إيمانهم ما هددهم به من العذاب .

ومنهم الإمام :

حاتِمُ الأصمُّ
رضي الله عنه

قال الأستاذ أبو القاسم القشيري رحمه الله : كان حاتم الأصم رحمه الله من أكابر مشايخ خراسان ، وهو تلميذ شقيق البلخي ، وأستاذ أحمد بن خضرويه ، قيل : ولم يكن أصمَّ ، وإنما تصامم مرة فسمي بذلك .

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول : جاءت امرأة إلىٰ حاتم ، فسألته عن مسألة ، فخرج منها صوت ريح في تلك الساعة ، فكأنها خجلت واستحيت ، فقال لها حاتم : ارفعي صوتك ـ يُري من نفسه أنه أصم ـ فسُرَّت المرأة بذلك ، وقالت : إنه لم يسمع الصوت ، فغلب عليه اسم الصمم . انتهىٰ [« الرسالة القشيرية » ٢٦] .

وقال الإمام أبو حامد الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : قال حاتم الأصم : لا تغتر بموضع صالح ؛ فلا مكان أصلح من الجنة ، ولقي آدم عليه الصلاة والسلام ما لقي ، ولا تغتر بكثرة العبادة ؛ فإن إبليس بعد طول تعبده لقي فيها ما لقي ، ولا تغتر بكثرة العلم ؛ فإن بلعام[1] كان يحسن اسم الله الأعظم ، فانظر ماذا لقي ، ولا تغتر برؤية الصالحين ؛ فلا مخلوق أعظم من المصطفىٰ محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم ينتفع بلقائه ناس كثير من أقاربه وأعدائِه . انتهىٰ [« الإحياء » ٤/ ١٨٥] .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : سئل حاتم الأصم فقيل له : علىٰ ماذا بنيت أمرك في التوكل ؟ فقال : علىٰ أربع خصال :

---

(١) بلعام من باعور ، وقيل : بلعم بن باعوراء ، وهو الذي قال الله تعالىٰ فيه : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۞ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .
انظر « البداية والنهاية » (١/ ٣٥٩) ، و« تفسير الرازي » (١٥/ ٥٤) .

ـ علمت أن رزقي لا يأكله غيري ، فاطمأنت به نفسي .

ـ وعلمت أن عملي لا يعمله غيري ، فأنا به مشغول .

ـ وعلمت أن الموت يأتيني بغتة ، فأنا أبادره .

ـ وعلمت أني لا أخلو من عين الله عز وجل ، فعملت على المراقبة له في جميع الأحوال .

وقال حاتِم : ينبغي للعبد مراقبة الله عز وجل في كل أقواله وأفعاله ، خصوصاً في ثلاثة مواضع :

ـ إذا عمل عملاً . . ينبغي أن ينظر نظر الله عز وجل إليه فيستحيي منه .

ـ وإذا تكلم . . فيذكر سمع الله سبحانه وتعالىٰ له ، فينظر كيف يتكلم .

ـ وإذا سكت . . فينظر إلىٰ ما سبق له في علم الله عز وجل .

وقال حاتم : مَن ادعىٰ محبة الله تعالىٰ مِن غير ورع عن محارمه . . فهو كذاب ، ومَن ادعىٰ حب الجنة مِن غير إنفاق ماله في سبيل الله تعالىٰ . . فهو كذاب ، ومن ادعىٰ حب النبي صلى الله عليه وسلم من غير طاعته واتباع سنته . . فهو كذاب .

وقال حاتم : شيئان لا أدري أيهما أشد على العبد : اتقاء العجب ، أو الرياء . العجب داخل فيك ، والرياء خارج عنك ، لـٰكن قد يكون دخول العجب عليك أشد من الرياء ، ومثال ذلك : أن يكون مَعك كلب في البيت وهو عقور ، وكلب آخر خارج البيت ، أيهما أشد عليك ؟! لا شك أن الداخل معك أشد عليك ، فالداخل هو العجب ، والخارج هو الرياء .

وقال حاتم قدس الله روحه : الحزن حزنان : حزن لك ، وحزن عليك ، فأما الحزن الذي عليك : فهو أن تحزن علىٰ ما فاتك من الدنيا قليلاً كان أو كثيراً ، وأما الحزن الذي هو لك : فهو أن تحزن علىٰ فوات حظك من الله عز وجل ، وما فاتك من أمر الآخرة .

وقال حاتم : لي أربع نسوة وتسعة من الأولاد ، ما طمع الشيطان ـ والحمد لله ـ في أن يوسوس إلي في شيء من أرزاقهم .

وقال رجل لحاتم : ما تشتهي ؟ فقال : عافية يوم إلى الليل ، فقال له : ألستَ الأيام في عافية ؟ فقال : إن العافية في يوم لا أعصي الله تعالىٰ فيه . انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ٧٣ـ٨٣] .

وقال **أبو الفرج ـ رحمه الله ـ** : قال الحسن بن علي : سمعت حاتماً يقول : لو أن صاحب خبر جلس إليك ليكتب جميع كلامك . . لتحرزت منه وتحفظت مما يكتب عليك ، وكلامك كله يعرض على الله عز وجل رب العالمين ، وهو به أعلم ، وأنت لا تحترز .

وقال حامد : سمعت حاتِماً يقول : ما من صباح إلا والشيطان يقول لي : ما تأكل ؟ وما تشرب ؟ وأين تسكن ؟ وما تلبس ؟ فأقول له : آكل الموت ، وألبس الكفن ، وأسكن القبر .

وقال حاتم : اختلفت إلىٰ أستاذي شقيق ثلاثين سنة ، فقال لي يوماً : يا حاتم ؛ أي شيء تعلمت مني ؟ فقلت : تعلمت منك أربع مسائل : فقال : أبالله في هـٰذه المدة كلها أربع مسائل ؟ قلت : يا أستاذ ، لم أتعلم غيرها ، فقال : وما هي ؟ قلت :

ـ علمت أن رزقي قد تكفل الله عز وجل به ؛ فلم أشتغل إلا بعبادته سبحانه وتعالىٰ .

ـ وعلمت أن الله سبحانه وتعالىٰ وَكَّل بي ملكين يكتبان ما أتلفظ به ؛ فأنا أحترز منهما ما استطعت .

ـ وعلمت أن الخلائق ينظرون إلىٰ ظاهري والله عز وجل ينظر إلىٰ باطني ؛ فرأيت مراقبته سبحانه وتعالىٰ في جميع الأحوال .

ـ وعلمت أن المنية تدعىٰ إليها الخلائق ؛ فاستعددت لها متىٰ جاءت .

فقال شقيق : يا حاتم ؛ أرجو ألاَّ يخيِّب سعيَك ؛ فإنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين . أو كما قال . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/١٠٨] .

وقال **الحافظ أبو بكر الخطيب في « تاريخ بغداد »** : قصد حاتم الأصم الحج ، فلما دخل بغداد . . قال لبعض أصحاب أحمد ابن حنبل : أحب أن أزور أحمد ابن حنبل ، فقال له : امض بنا إليه ، فلما دخلا عليه في منزله . . قال له صاحبه : هـٰذا حاتم قصد زيارتك والسلام عليك ، فأقبل عليه أحمد وتحادثا ساعة طويلة ، ثم قال له أحمد بعد بشاشة : يا حاتم ؛ فيم التخلص من الناس ؟ فقال : يا أحمد ؛ في ثلاث ، قال : وما هي ؟ قال :

ـ أن تعطيهم مالك ولا تأخذ من مالهم شيئاً .

ـ وتقضي حقوقهم ولا تستقضي من أحد منهم حقاً .

ـ وتحتمل مكروههم ولا تُكرِه أحداً منهم علىٰ شيء .

قال : فجعل أحمد ينكت بإصبعه على الأرض ويقول : إنها لشديدة ، إنها لشديدة ، إنها لشديدة (ثلاثاً) فقال له حاتم : وليتك تسلم ، وليتك تسلم ، وليتك تسلم . انتهىٰ [٨/ ٢٣٧] .

وروى الحافظ أبو نعيم ـ قدس الله روحه ـ : عن رياح بن أحمد الهروي رحمه الله تعالىٰ قال : مر عصام بن يوسف بحاتم الأصم وهو يتكلم في مجلسه ، فقال له : يا حاتم ؛ تحسن تصلي ؟ قال : نعم ، فقال له : كيف تصلي ؟ قال : أقوم بالأمر ، وأمشي بالخشية ، وأدخل بالنية ، وأكبر بالعظَمة ، وأقرأ بالترتيل والتفكر ، وأركع بالخشوع ، وأسجد بالتواضع ، وأجلس للتشهد بالتمام ، وأسلم بالسبيل والسنة ، وأسلمها بالإخلاص إلى الله عز وجل ، وأرجع علىٰ نفسي بالخوف ، أخاف ألاَّ يقبل مني ، وأحفظه بالجهد إلى الموت ، فقال : تكلم ، فأنت تحسن تصلي . انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ٧٤ـ٧٥] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : اعلم : أن هـٰذا الكلام الذي أجاب به الإمام حاتم قدس الله روحه لم أر فيما وقفت عليه من أسرار الصلاة وإبراز حكمها أبلغ منه ، ولا أحسن ، ولا أوجز ؛ لاشتماله علىٰ خفايا العبادة ودقائقها ، وأركان الصلاة وحقائقها ، مع ما فيه من جزالة الألفاظ وعذوبتها ، والإتيان بالمعاني اللطيفة مع غزارة فائدتها ، وأعظم ما فيه وأحسنه . . كونه جاء حاوياً للإخلاص والنية والصدق ، ومعلوم أن مدار العبادات بل مدار الدين إنما هو عليها ، إما باعتبار الثواب اتفاقاً ، أو باعتبار الصحة اختلافاً[1] ، وكيفما كان . . فهي من أعظم قواعد الدين ، التي من تلبس بها . . فقد سلك سبيل العارفين ، ولما كانت من الدين بهـٰذه المثابة . . تعيَّن صرف الاهتمام إليها ، وحق لمن أراد الآخرة المبادرةُ إلىٰ معرفتها والاجتهاد في أن تقع أعماله عليها ، ويلمح ببصيرته ما حوته من المعارف اللطيفة ، ويشاهد ببصره تلك الجواهر النفيسة ، عساه أن يعرف كيف كانت أعمال المخلصين ، وإلىٰ أين انتهت في التفقه مراتب المتقين ، الذين قال فيهم سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه وأزواجه وذريته أجمعين ، وسلم تسليماً كثيراً إلىٰ يوم الدين : « من يرد الله به خيراً . . يفقهه في الدين »[2] .

ثم من بعد ذلك يسأل الله عز وجل أن يوفقه لما وفقهم ، ويعطيه كما منحهم ، إنه ذو

(١) على اعتبار الخلاف بين المذاهب في شروط وأركان الصلاة .
(٢) أخرجه البخاري (٧١) .

الفضل العظيم ، ألا ترىٰ إلىٰ قول العارفين : كيف يتقي من لا يعرف ما يتقي ؟!

وها أنا أشرع في تحقيق ذلك إن شاء الله تعالىٰ بأوضح طريق وأحسن بيان ، وأجعل ما أذكره كالشرح لكلام حاتم ، تغمده الله تعالىٰ بالرحمة والغفران ، وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب .

قوله : (**أقوم بالأمر**) : هـٰذا يؤخذ منه مسائل :

منها : الإشارة إلىٰ تعريف الإخلاص ، وسنذكر وجه الاستنباط منه ، والإخلاص في العبادات هو روحها وسرها ؛ إذ هو الركن الأعظم فيها ، والمطلوب منها ، والمقصود بها ؛ فإن العلم بذر ، والعمل زرع ، وماؤه الإخلاص .

ومن المعلوم أن العبادات إنما شرعت بالإخلاص ، فحيث لا إخلاص . . لا مشروعية ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ ، وقال الله تعالىٰ : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾ قيل : إنها نزلت فيمن كان يعمل لله عز وجل ويحب أن يحمد عليه .

ولَمَّا أن كان الإخلاص هو عماد العبادات وبه اعتدادها . . ناسب أن نتكلم علىٰ حقائقه ، وبيان أقسامه ، ومراتب المخلصين ، وتفاوت درجاتهم بحسب إخلاصهم ، لـٰكن الكلام على استيفاء حقائقه وبيان أقسامه يطول ، وإنما نشير إلىٰ مرامز لطيفة ورسوم شريفة يحصل بها المقصود إن شاء الله تعالىٰ ، والكلام عليه في فصول :

الفصل الأول
في بيان حقيقته

والبيان الشافي فيه : بيان سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الإخلاص ، فقال : « أن تقول ربي الله ، ثم تستقيم »[1] ، وهـٰذا الكلام تتفجر منه عيون كالبحار ، وتحته أغوار جليلة حازت كل الفخار ، منها : الإشارة إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ

---

(١) أخرج ابن ماجه (٣٩٧٢) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٦/٤٥٨) ، والإمام أحمد (٣/٤١٣) : أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله ؛ أخبرني أمراً في الإسلام لا أسأل عنه أحداً بعدك ، قال : « قل : آمنت بالله ، ثم استقم » .

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ ﴾ ، ومنها : قوله تعالىٰ : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ إذ قد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « شيبتني هود » ، قيل : يا رسول الله ؛ ما الذي شيبك منها ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « قوله تعالىٰ : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ »[1] .

فقول حاتم رحمه الله : (أقوم بالأمر) : إشارة إلىٰ ذلك ؛ فإن حقيقة القيام بالأمر هو الاستقامة كما أمر الله عز وجل ، ولا شك أن الاستقامة كما أمر الله سبحانه وتعالىٰ عزيزة ، وهي : ألاَّ تعبد هواك ولا نفسك ، ولا تعبد إلا الله تعالىٰ ، وهو إشارة إلىٰ قطع النظر عن كل ما سوى الله عز وجل ، وهـٰذا هو الإخلاص حقاً ، وهو أقسام :

الأول : إخلاص الخواص ، وهم الذين لا يريدون عوضاً في الدارين ، وهو الإخلاص المطلق .

والثاني : إخلاص العوام ، وهم الذين يريدون عوضاً ، وسنذكر مراتبهم في الفصل الثالث إن شاء الله تعالىٰ .

واعلم : أن الخالص هو الصافي عن كل ما يُتصور أن يكدره ، فإذا صفا عن ذلك . . سمي خالصاً ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴾ ، فإنما خلوص اللبن ألاَّ يكون فيه شيء من الدم والفرث ، ومِن كل ما يمكن أن يمتزج به ، والإخلاص يضاده الإشراك ، فمَن ليس مخلصاً . . فهو مشرك ، إلا أن الشرك درجات ، فالإخلاص في التوحيد يضاده الإشراك في الألوهية ، والشرك منه خفي ومنه جلي ، وكذا الإخلاص .

والإخلاص وضده يتواردان على القلب ، فمحله القلب ، فالإخلاص إنما هو تخليص العمل عن جميع الشوائب ، حتىٰ يتجرد فيه قصد التقرب ، بحيث لا يكون فيه باعث سواه ، وهـٰذا لا يُتصور إلا من محب لله عز وجل مستغرق الهَمِّ بالآخرة ، بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه مطمع ولا قرار ، حتىٰ لا يحب الأكل والشراب أيضاً ، بل تكون رغبته فيهما كرغبته في قضاء الحاجة من حيث إنه ضرورة الجِبِلَّة ، فلا يشتهي الطعام لكونه طعاماً ، بل لأنه يقوىٰ به على العبادة ، ويتمنىٰ أن لو كفي شر الجوع حتىٰ لا يحتاج إلى الأكل ، فلا يبقىٰ في قلبه حظ من الفضول الزائد على الضرورة ، لـٰكن قدر الضرورة يكون مطلوباً عنده ، لا لذاته بل لكونه من ضرورة دِينه وقوام بدنه ، كما قال سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وعلىٰ آله

---

(١) أخرجه بنحوه الترمذي (٣٢٩٧) ، والحاكم (٢/ ٣٧٤) .

وصحبه أجمعين : « حسب المؤمن لقيمات يقمن صلبه »[1] ، وهو جمع قلة .

ولذلك ـ والله أعلم ـ جاء أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يأكل سبع لقم أو تسع لقم ، ولا يكون له هَمٌّ ولا مقصود إلا الله سبحانه وتعالىٰ ، فمثل هٰذا لو أكل وشرب ونام وقضىٰ حاجته . . كان خالصَ العمل صحيحَ النية في جميع حركاته وسكناته ، فلو نام مثلاً ليريح نفسه ويتقوىٰ على العبادة بعده . . كان نومه عبادة ، وكان له درجة المخلصين ، وهٰكذا في سائر أعماله .

وأما مَن ليس كذلك . . فباب الإخلاص في الأعمال كالمسدود عليه إلا على الندور ؛ فإن من كان الغالب عليه حب الله عز وجل والعمل لما يقربه إليه سبحانه وتعالىٰ . . اكتسبت حركاته الاعتيادية صفة همه ، وصارت إخلاصاً ، ومَن غلب علىٰ نفسه حب الدنيا والعلو فيها والرياسة وبالجملة غير الله تعالىٰ . . اكتسبت جميع حركاته تلك الصفة ، فلا يحصل له إخلاص في عبادة ما ، من صوم أو صلاة أو غير ذلك إلا نادراً ، فإذاً لا طريق إلى الإخلاص إلا بكسر حظوظ النفس ، والعزوف عن الدنيا ، وقطع الأطماع منها .

وقد قال سيدي سري السَّقَطي رحمه الله : سألت معروفاً عن الطائعين لله رب العالمين ، بأي شيء قدروا على الطاعة ؟ فقال : بخروج الدنيا من قلوبهم ، ولو كانت في قلوبهم . . لما صحت لهم سجدة واحدة ، وكم من أعمال يتعب الشخص فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله تعالىٰ ، ويكون فيها مغروراً ؛ لأنه لا يدري وجه الآفة فيها .

كما حكي عن بعض العارفين أنه قال : قضيت صلاة ثلاثين سَنة كنت أصليها في الصف الأول في المسجد ؛ لأني تأخرت يوماً بعذر ، فصليت في الصف الثاني ، فاعترتني خجلة من الناس من حيث رأوني في الصف الثاني ، فعرفت أن نظر الناس إلي في الصف الأول كان مسرتي وسبب استراحة قلبي من حيث لا أشعر ، وهٰذا دقيق غامض ، وقلَّما تسلم الأعمال من أمثاله ، وقَلَّ مَن تنبه له إلا مَن وفقه الله تعالىٰ .

وقد قال سيدنا السري رحمه الله : لو أحسست بإنسان يريد الدخول إلي ، ففعلت بلحيتي كذا أريد تسويتها من أجل دخول ذلك الداخل إلي . . لخفت أن يعذبني الله علىٰ ذلك بالنار[2] .

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٨٠) ، وابن ماجه (٣٣٤٩) .

(٢) لعل مراد الإمام السري رحمه الله فيما إذا تمحض القصد في مثل هٰذا التصرف للمخلوقين فقط ؛ فإن هٰؤلاء القوم ومن في رتبتهم يراقبون الله في جميع تصرفاتهم ويشهدونه في سائر أفعالهم ، فإن تجرد شيء منها لغيره=

واعلم : أن الغافلين عن الإخلاص يجدون حسناتهم في القيامة كلها سيئات ، ويحتمل أن يكونوا من جملة المرادِين بقوله تعالىٰ : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ ﴾ ، وبقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا * ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ وأشد الخلق تعريضاً لهـٰذه الفتنة . . العلماء الذين لا يريدون بعلمهم وجه الله تعالىٰ ، وإنما مرادهم حب الدنيا ، وهو الباعث لهم علىٰ نشر العلم للذة الاستيلاء ، والفرح بالأَتْباع ، والاستبشار بالحمد والثناء ، والشيطان يُلبِّسُ عليهم ذلك ، ويقول : أنتم غرضكم نشر دِين الله تعالىٰ ، والنضال عن الشرع الذي شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وترى الواعظ يمُنُّ بنصحه للخلق ووعظه للسلاطين ، ويفرح بقَبول الناس عنه قوله ، وإقبالهم عليه ، ولا ينتبه لذلك بل يدعي أنه إنما يفرح بذلك لِمَا يَسَّره الله تعالىٰ علىٰ يديه من نصرة الدِّين ، وهو في جميع ذلك مغرور ، ألا ترىٰ أنه لو ظهر إنسان من أقرانه وهو أكثر منه علماً وأحسن وعظاً ، وانصرف الناس عنه ، وأقبلوا عليه . . لساءه ذلك وغمه ؟! **فلو كان باعثه الدِّين ـ كما ادعىٰ ـ لحَمِد الله تعالىٰ وشكره ، حيث إنه كفاه ذلك الهَمَّ بغيره** ، وكان له أجر نيته ، ولكان يفرح بذلك ، ولـٰكنه بمعزل عن ملاحظة هـٰذه الأشياء ، حتىٰ إن الشيطان يُلبِّسُ عليه ، ويقول له : أنت مُثاب علىٰ هـٰذا الحزن والغم ؛ لأن حزنك وغمك إنما هو لانقطاع الثواب عنك لا لانصراف الناس عنك ؛ فإنهم لو اتعظوا بقولك . . كنت أنت المثاب ، فاغتمامك لفوت الثواب محمود ، ولا يدري المسكين المغرور أن انقياده للحق وتسليمه الأمر إلىٰ من هو أولىٰ منه أفضل وأجزل ثواباً وأنفع له في الآخرة .

أوَلا ينظر إلىٰ ما كان عليه الصحابة والتابعون رضوان الله عليهم أجمعين ؟!

أوَلا ينظر إلىٰ قول الشافعي رحمه الله : **وددت أن الخلق تعلموا هـٰذا العلم ولا ينسب إلي منه شيء ؟!** فما بال العلماء لا يقصدون ما قصده السلف الصالح ، وقد ينخدع بعض أهل العلم بغرور الشيطان ، فيحدث نفسه بأنه لو ظهر مَن هو أولىٰ بالأمر منه . . لفرح .

وإخباره بذلك عن نفسه قبل التجربة والامتحان . . محض الجهل والغرور ؛ فإن النفس سهلة الانقياد للوعود بأمثال ذلك قبل نزول الأمر ، ثم إذا وقعت تلك الأمور . . تغير ورجع

= أو شابته شائبة الإشراك معه . . رأوا فيه خللاً كبيراً ، وداخلهم من الخوف ما داخلهم ، وهـٰذا من باب : (حسنات الأبرار . . سيئات المقربين) والله أعلم .

ولم يف بالوعد ، وذلك لا يعرفه إلا مَن عرف غوائل النفس ومكائدها ، وهو الفذ الفرد النادر الذي يمكن أن يكون من جملة المراد في قوله تعالىٰ : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهٰذه الدقائق ، وإلا . . فلا يلج ساحة المخلصين .

* * *

الفصل الثاني

في بيان أقاويل الأئمة ـ رضوان الله تعالىٰ عليهم ـ فيه[1]

قال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : لا تهتموا لقلة العمل ، واهتموا للقَبول ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ رضي الله عنه : « أخلص العمل . . يجزئك منه القليل »[2] .

وعن الحسن رحمه الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تبارك وتعالىٰ : الإخلاص سر من أسراري ، استودعته قلب من أحببته من عبادي »[3] .

وكان معروف الكرخي رحمه الله يضرب نفسه ويقول : يا نفس ؛ أَخلِصي . . تتخلصي .

وقال يعقوب : المكفوف المخلص . . مَن يكتم حسناته كما يكتم سيئاته .

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله : طوبىٰ لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالىٰ .

وقال السري السقطي رحمه الله : صلاة ركعتين بإخلاص . . خير لك من أن تكتب سبعين حديثاً . أو كما قال .

ويروىٰ عن بعضهم أنه قال : غزوت في البحر ، فاشتريت مخلاة[4] ، وقلت : أنتفع بها ، ثم إذا دخلت مدينة كذا . . بعتها فربحت فيها ، فرأيت في المنام كأن شخصين نزلا من السماء ، فقال أحدهما : اكتب الغزاة ، فأملىٰ عليه اكتب : خرج فلان متنزهاً ، وفلان مرائياً ، وفلان تاجراً ، وفلان في سبيل الله تعالىٰ ، ثم نظر إلي ، وقال : اكتب : خرج فلان

---

(١) أي : في الإخلاص .

(٢) أخرجه بنحوه الديلمي (١/ ٤٣٥) .

(٣) أخرجه الديلمي (٣/ ١٨٧) .

(٤) **المِخلاة** : كيس يوضع فيه الطعام ونحوه .

تاجراً ، فقلت : الله الله في أمري ، فما خرجت أتَّجر ولا معي تجارة ، ما خرجت إلا للغزاة ، فقال : اشتريت أمس مخلاة تريد أن تربح فيها ، فبكيت ، وقلت : لا تكتبوني تاجراً ، فنظر إلىٰ صاحبه ، وقال : أما ترىٰ أن الله لا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، فقال : اكتب : خرج فلان غازياً ، إلا أنه اشترىٰ مخلاة في الطريق ليربح فيها ، حتىٰ يحكم الله فيه ما يرىٰ .

ورأىٰ رجل بعضَ العارفين في منامه ، فقال له : كيف وجدت أعمالك ؟ فقال : كل شيء عملته لله عز وجل وجدته ، حتىٰ حبة رمان التقطتها من طريق ، وكنت قد تصدقت بين الناس ، فأعجبني نظرهم إلي ، فوجدت ذلك لا عليَّ ولا لي .

قال سفيان الثوري رحمه الله لما سمع هـٰذه الحكاية : ما أحسن حاله! إذا لم يكن عليه . . فقد أحسن الله إليه .

وقال بعضهم : في إخلاص ساعة نجاة الأبد ، ولـٰكن الإخلاص عزيز .

وقال الجنيد رحمه الله : إن لله عباداً عقلوا ، فلما عقلوا . . عملوا ، فلما عملوا . . أخلصوا ، فاستدعاهم الإخلاص إلىٰ أبواب البر أجمع .

وقال محمد بن سعيد المروزي رحمه الله تعالىٰ : الأمر كله يرجع إلىٰ أصلين : فِعلٌ منه لك ، وفِعلٌ منك له ، فترضىٰ بما يفعل سبحانه وتعالىٰ ، وتُخلص فيما تفعل ، فإذاً أنت قد سعدت بهـٰذين وفزت بالدارين .

وقال السوسي رحمه الله تعالىٰ : مراد الله عز وجل من عمل الخلق الإخلاص فقط ، والإخلاص فَقْدُ رؤية الإخلاص ؛ فإن من شاهد في إخلاصه الإخلاص . . احتاج إخلاصه إلىٰ إخلاص ، وهـٰذا إشارة إلىٰ تصفية العمل عن العجب ؛ فإن الانبعاث إلى الإخلاص والنظر إليه عُجب ، وهو من جملة الآفات ، والخالص : ما صفا عن جميع الآفات ، وكلامه إنما يعرض لآفة واحدة .

وقال سهل رحمه الله : الإخلاص : أن يكون سكونُ العبد وحركاتُهُ لله تعالىٰ خالصة . وهـٰذه كلمة جامعة محيطة بالغرض .

وفي معناه قول إبراهيم بن أدهم رحمه الله : الإخلاص صدق النية مع الله تعالىٰ .

وقيل لسهل التُّستَري : **أي شيء أشد على النفس ؟ فقال : الإخلاص ؛ إذ ليس لها فيه نصيب** . انتهىٰ [« الإحياء » ٤/٣٧٦ـ٣٨١] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : هـٰذا الجواب الذي أجاب به سهل التستري رحمه الله فيه سر خفي شريف ، ومعنىً غامض لطيف ، سأذكره قريباً إن شاء الله تعالىٰ .

وقال رويم : الإخلاص : هو ألا يريد صاحبه عليه عوضاً في الدارين ، وهـٰذا قريب مما أجاب به سهل ، أو هو هو ؛ فإن حظوظ النفس من الآفات ، سواء أكانت عاجلة أم آجلة ، إذ العامل لأجل الشهوات في الجنة لاحظ الحظوظ الآجلة ، كما سنبين ذلك إن شاء الله تعالىٰ .

وقال أبو عثمان المغربي قدس الله روحه : الإخلاص : ما ليس للنفس فيه حظ بحال ، وهـٰذا إخلاص العوام ، أما إخلاص الخواص : فهو ما يجري عليهم لا بهم ، فتبدو منهم الطاعات من غير رؤية منهم لها ، كأنهم عنها بمعزل ، ولا يقع لهم عليها رؤية ولا بها اعتداد .

وقال يحيى بن معاذ الرازي : الإخلاص : تمييز العمل من العيوب كتمييز اللبن من بين الفرث والدم .

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : ترك العمل لأجل الناس رياء ، والعمل لأجل الناس شرك ، والإخلاص : أن يعافيك الله منهما .

وقال بعضهم : هو دوام المراقبة ، ونسيان الحظوظ كلها .

وقال الإمام أبو حامد الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : وهـٰذا أجمع الأقوال وأقربها إلى التحقيق ، والأقوال في هـٰذا كثيرة ولا فائدة في تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة[1] .

وقالت فاطمة النيسابورية رحمها الله : مَن عمل علىٰ رؤية المشاهدة له جل جلاله . . فهو عارف ، ومَن عمل علىٰ مشاهدة الحق عز وجل إياه . . فهو مخلص .

وقال بعضهم : المخلص : هو الذي يرىٰ عظيم منة الله عز وجل عليه في الإخلاص أكبر من الإخلاص حتىٰ يغرق إخلاصه في المنة .

والله سبحانه أعلم

* * *

---

(١) الإحياء (٤/ ٣٨٢) .

الفصل الثالث
في مراتب المخلصين

ومراتبهم مختلفة بحسب إخلاصهم .

المرتبة الأولىٰ ـ وهي أعلاها ـ : إخلاص الخواص : وهم الذين يأتون بالعبادات على الوجه المأمور به ، وقد علم الله سبحانه وتعالىٰ منهم أنهم ليس لهم مقصود ولا هَمٌّ في الدارين إلا هو سبحانه وتعالىٰ ، من ابتغاء رضوانه ، والنظر إلىٰ وجهه الكريم عز وجل ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ .

ومن تتبع أحوال الصحابة والتابعين وتابعيهم رضوان الله عليهم أجمعين . . وجدها علىٰ ذلك ، وأنهم قد اكتالوا من ذلك بالمكيال الأوفىٰ ، وحازوا منه النصيب الأوفر ، ألا ترىٰ إلىٰ قول أبي سليمان الداراني رحمه الله حين سئل عن أقرب ما يتقرب به العبد إلىٰ ربه عز وجل ، فبكىٰ وقال : مثلي يُسأل عن هـٰذا ؟! أفضل ما يتقرب به العبد إلىٰ ربه عز وجل : أن يطلع علىٰ قلبك وأنت لا تريد من الدنيا والآخرة شيئاً غيره سبحانه وتعالىٰ .

وقال أبو سليمان أيضاً : لو لم يكن لأهل المعرفة إلا هـٰذه الآية الكريمة . . لاكتفوا بها وافتخروا بها كل الفخار : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ، وأي شيء أراد أهل المعرفة ؟ والله ؛ ما أرادوا إلا ما أراده النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، وهو رؤية الله عز وجل .

وقال يحيى بن معاذ : خرج الزاهدون من الدنيا بِداء لا يشفيهم إلا دخول الجنة ، وخرج العارفون من الدنيا بِداء لا يَشفيهم إلا رؤيته سبحانه وتعالىٰ .

وقد قال إبراهيم بن أدهم لرجل : ما ترىٰ غاية العابدين من الله عز وجل في أنفسهم ؟ فقال : أظن سكنى الجنة ، فقال إبراهيم : لقد ظننتَ ظناً ، واللهِ ؛ إني لأرىٰ أكبر الأمر عندهم ألاَّ يعرض بوجهه الكريم عنهم سبحانه وتعالىٰ .

وقد قال أبو سليمان الداراني : أرجو أن أكون قد رزقت من الرضا طرفاً ؛ فإنه لو أدخلني النار . . لكنت بذلك راضياً .

وقد قال غير واحد من العارفين : لو أدخلني الله عز وجل النار . . لكنت أشدَّ رضاً مِن بعض مَن هو في الجِنان .

وقد سئل أبو الحسين النوري عن الرضا ، فقال : عن وجْدي تسألوني ، أو عن وجْد الخلائق ؟ فقيل له : عن وجدك ، فقال : لو كنت في الدرك الأسفل من النار . . لكنت أرضىٰ ممن هو في الفردوس .

وقال سهل التستري : قال العارفون : ليس خوفنا من نار جهنم ولا رجاؤنا للحور العين ، إنما خوفنا من الحِجاب ، ومطلبنا لقاء الله عز وجل .

وقد جاء أن بعض أهل الجنة لو حجب عن رؤيته عز وجل . . لاستغاث من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار .

وقد حكىٰ غير واحد عن أحمد بن خضرويه أنه قال : رأيت رب العزة جل جلاله في النوم ، فقال : (يا أحمد ؛ كل الناس يطلبون مني إلا أبو يزيد ؛ فإنه يطلبني) .

وقد قال بعض أصحاب معروف : رأيت معروفاً الكرخي في المنام بعد موته كأنه واقف تحت العرش يهتز ، والله عز وجل يقول لملائكته : (مَن هـٰذا ؟) فقالت الملائكة عليهم السلام : تباركْتَ ربنا وتعاليت ، أنت أعلم ، هـٰذا معروف ، سكر من حبك فلا يفيق إلا بلقائك ؛ فإنه لم يعبدك شوقاً إلى الجنة ولا خوفاً من النار ، وإنما عبدك لذاتك وابتغاء مرضاتك جل جلالك .

وقال بعضهم : رأيت الشبلي رحمه الله في المنام بعد موته ، فقلت له : ما فعل الله عز وجل بك ؟ قال : غفر لي ، فقلت له : هل عوتبت علىٰ شيء ؟ قال : نعم ؛ عوتبت علىٰ قولي : أي خسارة أعظم ممن خسر دخول الجنة ؟ قال : فقال لي الحق جل جلاله : (لا خسران أعظم ممن خسر لقائي) .

وقد حكىٰ غير واحد عن أبي القاسم الجنيد أنه قال : كنت نائماً عند السري ، قال : فأنبهني ، وقال لي : يا جنيد ؛ الساعة رأيت كأني واقف بين يدي الله عز وجل ، فقال لي : (يا سري) فقلت : لبيك ربنا وسعديك ، فقال لي : (خلقت الخلق ، فكلهم ادعوا محبتي ، فخلقت الدنيا ، فهرب مني تسعة أعشارهم وبقي معي العشر ، فخلقت الجنة ، فهرب مني تسعة أعشار العشر وبقي معي عشر العشر ، فسلطت عليهم ذرة من البلاء ، فهرب تسعة أعشار ذلك العشر ، فقلت للباقين معي : لا للدنيا أردتم ، ولا للجنة أخذتم ، ولا من البلاء هربتم ، فماذا تريدون ؟ فقالوا : وعزتك وجلالك ؛ إنك لتعلم ما نريد ، فقلت لهم : فإني مسلط عليكم من البلاء بعدد أنفاسكم ما لا تقوم له الجبال الرواسي ، فقالوا : إذا كنت

أنت المبتلي لنا . . فافعل ما شئت[1] ، فهـٰؤلاء عبادي حقاً) . انتهىٰ .

كل ذلك محافظة على ابتغاء رضوان الله والنظر إلىٰ وجهه الكريم ، وأنهم لا يريدون عوضاً ، وليس مقصودهم ولا همُّهُم إلا الله رب العالمين .

ثم قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : هـٰذه الرؤيا مما أكرم الله عز وجل بها وليه سريّاً السقطي رحمه الله ، وقد دل الكتاب والسنة علىٰ صحتها مِن حيث الإجمال ، ويمكن أن تدخل تحت قوله صلى الله عليه وسلم من حيث التفصيل .

بيان ذلك : أنه قد رُوِّينا في « صحيح البخاري » [٤٤٦٤] عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن أول من يدعا يوم القيامة . . آدم ، فيقول الله عز وجل : يا آدم ؛ أخرج بعث جهنم من ذريتك ، فيقول : يا رب ؛ وما بعث النار ؟ فيقول : أخرج من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعين إلى النار وواحداً إلى الجنة »[2] .

وجه دخول رؤيا السري تحت هـٰذا الحديث يظهر بالمثال ؛ فإنه لما خلق الله عز وجل الخلق كلهم . . ادعوا المحبة ، فخلق الدنيا ، فهرب تسعة أعشارهم ، مثاله : هرب من كل ألف تسع مئة ، فبقي مئة ، فخلق الجنة ، فطلبها تسعة أعشارهم وهم تسعون ، بقي عشرة ، فسلط عليهم ذرة من البلاء ، فهرب تسعة أعشارهم وهم تسعة ، فلم يبق سوىٰ واحد .

فإن قلت : الحديث دل علىٰ بعث أهل النار وبعث أهل الجنة ، وكلامُنا إنما هو فيمن عمل لا خوفاً من النار ولا شوقاً إلى الجنة .

قلت : هـٰذا صحيح ولا منافاة فيه ؛ فإن مَن حصل له المقام الأعظم وعمل لأجله . . لا يمتنع عليه حصول ما هو دونه ؛ لكونه لم يعمل له ، فإن العامل لابتغاء الرضوان ورؤية الرحمـٰن جل جلاله يدخل الجنة برحمة الله وإن لم يعمل لأجلها ؛ فإن مقصوده كان أعظم المقاصد ، ولا أكبر منه مقصوداً .

---

(١) إن لله عز وجل عباداً عبدوه لا خوفاً من ناره ، ولا طمعاً في جنته سبحانه وتعالىٰ ، عبدوه فقط لأنه إلـٰه يستحق العبادة ، ولما كان سبحانه وتعالىٰ هم المقصود عندهم ولا شيء غيره . . هان وطاب ولذ كل ما يأتي من قِبَلِهِ سبحانه وتعالىٰ ، ولأولياء الله رضي الله عنهم كلام في هـٰذا الموضوع يَعذُب ، وإشارات عجيبة ، وأحوال غريبة ، وحسبنا في هـٰذا المقام قول الإمام ابن عطاء الله رحمه الله : ليخفف ألم البلاء عنك . . علمك بأنه سبحانه وتعالىٰ هو المبلي لك ؛ فالذي واجهتك منه الأقدار . . هو الذي عودك حسن الاختيار .

(٢) أخرجه البخاري في عدة مواضع مع اختلاف بسيط في الألفاظ عما ذكره المؤلف رحمه الله .

وسنذكر تحقيق ذلك إن شاء الله تعالىٰ .

وقد قال الحارث بن أسد المحاسبي : بلغني أن الحسن رحمه الله قال : أوحى الله عز وجل إلىٰ إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام : (يا إبراهيم ؛ إنك خليلي ، فاحذر أن أطلع عليك فأجد قلبك مشغولاً بغيري ، فإنما أختار لخِلَّتي من لو ألقي في النار وهو في ذِكري . . لم يجد لمسِّ النار ألماً ، ومن لو أدخل الجنة ورآها قد زخرفت وزينت بِحورِها وما فيها من النعيم . . لم يرها بغيته ، ولا اشتغل بها عن ذِكري ، فإذا كان كذلك . . تواترت عليه ألطافي ، وقربته مني ، ووهبت له محبتي ، ومَن وهبت له محبتي . . فقد استمسك بحبلي ، فأي نعمة تعدل ذلك ؟ وأي شرف أشرف منه ؟ فوعزتي وجلالي ؛ لأُرينه وجهي ، ولأشفين صدره من النظر إلي) .

وقال بعض العارفين : إذا اطَّلع الخبير سبحانه وتعالىٰ على الضمير ، فلم ير فيه غير الخبير . . جعل فيه سراجاً منيراً .

ومَن تأمل أحوال العارفين وسِيَرهم رضوان الله عليهم أجمعين . . علم يقيناً أنه ليس شيء أحب إليهم ولا أعظم في صدورهم من لقاء الله عز وجل ، ألا ترىٰ إلىٰ ما حكي عن غير واحد ، منهم أبو سعيد الخراز قدس الله روحه ، قيل للجنيد : إن أبا سعيد الخراز كان كثير التواجد عند الموت ، فقال الجنيد : ليس ذاك بعجب أن تطير روحه اشتياقاً إلىٰ لقاء الله عز وجل .

وقد قيل للنوري وهو محتضر : هل تشتهي شيئاً ؟ فرفع رأسه وقد انكسر لسانه ، وقال : إي والله ؛ شهوة كبيرة ، رؤيةَ الله عز وجل ، ثم تنفس نفساً عالياً كالمتواجد ، وفارق الدنيا .

وسئل بعضهم ، فقيل له : هل طالت بك الأيام والليالي بالشوق إلىٰ لقاء الله ؟ فسكت ، ثم جاء إلىٰ رابعة العدوية رحمها الله ، فقال لها : إني سُئلت عن شيء ، فسكتُّ ولم أدر ما أقول ، سُئلت : هل طالت بك الأيام والليالي بالشوق إلىٰ لقاء الله عز وجل ؟ قال : فسمعت تخريق قميصها من وراء الحجاب ، وهي تقول : إي والله ، إي والله ، قد طالت ، قد طالت .

ولهٰذا قالوا : دخل رجل على الشبلي ، فقال له : أي الصبر أشد على الصابرين ؟ فقال : الصبر في الله ؟ قال : لا ، قال : فالصبر لله ؟ قال : لا ، قال : فالصبر مع الله ؟

قال : لا ، قال الشبلي : فأيش ؟ قال : الصبر عن الله ، قال : فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تتلف ، فلما أفاق . . أنشد :

الصبر يجملُ في المواطن كلِّها إلا عليك فإنه لا يجملُ

وقال بعضهم : حِبَّ الله سبحانه وتعالىٰ شوقاً إلىٰ لقائه ؛ فإن له يوماً يتجلىٰ فيه لأحبابه .

وبالجملة : مَن تأمل الكتاب والسنة وأحوال الصحابة والتابعين وتابعيهم رضوان الله عليهم . . وجدها علىٰ ما ذكرناه .

ومقصود العارفين في الدنيا ـ معرفتُه جل جلاله وعبادته ، ومقصودهم في الآخرة ـ ابتغاءُ رضوانه والنظر إلىٰ وجهه الكريم .

ولمَّا علم الله عز وجل من عباده ما أرادوا بعبادته ، وهو الذي وفقهم وأعطاهم . . أنعم عليهم بنعم لا تتناهىٰ ، ولا يطلع غالب الخلق علىٰ أُولاها فضلاً عن منتهاها ، ثم إن تلك النعم منها ما هو عاجل ومنها ما هو آجل .

أما النعم العاجلة :

فمنها : استغراقهم بالمشاهدة عما قطعهم عن طبعهم وعادتهم ، فلم يشعروا بما يجري علىٰ أبدانهم ولا بما حواليهم ، وحتىٰ إنهم من شدة استغراقهم لعظيم المشاهدة لا يشعرون أيضاً بما في محاريبهم ، ويكون أحدهم قد صلىٰ فيه عشرين سنة وأكثر ، وكل ذلك لاستيلاء سلطان الهيبة والعظمة والاحترام علىٰ قلوبهم ، وما هم فيه مستغرقون من لذة المشاهدة وعظيم المراقبة .

وأرباب المراقبة في ذلك علىٰ حالين :

أعظمهما : مَن كان الغالب عليه مشاهدة الحق جل جلاله ، فكأنه يراه ، ولعل النبي صلى الله عليه وسلم أشار إلىٰ هـٰذه الحالة بقوله صلى الله عليه وسلم : « وجعلت قرة عيني في الصلاة »(١) ؛ لأنه مُشاهد للحق جل جلاله ، ولا شيء أقر لعينه صلى الله عليه وسلم من ذلك ، وأنه هو المراد أيضاً بقوله صلى الله عليه وسلم : « أن تعبد الله كأنك تراه »(٢) .

وثانيهما : لا ينتهي إلىٰ هـٰذه المرتبة ، لـٰكن يغلب علىٰ حاله أن الحق جل جلاله مطلع

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ١٧٤) .

(٢) أخرجه البخاري (٥٠) ، ومسلم (٨) .

عليه ، ومشاهد له ، وأنه يراه ، وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ وبقوله تعالىٰ : ﴿ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ وبقوله صلى الله عليه وسلم : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه . . فإنه يراك » ، فأشار صلى الله عليه وسلم إلى الحالين ، ورغَّب أمته في الاجتهاد علىٰ أن تقع عبادتهم على المرتبة الأولىٰ ، فإن لم يقدروا . . فيجتهدوا علىٰ أن تقع على المرتبة الثانية .

وهٰكذا كان الصحابة والتابعون ومن بعدهم رضوان الله عليهم أجمعين ، ألا ترىٰ إلىٰ ما روي عن سعد بن معاذ رضي الله عنه أنه قال : ثلاث أنا فيهن قوي وما سواهن ضعيف :

- ما صليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسي [بغيرها] حتىٰ أفرغ منها .

- ولا تبعت جنازة فحدثت نفسي بغير ما هي قائلة وما هو مقول لها حتىٰ يفرغ من دفنها .

- وما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول قولاً . . إلا علمت أنه حق .

فقال ابن المسيب رحمه الله : ما ظننت أن هٰذه الخصال تجتمع إلا في النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد روي عن زين العابدين رحمه الله أنه كان في صلاة ، وأن النار وقعت قريباً منه ، فجعلوا يصيحون : يابن رسول الله ؛ النار ، يابن رسول الله ؛ النار ، وهو لا يلتفت ، بل ولا يشعر ، فلما فرغ من الصلاة . . سألوه عن ذلك ، وأخبروه بوقوع النار ، فقال : ما شعرت ، فقيل له : ما الذي ألهاك عنها ؟ قال : النار الأخرىٰ .

وكان بعض العارفين يقول : ما أحسب أن أحداً يكون في الصلاة فيقع في سمعه غير ما يخاطبه الله عز وجل به .

وقد قال أحمد بن سعيد الدارمي : صلىٰ أبو زرعة في مسجده عشرين سَنة ، فلما كان في بعض الأيام . . قدِم عليه قوم من أصحاب الحديث ، فنظروا ، فوجدوا في المحراب الذي كان يصلي فيه كتابة ، فقالوا : ما تقول في الكتابة في المحاريب ؟ فقال : قد كرهه قوم ممن مضىٰ ، فقالوا له : هٰذا في محرابك كتابة ، أما علمت بها ؟ فقال : سبحان الله! رجل يدخل على الله عز وجل ويقف بين يديه جل جلاله ، فهل يدري ما قدَّامَه ؟!

وكان أبو عثمان الحِيري إذا دخل في الصلاة . . لا يشعر ولا يحس بشيء من كلام أو صياح أو غيره .

ومنها : التلذذ بمجرد المعرفة لله عز وجل ، والتلذذ بمناجاته ، لا سيما حال الوقوف بين يدي الله سبحانه وتعالىٰ .

وقد قال أبو سليمان الداراني رحمه الله : لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره إلا علىٰ لذة ما فاته مِن الطاعة فيما مضىٰ . . لكان ينبغي له أن يبكي حتىٰ يموت .

وقد قال يحيى بن معاذ الرازي : إن العبد علىٰ قدر حبه لله عز وجل يحببه إلىٰ خلقه ، وعلىٰ قدر توقيره لأمره يوقره خلقه ، وعلىٰ قدر التشاغل بعبادته يعظمه في صدور عباده ، وعلىٰ قدر سكون قلبه علىٰ ما وعده الله سبحانه وتعالىٰ به يطيب له عيشه ، وعلىٰ قدر حلاوته لعبادته واستلذاذه بها يجد ما كان يأمل منه ، وعلىٰ قدر ذِكره يديم عليه ألطاف بره ، وعلىٰ قدر استيحاشه من خلقه يكون أنسه به ، والله ؛ لو لم يحصل للعبد من الثواب علىٰ أعماله إلا ما عجل له في دنياه . . لكان كثيراً ، فكيف بما يصير إليه من جزيل ثواب وعظيم عطاء إلىٰ ما لا يحيط به الوصف مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر علىٰ قلب بشر ؟!

وقال أبو القاسم الجنيد : إن الله عز وجل يعطي القلوب من بره بحسَب ما أخلصت له القلوب في ذِكره سبحانه وتعالىٰ .

ومنها : ما يشاهدونه من رَوح النعيم عند الأسحار في تهجدهم ، وهٰذا أخص من الأول ، وهو سر لطيف لا يمكن التعبير عنه ، ولهٰذا قال العارفون : ليس في الدنيا نعيم يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يحل على الأولياء في الأسحار .

وقد قال بعضهم : كابدت الصلاة عشرين سنة ، وتنعمت بها عشرين سنة ، فعبادته عز وجل في الدنيا هي قرة أعين المخلصين ، ومنتهىٰ بنية المتقين ، ولولاها . . لَمَا اختاروا المقام في الدنيا ولا طرفة عين ، لا سيما الصحابة والتابعون وتابعوهم رضوان الله عليهم .

ألا ترىٰ إلىٰ ما روي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه كان يقول عند الاحتضار : (اللهم ؛ إنك تعلم أني لم أكن أحب البقاء في الدنيا لكَرْيِ[1] الأنهار ، ولا لغرس الأشجار ، ولٰكن لظمأ الهواجر ، ومكابدة الساعات ، ومزاحمة العلماء بالرُّكَب عند حِلَق الذِّكر) .

وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول : (لولا ثلاث ما أحببت البقاء : وضع جبهتي في

(١) كري الأنهار : حفرها .

السجود في الليل والنهار ، وظمأ الهواجر ، ومجالَسة أقوام يبتغون العلم لله عز وجل) .

وقد قال أبو سليمان الداراني ومَن قبله : إن أهل الطاعة في ليلهم أشد لذة من أهل اللهو في لهوهم ، ولولا الليل . . لَمَا أحببت البقاء في الدنيا .

وكان بعض العارفين يقول : إذا دخل وقت الإفطار . . أحسست بأن روحي تخرج أسفاً علىٰ ما يفوتني من لذة الذِّكر وحلاوة العبادة لله عز وجل .

وقد قالوا : لمَّا احتضرت معاذة العدوية . . بكت ، ثم ضحكت ، فقيل لها : مم بكيت ؟ ومم ضحكت ؟ فقالت : أما البكاء : فإني والله ذكرت مفارقة الصلاة والصيام والذِّكر ، فكان البكاء لذلك[1] .

ومنها : ما يشاهدونه من عظيم المنة لله عز وجل عليهم في العبادة حتىٰ تغرق عبادتهم في المنة ؛ لأنهم قد عرفوا أن الطاعات إن كانت من الفرائض . . فلله عز وجل عليهم فيها أعظم المنن ، وإن كانت من النوافل . . فالمنة فيها عظيمة أيضاً ؛ إذ أعطاهم ما يقربهم إليه ، ووفقهم لأعمال يحببهم بها إليه .

ألا ترىٰ إلىٰ قول بعض العارفين ، وهو أبو الحسين محمد بن سمعون قدس الله روحه ، قال : بلغني أن الله عز وجل يقول : (يا عبدي ؛ أكرمتك لَمَّا أمرتك ، وصنتك لما نهيتك ، فأمري لك كرامة ، ونهيي لك صيانة ، كلفتك الصلاة ، ولعلمي بتوانيك لم أجعل لها وقتاً واحداً ، جعلت لها أولاً وآخراً ، وأنت تقول : الوقت واسع ، متى اتسع الوقت علىٰ عاقل ؟ أما علمت أن الوقت على العقلاء أضيق من خرم الإبرة ؟! تهتم لنفسك حتىٰ كأني لست مولاك ، وتدع الاهتمام بأمري حتىٰ كأني لست مطالبك ، أما علمت أني أعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ؟!) .

وقال يحيى بن معاذ : لو لم يكن للعارفين إلا إقدارهم علىٰ هاتين النعمتين : متىٰ ما شاؤوا ذكروه ، ومهما رجعوا إليه قبلهم ووجدوه . . لكان يحق عليهم ألاَّ يخالفوه سبحانه وتعالىٰ .

وكان بعض العارفين يقول : مَن مثلك يا بن آدم وقد خلي بينك وبين المحراب ، تقف بين يدي الله عز وجل متىٰ شئت ، ثم يبكي ، ويقول : فرَّق الموت بين المصلين وبين

---

(١) وتتمة الخبر من « الصفوة » (٤/ ١٤) : (. . . وأما الذي رأيتم من تبسمي وضحكي . . فإني نظرت إلىٰ أبي الصهباء قد أقبل في صحن الدار وعليه حلتان خضراوان ، فضحكت إليه) .

الصلاة ، وبين الصائمين وبين الصيام ، ويذكر أنواعاً من العبادة .

ومنها : أمر آخر لطيف ، وتحته سر شريف ، وهو شهودهم العبودية ، واستغراقهم ببعض ما يجب للربوبية ، ويرون أن نسبتهم إلى العبودية هي أعظم مما يفتخرون به وينتمون إليه ، حتىٰ إن بعض العارفين قال : كل الناس يفرون من الحساب وأنا أتمناه ، فقيل له : ولِمَ ذاك ؟ قال : لعله سبحانه وتعالىٰ أن يقول لي في خلال خطابه : يا عبدي ؛ فقوله سبحانه وتعالىٰ : (يا عبدي) . . أحب إلي من الدنيا وما فيها .

وقد روي أن داوود الطائي قال : رأيت ولياً من أولياء الله سبحانه وتعالىٰ ، فقلت له : ما غاية بلوغ محبة الله عز وجل من قلبك ؟ فقال : لو جعل حساب الخلق كلهم معي . . لسرني ذلك ورغبت فيه ، فقلت : ولِمَ ذاك ؟ فقال : يا داوود ؛ وهل للعبد مقام أشرف من العبودية ، وهو واقف بين يدي مولاه ومالكه ـ رب العالمين جل جلاله ـ وهو يشاهده ويخاطبه ؟ والله ؛ إن ذلك عندي من أشرف الدرجات ؛ فإن في وقوفه بين يديه عز وجل تغيُّباً عن نفسه وحسه ، ويبقىٰ بلا نفس ولا هوىٰ ولا أعراض ، بل متفكراً في ميدان العظمة والجلال ، والجليل جل جلاله يفعل ما يشاء .

وقد قال الشبلي : كل الناس يفرُّون من الحساب وأنا أتمناه ، فقيل له في ذلك ، فقال : أليس حبيبي ومالكي رب العالمين جلت عظمته مخاطبي ؟ فقد يقول لي : (يا عبدي) ما ألذ كلام الحبيب الرحيم ، ولو بالأمر إلىٰ نار الجحيم ، وكفىٰ بالعبودية شرفاً وفخراً أنَّ الله عز وجل قال لسيد المرسلين وحبيب رب العالمين محمد صلى الله عليه وسلم في أفخر مقاماته : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .

ولهٰذا قال العارفون : لا مقام أعلىٰ من العبودية .

ومنها : أنهم في حال إتيانهم بالعبادة يعلمون أن قيامهم وإتيانهم بالعبادة إنما كان بالله عز وجل بحسب ما وفقهم وأعطاهم ؛ فإن العباد ليس لهم أعمال في الحقيقة ؛ إذ الأفعال لله خلقاً وللعبد كسباً ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ ، فلو عاش العبد عمر الدنيا وقام علىٰ جفون عينيه في عبادة ربه عز وجل . . لَمَا قضىٰ ما يجب عليه ، ولكان في التقصير منغمساً .

ومنها : ما اقتضاه الكرَم العظيم والفضل العميم ، وهو سر لطيف ، ومعنىً غامض

شريف ، ينبغي أن تلمحه ببصيرتك ، وهو : أنهم يعلمون أن الله عز وجل بلطفه وكرمه أنعم علىٰ عباده ـ بعد الإيمان الذي هو أعظم النعم ـ بأن شرع لهم أنواع العبادات ، وأَهَّلَهُم لفعلها ، ولولا ذلك . . لكان قَدْرُ العبد أقل وأحقر من أن يقف بين يديه عز وجل ويناجيه ، فكان ذلك من أَجَلِّ النعم وأكبر السعادات .

ثم بعد أن شرع لهم ذلك . . وفق من شاء لفعلها ، والتوفيق عزيز ، ولعزته لم يرد في القرآن العظيم إلا في موضع واحد ؛ قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ ، ثم حببها إليهم وأقدرهم علىٰ فعلها ، ولولا إقداره وعطاؤه عز وجل . . لَمَا قدر عبد أن يتحرك بذرة ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ ، ثم يثيبهم علىٰ ما هو من فعله وعطائه ، فانظر إلىٰ هـٰذا الكرَم العظيم والفضل العميم ، فسبحان خالق الحياء والكرم .

وقد روي أن أيوب عليه الصلاة والسلام قال : يا رب ؛ وعزتك وجلالك إنك لتعلم أني منذ ثمانين سَنة ما حضرني شيء فيه رضاك وهواي . . إلا آثرت رضاك علىٰ هواي ، قال : فنودي من غمامة من عشرة آلاف صوت : يا أيوب ؛ مَن فعل ذلك بك ؟ قال : فوضع التراب علىٰ رأسه ، ثم قال : أنت يا رب .

وقال الحارث بن أسد المحاسبي : بلغني أن الله عز وجل قال لداوود عليه الصلاة والسلام : (يا داوود ؛ إذا رأيت لي طالباً . . فكن له محباً ، يا داوود ؛ لأن يخرج عبد من عبيدي علىٰ يديك من سكرة الدنيا حتىٰ تستنقذه من سكر ما هو فيه ، فإن فعلت ذلك . . سميتك عندي جهبذاً ، ومن كان جهبذاً . . لم تكن به فاقة ولا وحشة إلىٰ أحد) فقال داوود عليه الصلاة والسلام : يا رب ؛ أعطني ذلك وارزقنيه ؛ فإنه لا وصول إلىٰ شيء إلا بعطائك جل جلالك .

وقد قال أبو سليمان الداراني ومَن قبله : كيف يعجب العاقل بعمله وإنما عمله عطية من الله عز وجل ونعمة منه على العبد يجب عليه الشكر فيها ؟! ولا يقدر أن يقوم به أبداً ؛ لأن التوفيق للشكر نعمة يجب عليها شكر ، وهـٰكذا أبداً ويؤدي ذلك إلىٰ ما لا يتناهىٰ ، فسبحان مَن نعمه لا تحد ولا تحصىٰ .

وقد قال أبو سليمان الداراني رحمه الله وقد سئل : بمَ تُنال معرفته سبحانه وتعالىٰ ؟ فقال : بطاعته ، فقيل له : وبمَ تُنال طاعته ؟ فقال : به سبحانه وتعالىٰ .

وقد قال أبو عثمان الحِيري رحمه الله : الذِّكر الكبير أن تذكر الله في سرك ، وتعلم يقيناً أنك لا تصل إلىٰ ذِكره ولا إلىٰ شيء من الطاعات إلا بعطائه سبحانه وتعالىٰ .

وقال أبو يزيد البسطامي رحمه الله : خصصتَ رجالاً وأكرمتهم ، فأطاعوك فيما أمرتهم ، ولم يبلغوا ذلك إلا بك ، فكأن رحمتك إياهم قبل طاعتهم لك ، جل جلالك ما أعلىٰ شأنك وأعظم سلطانك .

وقال أحمد ابن أبي الحواري : سمعت جعفراً الحَذَّاء يقول : سمعت فضيلاً يقول : ما اشتد عجبي قط من عبادة ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، ولا ولي من الأولياء ؛ لأن الله عز وجل هو الذي أعطاهم ووفقهم وألهمهم وأقدرهم ، ولو أراد أن يعطيهم أكثر من ذلك.. لفعل ، سبحانه وتعالىٰ ، وقد قامت الأدلة والبراهين علىٰ أن الذين أطاعوه.. به أطاعوه ، ولله عز وجل عليهم في تلك الطاعات أعظم المنن ، وأن الذين عصوه.. به عصوه ، ولله عليهم في ذلك الحجة البالغة .

هٰذا ما تيسر في الإشارة إلىٰ بعض النعم العاجلة .

وأما النعم الآجلة : فهي مما لا يحيط بها وصف الواصفين ولا ينتهي إلىٰ معرفتها العارفون ، وفيما عرف منها يتنافس المتنافسون ، ولٰكن لا بد من الإشارة إلىٰ ما هو أعظمها وأرفعها ، وهو ما لأجْله عمل المتقون ، وبه يتنعم المخلصون ، وهو ما رُوِّيناه في « صحيح البخاري » [٧٠٨٠] في باب كلام الرب سبحانه وتعالىٰ مع أهل الجنة ، قال : وحدثنا يحيى بن سليمان ، حدثني ابن وهب قال : حدثني مالك ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله يقول لأهل الجنة : (يا أهل الجنة) فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، والخير في يديك ، فيقول : (هل رضيتم ؟) فيقولون : وما لنا لا نرضىٰ وقد أعطيتنا ما لم تُعطِ أحداً من خلقك ، فيقول : (ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟) فيقولون : يا رب ؛ وأي شيء أفضلُ من ذلك ؟ فيقول : (أُحِل عليكم رضواني ، فلا أسخط عليكم [بعده] أبداً. . . » الحديث .

فقد صرح فيه وفي غيره من الأحاديث بأنهم ما أُعطُوا شيئاً أحب إليهم من حلول الرضوان والنظر إلىٰ وجهه الكريم سبحانه وتعالىٰ .

وهٰذا هو الذي كان مقصودهم ، ولا أكبر منه مقصود ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ، فلا سعادة أعظم من سعادة مَن حل عليه ذلك ، ولا خسران أعظم من فواته ،

أسأل الله العظيم رب العرش العظيم ، وأتوسل إليه بمحمد سيد المرسلين صلى الله عليه ، وعلىٰ سائر النبيين ، وآل كل وسائر الصالحين ، وسلم تسليماً كثيراً . . أن يرزقنا ذلك بفضله وكرمه ، وأن يوفقنا لطاعته ، ويجعلنا من أحبابه وأهل خاصته ، وأن يتوفانا علىٰ محبتهم ، ويجمع بيننا وبينهم في دار كرامته بمَنِّه وكرمه ، إنه ذو الفضل العظيم .

ومنها : ما قد دل عليه الكرم العظيم والأدلة والبراهين ، وهو رفع الدرجات ، والتمتع في الجنة بالشهوات ، وهـٰذا وإن لم يكن مقصودهم بالعبادة . . فكرم الله عز وجل أعظم من ألا يعطيهم ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر علىٰ قلب بشر ؛ فإنه سبحانه وتعالىٰ يعطيهم ما هو أعظم من ذلك وأكبر ، وهو حلول الرضوان والنظر إلىٰ وجهه الكريم كما مر بيانه ، فمُحال أن يمنعهم ما دون ذلك ، وهم في دخولهم الجنة وتمتعهم بالشهوات ممتثلون مؤتمِرون أمره سبحانه وتعالىٰ ؛ فإن أمره عز وجل واحد في المنشط والمكره ، والامتثال فيهما واحد ، فقد كانوا في الدنيا وليس لهم هَمٌّ ولا مقصود إلا الله سبحانه وتعالىٰ ، والمسارعة إلى امتثال أوامره .

وهـٰكذا في الجنة ، ليس مقصودهم إلا هو يرون امتثال أمر المنعم جل جلاله أكبر من التنعم بالنعمة وأعظم ، وغاية ما فيها من الفرق ارتفاع التكليف فقط ، وإشارات العارفين كلهم إلىٰ ذلك .

ألا ترىٰ إلىٰ قول أحمد ابن أبي الحواري حيث قال : إن نعيم أهل الجنة برضوان الله سبحانه وتعالىٰ أكبر وأفضل من نعيمهم بما في الجنان ؟!

وهـٰذا أمر واضح غني عن البيان ؛ إذ قد تقدَّم ما ثبت في « الصحيح » ، من أن أهل الجنة لم يُعطَوا شيئاً أحب إليهم من حلول رضوانه عليهم ونظرهم إلىٰ وجهه الكريم ، وكفىٰ بذلك دليلاً قاطعاً وبرهاناً ساطعاً ، ولا شك أن مقصودهم وهِمَّتَهم في الدنيا إنما كان هو الله رب العالمين جل جلاله وابتغاء رضوانه .

ألا ترىٰ إلىٰ قول بعض العارفين : تعلق الناس بالأسباب ، وتعلق الصديقون بمسبب الأسباب سبحانه وتعالىٰ ؟! وحتىٰ إنهم لو أدخلهم النار . . لا يغيب همهم عنه سبحانه وتعالىٰ .

وأبلغ من ذلك قول بعضهم حيث قال : إن أدنىٰ مراتب الأنس بالله عز وجل : أن لو ألقاه في النار . . لا يغيب هَمُّه ولا مأموله منه سبحانه وتعالىٰ .

وإذا كان هٰذا حالهم في الدنيا . . أفتُراهم يخطر ببالهم غير الله عز وجل في الآخرة ، أو يتغير حالهم عند مشاهدة ما كانوا يأملونه في العقبىٰ ؟ هيهات هيهات! هٰذا مُحالٌ في القياس بديع .

وقد آن إنجاز ما كنت وعدت به من إبراز ما في جواب سهل التُّستَري رحمه الله من الحُسن واللطافة ، حيث قال : الإخلاص : ما ليس للنفس فيه حظ .

فاعلم : أن الحظوظ ثلاثة : عاجل ، وآجل ، والآجل : متعارف ، وغير متعارف .

أما العاجل : فهو الدنيوي ، ومِن حقه ألاَّ يُذكر ؛ لأنه ليس مما نحن فيه في شيء ، وإنما ذكرناه لضرورة التقسيم .

وأماالآجل : فهو الأخروي ، وهو قسمان : متعارف ، وغير متعارف .

فأما المتعارف : فهو الذي يَعُدُّه أكثر الناس ويسمونه حظاً ، وعمل غالب الخلق عليه ، وهو رفع الدرجات ، والتمتع بالشهوات في الجنة ، والنجاة من النار ، والعامل لذلك قاصد للعِوَض ، وهو قصد صحيح ؛ إذ هو عمل علىٰ ما وعد الله تعالىٰ عباده الأبرار في الآخرة ، وصاحبه مخلص بالإضافة إلىٰ طلب الحظوظ العاجلة ، ولا يقدح ذلك في إخلاصه بالاتفاق ، وإن كان نازلاً عن درجة صاحب الإخلاص المطلق ، فلما كان هٰذا هو الحظ المطلوب المتعارَف عندهم . . أطلقوا الحظ عليه وسلبوه عما سواه .

وقد ورد : « أكثر أهل الجنة البُلْه ، وعلِّيُّون : لذوي الألباب »[1] ، حيث رضوا من الحق بدون الحق جل جلاله .

وأما غير المتعارف : وهو حلول الرضوان والنظر إلىٰ وجهه الكريم ، فهٰذا لا يسمونه حظاً ؛ لعزة العمل عليه ، ولعدم تعارفه بينهم ، وإن كان في الحقيقة هو الحظ الأعظم والنصيب الأوفر الأجزل ، والعاملون لأجل هٰذا هم الذين يعبَّر عنهم بأنهم هم الذين لا يريدون عوضاً في الدارين ، وهم صفوة الخلق ، وإخلاصهم يسمىٰ : الإخلاص المطلق .

إذا عرفت ذلك . . فحيث وجدت في كلام الأئمة بأن المخلص هو الذي لا يريد عوضاً في الدارين . . فمعناه هٰذا ، وهو أنه لا يريد عوضاً متعارفاً يعده أكثر الناس عوضاً ، وليس

---

(١) أخرج الشطر الأول منه البيهقي في « الشعب » ، والمراد من البله في الحديث : الذين سلمت صدورهم من الناس ، وغلبت عليهم الغفلة من الشر ، وطبعوا على الخير .

المراد نفي العوض بالكلية ، إنما المراد نفي العوض المتعارَف ، علىٰ ما صرح به غير واحد مِن العارفين ، منهم : أبو حامد الغزالي ـ قَدَّس الله روحه ـ حيث قال :

القوم إنما أرادوا البراءة مما يسميه الناس حظوظاً ، وهو الشهوات الموصوفة في الجنة فقط ، وأما التلذذ بمجرد المعرفة والمناجاة والنظر إلىٰ وجهه الكريم . . فهو أعظم الحظوظ وأوفر الأنصباء ، ولـٰكن غالب الناس لا يسمونه حظاً . [انتهىٰ « الإحياء » ٤/ ٣٨١] .

فقولُ سهل التُّستريّ : (ليس للنفس فيه حظٌّ) أي : حظٌّ متعارَف يعدُّه أكثر الناس حظّاً .

وينشأ من هـٰذا الجواب تعريف آخر للإخلاص ، فيقال : الإخلاص : ما ليس للنفس فيه حظ متعارَف يَعُدُّه أكثر الناس حظاً ، والله أعلم .

المرتبة الثانية والثالثة : العاملون للرغبة والرهبة : وهما يجتمعان في شيء ويفترقان في شيء .

فاجتماعهما : أن كلاً منهما عَمِل لله عز وجل ، لـٰكن إجابةً لباعث الرجاء والخوف ؛ ليحصل له الحظ الآجل الموعود في الآخرة من الفوز بالجنة ، والتمتع بالشهوات ، والنجاةِ من النار ، وهـٰذا قصد صحيح ، والعامل لأجله مخلص بالاتفاق كما تقدم ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ .

وافتراقهما : من حيث إن أحدهما عَمِلَ إجابة لباعث الرجاء من الرغبة في الدرجات والتمتع بالشهوات ، وهو عمل على الموعود في الآخرة ، وهو من جنس المألوفات في الدنيا ، وأغلب البواعث باعث البطن والفرج ، وموضع قضاء وطَرِهما في الجنة ، لـٰكن قال العارفون : إن العامل لأجل ذلك كالأجير السوء ، ولهـٰذا ورد : أن أكثر أهل الجنة البُلْه ، حيث رضوا من الحق بدون الحق جل جلاله .

وأما الآخَر : فإنه عَمِل إجابةً لباعث الخوف ، وهو قصد النجاة من النار ، وهو قصد صحيح كما تقدم ، والعامل عليه مخلص بالاتفاق ، بالإضافة إلىٰ صاحب الغرض العاجل ، لـٰكنه ـ مع ذلك ـ نازل عن درجة صاحب الإخلاص المطلق .

ولهـٰذا قال العارفون : إن الله عز وجل وصف عباده فقال : ﴿ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ .

ثم قالوا : إن العباد في عباداتهم محتاجون إلىٰ طلب العفو عما وقع لهم من التقصير اللازم ، والغفلة الغالبة ، والإخلال بما يجب عليهم من تعظيم حرمات الله في الوقوف بين

يديه جل جلاله ، فكيف يعلق بقلوبهم مع ذلك تطلُّب مجازاة من دخول جنة أو نجاة من نار ؟! تالله ؛ إن ذلك لا يمر بقلوبهم ، وإنما قصدهم التجاوز والعفو عن تقصيرهم فيها .

ألا ترىٰ إلىٰ قول بعض العارفين : إن لم تخش أن يعذبك الله علىٰ أحسن أعمالك. . فأنت هالك .

وقول بعضهم : ربما أصلي ركعتين فأنصرف منهما بمنزلة المنصرف من السرقة ؛ حياء من الله عز وجل من التقصير والغفلة ، وكان إذا فرغ يقول : اللهم ؛ اغفر لي ما وقع فيها من التقصير والغفلة والإخلال ، كأنه قد جنىٰ جناية أو ذنباً ، ومشارب القوم مختلفة ، والله تعالىٰ عند قصدهم لا عند حاصلهم .

وما أحسن ما قال معروف الكرخي رحمه الله : إن قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار ، وإن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد ، وإن قوماً عبدوه لا رغبة ولا رهبة فتلك عبادة الأحرار ، فأشار إلى المراتب الثلاثة في هـٰذه الكلمات الوجيزة .

* * *

الفصل الرابع
في بيان درجات الشوائب والآفات المكدرة للإخلاص

والآفات المشوِّشة بعضها جلي وبعضها خفي ، ومراتبها تتفاوت ، ويظهر ذلك بالمثال .

وأكثر مشوشات الإخلاص إنما هو الرياء ، مثاله : أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب إلى الله عز وجل ، أو يعتق رقبة ليتخلص من مؤنته وسوء خلقه ، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر ، أو ليخلص من شيء يعرض له في بلده ، أو ليهرب من أعدائه ، أو تبرم بأهله وولده فأراد أن يستريح أياماً ، أو يغزو ليمارس الحروب ، أو يصلي بالليل وله غرض في دفع النعاس عنه ليراقب رَحلَهُ أو أهله ، أو يتعلم العلم ليحصل له ما يكفيه من المال ، أو ليكون عزيزاً بين العشيرة ، أو ليكون عقاره وأمواله محروسة بعز العلم ، أو اشتغل بالدرس والوعظ عن كرب الصمت[1] ويتلذذ بالعلم ، أو تكفل بخدمة العلماء والفقراء لتكون حرمته وافرة عندهم ، أو لينال به رفقاً في الدنيا ، أو كتب مصحفاً ليجوِّدَ خطه بالمواظبة على الكتابة ، أو حج ماشياً ليُخفِّف عن نفسه الأجرة ، أو توضأ لينظف

---

(١) كرب الصمت : ثقله وشدته .

ويتبرد ، أو اغتسل ليطيب رائحته ، أو روى الأحاديث ليعرف بعُلُوِّ الإسناد ، أو اعتكف لتَخِفَّ عليه أجرة المسكن ، أو صام ليُخفِّف عن نفسه الاشتغال بالطبخ ، أو ليتفرغ لأشغاله ، أو تصدق على السائل ليدفع إبرامه في السؤال عن نفسه ، أو عاد مريضاً ليعاد إذا مرض ، أو فعل شيئاً من أبواب الخير ليُعرف به ويذكر ويُنظَر إليه بعين الصلاح والوقار .

فمهما كان باعثه هو التقرب إلى الله تعالىٰ ، ولـٰكن انضاف إليه خطرة من هـٰذه الخطرات ، وصار العمل عليه ـ بسبب هـٰذه الأمور ـ أخف وأيسر . . فقد خرج عمله عن حد الإخلاص ، وخرج عن أن يسمىٰ مخلصاً ، وتطرق إليه نوع من الشرك ، وقد وردَ أنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول : (أَنا أغنى الشُّركاءِ عن الشِّرك) .

وبالجملة : فكل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ويميل إليه القلب ، قليلاً كان أو كثيراً ، إذا تطرق إلى العمل . . تكدر به صفوه ، وزال به إخلاصه .

وهـٰذه الحظوظ إن كانت هي الباعثة وحدها . . فلا يخفىٰ شدة الأمر علىٰ صاحبها ، وهو معرَّض للهلاك ، وليس لنا الآن غرض في الكلام فيه ؛ إذ ليس هـٰذا موضع ذِكره .

وأقل أموره : ما ورد : أن المرائي يدعىٰ يوم القيامة بأربعة أسماء : يا مرائي ، يا مخادع ، يا مشرك ، يا كافر ، وإنما نتكلم الآن فيما إذا كان القصد الأصلي التقرب إلى الله تعالىٰ ، وانضافت إليه هـٰذه الأمور ، وهي إما أن تكون في رتبة الموافقة ، أو في رتبة المشاركة ، أو في رتبة المعاونة ، وذلك لأَنَّ الباعث النفسي إما أن يكون مثل الباعث الديني ، أو أقوىٰ منه ، أو أضعف ، ولكل واحد حكم سنذكره إن شاء الله تعالىٰ .

فالإخلاص : تخليص العمل عن هـٰذه الشوائب حتىٰ يتجرد فيه قصد القربة ، فلا يكون فيه باعث سواه ، مثاله : أجر المصلي ، مهما كان مخلصاً في صلاته . . فقد يدخل علىٰ إخلاصه الآفة وهو لا يشعر ، وذلك من وجوه :

الأول : إذا دخل في الصلاة ، ثم نظر إليه جماعة ، أو دخل إليه إنسان ، فيقول له الشيطان : حَسِّن صلاتك حتىٰ ينظر إليك هـٰذا الحاضر بعين الوقار والصلاح ولا يزدريك ولا يغتابك ، فتخشع جوارحه ، وتسكن أطرافه ، وتحسن صلاته ، وهـٰذا هو الرياء الظاهر ، ولا يخفىٰ ذلك على المبتدئين .

الوجه الثاني : أن يكون الإنسان قد فهم هـٰذه الآفة وأخذ حذره منها ، فصار لا يطيع الشيطان فيها ولا يلتفت إليه ، ويستمر في صلاته كما كان ، فيأتيه في معرض الخير ، ويقول

له : أنت متبوع ومقتدىً بك ومنظور إليك ، وما تفعله يؤثَرُ عنك ، ويقتدي بك غيرك ، فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت ، وعليك الوزر إن أسأت ، فأحسن صلاتك ، فعسىٰ أن يُقتدىٰ بك في الخشوع وفي تحسين العبادة ، وهـٰذا أغمَض من الأول ، وقد ينخدع به مَن لا ينخدع بالأول ، وهو أيضاً عين الرياء ومبطل للإخلاص ؛ فإن الخشوع وحسن العبادة ينبغي أن يكون لازماً له في الخلوة ، لا أنه يوجد عند وجود مَن يراه ، والمقتدىٰ به هو الذي استقام في نفسه ، واستنار قلبه ، فانتشر نوره إلىٰ غيره .

فأما هـٰذا : فهو محض النفاق والتلبيس ، فمَن اقتدىٰ به . . أثيب عليه ، وأما هو : فيطالَب بتلبيسه ، ويعاقَب علىٰ إظهاره من نفسه ما ليس متصفاً به .

الوجه الثالث : وهو أدق مما قبله ، وهو أن يحدث العبد نفسه في ذلك ، ويتنبه لكيد الشيطان ، ويعلم أن الإخلاص في أن تكون صلاته في الخلوة مثل صلاته في الملأ ، ويستحيي من الله تعالىٰ أن يحسن صلاته لأجل مخلوق ، فيُقبل علىٰ نفسه في الخلوة ، ويحسن صلاته على الوجه الذي يرتضيه في الملأ ، ويصلي في الملأ كذلك ، فهـٰذا أيضاً من الرياء الغامض ؛ لأنه حسَّن صلاته في الخلوة لتحسن في الملأ ، فكان التحسين لأجل المخلوق ، وهو مبطل للإخلاص أيضاً ، والإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدة الخلق علىٰ وتيرة واحدة .

فكأن هـٰذا لا تسمح نفسه بإساءة الصلاة في الملأ ثم يستحيي من نفسه أن يكون في صورة المرائين ، ويظن أن ذلك يزول بأن تستوي صلاته في الخلاء والملأ .

وهيهات! إن ذلك لا يزول بهـٰذا ، وإنما طريق الزوال أن يقطع نظره عن الخلق ولا يلتفت إليهم ، كما لا يلتفت إلى الجمادات في الخلاء والملأ جميعاً ، وإلا . . فهـٰذا شخص مشغول الهَمِّ في الخلاء والملأ جميعاً ، وهـٰذا من المكائد الخفية للشيطان .

الوجه الرابع : أدق وأخفىٰ ، وهو : أن يكون قد تنبه لهـٰذه الدقائق وأخذ حذره منها ، فيقول له : تفكَّرْ في عظمة الله وجلاله ومن أنت واقف بين يديه ، واستحيي من أن ينظر الله عز وجل إلىٰ قلبك وأنت غافل عنه ، فيحضر العبد قلبه ، ويجمع جوارحه ، ويظن أن ذلك عين الإخلاص ، وهو عين المكر والخداع ؛ فإن خشوعه لو كان لله عز وجل . . لكانت هـٰذه الخطرة تلازمه في الخلاء والملأ مهما كان في الصلاة .

وعلامة الأمن من هـٰذه الآفة : أن يكون هـٰذا الخاطر مما يألفه في الخلوة كما يألفه في

الملأ ، ولا يكون حضور الغير هو السبب في حضور هـٰذا الخاطر ، كما لا يكون حضور البهيمة سبباً ، فما دام يفرق في أحواله بين مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة. . فهو بعدُ ما وصل إلىٰ صفو الإخلاص ، وباطنُه مدنس بالشرك الخفي من الرياء ، والشرك أخفىٰ في قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء كما ورد به الخبر .

ولا يسلَمُ من الشيطان إلا من دق نظره ، وسعد بعصمة الله سبحانه وتعالىٰ وتوفيقه وهدايته ، وإلا. . فالشيطان ملازم للمتشمرين في العبادة لا يغفل عنهم لحظة حتىٰ يحملهم على الرياء في كل حركة من الحركات ، حتىٰ في كحل العين ، وقص الشارب ، وطيب يوم الجمعة ، ولبس الثياب ؛ فإن هـٰذه سنن في أوقات مخصوصة ، وللنفس فيها حظ خفي ؛ لارتباط نظر الخلق بها ، ولاستئناس الطبع بها ، فيدعوه الشيطان إلىٰ فعل ذلك ، ويقول : هـٰذه سُنة لا ينبغي أن تتركها ، ويكون انبعاث القلب لها في الباطن لأجل تلك الشهوات الخفية ، أو مشوبة بها شوباً يخرج عن حد الإخلاص بسببها .

وكل ما لم يسلَمْ من هـٰذه الآفات كلها لا يكون خالصاً ، فإن مَن يعتكف في مسجد معمور نظيف يأنس الطبع به. . فالشيطان يرغبه فيه ويكثر عليه من فضائل الاعتكاف ، ويكون الباعث الخفي في سره هو الأنس بحسن صورة المسجد واستراحة الطبع ، ويتبين ذلك بميله إلىٰ أحد المسجدين إذا كان أحدهما أحسن من الآخر .

وكل ذلك امتزاج بشوائب الطبع وكدورات النفس ، ومبطل لحقيقة الإخلاص ، ولا شك أن الغش الذي يمتزج بالذهب درجاته متفاوتة ، **فمنها** : ما يغلب ، **ومنها** : ما يقل ولـٰكن يسهل دركه ، **ومنها** : ما يدق عن معرفته بحيث لا يدركه إلا الناقد البصير ، ودغل[1] الشيطان وخبث النفس أغمض من ذلك وأدق كثيراً .

ولهـٰذا قيل : ركعتان من رجل عالم. . أفضل من عبادة سَنة من جاهل ، وأريد بالعالم : العالم البصير بدِينه وبدقائق آفات الأعمال حتىٰ يخلص عنها ؛ فإن الجاهل نظره إلىٰ ظاهر العبادة والاغترار بها كنظر السوادي[2] إلىٰ حمرة الدينار المموَّه واستدارته ، وهو مغشوش زائف في نفسه ، وقيراط من الخالص الذي يرتضيه الناقد البصير خير من دينار يرتضيه الغِر الغبي .

---

(١) **الدَّغَلُ** : الفساد .

(٢) **السوادي** : القوري .

فهٰكذا يتفاوت أمر العبادة بل أشد وأعظم .

ومداخل الآفات المتطرقة إلىٰ فنون الأعمال لا يمكن حصرها وإحصاؤها ، فلنقنع بما ذكرناه مثالاً ، والفَطِن يغنيه القليل عن الكثير ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

* * *

الفصل الخامس
في بيان حكم العمل المشوب بالرياء

اعلم : أن العمل إذا لم يكن خالصاً . . فقد اختلف العلماء رضي الله عنهم فيه ، هل هو صحيح ، أو لا ؟

وإذا قيل به . . فهل يقتضي ثواباً ، أو لا يقتضي ثواباً ولا عقاباً ، أو يقتضي عقاباً ؟

والكلام إنما هو في المشوب بالرياء ، والذي أَدِينُ الله عز وجل به عدم الصحة فيه ، وقد ذهب إلىٰ ذلك بعض الأئمة من أصحاب الشافعي رحمه الله ، حكاه عنه الشيخ العالم الرباني محيي الدين النووي قدس الله روحه في « شرحه لمسلم » ، وهو الذي تقتضيه الأدلة الشرعية علىٰ ما سيأتي بيانه ، ويُدانُ اللهُ عز وجل به ، ولٰكن الراجح عند الأكثرين : الصحة ؛ لأنهم يرون أنه ليس بين التحريم والصحة ملازَمةٌ ، وقد أشبعت القول في هٰذه المسألة في تصنيف آخر قبل هٰذا .

ملخص ما أذكره هٰهنا هو أن يقال : إن العمل المشوب بالرياء هل يقتضي ثواباً ، أو لا ؟

اعلم : أنه قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الثلاثة الذين يكون أول قضاء الله عز وجل عليهم يوم القيامة أن الله تعالىٰ يقول لكل واحد منهم : (كذبت ، إنما أردت أن يقال : فلان كذا ، وقد قيل ، اذهبوا به إلى النار)[1] .

وقد ثبت بالكتاب والسُّنة : أن كل عمل يمكن أن يراد به وجه الله عز وجل . . فإنه إذا لم يُعمل لمجرد التقرب إليه سبحانه وتعالىٰ وابتغاء رضوانه . . لا يستحق ثواباً .

ثم فيه تفصيل ، وهو : أنه إن كان فرضاً ، وأراد به فاعله الفرض فأداه بنية الفرض ، ليقول الناس : إنه فعل كذا لا لطلب رضوان الله واتقاء سخطه . . سقط عنه الفرض ، ولم

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم (١٩٠٥) .

يعاقب في الآخرة عقوبة التارك له ، ولـٰكنه لا يستوجب ثواباً ، إنما ثوابه ثناء الناس عليه في الدنيا بما فعل .

وإن كان تطوعاً ، وفعلَه لوجوه الناس لا لوجه الله سبحانه وحده . . حبط أجره ، ولم يحصل من عمله علىٰ شيء ، بخلاف الأول ، حيث حصل منه علىٰ سقوط الفرض عنه ، ثم إن حالهما يحتمل أمرين :

أحدهما : أنه مع كونه لا يثاب . . يعاقب علىٰ ذلك ، يدل عليه ظاهر قوله صلى الله عليه وسلم [عن رب العزة جل جلاله] : « اذهبوا به إلى النار » ، فهو إخبار بأن المرائي يعاقَب علىٰ عُدولِهِ عن قصدِهِ وجهَ الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ قصده وجوه الناس ؛ لأنه كالبائع لثواب الله بمحمدتهم ، فلا يتقاصر ذلك عن بعض الذنوب الموجبة للعقاب .

وثانيهما : أنه لا يعاقب ولا يثاب ، ويكون ـ علىٰ هـٰذا ـ معنى الحديث : أن العمل الذي أتىٰ به علىٰ وجه الرياء لا ينفعه ، ولا يثقل به ميزانه ، وقوله : (اذهبوا به إلى النار) ؛ أي : بمعاصيه ، لا أنه يعاقب على الرياء بالنار ، إنما عقوبة الرياء إحباط العمل فقط ؛ لأن المرائي أراد بعمله حمد الناس ، فإذا أُحيل عليهم . . فقد جوزي بصنيعه ؛ فإن جميع ما صدر عنه سِيَّانِ ، فعلُه الذي لم يخل عن كونه عبادة لله ـ إذ لو أراد به عبادة غير الله . . لكفر ـ وقصدُه لمدح الناس لا لثواب الله ، والأول ليس بذنب ، والثاني قصاراه ألاَّ يثاب ، ويكون جزاؤه علىٰ هـٰذا مدح الناس ، وهـٰذا احتمال ضعيف .

فإن قيل : لو لم يشتغل الناس به ولامدحوه بل ولا علموا به أنه فعل خيراً أو شراً . . **فالجواب** : أنه لا يؤجر بشيء لا عاجل ولا آجل ، وإنما هـٰذا رجل خسر الدنيا والآخرة ، نسأل الله العافية .

ويشبه أن يكون من عذاب الآخرة أبعد ؛ لأن الله تعالىٰ لما صرف هَمَّ الناس عنه حتىٰ لم يحصل له منهم ما أراد . . كان من جملة العقوبة ، إذا كان ثناؤُهُم ـ إذا أثنوا عليه ـ هو جميع جزائه . . جاز أن يكون فوتُ ثنائهم عليه جميعَ عقوبته .

وجميع ما ذكرناه من الثواب والعقاب داخل تحت قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات » والله أعلم .

وأما الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ـ قدس الله روحه ـ فإنه قال : ظاهر الأخبار يدل علىٰ أنه لا ثواب فيه ، وليس تخلو الأخبار عن تعارض فيه ، والذي ينقدح لنا فيه ـ

والعلم عند الله ـ أن ننظر إلىٰ قدر قوة الباعث : فإن كان الباعث الديني مساوياً للباعث النفسي . . تقاوما وتساقطا ، وصار العمل لا له ولا عليه ، وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوىٰ . . فهو ليس بنافع ، بل هو ـ مع ذلك ـ مضر ومفضٍ للعقاب ، نعم ، العقاب الذي فيه أخف من عقاب العمل الذي لمجرد الرياء .

وإن كان قَصْد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر . . فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الديني ، وهـٰذا لقوله تعالىٰ : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ .

فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير ، بل إن كان غالباً علىٰ قصد الرياء . . حبط منه القدر الذي يساويه وبقيت زيادة ، وإن كان مغلوباً . . سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد ، وكشفُ الغطاء عن هـٰذا أن الأعمال تأثيرها في القلوب بتأكيد صفاتها ، فداعية الرياء من المهلكات ، وداعية الخير من المنجيات ، وإنما قوتها بالعمل علىٰ وفقها ، فإذا اجتمعت الصفتان في القلب . . فهما متضادتان .

فإذا عمل علىٰ وفق مقتضى الرياء . . فقد قوىٰ تلك الصفة .

وإذا عمل علىٰ وفق [مقتضىٰ] التقرب . . فقد قوىٰ أيضاً تلك الصفة .

فأحدهما مهلك والآخر منج ، فإن كان تقوية هـٰذا بقدر تقوية الآخر . . فقد تقاوما وتساقطا .

وإن كان أحدهما غالباً . . لم يخل الغالب عن أثر ، فكما لا يضيع مثقال ذرة من الطعام والشراب في الجسد ولا ينفك عن أثر بحكم سُنة الله تعالىٰ ، فكذلك لا يضيع مثقال ذرة من الخير والشر ، ولا ينفك عن تأثير في إنارة القلب وتسويده وتقريبه من الله وإبعاده .

فإذا جاء بما يقربه شبراً مع ما يبعده شبراً . . فقد عاد إلىٰ ما كان ، فلم يكن له ولا عليه ، وإن أتىٰ بما يقربه شبرين والآخر يبعده شبراً . . فضل له شبر .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أتبع السيئة الحسنة تمحها »[1] ، فإذا كان الرياء المحض يمحوه الإخلاص المحض عقيبه : فإذا اجتمعا جميعاً . . فلا بد أن يتدافعا بالضرورة .

ويشهد لهـٰذا إجماع الأمة أَنَّ من خرج حاجاً ومعه تجارة . . صح حجه وأثيب عليه ، وقد امتزج بحجه حظ من حظوظ النفس .

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٨٧) .

نعم ؛ يمكن أن يقال : إنما يثاب علىٰ أعمال الحج عند انتهائه إلىٰ مكة ، وتجارته غير موقوفة عليه فهو خالص ، وإنما المشترك طول المسافة ، ولا ثواب فيه مهما قصد التجارة .

ولكن الصواب أن يقال : مهما كان الحج هو المحرك الأصلي وكان غرض التجارة كالمُعين والتابع . . فلا ينفك نفس السفر عن ثواب .

وأما الغزاة : فإن كان الباعث الأصلي والمزعج القوي هو إعلاء كلمة الله تعالىٰ والرغبة في الغنيمة علىٰ سبيل التبعية . . فلا يحبط بذلك الثواب .

نعم ؛ لا يساوي ثوابه ثواب من لا تلتفت نفسه إلى الغنيمة أصلاً ؛ فإن الالتفات نقصان لا محالة ، والله سبحانه أعلم . [انتهىٰ « الإحياء » ٤/ ٣٨٤ـ٣٨٥] .

وقوله : (**أقوم بالأمر**[1]) أي : أتوجه إليها بالإخلاص .

وقوله : بالأمر : كأنه أراد ـ والله أعلم ـ ما اشتمل عليه قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ ، وفيه إشارة إلىٰ أن العبد ينبغي أن يعرف أنه إنما قام بالله عز وجل ، فلا ينظر إلىٰ عمله ، إنما ينظر إلى الذي أقامه فيه ، وهو الله رب العالمين ، فينتفي من هٰهنا العجب ورؤية النفس ، وقد دخل في قوله : أقوم بالأمر مجمل جميع ما يأتي تفصيله ، والله أعلم .

قوله : (**وأمشي بالخشية**[2]) فيه لطائف :

منها : أنه عدل عن قوله : أدخل فيها بالخشية إلىٰ قوله : وأمشي بالخشية ، إشارة منه إلىٰ أن خشية الله عز وجل ينبغي التلبس بها في جميع الأحوال ، وأنها لا تتقيد بحالة الصلاة فقط ، ولا شك أن الخشية رأس كل حكمة وخير ؛ فإنه ينشأ عنها أمور جليلة ومراتب رفيعة لا تكاد تنحصر ، فمنها : المراقبة ، ومنها : المحاسبة ، ومنها : الصبر ، ومنها : الرضا ، ومنها : التفكر في آلائه ونعمه والاستغراق فيما يجب من العظمة والكبرياء ، إلىٰ ما لا يتناهىٰ .

ومنها : أنه كلما ازدادت خشيته لله عز وجل . . عرف فاقة نفسه وحقارتها وذلتها ، حتىٰ ينزلها منزلتها من الذلة والافتقار ، فلا يرفع رأسه أبداً ، بل لا يزال كالعبد الآبق بين يدي

---

(١) بدأ بقوله : (أقوم بالأمر) بمعنىٰ أكون مخلصاً ؛ لأن الإخلاص مطلوب في كل عمل من الأعمال .

(٢) وثنَّىٰ بـ(الخشية) لأنها مبدأ كثير من الفضائل .

مولاه ، لا سيما إذا دخل في عبادة كالصلاة مثلاً ؛ فإنه يدخلها بالذلة والانكسار مع دوام الخشية ، وكلما كانت خشيته أكبر . . كانت ذلته وفاقته أكثر .

وقد كان جَمْع من السلف رضوان الله عليهم إذا تطهروا للصلاة . . تغيرت ألوانهم ، وما ذاك إلا لاستيلاء سلطان الهيبة والعظمة في قلوبهم ، وشدة الخشية ، قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ، فقد وصف الله عز وجل عباده المؤمنين بأنهم إذا ذكروا الله سبحانه وتعالىٰ . . وجلت قلوبهم .

وعَجَب لمَن ذَكر الله عز وجل علىٰ حد الحضور والاحترام ، كيف لا يتمزق قلبه ؟!!

ولهـٰذا قال الأستاذ أبو حفص النيسابوري رحمه الله : ما أظن أن مَن ذكر الله عز وجل علىٰ حد الحضور والاحترام يبقىٰ بعد ذِكره حياً إلا الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ؛ فإنهم مؤيدون بقوة النبوة ، والأولياء مؤيدون بقوة الولاية .

ومنها ـ وهو أعظم ما يثمر عن الخشية ـ : رضوان الله عز وجل عَنْهم ، وهو أعظم الأشياء على الإطلاق ، ولا شيء أكبر منه ؛ قال تعالىٰ : ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾ .

قوله : (**وأَدخُل بالنية**) هـٰذا مع ما فيه من الإشارة إلىٰ أن صحة الأعمال موقوفة على النية ، فيه الإشارة إلىٰ أن معرفة الإخلاص مما يتوقف علىٰ معرفة النية ، فعلىٰ كل عبد أراد طاعة الله عز وجل أن يتعلم النية ؛ لتحصل له المعرفة ، ثم يصححها بالعمل بعد فهم الصدق والإخلاص اللذين هما وسيلتا العبد إلى النجاة والخلاص .

والكلام في النية في فصول(١) :

الفصل الأول
في بيان فضلها

قال الله تعالىٰ : ﴿ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾ ، فإرادة الإصلاح سبب في حصول التوفيق ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ ، إلىٰ غير ذلك من الآيات .

وأما الأحاديث : فأشهر من أن تذكر ، وأكثر من أن تحصر .

---

(١) انظر « الإحياء » (٤/ ٣٦٢) .

منها : « الأعمال بالنيات » .

ومنها : قوله صلى الله عليه وسلم : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا . . فهو في سبيل الله »[١] .

ومنها : « من هم بحسنة فلم يعملها . . كتبت له حسنة »[٢] .

ومنها : « إن الله لا ينظر إلىٰ صوركم ، وإنما ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم »[٣] ، وإنما نظر إلى القلوب ؛ لأنها محل النية .

ومنها : « إنما يقتتل المقتتلون علىٰ نياتهم ، فإذا التقى الصفَّان . . نزلت الملائكة ، فكتبوا الخلق علىٰ نياتهم » .

ومنها : « إن الملائكة تصعد بما عمل العبد من الحسنات في صحف مختمة ، فيقول الله عز وجل : ألقوا هـٰذه الصحيفة ؛ فإنه لم يُرِد بها وجهي ، ثم يقول تعالىٰ : اكتبوا كذا وكذا ، فتقول الملائكة : إنه لم يعمل ذلك ، فيقال لهم : إنه نواهُ »[٤] .

ومنها : « إن بـالمدينة أقواماً ماشهدنا مشهداً ، ولا قطعنا وادياً ، ولا أصابتنا مخمصة ، ولا أنفقنا نفقة . . إلا شاركونا في ذلك ، حبسهم العذر ، فشاركونا بالنية »[٥] .

ومنها : « نية المؤمن . . خير من عمله »[٦] .

ومنها : « من كانت الدنيا أكبرَ همِّه . . جعل الله فقره بين عينيه ، وفارقها أرغب ما يكون فيها ، ومَن كانت الآخرة نيته . . جعل الله غناه في قلبه ، وجمع عليه ضيعته ، وفارقها أزهد ما يكون فيها »[٧] .

وفي حديث : « يحشر الناس علىٰ نياتهم »[٨] .

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٥) ، ومسلم (١٩٠٤) .
(٢) أخرجه البخاري (٦١٢٦) ، ومسلم (١٣٠) .
(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) .
(٤) أخرج الجزء الأخير منه ابن رجب الحنبلي في « جامع العلوم والحكم » (٣٥٣) .
(٥) أخرجه بنحوه البخاري (٢٦٨٤) .
(٦) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٦/ ١٨٥) .
(٧) أخرجه بنحوه الترمذي (٢٤٦٥) ، وابن حبان (٦٨٠) .
(٨) أخرجه ابن ماجه (٤٢٣٠) .

وفي رواية أخرىٰ : « يبعث كل عبد علىٰ ما مات عليه »[1] .

وأما الآثار :

فمنها : ما كتب عمر بن الخطاب إلىٰ أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما : مَن خلصت نيته . . كفاه الله ما بينه وبين الناس .

وكتب سالم بن عبد الله بن عمر إلىٰ عمر بن عبد العزيز رحمهما الله : اعلم : أن عون الله عز وجل للعبد علىٰ قدر النية ، فمَن تمت نيته . . تم عون الله له ، وإن نقصت . . نقص بقَدْره .

وقال الحسن البصري رحمه الله : إنما خلد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بالنيات .

وقال بلال بن سعد رحمه الله : عماد الأعمال النيات ، فالعمل يفتقر إلى النية ؛ ليصير بها خيراً ، والنية لا تفتقر إلى العمل ؛ لأنها في نفسها خير .

وقال داوود الطائي رحمه الله : مَن كان أكبر هَمِّه التقوىٰ ؛ فلو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا . . لردته نيته يوماً إلىٰ عمل صالح .

وقال سفيان الثوري رحمه الله : كانوا يتعلمون النية للعمل كما يتعلمون العمل .

وقال أيوب السختياني رحمه الله : تَخَلُّص النيات على العمال . . أشد عليهم من جميع الأعمال .

وقال بعض العلماء : اطلب النية للعمل قبل العمل ، وما دمت تنوي الخير . . فأنت بخير .

وقال بعض السلف رضوان الله عليهم : رُبَّ عمل صغير تعظمه النية ، ورب عمل كبير تصغره النية .

وكان الفضيل رحمه الله إذا قرأ قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ . . يبكي ، ويرددها ، ويقول : إنك إن بلوتنا . . فضحتنا وهتكت أستارنا .

* * *

(١) أخرجه مسلم (٢٨٧٨) .

الفصل الثاني

في بيان حقيقة النية

اعلم : أن النية والإرادة والقصد متواردة علىٰ معنىٰ واحد ، وهو حالة وَصِفَةٌ للقلب ، يكتنفها أمران : علم ، وعمل ، العلم يقدمه ؛ لأنه أصله وشرطه ، والعمل يتبعه ؛ لأنه ثمرته وفرعه ، وذلك لأن كل عمل ـ أعني : كل حركة وسكون ـ اختياري ؛ فإنه لا يتم إلا بثلاثة أمور : علم ، وإرادة ، وقدرة ؛ فإن الإنسان لا يريد ما لم يعلمه ؛ إذ قد علم أنه حيث لا شعور . . لا طلب ، فلا بد وأن يعلم ، ولا يعمل ما لم يرد ، فلا بد من إرادة .

ومعنى الإرادة : انبعاث القلب إلىٰ ما يراه موافقاً للغرض ، إما في الحال ، أو في المآل .

وإذا جزمت المعرفة بأن الشيء موافق ، ولا بد من فعله ، وسلمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه . . انبعثت الإرادة ، وتحقق الميل ، فإذا انبعثت . . انتهضت القدرة لتحريك الأعضاء ، فالقدرة خادمة الإرادة ، والإرادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة .

فالنية عبارة عن الصفة المتوسطة ، وهي الإرادة ، وانبعاث النفس لحكم الرغبة هو الغرض المطلوب ، وهو الباعث ، والغرض الباعث هو المقصد المنْوِيُّ ، والانبعاث هو القصد والنية .

وانتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل ، لـٰكن انتهاض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد ، وقد يكون بباعثين اجتمعا في فعل واحد ، فإذا كان بباعثين . . فقد يكون كل واحد مستقلاً بإنهاض القدرة ، وقد يكون جزءاً للإنهاض ، وقد يكون أحدهما كافياً لولا الآخر ؛ لـٰكن الغرض الآخر انتهض عاضداً له ومعاوناً ، فيخرج من هـٰذا التقسيم أربعة أقسام ، فلنذكر لكل واحد مثالاً وَٱسْماً :

الأول : إذا كان الباعث وحده مستقلاً ؛ كما إذا هجم على الإنسان سبع فبمجرد ما رآه . . قام من موضعه ؛ فلا مزعج له إلا غرض الهرب من السبع ؛ لأنه لما رآه وعرفه ضارياً . . انبعثت نفسه إلى الهرب ورُكِّبت فيه القدرة ، فانتهضت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث ، فيقال : طالب الفرار من الأسد لم يقصد إلا ذلك ، وهـٰذه النية تسمىٰ خالصة ، ويسمى

العمل بموجبها إخلاصاً ، بالإضافة إلى الغرض الباعث ، ومعناه : أنه قد خلص عن مشاركة باعث آخر وممازجته .

الثاني : إذا اجتمع باعثان كل واحد مستقل بالإنهاض لو انفرد ، وهو أن يتعاون رجلان علىٰ حمل شيء بمقدار من القوة ، تلك القوة كافية في الحمل وموجودة في كل منهما ، لو انفرد . . لاستقل بالحمل ؛ لوجود تلك القوة فيه .

مثاله في غرضنا : من له قريب فقير ، فدفع إليه شيئاً لقرابته وفقره ، وهو يعلم أنه لو لم يكن فقيراً . . لكان يدفع إليه لمجرد القرابة ، ولو لم يكن قريباً . . لكان يدفع إليه لمجرد الفقر ، وعلم ذلك من نفسه بأن يحضره قريب غني فيدفع إليه ، وفقير أجنبي فيدفع إليه .

وهـٰكذا مَن قال له الطبيب : اترك الطعام ، فصام يوم عرفة ، فهو يعلم أنه لولا يوم عرفة . . لكان تاركاً للطعام حمية ، ولولا الحمية . . لكان تاركاً لأجل الصوم .

وقد اجتمعا جميعاً ، فأقدم على الفعل ، فكان الباعث الثاني رفيق الأول ، فلنسم هـٰذا : **مرافقة البواعث** .

الثالث : أن يكون كل منهما جزءاً فمجموعهما هو الباعث علىٰ إنهاض القدرة .

مثاله : أن يتعاون ضعيفان علىٰ حمل ما لا ينفرد به أحدهما .

ومثاله من غرضنا : أن يقصده قريبه الغني فلا يعطيه ، ويقصده الأجنبي الفقير فلا يعطيه ، ثم يقصده القريب الفقير فيعطيه ، فيكون انبعاث داعيته لمجموع الأمرين ، وهما القرابة والفقر .

وكذلك لو تصدق بين يدي الناس لغرض الثواب والثناء ، ويكون بحيث لو كان منفرداً . . لكان لا يبعث مجرد قصد الثواب على العطاء ، ولَمَّا اجتمعا . . أذنا بمجموعهما بتحريك القلب ، ولْنُسَمِّ هـٰذا الجنس : **مشاركة** .

الرابع : أن يكون أحد الباعثين مستقلاً لو انفرد بنفسه ، والآخر لا يستقل ، ولـٰكن لَمَّا انضاف إليه . . لم ينفك عن تأثيرٍ ما من الإعانة والتسهيل .

ومثاله : أن يتعاون قوي وضعيف علىٰ حمل شيء ، ولو انفرد القوي . . لاستقل ، ولو انفرد الضعيف . . لم يستقل ، لـٰكن ذلك يسهل العمل ويؤثر في تحقيقه .

ومثاله في غرضنا : أن يكون له ورد من الصلاة ، وعادة في الصدقات ، فاتفق أن حضر

في وقتها جمع من الناس ، فصار الفعل أخف عليه بسبب مشاهدتهم ، وعلم من نفسه أنه لو كان منفرداً خالياً . . لَمَا تأخر عن أوراده وعادته .

وعلم أيضاً : أن عمله لو لم يكن طاعة . . لَمَا أتىٰ به لمجرد الرياء ، فهٰذا شوب تطرق إلى النية ، ولْنُسَمِّ هٰذا الجنس : **المعاونة** .

فالباعث الثاني إما أن يكون رفيقاً ، أو شريكاً ، أو معيناً ، وقد ذكرنا حكم ذلك في الإخلاص ، والغرض الآن بيان انقسام النيات .

فإن العمل تابع للباعث ، فلننسب الحكم إليه ، فلذلك قال صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات » لأنها تابعة لا حكم لها في نفسها ، وإنما الحكم للمتبوع .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم : « نية المؤمن . . خير من عمله » . . فيحتمل وجوهاً :

أحدها : أن يقال : إن النية سر لا يطلع عليه إلا الله تعالىٰ ، والعمل ظاهر ، وفعل السر أفضل ، وهٰذا صحيح ، وليس هو المراد ؛ لأنه لو نوىٰ أن يذكر الله عز وجل بقلبه ويتفكر في مصالح المسلمين ، فيقتضي عموم الحديث أن تكون نيته للتفكر ، خيراً من التفكر ، وليس كذلك .

وثانيها : أن يقال : إن النية تدوم إلىٰ آخر العمل ، والأعمال لا تدوم ، وهٰذا ضعيف ؛ فإن ذلك ـ بعد تسليم صحته ـ يرجع معناه إلىٰ أن العمل الكثير خير من القليل ، وليس هو كذلك على الإطلاق ، فإن نية أعمال الصلاة قد لا تدوم إلا في لحظات معدودة ، والأعمال تدوم ، والعموم يقتضي أن تكون نيته خيراً من عمله .

وثالثها : أن يقال : إن النية بمجردها خير من العمل بمجرده بغير نية ، وهٰذا صحيح ، ولٰكن لا يجوز أن يكون هو المراد ؛ فإن العمل بلا نية على الغفلة لا خير فيه أصلاً ، والنية بمجردها خير ، وظاهر الترجيح يقتضي وجود الاشتراك في أصل الخير .

ورابعها : ما قاله سيدي الحسن البصري رحمه الله : إنما خُلِّد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بالنيات .

وبيان ذلك : أن نية المؤمن ما دام في الحياة . . لا يترك إيمانه ولا الأعمال الصالحة ، فإذا جاء الموت . . قطع عليه تلك الأعمال ، فجازاه الله عزَّ وجلَّ بتلك النية ، وأوجب له الخلود في الجنة ، وكذلك الكافر نيته ما دام حياً . . لا يرجع عن كفره ، فإذا مات . . قطع الموت عليه نيته ، فجوزي بالخلود في النار علىٰ تلك النية .

وخامسها ـ وهو الذي يقتضي كلام حجة الإسلام أبي حامد الغزالي قدس الله روحه ـ : ترجيحه ، وهو : أن نية الطاعة في نفسها خير ، وإن لم يقترن بها عمل الجوارح .

وأما الطاعات التي لا تتم إلا بنية وعمل . . فالخير مشترك بينهما ، وهو في جانب النية أرجح ؛ لأنه يتوقف صحةُ العمل أو كمالُه علىٰ وجودها فيه ، فهما عملان ، كل واحد منهما له أثر في المقصود ، ولـٰكن أثر النية أكثر من أثر العمل ، فهي خير من العمل بهـٰذا الاعتبار .

وأما سبب كونه خيراً ومرجحاً على العمل . . فلا يفهمه إلا من فهم مقصد الدِّين وطريقه ، فمَن قال : الخبز خير من الفالوذج . . فإنما يعني به : أنه خير بالإضافة إلىٰ مقصود القوت والاغتذاء ، ولا يفهم ذلك إلا من فهم أن للغذاء مقصداً ، وهو الصحة والبقاء ، وأن الأغذية مختلفة الآثار فيها ، وفهم أثر كل واحد منهما وقاس بعضها بالبعض ، فالطاعات غذاء القلوب ، والمقصود بقاؤها وشفاؤها وسلامتها في الآخرة ، وسعادتها وتنعمها بلقاء الله .

فالمقصد لذة السعادة بلقاء الله عز وجل فقط ، ولن يتنعم بلقاء الله إلا من مات محباً لله عارفاً بالله ، ولن يحبه إلا من عرفه ، ولن يأنس به إلا من طال فكره له .

والأنس[1] يحصل بدوام الذِّكر ، والمعرفة بدوام الفكر ، والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة ، ولن يتفرغ القلب لدوام الذِّكر والفكر إلا إذا فرغ من شواغل الدنيا ، ولن يتفرغ من شواغلها إلا إذا قطع عنها شهواتها ، حتىٰ تصير مائلة إلى الخير مريدة له ، نافرة عن الشر مبغضة له ، وإنما يميل إلى الخيرات والطاعات إذا علم أن سعادته منوطة بها ، وإذا حصل الميل بالمعرفة . . فإنما يقوىٰ بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليها .

ولن يتأكد ذلك إلا بالمواظبة علىٰ أعمال الطاعات وترك المعاصي بالجوارح ؛ لأن بين الجوارح وبين القلب علاقة أَنه يتأثر كل واحد منهما بالآخر ، فترى العضو إذا أصابته جراحة . . تألم بها القلب ، وترى القلب إذا تألم بعلمه بموت عزيز أو بهجوم أمر مخوف . . تأثرت به الأعضاء ، وارتعدت الفرائص ، وتغير اللون ؛ لأن القلب هو الأصل المتبوع ، وكأنه الأمير والراعي ، والجوارح كالخدم والرعايا والأتباع ، فالجوارح خادمة للقلب بتأكيد صفاتها فيه ، فالقلب هو المقصود ، والأعضاء آلات موصلة إلى المقصود ، ولذلك قال

---

(١) في نسخة : (والأمن) .

صلى الله عليه وسلم : « ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت . . صلح الجسد كله ، وإذا فسدت . . فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » .

وقال الله تعالىٰ : ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ .

وهو صفة القلب ، فمِن هـٰذا الوجه يجب لا محالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح .

ثم يجب أن تكون النية من جملتها أفضل ؛ لأنها عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادتِهِ له ، والغرض من الأعمال بالجوارح أن يتعود القلب إرادة الخير ، ويتأكد فيه الميل إلىٰ ذلك ؛ ليتفرغ من شهوات الدنيا ويُكِبَّ على الذِّكر والفكر ، فبالضرورة يكون خيراً بالإضافة إلى الغرض المطلوب .

فهـٰكذا ينبغي أن يُفهم تأثير الطاعات كلها ؛ إذ المطلوب منها تغيير القلوب وتبديل صفاتها فقط دون الجوارح ، فلا يُظَن أن في وضع الجبهة على الأرض غرضاً من حيث إنه جمع بين الجبهة والأرض ، بل من حيث إنه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع في القلب ؛ فإن مَن وجد في نفسه تواضعاً فاستعان بأعضائه وصورها بصورة التواضع . . تأكد التواضع في قلبه ، ومَن وجد في قلبه رقة علىٰ يتيم : فإذا مسح رأسه وقَبَّله . . تأكدت الرقة في قلبه ، ولهـٰذا لم يكن العمل بغير نية مفيداً أصلاً ؛ لأن مَن يمسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه ، أو ظان أنه يمسح ثوباً . . لم ينتشر من أعضائه أثر إلىٰ قلبه حتىٰ تتأكد الرقة فيه ، وكذلك من يسجد غافلاً وهو مشغول الهَمِّ بأغراض الدنيا . . لم ينتشر من جبهته ووضعها على الأرض أثر إلى القلب ليتأكد تواضعه ، فكان وجوده وعدمه سواء من حيث إنه لم يحصل له الغرض المطلوب ، وما ساوىٰ وجوده عدمه بالإضافة إلى الغرض المطلوب منه يسمىٰ باطلاً ، فيقال : العبادة بغير نية باطلة ، هـٰذا إذا فعل عن غفلة ، فإن قصد بهِ رياء أو تعظيم شخص . . لم يكن وجوده كعدمه ، بل زاده شراً ؛ لأنه ما كفىٰ أنه لم يأت بالغرض المطلوب حتىٰ أتىٰ بما يفسد العمل أو يكدره ، وليس المقصود من إراقة دم القربان الدم واللحم ، إنما المقصود ميل القلب عن حب الدنيا وبذلها إيثاراً لوجه الله تعالىٰ ، وهـٰذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهِمَّة ، ولو عاق عن العمل عائق . . فـ ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ .

* * *

الفصل الثالث
في الأعمال المتعلقة بالنية

اعلم : أن الأعمال وإن انقسمت أقساماً كثيرة . . فهي ثلاثة أقسام : طاعات ، ومعاصي ، ومباحات .

القسم الأول : المعاصي : وهي لا تتغير عن موضوعاتها بالنية ، فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات » ، فيظن أن المعصية تنقلب طاعة بقصد الخير ، فهـٰذا غير صحيح ، بل قصدُ الخير بالشر علىٰ خلاف مقتضى الشرع . . شر آخر ، والخيرات إنما عرفت بالشرع ، فكيف يمكن أن يكون الشر خيراً ؟! ثم إنه إن قصد ذلك وهو عارف به . . فهو معاند ، نسأل الله العافية ، وإن جهله . . فهو عاص بجهله ؛ إذ طلب العلم فريضة علىٰ كل مسلم .

وقد قال سهل التستري رحمه الله : ما عصي الله عز وجل بمعصية أعظم من الجهل ، فقيل له : يا أبا محمد ؛ هل تعرف شيئاً أشد من الجهل ؟ قال : نعم ؛ الجهل بالجهل .

وهو كما قال ؛ لأن هـٰذا يسد باب التعلم بالكلية ، ولذلك قالوا : أفضل ما أطيع الله عز وجل به . . العلم ، ورأس العلم : العلم بالعلم ، كما أن رأس الجهل : الجهل بالجهل ، فإذاً : قوله صلى الله عليه وسلم : « الأعمال بالنيات » يختص من الأقسام الثلاثة بالطاعات والمباحات دون المعاصي[١] .

فإن الطاعة تنقلب معصية بالقصد ، والمباح ينقلب طاعة ومعصية بالقصد ، فأما المعصية : فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلاً .

---

(١) جاء في « أسرع الوسائل » : (أقول ـ أي الحبيب العلامة طاهر بن محمد بن هاشم ـ والله أعلم : إن النية تتعلق بما طلب الشارع فعله أو تركه من الأفعال والإرادات الاختيارية ، وسيأتي : أن النية لا تدخل تحت الاختيار ، فالذي طلبه الشارع في المعصية هو الترك ، فمَن دعته امرأة ذات حسن وجمال فتركها خشية لله عز وجل . . كان له من الثواب الجزيل ما وعد الله تعالىٰ علىٰ لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الترك هنا أمر اختياري متوفر حظ النفس فيه بخلاف ترك أكل نحو العذرة ، مما لا حظ للنفس فيه بحال لا تكاد تتحصل له في تركه نية ، والأمور التي أباحها الشرع سوّىٰ فيها بين الإقدام والإحجام ، فمَن كان الباعث له على الإقدام عليها أو الإحجام عنها أمر طلبه الشارع . . أثيب عليه بحسب نيته ، ومتىٰ كان الإقدام أو الإحجام بمقتضى الطبع . . فلا له ولا عليه) انتهىٰ .

نعم ؛ للنية مدخل فيها ، وهو أنه إذا انضاف إليها قصود خبيثة . . تضاعف وزرها وعظُم وبالها ، وقد ذكرنا ذلك في باب التوبة .

القسم الثاني : **الطاعات** : وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها وفي تضاعف فضلها .

أما الأصل . . فهو أن ينوي بها عبادة الله عز وجل لا غير ، فإن نوى الرياء . . صارت معصية .

وأما تضاعف الفضل(١) . . فبكثرة النيات [الحسنة] ؛ فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة ، فيكون له بكل نية ثواب ؛ إذ كل واحد منها حسنة ، ثم تضاعف كل حسنة عشرَ أمثالها ، كما ورد في الخبر(٢) .

ومثاله : القعود في المسجد ؛ فإنه طاعة ويمكن أن ينوي فيه نيات كثيرة ، حتىٰ يصير به من فضائل أعمال المتقين ، ويبلغ به درجة المقربين .

فمنها : أن يعتقد أنه بيت الله عز وجل ، وأن داخله زائر لله تعالىٰ ، فيقصد به زيارة الله عز وجل رجاء لما وعد به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث قال : « من قعد في المسجد . . فقد زار الله تعالىٰ ، وحق على المزور أن يكرم زائره »(٣) .

ومنها : أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة ، فيدخل في معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَرَابِطُواْ ﴾ .

ومنها : الاعتكاف ؛ فإن الاعتكاف كَفٌّ ، وهو في معنى الصوم .

ومنها : أن يقصد إفادة علم ؛ فإن المسجد لا يخلو عمن يسيء صلاته ، أو يتعاطىٰ ما لا يحل له ، فيأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر ويرشده إلى الدِّين ، فيكون شريكاً معه في الخير .

ومنها : عكوف الهَمِّ على الله تعالىٰ ، ولزوم السر ، والتفكر في الآخرة ، ودفع الشواغل الصارفة عن الآخرة .

---

(١) في النسخ : (العمل) ولعل الصواب ما أثبت .

(٢) روىٰ مسلم (٢٦٨٧) عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله عز وجل : من جاء بالحسنة . . فله عشر أمثالها وأَزْيَد ، ومن جاء بالسيئة . . فجزاؤه سيئة مثلها أو أغفر ، ومن تقرب مني شبراً . . تقربت منه ذراعاً ، ومن تقرب مني ذراعاً . . تقربت منه باعاً ، ومن أتاني يمشي . . أتيته هرولةً ، ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئاً . . لقيته بمثله مغفرة » .

(٣) أخرجه بنحوه الطبراني في « الكبير » (٦/ ٢٥٣) .

ومنها : التجرد لقراءة القرآن وذِكر الله سبحانه وتعالىٰ ، وكفُّ سمعِهِ وبصره وسائر جوارحه .

ومنها : أن يستفيد أخاً في الله تعالىٰ ؛ فإن ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة .

ومنها : أن يترك الذنوب حياء من الله تعالىٰ من أن يتعاطىٰ ذلك في بيت الله عز وجل .

وقس علىٰ ذلك سائر الطاعات ، وإنما تحضر النيات في قلب العبد بقدر جده في طلب الخير ، وتشمره له ، وتفكره فيه ، فبهـٰذا تزكو الأعمال وتتضاعف الحسنات .

وأما [القسم الثالث] المباحات : فكلها تحتمل نية ، أو نيات تصير بها من محاسن القربات ، وينال بها أعلى الدرجات ، فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطي البهائم عن سهو وغفلة .

ولا ينبغي للعبد أن يستحقر الخطوات والخطرات واللحظات ، فكل ذلك يسأل عنه في القيامة لِمَ فعله ، وما الذي قصد به ؟

هـٰذا في مباح محض لا يشوبه كراهة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « حلالها حساب ، وحرامها عقاب »[1] .

وفي حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شيء حتىٰ عن كحل عينيه ، وعن فتات الطينة بأصبعيه ، وعن لمسه ثوب أخيه[2] .

وفي الخبر : « مَن تطيب لله . . جاء يوم القيامة وريحه أطيب من ريح المسك ، ومَن تطيب لغير الله . . جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة »[3] ، ومَن أوتي شيئاً من مباح الدنيا . . لم يعذَّبْ عليه في الآخرة ، ولـٰكن ينقص من نعيم الآخرة بقَدْره ، وكفىٰ بهـٰذا خسراناً أن يتعجل ما يفنىٰ ويخسر ما يبقىٰ ، فينوي بالطِّيب مثلاً اتباع سُنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتعظيم المسجد واحترامه ، بأن يرىٰ أنه لا يدخله إلا طيب الرائحة ، ويقصد

---

(١) أخرجه بنحوه الديلمي (٣/ ٥٨٥) .

(٢) ورد في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا معاذ ؛ إن المؤمن يسئل يوم القيامة عن جميع سعيه ، حتىٰ عن كحل عينيه ، وعن فتات الطينة بأصبعيه . . . » . انظر تفسير « ابن كثير » (٢/ ٥٦٠) .

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٤/ ٣١٩) .

دفع الروائح الكريهة عن نفسه وعمن يخالطه أو يجاوره ، ويقصد حسم باب الغِيبة عنه ؛ فإنه إذا كانت له رائحة كريهة . . اغتابوه ، فيعصون الله تعالىٰ بسببه ، فيكون قد تعرض للغيبة وهو قادر على التحرز منها ، فهو شريك في تلك المعصية ، كما قيل :

إذا ترحَّلتَ عن قوم وقد قدروا   ألاَّ تفارقهمْ فالراحلون هُمُ

وأن يقصد معالجة دماغه لتزيد فطنته ، فيسهل عليه درك مهمات الدِّين بالفكر ؛ فقد قال الشافعي رحمه الله : مَن طاب ريحه . . زاد عقله .

فهٰذا وأمثاله من النيات لا يعجز الفقيه عنها إذا كان من تجار الآخرة ، وطلب الخير غالب علىٰ قلبه ، وإذا لم يغلب علىٰ قلبه إلا نعيم الدنيا . . لم تحضره هٰذه النيات ، وإن ذُكرت . . لم ينبعث لها قلبه ، فلا يكون معه إلا حديث النفس ، وليس ذلك من النيات في شيء .

وأما المباحات . . فكثيرة لا يمكن إحصاء النيات فيها ، فقس علىٰ هٰذا .

ولذلك قال بعض السلف : إني لأستحب أن يكون لي في كل شيء نية ؛ في أكلي ، وشربي ، ونومي ، ودخولي الخلاء ، وجِماعي .

وما أحسن ما حكي عن الإمام يحيى بن يحيى النيسابوري أحد شيوخ مسلم رحمهما الله تعالىٰ : أنه شرب دواء لضعف ، فلم يجبه ، فقالت له امرأته : لو ترددت في الدار خطوات عسىٰ أن يحرك الدواء ؟ فقال لها : لي أربعين سَنة ما أمشي إلا فيما أحتسبه ـ يعني : في قربة ـ وما أدري هٰذه الخطوات ما هي .

وفي رواية أخرىٰ : قال : هٰذه مشية لا أعرفها ، وأنا أحاسب نفسي منذ ثلاثين سَنة ، فكأنه ـ والله أعلم ـ لم تحضره في هٰذه المشية نية تتعلق بالدِّين ، فلم يجوِّز الإقدام عليها ، ويحتمل على الرواية الأولىٰ : أحتسبه ؛ أي : أتقرب به .

فما رأىٰ أن يمشي في مباح محض ، إنما أراد أن يمشي فيما هو قربة ، رحمه الله .

وإياك ثم إياك أن تستحقر شيئاً من حركاتك ، ولا تحترز من غرورها وشرورها ، ولا تعد جوابها يوم الحساب والسؤال ؛ فإن الله تعالىٰ مطلع عليك وشهيد ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ ، ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ ، ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ .

صلىٰ رجل مع سفيان الثوري رحمه الله ، فرآه مقلوب الثوب ، فعرفه ، فمد يده

ليصلحه ، ثم قبضها ولم يُصلحه ، فسأله عن ذلك ، فقال : إني لبسته لله تعالىٰ ، فلا أريد أن أسوِّيَه لغير الله عز وجل .

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله : سمعت أبا جعفر المنصور يبكي في خطبته ، قال : فأشغلني الغضب ، وحضرتني نية في أن أقوم إليه فأكلمه بما سمعت من كلامه ، وبما أعرف من فعله إذا نزل ، قال : ثم تفكرت في أني أريد أن أقوم إلىٰ خليفة فأعظه بحضرة الناس ، فيرمقوني بأبصارهم ، فيتداخلني التزين ، فيأمر بي فيقتلني ، فأقتل علىٰ غير تصحيح ، قال : فجلست وسكتُّ .

وقد قال الحسن البصري رحمه الله : إن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول : بيني وبينك الله رب العالمين ، فيقول له : والله ما أعرفك ، فيقول : بلىٰ ، أنت الذي أخذت لبنة من حائطي ، وأخذت خيطاً من ثوبي . فهٰذا وأمثاله قطَّع قلوب الخائفين .

وقد قال أحمد ابن أبي الحواري رحمه الله : رأيت أبا سليمان الداراني رحمه الله في المنام بعد موته بسَنة ، فقلت له : يا معلم الخير ؛ ما صنع بك ربك سبحانه وتعالىٰ ؟ فقال : يا أحمد ؛ دخلت من باب الصغير ، فرأيت حمل شيخ ، فأخذت منه عود خلال ، ما أدري تخللت به ، أم رميته ؟ فأنا في حسابه منذ سنة .

فانظر لنفسك الآن إن كنت من أولي الحزم والنُّهىٰ ، ودقق الحساب علىٰ نفسك قبل أن يدقَّقَ عليك ، وراقب جميع أحوالك من أفعالك وأقوالك وخطراتك وخطواتك ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ .

وقد روي أن بعض السلف كان أجيراً لقوم في عمل حائط ، فقدَّموا له رغيفاً ، وكان لا يأكل إلا من كسب يده ، فدخل عليه قوم ، فلم يدعُهُم ، فتعجبوا لما علموا من سخائه وزهده ، فقال لهم : إني أَجير لقوم ، وقدموا إلي رغيفاً أتقوىٰ به على العمل ، فلو أكلتم معي . . فلم يكفني ولم يكفكم ، وضعفت عن عملهم .

فالبصير هٰكذا ينظر إلى البواطن بنور الله تعالىٰ ، وذلك لأن ضعفه عن العمل نقص في فرض ، وترك الدعوة إلى الطعام نقص في فضل ، ولا حكم للفضائل مع الفرائض .

ولأجل ما ذكرناه كان السلف يمتنعون عن فعل كثير من القربات .

فمن ذلك : ما حكاه عيسى بن حازم ، عن سفيان الثوري رحمه الله قال : خرج إبراهيم بن أدهم وإبراهيم بن طهمان وسفيان الثوري رحمهم الله إلى الطائف ، ومعهم سفرة

فيها طعام ، فلما وضعوها ليأكلوا . . وإذا أعراب قريب منهم ، فناداهم إبراهيم بن طهمان : يا إخوتاه ؛ هلموا ، فقال لهم سفيان : يا إخوتاه ؛ مكانكم ، ثم قال سفيان لإبراهيم : خذ من هٰذا الطعام ما طابت به أنفسنا ، فاذهب به إليهم ، فإن شبعوا . . فالله أشبعهم ، وإن لم يشبعوا . . فهم أعراب ، أخاف أن يجيئوا فيأكلوا طعامنا ، فتتغير نياتنا ويذهب أجرنا .

وقال بعضهم : دخلت علىٰ سفيان الثوري وهو يأكل ، فما كلمني حتىٰ لعق أصابعه ، ثم قال : لولا أني أخذته بالدَّين . . لأحببت أن تأكل منه .

وكان يقول : مَن دعا رجلاً إلىٰ طعامه وليس له رغبة في أن يأكل . . فإن أجابه . . فعليه وزران ، وإن لم يأكل . . فعليه وزر واحد ، أراد بأحد الوزرين : النفاق ، والوزر الثاني : تعريضه أخاه لما يكرهه لو علمه .

فهٰكذا ينبغي أن يتفقد العبد نيته في سائر الأعمال ، فلا يقدم ولا يحجم إلا بنية ، فإن لم تحضره النية . . توقف ؛ فإن النية لا تدخل تحت الاختيار ، وسنذكر إن شاء الله تعالىٰ معنىٰ ذلك .

* * *

الفصل الرابع
في بيان أن النية لا تدخل تحت الاختيار

قال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : أعلم : أن الجاهل يسمع ما ذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكثيرها مع قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات » ، فيقول في نفسه عند تدريسه أو تجارته أو أكله : نويت أن أدرس لله تعالىٰ ، أو أتجر ، أو آكل ، ويظن أن ذلك نية ، وهيهات! فذلك حديث نفس ، أو حديث لسان ، أو فكر ، أو انتقال من خاطر إلىٰ خاطر ، والنية بمعزل عن جميع ذلك ، وإنما النية انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلىٰ ما ظهر لها أن فيه غرضاً ، إما عاجلاً أو آجلاً ، والمَيل إذا لم يكن . . لم يمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الإرادة ، بل ذلك كقول الشبعان : نويت أن أشتهي الطعام أو أميل إليه ، وذلك مُحال ؛ فإنه لا طريق إلى اكتساب صرف القلب إلى الشيء وميله إليه وتوجهه نحوه إلا باكتساب أسبابه ، وذلك مما قد يقدر عليه ، وقد لا يقدر عليه ، وإنما تنبعث النفس إلى الفعل إجابة للغرض من الباعث الموافق للنفس الملائم لها .

وما لم يعتقد الإنسان أن غرضه منوط بفعل من الأفعال . . فلا يتوجه نحوه قصده ، وذلك

مما لا يقدر على اعتقاده في كل حين ، وإذا اعتقد . . فإنما يتوجه القلب بحيث لا مانع بأن يكون فارغاً غير مصروف عنه لغرض شاغل أقوىٰ منه ، وذلك لا يمكن في كل وقت ، والدواعي والصوارف لها أسباب كثيرة ، وتختلف بالأشخاص والأحوال والأعمال .

مثاله : غلبت شهوة النكاح علىٰ شخص ، ولم يعتقد غرضاً صحيحاً في الولد ، فهـٰذا لا يمكنه أن يواقع علىٰ نية الولد ، بل علىٰ نية قضاء الشهوة ؛ إذ النية إجابة الباعث ، ولا باعث إلا الشهوة ، فكيف ينوي الولد ؟! فإنه إذا لم يغلب علىٰ قلبه اتباع سُنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . لم يتأتىٰ منه سوى القول باللسان والقلب ، وهو حديث محض ، وليس بنية .

نعم ؛ طريق اكتساب هـٰذه النية أن يقوي إيمانه بالشرع ، ويقوي إيمانه بعُظم ثواب مَن سعىٰ في تكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويدفع عن نفسه جميع المنفرات عن الولد من ثقل المؤونة وطول التعب وغيره ، فإذا فعل ذلك . . ربما انبعث من قلبه رغبة إلىٰ تحصيل الولد للثواب ، فتحركه تلك الرغبة ، وتحرك أعضاءه لمباشرة العقد ، فإذا انتهضت القدرة المحركة للسان بقَبول العقد طاعة لهـٰذا الباعث الغالب على القلب . . حصلت النية ، وما لم يكن كذلك . . فما يقدره في نفسه ويردده في قلبه من قصد الولد . . وسواس وهذيان .

ولهـٰذا ورد : أنه قد امتنع جماعة من السلف عن فعل بعض الطاعات ؛ إذ لم تحضرهم النية ، فكانوا يقولون : ليس تحضرنا فيه نية .

كان أحدهم إذا سئل عن عمل من أعمال البر . . يقول : إن رزقني الله تعالىٰ نية . . فعلت .

وكان طاووس لا يحدث إلا بنية ، وكان يُسأل أن يحدِّث فلا يحدث ، ولا يسأل فيحدث ابتداء من غير سؤال ، فيقال له في ذلك ، فيقول : أتحبون أن أحدث بلا نية ؟! إذا حضرت لي نية . . فعلت[١] .

وقيل لطاووس : ادع لنا ، فقال : حتىٰ أجد له نية .

وقال بعضهم : أنا في طلب نية لعيادة رجل منذ شهر ، فلم يصح لي بعد .

وقال بعض العارفين : كنت في يوم عرفة عند سهل التستري[٢] رحمه الله وهو يحرث

---

(١) تقدم مثل هـٰذا في ترجمة بشر بن الحارث رحمه الله .

(٢) في « الإحياء » : (أبي عبيد التستري) .

أرضاً ، فمر به بعض الأبدال ، فسارَّه بشيء ، فقال : لا ، فمر كالسحاب يمسح على الأرض ، فقلت لسهل : ما قال لك ؟ فقال : قال لي : هل لك في الحج ؟ فقلت : لا ، فقلت له : هلا فعلت ؟ فقال : ليس لي الآن في الحج نية ، وقد نويت أن أتمم حرث هٰذه الأرض عشية هٰذا اليوم ، فأخاف إن حججت معه لأجله . . أن أتعرض لمقت الله ؛ لأني أُدخل في عمل الله شيئاً غيره ، فمقامي علىٰ ما أنا فيه أعظم عندي من سبعين حجة . [انتهىٰ « الإحياء : » ٤/ ٣٧٣ـ٣٧٨] .

وقال **الحافظ أبو نعيم** : خرج اليمان أبو معاوية الأسود من طرسوس إلىٰ مكة يعزي الفضيل بن عياض في ابنه علي ، ولم يحج في تلك السَّنة . [انتهىٰ « الحلية » ٨/ ٢٧٢] .

وقال عيسى بن كثير : مشيت مع ميمون بن مهران ، فلما انتهىٰ إلىٰ منزله . . انصرفت ، فقال له ابنه : ألا تعرض عليه العَشاء ؟ فقال : ليس من نيتي .

فكانوا لا يرون أن يعملوا عملاً إلا بالنية ؛ لعلمهم بأن النية روح العمل ، وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف ، وهو سبب مقت لا سبب قرب ، وعلموا أيضاً : أن النية ليست هي قول القائل بلسانه(١) : نويت ، بل هي انبعاثٌ للقلب يجري مجرى الفتوح من الله عز وجل ، فقد يتيسر في بعض الأوقات ، وقد يتعذر .

نَعم ؛ مَن كان الغالب علىٰ قلبه أمر الدِّين . . تيسر عليه في أكثر الأحوال إحضار النية للخيرات ؛ فإن قلبه مائل بالجملة إلىٰ أصل الخير ، فينبعث إلى الفضائل غالباً ، ومَن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه . . لم يتيسر له ذلك ـ حتىٰ ولا في الفرائض ـ إلا بجهد جهيد .

وغايته : أن يتذكر النار ويحذر نفسه عقابها ، أو نعيم الجنة ويرغب نفسه فيها ، فربما تنبعث له داعية ضعيفة فيكون ثوابه بقدر نيته .

وأما الإتيان بالطاعة علىٰ نية إجلال الله سبحانه وتعالىٰ لاستحقاقه الطاعة وتنزيلاً للعبودية منزلتها . . فهٰذه أعز النيات وأعلاها ، ويعز من يفهمها ، فضلاً عمن يتعاطاها ، ولا تتيسر هٰذه النية لمن غلب علىٰ قلبه حب الدنيا .

ونيات الناس في الطاعات أقسام كما قلنا في الإخلاص :

منهم : مَن يكون عمله إجابة لباعث الخوف ؛ فإنه يتقي النار .

---

(١) في النسخ : (بقلبه) والمثبت من (الأحياء) ، ولعله الصواب .

ومنهم : من يعمل إجابة لباعث الرجاء ، وهو الرغبة في الدرجات في الجنة ، وهـٰذا ـ وإن كان نازلاً بالإضافة إلىٰ قصد طاعة الله تعالىٰ وتعظيمه لذاته وجلاله لا لأمر سواه ـ فهو من جملة النيات الصحيحة ؛ لأنه ميل إلى الموعود في الآخرة وإن كان من جنس المألوفات في الدنيا .

وأغلب البواعث باعث البطن والفرج وموضع قضاء وطرهما في الجنة ، فالعامل لأجل الجنة عامل لبطنه وفرجه كالأجير السوء ، ودرجته درجة البُلْه .

وأما عبادة ذوي الألباب . . فلا تجاوز ذِكر الله تعالىٰ حباً لجلاله ، وتعظيماً لهيبته ، وتنزيلاً للعبودية منزلتها .

والغرض أن هـٰذه النيات متفاوتة الدرجات ، فمَن غلب علىٰ قلبه حب واحدة منها . . ربما يتيسر له العدول إلىٰ غيرها ، ومعرفة هـٰذه الحقائق تورث أعمالاً جليلة وأفعالاً دقيقة لا يطلع عليها إلا الذين وفقهم الله سبحانه وتعالىٰ ، وخاضوا بحار العلوم ، فأما الذين لم يمارسوا حقائق العلوم ولم يجروا من الفقه إلا علىٰ رسومه . . فينكرونها ، ولم تخطر لهم علىٰ بال .

ولذلك نقول : من حضرت له نية في مباح ولم تحضر في فضيلة . . فالمباح هنا أولىٰ ، وانتقلت الفضيلة إليه ، وصارت الفضيلة في حقه نقيصة ؛ لأن الأعمال بالنيات .

مثال ذلك : العفو أفضل من الانتصار ، فربما تحضره نية في الانتصار دون العفو . . فيكون الانتصار أفضل ، ومثل أن يكون له نية في الأكل والشرب والنوم ليريح نفسه ويتقوىٰ على العبادة في المستقبل ، وليس تنبعث له نيته في الحال للصوم وصلاة التطوع . . فالأكل والنوم هو الأفضل له ، بل لو مل العبادة لمواظبته عليها وسكن نشاطه وضعفت رغبته وعلم أنه لو ترفه ساعة بلهو وحديث عاد نشاطه . . فإجمام نفسه وإعطاؤها ما فيه راحتها أفضل ، وقد جاء : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إني لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي »[1] .

وكان صلى الله عليه وسلم يتبدىٰ ؛ أي : يخرج إلى البادية صلى الله عليه وسلم[2] .

---

(١) ورد هـٰذا الحديث في « جامع العلوم والحكم » (٢٩٥) موقوفاً علىٰ سيدنا معاذ رضي الله عنه .

(٢) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٦/ ١٣١) ، وأخرجه بلفظ آخر أبو داوود (٢٤٧٨) ، وابن حبان (٥٥٠) .

وقال علي رضي الله عنه : روِّحوا القلوب ؛ فإنها إذا عَيَت . . كرهت .

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : إني لأستجم نفسي بشيء من اللهو ، فيكون ذلك عوناً على الدِّين ، أو قال : على الحق .

فهٰذه دقائق لا يدركها إلا سماسرة العلماء ؛ فإن الحاذق بالطب قد يعالج المحرور[1] باللحم مع حرارته ، ويستبعده القاصر في الطب ، وإنما قصده أن يعيد أولاً قوته ليتحمل المعالجة بالضد فيما بعد ذلك ، وكذلك الخبير بالقتال ، قد يفر بين يدي قرينه ويوليه دبره حيلة منه ؛ ليستجره إلىٰ مضيق فيكر عليه ويقهره ، وكذلك سلوك طريق الله سبحانه وتعالىٰ ، كله قتال مع الشيطان ومعالجة النفس .

فالبصير الموفق يقف فيها علىٰ لطائف الحيل ؛ ليسلم من تلك الغوائل . والله سبحانه وتعالىٰ أعلم[2] .

فإذا عرفت ذلك . . فاعلم أن النية تستلزم الصدق ، فاستدعىٰ ذلك بيان فضيلة الصدق وحقيقته ومراتبه ، وفيه فصلان[3] :

* * *

الفصل الأول
في فضيلته

قال الله تعالىٰ : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ ﴾ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الصدق يهدي إلى البر ، والبر يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتىٰ يكتب عند الله صديقاً ، وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، والفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتىٰ يكتب عند الله كذاباً »[4] .

ويكفي في فضيلة الصدق : أن الصِّدِّيق مشتق منه ، وأن الله عز وجل وصف به أنبياءه ورسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين في معرِض المدح والثناء ، فقال تعالىٰ : ﴿ وَٱذۡكُرۡ

---

(١) **المحرور** : الذي تداخلته حرارة الغيظ أو غيره .

(٢) في « الإحياء » (٤/ ٣٧٤ـ ٣٧٦) .

(٣) انظر « الإحياء » باب في الصدق وفضيلته وحقيقته (٤/ ٣٨٦) وما بعدها .

(٤) أخرجه البخاري (٥٧٤٣) .

فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ ، إلىٰ غير ذلك من الآيات .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : (أربع مَن كن فيه . . فقد ربح : الصدق ، والحياء ، وحسن الخلق ، والشكر) .

وقال بشر بن الحارث رحمه الله : مَن عامل الله تعالىٰ بالصدق . . استوحش مِن الناس .

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله : اجعل الصدق مطيتك ، والحق سيفك ، والله عز وجل غاية طلبتك .

وقال رجل لحكيم : ما رأيتُ صادقاً ، فقال له : لو كنت صادقاً . . لرأيت الصادقين .

وقال الثوري رحمه الله في قوله تعالىٰ : ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ قال : هم الذين ادعوا محبة الله عز وجل ، ولم يكونوا فيها صادقين .

وأوحى الله عز وجل إلىٰ داوود عليه الصلاة والسلام : (من صدقني في سريرته . . صدقته عند المخلوقين في علانيته) .

وقال بعضهم : أجمع العلماء علىٰ ثلاث خصال أنها إذا صحت . . ففيها النجاة ، ولا يتم بعضها إلا ببعض :

- الإسلام الخالص عن البدعة .
- والصدق لله سبحانه وتعالىٰ في الأعمال .
- وطيب المطعم .

وقيل لسهل التستري : ما أصل هـٰذا الأمر الذي نحن عليه ؟ فقال : الصدق ، والسخاء ، والشجاعة ، فقيل له : زدنا ، فقال : التقىٰ ، والحياء ، وطيب الغذاء .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أنه سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الكمال ، فقال : « قول الحق ، والعمل على الصدق » .

وعن الجنيد في قوله تعالىٰ : ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ قال : يسأل الصادقين عند أنفسهم عن صدقهم عند ربهم ، وهـٰذا أمر علىٰ خطر ، والله أعلم .

* * *

الفصل الثاني

في بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه

اعلم : أن لفظ الصدق مستعمل في ستة معان :

- صدق في القول .
- وصدق في النية والإرادة .
- وصدق في العزم .
- وصدق في الوفاء بالعزم .
- وصدق في العمل .
- وصدق في تحقيق مقامات الدِّين كلها .

فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك . . فهو صِدِّيق ؛ لأنه مبالغة في الصدق .

ثم هم أيضاً علىٰ درجات ، ومَن كان له حظ مِن الصدق في شيء . . فهو صادق بالإضافة إلىٰ ما فيه صِدقُه .

الصدق الأول : صدق اللسان :

وذلك لا يكون إلا في الإخبار ، أو ما يتضمَّن الإِخبار ، والخبر إما أن يكون ماضياً ، أو مستقبلاً ، وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه ، وحق علىٰ كل عبد أن يحفظ ألفاظه ، فلا يتكلم إلا بالصدق .

وهـٰذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها ، فمَن حفظ لسانه عن قول الأشياء علىٰ خلاف ما هي عليه . . فهو صادق ، ولكن لهـٰذا الصدق كمالان :

أحدهما : الاحتراز عن المعاريض ؛ فقد قيل : في المعاريض مندوحة عن الكذب ، وذلك لأنها تقوم مقام الكذب ؛ إذ المحذور من الكذب تفهيم الشيء علىٰ خلاف ما هو عليه في نفسه ، إلا أن ذلك مما قد تمس الحاجة إليه ، وتقتضيه المصلحة في بعض الأحوال ؛ كتأديب الصبيان والنسوان ومَن يجري مجراهم ، وفي الحذر عن الظَّلَمة ، وفي قتال الأعداء ، وفي الاحتراز عن اطلاعهم علىٰ أسرار الملك ، فمَن اضطر إلىٰ شيء من ذلك . .

فصدقُه فيه أن يكون نطقه فيه لله عز وجل مما يأمره الحق به ، ويقتضيه الدِّين ، فإذا نطق به . . فهو صادق وإن كان كلامه مفهماً غير ما هو عليه ؛ لأنَّ الصدق لم يُرَد لذاته ، بل للدلالة على الحق والدعاء إليه ، فلا ينظر إلىٰ صورته ، بل إلىٰ معناه .

نعم ؛ في مثل هـٰذا الموضع ينبغي أن يعدل إلى المعاريض ما وجد إليه سبيلاً .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً . . ورَّىٰ بغيره ؛ لئلا ينتهي الخبر إلى الأعداء فيقصد ، وهـٰذا ليس من الكذب في شيء ، فقد روي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ليس بكاذب من أصلح بين اثنين ، فقال خيراً أو نمىٰ خيراً »[1] .

ورخص في النطق علىٰ وجه المصلحة في مواضع : من أصلح بين اثنين ، ومن كان له زوجتان ، ومن كان في مصالح الحرب .

والصدق هنا يتحوَّل إلى النيّة ، فلا يراعىٰ فيه إلا صدق النية وإرادة الخير ، فمهما صح قصده وصدقت نيته وتجردت للخير إرادته . . كان صادقاً وصدِّيقاً كيف ما كان لفظه ، ثم التعريض فيه أولىٰ .

وطريقه : ما حكي عن بعضهم أنه كان يطلبه بعض الظلمة وهو في داره ، فقال لزوجته : خطي بإصبعك دائرة ، وضعي الإصبع على الدائرة ، وقولي : ليس هو هـٰهنا ، فاحترز بذلك عن الكذب ، ودفع الظالمَ عن نفسه ، وكان قوله صدقاً .

فالكمال الأول في اللفظ : أن يحترز عن صريح اللفظ ، وعن المعاريض أيضاً ، إلا عند الضرورة .

والكمال الثاني : أن يراعي معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه عز وجل ، كقوله : وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض ؛ فإن قلبه إن كان منصرفاً عن الله تعالىٰ ، مشغولاً بأماني الدنيا وشهواتها . . فهو كاذب ؛ وكقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

وقد كان بعض العارفين يتغير ويصفر عند الدخول في الصلاة ، فقيل له في ذلك ، فقال : كيف لا أكون كذلك وأنا أريد أن أستفتح الصلاة بغير صدق مني ؟! فإني أقول : (الله أكبر) ولست عاملاً علىٰ حقيقة ذلك .

---

(١) أخرجه بنحوه الترمذي (١٩٣٨) وقال : حسن صحيح .

وهـٰكذا قوله : أنا عبد الله ؛ فإنه إنْ لم يتصف بتحقيق العبودية ، وكان له مطلب سوى الله تعالىٰ . . لم يكن كلامه صدقاً ، فلو طولب يوم القيامة بالصدق في قوله أنا عبد الله عز وجل . . لعجز عن تحقيقه ؛ فإنه إن كان عبداً للدنيا أو لنفسه أو عبداً لشهواته . . لم يكن صادقاً في قوله ، وكل ما تعبد العبد به . . فهو عبد له ؛ كما قال سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، وعبد الحلة ، وعبد الخميصة »[1] ، سمىٰ كل من تقيد قلبه بشيء عبداً له .

وإنما يكون عبداً علىٰ حقيقة العبودية إذا كان قلبه فارغاً عن حب الدنيا وشهواتها ، فيشتغل بعبادة ربه عز وجل ، ولزوم طاعته ومحبته ، وليس له مراد إلا الله سبحانه وتعالىٰ .

ثم قد يتجاوز هـٰذا إلىٰ مقام أسنىٰ منه ، يسمىٰ : الحرية ، وهو أن يعتق نفسه من إراداته ، ويرضىٰ بما أراد الله عز وجل من تقريب أو إبعاد ، فتفنىٰ إرادته في إرادة الله سبحانه وتعالىٰ ، فعند ذلك يصير حراً ؛ فإنه قد صار مفقوداً لنفسه ، موجوداً لسيده ومالكه سبحانه وتعالىٰ ، إن حركه . . تحرك ، وإن سكَّنه . . سكن ، وإن ابتلاه . . رضي .

فلم يبق فيه متسع لطلب شيء ولا لالتماسه ، ولا يجد عنده اعتراضاً ، فهو بين يدي الله عز وجل كالميت بين يدي الغاسل ، وهـٰذا منتهى الصدق في العبودية .

فالعبد في الحقيقة هو الذي وجوده لمولاه عز وجل لا لنفسه ، وهـٰذه درجات الصديقين .

وأما الحرية عن غير الله سبحانه وتعالىٰ . . فتلك درجات الصادقين ، وبعده تتحقق العبودية لله سبحانه وتعالىٰ ، وما قبل هـٰذا فلا يستحق صاحبه أن يسمىٰ صادقاً ولا صِدِّيقاً ، فهـٰذا معنى الصدق في القول .

الصدق الثاني : في النية والإرادة :

ويرجع ذلك إلى الإخلاص ، وهو ألاَّ يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله سبحانه وتعالىٰ ، فإن مازجه شوب من حظوظ النفس . . بطل صدق النية .

وصاحبه يجوز أن يسمىٰ كاذباً كما قد ثبت في « الصحيح »[2] عن رسول الله صلى الله

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٢٧٢٩) ، **والحلة** : بُرْدٌ يماني ، ولا تسمىٰ حلة إلا أن تكون ثوبين من جنس واحد ، **والخميصة** : ثوب من خز أو صوف معلم .

(٢) أي : في « صحيح مسلم » (١٩٠٥) .

عليه وسلم من حديث الثلاثة حين يُسأل العالِم : (ماذا عملت فيما علمت ؟) فقال : فعلت كذا وكذا ، فيقول الله تبارك وتعالىٰ له : (كذبت ، بل أردت أن يقال فلان عالم ، وقد قيل) ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم به ؛ فإنه لم يكذبه في أنه ما فعل ؛ فإنه لم يقل له لم تعمل ، ولـٰكن كذبه في إرادته ونيته .

وأصل ذلك قوله تعالىٰ : ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ ، وقد قالوا : إنك لرسول الله ، فهم صادقون في قولهم ، وإنما كذبهم من حيث ضمير القلب لا من حيث نطق اللسان ، فالتكذيب إنما تطرق إلىٰ ما في ضمائرهم وما أسرَّته قلوبهم ، فأحد معاني الصدق راجع إلىٰ خلوص النية وهو الإخلاص ، فكل صادق فلا بد أن يكون مخلصاً .

الصدق الثالث : **[صدق] العزم** : فإن الإنسان قد يقدم العزم على العمل ، فيقول في نفسه : إن رزقني الله تعالىٰ مالاً . . تصدقت بجميعه أو بشطره ، وإن لقيت عدواً في سبيل الله تعالىٰ . . قاتلت ولم أُبالِ وإن قتلت ، وإن أعطاني الله تعالىٰ ولاية . . عدلت فيها ولم أعص الله تعالىٰ بظلم ومَيل ، فهـٰذه العزيمة قد توجد وهو جازم بها ، وهي عزيمة صادقة ، وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق في العزم ، فكان الصدق هـٰهنا عبارة عن التمام والقوة ، كما يقال : لفلان شهوة صادقة ، ويقال : لهـٰذا المريض شهوة كاذبة ، مهما لم تكن شهوته عن سبب ثابت ، فقد يطلق الصدق ويراد به هـٰذا المعنىٰ .

فالصادق والصدِّيق هو الذي تُصادف عزيمته في الخيرات كلها قوية تامة ، ليس فيها ميل ، ولا ضعف ، ولا تردد ، بل تسخو نفسه بالعزم المصمم الجازم على الخيرات ، وهو كما قال عمر رضي الله عنه : لأَن أُقدَّم فتضرب عنقي . . أحب إلي من أن أتأمر علىٰ قوم فيهم أبو بكر رضي الله عنه ، اللهم إلا أن تُسوِّل لي نفسي عند القتل شيئاً لا أجده الآن ؛ لأني لا آمن أن يثقل عليها ذلك ، فيتغيَّر عن عزمها ؛ فإنه قد وجد من نفسه العزم الجازم والمحبة الصادقة بأنه لا يتأمر مع وجود أبي بكر رضي الله عنه ، وأيد ذلك بما ذكره من القتل .

ومراتب الصديقين في العزائم تختلف ، فقد يصادف العزم ولا ينتهي به إلىٰ أن يرضىٰ بالقتل فيه ، ولـٰكن إذا خُلي ورأيه . . لم يقدم ، ولو ذكر له حديث القتل . . لانتقض عزمُه .

وقد قال بعضهم : الصدق صحة التوجه في القصد .

الصدق الرابع : **في الوفاء بالعزم** : فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال ؛ إذ لا مشقة في الوعد والعزم ، والمؤونة فيه خفيفة ، فإذا حقت الحقائق وحصل التمكن وهاجت

الشهوات . . انحلت العزيمة ، وغلبت الشهوة ، ولم يتفق الوفاء بالعزم ، وهـٰذا يضاد الصدق فيه .

ولذلك قال تعالىٰ : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ ﴾ .

فقد روىٰ أنس : أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدراً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشق ذلك عليه ، وقال : أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه ، أمَا والله ؛ لئن أراني الله تعالىٰ مشهداً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ليرى الله ما أصنع ، فشهد أُحُداً من العام القابل ، فاستقبله سعد بن معاذ ، فقال : يا أبا عمرو ؛ إلىٰ أين ؟ فقال : واهاً[1] لريح الجنة! إني أجده دون أُحد ، فقاتل حتىٰ قتل ، فوُجد في جسده بضع وثمانون من بين رمية وضربة وطعنة ، فقالت أخته بنت النضر : ما عرفت أخي إلا ببنانه ، ونزلت هـٰذه الآية : ﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ ﴾[2] .

ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ مصعب بن عمير وقد سقط علىٰ وجهه يوم أحد شهيداً ، وكان صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ »[3] .

وعن فضالة بن عبيد : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الشهداء أربعة : رجل مؤمن جيد الإيمان ، لقي العدو ، فصَدَق الله تعالىٰ حتىٰ قتل ، فذلك الذي يرفع الناس إليه أعينهم يوم القيامة هـٰكذا ـ ورفع رأسه حتىٰ وقعت قلنسوته ، قال الراوي : فلا أدري قلنسوة عمر أو قلنسوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ورجل [مؤمن] جيد الإيمان إذا لقي العدو . . فكأنما يضرب وجهه بشوك الطلح [من الجبن] أتاه سهم عائر[4] فقتله ، فهو في الدرجة الثانية ، ورجل مؤمن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً لقي العدو فصدق الله تعالىٰ حتىٰ قتل ، فذلك في الدرجة الثالثة [ورجل مؤمن أسرف علىٰ نفسه ، لقي العدو ، فصدق الله حتىٰ قتل فذاك في الدرجة الرابعة] »[5] .

---

(١) **واهاً** : قال العلماء : هي كلمة تحنن وتلهف .

(٢) أخرجه بنحوه البخاري (٢٦٥١) ، ومسلم (١٩٠٣) بلفظه .

(٣) أخرجه الحاكم (٢/ ٢٧١) .

(٤) **السهم العائر** : الذي لا يعرف راميه .

(٥) أخرجه الترمذي (١٦٤٤) .

وقال تعالىٰ : ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ قالوا : إنما هو شيء نَوَوْه في أنفسهم لم يتكلموا به ، فجعل العزم عهداً ، وجعل الخلف فيه كذباً ، والوفاء به صدقاً ، وهـٰذا الصدق أشد من الصدق الثالث ؛ فإن النفس قد تسخو بالعزم ، ثم عند تحقيق الحقائق لا تفي كما قلنا ، ولذلك استثنىٰ عمر رضي الله عنه فقال : (اللهم إلا أن تسول لي نفسي عند القتل شيئاً لا أجده الآن) .

وقال أبو سعيد الخراز رحمه الله : رأيت في المنام كأن ملكين نزلا من السماء فقالا لي : ما الصدق ؟ قلت : الوفاء بالعهد ، فقالا لي : صدقت ، وعرجا إلى السماء .

الصدق الخامس : في الأعمال : وهو أن يجتهد أن تكون أعماله ظاهراً وباطناً سواء ، وذلك بأن يستجر الباطن إلىٰ تصديق الظاهر ؛ فإن الرجل قد يمشي علىٰ هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفاً بذلك الوقار ، فهـٰذا غير صادق في عمله وإن لم يكن ملتفتاً إلى الخلق ، ولا ينجو من هـٰذا إلا باستواء السريرة والعلانية ، بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيراً من ظاهره .

والحاصل : أن مخالفة الظاهر للباطن إن كان عن قصد . . سمي رياء ويفوت به الإخلاص ، وإن كان عن غير قصد . . فيفوت به الصدق .

وقد ورد : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في دعائه : « اللهم ؛ اجعل سريرتي خيراً من علانيتي ، واجعل علانيتي صالحة » .

وقال زيد بن الحارث : إذا استوت سريرة العبد وعلانيته . . فذلك النصف ، وإن كانت سريرته أفضل من علانيته . . فذلك الفضل ، وإن كانت علانيته أفضل من سريرته . . فذلك الجور .

وأنشدوا :

إذا السرُّ والإعلان في المؤمن استوىٰ	فقد عز في الدارين واستوجب الثنا
فإن خالف الإعلانُ سِراً فما له	علىٰ سعيه فضلٌ سوى الكد والعنا
كما خالصُ الدينار في السوق نافقٌ	ومغشوشُه المردود لا يقتضي المُنىٰ

وقال عطية بن عبد الغفار : إذا وافقت سريرة المؤمن علانيته . . باهى الله سبحانه وتعالىٰ به ملائكته ، يقول : هـٰذا عبدي حقاً .

وقال معاوية بن قرة : من يدلني علىٰ بكَّاء بالليل بسَّام بالنهار .

وقال عبد الواحد : كان الحسن إذا أَمَرَ بشيء . . كان من أعمَل الناس به ، وإذا نهىٰ عن شيء . . كان من أترَكَ الناس له ، ولم أر أحداً قط أشبه سريرة بعلانية منه .

وكان أبو عبد الرحمـٰن الزاهد يقول : إلـٰهي ؛ عاملت الناس فيما بيني وبينهم بالأمانة ، وعاملت نفسي فيما بيني وبينك بالخيانة ، ويبكي .

وقال أبو يعقوب النهرجوري : الصدق : موافقة الحق في السر والعلاينة ، فإذاً مساواة السريرة والعلانية أحد أنواع الصدق .

الصدق السادس : وهو أعلى الدرجات وأعزها : الصدق في مقامات الدين ، كالصدق في الخوف ، والرجاء ، والتعظيم ، والزهد ، والرضا ، والحب ، والتوكل ، وسائر هـٰذه الأمور ؛ فإن هـٰذه الأمور لها مبادىء ينطلق الاسم بظهورها ، ثم لها علامات وحقائق .

فالصادق المحب : مَن نال حقيقتها ، وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته . . سمي صاحبه صادقاً فيه كما يقال : فلان صَدَق القتال ، ويقال : هـٰذا على الخوف الصادق ، وهـٰذه هي الشهوة الصادقة .

وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ .

وسئل أبو ذر رضي الله عنه عن الإيمان ، فقرأ هـٰذه الآية ، فقيل له : سألناك عن الإيمان ، فقال : (سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان ، فقرأ هـٰذه الآية) .

فما من عبد يؤمن بالله . . إلا وهو خائف من الله عز وجل خوفاً ينطلق عليه الاسم ، ولـٰكنه ليس خوفاً صادقاً ؛ أي : غير بالغ درجة الحقيقة .

أما تراه إذا خاف سلطاناً أو قاطع طريق في سفره . . كيف يصفر لونه ، وترتعد فرائصه ،

ويتنغص عليه عيشه ، ويتعذر عليه أكله ونومه ، وينقسم عليه فِكره ، حتىٰ لا ينتفع به أهله وولده ، وقد ينزعج عن الوطن ، فيستبدل بالأنس الوحشة ، وبالراحة التعب والمشقة والتعرض للأخطار ، كل ذلك خوفاً من درك المحذور ، ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند جريان المعصية عليه .

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « لم أر مثل النار نام هاربها ، ولا مثل الجنة نام طالبها »[١] .

والتحقيق في هٰذه الأمور عزيز جداً ، ولا غاية لهٰذه المقامات حتىٰ ينال تمامها ، ولٰكن لكل عبد منه حظ بحسب حاله ، إما ضعيف وإما قوي ، فإذا قوي . . سمي صادقاً فيه ؛ فإن معرفة الله عز وجل وتعظيمه والخوف منه لا نهاية لها .

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام : « أحب أن أراك في صورتك التي هي صورتك » ، فقال : لا تطيق ذلك ، فقال : « بلىٰ أرني » ، فواعده البقيع في ليلة مقمرة ، فأتاه ، فنظر النبي صلى الله عليه وسلم إليه ؛ فإذا هو قد سد الأفق ـ يعني : جوانب السماء ـ فوقع النبي صلى الله عليه وسلم مغشياً عليه ، فأفاق صلى الله عليه وسلم وقد عاد جبريل إلىٰ صورته الأولىٰ ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ما ظننت أن أحداً من خلق الله تعالىٰ هٰكذا » ، فقال : كيف لو رأيت إسرافيل ؟! إن العرش لعلىٰ كاهله ، وإن رجليه قد مرقتا[٢] من تُخوم[٣] الأرض ، وإنه ليتضاءل من عظمة الله سبحانه وتعالىٰ حتىٰ يصير كالوَصَع ؛ يعني : كالعصفور الصغير[٤] .

فانظر ما الذي يغشاه من العظمة والهيبة حتىٰ يرجع إلىٰ ذلك ، وسائر الملائكة ليسوا كذلك ؛ لتفاوتهم في المعرفة ، فهٰذا هو الصدق في التعظيم .

وقال جابر رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مررت ليلة أسري بي وجبريل بالملأ الأعلىٰ كالحلس البالي من خشية الله تعالىٰ »[٥] يعني : الكساء الذي يلقىٰ علىٰ ظهر البعير .

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٠١) .

(٢) **مرق** : خرج من الجانب الآخر .

(٣) **تخوم** : حدود .

(٤) أخرج الحديث ابن المبارك في « الزهد » (٢٢١) .

(٥) أخرجه بنحوه الطبراني في « الأوسط » (٥/ ٦٤) .

وكذلك الصحابة رضوان الله تعالىٰ عليهم أجمعين كانوا خائفين ، لا سيما الصِّدِّيق رضي الله عنه ، ومن ثَمَّ شم الناس رائحة الكبد المشوية من فم الصديق رضي الله عنه .

ومع ذلك ما بلغ أحد خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولذلك قال ابن عمر رضي الله عنهما : لن يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتىٰ ينظر النَّاسَ كلهم حمقىٰ في دِين الله تعالىٰ .

وقال مطرف : ما من الناس من أحد إلا وهو أحمق فيما بينه وبين ربه عز وجل ، إلا أن بعض الخلق أهون من بعض .

وقد روي : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتىٰ ينظر الناس كالأباعر في جنب الله تعالىٰ ، ثم يرجع إلىٰ نفسه فيراها أحقر » .

فالصادق في جميع هٰذه المقامات عزيز ، ثم درجات الصدق لا نهاية لها ، وقد يصدق العبد في بعض الأمور دون بعض ، فإن كان صادقاً في الجميع . . فهو الصدِّيق حقاً .

قال سعد بن معاذ رضي الله عنه : ثلاثة أنا فيهن قوي ، وما سواهن ضعيف :

ـ ما صليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسي حتىٰ أفرغ منها .

ـ ولا شيعت جنازة فحدثت نفسي بغير ما هي قائلة وما هو مقول لها حتىٰ يفرغ من دفنها .

ـ وما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول قولاً . . إلا علمت أنه حق .

فقال ابن المسيب رحمه الله : ما ظننت أن هٰذه الخصال تجتمع إلا في النبي صلى الله عليه وسلم .

فهٰذا صدق في هٰذه الأمور ، وكم من جلة الصحابة رضوان الله عليهم وأكابرهم قد أدوا الصلاة وتبعوا الجنائز ولم يبلغوا هٰذا المبلغ ؟!

فهٰذه درجات الصدق ومعانيه ، والكلمات المأثورة عن المشايخ في حقيقة الصدق في الغالب لا تتعرض إلا لآحاد هٰذه المعاني .

نعم ؛ قد قال أبو بكر الوراق : الصدق ثلاثة : صدق التوحيد ، وصدق الطاعة ، وصدق المعرفة .

فصدق التوحيد : لعامة المؤمنين ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ .

وصدق الطاعة : لأهل العلم والورع .

وصدق المعرفة : لأهل الولاية الذين هم أوتاد الأرض .

وكل هٰذا يدور علىٰ ما ذكرناه في الصدق السادس ، ولٰكنه ذكر أقسام ما فيه الصدق ، وهو أيضاً غير محيط بجميع الأقسام .

وقال جعفر الصادق رحمه الله : الصدق هو المجاهدة ، وألاَّ تختار على الله تعالىٰ غير الله عز وجل كما لم يختر عليك غيرك ؛ قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ ﴾ .

وقيل : أوحى الله تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليه الصلاة والسلام : (إني إذا أحببت عبداً . . ابتليته ببلايا لا تقوم لها الجبال ؛ لأنظر كيف صدقه ، فإن وجدته صابراً . . جعلته ولياً وحبيباً ، وإن وجدته جزوعاً يشكوني إلىٰ عبادي . . خذلته ولم أبال) .

فإذاً : من علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات ، وكراهية اطلاع الخلق عليه ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم . انتهىٰ .

تنبيه مهم

اِعلم : أنه قد تلخص أن مراتب العارفين ثلاث ، كل رتبة منها لا تنحصر درجاتها بحسب ما قسمه الله عز وجل لعبده ، ووفقه له ، وما أفاضه عليه من العرفان ، وأن أعلى المراتب هو ألاَّ يكون له مقصود ولا هَمٌّ إلا الله سبحانه وتعالىٰ ، والنظر إلىٰ وجهه الكريم ، وابتغاء رضوانه سبحانه وتعالىٰ .

وكذلك مراتب النيات ثلاث : أعظمها وأعزها : من يأتي بالطاعة علىٰ نية إجلال الله سبحانه وتعالىٰ ؛ لاستحقاق الطاعة ، وتنزيلاً للعبودية منزلتها ، وهٰذه أعز النيات وأعلاها ، ويَعِز من يفهمها فضلاً عمن يتعاطاها .

ولا تحصل هٰذه النية إلا بعد العزوف عن الدنيا كما قلنا في الإخلاص ، وكذلك الصدق ، وهو ستة أقسام : قول ، ونية ، وعزم ، ووفاء بالعزم ، وصدق في العمل ، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها ، وقد قدمناه .

وهو أيضاً علىٰ درجات : أعلاها : أن يكون عَبَدَ الله تعالىٰ علىٰ حقيقة العبودية ، فيشتغل بطاعته والاستغراق في محبته ، ولا يكون له هَمٌّ ولا مقصود إلا هو .

ثم يتجاوز إلىٰ مقام هو أعلىٰ منه ، يسمىٰ : الحرية ، وهو أن يعتق نفسه من إراداته ،

ويرضىٰ بما أراد الله سبحانه وتعالىٰ من تقريب وإبعاد ، فتفنىٰ إرادته في إرادة الله عز وجل ، إن حرَّكَه . . تحرك ، وإن سكَّنَه . . سكن ، وإن ابتلاه . . رضي ، فلم يبق فيه متسَع لطلب شيء ولا لالتماسه ، ولا يجد عنده اعتراضاً ، بل هو بين يدي الله عز وجل كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف شاء .

فعند ذلك يصير حراً ؛ لأنه قد صار مفقوداً لنفسه ، موجوداً لسيده ومالكه سبحانه وتعالىٰ ، وهٰذا هو منتهى الصدق في العبودية .

فالعبد في الحقيقة هو الذي وجوده لمولاه سبحانه وتعالىٰ لا لنفسه ، وهٰذه درجات الصديقين .

وأما الحرية عن غير الله عز وجل . . فتلك درجات الصادقين ، وقد بسطنا ذلك فيما تقدم والله سبحانه أعلم .

قوله : (**وأُكبِّر بالعظمة**)[1] فيه إشارة إلى الجمع بين أعمال الظاهر والباطن ؛ فإن الخشية بالقلب ، والتكبير باللسان مع ما فيه من رعاية المأمور به ، والألف واللام للاستغراق ؛ فإنه سبحانه وتعالىٰ هو المستحق لجميع أنواع التعظيم على الحقيقة ، وفيه إشارة إلىٰ دوام الخشية ؛ فإن لزوم الخشية تثمر عنها أمور مطلوبة :

منها : أن مَن دخل في عبادة وكان حاله الخشية . . فإنما يدخلها بالتعظيم والاحترام ، وينشأ عن ذلك المراقبة وغيرها أيضاً .

فانظر ما أحسن هٰذا وما أبلغه ، وما أشد ائتلافه والتفافه ؛ فإن أوائله مقتضية لأواخره اقتضاء لفظياً ومعنوياً ، لمجاورة الملائِم بالملائَم ، والمناسِب بالمناسَب .

قوله : (**وأَقرأُ بالترتيل والتفكر**) هٰذا ـ مع ما فيه من رعاية المأمور ـ فيه إشارة إلىٰ سر القراءة والمقصود منها ؛ فإن القراءة إنما أمر بها علىٰ سبيل الترتيل ؛ قال تعالىٰ : ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ ليحصل منها التفكر والتدبر للقارىء والمستمع ، فإذا لم يوجد الترتيل . . فات هٰذا المقصود ، وبفواته يفوت خير كثير بحسَب حال القارىء والمستمع .

---

(١) ولما اجتمع الإخلاص والخشية ومعهما النية ـ وهي من أعمال القلوب لا تقوم إلا بسر الإنسان ـ صار لا بد من عمل ظاهر يكون ثمرةً لهٰذه الأعمال ، ولهٰذا أشار إلى التكبير ، وهو كناية عن كل عمل فيه تعظيم لله عز وجل ، ومن ثم عدد بعض أعمال التعظيم ، ومنها : الترتيل ، والركوع ، والسجود ، والتشهد ، كما سيأتي ، والله أعلم .

قوله : (**وأركعُ بالخشوع**) فيه ـ مع رعاية الأركان الظاهرة ـ رعاية الأعمال الباطنة ؛ فإن الخشوع اتفق العلماء علىٰ أنه مطلوب في الصلاة ، يفوت الكمال بدونه .

وهل تفوت به الصحة ؟ أكثر العلماء علىٰ أنه لا تفوت بعدمه الصحة ، وما ذاك إلا لعزته في نفسه ، وقلة الاتصاف والمتصفين به ، ولو قيل باشتراطه في الصحة . . لأدىٰ إلىٰ حرج عظيم ، وقد قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ .

لكن القاضي حسين من أئمة أصحابنا رحمهم الله تعالىٰ ذهب إلىٰ أن الخشوع ركن ، وبفواته تفوت الصحة .

قوله : (**وأسجدُ بالتواضع**) أعطىٰ كل ركن ما ينبغي أن يعمل فيه اتباعاً لما جاء في الأحاديث الصحيحة ؛ قال صلى الله عليه وسلم : « أما السجود . . فعظموا فيه الرب عز وجل »[1] .

فإن العبد إذا استحضر في نفسه عظمة البارىء جل جلاله وعظيم كبريائِه . . تضاءل عنده كل شيء دونه سبحانه وتعالىٰ ، فما ظنك بنفسه ؟! فإنه يصير في غاية الحقارة ، وتضاؤله وحقارته عند نفسه بقدر ما يدخل في قلبه من التعظيم والاحترام لله عز وجل ، كما قلنا في الملائكة عليهم الصلاة والسلام ؛ فإن تضاؤلهم وحقارتهم بحسَب ما يغشاهم من الهيبة والعظمة والاحترام .

وقد نبه حاتم رحمه الله بقوله : (وأسجدُ بالتواضع) علىٰ أصلين عظيمين :

أحدهما : رعاية التعظيم والإجلال والاحترام لجانب الربوبية .

والثاني : لزوم الذلة والافتقار لجانب العبودية .

ومدار الإيمان علىٰ هـٰذين الأصلين ، وهما معرفة حقيقة الربوبية وعظمتها ، ومعرفة حقيقة العبودية وحقارتها وذلتها ، ألا ترىٰ إلىٰ ما حكي عن أبي يزيد البسطامي رحمه الله أنه قال : نوديت في سِرِّي ، فقيل لي : خزائننا مملوءة من الخدمة ، فإن أردتَنا . . فعليك بالذلة والافتقار .

وفي كلام حاتم أيضاً إشارة إلىٰ أن العبادة إنما المقصود منها ذلك ، وهو صحيح .

---

(١) أخرج مسلم (٤٧٩) : عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً ؛ فأما الركوع : فعظموا فيه الرب عز وجل ، وأما السجود : فاجتهدوا في الدعاء ؛ فقمِنٌ أن يستجاب لكم » .

وقد ورد : أن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أوحي إليه : (إني إنما اخترتك للنبوة ؛ لذل وقوفك بين يدي في الصلاة) .

ثم إذا استحضر العبد ذلته وفاقته وحقارة نفسه في وقوفه في الصلاة بين يدي الله عز وجل . . فليستحضر حقارة نفسه وفاقته وذلته في الموقف الأعظم ، وأنه أين يقع وقوفه وما قدره في كل وقت ، لا سيما في ذلك الموقف العظيم الذي فيه ترى الناس سكارىٰ وما هم بسكارىٰ ، ولـٰكن عذاب الله شديد ، وقد بسطت سر ذلك في أثناء النية .

ثم إن العبد أقرب ما يكون من ربه عز وجل في الصلاة وهو ساجد ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ﴾ .

والأحاديث الدالة علىٰ ذلك كثيرة .

فينبغي للعبد أنه كلما ازداد قرباً . . ازداد تواضعاً لله عز وجل اقتداءً بسيِّد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه في أعظم أحواله في الدنيا كان يوم فتح مكة ، ودخل صلى الله عليه وسلم مكة وهو مطرِق الرأس تواضعاً لله عز وجل ، وقال : « إن العيش عيش الآخرة »[1] إشارة منه صلى الله عليه وسلم إلى العزوف عن الدنيا ، وعن كلٍّ ما يقطع عن الله تعالىٰ ، وأَنه لا ينبغي أن يُنظَر إليها أقبلت أو أدبرت مطلقاً ، لا في الرخاء ، ولا في الشدة .

ولهـٰذا إنه صلى الله عليه وسلم قال في أشد حالاته في الدنيا : « إن العيش عيش الآخرة » إشارة إلىٰ ما ذكرناه من قطع النظر عن الدنيا والعزوف عنها ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

قوله : (**وأجلس للتشهد بالتمام وأسلم بالسبيل والسُّنة**) مع ما فيه من رعاية الترتيب على الوجه المأمور فيه الوفاء بحقيقة قوله : (أقوم بالأمر) فإن جميع ما يأتي به العبد من العبادة على الوجه المأمور به . . هو من تفاصيل ما أُجمِل في قوله : (أقوم بالأمر) .

وفي قوله : (أسلم بالسبيل) معانٍ :

منها : السبيل المأمور به .

ومنها : قطع النظر عن ذلك العمل ، كأنه يقول : إني ما قمت بما يجب عليَّ علىٰ حقيقته ، فلا يراها ولا يرضاها ، وإنما يرى المنة عليه لله عز وجل في أن وفقه للعمل وسائر أنواع الطاعات ، وهـٰكذا شأن العارفين .

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٧٩) .

ألا ترىٰ إلىٰ ما حكاه الأستاذ أبو القاسم القشيري عن الإمام أبي بكر الواسطي قدس الله روحه قال : لما دخل الواسطي رحمه الله نيسابور . . سأل أصحاب أبي عثمان الحِيري ، فقال : بماذا كان يأمركم شيخكم ؟ قالوا : كان يأمرنا بلزوم الطاعات ، ورؤية التقصير فيها ، فقال : أمركم بالمجوسية المحضة ، هلا أمركم بلزوم الطاعات والغَيبة عنها برؤية مُنْشئها ومجريها سبحانه وتعالىٰ ؟!

وأيضاً : فقد علم أن من شأن العارفين أنهم لا يرون أعمالهم ؛ لما فيها من تقصير غلب ، أو غفلة وقعت .

ولهـٰذا : إنَّ بعض العارفين كان إذا فرغ من الصلاة . . يقول : اللهم ؛ اغفر لي تقصيري وغفلتي فيها وكأنه قد جنىٰ جناية ، وهو يستغفر الله تعالىٰ ، ويسأله المغفرة عن تلك الجناية .

والحال في ذلك يختلف ، أما باعتبار الخواص : فلِمَا يغلب عليهم من شدة المهابة والاحترام والتعظيم ، ولا يقدرون على الإتيان بما يجب من ذلك .

وأما في غيرهم : فلِمَا ذكرناه من التقصير الغالب والغفلة اللازمة .

ولهـٰذا : إن بعضهم كان يقول : إني لأصلي ركعتين ، فأنصرف عنهما بمنزلة المنصرف عن السرقة ؛ حياء من الله عز وجل .

وقوله : (**والسنة**) إشارة إلىٰ أن العمل له شرطان :

أحدهما : أن يكون خالصاً ، وقد تقدم بيان ذلك في قوله : (أقوم بالأمر) .

والثاني : أن يكون صواباً ، فالخالص : ما كان لله عز وجل ، والصواب : ما كان على السُّنة ، وقد اتفق العلماء علىٰ أن العمل القليل في سُنة خير من عبادة المغيِّرين ألف سَنة ، قالوا : ولن يَقِلَّ عمل في سُنة ، وكيف يَقِلُّ عمل متقبل ؟!

وأتىٰ بالألف واللام في (السُّنة) إشارة إلىٰ رعاية السُّنة في جميع العبادات ، وسائر أنواع الطاعات ، فهي للاستغراق أيضاً ، والعمل ـ والعياذ بالله ـ علىٰ غير السُّنة يدخل في قوله عز وجل : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ .

وقد قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : ما عمِل عامل علىٰ جهل . . إلا كان ما يفسد أكثر مما يصلح .

وقد قال العارفون : إعمالك الطاعات بالجهل . . أضر عليك من إعمالك المعاصي ؛ إذ الطاعات التي قد أتيت بها ترجو بها ثواباً ، وهي تستحق عقاباً ، وإعمالك المعاصي تخشىٰ عقابها ، وتلك الخشية قربة .

وهـٰذا باب متسِع واضح غني عن البيان .

قوله : (**وأسلِّمها بالإخلاص إلى الله عز وجل**) إشارة منه إلى الإخلاص الذي دخل فيه في قوله : (أقوم بالأمر) ، فالألف واللام هنا للعهد ، كأنه يقول : أسلمها بالإخلاص الذي دخلت إليها به .

وقوله : (**وأرجع علىٰ نفسي بالخوف أخاف ألاَّ يقبل مني ، وأحفظه بالجهد إلى الموت**) ينبغي لكل مؤمن أن يكون هـٰذا سبيله ؛ فإن الأئمة الأعلام من الصحابة والتابعين وتابعيهم هـٰكذا كان سبيلهم ، يأتون بالطاعات علىٰ أكمل الوجوه المأمور بها ، ويخافون كل الخوف ألاَّ يقبل منهم ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ .

وقد سألت عائشة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنىٰ هـٰذه الآية ، فبيَّنَ لها علىٰ نحو ما تقدم ، والحديث مشهور[1] .

وهكذا كان شأن جميع العارفين .

ألا ترىٰ إلىٰ أبي عثمان الحِيري رحمه الله حين سئل : ما علامة السعادة ؟ فقال : أن تطيع الله عز وجل ، وتخاف أن تكون مردوداً .

وكان بعضهم يقول : إن لم تخش أن يعذبك الله علىٰ أحسَنِ أعمالك . . فأنت هالك .

وقال بعضهم وقد سئل : ما علامة السعادة ؟ فقال : خوف الشقاوة ؛ لأن الخوف زمام بين الله عز وجل وبين عبده ، فإذا انقطع زمامه . . هلك مع الهالكين .

وقيل ليحيى بن معاذ الرازي رحمه الله : مَن آمن مِن الخوف غداً ؟ قال : أشدهم خوفاً اليوم .

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله : ما فارق الخوف قلباً . . إلا خرب .

وقوله : (**وأحفظه بالجهد إلى الموت**) إشارة إلى الدَّوام في العبادات ، ورعاية

---

(١) روى الإمام أحمد (٦/ ١٥٩) عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : يا رسول الله ؛ في هـٰذه الآية ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ يا رسول الله هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله ؟ قال : « لا يا بنت أبي بكر ، يا بنت الصديق ؛ ولـٰكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق ، وهو يخاف الله عز وجل » .

الخاتمة ، مع ما فيه من المحافظة على التنبيه علىٰ أن أحب الأعمال إلى الله عز وجل أدومه وإن قَلَّ ، وكل هـٰذا مستقىً من بحر السُّنة[1] .

وفيه الإشارة إلىٰ رعاية حسن الخاتمة كما مر ؛ فإن الأعمال بالخواتيم .

وقد قال غير واحد من العارفين ـ منهم : سيدي السري السقطي رحمه الله ـ : إن قلوب المقربين معلقة بالسوابق ، وقلوب الأبرار معلقة بالخواتيم ، هـٰؤلاء يقولون : بماذا يختم لنا ؟ وأولـٰئك يقولون : ماذا سبق لنا من الله عز وجل ؟

والأصل في جميع ذلك : ما قد عُرف من حال النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه كان صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان ، دائم البشر ، هـٰكذا كان حاله صلى الله عليه وسلم ، وقد قال تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ ، فحُزنه صلى الله عليه وسلم إنما كان لأجل لقاء الله عز وجل ؛ لأن قلبه الشريف متعلق بالله سبحانه وتعالىٰ ، فلا شيء أشوق إليه ولا أحب من لقاء الله سبحانه وتعالىٰ .

ولهـٰذا قال أبو الحسين النوري رحمه الله : اطلع الله عز وجل على القلوب ، فلم ير قلباً أشوق إلىٰ لقائه من قلب محمد صلى الله عليه وسلم ، فأكرمه بالمعراج تعجيلاً للرؤية والمكالمة .

وأما دوام البِشر : فهو من أجل الرأفة والرحمة بالأمة ، فأعطىٰ كل مقام حقه صلى الله عليه وسلم .

ولم يزل الصحابة رضوان الله عليهم مجتهدين في اقتفاء آثاره ولزوم متابعته في أقواله وأفعاله وسائر أحواله ، داعين الناس إلى الأخذ بالسُّنة ، وإلى التخلق بآدابه وأخلاقه وسائر شمائله صلى الله عليه وسلم ، وعلىٰ هـٰذا مضى التابعون ومن بعدهم من الأئمة رضوان الله تعالىٰ عليهم ؛ فإنَّ الغالب علىٰ أحوالهم الحزن والخوف ، ومراتبهم في ذلك متفاوتة بحسَب مشاربهم ، وما هم فيه من التمكن في مقامهم ، أقام الحسن البصري أربعين سَنة لم يضحك ، وثلاثين سنة لم يمزح ، وكان من يراه يقول : كأنه حديث عهد بمصيبة .

وكان سفيان الثوري لا يزال حزيناً ، فيقال له في ذلك ، فيقول : أخاف أن أكون في أم

---

(١) روىٰ مسلم (٢٨١٨) عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سددوا وقاربوا وأبشروا ؛ فإنه لن يُدخل الجنةَ أحداً عملُه » ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله منه برحمة ، واعلموا : أن أحب العمل إلى الله . . أدومه وإن قل » .

الكتاب شقياً ، وقد قال عند موته لحماد بن سلمة : يا أبا سلمة ؛ أترىٰ أن الله تعالىٰ يغفر لمثلي ؟ فقال له حماد : إي والله الذي لا إلـٰه إلا هو ، قال : فكأنما سُرِّيَ عنه ، وكان يقول عند موته : ذهب الستر ، ذهب الستر .

وقال عبد الله بن ثعلبة لسفيان بن عيينة : يا أبا محمد ؛ واحزناه على الحزن! فقال له سفيان : يا عبد الله ؛ هل حزنت قط علىٰ سابق علم الله تعالىٰ فيك ؟ فقال له عبد الله : آه! تركتني الدهرَ لا أفرح أبداً[١] .

نسأل الله العظيم رب العرش العظيم بحق[٢] محمد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وبجاهه عنده . . أن يحسن عاقبتنا وخاتمتنا ، وأن يجعلنا من الذين سبقت لهم منه الحسنىٰ وزيادة ، وإن كنا في أم الكتاب أشقياء . . فأن يمحونا ويثبتنا سعداء ؛ فإنه تعالىٰ قال وهو أصدق القائلين : ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ، وألاَّ ينزع منا ما وهبه لنا من الإيمان ، وأن يحفظه علينا ، ويتوفانا عليه ، وهو وديعة لنا عنده سبحانه وتعالىٰ ؛ فإنه ما استُودع شيئاً . . إلا حفظه ، فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين ، وألاَّ يفقدنا حيث أمرنا ، ولا يرانا حيث نهانا ، وأن يغفر لنا ولوالدينا ومشايخنا وسائر المؤمنين والمؤمنات ، وأن يجود علينا برضاه ومحبته ودوام طاعته ، وأن يرزقنا شهادة في سبيله ، وموتة في بلد نبيه محمد صلى الله عليه وسلم سيد المرسلين وخاتم النبيين ، وعلىٰ آله ، وأصحابه ، وأزواجه ، وذريته ، كلما ذكره الذاكرون ، وكلما سَها عن ذكره الغافلون ، وأن يجعل ذلك خالصاً لوجهه الكريم ، موجباً للفوز لديه ، وأن يتقبله وينفع به ، إنه قريب مجيب ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) بعد ذكر الإخلاص والنية وأعمال التعظيم من الترتيل والركوع والسجود وبقية أعمال الصلاة تبين مِنْ شرح المؤلف رحمه الله أنه من راعىٰ هـٰذه الأمور . . كان لا بد وأن يختم له ـ بفضل الله ـ بحسن الخاتمة بعد الموت ، فالمناسبة ظاهرة بهـٰذه الخاتمة .
وفي نهاية المطاف : تبين أن كلامه رحمه الله كان بأسلوب ومعان مصوغة من كتاب الله عز وجل ، وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، فهي جديرة بأن تكون منهجاً يتبعه المسلم في صلاته من أولها إلىٰ آخرها ، وهـٰذا شأنه وشأن جميع العارفين بالله سبحانه وتعالىٰ من السلف رضوان الله عليهم أجمعين .

(٢) في نسخة : (بحرمة) .

ومنهم الإمام :

أبو عبد الله الحارث بن أسد المُحَاسِبي
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال الجنيد رحمه الله : كان الحارث المحاسبي يجيء إلىٰ منزلي ، فيقول لي : اخرج معي إلى الصحراء ، فأقول له : تخرجني من عزلتي وأنسي إلى الطرقات والآفات ورؤية الشهوات ، فيقول اخرج معي لا خوف عليك ، فأخرج معه ، فكان الطريق فارغاً من كل شيء ، لا نرىٰ شيئاً نكرهه ، فإذا وصلنا إلى الموضع الذي يريد أن نجلس فيه . . يقول لي : سلني ، فأقول له : ما عندي سؤال أسأله ، فيقول لي : سلني عما يقع في نفسك ، فتنثال[1] عليَّ السؤالات ، فأسأله عنها ، فيجيبني عنها للوقت ، ثم يمضي إلىٰ منزله ، فيعملها كتباً .

وقال الجنيد : كنت كثيراً أقول للحارث : عزلتي أنسي ، وتخرجني إلىٰ وحشة رؤية الناس والطرقات ؟! فيقول لي : كم تقول أنسي وعزلتي ؟! لو أن نصف الخلق تقربوا مني . . ما وجدت بهم أنساً ، ولو أن النصف الآخر نأىٰ عني . . ما استوحشت لبعدهم .

وقال الجنيد : كان الحارث كثير الفاقة ، فاجتاز بي يوماً وأنا جالس علىٰ بابنا ، فرأيت في وجهه أثر الجوع ، فقلت له : يا عم ؛ لو دخلت إلينا أكلت شيئاً ، فتسرني بذلك وتبرني ، فقال : نعم ، فدخلت بين يديه ، فلما دخل . . عمدت إلىٰ بيت عمي ـ وكان أوسع من بيتنا لا يخلو من أطعمة ـ فجئت بشيء من الطعام ، فوضعته بين يديه ، فمد يده وأخذ لقمة ، فرفعها إلىٰ فيه ، فرأيته يلوكها ولا يزدردها[2] ، ثم وثب وخرج وما كلمني ، فلما كان من الغد . . لقيته ، فقلت : يا عم ؛ سررتني ، ثم نغَّصت عليَّ ، فقال : يا بني ؛ أما الفاقة : فكانت شديدة ، وقد اجتهدت في أن أنال من الطعام الذي قدمته إلي شيئاً فلم أقدر ؛ فإنه بيني وبين الله عز وجل علامة إذا لم يكن الطعام عند الله سبحانه وتعالىٰ مرضياً . . ارتفع

---

(١) تنثال : تتابع وتنصَبُّ .

(٢) يزدردها : يبلعها .

إلىٰ أنفي منه زفرة ، فلم تقبله نفسي ، وقد رميت بتلك اللقمة في دهليزِكُم لمَّا خَرَجْتُ .

وقال الجنيد : مات أبو الحارث المحاسبي رحمه الله يوم مات وإن الحارث لمحتاج إلىٰ دانق فضة ، وخلَّف أبوه مالاً كثيراً ما أخذ منه حبة واحدة ، وقال : إن أهل ملتين لا يتوارثان ، وكان أبوه واقفياً[١] .

وقال أبو علي بن خيران الفقيه : رأيت أبا عبد الله الحارث بن أسد بباب الطاق[٢] في وسط الطريق متعلقاً بأبيه ، والناس قد اجتمعوا عليه ، وهو يقول له : طلق أمي ؛ فإنك علىٰ دِين وهي علىٰ غيره .

وسئل الحارث ما تفسير : خير الرزق ما يكفي ؟ قال : هو قوت يوم بيوم ، ولا تهتم لرزق غد .

وقال الحارث : فقدنا ثلاثة أشياء لا نجدها : حسن الوجه مع الصيانة ، وحسن القول مع الديانة ، وحسن الإخاء مع الأمانة .

وقال : العلم يورث المخافة ، والزهد يورث الراحة ، والمعرفة تورث الإنابة .

وقال : مَن صلح باطنه بالمراقبة والإخلاص . . زين الله تعالىٰ ظاهره بالمجاهدة واتباع السنة ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ .

وقال : لا ينبغي للعبد أن يطلب الورع بتضييع الواجب .

وقال : إذا أنت لم تسمع نداء الله عز وجل . . كيف تجيب داعي الله تعالىٰ ؟!

وقال : أصل الطاعة الورع ، وأصل الورع التقوىٰ ، وأصل التقوىٰ محاسبة النفس ، وأصل محاسبة النفس الخوف والرجاء ، وأصل الخوف والرجاء معرفة الوعد والوعيد ، وأصل معرفة الوعد والوعيد ذِكر عُظم الجزاء ، وأصل ذلك الفكرة والعبرة ، وأصدق بيت قالته العرب . . قول حسان بن ثابت :

وما حَمَلَتْ من ناقةٍ فوق رَحْلِها أَعَـفَّ وأوفـىٰ ذمـةً مـن محمَّـدِ

صلى الله عليه وسلم

---

(١) الواقفي : من توقف في مسألة خلق القرآن ، فلا يقول : مخلوق ، ولا غير مخلوق ، ونسب ذلك إلى الجهمية .

(٢) باب الطاق : محلة كبيرة ببغداد بالجانب الشرقي ، تعرف بطاق أسماء .

وقال : قيل لبعض العارفين : الخوف أولىٰ بالمحب ، أم الشوق ؟ فقال : هـٰذه مسألة لا أجيب فيها ؛ لأنه ما اطلعت النفس علىٰ شيء . . إلا أفسدته ، وأنشدني عبد العزيز بن عبد الله في ذلك :

الخـــوف أولـــىٰ بـــالمســـي ... ء إذا تَنـــاوَلَـــه الحَـــزَنْ
والحـــب يَحسُـــنُ بـــالمطيـ ... ـــعِ وبـــالنقـــيِّ مـــن الـــدرنْ
والشـــــوق للنجبـــــاءِ والـ ... أبـــدالِ عنـــد ذوي الفِطَـــنْ

ولذلك قيل : الحب هو الشوق ؛ لأنك لا تشتاق إلا إلىٰ حبيب ، ولا فرق علىٰ هـٰذا بين الشوق والحب ؛ لأن الشوق فرع من فروع الحب الأصلي .

وقال : قال الله تعالىٰ لداوود عليه الصلاة والسلام : (يا داوود ؛ إذا رأيت لي طالباً . . فكن له خادماً ، يا داوود ؛ لأَنْ يخرج عبد من عبيدي علىٰ يديك من سَكرة الدنيا حتىٰ تستنقذه من سُكْر ما هو فيه ، فإن فعلت ذلك . . سميتك عندي جهبذاً ، ومَن كان جهبذاً . . لم يكن به فاقة ولا وحشة إلىٰ أحد) ، فقال داوود عليه الصلاة والسلام : يا رب ؛ أعطني ذلك وارزقنيه ؛ فإنه لا وصول لي إلىٰ شيء إلا بعطائك جل جلالك[1] .

وقال : قال الله عز وجل : (يا داوود ؛ مَن لقيني وهو يحبني . . أدخلته جنتي) .

وقال : حدثني بعض العلماء قال : أوحى الله عز وجل إلىٰ نبي من الأنبياء : (إني وعزتي وجلالي ما غضبت علىٰ شيء كغضبي علىٰ من أخطأ خطيئة ثم استعظمها في جنب عفوي ، ولو عاجلت أحداً بالعقوبة . . لعاجلت القانطين من رحمتي ، ولو يراني عبادي كيف أستوهبهم ممن اعتدوا عليهم بالظلم في الدنيا ثم أوجب لهم مع بغيهم في الدنيا النعيم المقيم . . لعرفوا فضلي وكرمي ، ولو لم أشكر عبادي إلا علىٰ خوفهم من الوقوف بين يدي . . لشكرتهم علىٰ ذلك ، ولو يراني عبادي كيف أرفع قصوراً تَحار فيها الأبصار ، فيقولون : لمَن هـٰذه ؟ فأقول : لمَن عصاني ولم يقطع رجاءه مني ، فأنا الديان الذي لا تحل معصيتي ، ولا حاجة بي إلىٰ هوان من خاف مقامي)[2] .

وقال : بلغني أن الحسن رحمه الله قال : أوحى الله عز وجل إلىٰ إبراهيم عليه الصلاة

---

(١) أخرج البيهقي في « الشعب » (٧/ ١٩٠) : أوحى الله إلىٰ داوود : (إذا رأيت لي طالباً . . فكن له خادماً ، يا داوود ؛ اصبر على المؤونة . . تأتيك المعونة) .
(٢) أخرجه بنحوه الديلمي (٥/ ٢٤٣) .

والسلام : (يا إبراهيم ؛ إنك خليلي ، فاحذر أن أطلع عليك فأجد قلبك مشغولاً بغيري ؛ فإنما أختار لخلتي من لو ألقي في النار وهو في ذِكري . . لم يجد لِمَسِّ النار ألماً ، ومن لو أدخل الجنة ورآها قد زخرفت وزينت بِحُورها وما فيها من النعيم . . لم يرها بُغيتَه ، ولا اشتغل بها عن ذِكري ، فإذا كان كذلك . . تواترت عليه ألطافي ، وقربته مني ، ووهبت له محبتي ، ومَن وهبت له محبتي . . فقد استمسك بحبلي ، فأي نعمة تعدل ذلك ؟! وأي شرف أشرف منه ؟! فوعزتي وجلالي ؛ لأرينه وجهي ، ولأشفينّ صدره من النظر إلي) .

وقال : قال إبراهيم بن أدهم : لو علم الناس قدر لذة حب الله عز وجل . . لقَلَّتْ مطاعمهم ومشاربهم وحرصهم ؛ وذلك أن الملائكة عليهم الصلاة والسلام أحبوا الله تعالىٰ ، فامتنعوا بذِكره عن غيره سبحانه وتعالىٰ .

وقال : بلغني أن الله عز وجل أوحىٰ إلىٰ يحيى بن زكريا : (يا يحيىٰ ؛ إني قضيت علىٰ نفسي أنه لا يحبني عبد من عبيدي أعلم ذلك من نيته . . إلا كنت سمعَه الذي يسمع به ، وبصرَه الذي يبصر به ، ولسانَه الذي يتكلم به ، وقلبَه الذي يفهم به ، فإذا كان كذلك . . صرفت عنه الاشتغال بغيري ، وأدمت فكرته ، وأسهرت ليله ، وأظمأت نهاره) .

وقال : بلغني أن الله عز وجل يقول لولي من أوليائه : (يا عبدي ؛ أمَّا زهدك في الدنيا . . فطلبتَ به الراحة ، وأما انقطاعك إلي . . فتعززتَ بي ، فهل عاديت لي عدواً أو واليت لي ولياً ؟)[1] .

وهـٰذا دليل علىٰ أن الحب في الله تعالىٰ والبغض في الله عز وجل من أوثق عرى الإيمان[2] ، وأولىٰ ما يُتقرب به إلى الرحيم الرحمـٰن .

وقال الحارث : الزاهدون أربعة : المحبون ، والخائفون ، والورعون ، والمتوكلون .

فأما الخائفون : فزهدوا في حلال الدنيا ؛ خوفاً من الحساب إذا سئلوا عن أداء شكر هـٰذه النعم ؛ فإنهم لم يؤدوا الشكر علىٰ قدر النعم حتىٰ ولا في نعمة ، فإنه سبحانه وتعالىٰ

---

(١) أخرج الديلمي (١/ ١٤٥) : أوحى الله إلىٰ نبي من الأنبياء : أن قل لفلان العابد : أما زهدك في الدنيا . . فتعجلت به راحة نفسك ، وأما انقطاعك إلي . . فتعززت بي ، فماذا عملت فيما لي عليك ؟) قال : يا رب ؛ وماذا لك علي ؟ قال : (هل واليت فيَّ ولياً ، أو عاديت فيَّ عدواً ؟) .

(٢) أخرج ابن أبي شيبة (٧/ ٨٠) : عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أوثق عرى الإيمان . . الحب في الله والبغض في الله » .

لا يستطيع عبد أن يشكره علىٰ نعمه إلا بنعمة منه ، ويؤدي ذلك إلىٰ ما لا يتناهىٰ ، فسبحان صاحب النعم .

وفرقة من الخائفين أيضاً زهدوا في الحرام ؛ خوفاً من حلول النقمة ، وهـٰذا لا يسمىٰ زاهداً ، فإن فِعْل الواجبات لا يوصف فاعله بالزهد .

ومنهم[1] : مَن زهد في كل شبهة ، وهـٰذا أقرب إلى الزهد بالنسبة إلىٰ ما قبله .

وأما المتوكلون : فتركوا الاضطراب فيما قد تكفل لهم به رب الأرباب سبحانه وتعالىٰ من المعاش ؛ لقوة تصديقهم بوفاء الضامن سبحانه وتعالىٰ .

وأما المحبون : فللعلماء فيهم ثلاثة أقوال :

منهم من قال : زهد المحب في الدنيا كلها ؛ لقِلَّتها وحقارتها في نفسه ، ولأنها بغيضة الله من خلقه .

ومنهم من قال : زهد المحب في الجنة دون الدنيا خوفاً من أن يقول له الله عز وجل : يا عبدي ؛ أي شيء تركت لي ؟ فيقول : تركت لك الدنيا ، فيقول تبارك وتعالىٰ : وما قدر الدنيا ؟ وهل كنت تملك منها شيئاً ؟ فيقول العبد : يا رب ؛ قدرها جناح بعوضة ، فعند ذلك يلحقه من الحياء الشديد من الله عز وجل ما يمنعه أن يقول : تركت ما قدره جناح بعوضة ، ولـٰكن يا رب ؛ أنت تعلم أني لم أعبدك شوقاً إلى الجنة ولا خوفاً من النار ، إنما عبدتك لابتغاء مرضاتك جل جلالك ، فلك المنة أولاً وآخراً ، وأنت تعلم أني لا أريد إلا ابتغاء رضوانك ، فهـٰذا زُهْد محب صادق زَهِد في الدنيا والآخرة .

ومنهم من قال ـ وهو أضعفها ـ : المحب الصادق : هو الذي يزهد في ابتداء أمره في الإخوان الذين يشغلونه عن الله عز وجل ، فقد زهد فيهم ؛ لعلمه بما يلحقه من الآفات عند مشاهدتهم .

وسئل الحارث رحمه الله : لِمَ كان الزهد مطلوباً ؟ فقال لخمسة أمور :

الأول : أن الدنيا مفتنة مشغلة للقلوب عن الله عز وجل .

والثاني : تُنقص غداً من درجات من ركن إليها ، فلا يحصل له من الدرجات كمن زهد فيها .

---

(١) وهم الورعون .

والثالث : الحبس في القيامة وطول الوقوف والسؤال عن شكر التنعم بها ، وفي واحدة من هٰذه ما يبعث العبد على الزهد فيها .

والرابع : انقطاعها عن قريب مع ما يحصل فيها من الشوائب لمن وُصِف بالقدرة عليها .

والخامس ـ وهو أعظم ما تركت الدنيا لأجله ـ : موافقةُ ما فيه رضا الله جل جلاله ، وهو أن يصغِّروا ما صغر الله سبحانه وتعالىٰ ، ويقللوا ما قلل الله عز وجل ، ويبغضوا ما أبغض الله تعالىٰ ، ويرفضوا ما أحب الله سبحانه وتعالىٰ رفضه ، ولو لم ينقصهم من ذلك ، ولم يشغلهم في دنياهم عن طاعته ، ولم يسألوا عن شكره ، وكان ثواب الرافض لها والراكن إليها في الآخرة واحداً . . لكان ينبغي ـ علىٰ طريق الوجوب وشدة الحياء من الله سبحانه وتعالىٰ لجميع العباد ـ أن يبغضوا ما أبغض مالكهم سبحانه وتعالىٰ ، ويهينوا ما أهان ربهم عز وجل ، وذلك زهد المحبين المعظِّمين لله رب العالمين سبحانه وتعالىٰ .

وهٰذه الخمس خصال دل عليها الكتاب والسُّنة ، فلله الحمد والمنة . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ٧٤ـ٨٨] .

وقال في « المناقب » : قال محمد بن خفيف رحمه الله : دخلت يوماً على القاضي علي بن أحمد ، فقال لي : يا أبا عبد الله ؛ هٰهنا لكم حكاية تحتاج [لأَن] نكتبها بماء الذهب ، فقلت له : أيها القاضي ؛ ماء الذهب لا أجده ، ولٰكني أكتبها بالحبر الجيد .

فقال : بلغني أنه قيل لأبي عبد الله أحمد ابن حنبل : إن الحارث بن أسد يتكلم في علم القوم ، ويحتج عليه بالآيات والسنن ، فقال أحمد : أحب أن أسمع كلامه من حيث لا يعلم بموضعي ، فقال له الرجل : أنا أعمل هٰذا فاتخذ دعوة ودعا الحارث وأصحابه ، ودعا أحمد ، وجلس أحمد حيث لا يراه الحارث ، فلما جاء الحارث وأصحابه ، وحضرت الصلاة . . تقدم وصلىٰ بهم المغرب ، وأحضروا الطعام ، فجعل يأكل ويتحدث معهم ، فقال أحمد : هٰذا من السُّنة ، فلما فرغوا . . غسلوا أيديهم ، فقال أحمد : وهٰذا أيضاً من السُّنة ، ثم جلس الحارث وجلس أصحابه ، فقال : مَن أراد منكم أن يسأل عن شيء . . فليسأل ، فسُئل عن الإخلاص وعن مسائل كثيرة ، فأجاب عنها بأحسن جواب ، واستشهد عليها بالآيات والسنن ، وأحمد يسمع ، فلما مر هَويٌّ[1] من الليل . . أمر الحارث قارئاً يقرأ شيئاً من القرآن ، فبكىٰ بعضهم وانتحب آخرون ، ثم سكت الحارث ودعا بدعوات خفاف ،

---

(١) **الهَويُّ** : الساعة الممتدة والحين الطويل من الليل .

ثم قام إلى الصلاة ، فقال أحمد : قد كان يبلغني غير هـٰذا ، أما هـٰذا . . فلا أنكر منه شيئاً ، والله سبحانه أعلم . انتهىٰ .

زاد في رواية أخرىٰ : أن الحارث لما أخذ في الكلام . . بقي أصحابه يسمعون كأن علىٰ رؤوسهم الطير ، فمنهم مَن يبكي ، ومنهم مَن ينتحب ، قال : فجئت إلىٰ أحمد ـ وكان في غرفة ـ فوجدته باكياً وقد غشي عليه ، فتركته ، ثم عدت إليهم ، ولم يزل هـٰذا حالهم في القراءة والذِّكر إلىٰ آخر الليل ، فلما صَلَّوا وذهبوا . . جئت إلىٰ أحمد ابن حنبل ، فقال : ما أعلم أني رأيت مثل هـٰؤلاء القوم ، ولا سمعت في علم الحقائق مثل كلام هـٰذا الرجل . أو كما قال . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ٧٤ـ٨٨] .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ قدس الله روحه ـ : سئل الحارث : بماذا يتولد الصدق ؟ فقال : مِن المعرفة بالله عز وجل بأنه يسمع ويرىٰ ، وخوف السؤال عن مثاقيل الذر من إرسال اللفظ ، وخلف الوعد ، وتأخير الضمان ، وعلىٰ قدر قوة الصدق يزداد العبد في أعمال البر .

وسئل عن الشكر فقال : علم العبد بأن جميع النعم من الله عز وجل وحده ، وألاّ نعمة علىٰ خلق مِن أهل السماوات والأرض . . إلا مِن الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال : كن لكل من رأيت من المؤمنين معظماً له بالقلب والضمير ، مفضلاً له علىٰ نفسك ، وكل من رأيته من أهل الإسلام رجوتَ بركته ، والتمستَ دعوته ، وظننت أنه إنما يدفع عنك به .

وقال : لا طاقة لأحد من العباد بغضب رب الأرباب جل جلاله ، ولا وضع عدله علىٰ أحد منهم . . إلا هلك ، جل الله العظيم الحليم .

وهـٰذا نظير قول بعض العارفين : إن وضع عليهم عدله . . لم يبق لهم حسنة ، وإن وضع عليهم فضله . . لم يبق لهم سيئة ، وبقيت أعمالهم فضلاً لهم .

وسئل الحارث عن قول أبي سليمان الداراني : ما رجع مَن وصل ، ولو وصلوا . . ما رجعوا ، فقال الحارث : هـٰذا فيه أجوبة :

منها : أن يكون علىٰ طريق التحريض للمريدين ؛ لئلا يميلوا إلى الفتور ، ويحترزوا من الانقطاع ، ويجدُّوا في طلب الاتصال والقرب إلى الله عز وجل .

ومنها : ما هو أعلىٰ من ذلك ، وهو : أن يكون مراده : ما رجع إلى الزلل مَن وصل إلىٰ

صافي العمل ، ويحتمل : ما رجع إلىٰ وحشة الفتور مَن وصل إلى المقامات السنية من الأمور ، ويحتمل : ما رجع إلىٰ ذل العبودية للمخلوقين مَن وصل إلىٰ طيب روح اليقين واستند إلىٰ كفاية رب العالمين .

وبات السائل تلك الليلة عند الحارث ، فلما أصبح . . قال الحارث : رأيت فيما يرى النائم كأن راكباً واقف وأنا أتكلم في هـٰذه المسألة ، فقال ـ وهو يشير بيده ـ : ما رجع إلى الانتقاص مَن وصل إلى الإخلاص .

وسئل عن العبد يفوته شيء من العلم فيغتم ، ويفوته شيء من العمل فلا يغتم ، فقال : هـٰذا من عدم خوفه لعظيم حجة الله عز وجل عليه فيما علم ولم يعمل ، ومِن كونه لم تكن نيته أن يعمل بما يحصل له من العلم ، وكان يحق عليه أن يكون بما علم ولزمته الحجة فيه أشد اجتهاداً في العمل به مما لم يعلمه ؛ لأنه إن ضيَّع وهو لا يعلم . . خير مِن أن يضيع حق الله عز وجل وهو يعلم ؛ لأن الجاهل لا يأتي بتعمد قلبه ولا بالجرأة والاستيقان بأن الله عز وجل مطلع عليه . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/٨٨ـ٩٦] .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري : سئل أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي عن المحبة فقال : المحبة : ميلك إلى الشيء بكليتك ، ثم إيثارك له علىٰ نفسك وروحك ومالك ، ثم موافقتك له سراً وجهراً ، ثم اعترافك بتقصيرك في حبه . انتهىٰ [« الرسالة القشيرية » ٢٥١] .

وقال الحافظ الخطيب البغدادي ـ رحمه الله ـ : إن الحارث بن أسد المحاسبي لما حضرته الوفاة . . قال لأصحابه الذين عنده : إن رأيتُ ما أحبُّ . . تبسمت إليكم ، وإن رأيت غير ذلك . . تبينتم في وجهي ، قال : فتبسم ، ثم مات رحمه الله تعالىٰ . انتهىٰ [« تاريخ بغداد » ٨/٢١١] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو الحسن السري بن مغلس السَّقَطي
رضي الله عنه

خال أبي القاسم الجنيد رحمه الله .

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال السري : لو أحسست بإنسان يريد أن يدخل عليَّ ، فقلت بلحيتي كذا ـ وأَمَرَّ يده علىٰ لحيته كأنه يريد تسويتها ـ من أجل دخول ذلك الداخل . . لخفت أن يعذبني الله عز وجل علىٰ ذلك بالنار[1] .

وكان يقول : إني لأنظر إلىٰ أنفي كل يوم مراراً ؛ مخافة أن يكون وجهي قد اسودَّ .

وقال : ما أحب أن أموت حيث أُعرف ، فقيل له : ولِمَ ذلك ؟ فقال : أخاف ألاّ يقبلني قبري ، فأفتضح .

وقال : إن نفسي نازعتني أن أغمس جزرة في دبس منذ ثلاثين سنة ، فما يمكنني .

وقال : أحب أن آكل أكلة ليس لله عز وجل عليَّ فيها تبعة ، ولا لمخلوق عليَّ فيها مِنَّة ، فما أجد إلىٰ ذلك سبيلاً .

وقال : خرجنا يوماً من مكة نريد بعض المواطن ، فلما أصحرنا . . رأيت في مجرى السيل طاقة بَقْلٍ ، فمددت يدي ، فأخذتها ، وقلت : الحمد لله رب العالمين ، ورجوت أن يكون حلالاً ليس لمخلوق فيها مِنة ، فقال لي بعض من رآني : يا أبا الحسن ؛ التفِتْ ، فالتفتُّ ؛ فإذا مثل تلك الطاقة كثير ، فقال لي : خذ هـٰذا ، فقلت له : الطاقة الأولىٰ ليس لأحد فيها مِنة ، وهـٰذا بدلالتك فيه مِنة ، وإِنَّما أريد ما لا منة فيه لمخلوق ، ولا تبعة فيه لله عز وجل .

وقال : كنت بطرسوس ، وكان معي في الدار فتيان متعبدون ، وكان في الدار تنُّور يخبزون فيه ، فانكسر التنور ، فعملت لهم بَدَلَه من مالي ، فتورعوا أن يخبزوا فيه .

---

(١) انظر ترجمة حاتم الأصم ففيها التعليق علىٰ هـٰذا الخبر .

وقال : مِن النذالة أن يأكل العبد بدِينه .

وقال علي بن الحسين بن حرب : بعث أبي معي إلى السري بشيء من حَبِّ السُّعال ، فقال لي : كم ثمنه ؟ قلت له : لم يخبرني أبي بشيء ، قال : اقرأ عليه السلام ، وقل له : نحن نُعلِّم الناس منذ خمسين سَنة ألاّ يأكلوا بأديانهم ، ترانا اليوم نأكل بأدياننا ؟!

وقال علي بن عبد الحميد الغضائري : دققت الباب على السري ، فسمعت من وراء الباب ـ وقد قام إلىٰ عضادتي الباب ـ وهو يقول : اللهم ؛ اشغل من شغلني عنك بك ، فكان من بركة دعائه أني حججت أربعين حجة من حلب علىٰ رِجلَيَّ ماشياً ذهاباً وإياباً . [انتهىٰ « الحلية » ١٠/١١٦ـ١١٧] .

زاد في « **لوامع أنوار القلوب** » : قال أبو إسحاق الجيلي : قدمت علىٰ علي بن عبد الحميد الغضائري ، فوجدته من أفضل خَلْق الله عبادة ، ومن أكثرهم مجاهدة ، وكان لا يتفرغ من صلاته آناء ليله ونهاره ، فانتظرت فراغه ، فلم أُصِبه ، فقلت : إنا تركنا الآباء والأمهات والأهلين والأوطان بالرحلة إليك ، فلو تفرغت لنا ساعة فحدثتنا بما آتاك الله من العلم ، فقال : أدركَني دعاء الشيخ الصالح السري السقطي رحمه الله ، جئت يوماً إليه ، فقرعت بابه وهو في مناجاته ، فقال : مَن ؟ قلت : فلان ، فسمعته يقول قبل أن يخرج إلي : اللهم ؛ مَن جاءني يشغلني عن مناجاتك . . فاشغله بك عني ، فما رجعت عنه حتىٰ حُبِّب إليَّ الصلاة والشغلُ بذِكره سبحانه وتعالىٰ ، فلا أتفرغ لشيء سواه ببركة الشيخ ، قال أبو إسحاق : فرأيت كلامه يخرج عن قلب حزين ، وهَمٍّ كمين ، والدمع يسبقه .

وقال السري : خمس مَن كُنَّ فيه . . فهو شجاع :

ـ الاستقامة علىٰ أوامر الله عز وجل .

ـ واجتهاد ليس معه سهو .

ـ وتيقظ ليس معه غفلة .

ـ ومراقبة لله عز وجل في السر والجهر ليس معه رياء .

ـ ومراقبة الموت بالتأهب . انتهىٰ .

وقال في « المناقب » : قال السري رحمه الله : خير الرزق . . ما سلم من الآثام في الاكتساب ، ومن المذلة والخضوع في السؤال ، ويكون سليماً من الغش في الصناعة ومعاملة الظلمة .

وقال السري : أقوى الناس . . مَن ملك غضبه ، ومَن تزين للناس بما ليس فيه . . سقط من عين الله عز وجل .

وقال : لن يكمل الرجل حتىٰ يؤثر دِينه علىٰ شهوته ، ولن يهلك حتىٰ يؤثر شهوته علىٰ دِينه .

وروي أن السري رحمه الله أنشد يوماً :

لا في النهار ولا في الليل لي فَرَجٌ ... فـلا أبـالـي أطـال الليـل أم قَصُـرا
لأننـي طـول ليلـي هـائـم دَنِـفٌ ... وبالنهار أقاسي الهمَّ والفِكَرا[1]

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال السري رحمه الله : للمريد عشرة[2] مقامات : التحبب إلى الله عز وجل ، والتزين عنده بنصيحة الأمة ، والأنس بكلام الله عز وجل ، والصبر علىٰ أحكام ، والأثرة لأمره جل جلاله ، والحياء من نظره سبحانه وتعالىٰ ، وبذل المجهود في مرضاته ، والرضا بالقلة ، والقناعة بالخمول .

وقال : للخائف عشر مقامات[3] : الحزن اللازم ، والهَمُّ الغالب ، والخشية المقلقة ، وكثرة البكاء ، ووجل القلب ، وتنغص العيش ، ومرافقة الكمد ، [وكثرة الوله ، والهرب من مواطن الراحة ، والتضرع في الليل والنهار][4] .

وقال الجنيد : قال رجل للسري : كيف أنت ؟ فأنشأ يقول :

مَن لم يَبِتْ والحب حَشْوَ فؤاده ... لـم يـدر كيـف تَفَتُّـتُ الأكبـادِ

وقال الجنيد : دفع السري إلي يوماً رقعة ، وقال : انظر ما فيها ، فقرأتها ؛ فإذا فيها :

ولما ادعيت الحب قالت كذبتني ... فما لي أرى الأعضاء منك كواسيا
فما الحب حتىٰ يلصق الظهرُ بالحشا ... وتَـذْبُـلَ حتـىٰ لا تجيـبَ المنـاديـا
وتنحـلَ حتـىٰ لا يُبَقِّـي لـك الهـوىٰ ... سوىٰ مقلةٍ تبكي بها وتُناجِيا[5]

---

(١) دَنِفٌ : مصاب بمرض ملازم .
(٢) لم يذكر الحافظ أبو نعيم في « الحلية » غير تسعةٍ .
(٣) (في بعض النسخ : (عشر مقامات منها) .
(٤) لم يذكر المؤلف غير سبعة والثلاثة الأخيرة ذكرها الحافظ أبو نعيم في « الحلية » .
(٥) انظر « شذرات الذهب » (١/ ١٢٧) .

وقال السري رحمه الله : لا يطيب عيش الزاهد إذا اشتغل بنفسه ، ولا يطيب عيش العارف إذا اشتغل عن نفسه[1] . [انتهىٰ « الحلية » ١٠/١١٧ـ١١٩] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : هٰذا موافق لما نقلناه عن أبي سليمان الداراني حيث قال : الاشتغال بالنفس من مقامات العاملين ، والاشتغال عن النفس من مقامات العارفين .

وقال السري : مارست كل شيء من أمر الزهد فنلت منه ما أريد ، إلا الزهد في الناس ؛ فإني لم أبلغه ولم أطقه .

وقال السري : كل الدنيا فضول ، إلا خمس خصال : خبز يشبعه ، وماء يرويه ، وثوب يستره ، وبيت يسكنه ، وعِلم يستعمله .

وقال : أربع خصال ترفع العبد : العلم ، والأدب ، والفقه ، والأمانة .

وكان يقول : اللهم ؛ ما عذبتني بشيء ، فلا تعذبني بذُلِّ الحجاب .

وقال : انقطع مَن انقطع عن الله عز وجل بخصلتين ، واتصل مَن اتصل بالله تعالىٰ بأربع خصال :

فأما المنقطع بخصلتين :

[الأولىٰ] : فيتخطىٰ إلىٰ نافلة بتضييع فريضة .

والثانية : عمل بظاهر الجوارح ولم يواطىء عليه صدق القلوب .

وأما المتصلون : فبلزوم الباب ، والتشمير في الخدمة ، والصبر على المكاره ، وصيانات الكرامات .

وقال : معنى الصبر : أن يكون مثل الأرض ؛ تحمل الجبال وبني آدم وكل ما عليها لا تأبىٰ ذلك ، وكذلك الصابر يحتمل كل ما كرهته النفوس بسخاء نفسه لا يأبىٰ ذلك ولا يسميه بلاء ، بل يسميه نعمة وموهبة من الله عز وجل .

وقال : صليت وِرْدي ليلة ومددت رجلي في المحراب ، فنوديت : يا سري ؛ كذا

---

(١) في نسخة : (لا يطيب عيش الزاهد إذا اشتغل عن نفسه ، ولا يطيب عيش العارف إذا اشتغل بنفسه) ولعل الصواب ما أثبت ، والله أعلم .

تجالس الملوك ؟! قال : فضممت رجلي ، ثم قلت : وعزتك وجلالك ؛ لا مددت رجلي أبداً .

وقال أحمد بن خلف : دخلت يوماً على السري ، فرأيت في غرفته كوزاً جديداً مكسوراً ، فقال : أردت ماءاً مبرداً في كوز جديد ، فوضعته على هـٰذا الرواق [ليبرد] ونمت ، فرأيت في منامي جارية متزيِّنة فقالت لي : يا سَري ؛ مَن يخطب مثلي يبرد الماء ؟! ثم رفسته برجلها ، فاستيقظت من نومي ؛ فإذا هو مطروح مكسور .

زاد في رواية صاحب « المناقب » : قال أبو القاسم الجنيد : فرأيت الخزف المكسور لم يمسه ولم يرفعه حتىٰ عفا عليه التراب .

وزاد في « لوامع أنوار القلوب » : فقال الجنيد : ترك الهوىٰ ، ومخالفة النفس ، وقمع الشهوات واللذات . . من دواعي الوصول وشواهد المشاهدة . انتهىٰ .

وقال الحافظ : قال السري : مَن ادعىٰ باطن علم ينقض ظاهر حكم . . فهو غالط . [انتهىٰ « الحلية » ١٠/ ١٢١] .

وقال في « المناقب » : قال السري : العارف هو الذي لا يطفىءُ نورُ معرفته نورَ ورعه ، ولا يتكلم في علم باطن ينقضه عليه ظاهر الكتاب والسُّنة ، ولا تحمله الكرامات علىٰ هتك أستار محارم الله تعالىٰ .

وقال السري : التوكل : الانخلاع عن الحول والقوة .

وأربع من أخلاق الأبدال : استقصاء الورع ، وتصحيح الإرادة ، وسلامة الصدر للخَلْق ، والنصيحة لهم .

وأربع يرفع الله بها العبد : العلم ، والأدب ، والدِّين ، والأمانة .

وثلاث من أخلاق المؤمنين : القيام بالفرائض ، واجتناب المحارم ، وترك الغفلة .

وثلاث من أخلاق الأبرار ، يُبلِّغن العبد رضوان الله : كثرة الاستغفار ، وخفض الجناح ، ومداومة الصدقات .

وثلاث من أبواب سخط الله : اللعب ، والاستهزاء ، والغِيبة .

وأما عمود الدين وذروة سنامه : فحسن الظن بالله عز وجل .

وسئل السري عن الصبر ؛ فجعل يتكلم فيه ، فدبَّت علىٰ رجله عقرب ، وهي تضربه

بإبرتها وهو ساكن ، فقيل له : لِمَ لمْ تُنحِّها عنك ؟ فقال : إني استحييت من الله تعالىٰ أن أتكلم في الصبر ولا أصبر .

وقال السري : كنت أطلب رجلاً صِدِّيقاً مدة من الزمان ، فمررت ببعض الجبال ، فرأيت جماعة زمنىٰ وعميان ومرضىٰ ، فسألت عن حالهم ، فقالوا : هـٰهنا رجل صِدِّيق يخرج في السَّنة مرة واحدة يدعو لهم ، فيجدون الشفاء ، فصبرت حتىٰ خرج فدعا لهم ، فوجدوا الشفاء في الوقت ، فقفوت أثره ، وتعلقت به ، وقلت له : بي علة باطنة ، فما دواؤها ؟ فقال : خل عني يا سري ؛ فإنه سبحانه وتعالىٰ غيور لا يحب أن يراك تسأل غيره ، فتسقط من عينه جل جلاله .

وفي رواية أخرىٰ : احذره سبحانه وتعالىٰ ؛ فإنه غيور ، لا يحب أن تسأل غيره . وتركني ومضىٰ .

[قال الحافظ ـ رحمه الله ـ] : قال : ينبغي للعبد أن يكون أخوف ما يكون من الله عز وجل . . آمن ما يكون من ربه جل جلاله .

وقال : لا تركن إلى الدنيا ؛ فينقطع من الله تعالىٰ حبلك ، ولا تمش في الأرض مرحاً ؛ فإنها عن قليل قبرك .

وقال : قال بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لقومه : ألا تستحيون من كثرة ما لا تستحيون منه سبحانه وتعالىٰ ؟

وقال السري : أصفىٰ ما يكون ذِكري إذا كنت مشغول القلب به سبحانه وتعالىٰ .

وقال : قلوب المقربين معلقة بالسوابق ، وقلوب الأبرار معلقة بالخواتيم ، هـٰؤلاء يقولون : بماذا يختم لنا ؟ وأولـٰئك يقولون : ماذا سبق من الله لنا ؟

قال : رأيت الفوائد ترد في ظلم الليل .

وقال : تخليص العمل حتىٰ يخلُص . . أشد من العمل ، والإبقاء على العمل بعدما يخلص . . أشد من العمل .

وقال : مَن اشتغل بمناجاة الله سبحانه وتعالىٰ . . أورثه حلاوةُ ذِكر الله عز وجل مرارةَ ما يلقي إليه الشيطان .

وقال : توثق الإخوان ولا تأمنهم علىٰ سرك ، واحذر إخوان السوء ، واتهم صديقك كما تتهم عدوك .

وكان يقول : لو علمت أن جلوسي في البيت أفضل من خروجي إلى المجلس. . ما خرجت ، ولو علمت أن جلوسي معكم أفضل من جلوسي في البيت. . ما جلست ، ولـٰكني إن دخلت. . اقتضاني العلم لكم ، وإن خرجت نافرتني الحقيقة ، فأنا عند منافرتي مستحيي ، وأنا عند اقتضاء العلم محجوج .

وقال : مَن استعمل التسويف. . طالت حسرته يوم القيامة .

وقال السري : قال ابن المبارك للفضيل بن عياض رحمه الله : يا أبا علي ؛ خَزَّنَ الناس علينا العلمَ ، وخَزَّنْتَ علينا الحكمة .

وقال السري رحمه الله : كنت مريضاً بطرسوس ، فدخل عليَّ ثقلاء يعودونني وأطالوا ، ثم قالوا : إن رأيت أن تدعو ، فقلت : اللهم ؛ علمنا أدب العيادة .

وقال أحمد بن خلف : دخلت يوماً على السري فقال لي : ألا تعجب من عصفور يجيء ، فيسقط علىٰ هـٰذا الرواق ، فأكون قد أعددت له لقمة ، فأفتها في كفي ، فيسقط علىٰ أطراف أناملي ، فيأكل ، فلما كان في وقت من الأوقات. . سقط على الرواق ، ففتت الخبز في يدي ، فلم يسقط علىٰ يدي كما كان ، فذكرت في سري العلة في وحشته مني ، فوجدتني قد أكلت ملحاً مطيباً ، فقلت في سري : أنا تائب من الملح المطيب ، فسقط علىٰ يدي ، فأكل وانصرف . [انتهىٰ « الحلية » ١٠/ ١٢١-١٢٣] .

زاد في « **لوامع أنوار القلوب** » : أن السري اغتم علىٰ أيام الوصال ، وجعل علىٰ نفسه الوفاء بالعهد ، فعلم الله سبحانه وتعالىٰ صدق نيته ، فجاء العصفور وأكل علىٰ عادته ، فقال السري رحمه الله : رعاية الوصال أضعف من بداية الحال ، والحسرة علىٰ فواتها أكبر من التعقب في تحصيل ابتدائها .

وقال الجنيد : دخلت على السري يوماً وهو يبكي ، فسألته عن حاله ، فقال : أنا أتعجب من نفسي ، كأنها ليست هي التي كانت معي في ابتداء إرادتي ، وأنا أكدها في السهر والأسفار ، واليوم تطالبني نفسي بالدعة وتحسن لي تأويلات البطالة .

قال الجنيد : وكان ورد السري في هـٰذه الحالة وِرْداً يعجز عنه الشباب ، مِن حفظ الأدب في خلواته ، وتأديب النفس في مجاهداته ، وأنشأ يقول :

مضىٰ لي زمان لو أُخَيَّرُ بينه	وبين حياتي خالداً آخرَ الدهرِ
لقلت دعوني ساعة وحديثَها	علىٰ غفلة الواشين ثم اقطعوا عمري

وقال في « **المناقب** » : قال السري : رأس الأعمال كلها الرضا عن الله ، والورع عمود الدين ، والجوع مخ العبادة ، والحصن الحصين ضبط اللسان ، ومَن شكر الله تعالىٰ . . جرىٰ في ميدان الزيادة .

وقال السري : صحبت رجلاً يقال له : الواله ، صحبته سَنة لم أسأله عن مسألة ، فقلت له يوماً : أيش المعرفة التي ما فوقها معرفة ؟ فقال : أن تجد الله أقرب إليك من كل شيء ، وأن ينمحي من سرائرك وظواهرك كلُّ شيء غيرُ الله ، فقلت له : بأي شيء يُوصَلُ إلىٰ هـٰذا ؟ فقال : بزهدك فيك ، ورغبتك فيه سبحانه وتعالىٰ .

قال السري : فكان كلامه سبب انتفاعي بهـٰذا الأمر .

وقال السري : التوكل والتعفف يمنعان من الذلة ، والإحسان والكرم يمنعان من دناءة الأخلاق ، والزهد يمنع من التعب .

وقال الجنيد : دخلت يوماً على السري ، فقال لي : ما أوائل أحوال الصدِّيقين ؟ قلت : لا أدري ، فقال : ثلاثة :

ـ أن يكونوا بما في أيديهم مع إخوانهم سواء .

ـ ويطالبوا نفوسهم بما للناس عليهم .

ـ وإذا عرض أمران لله عز وجل فيهما رضا . . حملوا أنفسهم علىٰ أصعبهما وأشدهما ، وإن كان فيه تلف نفوسهم .

وقال السري : اطلب حياة قلبك بمجالسة أهل الذِّكر[1] ، واستجلب نور القلب بدوام الحزن ، والتمس وجود الذِّكر في مواطن الخوف ، وألِحَّ في المسألة عند وَجَل القلب ، وتزين لله تعالىٰ بالصدق ، وتحبب إليه بمحبة تعجيل الانتقال ، وإياك والتسويف ، ونافس الأبرار في إقامة الفرض ، ونافس المقربين في إخلاص النوافل وترك فضول الحلال ، واطلب حلاوة المناجاة بفراغ القلب وجمع الهَمِّ ، واستجلب زيادة النعم بكثرة الشكر . انتهىٰ .

وقال **الحافظ أبو نعيم ـ قدس الله روحه ـ** : قال السري : هـٰذا الذي أنا فيه من بركات معروف الكرخي ، انصرفت من صلاة العيد ، فرأيت مع معروف الكرخي صبياً رَثَّ الحال

---

(١) في نسخة : (الفكر) .

شَعْثَ الهيئة ، فقلت له : مَن هـٰذا ؟ فقال : رأيت الصبيان يلعبون وهـٰذا واقف منكسر القلب حزيناً ، فسألته عن حاله ، فقال : أنا يتيم ، قال السري : فقلت له : ماذا تريد أن تصنع معه ؟ فقال : لَعلِّي أخلو فأجمع له نوىٰ يشتري به جوزاً يفرح به ، قلت له : أعطنيه أُغيِّر من حاله ، فقال لي : وتفعل ؟ قلت : نعم ، فقال : خذه بغَّضَ الله تعالىٰ إليك الدنيا ، وأراحك مما أنت فيه ، قال السري : فانصرفت ولا شيء أبغض إلي من الدنيا .

وقال أحمد بن عمرو الخلقاني : خرجت مع السري يوم العيد من المسجد ، فلقي رجلاً جليلاً ، فسلم عليه سلاماً ناقصاً ، فقلت : إن هـٰذا فلان ، قال : قد عرفته ، قلت : فلِمَ نقصته في السلام ؟ قال : لأنه يُروىٰ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا التقى المسلمان . . قسمت بينهما مئة رحمة ، تسعون لأَبَشِّهما بصاحبه »[1] ، فأردت أن يكون معه الأكثر . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ١٢٣ـ١٢٤] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : اعلم : أن هـٰذا الخبر لم يثبت ، ولو ثبت . . ففي صحة هـٰذه الرواية عن السري نظر ، فلا يثبت عنه أنه قال ذلك ؛ لأن الخبر إن صح . . فلا يخفىٰ على السري رحمه الله ـ مع جلالة قدره ـ أن الإيثار بالقُرَب غير جائز[2] .

قال أبو بكر الكتاني : دخلت على السري ، فجاء بفتيت وأخذ يجعل نصفه في القدح ، فقلت : أيش هو ذا تعمل ؟ أنا أشربه كله في مرة ، فضحك ، وقال : هـٰذا أفضل لك من حجة .

ثم قال الحافظ : قال السري : إذا فاتني جزء من وردي . . لا يمكنني أن أقضيه أبداً .

قال الجنيد : لأن السري كان متصل التنفل[3] .

وقال : مَن لم يعرف قدر النعم . . سُلِبَها من حيث لا يعلم ، ومَن هانت عليه المصائب . . أحرز ثوابها .

وقال : الأدب تَرجُمان العقل ، واللسان ترجمان القلب ؛ والوجه مرآة القلب ؛ تبين على الوجوه ما تضمر القلوب .

وقال : القلوب ثلاثة :

---

(١) أخرجه بنحوه الطبراني في « الأوسط » (٧/ ٣٤٢) .

(٢) وسيأتي بيانٌ وافٍ علىٰ ذلك في هـٰذه الترجمة إن شاء الله تعالىٰ .

(٣) في نسخة : (الشغل) .

ـ قلب مثل الجبل ؛ لا يزيله شيء .

ـ وقلب مثل النخلة ؛ أصلها ثابت والريح تميلها .

ـ وقلب كالريشة ؛ تميل مع الريح يميناً وشمالاً .

وقال : أقوى القوة . . غَلَبَتُكَ نَفْسَك ؛ ومَن عجز عن أدب نفسه . . كان عن أدب غيره أعجز ، ومَن أطاع من فوقه . . أطاعه مَن دونه .

وقال : لا تصرم[1] أخاك على ارتياب ، ولا تدعه دون استعتاب ، ومِن علامة المعرفة بالله عز وجل . . القيام بحقوق الله تعالىٰ ، وإيثاره على النفس فيما أمكنت فيه القدرة ، ومِن علامة الاستدراج . . العمىٰ عن عيوب النفس ، ومن قلة الصدق . . كثرة الخلطاء .

وقال : خمسة أشياء لا يسكن معها في القلب غيرها :

ـ الخوف من الله تعالىٰ وحده .

ـ والرجاء من الله تعالىٰ وحده .

ـ والحب لله وحده .

ـ والأنس بالله تعالىٰ وحده .

ـ والحياء من الله تعالىٰ وحده .

وقال الجنيد : كنت أعود السري في كل ثلاثة أيام مرة عيادة السُّنة ، فدخلت عليه وهو يجود بنفسه ، فجلست عند رأسه ، فبكيت وسقط من دموعي علىٰ خده ، ففتح عينيه ونظر إلي ، فقلت له : أوصني ، فقال : لا تصحب الأشرار ، ولا تشتغل عن الله عز وجل بمجالسة الأخيار .

وسئل السري عن أهل الحقائق فقال : الذين أكلهم أكل المرضىٰ ، ونومهم نوم الغرقىٰ .

وقال السري : لو أن رجلاً دخل إلىٰ بستان فيه من جميع ما خلق الله عز وجل من الأشجار وعليها جميع ما خلق الله تعالىٰ من الأطيار ، فخاطبه كل طائر منها بلُغتهِ ، وقال : السلام عليك يا ولي الله ، فسكنت نفسه إلىٰ ذلك . . كان في يدها أسيراً .

وقال السري : عجبت لمن غدا وراح في طلب الأرباح وهو مثل نفسه لا يربح أبداً .

---

(١) أي : لا تهجر .

وقال : لو أشفَقت هـٰذه النفوس علىٰ أبدانها شفقتها علىٰ أولادها . . للاقت غداً السرور في معادها . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/١١٨ـ١٢٥] .

وقال في « التوابين » : قال السري : كنت يوماً أتكلم بجامع بغداد ، فوقف عليَّ شاب حسن الشباب فاخر الثياب ومعه أصحابه ، فسمعني أقول في وعظي : عجباً لضعيف يعصي قوياً ، فتغير لونه وانصرف ، فلما كان من الغد . . جلست في مجلسي ، وإذا بالفتىٰ قد أقبل ، فسلم وصلىٰ ركعتين ، وقال : يا سري ؛ سمعتك بالأمس تقول : عجباً لضعيف يعصي قوياً ، فما معناه ؟ فقلت : لا أقوىٰ مِن الله عز وجل ، ولا أضعف من العبد وهو يعصيه ، فنهض وخرج ، ثم أقبل عليَّ من الغد وعليه ثوبان أبيضان وليس معه أحد ، فقال : يا سري ؛ كيف الطريق إلى الله سبحانه وتعالىٰ ؟ فقلت : إن أردت العبادة . . فعليك بصيام النهار وقيام الليل ، وإن أردت الله عز وجل . . فاترك كل ما سواه تصل إليه سبحانه ، وليس إلا المسجد والمحراب ، فقام وهو يقول : واللهِ ؛ لا سلكت إلا أصعب الطرق ، وولىٰ خارجاً .

فلما كان بعد أيام . . جاءني غلمان جماعة ، فقالوا : ما فعل أحمد بن يزيد الكاتب ؟ فقلت : لا أعرفه إلا أن رجلاً جاءني صفته كذا وكذا ، وأخبرتهم بما جرىٰ لي معه ولا أعلم حاله ، فقالوا : نقسم عليك بالله متىٰ عرفت خبره عَرِّفنا ، ودَلوني علىٰ داره ، فبقيت سَنة لا أعرف خبره .

فبينا أنا ذات ليلة بعد عشاء الآخرة في بيتي ؛ إذا بطارق يطرق الباب ، فأذِنت له بالدخول ، فإذا بالفتىٰ عليه قطعة من كساء في وسطه وأخرىٰ علىٰ عاتقه ، ومعه زنبيل فيه نوىٰ ، فقبَّلَني بين عيني ، وقال : يا سري ؛ أعتقك الله عز وجل من النار كما أعتقتني من رق الدنيا ، فأومأت إلىٰ صاحبي أن امض إلىٰ أهله فأخبرهم ، فمضىٰ ؛ فإذا بزوجته قد جاءت ومعها ولده وغلمانه ، فدخلت وألقت ولده في حجره وعليه حِلي وحُلَلٌ ، وقالت له : يا سيدي ؛ أرملتَني وأنت حي ، وأيتمت ولدك وأنت حي ، قال السري : فنظر إلي وقال : يا سري ؛ ما هـٰذا وفاء ، ثم أقبل عليها ، فقال : والله ؛ إنك لثمرة فؤادي وحبيبة قلبي ، وإن هـٰذا ولدي لأعز الخلق عليَّ ، غير أن هـٰذا السري أخبرني أن مَن أراد الله سبحانه وتعالىٰ . . قطع كل ما سواه ، ثم نزع ما على الصبي ، فقال : ينبغي أن يكون هـٰذا في الأكباد الجائعة والأجساد العارية ، وخرق قطعة من كسائه ، فلف فيها الصبي ، فقالت المرأة : لا أرىٰ ولدي في هـٰذه الحالة ، وانتزعته منه ، فحين رآها قد اشتغلت به . . نهض ، وقال :

ضيعتم عليَّ ليلتي ، بيني وبينكم الله ، وولىٰ خارجاً ، فضجت الدار بالبكاء ، فلما سكتوا . . قالت المرأة : بالله إن عدت سمعت له خبراً . . فأعلمني ، فقلت : نعم .

فلما كان بعد مدة . . أتت عجوز ، فقالت : يا سري ؛ بالشُّونيزيَّة[1] غلام يسألك الحضور ، فقمت معها إليه ؛ فإذا به مطروح في تربة[2] تحت رأسه لبنة ، فسلمت عليه ، ففتح عينيه ، فقال : يا سري ؛ وعليك السلام ، أتُرىٰ يغفر الله عز وجل لي تلك الجنايات ؟ فقلت : نعم ، قال : يغفر لمثلي ؟! قلت : نعم ، قال : أنا غريق ، قلت : هو سبحانه وتعالىٰ منجي الغرقىٰ ، فقال : عليَّ مظالم ، فقلت : في الخبر : « إنه يؤتىٰ بالتائب يوم القيامة ومعه خصومه ، فيقال لهم : خلوا عنه ؛ فإن الله سبحانه وتعالىٰ يعوضكم » ، فقال : يا سري ؛ معي دراهم من لقط النوىٰ ، إذا أنا مِتُّ . . فجهِّزني بها ، ولا تُعلم أهلي ؛ لئلا يغيروا كفني بغيره من مالهم .

قال السري : فجلست قليلاً عنده ، ففتح عينيه ، وقال : لمثل هـٰذا فليعمل العاملون ، ثم مات رحمه الله ، فجهزته بتلك الدراهم ، فرأيت الناس يُهرَعون ، فقلت : ما الخبر ؟ فقالوا : مات ولي من أولياء الله سبحانه وتعالىٰ نريد أن نصلي عليه ، فصلينا عليه ودفناه .

فلما كان بعد مدة . . أرسل أهله يستعلمون خبره ، فأخبرتهم بموته ، فأقبلت امرأته باكية ، فأخبرتها بحاله ، فسألتني أن أريها قبره ، فقلت : أخاف أن تغيروا أكفانه ، قالت : لا والله ، فأريتها القبر ، فبكت وأمرت بإحضار شاهدين ، وأعتقت جميع الرقيق من النساء والرجال ، ووقفت جميع عقارها ، وتصدقت بمال كثير ، ولزمت عبادة الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ أن ماتت رحمها الله تعالىٰ . انتهىٰ [٢٦٠ـ٢٦٢] .

وقال الراغب وغيره : إن سرياً رحمه الله لما ترك التجارة . . كانت أخته تنفق عليه من غزلها ، فأبطأت عليه ، فسألها عن ذلك ، فقالت : إن غزلي لم يُشتَرَ ؛ لأنه مختلف ، بعضه أرفع من بعض ، فامتنع السري من طعامها لذلك ، وعزم علىٰ ألاّ يأكل مما عندها بعد ذلك ، ثم إن أخته دخلت عليه بعد ذلك ، فرأت عنده عجوزاً تكنس بيته ، وكانت تلك العجوز تأتيه كل يوم برغيفين ، قال : فاغتمت أخته ، وراحت إلى الإمام أحمد ابن حنبل ، فذكرت له

---

(١) **الشونيزية** : مقبرة ببغداد بالجانب الغربي ، دفن فيها جماعة من الصالحين ، منهم : الجنيد وجعفر الخلدي ورويم وسمنون المحب ، ووردت كذلك باسم : الشونيزي ، وقال في « تاريخ بغداد » (١/ ١٢٢) : إن هـٰذا اسمٌ لمقبرتين في بغداد ، والله أعلم .

(٢) **التربة** : القبر .

ذلك ، فلما كلمه أحمد ابن حنبل في ذلك.. قال له السري : هٰذه الدنيا ، أمرها الله عز وجل أن تخدمني وتأتي إلي بقُوتي . أو كما قال .

وروى الحافظ أبو نعيم ـ قدس الله روحه ـ : عن أحمد بن عمرو قال : خرجت مع السري يوم العيد من المسجد ، فلقي رجلاً جليلاً ، فسلم عليه سلاماً ناقصاً ، فقلت له : إن هٰذا فلان ، قال : قد عرفته ، قلت : فلِمَ نقصته في السلام ؟ قال : لأنه يروىٰ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا التقى المسلمان.. قسمت بينهما مئة رحمة ، تسعون لأَبَشِّهما بصاحبه » ، فأردت أن يكون معه الأكثر . انتهىٰ[« الحلية » ١٠/١٢٣ـ١٢٤] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : **اعلم** : أن هٰذا قصد جليل جميل منشؤه الورع ، وقد تضمن القربة ومطلق الإيثار بهٰؤلاء ، ولا بأس ببيانهما .

أما القربة : فهي كل عبادة لا يراد بها إلا الله سبحانه وابتغاء رضوانه جل جلاله .

وأما مطلق الإيثار بالقُرَب : فتارة يكون للنفس ، وتارة يكون للغير ، وكل منهما يقع علىٰ أنواع :

الأول : الإيثار بالأنفس والأرواح والأموال : كما فعل الصحابة من المهاجرين والأنصار في بذلهم أنفسهم وأرواحهم في الجهاد في سبيل الله عز وجل ؛ لتكون كلمة الله هي العليا ، فأقام الله بهم هٰذا الدِّين ، واختارهم لصحبة سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقد تضمنت أفعالهم ـ مع قصدهم له كل القصد أيضاً ـ فداء النبي صلى الله عليه وسلم ونصره .

فيا حبذا الفداء! فما أعظم هٰذه السعادة ، وما أكبر هٰذه السيادة التي امتازوا بها عن سائر الأمة ؛ فإنها سعادة ليس فوقها سعادة بالنسبة إلى المؤمنين ؛ فإن كل مَن جاء بعدهم مِن المؤمنين في ميزانهم ؛ فالسعادة التي حصلت لهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ما نالها غيرهم .

فهنيئاً لهم رضي الله عنهم ، وكانوا أحق بها وأهلها ، وجميع ما فعلوا هو نية كل مؤمن وسبيله لو وجد إلىٰ ذلك سبيلاً ، قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ

وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْۗ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

ومَن نظر إلى الآيات الكريمة وفي سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم . . علم أنهم قد أخذوا من ذلك بالحظ الأوفر الأوفىٰ ، وأن استيفاء ذلك يستدعي مجلدات كثيرة .

فمن ذلك :

ـ خبر الغار ، وهو مشهور .

ـ ومبيت علي رضي الله عنه علىٰ فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هاجر إلى المدينة .

ـ وما صنعه طلحة بن عبيد الله أحد العشرة رضوان الله عليهم يوم أحد ، حتىٰ أن خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان إذا ذُكر عنده يوم أحد . . قال : ذاك يوم كان كلُّه لطلحة .

ـ وما كان يفعله أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه حين كان ينثل كنانته ويقول : وجهي لوجهك يا رسول الله الوقاء ، ونفسي لنفسك يا رسول الله الفداء .

ـ وما قاله خُبَيْب بن عدي رضي الله عنه لما أخذه المشركون ، وهم يبضعون لحمه ، ويقولون له : أتحب أنك في أهلك ومالك وأن محمداً مكانك ؟ فقال : والله ؛ ما أحب أني في أهلي ومالي وأن محمداً صلى الله عليه وسلم شيك بشوكة .

ـ وما قاله عبد الله بن جحش رضي الله عنه علىٰ ما رواه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : قال لي عبد الله بن جحش يوم أحد : ألا ندعو الله ؟ فخلَوَا في ناحية ، فدعا عبد الله بن جحش فقال : يا رب ؛ إذا لقيتُ العدو . . فلقني رجلاً شديداً بأسه ، شديداً

حَرَدُهُ[1] ، أقاتله فيك ويقاتلني ، ثم يأخذني ، فيجدع أنفي وأذني ، فإذا لقيتك غداً . . قلتَ : يا عبد الله ؛ مَن جدع أنفك وأذنك ؟ فأقول : فيك وفي رسولك ، فتقول : صدقت ، قال سعد : فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه معلقتان في خيط .

ـ والنفر الذين قتلوا في أحد واحداً بعد واحد وكان آخرهم يزيد أو عمارة ، وقد أثخن بالجراح ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أدنوه مني » ، فأدنوه حتىٰ وضع خده علىٰ قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومات كذلك[2] .

ـ والمرأة التي مرت على القتلىٰ بأُحد لما نعوا أهلها : هـٰذا أبوك وأخوك وزوجك ، وهي تقول : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا : خيراً يا أم فلان ، هو بحمد الله كما تحبين ، قالت : أرونيه حتىٰ أنظر إليه ، فأُشيرَ إليه ، حتىٰ إذا رأته . . أسرعت إليه وأخذت بناحية ثوبه وهي تقول : بأبي وأمي يا رسول الله ، لا أبالي إذا سلمت بمن عَطِب .

زاد في رواية أخرىٰ : وكل مصيبة بعدك جلل ؛ أي : قليل .

وأما الذين قتلوا وعذبوا في الغزوات وغيرها . . فخلائق كثيرون .

وما سار صلى الله عليه وسلم في غزاة ولا غيرها . . إلا وكانوا عن يمينه ويساره ، من بين يديه ومن خلفه ، يفدُونه بآبائهم وأمهاتهم وأنفسهم وأموالهم ، إلىٰ غير ذلك مما هو معروف مشهور ، والإيثار في هـٰذا النوع واجب علىٰ كل مؤمن بالإجماع ؛ لوقوعه فرض عين بالنسبة إلى الجهاد ، وفرض كفاية بالنسبة إلىٰ فداء النبي صلى الله عليه وسلم .

الثاني ـ من الإيثار أيضاً بالأنفس والأموال ـ : **الجهاد في سبيل الله مِن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم** : كما فعل الصحابة والتابعون ومَن بعدهم من المؤمنين ، مِن إدامة الجهاد ، وفتح البلاد ، وحالُهم في ذلك ينقسم إلىٰ فرض عين وفرض كفاية ؛ لأن الكفار إن دخلوا بلاد الإسلام لأخْذِها . . كان الجهاد فرض عين ، وإلا . . فهو فرض كفاية .

وقد قام المؤمنون ـ والحمد لله ـ بالقسمين جميعاً أتم القيام ، ولن يزالوا علىٰ ذلك إلىٰ أن تقوم الساعة ﴿ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ .

الثالث ـ من الإيثار أيضاً بالأنفس والأموال علىٰ سبيل المخاطرة مع ظن السلامة ـ : **القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر** : للخلفاء ، والأمراء ، والسلاطين ، وغيرهم ،

---

(1) حَرَدُهُ : غضبُهُ .

(2) ذكر هـٰذه القصة الطبري في « تاريخه » (٢/ ٦٦) .

وهـٰذا فرض كفاية ، ولم تزل الأئمة سلفاً وخلفاً قائمين بذلك مهما وجدوا إليه سبيلاً ؛ كسعيد بن المسيب ، وعطاء ابن أبي رباح ، وطاووس بن كيسان ، وسفيان الثوري ، وعبد الرحمـٰن ابن أبي ذئب ، وغيرهم ، وقد سبق بعض ذلك في تراجمهم .

الرابع ـ من الإيثار أيضاً بالأنفس ـ : **القيام لنصرة الدِّين** : وقد فعل ذلك جماعات من الأئمة ، امتحنوا في الدِّين ، فآثروا بأنفسهم حفظاً له ؛ كالإمام أحمد ابن حنبل ، وأحمد بن نصر الخزاعي ، وأبي يعقوب البويطي ، وغيرهم ، فبعضهم ضُرب ، وبعضهم قُتل ، وبعضهم سَلِم .

قال أحمد ابن حنبل عن أحمد بن نصر الخزاعي رحمه الله : ما كان أسخاه! لقد جاد بنفسه .

وقال أبو يعقوب البويطي ـ لما حمل من مصر إلىٰ بغداد مقيداً بِقَيد فيه سلسلة من رجله إلىٰ عنقه نحو أربعين رطلاً ـ : والله ؛ لئن دخلت عليه مجلسه . . لأصدقنه وأموت في حديدي هـٰذا حتىٰ يأتي بعدي قوم فيعلمون أنه قد مات في هـٰذا الشأن قوم في حديدهم .

وهـٰكذا وقع ؛ فإنه رحمه الله لما دخل على الواثق . . صدقه ، ولم تأخذه في الله لومة لائم ، فأمر بحبسه ، إلىٰ أن مات محبوساً في حديده ، وهـٰذا من كرامات الشافعي ومناقب البويطي رحمهما الله(١) .

الخامس : **الإيثار الواقع بين المؤمنين بعضهم لبعض بالأنفس والأموال** ، وهو كثير :

من ذلك : النفر الثلاثة الذين ماتوا عطشاً في واقعة اليرموك في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه سَنة خمس عشرة ، وهي أن بعض الصحابة رضي الله عنهم قال : انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي ، ومعي شربة ماء ، وأنا أقول : إن كان فيه

---

(١) وهو يوسف بن يحيىٰ ، أبو يعقوب البويطي المصري الفقيه ، صاحب الإمام الشافعي ، وهو العالم الناصح الذي لا يخشىٰ في الله لومة لائم ، لم ينج من فتنة خلق القرآن ، وهـٰذا هو سبب محنته ، فحبس ومات في الحبس ؛ لأنه امتنع عن الإجابة . أما كون هـٰذه الواقعة من كرامات الشافعي . . فقد روى الخطيب البغدادي عن الربيع بن سليمان يقول : كنا جلوساً بين يدي الشافعي أنا والبويطي والمزني ، فنظر إلى البويطي فقال : ترون هـٰذا ؟! إنه لن يموت إلا في حديده ، ثم نظر إلى المزني فقال : ترون هـٰذا ؟! أما إنه سيأتي عليه زمان لا يفسر شيئاً فيخطئه ، ثم نظر إلي فقال : أما إنه ما في القوم أحد أنفع لي منه ، ولوددت أني حشوته العلم حشواً . انظر « تاريخ بغداد » (١٤/ ٣٠٤) . وهـٰكذا تحققت فراسة الإمام الشافعي رحمه الله في صاحبه البويطي ، فهي كرامة له ، والله أعلم .

رمق . . سقيته ومسحت به وجهه ؛ فإذا أنا به ، فقلت له : أتشرب ؟ فأشار إلي أن نَعم ، فإذا رجل يقول : آه! العطش ، آه! العطش ، فأشار إليَّ ابن عمي أن اسقه ؛ فإذا هو هشام بن العاصي ، فمضيت إليه ، وقلت له : أتشرب ؟ فأشار إلي أن نَعم ، فسمع هشام شخصاً آخر يقول : آه! العطش ، فأشار إلي به ، فانتهيت إليه لأسقيه فإذا هو قد مات ، ثم رجعت إلىٰ هشام فإذا به قد مات ، ثم رجعت إلى ابن عمي ؛ فإذا به قد مات ، فتعجبت من هـٰذا الإيثار مع شدة الاضطرار .

ومن ذلك : ما حكاه الإمام أبو القاسم الكلاباذي قدس الله روحه قال : سمعت بعض الفقراء يقول : كنت سَنة الهبير[1] مع الناس ، فانفلتُّ ، ثم رجعت ، وكنت أطوف بين الجرحىٰ ، فرأيت أبا محمد الجريري رحمه الله ـ وكان قد نِيْفَ على المئة ـ فقلت : يا شيخ ؛ ألا تدعو فيُكشَف ما ترىٰ ؟ فقال : قد دعوت ، فقال الله سبحانه وتعالىٰ : إني فعَّال لِمَا أُريد ، فأعدت عليه فقال : يا أخي ؛ ليس هـٰذا وقت الدعاء ، هـٰذا وقت الرضا والتسليم ، فقلت : هل لكَ من حاجة ؟ فقال : أنا عطشان ، قال : فجئته بماء ، فأخذه وأراد أن يشرب ، فنظر إلىٰ قوم ينظرون إلى الماء ، فقال : هـٰؤلاء عطاش وأنا أشرب ؟! لا ، هـٰذا شَرَهٌ ، فرده عليَّ ومات من ساعته رحمه الله .

ومن ذلك : واقعة إبراهيم التيمي رحمه الله مع الحجاج ؛ فإنَّ الحجَّاج لما طلب إبراهيم النخعي . . غلط رسوله ، فظن أن المطلوب إبراهيم التيمي ، فجاء وأخذه إلى الحجاج ، فأمر بحبسه ، فمات في الحبس ، وكان قد علم إبراهيم التيمي أن المطلوب إنما هو إبراهيم النخعي ، فلم يستجزِ أن يدل عليه ، وفداه بنفسه رحمهما الله .

ومن ذلك : ما حكاه في « بهجة الأسرار » قال : حدثنا أبو بكر محمد بن داوود قال : سمعت أبا بكر البويطي وأبا عمرو ابن الآدمي يقولان ـ وكانا يتواخيان في الله عز وجل ـ : خرجنا من بغداد نريد الكوفة ، فلما صرنا في بعض الطريق ؛ إذا نحن بسَبُعَيْنِ رابضين في الطريق ، فقال أبو بكر لأبي عمرٍو : أنا أكبر سِناً منك ، دعني حتىٰ أتقدمك ، فإن كانت حادثة . . اشتغلوا بي عنك ونجوت أنت ، فقال له أبو عمرٍو : إن نفسي ما تسامحني هـٰذا ،

---

(١) **الهبير** : اسم موضع عارض فيه أبو سعيد الجنابي القرمطي الحاج فأصاب منهم جماعة . . فتفرقوا ، فعاد وعارضهم في محرم سنة اثنتي عشرة وثلاث مئة وفتك بهم الفتك القبيح ، فجائز أن يكون الجريري قد هلك في المعارضة الأولىٰ . ومنه عرفت تلك السنة بسنة الهبير .

ولـٰكن نكون جميعاً في مكان واحد ، فإن كانت حادثة . . كنا جميعاً ، فجازا جميعاً في وسط السبعين فلم يتحركا ، ومَرَّا سالمَين .

قال الشيخ أبو بكر : هـٰذا ميزان[1] الموافِقة في المحبة لله عز وجل .

ومن ذلك : واقعة أبي الحسين النوري رحمه الله لمَّا سُعي به إلى الخليفة في جماعة ، وأمر بضرب أعناقهم ، فسبق النوري إلى السَّيَّاف ، فقال له : أتدري إلىٰ ماذا تسارع ؟ قال : نعم ، إلى القتل ، فقال له : وماذا دعاك إلىٰ هـٰذا ؟ قال : أوثر أصحابي بحياة لحظة ، فتحير السَّيَّاف من هـٰذا الكلام ، وأوصل الخبر إلى الخليفة ، فكان ذلك سببَ نجاته ونجاة أصحابه .

ومن ذلك : ما حكاه ابن سعد في « الطبقات » : عن محمد بن عمر بن واقد الأسلمي الواقدي قال : تضيقت مرة في يوم عيد بحيث إن الجارية قالت : ليس في البيت ما نفطر عليه ، فقصدت بعض أصحابي من التجار في الاستقراض منه ، فقال لي : والله ؛ ما عندي غير هـٰذا الكيس فيه ألف دينار ومئتا درهم فخذه ، قال : فلما جئت إلىٰ منزلي . . جاءني صديق لي هاشمي ، وذكر حاجة ، وسألني القرض ، فدخلت إلى الزوجة ، وأخبرتها خبر الهاشمي ، فقالت لي : علىٰ أي شيء عزمت ؟ قلت لها : أدفع إليه البعض وأترك البعض لحاجتنا ، فقالت : لا والله ؛ ما هـٰذا إنصاف ، أنت جئت إلىٰ سوقة[2] فأعطاك جميع ما عنده ، وقد أتاك هاشمي ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم تدفع إليه بعض ما عندك ؟! ادفع إليه الكيس علىٰ حاله .

قال : فدفعت إليه الكيس ، فلما ذهب به الهاشمي إلىٰ منزله . . وجد ذلك التاجر الذي أقرضني جالساً علىٰ باب داره ، فقام إليه وسأله القرض ، فأخرج له الهاشمي ذلك الكيس بعينه ، فعرفه ، فوصل الخبر إليَّ ، فمضيت إلىٰ دار يحيى بن خالد البرمكي ، وأخبرته الخبر[3] ، فقال : يا غلام ؛ هات ذلك الكيس ، فأخرج كيساً فيه عشرة آلاف دينار ، فقال : ألفا دينار لك ، وألفا دينار للهاشمي ، وألفا دينار للتاجر ، وأربعة آلاف دينار لزوجتك ؛ لأنها أكرمكم . [انتهىٰ (٥/ ٤٣١ـ٤٣٣)] .

---

(١) في نسخة : (ميراث) .

(٢) **السُّوقَةُ** : الرعية ، وأوساط الناس .

(٣) ورود الخبر في « الطبقات » في سياق المدح ليحيى بن خالد البرمكي ، حيث كان الواقدي يكثر الترحم عليه ، ولما سئل عن ذلك . . ساق هـٰذه القصة .

ومن ذلك : ما حكاه الإمام أبو الفرج ابن الجوزي قال : قال عبد الله ابن أخت مسلم : أردت الحج ، فدفع إلي خالي مسلم عشرة آلاف درهم وقال : إذا قدمت المدينة . . فانظر أفقر أهل بيت بها ، فادفعها إليهم ، قال : فلما دخلت المدينة . . سألت عن أفقر أهل بيت بها ، فدللت علىٰ أهل بيت ، فطرقت الباب ، فأجابتني امرأة : مَن أنت ؟ فقلت : رجل من بغداد أُودعت عشرة آلاف درهم ، وأُمرت أن أسلمها إلىٰ أفقر أهل بيت في المدينة ، وقد دُللت إليكم ، فخذوا هـٰذا المال ، فقالت : يا عبد الله ؛ إن صاحبك اشترط عليك أن تدفعها إلىٰ أفقر أهل بيت بالمدينة ، وهـٰؤلاء الذين هم جيراننا بإزائنا أفقر منا ، قال : فتركتها وأتيت أولـٰئك ، فطرقت الباب ، فأجابتني امرأة ، فقلت لها مثلما قلت لتلك ، فقالت : يا عبد الله ؛ نحن وجيراننا في الفقر سواء ، فاقسمها بيننا وبينهم سواء ، فقسمتها . [انتهىٰ « الصفوة » ٢/١٢١] .

ومن ذلك : أن الأستاذ أبا حفص النيسابوري رحمه الله جاء إلىٰ منزل الجنيد ، فقام إليه وعانقه ، فقال له أبو حفص : دعنا مِن هـٰذا ، عندك شيء تطعمنا ؟ قال : أي شيء يشاء الشيخ ؟ قال : أريد بطيخاً ، فأمر الجنيد بعض أصحابه بإحضار ما قال ، فلما حضر البطيخ . . قال : يا أخي ؛ قد أحببت أن أوثر به لله عز وجل ، فقال : إني أحب ما تحب ، ثم قال الجنيد لبعض أصحابه : احمل هـٰذا مع الشيخ إلىٰ أين عزم ، فقام معه إلىٰ أن وصل إلىٰ دار ، فدق الباب ؛ فإذا بشخص من داخل الباب يقول : ادخل إن كان معك بطيخاً ، فدخلنا ، فإذا شيخ قاعد وخيش مرسل علىٰ باب ، قال أبو حفص : فوضعت البطيخ وصرفت الذي حمله ، ثم قلت للشيخ : أخبرني عن أمر هـٰذا البطيخ ، فقال : وراء هـٰذه الخيشة صبيان وبنات ، سألوني البطيخ منذ مدة ، ولم تسامحني نفسي أن أسأل الله عز وجل لهم في ذلك ، ثم وجدت البارحة مسامحة أن أسأل الله تعالىٰ فسألته وعلمت إجابة الدعاء بوجود المسامحة للسؤال ، فلما وقفتَ على الباب . . علمتُ ما معك .

السادس : **الإيثار بالحقوق** : إذا تضمن ذلك الإيثار مصلحة راجحة لا مانع فيها ، خاصة كانت أو عامة .

فمما تضمن مصلحة راجحة عامة : ما فعله سيدي وابن سيدي أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، حيث ترك الخلافة لمعاوية حقْناً لدماء المسلمين ؛ فقد تضمن هـٰذا الإيثار حفظ مهج وأرواح لا يحصيهم إلا الله تعالىٰ ، وقد صرح بذلك الحسن رضي الله عنه ؛ فإنه لما سأله معاوية أن يعلم الناس بتسليم الأمر إليه . . قام على المنبر ،

وقال ـ بعد أن خطب ـ : إن الله هداكم بأوَّلنا ، وحقَن دماءكم بآخرنا .

وظهرت المعجزة النبوية ، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن ابني هـٰذا سيد ، [ولعل الله أن] يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين »[1] .

فانظر إلىٰ هـٰذا الإيثار ما أعظمه! وإلىٰ نفسه الكريمة ما أسخاها وأخشاها وأكثر تقواها! فسبحان من أعطاها ، قال تعالىٰ : ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ .

وأفراد هـٰذا النوع كثيرة ، وضابطه : حصول المصلحة الراجحة حيث لا مانع فيها ، خاصة كانت أو عامة .

السابع : **الإيثار بالقُرَب البدنية** : كمن مات وعليه صوم ؛ فإن وليه يصوم عنه على القديم الصحيح[2] الذي يفتىٰ به هـٰهنا ؛ للأحاديث الصحيحة فيه[3] .

والإيثار بهـٰذا النوع وأمثاله من أعظم القرب وأحسنها ؛ لِمَا فيه من تأدية الفرض عن الغير ، مع تضمنه للبر وصلة الرحم ، وأفراد هـٰذا النوع كثيرة :

منها : الدعاء للوالدين ، والأقربين ، والمشايخ ، وسائر السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم من الأئمة ، والترضي عنهم ، والترحم عليهم ، والاستغفار لهم .

ومنها أيضاً : قراءة القرآن ، وإهداء الثواب إليهم عند مَن يرىٰ وصوله ؛ وقد اختاره وأفتىٰ به جماعة من الأئمة ، من أصحابنا وغير أصحابنا ، وقد تضمن هـٰذا : البر وصلة الرحم والمعروف .

الثامن : **الإيثار بالقُرَب البدنية الجامعة بين المال والبدن** : كالحج مثلاً ، وقد قال الأئمة رحمهم الله تعالىٰ : إذا حج عن أحد أبويه أو قريبه أو أجنبي تبرعاً . . إنه أفضل مما إذا حج عن نفسه تطوعاً ، اتفق الأصحاب علىٰ ذلك ؛ لما فيه من تأدية الفرض عن الغير ، مع تضمنه البر ، أو صلة الرحم ، أو المعروف بسبب المحجوج عنه ، والإيثار بهـٰذا النوع وأمثاله مستحب استحباباً مؤكداً .

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٥٧) .

(٢) أي : في مذهب الشافعي رضي الله عنه ، الذي هو مذهب المؤلف رحمه الله .

(٣) ومن هـٰذه الأحاديث ما أخرجه مسلم في « صحيحه » (١١٤٧) : عن عائشة رضي الله عنها ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من مات وعليه صيام . . صام عنه وليه » ، وفي حديث آخر (١١٤٨) عن ابن عباس رضي الله عنه : أن امرأة أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إن أمي ماتت وعليها صوم شهر ، فقال : « أرأيت لو كان عليها دين . . أكنت تقضينه ؟ » قالت : نعم ، قال : « فدَين الله أحق بالقضاء » .

التاسع : الإيثار بالقُرَب المالية : وأفراد هـٰذا النوع كثيرة ؛ كالصدقة عن الأموات من الوالدين والأقارب والأجانب بالطعام ، والشراب ، والفاكهة ، والثياب ، والخبز ، وغير ذلك ، ولم يزل المؤمنون يعتادون ذلك .

وهو أيضاً من أفضل أنواع القُرَب وأعظمها ؛ لما فيه من البر ، وصلة الرحم ، والمعروف ، وسد الخلة بحسب المتصدَّق عنه ، ولا يخفى استحباب ذلك ، والله أعلم .

العاشر : من الإيثار ـ أيضاً **بالقرب المالية ـ صدقة التطوع على الفقراء والمساكين من الأقارب والأجانب** : وأقسام هـٰذا النوع وتفصيل مسائله وتحريرها قد سبق في ترجمة الأستاذ أبي حفص قدس الله روحه ، وأفراد هـٰذا النوع كثيرة : **منها** ـ وهو أعمها نفعاً ـ : الوقف ، والعتق ، والتدبير ، والكتابة ، وفك الأسارىٰ ، وإقراض المحتاجين ، وإنظار المعسرين ، والوضع عنهم ، وإعانة المكاتبين ، ووفاء دَين الغارمين ، وتجهيز جيش المعسرين للجهاد في سبيل الله تعالىٰ ، إلىٰ غير ذلك .

والإيثار بهـٰذا وأمثاله من أعظم القُرَب وأحسنها وأعمها نفعاً ؛ لما فيه من الصدقة الجارية الدائمة ، وتفريج الكربات ، والبر ، وصلة الرحم ، وحفظ دار الإسلام ، وإسداء المعروف ، وسد خلة المسلمين ، وتحرير الرقاب ، لا سيما إن كان والداً أو قريباً ، مع أن الوالد يعتق عليه بمجرد الشراء ، ولهـٰذا قال صلى الله عليه وسلم : « لن يجزي ولد والده ، إلا أن يجده مملوكاً ، فيشتريه ، فيعتق عليه »[1] ، إلىٰ غير ذلك ؛ والله أعلم .

الحادي عشر : الإيثار بالسبق في القربة ؛ ليحوز السابق بها فضيلة السبق : قال الله تعالىٰ : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [الأنبياء : ٩٠] ، **فالمسارعة إلى القربات مطلوبة** ، فلو أراد الإيثار بالسبق إلى القربة ؛ ليحوز السابق بها **فضيلة السبق** . . كان ذلك قصداً صالحاً ؛ لرجوعه عن النصيحة للمؤمنين والشفقة عليهم ، كما حكاه الإمام أبو القاسم الكلاباذي قدس الله روحه عن أبي عثمان الحِيري رحمه الله : أنه استأذن شيخه الأستاذ أبا حفص النيسابوري رحمه الله في الكلام على الناس ، فقال له : وما يدعوك إلىٰ هـٰذا ؟ قال : النصيحة لهم ، والشفقة عليهم ، فقال : وما بلغ مِن شفقتك ؟ قال : لو علمت أن الله تعالىٰ يعذبني بدل جميع من آمن به ويدخلهم الجنة . . لوجدت من قلبي رضىً بذلك ، فأذن له .

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم (١٥١٠) ، وابن حبان (٤٢٤) .

ثم إن الأستاذ أبا حفص شهد مجلسه من حيث لا يشعر ، فلما قضىٰ أبو عثمان كلامه . . قام سائل ، فسبق أبو عثمان ، فأعطاه ثوباً كان عليه ، فقال الأستاذ أبو حفص : ما وفيتَ بقولك ، فإياك أن تتكلم على الناس وفيك هـٰذا الشَّرَه ، قال أبو عثمان : وما ذاك يا أستاذ ؟ فقال : أمَا كان فيك من النصيحة لهم والشفقة عليهم أن تؤثرهم علىٰ نفسك بثواب السبق ثم تتلوهم ؟! فطالبه بتحقيق الصدق واستواء السريرة والعلانية ؛ لتحقيق قوله بفعله ، فلما لم ير منه الوفاء بذلك . . نهاه عن الكلام على الناس .

وهـٰذا الذي قاله الأستاذ أبو حفص رحمه الله يرجع في الحقيقة إلىٰ ما قصده الإمام أبو الحسن السري رحمه الله حيث أراد أن يكون حظ ذلك الرجل من الأجر أكثر ، فقد اتفقا علىٰ مشرب واحد من النصيحة للمسلمين ، والشفقة عليهم ؛ إذ كل واحد منهما أراد أن يكون حظ أخيه المسلم من الأجر أكثر وأوفر .

وهـٰذا بمجرده قصد جليل جميل ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالىٰ .

واعلم : أن مطلق السبق بالقربة لا يقتضي الرجحان على المسبوق ؛ لاحتمال أن يأتي المسبوق بمرجح آخر ينغمر فيه ذلك السبق ، اللهم إلا إذا تساوى الفعلان من كل وجه ، وكان أحدهما أسبق . . فهـٰهنا يحصل الرجحان للسابق ؛ لخيارية فضيلة السبق ، والله سبحانه أعلم .

الثاني عشر : الإيثار بالصف الأول في الصلاة . . خلاف الأولىٰ : أطلق الأصحاب ذلك ، ويحتمل أن يقال : إن كان المؤثِر هو الفاضل . . فإيثاره خلاف الأولىٰ ، وقد ينتهي إلى الكراهة ، وإن كان المؤثِر هو المفضول . . فلا يكون إيثاره خلاف الأولىٰ .

ويستدل علىٰ ذلك بما فعله الإمام أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه مع ابن أبي مليكة ، قال ابن أبي مليكة : كنت في الصلاة في الصف الأول ، فلم أشعر إلا وشخص من ورائي قد اقتلعني من مكاني وأخرجني منه وثبت فيه ، فلما فرغت من الصلاة . . نظرت ؛ فإذا هو أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه ، قال لي : لا يسوؤك الله يا هـٰذا ؛ إن هـٰذا عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلينا ، قال صلى الله عليه وسلم : « ليليني منكم أولو الأحلام والنهىٰ »[1] .

---

(١) أخرجه مسلم (٤٣٢) .

ومِن هٰذا النوع : الإيثار بالإمامة في الصلاة حيث صح الاقتداء بهما ، وكان المؤثِر أفضل ؛ فإن إيثاره بها . . خلاف الأولىٰ .

ومسائل هٰذا النوع كثيرة مشهورة ، والتقدم فيها إنما هو بالفضائل .

ومنه : ما إذا وقع تهاجر بين اثنين ، وكان أحدهما أفضل . . فإن الأولىٰ أن الفاضل هو الذي يَبتدىء بالسلام وإزالة الوحشة ، فلو أراد الفاضل إيثار المفضول بذلك . . كان ذلك خلاف الأولىٰ .

ألا ترىٰ إلىٰ ما روي عن محمد بن الحنفية رحمه الله لما كان بينه وبين أخيه الحسين بن علي رضي الله عنهما نوع تهاجر كيف أرسل إليه محمد بن الحنفية يقول له : يا أخي ؛ لولا أنك أحق بالفضل مني . . لأتيتك وبدأتك بالسلام ، فعرف الحسين رضي الله عنه ذلك ، فجاء إليه ، وبدأه بالسلام .

وقد قال أرباب السير : إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لما كان بالبصرة . . جلس علىٰ سرير ، وأجلس الحسن عن يمينه ، والحسين عن يساره ، وجلس محمد بن الحنفية دون السرير ، فخاف علي رضي الله عنه أن يجد[1] من ذلك ، فقال : يا بني ؛ أنت ابني ، وهٰذان ابنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الثالث عشر : طلاقة الوجه : فالبشر في وجه أخيك المسلم ، وزيادة الاستبشار به ، والابتهاج له ، والزيادة في حسن التحية . . مطلوب ، فكلما كان أكثر طلاقة وأحسن تحية واستبشاراً وابتهاجاً بأخيه المسلم . . كان أفضل ، وأجره أكثر .

فلو أراد الإيثار ببعض ذلك ليكون أجر أخيه المسلم أكثر ، كما قصد سيدي أبو الحسن السري رحمه الله . . كان ذلك قصداً صالحاً ، وإيثاراً جميلاً ، حيث أراد لأخيه المسلم أكثر مما أراد لنفسه ، وآثره بزيادة الأجر ، فهو إيثار بمجرد حظ نفسه ، لا تعلق للغير فيه مع مشاركته له في الأجر وحصول الفضيلة ، وإنما اختص ذلك بزيادة الأجر .

وإذا علم الله عز وجل من عبده الصدق في حسن قصده . . فإنه يثيبه ثواباً آخر ، ويضاعف أجره ، بحيث إنه قد يربو علىٰ ذلك الأجر الذي آثر به ، فيثابان جميعاً ثواباً وافياً ؛ ذاك لزيادة الاستبشار وطلاقة الوجه ، وهٰذا لحسن قصده الصالح الجميل لأخيه المسلم ، حيث أراد أن

---

(١) **يجد** : يحزن .

يكون أجره أكثر ونصيبه أوفر ، والله سبحانه وتعالىٰ عند قصد عبده لا عند حاصله ، والأجر فضل من الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

ومِن هٰهنا يظهر لك حسن قصد سيدي السري رحمه الله ، وأنه جليل جميل منشؤه الورع ؛ لرجوعه إلى الشفقة والنصيحة للمؤمنين .

فهو موافق لما قاله الأستاذ أبو حفص رحمه الله كما سبق ، حيث قال لأبي عثمان : أمَا كان فيك من النصيحة لهم والشفقة عليهم أن تؤثرهم علىٰ نفسك بثواب السبق ثم تتلوهم ؟! فالنصح للمسلمين والشفقة عليهم من شأن عباد الله العارفين ، والعلماء العاملين .

وتضمن قصد سيدي السري رحمه الله أيضاً أموراً أُخرَ يقصر فهمي عنها .

وغاية ما أقول : إن قصده غامض دقيق ، ظاهره عند العامة فيه ما فيه ، وباطنه قد أخذ بمحاسن الأمور ومَجامعها ، مع اشتماله على الكمال والتكميل بحصول الأجر الوافر لها ، مع المحافظة على العمل بقوله صلى الله عليه وسلم : « الدين النصيحة ، لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم »[1] ، إلىٰ غير ذلك .

رحمه الله تعالىٰ ، فما أكثر عرفانه ، وأغمض أفعاله ، وأحسن مقاصده ، وأظهر برهانه!

وهٰذه الأسرار التي ذكرناها كلها من بركة قصده الصالح أيضاً ؛ لأن النظر فيه أوجب ذلك .

فالله َتعالىٰ أسأل أن يفيض عليَّ من عرفانه وبركته ، وأن يجمع بيني وبينه مع سائر الأحبة في الفردوس الأعلىٰ من دار كرامته ؛ إنه الجواد الكريم ذو الفضل العظيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

هٰذه مجامع أنواع القربات وضوابطها ، ومعظم مسائلها ـ مع انتشارها وكثرتها ـ راجعة إليها ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

تنبيه مهم

اِعلم : أن ما فعل سيدي السري رحمه الله كونه نقَّصه في السلام ؛ إيثاراً له بزيادة الأجر ، إنما يكون حسناً ومطلوباً بالنسبة إلىٰ مَن كان عارفاً عالماً ، أمَّا مَن ليس كذلك . . فلا ، لا سيما في زماننا هٰذا ؛ فإنه قد يؤدي ذلك إلىٰ عكس المقصود من وقوع تباغض أو

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم (٥٥) .

شحناء ، وموضوع السلام للألفة والمحبة ، فالصواب عدم استعمال ذلك إلا لعارف أو لعالم ، والله أعلم . انتهىٰ .

وقال في « بهجة الأسرار » : قال الجنيد : قال السري : استوصيت بشرَ بن الحارث بوصية فقال : أخاف أن أوصيك بوصية يكون وبالُها عليَّ وعليك ، فقلت : عليَّ ذلك ، فقال : انظر بأي بدن توافي القيامة ، وانظر مَن يحاسبك ، وبين يدي مَن تقف سبحانه وتعالىٰ ، واعلم أنك مسؤول لا محالة ، فأَعِدَّ للسؤال جواباً ، وللجواب صواباً ، والزم بيتك ، وحاسب نفسك ، فإذا قدمت القيامة .. تقول : يا رب ؛ ما زلت ملازماً لبيتي ، محاسباً لنفسي ، فيقول الله عز وجل : صدقت ، ثم قال : هيهات! وأنىٰ يقول : (صدقت) إلا للصديقين ؟!

وانظر كل خطرة تخطر ببالك تستحيي منها أن تُعلم بها جليسك ، فالله أحق وأحرىٰ أن يُستحيا منه سبحانه وتعالىٰ . انتهىٰ .

وقال الإمام محمد ابن الإمام أبي بكر الرازي في كتاب « التوحيد » : قال الجنيد : كنت أسمع السري يقول : يبلغ العبد من الهيبة والأنس إلىٰ حدٍّ لو ضُرب وجهه بالسيف .. لم يشعر .

وكان في قلبي منه شيء حتىٰ بان لي الأمر كذلك[١] ، وذلك لأن الهيبة والأنس حالتان فوق القبض والبسط ، والقبض والبسط فوق الخوف والرجاء[٢] .

فالهيبة مقتضاها الغيبة والدهش ، فكل هائب غائب ، حتىٰ لو قطع قطعاً .. لم يحضر من غيبته إلا بزوال الهيبة عنه .

والأنس مقتضاه الصحو والإفاقة ، ثم إنهم يتفاوتون في الهيبة والأنس ، وقيل : أدنىٰ

---

(١) أكد هـٰذا الشيخ زكريا الأنصاري فقال في « شرح الرسالة » (٥٦) : (حيث ذاق وعلم أن كمال الاستغراق يزيل الإحساس بالنفس بالكلية ، وشاهده : خبر [الترمذي بنحوه (١٦٦٨) وقال : حديث حسن صحيح غريب] « إن الشهيد إنما يجد من الموت كما نجده من القرصة » لخفة ذلك عليه بكمال شغله بجهاده ، فيأتيه الموت بالسيف ولا يحس به إلا كما يحس بالقرصة) .

(٢) بيَّن معنىٰ هـٰذا الكلام شيخ الإسلام زكريا الأنصاري « في شرحه على الرسالة القشيرية » (٥٦) فقال : (« الأنس أتم من البسط » أي : فوقه ، فالهيبة ناشئة من القبض الناشىء من الخوف ، والأنس ناشىء من البسط الناشىء من الرجاء ؛ لأن من خاف الله عز وجل ، وعرف تقصيره في حقه تعالىٰ .. انقبض قلبه ، وبقي مشغولاً بالله ، فيحصل له الهيبة منه ، ومن أمل وصوله إلىٰ خير .. انبسط قلبه وبقي مشغولاً بالله ، فيحصل له الأنس به) .

مرتبة في الأنس : أنه لو ألقي في النار . . ما تكدر أُنسه .

ألا ترىٰ إلىٰ قول السري : يبلغ العبد من الهيبة والأنس إلىٰ حدٍّ لو ضرب وجهه بالسيف . . لم يشعر ، وذلك لأن الأنس يتولد من السرور بالله ، ومَن صح له الأنس بالله . . استوحش مما سواه .

وقيل لبعضهم : هل يذوق العبد حلاوة الأنس ؟ فقال : نعم ، إذا قطع العلائق ، ورفض الخلائق ، وغاص في الحقائق ، مطلعاً على الدقائق .

وقال الشبلي : مَن استأنس بالله عز وجل . . استوحش من خلقه ، ومَن استوحش من خلقه . . صار فرداً بين يديه جل جلاله .

وحالتا الهيبة والأنس ـ وإن جلَّتا ـ فأهل الحقيقة يعدونهما نقصاً ؛ لتضمنهما تغير العبد ؛ فإن أهل التمكين سَمَت أحوالهم عن التغير ، فلهم كمال في المحو ووجود في العين ، فلا هيبة لهم ، ولا أنس ، ولا علم ، ولا حس ، وارتقاؤهم عن هٰذا المقام بالجود والفيض الإلٰهي تبارك وتعالىٰ . [انتهىٰ] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : رأيت في بعض تعاليق والدي قدس الله روحه : أن سرياً السَّقَطي رحمه الله قال : أرِقت ذات ليلة ، فلم أطق الغمض مع ما حُرِمته من التهجد وكثرة التفكر ، فلما صليت الفجر . . خرجت لا يقر لي قرار ، فقلت : أمضي إلىٰ بعض الوُعَّاظ لَعلِّي أجد لقلبي راحة ، فلما وقفت عليه . . وجدت قلبي لا يزداد إلا قساوة ، فقلت : أمضي إلى الشرطة لَعلِّي أعتبر بمن يعاقَب في الدنيا ، فلما مضيت . . وجدت قلبي علىٰ حاله ، فقلت : أمضي إلى المارستان[1] لَعلِّي أعتبر بمن قد ابتلي ، فلما دخلت المارستان . . وجدت قلبي قد انفسح وارتاح ، فرأيت جارية جالسة علىٰ سرير من أحسن الناس وجهاً ، وعليها أطمار حسنة ، وشممت منها رائحة طيبة ، وهي عفيفة المنظر ، مقيَّدة الرجلين ، مغلولة اليدين ، فلما رأتني . . تغرغرت عيناها بالدموع ، وأنشدت :

أعنـــدك أن تُغَـــل يَـــديْ ... بغيـــر جـــريمـــة سبقـــتْ
تُغَـــلُّ يـــدي إلـــىٰ عنقـــي ... ومـــا خـــانـــت ومـــا ســـرقـــتْ
وبيـــن جـــوانحـــي كبـــد ... أُحِـــسُّ بهـــا قـــد احتـــرقـــتْ

(١) **المارستان** : كلمة فارسية تعني : المكان المعد للمرضىٰ ، وهو كالمشفىٰ في زماننا .

وحقِّك يا منىٰ أملي يميناً بـرَّةً صدقتْ
فلو قَطَّعْتَها قِطَعاً وحَقِّك عنك ما برحتْ

قال السري : فلما سمعت كلامها . . قلت للقيِّم : ما هـٰذه الجارية ؟ قال : جارية مجنونة ، حبسها مولاها لكي تصحو ، قال : فأردت الدنو منها ، فقال لي القيِّم : لا تقرب منها ؛ فإن الذي بها عظيم ، فلما سمعت كلام القيِّم . . تغرغرت عيناها بالدموع ، وأنشدت :

معشرَ الناس ما جُنِنت ولـٰكنْ أنا سكرانة وقلبيَ صاحِ
أنا مجنونة بحب حبيب لست أبغي عن بابه من بَراحِ
وصلاحيْ الذي رأيتم فساديْ وفسادي الذي رأيتم صلاحي
ما علىٰ من أحب مولى الموالي وارتضاه لنفسه من جُناحِ

قال السري : فلما سمعت ذلك منها . . أقلقني وأبكاني ، فلما رأتني علىٰ تلك الحال . . قالت : يا سري ؛ هـٰذا بكاؤك علىٰ ذِكر صفته ، فكيف لو عرفته حق معرفته ؟! ثم بكت ، وأنشدت :

أَلبَسْتَني ثوب وصل طاب ملبسه فأنت مولى الورىٰ حقاً ومولائي
كانت بقلبيَ أهواءٌ مفرقة فاستجمَعَتْ مذ رأتك العين أهوائي
فصار يحسُدني من كنت أحسُده فصرتُ مولى الورىٰ مذ صرتَ مولائي
تركتُ للناس دنياهم ودينَهُمُ شغلاً بحبك يا دِيني ودنيائي
من غَصَّ داوىٰ بشرب الماء غُصَّتَه فكيف يصنع من قد غَصَّ بالماء
فالشوق في خاطري مني وفي كبدي والحب مني مقيم بين أحشائي

قال : فقلت لها : يا جارية ؛ قالت : لبيك يا سري ، قلت : ومِن أين عرفتِ اسمي وما رأيتُك قبل هـٰذا ؟ فقالت : عرَّف بيني وبينك علام الغيوب سبحانه وتعالىٰ .

فقلت لها : سمعتك تذكرين المحبة ، فمن أحببت ؟ قالت : يا سري ؛ أحببت علام الغيوب ، وكاشف الكروب سبحانه وتعالىٰ .

فقلت لها : ومَن حبسك ؟ وما سبب حبسك وأنتِ علىٰ هـٰذه المعرفة والإخلاص في الحب ؟ قالت : يا سري ؛ زعموا أني مجنونة ، وهم أولىٰ باسم الجنون مني ، ثم بكت طويلاً .

فقلت : يا جارية ؛ قالت : لبيك يا سري ، قلت : ما اسمك ؟ قالت : دع الاسم ، اسمي : تحفة .

قال سري : فقلت لقيِّم المارستان : حُلَّ عنها قيدها ، وانزع الغل من عنقها ، ففعل ، ثم تحادثنا ساعة ، وإذا مولاها قد أقبل ، فقال للقيِّم : مَن عند تحفة ؟ قال القيِّم : سري السقطي وحاجبها ، فدخل مولاها ، فلما رآني . . سلم عليَّ وأعظمني ، فقلت له : يا فتىٰ ؛ إنها بالإعظام أولىٰ مني .

ثم قلت : يا فتىٰ ؛ ما الذي تنكر مِن هـٰذه الجارية ؟ قال : يا سري ؛ كثرة بكائها وأنينها ، وهي ذاهلة العقل ، طول ليلها قائمة لا تنام ولا تدعنا ننام ، وهي ـ والله ـ بضاعتي شريتها بخمس مئة دينار ؛ لحسن صنعتها ، قلت : وما صنعتُها ؟ قال : عوادة تضرب بالعود ، قلت : ومنذ كم لحقها هـٰذا ؟ قال : منذ ثلاث سنين ، قلت : وما كان سبب ذلك ؟ قال : بينا هي تغني وعودها في حجرها ، وهي تقول :

ملأتَ جوانحي والقلب وجداً ... فكيف أقر أو أسلا وأهدا
وحقك لا نقضتُ الدهر عهداً ... ولا كدَّرتُ بعد الصفو وِردا
فيا من ليس لي مولىً سواه ... تراك رضيتني في الناس عبدا

قال : ثم رمت العود من يدها ، فكسرته ، فهـٰذا كان سبب جنونها ، قال : فلما سمعت الجارية ذلك . . أنشدت :

خاطبني الحق من جَناني ... فكان وعظي علىٰ لساني
قَرَّبني منه بَعْدَ بُعْدٍ ... وخصني منه واصطفاني
أجبت لما دُعِيتُ طوعاً ... ملبِّياً للذي دعاني

قال السري رحمه الله : فقلت لمولاها : أطلق سبيلها وعليَّ خمس مئة دينار أدفعها إليك في غد إن شاء الله عز وجل ، فقال : تكون مقيمة في موضعها هـٰذا إلىٰ أن تحضر المال أو تفيق من الجنون إن شاء الله .

قال السري : فانصرفت وأنا باكي العين حزين القلب على الجارية ، فلما كان في جوف الليل ؛ وإذا أنا بالباب يُطرَق ، فخرجت ، فوجدت خمسة من الرجال ، فقلت : ما حاجتكم ؟ فقال أحدهم : أخ في الله تعالىٰ جاء لسبب من الأسباب بإذن الملك الوهاب سبحانه وتعالىٰ ، قال السري : ففتحت الباب ، فقال : أتأذن في الدخول ؟ فقلت : نعم ،

فدخل ومن معه ، وعلىٰ أكتافهم أربع بِدَرِ دنانير ، وبيد الغلام شمعة ، فقال : أتعرفني ؟ قلت : لا ، قال : أنا أحمد بن المثنىٰ ، بينا أنا نائم الليلة ؛ وإذا هاتف يقول : يابن المثنىٰ ؛ هل لك في معاملة المولىٰ جل جلاله ؟ فقلت : يا فرحي إن كنت للرِّق أَصلُح! فقال : احمل مِن مالك أربع بدر إلىٰ سري السقطي يشتري بها تحفة ؛ فإن لنا بها عناية ، وقد جعلناها من أهل الولاية ، وأَعلِمْ مولاها بأن الله عز وجل سيفتح عليه من حيث لا يحتسب .

قال : فقمت وسارعت إلىٰ ما أُمرت ، وهـٰذا المال قد جئت به ، قال السري : فسجدت شكراً لله عز وجل علىٰ هـٰذه النعمة الجديدة ، ولم نزل إلىٰ أن طلع الفجر ، فلما أن صلينا الصبح . . أتينا المارستان ، وإذا قيِّم المارستان على الباب ، فلما رآني . . قال : يا سري ؛ جئتَ من أجل تحفة ؟ قلت : نعم ؛ وحكيت له ما قال ابن المثنىٰ من كلام الهاتف ، قال السري : ثم دخلنا المارستان ومعنا القيِّم ، فلما رأتنا . . تغرغرت عيناها بالدموع ، وأنشأت تقول :

قــــد تصبـــــرت لحتـــــىٰ عِيْـــلَ فـــي حبـــك صبـــري
ليـــس يخفـــىٰ عنـــك أمـــري يـــا منـــىٰ قصـــدي وذخـــري
أَتُـــــرىٰ تعتـــــق رقـــــي أو تفـــك اليـــومَ أســـري

قال السري رحمه الله : فبينا نحن جلوس وأنا أقول لها : قد أجيبت الدعوة ؛ إذ دخل مولاها حزيناً متغير اللون باكياً ، فقلت له : لا تبك ، قد فرج الله عز وجل ، وقد حصل المال مثل ما أردت ، وإن طلبت ربحاً . . أعطيناك ، ولو أنه خمسة آلاف دينار ، فقال : والله يا سيدي السري ؛ لا أبيعها أبداً ، ولا بربح عشرة آلاف دينار .

فقلت : فهـٰذه أربع بدر دنانير ، فقال : والله ؛ لا فعلت ولو كان ملء الأرض ذهباً وفضة .

فقلت : يا فتىٰ ؛ ما هـٰكذا كان كلامك بالأمس ، فقال : هيهات يا سري! ما تعلم ما جرىٰ عليَّ من التوبيخ في البارحة وما هتف بي الهاتف ؟ اعلموا أن هـٰذه الجارية حرة لوجه الله تعالىٰ ، وجميع ما أملكه صدقة لله سبحانه وتعالىٰ .

قال السري : فالتفت ؛ فإذا ابن المثنىٰ يبكي بكاء شديداً ، فقلت له : ما يبكيك ؟ فقال : إن الله عز وجل لم يرضَني ، فقلت له : قد وقع الأجر ، وحصلت النية ، ونية المؤمن خير من عمله ، ولم أزل أُسكِّنه حتىٰ سكن ما به ، ثم قال لي : يا سري ؛ هـٰذا المال قد

خرجت عنه لله عز وجل ولا سبيل إلى الرجوع فيه ، وإنما هو وباقي مالي صدقة ، وكل ريع[1] لي . . فهو حبيس في سبيل الله تعالىٰ ، وكل مملوك لي . . فهو حر لله تعالىٰ ، وأنا هارب إلى الله عز وجل ، تائب إليه من جميع ذنوبي ، فقال الفتىٰ مولى الجارية : وأنا أيضاً أشهدكم أن جميع ما أملكه في سبيل الله ، وأنا هارب إلى الله ، وتائب إليه سبحانه وتعالىٰ .

فما أعظم بركة هـٰذه الجارية تحفة على الجميع!

قال السري رحمه الله : فقامت الجارية ، فنزعت ما كان عليها ، ولبست مدرعة من الشعر ، وخماراً من الصوف ، وقامت تمشي معنا ، وهي تبكي وتقول :

يا سروراً للقلبِ أنت سروري ... وحياتي وأنت نور النورِ
كم ترىٰ يصبر المحب عن الحِـ ... ـبِّ وكم يلبث الهوىٰ في الصدورِ

ثم قالت : وا طول حزناه! وا شوقاه! ثم فارقتنا ومضت وهي تقول :

هربت منه إليهِ ... بكيت منه عليهِ
وحَقِّه هو سؤلي ... لا زلت بين يديه
حتىٰ أنالَ وأَحظىٰ ... بما اتَّكلت عليه

قال السري : ثم غابت عنا ، فلما كان في بعض السنين . . حججت أنا ومولاها ، فبينا نحن في الطواف مع جماعة ؛ إذ سمعت صوتاً حزيناً ، وهي تنادي بالبكاء : يا سري ؛ فلما رأتنا . . أنشأت تقول :

محب الله في الدنيا سقيمُ ... تطاوَلَ سقمه فدَواه دَاهُ
يهيم بحِبِّه شوقاً إليه ... فليس يريد محبوباً سواهُ
كذلك كل من يُدعىٰ محباً ... يَهيم بحِبِّه حتىٰ يراهُ

قال السري : ثم سقطَتْ مغشياً عليها ، فلما أفاقت . . أنشدت :

أموت وما ماتت لديك صبابتي ... ولا رَوِيَتْ من فَرْط حبك أوطاري
مناي المُنىٰ كل المنىٰ أنت لِيْ المنىٰ ... وموضعُ أشواقي ومكنون أسراري
أَلَسْتَ دليلَ القوم إن هُمْ تحيروا ... ومنقِذَ مَن أمسىٰ علىٰ جُرُفٍ هاري

(١) الرَّيع : المرجوع والغلة .

قال السري : فتقدَّمتُ إليها ؛ فإذا هي تحفة ، فقلت لها : ما وهبك الله عز وجل بانقطاعك عن الخلق ؟ قالت : آنسني بقربه ، وأوحشني من خلقه ، فقلت : يا تحفة ؛ إن ابن المثنىٰ قد مات ، فقالت : رحمه الله وغفر له ، إني لأرجو له من الله سبحانه وتعالىٰ كل خير ونعيم وزلفىٰ ، وسيجزيه الله عز وجل بكل درهم أنفقه في سبيل الله سبع مئة ضعف إلىٰ أضعاف مضاعفة ، ثم قالت : إلـٰهي وسيدي ومولاي ؛ أسألك بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة . . أن تقبضني إليك ، إلىٰ كَمْ أبقىٰ في دار الدنيا محزوناً ؟! إلـٰهي ؛ قد طال شوقي إليك ، فعجل ربي قبض روحي إليك ، يا أرحم الراحمين ، ومجيب دعوة المضطرين .

ثم استقبلت القبلة وتشهدت ، فماتت رحمها الله تعالىٰ . أو كما قال . انتهىٰ .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : وقال السري رحمه الله : وددت أن حُزن الخلق كلهم عليَّ .

وقال : إن في النفس لشُغلاً عن الناس .

وقال : المغبُون . . مَن فنيت أيامه بالتسويف ، والمغبوط . . مَن تمنى الصالحون مقامه .

وقال السري : سئل حكيم من الحكماء : متىٰ يكون العالِم مسيئاً ؟ قال : إذا كثر بقباقه[1] ، وانتشرت كتبه ، وغضب أن يرد عليه في شيء من قوله . أو ما هـٰذا معناه .

وقال الجنيد : بعثني السري يوماً في حاجة ، فأبطأت عليه ، فقال لي : إذا بعث بك رجل يتكلم في موارد القلوب في حاجة . . فلا تبطىء عليه ؛ فإنك تشغل قلبه .

وقال السري : احذر أن تكون ثناءً منشوراً وعيباً مستوراً .

وقال السري : جاءني أبو جعفر السماك ـ وكان شيخاً شديد الوله ـ ورأىٰ عندي جماعة قد اجتمعوا حولي ، فوقف ولم يقعد ، ثم نظر إلي فقال : يا أبا الحسن ؛ صرتَ مُناخاً[2] للبطالين ، [فرجع] ولم يقعد ، وكره لي اجتماعهم حولي .

---

(١) **رجل بقباق** : أي كثير الكلام ، أخطأ أو أصاب .

(٢) **المُناخ** : الأصل : مبرك الإبل ومحل الإقامة ، ولـٰكنه يقال : هـٰذا مناخ سَوء ؛ أي : مكان غير مرضيٍّ .

وقال السري : إني أعرف طريقاً يؤدي إلى الجنة قصداً ، فقيل : وما هو ؟ فقال : أن تشتغل بالعبادة ، وتقبل عليها وحدها ، حتىٰ لا يكون فيك فضل .

وقال الجنيد : كان السري إذا أراد أن يفيدني . . سألني ، فقال لي يوماً : ما الشكر ؟ فقلت : ألاّ يُعصى الله في نعمه سبحانه وتعالىٰ ، فقال لي : ما أحسن ما أجبت! ما أحسن ما تقول!

قال الجنيد : وهٰذا هو فرض الشكر ؛ ألاّ تعصي في نعمه .

وقال السري : أعرف طريقاً مختصراً يؤدي إليه سبحانه وتعالىٰ ، فقيل له : وما هو ؟ قال : لا تأخذ من أحد شيئاً ، ولا تسأل أحداً شيئاً ، ولا يكن معك ما تعطي منه أحداً شيئاً .

وقال : لا يقوىٰ علىٰ ترك الشهوات إلا من ترك الشبهات .

وقال السري وقد ذكر الناس فقال : لا تعمل لهم شيئاً ، ولا تعط لهم شيئاً ، ولا تكشف لهم عن شيء ، اعمل لله عز وجل خالصاً .

وقال : مَن ذكرني بسوء . . فهو في حل ، إلا رجل تعمدني بشيء هو يعلم مني خلافه .

وقال الجنيد : سمعت الحسن البزار يقول : كان أحمد ابن حنبل هٰهنا ، وكان بشر بن الحارث هٰهنا ، وكنا نرجو أن يحفظنا الله تعالىٰ بهما ، ثم إنهما ماتا وبقي السَّريُّ ، وإني أرجو أن يحفظنا الله تعالىٰ بالسَّريِّ .

وقال أبو عليٍّ الحسن البزار : سألت أحمد ابن حنبل عن السري بعد قدومه من الثغر ، فقال : عن الشيخ الذي يُعرف بطيِّب الغذاء ؟ قلت : بلىٰ ، قال : وكان السري يكثر من طيِّب الغذاء ـ يعني : الحلال ـ وتصفية القوت ، وشدة الورع ، حتى انتشر ذلك عنه .

وقال الجنيد : كان السري يقول لنا ونحن حوله : أنا لكم عبرة ، يا معشر الشباب ؛ اعملوا ؛ فإنما العمل في الشبيبة .

وكان إذا جن عليه الليل . . دافع أوله ، ثم دافع ، ثم دافع ، فإذا غلبه الأمر . . أخذ في النحيب والبكاء .

وقال : سمعت السري يقول : مِن الناس مَن لو مات نصف أحدهم . . ما انزجر النصف الآخر ، ولا أحسبني إلا منهم .

أسند وسمع من الأئمة الأعلام ، وامتنع من التحديث ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/١١٨ـ١٢٧] .

وقال في « المناقب » : قال الجنيد : سمعت سرياً يقول : كنت ماراً في البَرِّية ، فآواني الليل إلىٰ جبل لا أنيس فيه ، فبينا أنا في جوف الليل ؛ ناداني مناد فقال : لا تدور القلوب في الغيوب حتىٰ تذوب النفوس من مخافة فوت المحبوب ، قال : فتعجبت ، وقلت : أجِنِّيٌّ يناديني أو إنسي ؟ فقال : بل جني مؤمن بالله سبحانه وتعالىٰ ومعي إخواني ، فقلت : وهل عندهم ما عندك ؟ فقال : نعم ؛ وزيادة .

قال : فناداني الثاني منهم : لا تذهب مِن البدن الفتوَّة إلا بدوام الغربة ، فقلت في نفسي : ما أبلغ كلامهم .

فناداني الثالث : مَن أنس به في الظلام . . نشر له غداً الأعلام ، قال : فصعقت ، فما أفقت إلا برائحة الطيب ، وإذا نرجسة علىٰ صدري ، فشممتها فأفقت ، فقلت : وصية رحمكم الله ، فقالوا جميعاً : أبى الله أن تحيا به إلا قلوب المتقين ، فمن طمع في غير ذلك . . فقد طمع في غير مطمع ، وفقنا الله وإياك ، وودعوني ومضوا ، وقد أتىٰ عليَّ حينٌ ولا أزال أرىٰ بركة كلامهم موجودة في خاطري .

وروي أنه أنشد يوماً :

لا في النهار ولا في الليل لي فَرَجٌ	فلا أبالي أطال الليل أم قَصُرا
لأنني طول ليلي هائم دنف	وبالنهار أقاسي الهم والفِكَرا

وقال أبو الفرج : قال سليمان بن محمد : حدثني بعض إخواني : أن سرياً رحمه الله مرت به جارية ومعها إناء فيه شيء ، فسقط من يدها فانكسر ، فأخرج سري شيئاً من دكانه وأعطاها بدل ذلك ، فنظر إليه معروف الكرخي ، فأعجبه ما صنع ، فقال له : بغَّض الله إليك الدنيا ، وأراحك مما أنت فيه . [انتهىٰ « الصفوة » ٢/٢٢٤] .

وقال القشيري : قال الجنيد : كنت أسمع السري رحمه الله يقول : يبلغ العبد إلىٰ حد لو ضرب وجهه بالسيف . . لم يشعر ، وكان في قلبي منه شيء ، ثم بان لي أن الأمور كذلك . انتهىٰ [« الرسالة القشيرية » ٥٦] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال مظفر بن سهل : سمعت علان الخياط وكان قد جرىٰ بيني وبينه ذكر مناقب السَّريِّ ، فقال لي : كنت يوماً جالساً مع السَّريِّ ، فجاءته امرأة

فقالت : يا أبا الحسن ؛ أنا من جيرانك ، وقد أخذ ابني الطائف[1] ، وأخشىٰ أن يؤذيه ، فإن رأيت أن تجيء معي أو تبعث إليه ، قال علان : فتوقعت أن يبعث إليه ، فقام وكبَّر وطوَّل صلاته ، فقالت له المرأة : يا أبا الحسن ؛ اللهَ اللهَ فيَّ ، أخشىٰ أن يؤذىٰ ولدي ، قال : فسلَّم وقال لها : أنا في حاجتك[2] .

قال علان : فلم يكن إلا أن جاءت امرأة أخرىٰ ، فقالت لها : قد أُفرج عن ابنك ، اذهبي إليه .

قال : فتعجب الرجل من سرعة إجابة دعائه ، فقال له علان : و[من] أي شيء تتعجب ؟ اشترىٰ كُرَّ[3] لوزٍ بستين ديناراً ، وكتب على العِدْل الذي هو فيه : ربحه ثلاثة دنانير ، فارتفع السعر حتىٰ صار الكر بتسعين ديناراً ، فأتاه الدَّلاَّل ، وقال له : أريد ذلك اللوز ، فقال : خذه ، فقال : بكم ؟ قال : بثلاثة وستين ديناراً ، فقال له الدَّلاَّل : إن اللوز قد صار بتسعين ديناراً ، فقال : قد عقدت بيني وبين الله تعالىٰ عقداً لا أحله ، وليس أبيعه إلا بثلاثة وستين ديناراً ، فقال له الدَّلاَّل : إني قد عقدت بيني وبين الله عز وجل عقداً ألاَّ أغش مسلماً ، لست آخذه منك إلا بتسعين ديناراً ، فلا الدَّلاَّل اشترىٰ منه ، ولا هو باعه ، فكيف لا يستجاب دعاء مَن هـٰذا فعله ؟!

وقال ابن أبي الورد : دخلت يوماً على السَّريِّ وهو يبكي ، ودورقه[4] مكسور ، فقلت له : ما لَك ؟ فقال : انكسر الدورق ، فقلت : أنا أشتري لك بدله ، فقال : من أين تشتري بدله وأنا أعرف الدانق الذي اشتُري به الدورق ، ومَن عمله ، ومِن أين أخذ طينته ، وأي شيء أكل عامله حتىٰ فرغ من عمله ؟!

وقال سعيد بن عثمان : سمعت سرياً يقول : غزونا أرض الروم ، فمررت بروضة خضراء فيها الخُبَّيْز[5] وحجر منقور فيه ماء المطر ، فقلت في نفسي : لئن أكلت يوماً حلالاً . . فاليوم ، فنزلت عن دابتي وجعلت آكل من ذلك الخبيز ، وشربت من ذلك الماء ؛

---

(١) **الطَّائف** : العَسَس ـ رجال الشرطة ـ الذين يطوفون بالليل يحرسون الناس ويكشفون أهل الريبة .

(٢) هـٰذا الفعل هو عين سنة الحبيب صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر . . فزع إلى الصلاة ، وهو باب عظيم من أبواب الفرج ، نسأل الله التوفيق .

(٣) **الكُرُّ** : مكيال لأهل العراق .

(٤) **الدورقُ** : إناء من زجاج يوضع فيه الشراب .

(٥) **الخُبَّيْز** : جنس نبات له أوراق مستديرة ، يطهىٰ ورقه فيؤكل .

وإذا هاتف يهتف بي : يا سري ؛ فالنفقة التي بلغت بك إلىٰ هـٰذا مِن أين ؟

وقال حسن المسوحي : دفع إليَّ السَّريُّ قطعة وقال : اشترِ لي بها باقِلاَّء من رجل قِدْرُه داخل الحانوت ، فطفت الكرخ كله ، فلم أجد إلا مَن قدره خارج الحانوت ، فرجعت إليه ، وقلت له : هـٰذه قطعتك ، فإني لم أجد إلا من قدره خارج الحانوت[(١)] .

وقال أبو عبيد القاضي : سمعت سرياً يقول : إني لأكره مجيء الناس إلي ، فأقول : اللهم ؛ هب لهم ما يشغلهم عني ؛ فإني لا أريد مجيئَهم إلي ، ولا أن يدخلوا عليَّ ، وأنت أعلم .

وقال الجنيد : قال لي السَّريُّ : إن أمكنك ألاّ تكون آنية بيتك إلا خزفاً[(٢)] . . فافعل ، قال الجنيد : وهـٰكذا كانت آنية بيته .

قال : وسمعت سرياً يقول : ما أرىٰ لي علىٰ أحد فضلاً ، قيل : ولا على المخنَّثين ؟ قال : ولا على المخنثين .

وقال : مَن أراد أن يَسلمَ له دِينه ، و[يستريح] قلبه وبدنه ، ويَقِلَّ غمه . . فليعتزل الناس ؛ لأن هـٰذا زمان عزلة ووحدة .

وقال : عمل قليل في سُنَّة . . خير من عمل كثير في بدعة ، كيف بعمل مع هوىً ؟!

وكان يقول : مَن خاف الله تعالىٰ . . خافه كل شيء .

وقال : إن اغتممت بما ينقص من مالِك . . فابك علىٰ ما ينقص من عمرك .

وكان يقول : اللهم ؛ ما عذبتني بشيء . . فلا تعذبني بذل الحجاب .

وقال : مَن حاسب نفسه . . استَحيا الله عز وجل أن يحاسبه يوم القيامة .

وقال : مَن عرف ما يطلب . . هان عليه ما يبذل .

وقال علي بن الحسين[(٣)] : سمعت سرياً يقول : إن الله عز وجل سلب الدنيا عن

---

(١) ولعل المراد : أنه لم يرد أن يأكل طعاماً من عند إنسان لا يعرف التوكُّلَ على الله ؛ لأن الذي يضع قِدره خارج الدكان يظن بذلك أن هـٰذا القِدر سيدل الذين يشترون عليه ، أما المتوكل على الله . . فيعلم علم اليقين أن رزقه سيدركه كما يدركه أَجَلُهُ ، سواء كان القدر داخل الدكان ، أو خارجه ، والله أعلم ، أو المراد : أن الذي يضع قدره خارج الحانوت يأخذ موضعاً خارج حانوته قد لا يملكه ، فيكون فيما يبيعه شبهة .

(٢) **الخزف** : ما عمل من الطين وشوي بالنار فصار فخاراً .

(٣) وهو أبو عبيد بن حربويَه .

أوليائِه ، وحماها عن أصفيائه ، وأخرجها من قلوب أوِدَّائه ؛ لأنه سبحانه وتعالىٰ لم يرضها لهم .

وقال محمد بن علي : سمعت سرياً يقول : حمدت الله عز وجل مرة ، وأنا أستغفر الله تعالىٰ من ذلك منذ ثلاثين سَنة ، فقيل له في ذلك فقال : كان لي دكان في سوق وفيه متاع ، فاحترق ذلك السوق ، فأخبرت بذلك ، فخرجت أتعرف الخبر ، فلقيت رجلاً فقال : أبشِرْ ؛ فإن دكانك قد سلم ، فقلت : الحمد لله ، ثم فكرت ، فرأيتها نقصاً ؛ فإني أحببت الخير لنفسي دون المسلمين ، وفرحت لنفسي ولم أحزن للمسلمين .

وقال الجنيد : دخلت على السَّريِّ يوماً ، فسلمت وجلست ، فقال لي : أُقرب مني ، فقربت منه ، فأخذ بيدي فقال : اعلم أن الشوق والأنس يرفرفان على القلب ، فإن وجدا هناك الهيبة والإجلال . . [حَلاَّ] ، وإلا . . ارتحلا .

وقال : ثلاث مَن كن فيه . . فقد استكمل الإيمان :

- من إذا غضب . . لم يخرجه غضبه عن الحق .
- ومن إذا رضي . . لم يخرجه رضاه إلى الباطل .
- ومَن إذا قدر . . لم يتناول ما ليس له .

وقال : كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يكن له وقت ينام فيه ، فكان ينعس وهو قاعد ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ؛ ألا تنام ؟ فقال : كيف أنام ؟! إن نمت بالنهار . . ضيعت أمور المسلمين ، وإن نمت بالليل . . ضيعت حظي من الله عز وجل .

وقال الجنيد : ما رأيت أعبَدَ من السَّريِّ ، أتت عليه ثمان وتسعون[1] سَنة ما رئي مضطجعاً إلا في علة الموت .

وقال السري : لولا الجمعة والجماعة . . لسددت علىٰ نفسي الباب ولم أخرج .

وقال الجنيد : كنت نائماً عند السَّريِّ ، فأنبهني وقال لي : يا جنيد ؛ الساعة رأيت كأني أوقفت بين يدي الله عز وجل فقال لي : يا سري ؛ فقلت : لبيك ربَّنا وسعديك ، فقال لي : خلقت الخلق ، فكلهم ادَّعَوا محبتي ، فخلقت الدنيا ، فهرب مني تسعة أعشارهم وبقي معي العشر ، فخلقت الجنة ، فهرب مني تسعة أعشار العشر وبقي معي عشر العشر ، فسلطت

---

(١) وفي « الصفوة » : (ثمان وسبعون) وفي نسخة : (ثمان وثلاثون) .

عليهم ذرة من البلاء ، فهرب مني تسعة أعشار عشر العشر ، فقلت للباقين معي : لا للدنيا أردتم ، ولا للجنة أخذتم ، ولا من البلاء هربتم ، فماذا تريدون ؟ فقالوا : إنك لتعلم ما نريد ، فقلت لهم : فإني مسلِّط عليكم من البلاء بعدد أنفاسكم ما لا تقوم له الجبال الرواسي ، أتصبرون ؟ فقالوا : إذا كنت أنت المبتلي لنا . . فافعل ما شئت ، فهـٰؤلاء عبادي حقاً . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٢٢٤_٢٣١] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : قد تقدم في شرح كلام الإمام حاتم الأصم رحمه الله : أن هـٰذه الرؤيا داخلة تحت قوله صلى الله عليه وسلم : « أول من يُدعىٰ يوم القيامة آدم . . . »[1] الحديث .

ووجه ذلك : أن الله تبارك وتعالىٰ لما خلق الخلق والدنيا . . طلبها مِن كل ألف مثلاً تسع مئة ، بقي مئة ، فخلق الجنة ، فطلبها تسعون ، وبقي عشرة ، فسلط عليهم ذرة من البلاء ، فهرب تسعة ، فلم يبق سوىٰ واحد . انتهىٰ .

وقال أبو الفرج : أسند السَّريُّ عن هشيم ، وأبي بكر ابن عياش ، ويزيد بن هارون ، وغيرهم .

وصحب معروفاً الكرخي .

وتوفي يوم الثلاثاء لِستٍّ خلون من رمضان ، سَنة ثلاث وخمسين ومئتين .

وقال الأئمة ـ منهم أبو الفرج رحمه الله وغيره ـ : قال أبو عبيد بن حربويه : حضرت جنازته ، فلما كان في بعض الليالي . . رأيته في النوم ، فقلت له : ما فعل الله تعالىٰ بك ؟ فقال : غفر لي ولمن حضر جنازتي وصلىٰ عليَّ ، فقلت : فإني ممن حضر جنازتك وصلىٰ عليك ، قال : فأخرجَ درجاً ، فنظر فيه ؛ فلم ير فيه اسمي ، فقلت : بلىٰ . . قد حضرت ، قال : فنظر ؛ فإذا اسمي في الحاشية . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٢٣٢] .

---

(١) روى البخاري (٦١٦٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أول من يدعىٰ يوم القيامة آدم ، فتراءىٰ ذريته ، فيقال : هـٰذا أبوكم آدم ، فيقول : لبيك وسعديك ، فيقول : أخرج بعث جهنم من ذريتك ، فيقول : يا رب كم أخرج ؟ فيقول : أخرج من كل مئة تسعة وتسعين » ، فقالوا : يا رسول الله ؛ إذا أخذ منا من كل مئة تسعة وتسعون ، فماذا يبقىٰ منا ؟ قال : « إن أمتي في الأمم كالشعرة البيضاء في الثور الأسود » .
ولبيان المناسبة بين ذكر الحديث وتوجيه كلام السري رحمه الله تعالىٰ راجع شرح المؤلف رحمه الله لكلام حاتم الأصم ؛ فقد أجاد وأفاد .

زاد في رواية : غفر لي ولمن حضر جنازتي وصلىٰ عليَّ وأحبني إلىٰ يوم القيامة .

وقال الجنيد : مرض أستاذنا السَّريُّ من غير تغير يرىٰ عليه ، فأخذت قارورة مائه ، وجئت بها إلىٰ طبيب نصراني ، فلما نظر إليها . . قال : هٰذا بول عاشق ، فصعق الجنيد ، وخر مغشياً عليه ، وانكسرت القارورة ، فلما جئت إليه . . أخبرته ، فقال لي : قاتله الله تعالىٰ ما أخبرَه! ما كنت أظن أن الحب يظهر في هٰذا ، وكان السَّريُّ يكتم الحب .

ولقد حكي عنه : أنه مد يده إلىٰ جلدة ذراعه فلم تمتد ، وقال : لو قلت لكم : إن هٰذا من الحب . . لكنت صادقاً .

وقال الإمام أبو حامد الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : وقد كان السَّريُّ رحمه الله يوصل إلىٰ أحمد ابن حنبل شيئاً فيرده ، فقال له السَّريُّ : يا أحمد ؛ احذر آفة الرد ؛ فإنها أشد من آفة الأخذ ، فقال له أحمد : أعد عليَّ ما قلت ، فأعاد ، فقال أحمد : ما رددت عليك إلا لأن عندي قُوتَ شهر ، فاحبسه لي عندك ، فإذا كان بعد شهر . . فأنفذه إلي .

فقد صرح الإمام أحمد رحمه الله بعِلة الامتناع عن القَبول ، وهو الاستغناء عنه إذ كان عنده قوت شهر ، ولم ير لنفسه أن يشتغل بأخذه ، وصرفه إلى الفقراء ؛ لِمَا في ذلك من آفات وأخطار ، والورع أن يكون حذراً من مظان الآفات ؛ إذ لا يأمن مكيدة الشيطان علىٰ نفسه . انتهىٰ [« الإحياء » ٤/٢٠٨ـ٢٠٩] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو القاسم الجنيد بن محمد
رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : حدثنا علي بن هارون ومحمد بن أحمد بن يعقوب قالا : سمعنا أبا القاسم بنَ محمد الجنيد ـ نضَّر الله وجهه ـ يقول غير مرة : عِلمُنا هٰذا مضبوط بالكتاب والسُّنة ، مَن لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه . . لا يُقتدىٰ به .

وقال أحمد بن جعفر وغيره : هو الإمام العلم الفرد في طريقه ، وإليه يرجع أصحاب علم السلوك في زمانه وبعده ، ورزق من الذكاء وصواب الجواب في فنون العلم ما لم يُرَ في زمانه مثله عند أحد من أقرانه ، ولا ممن هو أرفع شأناً منه .

سمع الحديث من الحسن بن عرفة ، وغيره ، وروىٰ عنه خلائق من الأئمة ، منهم : الإمام أبو بكر الشبلي ، والإمام أبو محمد الجريري ، وجعفر الخلدي ، وغيرهم .

وقال الحافظ : كان الجنيد في أول أمره يتفقه علىٰ مذهب أصحاب الحديث ؛ مثل أبي عبيد ، وأبي ثور رحمهما الله .

وكان يفتي بحلقة أبي ثور وله من العمر عشرون سَنة ، وكان ممن برز في العلم والعمل ، وجمع بينهما ، فلما أحكم الأصول . . صحب الحارث بن أسد المحاسبي ، وخاله السري السقطي ، فسلك مسلكهما في التحقيق للعلم واستعماله له .

وقال جعفر بن محمد : رأيت الجنيد في النوم فقلت له : ما فعل الله تعالىٰ بك ؟ فقال : طاحت تلك الإشارات ، وغابت تلك العبارات ، وفنيت تلك العلوم ، ونفدت تلك الرسوم ، وما نفعنا إلا ركيعات كنا نركعها في الأسحار .

وقال الجنيد : العبادة على العارفين أحسن من التيجان علىٰ رؤوس الملوك .

وقال : لولا يروىٰ أنه يكون في آخر الزمان زعيم القوم أرذلهم . . ما تكلمت عليكم .

وقال الجنيد : إن بدت ذرة من عين الكرم والجود . . ألحقت المسيء بالمحسن ، وبقيت أعمالهم فضلاً لهم ، فقال أبو العباس ابن عطاء : متىٰ تبدو ؟ فقال الجنيد : هي بادية ، قال الله تعالىٰ فيما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم : (سبقت رحمتي غضبي)(1) .

وكان الجنيد يقول : لو أن العلم الذي أتكلم به من عندي . . لفني ، ولـٰكنه من حق بدأ ، وإلىٰ حق يعود . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ٢٥٥ـ٢٦٣] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : في حفظي : أن بعض العلماء أراد أن يعرف رتبة الجنيد في العلم ، فسأله عن الدليل علىٰ وحدانية الله عز وجل ، فأخذ الجنيد في الاستدلال بدليل تحير ذلك العالم من حسنه ودلالته على الوحدانية علىٰ أقصىٰ وجوه الإمكان ، فقال للجنيد : أعده علي لأحفظه ، فأعاد الجنيد الدليل بعبارة أخرىٰ أحسن وأعجب من العبارة الأولىٰ ، فازداد ذلك السائل تحيراً وتعجباً ، وقال له : يا سيدي ؛ بالله أعده عليَّ ، فأعاده بعبارة ثالثة أحسن من العبارتين الأولتين ، فقال السائل : أمله عليَّ حتىٰ أكتبه ، فقال الجنيد : إن كنت أجريه . . فأنا أمليه ، فترامىٰ ذلك السائل علىٰ يديه ورجليه ، واعترف بوفور فضله وسعة علمه رحمه الله .

زاد في « **لوامع أنوار القلوب** » : أن الجنيد لما ذكر للسائل أدلة التوحيد . . قال له السائل : يا شيخ ؛ إن هـٰذا كلام يخرج عن صدق عزيمة ، وعلو همة ، وأسرار تظهر علىٰ طول مجاهدة ، ودوام مراقبة ، وقوة نفس تنبىء عن قلة مبالاة بالخصوم ، واستحقار معاداتهم .

وقال في « مختصر وفيات الأعيان » : إن الجنيد رحمه الله قال : ما انتفعت في بدايتي بشيء كانتفاعي بأبيات سمعتها لما كنت ماراً في درب القراطيس . . سمعت جارية تقول :

إذا قلتُ أهدى الهجرُ لي حُلَلَ الضنا ... تقولين لولا الهجرُ لم يَطِبِ الحبُّ
فإن قلتُ هـٰذا القلب أحرقه الهوىٰ ... فقولي بنيران الهوىٰ يُشرِق القلبُ
وإن قلتُ ما أذنبتُ قلتِ مُجيبةً ... حياتك ذنب لا يقاس به ذنبُ

قال : فصعقتُ وصحتُ ، فلم أُفِق إلا وصاحب الدار قد خرج ، فقال : مم ذا

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٨٦) بلفظ : « إن الله لما قضى الخلق . . كتب عنده فوق عرشه : إن رحمتي سبقت غضبي » .

يا سيدي ؟ فقلت : مما سمعته من جاريتك ، فقال : أشهدك أنها هبة مني لك ، قال : فقلت : قد قبلتها ، وهي حرة ، ثم زوجتها لبعض أصحابنا ، فولدت له ابناً نبيلاً ، نشأ وحج علىٰ قدميه نحو ثلاثين حجة . [انتهىٰ « وفيات الأعيان » ١/ ٣٧٤] .

وقال في « المختار » : وقد سئل الجنيد عن العارف فقال : العارف : مَن نطق عن سرك وأنت ساكت .

وقال : الغفلة عن الله سبحانه وتعالىٰ . . أشد من دخول النار .

وقال الجنيد : بلغني أن يونس عليه الصلاة والسلام بكىٰ حتىٰ عمي ، وقام حتى انحنىٰ ، وصلىٰ حتىٰ أُقعِد ، ثم قال : وعزتك وجلالك لو كان بيني وبينك بحر من نار . . لخضته شوقاً إليك .

وقال الجنيد : إذا رأيت الفقير . . فابدأه بالرفق ولا تبتدِئْه بالعلم ، فإن العلم يوحشه ، والرفق يؤنسه .

وقال الجنيد : لا تقوم بما عليك حتىٰ تترك جميع ما لَكَ ، وليس شيء أعز من الوقت .

وسئل عن الخضوع ، فقال : خَفْض الجناح ، ولين الجانب .

وقال : الشكر : هو ألاَّ ترىٰ نفسك أهلاً للنعمة ، وأما الشكر لطلب المزيد . . فهـٰذا في شكره واقف مع حظ نفسه ، فليس يبلغ درجة الأول .

وقال : اليقين هو استقرار العلم الذي لا ينقلب ولا يحول ولا يتغير في القلب .

وسأله أبو محمد الجريري فقال : ما بال الإنسان تخف عليه بعض الأعمال ، ويثقل عليه بعضها ؟ فقال : ربما كان ذلك اختباراً من الحق جل جلاله ، يهب لعبده شيئاً من الأحوال العالية ؛ لينظر كيف حفظه لها ، وكيف تمسكه بها ، فإن رآه مراعياً لها مستمسكاً بها دائم أوقاته . . زاده منها ، وفتح له في غيرها ، ونقله إلىٰ ما هو أعلىٰ منها ، وإن رآه مضيعاً لها . . سلبه إياها ؛ إذ لا يعرف قدر الموهبة .

وقال الجنيد لبعض أصحابه : إذا صدقت الله تعالىٰ . . فاصدقه في سرك ؛ فإن الله عز وجل جعل لإبليس علىٰ كل شيء طريقاً إلا علىٰ صدق الأسرار .

وقال : ما رأيت أحداً عظَّم الدنيا . . فقَرَّتْ عينه فيها ، وما حقَّرها أحد . . إلا انتفع بها ، وأتته وهي راغمة .

وروي : أن الشبلي سأل الجنيد رحمهما الله فقال له : يا أبا القاسم ؛ ما حسنات الأبرار ؟ فقال : سيئات المقربين ، ثم أنشأ يقول :

طــوارق أنــوارٍ تلــوح إذا بــدت ... فتُظهِـر كتمـانـاً وتخبـر عـن جَمْـعِ

ورأيت في الكتاب المسمىٰ بـ : « صيد الخاطر » لابن الجوزي رحمه الله تعالىٰ : أن امرأة جاءت إلى الجنيد ومعها زوجها ، فوقفت بباب المسجد ، وسألت الوقوف بين يدي الجنيد ؛ لتسأله عن مسألة ، فلما علم بذلك.. خرج إليها ، فقالت له : يا سيدي ؛ إن زوجي هـٰذا يريد أن يتزوج عليَّ ، فقال الجنيد : إن لم يكن له أربع زوجات.. يجوز له أن يتزوج عليك ، فقالت : يا سيدي ؛ لو كان يجوز النظر إلى الأجانب.. لكشفت لك عن وجهي ؛ لتنظر إلىٰ حسني وجمالي ، فتعلم أن من كان عنده مثلي لا ينبغي أن يتزوج عليها ، فلما سمع الجنيد هـٰذا الكلام.. صعق وصاح وخر مغشياً عليه ، فلما أفاق.. سئل عن ذلك ، فقال : نظرت كأن الجبَّار جل جلاله يقول : لو كان يجوز لأحد أن يراني في الدنيا بعين بصره.. لكشفت له عن حجابه حتىٰ يراني ؛ ليعلم أن مَن كان له ربٌّ مثلي.. لا ينبغي له أن يحل في قلبه سواي .

وفيه : أن الجنيد كان إذا مر في طرق بغداد.. قام الناس له صفَّين . انتهىٰ .

زاد غيره : قال رجل للجنيد ـ وكان به حمىٰ ـ : كيف أصبحت ؟ فقال : بخير والحمد لله ، فقال : هل حميت البارحة ؟ فقال له : إذا قلت لك أصبحت بخير.. فلا تُعد عليَّ السؤال .

وقال أبو عمرو الزجاجي : دخلت على الجنيد رحمه الله وكنت أريد الحج ، فلما ودعته.. أعطاني درهماً صحيحاً ، فشددته في مئزري ، فلم أدخل منزلاً إلا وجدت رفقاً ولم أحتج إليه ، فلما قضيت الحج ورجعت إلىٰ بغداد.. دخلت إليه ، فمد يده إلي ، وقال : هات الدرهم ، فناولته ، ثم قال : كيف كان الختم ؟ فقلت : كان نافذاً .

وقال الجنيد : صحبت أربع طبقات من هـٰذه الطائفة ، كل طبقة ثلاثون رجلاً : الحارث المحاسبي وطبقته ، والسري السقطي وطبقته ، وحسن المسوحي وطبقته ، وابن الكريني وطبقته ، فما تواخى اثنان في الله عز وجل واحتشم أحدهما من صاحبه أو استوحش.. إلا لعلة في أحدهما .

وقال رجل للجنيد : قد عزَّ في هٰذا الزمان أخ لله تعالىٰ[1] ، فأعرض الجنيد عنه ، حتىٰ أعاد ثلاثاً ، فلما أكثر . . قال له الجنيد : إن أردت أخاً يكفيك مؤونتك ويتحمل أذاك . . فهٰذا ـ لَعَمري ـ قليل ، وإن أردت أخاً في الله تعالىٰ تحمل أنت مؤونته وتصبر علىٰ أذاه . . فعندي جماعة أعرفهم لك ، فسكت الرجل .

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ :

قال أبو بكر العطوي : كنت عند الجنيد حين مات ، فختم القرآن ، ثم ابتدأ من (البقرة) ، فقرأ سبعين آية ، ثم مات رحمه الله تعالىٰ .

وقال الجنيد : إن من الأعمال ما لا يطلع عليه الحفظة عليهم السلام ، وهو ذِكر الله عز وجل بالقلوب ، وما طويت عليه الضمائر من الهيبة والتعظيم لله عز وجل ، واعتقاد الخوف من الله سبحانه وتعالىٰ ، والتعظيم لحرمات الله تعالىٰ ، والإجلال لأوامره ونواهيه سبحانه وتعالىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ ، فإذا علم العبد هٰذا ، وعقد قلبه عليه . . جعل الله تعالىٰ له ثواب ذلك سبعين ضعفاً ؛ لأن العبد إذا أخلص في عمله وأحب ألاَّ يطلع عليه إلا الله سبحانه وتعالىٰ . . ضاعف له ثوابه ، وجعله سبعين ضعفاً إلىٰ ما يشاء الله سبحانه وتعالىٰ من الزيادة .

وقال في قوله صلى الله عليه وسلم : « اعبدِ الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه . . فإنه يراك »[2] قال : جعل له حالتين ، إحداهما أقوىٰ من الأخرىٰ ؛ لأن من رأى الشيء بقوة العلم وحقيقة التصديق له . . كان أقوىٰ من أن يعلم أن ذلك يراني وإن كان عِلمي بأنه يراني حقيقةً علماً موجبه التصديق ، والمعنى الأول أقوىٰ وأولىٰ ، والفضل بجمعهما علىٰ تقديم إحداهما على الأخرىٰ . [انتهىٰ « الحلية » ١٠/ ٢٦٤ـ٢٦٦] .

وقال القشيري : سئل الجنيد عن الخشوع ، فقال : تذلُّل القلوب لعلام الغيوب ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنًا ﴾ .

---

(١) قال الإمام أبو إسحاق الشيرازي رحمه الله في هٰذا المعنىٰ :

سألت الناس عن خلٍّ وفيٍّ ... فقالوا ما إلىٰ هٰذا سبيل

تمسك إن ظفرت بذيل حرٍّ ... فإن الحر في الدنيا قليل

انظر « البداية والنهاية » (١٢/ ١٢٥) .

(٢) أخرجه بنحوه البخاري (٥٠) ، ومسلم (٨) .

وقال أبو علي الدقاق : معناه : متواضعين متخاشعين ، واتفقوا علىٰ أن الخشوع محله القلب .

وسئل عن التواضع فقال : خَفْض الجناح ولين الجانب . انتهىٰ [« الرسالة » ١١٦ـ١١٧] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : رأيت في مجموع وفي « بهجة الأسرار » أيضاً : كان الجنيد رحمه الله يقول : أشرف المجالس وأعلاها . . الجلوس مع الله عز وجل في ميدان فكر التوحيد .

وقال لأصحابه : أتدرون أين يُذهَب بكم ؟ وتدرون لماذا خلقتم ؟ وإلىٰ ماذا تصيرون ؟ فاتقوا الله ، واحفظوا ساعاتكم وأوقاتكم ؛ فإنها زائلة عنكم غير راجعة إليكم ، والحسرة على الغفلة في فوتها واقعة ، فلو بذل أحدكم ما بذل . . لم يَرُدَّ وقتاً من أوقاته ، فأوصلوا أورادكم وإخوانكم . . تجدوا منفعتها في دار الإقامة ، ولا يشغلنكم عن الله عز وجل قليل الدنيا ؛ فإن قليل الدنيا يشغل عن كثير الآخرة .

وسئل الجنيد عن الرجل يكون له عند السلطان جاه ، ويقصده الضعيف المظلوم في أمر قد يجري عليه فيه الظلم ، فقال : لا أحب أن أتكلم فيه بشيء ، وذلك أن أقواماً من السلف رضي الله عنهم كانوا يسارعون إلىٰ مثل هـٰذه الحالة ، وآخرون من السلف كانوا يتثاقلون عنها مخافة ألاَّ يسلموا ، والذي عندي : أن الرجل إذا قصدهم . . يرىٰ عندهم من المنكرات أعظم مما قصد له ، وربما لا يبلغ وسعه أن ينكر ، فهـٰذا يقع فيه ما يقع ، وأنا لا أحب أن أتكلم في الجهات كلها ؛ لأن الرجل ربما رغب في الأجر أو حملته نية على السعي فيه ، فإن تكلمتُ . . لا أدري كيف أسلَم منه .

وقال أبو الحسن بن هارون : قرأ علينا الجنيد قيام الليل ، فقال فيه : لله عز وجل عباد أقلقهم شدة المحبة له ، وصفاء المودة ، وقوة المصافاة ، فتعطلت عند ذلك فرشهم ، وتباعد عنهم إخوانهم ، وفارقوا الأولاد والأزواج ، ولم يكن فيهم فضل لشيء من الأسباب ؛ لشدة وقوع الوجد بالمحبوب فيما بينهم وبين السكون والهدوء والقرار ، فلو أرادوا نوماً أو رقاداً . . لَمَا وجدوا إلىٰ ذلك سبيلاً .

وفي « بهجة الأسرار » قال : حدثني بكران صاحب الشبلي ، عن علي بن منصور الدينوري قال : خرجت إلىٰ بغداد ومعي شيء من الدنيا أريد تفرقته علىٰ أصحاب الجنيد وسائر الفقراء ، فوافينا بغداد ونزلنا في مكان ، وقصدت الجنيد لأقضي من حقه ، فدخلت

عليه في منزله ، فَسُرَّ بي ، وقربني بكلامه وحسن لُقيه ، وكنت أختلف إليه دائماً وأذاكره ، فلما كان ذات ليلة . . رأيت في منامي كأن الخليفة قد جاء يدعوني إلىٰ ضيافته ، فانتبهت وحدثت صاحبي بما رأيت ، فقال : ننظر ما يكون من تأويل رؤياك هـٰذه ، فلما كان بعد الفجر ؛ إذا بالباب يطرق ، ففتحنا الباب ؛ فإذا الجنيد ، فقمنا إليه وفرحنا بقدومه ، فسلم علينا وجلس ساعة يحادثنا ويذاكرنا في العلم ، ثم دعانا إلىٰ دعوته في منزله .

قال : فتبسمت إلىٰ صاحبي ، فقال لي الجنيد : مم تبسمك ؟ فقلت له : صورة المنام الذي رأيته ، وإني جلست أنتظر ما يكون من تأويل رؤياي حتىٰ دق الشيخ الباب ، فلما دعوتنا إلىٰ منزلك . . تبسمت .

فقال الجنيد : إني رأيت البارحة رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام وأبو بكر عن يمينه وعمر عن يساره وعليٌّ بين يديه رضي الله عنهم ، فجلست بين يديه صلى الله عليه وسلم ؛ فإذا برجلين قد جلسا بين يديه ، وادعىٰ أحدهما على الآخر دعوىٰ في مطالبة بحق ، فالتفتَ إليَّ النبي صلى الله عليه وسلم وقال لي : « يا أبا القاسم ؛ احكم بينهما » ، فسكتُّ ؛ إعظاماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، واحتشاماً منه ومن أصحابه رضي الله عنهم ، فأعاد القول ثانياً وثالثاً وأنا أسكت هيبة وإعظاماً وإجلالاً له ، فقال في الرابعة : « احكم بينهما ؛ فقد وليتك الحكم بين الخلق » ، فانتبهت وأنا مذعور ، فجئت إليكم أتسلىٰ .

وقال الجنيد : البلاء سراج العارفين ، ويقظة المريدين ، وهلاك الغافلين .

وسئل : ما فائدة المريدين في الحكايات ؟ فقال : لتقوىٰ بها قلوبهم ، ويثبت فؤادهم ، فقيل له : هل في ذلك من حجة من كتاب الله عز وجل ؟ فقال : نعم ؛ ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ .

زاد في « **لوامع أنوار القلوب** » : قال الجنيد رحمه الله : الحكايات جند من جنود الله سبحانه وتعالىٰ ، يُقوِّم بها أحوال المريدين ، ويُحيي بها معالم أسرار العارفين ، ويُهيِّجُ بها خواطر المحبين ، ويُجري لها دموع المشتاقين ، ويُظهر بها صدق إشارات العاملين .

وقال الجنيد : كن متعبداً في باطنك مع الله عز وجل ، وكن متعبداً في ظاهرك مع الخلق جسمانياً ؛ لأن مَن فارق الخلق بجسمه . . فارق الجماعة ، ومَن فارق الجماعة . . وقع في الضلالة ، ومَن خالط الناس بسِرِّه . . افتتن بهم ، ومَن افتتن . . حُجِب عن الحق للطمع في الخلق ، فإذا تخلى العبد بسِرِّه عن الدنيا وأطلق النفس . . كشف له أبواب المشاهدة .

ـ فأول ما يُكشف له التقوىٰ ، فيظفر العبد بالصدق والإخلاص ، ويستريح من غموم الدنيا وبلائها ، ويسير بضياء عقله بين عباد الله ، فلا يتأذىٰ به أحد من خلق الله .

ـ ثم يكشف له باب الورع ، فيتمكن من الصمت ، ويموت فيه الطمع ، ويحظىٰ بالعلم .

ـ ثم يكشف له باب الزهد ، فلا يبالي مَن أكل الدنيا ، ولا ينازع فيها أهلها ، ويترك ما فيها علىٰ مَن فيها .

ـ ثم يكشف له باب القناعة ، فيطيب عيشه بغَناء قلبه .

ـ ثم يكشف له باب الصبر ، فتخمد نيران الشهوات ، فيستريح ويزول عنه الهوىٰ .

ـ ثم يكشف له باب التوكل ، فيكتفي بمولاه جل جلاله عمن سواه ، ويطمئن قلبه عن ذِكر الكفاية ، وينقطع سره عن التقاضي .

وقال الجنيد رحمه الله : اشتد البلاء برجل من العارفين حتىٰ جر برجله إلى المزبلة ، فرفع طَرْفه إلى السماء ، فقال : أنا بعينك كما ترىٰ ، فافعل ما شئت ، وحسبي ما تشاء ، ثم قال :

إذا المستهام شَكا شَجْوَه ... فقد زال عن سنن المستهامْ
فأين الكلوم التي في الحشا ... وأين تبرمه بالكلامْ[1]

وروى البيهقي عن إبراهيم بن شيبان قال : سمعت الجنيد يقول وسئل عن أول مقام التوحيد فقال : قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أن تعبد الله كأنك تراه »[2] .

ورُئِيَ الجنيد رحمه الله تعالىٰ بعد موته في المنام ، فقيل له : ما فعل الله عز وجل بك ؟ فقال : عاتبني علىٰ كلمة سبقت مني ، وذلك أن سَنة من السنين احتبس عنا فيها المطر ، فقلت مع الناس : ما أحوج الناس إلى المطر ، فقال الحق جل جلاله : ما يدريك أن الناس يحتاجون إلى المطر ؟ تُعلمني وأنا العليم الخبير ؟! اذهب ، فقد غفرت لك .

ومرض الجنيد ، فوَصَف علته للطبيب ، فقيل له : أليس هٰذا شكوىٰ ؟ فقال : لا ، وإنما هٰذا إخبار عن قدرة القادر جل جلاله .

وقال الجنيد : مؤاكلة الإخوان رضاع ، فانظروا مَن تؤاكلون .

---

(١) الكُلوم : الجروح .

(٢) أخرجه البيهقي في « الزهد » (٢/ ٣٥٥) .

وقال : تنزل الرحمة على الفقراء عند الطعام ؛ فإنهم لا يأكلون إلا عند الضرورة .

وقال : لا يصلح السؤال لأحد إلا لمَن كان العطاء عنده أحب إليه من الأخذ .

وسئل عن قوله تعالىٰ : ﴿ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾[1] ، فقال : يمنعهم علوُّ هممهم عن رفع حوائجهم إلا إلىٰ مولاهم سبحانه وتعالىٰ .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قال : إذا نزل بالعبد ضر أو حاجة : فإن أنزلها بالله عز وجل ولجأ إليه في كشف ضره . . قضيت حاجته وارتفع ضره ، والله عز وجل معبوده ، وإن أنزلها ـ والعياذ بالله ـ بغير الله . . فإنه لا يرتفع ضره ولا تقضىٰ حاجته ، وهو معبوده ؛ فإن النظر في الإعطاء والمنع إلىٰ غير الله عز وجل شرك ، وهـٰذا ـ والله أعلم ـ هو معنى النفي والإثبات المذكور في الآية الكريمة[2] .

وقال الجنيد وقد سئل عن الشفقة فقال : هي أن تعطي الناس من نفسك ما يطلبون ، ولا تحملهم ما لا يطيقون ، ولا تخاطبهم بما لا يعلمون .

وقال : قد ينقل العبد من حال إلىٰ حال أرفع منها وقد بقي عليه من التي نقل عنها بقية ، فيشرف عليها من الحالة الثانية ، فيصححها .

وقيل للجنيد : يسألك السائل عن مسألة فتجيبه ، ثم يسألك آخر عن تلك المسألة فتجيبه بجواب آخر ، فقال : علىٰ قدر السائل يكون الجواب .

وهـٰذا مأخوذ من فعل ابن عباس رضي الله عنهما ، ذكره الأئمة في آداب المفتي[3] .

وحكي : أن رويماً قال للجنيد : كم تنادي إلىٰ ذِكر الله عز وجل عند العامة ؟ فقال الجنيد : أنا أنادي على العامة بين يدي الله عز وجل : قوم أفنوا سرائرهم بالمحظوظ ، وأبصارهم باللحوظ ، أنىٰ لهم إلىٰ ذِكر الله عز وجل سبيل ؟!

---

(١) **الإلحاف** : المبالغة في السؤال ؛ أي : لا سؤال لهم يكون فيه الإلحاف .

(٢) النفي في قوله تعالىٰ : ﴿فَلَا كَاشِفَ﴾ ، والإثبات في قوله تعالىٰ : ﴿ إِلَّا هُوَ ﴾ .

(٣) جاء في « المعيد في أدب المفيد والمستفيد » (١٠٣ـ١٠٤) لعبد الباسط العَلْمَوي : قال الصَّيْمَري : إذا رأى المفتي المصلحة أن يفتي العامي بما فيه تغليظ وتشديد وهو مما لا يعتقد ظاهره وله فيه تأويل . . جاز ذلك ؛ زجراً وتهديداً في مواضع الحاجة حيث لا يترتب عليه مفسدة ، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما : أنه سأله رجل عن توبة القاتل ، فقال : لا توبة له ، وسأله رجل آخر ، فقال : له توبة ، ثم قال : أما الأول : فرأيت في عينيه إرادة القتل فمنعته ، وأما الثاني : فجاء مستكيناً قد قَتَل فلم أقنطه . اهـ

وقال الجنيد : كل مريد لا يعود نفسه صيام النهار وقيام الليل وخدمة الإخوان . . فكأنه يتمنىٰ ما لا يصلح له .

وقال الجريري رحمه الله : دخلت على الجنيد وهو مهتم ، فقلت : ما لك ؟ فقال : فاتني شيء من أورادي ، فقلت له : أعده ، فقال : كيف وهي أوقات معدودة ؟! وهـٰذا استفاده من أستاذه السري رحمه الله .

وكان الجنيد وأحمد الزيات رحمهما الله يتكلمان في علم السلوك ، والجنيد يستفيد منه ويقدمه علىٰ نفسه ، ولم يتكلم الجنيد على الناس حتىٰ مات أحمد الزيات .

وكان يقول : فقدنا علم الحقائق بموت أحمد الزيات رحمه الله .

وقال الجنيد : إذا صحت المودة . . سقطت شروط الأدب . [انتهىٰ] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : اعلم : أن هـٰذا يستدعي إشارة لطيفة قالها العارفون رحمهم الله في الصحبة ، وهي :

مع المشايخ : بالاحترام ، والخدمة ، والتوقير ، والقيام بأشغالهم .

ومع الأقران : بالبِشر ، والانبساط ، والموافقة ، والإحسان ، والكون معهم علىٰ حكم الوقت .

ومع الأصاغر : بالشفقة ، والإرشاد ، والتأديب .

ومع الأستاذِين : باتباع أمرهم ونهيهم ، وهي في الحقيقة خدمة لا صحبة .

ومع الجُهال : بجميل الصبر ، وحسن الخُلُق ، والمداراة ، والنظر إليهم بعين الرحمة ، ومَن كان جهله أقوىٰ . . كان العفو والحلم عنه أولىٰ .

ومع الأهل والولد : بالشفقة ، وحسن التأديب ، وحثهم علىٰ أنواع الطاعات .

ومع الإخوة : بكل ما يقدر عليه من الموافقة وترك المخالفة ما لم تكن معصية .

ومع السلطان : بالسمع والطاعة إلا في معصية ، والإمساك عما فيه قدح عليهم ، وأما الدخول عليهم : فمَن كان عادلاً . . فهو من السبعة المذكورين في الحديث المشهور(١) ، والنظر إليه عبادة .

---

(١) روى البخاري (٦٢٩) : عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ في عبادة ربه ، ورجل قلبه معلق في=

وينبغي أن يدعو له ويحث الناس عليه بما قاله سعيد بن المسيب رحمه الله ـ لما ولي عمر بن عبد العزيز رحمه الله ـ للعلماء : اجعلوا نصف دعائكم لأمير المؤمنين . . يَسلَمْ لكم دينكم ودنياكم .

ومَن كان ظالماً . . فالبعد عنه واجب ، إلا إذا تعين ؛ كإرشاد أو اضطرار ، فيدخل بحسب ذلك لا غير ، كما مر بيانه في مواضع ، وإذا دَخل عليهم . . أمرهم ونهاهم ، ودعا لهم بالتوفيق والإعانة إذا علم من حاله أنه يسلم عند القرب منه .

قال بعض المشايخ : مَن شارك السلطان في عز الدنيا . . شاركه في ذل الآخرة .

ومع الكافة كصحبة أبي ضمضم رضي الله عنه ، كان إذا أصبح وأمسىٰ . . يقول : اللهم ؛ إني وهبت نفسي وعرضي لك ، اللهم ؛ إني قد تصدقت بعرضي علىٰ عبادك ، فمَن شتمني . . فلا أشتمه ، ومن ظلمني . . فلا أظلمه .

ثم إنَّ علىٰ كل جارحة أدباً تختص هي به ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ وحقيقة هـٰذه الآداب راجعة إلى المراقبة .

قال بعض المشايخ : الأدب مع الله عز وجل : ألاَّ تتحرك جارحة من جوارحك في غير رضا الله سبحانه وتعالىٰ .

وحكي عن بعضهم أنه قال : نظرت إلىٰ شخص نظر شهوة ، فرأيت في المنام قائلاً يقول لي : إن الله سبحانه وتعالىٰ يقول : (الدنيا داري ، والخلائق فيها عبيدي وإمائي ، فمَن نظر إلىٰ أحد منهم بغير حق . . فقد خانني) ، فانتبهت وآليت علىٰ نفسي ألاَّ أنظر إلىٰ شخص بعد ذلك إلا علىٰ حد الأمانة .

وسئل أبو عثمان الحِيري رحمه الله عن الصحبة فقال : توسع علىٰ إخوانك بمالِكَ ، ولا تطمع في مالهم ، وتنصفهم من نفسك ، ولا تطلب الإنصاف منهم ، وتكون تبعاً لهم ، ولا تطلب أن يكونوا تبعاً لك ، وتستكثر ما إليك منهم وتستقل ما إليهم منك .

وهـٰذا نظير قول حاتم الأصم رحمه الله وقد مر في ترجمته .

= المساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال . . فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق فأخفىٰ حتىٰ لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » .

وقيل للزقاق[١] : مَن أصحب ؟ فقال : مَن يعلم منك جميع أحوالك ظاهراً وباطناً ، ثم تأمنه عليه .

وقال : ليس في اجتماع الإخوان أُنس لوحشة الفراق .

وقيل : الشرف في ثلاثة : إجلال الكبير ، ومداراة النظير ، ورفع النفس عن الحقير .

وتمام الكلام في آداب الصحبة قد تقدم في ترجمة أبي الدرداء رضي الله عنه . انتهىٰ .

وقال في « بهجة الأسرار » : قال الجنيد رحمه الله : إذا أراد الله عز وجل عبداً لحال المحبة . كشف له عن قديم إنعامه عليه ، وبِره إليه ، وكثرة الأيادي القديمة عنده ، التي كانت له محفوظة قبل كونه موجوداً ، السابقة له فيما سلف من متقادم الأمر وبدء البدء[٢] ، والذي لم يكن له في ذلك شافع ، وإنما ذلك فضل محض يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

وسئل الجنيد : إلىٰ أين تنتهي عبادة أهل المعرفة ؟ فقال : إلى الظَّفَرِ بنفوسهم ، نصب لهم الحق أعلام أدلة العمال ، فوقفوا مع ما لَهُ دون التعريج علىٰ ما لَهُم ، فاشتاقت إليهم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، واستغفرت لهم الملائكة ، وأَنِست بهم الأولياء ، فتركوا ما لهم ووقفوا مع ما لله عز وجل عليهم ، وسائر الناس وقفوا مع ما لَهُم وتركوا ما لله عز وجل عليهم ، فرَدَّ الله تعالىٰ كُلاً إلىٰ قيمته .

وقال : ينبغي للعاقل ألاَّ يفقد نفسه من إحدىٰ ثلاثة مواطن :

ـ موطن يعرف فيه حاله ، أفي زيادة هو ، أم في نقص ؟

ـ وموطن يستحضر فيه عقله لرؤية مجاري التدبير عليه ، وكيف تقلَّب عليه الأحكام في آناء الليل والنهار .

ـ وموطن يخلو فيه بتأديب نفسه وإلزامها جميع ما يلزمها ، ويستقصي فيه عن معرفتها لجميع ذلك .

وقال الجنيد : إن للعلم ثَمَناً ، فلا تعطوه حتىٰ تأخذوا ثَمَنه ، قيل : وما ثمنه ؟ قال : تضعوه عند من يحسن حمله ، ولا تضعوه عند من لا يحسن حمله .

---

(١) واسمه : أبو بكر أحمد بن نصر الزقاق .

(٢) في نسخة : (وبدء اليد) .

وقال : إن الله عز وجل كشف لعباده معايبهم في ذكر الطين لهم ، وعرَّفهم مقاديرهم في ذكر النطفة ، وأشهدهم عجزهم في تقلبهم ؛ ليعرفوا فاقتهم إليه في جميع أحوالهم .

وقال : لا يرتقي في الدرجات من لم يُحكِم فيما بينه وبين الله أوائل البدايات ، وأوائلها الفروض الواجبة ، ثم الأوراد الراتبة[1] ، ومطايا الفضل وعزائم الأمر ، فمَن أحكم ذلك . . فإن الله تعالىٰ يَمُن عليه بما بعده .

وسئل فقيل : يا أبا القاسم ؛ ما الظرف ؟ فقال : هو الاجتناب لكل خُلُق دني ، واستعمال كل خُلُق سني ، وأن تعمل لله عز وجل من العبادات بما لا ترىٰ أنك قد عملت[2] .

وقال : فرض الشكر : الاعتراف لله عز وجل بالنعم بالقلوب ، والثناء عليه بالألسن ، والعمل بالجوارح ، وألاَّ تعصِيَه في نعمة .

وقال : التصوف جامع لعشر خصال :

- التقلل من كل شيء في الدنيا مع القدرة عليه .
- واعتماد القلب على الله سبحانه في عدم السكون إلى الأسباب .
- والرغبة في الطاعة مهما استطاع .
- والصبر عند فَقْدِ الدنيا عن المسألة والشكوىٰ .
- والتمييز بين الشبهات والحلال .
- والشغل بالله سبحانه وتعالىٰ عما سواه .
- ودوام الذِّكر له بالقلب واللسان .
- وتحقيق الإخلاص مع الصدق .
- واستواء السريرة والعلانية .
- ودوام المراقبة لله مع السكون إليه في جميع الأحوال .

فإذا اجتمعت هـٰذه الخصال . . كان الصوفي في أول مراتب المحبة ، ثم يرقىٰ إلىٰ حالة

---

(١) في نسخة : (الزاكية) .

(٢) في نسخة : (وأن تعمل لله عز وجل من العبادات من غير رؤية لها ، بل تشهد عظيمَ منّة الله عليك فيها . . . حتىٰ تغرق عبادتك في المنة) .

المشاهدة ، فيؤخذ منه إليه ، ويبقىٰ معه وعليه في ميدان المحبة والدهشة ، والله أعلم .

وسئل : متىٰ يُكمِل المحبُ أحوالَ العبودية ؟ فقال : إذا رأىٰ أن الأشياء كلها لله تعالىٰ ، وأنه هو المتفرد بالتدبير والخَلق والملك ، قال الله تعالىٰ : ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيقف ما بين اللجج والحجج من غير اعتراض ولا احتجاج ، كما وصف الله عز وجل عبده ورسوله سيد المرسلين محمداً صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين بقوله : ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ .

وكتب الجنيد إلىٰ بعض إخوانه : مَن سكن أو شَكا إلىٰ غير الله . . ابتلاه الله بحجب سره عنه ، ومنع ذِكره عن قلبه ولسانه ، فإن انتبه وتاب . . كشف ما به من المحن ، وأحله محل القرب والزلفىٰ ، وإن دام علىٰ ذلك ولم يتب ـ والعياذ بالله ـ نزع الله عن قلوب الخلق مودته ، وألبسه لباس الطمع ، فتصير حياته عجزاً ، وموته كمداً ، ومعاده أسفاً ، فهـٰذه مجازاة الغادرين ، ومكافأة الناكثين .

وحكي أن أبا بكر الكتاني رحمه الله قال : جرت مسألة المحبة بمكة في الموسم ، فتكلم فيها المشايخ ، وكان الجنيد أصغرهم سناً ، فتكلم المشايخ ، ثم قالوا : هات ما عندك يا عراقي ، فأطرق رأسه ودمعت عيناه ، ثم قال : عبد ذاهب عن نفسه ، متصل بربه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، قد أحرق قلبَه أنوارُ الإلـٰهية ، وصفا شربه من كأس وِده ، وانكشف له الحق من أستار غيبه ، فإن تكلم . . فبالله ، وإن نطق . . فمِن الله ، وإن تحرك . . فبأمر الله ، وإن سكن . . فمع الله ، فهو بالله ، ومن الله . وبأمر الله ، ومع الله ، فبكى المشايخ ، وقالوا : ما علىٰ هـٰذا مَزيد ، جبرك الله يا تاج العارفين .

وقال وقد سأله أبو محمد الجريري عن رجل به أمر من الأمور ، فهو يكاتم سره ، ولا يسأل ربه عز وجل كَشْفَه ، وآخر إذا وقع له شيء من ذلك . . يجأر إلى الله عز وجل بالدعاء والتضرع ، أيهما عندك أَعلىٰ ؟ قال : الذي يكتم سره في نفسه ولا يبديه . . يعلم أن علام الغيوب والسرائر عالم بما هو فيه ، لا تخفىٰ عليه خافية ، فيوافق بذلك علمه ، فيكره أن يعترض عليه بشيء لا يأمنه عليه .

وقال : مَن فتح علىٰ نفسه باب نية حسنة . . فتح الله عز وجل عليه سبعين باباً من التوفيق ، ومَن فتح علىٰ نفسه باب نية سيئة . . فتح الله عليه سبعين باباً من الخذلان .

وقال الجنيد : سمعت الزجاج يقول : قال لي إبراهيم الآجرّي رحمه الله : يا غلام ؛ لأن

تَرُدَّ ذرة من همتك[1] إلى الله عز وجل . . خير لك مما تعمله بدون ذلك .

وقال الجنيد : الدنيا لحظة ، إن صدمتها . . ذهبتَ بها ، وإن هي صدمتك . . أعمتك .

وسئل عن الزهد فقال : هو خلوُّ الأيدي من الأملاك ، وخلوُّ القلب مما خلت منه الأيدي .

وقال : مَن عرف الله تعالىٰ . . أطاعه ، ومن عرف نفسه . . ساء بها ظنه ، وخاف علىٰ حسناته ألاَّ تقبل منه . انتهىٰ .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : قال موسى بن علي رحمه الله : مشيت يوماً مع الجنيد ، فلما بلغنا مسجد الشونيزي . . التفت إلينا ووقف ، وقال : يا معشر الشباب ؛ جِدُّوا قبل أن تعجزوا ، واجتهدوا قبل أن تطلبوا أثراً بعد عين ؛ فإني تذكرت مجاهدات كانت لنا في هـٰذا المسجد تُقَبِّحُ في عيني بطالتي اليوم .

قال موسى بن علي : وكانت حالته إذ ذاك من أعظم أنواع المجاهدات .

وأنشدوا في المعنىٰ :

أتهجر مَن تحبُّ وأنت جارُ ... وتطلبهم وقد بَعُدَ المزار

وتبكي بعد نأيهِمُ اشتياقاً ... وتسأل في المنازل أين ساروا

تركتَ سؤالهمْ وهمُ حضور ... وترجو أن تخبِّرك الديار

فأنت كطالبٍ أثراً لِعَين ... وقلبك بالبطالة مستعارُ

فنفسَك لُمْ ولا تَلُمِ المطايا ... ومت أسفاً فقد حان الحذار

سمعتَ بنأيهمْ فظللتَ حياً ... فديتُك كيف يهنيك القرار

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : وقد وقع مثل هـٰذا لجماعة من العارفين رضوان الله عليهم أجمعين ، منهم : أستاذه السري رحمه الله ، وقد سبق في تراجمهم . انتهىٰ .

وقال في « بهجة الأسرار » : قال الجنيد : كنت يوماً عند حسين المصري ، وكان يأنس بي ، فقال لي : تعرف أحداً نسكن إليه ؟ فاعتقدت في نفسي رجلاً كنت أسكن إليه ، ولم أبدِ ذكره ، فقال لي : هو فلان ؟ وسماه باسمه ، فكبُر عليَّ إصابته لما في سِرِّي ، فعدلت عن

---

(١) في نسخة : (همّك) .

ذلك الرجل في نيتي إلىٰ رجل آخر ، فقال لي : هو فلان ؟ فأصاب الثاني ، فكان ذلك عليَّ أشد ، فعدلت في نيتي إلىٰ رجل ثالث ، فقلت له : لا ، فقال لي في الثالث : هو فلان ؟ فأصابه ، فعظم ذلك عندي ، وكل ذا أدافعه عما يقول ، ثم افترقنا عن ذلك المجلس ، وعدت إليه بعد أيام ، فحين لقيني . . قال لي : يا أبا القاسم ؛ أنت عندي صادق ، وقلبي عندي لا يكذبني ، وقد دفعتني عن أشياء كنت قلتها في المجلس الماضي ، فما السبب في ذلك ؟ فرأيته ثابتاً علىٰ ما كان قاله لا يندفع سره عنه ، فأخبرته بما جرىٰ ، وأني كنت أعدل عن رجل ذَكره إلىٰ غيره ، وأنه أصاب في الجميع ، فسرَّه ذلك ، ثم قال : الحمد لله عدد ما أحصىٰ علمه ، وعدد عفوه عن خلقه سبحانه وتعالىٰ . انتهىٰ .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : قال جعفر الخلدي : دفع إليَّ الجنيد درهماً وأمرني أن أشتري له التين الوزيري ، قال : فاشتريته وجئت به إليه ووضعته بين يديه ، فوضع منه تينة في فمه علىٰ أن يفطر عليها ، ثم وقع عليه البكاء ، فأخرجها من فيه ، وأخذ الماء فغسل فمه ، فقلت له : ما هـٰذا يا شيخ ؟! فقال : كنت اشتهيته منذ ثلاثين سَنة فما أكلته ، فلما كان اليوم . . غلبتني نفسي لشهوتها ، فلما وضعته في فمي ؛ فإذا هاتف يهتف بي ويقول : أمَا تستحيي ؟ تركت أكلة لله سبحانه وتعالىٰ ثم تعود إليها ، فأخرجتها من فمي ، ورأيت أن ترك العهد خيانة ، وأن الخؤون لا يكون محبوباً .

وقال أبو محمد الجريري رحمه الله : قصدت الجنيد زائراً ، فوجدته في الصلاة ، فأطال جداً ، فقلت له : قد كبُرتَ ، ووهن عظمك ، ورق جلدك ، وضعفتَ ، فلو اقتصرت علىٰ بعض صلاتك ، فقال : **طريق عرفنا بها ربنا سبحانه وتعالىٰ لا ينبغي لنا أن نقتصر علىٰ بعضها** ، فالنفس ما حمَّلتها تتحمل ، والصلاة صلة ، والسجود قربة ، ولهـٰذا قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ ، **ومَن ترك طريق القرب . . يوشك أن يُسلَك به سبيل البعد** . انتهىٰ .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : رأيت في « روضة المريدين » بخط والدي قدس الله روحه : حكي أن أبا القاسم الجنيد رحمه الله ورد عليه في وقت السماع وارد ، فغيَّبه ، فسقط طرف ردائه ، فوطِئه ، ثم مد يده ، فرفعه ، فقيل له في ذلك ، فقال : غبت ، ثم حضرت ، فاستحييت من الله عز وجل أن أدَّعي الغيبة في حال الحضور .

ورأيت أيضاً في بعض تصانيف الإمام محمد ابن أبي بكر الرازي رحمهما الله تعالىٰ : عن الجنيد أنه قال : الخوف يقبضني ، والرجاء يبسطني ، والحقيقة تجمعني ، والحق يفرقني .

قال الرازي : القبض والبسط حالتان فوق الخوف والرجاء ؛ فإن القبض للعارف من ثمرات الخوف ، والبسط للعارف من ثمرات الرجاء ، والخوف والرجاء متعلقان بأمر مستقبل مكروه ومحبوب ، والقبض والبسط بأمر حاضر في الوقت يغلب علىٰ قلب العارف من وارد غيبي ، ثم إن كلاً منهما قد يكون كاملاً وقد يكون ناقصاً :

فالقبض الكامل : وارد غيبي ، كأنه يعاتب علىٰ تقصير أو سوء أدب ، فيستغرق العارف في ذلك حتىٰ تنسَدَّ عليه أبواب التنفس .

والقبض الناقص : وارد غيبي ضعيف ، كأنه يخاطب العارف بما تحتمله قوته .

وأما البسط التام : فهو وارد غيبي قوي ، كأنه يخصه بتشريف وإقبال ولطف وسرور ، فيجذبه بالكلية حتىٰ يبقىٰ مدهوشاً في بسطه ، كأنه قد حُلَّ عنه عقال الموانع ، وأطلق في ميادين الاتصال ، وكوشف في رياض الجمال والجلال ؛ لقوة الوارد .

وأما البسط الناقص : فهو وارد غيبي ضعيف ، يؤثر في العارف سروراً ونشاطاً وارتياحاً تأثيراً يبقىٰ معه فيه بقية يتصرف بها في نفسه وغيره ، فلا يؤثر فيه البسط تأثيراً كلياً ؛ لنقصه ، بخلاف الأول ، فإنه يؤثر فيه تأثيراً كلياً ؛ لقوته واستيلاء سلطان العناية الأزلية علىٰ قلبه .

وبَسْطُ كل شخص علىٰ حسب قبضه ، وقبضه علىٰ حسب بسطه ، وقد يحدث قبض لا يعرف سببه ، وعلاجه التسليم حتىٰ يذهب ذلك الوقت ؛ لأن تكلُّف دفعه يخل بالأدب ، ويزيد في ذلك القبض ، وبالتسليم يزول عن قريب ؛ قال تعالىٰ : ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ .

وقد يحدث بسط بغتة لا يُعرف سببه ، فيهز صاحبه ويستفزه ، وسبيل صاحبه السكون والمراقبة وحفظ الأدب ؛ فإن حالة البسط لها خطر عظيم ، فليحذر صاحبها مكراً خفياً يحجبه عن مقامه ، كما قال بعض العارفين : فُتح عليَّ بابٌ من البسط ، فزللت زلة ، فحجبت عن مقامي ، ولهٰذا قالوا : قف على البساط ، وإياك والانبساط .

وقد استعاذ أهل التحقيق من حالتي القبض والبسط ؛ لأنهما بالنسبة إلىٰ ما فوقهما من الأحوال . . فقر وضر ، ألا ترىٰ إلىٰ قول الجنيد رحمه الله : الخوف يقبضني ، والرجاء يبسطني ، والحقيقة تجمعني ، والحق يفرقني .

وقال الجنيد : حقيقة المشاهدة . . وجود الحق مع فقدانك ، فصاحب المحاضرة يهديه قلبه ، وصاحب المكاشفة يدنيه علمه ، وصاحب المشاهدة تدنيه معرفته .

وقيل : إن المشاهدة إدراك الغيوب بأنوار الأسرار عند صفاء القلوب من الأدناس

وخلوصها من الأضداد والأغيار في مراقبة الجبار جل جلاله ولا إلـٰه غيره ، فيصير كأنه ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق من صفاء المعرفة وبرد اليقين .

ولهـٰذا قالوا : إن المشاهدة تتولد من المراقبة .

ولم يزد أحد في بيان حقيقة المشاهدة علىٰ ما قاله عمرو بن عثمان المكي رحمه الله .

ومعنىٰ ما قاله : إنه تتوالىٰ أنوار التجلي علىٰ قلب العارف من غير أن يتخللها ستر وانقطاع ، كما لو فرض اتصال البروق في الليلة المظلمة حتىٰ تصير كالنهار ؛ لاتصال البروق بها ، فكذلك قلب العارف باتصال أنوار التجلي حتىٰ يصير دائم النهار غائب الليل . وأنشدوا :

ليلـــي بـــوجهـــك مشـــرق وظـلامـــه فـــي النـــاس ســـاري
والنـــاس فـــي ســـدف الظـــلا م ونحـــن فـــي ضـــوء النهـــار[1]

ثم قال الرازي قدس الله روحه : وأما معنىٰ قول أبي الحسين النوري رحمه الله : (أنا منذ عشرين سَنة بين الوجد والفقد ؛ أي : إذا وجدت ربي جل جلاله . . فقدت قلبي ، وإذا وجدت قلبي . . فقدت ربي) فهو معنىٰ قول الجنيد : عِلمُ التوحيد مباين لوجوده ، ووجود التوحيد مباين لعلمه ، وأنشد :

وجـودي أن أغيـب عـن الـوجـود بمـــا يبـــدو علـــيَّ مـــن الشهـــود

فالتواجد بداية ، والوجود نهاية ، والوجد واسطة بينهما .

وقال أبو علي الدقاق رحمه الله : التواجد يوجب استيعاب المريد ، والوجد يوجب استغراقه ، والوجود يوجب استهلاكه ، **وهو كمن شهد البحر ، ثم ركبه ، ثم غرق فيه وهلك .**

وترتيب هـٰذا الأمر قصود ، ثم ورود ، ثم شهود ، ثم وجود ، ثم خمود ، وبمقدار الوجود يكون الخمود ، ولصاحب الوجود صحو ومحو ، فحال صحوه بقاؤه بالحق ، وحال محوه فناؤه بالحق ، وهاتان الحالتان أبداً متعاقبتان عليه ، فإذا غلب عليه الصحو بالحق . . فبه يصول وبه يقول ، كما جاء في الحديث الثابت في غير « الصحيح » : (فبي يسمع ، وبي يبصر)[2] .

---

(١) السُّدَفُ : الظُّلَمُ .

(٢) أخرجه بنحوه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (٢/ ١٩٥) .

قال رجل للشبلي رحمه الله : هل تظهر آثار صحة الوجود على الواجدين ؟ فقال : نعم ، هو نور يزهر مقارناً لنيران الاشتياق ، فتلوح على العبد آثاره ، وإذا غلب عليه المحو . . فلا علم ، ولا عقل ، ولا فهم ، ولا حس .

كما جرىٰ لأبي عقال المغربي رحمه الله ؛ أقام بمكة أربع سنين غَرِقاً في بحر المعرفة إلىٰ أن مات ، وكان يسلِّم عليه خواص أصحابه فلا يعرفه حتىٰ يُعرِّفه بنفسه ، فيعرفه بعد جهدٍ لحظةً ، ثم يغيب عنه الشيخ ، حتىٰ لو عاوده الفتىٰ بالكلام . . لم يعرفه ، ولـٰكنه مع ذلك يعود إلى الصحو حال أداء الفرائض فقط ؛ لأنهم محفوظون بالله تعالىٰ ، وهـٰكذا عند تلاوة القرآن والاشتغال بالأوراد حفظاً من الله عز وجل ونعمة منه وفضلاً ، والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . انتهىٰ .

وقال في « **اللوامع** » : قيل للجنيد رحمه الله : قد كثرت المرقعات والرُّكَّىٰ[1] ، وقد أخسُّوا هـٰذا المذهب ، فقال : الآن طاب السلوك ، يرونكم بأبصارهم ، وأنتم في السر مع الله سبحانه وتعالىٰ .

وكان أبو حاتم العطار قدس الله روحه إذا رأىٰ أصحاب المرقعات . . يقول : يا سادتي ؛ نشرتم أعلامكم ، وضربتم طبولكم ، فليت شعري ، في اللقاء أيَّ رجال تكونون ؟! انتهىٰ .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال الجنيد : أعلم الناس بالآفات . . أكثرهم آفة .

وكان يقول : لا تيأس من نفسك ما دمت تخاف من ذنبك وتندم عليه بعد فعلك .

وقال الجنيد : الورع في الكلام أشد من الاكتساب .

وقال : متىٰ أردت أن تشرف بالعلم وتَنسَب إليه وتكون من أهله قبل أن تعطي العلم ما له عليك . . احتجب عنك نوره ، وبقي عليك رسمه وظهوره ، ويكون ذلك العلم وبالاً عليك لا لك ؛ وذلك أن العلم يوجب لك استعماله ، فإذا لم تستعمل العلم في مراتبه . . كان عليك لا لك .

وقال : الإنسان لا يعاب بما في طبعه ، إنما يعاب إذا فعل بما في طبعه .

وسئل : العناية قبل ، أم البداية ؟ فقال : العناية قبل الطين والماء .

---

(١) أي : أهل المرقعات وأهل الركىٰ .

وكان يقول : اللهم ؛ يا من هو كل يوم في شأن ؛ اجعلني من بعض شأنك يا أرحم الراحمين .

وقال الجنيد : اعتللت بمكة مرة ، فقوي عليَّ فيها الوجع ، حتىٰ إني لم أكن أقدر أن أقول سبحان الله والحمد لله ، ثم مَنَّ الله سبحانه بالعافية ، قال : ومكثت مدة طويلة لا يقدم البلد أحد من الفقراء إلا سُلِبت حالي ، ودُفِعت إلىٰ حاله ، فأطلبه ، حتىٰ إذا وجدته.. تكلمت بحاله ورجعَتْ إلي حالي ، وكنت لا أرىٰ في النوم شيئاً إلا رأيته في اليقظة .

وقال : جئت إلىٰ أبي الحسن السَّريِّ يوماً ، فدققت الباب ، فقال : مَن هـٰذا ؟ فقلت : جنيد ، فقال : ادخل ، فدخلت ؛ فإذا هو قاعد مستوفز ، وكان معي أربعة دراهم ، فدفعتها إليه ، فقال : أبشِر ؛ فإنك تفلح إن شاء الله تعالىٰ ، إني احتجت إلىٰ أربعة دراهم ، فقلت : اللهم ؛ ابعث بها إلي علىٰ يدي عبد يفلح عندك .

وقال الجنيد : كنت يوماً عند السَّريِّ ، فنظرت إلىٰ جسده كأنه جسد سقيم دنف[1] مضنىً ، فقال : انظر إلىٰ جسدي هـٰذا ، لو شئت أن أقول : إن ما بي من هـٰذا الضنىٰ هو من المحبة.. كان كما أقول .

وكان وجهه يصفر ، ثم أُشْرِب حُمْرةً حتىٰ تورَّد ، ثم اعتل ، فدخلت عليه أعوده ، فقلت له : كيف تجدك ؟ فقال :

كيف أشكو إلىٰ طبيبِيَ ما بيْ ... والذي بي أصابني من طبيبي

قال : فأخذت المروحة أروحه ، فقال : كيف يجد روح المروحة مَن قلبه وجوفه يحترق من داخل ؟! ثم أنشأ يقول :

القلب محترِقٌ والدمع مستبقُ ... والكرب مجتمع والصبر مفترِقُ
كيف القرار علىٰ مَن لا قرار له ... مما جناه الهوىٰ والشوق والقلق
يا ربِّ إن كان شيٌّ فيه لي فرج ... فامنن عليَّ به ما دام بي رمقُ

وقال الجنيد : أعلىٰ درجة الكِبر وأشرُّها : أن ترىٰ نفسك ، وأدنىٰ درجة الكِبر في الشر : أن تخطر نفسك ببالك .

---

(١) الدنف : مصاب بمرض ملازم .

وقال الجنيد : دخلت يوماً على السَّريِّ ، فرأيت عليه هَمّاً ، فسألته ، فقال لي : الساعة استأذن عليَّ شاب ، ودخل وسألني عن التوبة وشروطها ، فأنبأته ، ثم قال لي : ما حقيقة التوبة ؟ قلت : هو ألاَّ تنسىٰ ما من أجله كانت التوبة ، فقال : ليس كذلك عندنا ، فقلت : فكيف هي عندكم ؟ قال : ألاَّ تذكر ما من أجله كانت التوبة ، ففي هـٰذا أنا مفكر ، قال الجنيد : فقلت : ما أحسن ما قال! ثم قلت : يا أستاذ ؛ إذا كنت معك في حال الجفاء ونقلتني إلىٰ حال الصفاء . . فذِكري للجفاء في حال الصفاء غفلة .

وقال الجنيد : دخلت على السَّريِّ يوماً ، فقال لي : كنت أمس في الجامع ، فقال لي شاب : هل يعلم العبد أن الله عز وجل قد قَبِله ؟ قلت له : لا ، فقال : بلىٰ ، إذا رأىٰ أن الله سبحانه وتعالىٰ قد عصمه من المعاصي ووفقه لطاعته . . علم أن الله تعالىٰ قد قبله .

وقال الجنيد : صليت ليلةً وِردي ، فرأيت ـ أو سمعت ـ كأن قائلاً يقول لي : اخرج إلى المسجد ؛ فإن فيه شخصاً ينتظرك ، فخرجت مسرعاً ؛ فإذا شخص جالس ، فلما رآني . . قال لي : يا أبا القاسم ؛ كم أنتظرك ؟ فقلت : يا سيدي ؛ من غير موعد ؟ فقال : بلىٰ ، سألت محرِّك القلوب سبحانه وتعالىٰ أن يحرك قلبك بالخروج إلي ، ثم قال : يا أبا القاسم ؛ متىٰ يصير داء النفس دواءها ؟ فقلت له : إذا خالفَتِ النفس هواها . . صار داؤها دواءها ، فقال : قد أجبتها بهـٰذا الجواب سبع مرات ، فقالت : لا أقبل حتىٰ تسأل عنه الجنيد . [انتهىٰ « الحلية » ١٠/٢٦٧ـ٢٧٥] .

وقال في « أنس المنقطعين » : حكي أن الجنيد رحمه الله قال : كنت مرة بمسجد السومري[(١)] ؛ وإذا قد دخل علينا رجل ، فصلىٰ ركعتين ، ثم امتد في ناحية من المسجد وأشار إلي ، فلما جئته . . قال : يا أبا القاسم ؛ قد حان لقاء الله عز وجل ولقاء الأحباب ، فإذا أخذت في أمري وفرغت مني . . فسيدخل عليك شاب مُغَنٍّ ، فادفع إليه مرقعتي وسجادتي وعصاي وركوتي ، فقلت : لأي مُغَنٍّ ؟ وكيف يكون ذلك ؟ فقال : إنه قد بلغ رتبة القيام لخدمة الله عز وجل في مقامي ، قال الجنيد : فلما قضي أمره وفرغنا من مواراته ؛ إذا نحن بشاب مصري قد دخل وسلم علينا ، وقال : أين الأمانة يا أبا القاسم ؟ فقلت : وكيف ذلك ؟ أخبِرنا بحالك ، فقال : كنت في مشرفة بني فلان ، فهتف بي هاتف ، أن قم

(١) كذا في النسخ ، ولعله : مسجد الشونيزي .

إلى الجنيد وتسلَّم ما عنده ، وهو كيت وكيت ؛ فإنك قد جُعلت موضع فلان الفلاني من الأبدال .

قال الجنيد : فدفعت إليه ذلك ، فنزع عنه ثيابه ، واغتسل ، ولبس المرقعة ، وخرج علىٰ وجهه نحو بلاد الشام .

وقال جعفر بن محمد : رأيت الجنيد في المنام ، فقلت له : أليس كلام الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إشارات عن مشاهدات ؟ فتبسم ، وقال : كلام الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم نبأ عن حضور ، وكلام الصديقين إشارات عن مشاهدات .

وكتب الجنيد إلىٰ بعض إخوانه : مَن أشار إلى الله عز وجل وسكن إلىٰ غيره . . ابتلاه الله سبحانه وتعالىٰ بأن يحجب ذِكره عن قلبه ، ويجريه علىٰ لسانه ، فإن انتبه وانقطع عمن سكن إليه ورجع إلىٰ مَن أشار إليه وهو الله عز وجل . . كشف ما به من المحن والبلوىٰ ، وإن دام علىٰ سكرته . . نزع الله عز وجل من قلوب الخلق الرحمة عليه ، وأُلبس لباس الطمع ؛ لتزداد مطالبته لهم ، مع فقدان الرحمة من قلوبهم له ، فتصير حياته عجزاً ، وموته كمداً ، ومعاده أسفاً ، ونحن نعوذ بالله عز وجل من السكون إلىٰ غيره سبحانه وتعالىٰ .

وحكي : أن الجنيد رحمه الله قيل له : إن فلاناً مد يده وسأل ، فقال : مه ، إنما سأل ليعطيهم لا ليأخذ منهم ، ثم قال : هات الميزان ، فوزن مئة ، ثم قبض قبضة وطرحها على المئة من غير وزن ، وقال : امض بهـٰذا إليه ، فتعجب الرسول من ذلك ، وقال : إن الشيء إنما يوزن ليعرف ، وهـٰذا قد جهل مقداره . ولم يخطر له ما أراد الجنيد .

فلما وصل بها إليه . . قال له : إن الجنيد قد أرسل هـٰذه الدراهم إليك لتخرجها في حاجتك ، فقال : هات الميزان ، ثم وزن مئة ودفعها إلي ، وقال لي : ادفعها إلى الجنيد وقل له : أنا لا أقبل منك شيئاً . وأخذ ما زاد على المئة ، فزاد تعجبي ، فسألته ، فقال : إن الجنيد رجلٌ حكيم يريد أن يأخذ الحبل بطرفيه وزن المئة لنفسه ؛ طلباً للثواب ، وطرح عليها قبضة بلا وزن ؛ لله عز وجل ، فأخذت ما كان لله ورددت ما فعله لنفسه ، قال : فرددتها على الجنيد ، وأخبرته بما جرىٰ ، فبكىٰ ، وقال لي : إن أبا محمد حكيم أخذ ما كان لله تعالىٰ ، وترك ما كان لنا .

وقال في « المختار » : قال الجنيد : كان للسَّريِّ تلميذة ، وكان لها ولد عند المؤدب ، فبعث به المؤدب إلى الشط ، فغرق ، فجاء المعلم إلى السَّريِّ ، وأخبره بذلك ، فقال

لنا السَّريُّ : قوموا بنا إلىٰ أمه نعزيها ونسليها ، فذهبنا إلىٰ أمه ، فلما جلسنا عندها . . أخذ السَّريُّ يتكلم في الصبر ، ثم تكلم في الرضا ، فقالت له : يا أستاذ ؛ أيش تريد ؟ فقال لها : إن ابنك غرق ، فقالت : ابني ؟ قال : نعم ، فقالت : إن ربي عز وجل ما فعل هٰذا إلى الآن ، فأعاد السَّريُّ الكلام في الصبر والرضا .

فقالت أمه : قوموا بنا إلى الشط ، قال : فقمنا معها ، فلما انتهينا إلى الشط . . قالت لنا : أين غرق ابني ؟ قلنا : هٰهنا ، فقالت : يا ابني محمد ، فأجابها : لبيك يا أماه ، فنزلت ، وأخذت بيده ، ومضت إلىٰ منزلها .

قال الجنيد : فالتفت السَّريُّ إليَّ وقال : كيف هٰذا ؟ فقلت : أقول ؟ قال : قل ، فقلت : إن المرأة مراعية لِمَا لله عز وجل عليها من الحقوق ، وحُكم مَن كان مراعياً لأوامر الله عز وجل ونواهيه في الاجتناب والامتثال ألاَّ تحدث حادثة تتعلق به . . إلا وأعلمه بها ، فلما لم تكن حادثة . . لم يعلمها ، فلما قيل لها : إن ابنك غرق . . أنكرت ذلك وقالت : إن ربي عز وجل ما فعل هٰذا إلى الآن ، وما ذاك إلا لأنها لما كان حالها المراقبةُ . . عاملَها الله عز وجل بلطفه ، وأعلمها بما سيقع قبل وقوعه في ما يتعلق بها خاصة .

وقال في « **المختار** » : قال الجريري : كان في جوار الجنيد رحمه الله رجل مصاب في خرِبَةٍ ، فلما مات الجنيد ودفنَّاه ورجعنا من جنازته . . تقدم ذلك المصاب ، وصعد موضعاً عالياً ، وقال : يا أبا محمد ؛ تراني أرجع إلىٰ تلك الخربة وقد فقدت ذلك السيد العارف ؟ ثم أنشأ يقول :

وا أسفي من فراق قومٍ	هم المصابيح والعيونُ
لم تتغير لنا الليالي	حتىٰ توفتهم المنون
وكل جمر لنا قلوبٌ	وكل ماء لنا عيون

ثم غاب عنا ، فكان ذلك آخر العهد به .

وقال أبو العباس بن مسروق : مررت مع الجنيد في بعض دروب بغداد ؛ فإذا مغنٍّ يغني :

منازلاً كنت تهواها وتألفها	أيامَ كنت على الأيام منصورا

فبكى الجنيد ، ثم قال لي : يا أبا العباس ؛ ما أطيب منازل الألفة والأنس ، وأوحش

مقامات المخالفة! لا أزال أحن إلىٰ بدايتي وجدة سعيي وركوبي الأهوال طمعاً في الوصول ، وها أنذا في أيام الفترة أتأسف علىٰ أوقاتي الماضية .

وقال : مَن لم يَصِل علمه باليقين ، ويقينه بالخوف ، وخوفه بالعمل ، وعمله بالإخلاص ، وإخلاصه بالمشاهدة . . فهو من الهالكين .

وسئل عن معنىٰ قول النبي صلى الله عليه وسلم : « حبك للشيء يعمي ويصم »[1] فقال : حبك للدنيا يعمي ويصم عن الآخرة .

وقال : اليقين : **هو ألاّ تهتم لرزقك ؛ فقد كُفِيتَه ، وتقبل علىٰ عملك الذي قد كُلِّفتَه ؛ فإن اليقين يسوق إليك الرزق سوقاً** .

وسئل الجنيد : متىٰ يصل العبد إلى الكل ؟ فقال : إذا ترك الكل ويخافه كأنه أجنبي ، ويرجوه كأنه ولي .

وقال الجنيد : لو أقبل صادق على الله عز وجل ألف ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة . . كان ما فاته أكثر مما ناله .

وقال رجل للجنيد : علىٰ ماذا يتأسف المحب ؟ فقال : علىٰ زمان بسط أورث قبضاً ، أو زمان أُنس أورث وحشة . وأنشأ يقول :

قد كان لي مشرب يصفو برؤيتكم ... فكدرته يد الأيام حين صفا

وقال : إن الله عز وجل يعطي القلوب من بِره بحسَب ما أخلصت له القلوب في ذِكره سبحانه وتعالىٰ ، فانظر ما خالط قلبك .

وكان يقول : يا ذاكر الذاكرين بما به ذكروه ، ويا بادىء العارفين بما به عرفوه ، ويا موفق العابدين بصالح ما عملوه ؛ مَن ذا الذي يشفع عندك إلا بإذنك ؟ ومن ذا الذي يَذْكُرك إلا بفضلك ؟

وقال أبو بكر العطار : حضرت الجنيد عند موته مع جماعة من أصحابنا ، قال : وكان قاعداً يصلي ، ويَثني رِجله إذا أراد أن يسجد ، فلم يزل كذلك حتىٰ خرجت الروح من رِجله ، فثقل عليه حركتها ، فمد رجليه ، فرآه بعض أصدقائه وقد تورمت قدماه ، فقال : ما هٰذا يا أبا القاسم ؟ فقال : هٰذه نِعم الله عز وجل ، الله أكبر ، فلما فرغ من صلاته . . قال

---

(١) أخرجه أبو داوود (٥١٣٠) .

له أبو محمد الجريري : لو اضطجعت يا أبا القاسم ، فقال : يا أبا محمد ؛ هـٰذا وقت نؤخذ منه ، الله أكبر ، ولم يزل ذلك حاله حتىٰ مات رحمه الله تعالىٰ . [انتهىٰ] .

ثم قال الحافظ ـ قدس الله روحه ـ : وكان من دعاء الجنيد : اللهم ؛ إني أسألك أن تعطيني عملاً يكون لك خالصاً ، وأعوذ بك من كل أمر يسخطك .

اللهم ؛ اجعلني ممن يذكرك ذِكراً لا يريد بذِكره إلا ابتغاء مرضاتك وما هو لك .

اللهم ؛ اجعلني ممن يعطي لك ، ويمنع لك ، وبك يستعين ، وإليك يلجأ ، والحمد لله حمداً كثيراً ، طيباً مباركاً ، دائماً لا انقطاع له ولا زوال ، كما ينبغي لكرم وجهك وعز جلالك .

اللهم ؛ واجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك علىٰ سيد المرسلين وإمام المتقين محمد صلى الله عليه وسلم ، كلما ذكره الذاكرون ، وكلما سَهَا عن ذِكره الغافلون ، وعلىٰ جميع الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إلىٰ يوم الدين ، وصَلِّ علىٰ جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، ورضوان ، وعزرائيل ، وسلم اللهم وصَلِّ على الكروبيين[(١)] ، والروحانيين ، وسائر الملائكة المقربين ، والحفظة ، والسفرة ، وجميع الملائكة ، والمؤمنين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، صلاة ترضاها ، وتزكيها ، وتحبها ، وكما هم أهل لذلك كله .

اللهم ؛ وأسألك مغفرة كل ما أحاط به علمك من ذنوبنا ، والتجاوزَ عن كل ما كان منا ، وأدِّ اللهم مظالمنا عنا في تبعاتنا جوداً وفضلاً وكرماً يا أرحم الراحمين .

اللهم ؛ وبارك لنا في الموت ، وما بعد الموت ، إذا نزل بنا . . اجعله يوم حِباء[(٢)] ، وكرامة ، وزلفىٰ ، وسرور ، واغتباط ، وأوردنا من قبورنا علىٰ سرور وفرح وقرة أعين ، واجعلها رياضاً من رياض جنتك ، ولَقِّنَّا فيها الحجج ، وآمنَّا فيها من الروعات ، آمنين مطمئنين إلىٰ يوم تبعثنا .

يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه ؛ آمنا من روعات ذلك اليوم ، وخلصنا من شدائده ، واكشف عنا عظيم كربه ، واسقنا من ظمأته ، واحشرنا في زمرة سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم الشافع المشفع لأوليائك ، المقدم علىٰ جميع أصفيائك .

---

(١) **الكَرُوبيُّون** : هم سادة الملائكة والمقربون إلى الله تعالىٰ منهم .

(٢) **يوم حِباءٍ** : يوم عطاءٍ وتكريم .

ونسألك ألاَّ تحاسبنا ، فإن حاسبتنا . . فحاسبنا حساباً يسيراً بلا مناقشة ، وعاملنا بجودك وكرمك ، واجعلنا من السَّرعان[1] المغبوطين ، وأعطنا كتبنا بالأيمان ، وأجِزْنا الصراط مع السرعان ، وثقل موازيننا ، ولا تُسْمِعنا لنار جهنم حسيساً ولا زفيراً ، وأجرنا منها ومن كل ما قرَّب منها ، ومن كل ما قرَّب إليها من قول وعمل ونية ، واجعلنا ـ بجودك ومجدك وكرمك ـ في دار كرامتك ، مع الذين أنعمت عليهم من النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، وحسن أولـئك رفيقاً .

واجمع بيننا وبين آبائنا وأمهاتنا وقرابتنا وذرياتنا في دار قدسك علىٰ أفضل حال وأسَرِّها ، وضُمَّ إلينا إخواننا الذين هم علىٰ ألفتنا ، والذين كانوا علىٰ ذلك من كل ذَكر وأنثىٰ ، وبلغهم ما أملوه ، واجمع بيننا وبينهم في دار كرامتك علىٰ أفضل حال وأسَرِّها .

وعُمَّ المؤمنين والمؤمنات جميعاً برأفتك ورحمتك ، الذين فارقوا الدنيا علىٰ توحيدك ، كن لنا ولهم ولياً وكالِئاً يا أرحم الراحمين ، تقبل من محسنهم ، وتب علىٰ مسيئهم ، واغفر لهم ، واقبل توبتهم ، وتجاوز عن المسرف منهم ، وانصر مظلومهم ، واشف مريضهم ، وتب علينا وعليهم توبةً نصوحاً ترضاها ؛ فإنك الجواد الكريم ، القادر علىٰ كل شيء .

وكن اللهم للمجاهدين منهم ولياً وكالئاً وكافياً وناصراً ، وانصرهم علىٰ عدوهم نصراً عزيزاً ، واجعل لهم من لدنك سلطاناً نصيراً ، واجعل اللهم دائرة السَّوء علىٰ أعدائك وأعدائنا ، اسفك اللهم دماءهم ، واجعلهم فيئاً لإخواننا المؤمنين .

وأصلح اللهم الراعي والرعية وكل من وليته شيئاً من أمور المسلمين صلاحاً باقياً دائماً ، اللهم ؛ أصلحهم في أنفسهم ، وأصلحهم لمن وليته عليهم ، وهب لهم العطف والرأفة والرحمة بهم ، وأدم ذلك لنا فيهم ولهم في أنفسهم .

اللهم ؛ اجمع لنا الكلمة ، واحقن الدماء ، وأزل عنا الفتنة ، وأعذنا من البلاء كله ، تول لنا ذلك بفضلك من حيث أنت أعلم به ، ولا تُرِنا في أهل الإسلام سيفين مختلفين ، ولا تُرِنا بينهم خلافاً ، واجمعنا علىٰ طاعتك وعلىٰ ما يقرب إليك ؛ فإنك أهل التقوىٰ وأهل المغفرة ، ولي الخيرات في الدنيا والآخرة .

اللهم ؛ إنا نسألك أن تُعِزَّنا ولا تُذِلَّنا ، وترفعنا ولا تضعنا ، وتكون لنا ولا تكون علينا ،

---

(١) **السَّرعان** : أوائل الناس الذين يجوزون على الصراط بسرعة .

وتجمع لنا سبل الأمور كلها ، أمور الدنيا التي هي بلاغ لنا إلىٰ طاعتك ، ومعونة لنا علىٰ موافقتك ، وأمور الآخرة التي فيها أعظم رغبتنا وعليها معولنا وإليها منقلبنا ؛ فإن ذلك لا يتم إلا بك ، ولا يصح لنا إلا بتوفيقك .

اللهم ؛ وهبْ لنا هيبتك وإجلالك وتعظيمك ، وما وهبت لخاصتك من صفوة خلقك من حقيقة العلم والمعرفة بك ، ومُنَّ علينا بما مننت به عليهم من آياتك وكراماتك ، واجعل ذلك دائماً لنا يا من له ملكوت كل شيء ، وهو علىٰ كل شيء قدير .

اللهم ؛ وهَبْ لنا العافية الكاملة في الأبشار[1] ، وجميع الأحوال ، وفي جميع الإخوان ، والذريات ، والقرابات ، وعُمَّ بذلك جميع المؤمنين والمؤمنات .

وأجْرِ اللهم علينا من أحكامك أرضاها وأحبها [إليك] وأعونها علىٰ كل مقرِّب من قول وعمل ونية .

يا سامع الأصوات ، ويا عالم الخفيات ، وياجبار الأرض والسماوات ؛ صل علىٰ محمد سيد المرسلين ، وعلىٰ آل محمد أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً ، وسلم تسليماً كثيراً .

وأجبنا اللهم كما وعدتنا ؛ فقد دعوناك كما أمرتنا ، وافعل بنا ما أنت أهله يا أكرم الأكرمين ، ويا أرحم الراحمين ، ويا رب العالمين .

قال الحافظ : كان الجنيد ـ رحمه الله ـ يدعو بهـٰذا الدعاء علىٰ ممر الأيام ، رحمه الله تعالىٰ . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ٢٧٨ـ٢٨٧] .

وقال أبو القاسم القشيري ـ قدس الله روحه ـ : كان الجنيد جالساً مع رويم والجريري وابن عطاء ، فقال الجنيد : ما نجا من نجا إلا بصدق الالتجا ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ .

وقال رويم : ما نجا من نجا إلا بصدق التقىٰ ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ .

وقال الجريري : ما نجا من نجا إلا بمراعاة الوفا ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ .

---

(١) **الأبشار** : جمع بَشَرة والمراد هنا : الأبدان ، ومنه الحديث : « لم أبعث عمالي ليضربوا أبشاركم » .

وقال ابن عطاء : ما نجا من نجا إلا بتحقيق الحيا ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري : ما نجا من نجا إلا بمعرفة الحكم والقضا[1] ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ .

وقال أبو القاسم الجنيد : رأيت في المنام كأني أتكلم على الناس ، فوقف عندي ملك ، فقال لي : أقرَبُ ما يتقرب به المتقربون إلى الله عز وجل ماذا ؟ قال : فقلت : عمل خفي بميزان وَفِيٍّ ، قال : فولى الملك عني وهو يقول : كلام موفق والله . انتهىٰ [« الرسالة القشيرية » ٨٩ و٣١١] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ وغيره : كان والد الجنيد يبيع الزجاج ، وكان الجنيد خزازاً ، وأصله من نهاوند ، إلا أن مولده ومنشَأَه ببغداد .

وقال جعفر الخلدي : قال الجنيد يوماً : ما أخرج الله عز وجل إلى الأرض علماً وجعل للخلق إليه سبيلاً . . إلا وقد جعل لي فيه حظاً ونصيباً .

وبلغني عنه أنه كان في سوقه ، **وكان وِرده في كل يوم ثلاث مئة ركعة وثلاثين ألف تسبيحة** .

وقال : ما نمت في فراش منذ أربعين سنة .

وقال جعفر الخلدي : أقام الجنيد عشرين سَنة لا يأكل إلا من الأسبوع إلى الأسبوع ، ويصلي كل يوم أربع مئة ركعة .

وقال : لم نر في شيوخنا مَن جُمع له علم وحال غير أبي القاسم الجنيد ، وإلا . . أكثرهم كان يكون له علم كثير ولا يكون له حال ، وآخر يكون له حال كثير وعلم يسير ، والجنيد كان له حال خطير وعلم غزير ، فإذا رأيت حاله . . رَجَّحته علىٰ علمه ، وإذا رأيت علمه . . رَجَّحته علىٰ حاله .

وقال أبو محمد المرتعش : قال الجنيد : كنت بين يدي السَّريِّ ألعب وأنا ابن سبع سنين ، وبين يديه جماعة من المشايخ يتكلمون في الشكر ، فقال لي : يا غلام ؛ ما الشكر ؟ فقلت : ألاَّ يعصى الله بنعمه ، فقال لي : ما أحسن ما قلت! أخشىٰ أن يكون حظك من الله عز وجل لسانك ، قال الجنيد : فلا أزال أبكي علىٰ هـٰذه الكلمة التي قالها لي السَّريُّ ، ثم قال الجنيد : وهـٰذا هو فرض الشكر .

---

(١) في نسخة : (الرضا) .

وقال أبو الحسن : قيل للجنيد : مِن أين استفدت هٰذا العلم ؟ فقال : استفدته من جلوسي بين يدي الله عز وجل ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة ، وأومأ إلىٰ درجة في داره .

وقال الجنيد : **الطريق مسدود علىٰ جميع الخلق إلا على المقتفين لآثار رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين لسُنته ، كما قال الله عز وجل** : ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ .

وقال خيرٌ النساج : كنت جالساً في بيتي ، فخطر لي خاطر أن أبا القاسم الجنيد بالباب ، اخرج إليه ، فنفيت ذلك عن قلبي ، وقلت : وسوسة ، فوقع خاطر ثان يقتضي مني الخروج إليه ، وأن الجنيد على الباب ، فاخرج إليه ، فنفيت ذلك عن سِرِّي ، فوقع خاطر ثالث ، فقلت : إنه حق وليس بوسوسة ، ففتحت الباب ؛ فإذا الجنيد قائم ، فسلم عليَّ وقال : يا خير ؛ لِمَ لا خرجت مع الخاطر الأول .

وقال الجريري : سمعت الجنيد يقول : لقد مشىٰ رجال باليقين على الماء ، ومات بالعطش أفضل منهم يقيناً .

وقال ابن علوان : خرجت يوماً إلىٰ سوق الرحبة في حاجة ، فرأيت جنازة ، فتبعتها لأصلي عليها ، ووقفت حتىٰ يدفن الميت ، فوقعت عيني على امرأة مسفرة من غير تعمد ، فألححت بالنظر إليها ، واسترجعت ، واستغفرت الله تعالىٰ ، وعُدت إلىٰ منزلي ، فقالت لي عجوز : يا سيدي ؛ ما لي أرىٰ وجهك قد اسود ؟ فأخذتُ المرآة ، فنظرت ، فإذا وجهي أسود ، فرجعت إلىٰ سِرِّي أنظر من أين دُهِيت[1] ، فقلت : مِن النظرة ، فانفردت في موضع أستغفر الله عز وجل وأسأله الإقالة أربعين يوماً ، فخطر في قلبي أن أزور شيخي الجنيد ، فانحدرت إلىٰ بغداد ، فلما جئت إلىٰ منزله . . طرقت الباب ، فقال لي : ادخل يا أبا عمرو ، تُذنب بالرحبة ونستغفر لك ببغداد ؟!

زاد فيما حكاه الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : قال ابن علوان : ٱسودَّ جسدي كله ، واستترت في البيت ، فلم أخرج ثلاثة أيام ، وكنت أعاهد جسدي بالغسل بالصابون ، فلم يزدد إلا سواداً ، فلما كان بعد ثلاث . . انكشف ، فلقيت الجنيد وكان قد وجه إليَّ من الرَّقة ، فلما أتيته . . قال لي : أما استحييت من الله سبحانه وتعالىٰ أن تكون في عبادة وتخامر نفسك شهوة حتى استولت عليك ؟ فلولا أني دعوت الله سبحانه وتعالىٰ لك وتبت إليه عنك

---

(١) دُهيت : أُصبت بهٰذه النائبة ، والداهية : الأمر العظيم .

وشفعت إلى الله عز وجل فيك . . للقيت الله وأنت بهـٰذا اللون الأسود ، واشكر الله سبحانه وتعالىٰ حيث سود ظاهرك ولم يسود باطنك ـ أو كما قال ـ أمَا استحييت من الله سبحانه وتعالىٰ فيما صنعت[1] ؟!

وقال الجنيد : دخلت على السَّريِّ السقطي رحمه الله ، فرأيت بين يديه رجلاً قد غُشي عليه ، فقال لي : هـٰذا رجل قد سمع آية من كتاب الله فغشي عليه ، فقلت : اقرؤوا عليه تلك الآية ، فقرؤوا ، فأفاق ، فقال : مِن أين قلتَ هـٰذا ؟ فقلت له : إن نبي الله يعقوب عليه الصلاة والسلام كان عَمَاه في قميص يوسف ، وكان رجوع بصره في قميص يوسف ، فاستحسن السَّريُّ مني ذلك[2] .

وقال جعفر الخلدي : دخل رجل من أهل خراسان على الجنيد وعنده جماعة ، فقال : متىٰ يستوي عند العبد حامده وذامُّه ؟ قال الجنيد : إذا تحقق أنه عبد مخلوق ، فشهق الرجل شهقة ، ثم خرج[3] .

وقال الجنيد : يعارضني سِرِّي في بعض الأوقات أن أجعل نفسي كيوسف ، وأكون أنا كيعقوب عليهما السلام ، فأحزن علىٰ ما فقدت من نفسي كما حزن يعقوب علىٰ فَقْدِ يوسف ، فمكثت مدةً أعمل علىٰ حسب ذلك .

ودخل ابن عطاء على الجنيد وهو في النزع ، فسلم عليه ، فلم يرد عليه ، ثم بعد ساعة رد عليه وقال له : اعذرني ؛ فإني كنت في وِردي السابع ، ثم حول وجهه إلى القبلة وكبر ومات .

وقال أبو محمد الجريري : كنت واقفاً عند رأس الجنيد رحمه الله عند وفاته ، وكان يوم جمعة ، وهو يقرأ القرآن ، فقلت : يا أبا القاسم ؛ ارفق بنفسك ، فقال : يا أبا محمد ؛ ما كنت أحوج إليه مني في هـٰذا الوقت ، وقد قرب أن تُطوىٰ صحيفتي .

وفي رواية أخرىٰ : حضرت عنده قبل وفاته بساعتين ، فلم يزل تالياً وراكعاً وساجداً ، فقلت له : يا أبا القاسم ؛ قد بلغ بك ما أرىٰ من الجَهد ، فقال : يا أبا محمد ؛ أحوج ما كنت إليه هـٰذه الساعة ، فلم يزل تالياً راكعاً وساجداً حتىٰ فارق الدنيا .

---

(١) الإحياء (٤/ ٥٤) .

(٢) الإحياء (٢/ ٢٩٧) .

(٣) الإحياء (٢/ ٢٩٨) وعبارته : (فشهق الرجل شهقة ومات) .

أسند الجنيد الحديث عن الحسن بن عرفة وخلق ، ولقي جماعة من العلماء ، ودرس الفقه علىٰ أبي ثور ، وكان يفتي في حلقته بحضرته وهو ابن عشرين سنة ، وصحب جماعة من العُبَّاد والزهاد ، واشتهر بصحبة خاله السَّريِّ ، والحارث بن أسد المحاسبي .

وتوفي يوم السبت سَنة ثمان وتسعين ومئتين ، وصلىٰ عليه ولده ، وحُزِر الذين صَلَّوا عليه ، فكانوا نحواً من ستين ألفاً . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٢٥١ـ٢٥٦] .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري ـ قدس الله روحه ـ : أخبرنا محمد بن الحسين قال : سمعت أبا الحسين بن فارس يقول : سمعت أبا الحسن علي بن إبراهيم الحداد يقول : حضرت مجلس أبي العباس بن سريج ، فتكلم في الفروع والأصول بكلام حسن عجبت منه ، فلما رأىٰ إعجابي . . قال : تدري مِن أين هٰذا ؟ قلت : يقول القاضي ، قال : هٰذا من بركة مجالستي أبا القاسم الجنيد [الرسالة القشيرية ٣٢] .

وقال الجنيد : كنت أسمع السَّريَّ رحمه الله يقول : يبلغ العبد إلىٰ حد لو ضُرب وجهه بالسيف . . لم يشعر ، وكان في قلبي منه شيء حتىٰ بان لي أن الأمر كذلك [الرسالة القشيرية ٥٦] .

وقد سئل سهل بن عبد الله عن التوبة ، فقال : ألاَّ تنسىٰ ذنْبك ، وسئل الجنيد عنها فقال : أن تنسىٰ ذنبك .

وقال أبو نصر السراج : أشار سهل رحمه الله إلىٰ أحوال المريدين والمعترضين ، تارة لهم وتارة عليهم ، وأما الجنيد رحمه الله . . فإنه أشار إلىٰ توبة المتحققين الذين لا يذكرون ذنوبهم ؛ مما غلب علىٰ قلوبهم من عظمة الله عز وجل ، ودوام ذِكره سبحانه وتعالىٰ .

وقال : هٰذا مثل ما سئل رويم رحمه الله عن التوبة ، فقال : التوبة من التوبة ، ومثل ما سئل ذو النون المصري رحمه الله عن التوبة ، فقال : توبة العوام من الذنوب ، وتوبة الخواص من الغفلة [الرسالة القشيرية ٧٩ـ٨٠] .

وقال الجنيد : المسير من الدنيا إلى الآخرة سهل هيِّن على المؤمن ، وهجران الخلق في جنب الحق شديد ، والمسير من النفس إلى الله صعب شديد ، والصبر مع الله عز وجل أشد .

وسئل عن الصبر فقال : تجرُّع المرارة من غير تعبيس [الرسالة القشيرية ١٤٤] .

وقال : الرضا . . دفع الاختيار [الرسالة القشيرية ١٥٣] .

وسئل عن الحياء فقال : رؤية الآلاء ورؤية التقصير ، فيتولد من بينهما حالة تسمىٰ : الحياء [الرسالة القشيرية ١٧٠] .

وسئل عمَّن لم يبق عليه من الدنيا إلا مقدار مص نواة فقال : المكاتَب عبدٌ ما بقي عليه [درهم] .

وقال أيضاً : إنك لا تصل إلىٰ صريح الحرية وعليك من حقيقة عبوديته بقية [الرسالة القشيرية ١٧١] .

وقال : الفتوة بالشام ، واللسان بالعراق ، والصدق بخراسان .

وقال أيضاً : الفتوة . . كف الأذىٰ وبذل الندىٰ [الرسالة القشيرية ١٧٦ـ١٧٧] .

وقال الجنيد : الزهد . . استصغار الدنيا ومحو آثارها من القلب [الرسالة القشيرية ٩٥] .

وقال في « المختار » : قال الجريري للجنيد رحمهما الله وكان مشغولاً بدرس القرآن والركوع والسجود : لو رفقت بنفسك ، فقال : يا أبا محمد ؛ إذا مِتُّ . . فغسلني أنت وكفني وصلِّ عليَّ ، فبكى الجريري وبكى الحاضرون ، ثم قال : وحاجة أخرىٰ ؛ أن تتخذ لأصحابنا طعام الوليمة ، فإذا انصرفوا من الجنازة . . رجعوا إلىٰ ذلك حتىٰ لا يقع بهم التشتت ، قال : فبكى الجريري بكاءً شديداً ، ثم قال : والله ؛ لئن فقدنا هاتين العينين . . لا يجتمع منا اثنان أبداً ، وكان والله كذلك ، وإنما كان ذاك الاجتماع ببركة الشيخ ورؤيته . انتهىٰ .

وقال القشيري ـ رحمه الله ـ : قال أبو عبد الله محمد بن خفيف : اقتدوا بخمسة من شيوخنا ، والباقون سلموا لهم حالهم : الحارث بن أسد المحاسبي ، والجنيد بن محمد ، وأبو محمد رويم ، وأبو العباس بن عطاء ، وعمرو بن عثمان المكي ؛ لأنهم جمعوا بين العلم والحقائق [الرسالة القشيرية ٢٠] .

وقال الجنيد : كنت جالساً في مسجد الشُّونيزية[1] أنتظر جنازة أصلي عليها ، وهناك جمع كثير ينتظرون الجنازة ، فرأيت فقيراً عليه أثر النسك يسأل الناس شيئاً ، فقلت في نفسي : لو عمل هـٰذا عملاً يصون به نفسه . . كان أجمل [به] ، فلما انصرفت إلىٰ منزلي وكان لي أوراد من الليل . . فلم أقدر علىٰ شيء منها ، فسهرت قاعداً أتفكر في سبب ذلك ، فغلبتني عيناي ، فنمت ، فرأيت ذلك الفقير كأنه علىٰ خوان ممدود ، وقالوا لي : كل لحمه ؛ فإنك قد اغتبته ، فكشف لي عن الحال ، فقلت : إني ما اغتبته ، وإنما قلت في

---

(١) الشونيزية : مقبرة ببغداد بالجانب الغربي ، دفن فيها كثير من الصالحين ، وبالقرب منها يوجد خانقاه (مسجد) للصوفية .

نفسي شيئاً ، فقالوا : إن هٰذه غيبة ، وإنك ممن لا يُرضىٰ منك بهٰذا ، اذهب فاستحل منه .

فلما أصبحت . . قصدت ذلك الموضع مراراً حتىٰ رأيته يلتقط من جانب النهر أوراقاً من البقل الذي يسقط ، فسلمت عليه ، فرد عليَّ السلام ، وقال لي : يا أبا القاسم ؛ تعود ؟ فقلت : لا أعود ، فقال : غفر الله لنا ولك [الرسالة القشيرية ١٢٦] .

وقال القشيري : قال الجنيد : كان السري يقول لي : تكلم على الناس ، وكنتُ أجد في قلبي حشمة من الكلام على الناس ؛ لأني كنت أتهم نفسي في استحقاقي لذلك ، فرأيت ليلة جمعة في منامي النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فقال لي : « تكلم على الناس » ، فانتبهت وأتيت السَّريَّ قبل أن أصبح ، فدققت عليه الباب ، فقال لي : أنت لم تُصدِّقنا حتىٰ رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمرك بالكلام .

فلما كان النهار . . قعدت في الجامع ، وانتشر في الناس أن الجنيد جلس يتكلم ، فكان أول مجلسي أن وقف عليَّ غلام نصراني متنكراً ، وقال : أيها الشيخ ؛ ما معنىٰ قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فراسة المؤمن ؛ فإنه ينظر بنور الله »[1] ؟ قال : فأطرقت رأسي ، ثم رفعته إليه ، وقلت له : معناه أنك تسلم ، فقد حان وقت إسلامك ، فأسلم الغلام [الرسالة القشيرية ١٨٨] .

وقال الجريري : قدمت من مكة ، فبدأت بالجنيد ؛ لئلا يتعنىٰ إلي ، فسلمت عليه ، ثم أتيت إلى المنزل ، فلما صليت الصبح في المسجد ؛ إذا به خلفي في الصف ، فقلت : إنما جئتك بالأمس ؛ لئلا تتعنىٰ ، فقال : يا أبا محمد ؛ ذاك فضلك ، وهٰذا حقك [الرسالة القشيرية ١٩٠] .

وقال الجنيد : ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ، ولٰكن أخذناه عن ترك الدنيا وقطع المألوفات [الرسالة القشيرية ٣١] ؛ لأن التصوف والجوع هو صفاء المعاملة مع الله عز وجل ، وأصله العزوف عن الدنيا ، كما قال حارثة رضي الله عنه : (عزفَت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري . . .) الحديث[2] .

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٢٧) وقال : حديث غريب .

(٢) الحديث الذي أشار إليه الشيخ كما عند الطبراني في « الكبير » (٣/٢٦٦) : (عن الحارث بن مالك الأنصاري : أنه مَرَّ برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كيف أصبحت يا حارث ؟ » قال : أصبحت مؤمناً حقاً ، فقال : « انظر ما تقول ؛ فإن لكل شيء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ » فقال : عزفت نفسي عن الدنيا ، وكأني أنظر إلىٰ عرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلىٰ أهل الجنة =

وقال أبو القاسم الجنيد : رأيت في المنام إبليس عرياناً ، فقلت له : يا ملعون ؛ ألا تستحي من الناس ؟ فقال : يا أبا القاسم ؛ هـٰؤلاء ناس ؟ ما بقي في الناس من يستحيا منه ، الناس الذين يستحيىٰ منهم قوم في مسجد الشونيزي ، قوم قد أضنوا جسدي ، وأحرقوا كبدي ، قال : فلما انتبهت . . جئت إلى المسجد ؛ فإذا فيه جماعة ، منهم : الزقاق ، والنوري ، والجريري ، وقد وضعوا رؤوسهم علىٰ ركبهم يتفكرون ، فلما رأوني قد أقبلت إليهم . . رفعوا رؤوسهم وقالوا : يا أبا القاسم ؛ لا يغرنك حديث الخبيث [الرسالة القشيرية ٣٠٨] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

= يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلىٰ أهل النار يتضاغَون فيها ، فقال : « يا حارث ؛ عرفت فالزم » ثلاثاً) هـٰذا الحديث مختلف في روايته ، فمرّة يروىٰ عن : حارثة بن النعمان ، وأخرىٰ : عن الحارث بن مالك ؛ لذلك ستجد أحياناً يقول : « يا حارث » ، وأخرىٰ : « يا حارثة » لمزيد بيان انظر : « الشعب » للبيهقي (١٠١٠٦) .

ومنهم الإمام :

أبو بكر الشبلي
رضي الله عنه

قال أبو الفرج :

أبو بكر الشبلي أصله من خراسان ، وكان حاجب الموفق ، وكان أبوه حاجب الحجاب ، فحضر الشبلي مجلس خير النساج ، فتاب فيه .

وكان أبوه قد خلَّف ستين ألف دينار سوى الضياع ، فتصدق الشبلي بالجميع وآثر الفقر . [انتهىٰ « الصفوة » ٢/٢٧٦] .

وقال أبو القاسم القشيري ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : كان الشبلي نسيجَ وحده حالاً وظرفاً وعلماً ، مالكي المذهب .

ولما تاب في مجلس خيرٍ النساج . . راح إلىٰ نهاوند ، وقال لهم : إني كنت والي بلدكم ، فاجعلوني في حل ، ومجاهداته فوق الحد . انتهىٰ [« الرسالة القشيرية » ٤٣] .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال محمد بن علي رحمه الله تعالىٰ : أُدخل الشبلي دار المرضىٰ ليعالَج ، فدخل عليه علي بن عيسى الوزير عائداً ، فأقبل إليه الشبلي ، فقال الوزير لبعض الحاضرين : ناظِرْه ، فقال له رجل : يا أبا بكر ؛ سمعتك تقول في حال صحتك : كل صدِّيقٍ لا يكون له كرامة . . فهو كذاب ، فما كرامتك ؟ فقال : كرامتي أن يعرض خاطري في حال صحوي علىٰ خاطري في حال سكري ، فلا يخرجان عن موافقة الحق سبحانه وتعالىٰ .

وقال خيرٌ النساج : كنا في المسجد ، فجاءنا الشبلي وهو سكران[1] ، فنظر إلينا ولم يكلمنا ، ثم هجم على الجنيد في بيته ، وهو جالس مع امرأته مكشوفة الرأس ، فهَمَّتْ أن

---

(١) أي من المحبة والوجد ، لا من مسكر محرم .

تغطي رأسها ، فقال لها الجنيد : لا عليك ، ليس هو هناك ، قال : ثم جعل يصفق علىٰ رأس الجنيد ، وأنشأ يقول :

عَوَّدوني الوصالَ والوصل عذبُ ... ورمـونـي بـالصد والصَّـدُّ صعـبُ
زعمـوا حيـن أعتبـوا أن جـرمـي ... فَـرْط حبـي لهـم ومـا ذاك عيـب[1]
لا وحـق الخضـوع عنـد التـلاقـي ... مـا جـزا مَـن يُحِـبُّ إلاَّ يُحَـبُّ

ثم ولى الشبلي ، فضرب الجنيد برجليه ، وقال : هو ذاك ، وخر مغشياً عليه . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ٣٦٧] .

وزاد في رواية أخرىٰ : أن الشبلي ما زال يتكلم والجنيد باكياً والشبلي في سكره وغيبته حتىٰ بكىٰ ، فلما بكى الشبلي . . قال الجنيد لامرأته إذ ذاك : غطِّي رأسك ؛ فإنه رجع إلىٰ نفسه .

وقال الأئمة ـ رحمهم الله تعالىٰ ـ منهم الحافظ أبو نعيم رحمه الله تعالىٰ بإسناده إلىٰ أبي محمد عبد الله بن محمد الحربي رحمهم الله قال : كان الشبلي كثيراً ما يتمثل بهـٰذين البيتين :

والهجرُ لو سَكَنَ الجِنانَ تحوَّلتْ ... نِعَـمُ الجِنـانِ علـى العبيـد جحيمـا
والوصلُ لو سكن الجحيمَ تحولت ... حَـرُّ السعيـر علـى العبـاد نعيمـا

وقال الشبلي : وقفت مرة بعرفة ، فطالبت الناس بما يجب من الإجلال والاحترام والحضور ، فما رأيت أحداً إلا وهو في التقصير منغمس ، فرحمتهم ، وقلت : إلـٰهي وسيدي ؛ إن منعتهم إرادتك فيهم . . فلا تمنعهم مناهم منك يا أرحم الراحمين .

وكان يقول : ليس للمريد فترة ، ولا للعارف عَلاقة[2] ، ولا للمحب شكوىٰ ، ولا للصادق دعوىٰ ، ولا للخائف قرار ، ولا للخلق من الله عز وجل فرار .

وقال في قوله عز وجل : ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ قال : ادعوني بلا غفلة . . أستجب لكم بلا مهلة .

وسئل عن الزهد فقال : هو تحويل القلب من الأشياء إلىٰ رب الأشياء سبحانه وتعالىٰ .

---

(١) في نسخة : (عتب) ، وفي « الحلية » : (ذنب) .
(٢) أي : ليس له ما يتعلق به من دون الله .

وقال له رجل : ادع لي ، فأنشأ يقول :

مضىٰ زمن والناس يستشفعون بي ... فهل لي إلىٰ ليلى الغداةَ شفيعُ

وأقبل الجنيد يوماً على الشبلي وقال له : حرام عليك يا أبا بكر إن كلمت أحداً ؛ فإن الخلق غرقىٰ عن الله عز وجل ، وأنت غَرِق في الله سبحانه وتعالىٰ .

وكان الشبلي يقول للحصري[1] وكان يجتمع معه في كل جمعة مرة : لئن خطر ببالك من الجمعة إلى الجمعة التي تأتيني فيها شيء غير الله عز وجل . . فحرام عليك أن تأتيني .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ قال : يمحو الله ما يشاء من شهود العبودية وأوصافها ، ويثبت ما يشاء من شهود الربوبية ودلائلها .

وكان يقول : الغَيرة غَيرتان : أدناهما : أن تخشىٰ على الوقت أن يضيع فيما سوىٰ عبادة الله عز وجل ، وأعظمهما : أن تخشىٰ أن يكون في قلبك غير الله تعالىٰ .

وقال محمد بن إبراهيم : حضرت وفاة الشبلي ، فلما أُمسك لسانه وعرق جبينه . . أشار بأن أوضئه للصلاة ، فوضأته ونسيت تخليل لحيته ، فقبض علىٰ يدي وأدخل أصابعه في لحيته يخللها ، فبكيت ، وقلت : أي شيء يتهيأ أن يقال لرجل لم يذهب عليه تخليل لحيته في الوضوء عند نزع روحه وإمساك لسانه وعرق جبينه ، ومع ذلك لم يُخِلَّ بأدب من آداب الشريعة ؟

وكان يقول : ما أحوج الناس إلىٰ سكرة ، فقيل له : يا سيدي ؛ أي سكرة ؟ فقال : سكرة تفنيهم[2] عن ملاحظة أنفسهم وأفعالهم وأحوالهم ، وأنشأ يقول :

وتحسبني حيّاً وإني لَميِّتٌ ... وبعضي من الهجران يبكي علىٰ بعضي

وقال أبو القاسم عبد الله بن محمد الدمشقي : وقفت يوماً علىٰ حلقة الشبلي ، فوقف سائل علىٰ حلقته وجعل يقول : بالله يا أجواد تصدقوا عليَّ ، فتأوه الشبلي وصاح ، وقال : كيف يمكنني أن أصف الحق سبحانه وتعالىٰ بالجواد ومخلوق يقال فيه :

تعوَّد بسطَ الكف حتىٰ لَوَ انَّهُ ... ثَناها لقبضٍ لم تجبه أناملُهْ

---

(١) في نسخة : (الخضري) ، ولعل الصواب ما أثبت ؛ لأن الحصري علي بن إبراهيم أبا الحسن هو من صحب الشبلي ، والله أعلم .

(٢) في « طبقات الصوفية » (٣٤٥) : (تغنيهم) .

تـــراه إذا مـــا جئتَـــهُ متهلـــلاً　　كـأنـك تعطيـه الـذي أنـت آملـه
ولـو لـم يكـن فـي كفـه غيرُ نفسِـهِ　　لَجَـادَ بهـا فليتـق الله سـائلـه
هـو البحـر مـن أي النـواحـي أتيتَـهُ　　فلُجَّتُـه المعـروف والجـود سـاحلُهْ

قال : ثم بكىٰ بكاء كثيراً ، وقال : بلىٰ أقول : يا جواد ؛ فإنه سبحانه وتعالىٰ هو الجواد على الحقيقة ، لأنه تعالىٰ هو الذي أوجد لهم تلك الجوارح ، وبسط لهم تلك الهمم ، ثم مَنَّ بعد ذلك علىٰ أقوام بالاستغناء عنهم وعما في أيديهم ، فهو الجواد على الحقيقة ، وكل الجود منه سبحانه وتعالىٰ ؛ فإنهم يُعطُون عن محدود ، وعطاؤه لا حد له ولا صفة ، فيا جواداً يعلو كلَّ جواد وبه جاد من جاد . انتهىٰ [« الحلية » ٩/ ٣٦٧ـ٣٧٣] .

وزاد في رواية صاحب « المناقب » : استوت الألفاظ واختلفت المعاني ، بل أقول : يا جواد . . . ثم ذكر باقيه .

وسئل الشبلي : أي شيء أعجب ؟ فقال : قلب عرف الله عز وجل ثم عصاه .

وقال أبو الحسن علي التميمي : دخلت على الشبلي في داره وهو يقول :

علـــــىٰ بُعــــــدك لا يصبــ　　ـــرُ مَـــن عـــادتـــه القـــربُ
ولا يقـــوىٰ علـــىٰ هجـــر　　ك مـــن تَيَّمـــه الحـــب
فـــإن لـــم تَـــرَكَ العيـــنُ　　فقـــد يَشهَـــدك القلـــبُ
فيـــا ســاقـــي الهـــوىٰ رفقـــاً　　فقـــد أسكـــرنـــي الشـــربُ

وكان يقول : **ليس مَن استأنس بالذِّكر كمن استأنس بالمذكور سبحانه وتعالىٰ** .

وسئل : ما الزهد ؟ فقال : نسيان الزهد .

وكان يقول : ليت شعري ما اسمي عندك غداً يا علام الغيوب وستار العيوب ؟ وما أنت صانع بي في عيوبي وذنوبي يا غفار الذنوب ؟ وبم تختم عملي يا مقلب القلوب ؟ وما الذي سبق لي منك يا أرحم الراحمين ؟[١] .

وحكى الشيخ محيي الدين النووي ـ قدس الله روحه ـ : إن الإمام أبا بكر الشبلي ـ رحمه الله ـ غُشي عليه عند رؤية الكعبة ، ثم أفاق ، فأنشد :

هــٰـذه دارُهُـــمْ وأنـــت محـــبٌّ　　مـــا بقـــاء الـــدمـــوع فـــي الآمـــاقِ

---

(١) الصفوة (٢/ ٢٧٦ـ٢٧٧) .

وقال في « المناقب » : قال الشبلي : إذا أردت أن أغفل عنه لحظة.. صاح عليَّ وقال لي : إلىٰ أين يا شبلي ؟

ويؤيد هٰذا ما تقدم ذِكره من قول سيدنا الجنيد رحمه الله : حرام عليك يا أبا بكر إن كلمت أحداً ؛ فإن الخلق غرقىٰ عن الله وأنت غرق في الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ : سمعت أبا حاتم السجستاني يقول : سمعت أبا نصرٍ السراج يقول : بلغني عن أبي محمد الهروي أنه قال : كنت عند الشبلي في الليلة التي مات فيها ، فكان يقول طول ليلته هٰذين البيتين :

كُلُّ بيتٍ أنت ساكنه غيرُ محتاج إلى السُرُجِ
وجهُك المأمول حجتنا يوم يأتي الناس بالحُجَجِ

ودخل الشبلي على الجنيد رحمهما الله ، فقال الجنيد : مَن كان الله سبحانه وتعالىٰ هَمَّه.. طال حزنه ، قال الشبلي : لا ، بل مَن كان الله هَمَّه.. زال حزنه .

وقال الشبلي : الفقر : هو الجلوس مع الله سبحانه وتعالىٰ بلا هَمٍّ .

وسئل : لِمَ سُمُّوا بهٰذه التسمية ؟ فقال : لبقية بقيت عليهم من نفوسهم ، ولولا ذلك.. لما تعلقت بهم سِمَة .

وسئل : لِمَ تصفَرُّ الشمس عند الغروب ؟ فقال : لأنها عُزِلت عن مكان التمام ، فاصفرت لخوف المقام ، وكذا المؤمن إذا قارب خروجٍ روحه من الدنيا.. اصفر لونه ؛ لأنه يخاف المقام ، فإذا طلعت الشمس.. طلعت مضيئة ، وكذا المؤمن إذا بعث من قبره.. خرج ووجهه مشرق .

وقال : كنت قد عقدت علىٰ نفسي ألاَّ آكل إلا من الحلال المحض الصافي ، فكنت أدور في البراري ، فرأيت شجرة تين ، فمددت يدي إليها لآكل منها ، فنادتني الشجرة : احفظ عليك عقدك ، لا تأكل مني ؛ فإني ليهودي . انتهىٰ [« الرسالة القشيرية » ٢٣٥] .

وقال في « المختار » : روي أن بعض الأئمة الأكابر سأل الشبلي عن مسألة في الحيض ، وكان قصده أن يعرف مرتبة الشبلي من العلم ، فأجاب الشبلي عنها بأحسن جواب ، وذكر مقالات الناس فيها اختلافاً واتفاقاً ، فقام ذلك العالم وقبَّل رأس الشبلي ، وجلس بين يديه ، وقال له : يا أبا بكر ؛ قد استفدت منك اليوم في هٰذه المسألة عشر مقالاتٍ لم أكن أعرفها .

وقال : حكي عنه أنه أتىٰ عليه عيد ، فأنشد يقول :

النـاس كلهُـمُ بـالعيد قـد فـرحـوا	ومـا فـرحـتُ بـه والـواحـدِ الصمـدِ
لمــا تيقنــت أنــي لا أعــاينكُــمْ	غضضت طرفي فلم أنظر إلىٰ أحد

وقال الشبلي : طموح الآمال قد خابت إلا إليك ، وعكوف الهمم قد تعطلت إلا عليك ، ومذاهب المعارف قد انسدت إلا إليك .

وحكي : أن بعض الأئمة سأل الشبلي رحمه الله ، فقيل له : كم في خمس من الإبل ؟ فقال له الشبلي : في واجب الشرع . . شاة ، وعند إرادة الإيثار والعزوف عن الدنيا . . كلُّها ، فقال له : هل لك في هـٰذا القول إمام ؟ قال : نعم ، وكيف أقول قولاً من عندي ؟ إمامي في هـٰذا القول أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، حيث أخرج ماله كله ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « ما أبقيت لأهلك ؟ » قال : أبقيت لهم اللهَ ورسولَه[(1)] .

وقال الشبلي في قوله تعالىٰ : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ فقال : أبصار الرؤوس عما حرم الله عز وجل ، وأبصار القلوب عما سوى الله تعالىٰ .

وقال : رأيت في بعض السواحل شيخاً عليه عباءة قد عقدها في عنقه ، فدار بيننا كلام لطيف ، ثم سألته عن كنيته ، فقال : أبو مدافع الأوقات .

وسمع قارئاً يقرأ قوله تعالىٰ : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ ، فبكىٰ وأطال البكاء ، وقال : إلـٰهي وسيدي ؛ املأها من الشبلي واعف عن عبادك .

وسمع قارئاً يقرأ : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ ، فصاح وقال : هـٰذا هو الكرم العظيم ، أطلق للكافر دخول الجنة بكلمة .

وكان يقول : ليس في الوقت مزح ، الوقت كله جد .

وقال : كنت أسير بالبادية ؛ فإذا رجل جالس في الهواء ، فقلت له : بالذي أعطاك ما أرىٰ ؛ بماذا وصلت إلىٰ هـٰذا الموضع ؟ فقال : إنك أحلفتني بالله ، أنا رجل انتهيت عن الهوىٰ ، فأجلسني كما ترىٰ في الهواء .

وقال أبو الفرج : وكان يقول : لا تأمن علىٰ نفسك وإن مشيت على الماء . . حتىٰ تخرج من دار الدنيا ـ دار الغرور ـ إلىٰ دار الأمن .

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٥٧٤) .

وقال : مَن عرف الله عز وجل . . لا يكون له غم .

وكان يقول : أحبَّك الخلقُ لنعمائك ، وأنا أحبك لبلائك ، وأنت فعلت ذلك بي ووفقتني له .

وكان يقول : إن أردت أن تنظر إلى الدنيا وما فيها بحذافيرها . . فانظر إلىٰ مزبلة ، فهي الدنيا ، وإن أردت أن تنظر إلىٰ نفسك . . فخذ كفاً من تراب ؛ فإنك منه خلقت وفيه تعود ومنه تخرج ، ومتىٰ أردت أن تنظر إلىٰ قدرك . . فانظر إلىٰ ما يخرج منك في دخول الخلاء ، فمَن كان هـٰذا حاله . . كيف يجوز له أن يتطاول أو يتكبر علىٰ من هو مثله ؟!

وقال : ليس للأعمىٰ من رؤية الجوهرة إلا لمسها ، وليس للجاهل من الله عز وجل إلا ذِكره باللسان .

وسأل جعفرُ بن نصير بكرانَ الدينوري ـ وكان يخدم الشبلي ـ : ما الذي رأيت منه عند وفاته ؟ فقال : قال لي : عليَّ درهم مظلمة ، قد تصدقت عنه بألوف ، وما عليَّ شغل أعظم منه .

وقال بكران : مرض الشبلي أياماً ، ثم إنه وجد في يوم جمعة خفة من الوجع الذي به ، فقال : نمضي إلى الجامع ؟ قلت : نعم ، فاتَّكأ علىٰ يدي حتى انتهينا إلى الوراقين من الجانب الشرقي ، قال : فرأينا رجلاً جاء من الرصافة ، فقال لي الشبلي : يكون لي غداً مع هـٰذا الشيخ شأن ، ثم مضينا وصلينا ثم عدنا ، فتناول شيئاً من الغداء ، فلما كان آخر الليل . . توفي إلىٰ رحمة الله ، فطلبت من يغسله ، فقيل لي : في درب السقائين رجل صالح يغسل الموتىٰ ، فدَلُّوني عليه في سحر ذلك اليوم ، فجئت إليه مُغَلِّساً[1] ، فدققت الباب دقاً خفيفاً ، وقلت له : سلام عليكم ، فخرج إلي ، وقال : عليكم السلام ، مات الشبلي ـ رحمه الله ـ ؟ قلت : نعم ، وإذا هو الشيخ الذي ذكره الشبلي بالأمس ، فقلت له : لا إلـٰه إلا الله ـ تعجُّباً مما وقع ـ فقال : لا إلـٰه إلا الله ـ تعجباً مما قلتُ ـ فقلت له : بالله مِن أين لك أن الشبلي مات ؟ فقال : يا فلان ؛ أمَا قال لك الشبلي بالأمس : إنه يكون لي غداً معه شأن ؟ هو ذاك .

صحب الشبلي الجنيد وطبقته ، وتفقه علىٰ مذهب الإمام مالك رحمه الله ، وسمع الحديث الكثير علىٰ جماعة ، وشغلته الرعاية عن الرواية .

---

(١) أي : أتاه في ظلمة آخر الليل .

فمما رواه : عن أبي سعيد ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لبلال : « اِلقَ الله فقيراً ، ولا تَلقَهُ غنياً » ، قال : يارسول الله ؛ كيف لي بذاك ؟ قال : « ما سئلت فلا تمنع ، وما رزقت فلا تخبىء » ، قال : يا رسول الله ؛ كيف لي بذاك ؟ فقال : « هو ذاك أو النار »[1] .

توفي الشبلي ـ رحمه الله ـ في ذي الحجة سنة أربع وثلاثين وثلاث مئة ، وهو ابن سبع وثمانين سَنة رحمه الله . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٢٧٧ـ٢٧٩] .

قال الغزالي : قال الشبلي : السماع ظاهرهُ فتنة وباطنه عبرة ، فمن عرف الإشارة . . حل له استماع العبارة ، وإلا . . فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية[2] .

وسمع الشبلي قارئاً يقرأ قوله عز وجل : ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ فزعق الشبلي زعقة وخر مغشياً عليه ، فلما أفاق . . جعل يقول : بمثل هـٰذا يخاطب الأحباب[3] ؟!

وقال رجل للشبلي : ربما يطرق سمعي آية من كتاب الله ، فيكون ذلك سبباً للإعراض عن الدنيا ، ثم أرجع إلىٰ أحوالي وإلى الناس ، فلا أبقىٰ علىٰ ذلك ؟ فقال : ما طرق سمعك من القرآن فاجتذبك به إليه . . فذلك فضل منه ولطف بك ، فإذا ردك إلىٰ نفسك . . فهو رحمة منه عليك لعلمه بعجزك وضعفك ، فلا يصلح للخلق إلا التبري من الحول والقوة مع التوجه إلى الله تعالىٰ في جميع أمورهم[4] .

وقال الشبلي : ما جعت يوماً إلا رأيت في قلبي باباً من الحكمة والعبرة لم أره قبل ذلك[5] .

وقال : الشكر رؤية المنعم عز وجل لا رؤية النعمة[6] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : يروىٰ أن الشبلي قال : لو كان لي في القيامة أمر يطاع . .

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١/ ٣٤١) .
(٢) الإحياء (٢/ ٢٩٢) .
(٣) الإحياء (٢/ ٢٩٧) .
(٤) الإحياء (٢/ ٢٩٨) .
(٥) الإحياء (٢/ ٨٤) .
(٦) الإحياء (٢/ ٨٤) .

لسألت الله عز وجل أن يملأ جهنم مني وحدي ؛ حتىٰ لا يبقىٰ فيها متسع لغيري ، وما ذاك إلا لأفدي بعض أمة محمد صلى الله عليه وسلم وأتحمل عنهم العذاب ، ثم أنشد :

تشكّى المحبُّون الصبابةَ ليتني ... تحملت ما يَلْقَون من بينهم وحدي

فكانت لقلبي لذةُ الحب كلُّها ... فلم يَلقَها قبلي محب ولا بعدي

ويقال : إن الشبلي لما انبسط بهٰذه الكلمة . . رأىٰ في نومه الحق جل جلاله وهو يقول : يا أبا بكر ؛ أمَا استحييت مني أن تقول ما قلت ؟ إن كنت تتكرم علىٰ خلقي وعبادي بما يضرك . . فأنا خالق الحياء والكرم ، وأولىٰ أن أتكرم علىٰ عبيدي بما لا يضرني ، فقام ، وقال : يا رب ؛ وعزتك وجلالك لقد تهت فلم أدر ما أقول ، وأنت أعلم .

ويروىٰ : أن الجنيد قال مرة : لا ينبغي للشبلي أن يقول مثل هٰذه المقالة ؛ لأن الشخص قد يقول ذلك ولا يدري كيف حاله عند الامتحان ؛ فقد لا يقوىٰ ولا يصبر .

وقال مرة أخرىٰ : قد يصح لمثل الشبلي دعوىٰ ذلك وليس لأحد منا اليوم دعوىٰ مثل ذلك .

وقال القاضي أبو المعالي : وقريب من هٰذه الحكاية ما روي عن أبي سعيد الخراز رحمه الله أنه وقف بعرفات ، فلما حان وقت الإفاضة . . قال : إلٰهي ؛ إن كنتَ حرمت أحداً من خلقك الوافدين إلىٰ بيتك القبول . . فاجعل ثواب حجتي له حتىٰ لا يرجع أحد من بابك منكسر القلب مخيب الرجاء غيري ، فسمع هاتفاً يقول : يا أبا سعيد ؛ أتتكرم علىٰ أضيافي ؟ قد غفرت لهم أجمعين ووهبتك لهم .

وقد حكي عن الشبلي : أنه رآه بعض أصحابه في المنام بعد موته ، فسأله : ما فعل الله عز وجل بك ؟ فقال : غفر لي ، فقيل له : هل عوتبت علىٰ شيء ؟ فقال : نعم ، عوتبت علىٰ قولي : أي خسارة أعظم ممن خسر دخول الجنة ؟ قال : فقال لي الباري جل جلاله : لا خسران أعظم ممن خسر لقائي . [انتهىٰ] .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري : دخل رجل على الشبلي ، فسأله فقال له : أي الصبر أشد على الصابرين ؟ فقال : الصبر في الله تعالىٰ ؟ قال : لا ، قال : فالصبر لله تعالىٰ ؟ قال : لا ، قال : فالصبر مع الله عز وجل ؟ قال : لا ، قال الشبلي : فأيش ؟ قال : الصبر عن الله تعالىٰ ، قال : فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تتلف ، فلما أفاق . . أنشد يقول :

الصبر يَجمُل في المواطن كلِّها إلا عليك فإنه لا يجملُ[1]

وقال السلمي في « الحقائق » :

إن شخصاً جاء إلى الشبلي رحمه الله ، فقال له الشبلي : أكنت حاجاً ؟ قال : نعم ، فقال له : أيش عملت ؟ فقال : اغتسلت ، وأحرمت ، ولبيت ، وطفت ، وأتيت بباقي المناسك .

فقال له الشبلي : لَمَّا عقدت الحج . . هل فسخت بعقدك كل عقد يخالف ذلك العقد منذ خُلِقت وإلىٰ ذلك اليوم ؟ قال : لا ، قال : ما عقدت .

ثم قال له : فلَمَّا نزعت ثيابك . . هل تجردت عن كل فعل فعلته لغير الله عز وجل ولجأت إليه بالبراءة منه والتوبة عن جميع المخالفات ؟ قال : لا ، قال : ما نزعت .

ثم قال له : لَمَّا تطهرت . . أزلت عنك بطهرك كل علة من علل الدنيا ؟ قال : لا ، قال : ما تطهرت .

ثم قال : لَمَّا لبيت . . وجدت جواب التلبية مِثلاً بمِثل ؟ قال : لا ، قال : ما لبيت .

ثم قال : لَمَّا دخلت الحرم . . عاهدت الله عز وجل علىٰ ترك كل مكروه ومأثم والتورع عن الشبهات ؟ قال : لا ، قال : ما دخلت .

ثم قال : لَمَّا أشرفت علىٰ مكة . . أشرف عليك حال من الحق جل جلاله لإشرافك علىٰ مكة ؟ قال : لا ، قال : ما أشرفت .

ثم قال : لَمَّا دخلت المسجد الحرام . . دخلت في قربه من حيث علمته ؟ قال : لا ، قال : ما دخلت .

ثم قال : لَمَّا طفت ثلاثاً ومشيت أربعاً . . هربت من الدنيا هرباً علمت أنك قد فاصلتها وانقطعت عنها ، ووجدت بمشيك الأربع أمناً مما هربت منه ، فازددت شكراً لله عز وجل عند ذلك ؟ قال : لا ، قال : ما طفت .

ثم قال : لما صافحت الحجر . . ظهر عليك أثر الأمن ؟ قال : لا ، قال : ما صافحت ،

---

(١) الرسالة القشيرية (١٤٥) .

ويلك! الحجر الأسود يمين الله في الأرض ، فمن صافح الحجر الأسود. . فقد صافح الحق جل جلاله ، ومَن صافحه. . فهو في محل الأمن[١] .

ثم قال : لَمَّا صليت ركعتين. . استحضرت في نفسك كيفية العرض على الله عز وجل كيف يكون ، وحقيقة العبودية من الذلة والانكسار والافتقار ، وحقيقة عظمة الربوبية ، وما يجب له من نعوت الجمال والعظمة والكبرياء والجلال ، ونعوت العز والبقاء ، وعرفت عظيم مِنَّتهِ سبحانه وتعالىٰ عليك ونعمه في أن شرع لك عبادته وأهَّلك لها ، ووفقك لفعلها ، وأقدرك علىٰ ذلك ، وعلمت أنك لو قمت عمر الدنيا علىٰ جفون عينيك. . ما قضيت ما يجب لله عز وجل عليك ؟ فقال : لم أشعر بذلك ، فقال : ما صليت .

ثم قال : لَمَّا خرجت إلى الصفا وكبرت عليها. . هل صفا سرك بصعودك إلى الصفا وصغرت في عينيك الأكوان كلها بتكبيرك ربك عز وجل على الصفا ؟ فقال : لم أعرف ذلك ، قال : ما صعدت ولا كبرت .

ثم قال : لَمَّا هرولت في سعيك. . هربت منه إليه سبحانه وتعالىٰ ؟ قال : لا ، قال : ما سعيت ولا هرولت .

ثم قال : لَمَّا وقفت على المروة. . رأيتَ نزولَ السكينة عليك[٢] وأنت على المروة ؟ قال : لا ، قال : لم تقف على المروة .

ثم قال : لَمَّا وصلت إلىٰ مِنىٰ. . أُعطيت ما تمنيت ؟ قال : لا ، قال : ما وصلت إلىٰ منىٰ .

ثم قال : لَمَّا دخلت إلىٰ مسجد الخَيف. . هل تجدد عليك خوف بدخولك مسجد الخَيف ؟ قال : لا ، قال : ما دخلت .

ثم قال : لَمَّا مضيت إلىٰ عرفات ووقفت بها. . هل عرفت الحال الذي خُلِقتَ له من معرفة الله عز وجل وتوحيده وطاعته ، ولزوم عبادته جل جلاله ، والحذر من أن يراك حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك ، وشاهدت ببصيرتك الحال الذي تصير إليه في الآخرة من حلول الرضوان والخلود الدائم في النعيم المقيم ، والنظر إلىٰ وجهه الكريم سبحانه وتعالىٰ ؟ وهل عرفت من ربك ما كنت منكراً له ؟ وهل تعرَّف إليك الحق جل جلاله بشيء مما تعرَّف به إلىٰ

---

(١) في بعض النسخ : (القرب) .

(٢) في بعض النسخ : (عظيم منة الله عز وجل عليك) .

خواصه وأوليائه وأهل محبته ؟ قال : لا ، قال : ما وقفت بعرفات .

ثم قال : لَمَّا نفرت إلى المشعر الحرام . . ذكرت ربك سبحانه وتعالىٰ ذِكراً أنساك فيه ذِكْرَ كلِّ شيء مما سواه ؟ وهل شعرت بماذا أُجبت أو بماذا خوطبت ؟ قال : لا ، قال : ما نفرت .

ثم قال : لَمَّا ذبحت . . أفنيت شهواتك وإراداتك في مرضاة الحق سبحانه وتعالىٰ ؟ قال : لا ، قال : ما ذبحت .

ثم قال : لَمَّا رميت . . ألقيت عنك جهلك بزيادة علم ظهر عليك أثره ؟ قال : لا ، قال : ما رميت .

ثم قال : لَمَّا زرت . . هل كوشفت بشيء من الحقائق أو رأيت شيئاً من الكرامات لأجل الزيارة ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الحُجاج والعُمار زوار بيت الله سبحانه وتعالىٰ ، وحق على المزور أن يكرم زواره » ؟ قال : ما كُوشفتُ بشيء ، قال : ما زرت .

ثم قال : لما تحللت . . زهدت في كل شيء من حلال الدنيا إلا قدر الضرورة ؟ قال : لا ، قال : ما تحللت .

ثم قال : لما ودعت البيت . . خرجت من نفسك وروحك بالكلية من حيث إنك فارقت بيت ربك سبحانه وتعالىٰ ؟ قال : ما شعرت بذلك ، فقال : ما ودعت ، ولا حججت حجاً تاماً ، وعليك العود إن أحببت ، واجتهد أن يكون كما وصفت لك .

ثم ذكر في « الحقائق » أيضاً : أن رجلاً جاء إلى الشيخ الحُصَري ببغداد ، فقال له : أحاجٌّ أنت ؟ فقال : أتابع القوم إن شاء الله تعالىٰ .

فقال له : اجتهد وانظر كيف تكون في الوقوف ؛ فإنه على المباهاة ـ يعني : أن الحق جل جلاله يباهي الملائكة بعباده ـ فانظر كيف تكون فيه .

والطواف ؛ فإنه في محل الأمن والقرب من الحق عز وجل ، فانظر كيف يكون قربك بحسن الأدب .

وأما السعي : فهو الفرار منه إليه والتبري من كل ما سواه سبحانه وتعالىٰ مما يخالفه عز وجل ، وإياك أن يتعلق قلبك بعد سعيك بعلاقة من الدارين . انتهىٰ .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : ذكر شيخنا قاضي القضاة شيخ الشيوخ

علاء الدين القونوي الشافعي رحمه الله تعالىٰ في كتابه « مختصر شُعَب الإيمان »[1] كلاماً حسناً نفيساً ، يناسب ما ذكره الشبلي رحمه الله ، فأحببت ذِكره ؛ لينتفع به مَن وفقه الله تعالىٰ إن شاء الله عز وجل .

قال : في الحج جعل الله عز وجل البيت الحرام قبلة للمصلين وما حوله للطائفين ، فيؤمُّون البيت الحرام متصورين بصور العبيد الأُبَّاق العاصين ، يريدون الرجوع إلىٰ مولاهم سبحانه وتعالىٰ ، حتىٰ إذا بلغوا الميقات . . رفضوا ملابسهم المعتادة ، واغتسلوا ، ولبسوا الرباط كما يُفعل بالميت ، فيغسَّل ويكفن في الرباط ، كأنهم هجروا الدنيا وزينتها وخلفوها وراء ظهورهم ، فأحرموا عاقدين علىٰ أنفسهم أن يدوموا علىٰ تلك الحالة ، وعلىٰ ألا يتلذذوا بطِيب ، ولا مباشرة ، ولا يلهوا باصطياد ، ولا يتنعموا بأخْذ شعر ، ولا تقليم ظفر . . إلىٰ أن يأذن الله لهم فيه .

فإذا وصلوا إلىٰ مكة شرفها الله تعالىٰ . . لم يُعرِّجوا علىٰ شيء دون الطواف ، كما أن العبد الآبق إذا رجع إلىٰ سيده بعد طول العصيان ووصل إلىٰ فِناء داره . . لم يُعرِّج علىٰ شيء دون الالتجاء إليه ، وإظهار الانقياد والطاعة والتذلل له ، والعكوف علىٰ بابه ، فطافوا حول البيت متصورين بصورة عبد قد لاذ بسيده ، فهو يقول له : أنا لك وإليك ، لا مذهبَ لي عنك ، ولا منقلَبَ لي إلا إليك ، ولا التجاءَ إلا بك ؛ لأن الطائف حول البيت لازم له ، فكلما ذهب عن وجه البيت إذا افتتح طوافاً . . عاد إليه إذا ختمه .

فكأنه يقول : أينما ذهبت فلست بذاهب عنك ، وحيثما مضيت فإني راجع إليك ، والإشارة في ذلك إلىٰ أني تبت وأنبت ، فلست بمحدث بعد ذلك ما يبعدني عنك ، ولا أعود إلىٰ ما يسخطك علي بتوفيقك ، كما أني في ذهابي عن باب بيتك طائفاً لست بذاهب عنه ولا بمفارق له ، لـٰكني متمسك بجواره عائداً إذا استدرت إلىٰ فنائه .

ويجوز أن يقال : كأن الطائف يتصور بصورة مَن أتى البيت مِن أحد وجوهه . . فخاف صداً ، فتجاوزه إلىٰ وجه آخر . . فخاف صداً ، فتجاوزه إلىٰ وجه آخر . . فخاف منه صداً ، فتجاوزه إلىٰ وجه ثالث . . . وهـٰكذا إلىٰ أن عاد إلى الأول ، ثم لم يزل يستدير ويتحول من صفحة إلىٰ صفحة حتىٰ يستكمل سبعاً ، فيُبَشَّر بالقَبول ، ويبقىٰ كأنه قد قيل له : قد وقع ما فعلت موقعه ، فانصرف الآن إلى الزيارة وتهيأ لذلك ، فيخرج إلىٰ عرفة كأن مناخ الزوار

---

(١) انظر « شعب الإيمان » للحليمي (٢/ ٤١٣) وما بعدها .

قد جُعل فيها ؛ لأنها من الحل ، فلا ينبغي لمَن لم يؤذن له في الزيارة ـ وهي من همِّه ـ أن يكون مقامه في الحرم ، ثم يزور منه ؛ لأن الزائر في العادة لا بد وأن يكون خارجاً عن الموضع الذي يزوره ؛ ليصدق أن يقال إنه زائر موضع كذا من كذا ، فلو كان في الحرم . . لَمَا سمي زائراً ؛ لأن حرم البيت كالحرم ، والمقيم بالحرم كالمقيم بالبيت ، فلذلك جعل مجمع الزوار والحِلَّ ، فاعرفه .

وإذا صاروا في عرفة ، ووقفوا طويلاً وتضرعوا ، حتىٰ إذا جن عليهم الليل . . أُذن لهم في نزول الحرم والدنو قليلاً ، فيأتون المزدلفة ، ويبيتون فيها ليلتهم داعين ضارعين[1] ، حتىٰ إذا طلع الفجر . . قدموا منها إلىٰ منىٰ ، وأُمِروا أن يرموا بها جمرة العقبة بسبع حصيات ، كأنهم يخاطبون الشيطان ويقولون : لا مطمع لك فينا بعد اليوم .

فإن المناسك موروثة عن إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم ؛ لما روي : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أيها الناس ؛ أقيموا علىٰ مشاعركم ؛ فإنكم علىٰ إرثٍ من إرث أبيكم إبراهيم عليه الصلاة والسلام »[2] ، وقد روي : أن إبليس لعنه الله اعترض لإبراهيم صلى الله عليه وسلم بمنىٰ ، فزجره إبراهيم عليه الصلاة والسلام بحصيات رماه بها ، فأوجب حق الاقتداء به أن نرمي مثل رميه ، وإذا وجب الاقتداء بأمَته هاجر في السعي ، فالاقتداء به أولىٰ أن يَجِب .

ثم بعد الرمي أُذن لهم في حلق رؤوسهم ومعاودة العادة في اللبس والتطيب ؛ بشارة لهم بالقبول وترفيهاً مما كانوا فيه بإزالة الشعث والتفث .

ومنهم من قال : ينبغي للحاج أن يعتقد في الحلق أنه يفارق الزينة تقشفاً وتعبداً ؛ فإن الشعر من الزينة .

ثم قيل لهم : قد جاء وقت الزيارة فاحضروا ، فيدفعون من منىٰ إلىٰ مكة ، ويأتون المسجد الحرام متوجهين نحو البيت ، حتىٰ إذا دنوا منه . . بدأوا بتقبيل الحجر الأسود ، كأنما قصدوا معظَّماً ، فكشف لهم عن يمينه ؛ لأن الحجر الأسود للبيت بمنزلة اليد اليمنىٰ ، فإنه منصوب في وجه البيت من قِبَل اليمين ، ثم طافوا سبعاً علىٰ ما مر ، فإذا فرغوا . . خرجوا إلى السعي ، فسعوا بين الصفا والمروة متفائلين به لدرك المراد ؛ إذ كانت هاجر لما

---

(١) في نسخة : (ذاعنين صاغرين) .

(٢) رواه بنحوه أبو داوود (١٩١٩) .

سعت بينهما ورجعت إلىٰ إسماعيل عليه الصلاة والسلام. . وجدته قد كفاها الله تعالىٰ فيه ما كانت تحذره ، وأنبط[1] له من الماء ما كانت تطلبه ، فلذلك يرجو كل حاج أن يرجع من السعي إلىٰ ما جاء يطلبه ، وهو المغفرة والرضوان .

ويحلُّون بعد ذلك الحِل الكامل ، ثم يرجعون إلىٰ منىٰ ، ويبيتون بها ثلاثاً يرمون كل يوم إذا زالت الشمس بإحدىٰ وعشرين حصاة ، كل جمرة بسبع حصيات ، وإذا كان المعنىٰ في الرمي طرد الشيطان. . فالإقامة كذلك بمنىٰ بمنزلة المرابطة في سبيل الله سبحانه وتعالىٰ ، والرمي كل يوم بمنزلة ركضة تقع من العدو ، فيرمىٰ ليُدحىٰ ويُزجر ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

ولاشتمال الحج علىٰ هٰذه المعاني كلها. . كان فرضاً كاملاً ، ولكماله لم يفرض في العمر إلا مرة واحدة ، ولم يجب إلا علىٰ كامل الحال .

ومِن كماله : اشتماله علىٰ مضاهاة غيره من سائر العبادات :

فإن الإحرام به يضاهي الإحرام بالصلاة في تحريم ما لم يكن محرماً قبله ، وكذلك الصوم ، وأما التلبية وأذكار الوقوف والطواف والسعي. . فتشبه أذكار الصلاة ، وما فيه من الطواف والسعي. . يشبه ركعات الصلاة ، وما فيه من الإقامة بمنىٰ والرمي. . يشبه المرابطة والجهاد في سبيل الله تعالىٰ ، وأما الوقوف بعرفة والمشعر الحرام. . فشبيه بالاعتكاف ، وما يلزم الحاج من المؤن المالية يشبه الزكاة .

فمَن حج. . فكأنما صام ، وصلىٰ ، واعتكف ، وزكَّىٰ ، ورابط في سبيل الله عز وجل وغزا .

قال أبو الشعثاء رحمه الله : الصوم والصلاة يجهدان البدن ولا يجهدان المال ، والصدقة تجهد المال ولا تجهد البدن ، وإني لا أعلم شيئاً أجهد للمال والبدن من هٰذا الوجه ؛ يعني : الحج .

وفي ذلك ما يبين قدر عُظم الحج ، وجلالة موقعه من العبادات ، وعُظم البيت المحجوج أيضاً ، ولعُظمه جُعل له المسجد الحرام حريماً ، وجُعل الحرم حريماً للمسجد .

وحَدُّ الحرم من طريق المدينة : دون التنعيم ثلاثة أميال ، ومن طريق الطائف : علىٰ

---

(١) نبط : نبع .

طريق عرفة ، ومن بطن نمرة : أحد عشر ميلاً ، ومن طريق اليمن : سبعة أميال ، ومن طريق الجعرانة : تسعة أميال .

كما جاء في الآثار : أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أول من نصب أعلام الحرم ، وأن جبريل عليه الصلاة والسلام دله علىٰ مواضعها[1] ، وأن غنم إسماعيل عليه الصلاة والسلام كانت ترعىٰ في الحرم ولا تجاوزه ، فإذا بلغت منتهاه من ناحية من نواحي الحرم . . رجعت إليه ، والله سبحانه أعلم . انتهىٰ .

وقال في « **لوامع أنوار القلوب** » وغيره : كان الشبلي رحمه الله يقول : ذلي عطَّلَ ذل اليهود .

ورُئِيَ في يوم عيد خارجاً من المسجد وهو يقول :

إذا ما كنتَ لي عيداً ... فما أصنع بالعيدِ
جرىٰ حبك في قلبي ... كجري الماء في العودِ

وقال الشبلي رحمه الله : طَرْحُ العادات . . وصول إلى الكرامات ، ومَن حقق رقه لمولاه جل جلاله . . استوحش مما سواه ، و وددت أن فاقات الخلق كلها لقمة واحدة آكلها ، فيبقى الخلق مع الله عز وجل بلا علاقة .

وقال عمر بن يحيىٰ رحمه الله : ضجر الشبلي يوماً في مجلسه ، وتكلم ، ثم قال : واللهِ ؛ ما أريدكم إلا لله عز وجل خالصاً ؛ لأنكم إذا كنتم لله تعالىٰ . . كانت الدنيا تبعاً لكم ، والآخرة مذخورة ، واللهُ عز وجل كالئُكم وراعيكم ، وإذا كنتم للدنيا وأعراضها وبلائها . . أسلمكم إلىٰ مَن واليتموه دونه وآثرتموه عليه ، ثم قرأ : ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾ .

زاد في « **لوامع أنوار القلوب** » : روي أن حلقة أبي عمران كانت إلىٰ حلقة الشبلي رحمه الله في جامع المنصور ، وكان كلام الشبلي يعطل علىٰ أبي عمران حلقته ، فأمر أبو عمران بعض أصحابه أن يسأل الشبلي مسألة في الحيض وغيره ، فأجاب الشبلي عنها ، وذكر معها من الفروع والاستشهادات ثلاث عشرة مسألة ، فقام أبو عمران ، وقبَّل رأسه ويديه ، وقال له : يا سيدي ؛ استفدت اليوم منك عشرة مسائل ، وكنت أحفظ ثلاثة .

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٥/ ٢٥) ، والفاكهي في « أخبار مكة » (٢/ ٢٧٥) .

وهـٰذا يدل علىٰ أن لسان العمل أفصح من لسان العلم ، خصوصاً إذا أمليَ على العمل ، فكتبه بقلم الإخلاص ، علىٰ بياض المراقبة ، بمداد المشاهدة .

وأنشدوا في المعنىٰ :

الـوجـد يُملـي والفـؤاد صحيفـة ... والعيـن تُعـرِب والمـدامـع تكتـبُ
جُدْ بالرضا يوم الرضا نلت الرضا ... واغفـر بفضلـك لِـي فـإنـي مـذنـبُ

وروي : أنه كان يتكلم في جامع المنصور ، فطاب قلبه ووقته ، ووَجِدَ قلبُه ، فصاح رجل وقال : يا سيدي يا أبا بكر ؛ إنا نسمع كما تسمع ، ثم لا يطيب وقتنا كما يطيب وقتك ، ولا تَجِدُ قلوبُنا كما يَجِدُ[1] قلبُك ، فقام صائحاً ، وأنشد :

لـو يسمعـون كمـا سمعـت حـديثهـا ... كـانـوا علـىٰ طـول الـزمـان هجـودا

فبكىٰ ذلك الرجل بكاء شديداً ، ثم قال : يا أبا بكر ؛ زدني ، فأنشد :

لـي سكـرتـان وللنـدمـان واحـدة ... شـيء خصصت بـه مـن بينهـم وحـدي

وروىٰ محمد بن العباس العصمي قال : كنت واقفاً علىٰ حلقة الشبلي ، فقال له رجل : يا أبا بكر ؛ الرجل يسمع الشيء وربما لا يفهم معناه ، فيتواجد عليه ، فلِمَ هـٰذا ؟ قال :

رُبَّ ورقـاءَ هَتـوفٍ بـالضحـىٰ ... ذاتِ شَجْـوٍ صـدحـت فـي فَـنَـنِ
ذَكَـرت إلْفـاً ودهـراً صـالحـاً ... فبكـت حـزنـاً أهـاجـت حَـزَنـي
فبكـائـي ربمـا أَرَّقهـا ... وبكـاهـا ربمـا أَرَّقنـي
وإذا تبـدؤنـي أُسعـدُهـا ... وإذا أبـدؤهـا تُسعِـدُنـي
ولقـد تشكـو فمـا أفهمهـا ... ولقـد أشكـو فمـا تفهمنـي
غيـر أنـي بـالجـوىٰ أعـرفهـا ... وهْـي أيضـاً بـالجـوىٰ تعـرفنـي

وسئل الشبلي رحمه الله : هل يبلغ الإنسان بجهده إلىٰ شيء من طرق الحقيقة أو الحق ؟ فقال : لا بد من الاجتهاد والمجاهدة ، ولـٰكنهما لا يوصلان إلىٰ شيء من الحقيقة ؛ لأن الحقيقة ممتنعة عن أن تُدرَك بجهد واجتهاد ، وإنما هي مواهب يصل العبد إليها بإفضال الحق جل جلاله لا غير ، ولولا أنه سبحانه وتعالىٰ بدأهم بالمحبة وهداهم وأحبهم ، وإلا . .

---

(١) في نسخة : (ولا نجد قلوبَنا كما تجد قلبَك) .

فهيهات أن يهتدي العبد أو يجسر علىٰ دعوى المحبة فضلاً عن المحبة! وأنشد :

أسائلكمْ عنها فهل من مُخَبِّرٍ   فما لي بنُعْمٍ بعد غيبتها عِلْمُ
ولو كنت أدري أين خَيَّم أهلها   وأيَّ بلاد الله إذ ظعنوا أَمُّوا
إذاً لسلكنا مَسلكَ الريح خلفها   ولو أصبحت نُعْمٌ ومِن دونها النجمُ

قال الشبلي رحمه الله : المحبة كأس لها وهج ، إن استقرت في الحواس . . قتلت ، وإن سكنت في النفوس . . أسكرت ، فهي سكر في الظاهر وصحو في الباطن ، فأرواح المحبين تلطَّفت بعضها ببعض ، وتعطفت بعضها علىٰ بعض ، فليس يخطر الكون في بالهم ، وكيف يخطر الكون ببال مَن عرف مكوِّنَ الكون سبحانه وتعالىٰ ؟! ثم ساح في كلامه وغاص في نحيبه .

وقال : ألا شَجِيٌّ بحَنِين ؟ ألا رنة بأنين من قلب حزين ؟ ألا شارب بكأس العارفين ؟ ألا عائم في أبحر المحبين ؟ ألا هائم في ميدان الطالبين ؟ ألا مستيقظ من رقدة الغافلين ؟ يا مسكين ؛ ستقدم فتعلم ، سيكشف لك الغطاء فتندم ، كيف بك وقد كشف الغطاء وتجلى الجليل لفصل القضاء ؟!

فصاح صائح وبكى الحاضرون ، فقال : يا مسكين ؛ كم تبكي وتصيح ، دع المعاصي فتستريح ، كم هٰذا البكاء والانتحاب ، قف في الدياجي على الباب ؛ لتلجَ مع الأحباب ، فأعجَبُ شيءٍ عبدٌ عرف ربه سبحانه وتعالىٰ فعصاه ، وعلم أنه عبد مملوك فخالف مالكه ومولاه جل جلاله ، وادعىٰ محبته ثم اتبع هواه ، ثم صاح : وا سكراه! وا سكراه! ثم انصرف من حلقته رحمه الله .

وقال : المحبة اتباع أوامر المحبوب واجتناب نواهيه ، ومع ذلك فيجب عليه الصدق والإخلاص وكتمان الحال ، مع بذل الروح في المجاهدة ، ثم بعد ذلك لا يصل إلى المحبوب جل جلاله إلا بفضله ، ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ .

وروي : أن الشبلي كان يوماً في ولهه وهو في مجلس الجنيد ، فتواجَد ، وقال : الله ، الله ، الله ، فقال الجنيد : يا أبا بكر ؛ إن كنت تذكره سبحانه وتعالىٰ وأنت ترىٰ نفسك . . فأنت غائب عنه ، فهٰذه غيبة ، والغيبة حرام ، وإن كنت تذكره وأنت علىٰ بساط المشاهدة واللقاء والتواجد . . فهو ترك للحرمة ، وترك الحرمة حرام .

وقال في « بهجة الأسرار » : حدثني عبد الله بن إبراهيم قال : حضرت يوماً عند الشبلي

رحمه الله ، فوقف عليه رجل لا أعرفه ، وتكلم وطوَّل ، وادعىٰ دعاوي عظيمة ، والشيخ ينظر إليه ولا يكلمه حتىٰ فرغ من كلامه ، فأنشا الشيخ يقول :

أما الخيام فإنها كخيامهم ... وأرىٰ نساءَ الحي غيرَ نسائها

وحدثني أبو القاسم عمر بن يحيىٰ قال : رأيت كأني في مسجد الرصافة ، وإذا الشبلي قد أقبل ، فقمت إليه ، وقضيت من حقه حتىٰ جلس ، فقلت له : يا سيدي ؛ مَن أقرَبُ أصحابك إليك ؟ فقال لي مسرعاً : ألهجُهم بذِكر الله عز وجل ، وأسرعهم مبادرة في مرضاته سبحانه وتعالىٰ .

وسمع الشبلي رحمه الله قائلاً يقول : في فقدان القلب وجدان الكرب ، فقال : ما أصبت ، بل في فقدان القلب وجدان الرب سبحانه وتعالىٰ .

وسئل الشبلي رحمه الله عن نظر العين ونظر القلب ، فقال : العين تنظر إلى الملكوت ، والقلب ينظر إلىٰ مالك الملكوت جل جلاله ، وشهق شهقة عظيمة وغاص في وجده ، فلما أفاق . . قال : مساكين هٰؤلاء المماليك الذين نظروا بعيونهم إلى الملكوت المخلوق ، ورَضُوا بالجِنان المخلوقة ، فبقوا معها خالدين فيها ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ ، وأما الملوك . . فهم الذين عرضت عليهم هٰذه كلها فلم ينظروا إليها ولم يرضوا بها ، ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ ، فنظروا بقلوبهم إلىٰ مالك الملكوت سبحانه وتعالىٰ ، فبَقُوا معه في مقعد صدق عند مليك مقتدر . [انتهىٰ] .

وفي « لوامع أنوار القلوب » : أن الشبلي رحمه الله كان يختم القرآن في كل يوم مرة ، فلما جنه الليل . . قام علىٰ قدميه وختم ختمة أخرىٰ وهو قائم ، فعذلوه في ذلك ، فقال : يا عُذالي ؛ إني إنما أطلب تقريبها من محبوبها سبحانه وتعالىٰ علىٰ بساط الأنس والقدس ، وأنتم تطلبون بُعدها إلىٰ بساط الوحشة والغفلة ، فهيهات هيهات! ثم أنشد :

كم أغطِّي الضنا عن العُوَّادِ ... وأواريه عنهم وهو بادي
قد تمكنْ من الحشا وفؤادي ... مثلُ جمر الغضا وشوك القتادِ
بين نار مقدوحة من زناد ... ودموع مسفوحة من فؤادي
كيف ينقاد لي التصبُّرُ عمن ... نار شوقي إليه تُفني رقادي

وقال في « بهجة الأسرار » : كان ابن بشار يوماً في مجلس الشبلي رحمهما الله ، فقال له الشبلي : يابن بشار ؛ اطلب مِن أصحابك كذا وكذا ـ يعني : شيئاً من حوائج الدنيا ـ فقال ابن

بشار : يا أبا بكر ؛ اطلب من ربك سبحانه وتعالىٰ ، فقال الشبلي : إني لأستحي من ربي عز وجل أن أطلب منه سواه ، قال : فغشي على ابن بشار ، فلما أفاق . . جعل يقول : أترىٰ نفهم نحن ما يقول ؟ لا والله ؛ ما نفهم ما يقول .

حكي : أن جماعة من المريدين حضروا عند الشبلي ، فوجدهم غَفَلَة لا يذكرون مسألة ، فأنشد :

كفىٰ حزناً بالواله الصَبِّ أن يرىٰ ... منازلَ من يهوىٰ معطلةً قفرا

وسئل الشبلي عن الأنس بالله عز وجل فقال : وحشتك عن جميع ما يقطعك عنه جل جلاله ، واستغراقك فيه .

وقال الشبلي : سهو طرفة عين عن الله عز وجل لأهل المعرفة . . شرك .

وهـٰذا قريب من قول الجنيد رحمه الله : لو أقبل صادق على الله ألف ألف سنة ثم غفل عنه لحظة . . كان ما فاته أكثر . [انتهىٰ] .

وفي كتاب « **بهجة الأسرار** » : قال أبو منصور بن العبابدي رحمه الله : حضرت عند الشبلي يوم جمعة ، فخدرت رجلي ، فمددتها ، فنظر إلي الشبلي وزعق ، وقال : تدرون علىٰ بساط مَن أنتم ؟ إنما أنتم علىٰ بساط الرحمـٰن جل جلاله وهو مطلع عليكم ، قال الشيخ أبو منصور : فلم يعلم أحد في المجلس مرماه في ذلك غيري ، وقد أتىٰ عليَّ منذ ذلك نحو خمسين سنة ما جسرت أن أمد رجلي إلى الساعة . أو كما قال . [انتهىٰ] .

ونظير هـٰذه وقع لسيدي السَّريِّ السقطي رحمه الله ، وقد ذكرته في ترجمته[1] .

وقال في « **لوامع أنوار القلوب** » : قال أبو القاسم الدمشقي رحمه الله : كنت واقفاً علىٰ حلقة الشبلي رحمه الله ، فجعل يبكي ولا يتكلم ، فقال له رجل : يا أبا بكر ؛ ما هـٰذا البكاء كله ؟ فأنشأ يقول :

إذا عاتبتُه أو عاتبوه ... شكا فِعلي وعدَّد سيئاتي
أيا مَن دهرُه غضب وسُخْط ... أما أحسنتُ يوماً في حياتي

فقال له : فما حد الوفاء ؟ فقال : هو الإخلاص بالنطق ، واستغراق السرائر بالصدق ، ثم قال السائل : يا أبا بكر ؛ ادع لي ، فأنشأ يقول :

---

(١) تقدم (ص ٢٠٩٥) .

مضىٰ زمن والناس يستشفعون بي فهل لي إلىٰ ليلى الغداةَ شفيعُ

وسئل عن المحبة ، فقال : المحبة نتيجة الهِمَّة ، وكل مَن علت هِمَّته . . صفت محبته ، ومَن كانت هِمَّته أعلىٰ . . كانت محبته أصفىٰ وأوفىٰ .

فسئل عن الهِمَّة فقال : قد رفع الله عز وجل هٰذه الوسائط بعلوِّ هِممهم ، فلو أجرىٰ على الأولياء ذرة مما كشفه للأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم . . لبطلوا وانقطعوا ، ثم قال : يا سبحان الله! أنوار الشمس والقمر والنار . . أنوار مخلوقة لا تطيقها الأنفس المخلوقة مع التجانس بينهما ، فكيف تطيق أنوار المكاشفة والمشاهدة والتجلي ولا مشابهة بينهما ؟ وقد عجز عن ذرة منها الجبل ، فجعله دكاً ، وخر موسىٰ صعقاً ، قال : فطال مجلسه وهو في الكلام حتىٰ تأخرت العصر ، فقيل له في ذلك ، فأنشأ يقول :

نسيت اليوم مِن حِبي صلاتي فلا أدري غدائي مِن عشائي
فذِكرك سيدي أكلي وشربي ووجهك إن رأيتُ شفاء دائي

ثم قال : المحبة بحار بلا شاطئ ، وليل بلا آخر ، وهَمٌّ بلا فرج ، وعلة بلا طبيب ، وبلاء بلا صبر ، وإياس بلا رجاء ، وأنشد :

ولما رأيت الحب قد شد جسره ونوديَ بالأحباب قوموا بنا وٱسْروا
خرجت مع الأحباب كيما أجوزه فبادرني الحرمان وانقطع الجسر
وهاجت بي الأمواج من كل جانب ونادىٰ منادي الحب قد غرق الصبر

وقال أيضاً : حقيقة المحبة بمتابعة الإسلام ، وهي أن تموت نفسك عنك ، فتبقىٰ مسلوب الحركة شرعاً بلا هوىٰ ، فيحكم عليك الإسلام بما يريد ، ثم تلا : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ . [انتهىٰ] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : كلام الشبلي رحمه الله هنا مأخوذ من قول سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم : « مَنْ ولي القضاء . . فقد ذُبح بغير سكين »[1] .

ووجه الشبه : أن المذبوح بالسكين لا حركة له ولا اختيار حسّاً ، ومَن تولى القضاء . .

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/١٠٣) .

فإنه لا حركة له ولا اختيار شرعاً ؛ لأن الشرع سلبه حركته واختياره ، فبقي تبعاً للشرع .

وهٰذا معنىٰ قول الشبلي رحمه الله : أن تموت نفسك عنك .

ويحتاج هٰذا إلىٰ زيادة وبسط أذكره في موضعه إن شاء الله عز وجل ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم . انتهىٰ .

وقال في « المختار » : سئل الشبلي رحمه الله عن الوفاء فقال : الإخلاص بالنطق ، واستغراق السرائر بالصدق .

وقال الجنيد للشبلي رحمهما الله : لو رددتَ أمرك إلى الله تعالىٰ . . لاسترحت ، فقال : لا يا أبا القاسم ؛ لو رد الله عز وجل أمري إليه . . لاسترحت ، فقال الجنيد رحمه الله : سُيوف الشبلي تقطر دماً .

وقال الشبلي رحمه الله : كيف يصح لك التوحيد وكلما ملكت شيئاً من الدنيا مَلَكَك ، وكلما أبصرت شيئاً صرت أسيره ؟!

وكان إذا سئل عن التوحيد . . يقول : اعلموا أن كل ما ميزتموه بأوهامكم وأدركتموه بعقولكم في أتم معانيكم . . فهو مردود إليكم محدث مصنوع .

وكان يقول : من **علامة الإفلاس . . الأنس بالناس** .

وقال الشبلي رحمه الله : أحوال الأولياء ثلاثة : ترك الاختيار ، وترك الشكوىٰ عند الاضطرار ، والافتقار إلى الملك الجبار دائماً في كل أحواله .

وسئل الشبلي عن حقيقة الفقر فقال : هو ألا تستغني بشيء دون الله سبحانه وتعالىٰ .

وفي رواية أخرىٰ : قال : حقيقة الفقر : أن تستغني عن كل ما سوى الله عز وجل .

وكان يقول : الفقير مع الله عز وجل بلا هَمٍّ . انتهىٰ ما ذكره في « المختار » .

وقال أرباب السير : قال الشبلي رحمه الله : رأيت رب العزة جل جلاله في المنام ، فأوقفني بين يديه وناقشني حتىٰ أيست ، فلما رأىٰ إياسي . . تغمدني برحمة منه سبحانه وتعالىٰ .

وقد حكي : أن الشبلي كان في مرض موته يقول : يجوز يجوز ، فسئل عن ذلك ، فقال : شارك الله عز وجل بين الجسد والروح ليتَّجرا مدة هٰذا الزمان ، فاتَّجرا وجلسا اليوم يتحاسبان ، فإذا هُما خاسران ، وهما يقولان : ما تقول في شريكين اتفقا على التجارة ،

فمضت مدتهما في خسارة ؟ فهل يجوز أن يفترقا من بعد ما اتفقا ؟ وأنا أقول : يجوز يجوز

صحبناكمُ حيناً ومَعْكمْ تآلفنا ... إلىٰ أن تجمَّلنا بكم وتشرفنا
وكنا جميعاً بالحمىٰ وأهيله ... ولم نك ندري أن وقت الحمىٰ يَفنىٰ
ومنذ تعرَّفنا تفرَّق بيننا ... فيا ليت أنَّا عمرَنا ما تعرَّفنا

وقال الأستاذ أبو سهل الصعلوكي : دخل الشبلي على الإمام أبي إسحاق المروزي ، فرآني عنده ، فقال : ذا المجنون من أصحابك ؟ لا بل من أصحابنا ، والله أعلم .

وقد حكىٰ غير واحد : أن الإمام الجليل الأستاذ أبا سهل الصعلوكي ـ أحد أئمة الشافعية من أصحاب الوجوه رحمه الله ـ كان يقول : ما مضىٰ لي يوم أو جمعة . . إلا وسألت الشبلي عن مسألة ، واستفدت منه فائدة جديدة .

وهٰذا كله مما يدل علىٰ غزارة علمه ، ووفور تبحُّره في سائر العلوم ، وسعة روايته ، مع ما رزق من العِرفان ، فهنيئاً له رضي الله عنه وأرضاه ، وهو حسبي وكفىٰ . [انتهىٰ] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو عبد الرحمـٰن زهير بن نعيم البابي
رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال زهير بن نعيم : إن هـٰذا الأمر لا يتم إلا بشيئين : الصبر ، واليقين ، فإن كان يقين ولم يكن معه صبر . . لم يتم ، وإن كان صبر ولم يكن معه يقين . . لم يتم أيضاً .

وقد ضرب أبو الدرداء رضي الله عنه لهـٰذا مثلاً فقال : مَثَلُ اليقين والصبر . . مَثَلُ فدادين[1] يحفران الأرض ، فإذا جلس واحد . . جلس الآخر .

وقال عبد العزيز بن يوسف : أردت الخروج من البصرة ، فبدأت بيحيى بن سعيد فودعته ، ثم ودعت عبد الرحمـٰن بن مهدي ، ثم ودعت زهير بن نعيم ، فقلت له : هل مِن حاجة ؟ فقال : نعم ؛ إلا أنها مهمة ، قال : ففرحت وقلت : يكلفني حاجة ، فقلت : ما الحاجة ؟ قال : اتق الله عز وجل ، فوالله ؛ لأَن يتقيه رجل ـ أو قال : عبد ـ أحب إلي من أن تتحول لي هـٰذه السواري كلها ذهباً وفضة .

قال : فلما وليت . . ردني ، وقال : وحاجة أخرىٰ ، فقال : لا تدخل علىٰ قاض ولا علىٰ من يدخل علىٰ قاض ؛ فإني في هـٰذا المصر منذ خمسين سنة ما نظرت وجه قاض .

وقال أحمد بن عصام : كانت يدي في يد زهير أمشي معه ، فانتهينا إلىٰ رجل مكفوف البصر يقرأ شيئاً من القرآن ، فلما سمع قراءته . . وقف ونظر إلي ، وقال : لا يغرنك حُسْنُ قراءته ، بل ولا تنظر إليه ، فوالله والله ؛ إنَّ أَخْذَ الدنيا بالطبل والمزمار هو اللائق بها ، وأما القرآن الكريم : فلا ينبغي أن يطلب به شيء من عَرَض الدنيا .

قال : وكان زهير بن نعيم رجلاً مَهيباً ، فلم أجسر أن أراجعه في ذلك الوقت ، فلما كان بعد أيام . . وجدته منبسطاً ، فقلت له : يا أبا عبد الرحمن ؛ قلتَ لي يوم كذا وكذا : كذا ، قال : فكأنه نصب عينيه ، وقال : نعم يا أخي ، لا ينبغي أن تطلب الدنيا بشيء من الدِّين ،

---

(١) **الفَدَادين** : واحده فدَّان ، وهي : البقر التي يحرث بها .

والقرآن إنما يُطلَب به رضوانُ الله عز وجل والتقرب إليه سبحانه وتعالىٰ . أو كما قال .

وكان زهير بن نعيم يقول : لا أعلم أني توكلت على الله عز وجل ساعة واحدة قط علىٰ حقيقة وصدق .

وكان يقول : إن قدرتَ ألاَّ يفارق ذِكرُ الموت قلبَكَ ولا طرفة عين . . فافعل .

وكان يقول : إذا رأيت الرجل لا ينصف من نفسه : فإن قدرتَ ألاَّ تراه . . فلا تراه .

قال أحمد بن عصام : وكان زهير بن نعيم قد أصيب ببصره في آخر عمره ، فسلم عليه بعض إخوانه بعد ذهاب بصره . . فسلم عليه ، فقال زهير : مَن الرجل ؟ قال : فاسترجع ذلك الرجل وجزع جزعاً شديداً لذهاب بصره ، فقال له زهير : واللهِ ؛ إن قضاء الله عز وجل أحب إلي من بصري .

زاد في رواية أخرىٰ : يا أخي ؛ كانت معي خرقة فيها دانق من حلال ، فسقطت ، فكان سقوطها عليَّ أشد من ذهاب بصري ؛ لكونه حلالاً صافياً ، ثم قال : أمَا علمت أن من أكل الحرام ـ أو قال : غير الطيب ـ عصت جوارحه شاء أو أبىٰ ؟ أو كما قال .

وقال : بلغني أن زهيراً مرض ، فذهب يحيى بن أكثم القاضي يعوده ، فقيل له في ذلك ، فلم يأذن له ، وقال : ما أصنع به ؟ لو كان علىٰ حشٍّ من حشوش البصرة . . لكان خيراً له من ولاية القضاء .

وقال أحمد بن عاصم : دخلت عليه يوماً، فقال لي : لك أب ؟ قلت : لا ، قال : لك أم ؟ قلت : لا ، قال : الله أكبر ، كم ترىٰ يبقىٰ فرع بعد أصلين ؟ يا أخي ؛ عليك بالدعاء والابتهال لهما ؛ فإنه بلغني : أن الله عز وجل يرفع الوالدين بدعاء الولد لهما هٰكذا . ورفع يديه .

وقال زهير : لأَن يتوب رجل . . أحب إلي من أن يرد الله عز وجل عليَّ بصري ، ولأَن يتوب رجل . . أحب إلي من أن تتحول سواري المسجد ذهباً لي .

وقال : جالست الناس خمسين سَنة ، فما رأيت أحداً إلا وهو يتبع هواه ، حتىٰ أنه ليخطىء فيحب أن الناس قد أخطؤوا ، ولأَن أسمع في جلدي صوت ضرب . . أحب إلي من أن يقال لي : قد أخطأ فلان .

وقال سهل : سمعت مَن سمع زهيراً يحلف بالله الذي لا إلـٰه إلا هو ؛ أن أعمالي ليست كأعمال من يؤمن بالله واليوم الآخر ، قال : فذكرت هٰذا القول لغيره ، فمنهم مَن بكىٰ ،

ومنهم مَن صاح ، ومنهم مَن انتفض ، ومنهم من بُهت .

وقال سهل : سمعت زهيراً يقول : وددت أن جسدي قُرِّض بالمقاريض وأن هـٰذا الخلق أطاعوا الله عز وجل .

وفي رواية أخرىٰ : وددت أن جسدي قرض بالمقاريض وأن هـٰذا الخلق ما عصوا الله عز وجل .

وقال الحافظ : عن عبد الله بن عبد الغفار الكرماني قال : صعدت إلىٰ زهير بن نعيم بعدما ذهب بصره ، وهو متهشم الوجه بحال شديد ، فقلت : يا أبا عبد الرحمن ؛ كيف حالك ؟ قال : حال نعمة يجب عليَّ شكر الله عز وجل فيها ، الحمد لله علىٰ نعمه كلها ، ما علمت منها وما لم أعلم ، والحمد لله علىٰ كل حال . أو كما قال . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/١٤٧ـ١٥٠] .

واعلم يا أخي : أن نعم الله عز وجل في بلائه أعظم من عطائه ، وأنه ما من بلية . . إلا ولله عز وجل علىٰ عبده فيها نِعم كثيرة ، فله الحمد في الأولىٰ والآخرة ، وله الحكم ، وإليه ترجعون . أو كما قال فيها .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : قول زهير رحمه الله : (إن أعمالي ليست كأعمال . . .) إلىٰ آخره : هو نظير قول غير واحد من العارفين رحمهم الله ، منهم : حذيفة المرعشي حيث قال : لو حلف إنسان أن أعمالي أعمال من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر . . لقلت له : يا هـٰذا ؛ لا تُكفِّر عن يمينك ، فلستَ بحانث .

وقول زهير : (وددت أن لحمي . . .) إلىٰ آخره : هو نظير قول أحمد ابن أبي الحواري رحمه الله : إن العذاب على العارفين أهون عليهم من أن يعصى الله عز وجل .

وقد سئل أبو عبد الله ابن الجلاء عن معنىٰ هـٰذا الكلام ـ أعني قول زهير ـ فقال : إن كان مراده ما يظهر للعامة من الشفقة علىٰ خلق الله بألاَّ يعصوا الله تعالىٰ ، فيدخلهم النار . . فهـٰذا ظاهر ، وإن كان مراده تعظيم جانب الربوبية عن أن يعصىٰ وغَيرة له عز وجل ألاَّ يطاع . . فهـٰذا مَشرب عال رفيع ، وليس من مشربي ، وإنما هو من مشربه رضي الله عنهم أجمعين . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو محمد سهل بن عبد الله التُّسْتَري
رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : تخرَّج أبو محمد سهل بن عبد الله بخاله محمد بن سوار ، ولقي أبا الفيض ذا النون المصري بالحرم .

قال سهل : لا تفتش عن مساوىء الناس ومعرفة أخلاقهم ، ولـٰكن فتش واجتهد وابحث عن أخلاق الإسلام وما حالك فيه ، حتىٰ يعظم قدره في نفسك ، وتجتهد في التلبس بتلك الأخلاق .

وقال سهل : إن الله عز وجل قال لآدم عليه الصلاة والسلام : يا آدم ؛ أنا الله لا إلـٰه إلا أنا ، فمَن رجا غير فضلي ، وخاف غير عدلي . . لم يعرفني .

وقال سهل : ما أعطى الله لعبد شيئاً أفضلَ من علم يزداد به يقيناً وافتقاراً إلى الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال : مَن طعن في التوكل . . فقد طعن في الإيمان ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ، ومَن طعن في التكسب . . فقد طعن في السُّنة .

وقال : البلوىٰ مِن الله عز وجل علىٰ وجهين : بلوىٰ رحمة ، وبلوىٰ عقوبة .

فبلوى الرحمة : تبعث صاحبها علىٰ إظهار فقره وفاقته إلى الله سبحانه وتعالىٰ ، ويترك تدبير نفسه واختيارها .

وبلوى العقوبة : تبعث صاحبها على اختيارات نفسه وتدبيرها .

وقال : مَثَلُ الابتلاء . . مَثَلُ المرض والسقم ، يمرض الواحد مئة سَنة فلا يموت ، ويمرض الآخر ساعة واحدة فيموت فيه ، وكذلك الإنسان يعصي الله عز وجل مئة سَنة ، ثم يطيعه ، فيختم الله تعالىٰ له بخير وينجو ، وآخر يتكلم بكلمة معصية في ساعة ، فتجره إلى الكفر ، فيهلك ، فمِن ذلك عَظُم الخطر ، ودام الحذر ، واشتد البلاء ، ولا حول ولا قوة

إلا بالله العلي العظيم ، وأصل ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة . . . »[(١)] الحديث .

وقال سهل رحمه الله : الغضب أشد على البدن من المرض ؛ لأنه إذا غضب . . دخل عليه من الألم أكثر مما يدخل عليه في المرض ، ولهـٰذا قال صلى الله عليه وسلم : « لا تغضب » ، وكرر مراراً[(٢)] .

وقال سهل : يقول الله عز وجل لعباده : (كل نعمة مني عليكم إذا عرفتموها . . صيرتها لكم شكراً ، وكل ذنب كان منكم إذا عرفتموه في أنفسكم . . صيرته لكم غفراناً إن ندمتم عليه) .

وقال : لا يطَّلعُ علىٰ عثرات الخلق إلا جاهل ، ولا يهتك ستر ما اطلع عليه إلا ملعون .

وقال : الفرج كله في تدبير الله عز وجل لعباده برضاهم ؛ يعني : يكونوا راضين بتدبيره سبحانه وتعالىٰ لهم ، والشقاء كله في تدبيرهم لأنفسهم ، وإنك لا تجد السلامة حتىٰ تكون في التدبير كأهل القبور . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ١٩٠ـ١٩٦] .

وقال في « المختار » : سئل سهل التستري رحمه الله عن الولي فقال : الولي الذي توالت أفعاله على الموافقة[(٣)] .

وسئل عن الفتوَّة فقال : اتباع السُّنة .

وقال : أقرب الدعاء إلى الإجابة . . دعاء الحال ، ودعاء الحال : هو الذي يكون صاحبه مضطراً إليه لا بد له أن يدعو لأجله .

وكان قد أصابته زَمانة[(٤)] في آخر عمره ، فإذا حضرت الصلاة . . زالت عنه ، فإذا فرغ منها . . عاد حاله إلى الزَّمَانة .

وكان سهل رحمه الله يقول : أكبر الكرامات : أن تبدل خُلُقاً مذموماً من أخلاقك بخلق محمود .

وقال : أجمع العلماء علىٰ أن تفسير العافية : هو ألاَّ يكل الله عز وجل العبد إلىٰ نفسه ،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٢١) ، ومسلم (٢٦٤٣) .
(٢) أخرجه البخاري (٥٧٦٥) .
(٣) في بعض النسخ : (على الكتاب والسنة) .
(٤) **الزَّمانة** : المرض الدائم .

وأن يتولاه ، وهو معنىٰ قول النبي صلى الله عليه وسلم : « اللهم ؛ لا تكلني إلىٰ نفسي »[1] .

وكان سهل يقول : صلاح الخلق في ثلاثة أشياء : رفض الدنيا ، ثم الرضا بما قسم الله عز وجل من الرزق وغيره ، ثم الاشتغال بطلب الآخرة .

وقال : تعلَّموا النية الصالحة عند الشروع في أفعال الخير ـ وأصل كل ذلك : أكل الحلال ، وترك أذى الخلق ـ كما تتعلمون (فاتحة الكتاب) ليصفُوَ لكم إيمانكم وقلوبكم وجوارحكم ، فتزكُوَ أعمالكم .

وقال : الأنفاس معدودة ، فكل نفس يخرج بغير ذِكر الله عز وجل . . فهو ميت . [انتهىٰ] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال سهل بن عبد الله : الفقير مَن أنصف من نفسه ، واتصف بحفظ سره ، وأداء فرضه ، وصيانة فقره .

وقال : استجلبْ حلاوةَ الزهد بقصر الأمل ، واقطع أسباب الأطماع بصحة اليأس ، وتعرض لرقة القلب بمجالسة أهل الذِّكر ، وتزيَّن لله عز وجل بالصدق في الأحوال كلها ، وإياك والتسويف ؛ فإن التسويف يغرق الهلكىٰ ، وإياك والغفلة ؛ فإن فيها سواد القلب ، واستجلب زيادة النعم بعظيم الشكر ، ولستَ بالغاً منه شيئاً .

وقال : [أول] الحجاب الدعوىٰ ، وليس بين العبد وبين الله عز وجل حجاب أغلظ من الدعوىٰ ، ولا طريق أقرب إلى الله عز وجل من الافتقار والذلة ، ولا شيء أشد على النفس من الإخلاص ؛ فإنه ليس لها فيه نصيب ولا حظ . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٤١ـ٤٢] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : قول سهل رحمه الله : (لا طريق أقرب إلى الله عز وجل من الذلة والافتقار) نظير ما قاله أبو يزيد البسطامي حيث قال : نوديت في سري : خزائننا مملوءة من الخَدَمة ، فإن أردتنا . . فعليك بالذلة والافتقار .

وقوله بعد ذلك رحمه الله : (ولا شيء أشد على النفس) إلىٰ قوله : (ولا حَظٌّ) قد بينت سر هٰذا الكلام وما فيه من الغموض في باب الإخلاص في ترجمة الإمام حاتم الأصم رحمه الله ، وذكرت أن لها في الحقيقة أكمل الحظوظ وأوفر الأنصباء ، ويا سعادة من وُفق

---

(١) أخرجه الديلمي (١/ ٤٩٢) .

لذلك! قال تعالىٰ : ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ﴾ ، فأي سعادة أعظم من أن يوفق العبد في الاجتهاد في عبادة الله سبحانه وتعالىٰ لا يريد بها إلا الله تعالىٰ ؟! انتهىٰ .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : رأيت في بعض المجاميع[1] ، قال : صنف سهل رضي الله عنه كتباً :

منها : كتاب سماه : « رقائق المحبين » ، **ومنها** : كتاب سماه : « مواعظ العارفين » ، **ومنها** : كتاب سماه : « جوابات أهل اليقين »[2] ، وكلها نفائس ، والله أعلم .

ورأيت في « المختصر » : أن أبا محمد سهلاً التستري قال في آخر كتاب كتبه في شفاعة : بلغني أن الرجل يُسأل عن فضل جاهه يوم القيامة كما يُسأل عن فضل ماله .

وقال أبو الفرج : قال سهل : أمس . . قد مات ، واليوم . . في النزع ، وغداً . . لم يولد .

وقال : مَن أراد أن ينظر إلىٰ مجالس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . . فلينظر إلىٰ مجالس العلماء ، يجيء الرجل يقول : ما تقول في كذا وكذا ؟ فيقول : طلقت امرأته ، أو ما طلقت ، أو حنث ، أو ما حنث ، وليس هٰذا إلا لنبي أو عالم ، فاعرفوا لهم ذلك .

أسند سهل عن خاله محمد بن سوار ، ولقي ذا النون ، ومات سنة ثلاث وثمانين ومئتين . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٤٢] .

وقال أبو حامد الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : قال سهل التُّسْتَري رحمه الله : لا بد للعبد في كل حال من مولاه جل جلاله ، وأحسن أحواله : أن يرجع إليه سبحانه وتعالىٰ في كل شيء ، فإن عصىٰ . . قال : يا رب ؛ استر عليَّ ، فإذا فرغ من المعصية . . قال : يا رب ؛ تب عليَّ ، فإذا تاب . . قال : يا رب ؛ تقبل توبتي .

وسئل سهل عن الاستغفار الذي يُكفِّر الذنوب مع التوبة فقال : إنه علىٰ أقسام : **الأول** : الاستغفار[3] ، **الثاني** : الاستجابة ، **الثالث** : الإنابة ، **الرابع** : التوبة .

فالاستجابة أعمال الجوارح ، والإنابة أعمال القلوب ، والتوبة إقباله علىٰ مولاه جل جلاله بأن يترك الخلق كلهم ، ثم يستغفر [الله] من التقصير الذي هو فيه ، ودمِن الجهل

---

(١) انظر « الفهرست » لابن النديم : (٢٦٣) .

(٢) جاء في نسخة : (التبيين) .

(٣) وعبارة « الإحياء » : (أول الاستغفار : الاستجابة ، ثم الإنابة ثم التوبة . . .) .

بالنعمة وترك الشكر ، فعند ذلك يرجىٰ له حصول المغفرة ، ثم المناجاة ، ثم المصافاة ، ثم الموالاة ، ولا يستقر هـٰذا في قلب عبد حتىٰ يكون العلمُ غذاءَه ، والذِّكر قوامه ، والرضا زادَهُ ، والتوكل صاحبه . انتهىٰ [« الإحياء » ٤/٤٨] .

وقال في **« لوامع أنوار القلوب »** : قال سهل : تربة المحبة : المعرفة ، وبذرها : اليقين ، وماؤها : العلم ، ومزارعها : التوكل ، وتعهدها : الذِّكر ، ودليلها : النبي صلى الله عليه وسلم ، ومالكها : الله عز وجل ، وميدانها : المحبة[1] ، وثمرتها : المشاهدة .

وسئل سهل رحمه الله عن معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ قال : علامة المودة : ترك التدبير والاختيار إلى الربوبية ، والوقوف علىٰ مقام العبودية ، ويلجأ في كل أموره إلىٰ مولاه جل جلاله ، ويكون صابراً علىٰ بلواه ، ولا يزال ذاكراً شاكراً حتَّىٰ يتوفاه الله سبحانه وتعالىٰ .

وأنشد :

يَوَدُّك قلبي ما حَييتُ وإن أَمُتْ ... يودك قلب في التراب تريبُ

وأَلقىٰ من الشوق المبرِّح لوعةً ... لها بين جلدي والعظامِ دبيبُ

وقال سهل : رأيت في البادية شيخاً قد خانته قدماه ، وهو يصلي عند كل ميل ركعتين حتىٰ يتأخر عن الصحبة ، ثم أراه مع الصحبة ، فقلت له : مَن معينك فيما أنت فيه ؟ فقال : الله ، فقلت : فإذا تأخرت . . فمَن دليلك إلى الله ؟ فقال : سيد الخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت له : وما زادُك ؟ فقال : التقوىٰ ، قلت : فما عملك ؟ قال : الصبر علىٰ ما أنا عليه ، ثم قال : والله يا سهل ؛ لو قطَّعت نفسي قطعاً . . لما قمت بواجب حقه سبحانه وتعالىٰ حين قال مِن غير طاعة بدرت مني : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ ﴾ ، ولا بلغتُ جزءاً من أجزاء المفروضات .

وقال سهل : أول ما يؤمر المبتدىء به . . ذِكر الله تعالىٰ ، ثم التبري من الحركات المذمومة والتنقل إلى الحركات المحمودة ، ثم التفرد لأمر الله عز وجل والوقوف عند أوامره ونواهيه جل جلاله ، ثم إرشاد الخلق إلىٰ مصالح الآخرة ، ثم التقرب في السجود

---

(١) في نسخة : (المحنة) .

والمناجاة ، ثم الثبات علىٰ طريق الاستقامة ، ثم المصافاة على المحبة والموالاة لأولياء الله سبحانه وتعالىٰ .

ولا يتم جزء من هٰذه الجملة إلا بدوام الذِّكر ؛ فإن أَدَلَّ دلائل المحبة دوامُ ذِكر المحبوب جل جلاله ، ولا يستقر ذلك في صميم القلب إلا بعد أن يكون التصديق والتحقيق زادَهُ ، والتسليم والرضا مرادَهُ ، والتوكل مع تعاطي السبب امتثالاً حالَه ، والذِّكرُ والفكرُ غِذاءَهُ ، والمجاهدة والمراقبة والمشاهدة شرابَه ودأبه ، فعندها يدخل في بحار المعرفة .

وأنشد سهل رحمه الله :

ذكـرتـكَ لا أنـي نسيتـك لمحـة ... وأيسر ما في الذِّكر ذِكر لساني
وكـدت بـلا وجـد أمـوت صبابـة ... وهـام علـيَّ القلـب بـالخفقـان
فلمـا أرانـي الـوجـدُ أنـك حـاضـر ... شَهِـدتـك مـوجـوداً بكـل مكـان
فخـاطبـت مـوجـوداً بغيـر تكلـم ... ولاحظـت معلـومـاً بغيـر عِيـان

وقال سهل : مَن عرف الله عز وجل . . عَبَده ، ومَن عبده . . أحبه ، ومن أحبه . . فهو في العيش الهني .

وقال سهل : مَن كان له في الدنيا سبب غير الله عز وجل ، أو مأوىٰ يأوي إليه غير الله سبحانه وتعالىٰ . . فقلبه محجوب عن الله عز وجل ، ومَن ثقلت عليه الوحدة . . فهو مباعد عن باب الله عز وجل ، ومَن أحب أن يطلع عليه الخلق فيما بينه وبين الله . . فهو غافل عن الله تبارك وتعالىٰ .

وقال سهل : أحبوا أوامر الله عز وجل ، وسارعوا إليها ، واجتنبوا نواهيه سبحانه وتعالىٰ ؛ فإن محبوب المحبوب محبوب ، ورضا الحبيب من محبوبه مطلوب :

ألا أيهـا الـوادي الـذي فـاح طيبـه ... عسىٰ لك عهد من سعاد قريبُ
فحُيِّيـتَ مـن واد بكـل تحيـة ... لأنـك مـن أجـل الحبيـب حبيـبُ

وقال سهل : أهل خاصة الله الذين أدخلهم في ديوان الخواص . . لم يدخلهم إلا بإظهار فقرهم وفاقتهم وذلتهم إليه سبحانه وتعالىٰ على الدوام لا يَفتُرون .

وقال : يظهر في آخر الزمان جيل قَلَّ ما يعرفون الأمر والنهي ، ومَن عرفه منهم . . لم يعمل به ولم يصبر عليه ، يصيرون كأمثال الكلاب على الدنيا ، ولا ينال أحد النجاح إلا مَن ذبح نفسه وقتلها بالحق والصبر والجهد .

ولد سهل رحمه الله سنة مئتين ، يوم مات معروف الكرخي رحمهما الله .

وكان سهل يقول : كل فعل لا يكون معه (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) . . لا يتولى الله ذلك الفعل ، وكل قول لا يكون فيه استثناء . . لا ينجح في الدنيا ، وربما عوقب عليه صاحبه أو يعفىٰ عنه علىٰ ما شاء وأراد سبحانه وتعالىٰ ، وكل مصيبة لا يكون معها استرجاع . . فإنه لا يثاب عليها يوم القيامة .

وقال : رجعت أصول المريدين إلىٰ سبعة :

الرضا بالقضاء ، والثقة بالوعد ، والإخلاص في العمل ، والشكر على النعم ، والصبر على البلايا ، والتوبة من كل ذنب ، وترك ما يَريبك إلىٰ ما لا يَريبك .

وحكىٰ سهل رحمه الله قال : تراءىٰ ملك الموت ـ علىٰ نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ لبعض الأولياء ، فلما نظر إليه . . قال : السلام عليك يا ولي الله ، فقال : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته يا ملك الموت ، قال : فعجب ملك الموت عليه الصلاة والسلام منه ، فقال له : مِن أين عرفتني ؟ فقال له الولي : عرَّفَني بك الذي أمرك وأرسلك لقبض روحي في هـٰذا اليوم ، وهو الله رب العالمين جل جلاله ولا إلـٰه غيره ، فمات في يومه ذلك .

قال سهل : حضرت هـٰذا الرجل وشهدت جنازته ، وحدثني بصفة ملك الموت ، فقلت له : هل تغير من حالك شيء حين رأيته ؟ فقال : لا ، غير أن شعري كأنه انتشر كله ، وصار كأنه مثل السُّلاَّءِ ؛ يعني : الشوك الكبار .

وقال سهل : ما أظهر عبد فقره وفاقته وحاجته إلى الله عز وجل في وقت الدعاء في شيء يحل به . . إلا قال الله عز وجل : (لولا أنه لا يحتمل سماع كلامي . . لأجبته : لبيك) .

وقال سهل : مَن خان الله في السر . . هتك ستره في العلانية .

وشكا رجل إلىٰ سهل الفقر وجفوة الناس له ، فقال له سهل : إن الله عز وجل يلقي علىٰ عبده المؤمن الفقر حتىٰ يخرج إلى الناس بالمسألة ، ويلقي في قلوب الناس له الجفوة ، فإذا رأىٰ منهم الجفوة . . رجع إلى الله سبحانه وتعالىٰ ، فإذا رجع إليه . . قبله ورزقه من حيث لا يحتسب .

وقال سهل : خلق الله عز وجل الدنيا لهـٰذه النفس ، وخلق النفس للطاعة ، فمَن كان في دنياه مطيعاً لربه عز وجل . . فله الدنيا والآخرة ، ومَن كان علىٰ غير ذلك . . فلا دنيا له ولا آخرة .

وقال سهل : البلاء مُنصَبٌّ من السماء على العباد صَبّاً ، وهو في الحقيقة نِعَمٌ إذا شكروا الله تعالىٰ عليه ، فإذا لم يشكروا . . صار بلاء ، نسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يجعلنا لأنعمه من الشاكرين ، وعلىٰ بلائه من الصابرين .

وقال سهل : لما دخلت البصرة بسبب المسألة التي خطرت لي ، وأردت أن أعرف الجواب فيها . . فوجدت بالبصرة أربعة آلاف يتكلمون في علم المعرفة ، رضي الله عنهم ، وعن سائر العارفين ، وأفاض علينا من عرفانهم بمنه وكرمه ، إنه قريب مجيب .

وقال سهل : إذا استَحْكَمَت أسباب المحبة . . مَنعت المحب عن الشكاية ، بل يتلذذ بالبلوىٰ ؛ فإن الشكاية من الحبيب شرك عند المحبين ، وخيانة عند الصادقين ، ونقض عهد عند المخلصين ، وعدم وفاء عند العارفين ، ومن تمام المحبة : أن تحب ما يحبه حبيبك ، وتُبغِضَ ما يبغضه حبيبك .

وقال : يكفيني من الحب أنني لمن يحب محب .

وقال : كل من أحب الدينار والدرهم . . لم يُحِبَّ الله ، ومَن أحب نفسه . . فقد أشرك في محبة الله ، فقيل له : توجد المحبة بين الأبوين والزوجين وغيرهم ، فقال : حب الوالد لولده حب الشفقة ، وحب الولد لوالده حب الإلفة ، وحب الزوجين حب الشهوة ، وحب الجار حب الرِّفق ، وحب الأطفال حب الرحمة ، وحب البلغة من مصالح الدنيا حب مصلحة الأجسام والقلوب ، وكل هٰذه من الدِّين ، ومحبة الله عز وجل أعظم أركان الدِّين ، ولا يشبه شيئاً من المحاب المذكورة ؛ فإن محبة الله سبحانه وتعالى اطلاع أنوار الدِّين علىٰ أسرار الصفاء واليقين ، فينكشف لأصحاب السرائر والضمائر ما يتستر عن أصحاب النواظر والظواهر .

وكان إبراهيم الخواص وأبو الحسين النوري وسمنون المحب رحمهم الله يخالفون سهلاً في ذلك ، ويقولون : إن القلب الواحد لا يسع محبَّتين .

وتحقيق هٰذا المقام يأتي ـ إن مهَّل الله سبحانه وتعالىٰ ـ في باب المحبة إن شاء الله تعالىٰ .

وقال سهل : إن الله عز وجل خلق الخلق ولم يحجبهم ، وحجابهم تدبيرهم لأنفسهم ، ثم قال : دعِ التدبير والاختيار لله عز وجل الواحد القهار ؛ فإن تدبير الخلق لأنفسهم واختيارهم هوَ الذي كدَّر عليهم عيشهم .

وقال : في المجاهدة فقدوا أنفسهم ، وفي المكابدة فقدوا أهواءهم ، فصارت شهواتهم في الطاعة ، وكل مَن أقام علىٰ أدنىٰ معصية وهو يطلب مع ذلك طاعة . . فقد مُنع المعونة[١] مِن الله سبحانه وتعالىٰ ، ومَن حُرِم المزيد من الله . . يُخافُ عليه في العواقب .

وقال سهل : الحافظ علىٰ همِّه من بين العباد كالقمر ليلة البدر بين الكواكب .

وقال سهل في قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴾ قال : لساناً ينطق عنك ولا ينطق عن سواك .

وقال : حظ الخلق من اليقين علىٰ قدر حظهم من الرضا ، وحظهم من الرضا علىٰ قدر عيشهم فيه ، وعلىٰ قدر قربهم[٢] من التقوىٰ . . أدركوا اليقين .

وقال : مَن علم أن الله عز وجل قريب منه . . بَعُدَ عن كل ما سوى الله سبحانه وتعالىٰ ، ومَن طلب مرضاة الله سبحانه وتعالىٰ . . أرضاه .

وقال : مَن أسلم قلبه إلى الله تبارك وتعالىٰ . . تولى الله عز وجل جوارحه . انتهىٰ .

وقال في « بهجة الأسرار » : قال سهل رحمه الله : إن الله عز وجل حجب عقول الخلق عنه بِحُجبٍ لطيفة ، فحجب العلماء عنه بالعلم ، والزهاد بالعمل ، والحكماء عنه بلطائف الحكمة ، فأما العارفون . . فإنه أسكن قلوبهم من نور معرفته سبحانه وتعالىٰ ، فلم يحجبهم بشيء ، والله أعلم .

وكان سهل يقول : مَن كان اقتداؤه بالنبي صلى الله عليه وسلم في جميع أحواله وأفعاله . . لم يكن في قلبه اختيار لشيء من الأشياء غير ما أُمر به ، ولا يجول في قلبه سوىٰ ما أحب الله سبحانه وتعالىٰ ورسوله صلى الله عليه وسلم .

وقال : صلاح الخلق في ثلاثة أشياء : رفض الدنيا ، ثم الرضا بما قسم الله عز وجل ، ثم الاشتغال بطلب الآخرة ، وما أخذ عبدٌ شهوةً من الدنيا . . إلا بعيوبه .

وقال سهل رحمه الله : أول النصيحة : أن ينصح العبد لله عز وجل في نفسه ، ويسلمها لله سبحانه وتعالىٰ ، ويقول : يا رب ؛ وعزتك وجلالك أنت أحق بها ؛ لأنك خالقها ومالكها ، ومعطيها ومانعها ، ومحييها ومميتها ، وشافيها وممرضها ، وهو قوله عز

---

(١) في نسخة : (المعرفة) .

(٢) في نسخة : (قُوتهم) .

وجل : ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ .

وسئل سهل رحمه الله عن معنىٰ قوله صلى الله عليه وسلم : « التائب حبيب الله »[1] فقال : إنما يكون حبيباً إذا كان فيه جميع ما ذُكر في قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ، ثم قال : الحبيب هو الذي لا يدخل فيما يكرهه حبيبه . أو كما قال .

وكان سهل رحمه الله يقول : خوف الصديقين من خوف الخاتمة عند كل خطرة وكل حركة ، وهُم الذين وصفهم الله تعالىٰ في قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ .

وقال سهل : لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتىٰ يكون فيه أربع خصال : أداء الفرائض بالسُّنة ، وأكل الحلال بالورع ، واجتناب النهي في الظاهر والباطن ، والصبر علىٰ ذلك إلى الموت . [انتهىٰ] .

وقال الغزالي : قال أبو الحسن محمد بن أحمد : صحبت سهل بن عبد الله التُّستَري ستين سَنة ، فما رأيته تغير عند شيء يسمعه من الذِّكر والقرآن ، فلما كان في آخر عمره . . قرأ رجل بين يديه : ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ ، فرأيته قد ارتعد وكاد أن يسقط ، فلما عاد إلىٰ حالته . . سألته عن ذلك ، فقال : نَعم يا حبيبي ؛ قد ضعفنا .

وكذلك سمع مرة من يقرأ : ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ ، فاضطرب ، فسأله ابن سالم ، فقال : قد ضعفت ، فقيل له : إن كان هٰذا مِن الضعف . . فما معنىٰ قوة الحال ؟ فقال : هو ألاَّ يرِدَ عليه وارد . . إلا وهو يدفعه بقوة حاله ، فلا تغيره الواردات .

ثم قال : حالي قبل الصلاة وبعدها واحد ؛ قال الغزالي : وذاك لأنه كان مراعياً لقلبه ، حاضراً للذِّكر مع الله عز وجل في كل حال[2] .

وقال سهل : رأيت في المنام كأني دخلت الجنة ، فرأيت ثلاث مئة [نبي] ، فسألتهم :

---

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (٢/٣٤٩) .

(٢) الإحياء (٢/٣٠٣) .

ما أخوف ما كنتم تخافون في الدنيا ؟ فقالوا : سوء الخاتمة(١) .

وكان سهل رحمه الله يقول : يا مسكين ؛ كان الله عز وجل ولم تكن ، ويكون الله سبحانه وتعالىٰ ولا تكون ، فلما كوَّنك اليوم صرت تقول : أنا وأنا ، كن الآن كما كنت قبل تكوينك ، [فإنه اليوم كما كان] واعرف فاقة نفسك ومقدار حقارتها ، ونَزِّلْها منزلتها من الذلة والافتقار . انتهىٰ(٢) .

وقال الحافظ : قال سهل : الهجرة فرض إلىٰ يوم القيامة ؛ من الجهل إلى العلم ، ومن النسيان إلى الذِّكر ، ومن المعصية إلى الطاعة ، ومن الإصرار إلى التوبة .

وقال : دع دنياك عند أعدائك ، وضع سرك عند أحبابك ، وقد جاء في الحديث : « من نازعك الدنيا . . فارم بها وجهه » .

وقال : ليس كل مَن عمل بطاعة الله عز وجل صار حبيب الله سبحانه وتعالىٰ ، ولـٰكن مَن عمل بطاعة الله تعالىٰ واجتنب ما نهى الله تعالىٰ عنه . . صار حبيب الله تعالىٰ ، ولا يجتمعان إلا في صدِّيق مقرب ، وأما أعمال البِر فقط . . فيعملها البَر والفاجر .

وكان يعقوب بن الليث قد اعتقل بطنه في كور الأهواز ، فجمع الأطباء ، فلم يُغنوا عنه شيئاً ، فذُكر له سهل بن عبد الله التُّستَري ، فقيل له : في ولايتك رجل ولي وهو سهل بن عبد الله ، لو دعا لك لعل الله أن يستجيب منه فيك ، فاستحضر سهلاً ، وقال له : ادع لي ، فقال : كيف يستجاب دعائي فيك وفي حبسك مظلومون ؟ فأطلق كل من كان في حبسه ، فقال سهل رحمه الله : اللهم ؛ إنك أريته ذل المعصية . . فأَرِهِ عز الطاعة يا أرحم الراحمين ، قال : ففرج عنه من ساعته ، فأخرج إليه مالاً كثيراً وثياباً ، فردها ولم يقبل منه شيئاً ، فلما رجع إلىٰ تُسْتَر . . قال له بعض إخوانه : لو قبلت ذلك المال وفرقته على الفقراء ، فقال له : انظر إلى الأرض ، قال : فنظر ، فإذا الأرض كلها بين يديه ذهباً ، فقال له : مَن كان هـٰذا حاله مع الله عز وجل . . لا يستكثر مال يعقوب بن الليث .

وقال بعض أصحاب أبي العباس الخواص : كنت أحب أن أقف علىٰ شيء من أسرار سهل بن عبد الله ، فسألت بعض أصحابه : مِن أين يتقوَّت ؟ فلم يخبرني أحد منهم بشيء ،

---

(١) الإحياء (٤/١٧٩) .
(٢) الإحياء (٤/٣٥٨) .

فقصدت مسجده ليلة ؛ وإذا هو يصلي ، فأطلت[1] القيام وهو واقف لا يركع ، وإذا شاة قد جاءت إلىٰ باب المسجد ، وزحمت الباب ، وأنا أراها ، فلما سمع حركة الباب . . ركع وسجد وسلم ، وخرج ففتح الباب ، فدنت الشاة منه ، [ووقفت بين يديه] ، فمسح ضرعها ، ثم أخذ قدحاً من الطاق[2] الذي في المسجد ، فحلبها فيه ، وجلس فشرب ، ثم مسح ضرعها ، وكلَّمها بالفارسية ، فذهبت في الصحراء ، ورجع هو إلىٰ محرابه .

وقال سهل : لا بد للعبد من ربه عز وجل في جميع أحواله ؛ فإنه إن عصىٰ . . قال : يا رب ؛ استر عليَّ ، وإن تاب . . قال : يا رب ؛ تقبل توبتي واغفر لي .

وقال سهل : قال العارفون : ليس خوفنا من نار جهنم ، ولا رجاؤنا للحور العين ، إنما خوفنا من الحجاب ، ومطلبنا لقاء الله عز وجل .

وقال : طوبىٰ لمَن عرف الحق وعرف أهله ؛ فإنه إذا عرفه وعرف أهله . . تدارك ما فرط منه ، وإن لم يتدارك . . كانوا له شفعاء .

وقال : الدنيا حرام علىٰ صفوة الله تعالىٰ من خلقه أن ينالوا منها شيئاً ، كما أن صيد الحرم حرام على المحرم أن ينال منه شيئاً ، ومَن أخذ منه شيئاً . . وجبت عليه الفدية ، كذلك الدنيا حرَّمها الله تعالىٰ علىٰ صفوة خلقه لا ينالون منها شيئاً إلا بقدر الضرورة التي لا بد منها ، فمن نال منها شيئاً غير ذلك . . وجبت عليه الفدية بتركه ، والعمل الصالح لجبران ما نال ، أو كما قال .

وقال سهل : استعبد الله عز وجل عباده بثلاثٍ : بالحياة ، والعقل ، والقوة ، فإن خاف العبد على اثنتين منها وهي العقل والحياة . . أكل ، وإن كان صائماً . . أفطر ، ويتكلف الطلب ـ أي : السؤال ـ إن كان فقيراً ، وإن لم يخف عليهما ، بل إنما خوفه على القوة فقط ، فقال : ينبغي ألا يبالي وإن ضعفت القوة .

ورأىٰ سهل أن صلاته قاعداً مَعَ ضَعَفِ الجوع أفضل من صلاته قائماً مع قوة الأكل .

وسئل سهل عن بدايته ، فقيل له : ما كنت تتقوَّت ؟ فقال : كان قوتي في كل سنة ثلاثة دراهم ، آخذ بدرهم سمناً ، وبدرهم دبساً ، وبدرهم دقيق الأرز ، وأخلطه وأسويه ثلاث مئة

---

(١) في نسخة : (فأطال القيام) .

(٢) **الطاق** : ما انحنىٰ وجعل كالقوس من الأبنية ، والمراد هنا : الكوة في الجدار .

وستين كرة أفطر عليها ، قيل له : فالساعة كيف أمرك ؟ قال : آكل بلا حد ولا توقيت . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ١٩٧ـ٢١٠] .

وقال أبو القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ : سهل بن عبد الله التستري أحد أئمة القوم ، ومَن لم يكن له نظير في وقته في المعاملات والورع ، وكان صاحب كرامات .

قال سهل : كنت ابن ثلاث سنين ، وكنت أقوم بالليل أنظر إلىٰ صلاة خالي محمد بن سوار ، وكان يقوم بالليل ، فربما كان يقول لي : يا سهل ؛ اذهب فنم ، فقد شغلتَ قلبي .

وقال : قال لي يوماً : ألا تذكر الله الذي خلقك ؟ فقلت له : كيف أذكره ؟ فقال : قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك : الله معي ، الله ناظر إلي ، الله شاهد عليَّ ، فقلت ذلك ليالي ثم أعلمته ، فقال : قل ذلك في كل ليلة سبع مرات ، فقلت ثم أعلمته ، فقال : قل في كل ليلة إحدىٰ عشر مرة ، فقلت ثم أعلمته ، وقلت له : إنه قد وقع في قلبي له حلاوة ، فلما كان بعد سَنة . . قال لي خالي : احفظ ما علَّمتك ودم عليه إلىٰ أن تدخل القبر ؛ فإنها تنفعك في الدنيا والآخرة إن شاء الله تعالىٰ ، فلم أزل علىٰ ذلك سنين ، فوجدت لها حلاوة في سِرِّي .

ثم قال لي خالي يوماً : يا سهل ؛ من كان الله معه وناظر إليه وشاهده . . فلا يعصيه ، فإياك والمعصية ، فكنتُ بعد ذلك إذا بعثوني إلى الكُتَّاب . . أخشىٰ أن يتفرق عليَّ همِّي ويضيع زماني ، فقلت لهم : شارطوا المعلم أني أذهب إليه ساعة فأتعلم ثم أرجع .

فحفظت القرآن وأنا ابن ست سنين أو سبع ، وكنت أصوم الدهر وقُوْتي خبز الشعير [إلىٰ أن بلغت] اثنتي عشرة سنة ، فوقع لي مسألة ، فسألتهم أن يبعثوا بي إلى البصرة لأسأل عنها ، فجئت البصرة وسألت علماءها ، فلم يشف أحد عني شيئاً ، فخرجت إلىٰ عَبادان إلىٰ رجل يُعرف بأبي حبيب حمزة بن عبد الله العباداني ، فسألته عنها ، فأجابني ، فأقمت عنده مدة أنتفع بكلامه وأتأدب بآدابه ، ثم رجعت إلىٰ تستر ، فجعلت قُوْتي أن أشتري بدرهم شعيراً فيطحن ويخبز لي ، وأفطر عند السحر كل ليلة علىٰ أوقية واحدة بحتاً بغير ملح ولا إدام ، فكان يكفيني ذلك الدرهم سَنة ، ثم عزمت علىٰ أن أطوي ثلاثة أيام ثم أفطر ليلة ، ثم خمسة ، ثم سبعة ، ثم خمسة وعشرين ، وكنت عليها عشرين سَنة ، ثم خرجت أسيح في الأرض سنين ، ثم رجعت إلىٰ تستر ، وكنت أقوم الليل كله .

ولما مات سهل بن عبد الله رحمه الله . . أكب الناس علىٰ جنازته ، وكان في البلد يهودي

قد أناف علىٰ سبعين سَنة ، فسمع الضجة ، فخرج ينظر ما كان ، فلما نظر إلى الجنازة. . صاح وقال : أترون ما أرىٰ ؟ فقالوا : [لا] ، أي شيء ترىٰ ؟ فقال : أرىٰ أقواماً ينزلون من السماء يتمسحون بالجنازة ، ثم إنه أسلم في الحال وصار من الصالحين . انتهىٰ [« الرسالة القشيرية » ٢٤ـ٢٥ و٢٤١] .

وقال في « المختار » : قال سهل ـ رحمه الله ـ : يتفاضل الناس يوم القيامة علىٰ قدر يقينهم ، فمَن كان أوزن يقيناً. . كان مَن دونه في ميزانه ، وأدنىٰ مراتب اليقين : ثقة العبد بالله عز وجل ، وأدنىٰ مراتب التوكل : ترك الاختيار ، وأعلاه ليس له غاية .

وقال : إنما منع الله الغافلين لذاذة مناجاته ؛ لأنه سبحانه وتعالىٰ لم يرض عقولهم لمعرفته ، ولا أبدانهم لخدمته ، فأذلهم وجعلهم عبيد الدنيا ، نسأل الله العافية والتوفيق والعصمة . [انتهىٰ] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو إسحاق إبراهيم الحربي

رضي الله عنه

هو الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن بشير بن عبد الله الحربي المروزي من أهل مرو .

[والحربي] نسبة إلىٰ قرية من قرىٰ بغداد اسمها : الحربية بالحاء والراء المهملتين .

ولد سنة ثمان وتسعين ومئة .

[قال الخطيب البغدادي ـ رحمه الله ـ] : كان إماماً في العلم ، رأساً في الزهد ، عارفاً بالفقه ، بصيراً بالأحكام ، حافظاً للحديث ، عارفاً بعلله ، قيماً بالأدب ، جامعاً للغة وفنون الأدب ، له التصانيف الحسان في علوم كثيرة .

قال أحمد بن عبد الله بن خالد بن ماهان ـ ويعرف بابن أسد ـ : سمعت إبراهيم الحربي يقول : أجمع عقلاء كل أمة علىٰ أنه مَن لم يَجْرِ مع القدر . . لم يتهنأ عيشه . أو كما قال .

وقال : ما أنشدت بيتاً من الشعر . . إلا قرأت بعده : (قل هو الله أحد) ثلاث مرات .

وسأله أحمد بن يحيىٰ فقال : متىٰ يستغني الرجل عن ملاقاة العلماء ؟ فقال : إذا علم ما قالوا ، وإلىٰ أي شيء ذهبوا إجماعاً واختلافاً ، وبماذا كانوا يعملون ، والأعمار تفنىٰ دون هـٰذا . أو كما قال .

وقال أبو الحسين العَتَكي : سمعت إبراهيم الحربي يقول لجماعة عنده : مَن تَعُدُّون الغريب في زمانكم هـٰذا ؟ فقال واحد منهم : الغريب : مَن نأىٰ عن وطنه ، وقال آخر : الغريب : مَن فارق أحبابه ، وذكر كل واحد منهم شيئاً ، فقال إبراهيم الحربي : الغريب في زماننا هـٰذا : رجل صالح عاش بين قوم صالحين ، إن أَمَر بالمعروف . . آزروه ، وإن نهىٰ عن المنكر . . أعانوه ، وإن احتاج إلىٰ سبب من الدنيا . . مانوه[1] ، ثم ماتوا وتركوه .

---

(١) مانوه : تحملوا مؤنته ، وقاموا بكفايته .

وعن أبي عثمان الرازي قال : جاء رجل من أصحاب المعتضد إلىٰ إبراهيم الحربي بعشرة آلاف درهم من عند المعتضد ، فردها عليه ولم يقبلها ، فانصرف الرسول ، ثم عاد ، فقال : إن أمير المؤمنين يسألك أن تفرقها في جيرانك ، فقال : قل له : عافاك الله ، هٰذا مال لم نشغل أنفسنا بجمعه ، فلا نشغلها بتفريقه ، قل لأمير المؤمنين : إن تركتنا ، وإلا . . تحولنا عن جوارك . رحمه الله . انتهىٰ [« تاريخ بغداد » ٦/٢٨ـ٣١] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : إبراهيم الحربي أصله من مرو ، وسكن بغداد ، وكان إماماً في علوم كثيرة ، وله التصانيف الحسان ، وكان زاهداً في الدنيا .

وكان يقول : صحبت قوماً من الكرخ في طلب الحديث ، فسموني الحربي ؛ لأن عندهم أن كل مَا[1] جاوز قنطرة العتيقة[2] . . فهو مِن الحربية .

وقال إبراهيم الحربي : ربما كان قميصي نظيفاً وإزاري وسخاً ، فلا تحدثني نفسي بتسويتهما قط ، قال : وربما كان أحد النعلين اللذين في رجلي مقطوعاً والآخر صحيحاً ، وأنا أمشي بهما في بغداد من الجانبين ، فلا تحدثني نفسي بتسويتهما .

قالوا : وكان به شقيقة[3] نحواً من خمس وأربعين سَنة لم يخبر بها أحداً ، وعَشِيَت إحدىٰ عينيه ، فلم يبصر بها نحواً من عشرين سَنة ، ولم يَعلم بذلك أحدٌ ، وأقام نحو ثلاثين سَنة يتقوَّت كل يوم وليلة برغيف ، ثم صار بعد ذلك يتقوَّت كل يوم وليلة بنصف رغيف وأربع عشرة تمرة .

ومرضت ابنته ، فأرسل امرأته إليها لتعالجها ، فأقامت عندها شهراً ، فكانت نفقته في ذلك الشهر درهمين لا غير .

وقال أبو القاسم : مرض إبراهيم الحربي ، فدخلت إليه أعوده ، فقالت لي ابنته : يا عم ؛ نحن في أمر عظيم لا في الدنيا ولا في الآخرة ، الشهر والدهر ما لنا طعام إلا كِسَر يابسة وملح ، وربما عدمنا الملح ، وبالأمس قد وجه المعتضد إليه بعشرة آلاف درهم . . فلم يأخذها ، ووجه إليه فلان وفلان ، قال : فرفع إبراهيم رأسه وهو يبتسم ، وقال لها :

---

(١) في بعض النسخ : (من) .

(٢) **العتيقة** : محلة ببغداد في الجانب الغربي ممتدة حتىٰ شاطىء دجلة ، وسميت العتيقة لأنها كانت قبل عمارة بغداد .

(٣) **الشقيقة** : ألم ينتشر في نصف الرأس والوجه .

يا بنية ؛ أتخافين الفقر ؟ وأين الفقر ؟ انظري إلىٰ تلك الزاوية فيها اثنا عشر ألف جزء من الحديث والفقه واللغة والعربية[1] ، كلها بخطي ، فإذا أنا مِتُّ إلىٰ رحمة الله . . بيعي كل جزء بدرهم ، فمَن كان عنده اثنا عشر ألف درهم . . كيف يُعَد فقيراً ؟ !

وقال أحمد بن سليمان القطيعي : أضقت[2] مرة إضاقة شديدة ، فجئت إلىٰ إبراهيم الحربي ليدعوَ لي ، فقال لي قبل أن أذكر له الحال : لا يضيق صدرك ؛ فإن الله عز وجل سيأتيك برزق من عنده ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ ثم حكىٰ لي أنه حصلت له مرة إضاقة شديدة ، قال : إلىٰ أن عدم عيالي القوت ، فقالت لي المرأة : هب أني أنا وأنت نقدر على الصبر ، كيف تصنع بهـٰؤلاء الصبيان الصغار ؟ فإنهم لا يصبرون ، فقلت لها : ما تأمرين ؟ قالت : بع من هـٰذه الكتب شيئاً ، أو ارهن منها شيئاً ، فقلت لها : اصبري عليَّ اليوم والليلة .

فلما كان الليل . . سمعت طارقاً يطرق بابي ، فقلت : مَن ؟ فقال : رجل من جيرانك ، قلت له : ادخل ، فقال : أطفىء السراج حتىٰ أدخل ، فأطفأته ، ثم قلت : ادخل ، فدخل وترك إلىٰ جنبي شيئاً وانصرف ، فأوقدت السراج ونظرت ، فإذا منديل نفيس ، وفيه من أنواع الأطعمة ، وكاغد[3] فيه خمس مئة درهم ، فدعوت الزوجة وأيقظت الصغار فأكلوا .

فلما كان من الغد . . قضينا من تلك الدراهم دَيناً كان علينا ، وكان وقت مجيء الحاج من خراسان ، فجلست علىٰ باب بيتي صبيحة تلك الليلة ؛ وإذا جَمَّال يقود جملين عليهما حملان ، وهو يسأل عن إبراهيم الحربي ، فقلت له : أنا إبراهيم الحربي ، فقال : هـٰذان الجملان وما عليهما لك ، أنفذَهما لك رجل من خراسان ، فقلت : مَن هو ؟ فقال : قد أحلفني ألاَّ أقول مَن هو .

وقال ثعلب : ما فقدت إبراهيم الحربي من مجلس نحو أو لغة أو حديث أو فقه نحو خمسين سَنة .

وقال محمد بن صالح الأنماطي : ما نعلم أن بغداد أخرجت مثل إبراهيم الحربي في الأدب ، والحديث ، والفقه ، والزهد .

---

(١) في « الصفوة » : (واللغة والغريب) .

(٢) أضاق الرجل : ذهب ماله .

(٣) **الكاغد** : القرطاس ، فارسي معرَّب .

وقال [مقاتل بن] محمد بن بنان : حضرت مع أبي وأخي عند إبراهيم الحربي ، فقال إبراهيم لأبي : هٰؤلاء أولادك ؟ قال : نعم ، قال : احذر . . لا يرونك حيث نهاك الله عز وجل فتسقط من أعينهم .

وكان له ابن قد أنجب وقرأ القرآن وطرفاً صالحاً من الفقه والحديث ، فتوفي ، فلما جاء الناس لتعزيته . . قال : إني كنت أشتهي موته ؛ لأحتسبه ، ولرؤيا رأيتها ، وهي كأن القيامة قد قامت ، وأولاد المؤمنين معهم أباريق فيها ماءٌ ، وهم يسقون الناس ، فقلت لواحد منهم : اسقني ، قال : إنك لست أبي ، نحن إنما نسقي آباءنا ، فقلت : مَن أنتم ؟ قالوا : نحن الصغار الذين ماتوا وخلفوا آباءهم ، نستقبلهم ونسقيهم الماء ، والله أعلم .

توفي سنة خمس وثمانين ومئتين ، رحمه الله . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٢٤٤ـ٢٤٨] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو عبد الله أحمدُ بن يحيى الجَلاَّء
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : كان أبو عبد الله أحمد بن يحيى الجلاء من بغداد ، وسكن الرملة ، وصحب ذا النون ، وأبا تراب النخشبي .

وكان أبوه يسمىٰ يحيى الجلاء ، وسنذكر سبب تسميته بذلك ، وكان ابنه قد أقام بالشام ، ولم يكن أحد في حاله ، وعلىٰ أبيه تخرَّج المشايخ المذكورون .

ومن كلام أبي عبد الله أحمد : مَن استوىٰ عنده المدح والذم . . فهو زاهد ، ومَن حافظ على الفرائض لأول وقتها . . فهو عابد ، ومَن رأى الأفعال كلها من الله عز وجل . . فهو موحِّد .

وقال : سَمَتْ هِمم المريدين إلىٰ طلب الطريق إليه . . فأفنوا نفوسهم في الطلب ، وسمت هِمم العارفين إلىٰ مولاهم عز وجل . . فلم تلتفت إلىٰ سواه سبحانه وتعالىٰ .

وقال : إن الله عز وجل خص بعض أنبيائه عليهم الصلاة والسلام بالكلام ، وبعضهم بالخُلَّة ، ثم ابتلاهم بما شاء من المحن ، فليحذر أحدكم طلب رتبة الأكابر .

وكان إذا سئل عن المحبة . . يقول : ما لي وللمحبة ؟ أنا أريد أن أتعلم التوبة .

وسئل عن ليالي الأحباب وطيبها ، فأنشأ يقول :

من لم يَبِتْ والحب حَشْوَ فؤاده ... لم يدرِ كيف تفتتُ الأكبادِ

وقال : قلت لأبي وأمي : هِباني لله عز وجل ، فقالا : قد وهبناك ، قال : فغبت عنهما مدة ، فلما رجعت من غيبتي وكانت ليلة مطيرة . . دققت عليهما الباب ، فقالا : مَن ؟ فقلت : أحمد ولدكما ، فقالا : كان لنا ولد ، فوهبناه لله عز وجل ، ونحن من العرب لا نرجع فيما وهبنا ، ولم يفتحا لي الباب . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ٣١٤ـ٣١٥] .

وقال الأستاذ القشيري : وقال ابن الجلاء : الزهد هو النظر إلى الدنيا بعين الزوال ؛

لتصغر في عينك ، فيسهل عليك الإعراض عنها . [انتهىٰ « الرسالة القشيرية » ٩٤] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان يحيى الجلاء والد أبي عبد الله ممن صحب بشر بن الحارث .

وقال محمد بن الحسين : سمعت أبا عبد الله ٱبن يحيى الجلاء يقول : قلت لذي النون المصري : لِمَ سمي أبي : الجَلاَّء ؟ هل كان يصنع صنعة ؟ فقال : لا ، ولٰكن نحن سميناه الجلاء ؛ فإنه كان إذا تكلم علينا . . جَلاَّ قلوبنا ، فسميناه الجلاء لذلك .

وقال أبو عبد الله أحمد بن يحيى الجلاء : لما مات أبي ووضع على المغتسل . . رأيناه مسفر الوجه ضاحكاً ، فلما رآه الناس ضاحكاً . . قالوا : إنه ليس بميت ، ثم جاؤوا بطبيب وغطوا وجهه ، فأخذ الطبيب مجسه ، فقال : هٰذا ميت ، فكشفوا له عن وجهه ، فرآه ضاحكاً ، فقال : ما أدري حال هٰذا ، أحي هو ، أم ميت ؟!

وكان إذا جاء إنسان ليغسله . . أخذته منه هيبة ولا يقدر علىٰ غسله ، حتىٰ جاء رجل من إخوانه ، فغسله ، ثم كفن وصلي عليه ودفن رحمه الله تعالىٰ[1] . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/٢٤٨] .

وقال في « المناقب » : قال محمد بن ياسين : سألت أبا عبد الله ابن الجلاء عن الفقر ، فسكت ، ثم ذهب ورجع قريباً ، فتكلم في الفقر ، فقلت له : يا أستاذ ؛ لِمَ لا تكلمت قبل رواحك ؟ فقال : كان عندي أربعة دوانيق ، فاستحييت من الله سبحانه وتعالىٰ أن أتكلم في الفقر ومعي شيء من الدنيا ، فذهبت ، فأخرجتها ، ثم جئت بعد ذلك ، فتكلمت فيه ، والله أعلم .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : هٰذا كله من المحافظة على الصدق مع الله عز وجل ، واستواء السريرة والعلانية ، وهو من شأن العارفين ، ومَن تتبع أفعالهم . . وجد من ذلك شيئاً كثيراً قد مر بعضه في تراجمهم ، وسيأتي باقيه إن شاء الله عز وجل .

وفي « بهجة الأسرار » : قال أبو عبد الله وقد سئل : متىٰ يكون التائب صادقاً ؟ فقال : إذا لم يكتب عليه صاحب الشمال عشرين سنة ذنباً .

وقال ابن الجلاء : كنت مجاوراً بمكة مع ذي النون ، فجعنا أياماً كثيرة لم يُفتَح لنا بشيء ، فلما كان ذات يوم . . قام ذو النون قبل صلاة الظهر ليصعد إلى الجبل يتوضأ للصلاة

---

(١) وقد توفي لاثنتي عشرة خلت من رجب سنة ست وثلاث مئة . انظر « تاريخ بغداد » (٥/ ٤٢٤) .

وأنا خلفه ، فرأيت قشور الموز مطروحة في الوادي وهو طري ، فقلت في نفسي : آخذ منه كفاً أو كفين أتركه في كمي ، فلا يراني الشيخ ، حتىٰ إذا صرنا في الجبل ومضى الشيخ يتمسح[1] . . أكلته ، قال : فأخذته ، فتركته في كمي ، وعيني إلى الشيخ ؛ لئلا يراني ، فلما صرنا في الجبل وانقطعنا عن الناس . . التفت إلي ذو النون وقال : اطرح ما في كمك يا شره[2] ، فطرحته وأنا خجل ، وتمسحنا للصلاة ، ورجعنا إلى المسجد ، وصلينا الظهر والعصر والمغرب وعشاء الآخرة .

فلما كان بعد ساعة . . إذا إنسان قد جاء ومعه طعام عليه مكبة ، فوقف ينظر إلى الشيخ ذي النون ، فقال له ذو النون : مُرَّ فدعه قدام ذاك ـ وأومأ إلي بيده ـ فتركه بين يدي ، فانتظرت الشيخ ليأكل ، فلم أره يقوم من مكانه ، ثم نظر إلي ، وقال : كُلْ ، فقلت : آكل وحدي ؟! فقال : نعم ، أنت طلبت ، نحن ما طلبنا شيئاً ، يأكل الطعام من طلبه ، فأقبلت آكل وحدي وأنا مستحي خجل مما جرىٰ . أو كما قال . انتهىٰ .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : قال ابن الجلاء : حقيقة المحبة : أن تسمو همة المحب إلىٰ مولاه ، فلا يكون له همٌّ ولا مقصود إلا هو تبارك وتعالىٰ ؛ لأن مَن علت هِمَّته عن الأكوان . . وصل إلىٰ مكوِّنها جل جلاله .

ولهـٰذا سمع بعضهم شاهقاً يشهق عند قراءة القارىء : ﴿ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ * وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ﴾ فقال : مَن شغل هِمته بسواه . . لا يصل إلىٰ مولاه جل جلاله ، ومَن أحبه للجِنان . . بقي مع الحور والولدان ، ومَن أحبه له . . بقي معه سبحانه لا شريك له ، فيكون هو معه أينما كان ظاهراً وباطناً ، يكون موجودَ قلبِهِ ، ومنظورَ عينِهِ ، ومُشاهِدَهُ ، ومناجِيَ فكرِهِ وسرِّهِ ، لا يذكره ساعة فساعة ؛ لأنه مشاهده مع النَّفَس والساعة .

أحـب الله قـومـاً فـاستقـامـوا ... علىٰ طـرق الـوداد فلـم ينـامـوا

زاد في « بهجة الأسرار » : سئل ابن الجلاء عن المحبة ، فقال : ما لي وللمحبة ؟ أنا أريد أن أتعلم التوبة .

وقال أبو الخير التيناتي : كنت جالساً ذات يوم في موضعي هـٰذا علىٰ باب المسجد ،

---

(١) يتمسَّحُ : يتوضأ .
(٢) الشَّرِهُ : الشديد الحرص ، وفي بعض النسخ : (بأسره) .

فرفعت رأسي ، فرأيت رجلاً في الهواء وبيده ركوة ، فأومأ إلي ، فقلت له : انزل ، فأبىٰ ومر في الهواء ، فسئل الشيخ أبو الخير : عرفت الرجل ؟ قال : نعم ، قيل له : مَن كان ؟ قال : أبو عبد الله بن الجَلاَّء رضي الله عنه . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو جعفر أحمدُ بن مهدي بن رستم البغدادي
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : كان أحمد بن مهدي يحب الإيثار والستر .

أما إيثاره : فإنه ورث نحو ثلاث مئة ألف درهم أنفقها علىٰ أهل العلم وطلب العلم ، وذُكر أنه لم يعرف له فراش منذ أربعين سنة .

وأما محبته للستر : فقد روي عنه أنه كان ذات ليلة في منزله ، وإذا بامرأة قد قصدته في بيته ، واستأذنت في الدخول إليه ، فلما دخلت . . ذكرت أنها من بنات الناس ، وأنها قد امتحنت بمحنة ، ثم قالت له : أسألك بالله عز وجل أن تسترني ، فقال لها : وما محنتك ؟ فقالت : أُكرهت علىٰ نفسي ، وأنا حبلىٰ ، وأهلي لا يصدقون أني مكرهة ، والله يعلم أني كنت مكرهة ، وقد قلت للناس : إنك زوجي ، وإن الحمل منك ، فبالله ؛ لا تفضحني واسترني سترك الله تعالىٰ .

قال : فسكت عنها ، ثم مضت ، فلم أشعر بعد مدة إلا وقد وضعت ابناً ، وجاء إمام المحلة ، وجَمْعٌ من الجيران يهنئوني بالولد ، فأظهرت البِشر والتهلل ، ثم وزنت في اليوم التالي دينارين ، وطلبت إمام المحلة ودفعتهما إليه ، وقلت له : أوصل هـٰذا إلىٰ تلك المرأة لأجل نفقة المولود ، وأعلمها أنه قد وقع مني طلاق لها ، فمضىٰ .

وكنت بعد ذلك في كل شهر أزن دينارين وأوصلهما إليها علىٰ يد ذلك الإمام ، وأقول : هـٰذه نفقة المولود ، إلىٰ أن مضىٰ علىٰ ذلك سنتان ، فتوفي المولود ، فجاء الناس يعزونني ، وأنا أظهر لهم التسليم والرضا .

فلما كان بعد ذلك بنحو شهرٍ جاءتني تلك المرأة في ليلة ، ومعها تلك الدنانير التي وصلت إليها مني ، فوضعتها بين يدي ، ثم قالت : سترك الله تعالىٰ كما سترتني ، خذ هـٰذه

الدنانير التي أرسلتَها ، فقلت لها : إنَّ الدنانير كانت صلة مني للمولود ، وهي الآن مِلْكُكِ ؛ لأنك ترثينه ، فخذيها ، فأبت ، فقلت : لا بد من أخذها ، فأخذتها ، ثم انصرفت . انتهىٰ

[« الحلية » ١٠/ ٣٩٦ـ٣٩٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو عبد الرحمـٰن عبدُ الله بن داوود الخُرَيبي
رضي الله عنه

ابن عامر بن الربيع ، الهمذاني ، ثم الشعبي ، الكوفي ، المعروف بالخريبي ، سكن الخريبة ، وهي محلة بالبصرة .

وكان من كبار أئمة الحديث والفقه والعربية .

سمع هشام بن عروة ، والأعمش ، وابن جريج ، والأوزاعي ، وابن أبي ليلىٰ ، وخَلْقاً .

وروىٰ عنه الحسن بن صالح بن حيّ ، وسفيان بن عيينة ـ وهما من شيوخه ـ ومسدد ، ونصر بن علي ، وبندار ، وعمرٌو الفلاس ، ومحمد بن يحيى الذهلي ، وخَلْق .

قال ابن سعد : كان ثقة عابداً ناسكاً .

وقال ابن معين : ثقة مأمون .

وقال : قال عبد الله الخريبي : كان سبب دخولي البصرة أن ألقى ابن عون ، فلما كان يوم دخولي البصرة . . تلقاني نعيه ، فدخلني ما الله به عليم .

وقال الخريبي : ينبغي للرجل أن يُكرِه ولده علىٰ تعلم الحديث ، ليس الدِّين بالكلام ، إنما الدِّين بالآثار .

وقال : **ما** كذبت إلا مرة واحدة ؛ قال لي أبي : قرأتَ على المعلم ؟ قلت : نعم ، وما كنتُ قرأت عليه .

قال : وكانوا يستحبون أن يكون الرجل معاملتُه مع الله عز وجل سراً لا تعلم بها زوجته ولا غيرها .

وكان يقول : مَن أمكن الناس مِن كل ما يريدون منه . . أضرَّ بدنياه ودِينه .

قال إسماعيل الخُطَبي : سمعت أبا مسلم الكَجِّي يقول : كتبت الحديث عن الخريبي وهو

حي ، ولم آته ، وذلك لأني كنت في بيت عمتي ، فسألت عن أولادها ، فقالت : قد مضوا إلى الخريبي ، فلما جاؤوا . . سألتهم عنه ، فقالوا : طلبناه في منزله ـ وكان ذلك في آخر عمره بعدما انقطع ـ فقالوا : هو في بُسَيْتِينَةٍ له بالقرب ، فقصدناه ، وسألناه أن يحدثنا ، فقال : مُتِّعت بكم ، أنا في شغل عن هٰذا ، هٰذه البُسَيتينة لي فيها معاش ، وتحتاج إلىٰ سقي ، وليس لي مَن يسقيها ، فقلنا : نحن ندير الدولاب ونسقيها ، فقال : إن حَضرَتْكم نية . . فافعلوا ، فرمينا عنَّا ثيابنا ، وأدرنا الدولاب حتىٰ سقينا البستان ، ثم قلنا : تحدثنا ؟ قال : مُتعت بكم ، ليس لي نية ، وأنتم كانت لكم نية تؤجرون عليها .

وقال أحمد بن كامل : حدثنا أبو العيناء قال : أتيت الخريبي فقال : ما جاء بك ؟ قلت : الحديث ، قال : اذهب فاحفظ القرآن ، قلت : قد حفظته ، قال : اقرأ ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ ، قال : فقرأت حتىٰ ختمت السورة ، قال : اذهب الآن فتعلم الفرائض ، قلت : قد تعلمت الفرائض الصُّلْب والجدَّ والكُبَر[1] ، فقال : أيما أقرب إليك ابن أخيك أو ابن عمك ؟ قلت : ابن أخي ، قال : ولِمَ ؟ قلت : لأن أخي من أبي ، وعمي من جدي ، قال : اذهب الآن فتعلم العربية ، قلت : قد علمتها قبل هٰذين ، قال : فلِمَ قال أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه حين طعن : يا لَلَّه يا لِلمسلمينَ ؟ قلت : فَتَحَ تلك على الدعاء ، وكسر هٰذه على الاستغاثة والاستنصار فقال : لو حدثتُ أحداً . . لحدثتك[2] .

وقال بشرٌ الحافي رحمه الله : دخلت على الخريبي في مرضه الذي مات فيه ، فجعل يقول ـ ويمر يده على الحائط ـ : لو خيرت بين دخول الجنة وبين أن أكون لبنة من هٰذا الحائط . . لاخترت أن أكون لبنة حتىٰ أدخل الجنة .

ولد الخريبي سنة ست وعشرين ومئة ، وتوفي في النصف من شوال سنة ثلاث عشرة ومئتين رضي الله عنه وأرضاه .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أي : مسائل الفرائض الكبرىٰ .

(٢) انظر « تهذيب الكمال » (١٤/٤٥٨ـ٤٦٧) ، و« سير أعلام النبلاء » (٩/٣٤٦ـ٣٥٢) .

ومنهم الإمام :

أبو سعيدٍ الخراز
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : أبو سعيد الخراز اسمه : أحمد بن عيسىٰ . قال أبو بكر الزقاق : كان أبو سعيد يوماً نائماً ، فلما استيقظ . . قال : اكتبوا ما وقع لي في هٰذه الغفوة : إن الله عز وجل جعل العلم دليلاً عليه ليُعرف ، وجعل الحكمة[1] رحمة منه علىٰ عباده ليُؤْلَف ، فالعلم دليل عليه والمعرفة دالة عليه .

وقال أبو سعيد الخراز : المعرفة تأتي إلى القلب مِن عين الجود ومِن بذل المجهود ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وقال : ينبغي أن يكون فرحك عند العطاء بالمعطي سبحانه وتعالىٰ لا بنفس العطاء ، وتنعمك بالمنعم عز وجل دون نظرك إلى النعمة . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ٢٤٦ـ٢٤٩] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال أبو القاسم الجنيد : لو طالبنا الله عز وجل بحقيقة ما عليه أبو سعيد الخراز . . لهلكنا .

قال علي : قلت لإبراهيم : وأي شيء كان حاله ؟ فقال : أقام كذا وكذا سَنة ما فاته ذِكر الحق جل جلاله بين الخرزتين .

وقال أبو جعفر الصيدلاني : سمعته يقول : مَن ظن أنه ببذل الجهد يصل . . فهو متمنٍّ ، ومن ظن أنه بغير بذل الجهد يصل . . فهو متعنٍّ .

وقالت تلميذة له : كنت أسأله عن مسألة وبيني وبينه إزار مسبل مشدود ، قالت : فلما أجابني . . استفزتني حلاوة كلامه ، فنظرت إليه من ثقب في الإزار ، فرأيت شفتيه تتحركان ، قالت : فلما نظرت إليه . . سكت ، ثم قال لي : جرىٰ هٰهنا حدث ، فأخبريني

---

(١) في نسخة : (الحلم) .

ما هو ، فقلت له : نظرت إليك ، فقال : أمَا علمتِ أن نظركِ إلي اشتغال عما أنتِ فيه وهٰذا العلم لا يحتمل التخليط ؟! انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٢٦٢] .

وقال الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : رأىٰ أبو سعيد الخراز ابناً له في المنام بعد موته ، فقال له : يا بني ؛ عظني ، فقال : لا تخالف الله عز وجل فيما يريد ، فقال : يا بني ؛ زدني ، قال : يا أبت ؛ لا تطيق ذلك ، قال : يا بني ؛ قل ، قال : يا أبت ؛ لا تجعل بينك وبين الله قميصاً ، فما لبس قميصاً ثلاثين سَنة . انتهىٰ [« الإحياء » ٤/ ٥٠٢] .

قال صاحب « المختار » ـ رحمه الله ـ : قال أبو سعيد : كنت في بعض أسفاري ، وكان يظهر لي كل ثلاثة أيام شيء آكله ، وأستقل به ، فمضىٰ عليَّ ثلاثة أيام ولم يظهر لي شيء ، فضعفت وجلست ، وهتف بي هاتف : أيما أحب إليك أن تعطىٰ قوة أو سبباً ؟ فقلت : قوة ، فقمت من وقتي ومشيت نحو اثني عشر يوماً لم أذق شيئاً ولم أضعف .

وقال : كنت بالبادية مرة ، فنالني جوع شديد ، فغلبتني نفسي علىٰ أن أسأل الله تعالىٰ صبراً ، فلما هممت بذلك . . سمعت هاتفاً يقول :

ويزعُم أنه مِنَّا قريبٌ ... وأَنَّا لا نضيِّع مَن أتانا
ويسألنا القوىٰ جهداً وصبراً ... كأَنَّا لا نراه ولا يرانا

قال : فأخذني الاستقلال من ساعتي ، فقمت ومشيت .

وقال لي أبو سعيد : شهدت إبراهيم الهروي وكان شيخاً كبيراً ، رأيته بمكة شرفها الله تعالىٰ ، فقال لنا يوماً : خرجت من خراسان وكنت راكباً ؛ لضعفي عن المشي ، فبينا أنا في أرض فلاة ، وقد بقيت أياماً كثيرة لم أر أحداً من الناس ، ولا طائراً ، ولا ذا روح ، وكنت في ذلك مستقلاً بلا طعام ولا شراب ؛ فوقع في نفسي شيء من العُجب ، فخرج عليَّ شخص لا أدري من أين جاء ولا أعرفه ، فقال لي : يا إبراهيم ؛ ذاك المرائي تعرفه ؟ فقلت : أنا هو ، وكان إلىٰ جنبي شجرة ، فقال : قل لهٰذه الشجرة تحمل دنانير ، فقلت لها : احملي دنانير ، فلم تحمل شيئاً ، فقال لها ذلك الرجل : احملي دنانير ، فنظرت ؛ فإذا شماريخ[1] دنانير معلقة ، فاشتغلت بالنظر إليها ، ثم التفتُّ ، فلم أر ذلك الشخص ، وذهبت الدنانير من الشجرة . انتهىٰ .

---

(١) الشماريخ : الأغصان الدقيقة التي تنبت في أعالي الغصون الغليظة .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال أبو القاسم بن مردان : كان عندنا بنهاوند فتىً يصحبني ، وكنت أنا أصحب أبا سعيد ، فكنت إذا رجعت . . حدثت الفتىٰ بما أسمع من أبي سعيد ، فقال لي ذات يوم : إن سهل الله لك الخروج إلىٰ أبي سعيد . . خرجت معك لزيارته ورؤياه ، فاتَّفَق أني سافرت إلىٰ مكة وسافر ذلك الفتىٰ معي ، فلما وصلنا مكة شرفها الله تعالىٰ . . قال الفتىٰ : أُحب أن ألقىٰ أبا سعيد ، فلما جئنا إليه وسلمنا عليه . . قال ذلك الفتىٰ لأبي سعيد : مسألةٌ ـ ولم يحدثني أنه يريد أن يسأل ـ فقال له الشيخ : سل ، فقال : ما حقيقة التوكل ؟ فقال له الشيخ أبو سعيد : ألاَّ تأخذ الحجة من حمولا ، وكان ذلك الفتىٰ قد أخذ حجة من رجل اسمه حمولا رئيس نهاوند ، ولم أكن أشعر بذلك ، قال : فورد على الفتىٰ أمر عظيم وخجل ، فلما رأىٰ أبو سعيد ما حل به . . عطف عليه ، وقال له : ارجع إلىٰ مسألتك .

وكان أبو سعيد من المراقبين لله عز وجل ، كان يوماً في بادية الموصل ، فجاءه أسدان من ورائه ، فسمع حسهما ، فلم يلتفت إليهما ، فقربا منه ، وتعلقا به ، ولحسا خديه ، ونزلا عنه ، وهو لا ينظر إليهما ولا يلتفت .

وقال أبو سعيد رحمه الله : **حسنات الأبرار . . سيئات المقربين** .

وقال : إذا بكت أعين الخائفين . . فقد كاتبوا الله عز وجل بدموعهم .

وقال : العافية سترت البر والفاجر ، وإذا جاءت البلوىٰ . . تبين عندها الرجال .

وكان يقول : كان لي معلم يعلمني الخوف ثم ينصرف ، فقال لي يوماً : إني معلمك خوفاً يجمع لك كل شيء ، قلت : وما هو ؟ قال : مراقبة الله عز وجل في جميع الأحوال .

أسند أبو سعيد عن عبد الله بن إبراهيم ، وإبراهيم بن بشار ، وصحب بشر بن الحارث ، وسرياً السقطي ، وذا النون المصري ، وتوفي سنة سبع وتسعين ومئتين . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/٢٦٣ـ٢٦٤] .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري : قال أبو سعيد الخراز : رأيت إبليس في منامي وهو يمرُّ عني ويذهب ناحية ، فقلت له : تعال ، فقال : أيش أعمل بكم ؟ أنتم طرحتم عن أنفسكم ما أخادع به الناس ، فقلت له : وما هو ؟ فقال : الدنيا وعزها وجاهها ، فلما ولىٰ عني . . قال : غيرَ أن لي فيكم لطيفة ، قلت : ما هي ؟ قال : صحبة الأحداث .

وقيل لأبي القاسم الجنيد : إن أبا سعيد الخراز كان كثير التواجد عند الموت ، فقال :

ليس ذلك بعجب أن تطير روحه اشتياقاً إلى الله عز وجل [انتهىٰ « الرسالة القشيرية » ٣٨ و٢٣٦] .

قال صاحب « المناقب » : قال أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز : إن الله تعالىٰ عجل لأرواح أوليائه التلذذ بذِكره ، والوصول إلىٰ قربه ، وعجل لأبدانهم عظيم النعمة بما نالوه من عبادته سبحانه وتعالىٰ .

وسئل عن الأُنس : ما هو ؟ فقال : استبشار القلوب بذِكر مولاها ، وسرورها به ، وسيرُها إليه ، وأمنُها معه .

وسئل عن معنىٰ قول النبي صلى الله عليه وسلم : « جبلت القلوب علىٰ حب من أحسن إليها »[(١)] فقال : واعجباً لمَن لم ير محسناً غير الله عز وجل كيف لا يميل بكليته إليه ؟!

وقال : لولا أن الله عز وجل لطف بموسىٰ عليه الصلاة والسلام. . لأصابه ما أصاب الجبل .

وقال : كل باطن يخالفه ظاهر العلم. . فهو باطل ؛ لأن الله عز وجل جعل العلم طريقاً إليه ليُعرف .

وقال : إن المحب يتعلل إلىٰ محبوبه بكل شيء ، ولا يتسلىٰ عنه بشيء ، ويتبع آثاره ، ولا يدع استخباره .

وقال : إذا أراد الله أن يوالي عبداً من عبيده. . فتح عليه باب ذِكره ، فإذا استلذ بالذِّكر. . فتح عليه باب القرب ، ثم رفعه إلىٰ مجالس الأنس ، ثم رفع عنه الحجب . [انتهىٰ] .

وقال أبو القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ : قال رويم ـ رحمه الله ـ : حضرتُ وفاة أبي سعيد الخراز رحمه الله وهو يقول :

حنين قلوب العارفين إلى الذِّكر	وتذكارهم وقت المناجاة للسِّرِّ
أُديرت كؤوسٌ للمنايا عليهمُ	فأَغْفَوا عن الدنيا كإغفاءِ ذي السُّكْرِ
همومهمُ جوالة بمعسكر	به أهل وُدِّ الله كالأنجم الزُّهْرِ
فأجسامهم في الأرض قتلىٰ بحبه	وأرواحهم في قصد مطلوبهم تَسْري
فما غرسوا إلا بقرب حبيبهمْ	وما عرجوا من مَسِّ بؤس ولا ضُرِّ[(٢)]

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (١/ ٣٨١) .
(٢) الرسالة القشيرية (٢٣٦) .

وقال **السلمي** : قال أبو سعيد : إن الله عز وجل جعل العلم دليلاً عليه ليُعرف ، وجعل الحكمة رحمة منه سبحانه وتعالىٰ [لِيُؤْلَف] ، فالعلم دليل إلى الله ، والمعرفة دالة على الله ، فبالعلم تُنال المعلومات ، وبالمعرفة تنال المعروفات ، والمعرفة تقع بتعريف الحق جل جلاله ، والعلم يُدرَك بتعريف الخلق ، ثم تجري الفوائد بعد ذلك .

وقال : مَثَلُ النفس . . مَثَلُ ماء واقف طاهر صاف ، فإنْ حرَّكته . . ظهر ما تحته من الحمْأة[1] والتغير ، وكذا النفْس تظهر عند المحن والفاقة والمخالفة ، ثم قال : ومَن لم يعرف ما في نفسه ـ أو قال : يعرف نفسه ـ كيف يعرف ربه سبحانه وتعالىٰ ؟! انتهىٰ [« الطبقات » ٢٣٠ـ٢٣١] .

وقال في « **بهجة الأسرار** » : قال أبو سعيد : دخلت البصرة وجئت إلى الجامع ، فرأيت أبا حاتم العطار وهو يتكلم على الناس ، فسمعته يقول : إنما جلست لواحد ، وكيف لي بواحد ؟ ومِن أين لي بواحد ؟ ثم أومأ إلي فقال : اسمع أبا سعيد حتىٰ أقول ، وما كان عرفني قبل ذلك ، ولا رأيته .

وقال أبو سعيد : قرأت على الطوسي رحمه الله من كتاب لي ، فيه ظرائف ، كتبته بمكة ، ووجدته في كَنَفِ بعض أصحابنا ، فكان فيما عرضته على الطوسي : أن الله عز وجل ناجىٰ يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام ، فوصف له عبداً من عباده عز وجل ، فكان فيما وصف له أن قال له : (يا يحيىٰ ؛ امسح برأسه ، وضع يدك علىٰ ألمه ، فإنه لا يشكو إليَّ ألمه ؛ لأنه مشغول بذِكري ، وإنما يشكو إلي الألم إذا خرج من حقائق الذِّكر وإذا فقدني من قلبه ، فهناك يلتمس الغفلة بذِكري كما يتعلق الطير بوالديه ، فأنا عند ذلك جليسُ لُبِّهِ ، وقعيد عقله ، أطلع عليه في كل يوم ، فأجد قلبه يخفق من ذِكري ، فأقول له : ما بال قلبك يخفق ؟ ـ وأنا أعلم ـ فيقول : يا رب ؛ وعزتك وجلالك ؛ أنت أعلم ، يحقُّ لمَن عرفك أن لا يهدأ) .

قال أبو سعيد : فلما قرأت على الطوسي هـٰذا . . قلت : أبا جعفر ؛ ما تقول في هـٰذا ؟ فتبسم وقال : كأنك جئتني بشيء غريب ، قد أنعم الله عز وجل علىٰ عباده بِرَّه ، وأنزل عليهم كلامه ، فهـٰذا كله وأضعافه داخل فيما قلت في آية واحدة منه ، قلت : وما هي ؟ قال : قوله عز وجل : ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾ ، فتبارك اسمه ، وتعالىٰ في عظيم قدره ، أنعم على العباد

---

(١) **الحمْأة** : الطين الأَسود .

من نفسه أن يسموه الودود سبحانه وتعالىٰ ، فمتىٰ يدرك أهل السماوات والأرض معرفة معنى الودود ؟! فإن الأعمار تنقضي فيما دون ذلك ، والله أعلم .

وقال أبو القاسم بن مردان النهاوندي : كنت أنا وأبو بكر الوراق نمشي مع أبي سعيد الخراز علىٰ شاطىء البحر نحو صيدا ، فرأىٰ إنساناً من بعيد ، فقال : امكثوا عليَّ ؛ فإنه لا يخلو هـٰذا الإنسان من كونه ولياً لله عز وجل ، فما لبثنا أن جاء ؛ فإذا بفتىً شاب حسن الوجه ، عليه مرقعة ومعه ركوة ومحبرة ، فالتفت أبو سعيد منكراً عليه حمل المحبرة مع الركوة ، فقال له : يا بني ؛ كيف الطريق إلى الله سبحانه وتعالىٰ ؟ فقال له : يا أبا سعيد ؛ أنا أعرف إلى الله عز وجل طريقين : أحدهما خاص ، والآخر عام .

فأما العام : فالذي أنت عليه ، **وأما الخاص** : فهلم إلي ، ثم مشىٰ على الماء حتىٰ غاب عن أعيننا ، فبقي أبو سعيد متحيراً متفكراً باكياً حزيناً مما رأىٰ ، ناظراً في إثره ، متبعاً له بالدموع والأنين ، والحزن والحنين ، متعجباً من طِيب قلبه ، وصفاء لُبِّه ، ونحن كذلك معه ، فالتفت إلينا ، وقال : يا إخواني ؛ لا تنكروا المشي على الماء علىٰ ذي همة ؛ فإن الله تعالىٰ يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

قال أبو بكر الزقاق رحمه الله : سمعت أبا سعيد الخراز يقول : سمعت هاشماً المغازلي يقول : مَن عرف الله سبحانه وتعالىٰ حق معرفته . . عَبَده بكل جهده وطاقته ، وبذل المجهود من قلبه ؛ لعله يدرك بقلبه حق عبادته وإن لم يبلغها بقوة بدنه .

وقال : أسمع الناس يقولون في يوم العيد وغيره : تقبَّل الله منا ومنكم ، فقال : إن أكثر الناس يقولون هـٰذا بالغفلة وقلة الرعاية والمحاسبة ، وإلا . . فكيف يُمَكِّن العالمُ العارف العاقل بحدود الله عز وجل ، وعظيم خطرها ، والشروط فيها ، وما أمر الله سبحانه وتعالىٰ عباده من الصدق ، والإخلاص ، وتصفية الأعمال ، والعبد علىٰ يقين أنه عاجز عن القيام بذلك . . [أن] يقول : تقبل الله منا ومنك وهو لا يدري أعمله مرضي ، أم لا ؟!

وإنما ينبغي أن يسأل الله عز وجل العفو والتجاوز من التقصير اللازم ، والغفلة الغالبة ، وليس شيء أبلغ في طَرَف العفو من الاعتراف والإقرار بالعجز والذلة والافتقار ، مع بذل المجهود في الصدق والإخلاص ، بل يضع نفسه في أقل المواضع التي هو فيها ، حتىٰ يراه الله عز وجل عالماً متواضعاً ذليلاً فقيراً حقيراً ، فيرحمه بفضله وجوده ، إنه أرحم الراحمين .

وقال : مَن شهد صُنع الربوبية في إقامة العبودية . . فقد انقطع إلىٰ ربه عز وجل ، فحينئذٍ يسلم من الاستدراج .

وقال : الزهد ألاَّ يرغب قلبك في مفقود الدنيا ، ولا يسكن إلىٰ موجودها . انتهىٰ .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : قال أبو سعيد الخراز رحمه الله : إذا أراد الله سبحانه وتعالىٰ أن يوالي عبداً من عبيده . . فتح عليه باب ذِكره ، فإذا استلذ الذِّكرَ . . فتح له باب القرب ، ثم رفعه إلىٰ مجلس الأنس ، ثم أجلسه علىٰ كرسي التوحيد ، ثم سوَّاه علىٰ عرش الصفا ، ثم رفع عنه حجب الهوىٰ والنفس ، ثم أدخله دار الفردانية ، وكشف له عن الجلال والعظمة ، فإذا شاهد الجلال والعظمة . . فني عن نفسه ، وبقي بلا نفس ، ولا هوىٰ ، ولا إعراض ، زَمِناً فانياً ، فحينئذ يرتع في حفظ الله عز وجل وكلاءته ، فعلى اللهِ الكريم ـ تفضلاً وامتناناً ـ نصرته وصيانته وولايته ورعايته ، حضر أو غاب ، وهو يتولى الصالحين .

ألا ترىٰ أن الله سبحانه وتعالىٰ قال لعبده ورسوله محمد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وهو بعدُ في الغيب : ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ ، والمعنىٰ : أنتْ يا محمد لم تحضر في ذلك الوقت ، ولـٰكن لحرمة المحبة ورفيع منزلتك عندنا . . ذكرناك وبصَّرناك في الغيب ، كما ذكرناك وبصرناك في المشهد .

وأنشدوا في المعنىٰ :

عليَّ لإخواني رقيب من الصفا ... تبيد الليالي وهو ليس يَبِيدُ
تذكرتهم في مَغْيَبٍ ومشاهَدٍ ... فشتان عندي غُيَّبٌ وشهود
وإني لأستحيي أخي أن أَبَرَّه ... قريباً وأن أجفُوه وهْو بعيد

وقال : حقيقة المحبة تقطيع الفؤاد وتشتيت المراد ، واللهِ ؛ لولا أنه لطف بعبده موسىٰ عليه الصلاة والسلام . . لأصابه أعظم مما أصاب الجبل في حال التجلي .

وقال أيضاً : المحبة ألاَّ ترى الإحسان إلا من محبوبك ، ولا تطيع إلا مطلوبك .

ولهـٰذا قال صلى الله عليه وسلم : « جبلت القلوب علىٰ حب من أحسن إليها »[1] ، فواعجباً ممن لا يرىٰ محسناً إلا الله عز وجل! كيف لا يميل بالكلية إليه ، والمحب يجتهد في

---

(١) أخرجه القضاعي (١/ ٣٥٠) .

الوصول إلىٰ محبوبه بكل شيء ولا يتسلىٰ عنه بشيء ، ويتبع آثاره ولا يَدَع استخباره ، فلا يرىٰ كل الخير إلا منه ، ويتوكل في جميع أحواله عليه ؟!

وقال أبو سعيد : إن الله عز وجل عجل لأوليائه النعم بما نالوه ، والرضا بما عندهم من كل كائن ، وعجل لأرواحهم التلذذ بذِكره والوصول إلىٰ قربه سبحانه وتعالىٰ ، فعَيش أبدانهم عيش الروحانيين ، وعيش أرواحهم عَيش الربانيين ، فلهم لسان في الباطن يعرِّفهم صنع الصانع جل جلاله في المصنوع ، ولسان في الظاهر يعلِّمهم علم المخلوقين ، فلسان الظاهر ينبيء عن أجسامهم ، ولسان الباطن ينبيء عن أرواحهم .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو محمد عبدُ الله بن محمد النيسابوري
يعرف بالمُرْتَعِش
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان أبو محمد عبد الله المرتعش النيسابوري قد صحب الجنيد ، وأقام ببغداد في مسجد الشونيزية .

وكانوا يقولون : عجائب بغداد ثلاثة : إشارات الشبلي ، ونكت[1] المرتعش ، وحكايات جعفر الخواص[2] رحمهم الله .

ومن كلام أبي محمد المرتعش : مَن ظن أن أعماله تنجيه من النار أو تبلغه الرضوان . . فقد زَلَّ ، وجعل لنفسه وفعله خطراً ، ومَن اعتمد علىٰ فضل الله عز وجل وكرمه . . بلغه أقصىٰ منازل الرضوان .

وقيل له : إن فلاناً يمشي على الماء ، فقال : مخالفته لهواه أفضل من المشي على الماء .

توفي ببغداد سَنة ثمان وعشرين وثلاث مئة . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٢٧٩ـ٢٨٠] .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري : قال بعض العارفين : كنت ببغداد في منزلي يوماً ، فخطر لي أن أبا محمد المرتعش يأتيني بخمسة عشر درهماً حتىٰ أشتري بها ركوة وحبلاً ونعلاً ، قال : فلم يتم هـٰذا الخاطر . . إلا والباب يطرق ، فخرجت ؛ فإذا بأبي محمد المرتعش وبيده خرقة ، فقال : خذها ، فقلت : يا سيدي ؛ لا أريدها ، فقال : خذها ، كم

---

(١) النكتة : المسألة العلمية الدقيقة .

(٢) هو شيخ الصوفية أبو محمد جعفر بن محمد الخُلْدي البغدادي ، صحب أبا الحسين النوري ، والجنيد ، وأبا محمد الجريري ، وكان المرجع إليه في علوم القوم وكتبهم ، وحكاياتهم ، وسيرهم . توفي سنة ثمانٍ وأربعين وثلاث مئة ، وله خمس وتسعون سنة ، وقبره بالشونيزية . انظر « طبقات الصوفية » (٤٣٤) .

تؤذينا! كم كنت طلبت ؟ قلت : خمسة عشر درهماً ، قال : فإن فيها خمسة عشر درهماً .

وقال رجل للمرتعش : أوصني ، فقال : احفظ أوامر الله عز وجل ، واعمل بها ، وانته عما نهاك عنه ، واسأله سبحانه وتعالىٰ من فضله العظيم ، وحسن التوفيق . انتهىٰ [« الرسالة » ١٨٧] .

وقال في « المناقب » : قال أبو محمد المرتعش : سكون القلب إلىٰ غير الله عز وجل . . تعجيل عقوبة منه في الدنيا .

وقال له رجل : طال الليل ، فسكت ساعة ، ثم أنشأ يقول :

لسـت أدري أطـال ليلـيَ أم لا ... كيـف يـدري بـذاك مَـن يتقلّـىٰ

إن للمحبيـن عـن قصـر الليـ ... ـل وعن طوله من الوجد شغلا

لـو تفـرغـت لاستطـالـةِ ليلـي ... ولـرَعْـيِ النجـوم كنـت مُخِـلاً

قال : فبكىٰ مَن حضره ، واستدلوا بذلك علىٰ عمارة أوقاته .

وقال : قال أبو صالح : المسلم محبوب إلى الخلق ، والمؤمن غني عن الخلق . [انتهىٰ] .

وقال السلمي رحمه الله : قال أبو محمد المرتعش : سكون القلب إلىٰ غير الله عز وجل . . تعجيل عقوبة من الله عز وجل في الدنيا .

وسئل : بماذا ينال العبد حب الله عز وجل ؟ فقال : بأن يبغض ما أبغض الله عز وجل ، وهي الدنيا .

وقال له رجل : أي الأعمال أفضل ؟ فقال : رؤية فضل الله عز وجل في السراء والضراء ، والشدة والرخاء . [انتهىٰ] [« الطبقات » ٣٤٩ـ٣٥٢] . ه

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

الأستاذ أبو حفص الحدادُ النيسابوري
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : اسم أبي حفص النيسابوري : عمرو بن سلمة ، وهو من أهل قرية علىٰ باب نيسابور .

وقال أبو القاسم الجنيد وقد ذكر عنده أبو حفص : كان أبو حفص من أصحاب الحقائق ، ولو رأيتَه . . لاستغنيتَ ، وكان يتكلم من غور بعيد ، وكان من أهل العلم البالغين . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٨٠] .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : كان أبو حفص يوماً في حانوته ، وغلامه ينفخ في الكور علىٰ حديدة قد وضعها أبو حفص في النار ، فلما أضرمت تلك النار في الحديدة . . مد الشيخ يده إلى النار ، وأخرج تلك الحديدة ، فبردت في يده ، وهو في الغيبة لا يشعر بذلك ، فلما رأى الغلام ذلك . . صعق وخر مغشياً عليه ، فلما أفاق . . أحلفه الشيخ ألاَّ يذكر ذلك لأحد ما دام حياً ، فأحس الشيخ بالحال ، وترك الحرفة والحانوت . [انتهىٰ « الحلية » ١٠/ ٢٣٠] .

زاد في « لوامع أنوار القلوب » : أن أبا حفص كان يعمل ، فغاب فكره ، وذكر محبوبه جل جلاله في الباطن ، فغاب عن الحس البشري الظاهر ، ونسي أن يخرج الحديد من الكير بالكُلْبَتين[1] ، فأخرجه بيده ، فهَمَّ الغلام أن يطرق بين يديه على الحديد ، وناداه : يا أستاذ ؛ الحديد في يديك بلا كلبتين ، فرمىٰ به في الحال ، وخرج يسيح في البراري ، ويقول : مِن شرط المحبة . . التستر والكتمان ، لا الافتضاح والإعلان . انتهىٰ .

وقال أبو الفرج : قال بعض أصحاب أبي حفص : صحبت أبا حفص اثنتين وعشرين سَنة ، فما رأيته ذكر الله تعالىٰ في حال الغفلة والانبساط ، وإنما كان يذكر في حال الحضور

---

(١) **الكُلْبَتين** : أداة يأخذ بها الحداد الحديد المحمىٰ .

والتعظيم والاحترام ، ثم يقول : ما أبعد ذِكرنا عن ذكر المتحققين! ما أظن أن مَن ذكر الله تعالىٰ في حال الحضور ورعاية الحرمة يبقىٰ بعد ذِكره حياً إلا الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ؛ فإنهم مؤيَّدون بقوة النبوة ، وخواص الأولياء ؛ فإنهم مؤيدون بقوة الولاية .

وقال أبو عبد الرحمـٰن السلمي : سمعت جدي يقول : كان أبو حفص إذا غضب. . تكلم في حسن الخلق حتىٰ يسكن غضبه ، ثم يرجع إلىٰ حديثه .

وقال أبو حفص : حرست قلبي عشرين سَنة ، ثم حرسني قلبي عشرين سنة ، ثم وردت حالة صرنا فيها محروسين جميعاً .

وكان يقول : كل مَن لم يزن أقواله وأفعاله في كل وقت بالسُّنة الشريفة ولم يتهم خواطره . . فلا نعده في ديوان الرجال .

وسئل : مَن الرجالُ ؟ فقال : الرجال : هم القائمون بوفاء العهود ، قال الله عز وجل : ﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ .

وسئل عن العبودية فقال : هو ترك ما لَك ، والتزام ما أُمرت به .

وقال أبو حفص : ما استحق اسم السخاء مَن ذكر العطاء ولا لمحه بقلبه ، وإنما يستحقه من نسيه حتىٰ كأنه لم يعط ، والله أعلم . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٨٠ـ٨١] .

وقال في « المختار » : سئل أبو حفص رحمه الله عن حسن الخلق فقال : هو ما اختاره الله عز وجل لنبيه سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم في قوله تعالىٰ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ .

وقيل : بماذا يقدم الفقير علىٰ ربه عز وجل سوىٰ بفقره ؟ فقال : وهل للعبد شيء يقدم به على الله سبحانه وتعالىٰ أحسن من الفقر وذل العبودية ؟!

وكان يقول : أعظم ما يُتوسل[1] به إلى الله عز وجل . . دوام الفقر في جميع الأحوال ، وملازمة السُّنة في كل الأفعال ، وطلب القوت من وجه حلال .

وقيل : لما دخل أبو حفص بغداد . . لقيه الجنيد ، فرأىٰ أصحابه وما هم عليه من الأدب

---

(١) في نسخة : (أعظم ما يُتوصل به إلى الله عز وجل . . المحافظة على الكتاب والسُّنة ، وملازمة الفقر والذلة ، وطلب القوت من الحلال) .

كأن علىٰ رؤوسهم الطير ، فقال له الجنيد : لقد أدبت أصحابك بآداب السلاطين ، فقال له أبو حفص : حسن أدب الظاهر عنوان الباطن ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لو خشع قلب هـٰذا . . لخشعت جوارحه »[1] . أو كما قال . انتهىٰ .

وقال **السلمي** ـ رحمه الله ـ : كان الأستاذ أبو حفص رحمه الله إذا ذكر الله عز وجل . . تغير عليه حاله ، حتىٰ كان يرىٰ ذلك جميع من حضره .

وقال أبو حفص : إذا رأيت ضوء الفقير في ثوبه[2] . . فلا تَرْجُ خيره ما دام علىٰ ذلك .

وقال : لما اجتمع المشايخ ببغداد عند أبي حفص . . سألوه عن الفتوَّة ، قال : تكلموا أنتم ؛ فإن لكم العبارة واللسان ، فقال الجنيد : الفتوة : إسقاط الرؤية ، وترك النسبة ، فقال أبو حفص : ما أحسن ما قلت! ثم سألوا أبا حفص فقال ـ بعد جهد ـ : الفتوة : أداء الإنصاف ، وترك مطالبة الإنصاف ، فأعجب جميع الحاضرين .

ولما أراد الخروج من بغداد . . شيعه جميع المشايخ وغيرهم ، فلما أرادوا الرجوع . . قال بعضهم : دلنا على الفتوة ، فقال : الفتوة تؤخذ استعمالاً ومعاملة لا نطقاً ، فاستحسنه الحاضرون .

وقال : الكرم : ترك الدنيا لمن يحتاج إليها ، والإقبال على الله سبحانه وتعالىٰ .

وقيل له : إن فلاناً يدور حول السماع ، فإذا سمع . . بكىٰ وهاج ، فقال : أيش يعمل ؟ إن الغريق يتعلق بكل شيء يظن فيه نجاتَه .

وقال : مَن تجرع كأس الشوق . . فإنه يهيم هياماً لا يفيق إلا عند المشاهدة واللقاء .

وقال : إذا رأيت المحب ساكتاً باهتاً هادئاً . . فاعلم أنه وردت عليه غفلة ؛ فإن المحب لا يهدأ ، بل يجزع في الدنو والبعد واللقاء والحجاب .

وسئل عن البخل فقال : ترك الإيثار عند الحاجة إليه .

وقال : الإيثار : أن تقدم حظوظ الإخوان علىٰ حظك .

ولما ورد أبو حفص على الجنيد رحمهما الله بغداد . . تكلف في خدمته ، فأنكر عليه ،

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٦٧٨٧) .

(٢) أي : إذا رأيت الفقير يتباهىٰ بثوبه الممزق . . فلا ترج فلاحه ؛ لأنه رضي بالأخس والدون ، فهو لا يحث نفسه علىٰ طلب الأفضل .

وقال : لو دخلتَ خراسان وأقمت بها بقية عمرك في داري . . لما تكلفت لك شيئاً ـ أو قال : يوماً ـ فقيل له في ذلك ، فقال : قدَّم إلىٰ أصحابي ألوان الطعام واللباس والطيب في كل يوم ، والتكلف منهي عنه ، فكان ينبغي إحضار ما كان بلا تكلف ، حتىٰ إن أصحابي إذا جعت . . جاعوا ، وإذا شبعت . . شبعوا ؛ حتىٰ يكون مقامهم وخروجهم عنده[1] سواء .

سئل [أبو حفص] عن آداب الفقر وآداب الفقراء في الصحبة فقال : حفظ حرمات المشايخ ، وحسن العشرة مع الإخوان ، والنصيحة والتعليم للأصاغر ، وترك صحبة كل مَن يقطع عن الله عز وجل ، وملازمة الإيثار ، ومجانبة الادخار ما لم يبلغ مبلغاً لا يضره من النظر إليه ، والمعاونة في أمر الدِّين والدنيا فيما لا بد منه .

وقال أبو حفص رحمه الله : لا تكن عبادتك لربك سبحانه وتعالىٰ سبباً لأن تكون معبوداً . [انتهىٰ « الطبقات » ١١٦ـ١٢٢] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال أبو عثمان الحِيري : خرجنا في جماعة إلىٰ أستاذنا أبي حفص خارج نيسابور ، فلما دخلنا عليه وجلسنا عنده . . أخذ الشيخ في الكلام ، فطابت أنفسنا ، فبينما نحن في تلك الحالة . . لم نشعر إلا وقد نزل أَيِّل[2] من الجبل ، فجاء ودخل وبرك بين يدي الشيخ ساعة طويلة ، والشيخ ينظر إليه ويبكي بكاء شديداً .

فلما سكن ما به . . أشار إلى الأيل بيده ، فلم نفهم ما أشار به إليه ، غير أن الأيل قام وذهب من حيث جاء ، فقال بعض الحاضرين للشيخ : يا أستاذ ؛ قد رأينا منك اليوم عجباً ، فبالله عليك إلا ما أخبرتنا به ، تكلمت ، ثم بكيت ، ثم أشرت إلى الأيل فذهب ؟! فقال : إني لما رأيت اجتماعكم حولي وقد تكلمت عليكم وطابت أنفسكم . . سرني ذلك ، ووقع في خاطري أنه لو كان عندي ما أشتري به كبشاً وأذبحه لكم وأطعمكم إياه . . لفعلت ، فلم يستقر هـٰذا الخاطر في ضميري . . إلا وقد نزل عندي هـٰذا الأيل من الجبل وبرك قدامي ، وأشار إلي بلسان الحال : لا تتمنَّ الدنيا لأجل أصحابك ، ها أنا قد جئت فاذبحني وقدمني لأصحابك ، فعند ذلك بكيت ؛ لأني خشيت أن يكون الله عز وجل قد عجل لي حظي في الدنيا ، فأبقىٰ في الآخرة فقيراً لا شيء لي ، فهـٰذا الذي أزعجني وأبكاني .

وسئل أبو حفص ـ قدس الله روحه ـ عن الولي ، فقال : مَن أُيد بالكرامات وغُيِّب عنها .

---

(١) في نسخة : (عندي) .
(٢) **الأَيِّل** : الوعل : وهو ذكر المعز الجبلي .

وقال : ما حصل لأحد حالة عالية . . إلا من ملازمة أصل صحيح . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٨١] .

وقد حكي أن أبا تراب النخشبي رحمه الله قال : قصدت زيارة الأستاذ أبي حفص ، فلما وافيت منزله . . استأذنت في الدخول ، فلم يأذن لي ، قال : فهممت أن أحفر حُفَيرة عند باب داره وأقعد فيها ، قال : فلم يتم هـٰذا الخاطر . . إلا وقد جاء أبو حفص ، وفتح الباب ، وقال لي : ادخل .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ :

رأيت في المنام يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شهر رمضان المعظم سنة خمس وستين وسبع مئة بعد الظهر كأن قائلاً يقول لي : غيبة الأستاذ أبي حفص النيسابوري رحمه الله مع الله عز وجل . . حضور .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري : حكي أن الأستاذ أبو حفص رحمه الله تعالىٰ أقام عشرين سَنة يعمل كل يوم بدينار ويتصدق به وهو صائم ، فإذا كان بعد المغرب . . سأل ما يفطر عليه .

توفي أبو حفص رحمه الله سَنة سبع وستين ومئتين ، والله أعلم . انتهىٰ [« الرسالة القشيرية » ٢١٥ و٢٨] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : اعلم : أنه قد يتوجه علىٰ فعل أبي حفص قدس الله روحه سؤال ، **فيقال** : ما وجه سؤال أبي حفص رحمه الله مع علمه بأن السؤال منهي عنه حيث لا ضرورة إليه ؟ وهلا ادخر شيئاً يفطر عليه وآثر بالباقي ؟ هـٰذا مع ما ينضم إليه من قوله صلى الله عليه وسلم : « أَحَلُّ ما أكل ابن آدم من كسب يده »(١) .

والجواب ـ وبالله التوفيق ـ من وجوه :

الوجه الأول : مَنْع ثبوت أنه كان سأل ، وعلىٰ هـٰذا فيندفع السؤال من أصله .

الوجه الثاني : سلَّمنا أنه سأل ، لـٰكن إنما وقع سؤاله في ابتداء أمره برهة من الدهر ، حيث لم يصل إلىٰ رتبة الكاملين في التوكل ، الذين لا يضرهم الادخار ، علىٰ ما سنذكره قريباً إن شاء الله عز وجل .

---

(١) أخرج الحاكم (٢/٥٣) : « إن من أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وولده من كسبه » .

وكل مَن روىٰ عنه أنه سأل . . فإنه قيد زمن السؤال بعشرين سنة ، ولا يُعرف أنه سأل بعد ذلك ؛ إذ لو وقع . . لنُقِل .

الوجه الثالث : هب أنه سأل في جميع عمره ، فسؤاله إنما وقع حال الضرورة ، حيث لا تحريم ولا كراهة ، وهو إما جائز أو واجب .

ويدل علىٰ ذلك أمور : أعظمها ـ وهو العمدة في ذلك ـ : ما رُوِّيناه في « الصحيحين » [خ ٩ ـ م ٣٥] وغيرهما ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رَسُول الله صلى الله عليه وسلم : « الإيمان بضع وسبعون شعبة ، أعلاها : شهادة أن لا إلـٰه إلا الله ، وأدناها : إماطة الأذىٰ عن الطريق » ، وقد اتفق العلماء رضي الله عنهم علىٰ أن إحدىٰ شعب الإيمان الزهد وقصر الأمل ، وأن الزهد لا يصح إلا بقصر الأمل .

وقد رُوِّينا عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : أخذ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي فقال : « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » ، وكان ابن عمر يقول : (إذا أصبحت . . فلا تنتظر المساء ، وإذا أمسيت . . فلا تنتظر الصباح ، وخذ من صحتك لسقمك ، ومن حياتك لموتك)[١] .

وعن ابن عمرو رضي الله عنهما قال : مَرَّ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خُصّاً لنا قد وَهىٰ ، فقال : « ما هـٰذا ؟ » فقلنا : خصٌّ لنا قد وَهىٰ نصلحه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « الأمر أعجل من ذلك »[٢] .

ورُوِّينا عن الحافظ أبي نعيم ـ رحمه الله ـ : بإسناده عن أنس بن مالك ، أن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ دخل علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : « كيف أصبحت يا معاذ ؟ » فقال : أصبحت بالله مؤمناً ، فقال : « إن لكل قول مصداقاً ، ولكل حق حقيقة ، فما مصداق ما تقول ؟ » قال : يا رسول الله ؛ ما أصبحت صباحاً قط . . إلا ظننت أني لا أمسي ، ولا أمسيت مساءً قط . . إلا ظننت أني لا أصبح ، ولا خطوت خطوة . . إلا ظننت أني لا أتبعها أخرىٰ ، وكأني أنظر إلىٰ كل أمة جاثيةً تدعىٰ إلىٰ كتابها ، معها نبيها وأوثانها التي كانت تَعبُد من دون الله ، وكأني أنظر إلىٰ عقوبة أهل النار وثواب أهل الجنة ، فقال صلى الله عليه وسلم : « قد عرفت ، فالزم » .

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٥٣) .

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٣٥) ، وابن حبان في « الإحسان » (٢٩٩٧) ، **والخصُّ** : بيت من شجر أو قصب .

فقد دلت هـٰذه الأحاديث وغيرها علىٰ أن قصر الأمل من الإيمان ، وأنه أصل للتعلق بالخيرات ، وأن إطالته غرور وخداع .

ولهـٰذا كان أبو ذر رضي الله عنه يقول : يا أيها الناس ؛ قتلكم حرص لا تدركونه أبداً ، قيل : وما هو يا أبا ذر ؟ قال : طول الأمل . ولا شك أن طول الأمل يمنع خير العمل ، وهو غرور وخداع ؛ لأنه ما من لحظة . . إلا ويمكن أن يكون فيها انقضاء أجله ، فالأحوط له الاستعداد لذلك ؛ لأنه إن احتُضِر قريباً كما يظن . . كان متأهباً للقدوم على الله سبحانه وتعالىٰ ، مقدماً ما يحتاج إليه في منقلبه ، وإن أمهل : فكلما ازداد مهلة . . ازداد قربة .

بخلاف ما إذا كان طويل الأمل ؛ فإنه إن احتُضِر قريباً لا كما يظن . . كان كمن غافصه[1] سفر لا يجد منه بداً ، وليس له زاد ولا راحلة ، وإن أمهل كما يظن . . فالتسويف قرينه ، فلا يزداد علىٰ طول الأمل[2] إلا حباً للدنيا .

ولهـٰذا إن السلف رضوان الله عليهم اتفقوا علىٰ أن طول الأمل يمنع خير العمل ، وقد دل علىٰ صحة قولهم الكتاب والسُّنة من حيث الإجمال ، ومَن تتبع أقوالهم وأحوالهم . . وجدها علىٰ ذلك ، ألا ترىٰ أنه كان يقال للحسن البصري رحمه الله : ألا تغسل قميصك ؟ فيقول : الأمر أعجل من ذلك . [انتهىٰ « الحلية » ١/٢٤٢] .

وقد قال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : حكي أن شقيقاً البلخي جاء إلىٰ أستاذ له يقال له أبو هاشم الرماني وفي طرف كسائه شيء مصرور ، فقال له أبو هاشم : ما هـٰذا ؟ قال : شيء أعطانيه أخ لي لأفطر عليه ، فقال له : يا شقيق ؛ وأنت تحدث نفسك أنك تبقىٰ إلى الليل ؟ لا كلمتك مدة[3] ، ثم أغلق الباب في وجهي ودخل . [« الإحياء » ٤/٤٥٤] .

وقال معروفٌ الكرخي رحمه الله لأبي توبة وقد حضرت صلاة الظهر : تقدم فصلِّ بنا ، فقال : إن صليت بكم هـٰذه الصلاة . . لا أصلي بكم الأخرىٰ ، فقال له معروف : وأنت تؤمل أن تعيش إلى الصلاة الأخرىٰ ؟ أعوذ بالله من طول الأمل ؛ فإنه يمنع خير العمل .

وقد اعتبر هـٰذا المعنىٰ جماعة من الأئمة ، ألا ترىٰ إلىٰ ما روي عن بعض العارفين أنه حُمل إليه كيس فيه دنانير كثيرة ، فلم يقبلها ، وقال : لا حاجة لي فيها ، فقيل له : تصدق

---

(١) غافصه : فاجأه وأخذه علىٰ غرة ، فتعرض للإساءة .
(٢) في نسخة : (الأيام) .
(٣) في « الإحياء » : (أبداً) .

بها ، فأخذها وتصدق بها في يومه ذلك ، فلما كان بعد المغرب . . وجدوه يسأل ما يفطر عليه ، فقيل له : هلا ادخرت منها شيئاً لأجل الفطر ؟ فقال : لم أعلم أني أعيش إلىٰ هـٰذا الوقت .

وقد قدَّمْنا أن حقيقة الزهد لا تصح إلا مع قصر الأمل ، فالزاهد قد جعل الموت نصب عينيه لا يغفل عنه لحظة ، فهو يبادر إلىٰ أعمال الطاعات ، ويسارع إلىٰ أنواع القربات ، فكأنه يصحب الدنيا بغير أمل ، ينتهب أوقاته نهباً ؛ لئلا تعطب أيام حياته .

إذا عُرف هـٰذا . . فِعل أبي حفص رحمه الله يحتمل أن يكون من هـٰذا القبيل ؛ فإنه حين يعمل بالدينار لا حاجة له به لكونه صائماً ، ولا يؤمل أن يعيش إلىٰ آخر النهار ، ولا يرىٰ أنه يجوز له حبسه عن مستحقه مع عدم احتياجه إليه حينئذ ، فيتصدق به لهـٰذا المعنىٰ ، وليحصل له مع ذلك الجمع بين العبادة القاصرة والمتعدية ، وهو في باقي نهاره مستغرق القلب بعبادة الله عز وجل ، حتىٰ إنه ينسىٰ نفسه ؛ فإنه ليس له هَمٌّ ولا مقصود إلا ابتغاء رضوان الله عز وجل ، فإذا جاء وقت الفطر . . رجعت إليه نفسه ، فأحس بها ، وطلبت ما به قوامها ؛ لِمَا علم مِن سُنة الله في ذلك : ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ ، فحينئذ يسأل قدر حاجته ، إما علىٰ طريق الإباحة إن لم يخش التلف ، أو علىٰ طريق الوجوب إن خاف التلف حفظاً لبقاء الروح ، ومِثل هـٰذا لا يُتمارىٰ في جوازه أو وجوبه ؛ لقيام الإجماع علىٰ جواز السؤال عند الحاجة وبقدر الحاجة .

هـٰذا مع ما ينضم إليه من الأسرار الشريفة والفوائد اللطيفة التي حصلت بالسؤال ، وسأذكرها قريباً إن شاء الله عز وجل .

وقد قال سفيان الثوري وغيره من الأئمة رحمهم الله : مَن جاع فلم يسأل ، فمات . . دخل النار .

ثم إن ذلك السؤال له ظاهر وباطن ، يُعبَّر عنه بالحقيقة والمجاز ، ويختلف الحال فيه باختلاف أحوال السائلين وباعتبار مراتبهم .

ـ **منهم** : مَن إذا نزلت به فاقة . . أنزلها بالله عز وجل ظاهراً وباطناً ، ولا يرىٰ أن يسأل أحداً من المخلوقين ، وإنما يوجه سؤاله إلى الله رب العالمين جلت عظمته ، وهـٰؤلاء قسمان :

منهم : مَن لا يسأل لنفسه أيضاً ، وإنما يسأل لغيره من باب الشفقة والعطف عليه ، أو لما يلزمه من أداء واجب قد تعين عليه .

ـ **ومنهم** : مَن يسأل لنفسه ولغيره ، ألا ترىٰ إلىٰ ما حكاه أبو الفيض ذو النون المصري رحمه الله حين قال له بعض من حضر : يا أبا الفيض ؛ أخبرنا عن بعض كرامات الأولياء رضوان الله عليهم ، فقال : كان عندي فتىً في المسجد بقي سبعة أيام في المسجد لم يطعم الطعام ، وكنت أعرض عليه فيأبىٰ ، فدخل ذات يوم سائل ، فطلب شيئاً ، فقال له الخراساني : لو قصدت الله عز وجل دون خلقه . . أغناك عنهم ، فقال له السائل : ما بلغت إلىٰ هـٰذه المرتبة ، فقال له الخراساني : أي شيء تريد ؟ فقال : ما يسد فاقتي ويستر عورتي ، فقام الخراساني إلى المحراب وصلىٰ ركعتين ، ثم أتاه بثوب جديد وطبق فيه طعام وفاكهة ، فدفعه إليه .

قال ذو النون : فقمت إليه ، وقلت له : يا عبد الله ؛ لك هـٰذه المنزلة عند الله عز وجل ، وأنت منذ سبعة أيام لم تطعم شيئاً ؟! فجثا علىٰ ركبتيه ، ثم قال : يا أبا الفيض ؛ كيف تنبسط الألسن بالمسألة والقلوب ممتلئة بأنوار الرضىٰ عنه سبحانه وتعالىٰ ؟!

قال ذو النون : فقلت : يا عبد الله ؛ والراضون لا يسألون شيئاً ؟ فقال : منهم مَن يسأل مِن باب الإدلال ، ومنهم من يملؤه غنىً به ، ومنهم من تُستخرج المسألة منه من عطفه علىٰ غيره .

قال أبو الفيض ذو النون : ثم أقيمت الصلاة ، فصلىٰ معنا العشاء الآخرة ، وأخذ ركوته وخرج من المسجد كأنه يريد الطهارة ، فلم أره بعد ذلك .

ـ **ومنهم** : من يوجه سؤاله في الظاهر إلى المخلوقين ، وسؤاله في الحقيقة إنما هو من الله رب العالمين ، ألا ترىٰ إلىٰ ما حكاه الأئمة عن الإمام أبي بكر الشبلي ، أنه كان يقول : إذا خرجت إلى الناس للسؤال . . فلا تراهم ولا ترىٰ نفسك .

يشير بهـٰذا إلىٰ أنه إنما يأخذ من الحق جل جلاله ، فلا يرى الناس ولا يرىٰ نفسه ؛ إذ سؤاله لله وأخذه من[1] الله .

ولهـٰذا كان الشيخ أبو العباس النهاوندي وممشاذ[2] إذا وفد عليهما الغرباء . . دخلا السوق وجمعا من الأطعمة ما يفتح الله عز وجل وحملاها إليهم .

وكان النهاوندي يقول : منذ عشرين سَنة ما أخذت من الناس شيئاً ، وذلك لأن الفقير

---

(١) في نسخة : (بسنة الله) .
(٢) في نسخة : (ممشاد) .

لا يسأل إلا عند الضرورة من غير عزم تقدم ولا عقد تأخر ، لسانه يشير إلى الخلق ، وقلبه متعلق بالحق سبحانه وتعالىٰ ، فلا يرى الأخذ إلا منه ـ واعتقاد كل المؤمنين ذلك ـ وإنما العارف جعل اعتقاده عملاً ، وهو المطلوب .

ـ **ومنهم** : مَن يعلل الأخذ من الناس بمسلك آخر ، صرح به غير واحد من العارفين ، علىٰ ما حكاه حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : عن بعض المجاورين بمكة قال : كان عندي دراهم أعددتها للإنفاق في سبيل الله ، فسمعت فقيراً قد فرغ من طوافه وهو يقول بصوت خفي : جائع كما ترىٰ ، عريان كما ترىٰ ، فما ترىٰ فيما ترىٰ يا من يَرىٰ ولا يُرىٰ ؟ فنظرت ؛ فإذا عليه خلقان لا تكاد تواريه ، فقلت في نفسي : لا أجد لدراهمي موضعاً أحسن من هـٰذا ، فحملتها إليه ، فنظر إليها ، ثم أخذ منها خمسة دراهم ، فقال : أربعة ثمن مئزرين ، ودرهم أنفقه ، ولا حاجة لي في الباقي ، فرده .

قال : فرأيته في الليلة الثانية وعليه مئزران جديدان ، فهجس في نفسي منه شيء ، فالتفت إلي ، وأخذ بيدي ، وأطافني معه أسبوعاً ، كل شوط منها في جوهر من معادن الأرض يتخشخش تحت أقدامنا ، منه ذهب وفضة وياقوت وزبرجد ، وغيرنا من الطائفين معنا لا يشاهد ذلك ، فقال لي : كل هـٰذا قد أعطانيه الله عز وجل ، فزهدنا فيه ، ونأخذ من أيدي الناس ؛ لأن هـٰذه أثقال وفتنة ، وذاك للعباد فيه رحمة ونعمة ، ثم فارقني ، فلم أره بعد ذلك[1] .

ولا شك أن أحوال العارفين ومقاصدهم غامضة لطيفة ، ولهم في جميع ذلك نيات شريفة :

منها : مراعاتهم الأسباب التي شرعها الله عز وجل وأمر بتعاطيها ، فهم يأتون بها امتثالاً للأمر ، مع ما فيه من إظهار الفاقة ، وما في عدم تعاطيها من استشعار الغنية عنها ، ولئلا يعطلوا حكمة الله سبحانه وتعالىٰ في مشروعية الأسباب .

ألا ترىٰ إلىٰ ما روي عن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن رجلاً من قومه أصابه مرض ، فوصف له دواء ، فقال : لا أتداوىٰ بهـٰذا ، فأوحى الله عز وجل إلىٰ ذلك النبي عليه الصلاة والسلام : (وعزتي وجلالي ؛ لئن لم يَتَداوَ بما وُصِف له . . لا أبرئه من الداء الذي هو فيه ، أيريد أن يعطل حكمتي في منافع الأشياء ؟!) .

---

(١) الإحياء (٤/٢٠٩) .

وهٰذا معنىً صحيحٌ يشهد لاعتباره الكتاب والسُّنة ؛ فإن تعاطي الأسباب أمر مطلوب ، بل فيها ما هو فرض ، وهو لا ينافي التوكل ، بل هو درجة الكاملين فيه .

والله سبحانه قد تعبد عباده بالتوكل والكسب جميعاً ، فتعاطي الأسباب كما قلنا مأمور به ، إنما المحذور النظر إليها وكونها مؤثرة ، وهٰذه مسألة غامضة لطيفة سأعود إليها قريباً إن شاء الله عز وجل ؛ فإنها تحتاج إلىٰ مزيد بسط وتحرير .

ومنها : مع كونهم يراعون الأسباب ، فقد يتوجه نظرهم إلىٰ رعاية أمور أخرىٰ هي أغمض وأدق من الأُوَلِ :

ـ **فمنها** : ما حكيناه عن بعض العارفين ، أنه صرح به ؛ فإنه لما أخذ من أيدي الخلق ولم يأخذ مما أكرمه الله سبحانه به . . علل ذلك بأن هٰذه أثقال وفتنة ، وذاك للعباد فيه رحمة ونعمة .

ـ **ومنها** : ـ وهو مشرب جميع العارفين ـ : أن الدنيا في نفسها حقيرة لا تزن عند الله جناح بعوضة ، وهم قد زهدوا فيها ، فيستحيون من الله عز وجل أن يقع لهم سؤال في شيء منها ؛ إذ كان جميعها لا يساوي جناح بعوضة ، مع كونهم قد زهدوا فيها ، فلذلك كان سؤالهم من المخلوقين ، ولا يتجاسرون أن يسألوا رب العالمين جل جلاله ؛ حياء منه ، ألا ترىٰ إلىٰ ما روي عن يحيى بن معاذ الرازي أن بنتاً له صغيرة قالت له يوماً : يا أبت ؛ إني جائعة ، فقال : يا بنية ؛ سلي اللهَ سبحانه وتعالىٰ . . يُطعِمْكِ ، فقالت : يا أبت ؛ أمَا يستحي العبد من ربه عز وجل أن يسأله في شيء للأكل ؟!

وقد قال العارفون : إن الله سبحانه وتعالىٰ يقول للزاهد في الدنيا : (يا عبدي ؛ أمَّا زهدك في الدنيا : فقد تعجلت به الراحة لنفسك ، وهل كنت تملك منها شيئاً حتىٰ تزهد فيه ؟! وما قدر الدنيا ؟!) فيقول : يا ربي ؛ إنها لا تساوي جناح بعوضة ، فعند ذلك يلحق العبد من الحياء الشديد ما يستحي أن يرفع رأسه ، ويقول : يا رب ؛ زهدت فيما لا يزن جناح بعوضة .

فالعارفون شهدوا حقارتها فأنزلوها منزلتها ، فإذا احتاجوا إلىٰ غرض منها . . وجهوا سؤالهم في الظاهر إلى المخلوقين ، ولهم في ذلك من المقاصد الصالحة ما قد يخفىٰ وما لا يخفىٰ .

الوجه الرابع : **اعلم** : أنه إذا صح التوكل . . لا يضر معه الادخار ، وقبل الوصول إلىٰ هٰذه المرتبة قد يضر معه الادخار .

وهٰذا معنىٰ صحيح معتبر ، ومَن تتبع السنة الشريفة وأحوال الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين . . وجدها دالة علىٰ ذلك .

ألا ترىٰ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدخر قوت سَنة ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم سيد المتوكلين ، ورأس الزاهدين ، وإمام المتقين ، وما أُرسِل إلا رحمة للعالمين ، فهو لكمال رتبته ، ورفيع منزلته لا ينقص ادخاره من توكله مثقال ذرة ، ولا أكثر من ذلك ولا أقل ، بخلاف أمته ؛ فإنهم متفاوتون بحسَب مراتبهم ، علىٰ ما سيأتي بيانه إن شاء الله عز وجل .

ولهٰذا : إنه صلى الله عليه وسلم نهىٰ أم أيمن وغيرها عن الادخار ؛ خشية أن تنظر إليه ، فينقص توكلها ، فتتضرر به .

وقد صرح بهٰذا المعنىٰ ؛ فإنه قال صلى الله عليه وسلم لبلال : « أنفق بلالاً ولا تخش من ذي العرش إقلالاً »[١] .

و[قال له أيضاً] : « إذا سُئلت . . فلا تمنع ، وإذا أُعطِيت . . فلا تخبأ » ، فقال : كيف لي بذاك يا رسول الله ؟ قال : « هو ذاك أو النار »[٢] .

والمعنىٰ فيه ـ والله أعلم ـ : ليكن نظرك واعتمادك إلى الله عز وجل لا إلىٰ ما تدخره ؛ فإنه ليس بمغْنٍ عنك شيئاً .

وحاصل هٰذا الدليل مع سائر الأدلة ـ لمن يَتَّبَّعُها ـ راجع إلىٰ جواز الادخار ، والنهي عنه ، والجمع بينهما بطرق :

منها : ما تقدم ، وهو : أن الادخار قد يضر وقد لا يضر .

ومنها ـ مع مراعاة هٰذا المعنىٰ ـ : فهو أن مقامه الشريف ومنصبَه العليَّ صلى الله عليه وسلم التشريعُ لأمته ، فادَّخَرَ ونهىٰ ؛ لئلا تُحْرَجَ أمته ويأخذَ كل منهم مشربه ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم كما أخبر الله عز وجل عنه في كتابه الكريم فقال : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١/ ٣٤٠) .

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١/ ٣٤١) .

رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ . . فهو ـ لما فيه من كمال شفقته وعظيم رحمته ورأفته بأمته ـ عرف أن فيهم القوي والضعيف ، ومن يضره الادخار ومن لا يضره ، وأن صواب الضعيف ادخار حاجته ، وأما القوي : فإن وصل إلىٰ رتبة الكاملين في التوكل . . فيدخر ؛ لأنه لا يضره ؛ لعدم نظره إليه ، وإلا . . فلا يدخر ؛ خشية أن تسكن نفسه إليه .

فالمعتبر : رعاية ما فيه صلاح القلوب ، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم : « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت . . صلح الجسد كله ، وإذا فسدت . . فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب »[1] .

وإنما خَصَّ القلبَ بالذكر ؛ لأنه قانون الصلاح والفساد ، فلذلك اعتبر رعاية ما فيه صلاح قلوبهم ؛ لتتجرد لذِكر الله سبحانه وتعالىٰ ، وتقوم بما يجب عليها من عبادته وحقِّ طاعته .

ومراتب العباد في ذلك متفاوتة ، فرُبَّ شخص يشغله عدمه ، ورُبَّ شخص يشغله وجوده ، ورب شخص لا يشغله الغنىٰ ولا الفقر .

وقد عُلِم أن المحذور كل ما يَشْغَل عن الله عز وجل ، وإلا . . فالدنيا لِعَينها ليست محذورة لا وجوداً ولا عدماً ، إنما المحذور هو ما يشغل عن الله سبحانه وتعالىٰ .

ولهٰذا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بُعث إلىٰ أصناف الخلق . . كان فيهم التجار والمحترفون وغيرهم ، فلم يأمر التاجر بترك تجارته ، ولا المحترف بترك حرفته ، ولا أمر التارك لهما بالاشتغال بهما ، بل دَعَا الكل إلى الله سبحانه وتعالىٰ ، وأرشدهم إلىٰ ما فيه فوزهم ونجاتهم في انصراف قلوبهم عن الدنيا .

وعمدة الاشتغال بالله سبحانه والتوجه إلىٰ طاعته . . إنما هو القلب ، فلذلك ـ والله أعلم ـ سَنَّ لهم الادخار وعدم الادخار ؛ فإن الجميع شرعٌ واسع .

ولهٰذا : كان الصحابة والتابعون فمَن بعدَهم الغالب عليهم الادخار ، ومنهم مَن لم يدخر ، ومنهم مَن اختلف حاله في الادخار وعدمه ، مع تمسك جميعهم بالسُّنة الشريفة ، واقتفاء آثارها ، وتتبعها أشد التتبع ، ومَن نظر في سيرهم وأحوالهم . . وجد مِن ذلك شيئاً كثيراً ، ولولا خوف الإطالة . . لذكرت ذلك .

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢) ، ومسلم (١٥٩٩) .

وملخَّص هٰذا : أن المعتبرَ رعايةُ ما فيه صلاح القلب ، فحيث وجد . . وجب سلوكه إذا عضده الدليل الشرعي .

فإن قلت : هٰذا المعنى الذي ذكرته مِن أنه إذا صح التوكل لا يضر معه الادخار . . غريب لم نره في كلام أحد من الأئمة .

قلت : إن الشريعة كالبحر ، تعطي كل ساعة جواهر ، وقد دللنا علىٰ صحة هٰذا المعنىٰ مما تقدم من ادخاره صلى الله عليه وسلم ونهيه عنه ، وذكرنا أن هٰذا المعنىٰ يحتمل أن يكون أحد طرق الجمع .

وأما الأئمة المصرحون بذلك : فإنه قد رُوِّينا عن الحافظ أبي نعيم ـ قدس الله روحه ـ قال : زار فتحُ بن سعيد الموصلي قدس الله روحه بشرَ بن الحارث رحمه الله ، فأحضر له طعاماً ، فأكل منه وحمل الباقي معه ، فلما خرج فتح . . قال بشر لأصحابه : أتدرون لِمَ حمل فتح الباقي معه ؟ قالوا : لا ، قال : إنما حمله ليعرفنا أنه إذا صح التوكل . . لا يضر معه الادخار .

وكأن السر في ذلك ـ والله أعلم ـ : أن قوة الإيمان وكماله يمنعان من النظر في جميع الأشياء ، إلىٰ غير الله عز وجل .

ألا ترىٰ إلىٰ ما روي عن خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال : ما نظرت إلىٰ شيء . . إلا نظرت إلى الله عز وجل قبله .

وإذا كان العارف إنما نظره في جميع الأشياء إلى الله سبحانه وتعالىٰ . . فهو مشغول بالله سبحانه وتعالىٰ وقلبه ساكن إليه ، فلو كانت الدنيا كلها في يديه . . لما لمحها ولا نظر إليها ، كما كان حال الصحابة رضوان الله عليهم ، الدنيا في أيديهم دون قلوبهم ، فإن قلوبهم إنما كانت مشغولة بالله تعالىٰ ، فهم لا ينظرونها ولا يلمحونها ، بل ولا تمر لهم علىٰ بال ، فلذلك كان الادخار لا يضرهم .

وعلىٰ هٰذا مضىٰ بعض السلف ؛ فإن الغالب عليهم كان الادخار ؛ لعدم النظر إليه وانتفاء الضرر به ؛ لأن نظرهم إلىٰ ولي النعم لا إلى النعم ، وتعلقهم بمسبب الأسباب لا بالأسباب .

ألا ترىٰ إلىٰ قول غير واحد من العارفين : تعلَّق الناس بالأسباب ، وتعلَّق الصديقون بمسبب الأسباب ؛ لكونهم ينظرون إلىٰ ولي العطاء لا إلى العطاء .

وقد سئل بعضهم فقيل له : أي شيء أصح ما في الصلاة ؟ فقال : صحة القصد ، فقيل له : بل رؤية المقصود بها جل جلاله أتم وأصح .

إذا عرفت ذلك . . فأبو حفص رحمه الله يجوز أن يكون قد لمح هـٰذا المعنىٰ ، وهو أنه لم يكن صح له التوكل في ابتداء أمره ، فلم يدخر ؛ لئلا يتضرر بالادخار ، كأنه خشي أن يَنظُرَ إليه أو تسكن نفسه إليه ، ويدل علىٰ أن مقصوده كان هـٰذا : أن سؤاله إنما وقع برهة من الدهر ، يحتمل أن يكون في ابتداء أمره حيث لم يصل إلىٰ رتبة الكاملين في التوكل ، وهم الذين لا يضرهم الادخار ، فلم ير أنه صح له التوكل بعد ، فلم يدخر لأجل ذلك ، ويحتمل أن يكون وصل إلىٰ هـٰذه المرتبة ، ويكون له في عدم الادخار مشرب آخر ، وهو أنه لا يرىٰ أن ينزل نفسه هـٰذه المنزلة .

وهكذا شأن العارفين ، يبلغون في الدرجات إلىٰ أقصاها ، ومع ذلك فيهضمون أنفسهم ، ويتهمونها في استحقاق ذلك ، ويحتقرونها ، ولا يرضون عنها ولا طرفة عين .

ألا ترىٰ إلىٰ ما رُوِّيناه عن الحافظ البيهقي ـ قدس الله روحه ـ : أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال : قد وُلِّيت أمرَكم ولست بأَخْيَرِكم ، فقال الحسن البصري : هو والله خيرهم غير مدافع ، ولـٰكن المؤمن يهضم نفسه . [انتهىٰ « السنن الكبرىٰ » ٦/٣٥٣] .

وقد حكىٰ غير واحد من الحفاظ : أن سرياً السقطي رحمه الله كان يقول لأبي القاسم الجنيد قدس الله روحه : تكلم على الناس ، قال الجنيد : وكنت أجد في نفسي حشمة عن الكلام على الناس وأتهمها في استحقاق ذلك ، حتىٰ رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام ، وأمرني بالكلام على الناس .

والظاهر ـ والله أعلم ـ أن قصد أبي حفص رحمه الله كان هـٰذا ، يدل علىٰ ذلك ما تقدم في ترجمته في أنه كان لا يذكر الله عز وجل في حال الغفلة والانبساط ، وإنما كان يذكره في حال الحضور والتعظيم والاحترام ، ثم إذا فرغ من الذِّكر علىٰ هـٰذا الوجه . . يقول : ما أبعد ذِكرنا عن ذِكر المتحققين! ما أظن أن مَن ذَكر الله عز وجل في حال الحضور ورعاية الحرمة يبقىٰ بعد ذِكره حياً إلا الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ؛ فإنهم مؤيدون بقوة النبوة ، وخواص الأولياء ؛ فإنهم مؤيدون بقوة الولاية .

ومَن نظر في سير السلف رضوان الله عليهم . . علم صحة ما ذكرناه . والله أعلم .

الوجه الخامس : يحتمل أن أبا حفص رحمه الله فعل ذلك من باب الإيثار علىٰ نفسه ؛

لعلمه بقوة صبره وتمكنه من مقامه ، ولا شك أن الإيثار مقام عالٍ شريفٌ ، وهو مِن المراتب التي يسعىٰ إليها المتقون ، ويجتهد في تحصيلها العارفون ، وكفىٰ بالإيثار لأهله مدحاً وفخاراً أن الله سبحانه وتعالىٰ أثنىٰ عليهم ووصفهم فقال : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ ، وسبب نزولها وفيمن نزلت . . ظاهر لا يخفىٰ .

وقد روي عن الصديقة بنت الصديق عائشة رضي الله عنهما : أنه جاءها في يوم مئة ألف درهم وكانت صائمة ، فتصدقت بها في يومها ذلك ، ولم تدخر درهماً تشتري به لحماً تفطر عليه ، وأفطرت على الخبز والزيت ، فلما قيل لها في ذلك . . اعتذرت بالنسيان .

فانظر إلى استغراق قلبها بالله تعالىٰ وتعظيم الطاعة لابتغاء رضوانه سبحانه حتىٰ نسيت نفسها .

ولقد رقعت درعاً لها في يوم تصدقت فيه بسبعين ألف درهم ، وما ذاك إلا لاستيلاء سلطان الهيبة والعظمة علىٰ قلبها لله عز وجل ، وكيف لا تكون كذلك وهي الصديقة بنت الصديق حبيبة حبيب الله سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم ؟!

ومَن تتبع أحوال السلف رضوان الله عليهم . . وجد مِن ذلك شيئاً كثيراً ، ومشاربهم في ذلك مختلفة بحسب ما وفقهم الله عز وجل وأعطاهم ، فمنهم : مَن كان الغالب عليه الادخار ، وهم الأكثرون كما مر ، ومنهم : مَن لم يدخر .

ومنهم : مَن كان الغالب عليه الإيثار ، ألا ترىٰ إلىٰ ما حكي عن إبراهيم بن أدهم رحمه الله أنه قال لشقيق البلخي رحمه الله حين اجتمعا في الطواف : كيف حال أصحابكم ؟ قال : إن رُزقوا . . أكلوا ، وإن مُنعوا . . صبروا ، فقال له إبراهيم : هٰكذا عندنا كلاب بلخ ، إن رزقوا . . أكلوا ، وإن منعوا . . صبروا ، فقال شقيق : يا أبا إسحاق ؛ فكيف حال أصحابكم ؟ فقال : إن رزقوا . . آثروا ، وإن منعوا . . شكروا وحمدوا ، فقام شقيق ، وجلس بين يديه ، وقال : يا أستاذ الأساتذة .

ومنهم : مَن كان يأخذ حاجته ، ثم يؤثر بما فضل عنه ، ألا ترىٰ إلىٰ ما روي عن أويس القرني رحمه الله أنه كان يأخذ حاجته ويتصدق بما فضل عنه من الطعام والثياب ، ثم يقول : اللهم ؛ مَن بات عرياناً . . فلا تؤاخذني به ، ومَن بات جائعاً . . فلا تؤاخذني به .

وهٰهنا لطيفة ينبغي أن يُتنبه لها ، وهي : أن ما ذكرناه من الإيثار وعدم الإيثار قبل أخذ

قدر الحاجة أولاً . . كل منهما له مقام عال رفيع ، ومع ذلك فلا يصح إطلاق القول بأن أحدهما أولىٰ من الآخر وأرفع منه ، بل في ذلك تفصيل من وجوه عُرفت بالأدلة الشرعية ، فلهـٰذا يجب الوقوف عندها ، وتلك التفاصيل إنما نشأت ؛ لاختلاف أحوال السالكين من القوة والضعف وغير ذلك .

ألا ترىٰ إلىٰ ما رُوِّيناه في « الصحيح » من حال سيدنا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه تصدق بجميع ماله ، فلما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أبقيت لأهلك ؟ » قال : أبقيت لهم اللهَ ورسولَه[1] .

وقد حكي عن بعض الأئمة الكبار أنه سأل الشبلي رحمه الله قال : ما الواجب في خمس من الإبل ؟ فقال : أما في واجب الشرع . . فشاة ، وأما عند إرادة الإيثار والعزوف عن الدنيا . . فكلُّها ، فقال له : هل لك في هـٰذا القول إمام ؟ قال : نعم ، وكيف أقول قولاً من عندي ؟! إمامي في هـٰذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه حيث تصدق بجميع ماله فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « ما أبقيت لأهلك ؟ » قال : أبقيت لهم الله ورسوله .

وقد قال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : إن الصدِّيق رضي الله عنه كان يطوي ستة أيام ويؤثر . [انتهىٰ « الإحياء » ٣/ ٩٠] .

وما ذاك إلا لعلو مرتبته ، ورفيع منزلته ، وكمال صديقيته ، مع كمال إيمانه وقوة صبره .

وقد قالوا : ينبغي للإنسان أن يتصدق علىٰ نفسه أولاً ، ثم يؤثر بما فضل عنه ، اللهم إلا أن يكون صبره كصبر أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فيؤثر علىٰ نفسه ، ولهـٰذا قالوا فيمن عليه دَين أو له عيال يلزمه نفقتهم : هل يُستَحَبُّ له التصدق بالفاضل عن الحاجة ؟ فيه أوجه ، **أصحها** : أنه إن كان ضعيفاً يشق عليه الصبر . . لم يُستَحَبَّ ، وإلا . . فيستحب .

ووراء ذلك أمر آخر ينبغي اعتباره وأن ينظر إليه : وهو حصول النية والإخلاص والصدق ، وقد استوفيت الكلام علىٰ ذلك فيما تقدم .

فينبغي أن يقال : وما وُجِدَ في ذلك أولىٰ مما لم يوجد فيه ، وما ذاك إلا لعزته في نفسه ، فقد يعز في وقت دون وقت ، وفي شخص دون شخص ، وذلك لأن مواهب الله عز وجل لأوليائه لا تتناهىٰ ، ولذلك اختلفت مراتب العارفين ، منهم مَن يغلب علىٰ قلبه حبُّ الله عز وجل وابتغاءُ رضوانه ، بحيث إنه يبقىٰ مستغرقاً لا يحس بنفسه ولا يشعر بما يبدو منه ، وهو

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٥٧٤) .

بمعزلٍ عن الخلق لا يحس بهم ولا يشعر بما هم فيه ، ويصير غرقاً في الله عز وجل ، كما كان حال غير واحد من العارفين بل أكثرهم .

واعلم : أن الغَيبةَ غَيبةٌ عن علمٍ ما يجري من أحوال الخلق بما يرد عليه من الحق جل جلاله ، ثم إنه قد يغيب عن غيره فقط ، وقد يغيب عن نفسه وغيره أيضاً إذا عظم الوارد ، ثم قد تطول الغيبة ، وقد تقصر ، فقد تدوم للعبد أفعال وأخلاق وأحوال ، فالأحوال تصرفاته الاختيارية ، والأخلاق طباعه الفطرية ، ولـٰكنها تتغير بتبديل العادة علىٰ مرور الأيام ، وأما الأحوال . . فإنها ترد على العبد ابتداءً ، وصفاؤها بحسب صلاح أعماله ، ومتىٰ فني العبد عن الأفعال والأخلاق والأحوال بزوال إحساسه عن ذلك . . فقد استولىٰ عليه سلطان الحقيقة ، فهو حاضر بالحق غائب عن نفسه وعن الخلق .

ومما يشهد بصحة دخول الغَيبة : قصة يوسف عليه الصلاة والسلام ؛ فإن النسوة قطعن أيديهن حين شاهدن جمال يوسف عليه الصلاة والسلام ، فإذا كانت مشاهدة جمال يوسف عليه الصلاة والسلام والاشتغال به غَيَّبهن عن الإحساس بألم القطع لفرط الدَّهَش والذهول بجمال مخلوق مثلهن ، مع أنهن أضعف من الرجال خلقاً ، وأقل من الرجال صبراً . . فكيف تكون غيبة من شاهد بقلبه ذا الجلال والإكرام وخالق السماوات والأرض جل جلاله ولا إلـٰه غيره ؟! لا جرم أنه يصير غرقاً بكليته في وجود الحق لغيبته عن كل ما سواه سبحانه وتعالىٰ ، وهـٰذا حال غير واحد من العارفين .

منهم : أبو بكر الشبلي رحمه الله ، فإن أبا القاسم الجنيد قال له يوماً : حرام عليك يا أبا بكر إن كلمت أحداً ؛ فإن الخلق غرقىٰ عن الله ، وأنت غرق في الله عز وجل .

وقد حكى الأستاذ أبو القاسم القشيري : أن شخصاً من أهل نَساء[1] قال : كنت طول مقامي بنساءَ ألازم مجلس الشيخ أبي علي الدقاق رحمه الله ، وكان كثيراً ما يذكر الحج ويحض عليه ، ثم اتفق أن الشيخ أبا علي خرج إلى الحج في تلك السَّنة ، وخرجت أيضاً إلى الحج ، فرأيت الشيخ أبا علي قد توضأ في الطريق يوماً ونسي قمقمة[2] كانت معه ، فحملتها إلىٰ منزله ، فلما رآني . . قال : جزاك الله خيراً حيث حملت هـٰذه إلىٰ هنا ، مَن أنت ؟ أظن أني رأيتك مرة ، قال : قلت : المستغاث بالله ، قد خرجت عن أهلي وبلادي في محبتك ،

---

(١) نَساء : مدينة بخراسان ، بينها وبين سَرْخس يومان ، وبين مرو خمسة أيام ، ويقال في النسبة إليها : نَسَوِيّ .

(٢) القمقمة : ما يسخن فيه الماء من نحاس وغيره .

وما زلت ملازماً مجلسك ، وأنت تقول : رأيتك مرة ؟! [انتهىٰ « الرسالة القشيرية » ٦٣] .

ومنهم أيضاً : الأستاذ أبو حفص رحمه الله كما مر بيان ذلك في أول ترجمته ، وهو أنه كان علىٰ حانوته ، فقرأ قارىء آية من كتاب الله عز وجل ، فورد علىٰ قلبه وارد تغافل عن إحساسه ، فأدخل يده في النار ، وأخرج الحديدة المحماة ، فرأىٰ تلميذ له ذلك ، فقال : يا أستاذ ؛ ما هـٰذا ؟! فنظر أبو حفص إلىٰ ما ظهر عليه ، فترك الحرفة وقام من حانوته .

قال الأئمة رحمهم الله : وما ذاك إلا لاستيلاء سلطان الهيبة والعظمة علىٰ قلبه ، حتىٰ صار غارقاً في الله عز وجل .

ومثل هـٰذا لا فرق عنده بين نفسه ونفس غيره ؛ لكونها صارت عنه أجنبية ، فما يلزمه في حق نفوس العالم . . يلزمه في حق نفسه ، بل الأولىٰ ، وهـٰذا مقام عزيز في الوجود .

ومنهم : مَن لا يغلب علىٰ قلبه ذلك ، وهـٰؤلاء علىٰ أقسام ، **منهم** : مَن يعامل نفسه بالشدة والقهر ؛ لقوتها ، ويعامل غيره بالشفقة والعطف ؛ لأنه يفرق بين نفسه ونفس غيره .

ومن ثَم اختلف الحال في الإيثار وعدمه ، كل ذلك محافظة على النية والإخلاص والصدق ، ويظهر ذلك بالمثال : فنقول : لو دفع رجل دراهم إلىٰ شخص ، وقال له : تصدق بهـٰذه على الفقراء لله عز وجل ، فخرج فوجد فقيراً فلم يعطه ، ثم خرج فوجد آخر فأعطاه ، فهـٰذا قد انتقل من ربه إلىٰ حظ نفسه ، وهـٰكذا العارف ، إذا وهبه الله تعالىٰ رزقاً يصرفه إلى النفوس الحيوانية . . فأول نفس تلقاه نفسه ، فليس له أن يتعداها إلىٰ غيرها ؛ لأن نفسه قد صارت عنه أجنبية ، فما يلزمه في حق نفوس العالم يلزمه في حق نفسه .

وإلىٰ هـٰذا السر اللطيف أشار الشرع بقوله صلى الله عليه وسلم : « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول ، والأقربون أولىٰ بالمعروف »[1] .

ففِعلُ الأستاذ أبي حفص رحمه الله قد يكون لشيء مما ذكرناه ، وقد يكون لمعنىً آخر غامض خفي علينا علمه ، وقد عُلم أن : **عدم العلم لا يدل على العدم ولا على الوجود** .

---

(١) أخرج البخاري (١٣٦٠) ، ومسلم (١٠٣٤) : « خير الصدقة . . ما كان عن ظهر غنىً ، وابدأ بمن تعول » . وأما « الأقربون أولىٰ بالمعروف » فقد قال في « كشف الخفاء » (١/١٨٣) : قال السخاوي : ما علمته بهـٰذا ، ولـٰكن قال صلى الله عليه وسلم لأبي طلحة : « أرىٰ أن تجعلها في الأقربين » كما رواه البخاري ، وفي التنزيل : ﴿ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ .

تَنبِيه

اعلم : أنه قد تلخص لنا أن العارفين قسمان :

منهم : مَن كان الغالب عليه الإيثار .

ومنهم : من كان الغالب عليه عدم الإيثار .

فأما المُؤْثِرون : فهم أيضاً علىٰ قسمين :

منهم : مَن له قوة وقدرة على الصبر ، فالأولىٰ في مثل مَن كان هـٰذا حاله . . الإيثار ، ويدل لذلك ما رُوِّيناه من حال أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

ومنهم : مَن ليس له قوة ولا قدرة على الصبر ، فالأولىٰ في حق مثل هـٰذا . . عدم الإيثار ، بل يتصدق علىٰ نفسه أولاً ، ثم يؤثر بما فضل عنه .

وأما غير المؤثرين : فهم أيضاً علىٰ قسمين :

منهم : مَن قد تمكن في مقامه إلىٰ أن صارت نفسه عنه أجنبية ، لا يفرق بينها وبين نفوس العالم ، فمثل هـٰذا يتصدق علىٰ نفسه أولاً ، ثم يؤثر بما فضل عنه أولىٰ ؛ لأن ما يلزمه في حق نفوس العالم يلزمه في حق نفسه ، وبل أولىٰ .

ومنهم : مَن لم يصل إلىٰ هـٰذه المرتبة ، وهـٰذا له حالان : تارة يكون قوياً على الصبر ، فالإيثار في حقه أولىٰ ، وتارة : لا يقوىٰ على الصبر ، فعدم الإيثار في حق مثل هـٰذا أولىٰ ، والله عز وجل أعلم .

وأما ما في سؤاله من اللطائف . . فأمور :

منها ـ وهو أهمها ـ : كسر النفس ، والوقوف عند ذلتها وحقارتها ، وتنزيلها منزلتها إعطاءً للعبودية حقها ، وهـٰذا باب واسع ، أَكثَرَ الأئمة مِنِ استعمالهم له حالاً ومقالاً ، وهو غامض عزيز قَلَّ مَن يقدر عليه ؛ إذ لا شيء على النفس أصعب من الذلة والانكسار ، لا سيما في السؤال ، والنفس ما لم تنكسر لا تظفر بمراد أصلاً .

ألا ترىٰ إلىٰ ما روي عن أبي يزيد البسطامي رحمه الله أنه قال : نوديت في سِرِّي : خزائننا مملوءة من الخَدَمة ، فإن أردتنا . . فعليك بالذلة والافتقار .

وقد روى الحافظ أبو القاسم ابن عساكر ـ رحمه الله ـ عن الإمام أبي الحسين بندار بن الحسين الشيرازي قدس الله روحه أنه قال : أول ما دخلت على الشبلي كان معي بضاعة بنحو

أربعين ألف دينار ، قال : فنظر الشبلي في المرآة ، وقال : يا أبا الحسين ؛ المرآة تقول : إنَّ ثَمَّ سبب ، فقلت : صدقت المرآة ، وحملت إليه ست بدر ، ولم يزل كذلك ، كلما اجتمع عندي من البضاعة شيء . . يقول : المرآة تقول : إنَّ ثَمَّ سبباً ، وأنا أحمل إليه إلىٰ أن لم يبق معي شيء .

قال : فنظر في المرآة وقال : المرآة تقول : ليس ثَمَّ سبب ، قلت : صدقت المرآة ، وكانت المرآة على الحقيقة قلبَه .

وكان الشبلي يكثر من النظر في المرآة ، فسئل عن ذلك ، فقال : بيني وبين الله سبحانه وتعالىٰ عهدٌ ، إن ملت عنه . . عاقبني ، وأنا أنظر كل ساعة في المرآة هل اسودَّ وجهي .

فلما لم يبق للإمام بندار شيء . . قال له الشبلي : اخرج الآن من الجاه ، فجعل يدور علىٰ معارفه يكدي[1] ، فكان بعضهم يقول : مسكين ، وبعضهم يقول : مجنون .

قال بندار : فما كان شيء أصعب علي من الخروج من الجاه ، والرَّجُل كل الرَّجُل مَن طُهِّر من مراءاة الخلق ، مع كسر النفس ومعرفة ذلتها وحقارتها لتحقيق العبودية .

وقد قدمنا أن العارفين قالوا : لا مقام أعلىٰ من العبودية ، فسؤال أبي حفص قدس الله روحه قد يكون لتحقيق هـٰذا المقام .

ومنها : أنه يحتمل أن يكون قصدُ أبي حفص رحمه الله بالسؤال . . الشفقة علىٰ خلق الله تعالىٰ ؛ لِمَا يحصل لهم في أخذه منهم من جزيل ثواب وعظيم عطاء ؛ لأنه يعطيهم الباقي ويأخذ منهم الفاني .

ألا ترىٰ إلىٰ قول أبي القاسم الجنيد رحمه الله لما قيل له : إن فلاناً يسأل ، فقال : مه ، إنما سأل ليُعطيَهم لا ليأخذ منهم . إشارة إلىٰ ما ذكرناه .

وقد قال العارفون : إن من بعض أرباب الأحوال مَن يغلب عليه حاله فيقتضي [عند ذلك] أن يكون السؤال سبباً في زيادة درجته ، ولـٰكن بالإضافة إلىٰ حاله ؛ فإن الأعمال بالنيات ، ولا شك أن الولي حركاته كلها بالله سبحانه وتعالىٰ ، فأحواله لا يطلع عليها إلا الذي أعطاه إياها ، ووفقه لها ، وهو الله رب العالمين جلت عظمته .

وقد ثبت في « الصحيح » [خ ٦١٣٧] بقول الله تبارك وتعالىٰ : (لا يزال عبدي يتقرب إلي

---

(١) يكدي : يُلحُّ في المسألة .

بالنوافل . . .) الحديث ، فقد يكون ممن أذن له في السؤال لمرتبة يصل إليها به ، وقد يكون ليُرحم بغيره أو يُرحم به غيره فالشفقة علىٰ خلق الله سبحانه وتعالىٰ من شأن العارفين ، ومَن تتبع أحوالهم وأقوالهم . . وجد من ذلك شيئاً كثيراً .

ألا ترىٰ إلىٰ ما روي عن زهير بن نعيم البابي رحمه الله أنه قال : وددت أن لحمي قرض بالمقاريض ، وأن الخلق ما عصوا الله تعالىٰ .

قال ابن الجلاء وقد سئل عن معنىٰ هٰذا الكلام فقال : هٰذا له معنيان :

أحدهما : إرادة الشفقة علىٰ خلق الله سبحانه وتعالىٰ .

والثاني : ـ وهو الأظهر ـ : أن مراده تعظيم جانب الربوبية عن أن يعصىٰ ، ثم قال : وهٰذا ليس من مشربي .

وقد حكي عن الشبلي رحمه الله أنه قال : لو كان لي في القيامة أمر مطاع . . لسألت الله عز وجل أن يملأ جهنم مني وحدي ، حتىٰ لا يكون فيها متسع لغيري ؛ لأتحمل عذاب الخلق وأفدي بعض أمة محمد صلى الله عليه وسلم ثم أنشد :

تشكَّى المحبون الصبابةَ ليتني ... تحملت ما يَلقَون من بينهم وحدي
فكانت لقلبي لذة الحب كلها ... فلم يلقها قبلي محب ولا بعدي

إلىٰ غير ذلك مما لا ينحصر .

ومنها : الحكمة في كون سؤاله يقع ليلاً له سببان :

أحدهما : أنه وقت الضرورة .

والثاني : النصح والشفقة علىٰ خلق الله .

وقد كان جماعة من الأئمة يراعون هٰذا المعنىٰ ، ألا ترىٰ إلىٰ ما روي عن سفيان الثوري رحمه الله أنه كان يرد ما يُعطىٰ ، فيقال له في ذلك ، فيقول : إنما أرده شفقة عليهم ونصحاً لهم ؛ لأني لو علمت أنهم لا يذكرون ذلك افتخاراً به . . لأخذت .

وعوتب بعضهم في رد ما كان يأتيه من صلة ، فقال : إنما أرد عليهم إشفاقاً ونصحاً ؛ لأنهم يذكرون ذلك ويفتخرون به ، ويحبون أن يُعلم بهم ، فتذهب أموالهم وتَحبط أجورهم .

ولقد انتهىٰ بهم النصح والشفقة والورع إلىٰ ما هو أعظم من ذلك .

حتىٰ إنَّ سفيان الثوري رحمه الله كان يمتنع من الاستقراض أيضاً لهٰذا المعنىٰ ؛ فإنه قال : ما أجد أحداً أفزع إليه في قرض عشرة دراهم يكتم علي ، حتىٰ إنه يمشي إلى الناس ويقول : جاءني فلان واقترض مني كذا ، والله أعلم .

ومنها : قد يكون قصد الأستاذ أبي حفص رحمه الله بالإيثار أولاً والسؤال ثانياً ؛ ليصير دائم الفاقة ، فتنقطع نفسه عن جميع ما يقطعه عن الله سبحانه وتعالىٰ ، فلا قاطع أعظم من التعلق بالدنيا ، فشأن العارفين العزوف عنها بكل طريق ؛ لتصفو لهم المعاملة مع الله عز وجل ، كما قال حارثة رضي الله عنه : (عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرتُ ليلي وأظمأتُ نهاري) .

ومنها : أن الأستاذ أبا حفص رحمه الله يحتمل أن يكون قد قصد بالإيثار إعمال التوكل ، وبالسؤال إعمال السبب ؛ لئلا يعطل حكمة الله عز وجل في مشروعية الأسباب ، وإعمالاً لما تعبد الله عز وجل عباده من التعبد بهما .

وقد قدمنا أن مذهب أهل السُّنة : أن تعاطي الأسباب لا ينافي التوكل ، وهو رتبة الكاملين فيه ، ومَن تتبع السُّنة الشريفة . . وجدها علىٰ ذلك .

ألا ترىٰ إلىٰ قضية الخندق ، لما احتاج الصحابة رضوان الله عليهم إلى الزاد . . أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يبسطوا نطعاً ، ويجمعوا عليه أزوادهم ، فاجتمع شيء يسير ، ثم وضع النبي صلى الله عليه وسلم يده الكريمة فيه ودعا بالبركة .

وما رُوِّيناه عن البخاري بسنده [٢٢٦٥] عن جابر بن عبد الله قال : قتل أبي يوم أحد شهيداً وعليه دَين ، فاشتد الغرماء في حقوقهم ، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فسألهم أن يقبلوا تمر حائطي ويحللوا أبي ، فأبوا ، فلم يعطهم النبي صلى الله عليه وسلم حائطي ، وقال : « سنغدو عليك » ، فغدا علينا حين أصبح ، فطاف في النخل ودعا في ثمرها بالبركة ، فجددتُها[1] وقضيتهم ، وبقي لنا من تمرها .

وهكذا في قصة الماء وفي الطعام القليل وفي اللبن ، إلىٰ غير ذلك مما هو معروف مشهور لا يُتمارىٰ فيه .

واعلم : أن مَن جرَّد التوكل عن السبب الذي جعله الله عز وجل سبباً . . لم يفعل ما أُمر

---

(١) جددتها : قطفتها .

به ؛ فإن كل ما يحدث عند تعاطي الأسباب إنما هو بقدرة الله سبحانه وتعالىٰ وإرادته له .

وكذلك كل حادث عند سببه الجلي والخفي ، وليس شيء من الأسباب موجباً أو مؤثراً ، وإنما هي كالأوقات والأحوال التي أراد الله عز وجل نفوذ قضائه وقدره عندها .

فلذلك كان الأولىٰ هو التسبب وسلوك المناهج التي شرعها الله لعباده إلىٰ قضاء حوائجهم ، مع التوكل على الله سبحانه وتعالىٰ في ذلك ؛ إذ لا منافاة بين التوكل وتعاطي الأسباب ؛ فإن الله سبحانه هو الذي وضع الوسائط ودبر أمور عباده بها ، وأذن لهم فيها بل أمرهم بتعاطيها ، وليس شيء منها مما يصيرون إليه بمجرد آرائهم ، بل إنما يتعاطَونها امتثالاً لأوامره عز وجل واقتداء بسُنة نبيه سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم .

وعلىٰ هـٰذا درج الصحابة والتابعون ومَن بعدهم رضوان الله عليهم .

وأيضاً : فإن العبودية في تعاطي الأسباب أكثر ؛ لأمرين :

أحدهما : ما مر من مجرد امتثال الأمر .

الثاني : لما في عدم تعاطيها من استشعار الغنية عنها ، وهـٰذا هو السر في مشروعية الدعاء وطلبه ؛ فإن الله سبحانه وتعالىٰ جعله سبيلاً للمؤمنين في استنجاح حوائجهم ، وكذلك سائر السبل المجعولة له ، يكون سلوكها أشبه بالعبودية والاستكانة من مجرد التصبر والتظاهر بالغنية عنها .

وأيضاً : فمِن التسبب ما هو فرض ، بخلاف التوكل المجرد فكان أفضل منه ، وهـٰذا هو مذهب الجمهور ، وهو الذي أَدِينُ الله عز وجل به .

ووراءه قول ثالث ضعيف ، وهو : أن الشخص إن كان قوي العزم ، قادراً علىٰ تجريد الصبر ، واثقاً من نفسه أنه إذا صبر مدة ولم ينكشف عنه ضره لم يرجع إلى السبب ، ولم يندم علىٰ تركه ، ولم يشك في أن الصبر الذي آثره أولىٰ . . فهو أفضل ، وإلا . . فالأفضل أن يكون مع المتسببين .

وهـٰذا كالمتطوع بالصيام ؛ فإنه أفضل لمن لا يستثقل جهده ، ولا يتبرم بطول النهار ، بخلاف مَن إذا شرع فيه . . لم تزل عيناه ممتدتين إلى الشمس أين بلغت ، وهل دنت من الغروب أم لا ، محدِّثاً نفسَه في خلال ذلك بالفطر ، وربما ندم على الدخول في الصوم ، فإن الفطر به أولىٰ ، وكذا غيره من التطوعات ، والله أعلم .

ومنها : أن أبا حفص رحمه الله يحتمل أنه قصد بالصدقة أولاً ، والسؤال ثانياً ما أشار إليه الأئمة رحمهم الله تعالىٰ ، من معنى الكمال والتكميل المستفاد من سورة (والعصر) .

بيانه : أن سعادة الإنسان محصورة في نوعين :

أحدهما : كمال قوته النظرية ، وهو أن تحصل له المعارف الحقيقية والعلوم اليقينية .

والثاني : كمال قوته العملية ، وهو أن يكون مواظباً على الأعمال الصالحة . .

ثم إن الكامل في هـٰذين النوعين إنما يصير بالغاً إلى الغاية القصوىٰ أن لو صار مكمِّلاً لغيره في النوعين ، وهما العلم والعمل .

فثبت أن كمال سعادة الإنسان إنما هو في هـٰذه الأقسام الأربعة :

الأول منها : أن يكون كاملاً في قوته النظرية بالمعارف الإلـٰهية ، وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ .

والثاني : أن يكون كاملاً في قوته العملية ، وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ : ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ .

والثالث : أن يكون مكملاً لعقول الخلق في عقائدهم وسائر معارفهم ، وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ : ﴿ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾ .

والرابع : أن يكون مكملاً للخلق في أقوالهم وأفعالهم وسائر أحوالهم ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ .

فثبت بالبرهان الشرعي والعقلي أن الأصل في الإنسان هو الخسران ، وأنه إنما يرتقي من حضيض الخسران إلىٰ أوج السعادة والكمال بمجموع هـٰذه الأحوال الأربعة .

إذا عُرف هـٰذا . . فأبو حفص رحمه الله يحتمل أن يكون راعىٰ هـٰذا المعنىٰ ؛ ليحصل له الكمال والتكميل ، وذلك لأنه بالأخذ والعطاء قد صار موصوفاً بصفتين عظيمتين محبوبتين للحق جل جلاله ، وهما الصبر والشكر ؛ فإن المال محبوب بالطبع ، فوجدانه يوجب الشكر ، وفقدانه يوجب الصبر ، والله عز وجل طلب من عباده هـٰذين الوصفين ، فشرع لهم الصدقة ليتصفوا بهما ، وإنما يحصل الاتصاف بهـٰذين الوصفين لجميع العباد بالأخذ والعطاء ، لأنهم قسمان : غني ، وفقير .

فكأن المعنىٰ ـ والله أعلم ـ أن يقال : أيها الغني ؛ أعطيتك المال فشكرتني ، فصرت من

الشاكرين ، فأخرج من يديك نصيباً منه حتىٰ تصبر علىٰ فقدان ذلك القدر المُخرَج ، فتصير بسببه من الصابرين ، وأيها الفقير ؛ ما أعطيتك المال فصبرتَ فصرت من الصابرين ، لٰكن أوجبت على الغني أن يصرف إليك طائفة من ذلك المال ، حتىٰ إذا حصل ذلك المقدار في ملكك . . شكرتني فصرت من الشاكرين .

فما كان في حق الغني صفة صبر . . هو في حق الفقير صفة شكر ، وما كان في حق الفقير صفة صبر . . هو في حق الغني صفة شكر .

وتنزيل هٰذا المعنىٰ علىٰ مسألتنا : أن أبا حفص رحمه الله في كل يوم يعمل بدينار ويتصدق به ، قد حصل له بذلك صفتا الصبر والشكر مع الكمال والتكميل أيضاً لفقره ، وهو الفقير المتصدَّق عليه .

بيانه : أنه حين يأخذ الدينار . . يشكر الله عز وجل فيصير بسببه من الشاكرين ، ثم يتصدق به فيصبر علىٰ فقدانه فيصير بسبب ذلك من الصابرين ، والفقير قبل أخذه الدينار مثلاً هو صابر علىٰ فقره فهو من الصابرين ، وبعد أخذه منه يشكر الله عز وجل فيصير بسبب ذلك من الشاكرين ، فحصل لكل واحد منهما صفتا الصبر والشكر ، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، وأما الشكر . . فهو النصف الآخر من الإيمان ؛ إذ الإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر ، علىٰ ما هو مقرر في موضعه .

هٰذا كله مع ما ينضم إليه من الاتصاف بصفات أخرىٰ جليلة منها الجمع بين الأخذ والعطاء ؛ لأنه بالتصدق صار معطياً ، وبالسؤال صار آخذاً ، فيجتمع له أجران : أجر العطاء ، وأجر الأخذ .

وقد قالوا : إن أجر المعطي والآخذ سواء ، وحصول أجرين حيث لا محذور أولىٰ من أجر واحد .

هٰذا كله مع حصول ما قدمناه من الكمال والتكميل والمحافظة عليه ، وهو مستفاد من قوله عز وجل : ﴿وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ إلىٰ آخرها ؛ لاشتمالها علىٰ معنى الكمال والتكميل ؛ لأن بالإيمان والأعمال الصالحة حصل الكمال ، وبالتواصي بالحق والتواصي بالصبر حصل التكميل ، والتواصي بالحق مقابل الإيمان ، والتواصي بالصبر مقابل الأعمال الصالحة . والله أعلم .

خاتمة حسنة لهٰذه المسألة

وهي في ذِكر قاعدة عظيمة النفع فيها وفي جميع ما تنظره من العلم ، وهي :

يا أخي ؛ ليكن نظرك في جميع ما تنظره من العلم . . بالله عز وجل ولله وفي الله ؛ لأنه إن لم يكن نظرك به سبحانه وتعالىٰ . . وَكَلَك إلىٰ نفسك وإلىٰ مَن جعلت نظرك به ، وكذلك إن لم يكن نظرك لله عز وجل خالصاً . . فقد صار عملك لغيره .

وإذا عرفت هٰذا . . فاعلم : أن جميع ما ذكرناه مما يبين لك أن خطر مثل هٰذا السؤال عظيم ، فيجب التمهل في جوابه ، ولا يُمشىٰ فيه بالخطو الواسع ؛ فإنه مزلةُ قدَمِ الناظر فيه ، وسبيل كلِّ مسؤول عن مثل ذلك أن يعطي العلم حقه من النظر ، فينظر في مأخذ تلك المسألة ونظائرها وجميع ما يشابهها ، أو يشترك معها في شيء ما ، وينظر في كلام العلماء فيها ، وهل هو متفق ، أو مختلف ؟

فإن اتفق الكل في مأخذ . . سلَكَه ، ثم يعرضه على الأدلة الشرعية ، فإن شهدت بصحته . . فذلك هو الغاية ، وحينئذ يعتمد تلك المسائل والمآخذ ، وإلا . . فليرجع ويكرر النظر حتىٰ يتبين له الحق ، ومِن أين جاء الخلل ؟ هل هو من بعض تلك المسائل ، أو من المأخذ المشترك بينها ؟

وهٰذا أصل كبير ينبغي أن يتنبه الفقيه لأمثاله في نظره في المسائل ، فيعطي كل مسألة حقها ، لا سيما مثل هٰذه المسألة التي لم نر للأئمة فيها كلاماً فيما علمت .

فينبغي ألاَّ يسارع إلى القول بالإباحة أو الوجوب إلا إذا تمهل في الواقعة ، ونظر في كلام العلماء رحمهم الله وفي الأدلة الشرعية الدالة لها ، ثم ينظر في حال السائل وقصده في أخذه ، وعطائه ، وقوته ، وتمكنه ، وصبره ، ومحله من العلم ، فعند ذلك يجيب بحسب ما رزقه الله من الفهم ، وفتح عليه من نور العلم ، قاصداً بذلك ـ وبجميع ما يجيب به ـ وجه الله سبحانه وتعالىٰ .

ولا شك أن الأستاذ أبا حفص ـ قدس الله روحه ـ كان من العلماء العاملين الربانيين ، ألا ترىٰ إلىٰ قول الإمام أبي القاسم الجنيد ـ قدس الله روحه ـ الذي حكيناه عنه في ترجمته ، قال : كان أبو حفص من أهل العلم البالغين ، فكان يتكلم في غورٍ بعيد . وكفاه فخراً أن مثل الجنيد رحمه الله يقول عنه مثل هٰذا الكلام .

فإذا كانت أقواله تصدر من غور بعيد ؛ أي : لا تُفهم إلا بجهد ، ويحتاج فيها إلىٰ نظر

دقيق. . فما الظن بأفعاله التي قصد بها وجه الله عز وجل ، لا سيما وحركات الولي كلها بالله ، كما تقدم بيان ذلك في الحديث الصحيح .

وقد قال أبو الحسين النوري رحمه الله : إن لله عباداً يسمعون بالله ، وينطقون بالله ، ويَصْدرون بالله ، ويَرِدُون بالله ، وحركاتهم كلها بالله ، فإن قاموا. . قاموا بالله ، وإن نطقوا. . نطقوا بالله ، كما قد صُرِّحَ به في الحديث .

وأبو حفص رحمه الله كان ـ والله أعلم ـ من أولياء الله العارفين ، وعباده الصالحين ، والعلماء الربانيين ، عرف موضع السؤال وقَدْره ، وكيف يعطي ، وكيف يأخذ .

وهٰذه اللطائف التي ذكرناها حصلت من بركة فعله أيضاً ؛ لأن النظر في سؤاله أوجب الوقوف علىٰ بعض أسراره ومقاصده الصالحة .

ومَن تأمل أحواله وأقواله. . عرف محله من العلم ، ومكانه من الفضل والحلم ، وأن نفسه قد ارتاضت إلىٰ أن استوىٰ عندها الأخذ والعطاء ؛ لاستغراقها بالحي القيوم ولي العطاء سبحانه وتعالىٰ .

فانظر إلىٰ هٰذه النفس الشريفة ما أعرفها وأتقاها! وما أكثر سخاءها وأخشاها! فسبحان مَن أعطاها!

قال تعالىٰ : ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو صالح حمدونُ بن أحمد القَصَّار النيسابوري
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قيل لأبي صالح حمدون : ما بال كلام السلف رضي الله عنهم أنفع من كلامنا ؟ فقال : لأنهم تكلموا لعز الإسلام ، ونجاة النفوس ، ورضى الرحمـٰن سبحانه وتعالىٰ ، وأما نحن : فنتكلم لعز النفوس ، وطلب الدنيا ، ورضى الخلائق .

وكان أبو صالح رحمه الله **يقول** : كفايتك تساق إليك من غير تعب ولا نصب ، وإنما التعب في الفُضول .

وتسفه شخص علىٰ أبي صالح حمدون ، فبقي حمدون ساكتاً لا يجيبه ، فلما فرغ من شتمه . . قال له حمدون : يا أخي ؛ لو نقصتني كل نقص . . لما قدرت أن تنقصني كنقصي[1] عند نفسي .

ثم قال لأصحابه : تسفه رجل علىٰ إسحاق الحنظلي ـ يعني : ابن راهويه ـ فاحتمله ، فقيل له في ذلك ، فقال : لأي شيء تعلمنا العلم ؟!

وقال أبو صالح حمدون : إذا رأيت سكراناً . . فاعدل عنه وتمايل ؛ لئلا تبغي عليه ، فتبتلىٰ بمثل ذلك .

وقال السلمي : قال أبو صالح حمدون : **مَن نظر في سِيَر السلف . . عرف تقصيره وتخلفه عن درجات الرجال** .

وقال أبو صالح حمدون : كل ما تحب أن يكون مستوراً منك ولا تحب أن يفشىٰ عليك . . فلا تفشه علىٰ غيرك مع علمك به ؛ لتحب لأخيك ما تحب لنفسك .

وقال أبو صالح حمدون : ما دمت لا تعرف عيب نفسك . . فأنت محجوب ، فاجهد ألاَّ تعمىٰ عن عيوب نفسك ؛ فإن اشتغالك بعيوبها يشغلك عن غيرها .

---

(١) وفي نسخة : (لنقصي) .

صحب حمدون أبا تراب النخشبي ، وغيرَه ، وتوفي سنة إحدىٰ وسبعين ومئتين بنيسابور رحمه الله . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٨٢] .

وقال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : سئل حمدون عن التوكل ، فقال : هو أن لو كان لك عشرة آلاف درهم وعليك من الدَّين دانق . . لم تأمن أن تموت ويبقىٰ ذلك في عنقك ، ولو كان عليك عشرة آلاف درهم دَين لا تجد لها وفاءً . . لا تيأس من الله عز وجل أن يقضيها عنك . وهٰذا منه إشارة إلىٰ مجرد الإيمان بسعة القدرة ، وأن ما في المقدور أسباب خفية سوىٰ هٰذه الأسباب الظاهرة . انتهىٰ [« الإحياء » ٤/ ٢٦٤] .

وقال في « المختار » : كان أبو صالح شيخ الملامتية[1] بنيسابور ، فقيهاً ، عالماً بمذهب سفيان الثوري رحمه الله .

وسئل حمدون : متىٰ يجوز للرجل أن يتكلم على الناس ؟ فقال : إذا تعين عليه أداء فرض من فرائض الله تعالىٰ ، أو خاف هلاك إنسان في بدعة يرجو أن ينجيه الله منها بقوله .

وقال له رجل : أوصني ، فقال : إن استطعتَ ألاَّ تغضب لشيء من الدنيا . . فافعل .

وقال أبو صالح : شُكر النعمة : أن ترىٰ نفسك فيه طفيلياً .

وقال لأصحابه : أوصيكم بشيئين : بصحبة العلماء ، واحتمال الجهال ، ومَن رأيتم فيه خصلة من الخير . . فلا تفارقوه ؛ فإنه يصيبكم من بركاته ؛ والله أعلم . [انتهىٰ] .

وقال القشيري ـ قدس الله روحه ـ : قال أبو صالح رحمه الله : مذ علمت أن للسلطان فراسة في الأشرار . . ما خرج خوف السلطان من قلبي .

وقال أبو صالح : **أصل رفع الألفة من بين الإخوان . . حب الدنيا** .

وقال له رجل : أوصني ، فقال : إن استطعت أن تصبح وتمسي مفوِّضاً لا مدبِّراً . . فافعل .

وقال : مَن شغله طلب الدنيا عن الآخرة . . ذَلَّ إما في الدنيا وإما في الآخرة . انتهىٰ [« الرسالة القشيرية » ٣١] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) **الملامتية** : فرقة من الصوفية أصحاب حمدون بن أحمد القصار ، وهم الذين يكتمون الأعمال ويظهرون خلافها ، فهمهم إعمار الباطن دون النظر إلىٰ خراب الظاهر ، مع التزام الشريعة ، اشتق اسمها من كثرة ملامة أتباعها لأنفسهم .

ومنهم الإمام :

أبو بكر محمدُ بن موسى الواسطي
رضي الله عنه

قال الأستاذ أبو القاسم القشيري ـ قدس الله روحه ـ : أبو بكر الواسطي خراساني الأصل من فَرْغانة ، صحب أبا القاسم الجنيد والنوري ، عالم كبير ، أقام بمرو ، ومات بها بعد العشرين وثلاث مئة .

ثم قال : قال الواسطي رحمه الله : الخوف والرجاء زِمامان يمنعان من سوء الأدب .

وقال : مطالعة الأعواض على الطاعات من نسيان الفضل .

وقال : إذا أراد الله سبحانه وتعالىٰ هوان عبد . . ألقاه إلىٰ هـٰؤلاء الأنتان ؛ يريد : صحبة الأحداث .

وقال القشيري : سمعت ابن الحسين رحمه الله يقول : سمعت أبا بكر محمد بن عبد العزيز المروزي يقول : سمعت الواسطي يقول : جعلوا سوء آدابهم إخلاصاً ، وشره نفوسهم انبساطاً ، ودناءة الهمم جلادة ، فعَمُوا عن الطريق ، وسلكوا فيه المضيق ، فلا حياة تنمو في شواهدهم ، ولا عبادة تزكوا في محاضرتهم ، إن نطقوا . . فبالغضب ، وإن خوطبوا . . فبالكِبر ، تَوَثُّبُ أنفسِهم يُنبىء عن ضمائرهم ، وشرههم في المأكول يُظهِر ما في سويداء أسرارهم ، قاتلهم الله أنَّىٰ يؤفكون .

وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول : سمعْتُ بعض المراوزة إنساناً صيدلانياً يقول : اجتاز الواسطي يوم جمعة بباب حانوتي قاصداً إلى الجامع ، فانقطع شِسْعُ نعله ، فقلت : أيها الشيخ ؛ أتأذن لي أن أصلح نعلك ؟ فقال لي : أصلح ، فأصلحت شسعه ، فقال : أتدري لِمَ انقطع شسع نعلي ؟ فقلت : حتىٰ يقول الشيخ ، فقال : لأني ما اغتسلت للجمعة ، فقلت : يا سيدي ؛ هـٰهنا حمَّام ، تدخله ؟ فقال : نعم ، فأدخلته الحمَّام ، فاغتسل [« الرسالة القشيرية » : (٤١ـ٤٢)] .

وسئل الواسطي رحمه الله عن الذِّكر ، فقال : الخروج من ميدان الغفلة إلىٰ فضاء المشاهدة علىٰ غلبة الخوف وشدة الحب [« الرسالة القشيرية » : (١٧٣)] .

وقال الواسطي رحمه الله : التوبة النصوح لا تبقي علىٰ صاحبها أثراً من آثار المعصية سراً ولا جهراً ، ومَن كانت توبته نصوحاً . . لا يبالي كيف أمسىٰ وأصبح [« الرسالة القشيرية » : (٨٠)] .

ولما احتُضِر الواسطي رحمه الله . . قيل له : أوصنا ، فقال : احفظوا مراد الحق جل جلاله فيكم .

وقال الواسطي رحمه الله : التقوىٰ أن يتقي مِن تقواه ؛ يعني : من رؤية تقواه [« الرسالة القشيرية » : (٨٨)] .

وقال : الخوف والرجاء زمامان على النفوس ؛ لئلا تخرج إلىٰ رعوناتها [« الرسالة القشيرية » : (١٠٣)] .

وقال : استعمِلِ الرضىٰ جُهْدَك ، ولا تدع الرضىٰ يستعملك ، فتكون محجوباً بلذته ورؤيته عن حقيقة ما تطالع [« الرسالة القشيرية » : (١٥٢)] .

وقال القشيري ـ رحمه الله ـ : اعلم :أن هـٰذا الكلام الذي قاله الواسطي رحمه الله شيء عظيم ، وفيه تنبيه علىٰ مقطعة للقوم خفية ؛ فإن السكون عندهم إلى الأحوال حجاب عن محول الأحوال ـ سبحانه وتعالىٰ ـ إليها .

فإذا استلذ رضاه ووجد بقلبه راحة الرضىٰ . . حُجب بحاله عن شهود حقه سبحانه وتعالىٰ .

ولقد قال الواسطي أيضاً : إياكم واستحلاء الطاعات ؛ فإنها سموم قاتلة [« الرسالة القشيرية » : (١٥٢)] .

وقال الواسطي : الخصلة التي بها كَمُلت المحاسن وبفقدها قبُحت المحاسن . . الاستقامة [« الرسالة القشيرية » : (١٦١)] .

وقال الواسطي : الحب يوجب شوقاً ، والشوق يوجب أنساً ، فمَن فقد الشوق والأنس . . فليعلم أنه غير محب ، وأنشد :

ولا عـن قِلـىً كـان القطيعـة بيننـا ... ولكنـــه دهـــر يُشِـــتُّ ويجمـــع

وقال : كائنات محتومة بأسباب معروفة وأوقات معلومة ، فاعتراض السريرة لها رعونة .

وقال : العبادة أصلها ستة أشياء : التعظيم ، والحياء ، والخوف ، والرجاء ، والمحبة ، والهيبة ، فمن لم تتم له هٰذه المقامات . . لم تتم له العبودية .

وقال الواسطي : ادعىٰ فرعون ـ عليه اللعنة ـ الربوبية على الكشف ، وادعت المعتزلة الربوبية على السر ؛ فإنهم قالوا : ما شئنا فعلنا ؛ أي : نحن خالقون لأفعالنا .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : قال الواسطي : بفضله سبحانه وتعالىٰ أحبهم وأحبوه ، وذَكَرهم وذكروه ؛ قال تعالىٰ : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ وبفضله سبحانه وتعالىٰ وَفىٰ لهم ووَفَوا له ؛ قال تعالىٰ : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ .

وروي : أن الواسطي كانت به أكلة عند كتفه ، فخرجت أخرىٰ في مقابلتها من جانب صدره ، فكان يبين منها الضرر وهو مع ذلك يقول : إلٰهي ؛ زدني من بلائك إن كان لك فيه رضاً ؛ فإن عطاياك في قضائك تباركت وتعاليت ، كما أن رضاك في بلائك ، لا إلٰه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين .

وقال : الخوف من شرط الإيمان ، والخشية من شرط العلم .

وقيل ـ وهو لغيره ـ :

أنعي إليك قلوباً طالما هطلت سحائبُ الوحي فيها أبحُرَ الحِكَمِ

وقال : الصدق صحة التوحيد مع القصد .

وقال : لم يذق لذعات الحياء من لابَسَ خَرْقَ حَدٍّ أو نَقْضَ عهدٍ .

وقال : المستحيي يسيل منه العرق ، وهو الفضل الذي فيه ، وما دام في النفس شيء . . فهو مصروف عن الحياء .

وقال الواسطي رحمه الله : الفراسة سواطع أنوار لمعت في القلوب ، وتمكين معرفة حملت السرائر في الغيوب من غيب إلىٰ غيب ، حتىٰ يشهد الأشياء من حيث أشهده الحق جل جلاله إياها ، فيتكلم عن ضمير الخلق .

وقال في قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ : وصفه الحق سبحانه وتعالىٰ بالخُلق العظيم ؛ لأنه جاد بالكونين ، واكتفىٰ بالله عز وجل ؛ أي : لم يُرد سواه سبحانه وتعالىٰ .

وقال أيضاً : مِن الخلق العظيم ألاَّ يخاصم من شدة معرفته بالله . أو كما قال .

وقال : علامة الولي أربعة أشياء :

- لا يشكو من المصائب .
- ويكون مخلصاً في أعماله كلها .
- ويحتمل أذى الخلق ولا يكافئهم .
- ويداري عباده علىٰ تفاوت أخلاقهم .

وقال في معنىٰ قول معاذ رضي الله عنه : (تعالَوا نؤمن ساعة)[1] أي : نخرج من الإرادات والمنازعات ؛ لأن كل إرادة أرادها الإنسان علىٰ خلاف إرادة الحق جل جلاله . . فهي منازعة مع الربوبية . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه البخاري تعليقاً ، وابن أبي شيبة (٣٠٣٦٣) .

ومنهم الإمام :

أبو القاسم إبراهيم بن محمد النصرآباذي
رضي الله عنه

شيخ خراسان في وقته .

قال القشيري ـ قدس الله روحه ـ : وصحب أبا بكر الشبلي ، وأبا علي الروذباري ، والمرتعش ، وجاور بمكة سَنة ست وستين ، ومات بها سنة سبع وستين وثلاث مئة .

وكان عالماً بالحديث كثير الروايات .

ثم قال القشيري ـ قدس الله روحه ـ : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمـٰن السلمي رحمه الله يقول : سمعت النصرآباذي يقول : إذا بدا لك شيء من بوادي الحق . . فلا تلتفت معها إلىٰ جنة ولا إلىٰ نار ، فإذا رجعت عن تلك الحال . . فعظِّم ما عظمه الله عز وجل .

وسمعت محمد بن الحسين يقول : قيل للنصرآباذي : إن بعض الناس يجالس النسوان ، ويقول : أنا معصوم في رؤيتهن ، فقال : أمَّا ما دامت الأشباح باقية . . فإن الأمر والنهي باق ، والتحليل والتحريم مخاطب به ، ولن يجترىء على الشبهات إلا من تعرض للمحرمات .

وسمعت محمد بن الحسين يقول : قال النصرآباذي رحمه الله : التصوف : ملازمة الكتاب والسنة ، وترك الأهواء والبدع ، وتعظيم حرمات المشايخ ، ورؤية أعذار الخلق ، والمداومة على الأوراد ، وترك ارتكاب الرخص والتأويلات [« الرسالة القشيرية » (٥٠)] .

وقال النصرآباذي رحمه الله : الزاهد غريب في الدنيا ، والعارف غريب في الآخرة [« الرسالة القشيرية » : (٩٤)] .

وقال : العبادات إلىٰ طلب العفو والصفح عن تقصيرها . . أقرب منها إلىٰ طلب الأعواض والجزاء بها [« الرسالة القشيرية » : (١٥٦)] .

ورُئِيَ النصرآباذي بمكة بعد وفاته رحمه الله تعالىٰ في المنام ، فقيل له : ما فعل الله عز

وجل بك ؟ فقال : عوتبت عتاب الأشراف ، ثم نوديت : يا أبا القاسم ؛ أبَعد الاتصال انفصال ؟! فقلت : لا يا ذا الجلال والإكرام ، فما وُضعت في اللحْد حتىٰ لحقت بالأَحد سبحانه وتعالىٰ [« الرسالة القشيرية » : (٣٠٨)] .

وقال القشيري ـ قدس الله روحه ـ : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمـٰن السلمي يقول : سمعت النصرآباذي يقول : سجنك نفسك ، إذا خرجت منها . . وقعت في راحة الأبد [« الرسالة القشيرية » (٨٤)] .

وقال النصرآباذي رحمه الله : العبودية إسقاط رؤية التعبد في مشاهدة المعبود سبحانه وتعالىٰ [« الرسالة القشيرية » : (١٥٦)] .

وقال : المروءة شعبة من الفتوة ، وهو الإعراض عن الكونين ، وعدم الرؤية لهما ؛ أي برؤية مكونهما سبحانه وتعالىٰ [« الرسالة القشيرية » : (١٧٧)] .

وقال القشيري ـ قدس الله روحه ـ : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمـٰن السلمي قدس الله روحه يقول : كان يُقال للنصرآباذي كثيراً : إن علياً القوال يشرب بالليل ويحضر مجلسك بالنهار ، وكان لا يسمع فيه ما يقال ، فاتفق أنه كان يمشي يوماً ومعه واحد ممن كان يذكر علياً بذلك ، فوجد علياً مطروحاً في موضع وقد ظهر عليه أثر السكر ، وصار بحيث يحتاج إلىٰ غسل فمه ، فقال الرجل : إلىٰ كَمْ تقول للشيخ ولا يسمع ؟! هـٰذا علي على الوصف الذي تقول ، فنظر إليه النصرآباذي وقال للعذول : احمله علىٰ رقبتك وانقله إلىٰ منزله ، فلم يجد بداً من طاعته فيه [« الرسالة القشيرية » (١٨٠)] .

قال : وسمعت الشيخ أبا عبد الرحمـٰن السلمي رحمه الله يقول : قال أبو القاسم النصرآباذي قدس الله روحه : الحق سبحانه وتعالىٰ غيور ، ومِن غَيرته أنه لم يجعل إليه طريقاً سواه ؛ أي : إلىٰ معرفته سبحانه وتعالىٰ [« الرسالة القشيرية » : ١٩٩] .

وهـٰذا إشارة إلىٰ قول خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بكر الصديق رضي الله عنه : (سبحان مَن لم يجعل للخلق طريقاً إلىٰ معرفته إلا بالعجز عن معرفته) أو كما قال .

وقال القشيري ـ قدس الله روحه ـ : سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول : اجتمع أبو عمرو بن نجيد والنصرآباذي والطبقة في موضع ، فقال النصرآباذي : أنا أقول : إذا اجتمع القوم . . فواحد يقول شيئاً ويسكت الباقون ، خير من أن يغتابوا أحداً ، فقال

أبو عمرو : لأَن تغتاب ثلاثين سنة . . أنجىٰ لك من أن تُظهِر في السماع ما لستَ به [« الرسالة القشيرية » (٢٧٢)] ؛ أي : أن يقع منك الرياء .

وهٰذا إشارة إلى المحافظة على الصدق والإخلاص ، واستواء السريرة والعلانية ، ونفي الرياء والعجب عن النفس ؛ فإنهما من المهالك ، أو كما قال .

وسئل النصرآباذي عن الأنفس والأموال ، فقيل : الأنفس والأموال لله عز وجل ، فما السر في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ ؟ فقال : اشترىٰ منهم سبحانه وتعالىٰ كرماً عليهم ، ونظراً لهم ، وهٰذا كما يشتري السيد عبده المكاتب من نفسه ، وكما يشتري الأب للطفل نظراً له ، ثم قال : إن الله سبحانه وتعالىٰ قد ملكك نفسك ، ثم أسقط عنها مِلْكَك ؛ لتعلم عظيم مِنَّة الله ونعمه عليك . أو كما قال .

وقال : إن المخلوقات كلها أدلة ظاهرة منه عليه سبحانه وتعالىٰ ، ولا دليل عليه سواه تبارك وتعالىٰ .

وقال : مَن عمل علىٰ رؤية الجزاء . . كانت أعماله بالعَدِّ والإحصاء ، ومَن عمل علىٰ رؤية المشاهدة . . أذهلته المشاهدة عن التعداد والعدد[1] ، ومَن عمل بالعد . . كان ثوابه بالعدد ، قال تعالىٰ : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ ، ومَن عمل على المشاهدة . . كان أجره بلا عدد ؛ قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) في نسخة : عن التعداد والعدّ .

ومنهم الإمام :

أبو علي الدقاقُ النيسابوري شيخُ أبي القاسم القشيري
رضي الله عنهما

قال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر ـ رحمه الله ـ : كتب إلي الشيخ أبو الحسن عبد الغافر بن إسماعيل بن عبد الغافر الفارسي من نيسابور : قال الحسن بن علي بن محمد بن إسحاق بن عبد الرحيم بن أحمد : أبو علي الدقاق لسان وقته ، وإمام عصره ، نيسابوري الأصل ، تعلم العربية ، وحصَّل علم الأصول ، وخرج إلىٰ مرو وتفقه بها ، ودرس على الخضري ، وأعاد على الشيخ أبي بكر القفال في درس الخضري ، وبرع فيه .

ولما استمع ما كان يحتاج إليه من العلوم . . أخذ في العمل ، وسلك طريق التصوف ، وصحب الأستاذ أبا القاسم النصرآباذي .

وتوفي في ذي الحجة سنة خمس وأربع مئة .

أخبرنا الشيخ أبو المظفر عبد المنعم بن عبد الكريم بن هوازن القشيري بنيسابور قال : أخبرنا والدي الأستاذ أبو القاسم رحمه الله قال : كنت في ابتداء وصلتي بالأستاذ أبي علي عقد لي المجلس في مسجد المطرز ، فاستأذنته وقتاً للخروج إلىٰ نَساء ، فأذن لي ، فكنت أمشي معه يوماً في طريق مجلسه ، فخطر ببالي : ليته ينوب عني في مجالسي أيام غيبتي ، فالتفت إلي وقال : أنوب عنك أيام غيبتك في عقد المجالس ، فمشيت قليلاً ، فخطر ببالي أنه عليل يشق عليه أن ينوب عني في الأسبوع يومين ، فليته يقتصر علىٰ يوم واحد في الأسبوع ، فالتفت إلي وقال : إن لم يمكني في الأسبوع يومين . . أنوب في الأسبوع مرة واحدة ، فمشيت معه قليلاً ، فخطر ببالي شيء ثالث ، فالتفت إليَّ ، وصرح بالإخبار عنه على القطع .

قال : وكان الأستاذ أبو علي رحمه الله لا يستند إلىٰ شيء ، وكان يوماً في مجمع ، فأردت أن أضع وسادة خلف ظهره ؛ لأني رأيته غير مستند ، فتنحىٰ عن الوسادة قليلاً ، فتوهمت أنه توقى الوسادة ؛ لأنه لم يكن عليه خرقة أو سجادة ، فقال : لا أريد الاستناد ،

فتأملت بعده حاله ، فكان لا يستند إلىٰ شيء . انتهىٰ .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري ـ قدس الله روحه ـ : سمعت أبا نصر المؤذن بنساء[1] ـ وكان رجلاً صالحاً ـ قال : كنت أقرأ القرآن في مجلس الأستاذ أبي علي الدقاق وقت كونه هناك ، وكان يتكلم في الحج كثيراً ، فأثر في قلبي كلامه ، وخرجت إلى الحج في تلك السَّنة ، وتركت الحرفة والحانوت .

وكان الأستاذ أبو علي خرج إلى الحج أيضاً في تلك السَّنة ، وكنت مدة كونه بنساء[2] أخدمه وأواظب على القراءة في مجلسه .

فرأيته يوماً في البادية تطهَّر ونسي قمقمة كانت بيده ، فحملتها ، فلما عاد إلىٰ رحله . . وضعتها عنده ، فقال : جزاك الله خيراً حيث حملت هـٰذا ثم نظر إلي طويلاً كأنه لم يرني قط ، وقال : رأيتك مرة ، مَن أنت ؟ فقلت : المستغاث بالله ، صحبتك مدة ، وخرجت عن مسكني ومالي بسببك ، وتقطعت في المفازة بك ، والساعةَ تقول : رأيتك مرة [« الرسالة القشيرية » (٦٣)] .

وقال : كان الأستاذ أبو علي ـ رحمه الله ـ يقول : في قوله تعالىٰ : ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ حفظ للشريعة ، ﴿ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ إقرار بالحقيقة .

واعلم : أن الشريعة والحقيقة واحدة ؛ لأن الشريعة حقيقة من حيث إنها وجبت بأمره سبحانه وتعالىٰ ، والحقيقة أيضاً شريعة من حيث إن المعارف بالله سبحانه وتعالىٰ إنما وجبت أيضاً بأمره سبحانه وتعالىٰ ، **وقد بين الأستاذ أبو القاسم القشيري ـ قدس الله روحه ـ الفرق بينهما ، فقال : الشريعة جاءت بتكليف الخلق ، والحقيقة إنباء عن تصريف الحق سبحانه وتعالىٰ ، فالشريعة أن تعبده ، والحقيقة أن تشهده سبحانه وتعالىٰ ، والشريعة قيام بما أَمَر ، والحقيقة شهود بما قضىٰ وقَدَّر ، وأخفىٰ وأظهر** [« الرسالة القشيرية » (٧٢)] .

وقال أبو علي الدقاق ـ رحمه الله ـ : قيل لبعضهم : لِمَ زهدت في الدنيا ؟ فقال : لما زهدت في أكثرها . . أنفت عن الرغبة في أقلها [« الرسالة القشيرية » (٩٦)] .

وقال : مَن سكت عن الحق . . فهو شيطان أخرس ، وكم بين عبد سكت تصاوناً عن الكذب والغِيبة ، وبين عبد سكت لاستيلاء سلطان الهيبة عليه [« الرسالة القشيرية » (٩٧)] .

---

(١) في الرسالة القشيرية : (نيسابور) بدل (نساء) .

(٢) في الرسالة القشيرية : (نيسابور) بدل (نساء) .

وقال أبو القاسم القشيري ـ قدس الله روحه ـ : والسكوت قسمان : سكوت بالظاهر ، وسكوت بالقلب والضمائر .

فالمتوكل يسكت قلبه عن تقاضي الأرزاق ، والعارف يسكت قلبه عن مقابلة الحكم بنعت الوفاق ، هـٰذا بجميل صنعه واثق ، وهـٰذا بجميع حكمه راض وقانع ، وفي معناه أنشدوا :

تجـــري عليــــك صــــروفُـــهُ ... وهمـــوم قلبـــك مُطـــرِقَـــهْ

قال : وربما يكون سبب السكوت . . حَيرة البديهة ؛ فإنه إذا ورد كشف عن وصفٍ بغتةً . . خرست العبارات عند ذلك ، فلا بيان ولا نطق ، وطمست الشواهد هنالك ، فلا علم ولا حس ؛ قال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَا ﴾ .

وقال أبو علي الدقاق رحمه الله : لما دخل أبو بكر الواسطي رحمه الله نيسابور . . سأل أصحاب أبي عثمان : بماذا كان يأمركم شيخكم ؟ فقالوا : كان يأمرنا بالتزام الطاعات ورؤية التقصير فيها ، فقال : أمركم بالمجوسية المحضة ، هلا أمركم بالغَيبة عنها برؤية منشئها ومجريها وهو الله الواحد القهار سبحانه وتعالىٰ ؟!

قال أبو علي رحمه الله : وإنما أراد الواسطي بهـٰذا صيانتهم عن محل الإعجاب ، لا تعريجاً في أوطان التقصير ، أو تجويزاً للإخلال بأدب من الآداب [« الرسالة القشيرية » (٩٧)] .

وقال القشيري : سمعت الأستاذ أبا علي يقول : الشجر إذا نبت بنفسه ولم يستنبته أحد . . يورق ولـٰكنه لا يثمر ، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يتخرج به . . لا يجيء منه شيء .

وكان الأستاذ أبو علي يقول : أخذت هـٰذا الطريق عن النصرآباذي ، والنصرآباذي عن الشبلي ، والشبلي عن الجنيد ، والجنيد عن السَّريِّ ، والسَّريُّ عن معروف الكرخي ، والكرخي عن داوود الطائي ، وداوود الطائي لقي التابعين رضوان الله عليهم أجمعين .

وسمعته يقول : لم أختلف إلىٰ مجلس النصرآباذي قط إلا اغتسلت قبله .

قال القشيري : ولم أدخل أنا على الأستاذ أبي علي وقت بدايتي إلا صائماً ، وكنت أغتسل قبله ، وكنت أحضر باب مدرسته غير مرة ، فأرجع من الباب احتشاماً منه أن أدخل عليه ، فإذا تجاسرت مرة ودخلت . . كنت إذا بلغت وسط المدرسة . . يصحبني شبه خدر ، حتىٰ لو غُرِز فيَّ إبرةٌ مثلاً . . لعلِّي كنت لا أُحِس .

ثم إذا قصدته لواقعة وقعت لي . . لم أحتج أن أسأله بلساني عن تلك المسألة ، فكما[1] كنت أجلس . . يبتدىء بشرح واقعتي ، وغير مرة رأيت هـٰذا منه عياناً ، وكنت أفكر في نفسي كثيراً ، فلم أذكر أني في طول اختلافي إلىٰ مجلسه ثم كوني معه بعد حصول الوصلة أنه جرىٰ في قلبي أو خطر ببالي قط عليه اعتراض إلىٰ أن خرج من الدنيا رحمه الله [« الرسالة القشيرية » (٢٣٠)] .

قال : ومما شاهدناه من أحوال الأستاذ أبي علي الدقاق معاينةً : أنه كان به علة حرقة البول ، وكان يقوم في ساعته غير مرة ، حتىٰ إنه كان يجدد الوضوء غير مرة لركعتي فرض ، وكان يحمل معه قارورة في طريق المجلس ، وربما كان يحتاج إليها في الطريق مرات ذاهباً وجائياً ، وكان إذا قعد علىٰ رأس الكرسي يتكلم . . لا يحتاج إلى الطهارة ولو أمسك المجلس زماناً طويلاً ، وكنا نعاين ذلك منه سنين ، ولم يقع لنا في حياته أن هـٰذا شيء ناقض لعادته ، وإنما وقع لي هـٰذا وفُتح عليَّ علمه بعد وفاته رحمه الله [« الرسالة القشيرية » (٢٩٨)] .

ثم قال أبو القاسم القشيري : رأيت الأستاذ أبا علي الدقاق في المنام بعد موته ، فقلت له : ما فعل الله عز وجل بك ؟ فقال : إن الكرم عظيم ، والرحمة واسعة ، والجود علىٰ أصناف الخلائق فائض ، فلان أعطي كذا وكذا ، ووقع لي في المنام أن ذلك الإنسان الذي عناه كان من المسرفين علىٰ أنفسهم [« الرسالة القشيرية » (٣١٠)] .

وقال : وكان الأستاذ أبو علي يقول : الذِّكر منشور الولاية ، فمَن وُفق للذِّكر . . فقد أعطي المنشور ، ومن سلب الذِّكر . . فقد عزل [« الرسالة القشيرية » (١٧٣)] .

وقال أبو علي : تكلم الناس في الفقر والغنىٰ أيهما أفضل ، وعندي أن الأفضل أن يعطى الرجل كفايته ، ثم يصانَ فيه [« الرسالة القشيرية » (٢١٢)] .

وقال القشيري ـ قدس الله روحه ـ : سمعت الأستاذ أبا علي رحمه الله يقول في قوله تعالىٰ عن موسىٰ عليه الصلاة والسلام : ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ معناه : شوقاً إليك ، فستره بلفظ الرضىٰ .

وسمعته يقول : **مِن علامات الشوق . . تمني الموت علىٰ بساط العوافي ، كيوسف عليه الصلاة والسلام ، لما ألقي في الجب . . لم يقل : توفني ، ولما أدخل السجن . . لم يقل**

---

(١) قال الشيخ زكريا الأنصاري في « شرح الرسالة » : (فكما) أي : فعندما .

توفني ، ولما دخل عليه أبوه وخر الإخوة له سجداً وتم له الملك والنعم . . قال : ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا ﴾ [« الرسالة القشيرية » (٢٥٦)] .

وقال الأستاذ أبو علي ـ قدس الله روحه ـ : دخلت على الإمام أبي بكر بن فورك عائداً ، فلما رآني . . دمعت عيناه ، فقلت له : أسأل الله تعالىٰ أن يعافيك ويشفيك ، فقال لي : وتراني أخاف الموت ؟! إنما أخاف مما وراء الموت [« الرسالة القشيرية » (١٠٢)] .

وقال القشيري ـ قدس الله روحه ـ : سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله ينشد كثيراً ويقول هٰذين البيتين :

أحسنتَ ظنَّك بالأيام إذ حَسُنَتْ ... ولم تخف سوء ما يأتي به القدرُ
وسالمتك الليالي فاغتررتَ بها ... وعند صفو الليالي يحدث الكدرُ

[« الرسالة القشيرية » (١٠٣)]

وقال الأستاذ أبو علي الدقاق رحمه الله : صاحب الحزن يقطع من طريق الله عز وجل في شهر ما لا يقطعه من فَقَدَ حزنه سنين [« الرسالة القشيرية » (١١٠)] .

وقال القشيري : وسمعت الأستاذ أبا علي يقول في قول النبي صلى الله عليه وسلم عن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام : « لو ازداد يقيناً . . لمشىٰ في الهواء »[1] قال : إنما أشار بهٰذا صلى الله عليه وسلم إلىٰ حال نفسه ليلة المعراج ؛ فإنه قال : « رأيت البراق قد بقي ومَشَيت » [« الرسالة القشيرية » (١٤٢)] .

وسمعته يقول : ليس الرضا ألاَّ تحس بالبلاء ، إنما الرضا أن لا تعترض على الحكم والقضاء ، واعلم : أن الواجب على العبد أن يرضىٰ بالقضاء الذي أُمر بالرضا به ؛ إذ ليس كل ما هو بقضائه يجوز للعبد أو يجب عليه الرضا به ، كالمعاصي وفنون مِحَنِ المسلمين .

قال : وسمعته يقول : قال تلميذ لأستاذه : هل يعرف العبد أن الله سبحانه راض عنه ؟ فقال : لا ، كيف يعلم ذلك ورضاه غَيْب ؟ فقال التلميذ : يعلم ذلك ، قال : كيف ؟ قال : إذا وجدتُ قلبي راضياً عن الله سبحانه . . علمت أنه سبحانه وتعالىٰ راض عني ؛ قال تعالىٰ : ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ ، فقال الأستاذ : أحسنت يا غلام . أو كما قال [« الرسالة القشيرية » (١٥١ـ١٥٢)] .

---

(١) نوادر الأصول للحكيم الترمذي (٣/ ١٧٠) .

وسمعته يقول : ليس شيء أشرف من العبودية ، ولا اسم أتم للمؤمن من الاسم بالعبودية ، ولذلك قال سبحانه وتعالىٰ في وصفه النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج ـ وكان أشرف أوقاته في الدنيا ـ : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ ، فلو كان اسم أجل من العبودية . . لسماه به ، وفي معناه أنشدوا :

لا تَـدْعُنـي إلا بيـا عبـدهـا فـإنـه أشـرفُ أسمـائـي[1]

وسمعته يقول : المريد متحمل ، والمراد محمول .

وسمعته يقول : كان موسىٰ عليه الصلاة والسلام مريداً فقال : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ ، وكان نبيُّنا سيد المرسلين محمدٌ صلى الله عليه وسلم مراداً ، قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ .

وكذلك قال موسىٰ عليه الصلاة والسلام : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي ﴾ ، وقال تعالىٰ لنبينا صلى الله عليه وسلم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ ، وكان رضي الله عنه يقول : إن المعنىٰ : ألم تر أني ربك ، وقوله : ﴿ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ ، ستر للقضية وتحصين للحالة [« الرسالة القشيرية » (١٥٩ـ١٦٠)] .

وسمعته يقول : الإخلاص : التوقي عن ملاحظة الخلق ، والصدق التنقي من مطالعة النفس ، فالمخلص لا رياء له ، والصادق لا إعجاب له [« الرسالة القشيرية » (١٢٢)] .

وسمعته يقول : كان أبو علي الثقفي يتكلم يوماً ، فقال له عبد الله بن منازل : يا أبا علي ؛ استعد للموت ؛ فلا بد منه ، فقال أبو علي : وأنت يا عبد الله استعد للموت ؛ فإنَّه لا بد منه ، فتوسد عبد الله ذراعه ، ووضع رأسه ، وقال : قد مِتُّ ، فانقطع أبو علي الثقفي ؛ لأنه لا يمكنه أن يقابله بما فعل ؛ لأنه كان لأبي علي علاقات ، وكان عبد الله مجرداً لا شغل له [« الرسالة القشيرية » (١٦٥)] .

وسمعته يقول : الصدق : أن تكون كما يُرىٰ من نفسك ، أو تري[2] من نفسك كما تكون [« الرسالة القشيرية » (١٦٧)] .

---

(١) الرسالة القشيرية (١٥٦) .

(٢) في نسخة : (ترىٰ) في الموضعين .

وسمعت الشيخ أبا عبد الرحمـٰن السلمي رحمه الله يسأل الأستاذ أبا علي ، فقال : الذِّكر أتم ، أم الفكر ؟ فقال الشيخ أبو علي : ما الذي يقع للشيخ فيه ؟ فقال : عندي الذِّكر أتم من الفكر ؛ لأن الحق سبحانه وتعالىٰ يوصف بالذِّكر ولا يوصف بالفكر ، وما وصف به الحق جل جلاله . . أتم مما اختص به الخلق ، فاستحسنه الشيخ أبو علي رحمهما الله [« الرسالة القشيرية » (١٧٤)] .

وكان الأستاذ أبو علي يقول : إن أصحاب الكسل عن عبادة الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ : هم الذين ربط الحق جل جلاله عليهم ، فأقدامهم مثقلة بالخذلان ، فاختار لهم البعد ، فأخرهم عن محل القرب ، فلذلك تأخروا .

وسمعته يقول : مَن صاحَب الملوك بغير أدب . . أسلمه الجهل إلى القتل [« الرسالة القشيرية » (٢٢٠)] .

وسمعته يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ قال : ولم يقل : ارحمني ؛ لأنه حفظ آداب الخطاب ، وكذلك عيسىٰ عليه الصلاة والسلام حيث قال : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ وقال : ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ﴾ ، ولم يقل : لم أقل ؛ رعاية لآداب الحضرة [« الرسالة القشيرية » (٢٢٢)] .

وسمعته يقول : جاء رجل إلىٰ سهل بن عبد الله فقال : أريد أن أصحبك يا أبا محمد ، فقال : إذا مات أحدنا . . فمَن يصحب الباقي ؟ قال : الله عز وجل ، قال : فليصحبه الآن [« الرسالة القشيرية » (٢٢٩)] .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : قال أبو علي الدقاق : برهان العابدين . . زكاء أعمالهم ، وبرهان العارفين . . صفاء أحوالهم ، وبرهان المحبين . . نقاء أنفاسهم ، وبرهان العالِمين . . نشر عجائب صنعه سبحانه وتعالىٰ ، وإظهار بدائع فطرته جل جلاله .

وقال الإمام محمد ابن الإمام أبي بكر الرازي : قال الأستاذ أبو علي في التفرقة والجمع[1] : الفرق : ما نسب إليك ، والجمع : ما سلب عنك .

---

(١) يقول شيخ الإسلام زكريا الأنصاري في « شرحه على الرسالة » (٦٠) : (فالحاصل أن من كانت أفعاله لله تعالىٰ وشاهدها طاعةً له تعالىٰ . . فهو في التفرقة ، ومن شاهدها جارية عليه فضلاً من الله فقد شاهدها بالله . . فهو في الجمع ، ومن غفل عنها وعن نفسه شغلاً بالله . . فهو في جمع الجمع) .

ومعناه : أن ما يكون كسباً للعبد من إقامة وظائف العبودية ، وما يليق بأحوال البشرية . . فهو فرق ، وما يكون من قِبَل الحق جل جلاله من إبداء معان وابتداء لطف وإحسان . . فهو جمع ، ولا بد للعبد منهما ؛ فإن مَن لا تفرقة له . . لا عبودية له ، ومَن لا جمع له . . لا معرفة له ، فقول العبد : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ : إثبات للتفرقة بإثبات العبودية ، ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ : طلب للجمع ، فإذا خاطب العبد ربه إما سائلاً ، أو داعياً ، أو مثنياً ، أو شاكراً ، أو مبتهلاً . . قام في مقام التفرقة ، وإذا أصغىٰ بسره إلىٰ ما يناجيه به مولاه جل جلاله ، واستمع بقلبه ما يناديه . . فهو في مقام الجمع .

وأنشد قوَّال بين يدي الأستاذ الإمام أبي سهل الصعلوكي رحمه الله :

جَعَلتُ تنزُّهي نظري إليكَ

وكان الإمام أبو القاسم النصرآباذي حاضراً ، فقال أبو سهل : (جعلتَ) بفتح التاء ، وقال النصرآباذي : بل بضمِّها ، فقال له أبو سهل : أليس عين الجمع أتم ؟! فوافقه النصرآباذي .

وهـٰذا ظاهر ؛ لأن معناه مع الفتح : أن الله سبحانه وتعالىٰ خصص عبده بذلك منحة من فضله وكرمه ، لا صنع للعبد فيه ، ومعناه مع الضم : إثبات فعل العبد ، فكان الأول جمعاً ، والثاني تفرقة .

وأما جمع الجمع : فهو مقام آخَر أتم من الجمع وأعلىٰ ، فالجمع : شهود الأشياء بالله سبحانه عز وجل ، والتبري من الحول والقوة إلا بالله سبحانه وتعالىٰ ، وجمع الجمع : الاستغراق بالكلية ، والفناء عن ما سوى الله عز وجل ، فلا يشاهد شيئاً سواه عند غلبة سلطان الحقيقة .

وبعد ذلك مقام عزيز ، يسمونه : الفرق الثاني ، وهو أن يُرَدَّ إلى الصحو عند أداء الفرائض في أوقاتها ، فيكون رجوعاً لله بالله ، لا للعبد بالعبد .

وقال بعض المحققين رحمه الله : المراد بلفظ الجمع والتفرقة : أن الله عز وجل جمع الخلق كلهم في الأزل ، وخاطبهم بقوله تعالىٰ : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ ، ثم فرقهم بالإسعاد والإشقاء ، والتقريب والإبعاد ، والإكرام والإهانة ، وأشباه ذلك .

وللجنيد رحمه الله في معنى التفرقة والجمع :

وتحققتك في سرْ ـرِي فناجاك لساني
فاجتمعنا لمعاني وافترقنا لمعاني
إن يكن غَيَّبَك التعـ ظيم عن لحظ عِياني
فلقد صيَّرك الوَجْـ د من الأحشاء داني[1]

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) انظر « الرسالة القشيرية » (٥٩ـ٦٠) .

ومنهم الإمام :

أبو عبد الله كهمسُ بن الحسن القيسي
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان أبو عبد الله كهمس بن الحسن يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة ، فإذا مل. . يقول لنفسه : قومي يا مأوىٰ كل سوء ، فوالله ؛ ما رضيتك لله عز وجل ساعة قط .

وكان قد اشترىٰ دقيقاً ، فاستمر ذلك الدقيق عنده وهو يأكل منه ويتصدق ولا ينقص ، فلما طال عليه ذلك. . كاله ، فوجده كيوم شرائه لم ينقص منه شيء .

وقال ابن هلال : سمعت أبا عبد الله كهمس ـ ونحن بمكة ـ يقول : كان لي جار يشتري لي هٰذا التمر والرطب ، ويسأل لي عن الحوائط[1] ، فمنذ مات تركت الرطب والتمر .

وقال بشر بن الحارث رحمه الله : كان أبو عبد الله كهمس يوماً ماراً في طريق ، وكان معه دينار ، فسقط منه ، فلما علم. . رجع في طلبه ، فلما وجده. . لم يمسه ، فقيل له في ذلك ، فقال : يحتمل أن يكون غير ديناري ، ثم مضىٰ .

وقال أبو عبد الله كهمس قدس الله روحه : أكلت سمكاً يوماً ، وأخذت تراباً من حائط جاري غسلت به يدي ، فأنا اليوم منذ أربعين سنة أستغفر الله تعالىٰ وأدعو لذلك الرجل ، وأبكي علىٰ نفسي كيف أخذت التراب بغير إذن صاحبه .

وكان إذا قام من الليل. . يقول : إلـٰهي وسيدي ومولاي ؛ أتُراك معذبي وأنت قرة عيني ؟ يا حبيب قلباه ، عز جارك ، وجل ثناؤك ، ولا إلـٰه غيرك يا أرحم الراحمين .

وقال بشر بن الحارث رحمه الله : كان أبو عبد الله يصلي حتىٰ يغشىٰ عليه .

وقال إسحاق بن إبراهيم : دخلنا علىٰ كهمس في منزله ، فقرب إلينا إحدىٰ عشر

---

(١) **الحوائط** : البساتين ، والمقصود : أن جاره يسأل له ؛ حتىٰ يكون ما يأكله في غاية الحل ، وهٰذا من الورع رضي الله عنهم .

بسرة[1] ، وقال : هـٰذا الجهد من أخيكم ، والحمد لله علىٰ هـٰذه النعمة السابغة .

أسند كهمس عن خلائقَ من التابعين رضوان الله عليهم أجمعين ، وكان مشغولاً ببر أمه ، فلما توفيت . . خرج إلىٰ مكة ، وجاور بها إلىٰ أن مات رحمه الله تعالىٰ . [انتهىٰ « الصفوة » ٣/ ١٨٤ـ١٨٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) البُسر : هو التمر الذي لم يتم نضجه .

ومنهم الإمام :

علي الجَرْجَرَائي
رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال سري السقطي قدس الله روحه : كان علي الجرجرائي[1] من الزهاد الكبار ، واتفق أني خرجت من بغداد إلىٰ عبادان لأجل الرباط ، وكنت عزمت علىٰ أن أصوم بها رجباً وشعبان ورمضان ، فاتفق في طريقي علي الجرجرائي ، فقصدته وقعدت عنده ، فلما أن كان وقت الإفطار كان معي ملح مدقوق وأقراص ، فقلت له : هلم يرحمك الله ، فقال : ملحُك مدقوق ؟! [لن تفلح] ولن تدخل بستان المحبين ما دام ملحك مدقوقاً ، ثم نظرت إلىٰ مزود معه فيه سويق الشعير ، فسف منه ، فقلت له : ما دعاك إلىٰ هٰذا ؟ فقال : إني حَسَبت ما بين المضغ إلى الاستفاف قدر سبعين تسبيحة ، فما مضغت الخبز منذ أربعين سَنة ، قال : فلما دخلنا عبادان . . قلت : موعظة أحفظها عنك ؟ فقال : نعم إن شاء الله تعالىٰ :

احفظ عني خمس خصال : عانق الفقر ، وتوسد الصبر ، وعاد الشهوات ، وخالف الهوىٰ ، وافزع إلى الله سبحانه وتعالىٰ في جميع أمورك ، فإذا فعلت ذلك . . وهب الله عز وجل لك خمساً : الزهد ، ومع الزهد القُنوع ، ومع القنوع الرضا ، ومع الرضا المعرفة ، ومع المعرفة الشوق ، ثم يهب لك خمساً : السباق[2] ، والبِدَار[3] ، والتخفف ، وحسن البشارة ، وحسن المنقلب إلى الله سبحانه وتعالىٰ .

أولـٰئك أحباء الله ، قلت : فأين ترىٰ لي أن أسكن ؟ قال : ارحل نحو جبل لكام ،

---

(١) في « الحلية » : (الجرجاني) ، ولعل الصواب ما أثبت ؛ لأنها نسبة إلىٰ جرجرايا ، وهي بلد بين بغداد وواسط ، وقد خرج منها جماعة من العلماء والشعراء والكتاب والوزراء . انظر « معجم البلدان » (٢/ ١٢٣) .

(٢) **السِّباق** : أي أن يعمل الإنسان في الدنيا للاستباق في الجنة ، ومنه ما رواه الطبراني في « الأوسط » (٣/ ٣٠٧) عن عائشة رضي الله عنها ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : « اليوم المضمار ، وغداً السِّباق » .

(٣) **البِدَار** : الاحتساب عند المصائب ؛ وذلك طلباً للأجر وتحصيله بالتسليم والصبر .

قلت : فهل شيء أعيش به ؟ قال : فقطَّبَ في وجهي ، وقال لي : تفر إلى الله لأجل دِينك ، وتستبطئه في رزقك ؟! قال : ثم ذهب ، فلا والله ؛ لا أدري أَدَخل البحر ، أم لا . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ١١٠-١١١] .

وقال الإمام أبو حامد الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : انظر إلىٰ قوله : (حَسَبت ما بين المضغ إلى الاستفاف قدر سبعين تسبيحة) .

كيف أشفق علىٰ وقته ، فلم يضيعه في المضغ ؛ فإن كل نَفَسٍ من العمر جوهر نفيس لا قيمة له ، فينبغي أن تغتنمه ، فتستوفي منه خزانةً باقيةً في الآخرة لا آخر لها ، وذلك فيما إذا صرفه إلىٰ عبادة الله سبحانه وتعالىٰ ، وذِكره ، وطاعته . [انتهىٰ « الإحياء » ٣/ ٨٦] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم بالصواب

* * *

ومنهم الإمام :

أبو عبيد البُسري
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان أبو عبيد البسري صاحب كرامات :

منها : أنه كان في غزاة ، فاتفق أن المُهر الذي كان تحته مات وهو في السرية ، فقال أبو عبيد البسري : اللهم ؛ إني أسألك يا رب أن تعيرنا إياه حتىٰ نرجع إلىٰ بُسر(1) قال : فوثب المُهر قائماً ، فلما غزا ورجع من الغزاة إلىٰ بسر . . قال لابنه : يا بني ؛ خذ السرج عن المهر ، قال : يا أبتِ ؛ إنه عَرِقٌ ، فقال : يا بني ؛ إنه عارية ، قال : فلما أخذ السرج عنه . . وقع المهر ميتاً .

ومنها : أن الخادم الذي كان يخدم أبا عبيد قال : ودعته حين أردت الحج ، فقال لي : هل معك شيء ؟ قلت : لا ، ليس معي إلا هـٰذه الركوة ، فقال لي : إذا أردت شيئاً أو جعت أو عطشت . . صل ركعتين ، واجعل الركوة عن يمينك ، فإذا سلمت . . رأيت ما تحب ، قال : فجئت إلىٰ بعض المنازل وليس فيه ماء ، فقلت في نفسي : قد قال أبو عبيد ما قال ، وهو صادق ، فأخذت الركوة ، فوضعتها علىٰ يميني وصليت ركعتين ، فلما سلمت . . جاءت الرياح والمطر بماء كثير ، فقمت ، فأخذت الركوة ، ثم صحت بالناس ، فجاؤوا واستقوا حتىٰ ملؤوا رواياهم(2) .

ومنها : ما حكاه أبو زرعة عنه قال : كان أبو عبيد بعرفات وإلىٰ جانبه ولده ، فالتفت إليه وقال له : ليهنك الفارس ، [فقال له : يا أبت ؛] وأي فارس ؟ [فقال له :] ولد لك الساعةَ غلام ، قال : فلما وصل إلىٰ منزله في بسر . . وجد امرأته قد ولدت غلاماً في تلك الساعة .

ومنها : قال خادمه : كنت جالساً مع أبي عبيد في السوق بدمشق ، وكان معنا جماعة من

---

(1) بُسر : اسم قرية من أعمال حوران من أراضي دمشق ، ولعلها قرب إزرع . انظر « معجم البلدان » (١/ ٤٢٠) .

(2) مفردها : راوية ، وهي : المزادة يوضع فيها الماء .

إخوانه ؛ إذ مر بنا رجل علىٰ دابة ، وخلفه غلام له بيده غاشية[1] ، فلما حاذىٰ أبا عبيد . . قال : اللهم ؛ أعتقني وأرحني منه ، ثم قال : يا أبا عبيد ؛ ادع الله عز وجل لي ، فقال أبو عبيد : اللهم ؛ أعتقه من النار ومن الرق ، فعثرت الدابة بمولاه في الحال ، فسقط إلى الأرض ، فالتفت إلى الغلام ، وقال : أنت حر لوجه الله عز وجل ، فرمى الغلام الغاشية إليه ، وقال : يا مولاي ؛ أنت لم تعتقني ، إنما أعتقني هٰذا ، ثم لزم أبا عبيد وصحب أصحابه إلىٰ أن توفي بينهم .

وقال ابن أبي حسان : قال لي أخي أبو عبيد يوماً : يا حسان ؛ ما غَمِّي ولا أسفي إلا علىٰ ما قصرت في واجب حق الله تعالىٰ ، ثم قال : لو قمت على الجمر أبد الآبدين . . لكنت مقصراً ، وما ثَم إلا عفوه ومغفرته سبحانه وتعالىٰ .

وقال أبو عبيد : إن لله عز وجل عباداً يريهم في بدايتهم ما في نهايتهم . [انتهىٰ « الصفوة » ٤/١٦٨-١٦٩] .

وقال في « بهجة الأسرار » : قال ابن أبي حسان رحمه الله : جاء ابن أبي عبيد البسري إلىٰ أبيه ، فقال : يا أبت ؛ خرجت بسمنٍ في جرارٍ ، فوقعت الجرار وتكسرت ، فذهب ما فيها من السمن ، فذهب رأس مالي ، فقال له أبوه : يا بني ؛ اجعل رأس مالك رأس مال أبيك ، فوالله ؛ ما لأبيك رأس مال في الدنيا ولا في الآخرة غير الله سبحانه وتعالىٰ . [انتهىٰ] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) **الغاشية** : الغطاء .

ومنهم الإمام :

أبو الفوارس شاهُ بن شجاع الكرماني
رضي الله عنه

قال في « أُنس المنقطعين » : كان سبب زهده وخروجه عن ملك كرمان : أنه خرج يوماً للصيد ، فأمعن في الطلب حتىٰ وقع في برِّية مقفرة وحده ، ليس معه من الجيش أحد ؛ فإذا هو بشاب راكب علىٰ سبع وحوله سباع ، فلما رأته السباع . . ابتدرت إليه ، فزجرهن ذلك الشاب عنه ، فلما قرب منه . . سلم الشاب عليه ، وقال له : يا شاه ؛ ما هٰذه الغفلة عن الله عز وجل ، واشتغالك بدنياك عن أمر آخرتك ، وبلذتك عن خدمة مولاك رب العالمين جل جلاله ؟! فهو سبحانه إنما أعطاك الدنيا لتستعين بها على الآخرة ، وترتحل بها إلىٰ مولاك ، فجعلتها أنت ذريعة إلى الاشتغال بحظوظ نفسك .

قال : فبينما الشاب يحدث شاه ؛ إذ ظهرت عجوز بيدها شربة فيها ماء ، فناولتها الشاب ، فشرب ، ثم دفع بقيته إلىٰ شاه ، فشرب وقال : والله ؛ ما رأيت شيئاً ألذ منه ، ولا أبرد ، ولا أعذب ، ثم غابت العجوز ، قال : فقلت : مَن هٰذه ؟ فقال الشاب : هٰذه الدنيا ، وَكَّلها الله عز وجل بخدمتي ، فما احتجت إلىٰ شيء إلا أحضرته حين يخطر ببالي ، أمَا بلغك أن الله تعالىٰ لما خلق الدنيا . . قال لها : (يا دنيا ؛ مَن خدمني . . فاخدميه ، ومَن خدمك . . فاستخدميه)[1] .

فلما رأىٰ شاه ذلك . . ترك المُلك وتزهد ، وعزفت نفسه عن الدنيا ، إلىٰ أن كان منه ما كان . انتهىٰ .

وقال أبو الفرج : كان أبو الفوارس من أبناء الملوك ، فترك الملك وتزهد ، وكان حاد الفراسة ، قلما أخطأت فراسته .

وكان يقول : **مَن غض بصره عن المحارم ، وأمسك نفسه عن الشهوات ، وعمر باطنه**

---

(١) أخرجه بنحوه الديلمي (٥/٢٣٩) .

بدوام المراقبة وظاهره باتباع السُّنة ، وألزم نفسه أكل الحلال . . لم تخطىء له فراسة .

وكان يقول : كل مَن صاحبك ووافقك علىٰ ما يحب وخالفك علىٰ ما يكره . . فإنما يصحب هواه ، ومَن صحب هواه . . فهو يطلب راحة الدنيا ، فاحذر صحبة مثل هٰذا .

وقال : إن لأهل الفضل فضلاً ما لم يروه ، فإذا رأوه . . فلا فضل لهم ، وإن لأهل الولاية ولاية ما لم يروها ، فإذا رأوها . . فلا ولاية لهم .

صحب أبو الفوارس أبا تراب النخشبي ، وأبا عبيد البسري ، وغيرهما .

قال عبد الله بن محمد الرازي : أظنه توفي بعد المئتين وسبعين رحمه الله . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٤٣ـ٤٤] .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال أبو الفوارس شاه الكرماني رحمه الله : مِن علامة حب الله عز وجل . . حب أوليائه ، **ومَن نظر إلى الخلق بعينه . . طالت خصومته معهم ، ومَن نظر إليهم بعين الحق . . عذرهم فيما هم فيه ، وقَلَّ اشتغاله بهم .**

وكان أبو الفوارس يقول لأصحابه : أخبروني بما يجري علىٰ سركم ، فإذا أخبروه . . داوىٰ كلَّ واحد منهم بما يصلح له ، ويقول : ليس بعاقل مَن كتم داءه عن الطبيب .

وكان يقول : مِن علامة الركون إلى الباطل . . القرب والاجتماع بأهله .

وقال محمد بن أحمد : كنت عند سهلٍ التستري يوماً ، فسقطت حمامة بيننا ، فجعلت أُنحِّيها وهي لا تتحرك ، فقال لي سهل : أطعمها واسقها ، ففعلْتُ ، فأكلَتْ وشربَتْ ، ثم طارت ، فقلت لسهل : ما خبر هٰذه ؟ فقال لي : يا أبا عبد الله ؛ كان لي أخ بكرمان مات اليوم ، فجاءت هٰذه تعزيني فيه .

و[قال أبو عبد الله : وأظنه ذكر] شاه بن شجاع الكرماني ، وكان من الأبدال ، فأرَّخْتُ ذلك اليوم ، فقدم قوم من أهل كرمان بعد أيام وأخبرونا بموته ، وعَزَّونا فيه ، وذكروا أنه مات في ذلك اليوم الذي جاءت الحمامة فيه . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/٢٣٧ـ٢٣٨] .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ : كان بين يحيى بن معاذ الرازي الذَّكَّار وبين أبي الفوارس شاه الكرماني صداقة ومودة أكيدة .

وكان شاه لا يحضر مجلس يحيى بن معاذ ، فتعجب الناس من ذلك ؛ لِمَا بينهما من المودة والأُلفة ، فقال بعض الناس لشاه الكرماني : يا سيدي ؛ لِمَ لا تحضر مجلس يحيىٰ وهو صاحبك ؟ فلم يجبه ، وسكت ، فأعاد القول مراراً وشاه الكرماني ساكت ، ثم إن

الناس ما زالوا به حتىٰ إنه حضر يوماً ، وجلس في مكان لا يشعر به يحيىٰ ، فلما جلس يحيىٰ علىٰ عادته وأراد أن يتكلم . . أرتج عليه[1] ولم يقدر أن يتكلم ، فقال : هـٰهنا مَن هو أولىٰ بالكلام مني ، فلا أقدر على الكلام لمكانه ، فعند ذلك عرف الحاضرون عذر شاه في امتناعه من الحضور ، ولـٰكنه ما كان يمكنه أن يُظهر لهم عذره في عدم الحضور ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

قال أبو القاسم القشيري ـ قدس الله روحه ـ : قال أبو علي الدقاق رحمه الله : كان أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرماني يغلب عليه السهر ، فغلبه النوم مرة ، فرأىٰ في منامه الحق جل جلاله ، فصار بعد ذلك يتكلف النوم طمعاً في رؤية الباري عز وجل ، فلما قيل له في ذلك . . أنشد :

رأيـت سـرور قلبـي فـي منـامـي فـأحببـت التنـاعـس والمَنَـامـا[2]

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : قال أبو الفوارس شاه بن شجاع المروزي ثم الكرماني رحمه الله : حقيقة المحبة : خوف ترك الحرمة مع إقامة الحدود في أوقات الخدمة ، وإسبال الدموع في حال الرضا ؛ حذراً من الانقطاع والهجر ، فيؤدي طاعة المحبوب علىٰ أشرف الأحوال ، وينظر إليها بأصغر العيون ، فيخضع لمحبوبه نظراً إلىٰ كثرة مِننه عليه ، ومعتقداً تقصيره في طاعته له ، فتجري دموعه تحسراً ، ويدوم حزنه تحيراً .

وقال أيضاً : المحبة : إيثار إرادات المحبوب ، ومحبة محبوب المحبوب .

فإن محبة أولياء الله عز وجل دليل علىٰ محبة الله سبحانه وتعالىٰ ، والتورع عن الشبهات دليل علىٰ خشية الله تبارك وتعالىٰ ، والتأول عليها دليل علىٰ سخط الله .

فعلامة التقوىٰ : الورع ، وعلامة الورع : تجنب الشبهات ، وعلامة المشاهدة : دوام الحزن ، وعلامة الخوف : إسبال الدموع ، وعلامة الرجاء : حسن الطاعة ، وعلامة الزهد : قصر الأمل ، والعُجب نفسه دليل على الحجاب ، **وأصل المحبة** : التسليم والرضا لما يفعله المحبوب .

قيل : دخل أبو سليمان علىٰ بعض أصحابه يعوده وقد أشرف على الموت ، فقال له : مم

---

(١) **أُرتج عليه** : أستَغلَق عليه الكلام .
(٢) الرسالة القشيرية (٣٠٦) .

تشكو إلى الله عز وجل ؟ قال : مِن قلة البلاء ، فقال : ما هٰذا التجلُّد ؟ فقال : طلباً للرضا ، ثم قال : يا شيخ ؛ سله أن يزيدني سبحانه وتعالىٰ من البلاء ، فكل ما عندي عطاء ، ومَنِ العبدُ حتىٰ لا يفتخر بما يرضىٰ له مولاه جل جلاله ؟! ثم ذكر الشهادتين وفارق الدنيا ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو يعقوب الزيات
رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : كان أبو يعقوب الزيات مغتنماً[1] أوقاته ، مشتغلاً بنفسه يراعي خطراته .

وقال أبو القاسم الجنيد : قصدت زيارة أبي يعقوب الزيات ، وكان معي جماعة ، فلما جئت إلىٰ منزله . . طرقت الباب ، فقال لنا مِنْ داخل الباب : أما كان لكم من الشغل بالله سبحانه وتعالىٰ ما يمنعكم عن المجيء إلي ؟ قال : فقلت له : إن مجيئنا إليك هو من شغلنا بالله سبحانه وتعالىٰ ، فلا تقطعنا عنه ، ففتح الباب ، فلما جلسنا . . سألته عن مسألة في التوكل ، فأخرج درهماً كان عنده ، ثم أجابني ، فأعطى التوكل حقه ، ثم قال لي : إني استحييت من الله عز وجل أن أجيبك وعندي شيء .

قال : فقلت له : ما تقول فيمن له في كل علم حظ ، وهو مع ذلك يحسن القيام بصفات الحق جل جلاله وصفات الخلق ، هل له مجالسة الناس ؟ فقال : إن كنت أنت . . هو ، وإلا . . فلا . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ٢٢٣ـ٢٢٤] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : قد وقع مثله لجماعة كثيرة من العارفين رحمهم الله .

منهم : سيدي السري رحمه الله ، وقد مر في ترجمته .

ومنهم : أبو علي الروذباري رحمه الله ؛ فإنه جرت مسألة بين جماعة من الشيوخ ـ وفيهم أبو علي ـ فتكلموا فيها وأبو علي ساكت ، فقالوا : يا أبا علي ؛ لِمَ لا تتكلم ؟ فقال : رأيت طريقها طريق المعاملة ، فاستحييت من الله عز وجل أن أتكلم فيها .

وقال الجنيد : كان أبو بكر بن مسلم رجلاً نبيلاً يظن أن كل متكلم وبائع ومشتر مشغول بذِكر الله عز وجل .

---

(١) في نسخة : (مُقَسِّماً) .

وكان قد تقدم إلىٰ أصحابه ألاَّ يأتوه بين الظهر والعصر ، فجئت يوماً في ذلك الوقت ودققت الباب ، فقال : مَن هـٰذا ؟فقلت : الجنيد ، فقال لي : أمَا كان من الشغل بالله عز وجل ما يمنعك من المجيء إلي ؟ فقلت : إذا كان مجيئُنا إليك . . كان من شغلنا بالله سبحانه وتعالىٰ ، فلا تقطعنا عنه ، ففتح الباب ، فدخلت عليه ، فلم أزل أذاكره حتىٰ أخذ علي وعداً متىٰ أرجع إليه ، فلما خرجت من عنده . . وجدت علىٰ باب داره رجلاً من أصحابه ، فسألني عن التوبة ، فقلت له : منذ كم تصحب هـٰذا الشيخ ؟ فقال : منذ ثلاثين سَنة ، فقلت له : ما أعجب هـٰذا الأمر! تصحب إمامنا ثلاثين سَنة ، وتسألني أنا عن التوبة ؟! فقال : دع عنك هـٰذا ، حكم المسلم أن يعرف التوبة في كل وقت ، وأن يتوب إلى الله عز وجل ، فعلمت أنه أفقه مني . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو الحسين أحمد بن محمد النوري
رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : كان عبد الله بن أحمد بن محمد الباهلي يعرف بغلام الخليل[1] ، قد حصل له محنة ، وكان أبو الحسين النوري رحمه الله تعالىٰ يجتمع عنده غلام الخليل وغيره[2] .

قال عمر البناء البغدادي : فلما كانت محنة غلام الخليل . . امتُحن النوري أيضاً ، وسُعي به وبجماعة إلى الخليفة ، فأمر الخليفة بالقبض عليهم ، وأُخذ النوري مع جماعة ، فأدخلوا على الخليفة ، فأمر بضرب أعناقهم .

فتقدم النوري مسرعاً إلى السَّيَّاف ليضرب عنقه ، فقال له : ما دعاك إلى المسارعة إلى القتل من بين أصحابك ؟ فقال : أؤثر حياتهم علىٰ حياتي هـٰذه الساعة ، فتوقف السَّيَّاف عن قتله ، فتعجب الحاضرون من أمره ، ثم رُفع الأمر إلى الخليفة ، فتعجب ، ورَدَّ أمرهم إلىٰ قاضي القضاة ، وكان القاضي يومئذ إسماعيل بن إسحاق ، فلما حضروا إليه . . تقدم أبو الحسين النوري . . فسأله القاضي عن عدة مسائل في العبادات ، فأجاب بأحسن جواب ، ثم قال له : وبعد هـٰذا ، فلِله عباد يسمعون بالله ، وينطقون بالله ، ويَصْدُرون بالله ، ويَرِدون بالله ، وحركاتهم كلها بالله ، فإن قاموا . . قاموا بالله ، وإن نطقوا . . نطقوا بالله .

فلما سمع القاضي كلامه . . بكىٰ بكاء كثيراً ، ثم قام ودخل إلى الخليفة ، وقال : يا أمير

---

(١) كذا في جميع النسخ ، خلافاً لما ورد في أكثر المراجع من أن غلام الخليل : هو لقب لأحمد بن محمد الباهلي ، ويكنىٰ بأبي عبد الله . انظر « سير أعلام النبلاء » (١٣/ ٢٨٢) و« تاريخ بغداد » (٥/ ٧٥) و« المنتظم » (٥/ ٩٦) .

(٢) أما المحنة : فهي ما جرىٰ علىٰ لسانه من نسبة الصوفية إلى الزندقة عندما حاول الرد عليهم ، فكان ينكر الخطأ بخطأ أغلظ منه ، فأمر الخليفة بالقبض عليه وعلىٰ كل من كان يجالسهم ويجتمع معهم ، ومنهم أبو الحسين النوري . انظر « تاريخ بغداد » (٥/ ١٣٤) و« سير أعلام النبلاء » (١٣/ ٢٨٤) .

المؤمنين ؛ إن كان هـٰؤلاء القوم زنادقة.. فما علىٰ وجه الأرض مسلم ، فأمر الخليفة بإطلاقهم .

وكان القاضي قد سألهم : مِن أين تأكلون ؟ فقالوا : لسنا نعرف الأسباب التي بها يُطلب الرزق ، إنما نعرف مسبب الأسباب الخالق الرازق سبحانه وتعالىٰ .

ولما خلص النوري من المحنة.. أقام بالرقة سنين متخلياً عن الناس ، ثم بعد ذلك عاد إلىٰ بغداد ، وقد فقد أناسه وجُلاَّسه ، فانقبض عن الكلام ؛ لضعف في بصره وانحلال في جسمه وقوته رحمه الله .

وحج أبو الحسين النوري مرة ، ثم قدم مكة في غير أوان الحج ، فخرج أصحابه للقائه ، فرأوه متغيراً ، فقالوا له : يا أبا الحسين ؛ هل تغير الأسرار من تغير الأَبشار ؟ فقال : لا ؛ لأن الحق جل جلاله يدفع عن قلوب أوليائه كل تعب ونصب .

وعن جعفر بن الزبير الهاشمي قال : رأيت أبا الحسين النوري وقد دخل يوماً في الماء ، فجاء لص وأخذ ثيابه ، فلما عرف.. مكث في الماء لحظة ، فلم يكن بأسرع من أن رجع اللص ومعه ثياب النوري علىٰ يده اليسرىٰ ، ويده اليمنىٰ قد جفت ، فقال له النوري : تتوب إلى الله عز وجل ؟ قال : قد تبت ، فقال : يا رب ؛ أنت العالم بكل شيء ، قد رد علي ثيابي فرد عليه يمينه ، قال : فرد الله عز وجل عليه يمينه ، ثم ذهب وصار ناسكاً . [انتهىٰ « الحلية » ١٠/٢٤٩ـ٢٥١] .

زاد في « لوامع أنوار القلوب » : قال جعفر الدبيلي(١) : كنت مع أبي الحسين النوري ، فدخل الماء ، فتأملت جسده كالخلال(٢) ، ووجهه كهالة البدر ، فقلت له : قد ضعفتَ لمكان ضعف قوتك ، فقال : بعناه سبحانه الأرواح والأنفس ، واشترىٰ سبحانه وتعالىٰ ، وهو سبحانه أملَكُ بما اشتراه ، إن شاء.. أتلفه ، وإن شاء.. أحياه ، وقد بقي لنا القلب ، فأرجو أن يكون قد صلح لمعرفته ، ثم قال : وأين نحن حتىٰ نقول صلح لمحبته ؟ قال : فبينا أنا في طيب الكلام معه ؛ إذ جاء لص وسرق ثيابه... ثم ذكر باقيه . [انتهىٰ] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : كان النوري قد مرض مرة والجنيد قد مرض أيضاً في ذلك الوقت ، فأما الجنيد.. فإنه أخبر عن علته ، وأما النوري.. فإنه كتم أمره ، فقيل له : لِمَ لَمْ

---

(١) في نسخة : (الديبلي) .

(٢) أي : كالعود نحافة .

تخبر كما أخبر صاحبك ؟ فقال : ما كنا نُبتلىٰ ببلوىٰ فتقع عليها الشكوىٰ ، ثم أنشأ يقول :

إن كنتُ للسُّقْم أهلا ... فأنت للشكر أهلا
عَذِّبْ فلم يبق قلب ... يقول للسُّقْم مهلا

فأُخبر الجنيد بأمر النوري من الكتمان ، فقال الجنيد : لم يقع ذلك علىٰ سبيل الشكوىٰ ، ولـٰكن القصد إظهار الفاقة لدفع البلوىٰ .

وكان أبو الحسين النوري يوصي أصحابه بأنهم لا يخالطون من كان فيه أحد هـٰذه الأوصاف :

الأول : قال : كل مَن رأيت حاله يخرجه عن الكتاب والسُّنة . . فلا تقربن منه .

و[**الثاني**] : كل مَن رأيته يركن إلىٰ غير أبناء جنسه أو يخالطهم . . فلا تقربن منه .

و[**الثالث**] : كل مَن رأيته يسكن إلى الرئاسة والتعظيم . . فلا تقربن منه ، ولا ترجو فلاحه .

و[**الرابع**] : كل فقير رجع إلى الدنيا . . فلا تقربن منه .

و[**الخامس**] : كل مَن رأيته مستغنياً بعلمه . . فلا تأمن جهله .

و[**السادس**] : كل مَن رضي عن نفسه وسكن إلىٰ حاله . . فهو مخدوع . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ٢٥١_٢٥٢] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : أبو الحسين النوري رحمه الله تعالىٰ ولد ببغداد ، ونشأ بها ، وهو خراساني الأصل ، من قرية بين هراة ومرو الروذ يقال لها : بغو[1] ، ولذلك كان يعرف بابن البغوي .

قال أبو أحمد المغازلي رحمه الله : ما رأيت أعبد من النوري ، قيل له : ولا الجنيد ؟ قال : ما رأيت أعبد من النوري .

قال : وكان عنده كوز يسع خمسة أرطال ماء بالعراقي ، يشربها في خمسة أيام وقت الفطر .

وقال أبو جعفر الفرغاني : مكث أبو الحسين النوري عشرين سَنة يأخذ كل يوم رغيفين ، ويخرج إلى السوق يتصدق بهما ، ثم يدخل المسجد ، فلا يزال يصلي إلىٰ أن يجيء وقت

---

(١) ويقال لها : (بغشور) أيضاً . « معجم البلدان » (١/ ٤٦٨) .

سوقه ، فيقوم ، فيدخل السوق ، فيظن مَن في السوق أنه قد أكل في بيته ، ويظن مَن في بيته أنه قد أكل في السوق ، ولا يشعرون أنه صائم .

وقال أبو عمرو الأنماطي : اعتل النوري ، فبعث إليه الجنيد بصُرَّة فيها دراهم ، فردها ولم يقبلها ، ثم إن الجنيد اعتل ، فدخل عليه النوري عائداً ، وقعد عند رأسه ، ووضع يده الكريمة علىٰ جبهته ، فعوفي من ساعته .

وسئل أبو الحسين النوري عن الرضا فقال : عن وجدي تسألون ، أم عن وجد الخلائق ؟ فقيل له : عن وجدك ، فقال : لو كنت في الدرك الأسفل من النار . . لكنت أرضىٰ مِن بعض مَن هو في الجنان في الفردوس .

صحب النوري سرياً السقطي ، وأسند عنه ، وتوفي قبل الجنيد ، سَنة خمس وتسعين ومئتين . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٢٦٤] .

وقال أبو القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ : قال أبو الحسين النوري رحمه الله : إن الحق جل جلاله لما شاهد القلوب . . لم ير قلباً أَشْوَقَ إليه من قلب محمد صلى الله عليه وسلم ، فأكرمه بالمعراج تعجيلاً للرؤية والمكالمة . انتهىٰ .

وقال في « مناقب الأبرار » : كان أبو الحسين النوري مشغولاً بعبادة الله سبحانه وتعالىٰ ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، ومتىٰ رأىٰ منكراً . . غيَّره جُهدَه .

فلما كان ذات يوم . . جاء إلى الشط ليتوضأ ، فرأىٰ سفينة فيها نحو من ثلاثين دناً مكتوباً عليها بالقار : لطف ، فعجب من ذلك واستغربه ؛ فإنه لم يعرف في أصناف البضائع شيئاً اسمه : لطف ، فقال للملاح : ما في هـٰذه ؟ فقال الملاح : وما عليك من ذلك ؟! امض لسبيلك ، فقال له : أخبرني بما فيها ، فقال : أنت ـ والله ـ فضولي ، هـٰذا خمر للخليفة المعتضد ، فلما قال ذلك . . أخذته الغَيرة لله عز وجل ، فقال : أعطني ذلك المدرىٰ[1] ، فدفع إليه ذلك الملاح المدرىٰ لينظر ما يصنع ، فأخذ أبو الحسين المدرىٰ ، وصعد إلى السفينة ، ولم يزل يكسر دناً دناً حتىٰ إذا لم يبق إلا دنٌّ واحد . . تركه ، والملاح يستغيث ، فركب بعض حاشية المعتضد وقبضوا النوري ، وأحضروه إلى المعتضد ، وكان المعتضد سيفه قبل كلامه .

---

(١) المدرىٰ : خشبة ذات أطراف ، وهي الخشبة التي يذرىٰ بها الحَب وينقّىٰ .

فلما أدخل عليه.. قال له : مَن أنت ؟ قال : محتسب ، فقال : مَن ولاك الحسبة ؟ قال : قلت : الذي ولاك الخلافة ، فقال : وما حملك علىٰ ما صنعت ؟ قال : قلت : شفقة مني عليك ، فبسطت يدي إلىٰ إزالة المكروه عنك ، فأطرق مفكراً في كلامي ، ثم رفع رأسه وقال : كيف تركت هٰذا الدن من باقي الدنان ؟ قال : فقلت : في تركه سر لطيف ، فقال : وما هو ؟ فقلت له : إني لما أقدمت علىٰ كسر الدنان.. غبت عن نفسي ، وزالت رؤية الخلق عني ، فأقدمت عليها في حال الاستغراق ومطالبة الحق جل جلاله إياي بذلك ، وانغمر قلبي بعظيم الاحترام ، وخوف المطالبة منه سبحانه وتعالىٰ ، فلما بلغت إلىٰ هٰذا الدن.. عادت إلي نفسي ، وخامر قلبي هوىً ، وقلت : إني قد أقدمت علىٰ هٰذا الفعل مع الخليفة ، فامتنعت من كسره لذلك ، ولو استمرت الغيبة والخاطر الأول.. لكسرته ، فقال له المعتضد : قد أطلقتُ يدك ووليتك الحسبة ، فغيِّر ما أحببت ، فقال : لا أفعل ؛ لأني كنت أغير المنكر لله عز وجل عن الله ، فلا أستطيع أن أغيره بولاية مخلوق مثلك ، فقال له : وما حاجتك ؟ قال : تأذن لي بالانصراف ، قال : فأذن له .

فلما خرج من عنده.. انحدر إلى البصرة ، وأقام بها إلىٰ أن توفي المعتضد ؛ خوفاً من الشفاعة عنده في حاجة ، ثم عاد إلىٰ بغداد .

زاد في رواية أخرىٰ : أن الدنِ الذي لم يُكسر لما فتح.. وجدوه خلاً .

وكان أبو الحسين النوري يتمنى الجهاد كثيراً ، وكان يسأل الله تعالىٰ في غالب أوقاته الغزاة مع الكفار ، قال : فرأىٰ في منامه ليلة كأن ملَكاً قد نزل من السماء ، وهو يقول له : إنك لو دخلت الثغر وغزوت.. أُسرت ، ولو أُسرت.. ارتددت ، فإذا سَأَلت.. فاسألِ الله تعالى العافية والإماتة على التوحيد ، قال : فلما استيقظ.. لم يعد يسأل الغزاة .

قالوا : وكان من كراماته رحمه الله : أنه كان إذا دخل مسجد الشونيزية.. ينقطع ضوء السراج ، وإذا نام في موضع.. لا تؤذيهم البراغيث .

ولما احتُضِر.. حضره بعض أصحابه ، فقال له : يا أبا الحسين ؛ هل تشتهي شهوة ؟ قال : فرفع رأسه وقد انكسر لسانه ، وقال : إي والله ؛ أشتهي شهوة كبيرة ، فقيل : وما هي ؟ قال : أشتهي رؤية الله عز وجل ، ثم تنفس نفساً عالياً كالمتواجد ، وفارق الدنيا رحمه الله . انتهىٰ .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ : لما احتُضِر النوري رحمه الله تعالىٰ..

قيل له : قل : لا إلـه إلا الله ، فقال : أليس إلىٰ ثَمَّ أمرٌ[1] ؟! ثم توفي رحمه الله تعالىٰ . انتهىٰ [« الرسالة القشيرية » ٢٣٨] .

زاد في رواية أخرىٰ : أليس إليه عز وجل أمر ؟!

وقال في « المنتخب » : قال أبو الحسين النوري رحمه الله : لا يصح للعبد مقام المشاهدة وفيه نظر إلىٰ غير الله عز وجل ، ومتىٰ طلع الصباح . . استُغني عن ضوء المصباح ، وأنشد :

فلما استبان الصبح أَدْرَجَ ضوؤُه ... بأنواره أنوارَ ضوء الكواكبِ
يجرِّعهمْ كأساً لو ابتُلِيَتْ لظىً ... بتجريعها طارت كأسرع ذاهبِ

وقال في « المختار »[2] :

قال الجنيد : منذ مات النوري رحمه الله . . لم يخبر عن حقيقة الصدق أحد .

وسئل النوري عن مسألة فأنشد :

وكم رمتُ أمراً خِرْتَ لي بانصرافه ... فما زلتَ بي مني أَبَرَّ وأرحما
عزمتُ علىٰ ألاَّ أُحِسَّ بخاطر ... على القلب إلا كنتَ أنت المقدَّما

وروي أنه كان سبب موته أنه سمع قائلاً ينشد هـٰذا البيت :

ما زلتُ أنزل من ودادك مَنزِلاً ... تتحير الألباب عند نزولِهِ

فهام وتواجد ، ثم مات رحمه الله تعالىٰ . [انتهىٰ] .

وقال في « المختصر » : روي أنه جاع بالبادية أياماً ، فهتف به هاتف : أيما أحب إليك سبب أو كفاية ؟ فقال : الكفاية ليس فوقها نهاية ، فبقي بعد ذلك سبعة عشر يوماً لم يأكل .

وكان النوري والجنيد يسميان ببغداد طاووسا العباد . انتهىٰ .

وقال الإمام محمد ابن الإمام أبي بكر الرازي رحمهما الله :

قال أبو الحسين النوري رحمه الله : الجمع بالحق . . تفرقة عن غيره ، والتفرقة عن غيره . . جمع به .

---

(١) في « الرسالة القشيرية » : (أليس إليه أعود) .

(٢) جاء في نسخة : (قال في « المناقب ») .

وقال : مَن وصل إلىٰ وده . . أنس بقربه ، ومَن توصل بالوداد . . فقد اصطفاه من بين العباد .

وقال : مَن عقل أن الأشياء كلها بالله سبحانه وتعالىٰ . . فرجوعه في كل حالاته إليه .

وسئل النوري عن الفقير الصادق فقال : مَن لا يتهم الله عز وجل في الأسباب ، ويسكن إليه في كل حال .

وقيل له : لِمَ لَمْ تتكلم علىٰ إخوانك ؟ فقال : لأنهم في سفر الوحشة .

وقال أبو حفص عمر النجار : دخل شيخنا أبو بكر الشبلي رحمه الله علىٰ أبي الحسين النوري وهو معتكف ، فوجده ساكناً حَسَنَ الاجتماع لا يتحرك من ظاهره شيء ، فقال : مِن أين أخذت هـٰذه المراقبة والسكون يا أبا الحسين ؟ فقال : من سِنَّور كانت لنا ، إذا أرادت الصيد . . لا تتحرك لها شعرة . [انتهىٰ] .

وقال في « **بهجة الأسرار** » : سئل النوري رحمه الله عن رتب المعرفة فقال : لا تصل إلىٰ أوائل أول مبتدأ حواشي علم المعرفة حتىٰ تخوض إلى الله عز وجل سبع بحار أشد من النيران ، بحراً بعد بحر ، فعسىٰ بعد ذلك يقع لك أوائل علم المعرفة ، وأنشد :

إلى الله أشكو طول شوقي وحيرتي ... ووجدي بما طالت عليَّ مطالبُهْ[1]

ومن قد برىٰ جسمي وكدَّر عِيشتي ... ويمنعني الماء الذي أنا شاربُهْ

فياليت شعري ما الذي فيه راحتي ... وما آخر الأمر الذي أنا طالبُهْ

وقال أبو الحسين[2] المالكي رحمه الله : كنا جلوساً عند أبي الحسين النوري ، فوقف علىٰ مجلسه رجل ونظر إليه ساعة ، ثم قال : مَن منكم النوري ؟ فأشير إليه ، فقال له : يا أبا الحسين ؛ تعرفني ؟ فقال : أما المعرفة . . فلا ، ولـٰكن أنت رجل ذِمِّي ، قال : فضحك الرجل ، وسُمع منه ، وهو يقول : حَصَّلتُ والذي فلق البحر لموسى بن عمران ـ علىٰ نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ ثم قال : أنا أشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال بعض جلساء النوري : ما قصتك ؟ قال : إني قرأت الكتب الأربعة ، فوجدت

---

(١) في بعض النسخ : (وحسرتي) .
(٢) في بعض النسخ : (أبو الحسن) .

فيها : أن في أمة أحمد صلى الله عليه وسلم قوماً يحكمون بنور سرائرهم على المغيَّبات ، فما زلت أطلب هـٰذا الوصف حتىٰ وجدت هـٰذا الرجل الذي لم يرني قبل يومي هـٰذا قط ، ولا رأيته ، فحكم عليَّ بما هو فيَّ مغيَّب ، فعلمت أنه منهم .

وكان النوري يقول : نعت الفقير : السكون عند العدم ، والبذل والإيثار عند الوجود .

وقال أبو محمد المغازلي رحمه الله : سمعت أبا الحسين النوري يقول : اشتهى الصبيان عَلَيَّ تفاحاً ، فجئت إلىٰ مسجد الشونيزية ، فصليت فيه ركعتين ، ثم نمت ، فلما استيقظت . . وجدت في المسجد تفاحاً كثيراً ، فملأت كمي وخرقة كانت معي من ذلك التفاح ، وشددت تلك الخرقة ، وحملتها علىٰ رأسي إلى البيت .

وقال الحسن بن علي رحمه الله : كنت في مجلس النوري ، فقال لي أبو عبد الله بن المفضل : سل الشيخ النوري : كيفَ الطريق إلى اجتماع القلب ووجود الرب جل جلاله فيه ولو طرفة عين ؟ قال : فسألته ، فتبسم ، ثم قال : هيهات هيهات! أنا أعرف إنساناً منذ عشرين سنة بين الوجد والفقد ، إذا وجد ربه عز وجل . . فقد قلبه ، وإذا وجد قلبه . . فقد ربه سبحانه وتعالىٰ ، ولم يجتمعا له منذ صحَّت المعرفة ، فأنَّىٰ لي بمعرفة الوصول إلىٰ ذلك والاهتداء إلىٰ أن أدل عليه غيري ؟!

وأنشد أبو العباس بن عطاء لأبي الحسين النوري رحمهما الله :

الوجد يُطرِب مَن بالوجد راحته ... والوجد عند حضور الحق مفقودُ
فكـان يُطـرِبنـي وجـدي فـأفقـدنـي ... عن رؤية الوجد من بالوجد موجود

وقال أبو الحسن رحمه الله : كان أبو الحسين النوري يقول : اللهم ؛ قوِّنا علىٰ قَبول ما نعقله عنك ، حتىٰ نلقاك به راشدين يا أرحم الراحمين . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

جابرٌ الرَّحَبي
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : كان جابر الرحبي من أصحاب الكرامات ، فاتفق أن أبا جعفر الخصاف كان ماشياً إلىٰ جانب الشط ، فرأىٰ جابراً الرحبي ، فمشيا ساعة ، ثم قال جابر الرحبي لأبي جعفر الخصاف : خذ أنت في هـٰذا الطريق وأنا في هـٰذا الطريق ، قال أبو جعفر : فمررت على الجسر ، ثم نظرت ؛ فإذا جابر الرحبي يمشي على الماء ، ينتضح الماء من تحت قدميه مثل ما يخرج الغبار من تحت قدمَي الماشي ، قال : فلما التقينا . . قلت له ما رأيتُ منه ، فجعل يعارضني ، ثم استحلفني ألاَّ أذكر ذلك ما دام حياً أو كما قال . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ١٦٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو الحسن خيرُ النسَّاج

رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ قدس الله روحه ـ : كان أبو الحسن خير النساج من أهل سامُرَّاء ، سكن بغداد ، وصحب أبا حمزة الزيات ، وسرياً السقطي ، وله الحظ الجسيم في الكرامات .

قال أبو الخير الديلمي : كنت جالساً عند خير النساج ، فأتته امرأة ، وقالت : أريد المنديل الذي أسلمته عندك إن كان قد فرغ ، فقال : قد فرغ ، ثم دفع المنديل إليها ، فقالت : كم أجرته ؟ قال : درهمان ، قالت : ما معي الساعة دراهم ، وأنا كنت قد ترددت إليك مراراً فلم أجدك ، ولٰكن في غد ـ إن شاء الله عز وجل ـ آتيك بدرهمين ، فقال لها خير النساج : إذا أنت جِئْتِ وما رأيتِني . . فارمي الدرهمين في دجلة ؛ فإني إذا رجعت . . أخذتهما .

فقالت المرأة : كيف تأخذ الدرهمين من دجلة ؟! فقال لها : ما عليك مِن هٰذا التفتيش ، وما لك به من حاجة ، افعلي ما أمرتك به ، قالت : إن شاء الله عز وجل ، ثم ذهبت .

قال أبو الخير : فلما كان من الغد . . جئت لأنظر ، فإذا المرأة قد جاءت ومعها خرقة فيها درهمان ، فلم تره في الحانوت ، فانتظرته ساعة ، ثم قامت وألقت الخرقة بما فيها في دجلة ؛ فإذا بسرطان قد تعلق بالخرقة وغاص في الماء ، فبعد ساعة جاء خير النساج ، وفتح حانوته ، ثم راح إلىٰ دجلة يتوضأ ؛ فإذا السرطان قد خرج من الماء وهو يسعىٰ نحوه ، والخرقة علىٰ ظهره ، فلما قرب من الشيخ . . وقف ، فمد الشيخ يده وأخذها .

قال أبو الخير : فلما رأيت ذلك . . جئت إليه ، وقلت له : إني رأيت كذا وكذا ، قال : فجعل يعارضني ، فلما تبين له أني قد عرفت . . أحلفني ألاَّ أخبر بذلك ما دام حياً . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/٣٠٧ـ٣٠٨] .

وقال أبو القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ : كان خير النساج من أقران النوري ، قيل : إنه عاش مئة وعشرين سنة ، وكان له مجلس تجتمع إليه خلائق .

وممن تاب في مجلسه أبو بكر الشبلي ، وإبراهيم الخواص ، رحمهم الله .

وكان أستاذ الجماعة ، قيل : اسمه : محمد بن إسماعيل ، وكان أسود اللون ، فخرج إلى الحج ، فأخذه رجل ، وقال : أنت غلامي ، واستعمله علىٰ نسج الخز ، وسماه خيراً .

وكان سبب ذلك غفلة وفترة وقعت من خير ، فألقىٰ الله عليه شِبْهَ غلامِ ذلك الرجل الذي استعمله علىٰ ظن أنه غلامه .

فلما فكر خير في حاله . . عرف مِن أين دخل عليه ذلك الداخل ، فجدد توبته فيما بينه وبين الله تعالىٰ ، فزال عنه ذلك الشبه ، فقام ذلك الرجل ، واعتذر إليه ، وسأله المحاللة ، فقال : أنت في حل ، أنا عرفت مِن أين أُتِيت ـ رحمه الله ـ واستمر علىٰ تلك التسمية . أو كما قال . انتهىٰ [« الرسالة القشيرية » ٤٢ـ٤٣] .

وقال في « بهجة الأسرار » : كان خير النساج كثير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، ولا يزعجه ما يلقىٰ من الأذىٰ والهوان .

فسئل عن تمكنه في ذلك وإقدامه علىٰ هـٰذا الحال ، فأخبر أنه كان علىٰ هـٰذا الحال قديماً ، وأنه كثر عليه الأذىٰ والهوان في وقت ، قال خير : فقَصَّرْتُ عن ذلك وتجنبته ، وخرجت من المدينة التي كنت فيها كالهارب علىٰ وجهي ، فمررت بقرية فيها دكاكين ، فجلست علىٰ باب دكان لحائك ، فخرج إلي صاحب الدكان ، ولطمني ، وقال لي : يا خير ؛ أين كنت ؟ لك أربعة أشهر قد هربت مني ؟ قال : وألقى الله عز وجل عليَّ شِبْهَ غلامِهِ ، فأخذ بيدي ، وأدخلني الدكان ، واجتمع قومه وأصحابه يهنئونه بقدومي ، فقال : اقعد وانسج .

قال : فأخذت في العمل ، فكنت كأحذق مَن نسج ، فأقمت شهوراً علىٰ ذلك ، ثم استيقظت ، وعرفت مِن أين أُتِيت ، فعقدت التوبة بيني وبين الله عز وجل ، وعاهدت الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ ملازمة ما كنت عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ فإذا أنا مِن وقتي علىٰ حالتي الأولىٰ ، وزال عني شِبْهُ غلامه .

قال : فخرجت من الدكان ، وجلست على الباب أحفظه لصاحبه إلىٰ أن يرجع ، فجاء

وسلم عليَّ وعاتبني[1] ، وقال لي : عافاك الله ، رأيتَ لي غلاماً أسود قد خرج من هـٰذا الدكان ؟ فقلت : لم أره ، قال : فمضىٰ في طلبه ، فانصرفت . انتهىٰ .

وقال أبو الحسين المالكي رحمه الله : كنت أصحبه سنين ، فقال لي يوماً قبل موته بثمانية أيام : أنا أموت يوم الخميس قبل المغرب ، وأدفن يوم الجمعة قبل الصلاة ، وستنسىٰ هـٰذا ، قال : فأنسيته ، فلما كان يوم الجمعة . . لقيني رجل ، فأخبرني بموته ، فخرجت لأحضر جنازته ، فوجدت الناس راجعين ، وهم يقولون : إنه يدفن بعد الصلاة ، فحدثتهم بما قال لي ، وأني أنسىٰ ذلك ، وقد أنسيته ، وأنه يدفن قبل الصلاة ، فاتفق أنه دفن قبل الصلاة كما قال .

قال أبو الحسين : ثم سألت مَن حضر موته ، قلت : أي وقت كان ؟ وكيف كان ؟ فقال لي علي بن هارون صاحب أبي القاسم الجنيد رحمهما الله : حكىٰ لي غير واحد من أصحابه الذين حضروا موته ، قال : غشي عليه عند صلاة المغرب ، ثم أفاق ونظر إلىٰ ناحية البيت ، فقال : قف عافاك الله ، فإنما أنت عبد مأمور وأنا عبد مأمور ، ما أُمِرتَ به لا يفوتك ، وما أمرتُ به يفوتني ، فدعني أمضي فيما أمرتُ ، ثم امض أنت لما أمرتَ ، ثم دعا بماء ، فتوضأ ، ثم صلى المغرب ، ثم تمدد وغمض عينيه وتشهد ، ومات .

قال : ثم رآه بعض أصحابه في منامه بعد موته ، فقال له : ما فعل الله عز وجل بك ؟ فقال : لا تسألني عن هـٰذا ، ولـٰكني استرحت من دنياكم الوضرة[2] . أو كما قال . انتهىٰ .

وقال في « المختار » : جاء رجل إلىٰ خير النساج فقال : أيها الشيخ ؛ رأيتك بالأمس ماشياً وقد بعت الغزل بدرهمين ، فجئت خلفك ، فحللتهما من طرف إزارك ، وقد صارت يدي منقبضة علىٰ كفي لا تنفتح ، فضحك الشيخ ، ثم قال : تتوب إلى الله عز وجل ؟ قال : قد تبت إلى الله سبحانه وتعالىٰ ، قال : فأخذ يده إلىٰ يده وفتحها وفيها الدرهمان ، فقال له : امض واشتر لعيالك بهما شيئاً ، واحفظ التوبة فلا تعد إلىٰ ما لا يحل لك ، ولا تقل رأيت كذا وكذا . أو كما قال . انتهىٰ .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : اعلم : أن المطلوب في الأموال : عدم ضياعها في نفس الأمر ، واعتبار ظاهر الأمر ؛ أعني : ظاهر الحال والظاهر الأول ، وعلىٰ

---

(١) في بعض النسخ : (وعانقني) .

(٢) **الوضرة** : الوسخة .

هـٰذا يخرج فِعل خير النساج والخواص وغيرهما ، من إلقاء الدرهمين والقفاف في البحر ؛ لأن الله عز وجل قد يطلع وليه علىٰ أمر تكون فيه المصلحة الراجحة ، فيقدم الولي علىٰ ذلك الفعل بالإذن الإلـٰهي لإيجاد تلك المصلحة الراجحة ، ولا ينظر إلىٰ ظاهر الحال .

وأصل ذلك : قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ .

فلما كان خَرْق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار المصلحة فيه راجحة ـ وإن خفيت علىٰ موسىٰ عليه الصلاة والسلام ـ أقدم عليها الخضر عليه السلام بالأمر الإلـٰهي .

وهـٰذا ـ وإن لم يدل علىٰ هـٰذه الواقعة بخصوصه ـ فهو يدل عليها بعمومه .

فإن أردت الدلالة علىٰ هـٰذه الواقعة بخصوصه . . فقد روينا عن البخاري في « صحيحه » [٢١٦٩] حديث إلقاء المال في الخشبة المنقورة ، وإلقائه في البحر ، كما سبق ذلك في ترجمة الإمام أحمد ابن أبي الحواري رحمه الله .

فقد يقال : بأن معرفة الولي بأن هـٰذا المال لا يضيع . . تسوغ له الإقدام علىٰ ذلك الفعل ؛ لما أكرمه الله عز وجل به من إطلاعه علىٰ ذلك .

ولا تنظر إلىٰ ظاهر الحال نظر العوام إلىٰ ظاهر الحال ، لـٰكن الإقدام علىٰ مثل هـٰذه الأفعال إنما يكون لمن أُيد بالكرامات وغُيِّب عنها ، فلا يراها ولا ينظر إليها ، بل يقع منه ولا يقع له عليها رؤية ، ولأنها اعتداد فتجري على الولي لا به ، كما ذكرنا في ترجمة سيدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوله : (يا سارية ؛ الجبل الجبل) ، وهو يخطب على المنبر .

وجميع ما وقع من ذلك . . إنما كان علىٰ هـٰذا الوجه .

أما إلقاء المال في البحر . . فإن الله سبحانه وتعالىٰ علم صدق ذلك الرجل وحرصه علىٰ براءة ذمته ، فحفظ الله عز وجل ذلك المال ، وأوصله إلىٰ مستحقه ، وخير النساج علم الله منه عدم التفاته إلى الدنيا وعزوفه عنها . . فحفظ الله عليه الدرهمين ؛ لقيام البينة كما شاء وأراد سبحانه وتعالىٰ .

وكذلك الخَوَّاصُ علم الله منه صحة قصده . . فحرك خاطره إلىٰ أن يعمل القفاف ويلقيها في النهر .

ألا ترىٰ أنه قال : بقيت كالمُلْجَإِ إلىٰ ذلك ، ثم ظهرت المصلحة الراجحة في إيصال تلك القفاف إلىٰ تلك المرأة وعيالها .

كل ذلك فضل من الله ونعمة ، والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

ومعلوم أن الأولياء رضي الله عنهم حركاتهم كلها بالله ، فإن قاموا . . قاموا بالله ، وإن نطقوا . . نطقوا بالله ، وإن سمعوا . . سمعوا بالله ، حتىٰ إن أحدهم ليبقىٰ محفوظاً في حركاته وأفعاله وسائر إرادته ، فلا يسقط له فعل ولا إرادة ؛ لأنه قد أُيد بنور التوفيق .

وهٰذا بحر واسع لا ساحل له . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو إسحاق إبراهيم الآجُرِّي
رضي الله عنه[1]

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : كان أبو إسحاق إبراهيم الآجري من أصحاب الكرامات .

فمِن ذلك : أنه جاءه في بعض الأيام رجل يهودي يطلب منه ثمن القصب الذي له عنده ، فدفع إليه أبو إسحاق الثمن ، ثم كلمه بعد ذلك في شرائع الإسلام وعرضه عليه ، فقال له اليهودي : أحب أن أرىٰ شيئاً أعرف به فضل الإسلام وشرفه حتىٰ أسلم ، فقال له : إذا رأيت ذلك تُسلم ؟ قال : نعم ، فقال له أبو إسحاق : هات رداءك ، فدفع إليه رداءه ، فأخذه وجعله في رداء نفسه ، ولف رداء اليهودي علىٰ رداء نفسه ، ورمىٰ بهما في أتون الآجر ، ثم دخل في إثره ، فأخذ الردائين وخرج من الباب الآخر ، ففتح رداء نفسه ، فوجده صحيحاً لم يحترق منه شيء ، وكأن لم تمسه نار ، وأخرج رداء اليهودي حراقاً ، وكان رداء اليهودي داخل في رداء الشيخ ، فصعق اليهودي وخر مغشياً عليه ، فلما أفاق.. أسلم وصار ناسكاً رحمه الله[2] .

وقال أبو القاسم الجنيد رحمه الله : سمعت عبدون الزجاج يقول : قال لي إبراهيم الآجري : اجهد أن يكون همك مردوداً إلى الله عز وجل في جميع ما تأمل ؛ فإنه يكفيك كل الكفاية أو كما قال[3] . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ٢٢٣] .

---

(١) ذكر الواسطي ـ رحمه الله ـ في هٰذه الترجمة ثلاثة من العباد دون أن يفرق بين خبر كلٍّ منهم ، وهم : أبو إسحاق إبراهيم الآجري الكبير ، وإبراهيم الأجري الصغير ، وأبو بكر الآجري محمد بن الحسين ، وقد أشرنا في نهاية كل خبر إلى اسم صاحبه .

(٢) ذكره ابن الجوزي [في « الصفوة » (٢/ ٢٦١)] في ترجمة أبي إسحاق إبراهيم الآجري الصغير .

(٣) ذكره ابن الجوزي [في « الصفوة » (٢/ ٢٣٥)] في ترجمة أبي إسحاق إبراهيم الآجري الكبير .

وقال أبو القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ : رأىٰ أبو بكر[1] الآجري رحمه الله الحق جل جلاله في المنام ، قال : فقال له الحق جل جلاله : سل حاجتك[2] ، فقال : اللهم ؛ اغفر لعصاة أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال له الباري جلت عظمته : أنا أرحم بهم منك ؛ سل حاجتك . انتهىٰ [« الرسالة القشيرية » ٣٠٧] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : لما وصل أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الآجري مكة شرفها الله تعالىٰ . . استحسنها واستطابها ، فقال في سره : اللهم ؛ أحيني في هـٰذه البلدة ولو سَنة ، فسمع هاتفاً يهتف به : لِمَ سنة ؟ بل ثلاثين سنة ، فلما كان في آخر ثلاثين سنة . . سمع هاتفاً يقول : يا إبراهيم : قد وفينا بالوعد ، فمات في تلك السَّنة رضي الله عنه وأرضاه . أو كما قال[3] . [انتهىٰ « الصفوة » ٢/ ٢٨٤] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) وقع في نسخة : (أبو إسحاق) ، ولعل الصواب ما أثبت كما في « الرسالة القشيرية » والله أعلم .

(٢) في بعض النسخ : (يا إبراهيم ؛ سل حاجتك) ، ولعل الصواب ما أثبت كما في « الرسالة القشيرية » والله أعلم .

(٣) ذكر ابن الجوزي هـٰذا الخبر في « الصفوة » (٢/ ٢٨٤) عن أبي بكر الآجري ، لا عن أبي إسحاق كما ذكره الواسطي .

ومنهم الإمام :

أبو عثمان سعيد بن إسماعيل بن سعيد الحِيري
رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال أبو عثمان الحيري : مَن أمَّرَ السُّنة علىٰ نفسه قولاً وفعلاً . . نطق بالحكمة ، ومن أمَّرَ الهوىٰ علىٰ نفسه . . نطق بالبدعة ، قال الله تعالىٰ في حق نبيه محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْ﴾ .

وقال محمد بن الفضل البلخي : إن الله عز وجل زيَّن أبا عثمان بفنون عبوديته ، وأبرزه للناس ؛ ليعلمهم آداب العبودية .

وقال أبو عثمان : منذ أربعين سنة ما أقامني الله عز وجل في حال فكرهته ، ولا نقلني إلىٰ غيره فسخطته .

و[قال] : لا يكمل الرجل حتىٰ يستوي قلبه في أربعة أشياء : في المنع ، والعطاء ، والعز ، والذل .

وقال : ثلاثة أشياء من حب الدنيا : الطمع في المال ، وفي إكرام الناس ، وفي قبول الناس .

والخوف من الله عز وجل يوصلك إليه ، والكبر والعجب في نفسك يقطعك عن الله تعالىٰ ، واحتقارك الناس مرض لا يُداوىٰ .

وقال : حقٌّ علىٰ مَن أعزه الله عز وجل بالمعرفة والطاعة . . ألاَّ يذل نفسه بالمعصية .

وقال : أصل التعلق بالخيرات : قصر الأمل ، وما دمت تتبع شهواتك وإرادتك . . فأنت مسجون .

وأما الرضا . . فإنه باب الله الأعظم ، فإذا فوضت أمرك إلى الله عز وجل وسلَّمت . . استرحت .

وقال عبد الله الرازي : لما تغير الحال علىٰ أبي عثمان وقت وفاته . . مزق ابنه أبو بكر

قميصاً كان عليه ، ففتح أبو عثمان عينيه وقال : يا بني ؛ خلاف السُّنة في الظاهر . . رياءٌ باطنٌ في القلب .

وسئل أبو عثمان عن الصحبة فقال : الصحبة مع الله عز وجل بحسن الأدب ، ودوام المراقبة ، وتعظيم حرماته عز وجل ، وابتغاء مرضاته ، ودوام الهيبة لذاته وعظيم كبريائه جل جلاله .

والصحبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم باتباع سُنته ، ولزوم آدابه وأخلاقه في جميع حالاته صلى الله عليه وسلم .

والصحبة مع أولياء الله عز وجل بالتوقير ، والاحترام ، ومعرفة واجب حقهم ، والقيام به .

والصحبة مع الأهل والولد بحسن الخلق .

والصحبة مع الإخوان : بدوام البِشر والانبساط .

والصحبة مع الجهال بالدعاء لهم ، والشفقة عليهم ، ورؤية نعم الله تعالىٰ عليك في أن عافاك مما ابتلاهم به .

وكان يقول : الذِّكر الكثير أن تذكر الله تعالىٰ في سرك[1] ، وتعلم يقيناً أنك لا تصل إلىٰ ذِكره سبحانه وتعالىٰ ولا إلىٰ شيء من الطاعات إلا بعطائه وفضله سبحانه وتعالىٰ .

وسئل : ما علامة السعادة ؟ فقال : أن تطيع الله تعالىٰ وتخافَ أن تكون مردوداً ، وعلامة الشقاء أن تعصي الله تعالىٰ وترجو أن تكون مقبولاً . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ٢٤٤ـ٢٤٦] .

قال في « المختار » : وكان يقال : في الدنيا ثلاثة لا رابع لهم : أبو عثمان بنيسابور ، والجنيد بالعراق ، وابن الجَلَّاء بالشام .

وقال أبو عثمان : صلاح القلب في أربعة أشياء : في التواضع لله ، والفقر إلى الله ، والخوف من الله ، والرجاء لله عز وجل .

وقال : العُجب إنما يتولد من رؤية النفس وذِكرها ، ورؤية الخلق وذكرهم .

وقال له رجل : كنت أجد في قلبي حلاوة عند إقبال الليل ، وأنا لا أجدها الآن ، فقال : لعلك سررت بشيء من الدنيا . . فذهب بحلاوة ذلك من قلبك ، وربما يريد الله عز وجل أن

---

(١) في « الحلية » : (في ذكرك له) .

يعرفك ضعفك ويريك قدرك ، فيسلبك حلاوة مناجاة الليل ؛ حتىٰ تتضرع إليه ، وتتوب عن السرور بشيء من الدنيا ، فيرده عليك ؛ لئلا تأمن مكره سبحانه وتعالىٰ .

وقال : اِصحب الأغنياء بالتعزز ، والفقراء بالتذلل ؛ فإن التعزز على الأغنياء تواضع لله عز وجل ، والتذلل للفقراء شرف .

وقال : مَن تفكر في الدنيا وزوالها . . أورثه الفكر الزهد فيها ، ومَن تفكر في الآخرة وبقائها . . أورثه ذلك الرغبة فيها .

وقال : مَن أضر به الرجاء حتىٰ قارب الأمن . . فالخوف له أفضل ، ومَن أضر به الخوف حتىٰ قارب اليأس . . فالرجاء له أفضل ، وأنشد :

أسأتُ فلم أحسن وجئتك هارباً ... وأيـن لعبـدٍ مـن مَـواليـه مهـربُ
يـؤمِّـل غفـرانـاً فـإن خـاب ظنـه ... فما أحدٌ منه على الأرض أخيبُ

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : في حفظي : أن أبا عثمان الحيري كان ماراً في طريق ومعه بعض إخوانه ، فوقع عليه رماد من طاقة ، فهَمَّ بعض أصحابه أن يتكلموا مع أصحاب الدار ، فزجره الشيخ ، ثم قال : مَن استحق النار فصولح على الرماد . . لا يجوز أن يغضب . انتهىٰ .

وقال في « الحقائق » : قال أبو عثمان الحيري في بعض كتبه إلىٰ بعض إخوانه : واعلم يا أخي : أن الفواحش : ما أُريدَ من الطاعات لغير وجه الله سبحانه وتعالىٰ . انتهىٰ .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : إن أبا عثمان الحيري كان مولده بالري ، وخرج إلىٰ نيسابور مع شيخه شاه بن شجاع الكرماني يزوران أبا حفص النيسابوري ، فزوجه أبو حفص ابنته ، وتوطن بنيسابور ، وبها توفي رحمه الله .

وقالت مريم امرأة أبي عثمان : كان أبو عثمان إذا دخل في الصلاة . . لا يشعر ولا يحس بشيء من كلام أو صياح أو غيره .

وقال أبو عمرو بن مطر : حضرت مجلس أبي عثمان ، فلما خرج وجلس مجلسه . . سكت ساعة طويلة ، فناداه رجل : يا أبا عثمان ؛ أتُرىٰ أي شيء تقول في سكوتك ؟ فأنشأ يقول :

وغيـرُ تقـيٍّ يـأمـر النـاس بـالتقـىٰ ... طبيـب يـداوي والطبيـب مـريـضُ

فارتفعت الأصوات بالبكاء والضجيج .

أسند أبو عثمان عن حمدون النيسابوري القصَّار ، وتوفي يوم الثلاثاء العشرين من ربيع الآخر سَنة ثمان وتسعين ومئتين ، رحمه الله . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٧١-٧٣] .

وقال **أبو القاسم القشيري** : قيل : إن أبا عمرو بن نجيد كان في ابتداء أمره يختلف إلىٰ مجلس أبي عثمان الحيري ، فأثر كلامه في قلبه ، فتاب في مجلسه ، ثم إنه بعد ذلك وقع منه فترة ، وعلم أبو عثمان الحيري بحاله وما وقع منه ، فصار أبو عمرو إذا رأىٰ أبا عثمان . . يهرب منه حياء ، ولم يعد يحضر مجلسه ، فرآه يوماً أبو عثمان ، فعدل أبو عمرو عن طريقه ، فلم يزل أبو عثمان يتبعه إلىٰ أن أدركه ، ثم قال له : يا بني ؛ لا تصحب مَن لا يحبك إلا معصوماً ، إنما ينفعك أبو عثمان في مثل هـٰذه الحالة ، وباب التوبة مفتوح ، قال : فتاب أبو عمرو ، وعاد إلى الإرادة ولزم العبادة .

وقيل لأبي عثمان : ما الورع ؟ فقال : كان أبو صالح حمدون عند صديق له قد احتُضِر ، فلما مات . . أطفأ أبو صالح السراج ، فقيل له في ذلك ، فقال : صار الدهن للورثة ، اطلبوا دهناً غيره . انتهىٰ .

قال الأئمة رحمهم الله : سئل منصور بن خلف المغربي ، قالوا له : كَمْ سَنة صحبت أبا عثمان الحيري ؟ فنظر إليهم مُغضَباً ، وقال : لا يقال كم صحبته ، وإنما يقال : كم خدمته ، ولقد خدمته مدة كذا وكذا .

واعلموا : أن الصحبة مع مَن هو فوقك في الحقيقة خدمة ، والصحبة مع مَن هو دونك في الحقيقة رحمة وشفقة ، والصحبة إنما هي مع الأمثال والأقران ، ولها شروط ، وأساسها وبناؤها على الإيثار والفتوة ، والله أعلم . انتهىٰ [« الرسالة القشيرية » ٧٨ وَ٩٢] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : قول الإمام أبي عثمان رحمه الله : (منذ أربعين سنة ما أقامني الله . . .) إلىٰ آخره يسمىٰ حالاً ، والحال عندهم معنىً يرد على القلب من غير تصنُّع ، ولا اجتلاب ، ولا اكتساب ، من طرب ، أو حزن ، أو قبض ، أو بسط ، أو شوق ، أو انزعاج ، أو هيبة ، أو اهتياج .

فالأحوال مواهب ، والمقامات مكاسب ، والأحوال تأتي من عين الجود ، والمقامات تحصل ببذل المجهود ، فصاحب المقام متمكن في مقامه ، وصاحب الحال قد ارتقىٰ عن حاله .

وقال العارفون رحمهم الله : الأحوال كالبروق ، وإن بقيت : فحديث نفس .

وقالوا أيضاً : الحال كاسمها يعنون بها أنها تحل في القلب ثم تحول .

وأشار قوم من العارفين ـ منهم : أبو عثمان صاحب الترجمة ـ إلىٰ أن الأحوال تبقىٰ وتدوم ، وقال : هٰؤلاء إذا لم تبق ولم تدم.. فهي لوائح وبوادٍ ، وإن دامت.. كانت أحوالاً .

ألا ترىٰ إلىٰ قول أبي عثمان : (منذ أربعين...) إلىٰ آخره ؛ فإنه أشار بذلك إلىٰ دوام الرضا ، والرضا من جملة الأحوال ، وهٰؤلاء يقولون : إن الأحوال ـ وإن دامت ـ فإن صاحبها أبداً يكون في الترقي من حالة إلىٰ حالة أعلىٰ منها ، فالدوام باعتبار جنس الأحوال ، والزوال باعتبار عين الحال ، وفي هٰذا جمع بين القولين ، فيرتفع الخلاف .

وقد فسر الأستاذ أبو علي الدقاق رحمه الله قوله صلى الله عليه وسلم : « إنه لَيُغَانُ علىٰ قلبي.. »[1] الحديث : بأنه أبداً صلى الله عليه وسلم كان في الترقي من أحواله من حالة إلىٰ أعلىٰ منها ، فكان صلى الله عليه وسلم كلما ارتقىٰ من حالة إلىٰ أعلىٰ منها.. رأىٰ في الأُولىٰ نقصاً بالنسبة إلى الثانية ، فاستغفر ، وهلم جراً .

وعلىٰ هٰذا المعنىٰ قولهم : حسنات الأبرار.. سيئات المقربين . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) ، وتتمة الحديث : « ... وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة » .

ومنهم الإمام :

بشر بن منصور السَّليمي
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : جاء جماعة إلىٰ بِشر بن منصور بعد العصر ، فخرج إليهم متغير اللون ، فقالوا له : يا أبا محمد ؛ لعلنا أشغلناك ، فرَدَّ رداً ضعيفاً ، ثم قال : ما أكتُمُكُم ـ أو كلمة نحوها ـ كنت أقرأ في المصحف ، فشغلتموني ، ثم قال : ما أكاد ألقىٰ أحداً فأربح عليه شيئاً .

وقال غسان بن الفضل[1] : كان بِشر بن منصور من الذين إذا رُؤوا . . ذُكِر الله عز وجل ، وإذا رأيت وجهه . . ذكرت الآخرة ، رَجُل منبسط ليس بمتماوت[2] ، ذكي فقيه ، وكان من العرب ، وعلم أولاده الذكور عمل الخوص .

وقال غسان : حدثني أسيد بن جعفر ـ ابن أخي بشر بن منصور ـ قال : ما رأيت عمي فاتته التكبيرة الأولىٰ قط ، ولا رأيته قام في مسجدنا سائل . . إلا أعطاه شيئاً .

وقال زهير السجستاني : سمعت بشر بن منصور يقول : ما جلست إلىٰ أحد ولا جلس إلي أحد فقمت من عنده [أو قام من عندي] . . إلا علمت أني لو لم أقعد إليه أو يقعد إلي . . لكان خيراً لي .

وقال أبو همام الزهري رحمه الله : قال لي بشر : أَقِلَّ من معرفة الناس ؛ فإنك لا تدري ما يكون غداً ، فإن كان شيء ـ يعني : فضيحة يوم القيامة ـ كان من يعرفك قليلاً .

وقال عبد الرحمـٰن بن مهدي : قال لي بشر : إني لأذكر الشيء من أمر الدنيا أُلهي به نفسي عن الآخرة ، أخاف علىٰ عقلي .

وقال سفيان بن عيينة : قال رجل لبشر : عظني ، فقال : عسكر الموتىٰ ينتظرونك .

---

(١) في نسخة : (المفضل) .

(٢) تماوت : أظهر من نفسه التخافت والتضاعف من العبادة والزهد والصوم .

وقالت عبدة بنت أبي شوال[1] : رأيت رابعة العدوية رحمها الله في المنام ، فقلت لها : ما فعل ضيغم ؟ فقالت : يزور الله عز وجل متىٰ شاء ، قلت : فما فعل بشر بن منصور ؟ قالت : بخ بخ ! أُعطي ـ والله ـ فوق ما كان يأمل .

أسند بشر عن سفيان الثوري ، وغيره من الأئمة ، وشغلته الرعاية[2] عن الرواية . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/ ٢٢٢_٢٢٣] .

وقال الحافظ ـ قدس الله روحه ـ : قال عبد الرحمـٰن بن مهدي رحمه الله : واعدت بشر بن منصور أنا وأبو الخصيب عبد الله بن ثعلبة وبشر بن السري في أن نأتيه ، فلما أتيناه . . قال لنا : استخرت الله تعالىٰ في مجيئكم إلي ، فكان الغالب علىٰ قلبي ألاَّ تجيؤوا .

قال عبد الرحمـٰن : وأتاني مرة في حاجة له ، فقلت له : لِمَ تعنَّيت وجئت ؟ أنا كنت أجيء إليك ، قال : لا ، إنما الحاجة لي .

وقال عبد الرحمـٰن : عرضت علىٰ بشر بن منصور رحمه الله دابة ليركبها في رجوعه من طريق بعيد ، فأبىٰ أن يركب ، وقال : إني أكره أن أُعوِّد نفسي هـٰذه العادة .

وقال عبد الرحمـٰن : كان بشر يكره أن يشتري شيئاً من رجل قد بنىٰ كربجاً[3] في غير حقه ؛ يعني : أنه خرج في طريق المسلمين .

وقيل لعبد الرحمـٰن بن مهدي : أيبعث الرجل بالسلام إلىٰ أهل الرجل ؟ فقال : نعم ، قد كان بشر بن منصور ـ لم أر مثله قط ـ إذا أتاني . . بعث إلىٰ أهلنا بالسلام ، وإنَّ حِفظ الإخاء من الدِّين .

وسئل عبد الرحمـٰن بن مهدي عن الرجل يسلم على القوم وهو صاحب هوىً ، أو فاسق ، أو بدعة ، أيدعونه إلىٰ طعامهم ؟ فقال : نعم ، قال لي بشر بن منصور : إني لأدعو إلىٰ طعامي مَن لو نبذته إلى الكلب . . كان أحب إلي من أن يأكله .

وقال ابن مهدي : وليتقِ الرجل دناءة الأخلاق كما يتقي الحرام .

وكان بشر بن منصور إذا زاره أحد من إخوانه . . قام معه حتىٰ يأخذ بركابه .

---

(١) جاء في بعض النسخ : (عبيدة بنت أبي كلاب) ، وفي نسخة : (عبدة بنت أبي شراك) .

(٢) **الرعاية** : المقصود ـ والله أعلم ـ رعاية أمر الصلة مع الخالق سبحانه وتعالىٰ ، ومراقبة النفس والحركات والسكنات وفق منهج السلف ، وهو بهـٰذا في شغل شاغل ، رضي الله عنهم .

(٣) **الكُرْبَجُ أو الكُرْبُجُ** : الحانوت .

وقال بشر بن المفضل : رأيت بشر بن منصور في المنام ، فقلت له : يا أبا محمد ؛ ما صنع الله عز وجل بك ؟ فقال لي : وجدت الأمر أهون مما كنت أحمل علىٰ نفسي .

وقال محمد بن قدامة : لما احتُضِر بشر بن منصور.. قيل له : أوص بقضاء دَينك ، فقال : أنا أرجو الله عز وجل لذنوبي ، أفلا أرجوه لقضاء دَيني ؟! هو سبحانه وتعالىٰ يوفي عني بمَنِّه وفضله وكرمه .

قال : فلما مات.. قضىٰ عنه دَينه بعض إخوانه ، رحمه الله تعالىٰ . انتهىٰ [« الحلية » ٦/٢٣٩ـ٢٤٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

إبراهيم الجيلي
رضي الله عنه

كان إبراهيم الجيلي قد تزوج بابنة عمه وشغف بها شغفاً شديداً ، حتىٰ ما كان يقدر أن يفارقها ليلة ، فتذكَّر ليلة كثرة حبه لها وشغفه بها ، فقال في نفسه : ما يَحسن بي أن أرِد القيامة وفي قلبي حب هٰذه ، فصلىٰ ركعتين ، ثم قال : إلٰهي وسيدي ومولاي ؛ أسألك بعزتك وعظيم جلالك . . إلا ما رددت قلبي إلىٰ ما هو أولىٰ .

قال : فلما كان من الغد . . أصابها الحمىٰ وتوفيت في اليوم الثالث ، فعزم على الخروج إلىٰ مكة من وقته وساعته ماشياً ، فخرج إلىٰ مكة ، فلما وصلها . . أقام بها إلىٰ أن توفي رحمه الله تعالىٰ ورضي عنه وأرضاه . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

عليٌّ بن الموفَّق

رضيَ الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ وغيره : كان علي بن الموفق واقفاً بعرفات ، فرمقوه لم يزد على التهليل والتسبيح والتكبير ، فقيل له : ادع ؛ فإن الوقت يفوت ، فقال : إنه سبحانه وتعالىٰ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، ثم قال : حسبي من سؤالي . . علمه بحالي ، ثم رفع رأسه إلى السماء ، ولم يزل يقلب دمعه في عينيه ساكتاً باهتاً إلىٰ أن أفاض الناس ، وهو يقول : ما أشرف هـٰذا الموضع! وما أقربَ أهلَه إلى ٱلله سبحانه وتعالىٰ! لولا أني فيهم ، ثم أفاض .

وقال : حججت نيفاً وخمسين حجة ، فلما كان في بعض السنين ونحن في عرفات . . نظرت إلى الناس بعرفة وضجيج أصواتهم بالدعوات والتضرع إلىٰ رب العالمين سبحانه وتعالىٰ ، فقلت ـ علىٰ سبيل الغفلة ـ : اللهم ؛ إن كنت لم تتقبل حج واحد منهم . . فهب له ثواب حجتي ، قال : ثم نمت تلك الليلة بالمزدلفة ، فرأيت في منامي الباري سبحانه وتعالىٰ ، وهو يقول : يا علي بن الموفق ؛ أما استحييت مني أن تقول ما قلت وأنا خالق الحياء والكرم ؟! قد غفرت لأهل الموقف وأمثالهم ، وشفعت كل واحد منهم في أهل بيته وجيرانه ، ووهبتك لهم ، وأنا أهل التقوىٰ وأهل المغفرة .

وقال : كنت حاجاً في بعض السنين في مَحمَلٍ[1] ، فرأيت جماعة مشاة ، فنزلت ومشيت معهم ، فلما كان في بعض الطريق . . نام المشاة من التعب ونمت معهم ، فرأيت في منامي جماعة من الحور بأيديهن طسوت من ذهب وأباريق من فضة ، فغسلن أرجل المشاة حتى انتهين إلي ، فقالت إحداهن : ليس هـٰذا منهم ؛ هـٰذا له محمل ، فقالت الأخرىٰ : بل هو منهم ؛ فإنه أحب المشي معهم ومشىٰ معهم ، فتقدمن فغسلن قدمي ، فذهب عني كل تعب كنت أجده .

---

(١) **المَحمَل** : هو المكان الذي يقعد فيه الراكب ، يكون علىٰ ظهر البعير .

وقال علي بن الموفق : اهتممت يوماً بسبب عيالي ، فرأيت في المنام ورقة فيها مكتوب : بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، يابن الموفق ؛ أتخشى الفقر وأنا ربك ؟! فاستيقظت ، فلما كان ثاني ليلة . . أتاني آت ومعه كيس ، فقال : خذ هـٰذه الدنانير يا ضعيف اليقين . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ٣١٢] .

وقال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ في « الإحياء » : قال علي بن الموفق رحمه الله : رأيت في النوم كأني أُدخلت الجنة ، فرأيت رجلاً قائماً علىٰ مائدة ، وملكان عن يمينه وشماله يلقمانه من جميع الطيبات وهو يأكل ، ورأيت رجلاً قائماً علىٰ باب الجنة يتصفح وجوه قوم ، فيُدخِل بعضاً ويرد بعضاً ، قال : ثم جاوزتهما إلىٰ حضرة القدس ، فرأيت في سرادق العرش رجلاً قد شخص ببصره ينظر إلى الله عز وجل لا يَطرِف ، فقلت لرضوان : مَن هـٰذا ؟ فقال : هـٰذا معروف الكرخي ، عَبَدَ الله تعالىٰ لا خوفاً من ناره ولا شوقاً إلىٰ جنته ، بل حباً له ، فأباحه النظر إليه يوم القيامة . وذكر بأن الآخَرَيْنِ بشر بن الحارث وأحمد ابن حنبل ، قال : ثم انتبهت .

وقال : قال أبو سليمان : مَن كان اليوم مشغولاً بنفسه . . فهو غداً مشغول بنفسه ، ومَن كان اليوم مشغولاً بربه . . فهو غداً مشغول بربه سبحانه وتعالىٰ . انتهىٰ [٤/ ٣١٠] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو عبد الله محمدُ بن خفيف
رضي الله عنه

قال في « لوامع أنوار القلوب » : قال أبو عبد الله محمد بن خفيف : خرجت من مصر أطلب أبا علي الروذباري بالرملة ، فقال لي عيسى بن يونس المصري الزاهد : أُبلُغْ صور ؛ فإن بها شاباً وكهلاً قد وقفا علىٰ مقام المراقبة ، لعلك تستفيد منهما .

قال : فقصدت صوراً ، فلما دخلتها . . كنت جائعاً عطشاناً ، وفي وسطي خرقة ، وليس علىٰ كتفي شيء ، فدخلت المسجد ، فرأيت شخصين مستقبلي القبلة ، فسلمت ، فرد أحدهما عليَّ السلام ، ولم يتكلما ، فناشدتهما بالله عز وجل أن يكلماني ، فرفع الشاب رأسه وقال لي : يا أبا عبد الله ابن خفيف ؛ ما أَقَلَّ شغلك بآخرتك حتىٰ تتفرغ إلىٰ لقائنا ، فذهب عني جوعي وعطشي ، وبقيت عندهما حتىٰ صلينا الظهر والعصر .

ثم قلت له : عظني ، فرفع رأسه إلي وقال : يابن خفيف ؛ نحن أصحاب المصائب ما لنا لسان الموعظة .

قال : فأقمت عندهما ثلاثة أيام بغير أكل ولا شرب ولا نوم ، وما رأيتهما أكلا ولا شربا ولا ناما .

فلما كان في اليوم الرابع . . قلت في سِرِّي : أقسم عليهما لعلهما يعظاني ، فرفع الشاب رأسه وقال : يابن خفيف ؛ عليك بدوام المراقبة ، والتحسر علىٰ ما فات ، واغتنام الأوقات ، وإن صحبت . . فاصحب مَن يذكِّرك اللهَ رؤيتُه ، وتقع علىٰ قلبك هيبته ، ويعظك بلسان فِعله لا بلسان قوله . ثم سكت . انتهىٰ .

وقال في « المناقب » : قال أبو عبد الله محمد رحمه الله : دخلت بغداد قاصداً الحج ، ولم آكل الخبز أربعين يوماً ، ولم أشرب الماء إلىٰ زبالة[1] ، فرأيت ظبياً علىٰ رأس بئر وهو يشرب ، وكنت عطشاناً ، فلما دنوت من البئر . . ولى الظبي ، وغاض الماء ، فمشيت

---

(١) منزل معروف بطريق مكة من الكوفة .

وقلت : يا إلـٰهي وسيدي ؛ ما لي محل هـٰذا الظبي ؟ فسمعت قائلاً يقول : جربناك فلم تصبر ، ارجع وخذ الماء ، فرجعت ؛ فإذا البئر ملأىٰ ، فمددت ركوتي وملأتها ، وكنت أشرب منها وأتطهر ، والماء بحاله لا ينفد ، ولما استقيت . . سمعت قائلاً يقول : إن الظبي جاء بلا ركوة ولا حبل ، وأنت جئت بركوة وحبل .

فلما رجعت من الحج . . دخلت جامع بغداد ، فرأيت ولياً من أولياء الله تعالىٰ ، فحالما رآني . . قال لي : لو صبرت ساعة . . لنبع الماء من تحت رجلك . انتهىٰ .

وقال أبو القاسم القشيري : قال أبو العباس الكرخي : سمعت أبا عبد الله محمد بن خفيف يقول : ضعفت عن القيام في النوافل ، فجعلت بدل كل ركعة من أورادي ركعتين قاعداً ؛ لخبر : « إن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم »[1] .

توفي أبو عبد الله ابن خفيف سَنة إحدىٰ وسبعين وثلاث مئة .

وقال القشيري : قال أبو عبد الله محمد بن خفيف : سمعت أبا الحسن المزيِّن[2] يقول : لما حضرت الوفاة أبا يعقوب النهرجوري . . قلت له : وهو في النزع : قل : لا إلـٰه إلا الله ، فتبسم إلي وقال : [إياي تعني ؟!] وعزة مَن لا يذوق الموت سبحانه وتعالىٰ ؛ ما بيني وبينه عز وجل إلا حجاب العزة والجلال ، ثم توفي من ساعته ، فكان بعد ذلك أبو الحسن المزين يأخذ بلحية نفسه ، ويقول : حجَّام مثلي يلقن أولياء الله تعالى الشهادة ؟ واخجلتاه منه ، وكان يبكي إذا ذكر هـٰذه الحكاية [« الرسالة القشيرية » (٢٤٠)] .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ : قال أبو عبد الله ابن خفيف : اقتدوا بخمسة من شيوخنا ، والباقون سلموا لهم حالهم : الحارث بن أسد المحاسبي ، والجنيد بن محمد ، وأبو محمد رويم ، وأبو العباس بن عطاء ، وعمرو بن عثمان المكي ؛ فإنهم جمعوا بين العلم والحقائق .

وقال أبو عبد الله بن خفيف : منذ أربعين سنة ما وجبت علي زكاة الفطر .

وقال : **علامة الزهد : وجود الراحة في الخروج عما تملك .**

وقال : الزهد هو عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف . انتهىٰ .

---

(١) الرسالة القشيرية (٤٩) ، والحديث أخرجه بنحوه البخاري (١٠٦٥) ، وبلفظه ابن خزيمة (٢/ ٢٣٥) .

(٢) هو أبو الحسن علي بن محمد البغدادي ، الصوفي ، شيخ زمانه ، وكان يقال له : المزين الكبير ، انظر ترجمته في الأنساب للسمعاني (٥/ ٢٨١) وطبقات الصوفية للسلمي (٣٨٢) .

وقال في « **المناقب** » : قال أبو عبد الله محمد بن خفيف : ربما كنت أقرأ في ابتداء أمري في كل ركعة نحو عشرة آلاف مرة (قل هو الله أحد) ، وربما كنت أقرأ القرآن كله في ركعة ، وربما كنت أصلي من الغداة إلى العصر ألف ركعة .

وسئل عن القرب فقال : قرب العبد من ربه عز وجل بملازمة الموافقات ، وقرب الرب جل جلاله من عبده بدوام التوفيق .

وسئل عن فقير يجوع ثلاثة أيام ، ثم بعد ذلك يخرج يسأل ، أيش يقال له ؟ فقال : يقال له : مكدي[1] ، ثم قال : كلوا واسكتوا ، فلو دخل فقير من هـٰذا الباب . . لافتضحنا .

وقال أبو عبد الله : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام وهو يقول لي : « مَن عرف طريقاً إلى الله تعالىٰ فسلكه ثم رجع عنه . . عُذب عذاباً كبيراً » .

وسئل عن إقبال الحق جل جلاله على العبد فقال : علامته إدبار الدنيا عن العبد ، وتعلق العبد بالرب سبحانه وتعالىٰ في جميع أحواله ، والله أعلم . انتهىٰ .

وقال الحافظ ابن عساكر ـ قدس الله روحه ـ : كان أبو عبد الله بن خفيف شيخ المشايخ والوقت حالاً وعلماً ، لم يبق للقوم أقدم منه سِناً ولا أتم حالاً ووقتاً .

صحب رويماً والجريري وأبا العباس بن عطاء ، وهو من أعلم المشايخ بعلوم الظاهر أيضاً ، عارفاً بالكتاب والسُّنة ، متمسكاً بهما ، وهو أحد الأئمة من أصحاب الشافعي رحمه الله ، عارفاً بالأصول علىٰ مذهب الأشعري رحمه الله ، له التصانيف الحِسان ، منها : « الفصول في الأصول » و« التحقق والتثبت في الوصول » .

روىٰ عنه غير واحد أنه قال : ما سمعت شيئاً من سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم . . إلا استعملته .

وكان إذا أراد أن يخرج إلىٰ صلاة الجمعة . . يقول لخادمه أبي أحمد الكبير : هات ما عندنا ، قال : فأحمل إليه كل ما قد فُتح علينا به من ذهب وفضة وغير ذلك ، فيفرقه كله ، ثم يخرج إلىٰ صلاة الجمعة رحمه الله تعالىٰ . انتهىٰ [« تاريخ دمشق » ٥٢/ ٤٠٦ـ٤١٦] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : رأيت في مجموع : قال أبو عبد الله بن خفيف : حضرت مع شيخي أحمد بن يحيىٰ رحمه الله تعالىٰ في دعوة بشيراز ، فاتفق فيها سماع ، فطاب وقت الشيخ ، وقام يتواجد ، وفي صَفِّه بحذائنا قوم من أبناء الدنيا ، فتبسم

---

(١) أكدى الرجل : أي ألح في المسألة .

واحد منهم ، فأخذ الشيخ منارة كبيرة[1] كانت هناك ، فرماه بها ، فأصاب الجدار ، فانغرس أرجلها الثلاث في الحائط .

قال : وكان قد صلىٰ ثلاثين سَنة صلاة الصبح بوضوء العشاء .

وسئل أبو عبد الله ابن خفيف : لِمَ صار بلاء المحبين أعظم من سائر الأحوال ؟ فقال : لأنهم آثروه علىٰ أرواحهم ، فابتدأهم الله سبحانه وتعالىٰ بحبه ، فقال : ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾ ، قال : ومَن يطيق سماع هٰذا الكلام إلىٰ أن تبدو فيه الحقائق ؟!

وقال ابن خفيف : دخلت مكة ، فقصدت أبا عمرو الزجاجي رحمه الله ، فسلمت عليه وجلست عنده ، فأخذ في تمزيقي[2] ، فلما أكثر.. قلت له : تعني بهٰذا الكلام كله ابن خفيف ؟ قال : بلىٰ ، قلت له : تركته بشيراز ، فتبسم .

وحكي : أن علي بن بندار قدس الله روحه ورد على ابن خفيف زائراً له من نيسابور ، فتماشيا ، فقال له ابن خفيف : تقدم ، فقال علي بن بندار : بأي عذر ؟ قال : فإنك لقيتَ الجنيد وما لقيتُهُ .

وقال ابن خفيف : قال لي رويم رحمه الله : يا بني ؛ اجعل علمك مِلْحاً ، وأدبك دقيقاً ؛ يشير بهٰذا إلىٰ كثرة الأدب ولزومه .

وقال ابن خفيف : لما دخلت بغداد.. قصدت أبا محمد رويماً ، وكان قد تولى القضاء ، فاستأذنت عليه ، فأذن لي ، فلما دخلت عليه.. رحب بي وأدناني ، وقال لي : مِن أين أنت ؟ قلت : مِن فارس ، فقال : فمَن صحبت ؟ فقلت : جعفر الحَذَّاء ، قال : فما تقول المشايخ فيَّ ؟ فقلت : لا شيء ، فقال : أظن أنهم يقولون : إنه رجع إلى الدنيا .

فبينا هو يحدثني ؛ إذ جاء صبي صغير ، فجلس في حجره ، فقال رويم : لو كنت أرىٰ مَن يكفيني مؤونة هٰذا الصبي.. ما تعلقت بهٰذا الأمر ولا بشيء من أسباب الدنيا ، ولٰكنَّ شُغْلَ قلبي بهٰذا ـ فإنه لا يسعني تضييعه ـ أوقعني فيما أنا فيه ، ودمعت عينه ، فخرجت من عنده ، رحمه الله . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) **المنارة** : ما يوضع عليها السراج .

(٢) **التمزيق** : التخريق والتقطيع ، وكنَّىٰ به عن شدة ما كلمه به .

ومنهم الإمام :

أبو الخير التِّيْنَاتي
رضي الله عنه وأرضاه

قال الأئمة ـ منهم : الأستاذ أبو القاسم القشيري رحمه الله وغيره ـ : كان أبو الخير التيناتي[1] من أصحاب الكرامات[2] ، حكي عنه : أن شخصاً من أصحابه عزم على السفر إلى الموصل ، قال : فجئت إلىٰ أبي الخير أزوره وأودعه ، قال : فلما ودعته. . خرج معي إلىٰ باب المسجد وقال : أنا أعرف أنك لا تحمل معلوماً ، ولـٰكن احمل هاتين التفاحتين .

قال : فأخذتهما ووضعتهما في جيبي ، ثم سافرت وسرت يوماً وليلة ، فلم يفتح لي بشيء ، وبقيت علىٰ ذلك ثلاثة أيام أسير ولا يفتح عليَّ بشيء ، قال : فأخرجت واحدة منها وأكلتها ، ثم أردت أن أُخرج الثانية ؛ فإذا هما جميعاً في جيبي ، فكنت آكل منهما ولا ينقصان ، ولا زلت علىٰ ذلك إلىٰ أن وصلت إلى الموصل .

قال : فقلت في نفسي : هاتان التفاحتان تفسدان عليَّ توكلي ؛ إذ قد صارتا معلوماً لي ، فأخرجتهما من جيبي ، ثم نظرت ؛ فإذا فقير ملفوف في عباءة وهو يقول : أشتهي تفاحة ، فدفعتهما إليه ، ثم مضيت ، فوقع في خاطري أن الشيخ أبا الخير إنما بعث بالتفاحتين إلىٰ هـٰذا الفقير ، فرجعت لأراه وأجلس معه. . فلم أجده ولم أدر أين ذهب .

وقال بعضهم[3] : دخلت علىٰ أبي الخير في منزله زائراً ، وكنت عقدت في نفسي أن أسلِّم عليه وأخرج ، ولا آكل في منزله طعاماً ، فلما سلمت عليه ، وخرجت من منزله ، ومشيت قدراً يسيراً ؛ وإذا هو يمشي خلفي ومعه طبق فيه طعام ، ثم قال لي : اجلس وكُلْ ، فقد خرجت الآن من عقدك ؛ لأنك لست في منزلي الآن . انتهىٰ .

وقال في « المناقب » : قال أبو الخير : دخلت مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبي

---

(١) **التيناتي** : نسبة إلىٰ تِينَات من بلاد الشام من أعمال حلب ، سكن فيها .

(٢) الرسالة القشيرية (٤٥) .

(٣) هو عبد العزيز البحراني كما ذكر في « تاريخ دمشق » (٦٦/ ١٧١) .

فاقة ، فأقمت خمسة أيام ما ذقت شيئاً ، فتقدمت إلى القبر الشريف ، وسلمت علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلىٰ أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وقلت : أنا ضيفك يا رسول الله ، ثم نمت خلف المنبر ، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر وعلياً في المنام ، أبو بكر عن يمينه ، وعمر عن يساره ، وعلي بن أبي طالب بين يديه رضي الله عنهم ، فحركني علي رضي الله عنه وقال لي : قم فقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقمت وقبَّلت يديه صلى الله عليه وسلم ، فأعطاني رغيفاً ، فأكلت نصفه ، واستيقظت من النوم ، وإذا في يدي النصف الآخر من الرغيف . والله أعلم انتهىٰ .

وقال في « **لوامع أنوار القلوب** » : روي أن إبراهيم بن المولد زار أبا الخير التيناتي ، فلما قام إلى الصلاة وقرأ (الفاتحة) . . أخل فيها بما لا يبطل الصلاة ، قال إبراهيم : فقلت في نفسي : كيف قصدت رجلاً لا يقيم (فاتحة الكتاب) ؟! فلما فرغ أبو الخير من الصلاة . . أخذ إبراهيم بن المولد الركوة ، وخرج يريد الطهارة ، فحمل عليه الأسد ، فانهزم ، فخرج إليه أبو الخير وصاح على الأسد وقال : أليس قد قلنا لك لا تتعرض لأضيافنا ؟ فرجع الأسد ، فقال أبو الخير : يا إبراهيم ؛ مَن اشتغل بتقويم ظاهره . . خاف من الأسد ، ومَن اشتغل بتقويم باطنه . . خاف منه الأسد ، استغفر الله يا إبراهيم مما مر بخاطرك ؛ فإن تلك القراءة مما تصح بها الصلاة ، غفر الله لنا ولك . والسلام . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو الحسن سمنون بن حمزة الخواص
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ في كتاب « عقلاء المجانين » : سمنون بصري ، سكن بغداد ، ومات قبل الجنيد رحمهما الله[1] .

قال : ووقف رجل علىٰ سمنون البصري في مجلسه ، فسأله عن المحبة فقال : لا أعرف اليوم مَن أتكلم عليه . . يعلم هٰذه المسألة ، فسقطت حمامة وقعدت علىٰ ركبته ، فقال : إن كان . . فهٰذا ، ثم جعل يقول ـ ويشير إلى الطائر ـ : بلغ من أحوال القوم كذا وكذا ، فشاهدوا كذا وكذا ، وكانوا علىٰ كذا وكذا ، ولم يزل يتكلم عليه حتىٰ سقط الطائر عن ركبته ميتاً ، ثم أنشأ يقول :

لو صاح إنسان لشدة حبِّهِ لملأتُ بين الخافقين صياحا

زاد في « لوامع أنوار القلوب » : أن أبا العباس بن مسروق وأبا الحسن الواسطي رحمهما الله قالا : كنا في جماعة في حلقة سمنون المحب في جامع بغداد ، وهو يتكلم في المحبة ، فكنا نفهم ما يقول ، فدق الكلام حتىٰ خرج عن الأفهام ؛ فإذا القناديل تضرب بعضها بعضاً ، فتكسرت القناديل كلها ، فقال الواسطي : إني لأعجب كيف تستقر السواري علىٰ سماع هٰذا الكلام! وأي قلب يحتمله ؟! وأي فؤاد يحويه ؟!

وفي رواية أبي القاسم القشيري : عن ابن مسروق قال : رأيت سمنون بن حمزة يتكلم في المحبة ، وكان في المسجد ، قال : فتكسرت قناديل المسجد كلها .

قال : ورأيته قد جلس يوماً آخر ، فتكلم في المحبة ، فجاء طائر صغير ولا زال يدنو منه

---

(١) سُمنون بن حمزة : بضم السين على المشهور ، ويقال : ابن عبد الله ، كما يكنىٰ بأبي القاسم ، وفي « الصفوة » (٢/ ٢٥٧ـ٢٥٨) ، و« تاريخ بغداد » (٩/ ٢٣٤) : (مات بعد الجنيد) ، وفي « الحلية » (١٠/ ٣٠٩) ، و« الرسالة القشيرية » (٣٧) : (قبل) .

حتىٰ جلس علىٰ يده ، ثم ضرب بمنقاره الأرض ، فسال منه دم ، ثم مات .

زاد في « لوامع أنوار القلوب » : فقلنا له : إن الله عز وجل لم يخلق حيواناً . . إلا ويعرف المحبة ، ولٰكن ليس كل حيوان يحملها ؛ فإنها سُمٌّ في البدن ، ودمع في العين ، وقلق في الحشا ، وشجىً في القلب .

وكان سمنون يقول : ما ثَم غير الرضا والتسليم بجميع ما يفعله سبحانه وتعالىٰ ، فضح أم ستر ، أسرَّ أم أعلن .

وقال سمنون : المحبة : فَقْدُ القلب مع معالجة الكرب .

وقال : عبادة ساعة بمثقال ذرة من المحبة . . أحب إلي من عبادة سبعين سنة بلا محبة ؛ فإني أخشىٰ علىٰ عبادتي من الإسماع والاطلاع ، والمحبة تحملني علىٰ كتمان السر والاعتذار[1] ، ودوام الخضوع والافتقار ، ولا يبلغ المحب إلىٰ هٰذا الحد . . إلا بكسر النفس والمنىٰ ، وترك الشهوات والهوىٰ ، وأنشد :

الهَـمُّ مجتمـعٌ والقلـب مفتـرقُ ... والجسم محترِق والدمع مستبقُ
كيف القرار علىٰ مَن لا قرارَ له ... مما جناه الهوىٰ والشوق والقلقُ
يا رب إن كان شيءٌ فيهِ لي فَرَجٌ ... فـامنن علـيَّ بـه مـا دام بـي رمـقُ

وقال : المحبة : استهلاك في لذة ، ومشاهدة في غيبة ، والمعرفة : فناء في هيبة ، ومشاهدة في مشاهدة ، ولم يخلق الله سبحانه حيواناً . . إلا وأودع فيه جزءاً من المحبة ؛ قال تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ .

ولهٰذا قال بعض العارفين : الله محبوب الأشياء كلها ، ولولا المحبة . . لما واظب المؤمن علىٰ صومه وصلاته وسائر عباداته .

وقال ـ وقد سئل عن المحبة ـ فقال : المحبة : رؤية العز في الذل ، وإن كنت تحت القيد والغل ، ثم أنشد :

أَذِلُّ لمـن أهـوىٰ لأكسـبَ عِـزَّةً ... وكم عِزَّةٍ قد نالها المرء بالذُّلِّ
إذا كان مَن تهوىٰ عزيزاً ولم تكن ... ذليلاً له فَاَقْرَ السلام على الوصلِ

وقيل له : صِفْ لنا الحب ، فقال : أول منازل المحبة : فقدان القلب في ميدان الحب ،

---

(١) في نسخة : (والمحبة تحملني علىٰ كتمان السر إلا عند الاعتذار) .

ثم قرأ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ ، فلو كان قلبه معه.. ما اختار لنفسه الشَّجَىٰ والأحزان ، ولَمَا هجر الأخلاء والإخوان ، ولـٰكنه استوضح الطريق ، واستصحب التوفيق ، وتزود من المساعدة ، وركب أشواق المشاهدة ، فركض في ميدان الصفاء والوقار ، وخلَّف وراءه النفس والهوىٰ ، فأخذ سره عن نفسه ، وهرب قلبه عن أنسه ، فبقي مع أنيسه بلا قلب ، ومع محبوبه بلا لُبٍّ .

وقال : المحبة : التشرف بالمحبوب .

ولهـٰذا قال يحيى بن معاذ الرازي ـ رحمه الله ـ : ذهب المحبون بشرف الدنيا والآخرة ؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المرء مع من أحب »[1] .

ثم قال سمنون : مُحِبُّو الجنة بَقُو مع جنتهم ، ومحبُّو الدنيا بَقُو مع دنياهم ، ومحبُّو الحق جل جلاله بَقُو مع الحق سبحانه وتعالىٰ في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

وقال أبو محمد رحمه الله : دخلت علىٰ سمنون ، فرأيته يبكي ، فجلست ساعة وحضرت صلاة الظهر ، فقلت : قد أَذَّنَ ، فقام للصلاة ، فلما فرغ من صلاة الفرض والسُّنة.. عاد إلى البكاء ، فقلت له : بالله ؛ ما سبب هـٰذا البكاء ؟ فقال لي : يا أبا محمد ؛ كيف لا أبكي وأنا رجل مطلوب ، والليل والنهار ينهبان عمري ، وأقدم علىٰ ربي سبحانه وتعالىٰ بذنوب قد سارت بها الركبان ، وكتبها المَلَكان ، واطلع عليها قبل ذلك الملك الديان جل جلاله ؟! قال : ثم غلبه البكاء ، فتركته وانصرفت .

وروي : أنه يوم مات سمنون المحب رحمه الله.. قال أحد الحاضرين : ما أكثر براهين هـٰذا الرجل!

وقال آخر : بذل راحته في ابتداء أفعاله ، ثم رُوحَه في انتهاء أحواله .

وكتب سمنون علىٰ مرقعته : لو طولب أصحاب الدعاوي بالمعاني.. لافتضحوا .

وكان ورده في كل يوم وليلة : خمس مئة ركعة .

وقال أبو الفرج وغيره : إن سمنون المحب انتهىٰ خبره إلىٰ بعض الخلفاء ، فأحب لقاءه في خلوة ، فما زال يطلبه حتىٰ ظفر به في الطواف ، فسأله : بمَ تحيا القلوب ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ أما حياة الواصلين إلى الله عز وجل.. ففي خدمته ولزوم طاعته جل جلاله ، فقال له : وكيف وصلتَ إليه ؟ فقال : ما وصلت حتىٰ عملت ستة أشياء :

---

(١) أخرجه البخاري (٥٨١٦) ، ومسلم (٢٦٤٠) .

أَمَتُّ ما كان حَيّاً ، وهو النفس .

وأحييت ما كان ميتاً ، وهو القلب .

وشاهدت ما كان غائباً ، وهو الآخرة .

وغيبت ما كان شاهداً ، وهو الدنيا .

وأبقيت ما كان فانياً ، وهو المراد .

وأفنيت ما كان باقياً ، وهو الهوىٰ ، واستوحشت مما تأنسون ، وأنست بما تستوحشون ، ثم أنشأ يقول :

روحي إليك بكلها قد أجمَعَتْ ... لو أن فيك هلاكَها ما أقلعَتْ
تبكي عليك بكلها في كلها ... حتىٰ يُقالَ من البكاء تقطَّعَتْ
فانظر إليها نظرة بمحبةٍ ... فلطالما متَّعْتَها فتمتَّعَتْ

وقال سمنون : بقيت مطروحاً علىٰ باب بني شيبة سبعة أيام طاوياً ، فهتف بي هاتف في آخر ليلتي : مَن أخذ من الدنيا فوق ما يجزئه . . أعمى الله قلبه .

وقال سمنون : إني أذكر مجيء الناس إلي فأقول : اللهم ؛ هب لهم من العلم ما تشغلهم به عني .

وسئل سمنون : أي الطعام أشهىٰ ؟ فقال : لقمة من ذِكر الله عز وجل ، في فم اليقين ، بتوحيد الله سبحانه ، رفعتَها من مائدة الرضا عن الله عز وجل ، عن حسن الظن بكرامة الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال سمنون : مكاشفات الأعيان بالأبصار ، ومكاشفات القلوب بالاتصال .

وروي : أن غلبة الشوق أخرجت سمنون المحب ليلة من مصلاه ، قال : فلما خرجت إلىٰ مقابر الشونيزية . . سمعت في هدوء الليل صوت أنين وحنين ، قال : فقربت منه ، فسمعته يقول : إلـٰهي ؛ الخوف أقصاني ، والرجاء أدناني ، والحب حَيَّرني ، والشوق هَيَّمني ، وأنا فيما بين ذلك أسير ، وخلاصي عليك سهل يسير ، فوجدت قلبي وقصدتُه ، فلم أر أحداً ، فعدت إلىٰ موضعي وأنا أهيم بما كنت فيه .

ووعظ سمنون رجلاً فقال له : اجعل قبرك خزانتك ، واحشُها من كل عمل صالح ، فإذا وردت علىٰ ربك سبحانه وتعالىٰ . . سَرَّك ما ترىٰ .

وسئل عن الصبر لله فقال : حَمْلُ المؤن في الله عز وجل حتىٰ تنقضي أوقات المكروه .

وقال في معنىٰ قوله صلى الله عليه وسلم : « رَوِّحوا القلوب . . تعي الذِّكر »[1] : روحوا القلوب من هموم الدنيا . . تعي أذكار الآخرة .

وقال في معنىٰ قوله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن يأكل في معي واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء »[2] : واحد منها طبع ، وستة حرص ، فالمؤمن يأكل بمعاء الطبع ، والكافر يأكل بمعاء الحرص .

وسئل سمنون عن المحبة فقال : ما خلق الله عز وجل شيئاً . . إلا والمحبة ألطف منه ، فكيف أعبر عما لا عبارة عنه ؟!

وقال سمنون : أول وصال العبد للحق جل جلاله . . هجرانُه لنفسه ، وأول هجران العبد للحق . . مواصلته لنفسه .

وكان سمنون رحمه الله يدخل كل يوم السجن والمقابر ودار المرضىٰ ، ويقول لنفسه : لو كنت في السجن ما كنت تصنع ؟ لو كنت مريضاً ما تصنع ؟ لو كنتَ في القبر .ماذا يكون حالك ؟ اللهم ؛ اغفر وارحم وأتم نعمك السابغة عليَّ .

وكان يقول :

يا من تَرَفَّعَ بالإمارة طاغياً   خَفِّضْ عليك فلِلأُمور زوالُ
فلئن أفادك ذا الزمانُ تصرفاً   فبصَرْفِهِ تتقلب الأحوالُ

وحكىٰ أبو الفرج ـ رحمه الله ـ وغيره : عن سمنون أنه كان يسمي نفسه سمنون الكذاب ، وسبب ذلك أنه ادعى الصبر والرضا بالبلاء ، فلما امتحن . . لم يصبر ، وكان قد قال :

وليس لي في سواك حظ   فكيف ما شئتَ فاختبرني

فاحتبس عنه بوله أربعة عشر يوماً ، فكان يلتوي كما تلتوي الحية على الرمل ، ويقول للصبيان : ادعوا لعمكم الكذاب ، فلما تاب . . أُطلِق وقال : يا رب ؛ تبت إليك وأنت أرحم الراحمين .

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٥١١٥) .
(٢) أخرجه البخاري (٥٠٧٨) ، ومسلم (٢٠٦١) .

وقال أبو أحمد القلانسي رحمه الله : فرَّق رجل من الأغنياء على الفقراء أربعين ألف درهم ، فبلغ ذلك سمنون ، فقال لي : يا أبا أحمد ؛ ما ترىٰ ما قد أنفق هـٰذا وما قد فعله ؟ نحن ما نرجع إلىٰ شيء ننفقه ، امض بنا إلى المدائن نصلي أربعين ألف ركعة ، قال : فمضينا إلى المدائن وصلينا أربعين ألف ركعة ، وزرنا قبر سلمان الفارسي رضي الله عنه ، ثم رجعنا . [انتهىٰ « الصفوة » ٢/٢٥٧ـ٢٥٨] .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : قال سمنون المحب : كنت أسمع أن بالبادية امرأةً لها حالٌ صافٍ ، فقصدتها كَرَّاتٍ فلم أرها ، فخرجتُ حاجاً على التفريد والتجريد ، فلما كنت بمكة . . رأيت امرأة شعثاء حيرانة ، فسلمت عليها ، فأحسنت الرد وقالت : وعليك السلام يا سمنون ، بصوت خفي .

فقلت لها : ما الذي أسقمك ؟ قالت : الحب ، فقلت : لمَن ؟ فقالت : لله رب العالمين جلت عظمته ، قلت : فإلىٰ أين انتهت بك المحبة ؟ فقالت : إلى الدهشة والحَيرة ، قصدت هـٰذا البيت المبارك مرات ، فنوديت في سري : إنَّ علم هـٰذا البيت بالله تبارك وتعالىٰ كعلم الحوت من تحت الأرضين به سبحانه ، وعلم الثريا به سبحانه كعلم الثرىٰ به ، فأَجَلْتُ سرَّ محبتي حول العرش ، فناداني العرش : إني طالب لما أنت طالبة ، ومتحير فيما أنت متحيرة فيه ، قال سمنون : فسكرت من سماع هـٰذا الكلام ووجدت قلبي ساعة ، فلما أفقت . . لم أرها .

وقال سمنون المحب : إذا صدقت المحبة . . لا يحس المحب بقطع الأعضاء ، بل يلتذ بأنواع البلاء . انتهىٰ .

وقال مؤلفه[(١)] محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : قد اشتمل كلام سمنون المحب ـ رحمه الله ـ وحالُه على المحبة ، وقد رأيت أن أختم ترجمته بفصول ثلاثة :

الأول : حقيقة المحبة بعبارات الواجدين .

الثاني : في بيان أكثر الألفاظ الجارية في عرف القوم .

الثالث : في كلمات حُفِظت عن المشايخ علىٰ ترتيب كتاب « بهجة الأسرار » .

---

(١) أشار المؤلف في مقدمة هـٰذا الكتاب أنه كتب مؤلفاً في حقيقة المحبة وسماه : « إشراق الصباح في حياة الأرواح » ، ولعله لخص شيئاً منه في هـٰذا الكتاب ، والله أعلم .

أما الأول

[في حقيقة المحبة بعبارات الواجدين]

فقال الفضيل بن عياض رحمه الله : حقيقة المحبة[1] : إيثار المحبوب على الكونين في القرب والبعد ، ومِن شرطها الاستتار ابتداءً والاشتهار انتهاءً .

وقيل : هي الرضا عن المحبوب في الأحوال كلها ، وألاَّ يبقىٰ للمحب مراد ولا تصرف .

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : هو ألاَّ تبقىٰ له إرادة إلا مع إرادة محبوبه ، فيكون مؤنس خلوته ، وموضع راحته ، ويجعل قلبَه لمعرفته ، وبدنَه لخدمته ، وسمعَه لكلامه .

وقال ذو النون رحمه الله : هو أن يحب ما أحب الله ، ويبغض ما أبغض الله ، ويطلب رضاه ، ويرفض كل ما يشغله عن الله عز وجل .

ومن علامة المحبة : متابعة المحبوب في مراداته وأفعاله وأوامره ونواهيه ، لا فزعاً من العقاب ، ولا طمعاً في الثواب .

وأدنىٰ منازل المحبة : أنه لو ألقاه محبوبه في لظىً . . لَمَا تغير هَمُّه عما هو عليه من المحبة ، ولا يغيب محبوبه عن سره .

وقال بشر بن الحارث رحمه الله : تَرْك مخالفة المحبوب بكل حال ، والتسليم والرضا في الحال والمآل ، ويشهد ذُلَّه في عز محبوبه ، ويستعد للحتف المجلوب مع فوات المطلوب ، ويكون موافقاً لمراد المحبوب في المشهد والمغيب ، فإن تغير عن حال الوفاق . . عاد إلى الرياء والنفاق .

وقال سري السقطي رحمه الله : القيام بحقوق المحبوب ، وإيثاره علىٰ حقوق نفسه مع

---

(١) جاء في هامش إحدى النسخ ما معناه : (أراد المؤلف من هٰذا الفصل بيان حقيقة المحبة بتعريفها بعيداً عن التعريف الفلسفي الذي يبحث في الجوهر والماهية ، وإنما قصد بيان حقيقتها بعلاماتها وآياتها ، كما جاء في الحديث الشريف لما سأل النبي صلى الله عليه وسلم الحارث بن مالك رضي الله عنه فقال : « كيف أصبحت يا حارث ؟ » قال : أصبحت مؤمناً حقاً ، قال : « انظر ما تقول ؛ فإن لكل قول حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ » قال : عزفَتْ نفسي عن الدنيا ، فأسهرتُ ليلي ، وأظمأتُ نهاري ، وكأني أنظر عرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلىٰ أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلىٰ أهل النار يتضاغَون ـ يتصايحون ويضجون ـ فيها ، قال : « يا حارث ؛ عرفت فالزم » رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٣/ ٢٦٦) .

الاستطاعة في الشرع ، وطلب الوفاء والإنصاف من نفسه لمحبوبه .

وقال الحارث المحاسبي رحمه الله : هي العمل بحركات القلوب والجوارح في مطالعات الغيوب ، ومعناه : أنه يناجي من الغيب في الغيب بالغيب للغيب .

وقال معروف الكرخي رحمه الله : اشتغال العبد بطاعة الله عز وجل ، ورفض كل ما يقطع عن ذلك ، وعلامة مقتِ الله سبحانه للعبد : اشتغالُه بنفسه والدنيا ، ولا تصح طاعة إلا بإخراج الدنيا من القلب .

وقال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله : هي ما لا ينقص بالجفاء ، ولا يزيد بالبر .

وقال أبو تراب رحمه الله : هي أن يستلذ ببلائه كما يستلذ[1] بنعمائه ؛ فإن الجميع يصدر عن محب واحد سبحانه ، ومحبة واحدة ، وإرادة واحدة ، والمحبة لا تتغير ، كما أن المحبوب جل جلاله لا يتغير .

وقال أيضاً : المحبة : ألاَّ ترى الإحسان إلا من محبوبك ، ولا تطيع إلا ما أمر به وأراده ، ولهٰذا قال صلى الله عليه وسلم : « جبلت القلوب علىٰ حب من أحسن إليها » .

فيا عجباً ممن لا يرىٰ محسناً غير الله عز وجل كيف لا يميل بكليته إليه ؟!

وقال أبو عثمان الحيري رحمه الله : أن يستوي عند المحب المنع والعطاء ، والعز والذل ، ثم لا تصح المحبة إلا بالالتجاء إلى المحبوب ، والفقر الدائم إليه ، والاستكانة والخضوع ، مع الخوف منه ، والرجاء له ، وإيثار كل ما فيه رضاه ، فيتولد منه نحول في الجسم ولوعة في الفؤاد ، وجوىً في الصدر .

وقال أبو محمد رويم رحمه الله : المحب مَن لا يجاوز هَمُّه محبوبَه ، وحيث وقَّفه وقف ، ولو كان فيه حتفه ؛ فإن أقل ما في المحبة بذل الروح ، فإن أمكنك الدخول فيها مع هٰذا ، وإلا .

وقال يوسف بن الحسين الرازي رحمه الله : مراعاة المحبوب في الغَيبة والمشاهدة ، والقرب والبعد ، والوصل والهجر علىٰ صفة واحدة ، علماً بأن المحبوب يراه فيستحي منه أن ينظر إلىٰ سواه .

---

(١) في نسخة : (تستلذ) في الموضعين .

وقال أبو عبد الله عمو بن عثمان بن غضنفر المكي رحمه الله : حقيقة المحبة لا تقع عليها عبارة ؛ لأنها سر الله عز وجل ، أودعه قلوب المؤمنين المخلصين ، فدوام محبة الله دوام مخافته ، ودوام المراقبة ، ودوام انتصاب القلب لذكره ، ودوام صحة التوكل عليه ، ودوام الصبر مع الرضا والإخلاص في طاعته ، والمحبوب جل جلاله يفعل ما يشاء من خلع العزائم والإرادات ، والمحب لا يقر قراره لا ليلاً ولا نهاراً ، من تكرار البلاء عليه ، وهو غريق في بحر المحبة ، متمسك بعلائق الإخلاص ، والمحبة داخلة في الرضا ، فلا محبة بلا رضا ، ولا رضا بلا محبة ؛ لأنك ما تحب إلا ما ترضىٰ ، ولا ترضىٰ إلا ما تحب ، وسماع كلام المحبوب من أهنأ النِّعم ، وإيثار رضاه شفاء السقم .

وقال أبو بكر محمد بن عمر الوراق الترمذي ـ رحمه الله ـ : هي مشاهدات المحبوب علىٰ كل حال ؛ فإن الاشتغال بغيره حجاب ، وأصله التسليم واليقين ، فهما يبلغان إلىٰ درجة المتقين ، قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ * فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ .

وللمحبة علامات ، منها : أن يكون كلامه ذِكراً للمحبوب ، وصمته تفكراً في آلائه ونعمهِ ، وعلمُه وعملُه طاعة له ، ونظره عبرة في صنائعه ؛ قال تعالىٰ : ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ .

وقال علي بن سهل التستري ـ رحمهما الله ـ : هي الأنس بالمحبوب دون من سواه .

وقال أبو عبد الله محمد بن محمد الخراز الرازي ـ رحمه الله ـ : هي ترك الشكوىٰ ، وإخفاء البلوىٰ ، ومداومة الأرق ، ومعالجة الحرق .

وقال أبو الحسن بنان بن أحمد بن سعيد الحمّال : حقيقة المحبة : أن تُسَرَّ بكل ما جاء من جهة المحبوب ، وكلما كانت قدم المحب في المحبة أثبت . . كان فرحه وقيامه بالأوامر واجتناب النواهي أكثر ، وبحسب ذلك يكون قربهم .

وقال أبو بكر محمد بن موسى الفرغاني رحمه الله : إن محبة العبد هي أحواله .

ومن علامة المحبة مشاهدة أفعال المحبوب في موانع أفعاله ، وبذل المهجة في طاعته ، ورؤية الأوقات كلها ساعة ؛ فإن حياة القلوب بمشاهدة المحبوب ، وموتها في الغفلة عن المطلوب ؛ فإنَّ خَطَرَ الذاكرين علىٰ بساط الذِّكر . . أشد من خطر الغافلين في ميدان الغفلة ؛ فإنه إن فاتهم . . خسروا التعب والشقاء ، الأمان . . الأمان .

وقال أيضاً : المحبة : الوطء علىٰ جمر الغضىٰ[1] ، وإتلاف النفس في طلب الرضا ، والانقياد لمحتوم القضا ، والاستدراك لما قد مضىٰ .

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن داوود القصار رحمه الله : المحبة لا تطاق ، فإن حُمِلت . . فلا تنكتم ، فإن كُتمت . . قَتلت ، ومَن أحب الله عز وجل . . التجأ إليه في جميع ما يعرض له من البلاء والعطاء ، وإذا علم تعالىٰ صِدْقَه . . كفاه كلَّ مهم ، ونصره عند كل ملم .

وقال علي بن إسماعيل السامري ، ثم البغدادي ، المعروف بالنساج رحمه الله : حقيقة المحبة لا تتغير عند إساءة المحبوب ، كما لا تتغير عند إحسانه إليه ؛ لأن الله سبحانه وتعالىٰ شرح صدور المتقين بنور اليقين ، وكشف عن بصائر العارفين بنور حقائق الإيمان ، فأشرقت أسرار المحبين بنور المكاشفة ، وشَغَلَهم بدوام المذاكرة ، فاستوىٰ عندهم المنع والعطاء ، والنعمة والبلاء ، والفقر والغنىٰ ؛ قال الله تعالىٰ فيهم : ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ .

ومِن علامة المحبة : أن كل ما يتقلب فيه المحب من النعم . . لا يراه إلا من محبوبه ، ولا ينفقه إلا في طاعة محبوبه ، ويستحيي أن ينفق نعمه علىٰ معاصيه .

وفي « الزبور » : (إذا كنتَ تتقلب في نعمتي ، وأنت تستعين بها علىٰ معصيتي . . فاحذر عقوبتي ونقمتي) .

وقال أبو جعفر أحمد بن حمدان بن شيبان النيسابوري رحمهم الله : حقيقة المحبة : تعظيم الحبيب في المشهد والمَغيب ، وعلىٰ قدر معرفة العبد ومحبته لله عز وجل . . يكون تعظيمه لله تعالىٰ ، ومَن عظَّم الله . . عظَّم حرمات المؤمنين .

وقال أبو عبد الرحمـٰن محمد بن الحسين بن محمد بن موسى السلمي رحمه الله : المحبة : خلوص المحب لمحبوبه بكل وجه سراً وعلانية ، ولا يقال حضر أم غاب ؛ لأن الغَيبة مع المحبة لا تُتَصور .

حكي : أن الشبلي رحمه الله كان في ولهه يوماً في مجلس الجنيد ، فتواجد وقال : الله ، الله ، فقال الجنيد : يا أبا بكر ؛ الغيبة حرام .

معناه : إن كنت تذكره وأنت ترىٰ نفسك . . فأنت عنه غائب ، فهـٰذه غيبة ، والغيبة

---

(١) **الغضىٰ** : نوع من الشجر جمره من أشد الجمر حرارة .

حرام ، وإن كنت تذكره وأنت علىٰ بساط المشاهدة واللقاء والتواجد . . فهو ترك للحرمة ، وترك الحرمة حرام .

وقال القشيري ـ رحمه الله ـ : حقيقة المحبة أن يكون رقيب من المحبوب على المحب ، لا يبرح حتىٰ يستوفي منه دقائق الحقوق علىٰ دوام الأحوال ؛ أي : يعلم أن عليه رقيباً .

وابتداء المحبة : ترك الراحة في طاعة المحبوب ، وانتهاؤها بذل الروح .

وقالت رابعة العدوية رحمها الله : المحبة نار تنضج الأكباد ، وتحرق الفؤاد ، فإن رأيتها لم تنضج . . فهي دعوىٰ لا معنىٰ .

وقيل : هي التلذذ بالعذاب من المحبوب بطلب رضاه بكل حال ، إن صويحبات يوسف عليه الصلاة والسلام لو لسعهن زنبور . . لارتفع صياحهن إلى السماء ، ولـٰكن عند المشاهدة . . تضاعفت المحبة وقطعن أيديهن وما شعرن .

ولهـٰذا لما قيل لها : ما برهانك في دعواك الحب ؟ قالت : يا يوسف ؛ اخرج عليهن ، فلما رأينه . . أكبرنه وقطعن أيديهن ، فقالت : وجهه حجتي ، وحسنه عذري .

ولهـٰذا قيل : مَن ادعى العلم . . فبرهانه بذل الحال ، ومَن ادعى المعرفة . . فبرهانه بذل النفس ، ومَن ادعى المحبة . . فبرهانه بنضج الفؤاد ، وبقطع الأكباد ، وإعدام الأشباح .

وأقوال المشايخ في ذلك كثيرة راجعة إلىٰ معنىٰ واحد ، ولـٰكن اختلفت عباراتهم بحسب مشاربهم ، رحمهم الله أجمعين .

* * *

الفصل الثاني
في بيان بعض الألفاظ التي في علم السلوك

قال حجة الإسلام الغزالي ـ قدس الله روحه[1] ـ : اعلم : أن لكل علم ألفاظاً فيما بين أهل ذلك العلم . . يتخاطبون بها في قواعده وسائر مسائله ، وأهل علم المعرفة ـ ويسمىٰ : علم السلوك والموهبة و[العلم] اللدني ـ جرىٰ رسمهم بالتخاطب بألفاظ نذكر منها ما يغمض إن شاء الله عز وجل .

---

(١) في « الإملاء » في إشكالات الإحياء للغزالي (ص١٦) ملحق بكتاب « الإحياء » طبعة دار المعرفة .

فمن ذلك :

السفر ، والطريق : والمراد بهما : سفر القلب بآلة الفكر في طريق المعقولات ، وعلىٰ ذلك انبنىٰ لفظ السالك والمسافر في لغتهم ، ولم يريدوا سلوك الأقدام التي يقطع بها مسافات الأجسام ؛ فإن ذلك مما يشارك فيه البهائم والأنعام .

وأول مسالك السُّيَّار إلى الله تعالىٰ : معرفة قواعد الشرع ، وخرق حجب الأمر والنهي ، حتىٰ يعلقوا الغرض فيها ، والمراد بها ومنها ، فإذا دخلوا في نواحيها وقطعوا مفاوزها . . أشرفوا علىٰ مفاوز أوسع ، وبدت لهم مهامِهُ[1] أعرضُ وأطولُ ، فمِن ذلك : معرفة أركان المعارف النبوية ، ومعرفة النفس ، ومعرفة العدو والدنيا .

فإذا تخلصوا منها وخاضوا في معرفتها . . أشرفوا علىٰ غيرها أعظمَ منها في الانتساب ، وأعرضَ منها بغير حساب ، فمِن ذلك : سر القدر ، وكيفية حكم الله عز وجل في عباده وسائر مخلوقاته ، وقادهم بلطف في عنف ، وشدة في لين ، وقوة في ضعف ، واختيار في جبر ، إلىٰ ما هو في مجاريه ، [مما] لا يخرج المخلوقون عنه طرفة عين ، ولا يتقدمون عليه ، ولا يتأخرون عنه ، والإشراف على الملكوت الأعظم ، ورؤية عجائبه ، ومشاهدة غرائبه ؛ مثل : القلم الإلـٰهي ، واللوح المحفوظ ، واليمين الكاتبة ، وملائكة الله عز وجل يطوفون حول العرش وبالبيت المعمور وهم يسبحونه ويقدسونه سبحانه وتعالىٰ ، وفَهْمِ كلام المخلوقات من الحيوانات والجمادات ، ثم الارتقاء منها إلىٰ معرفة الخالق للكل جل جلاله ، والمالك للجميع ، والقادر علىٰ كل شيء ، فتغشاهم الأنوار المحرقة ، وتتجلىٰ لمرآة قلوبهم الحقائق التي كانوا محجوبين عنها ، فيعرفون الصفات ، ويشاهدون الموصوف جل جلاله ، ويحضرون حيث غاب أهل الدعوىٰ ، ويبصرون ما عمي عنه أولو الأبصار الضعيفة بحُجُب الهوىٰ .

ـ **والحال** : منزلة العبد في الحين ، فيصفو له في الوقت حاله ووقته ، وقيل : ما يتحول فيه العبد ويتغير عما يرد علىٰ قلبه ، فإذا صفا تارة وتغير أخرىٰ . . قيل له : حالٌ .

وقال بعضهم : الحال لا يزول ، فإذا زال . . لم يكن حالاً .

وقد سبق الكلام علىٰ هـٰذا في ترجمة الإمام أبي عثمان الحيري رحمه الله .

---

(١) مَهَامِه : جمع مهمه ، وهي : المفازة والبرية القفر .

ـ **والمقام** : هو الذي يقوم به العبد في الأوقات ، من أنواع المعاملات ، وصنوف المجاهدات ، فمتىٰ أقيم العبد منها بشيء على التمام . . فهي مقامه حتىٰ ينتقل منه إلىٰ غيره .

ـ **والمكان** : هو لأهل الكمال والتمكين ، فإذا كمل العبد في معانيه . . فقد تمكن في المكان ، وعَبَرَ المقامات والأحوال ، فيكون صاحب مكان .

ـ **والشطح** : كلام يترجمه اللسان عن وجد يعرض لقائله مقرون بالدعوىٰ [إلا أنه يكون صاحبه محفوظاً] ، وقد ذكرت في المسألة الرابعة في ديباجة الكتاب الكلام علىٰ هٰذا .

ـ **والطوالع** : أنوار التوحيد تطلع علىٰ قلوب أهل المعرفة ، فيطفىء سلطان نورها سائر الأنوار ، كما أن سلطان نور الشمس يمحو أنوار الكواكب .

ـ **والذهاب** : وهو أن تغيب القلوب عن حس كل محسوس بمشاهدة محبوبها .

ـ **والنفس** : نور[1] يسلطه الله عز وجل علىٰ نار القلب ليطفىٔ شررها .

ـ **والسر** : ما خفي عن الخلق ، فلا يعلم به إلا الحق سبحانه وتعالىٰ .

والسر ثلاثة : سر العلم ، وسر الحال ، وسر الحقيقة .

فسرُّ العلم : حقيقة العالمين بالله سبحانه وتعالىٰ ، وسرُّ الحال : معرفة مراد الله عز وجل في الحال ، وسرُّ الحقيقة : ما وقعت به الإشارة .

ـ **والفصل ، والوصل** : أما الوصل : فهو إدراك الفائت ، والفصل : فوت ما ترجوه من محبوبك .

ـ **والأدب** : ثلاثة :

[الأول] : أدب الشريعة ، وهو : التعلق بأحكام العلم بصحة عزم الخدمة .

والثاني : أدب الخدمة ، وهو : الفراغ من العلاقات ، والتجرد عن الملاحظات .

والثالث : [أدب الحق ، وهو] : موافقة الحق جل جلاله بالمعرفة : وذلك موهبة ومحض فضل .

ـ **والرياضة** : نوعان :

رياضة الأدب : وهو الخروج عن طبع النفس .

---

(١) في « الإملاء » : (روح) ، وكذا في بعض النسخ .

ورياضة الطلب : وهو صحة المراد به .

ـ **والتحلي** : التشبه بأحوال الصادقين وسائر أوصافهم ، وإظهار أعمالهم .

ـ **والتخلي** : اختيار الخلوة ، والإعراض عن كل ما يشغل عن الله سبحانه وتعالىٰ .

ـ **والتجلي** : ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب .

ـ **والعلة** : تنبيه عن الحق جل جلاله .

ـ **والانزعاج** : انتباه القلب من سِنة الغفلة ، والتحرك للأنس والوجد .

ـ **والمشاهدة** : ثلاثة :

مشاهدة بالحق ، وهي : رؤية الأشياء بدلائل التوحيد .

ومشاهدة للحق جل جلاله ، وهي : رؤية الحق سبحانه وتعالىٰ في كل الأشياء .

ومشاهدة الحق ، وهي : حقيقة اليقين بلا ارتياب .

وقد سبق الكلام علىٰ معنى المشاهدة في ترجمة الإمام أبي يزيد البسطامي رحمه الله .

ـ **والمكاشفة** : أتم من المشاهدة ، وهي ثلاثة :

مكاشفة بالعلم ، وهي : تحقيق الإصابة بالفهم .

ومكاشفة بالحال ، وهي : تحقيق رؤية زيادة الحال .

ومكاشفة بالوجد ، وهي : تحقيق صحة الإشارة .

ـ **واللوائح** : ما يلوح من الأسرار[1] الظاهرة الصافية في ارتقائها من حالة إلىٰ حالة أتم منها ، والارتقاء من درجة إلىٰ درجة أعلىٰ منها .

ـ **والتلوين** : تلون العبد في أحواله .

وقالت طائفة : علامة الحقيقة : رفع التلوين بظهور الاستقامة .

وقال آخرون : علامة الحقيقة : التلوين ؛ لأنه يظهر فيه قدرة القادر جل جلاله ، فتكتسب العباد منه الغَيرة[2] .

وأما الغيرة : فهي ثلاثة : غيرة في الحق ، وغيرة على الحق ، وغيرة من الحق .

---

(١) في النسخ : (للأسرار) .

(٢) جاء في نسخة : (العبرة) .

فالغيرة في الحق : إنكار الفواحش وسائر المناهي ، والغيرة على الحق : هو كتمان السرائر من الأسماء والصفات ، ولا سيما عن الملحدين والجاحدين ؛ خشية أن يعرفه غير أهله ، والغيرة من الحق : تعظيم جانب الربوبية عن أن يعصىٰ[1] .

وإلىٰ هـٰذا المعنىٰ أشار الإمام زهير بن نعيم البابي رحمه الله في قوله : (وددت أن لحمي قرض بالمقاريض وأن الخلق ما عصوا الله تعالىٰ) ، وقد سبق الكلام علىٰ ذلك في ترجمته .

ـ **والحرية** : إقامة حقوق العبودية ، ومعرفة حقوق الربوبية ، والقيام بها علىٰ قدر الطاقة ، فيكون عبداً لله عز وجل وعن ما سواه حراً .

ـ **وأما اللطيفة** : فهي إشارة دقيقة المعنىٰ تلوح في الفهم ولا تسعها العبارة .

ـ **والفتوح** : ثلاثة :

فتوح العبادة في الظاهر ، وذلك سبب إخلاص القصد .

وفتوح الحلاوة في الباطن ، وهو سبب جذب الحق سبحانه وتعالىٰ .

وفتوح المكاشفة ، وهو سبب المعرفة بالحق سبحانه وتعالىٰ .

ـ **والوسم والرسم** : نعتان يجريان في الأبد بما جريا في الأزل .

ـ **والبسط** : عبارة عن حال الرجاء .

ـ **والقبض** : عبارة عن حال الخوف .

ـ **والفناء** : هو أن تفنىٰ رؤية العبد لفعله ، وذلك بأن يعلم أن الله عز وجل هو الذي أقامه وأقدره على الإتيان بذلك الفعل .

ـ **والبقاء** : بقاء الطاعات ، ورؤية مِنة الله عز وجل وفضله علىٰ عباده في الطاعات ، ودوام مراقبته والنظر إليه في جميع الحالات .

ـ **والجمع والتفرقة** : قد تقدم الكلام عليهما في ترجمة الإمام الجنيد رحمه الله .

ـ **وعين التحكيم**[2] : إظهار رعاية الخصوصية بلسان الانبساط في الدعاء .

ـ **والزوائد** : زيادات الإيمان بالغيب ، واليقين ، وهي ثلاثة : علم اليقين ، وعين

---

(١) في « الإملاء » : (والغيرة من الحق : ضنه علىٰ أوليائه) .

(٢) وفي « الإملاء » : (عين التحلم) .

اليقين ، وحق اليقين ، وقد تقدم بيان ذلك في ترجمة الإمام أبي القاسم القشيري رحمه الله .

ـ **والإرادة** : ثلاثة :

إرادة الطلب من الله عز وجل ، وذلك موضع الترجي .

وإرادة الحظ منه ، وذلك موضع الطمع .

وإرادة الله تعالىٰ ، وذلك موضع الإخلاص .

ـ **والمريد** : هو الذي صح له الابتداء(١) ، ودخل في جملة المنقطعين إلى الله سبحانه وتعالىٰ بالاسم .

ـ **والمراد** : هو العارف الذي لم تبق له إرادة ، وقد وصل إلى النهايات ، وعبر الأحوال والمقامات .

ـ **والهمة** : ثلاثة :

همة أمنية ، وهي : تجرد القلب للمنىٰ .

وهمة إرادة ، وهي : أول صدق المريد .

وهمة حقيقة ، وهي : جمع الهمم لصفاء الإلهام .

ـ **والغربة** : ثلاثة :

غربة عن الأوطان : من أهل حقيقة القصد .

وغربة عن الأحوال : من أهل حقيقة التفرد بالأحوال .

وغربة عن الحق : من [أهل] حقيقة الدهش والحيرة عن المعرفة .

ـ **والاصطلام والغَيبة** : أما الغيبة : فقد تقدم الكلام عليها ، وأما الاصطلام : فهو نعت وَلَهٍ يرد على القلوب فيسكنها بقوة سلطانه .

ـ والرغبة : ثلاثة : رغبة النفس في الثواب ، ورغبة القلب في الحقيقة ، ورغبة السر في الحق .

ـ **والرهبة** : نوعان : ظاهر ، وباطن .

فالظاهر : لتحقيق وعيد العلم ، **والباطن** : لتحقيق يغلب على القلب ، **ونوع ثالث أعلىٰ**

---

(١) وفي « الإملاء » : (الابتلاء) .

من ذلك كله ، وهو : النظر إلىٰ ما سبق من الأزل .

ـ **والوجد والوجود** : أما الوجد : فهو أن يجد قلبه بصفاء ذكر كان قد فقده ، وأما الوجود : فهو تمام وجد الواجدين ، وهو أتم من الوجد عندهم ؛ لاستمراره علىٰ حال الصفاء الذي وجده بعد فقده .

وسئل بعض العارفين عن الوجد والوجود فقال : الوجد : ما تطلبه فتجده بكسبك واجتهادك ، والوجود : هو ما تجده من الله سبحانه وتعالىٰ ، والوجد من غير تمكين ، والوجود مع التمكين .

ـ **والتواجد** : استدعاء الوجد والتشبه في تكلفه بالصادقين من أهل الوجد . [انتهىٰ] .

وتمام الكلام علىٰ بقية الألفاظ يأتي إن شاء الله عز وجل في كتاب « إشراق الصباح » والله أعلم .

* * *

وأما الفصل الثالث
فهو كلمات مفرقة عن الأئمة رحمهم الله

قال في « بهجة الأسرار » : قال ذو النون رحمه الله : المعرفة ثلاثة أوجه :

معرفة التوحيد ، وهي لعامة المؤمنين .

ومعرفة الحجة والبيان ، وهي للعلماء .

ومعرفة صفات الوحدانية ، وهي لأهل ولاية الله عز وجل الذين يشاهدونه بقلوبهم ، وأنشد :

أبـداً يشـاهـده بعينَـيْ قلبِـهِ والقلـب يعـرف ربـه ويـراهُ

وقال أبو يزيد رحمه الله : إن في الليل شراباً لقلوب أهل المعرفة ، فإذا شربوا . . طارت قلوبهم في الملكوت حباً لله سبحانه وتعالىٰ وشوقاً إلىٰ لقائه ، فبذلك يقطعون ليلهم .

وقال فتح الموصلي رحمه الله : أهل المعرفة الذين إذا عبدوا . . فله جل جلاله يعبدون ، وإذا نطقوا . . فبه ينطقون ، وإذا طلبوا . . فمنه يطلبون ، وإذا سمعوا . . فبه يسمعون ، أولـٰئك خواص الله السابقون .

وقال بعض العارفين رحمهم الله : من علامة العارف : أن ينظر إلى الدنيا بعين الاعتبار ، وإلى الآخرة بعين الانتظار ، وإلى النفس بعين الاحتقار[1] ، وإلىٰ طاعة الله بعين الاعتذار ، وإلى المعذرة بعين الافتقار ، وإلى المعرفة بعين الاستبشار ، وإلى الله عز وجل بعين العظمة والافتخار .

وسئل بعضهم عن العارف ، والعابد ، والمحب ، والخائف ، فقال : الخائف : ذو هرب ، والعابد : ذو تعب ، والمحب : ذو شغف ، والعارف : ذو طرب .

وقال بعض العارفين : باتباع سُنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تُنال المعرفة ، وبأداء الفرائض تُنال القربة ، وبالمواظبة على النوافل تُنال المحبة .

وقال رجل لعبد الله بن المبارك رحمه الله : يا أبا عبد الرحمٰن ؛ أوصني ، فقال : راقِبِ الله سبحانه وتعالىٰ حتىٰ كأنك أبداً تراه .

وقال أبو محمد الجريري رحمه الله : أمرُنا هـٰذا مبني علىٰ فصلين :

أن تلزم نفسك المراقبة لله عز وجل .

ويكون العلم علىٰ ظاهرك قائماً .

وقال أبو عثمان الحيري : قال لي الأستاذ أبو حفص رحمه الله : إذا جلست للناس . . فكن واعظاً لنفسك وقلبك ، ولا يغرنك اجتماعهم عليك ؛ فإنهم يراقبون ظاهرك ، والله عز وجل رقيب علىٰ باطنك سبحانه وتعالىٰ .

وقال الجنيد رحمه الله : مَن راقب الله عز وجل في سره . . حُرِسَتْ جوارحه .

وسئل الشبلي رحمه الله : عن الزهد ما هو ؟ فقال : أما الذي لك . . فلا بد صائر إليك وإن هربت منه ، وأما الذي ليس لك . . فلا تناله وإن جهدت وطلبت ، ففي أي شيء تزهد ؟

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله : والله ؛ ما نصبر علىٰ ما نحب ، فكيف نصبر علىٰ ما نكره ؟!

وقال أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرماني رحمه الله : علامة الصبر ثلاثة أشياء :

ترك الشكوىٰ ، وصدق الرضا ، وقبول القضاء بحلاوة القلب .

---

(١) جاء في نسخة : (الاختبار) .

وقال أبو عثمان رحمه الله في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ قال : الصبَّار الشكور : هو الفقير الصابر ؛ لأن ظاهره ظاهر الصبر ، وهو في الباطن مع الحق عز وجل علىٰ مقام الشكر .

وقال إبراهيم الخواص رحمه الله : الصبر : هو الثبات علىٰ أحكام الكتاب والسُّنة .

وقال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله : إن لله عز وجل في السراء نعمةَ الفضل ، وفي الضراء نعمة الفضل مع التطهير ، فكن في السراء عبداً شَكوراً ، وفي الضراء حبراً صبوراً .

وقال في « **بهجة الأسرار** » : قال محمد بن الحسن : إذا ألف الزاهد أبناء الدنيا . . انقطعت عروته ، فإن نال من دنياهم شيئاً . . انحلت عُقَده ، فإن تمتع بها . . ضل .

وقال يحيى بن معاذ رحمه الله : لو لطمني أحد فلم أقدر على الانتصار منه . . كان أحب إلي من أن يبرَّ بي أحد فلم أقدر علىٰ مكافأته .

وقال يحيىٰ : أشتهي القيامة ؛ لثلاثة أشياء : للقاء الله عز وجل ، ورحمة للخلق ، وقرة عين المؤمن .

وقال أيضاً : صبر المحبين أشد من صبر الزاهدين ، واعجباه! كيف صبروا عن حبيبهم ؟!

وقال : العارف يزهد في الناس ، والزاهد يزهد في الدنيا .

وقال سهل رحمه الله : ما أظهر عبد فقره إلى الله عز وجل في وقت الدعاء في شيء يحل به . . إلا قال الله عز وجل لملائكته : (لولا أنه لا يحتمل سماع كلامي . . لأجبته : لبيك) ، سبحان ذي الفضل والعظمة والجبروت ، سبحان ذي العزة والكبرياء ، سبحان ذي اللطف والكرم ، جل جلاله ولا إلـٰه غيره .

وقال الشبلي رحمه الله : كمال المعرفة : سكون الخواطر والجوارح عما سوى الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال ذو النون رحمه الله : الذي حجب العارفين عن الله عز وجل . . السكون إلىٰ غير الله . انتهىٰ .

وقال الإمام أبو القاسم إسحاق البخاري الكلاباذي قدس الله روحه : **ومنها** : التجلي ، والاستتار .

أما التجلي : فاعلم أنه إذا تجلىٰ للعبد قدرةُ الله عز وجل علىٰ عباده.. فحينئذ لا يخاف غيره ، وإذا تجلىٰ له كفاية الله سبحانه لعباده.. فحينئذ لا يرجو غيره ، وكذلك سائر الصفات ، كما قال حارثة رضي الله عنه : (كأني أنظر إلىٰ عرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلىٰ أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلىٰ أهل النار يتضاغون فيها ، قال صلى الله عليه وسلم : « يا حارثة ؛ عرفت فالزم » .

وكان قد تجلىٰ له كلامه في إخباره سبحانه ، فصار الخبر كالعيان .

قال بعض الأئمة : علامة تجلي الحق على الأسرار : هو أن يشهد ما لا تمكنه العبارةُ عنه ؛ لأنه لا يشهد إلا تعظيماً وهيبة ، فيسقط ذلك عن تحصيل ما شاهد من الحال .

وأنشدوا :

إذا مـا بـدَتْ لـي تعـاظَمْتُها	فـأَصـدُرُ فـي حـال مَـن لـم يَـرِدْ
أَجِـدْهُ إذا غبـتُ عنـي بـه	وأَشَهـد وجـدي لـه قـد فُقِـدْ
فـلا الـوصـل يُشهِـدني غيـرَه	ولا أنـا أَشهَـدُه منفـرِدْ
جُمعـتُ وفُـرِّقـتُ عنـي بـه	ففـرد التـواصـل يُفني العَـدَدْ

معناه : إذا بدت لي الحقيقة.. غلب علي التعظيم ، فأغيب في شاهد التعظيم عن شهود التحصيل ، وإذا غبت.. فقدت وجودي ، وحالة الوصل التي هي فنائي.. لا تشهدني غيره ، وحالة الانفراد [التي هي] قيامي بصفتي.. تفنيني عن شهوده ، فكأن جمعي به فرقني عني ، فيكون حالة الوصل هو أن الله تعالىٰ مُصرِّفي ، فلا يكون لي فعل ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ ، ومِن جهة العلم أن الله تعالىٰ مُصرِّفي ، وأنا به متصرف ، فيجتمع المعبود والعبد .

وقال بعضهم : **التجلي** : رفع حجب البشرية ، **والاستتار** : هو أن تكون البشرية حائلة بينك وبين شهود الغيب .

ومعنىٰ رفع حجب البشرية : أن ترىٰ أن الله عز وجل هو الذي يقيمك تحت موارد ما يبدو لك من الغيب ؛ لأن البشرية لا تقاوم أحوال الغيب .

والاستتار الذي يعقب التجلي : هو أن تستتر الأشياء عنك فلا تشهدها .

ومنها : الفناء ، والبقاء .

فالفناء : هو أن تفنىٰ عنه الحظوظ ، فلا يكون له في شيء حظ ، ويسقط عنه التمييز لفنائه عن الأشياء كلها شغلاً بمن فني به ، كما قال عامر بن عبد الله رضي الله عنه : ما أبالي امرأةً أتيتُ أم حائطاً .

والحق جل جلاله يتولىٰ تصريفه في وظائفه وموافقاته ، فيكون محفوظاً فيما لله عز وجل عليه ، مأخوذاً عَمَّا له وعن جميع المخالفات ، فلا يكون له إليها سبيلاً ، وهو العصمة ، وذلك معنىٰ قوله : (كنت له سمعاً وبصراً) .

والبقاء الذي يعقبه : هو أن يفنىٰ عما له ويبقىٰ بما لله عز وجل عليه .

وقال بعض الأئمة : البقاء : مقام النبيين صلوات الله وسلامه عليهم ؛ فإنهم أُلبسوا السكينة ، فلا يمنعهم ما حل بهم عن فرضه ولا عن فضله ، ﴿ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ .

والثاني[1] : هو أن تصير الأشياء كلها له شيئاً واحداً ، فتكون حركاته في موافقات الحق دون مخالفاته ، فيكون فانياً عن المخالفات ، باقياً في الموافقات ، علىٰ معنىٰ أنه لا يجري عليه إلا ما أمر به وما يرضاه الله عز وجل دون ما يكرهه ، ويفعل ما يفعل لله تعالىٰ لا لحظ له فيها ، لا في عاجل ولا في آجل .

وهـٰذا معنىٰ قولهم : يكون فانياً عن أوصافه ، باقياً بأوصاف الحق ؛ لأن الله عز وجل إنما يفعل الأشياء لغيره لا له ؛ لاستحالة عود الضر والنفع إليه ، وإنما يفعل الأشياء لينفع عباده أو يضرهم ، فلا يكون قصد العبد بفعله جر النفع له أو دفع الضر .

فالباقي بالحق الفاني عن نفسه . . يفعل الأشياء علىٰ معنىٰ أنه لا يقصد في فعله جر المنفعة ودفع المضرة عن نفسه ؛ إذ قد سقطت عنه حظوظ نفسه ومطالبة منافعها بمعنى القصد والنية لا غير ، لا بمعنىٰ أنه لا يجد حظاً فيما فعل لله عز وجل ، بل بمعنىٰ أنه إنما فعله لله عز وجل لذاته لا لطمع ثواب ولا لخوف عقاب ، وإن كان الخوف والرجاء لا يفارقانه ، ولـٰكن تكون رغبته في الثواب لموافقة الله عز وجل ؛ حيث رغب فيه ، وأُمِر أن يسأل ذلك ولا يفعله للذة نفسه قصداً وإن كانت اللذة حاصلة ضمناً ، كما يقول الأصحاب فيمن توضأ ولم ينو التبرد ـ فإن التبرد حاصل ضمناً ـ : ولو نوى التبرد . . ضره .

---

(١) الثاني : أي الفناء .

وهٰكذا في الخوف : يخاف عقاب الله لموافقته له ؛ لأنه سبحانه وتعالىٰ أحب أن يُخاف عقابه ، فهو يخاف العقاب لذلك ، لا من أجل الألم الذي هو حظ نفسه ، ويفعل سائر الحركات لله عز وجل لا لحظ نفسه ، كما قيل : المؤمن يأكل بشهوة عياله ، وأنشدوا :

أفناه عن حظه فيما أَلَمَّ به ... فظل يُبقيهِ في رسم ليُبديهِ
ليأخذ الرسمَ عن رسم يكاشفه ... والسر يفصح عن حق يراعيهِ[1]

فجملة الفناء والبقاء : أن يفنىٰ عن حظوظه ، ويبقي أعماله كلها ليس مقصوده بها إلا الله سبحانه وتعالىٰ ، فينأىٰ عن شهود المخالفات والحركات بها قصداً وعزماً ، وبقاء في شهود الموافقات والحركات بها قصداً وفعلاً ، وفناء عن تعظيم ما سوى الله سبحانه وتعالىٰ ومن أوجب تعظيمه ، وفني[2] في تعظيم الله تعالىٰ ؛ شغله الحق عن غيره .

ومِن الفناء عن تعظيم ما سوى الله تعالىٰ ـ كما مر ـ : قول أبي حازم رحمه الله حيث قال : ما الدنيا ؟ أما ما مضىٰ . . فأحلام ، وما بقي . . فأماني وغرور ، وما الشيطان حتىٰ يُهابَ منه ؟ ولقد أُطيع فما نفع ، وعُصي فما ضر . فكان كأنه لا دنيا عنده ولا شيطان .

ومِن فناء الحظوظ : حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حيث قال : ما (علمت أن في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مَن يريد الدنيا حتىٰ نزل قوله تعالىٰ : ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ ﴾) فكان فانياً عن إرادة الدنيا .

ومن ذلك : حديث حارثة رضي الله عنه حيث قال : عزفت نفسي عن الدنيا ، فكأني أنظر إلىٰ عرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلىٰ أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلىٰ أهل النار يتضاغون فيها ، قال : « يا حارث ؛ عرفت فالزم » ، عبر بالعاجلة عن الآجلة .

ومنها : حديث عامر بن عبد الله ، رحمه الله حيث قال : لئن تختلف الأسِنة [في جوفي] . . أحب إلي أن أجد ما يذكرون أني في الصلاة ، حتىٰ قال الحسن البصري رحمه الله : ما اصطنع الله ذلك عندنا .

و[من ذلك] : فناء هو الغيبة عن الأشياء رأساً ، كما كان فناء موسى الكليم عليه الصلاة والسلام حين تجلىٰ ربه للجبل ، فخر موسىٰ صعقاً .

---

(١) جاء في نسخة : (يطفح) بدل (يفصح) .
(٢) في نسخة : (وبقاء) .

وقال أبو سعيد الخراز[1] رحمه الله : علامة الفاني ذهاب حظه من الدنيا والآخرة ، إلا مِن الله تعالىٰ ، ثم يبدو له باد من قدرة الله تعالىٰ ، فيريه ذهاب حظه من رؤية ذهاب حظه ، وتبقىٰ رؤية ما كان من الله لله .

ومعنىٰ ذهاب حظه من الدنيا : عدم مطالبة الأعراض ، ومن الآخرة : عدم مطالبة الأعواض ، فيبقىٰ حظه مِن الله سبحانه وتعالىٰ ، وهو : رضاه عنه ، وقربه منه سبحانه وتعالىٰ .

ثم ترد عليه حالة أخرىٰ من إجلال الله تعالىٰ ، أن يقرب مثله ، أو أن يرضىٰ عن مثله ؛ استحقاراً لنفسه وإجلالاً لربه سبحانه وتعالىٰ .

ثم ترد عليه حالة ثالثة تستوفيه حق الله تعالىٰ ، فتغيبه عن رؤية صفته التي هي رؤية حظ نفسه ، فلا يبقىٰ فيه إلا ما مِنَ الله إليه ، ويفنىٰ عنه ما منه إلى الله ، ويكون كما كان ؛ إذ كان في علم الله عز وجل قبل أن يوجده ، سبق له منه تعالىٰ ما سبق من غير فعل كان منه .

ومنهم مَن جعل هٰذه الأحوال كلها حالة واحدة وإن اختلفت عباراتها ، فجعل الفناء بقاء ، والجمع تفرقة ، وكذلك الغيبة والشهود ، والسكر والصحو .

وذلك لأن الفاني عما له. . باق بما للحق ، والباقي بما للحق. . فانٍ عما له ، والفاني مجموع ؛ لأنه لا يشهد إلا الحق ، والمجموع مفارق ؛ لأنه لا يشهد إياه ولا الخلق ، وهو باق لدوامه مع الحق ، وهو مجموع به ، وهو فانٍ عما سواه مفارق لهم ، وهو غائب سكران لزوال التمييز عنه .

ومعنىٰ زوال التمييز عنه : هو ما قلناه من عدم فرقة بين الآلام والملاذ ، وبمعنىٰ : أن الأشياء تتوحد عنده ، فلا يشهد مخالفة ؛ إذ لا يصرِّفه الحق جل جلاله إلا في موافقاته ، فأنَّىٰ يميز بين الشيء وغيره إذا صارت الأشياء عنده شيئاً واحداً ؟! فلذلك سقط التمييز عنه .

واختلفوا في الفاني : هل يُرَدُّ إلىٰ بقاء الأوصاف أم لا ؟

منهم مَن قال : يرد إلىٰ بقاء الأوصاف ، وحالة الفناء لا تكون على الدوام ؛ لأن دوامها يوجب تعطيل الجوارح عن أداء المفترضات ، وعن حركاتها في أمر معاشها ومعادها ،

---

(١) كذا في نسخة ، ولعله الصواب ، وفي بعض النسخ : (الخدري) .

ولأبي العباس بن عطاء في ذلك كتاب سماه « عود الصفات وبدؤها »[1] .

وأما الكبار منهم والمحققون : فلم يروا رَدَّ الفاني إلىٰ بقاء الأوصاف ، منهم : الجنيد ، وأبو سعيد الخراز ، وأبو الحسين النوري رحمهم الله وغيرهم .

والفناء فضل من الله تعالىٰ ، وموهبة للعبد ، وإكرام منه له ، واختصاص له به ، وليس هو شيء من الأفعال المكتسبة ، وإنما هو شيء يختص الله به من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

وسئل الحسن رحمه الله : متىٰ يكون العارف بمشهد الحق ؟ فقال : إذا بدا الشاهد ، وفنيت الشواهد ، وذهبت الحواس ، واضمحل الإخلاص .

معنىٰ بدا الشاهد : يعني : شاهد الحق ، وهو أفعاله بك مما سبق منه إليك جل جلاله ، من بره وإكرامه إياك بمعرفته وتوحيده والإيمان به ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ ، فله المِنة العظمىٰ على المؤمنين بالإيمان .

والمعنىٰ : أنهم ما أرادونا أولاً ، وإنما نحن أردناهم وألزمناهم كلمة التقوىٰ ، فلنا المِنة عليهم ، وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ .

والمِنة العظمىٰ أيضاً ما يتلىٰ عليهم : ﴿ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ .

فانظر إلىٰ هٰذا الكرم العظيم والفضل العميم ، أنه سبحانه ألزمهم كلمة التقوىٰ ، ووصفهم بأنهم أحق بها وأهلها .

والمسؤول من كرمه سبحانه وتعالىٰ إتمام النعمة علىٰ عباده المؤمنين بأن لا ينزع عنهم ما وهبه لهم ، ومَنَّ به عليهم سبحانه وتعالىٰ .

وقد استودعته سبحانه وتعالىٰ إيماني ، وأسأله أن يحفظه عليَّ ، وأن يتوفاني عليه ، وكذا سائر المؤمنين الذين سبق لهم منه الإيمان ، استودعته إيمانهم ، وأسأله أن يحفظه عليهم ، ويتوفاهم عليه ، إنه الجواد الكريم ذو الفضل العظيم لا جرم .

قال العارفون رحمهم الله : إن العبد إذا رأىٰ ذلك وشهده . . أفنت رؤية ذلك منه رؤية أفعاله ، ورأىٰ عظيم منة الله عز وجل عليه في العبادة حتىٰ تستغرق العبادة في بعض المِنة .

---

(١) ورد اسمه في بعض النسخ : (دعوى الصفات وبدؤها) .

وأما فناء الشواهد : فهو سقوط رؤية الخلق عنك بمعنى الضر والنفع ، والمدح والذم ، وذهاب الحواس يرجع إلىٰ معنىٰ قوله : (فبي ينطق ، وبي يبصر . . .) الحديث .

وقوله : (واضمحل الإخلاص) هو : ألاَّ يرىٰ أنه مُخْلِص .

قال بعض العارفين : متىٰ شهدوا في إخلاصهم الإخلاص . . احتاج إخلاصهم إلىٰ إخلاص ، وما خلص لك من الأفعال إن خلص لك ، ولن تتخلص أبداً إذا رأيت صفتك ؛ فإن أوصافك معلولة مثلك .

وسئل ذو النون رحمه الله عن نهاية العارف فقال : إذا كان كما كان حيث كان قبل أن يكون ، معناه : أن يشاهد الله عز وجل وأفعاله دون شاهده وأفعاله .

قال بعضهم : أعرف الخلق بالله عز وجل . . أشدهم تحيراً فيه .

وقيل لذي النون : ما أول درجة العارف ؟ قال : التحير ، ثم الافتقار ، ثم الاتصال ، ثم التحير .

الحَيرة الأولىٰ : في أفعاله ونعمه عليه ، فلا يرىٰ شكره يوازي نعمه ، وهو يعلم أنه مطالب بشكرها ، وإن شكر . . كان شكره نعمة ثانية يجب عليه شكرها ، ولا يرىٰ أفعاله أهلاً أن يقابله بها ؛ استحقاراً لها ، ويراها واجبة عليه لا يجوز له التخلف عنها ، والشكر عطية من الله ، فهو فعله في الحقيقة لا جرم أنه لا يمكن القيام بشكر النعم ؛ إذ كل نعمة لها شكر ، فالتوفيق للشكر نعمة ثانية يجب لها شكر وهٰكذا ، ويؤدي ذلك إلىٰ ما لا يتناهىٰ .

وقيل : قام الشبلي رحمه الله يصلي ، فبقي طويلاً ، ثم صلىٰ ، فلما انفتل من صلاته . . قال : يا ويلاه! إن صليت . . جحدت ، وإن لم أصل . . كفرت ؛ أي : إن نسبت الفعل إلىٰ نفسي . . فهو نوع جحود ؛ إذ الفعل فعل الله عز وجل ، فهو الفاعل في الحقيقة .

ولهٰذا قال الواسطي رحمه الله : ادَّعىٰ فرعون الربوبية على الكشف ، وادعت المعتزلة الربوبية على السر ، فقالوا : ما شئنا فعلنا .

وقال سهل رحمه الله : أول مقام من المعرفة : أن يُعطى العبد يقيناً في سره يسكِّن به جوارحه ، وتوكلاً في جوارحه يسلم به في دنياه ، وسكوناً[1] في قلبه يفوز به في عقباه .

وأما المريد والمراد : فقال الأئمة رحمهم الله تعالىٰ : إن المريد مراد في الحقيقة ،

---

(١) في نسخة : (وسلوىٰ) .

والمراد مريد ؛ لأن المريد لله لا يريد إلا بإرادة من الله عز وجل تقدمت له ، قال تعالىٰ ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ ، وقال : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾ ، فكانت إرادته سبحانه وتعالىٰ سبب إرادتهم ؛ إذ علة كل شيء صنعه ، ولا علة لصنعه ، وكانت محبته سبحانه وتعالىٰ سبب محبتهم .

ومن هنا نظر حبيب العجمي إذ قرأ : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ قال : بحقٍ أَحبهم ، فرعه يحبهم ؛ إذ الكل صنعه سبحانه وتعالىٰ ، واعجباه! هو أعطىٰ وهو أثنىٰ سبحانه وتعالىٰ!!

وما أراده الحق جل جلاله . . فمحال ألاَّ يريده العبد ، فيجعل سبحانه إذا شاء المريد مراداً ، والمراد مريداً ، غير أن المريد هو الذي سبق اجتهاده كشوفه ، والمراد هو الذي سبق كشوفه اجتهاده .

فالمريد : هو ما قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ، وهو الذي يريده الله تعالىٰ ، فيُقبل بقلبه إليه ، ويحدث فيه لطفاً يثير منه الاجتهاد فيه والإقبال عليه والإرادة له ، ثم يكشف له عن الأحوال ، كما قال حارثة رضي الله عنه : (عزفت نفسي عن الدنيا ، فأظمأت نهاري ، وأسهرت ليلي) ، ثم قال : (فكأني أنظر إلىٰ عرش ربي بارزاً) . فأخبر أن كشوف أحوال الغيب له كان عقيب عزوفه عن الدنيا .

والمراد : هو الذي يجذبه الحق جل جلاله بالقدرة ، ويكاشفه بالأحوال ، فتثير قوة الشهود منه اجتهاداً فيه ، وإقبالاً عليه ، وتحملاً لأثقاله ، كسحرة فرعون لما كوشفوا بالحال في الوقت . . سَهُل عليهم تحمُّل ما توعدهم به فرعون ، فقالوا : ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ .

وكما فعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما أقبل يريد قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسره الحق في سبيله .

وكما وقع لإبراهيم بن أدهم رحمه الله وغيره ؛ فإنه خرج يطلب الصيد ملتهياً ، فنودي : ما لهٰذا خُلِقتَ ، ولا بهٰذا أمرت ـ مرتين ـ ونودي الثالثة من قربوس سرجه[1] ، فقال : والله ؛ لا عصيت الله تعالىٰ بعد يومي هٰذا ما عصمني ربي ، فهٰذه جذبة القدرة ، كوشفوا بالأحوال . . فاصطُفوا عن النفوس والأموال :

---

(١) قرنوس السرج : حِنْو السرج ، أي : قسمه المقوس ، المرتفع من قدَّام المقعد ومن مؤخّره .

مـريـدٌ صفـا منـه سـر الفـؤادْ	فهـام بـه السـر فـي كـل وادْ
ففـي أي وادٍ سعـىٰ لـم يجـد	لـه ملجَـأً غيـر مـولـى العبـادْ
صفـا بـالـوفـا ووفـىٰ بـالصفـا	ونـور الصفـاءِ سـراج الفـؤادْ
أراد بمـا كـان حتـىٰ أُرِيـد	فطـوبـىٰ لـه مـن مـريـد مُـرادْ

وأما المجاهدات والمعاملات : فقال الأئمة رحمهم الله تعالىٰ : شرط الإتيان بالعبادات : عدم النظر إلى العوض وإن شهدته فضلاً ، بل يستوفيك عن رؤية العوض ما لله عز وجل عليك من العمل في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

قيل لأبي بكر الواسطي رحمه الله : بأي شاهد ينبغي أن يكون العبد في حركاته في الطاعة ؟ فقال : يشاهد الفناء عن حركاته التي هي كائنة بغيره .

قال أبو عبد الله النباجي رحمه الله : استحلاء الطاعات ثمرة الوحشة من الحق ؛ إذ لا يواصل الحق بها ، ولا يفاصل ، ولا يعتمد عليها اعتماد معول ، ولا يتركها ترك معاند ، بل يقيم وظائف الحق رقاً وعبودية ، ويكون الاعتماد علىٰ ما في الأزل .

يريد باستحلاء الطاعة : رؤيتها من نفسك دون مشاهدة فضل الله عز وجل عليك في التوفيق في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ من أن تبلغه أفهامكم ، وتحويه عقولكم ويجري علىٰ ألسنتكم ، وحقيقة نسيان ما سواه فيه ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ ، وفي قوله تعالىٰ : ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ أي : الخالية عن ذكر الله تعالىٰ ؛ لتعلموا أنكم بفضله ورحمته نلتم ما نلتم ، لا بأعمالكم .

قال أبو بكر القحطبي رحمه الله : نفوس الموحدين سئمت من جميع ما ظهر من نعوتها وصفاتها ، واستحقرت كل باد بدا منها[1] ، وانقطعت عن الشواهد والفوائد والعوائد ، وأُخرست عن إظهار الدعاوي بين يديه جل جلاله لما سمعت قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ .

---

(١) في نسخة : (واستحقرت كل نادٍ يناديها) .

قال أبو بكر الواسطي رحمه الله : معنى التكبير في الصلاة كأنك تقول : جللت عن أن تواصل بهٰذا وتفاصل بتركه ؛ إذ الفصل والوصل ليس بالحركات ، بل هو بما سبق للعبد في الأزل .

قال الجنيد رحمه الله : لا يكونن همك في صلاتك إقامتها دون الفرح والسرور بالاتصال بمن لا وسيلة إليه إلا به سبحانه وتعالىٰ .

قال ابن عطاء رحمه الله : لا يكونن همك في صلاتك إقامتها دون الهيبة والإجلال لمن أقامك فيها .

وقال غيره : معنى الصلاة : التجريد عن العلائق والتفريد بالحقائق ، العلائق : ما سوى الله تعالىٰ ، والحقائق : ما لله ومن الله تبارك وتعالىٰ .

وقال غيره : الصلاة وصل .

سمعت فارساً يقول : معنى الصوم : الغيبة عن رؤية الخلق برؤية الحق جل جلاله ؛ لقوله تعالىٰ في قصة مريم عليها السلام : ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ لغيبتي عنهم برؤية الحق جل جلاله ، فلا أستخير في صومي أن يشغلني عنه شاغل أو يقطعني عنه قاطع ، ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله عز وجل : الصوم لي وأنا أجزي به »[1] .

قال بعض [الأئمة] : جزاؤه النظر إلى الله سبحانه وتعالىٰ ، وحلول الرضوان منه على الصائم .

وقال أبو الحسن ابن أبي ذر رحمه الله : أي معرفتي هي الجزاء له به ، قال : وحسبه ذلك جزاءً ، فما يبلغها شيء ولا يدانيها .

وقال بعض العارفين : جهد البلاء : النظر إلى النفوس ، والاعتماد على الأفعال ، فإن وكل إليها . . فهو درك الشقاء ، وفي درك الشقاء شماتة الأعداء .

أنشدوا للنوري رحمه الله :

أقول أكاد اليوم أن أبلغ المدىٰ	فيبعد عني ما أقول أكادُ
فما لِيْ جهاد غير أَني مقصِّر	وعجزيَ عن طول الجهاد جهادُ
وإنَّ رجائي عودةٌ منك بالرضا	وإلا فحظي في المَعاد يُعادُ

(١) أخرجه البخاري (٧٠٥٤) ، ومسلم (١١٥١) .

يقول : إن طالعت في أفعالي ومجاهداتي الثواب عليها ـ وهو الذي يطلبه أرباب المجاهدات وأصحاب المعاملات ـ فكيف لا أنظر إلىٰ ما يحملني عن خوف العاقبة من تغير الأحوال والأوقات ، وعن النظر إلىٰ حركاتي ومجاهداتي ؛ فإنها هي التي تحجبني عنك ؟!

وأما الكلام على الناس : فقيل للنوري رحمه الله : متىٰ يستحق الكلام على الناس ؟ فقال : إذا فهم عن الله عز وجل . . صلح أن يفهِّم عباد الله ، وإذا لم يفهم عن الله . . كان بلاؤه عامّاً في بلاده علىٰ عباده .

قال سهل رحمه الله : أنا منذ ثلاثين سَنة أكلم الله عز وجل ، والناس يتوهمون أني أكلمهم .

وقيل لأبي القاسم الحكيم : بأي نية أتكلم على الناس ؟ فقال : لا أعلم للمعصية نية غير الترك .

وكلامهم في هـٰذا يطول ، وكل واحد منهم يتكلم بحسب مشربه وما أفاضه الله عز وجل عليه من العرفان ، والله أعلم .

وقال في « بهجة الأسرار » : قال يحيى بن معاذ رحمه الله : أوحى الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ نبيه داوود عليه الصلاة والسلام : (مَن رفض الدنيا وجميع ما فيها . . تعجلت له الراحة ، فإن انقطع إلي . . فقد تعزز بي) ، وكفاه ذلك شرفاً وفخراً ، إي والله الذي لا إلـٰه إلا هو .

وقال يحيىٰ : للتوكل ثلاث درجات : **أولها** : ترك الشكاية ، **والثانية** : الرضا ، **والثالثة** : المحبة .

فأما ترك الشكاية . . فلا يذكر حاله للناس ؛ فإنه يكون شكوىٰ ، والرضا : أن يرضىٰ بما قسم الله عز وجل له ، والمحبة : أن تكون محبته في قضاء الله عز وجل .

فأولها : حال الصالحين ، والثانية : حال الأبدال ، والثالثة : حال العارفين .

وسئل أبو حمزة رحمه الله فقيل له : ما غذاء المؤمنين ؟ فقال : الله عز وجل ، فلم يفهم السائل الجواب ، فأعاد السؤال ، فعلم أنه لم يفهم ، فقال : ذِكر الله عز وجل ، خذ يا أبا علي .

وقال قاسم الجوعي رحمه الله : علامة وجل القلب : أداء الأمانة ، والذكر لله عز وجل ، والصدق مع الإخلاص في العمل .

وقال يحيىٰ : لولا أن العفو مِن أحب الأشياء إلى الله عز وجل . . لَمَا ابتلىٰ عباده بالذنوب .

وقال يحيىٰ رحمه الله : حبسي حصين ، وقيدي ثقيل ، وحرّاسي أيقاظ لا ينامون .

وقال بشر رحمه الله : إياك والإفراط في حمد أو ذم ؛ فإنهما يلحقان بك التهمة ، ويحرمانك التصديق .

وقال ميمون بن مهران : رجلان لا أَعِظُهما ؛ فإن الموعظة لا تنفعهما : صاحب دنيا قد علا فيها ، وصاحب بدعة قد غلا فيها .

وقال الأوزاعي رحمه الله : مَن أطال قيام الليل . . هوّن عليه موقفه يوم القيامة ؛ قال تعالىٰ : ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا * إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ .

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله : المجتهدون بالبصرة ، والفقهاء بالعراق ، والزهاد بخراسان ، والأبدال بالشام .

وقال أبو عثمان رحمه الله : السابق بالود مبتدىء ، والمكافىء له مقتدي ، فأَنَّىٰ يدرك المقتدي المبتدىء ؟ فإن للمبتدىء أجره وأجر من اتبعه .

وقال أيضاً أبو عثمان : مَن لم يكن الله عز وجل في جميع المعاني همه . . كان منقوضاً في جميع المعاني حظه .

وقال محمد بن المثنى البزار[1] : قلت لبشر رحمه الله : تذكر بكورنا إلىٰ فلان المحدث وفلان ، شكره الله لنا ولك ، قال : قل : بل غفره الله لنا ولك .

وقال بشر رحمه الله : تنقوا الإخوان ، فإذا وجدتم من يعينكم علىٰ أمر الآخرة . . فتمسكوا به .

وقال الجنيد رحمه الله : سمعت سرياً يقول : رأس الأعمال كلها : الرضا عن الله عز وجل ، والورع عمود الدين ، والجوع مخ العبادة ، والحصن الحصين ضبط اللسان ، ومَن شكر الله عز وجل . . جرىٰ في ميدان الزيادة .

وقال يحيى بن معاذ رحمه الله : لو رأيت صورة الخوف في منازل الطاعات . . لأحببت

---

(١) في نسخة : (البزاز) .

ألاَّ يفارقك ولا طرفة عين ، ولـٰكن ينادي من مكان بعيد . [انتهىٰ] .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : قال أبو عبد الله المري[1] رحمه الله : مَن ادعى العبودية وله مراد باق . . فقد كذب في دعواه ، وإنما تصح العبودية لمن أفنىٰ مراداته وهواه ، وقام بمراد سيده ومالكه ومولاه ، مع امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، سواء أبعَدَهُ أو أدناه ، أو طرده أو آواه .

وسمع بعض العارفين قارئاً يقرأ : ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ فقال : مَن شغل همته بسواه . . لا يصل إلىٰ مولاه سبحانه وتعالىٰ ، ومَن أحبه للجِنان . . بقي مع الحور والولدان ، ومَن أحبه له . . بقي معه سبحانه وتعالىٰ لا شريك له ، فيكون معه أينما كان ظاهراً وباطناً ، فيكون موجودَ قلبِهِ ، ومنظور عينه ، ومناجي فِكره وسره ، لا يذكره ساعة فساعة ؛ لأنه مشاهده مع النَّفَس والساعة .

وقد روي : أن عيسىٰ عليه الصلاة والسلام مر بطائفة قد بلغوا من العبادة ، حتىٰ كأنهم الشنان البالية ، فقال لهم : لأي شيء عبدتم هـٰذه العبادة الصعبة ؟ فقالوا : خوفاً من ناره ، فقال : قد خفتم مخلوقاً ، وحقيق على الله عز وجل أن يؤمنكم مما خفتم منه .

ثم مر بآخرين أشد عبادة منهم ، فقال لهم : مَن أنتم ؟ ولأي شيء عبدتم هـٰذه العبادة العظيمة ؟ فقالوا : شوقاً إلى الجنة ، فقال : اشتقتم إلىٰ مخلوق ، وحقيق على الخالق أن يدخلكم فيها .

ثم مر بآخرين أكثر عبادة من الأولين ، فقال لهم : مَن أنتم ؟ ولأي شيء عبدتم هـٰذه العبادة العظيمة الشديدة ؟ قالوا : نحن عباد الله المحبون له سبحانه وتعالىٰ ، المشتاقون إلىٰ لقائه جل جلاله ، نعبده لا خوفاً من ناره ولا شوقاً إلىٰ جنته ، فقال : أنتم أولياء الله المقربون حقاً ، المخلصون له صدقاً ، ومعكم أمرني الله عز وجل أن أقيم .

ومَن نظر في قوله صلى الله عليه وسلم في ليلة المعراج : « أعوذ بمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ برضاك من سخطك . . . » الحديث . . اتضح له هـٰذا المعنىٰ ؛ فإنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك في ليلة المعراج بين الجنة والنار ، فقال : لا ألتفت إلى الجنة ؛ لأنه وقع فيها لآدم عليه الصلاة والسلام ما وقع ، ولا ألتفت إلى النار ؛ إذ لو كانت محرقة لذاتها . . لَمَا

---

(١) في بعض النسخ : (المزني) .

كانت برداً وسلاماً علىٰ إبراهيم ، ولـٰكن أترك جنتك وأتمسك بعفوك ، وأترك النار وأخاف عقابك .

فلهـٰذا قال صلى الله عليه وسلم : « أعوذ برضاك من سخطك . . . » الحديث . انتهىٰ .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : قد قدمت بيان مراتب العاملين[1] في ترجمة الإمام حاتم الأصم رحمه الله بما فيه مَقْنَع وفوق مَقْنَع ، فليُنْظَرْ فيه ، والله أعلم . انتهىٰ .

وقال في « بهجة الأسرار » : قال بعض العارفين : إن ولاية الله عز وجل ليس مما يوصَل إليها بالأسامي والحيل ، قيل له : فبماذا يُوصَل إليها ؟ فضرب يده إلى السارية وقال : انظر إلىٰ هـٰذه ، تنفع أوتضر ؟ قلت : لا ، قال : إذا أخرج العبد جميع المخلوقين من قلبه فكانوا عنده مثل هـٰذه السارية لا تضر ولا تنفع كما هو الواقع . . فعند ذلك إذا قال العبد : يا رب . . قال الله عز وجل : لبيك يا عبدي .

وقال محمد بن المثنىٰ : سألت أحمد ابن حنبل عن بشرٍ الحافي رحمهما الله فقال لي : لقد سألتني عن رابع سبعة من الأبدال .

وقال السري رحمه الله : علامة المعرفة بالله عز وجل : القيام بحقوق الله سبحانه وتعالىٰ ؛ إجلالاً له وتعظيماً لما عظمه الله تعالىٰ ، وتصغيراً لما صَغَّره الله تعالىٰ ، وقد خفت علىٰ مَن لا يعرف نفسه ألاَّ يكون له في الحق حظ ، وقد خفت علىٰ مَن صحت معرفته ألاَّ يقوىٰ عليها ، فكيف مَن جهل نفسه ؟!

وقال عبد الله بن أحمد : بلغني أن رجلاً رأىٰ فيما يرى النائم كأن قائلاً يقول له : قل لابن السماك :

يـا أيهـا الـرجـل المعلـم غيـره ... هَـلاَّ لنفسـك كـان ذا التعليـمُ
تصف الدواءَ وأنت أحوج للدوا ... تبغـي شفـاء النـاس وأنـت سقيـمُ
لا زلـت تُلْقِـح للـرشـاد عقـولنـا ... صفـةً وأنـت مـن الـرشـاد عـديـم

فغدا الرجل ، فأخبر ابن السماك بما رأىٰ ، فما انتفع ابن السماك بنفسه حتىٰ مات رحمه الله .

---

(١) في نسخة : (العابدين) .

وسئل الحسن بن علي رضي الله عنهما عن العبد إذا رجع إلى الله عز وجل علىٰ أي أصل يرجع ؟ فقال : علىٰ ألاَّ يعود إلىٰ ما رجع عنه ، ويحفظ سره عن ملاحظة جميع ما رجع عنه إلى الله عز وجل ، قيل له : هٰذا حكم من رجع عن وجود ، فكيف حكم من رجع عن العدم ؟ فقال : وجود الحلاوة في المستقبل عوضاً عن المرارة في السالف .

وسئل بعض العارفين رحمهم الله عن الشكر فقال : إقرارها بالنعمة وجزاؤها بالحسنىٰ مضمِراً وقائلاً وفاعلاً ، فأما جزاء الضمير . . فالنية والمحبة والطاعة ، وأما جزاء القول . . فالدعاء وإظهار حسن الصبر وكثرة الذِّكر ، وأما جزاء الفعل . . فالصبر على المكاره والرضا ، مع التلذذ بالأحكام الجارية عليه ، والسعي بالجوارح إلىٰ عبادة المنعم جل جلاله .

وأنشد بعضهم :

وكيف أطيق الشكرَ والشكرُ نعمة ... بترداده يزداد في حقي الشكرُ
بذِكرك تحيا مهجتي يا مؤَمَّلي ... وذِكرك لي من قبل ذكريَ أكبرُ
مننتَ بطَول لا أقوم بشكره ... فأيَّ أياديك الجزيلةِ أشكُرُ
أَلُطْفَك بي من قبل كونيَ نطفةً ... أم الحفظَ لي والخَلْقُ مني مصوَّرُ
أم السترَ لي إن كنت أعصيك جاهلاً ... وأنت علىٰ جهلي بحلمك تَستُرُ
سأبذل مجهودي بروحي ومهجتي ... لعليَ يوماً منك بالسؤل أَظفرُ
ويزعجني شوقي إليك فأشتكي ... ويمنعني منك الحياءُ فأحضُرُ[1]
وأُوقِنُ حقاً لا أشك بأنني ... علىٰ كل حال عاجز ومقصِّرُ[2]

وما أحسن ما قال بعضهم :

تأمل صنيعي قبل كونك نطفة ... ولا تنس تصويري لخلقك في الحشا
وسلِّمْ إليَّ الأمرَ واعلم بأنني ... أدبر ملكي ثم أفعل ما أشا

وقال عمرو[3] بن عثمان رحمه الله : سرعة قضاء الحاجة علىٰ قدر الفاقة ، ومَن أسرع

---

(١) جاء في نسخة : (الجفاء) .
(٢) في نسخة : (علىٰ كل حال مذنب ومقصر) .
(٣) جاء في نسخة : (عمر بن عثمان) .

بمسألته قبل فاقته . . كان بمنزلة الشارب للماء قبل عطشه ، وقد قال الله تعالىٰ : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ .

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : مَن حاول أمراً بمعصية الله سبحانه وتعالىٰ . . كان أبعد لما رجا وأقرب لما اتقىٰ ، فاستعينوا علىٰ أموركم بطاعة الله . . ترشدوا وتنجحوا وتفلحوا .

وقال إبراهيم الخوَّاص رحمه الله : ليس من صفة الفقراء مؤالفة الأغنياء ، ولا من صفة أهل المعرفة مؤالفة أهل الغفلة .

وقال محمد بن إدريس : الشهوة عمود كل خطيئة .

وقال يحيىٰ : صبر المحبين أشد من سائر أنواع صبر الصابرين ، واعجباه! كيف صبروا عن حبيبهم سبحانه وتعالىٰ ؟!

وهٰذا معنىٰ قول بعض العارفين حين سأل الشبلي رحمه الله : أي الصبر على الصابرين أشد ؟ فقال : الصبر عن الله تعالىٰ .

وسئل أبو محمد الجريري رحمه الله : متىٰ يقع التسليم ؟ فقال : إذا استوىٰ عند المستسلم الموت والحياة ، والغيبة والحضور ، والمدح والذم ، لا يرىٰ منها حالاً إلا والتسليم لله عز وجل قبلها ، فمتىٰ ما عارضه الشك في حال منها . . لم يكن مستسلماً .

وقال ابن عطاء رحمه الله في قوله تعالىٰ : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ فقال : عند المحنة بالصبر ، وعند نزول الحكم بالرضا ، وعند النعمة بالشكر والثناء ، ومع الله عز وجل بقيام الوفاء ، ومع النفس بالمخالفة وترك الهوىٰ ، وعند القلب بالصفاء ، وعند الروح بالمشاهدة ، وعند المعرفة والتوحيد بالفناء .

وقال يحيىٰ رحمه الله : الزهد يورث السخاء بالشيء ، والحب يورث السخاء بالنفس .

وقال أبو الحسين النوري رحمه الله : لن ينال أحد اليقين والمعرفة والتوكل . . إلا بدوام ذِكر الله عز وجل بالقلب واللسان ، وكثرة مناجاته ، وقطع كل ما يَشْغَلُ القلب عن ذلك .

وقال ابن عطاء : مَن استصحب كل نسك في الدنيا ، وتمكن من كل علم ، ونال كل محمود مع مشاهدة النفس وأفعالها . . فالجهل وطنه ، والإعراض غرضه ، والبعد من الله عز وجل سببه ؛ لأن العبادات مع مشاهداتها . . تقطع عن الرعايات ، والعبادات مع نسيان المنة والفضل . . تقطع عن الحراسات .

وسئل أيضاً عن الفرق بين التسليم والتفويض فقال : التسليم : هو التبري من الحول

والقوة تصديقاً ومعرفة ، والتفويض : معاينة الاضطرار ، وليس مَن أسقط عن نفسه حالاً كمن لم يشهد لنفسه حالاً .

وقال : وسئل أبو محمد الجريري عن فضل الفقير على الغني من أي وجه ؟ فقال : نعم ، الفقير نومه مع الأدب أفضل من الغني مع عبادته طول دهره ؛ لأن مَن راعى الحقوق مع ما يسوؤه.. كان أفضل ممن يراعي الحقوق مع ما يسره ، والقوم ما انقطعوا ، وإنما طولبوا برعاية حكم الأوقات فاقتُطِعوا .

واعلم : بأن الله تعالىٰ يطالب العبد بجميع همِّه ، ومَن لم يشرب في فقره كؤوس الاحتقار.. فهو طريح الضر .

وقال ابن عطاء رحمه الله : ليس مهر من مهور الجنة.. أحب إليها من إعراضك عن الدنيا ، وليس وسيلة للعبد إلى الله عز وجل.. أحب إليه من إعراضك عن نفسك .

وقال يحيىٰ : جاءت العلوم صافية لتمام الحجة علينا من ربنا سبحانه وتعالىٰ ، وجاءت الأعمال مِنَّا كَدِرَةً لتمام الفاقة منا إلىٰ ربنا تبارك وتعالىٰ .

وقال إبراهيم بن الجنيد رحمه الله : مجالسة العلماء العاملين.. عمارة القلوب وحياة الأبدان .

وسئل الفضيل بن عياض رحمه الله عن أسمح الناس فقال : مَن جاد بماله تبرعاً ، وتنزه عن مال غيره تورعاً .

وقال أبو محمد الجريري رحمه الله : شَكا بعض المريدين إلىٰ أستاذه فقال : يا أستاذ ؛ قد امتنع مني النوم ليلاً ، فدُلَّني علىٰ شيء إذا عملته.. أنام ؛ فقد أضر بي السهر ، فقال له : يا بني ؛ إن الفوائد تنزل من السماء ، فتصيب القلوب المتيقظة ، وتخطىٰء القلوب النائمة أو الغافلة .

قال الجريري : سأله عن شيء يُنَوِّمُه بالليل ، فتركه لا ينام بالليل ولا بالنهار .

وقال الحسين بن محمد الرازي رحمه الله : أصابني البرد والجوع ، فلما نمت.. هتف بي هاتف : أتظن أن العبادة كلها الصوم والصلاة ؟ الصبر علىٰ أحكام الله عز وجل أفضل من الصوم والصلاة .

وقال في « الإحياء » : لما قدم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه إلىٰ مكة ، وكان قد كف بصره.. جاءه الناس يهرولون إليه ، كل واحد يسأله أن يدعوَ له ، فيدعو لهـٰذا ويدعو

لهـٰذا ، وكان مجاب الدعوة ، فقال له فتىً منهم : يا عم ؛ أنت تدعو للناس ، فلو دعوت لنفسك فرد الله عز وجل عليك بصرك ؟! فقال : (يا بني ؛ قضاء الله عز وجل عندي أحسن من بصري) .

وقال أبو حمزة : يقول الله عز وجل : (ما مِن عبد أصبح في الدنيا وفي قلبه همَّان . . إلا أنا منه بريء ، هَمُّ المال ـ أو قال : الدنيا ـ وهَمُّ المعاصي) .

وقال الدقاق رحمه الله : الفاقة سر الله تعالىٰ في عبده ، مَن أبداها . . فقد أبدىٰ سر الله تعالىٰ ، ومَن كتمها . . فقد كتم سر الله تعالىٰ .

وكان يوسف بن الحسين الرازي رحمه الله يقول : علامة العبد المطرود من باب الله تعالىٰ ، الساقط المحجوب عن فهم أوامره ونواهيه ، ومعرفة وعده ووعيده . . أن يكون في مقام البيان وإقامة البرهان وأنواع من العلوم ينطق بها جهراً ، ويدعو العباد ترغيباً وترهيباً ، مع مخالفته في السر ، وليس عاملاً بما يقول ، فيكون الحق ظاهراً وهو في الباطن مفقود .

فهـٰذا مستدرج أعمىٰ هالك ، لا يفيق إلا في عسكر الموتىٰ ، نادماً مع النادمين ما دام علىٰ ذلك .

والاستدراج قسمان :

عقوبة عن سخط ، فهـٰذا لا إياب منه ولا رجوع أبداً .

وعقوبة للتنبيه : فهـٰذا يكشف له عن استدراجه بالتنبيه ، فيرجع إلى الحق وإلىٰ طريق الرشاد . [انتهىٰ (٤/ ٣٥٠)] .

وقال في « اللوامع » : قال بعض العارفين : رأيت في بعض سواحل الشام شاباً عليه طمران ، فأطلت النظر إليه ، فقال : الشوق والهوىٰ تركاني كما ترىٰ ، فقلت له : زدني ، فقال :

ما قرَّ لي جنب علىٰ مضجع ... كم يلبث الجنب على الجمر
والله لا زلت به والهاً ... وإن أمُتْ أذكُرْه في القبر

وتركني ومضىٰ .

وحكي : أن أبا بكر الدينوري رحمه الله قال : اشتهيت سمكاً عشرين سنة ، واستحييت مِن الله عز وجل أن أطلبه ، فسخر الله عز وجل صياداً ورعاً ، اصطاد سمكة ، وأُحضِرَتْ إليَّ

بعد إصلاحها لأفطر عليها ، وكنت في ركعات بين المغرب والعشاء ، فجاءت هرة فأخذتها ، فتبت إلى الله عز وجل مِن أن أعود إلىٰ نقض العهد أو إلىٰ مخالفته .

وقيل : إن النار وقعت قريباً من الحسن البصري رحمه الله وهو في الصلاة ، فما التفت إليها ولا قطع صلاته ، فلما فرغ من صلاته . . أخذ سجادته ومضىٰ .

وقال : نجا المخفون ، ما رأينا معه غيره حتىٰ نفارق ذلك الغير أو يفارقنا ، قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ .

وسئل بعضهم عن المحبة فقال : لها منازل :

أولها : استعمال عشر خصال : العلم ، والحلم ، والمكارم ، والعفو ، والجود ، وحسن الخلق ، والشكر ، والذكر ، والإيثار ، والورع .

وقانون هٰذه كلها : الزهد فيما عدا المحبوب ، مع إيثار طاعته ، والمسارعة إليها .

وثانيها : اجتناب عشر خصال : الكبر ، والبخل ، والفضول ، والهوىٰ ، والنفس ، والدنيا ، وأنا ، وأنت ، ولِيْ ولك .

وقانون هٰذه كلها : رؤية البلاء عطاء من الحبيب جل جلاله .

وثالثها : استعمال الرضا ، والتسليم ، والرعاية ، والمراقبة ، في كل حال ـ لا سيما في حال الخدمة ـ مع الاحترام ، والتعظيم ، والإجلال .

وقال في « الإحياء » : قال الجنيد : الناس في محبة الله عام وخاص .

فالعوام قالوا ذلك لمعرفتهم بدوام إحسانه وكثرة نعمه ، فلم يتمالكوا إلا أن أحبوه ، إلا أنه تقل محبتهم وتكثر علىٰ قدر النعم والإحسان .

والخواص قالوا : المحبة للعظمة والكبرياء والتفرد بالملك والملكوت ، فلما عرفوا صفاته الكاملة . . لم يتمالكوا إلا أن أحبوه ، ولو أزال عنهم جميع النعم ، بل لو أدخلهم النار . . لكانوا راضين ، ولَمَا زالوا عن المحبة[1] .

وقال سفيان الثوري[2] رحمه الله : من يرىٰ ثواب الشدة . . لا يشتهي الخروج منها .

---

(١) الإحياء (٤/٣٣٨) .

(٢) في « الإحياء » : (شقيق البلخي) .

وقال الجنيد : سألت سرياً : هل يجد المحب أَلَمَ البلاء ؟ فقال : لا ، قلت : وإن ضُرِب بالسيف ؟ قال : وإن ضُرِب بالسيف سبعين مرة .

وقال بعضهم : أحببت كل شيء أحبه الله عز وجل ، حتىٰ لو أحب النار . . لأحببت دخول النار .

وقال بشر رحمه الله : مررت برجل قد ضُرِب ألف سوط في سويقة[1] بغداد ولم يتكلم ، ثم حمل إلى الحبس ، فتبعته ، فقلت له : لِمَ ضُرِبت ؟ قال : لأني محب ، قلت : فلِمَ سكتَّ ؟ قال : لأن محبوبي كان بحذائي ينظر إلي ، قلت : فلو نظرت إلى المحبوب الأكبر ؟ قال : فصاح صيحة وخر ميتاً .

وقال بشر أيضاً : قصدت عبادان في بدايتي ؛ فإذا أنا برجل أعمىٰ مجنون مجذوم قد صرع ، والنمل يأكل لحمه ، فرفعت رأسه ، فوضعته في حجري وأنا أردد الكلام ، فلما أفاق . . قال : مَن هٰذا الفضولي الذي يدخل بيني وبين ربي عز وجل ؟ لو قطعني إرباً إرباً . . ما ازددت له إلا حباً .

قال بشر : فما رأيت بعد ذلك نقمة[2] بين عبد وبين رب فأنكرتها .

وقال أبو عمرو بن محمد بن الأشعث[3] رحمه الله : إن أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء إلا النظر إلىٰ وجه يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام ، كانوا إذا جاعوا . . نظروا إلىٰ وجهه ، فشغلهم جماله عن الإحساس بألم الجوع ، بل في القرآن الكريم [ما هو أبلغ من ذلك ، وهو] قطع النسوة أيديهن [لاستهتارهن] بملاحظة جماله حتىٰ ما أحسسن بذلك[4] .

وقالت رابعة رحمها الله يوماً : مَن يدلنا علىٰ حبيبنا ؟ فقالت خادمة لها : حبيبنا معنا ، ولٰكن الدنيا قطعتنا عنه[5] .

قال سفيان الثوري لرابعة رحمها الله : ما حقيقة إيمانك ؟ فقالت : ما عبدته خوفاً

---

(١) في « الإحياء » : (شرقية) .

(٢) في بعض النسخ : (نعمة) .

(٣) في « الإحياء » : (أبو عمرو محمد بن الأشعث) .

(٤) الإحياء (٤/٣٤٨) .

(٥) الإحياء (٤/٣٦٠) .

لناره ، ولا حباً[1] لجنته فأكون كالأجير السوء ، بل عبدته حباً له وشوقاً إليه جل جلاله ولا إلـٰه غيره ، وقالت في معنى المحبة :

أُحِبــك حُبَّيــن حــبَّ الهــوىٰ	وحبّــاً لأنــك أهــلٌ لــذاكــا[2]
فــأمـا الـذي هــو حـب الهـوىٰ	فشغلـي بـذِكـرك عمـا سـواكـا
وأمــا الــذي أنــت أهــل لــه	فكَشْفُــك حُجْبِــيَ حتــىٰ أراكــا
فــلا الحمــد فــي ذا ولا ذاك لــي	ولـٰكن لك الحمد في ذا وذاكا[3]

وقال أبو علي الروذباري رحمه الله : قلت لأبي عبد الله بن الجَلاَّء الدمشقي رحمه الله : قول زهير بن نعيم : (وددت أن جسدي قرض بالمقاريض . . .) إلىٰ آخره ما معناه ؟ قال : يا هـٰذا ؛ إن كان هـٰذا من طريق الإشفاق والنصح . . فأَعرِفُ ، وإن كان من طريق التعظيم والإجلال . . فلا أعرف ، ثم غُشي عليه[4] . [انتهىٰ] .

وكان بعضهم يقول في دعائه : إلـٰهي ؛ الاعتذار من منازل العبودية ، والغفران من صفات الربوبية ، فيامن وصف نفسه بعز الربوبية ؛ ارحم عبدك الحقير الذليل الفقير ، المستجير بعفوك يا أرحم الراحمين .

وكتب عبد الجبار بن وافد إلىٰ بعض إخوانه : كان فيما أوحى الله عز وجل إلىٰ عيسىٰ عليه الصلاة والسلام : (إن الذين يعبدونني علىٰ حب منهم لي . . أجعلهم في أعين أوليائي ملوكاً في الجنة) .

وقال ابن عطاء رحمه الله : جئت يوماً إلىٰ أبي العباس المؤدب رحمه الله أستغيث إليه من الدنيا ، فقال لي : يا أبا العباس ؛ استغاثة ذنبك منك . . أكثر من استغاثتك من الدنيا ، فراعِهِ . . يقع الصلح .

وقال أبو تراب رحمه الله : حكم الفقير ألاَّ يكون له رغبة ، فإن كان ولا بد . . فلا تجاوز رغبته كفايته ، والفقير إذا كان قوي الرغبة في إرفاق نفسه . . لم يتمَّ له صبر ، ولم يخلص له

---

(١) في نسخة : (ولا شوقاً) .
(٢) في النسخ : (حب الرضا) .
(٣) « الإحياء » (٤/٣١٠) .
(٤) الإحياء (٤/٣٤٩) .

رضا ، ولم يجتمع له هَمٌّ ، ولم يسكن له قلب ، ولا يصفو له سر ، ولم يحصل له فضل ، ولم يكمل له فرض ، ولا يصان له فقر .

وقال سفيان الثوري رحمه الله : بلغنا أن بحراً من البحار قذف حجراً ، عليه مكتوب : إنما يتبين الفقير والغني بعد العرض على الله عز وجل .

وقال أبو عبيد البسري رحمه الله : النعم طرد ، فمن أحب النعم . . فقد رضي بالطرد ، والبلاء قربة ، فمن ساءه البلاء . . فقد أحب ترك القربة والتقرب إلى الله تعالىٰ .

وقال يحيىٰ : التائب يُبكِيه ذنبه ، والزاهد تبكيه غربته ، والمحب يبكيه شوقه[1] ، وأحسن الناس : مَن حِليَته في الظاهر الورع والخوف ، وفي الباطن الحب والمعرفة ولذة المناجاة .

وذكر الجنيد رحمه الله يوماً أهل المعرفة بالله عز وجل ، وما يراعون من الأوراد مع ما أوصله الله عز وجل إليهم فقال : إن العبادة على العارفين . . أحسن من التيجان علىٰ رؤوس الملوك .

وقال بشر رحمه الله : لا تؤثرن علىٰ حذف العلائق شيئاً ؛ فإني لو كلفت أن أعول دجاجة . . لخفت أن أصير شرطياً في الحبس ، ومَن لم يحتج إلى النساء . . فليتق الله عز وجل ولا يألف أفخاذهن ؛ فإن الصبر عنهن أحسن من الصبر عليهن ، ولو أن رجلاً احتاج إليهن فجمع بين أربع نسوة . . لما كان مسرفاً .

ومن شقاوة المرء أربعة أشياء : ـ قسوة القلب ، ـ وجمود العين ، ـ وطول الأمل ، ـ والبخل .

وقال يحيىٰ رحمه الله : الدنيا حانوت الشيطان ، فلا تسرقن من حانوته شيئاً ، فيجيء في طلبك فيأخذك .

وقال أحمد ابن أبي الحواري رحمه الله : قلت لأبي سليمان الداراني رحمه الله : يجوز للرجل أن يخبر عن نفسه بالشيء يكون منه ؟ فقال : إذا كان في موضع الأدب ليقتدىٰ به . . جاز له .

قال أحمد : فحدثت به ابنه سليمان فقال : إنما يصلح الكلام ويفسد للمؤدب والمتأدب علىٰ قدر الإرادة فيه .

---

(١) في نسخة : (التائب سكنه ذنبه ، والزاهد سكنه غربته ، والمحب سكنه شوقه) .

وقال إسماعيل بن يوسف السلمي رحمه الله : كل حال لا يكون عن نتيجة العلم وإن جَلَّ . . فإن ضرره علىٰ صاحبه أكبر من نفعه .

وهـٰذا مأخوذ من قول أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله : ما عمل عامل علىٰ جهل . . إلا كان ما يفسد أكثر مما يصلح .

وقال عمر بن السري رحمه الله : سمعت أبا سعيد الخراز رحمه الله يقول : رأيت شقيقاً البلخي في النوم فقلت : ما فعل الله عز وجل بك ؟ فقال : غفر لي ، غير أنا لا نلحقكم ، فقلت : ولِمَ ذاك ؟ قال : لأنا توكلنا على الله عز وجل بوجود الكفاية ، وتوكلتم على الله عز وجل بعدم الكفاية ، قال : فسمعت الصراخ : صدق ، صدق ، فانتبهت وأنا أسمع الصراخ .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : هـٰذا نظير قول بشر بن الحارث رحمه الله : إن المتوكل لن يتوكل على الله عز وجل ليكفىٰ ، ولو حلت هـٰذه الصفة بقلوب المتوكلين . . لضجوا إلى الله سبحانه وتعالىٰ بالندم والتوبة منها ، ولـٰكن المتوكل تحل بقلبه الكفاية من الله عز وجل ، فيصدق الله فيما ضمن .

وقال بعض العارفين رحمه الله : كان المؤمنون قبلنا يجعلون أمور دنياهم تبعاً لأمور آخرتهم ، ونحن جعلنا أمور آخرتنا تبعاً لأمور دنيانا ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

واعلم : أن مَن كَرُمت عليه نفسه . . عز عليه دِينه ، واتفق كلام العارفين سلفاً وخلفاً علىٰ أن علم السلوك علم عظيم النفع لا بد للسالكين طرق المعرفة من معرفته واستعماله .

وقال أبو القاسم يحيى بن المؤمل العماني رحمه الله تعالىٰ : وقفت علىٰ حلقة الشبلي رحمه الله ببغداد ، فسمعته يقول :

الغيـــم رطـــب ينـــادي ... يـــا غـــافليـــن الصبـــوح
فقلـــت أهـــلاً وسهـــلاً ... مـــا دام فـــي الجســـم روح

وقال أبو بكر بن طاهر رحمه الله وقد سئل عن السماع فقال : طرب وهو كسائر الشهوات ، وتركه أولىٰ إذا كان نفس المستمع معه في سماعه .

ودخل أبو العباس ابن عطاء مسجد الشونيزي ليسلم علىٰ أبي جعفر الحداد ، وحوله

جماعة فقراء يأكلون ، وقد قدم إليهم أبو يعقوب الأقطع ، فقالوا : يا أبا العباس ؛ تواضع وكُلْ معنا ، فجلس يأكل معهم ، وكان في كمه صرة فيها مئتا درهم ، فأخرجها من كمه من حيث لا يدرون ، فوضعها وخرج من المسجد .

وقال سعد بن عبد الله : لو علمت مَن إذا لقيته انتفعت به . . لقصدته ولو كان بعيداً ، ولو علمت رجلاً إذا أصبحت سَلِمت منه . . لحافظت عليه .

وقال بعض العارفين : إذا أطاع العبد ربه عز وجل . . رزقه معرفة ، فإذا ترك طاعة الله سبحانه وتعالىٰ . . لم يسلبه تلك المعرفة ، أبقاها عليه لتكون حجة عليه يوم القيامة .

وقال بعض العارفين : رأيت عارفاً في النوم بعد موته ، فقلت في نفسي عند رؤيتي له : أريد أن أسأله عن أقرب الأعمال إلى الله عز وجل ، فقال لي : لا تكثر ، الأمر أيسر من ذاك ، وهو مبني علىٰ ثلاثة أشياء : ـ أداء الفرائض ، واجتناب المحارم ، والتقرب بالنوافل .

وقال أبو بكر محمد بن علي الترمذي رحمه الله في مجلسه : إذا أراد الله عز وجل أن ينقذ عبده من الهلكة . . أيقظه من غفلته ، ونبهه للمحاسبة فيما مضىٰ من أيامه ، فيحزن علىٰ ما اجترم ، ويغتم لما اكتسب ، فيعصمه الله تعالىٰ فيما بقي من أَجَله ، ويوفقه للخيرات ، ويبدل سيآته حسنات ، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (بقية عمر المؤمن لا ثمن له ؛ يدرك به ما فات ، ويحيي به ما أمات ، ويبدل الله سيئاته حسنات) .

وقال أبو بكر الزقاق رحمه الله لأبي علي الروذباري رحمه الله : يا أبا علي ؛ لولا أنك تُذاكرني بهـٰذا الأمر . . لظننت أنه قد اندرس ، فأما أهله . . فقد اندرسوا في الحقيقة ، فقلت له : يا سيدي ؛ إنهم يقولون : إن بناحية العجم جماعة محققين ، فقال : أجل ، ألا تسمع قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لو كان الدين . . . »[1] ؟ .

وقال حذيفة المرعشي رحمه الله : ليحذر أحدكم أن تبغضه قلوب المؤمنين ، قالوا : وكيف ذاك ؟ قال : يعمل العمل الذي لا يرضاه الله عز وجل في السر ، فيلهم الله المؤمنين بغضه ؛ لأن ذلك يتأدىٰ إلىٰ قلوبهم .

وهـٰذا نظير ما قاله يحيى بن معاذ رحمه الله : مَن دعا إلى الزهد ولم يعمل به . .

---

(١) أخرج مسلم (٢٥٤٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو كان الدين عند الثريا . . لذهب به رجل من فارس ـ أو قال من أبناء فارس ـ حتىٰ يتناوله » .

فضحه الله ، ومَن خان الله في السر . . هتك ستره في العلانية .

وسئل أبو جعفر الحداد عن الفراسة فقال : هو أول خاطر بلا معارض ، فإن عرض فيه عارض . . فليس بفراسة ، وذلك خاطر من الخواطر ومحادثة النفس .

وقال : لست آمركم بترك الدنيا ، إنما آمركم بترك الذنوب ، وترك الدنيا فضيلة ، وترك الذنوب فريضة ، فأنتم إلىٰ إقامة الفرائض . . أحوج منكم إلى اكتساب الفضيلة .

وقال بشر رحمه الله : لا تشتر من البخيل حاجة فتسره ؛ فإن الله تعالىٰ يكره أن يسر البخيل .

وقال أبو العباس ابن عبد الحميد رحمه الله : الحمد لله الذي حرم ما لو شاء لعصم منه ، وأستغفر الله من الذنوب التي علمها في الغيوب قبل خطراتها على القلوب ، إلـٰهي ؛ أطعتك إذ أطعتك بفضلك ، فلك المنَّة عليَّ ، وعصيتك إذ عصيتك بعلمك ، فلك الحجة عليَّ ، فيا من يعلم ما يكون قبل أن يكون ؛ ما أشد سروري بعلمك ، تعلم ضعفي وقلة حيلتي ، فاغفر لي وتب عليَّ ؛ إنك أنت التواب الرحيم .

وقال أبو بكر الزقاق رحمه الله : **اعلم** : أنه لا يَصلُح هـٰذا الأمر في عصرنا وبعده إلا لأقوام قد كنسوا بأرواحهم المزابل .

وقال أبو الطيب فارس الجمال[1] : مَن تعلق باللذات ، وألف الراحة ، ونسي شكر المنعم . . فقد تعرض للبلاء .

وسأل رجل الفضيل بن عياض فقال : يا أبا علي ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ فأين تكون النار إذاً ؟ فقال له : يا هـٰذا ؛ إن الله تبارك وتعالىٰ أبدىٰ شيئاً وأخفىٰ شيئاً ، فالمحفوظون بولاية الله عز وجل قاموا علىٰ حد الإيمان فيها ، فقبلوا ما أبدىٰ وأمسكوا عما أخفىٰ ، ولزموا مع الله سبحانه وتعالى التسليم فيها .

وسئل الإمام أبو بكر محمد بن علي الكتاني عن الذِّكر فقال : الذِّكر علىٰ وجوه : إن ذكرته سبحانه وتعالىٰ بترك ما نهاك عنه مخافة عقوبته ونقمته . . صرت من الخائفين ، وإن ذكرته تبارك وتعالىٰ بأداء ما أمرت به . . صرت من الراجين ، وإن ذكرته عز وجل بالندامة والتوبة . . صرت من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وإن ذكرته جل ثناؤه لشكر

---

(١) في نسخة : (الحمال) .

الآلاء والنعماء.. صرت من العارفين ، وإن ذكرته سبحانه وتعالىٰ بفراغ القلب عما سواه وقطع العلائق وتلف النفس.. صرت من المحبين .

وقال بعض العارفين رحمهم الله : تقول الملائكة عليهم الصلاة والسلام : مَن أعطي فلم يأخذ.. طَلَب ولم يُعطَ . [انتهىٰ] .

وقال مؤلف « بهجة الأسرار » ـ قدس الله روحه ـ : حدثني أبو الشرواني[1] ـ صاحب الخواص ـ قال : حضرت في منزل أبي محمدٍ رويمٍ ببغداد مع جماعة من المشايخ فجرىٰ ذكر التصوف ، قال أبو سهل ابن المأمون : التصوف ثمانية أصول : ـ الفناء ، ـ والبقاء ، ـ والجمع ، ـ والتفرقة ، ـ والتوحيد ، ـ والتفريد ، ـ وعين اليسار ، ـ والتحكم ، فقال له بعض الحاضرين : ما معنى اليسار والتحكم ؟ فقال : هو أن يخطر له خاطر فيكون ما خطر له .

وسأل رجل الفضيل بن عياض رحمه الله أن يدعو له ، فقال : متعك الله بقربه ، ونعمك بحبه ، وجعلك في ستره ، ولا شغلك بغيره .

وقال أحمد ابن أبي الحواري رحمه الله : كان مِن دعاء بعض التابعين : اللهم ؛ أمت قلبي بخوفك وخشيتك ، وأحيه بحبك وذِكرك يا أرحم الراحمين .

وقال غيره : كان من دعاء مريم ابنة عمران عليها السلام : اللهم ؛ املأ قلبي بك فرحاً ، وغَشِّ وجهي منك بالحياء .

وقال عبد الله بن سهل : عن نصر بن جرير قال : دخلت علىٰ أبي الحجاج الجرجاني رحمه الله يوماً ، فكلمته ، فلم يكلمني ، فقلت له : أنت في حرج إن كان عندك علم إلا ما علمتني ، فقال لي : عصيت الله عز وجل بمعصية قط ؟ قلت : نعم ، قال : كتبت عليك ورفعت إلى الله عز وجل ؟ قلت : نعم ، قال : علمت أنه غفرها ؟ قلت : لا ، قال : فما قعودك وسكوتك[2] ؟! اذهب فابك علىٰ نفسك أيام الحياة حتىٰ تعلم ما حالك عنده في هـٰذه المعصية ، قال : فبكىٰ نصر علىٰ هـٰذه ثلاثين سَنة خوفاً حتىٰ مات .

وقال مؤلف « بهجة الأسرار » ـ قدس الله روحه ـ : سألت أبا علي الحسن بن أحمد بن عبد العزيز عن قوله عز وجل : ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا

---

(١) في بعض النسخ : (السرواني) .
(٢) في نسخة : (سكنك) .

يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ فقال : قد علم الله سبحانه وتعالىٰ أنه لم يقل ، فلما عَرَّض له بالقول . . فزع وخاف أن يكون قاله ، وأن الله تبارك وتعالىٰ يؤاخذه به إذ جعله سبباً له فقال : ﴿ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥ﴾ ، فرد الغيب والسريرة إلىٰ حقيقة سابق علمه فيه .

قال : وسألته عن حقيقة الإنابة فقال : تقبل على الله عز وجل بقلب فارغ له ، وتعكف عليه بقلب مشتغل به ، ثم تلا : ﴿ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ ، ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ ، ﴿ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾ .

وقال : كيف ينيب مَن لا يستجيب ؟! بل كيف يستجيب من لا يسمع ؟! فقد قال الله تعالىٰ ـ وقوله الحق ـ : ﴿ إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَ﴾ ، فمَن سمع الذِّكر . . اتبعه ، ومَن خشي الرحمـٰن بالغيب . . استجاب ، ومَن خشيه . . حقت له النذارة ، كما قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ .

وقال الواسطي رحمه الله : كم تصول بترك كنيف ؟ وإلىٰ متىٰ تفتخر بإعراضك عما لا يزن عند الله جناح بعوضة ؟!

وقال : سئل الشبلي رحمه الله : عن الزهد فقال : أي مقدار لأقل من جناح بعوضة حتىٰ يزهد فيها ؟!

وقال فارس رحمه الله : قلت لبعض الفقراء مرة ورأيت عليه أثر الجوع : لِمَ لا تسأل الناس ؟ فقال : أخاف أن أسألهم فلا يعطوني فلا يفلحون .

وقال أبو عثمان الحيري رحمه الله : كنا في دار أبي بكر مع الأستاذ أبي حفص ، فجرىٰ ذِكر صديق غائب عنا ، فقال الأستاذ أبو حفص رحمه الله : لو كان هـٰهنا كاغد . . لكتبنا إليه ، فقلت : هـٰهنا كاغد ، وكان أبو بكر قد تركنا في بيته وخرج إلى السوق ، فقال الأستاذ أبو حفص : لعل أبا بكر قد مات ، فصار الكاغد للورثة ، فترك الكتاب ، وكان كما قال .

قال أبو بكر ابن مجاهد المقرىء رحمه الله : قدم أبو عمرو ابن العلاء ليصلي بالناس ، وما كان يؤثر الإمامة ، فتقدم اضطراراً ، فلما تقدم . . قال للناس : استووا ، فغشي عليه ، فلم يفق إلا بعد زمان كثير ، فقيل له في ذلك ، قال : لما قلت لكم : استووا . . وقع بقلبي خاطر مِن الله عز وجل كأنه يقول : يا عبدي ؛ هل استويت لي طرفة عين حتىٰ تقول لخلقي استووا ؟!

وقال بعض أصحاب سهل رحمه الله : كان سهل رحمه الله يُغسَّل وسبابته من يده اليمنىٰ منتصبة يشير بها إلى الشهادة .

وقال حاتم الأصم رحمه الله : إن أردت أن تكسر أعناق الشياطين . . فاكسر أربعة بأربعة : الحرص بالثقة ، والحسد بالنصيحة ، والأمل بذِكر الموت ، والإعجاب بخوف الخاتمة .

وقال أبو يزيد البسطامي رحمه الله : التوبة من الذنب واحدة ، والتوبة من الطاعة ألف .

وروي عن جعفر بن محمد رحمهما الله أنه قال : قال الله عز وجل : (وعزتي وجلالي ؛ لأجيبن دعوة المظلوم وإن كان كافراً ، كفره علىٰ نفسه وإزالة الظلم عليَّ) .

وعنه : ما مِن عبد ظُلِم فقال : يا رب ؛ عبدك قد ظلم ، وإني لا أنتصر إلا بك وأنت أعلم . . إلا قال الله عز وجل : (عبدي ؛ حقاً لأنصرنك ولو بعد حين) .

وقال جعفر بن محمد رحمهما الله : المشاهدة : اطلاع القلب بصفاء اليقين إلىٰ ما أخبر الحق سبحانه وتعالىٰ من الغيوب .

وقال أبو علي الروذباري رحمه الله : مَن نظر إلىٰ نفسه مرة . . عمي عن النظر بالاعتبار إلىٰ شيء من الأكوان .

وسئل السَّريُّ رحمه الله عن القرب فقال : هو الطاعة .

وقال الواسطي رحمه الله : علامة القرب إلى الله عز وجل : الانقطاع عن كل شيء سواه سبحانه وتعالىٰ .

وجلس رجل إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما ، فقال له الحسين : (إنك جلست إلينا ونحن نريد القيام ، أفتأذن ؟) .

وقال الحسن رضي الله عنه : (إن قوماً جعلوا تواضعهم في ثيابهم ، وكبرهم في صدورهم ، حتىٰ إن صاحب المدرعة[1] بمدرعته أشد فرحاً من صاحب المطرف[2] بمطرفه) .

وقال الأستاذ أبو حفص رحمه الله : كيف يبقى الغل في قلوب ائتلفت بالله ، واتفقت

---

(١) المِدْرَعة : جبةٌ مشقوقة المقدّم .

(٢) المِطْرَفُ : رداء أو ثوب من خزّ مربع ذو أعلام .

علىٰ محبته ، واجتمعت علىٰ مودته ، وأنست بذِكره .

وقال ذو النون رحمه الله : علامة السعادة ثلاثة أشياء :

- متىٰ ما زيد في عمره . . نقص من حرصه .
- ومتىٰ ما زيد في ماله . . زيد في سخائه .
- ومتىٰ ما زيد في قدره . . زيد في تواضعه .

جاء رجل إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ؛ أوصني ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عليك باليأس مما في أيدي الناس ؛ فإنه الغنى الأكبر ، وإياك والطمع ؛ فإنه الفقر الحاضر ، وصلِّ صلاة مودع ، وإياك وما تعتذر منه »(1) .

وقال الحسن بن عبادة : وَجَّه إليَّ الأمير وإلى ابن أبي ليلىٰ وأبي حنيفة ، فسألَنا عن مسألة ، فأجاب هو وابن أبي ليلىٰ بجواب واحد ، وخالفتهما أنا ، فأمر الأمير بإنفاذ قوليهما وترك قولي ، قال : فتفكر أبو حنيفة ساعة ، ثم قال للأمير : جوابي خطأ ، والقول ما قال الحسن ، فقال لابن أبي ليلىٰ : ما تقول ؟ فلم يرجع ، وجعل يناظرني ، فقال أبو حنيفة رحمه الله : إن العلم يُعرَض على الله عز وجل ، فلا يأنف أحد إذا أخطأ أن يرجع إلى الحق .

ومر عامر بن بهدلة برجل قد صلبه الحجاج ، فمر بخاطره أن حلم الله عن الظالمين قد أضر بالمظلومين ، فرأىٰ في منامه أن القيامة قد قامت ، وكأنه قد دخل إلى الجنة ، فرأى المصلوب فيها في أعلىٰ عليين ، وإذا مناد ينادي : حِلْمُ الله عز وجل عن الظالمين أحل المظلومين في أعلىٰ عليين(2) .

وقال أبو ذر رضي الله عنه : أُحِبُّ الموت اشتياقاً إلىٰ ربي سبحانه وتعالىٰ ، وأحب المرض تكفيراً لخطيئتي ، وأحب الفقر تواضعاً لربي عز وجل . [انتهىٰ] .

وقال في « كتاب التوابين » : قال يوسف بن أسباط رحمه الله : ورثت عن أبي ضِياعاً بخمس مئة ألف بالكوفة ، فجرىٰ بيني وبين عمومتي كلام ، فشاورت الحسن بن صالح ،

---

(1) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٦٢) .

(2) جاء في هامش نسخة : (العبادة يجب أن تقع علىٰ ثلاثة أوجه : الخوف والرجاء والمحبة ، واعلم : أنك لا تنجو إلا بالله سبحانه وتعالىٰ ، وإن العبادات غير منجية ؛ لأنها أسباب ، وهي لا تؤثر شيئاً ، إنما المؤثر هو الله تبارك وتعالىٰ ؛ فأسأله أن يحفظ عليك ما ابتدأك به بمنه وفضله وإحسانه تفضلاً ، والله أعلم) .

فقال لي : ما أرىٰ لك أن تحاكمهم ، إنها من أرض الخراج ، فتركتها لله عز وجل وأنا محتاج إلىٰ فلس . أو كما قال .

قال : وحصل له ضَعف ، فدعا له الطبيب ، وكان يعالج الملوك ، فعالجه حتىٰ صح في مدة قريبة ، فقال يوسف لأصحابه وأهله : أي شيء تعطونه ؟ قالوا : قد قال : إنه لا يأخذ منك شيئاً ، قال : سبحان الله! جئتم بطبيب الملوك ولا أعطيه شيئاً ؟ فقالوا : نعطيه ديناراً ؟ فقال : لا ، ولـٰكن خذ هـٰذا ، فادفعه إليه ، وأعلمه أني لا أملك غيره ؛ إذ لو كان عندي غيره . . لأعطيته ؛ لئلا يتوهم أني أقل مروءة من الملوك ، فدفع إلي صرة فيها خمسة عشر ديناراً ، قال : فأخذتها ، فدفعتها إليه .

قال : وجعل يوسف يعمل الخوص بيده حتىٰ مات . [انتهىٰ « التوابين » ٢٨٢ـ٢٨٣] .

وقال أبو الفرج : كتب محمد بن سمرة السائح إلىٰ يوسف بن أسباط : يا أخي ؛ لا تُؤَمِّرَنَّ التسويف علىٰ نفسك ، ولا تمكنه من قلبك ؛ فإنه محل الضلال ، وبه تنقطع الآمال ، وفيه تنقطع الآجال ، فبادر يا أخي فإنك مُبادَرٌ بك ، وأسرع فإنك مُسرَع بك ، وجِدَّ فإن الأمر جِدٌّ ، وتيقظ مِن رقدتك ، وانتبه من غفلتك ، وتذكر ما أسلفت وقصرت وفرطت ؛ فإنه مثبت عليك ، وكأنك بالأمر وقد بغتك فاغتبطت بما قدمت ، وندمت علىٰ ما فرطت ، وعليك بالحياء والمراقبة والعزلة وقلة الملاقاة ؛ فإن السلامة في ذلك موجودة ، وفقنا الله وإياك لأرشد الأمور ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . [انتهىٰ « الصفوة » ٤/١٦٦] .

وقال في « اللوامع » : وعن حذيفة المرعشي رحمه الله قال : نظر رجل إلىٰ رجل يبكي بكاء شديداً ، فقال له : يا أخي ؛ ما يبكيك ؟ فقال : ذكرت ما أسلفت من الذنوب ، وأياماً تأتي عليَّ لا أعلم ما حكم لي في الغيوب ، فمَن أولىٰ بالبكاء مني علىٰ ما فات ، وعلىٰ ما هو آت ، وفي أفراحي وأتراحي ؟!

فبكىٰ حذيفة معه ، وتعانقا ، ولم يزالا يبكيان حتى ارتفع ضجيجهما .

وأنشدوا في المعنىٰ :

ورد الكتاب من الحبيب بأنه ... سيزورني فاستعبرَتْ أجفاني
هجم السرور علي حتىٰ إنه ... من عُظْم ما قد سرني أبكاني
يا عين صار الدمع عندك عادةً ... تبكين في فرحي وفي أحزاني

وقال في « بهجة الأسرار » : قال يحيى بن جعفر : كنت أصحب معروفاً الكرخي رحمه الله ، وكنت أرىٰ أعظم الأمور عنده . . أهونها إذا كان في رضا الله عز وجل ، وأهون الأمور عنده . . أضعفها إذا كان فيها المخالفة، ولم أره قط إلا خائفاً من الله عز وجل مرتعداً .

ورأيته يؤذن يوماً ، فرأيت شعر لحيته وصدره قد قام كأنه ريش ديك ، مِن شدة خشيته من الله عز وجل عند ذِكره .

وعن معروف قال : يقول الله تبارك وتعالىٰ في بعض الكتب : (ابن آدم ؛ ما أجسرك! تسألني فأمنعك ؛ لعلمي بما يصلحك ، ثم تلح عليَّ في المسألة ، فأجود بكرمي عليك ، فأعطيك ما سألتني ، فتستعين بما أعطيك علىٰ معصيتي ، ثم تسألني ألاَّ أهتك سترك ، فأستر عليك ، ثم تعاود المعصية ، فأستر عليك ، فكم من جميل أصنعه معك ، وكم من قبيح تعمله فيوشك أن يحل عليك غضبي ، فلا أرضىٰ عليك أبداً) . [انتهىٰ] .

وقال في « اللوامع » : قال معروف رحمه الله : حقيقة المحبة : إخراج ما سوى المحبوب عن القلب ؛ فإن علامة محبة الله عز وجل : اشتغال العبد بالله سبحانه وتعالىٰ ، وعلامة مقت الله عز وجل : اشتغال العبد بنفسه ؛ فإنه لا تصح طاعة الله عز وجل إلا بإخراج الدنيا من القلب .

ثم قال معروف : قلت للسَّريِّ : يا أبا الحسن ؛ رأيت في طريق الحِيرة شاباً من أحسنهم شباباً في أشد هاجرة يمشي ومعه الركوة ، فقلت له : إلىٰ أين ؟ قال : إلى الله ، فقلت : نِعم المقصود سبحانه وتعالىٰ ؛ ثم قلت له : مع مَن ؟ قال : مع الله ، قلت : نِعم الصاحب جل جلاله ، قلت : فأين القوت ؟ قال : الضامن نفسه سبحانه وتعالىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ ، ثم قال لي : يا معروف ؛ ادع لي بالتوفيق ، فالزمان قصير ، والوقت يفوت ، وأنشد :

تمتع بذا اليوم القصير فإنه رهين بأيام الدهور الأطاوِلِ

وقال في « بهجة الأسرار » : قال أحمد ابن أبي الحواري : رأيت أبا سليمان الداراني رحمه الله يُلْقم عوام الناس الزبد والعسل ، وكنت آتيه بالزبد والعسل في منزله مرتين فلا يذوقه ، فقلت له : تطعمنا ولا تأكل منه ؟! فقال : إني أعرف منكم أنكم تشتهونه ، فأنا أحب أن أطعمكم شهوتكم ، والزبد بالعسل إسراف ، وأنا أخافه ، ولو جاءني مَن يعرف . . لما زدته على الخبز مع الملح .

ثم بتُّ أنا وهو عند أحمد بن سباع ، فجاءه بسُكْرُجة[1] فيها زبد وعسل ورغيف درمك[2] ، فجعل يأكل ، فقلت : تأكل هـٰذا وفي بيتك مثله لا تأكله ؟! فقال : يا أحمد ؛ مَن أكل ليسر أخاه . . لم يضره أكله ، إنَّ عامِل الله عز وجل لا يخيب علىٰ كل حال ، وإنما يضره إذا أكل بشهوة نفسه . [انتهىٰ] .

وقال أبو عبد الرحمـٰن السلمي في « الطبقات » : قال أبو سليمان : لكل شيء مهر ، ومهر الجنة ترك الدنيا بما فيها .

وكان يقول : إذا ترك العبد الدنيا . . استنار قلبه بنور الحكمة ، ولكل شيء معدن ، ومعدن الصدق[3] قلوب الزاهدين ، ومَن أراد واعظاً بيِّناً . . فلينظر إلى اختلاف الليل والنهار ، وإذا سكن القلبَ الخوفُ . . أحرق الشهوات وطرد الغفلة عن القلب ، ولكل شيء صَدًىٰ ، وصدىٰ نور القلب . . شبع البطن ، ولو أن محزوناً بكىٰ علىٰ أُمَّةٍ لله عز وجل ودعا لهم . . لرحم الله تلك الأمة . [انتهىٰ « الطبقات » ٨١ـ٨٢] .

وفي « تاريخ الخطيب » قدس الله روحه : قال أحمد ابن أبي الحواري رحمه الله : تمنيت أن أرىٰ أبا سليمان الداراني في المنام ، فرأيته بعد سَنة ، فقلت له : يا معلم الناس الخير ؛ ما فعل الله عز وجل بك ؟ فقال : يا أحمد ؛ دخلت من باب الصغير ، فرأيت حِمْلَ شيح ، فأخذت منه عوداً ، فلا أدري تخللت به أم رميته ؟ فأنا في حسابه منذ سَنة .

وقال أبو سليمان : وصفت لأختي عَبْدَةَ قنطرةً من قناطر جهنم ، فصاحت صيحة عظيمة وغُشي عليها زماناً طويلاً ، فلما أفاقت : صارت كلما ذكرتها . . تصيح صيحة واحدة ثم تسكت ، فقلت لها : مِن أي شيء تصيحين ؟ فقالت : مثلت نفسي وأنا على القنطرة وهي تكفؤني ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . [انتهىٰ] .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : قال أبو سليمان رحمه الله **وقد سئل عن حقيقة المحبة قال : آخر أَقدام الزاهدين . . أول أَقدام المتوكلين ، وآخر أَقدام المتوكلين . . أول أَقدام العارفين ، وآخر أَقدام العارفين . . أول أَقدام المحبين ، ولا آخر لأَقدامهم .**

فقيل له : كيف الطريق إليه جل جلاله ؟ فقال : بجهاد النفس ؛ فإن القلب إذا جاع

---

(١) السكرجة : إناء صغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأدم .
(٢) رغيف دَرْمَك : من خبز الدقيق الأبيض .
(٣) في نسخة : (الزهد) .

وعطش . . رق وصفا ، وإذا شبع وروي . . طغىٰ وجفا .

ودخل أبو سليمان علىٰ بعض أصحابه يعوده وقد أشرف على الموت ، فقال : مم شكواك ؟ فقال : مِن قلة البلاء ، فقال : ما هـٰذا التجلُّد ؟ فقال : طلباً للرضا ، ثم قال : يا شيخ ؛ سله سبحانه وتعالىٰ أن يزيدني من البلاء ؛ فإني كل ما عندي عطاء ، ومَن العبد حتىٰ لا يفتخر بما يرضاه له مولاه سبحانه وتعالىٰ ؟! ثم ذكر الشهادتين ، وفارق الدنيا رحمه الله ، آمين .

وكان أبو سليمان يقول : احذر صغير الدنيا ؛ فإن صغير الدنيا يجر إلىٰ كبيرها ، ومن أراد منها شيئاً غير قدر الحاجة . . فهو يريدها كلها .

وقال محمد بن يوسف رحمه الله : كان أبو عبد الله النباجي رحمه الله مجابَ الدعوة ، له كرامات ، فبينما هو في بعض أسفاره علىٰ ناقة له وفي الرفقة رجل عائن[1] ، قلما نظر إلىٰ شيء إلا أتلفه ، فقيل له : احفظ ناقتك من العائن ، فقال : ليس له إليها سبيل ، فأُخبر العائن بقوله : فتحيَّن غيبة النباجي ، فجاء ، فعان الناقة ، فاضطربت وسقطت ، وأتى النباجي فرآها ، فقال : دلوني عليه ، فدلوه ، فأتاه ، فوقف عليه وقال : **بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، حبسٌ حابس ، وشهابٌ قابس ، رددت عين العائن عليه ، وعلىٰ أحب الناس إليه ، في كلوتيه رشيق ، وفي ماله بليق** ، ﴿ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ ، **فخرجت حدقتا العائن ، وقامت الناقة لا بأس بها** .

وروي : **أن أبا عبد الله النباجي اشترىٰ جارية سوداء للخدمة ، فقال لها** : قد اشتريتك ، فضحكت ، فحسِبَها مجنونة ، فقال لها : أمجنونة أنتِ ؟ فقالت : سبحان من يعلم خفيات القلوب! ما أنا بمجنونة ، ثم قالت : هل تقرأ شيئاً من القرآن ؟ فقال : نعم ، فقرأ : بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، فشهقت وقالت : يا مولاي ؛ هـٰذه لذة الخبر ، فكيف لذة النظر ؟ فلما جن الليل . . وطَّأ لها مناماً ، فقالت : أما تستحي من مولاك جل جلاله ؟! فإنه سبحانه وتعالىٰ لا ينام ، وأنت تنام ؟! ثم أنشأت :

عجبـاً للمحـب كيـف ينـامُ ... كـلُّ نـوم علـى المحـب حـرامُ

إن قلبـي وقلـبَ مَـن كـان قبلـي ... لـن يـزالا يَخَفْـنَ رب الأنـامِ

---

(١) عائن : الذي يصيب بالعين .

قال النباجي : فقامت تصلي طول ليلتها ، فلما كان في آخر سجدتها . . سمعتها تقول فيها : يا رب ؛ بحبك إياي لا تعذبني .

فقال لها النباجي : غلطتِ ، يجب أن تقولي بحبي إياك لا تعذبني ، فقالت : بلىٰ - يا مولاي - قد أصبتُ ، لولا حبه إياي سبحانه وتعالىٰ . . لما وجدت محبتي ، ولهٰذا إنه سبحانه وتعالىٰ قدم محبته علىٰ محبتي ، فقال : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ ، فمحبة الله عز وجل هي الموجبة لمحبة العبد ، فهي السابقة له من الله في القِدم ، والعبد بعد في العدم ، ولولا ذلك . . لَمَا كان للعبد إطلاق لفظ المحبة على الله سبحانه وتعالىٰ ، ولَمَا كان أيضاً يجسر علىٰ ذلك .

ثم اعلم : أن محبة العبد لله عز وجل حالة لطيفة يجدها العبد في قلبه ، تحمله تلك الحالة علىٰ إيثار حقوق الله تعالىٰ ، والمسارعة إلى امتثال أوامره واجتناب نواهيه .

ثم إنها سجدت وأطالت ، ثم قالت : إلٰهي ؛ قد طال شوقي إليك ، فعجل ربي قبض روحي إليك ، فتوفيت رحمها الله تعالىٰ .

وقال الجنيد رحمه الله لرجل سأله عن شيء : **تعلم العلم من باب العمل ، ولا تَعَلَّمْه من باب العلم ؛ لأن علم العمل لا يُنسىٰ ، وعلم التعلم ينسىٰ** .

وسئل بعض العارفين فقيل له : ما لنا لا نجد حلاوة الطاعة ؟ فقال : لأنكم تجدون حلاوة الدنيا .

وسئل الجنيد : يكون عطاء من غير عمل ؟ فقال : كل عمل عن عطاء يكون .

وعن أبي بكر الزقاق رحمه الله قال : قال لي أحمد بن عيسىٰ : كنت بمكة إذا جاء الموسم . . تصفحت وجوه الناس ، فرأيت رجلاً عليه خلق ملآن شغل ، فلم أزل أمشي خلفه حتىٰ خرج إلى المَعْلىٰ ، فالتفت إلي ، فرآني خلفه ، فقال : ما لك ؟ فقلت : لعلي أسمع شيئاً منك أنتفع به ، فقال : يا هٰذا ؛ إن الناس نيام ، فإذا ماتوا . . انتبهوا ، فانظر أي رجل أنت ، ثم ذهب وتركني مفكراً .

وقال إسماعيل بن يوسف السلمي رحمه الله : كل حال لا يكون عن نتيجة العلم وإن جل . . فإن ضرره علىٰ صاحبه أكثر من نفعه .

وقال ذو النون : كَلَّت ألسن المتحققين عن الدعاوي ، ونطقت ألسن المدعين بالدعاوي .

وقال بعض العارفين : اسم الله الأعظم : أن تقول بصدق اللجأ : يا الله ، وصدق اللجأ : أن تكون مثل الغريق في البحر .

وقال السلمي : قال أحمد بن خضرويه : قلت لأبي يزيد : إني لا أصِل إلى التوبة ، فقال أبو يزيد : العزة لله عز وجل ، فأنت تطلب العزة .

وقال أبو يزيد لرجل قد صلىٰ في مسجد : إن زعمت أن صلاتك مواصلة . . فهي مفاصلة ، إن تركتها . . كفرت ، وإن شاهدتها . . أشركت .

قوله : (إن شاهدتها . . أشركت) له معنيان :

أحدهما : يعني إن شاهدت أنها فعلك . . فهو نوع جحود ؛ إذ الفاعل في الحقيقة إنما هو الله عز وجل ، وهـٰذا معنىٰ ما قاله الشبلي رحمه الله وأبو بكر الواسطي رحمه الله .

والثاني : إن دخلك فيها إعجاب أو نوع رياء . . فهو شرك ، وهـٰذا ظاهر . والله أعلم .

وقال أحمد بن عاصم رحمه الله : وافقنا الصالحين في أعمال الجوارح ، وخالفناهم في الهِمم .

وقال : أمام كل عمل علم ، وأمام كل علم العناية الأزلية .

وقال منصور بن عمار رحمه الله : سرورك بالمعصية إذا ظفرت بها . . أضر عليك منها .

وقال : اترك نهمة الدنيا . . تَسْتَرِحْ من الغم ، ولسانك يسترح من المعذرة .

وقال : الناس رجلان : عارف بنفسه ، فشُغلُه في المجاهدة والرياضة ، وعارف بربه عز وجل ، فشغله في عبادته على المراقبة وابتغاء مرضاته .

وقال : سلامة النفس في مخالفتها ، وبلاؤها في متابعتها . [انتهىٰ] .

وقال في « بهجة الأسرار » : قال يوسف بن الحسين الرازي رحمه الله : رأيت ذا النون قبل أن أصحبه بعرفات واقفاً شاخصاً ببصره نحو السماء يدعو ، فسمعته يقول : إلـٰهي ؛ لك بهاء الجلال في انفراد وحدانيتك ، والكبرياء والعظمة في إتقان حكمتك ، ولك سلطان العز في دوام هيبتك ، بعدت ـ علىٰ قربك ـ عن أوهام الباحثين عن بلوغك ، وقربت ـ علىٰ بعدك ـ من أوهام القلوب ، فلم يفت ذلك علمك ، فوعزتك وجلالك ؛ لولا أنَّ ذِكرك فرض عليَّ . . لما تفوهت به ؛ إجلالاً لك وإعظاماً ، يا أرحم الراحمين .

وقال يوسف بن الحسين : سمعت ذا النون رحمه الله وهو يوصي أخاه ذا الكفل فقال

له : يا أخي ؛ كن بالخير موصوفاً ، ولا تكن للخير وصَّافاً .

وقال رجل لحاتم الأصم : كيف تؤدى الصلاة ؟ فقال له : إذا وقفتَ في الصلاة . . فاعلم أن الله سبحانه وتعالىٰ يراك ، فانظر كيف تكون مِن رعاية التعظيم والحرمة ، فإذا ركعت . . فقل : لا أرفع ؛ لاحتمال أن أموت ، وأغلق عنك باب الدنيا ، ولا تأمل الرجعة إليها ، فتكون مشغولاً بالأمل عن تصحيح العمل .

واعلم : أن البواعث على الخيرات الأخروية ثلاثة :

[الأول] : الرغبة في ثواب الله والخوف من عقاب الله ، وذلك منزلة العامة .

والثاني : رجاء حمده وخوف ذمه ، وذلك منزلة الصالحين .

والثالث : طلب مرضات الله عز وجل ، وذلك منزلة النبيين والصديقين والشهداء ، وهي أعزها وجوداً .

ولذلك قال العارفون : أفضل ما يتقرب به العبد إلى الله سبحانه وتعالىٰ . . أن يطلع علىٰ قلبه وهو لا يريد من الدنيا والآخرة غير الله عز وجل .

وتمام الكلام علىٰ هـٰذا يأتي إن شاء الله عز وجل . [انتهىٰ] .

وقال السلمي : قال حاتم : مَن أصبح مستقيماً في أربعة أشياء . . فهو يتقلب في رضا الله سبحانه وتعالىٰ :

المعرفة بالله ، والتوكل عليه ، والإخلاص ، والثقة بالله .

والأشياء كلها لا تتم إلا بالمعرفة .

وقال حاتم رحمه الله : الواثق بربه سبحانه وتعالىٰ لا يفرح بالغنىٰ ، ولا يهتم بالفقر ، ولا يبالي أصبح في عسر أو يسر .

وأصل الطاعة ثلاثة أشياء : الخوف ، والرجاء ، والحب .

وأصل المعصية ثلاثة : الكبر ، والحرص ، والحسد .

وقال : النصيحة للخلق إذا رأيت إنساناً عاملاً في الحسنة . . أن تخشىٰ عليه ، وإذا رأيته عاملاً في المعصية . . أن ترحَمه . [انتهىٰ« الطبقات » ٩٤ـ٩٥] .

وسئل محمد بن الفضل عن علامة محبة الله عز وجل فقال : أول المحبة أربع خصال :

- دوام ذِكر الله عز وجل بالقلب واللسان .

- والفرح بالله عز وجل ، والأنس به سبحانه وتعالىٰ .

- وترك كل قاطع يقطع عن الله عز وجل .

- وإيثار محبته علىٰ كل محبة حتىٰ لا يجد في القلب إلا محبة الله عز وجل ، ولو أن الناس علموا لذة حب الله سبحانه وتعالىٰ . . لقلَّت مطاعمهم وقرارهم وكلامهم ؛ لأن حب الله يعمي ويُصِمُّ .

وقال يوسف بن أسباط رحمه الله في مرضه لأخ له في الله : يا أبا عبد الله ؛ إذا مِتُّ . . فقل لإسماعيل بن دانة يغسلني ، قال : فقلت له : إسماعيل ليس من أصحابك ، أيش تريد بهٰذا ؟ قال : نعم ، دخلت الحمام ، فخدمني ، فلم أكافئه ، وأنا أعلم أنه يحب أن يكون ممن يغسلني ، فيكون هٰذا مكافأة لما كان منه .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : روي عن الحارث بن أسد المحاسبي رحمه الله أنه قال : قصدني مريد لي ليتأدب بالطريقة ، فآثر المجاهدة الصادقة طمعاً في نيل المحبة الصافية ، وبقي عليها زماناً ، ثم سمعته يوماً يقول لإخوانه : كل شيء يرجى العمل فيه . . يرجى الفراغ منه ، إلا المحبة ، كلما اجتهد فيها العامل . . تضاعف عليه العمل :

لي حبيب أُجِلُّهُ ... أتراني أُدِلُّهُ(1)

لك جسمي تعله ... فدمي لِمْ تحله ؟!

قال : إن كنت مالكاً ... فلِيَ الأمرُ كلُّه

وقال الحارث بن أسد المحاسبي رحمه الله : المحبة : مَيلُك إلى الشيء بكليتك ، ثم إيثارك له علىٰ نفسك وروحك ومالك ، ثم مراقبتك له سراً وجهراً ، ثم علمك بعد هٰذا كله بأنك في التقصير منغمس . [انتهىٰ] .

وقال السلمي في « الطبقات » : قال الحارث بن أسد : خيار هٰذه الأمة : الذين لا تَشغَلهم دنياهم عن آخرتهم ، ولا آخرتهم عن دنياهم فيما لا بد منه .

---

(1) في بعض النسخ : (أذله) .

وأنشد قوَّالٌ بين يدي الحارث رحمه الله :

أنـــا فـــي الغـــربـــة أبكـــي ... مـــا بكـــت عيـــنُ غـــريـــبِ
لـــم أكـــن يـــوم خـــروجـــي ... مـــــن بـــــلادي بمصيـــــب
عجبـــاً لـــي ولتـــركـــي ... وطنـــاً فيـــه حبيبـــي

فقام يتواجد ويبكي حتىٰ رحمه كل من حضره .

وقال : الذي يبعث العبد على التوبة : ترك الإصرار ، والذي يبعثه علىٰ ترك الإصرار : ملازمة الخوف .

وقال : إذا لم تسمع نداء الله عز وجل . . كيف تجيب داعي الله عز وجل ؟ !

وقال : الظالم نادم وإن مدحه الناس ، والمظلوم سالم وإن ذمه الناس ، والقانع غني وإن جاع ، والحريص فقير وإن ملك .

وسئل : مَن أقهرُ الناسِ لنفسه ؟ فقال : الراضي بالمقدور . [انتهىٰ « الطبقات » ٥٨ـ٦٠] .

وقال في « بهجة الأسرار » : ومِن آدابهم ألا يسألوا إلا عند الضرورة الزائدة وبقدرها .

وقد قال العارفون رحمهم الله : الفقير إذا اضطر إلى السؤال . . فكفارته صدقه .

ومنهم مَن كره السؤال لنفسه واستحسنه للإخوان ، كما تقدم في ترجمة أبي حفص الحداد النيسابوري رحمه الله .

وقد حكي عن ممشاذ الدينوري : أنه كان إذا ورد عليه الغرباء . . دخل السوق ، وجمع من الدكاكين شيئاً ، وحمل إليهم ، ولا يعدون ذلك سؤالاً ؛ لأنه من باب التعاون بالبر والتقوىٰ .

ويستحب بذل الجاه للإخوان ، قال بعض المشايخ : لا يصح الفقر حتىٰ يبذل جاهه كما يبذل ماله ، وقد تقدم كلام سهل التستري في ذلك في ترجمته .

وأدب الخادم في السؤال : ألاَّ يرىٰ نفسه في الأخذ ولا في العطاء .

وقال الإمام محمد ابن الإمام أبي بكر الرازي رحمه الله : أما علم اليقين : فهو ما حصل عن نظر واستدلال ، وعين اليقين : ما حصل عن العِيان ، وحق اليقين : ما حصل عن المباشرة مع العِيان .

ألا ترىٰ إلىٰ قول الأستاذ أبي القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ : علم اليقين : ما كان بشرط

البرهان ، وعين اليقين : ما كان بحكم البيان ، وحق اليقين : ما كان بنعت العيان ، فعلم اليقين لأرباب العقول ، وعين اليقين لأصحاب العلوم ، وحق اليقين لأصحاب المعارف[1] .

وقال بعض العارفين : مَن شهد البلاء من المبتلي سبحانه وتعالىٰ . . غاب برؤيته عن مرارة وجدان البلاء وصعوبته ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ .

حكي : أن ذا النون رحمه الله عاد مريضاً ، فأنَّ أنَّة ، فقال ذو النون : ليس بصادق في حبه مَن لم يصبر علىٰ بلائه ، فقال المريض : ليس بصادق في حبه مَن لم يتلذذ ببلائه ، ألا ترىٰ أن صويحبات يوسف عليه الصلاة والسلام لما رأينه كيف غبن عن وجدان ألم القطع ، ولم يشعرن بذلك إلىٰ أن غاب عنهن ؛ قال تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ .

وقيل لبعض الشُّطَّار[2] : متىٰ يهون عليكم القطع والضرب ؟ فقال : إذا كنا بعين من نهواه . . فنعد البلاء رجاء ، والجفاء وفاء ، والمحبة نعمة ومنحة .

ألا ترىٰ إلىٰ هٰؤلاء كيف يهون عليهم تحمل البلاء في رؤية محبوبهم ، وكيف يتلذذون ويفتخرون به ، وهٰكذا كل من يكون صادقاً في دعواه ومحققاً في بلواه ، لا يؤثر فيه تغير الزمان ، ولا طوارق الحدثان .

حكي : أن جماعة دخلوا على الشبلي وهو في المارستان ، فقال لهم : مَن أنتم ؟ فقالوا : محبوك ، فرماهم بالحجارة ، فهربوا ، فقال : يا كذابين ؛ تدَّعون محبتي ولا تصبرون علىٰ ضري ؟ ابعدوا عني .

وقال أبو محمد الجريري رحمه الله : البلاء علىٰ ثلاثة أوجه : على المخلطين نقم[3] وعقوبات ، وعلى التائبين تمحيص الجنايات ، وعلى الصديقين رفع الدرجات .

وأنشدوا :

ذل الفتىٰ في الحب مَكْرُمةٌ ... وخضوعه لحبيبه شرفُهْ

وقال في « بهجة الأسرار » : قال بعض العارفين رحمه الله : إن هٰذا الأمر ليس مما

---

(١) الرسالة القشيرية (٧٤) .

(٢) **الشاطر عند أهل التصوف** : المسرع إلى الله .

(٣) في بعض النسخ : (على المخلصين نعم وعقوبات ، وعلى التائبين تمحض الجنايات . . .) .

يوصل إليه بهٰذه الحيل والأسامي ، فقيل له : بماذا يوصل إليه ؟ فضرب يده علىٰ سارية عنده ثم قال له : هٰذه السارية تضر أو تنفع ؟ قال : لا ، فقال : إنما يصل العبد إليه إذا خرج الناس من قلبه ، فكانوا عنده مثل هٰذه السارية لا تضر ولا تنفع ـ كما هو الواقع ـ فإذا قال العبد عند ذلك : يا رب . . قال الله عز وجل : لبيك عبدي .

وقال أبو حمزة رحمه الله : مِن كلام الأبرار : مَن عمل بما يعلم . . وفق لعلم ما لم يعلم ، ومَن ذاق حلاوة عمل . . صبر علىٰ تجرع مرارة طرقه ، ومَن وجد منفعة عمل . . بادر إلى الزيادة منه ، ومَن صفت فكرته واستلذ خلوته . . استوحش مِن كل مَن يشغله ، ومَن يتوكل على الله . . فهو حسبه .

وقال سفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك وجماعة من العارفين رحمهم الله : كان العلماء يكتب بعضهم إلىٰ بعض الوصية بهٰذه الكلمات : مَن أصلح ما بينه وبين الله . . أصلح الله ما بينه وبين الناس ، ومَن أصلح سريرته . . أصلح الله علانيته ، ومَن عمل لآخرته . . كفاه الله أمر دنياه . [انتهىٰ] .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : قال إبراهيم الخواص : رأيت جارية بالبصرة زادُها التوكل ، فقلت لها : أرشديني ، فقالت : يا أبا إسحاق ؛ أحسن الظن بالمولىٰ سبحانه وتعالىٰ لتفوز بالمنىٰ ، ثم اللقاء ؛ فإن الكريم سبحانه وتعالىٰ يعطي ما لا عين رأت ولا أذن سمعت .

فسألتها الزيادة ، فقالت : ما كل بدن يصلح لخدمته ، ولا كل قلب يصلح لمعرفته ، أتىٰ آدم عليه الصلاة والسلام منهياً ، وترك إبليس ـ عليه اللعنة ـ مأموراً ، ولٰكن لما كان آدم عليه الصلاة والسلام يصلح للخدمة . . اعتذر عنه مولاه جل جلاله فقال : ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ ، وأما إبليس ـ عليه اللعنة ـ فإنه لما لم يصلح للخدمة . . قال الله تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ وأنشدوا :

حتىٰ متىٰ مقلتي تذوبُ ... وليس لي منكمُ نصيبُ
قد كنت أشكو فما تجيبوا ... ما هٰكذا يفعل الحبيب
صُدِدتُ لما ضنيت حتىٰ ... أتوبَ عنها ولا أتوبُ
من لم يكن للوصال أهلاً ... فكل إحسانه ذنوب

وقال في « بهجة الأسرار » : قال إبراهيم الخواص : رأيت شاباً في الطواف ، متزراً

بعباءة ، متشحاً بأخرىٰ ، كثير الطواف والصلاة ، فوقع في قلبي محبته ، ففتح عليَّ بأربع مئة درهم ، فجئت بها إليه وهو جالس خلف المقام ، فوضعتها علىٰ طرف عباءته ، وقلت له : يا أخي ؛ اصرف هٰذه القطيعات في بعض حوائجك ، فقام وبددها في الحصا ، وقال : يا إبراهيم ؛ اشتريت هٰذه الجلسةَ من الله عز وجل بسبعين ألف دينار سوى الضِّياع ، تريد أن تخدعني بهٰذا الوسخ ؟! قال إبراهيم : فما رأيت أذل من نفسي وأنا أجمعها من بين الحصا ، وما رأيت أعز منه وهو ينظر إلي ، ثم قام وذهب ، رحمه الله .

وقال إبراهيم رحمه الله : لم يُؤْتَ الناس من قلة الندم والاستغفار ، ولٰكنهم أُتوا من قلة الوفاء بالعهد ، وتصحيح التوبة بترك الرجوع عما ندموا عليه وتابوا منه ، والصدق : هو القيام بحقوق الله سبحانه وتعالىٰ ، والوفاء بها عند مواقع الأعمال .

وقال أحمد بن فضلان الرازي رحمه الله : ورثت من والدي مئة ألف درهم وزيادة ، ففرقتها في أسبوع ؛ مخافة أن يشتغل قلبي [بها] ، إلا عشرة دراهم كانت قد بقيت من الجملة ، فأفقت مِن وجدي ، وجاءني العلم ، فلقيت إبراهيم الخواص ، فحدثته ، فقبَّل بين عيني وقال : هل وقفت علىٰ فترتك إذ فترت ، ورجعت من الوجد إلى العلم في العشرة دراهم ؟ فقلت : لا يا أستاذ ما علمت ، فقال : لَتناولك ذلك المال أحب ، ثم ضحك وقال : فديت يداً كانت عقوبتها رجوعها من الوجد إلى العلم ، ثم أنشأ يقول :

إذا افتقروا عضوا على الصبر حسبة وإن أيسروا عادوا سراعاً إلى الفقرِ

وقال إبراهيم الخواص رحمه الله : هٰذا العلم ـ يعني : علم المعرفة ـ لا يصلح إلا لمن يعبر عن وجده ، ويخبر عن نعته ، وينطق عن فعله ، ويتكلم عن صفاء سره ؛ ليكون حكماً لهم ، إلىٰ أسرار المعرفة داعياً ، وإلىٰ سُبل دقائق المحبة حادياً ، يزعجهم لتجديد حوادث الشوق ، ويهيجهم إلىٰ بواعث قواتل المحبة . [انتهىٰ] .

وقال في « اللوامع » : قال أبو جعفر رحمه الله تعالىٰ : رأيت زرقاء المغنية في الطواف تبكي بكاء شديداً ، فقلت لها : اشتغلي بالنسك والتقرب ؛ فإن الله عز وجل يعفو ويغفر ، فقالت : نعم ، إنه سبحانه وتعالىٰ يغفر ويعفو ، ولٰكن لي ذنوب سارت بها الركبان ، واطلع عليها الملك الديان جل جلاله ، وشهد بها الملكان ، وكنت أشتهي أن أجد للطاعة لذة كما وجدت للمعاصي لذة ، فقلت : أنت في حرم الله سبحانه وبيته ، ومَن دخله كان آمناً ، والمملكة واسعة ، والخلق كلهم عبيده ، وما عسىٰ أن تكون ذنوبك في جنب عفوه

سبحانه ؛ فإنها لا شيء عند ذلك ، فقالت : صدقت ، وعزتِهِ وجلاله ؛ إني لا أملك غير هٰذه الحِجة ، ولو أمرني أن أهبها لبعض عبيده مع شدة حاجتي إليها . . لوهبتها ، وحاشا كرمه سبحانه عن ألاَّ يهب لي جرمي ويغفر لي ذنبي ، ثم قالت :

أمـــوت إذا بعـــدت دارُهـــا وأحيـــا إذا أنـــا لاقيتُهـــا
وأقســـم لـــو أن مـــا بـــي بهـــا وكنـــت الطبيـــبَ لـــداويتهـــا

فلم يبق طرف إلا بالدموع أقرحته ، ولا قلب إلا بالهموم والأحزان أحرقته .

وقال أبو طاهر : إن لله عز وجل عباداً أحبوه فتكلموا عنه ، واستحيوا منه أن يسألوه شيئاً سواه سبحانه وتعالىٰ .

وقال الجريري : أدنىٰ أوصاف الموقنين . . عيش القلب مع الله عز وجل بلا علاقة .

وقال محمد بن الفضل السمرقندي رحمه الله : ما خطوت أربعين سَنة خطوة لغير الله عز وجل ، وأربعين سنة ما نظرت في شيء لغير الله ؛ حياء من الله سبحانه وتعالىٰ ، وثلاثين سَنة ما أعلم أنه كتب عليَّ خطيئة .

وقال خيرٌ النساجُ رحمه الله : قلت لأبي العباس المؤدب رحمه الله يوماً : لِمَ لا تفرح بالناس ؟ فقال : ما عرفت نفسي ساعة قط فأفرح بها ، فكيف أعرف الناس أو أفرح بهم ؟! ولـٰكنك تجدني أعظِّم مَن كان لأمر الله عز وجل مُجِلاً ، ولحرماته معظماً ، وعليه معتمداً ، فيؤدبني الله عز وجل بذلك ، ويفيض عليَّ من نور بركته وعرفانه .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (دخلت علىٰ عمرو بن العاصي وهو محتضر وعنده ابنه عبد الله ، فقال : يا عبد الله ؛ خذ ذلك الصندوق ، فقال : لا حاجة لي فيه ، فقال : إنه مملوء مالاً ، فقال : لا حاجة لي فيه ، ليته مملوء فقراً ، فقال ابن عباس : فقلت : يا عمرو ؛ كنت تقول : أشتهي أن أرىٰ رجلاً عاقلاً يموت فأسأله كيف تجد ، فكيف تجدك ؟ فقال عمرو : أرى السماء كأنها منطبقة على الأرض وأنا بينهما ، وكأنما أتنفس من خرم إبرة ، ثم قال : اللهم ؛ خذ مني حتىٰ ترضىٰ ، ثم رفع يده فقال : اللهم ؛ إنك أمرتَ فعصيتُ ، ونهيتَ فارتكبتُ ، اللهم ؛ فلا براءة لي فأعتذر ، ولا قوة لي فأنتصر ، ولـٰكن لا إلـٰه إلا الله ـ ثلاثاً ـ ثم مات) .

وقال مسلم بن يسار رحمه الله : مرضت فلم يكن في عملي شيء أوثق في نفسي من قوم كنت أحبهم في الله عز وجل .

وروي : أن إبراهيم بن أدهم رحمه الله قال : دخلنا علىٰ بعض العُبَّاد نعوده ، فجعل يتنفس ويتأسف ، فقلت له : علامَ تأسفك رحمك الله ؟ فقال : ما تأسُّفي على البقاء في دار الأحزان والهموم والخطايا والذنوب ، ولـٰكن تأسفي علىٰ ليلة نمتها ، ويوم أفطرته ، وساعة غفلت فيها عن ذِكر الله سبحانه وتعالىٰ ، ولـٰكن يا أخي ؛ إن وقع في هـٰذا تقصير . . لم يقع في التوحيد ـ والحمد لله ـ تقصير ، ما عبدت غيره ، ولا رجوت سواه ، ولم يسكن في قلبي محبةُ غيره سبحانه وتعالىٰ .

وسئل أبو محمد الجريري رحمه الله عن معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ فقال : إن مَن اختصه الله سبحانه وتعالىٰ . . يجعل له إشرافاً علىٰ ما يحدث من الأمور ، فلما ولد عيسىٰ عليه الصلاة والسلام . . أشرفت أمه الصدِّيقة عليها السلام علىٰ ما يجري عليه من أن يُتَّخَذَ إلـٰهاً يُعبد ، فغمَّها ذلك وأحزنها ؛ إذ يكون منها ما يُتَّخذ إلـٰهاً فقالت : ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ أي : لم أحمل مَن يُتَّخذ إلـٰهاً ، فأنطق الله عز وجل عيسىٰ عليه الصلاة والسلام بالتوحيد ، فقال : ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾ فلا تدَّعوا فيَّ الإلـٰهية .

وقال أبو سعيد الخراز رحمه الله : حدثني بعض العلماء قال : بينما يحيى بن زكريا وعيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام يسيران ؛ إذ تكلما في العلم ، فصاح يحيىٰ وقال : إن لله عز وجل عباداً إذا ذكروا عظمة الله عز وجل . . طاشت عقولهم ، وكادت أن تنخلع أوصالهم ، فقال عيسىٰ عليه الصلاة والسلام : إن لله عز وجل عباداً ألطف من هـٰؤلاء وأسكن ؛ إذا ذكروا الله سبحانه وتعالىٰ . . لا يصيبهم ما ذكرت ؛ لأنهم يشاهدون ويسمعون منه جل جلاله ، فقال يحيىٰ : لقد شفيتَ حزني .

وقال أبو إسحاق : جئت إلىٰ أبي محمد الجريري رحمه الله وأنا حدث السن ، فسألته عن مسألة ، فعض علىٰ شفته كالناهي لي عن ذلك ، فعدت لمسألتي ، ففعل مثل ذلك مرتين أو ثلاثاً ، ثم قال : يا بني ؛ الجلوس للمذاكرة علىٰ باب الفائدة لله عز وجل ، والجلوس للمناصحة لله عز وجل هو الذي يفتح باب الفائدة ، معك من هـٰذا شيء ، وإلا . . فاسكت .

وسئل بندار بن الحسين رحمه الله عن الفرق بين المحبة والحياء فقال : المحبة : رغبة ، وهي زعجة ، والحياء : خجلة ، والمحب طالب غائب ، والمستحيي حاضر ، وبينهما فرق ؛ لأن المحبة تصح مع الغيبة ، والحياء يصح مع المشاهدة ، فشتان ما بين غائب غريب وحاضر قريب .

وقال في « **اللوامع** » : سمع الإمام الأستاذ أبو سهل الصعلوكي رحمه الله قارئاً يقرأ : (قل هو الله أحد) ، فقال : هـٰذه بروق لوامع لا تضبطها الأقلام ، ولا تدركها الأفهام ، لمع برق قريب من الأسرار بعيد من النظَّار ، مَن عرف اللهَ عز وجل . . كَلَّ لسانه وقَلَّ بيانه ، مَن عرف الله سبحانه وتعالىٰ . . شغله به ، وقطعه عن الكل ، وأفرده عن الالتفات إلىٰ سواه ، وقطعته هيبته الإلـٰهية عن مطالعات الغيوب ، مَن عرف الله سبحانه وتعالىٰ . . لم يبق له سؤال ولا مقال ، مقالته أقلامه ، ودمعه كلامه .

وقال إبراهيم بن شيبان رحمه الله : سألت أبا عبد الله المغربي رحمه الله عن أهل المحبة فقال : هم علىٰ ثلاثة منازل :

ـ قوم يصرفهم عن البلاء ؛ لئلا يستغرق الجزع صبرهم ، فقد يجدون في صدورهم حرجاً من ذلك البلاء .

ـ وقوم يصرفهم عن مساكنة أهل المعاصي ؛ لئلا تغتم قلوبهم فتسلم صدورهم للمعالِم .

ـ وقوم صب عليهم البلاء صباً وصبَّرهم وارتضاهم ، فما ازدادوا بذلك إلا حباً له جل جلاله ، ورضىً وتسليماً لحكمه وقضائه ، فأوجدهم نعتاً بلا منعوت ، ومعنىً بلا لفظ ، فأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ، وفتح عليهم باطن علمه وظاهره ، وخمل[1] ذِكرهم بين عباده ، فإن وردوا البحار . . أعطاهم نفائسها فضلاً ، وإن سكنوا الجبال . . تطأطأت لهم محلاً سهلاً .

وأنشدوا :

وما كان لي ذنبٌ إليهمْ عهدتُه　　　سوىٰ أن لي قلباً يتيه بهم عُجْبا

وقال أبو محمد : كان مِن أصحابنا رجل لا يفتر لسانه أن يقول : الله ، الله ، فوقع يوماً علىٰ رأسه جذع في المسجد شج رأسه ، وسال دمه على الأرض ، فرأيناه وقد كتب على الأرض : الله ، الله .

وقال الإمام أبو بكر الزقاق رحمه الله : لو أن المعاصي شيء أنا اخترتها لنفسي . . لما ساءني ذلك ؛ لأن ذلك يشبهني ، وإنما انقصم ظهري إذا كان هـٰذا حظي منك ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

---

(١) في نسخة : (جَمَّل) .

وقال الزقاق رحمه الله : كنت جالساً في مسجد الشونيزي ، فدخل عليَّ بعض أصحابنا ، فذاكرته شيئاً مِن هـٰذا العلم ، فقال لي : يا أبا بكر ؛ هـٰذا علم النجاة ، كم ممن سمع منا هـٰذا العلم فنجا به وبقينا نحن ؟ أو كما قال .

وسئل السَّريُّ رحمه الله عن معنى الخبر : (تفكر ساعة خير من عبادة سَنة[1]) فقال : تُحل أطناب خيمته في الدنيا بشده في الآخرة .

واتفق العارفون علىٰ أن رؤية النفس وأفعالها من أضر ما عليها ، وأشدُّ من ذلك مطالعة الأعواض عن أفعالها .

وقال ممشاذ الدينوري رحمه الله : اجتمعت بجماعة من المشايخ عند شيخ في ليلة ، فاشتغلت بخدمة ذلك الشيخ عن وِردي في تلك الليلة ، فلما أصبحنا . . جئت مع الجماعة إلىٰ يحيى بن الجَلاَّء ، فبكَّر يحيىٰ بي وبالجماعة إلىٰ شيخ في بعض الضياع لزيارته والتبرك به ، فقال ممشاذ : وما كنت أدخل علىٰ شيخ إلا وأنا خالي عن جميع حالي ومالي ، أنتظر مع ذلك بركات الشيخ ، فلما دخلنا وسلمنا . . قال لي الشيخ : يا ممشاذ ؛ ما أقبح الغفلة بك عن طاعة مَن لا يغفل عن برك ، وما أقبح الغفلة بك عن ذِكر مَن لا يغفل عن ذكرك ، فنوديت في سري : إن هـٰذا تأديب لي علىٰ ترك وِردي البارحة ، فلم أعد إلىٰ مثلها .

وقال في « اللوامع » : كانت رابعة تقول : مقام المحبة أشرف من مقام الخَلة ؛ لأن المحبة تكون من غير مكافأة ، والخَلة لا تكون إلا عن مكافأة وإن كانت الخلة هي انزعاج يتخلل الأنفاس والأرواح والشغاف ، وأنشدت :

قد تخللتَ مسلك الروح مني ... وبذا سمي الخليل خليلا
فإذا ما نطقتُ كنتَ حديثي ... وإذا ما سكتُّ كنتَ الغليلا

وقال في « بهجة الأسرار » : عن أبي خليفة قال : كان جعفر بن سليمان الهاشمي بالبصرة له غلة كل يوم ثمانين ألف درهم ، فبعث إلىٰ علماء أهل البصرة يستشيرهم في امرأة يتزوجها ، فأجمعوا علىٰ رابعة العدوية ، فكتب إليها :

بسم الله الرحمـٰن الرحيم .

أما بعد : فإن الذي هو ملكي من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم ، وليس يمضي إلا قليلٌ

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (١/١٣٦) موقوفاً علىٰ أبي الدرداء رضي الله عنه .

حتىٰ أتمها مئة ألف إن شاء الله عز وجل ، وأنا أخطبك إلىٰ نفسي ، وقد بذلت لك من الصداق ثلاث مئة ألف ، وأنا أرسل إليك مِن بعدها أمثالها ، فأجيبيني .

فكتبت إليه : بسم الله الرحمـٰن الرحيم .

أما بعد : فإن الزهد في الدنيا . . راحة القلب والبدن ، والرغبة فيها تورث الهَمَّ والحزن ، فإذا أتاك كتابي هـٰذا . . فهيء زادك ليوم فقرك وحاجتك ، وقدم لمعادك ؛ لتحيا حياة طيبة ، وكن وصي نفسك ولا تجعل وصيَّك غيرَك ، وصم دهرك ، واجعل الموت فطرك ، فما يسرني ـ والله الذي لا إلـٰه إلا هو ـ أنَّ الله عز وجل خولني أضعاف ما خولك ، فيشغلني به عنه سبحانه طرفة عين . والسلام . [انتهىٰ] .

وقال في « اللوامع » : قال ذو النون رحمه الله : رأيت بأرض التِّيه غلاماً أسمر ظاهر النور ، مهيب المنظر ، ملازماً للصلاة ، يبكي ليله ونهاره ، فسألته عن حاله فلم يجبني ، فتركته مع وقته وفارقته ، فلما كان بعد ذلك بسنين . . جزت بالموضع ، فرأيته ، فسألته عن حاله فقال : يا ذا النون ؛ هـٰذا موضع ابتداء إرادتي ، وأنا أتذكر أيام مجاهدتي وأندبها ، وأتحسر علىٰ مواضع دهري وأحسبها ، فقد ضيعت قلبي وخلطت سري .

قال ذو النون : فاستحييت من تقصيري ، ونويت تجديد توبة واستئناف عهد فيما بيني وبين الله عز وجل ، وسافرت إلىٰ مكة شرفها الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال أبو حامد : ما زلت أحب الفقراء وأنفق عليهم ، فتبعتهم يوماً إلىٰ مجلس عالم ، فرأيت في المجلس شخصاً تتمنى النفس دوام النظر إليه وهو يبكي ، وكلما سمع الواعظَ والقارىءَ . . يقول : الله ؛ الله ، فلم تنقطع له دمعة ، فتعجبت من تواكف عبراته ، وترادف زفراته ، فسألت بعض الفقراء عنه فقال : إنه تائب غزير الدموع ، كثير السجود والركوع ، رقيق القلب ، عظيم الحب .

فبينما نحن كذلك ؛ إذ قرأ القارىٰء قوله تعالىٰ : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ ، فقام شاهقاً وهو يقول : سيدي ومولاي ؛ خاب مَن في قلبه غير ذِكرك ، وهل في الأكوان غيرك حتىٰ يُذكر ؟! تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام ، لا إلـٰه إلا أنت برحمتك أستغيث .

وقال بعض العارفين ـ وكان قد ابتلي ـ لبعض أصحابه : هل ترىٰ علىٰ ظاهر جسدي موضعاً خالياً من الدود غير اللسان ؟ فقال : لا ، فقال : كذلك ليس في داخل جسدي موضعاً خالياً من الدود غير القلب .

واعتل ممشاذ الدينوري رحمه الله فقيل له : كيف تجد العلة ؟ فقال : سلوا العلة كيف تجدني ؟ فقيل له : فكيف تجد القلب ؟ فقال : فقدت قلبي منذ ثلاثين سنة .

وقال بعض العارفين رحمهم الله : مَن سأل وله ما يغنيه . . خاصمه كل الفقراء يوم القيامة ، قالوا : أخذت ما كان لنا . . فلم تكن منا .

وسئل أبو عثمان المغربي رحمه الله عن الإخلاص فقال : هو ما لا يكون للنفس فيه حظ بحال ، وهٰذا إخلاص العوام ، وأما إخلاص الخواص : فهو ما يجري عليهم لا بهم ، فتبدوا منهم الطاعات من غير رؤية منهم لها ، وهم عنها بمعزل ، فلا يقع لهم عليها رؤية ولا بها اعتداد .

كما وقع لسيدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو على المنبر : (يا سارية بن حصن ؛ الجبل الجبل) وقد تقدم في ترجمته .

وسئل بعض العارفين عن معنىٰ قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ قال : يملي لهم من النعم ، ويمنعهم من الشكر .

وقال العارفون : الدنيا مزرعة الآخرة وغنيمتها ، ونعم المطية هي للمؤمن ، عليها يرتحل إلىٰ ربه عز وجل .

وقُدِّم بعضهم يوماً ليصلي إماماً ، فامتنع ، فقيل له في ذلك ، فقال : ذكرت عند قولي للمأمومين : (استووا رحمكم الله) : أنه يقال لي : هل استويت لي طرفة عين حتىٰ يستوي غيرك ؟!

ومنهم مَن علل بأنه قال : نظرت كأنه يقال لي : إن لم يعرفك هٰؤلاء . . أليس أعرفك أنا ؟!

ومنهم مَن علل بأني أفكرت في أن المارين يقول أحدهم : إنما قدموا هٰذا ؛ لأنه خيرهم ، فخشيت أن يقال ذلك فيكون كذباً .

وقال أبو عبد الله عمر بن عثمان بن غضنفر المكي رحمه الله : المحبة داخلة في الرضا ، ولا محبة بلا رضا ، ولا رضا بلا محبة ؛ لأنك لا تحب إلا ما ترضىٰ ، ولا ترضىٰ إلا ما تحب ، وسماع كلام المحبوب مِن ألذ النعم ، وإيثار رضاه شفاء السقم .

وروي : أن بعض الشباب كان يهوىٰ شخصاً ، فقال ذلك الشخص لجماعة : إن فلاناً إذا قعد معي . . لا يسمع ولا يبصر ، فحضر جماعة وهو فيهم ، فوجدوا صحة القول ، فقيل

للمحب في ذلك فقال : إني أدهش حال نظري إليه من الفرح به ، فكل شيء أراه . . أرىٰ شخصه فيه ، وكل صوت أسمع . . فكأنه منه ، فله أسمع ، وله أبصر ، وأستحي منه أن يراني وقد أبصرت غيره أو سمعت من غيره .

وقال أبو بكر محمد بن عمر الوراق الترمذي رحمه الله : حقيقة المحبة : مشاهدة المحبوب علىٰ كل حال ؛ فإن الاشتغال بالغير حجاب ، وأصله التسليم واليقين ، فإنهما يبلغان به إلىٰ درجة المتقين ، ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴾ .

وقال : للمحبة أربع علامات : أن يكون كلامه ذِكراً للمحبوب ، وصمته تفكراً فيه ، وعمله طاعة له ، ونظره عبرة في صنائعه .

وأصل ذلك : اليقين بما عنده ، والقطع عن الأغيار .

وقال بعض العارفين : مَن احتجت إلىٰ شيء من علومه . . فلا تنظر في عيوبه ، فإن نظرت في عيوبه . . حرمت بركة الانتفاع بعلومه .

واعلم : أن الدنيا دار أسست على البلوىٰ ، فعدم البلوىٰ فيها محال .

وقال بعضهم : الأدب تَرجُمان العقل ، وينبغي للصادق في سلوكه أن يجعل كتابَه قلبَه ، وأنشد :

سقتك بكأسها المملوءِ سلمىٰ ... فما ـ وأبيك ـ بعد اليوم تظما[1]
وأحضَرَكَ النديمُ علىٰ ندامىٰ ... يريك الِاسم من غير المسمىٰ

وسمع بعضهم منشداً يقول :

أسائل عن ليلىٰ فهل مِن مخبِّرٍ ... يكون له علم بها أين تنزلُ

فصاح وخر مغشياً عليه وقال : لا والله ؛ ما في الدارين عنه مخبِّر .

وقال الحارث بن أسد المحاسبي رحمه الله : أول بلية العبد . . تعطيل القلب من ذِكر الآخرة ، فحينئذ تحدث الغفلة في القلب .

وسئل : ما حقيقة حذر العبد من الله سبحانه وتعالىٰ ؟ فقال : ألاَّ يضيِّع واجب حقه ، وألاَّ يرتكب ما حرمه الله سبحانه وتعالىٰ .

---

(١) في نسخة : (فما رأيتك بعد اليوم تظما) .

وقال أبو سعيد الخراز رحمه الله : إذا خرست الألسن عن الأذكار.. نطقت القلوب بالاستغفار .

وقال في « اللوامع » : روي أن بعض المشايخ غسل ميتاً من المريدين ، فضحك الميت في غسله ، قال : فقلت : سبحان الله! أحياة في الدنيا بعد الموت ؟! فقال : يا شيخ ؛ إني قتيل سيوف الشوق إلى الحبيب سبحانه وتعالىٰ ، ثم قرأ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۢ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ ، ثم طُفِىء .

واعلم : أن المحب تارة يفرح بآثار الحبيب تذكُّراً للحبيب ، وتارة يبكي آثار الحبيب تأسفاً على الحبيب .

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : خصلتان مَن كانتا فيه.. رُجي خيره :

إنصاف الناس من نفسه ، ومواساة الإخوان .

وقال مالك بن دينار رحمه الله : مَن أحب شيئاً.. بقي مع محبوبه ، ومَن أحب الآخرة.. بقي معها ، ومَن أحب الله عز وجل.. بقي معه جل جلاله ولا إلـٰه غيره ، وأربحهم : مَن أحب الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال أيضاً وقد سئل كيف الطريق إلى المالك الحبيب عز وجل فقال : الطريق صعب ، غير أن أول الأمر مبني على الصبر والبكاء ، وأوسطه على الخوف والرجاء ، وآخره على التسليم والرضا ، ثم المالك الحبيب سبحانه وتعالىٰ يفعل ما يشاء .

وقال الحارث بن أسد المحاسبي رحمه الله : الخلق كلهم معذورون في العقل مأخوذون في الحكم . [انتهىٰ] .

وقال في « بهجة الأسرار » : قال سري السقطي رحمه الله : كان يصحبنا شاب ، وكان يكثر من كتابة الحديث وطلبه ، ففقدناه أياماً ، فسألت عنه ؛ فإذا هو قد لزم بيته ، فأتيناه في منزله ، فقلت له في ذلك ، فقال : كنت أُكثر من كتابة الحديث وطلبه كما رأيتموني ، فرأيت في المنام قائلاً يقول لي : إلىٰ كم تضيع العلم ضيعك الله ؟! فتركت الطلب والكتابة ، فأنا أنظر فيه للعمل .

وقال بعض العارفين : قد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يكن أحدكم كالعبد السوء ؛ إن خاف.. عمل ، ولا كالأجير السوء ؛ إن لم يعط أجره وافياً.. لم يعمل » .

وروي : أن الله عز وجل أوحىٰ إلىٰ داوود عليه الصلاة والسلام : (إن الأحبَّاء إليَّ من عبادي . . من عبدني لغير نوال ، ولـٰكن عبدني ليعطي الربوبية حقها ، يا داوود ؛ إنما خلقت النار سياطاً لسوء عبادي ، أسوقهم بها إلىٰ خدمتي ، وخلقت الجنة لمتوسلي عبادي أوصلهم إلىٰ جنتي) .

وقال أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازي رحمه الله : حقيقة المحبة : مراعاة المحبوب في الغيبة والمشاهدة ، والقرب والبعد ، والهجر والوصل علىٰ صفة واحدة ، عالماً بأن المحبوب يراه[1] ، فيستحي المحب منه من أن يراه ينظر إلىٰ شيء سواه .

وقال بعض العارفين : ابتلينا بزمان ليس فيه آداب الإسلام ، ولا أخلاق الجاهلية ، ولا أحلام ذوي المروءة ، والتدبير والاختيار هو الذي كدر على الخلائق عيشهم .

وقال إسماعيل السلمي رحمه الله : منذ ثلاثين سنة لم أعقد بيني وبين الله عز وجل عقداً ؛ خوفاً من أن يبتليني في عقدي فيكذبني علىٰ لساني .

وكان أبو حفص العابد رحمه الله يقول : مَن رضي عن الله عز وجل . . قلَّت همومه ، ومَن استوطن المعرفة . . ذهبت عنه الوحشة ، ومَن مال إلى الآخرة . . صغرت عنده الدنيا ، ومَن أحب نفسه . . لم يؤثر بها غيره .

وكان يقول : نعَّمك بالأوجاع ؛ ليغسل عنك درن الخطايا والذنوب ، ويداويك بالأمراض ؛ لتبرأ من سقم الذنوب ، ويميتك ليحييك ، ويغنيك ليبقيك ، وإنما يمنعك ليعطيك ، يمنعك القليل الفاني ؛ ليعطيك الجزيل الباقي .

وقال بعض العارفين : العبادات مع مشاهداتها تقطع عن الرعايات ، والعبادات مع نسيان المنة والفضل تقطع عن الحراسات .

وقال أحمد بن عطاء رحمه الله : مطالعة الأعراض على الطاعات من نسيان رؤية الفضل ، ونسيان رؤية الفضل من نسيان الرب جل جلاله ولا إلـٰه غيره .

وقال أبو محمد الجريري رحمه الله : ثلاثة أشياء من صفات الأولياء :

الرجوع إلى الله عز وجل في كل شيء ، والفقر إلى الله في كل شيء ، والثقة بالله عز وجل في كل شيء .

(١) في بعض النسخ : (بأن المحبوب لا يراه) .

وسئل الدقاق رحمه الله عن حقيقة الفقر فقال : هو ألاَّ ترىٰ لك مِلْكاً ، ولا تستوحش لفقد السبب .

وقال بشر بن الحارث رحمه الله : تنقوا الإخوان ، فإذا وجدتم مَن يعينكم علىٰ أمر الآخرة . . فتمسكوا به .

وقال بشر : لأَن تكون جاهلاً خير لك من أن تكون عالماً ولا تعمل .

وقال أبو محمدٍ الجريري رحمه الله : يجب على الإنسان أن يفكر في صغره وفي كبره ، وفي طاعته وفي معصيته ، وفي جهله وعلمه ، وفي صدقه وكذبه ، وفي أيامه ولياليه ، وأعوامه وسائر ساعاته ، ويقعد بين يدي الله عز وجل ، ويكون قعوده فراراً مِن كل ما تسكن إليه النفوس ، فلا يشتغل بما يسمع ولا بما يعلم ، بل يكون فكره في بذل المجهود إلىٰ كل ما يوصله إلى الله سبحانه وتعالىٰ ، وهٰذه جلسة الصديقين رضوان الله عليهم أجمعين .

وقال بعض العارفين رحمهم الله : إن الرجل إذا جلس يعظ القوم . . ناداه ملكاه : يا عبد الله ؛ عظ نفسك بما تعظ به أخاك ، واستحْي من سيدك ومولاك جل جلاله ؛ فإنه يراك .

وكان الجريري رحمه الله يقول : لو رأيت مَن يهجرني لله عز وجل . . لوضعت خدي له .

وهٰذا نظير ما قاله بعض العارفين : لو علمت مَن يبغضني في الله عز وجل علىٰ حقيقة . . لأوجبت علىٰ نفسي حبه .

واعلم : أن التوبة مما لا تعلم . . تبعثك على التوبة مما تعلم ، والشكر علىٰ ما لا تعلم . . يبعثك على الشكر علىٰ ما تعلم ، والتوبة تطفىٰء النار ، والشكر يزلف الجنة .

وقال أبو بكر ابن طاهر رحمه الله : ما يعالج الخائفون لله عز وجل شيئاً أشد عليهم من تصحيح الإرادة في المخافة من الله عز وجل .

وقال ابن الجَلاَّء رحمه الله : سمعت أبا تراب رحمه الله يقول : إذا تواترت علىٰ أحدكم النِّعم . . فليبك علىٰ نفسه ؛ لأنه قد سُلك به غير طريق الصالحين .

وسئل بعضهم عن حقيقة الفقر فقال : هو انقطاع الحيلة . والله أعلم . [انتهىٰ] .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : روي أن بعضهم أحب شخصاً ، فبقي أكثر من شهر لم

ينعس ليلاً ولا نهاراً ، فقيل لمحبوبه ذلك ، فقال : حُق له ذلك ، لِمَ تعرض له المحبةُ ؟! فإن من شرط المحبة : تفطير الفؤاد ، ومداومة السهاد ، ومهاجرة الرقاد ، والشهرة بين العباد ، فسمع المحب ذلك فقال : كل هٰذا طيب مع بلوغ المراد ، فقال المحبوب : فيكون ذلك مكافأة مجازاة ، إنما المحبة تقطيع الفؤاد مع دوام العناد ، واليأس من المراد .

ولهٰذا أوجب الله سبحانه وتعالى الصبر على البلاء والشكر على العطاء على العامة ، وأوجب الشكر على البلاء والحذر على العطاء على الخاصة ، وأوجب استزادة الشكر على البلاء ، ومهاجرة العطاء علىٰ خاص الخاصة . [انتهىٰ] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : **اعلم** : أن أحوال العارفين عند الاحتضار مختلفة بحسب اختلاف مشاربهم في الحياة ؛ فإن المرء يموت علىٰ ما عاش عليه ، ولذلك اختلفت أحوالهم عند الموت[1] :

منهم : مَن تغلب عليه الهيبة ؛ كبشر بن الحارث رحمه الله ؛ فإنه قال : القدوم على الله شديد .

ومنهم : مَن يغلب عليه التواجد ؛ كأبي سعيد الخراز ، والنوري رحمهما الله .

ومنهم : مَن يغلب عليه الرضا .

ومنهم : مَن يغلب عليه السكون وجميل الثقة بالله ، مع حسن الظن بالله سبحانه وتعالىٰ .

ومنهم : مَن يغلب عليه الشوق ، إلىٰ غير ذلك من المشارب التي وهبها الله عز وجل لهم ، وما اختصهم به من العرفان رحمهم الله تعالىٰ أجمعين .

وينبغي لمن حضر الصف أن يقول : اللهم ؛ إن هٰذه النفس تزعم في الرخاء أنها تحب لقاءك ، فإن كانت صادقة . . فارزقها الشهادة ، وإن كانت كاذبة . . فاحملها عليه ، وإن كرهت . . فاجعل ذلك قتلاً في سبيلك يا مجيب المضطرين وأرحم الراحمين .

[ومنهم] : أبو بكر الزقاق رحمه الله ، روي أن جماعة من أصحابه قالوا : لما حضرته الوفاة . . خشينا أن يخرج من الدنيا ولا نعلم حال عاقبته ، ولا نسمع شيئاً في خاتمته ، فجلسنا عنده وراعيناه ، فقهقه ، ثم سكت ، ثم قهقه أخرىٰ ، ثم سكت ، ثم قهقه ثالثة ، ثم

---

(١) ختم المؤلف ترجمة الحافظ أبي نعيم صاحب « الحلية » بخاتمة ذكر فيها كلام الذين ترجم لهم عند الاحتضار ، فمن أراد الاستزاده . . فليراجعه .

قال : عز عليَّ يا صادق الوعد يا وفي العهد ، وفَّيْتَ لي وما وفيت لك ، ثم مات رحمه الله تعالىٰ .

وقال بعض العارفين وقد دخل إليه بعض العواد فسألوه عن حاله فقال : إن النفس لله عز وجل اشتراها ؛ قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم ﴾ فهو سبحانه وتعالى المالك يفعل ما يشاء ، فهو بي مني أرحم وأبر وأرأف .

ألا ترىٰ أنه سبحانه وتعالىٰ لما علم تراكم الذنوب علىٰ عباده . . جعل حُمَّىٰ يوم كفارة سَنة ، وأمر الملائكة عليهم الصلاة والسلام أن تكتب له في مرضه ما كان يعمله في الطاعة في حال صحته .

ومنهم مَن قال في مرضه : أحبه إلي أحبه إلى الله سبحانه وتعالىٰ .

ومنهم مَن قيل له : شفاك الله ، فقال : أستخير الله عز وجل .

وقال في « اللوامع » : قال بعض المشايخ : كنت بمكة ، فخطر بقلبي أن أبيت ليلة في بقيع الغرقد مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقصدت المدينة المشرفة ، وزرت قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، واستخرت الله سبحانه فيما بين الروضة والمنبر ، فقوي الخاطر ، فرحت إلى البقيع ، فلما أظلم الليل . . قمت إلىٰ خلوتي ، فبينما أنا متفكر في منازلهم من الله عز وجل ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونزول القرآن فيهم ، وسعادتهم بالصحبة ؛ وإذا أنا بنور قد خرج من باب المسجد كأنه شعاع الشمس أو ضوء القمر ، يخرج من التربة الكريمة والروضة إلى البقيع ، وكأن قائلاً يقول : هـٰؤلاء وفد الحبيب وأضيافه ، ولا يلقى الحبيب في وفده وأضيافه إلا ما يحبه .

وعن الأصمعي قال : رأيت في الطواف شيخاً بالياً فانياً ، وله خلوات حسنة ، فأعجبني حاله ، فسمعته ليلة بفناء الكعبة ، وهو يقول باكياً بصوت حزين :

إلـٰهي ؛ إن لم تجب دعوتي . . فمَن لي ؟

إلـٰهي ؛ إن لم ترحم عبرتي . . فمن لي ؟

إلـٰهي ؛ إن لم تُقِل عثرتي . . فمَن لي ؟

إلـٰهي ؛ أغنني ، وإن لم تُغنني . . فمن لي ؟

خاب مَن في قلبه سواك ، وهل في الأكوان غيرك حتىٰ يذكر ؟!

فلم يبق في الحرم عيناً إلا أبكاها ، ولا قريحة إلا أدماها :

يـا مـن بهجـري يـريـد قتلـي ... قـد عيـل صبـري ورثَّ حبلـي
قـد كنـتُ قبـل الهـوىٰ عـزيـزاً ... فبعـتُ عـزي بطـول ذُلـي
وصـرت أشكـو فـلا تبـالـي ... إن لـم تجـب دعـوتـي فمـن لـي

وقال أبو محمد الجريري رحمه الله : غَسَّلْنا الفتح بن شخرف رحمه الله ، فرأينا علىٰ فخذه مكتوباً : لا إلـٰه إلا الله ، فتوهمناه كتابة ، فنظرنا ؛ فإذا عِرق داخل الجلد .

وقد وُجد علىٰ جماعة من العارفين مثل ذلك ، فإن سفيان الثوري لما مات رحمه الله . . وجدوا علىٰ صدره في موضعين : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

وحكىٰ أبو علي الحسين بن عبد الله المغازلي قال : سألت أبا محمد الجريري الصحبة ، فأبىٰ عليَّ وقال : لي شروط : لا أُسأَلْ ، ولا أُمنَعْ ، ولا أعرض ، ولا أطلب ، فإن جلستُ . . فاجلس ، وإن سكتُّ . . فاسكت ، وإن قمت . . فقم .

قال : وجاور بمكة سنة ثلاث وتسعين ، فلم ينم ، ولم يكلم أحداً ، ولم يستند إلىٰ عمود ولا إلىٰ حائط ، ولم يمد رجليه ، فعبر عليه أبو بكر الكتاني فسلم عليه وقال له : يا أبا محمد ؛ بماذا قدِرْت علىٰ هـٰذا الأمر كله ؟ فقال : إن الله سبحانه وتعالىٰ علم صدق باطني ، فأعانني علىٰ ظاهري ، فأطرق الكتاني ومشىٰ ساعة مفكراً ، فقال الجريري رحمه الله :

شكـرتُـك لا أنـي أجـازيـك منعِمـاً ... بشكـر ولـٰكـن إمتثـالاً لـذي الشكـرِ

قالوا : أدنىٰ مراتب الفقراء الصادقين : التواسي بما في أيديهم ، وقد سبق في ترجمة زيد بن ثابت رضي الله عنه ، عن أبي حازم قال : كنا في مجلس زيد بن ثابت أربعين نفساً ، أدنىٰ خَلَّةٍ فينا التواسي بما في أيدينا . والله أعلم .

ووقف جماعة علىٰ مجلس محمد بن حامد رحمه الله ، فلما تكلم . . قام إليه رجل وقال : يا أبا عبد الله محمد بن حامد ؛ كيف الطريق إليه ؟ فقال : الطريق واضح ، والدليل معلوم ، والزاد راتب ، والمركب قوي ، ولـٰكن الذي منع من الوصول الاستدلال بغير دليل ، والركض في الطريق علىٰ حد الشهوة ، وأخذ الزاد من غير وجهه ، وضعف المركب لقلة تعهده ، وتغير الأحوال من وقت العبادة إلىٰ غيره ، واختلاف الظاهر والباطن ، وهـٰذه كلها أمارات البين وإصابة بالعين .

وقال رجل لذي النون : أوصني ، فقال : استَلِذَّ ببلائه سبحانه وتعالىٰ ، واجهَدْ أن ترىٰ

بلاءه نعمة ، وأَلْقِ مقاليد أمورك إليه ؛ فإنه سبحانه وتعالىٰ لا يخيب من التجأ إليه .

وقال : المحبة بحار مُغرقة ونيران محرقة ، وأهل المحبة قائمون مع الحق علىٰ قدم واحد ، إن تقدموا . . غرقوا ، وإن تأخروا . . حجبوا .

قلب المحب همومُه ما تنفَدُ ودموعه عن مقلتيه تَرَدَّدُ

وقال ذو النون رحمه الله : المحبة سُكْرٌ لا صحوَ معه ، وذِكر لا محو معه ، وجِدٌّ لا لغو بعده ، وجهد لا لهو بعده ، وبلاء لا يرتجىٰ شفاؤه ، وسقام لا يُعرف دواؤه ، فالمحبون سكارىٰ لا يصحون إلا عند مشاهدة محبوبهم .

وروي : أن غيلان المجنون لقي فارساً العكبري رحمهما الله ، فقال له فارس : يا أخي ؛ مَن كتم الهوىٰ . . بلغ المنىٰ ، فقال له : يا فارس ؛ غلطتَ ، مَن كتم الهوىٰ . . لقي الردىٰ ، وهام وأودىٰ .

عجباً للمحب كيف ينام كل نوم على المحب حرامُ
إنما يألف الرقادَ خليٌّ كاذبُ الحب ما عليه ملام
والحفيظُ الودادِ مَن سهر الليـ ـلَ إذا جن والعيون نيام

وقال أبو يزيد البسطامي رحمه الله : **المعرفة** ثلاثة : معرفة العوام ، ومعرفة الخواص ، ومعرفة خواص الخواص .

فمعرفة العوام : معرفة العبودية والربوبية والطاعة والمعصية .

ومعرفة الخواص : معرفة الإجلال والعظمة والإحسان والمنة ، مع المعرفة السابقة .

ومعرفة خواص الخواص ـ مع ما تقدم ـ : معرفة الأنس والمناجاة واللطف ، ثم معرفة القلب .

والقلوب ثلاثة :

ـ قلب يجول في الدنيا حول الشهوات .

ـ وقلب يجول في العقبىٰ حول الدرجات والكرامات .

ـ وقلب يجول في سدرة المنتهىٰ حول الأنس والرضوان ، ورؤية الباري جل جلاله ولا إلـٰه غيره سبحانه وتعالىٰ .

وقالت رابعة العدوية رحمها الله : ما اهتممت لرزقي منذ عرفت غنىٰ مولاي سبحانه وتعالىٰ .

وكتب الشافعي رحمه الله إلىٰ شخص يعزيه : يا أخي ؛ عَزِّ نفسك بما تعزي به غيرك ، واستقبح مِن فعلك ما تستقبحه من غيرك ، واعلم : أن أمرّ المصائب فَقْدُ سرور وحرمان أجر ، فكيف إذا اجتمعا مع اكتساب وزر ؟! فتناول حظك يا أخي إذا قرب منك قبل أن تطلبه وقد نأىٰ عنك ، ألهمك الله عند المصائب صبراً ، وأجزل لنا ولك بالصبر أجراً .

إنـي معـزيـك لا أنـي علـىٰ ثقـة ... مـن الحيـاة ولـٰكـن سُنـة الـدِّيـن

فمـا المعـزَّىٰ ببـاق بعـد ميتـه ... ولا المعزي وإن عاشا إلىٰ حين

وقال الشافعي : أظلمُ الناس لنفسه اللئيم ، إذا ارتفع . . جفا أقاربه ، وأنكر معارفه ، واستخف بالأشراف ، وتكبر علىٰ ذوي الفضل .

وقال أرباب السير : حكي أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه رآه بعض الصالحين في المنام ، فشكا إليه ما جرىٰ على ابنه الحسين رضي الله عنه ، فقال : عليك بأبيات أبي الشيص ، وهي :

مَلَكْنـا فكـان العفـوُ منـا سجيَّـةً ... فلمـا مَلَكْتُـمْ سـال بـالـدَّمِّ أبطَـحُ

وحَلَّلْتُـمُ قتـلَ الأسـارىٰ وطـالمـا ... غدونا عن الأسرىٰ نعفُّ ونصفح

فَحَسْبُكُـمُ هـٰـذا التفـاوت بيننـا ... وكـل إنـاءٍ بـالـذي فيـه ينضـح

وقال بشر رحمه الله : دخلت علىٰ إبراهيم التيمي رحمه الله فقال : ما تقول الناس فيَّ ؟ قال : يقولون : مرائي ، قال : الآن طاب العمل ، قال بشر : كل ذلك لرعاية الصدق ، ولتكون سريرته أفضل من علانيته .

وقال سهل رحمه الله : **إذا كان التزويج علىٰ غير السُّنة . . كان الولد عقوبةَ تنفيذِ الشهوة ، فكيف تريد مِن ولد الشهوة الصلاح ؟!**

ولما ولد ليوسف بن أسباط بنت . . بكىٰ ، فقال : يا رب ؛ شغلتني بالولد فلم ترني لخدمتك أهلاً .

وقال أبو محمد الجريري رحمه الله : لقيني يوماً الفتح بن شخرف فقال لي : يا أبا محمد ؛ أنت أمين الله علىٰ نفسك ، لا ترىٰ عليَّ ثوباً وأنت محتاج إليه أو غير ذلك مما تراه عندي فتتخلَّف عن أخذه .

وقال أبو يعقوب النهرجوري رحمه الله : أصل العبادات كلها . . أكل الحلال ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾ .

والتوحيد له : ظاهر ، وباطن ، وحقيقة .

فظاهر التوحيد : الإسلام ، وباطنه : الإيمان ، وحقيقته : التقوىٰ والعمل الصالح ، قال الله تعالىٰ : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ ، فصحة الإسلام بالإيمان ، وصحة الإيمان بالتقوىٰ والعمل الصالح .

والتقوىٰ لباس المؤمن ، وهو ستر له من النار ، وبالعمل الصالح يُظهر الله عز وجل شرفه عند خلقه ، ويحببه إلىٰ عباده المتقين ؛ قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ .

قيل في التفسير : في قلوب المؤمنين .

وقال أبو تراب رحمه الله : ليس ينال الرضا مَن في قلبه من الدنيا ولو قدراً يسيراً . وهٰذا نظير قول الجنيد السالف في ترجمته .

وأصل ذلك : قوله صلى الله عليه وسلم : « المكاتَب عبد ما بقي عليه درهم »[1] .

وقال الفضيل رحمه الله : إنما يطيع العبد ربه سبحانه وتعالىٰ علىٰ قدر منزلته منه .

وقال أبو بكر بن طاهر : ما يعالج الخائفون من الله عز وجل شيئاً أشد عليهم من تصحيح الإرادة في المخافة منه سبحانه وتعالىٰ .

وروىٰ مؤلف « بهجة الأسرار » بسنده : أن شخصاً قرأ القرآن وعرف الفقه والحديث ، حتىٰ فاق أهل زمانه ، فلما مات . . رآه بعض أصحابه في النوم كأنه في موضع ليس بذاك ، فقال له : ما فعل الله عز وجل بك ؟ فقال : عاتبني وقال : خرجت من الدنيا وما عرفتني .

وقال إسماعيل السلمي : منذ ثلاثين سَنة لم أعقد بيني وبين الله عز وجل عهداً ـ أو قال : عقداً ـ خوفاً من أن يبتليني في عقدي ، فيكذبني علىٰ لساني .

وكان أبو حفص العابد يقول : مَن رضي عن الله عز وجل . . قَلَّت همومه ، ومن استوطأ

---

(١) أخرجه الترمذي (١٢٥٩) .

المعرفة. . ذهبت عنه الوحشة ، ومَن مال إلى الآخرة. . صغرت عنده الدنيا ، ومن أحب نفسه. . لم يؤثر بها غيرَه .

وقال بعض العارفين : إن الله عز وجل يحمي عبده المؤمن من الدنيا ويمنعه منها ، وإنما يمنعه من القليل الفاني ليعطيه الجزيل الباقي ، ويميته ليحييه ، ويفنيه ليبقيه .

وقال أحمد بن عاصم رحمه الله : فرائض القلب إخراج الدنيا منه ، وطرح جميع ما يكرهه الله عز وجل ، مع طهارة الضمير ، وتصحيح العزم ، وصيانة العقول ، ورعاية النعم في المعاملة ، والفهم عن الله عز وجل فيما يقع به التدبير .

وقال أبو الحارث الأولاشي رحمه الله : رأيت في منامي رب العزة سبحانه وتعالىٰ ، فقال لي : (عبدي ؛ سل حاجتك) ، فقلت : يا رب ؛ أنت تعلم حاجتي ، فقال : (أنا أعلم ، وكيف لا أعلم وأنا كونتها وكمنتها في صدرك وأطلقت بها لسانك ؟! ولـٰكن أحب أن أُسأَل ، واعلم : أن المسارعة إلى اتباع ما فيه محبتي. . أوثق عرى الإيمان ، ومتىٰ آثرت هواك علىٰ رضاي. . فأنت منقطع عني ، واحذرِ الدنيا وأخرِجْها من قلبك ؛ فإن متاعها قليل ، والعيش فيها قصير ، وتقرَّبْ إليَّ ببُغضها وبُغض أهلها ، وكن محترزاً من أهلها ، وقف بين يديَّ في مقام من أسقط نفسه وحيلته ، وتعلق بمالكه جل جلاله) أو كما قال .

وقال أبو عمرو الصوري : حب الدنيا من الكبائر ، فما ظنك بعبد مقيم علىٰ أكبر الكبائر . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازي
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان أبو يعقوب ابن الحسين من المشمرين في العبادة المجدين فيها .

وقال أحمد بن موسى الرازي رحمه الله : سمعت يوسف بن الحسين يقول : علم القوم أن الله عز وجل يراهم ، فاستحيوا من نظره إليهم جل جلاله أن يراعوا شيئاً سواه سبحانه وتعالىٰ .

وقال : إنما يتولد الإعجاب بالعمل من نسيان رؤية المنة والفضل لله عز وجل .

وقال فارس البغدادي رحمه الله : سمعته يقول : علىٰ قدر خوفك من الله عز وجل.. يهابك الخلق ، وعلىٰ قدر حبك لله عز وجل.. يحبك الخلق ، وعلىٰ قدر شغلك بأمر الله عز وجل.. يرتفع قدرك عند الخلق .

وقال أبو عبد الله : لما حضرت يوسف بن الحسين الوفاة.. كنت عنده ، فسمعته يقول وهو يجود بنفسه : اللهم ؛ إنك تعلم أني نصحت خلقك ظاهراً ، وغششت نفسي باطناً ، فهب لي غشي لنفسي لنصحي لخلقك . ثم خرجت روحه ، رحمه الله تعالىٰ .

وقال أبو طالب الوراق رحمه الله : رأيت يوسف بن الحسين رحمه الله بعد موته في المنام ، فقلت له : ما فعل الله عز وجل بك ؟ فقال : غفر لي ورحمني ، فقلت له : بماذا ؟ قال : بكلمات قلتها عند الموت : اللهم ؛ إنك تعلم أني نصحت الناس قولاً ، وخنت نفسي فعلاً ، فهب لي خيانة نفسي لنصح قولي .

سمع يوسف بن الحسين أحمد ابن حنبل ، وذا النون المصري ، وغيرهما رحمهم الله .

وتوفي سنة أربع وثلاث مئة . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٧٠ـ٧١] .

وقال في « المختار » : قال يوسف بن الحسين الرازي : أعز شيء في الدنيا الإخلاص ،

وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي وهو ينبت علىٰ لون آخر . انتهىٰ .

وقال في « بهجة الأسرار » : سئل يوسف بن الحسين : متىٰ يكون الفقير صادقاً محتسباً في فقره ؟ فقال : إذا كان يتلقى الفقر والقلة من ربه عز وجل بصدق الإكرام ، مع حسن الظن بالله عز وجل ، ويُعد ما فاته من الدنيا غنيمة ، وما ناله منها ـ مما زاد علىٰ قدر الحاجة ـ مصيبة ، يخاف أن يسلب الفقر منه ؛ لئلا يطغىٰ ، قال الله تعالىٰ : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ ، ويكون خوفه من زوال الفقر كخوف طالب الدنيا إذا فقدها ، ومع ذلك فيكون شاكراً لله عز وجل ، راضياً محتسباً ، يتلذذ بفقره كما يتلذذ الأغنياء بغناهم ، لا يبيع دِينه بشيء من عرض الدنيا ، ويجعل ما فاته منها وفراغه عنها عوناً له علىٰ عبادة الله سبحانه وتعالىٰ . أو كما قال .

وقال يوسف بن الحسين : التائب إذا خشي الحول عن حاله والنزوع عن منهاجه . . تمنى الموت حتىٰ يَسلم من الدخول تحت قوله : « نعوذ بالله من الحور بعد الكور »[1] ، فأما إذا استقامت طريقته واستحكمت حقائقه . . استغنىٰ عن تمني الموت ، ودخل في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ .

وقال يوسف بن الحسين : حقيقة المحبة : مراعاة المحبة في الغيبة والمشاهدة ، والقرب والبعد علىٰ صفة واحدة ، علماً بأن المحبوب يراه ، فيستحيي المحب منه أن ينظر إلىٰ سواه . [انتهىٰ] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : قول الإمام أبي يعقوب يوسف بن الحسين الرازي رحمه الله : (استغنىٰ عن تمني الموت) موافق لما حكاه القاضي أبو المعالي في « اللُّمَع » عن بشر بن الحارث وأبي الحسين النوري أنهما قالا : لا يبغض الموت إلا كذاب مريب ، بدليل قوله تعالىٰ : ﴿ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ، فقيل لهما : فقد قال صلى الله عليه وسلم : « لا يتمنين أحدكم الموت . . . »[2] الحديث ، فقالا : تمام الخبر يَرُدُّ عليكم ؛ لأنه قال صلى الله عليه وسلم : « لضر نزل به » ، معناه : أن يفعل ذلك سخطاً لقضاء الله عز وجل ورداً لحكمه وعدولاً عن مقام الرضا ، وقد قال صلى الله عليه وسلم :

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٣٩) ، والمعنىٰ : النقصان بعد الزيادة .

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٤٧) ، ومسلم (٢٦٨٠) ، وتتمة الحديث : « من ضر أصابه ، فإن كان لا بد متمنياً . . فليقل : اللهم ؛ أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي » .

« من أحب لقاء الله . . أحب الله لقاءه . . . »[1] الحديث . انتهىٰ .

وسئل يوسف بن الحسين رحمه الله : متىٰ يكون الرجل صائماً علىٰ حقيقته ويستوجب ثواب الصائمين ؟ فقال : إذا كان قوته لصيامه ولغيره من حِلِّهِ وجِهَتِهِ ، وإفطاره علىٰ حِلِّهِ وجهته ، وكان الصوم له جُنة من قرنه إلىٰ قدمه ، ولم يكن صومه عن الطعام والشراب دون حفظ الجوارح . . رجوت أن يكون في صيامه مستوجباً ثواب الصائمين . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٤٣) ، ومسلم (٢٦٦٣) .

ومنهم الإمام :

أبو الحسن علي بن سهل التستري
رضي الله عنه

قال الأستاذ أبو القاسم القشيري النيسابوري ـ رحمه الله ـ : كان أبو الحسن بن سهل من أقران الجنيد ، ولقي أبا تراب النخشبي ، وجماعة من المشايخ ، وكان سخياً ، فمِن ذلك : أنه اتفق أن عَمْرَو بن عثمان المكي قصد أبا الحسن في وفاء دَين كان عليه ، فقضاه عنه ، وهو ثلاثون ألف درهم .

ومن كلام أبي الحسن : المبادرة إلى الطاعة من علامات التوفيق ، والتباعد[1] عن المخالفات من علامات حسن الرعاية ، ومراعاة الأسرار من علامات التيقظ ، وإظهار الدعاوي من رعونات البشرية ، ومَن لم يصحح مبادىء إرادته . . لا يسلم في شيء من عواقبه . انتهىٰ [« الرسالة القشيرية » ٣٩] .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال علي بن سهل التستري : غلب عليَّ الشوق واستولىٰ حتىٰ ألهاني عن الأكل وقطعني عن النوم في ابتداء أمري ، فرأيت في بعض الليالي كأني أدخلت الجنة ، فرأيت قصراً عظيماً رفيعاً ، فقلت : لمَن هـٰذا القصر ؟ فقيل : لمحمد بن يوسف ، ثم أفضيت إلىٰ قصر آخر مثله ، فقلت : لمَن هـٰذا القصر ؟ فقيل : لك يا أبا الحسن ، فاطلعت علىٰ حوراء يغلب ضوء وجهها علىٰ كل ما في الدنيا ، فنظرت إليها ، فولت وهي تقول : أنت لا ترغب فينا ، ثم قالت ـ بصوت رخيم لم أسمع أحسن منه ـ :

من يشتريني ومن يكن سكني ... يأمن في بيعه من الغبن

قال : ثم استيقظتُ . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/١٠٤] .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : قال علي بن سهل رحمه الله : العقل والهوىٰ

---

(١) في « الرسالة القشيرية » : (التقاعد) .

يتنازعان ، فقَرينُ العقل : التوفيق ، وقرين الهوىٰ : الخذلان ، والنفس واقفة بينهما ، فأيهما ظفر . . كانت من حزبه ، ومخالفة النفس هي الغرض الصريح ، واتباع رضا المحبوب هو المطلوب الصحيح :

لســانــي كتــوم لأســراركــم ودمعــي لأسرار قلبـي مـذيـعْ[1]
فلــولا دمــوعــي كتمــت الهــوىٰ ولـولا الهـوىٰ لـم تكـن لـي دمـوعْ

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) في بعض النسخ : (ودمعي لأسرار قلبي كتوم) ، وفي « تاريخ دمشق » (ودمعي نموم بسري مذيع)

ومنهم الإمام :

أيوب الحمال
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : كان أيوب من المجدين في العبادة ، والمؤثرين علىٰ أنفسهم بقدر ما يجد ، وكان صاحب كرامات عجيبة .

فمنها : ما ذكره محمد بن وهب قال : أخبرني بعض أصحاب أيوب قال : حججت معه مرة ، فلما دخلنا البادية ؛ إذا عصفور يحوم حولنا ، فرفع أيوب رأسه إليه وقال له : جئت إلىٰ هنا ؟ ثم أخذ كسرة وفتَّها في كفه ، فانحط العصفور وقعد علىٰ كفه يأكل منها ، ثم صب له ماء ، فشرب ، ثم قال له : اذهب ، فطار .

فلما كان اليوم الثاني . . أقبل العصفور ففعل معه الشيخ كفعله بالأمس ، ولم يزل كذلك إلىٰ آخر السفر ، فسألت أيوب عن خبر هـٰذا العصفور فقال : هـٰذا كان يجيء كل يوم إلىٰ منزلي ، فأفعل معه ما رأيتم ، فلما سافرت . . جاء يتقاضىٰ ما كان قد اعتاده مني .

ومن **كراماته رحمه الله** قال : عقدت علىٰ نفسي ألاَّ أمشي إلا ذاكراً لله عز وجل ، فاتفق أني مشيت مشية غفلت فيها عن ذِكر الله سبحانه وتعالىٰ ، فأصابني عرج في الحال ، فعلمت مِن أين أُصبت ، ثم تبت وبكيت ، ولجأت واستغثت ، فزال العرج ، فرجعت إلى الموضع الذي غفلت فيه وذكرت الله تعالىٰ ، فمشيت صحيحاً . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/٣١٣ـ٣١٤] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

الأستاذ أبو القاسم القشيري النيسابوري
رضي الله عنه

قال الأئمة : هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد الأستاذ أبو القاسم القشيري ، صاحب الرسالة المشهورة ، والمناقب المأثورة ، جمع بين العلم والعبادة ، والورع والزهادة .

ولد في ربيع الأول ، سَنة ست وسبعين وثلاث مئة .

توفي أبوه وهو طفل ، فدُفع إلىٰ أبي القاسم اليماني ، فقرأ عليه العربية ، ثم حضر مجلس الأستاذ الشهيد أبي علي الحسن بن علي الدقاق ، وكان لسان وقته ، واستحسن كلامه ، وسلك طريقة الزهد والعبادة ، فقبله الأستاذ ، وأشار عليه بتعلم العلم ، فخرج إلى الشيخ الإمام أبي بكر محمد بن بكر الطوسي ، وشرع في الفقه حتىٰ فرغ من التعليق ، ثم أشار إليه الأستاذ أن يختلف إلىٰ مجلس الأستاذ الإمام أبي بكر ابن فورك وكان مقدَّماً في علم الأصول ، فبرع فيها وصار من أوجَه تلامذته .

ثم من بعد وفاته اختلف إلى الأستاذ الإمام أبي إسحاق الإسفراييني ، وكان يسمع جميع دروسه ، فقال له الأستاذ يوماً : هـٰذا العلم لا يحصل بالسماع ، وما تُوهِّم فيه ضبط ما يسمع .

فأعاد عليه جميع ما سمعه منه بأحسن تقرير من غير إخلال بشيء ، فتعجب وعرف محله ، وقال : ما كنتُ أدري أنك قد بلغت هـٰذا المحل ، فأنت لاتحتاج إلىٰ درسي ، يكفيك أن تطالع مصنفاتي ، فإن أشكل عليك شيء . . راجعتني ، فقعد وجمع بين طريقته وطريقة ابن فورك .

ثم نظر بعد ذلك في كتب القاضي أبي بكر ابن الطيب ، ثم لم يزل علىٰ ذلك حتىٰ توفي الأستاذ أبو علي ، فقصد أبا عبد الرحمـٰن السلمي ، وصنف « التفسير الكبير » قبل العشر والأربع مئة ، ورتب المجالس .

وخرج إلى الحج في رفقة ، منهم : الشيخ ركن الإسلام أبو محمد الجويني ، والشيخ الإمام الحافظ أحمد البيهقي ، وجمعٌ من الأعلام المشاهير ، وسمع منهم الحديث ببغداد والحجاز .

وكان في علم الفروسية واستعمال السلاح من أفراد عصره ، وله في ذلك الفن دقائق انفرد بها .

وأخذ الطريقة عن الأستاذ أبي علي الدقاق ، عن أبي القاسم النصرآباذي ، عن الشبلي ، عن الجنيد ، عن السَّريِّ ، عن معروف الكرخي ، عن داوود الطائي ، عن التابعين ، رضوان الله تعالىٰ عليهم أجمعين .

وكان أكثر ميله في آخر عمره أن يُقرأ عليه تصانيفه والأحاديث المسموعة له ، وبلغ عدد المنتمين إليه آلافاً .

وقد حكى السمعاني عن بشر بن مصعب بمرو أنه قال : حضر الأستاذ أبو القاسم القشيري مجلس أحد الأئمة الأكابر ، وكان قاضياً بمرو ، فلما أُعلم القاضي بحضور الأستاذ . . قام ـ وهو على المنبر ـ وأخذ مخدة كان يستند إليها على المنبر وقال لبعض الحاضرين : احمل هـٰذه المخدة إلى الأستاذ ليجلس عليها ، ثم قال : أيها الناس ؛ إني حججت سَنة من السنين ، وكان قد اتفق في تلك السنة أن حج هـٰذا الإمام الكبير ـ وأشار إلى الأستاذ ـ ويقال لتلك السنة : سنة القضاة ، وكان قد حج تلك السَّنةَ أربع مئة قاضٍ من قضاة المسلمين وأئمتهم من أقطار البلاد وأقاصي الأرض ، فأرادوا أن يتكلم واحد منهم في حرم الله تعالىٰ ، فاتفق رأي الكل علىٰ هـٰذا الأستاذ ، فتكلم هو باتفاق منهم .

توفي الأستاذ رحمه الله يوم الأحد ، السادس عشر من ربيع الآخر ، سَنة خمس وستين وأربع مئة ، ودفن في المدرسة إلىٰ جانب الأستاذ أبي علي الدقاق رحمهما الله تعالىٰ[1] . انتهىٰ ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

وقال الأستاذ أبو القاسم : الحياء علىٰ وجوه :

أحدها : الحياء من التقصير ؛ كالملائكة عليهم الصلاة والسلام ، يسبحون الليل والنهار

---

(١) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٥/ ١٥٣) .

لا يفترون ، ثم يقولون : سبحانك! سبحانك! ما عبدناك حق عبادتك .

ثانيها : حياء الإجلال ؛ كإسرافيل عليه الصلاة والسلام ، تسربل بجناحه حياء من الله عز وجل .

وثالثها : حياء الكرم ؛ كسيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ، كان يستحيي من أمته أن يقول اخرجوا ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ .

رابعها : حياء الحشمة ؛ كعلي رضي الله عنه ، لما أراد أن يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حكم المذي . . أرسل المقداد ؛ لمكان فاطمة رضي الله عنهم ؛ حياء من النبي صلى الله عليه وسلم(١) .

خامسها : حياء الاستحقار ؛ كما فعل موسىٰ عليه الصلاة والسلام ، فقال : يا رب ؛ إنه لتعرض لي الحاجة ، فأستحيي أن أسألك ، وأنت أعلم ، فقال الله عز وجل له : (يا موسىٰ . . سلني ملحَ عجينك وعلفَ شاتك) .

سادسها : حياء الجبار جل جلاله ؛ فإنه قد ورد أن الله عز وجل يعطي عبده كتاباً مختوماً بعدما عبر الصراط ، وإذا فيه مكتوب : (يا عبدي ؛ فعلت ما فعلت ، وقد استحييت منك أن أظهره عليك) ، جل الله العظيم الديان ، خالق الخلائق أجمعين ، فسبحان مَن هٰذه العظمة عظمته ، سبحانه ولا إلـٰه غيره [الرسالة القشيرية ١٦٩] .

وقال القشيري : التوبة أقسام ثلاثة : أولها : توبة ، وأوسطها : إنابة ، وآخرها : أوبة ، فالتوبة بداية ، والأوبة نهاية ، والإنابة واسطتهما .

فالتائب مِن خوف العقاب يسمىٰ : صاحبَ توبة ، والتائب طمعاً في الثواب يسمىٰ : صاحبَ إنابة ، والتائب رعاية للأمر لا رغبة ولا رهبة يسمىٰ : صاحبَ أوبة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

والإنابة : صفة الأولياء والمقربين ، قال تعالىٰ : ﴿ مَنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ .

---

(١) روى البخاري في « صحيحه » (١٣٢) : عن علي قال : كنت رجلاً مذاءً ، فأمرت المقداد أن يسأل النبي صلى الله عليه وسلم . . فسأله ، فقال : « فيه الوضوء » .

والأوبة : صفة الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، قال تعالىٰ : ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [الرسالة القشيرية ٧٩] .

وقال القشيري : قال محمد بن أحمد : شتان ما بين تائب يتوب من الزلات ، وتائب يتوب من الغفلات ، وتائب يتوب من رؤية الحسنات .

وقال : قال بعض العارفين : توبة الكذابين علىٰ طرف لسانهم ؛ فإنه يقول : أستغفر الله ، مِن غير أن يعمل قلبه في شيء من أسباب التوبة [الرسالة القشيرية ٨٠] .

وقال : قال النصرآباذي : مَن لزم التقوىٰ . . اشتاق إلىٰ مفارقة الدنيا ؛ قال تعالىٰ : ﴿ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الرسالة القشيرية ٨٨] .

وقال : قال النصرآباذي : العباد محتاجون في عباداتهم إلىٰ طلب العفو والصفح عما وقع فيها من التقصير اللازم ، والغفلة الغالبة ، والإخلال بما يجب لله عز وجل من عظيم الجلال والجمال .

ولذلك لا تتعلق قلوبهم بطلب مجازاة مِنْ دخول جنة أو نجاة من نار بالله ، إن ذلك لا يمر بقلوب العارفين ، وإنما قصدهم التجاوز والعفو عن تقصيرهم فيها .

وقال : قال النصرآباذي : قُسِمت الدنيا على البلوىٰ ، وقُسِمت الآخرة على التقوىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أحمد بن نصر الخزاعي
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان أحمد بن نصر يكنىٰ أبا عبد الله ، وكان من كبار العلماء الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر .

سمع مالكاً ، وحماد بن زيد ، وهُشَيماً ، وغيرهم .

وحصلت له محنةٌ قتل فيها رحمه الله ، وذلك أن الواثق امتحنه وقال له : قل : إن القرآن مخلوق ، فقال : مَعاذَ الله ، بل هو منزل غير مخلوق ، واستمر علىٰ ذلك ، واستمر الواثق علىٰ دعواه الناس علىٰ ذلك ، ولزوم أحمد على القول بخلق القرآن ، وهو مُصِرٌّ على الامتناع حتىٰ قتله الواثق يوم السبت مستهل رمضان سنة إحدىٰ وثلاثين ومئتين ، ثم أمر بأن يصلب جسده خاصة ، وأن يحمل رأسه إلىٰ بغداد فينصب ، فحمل رأسه إلىٰ بغداد فنصب ، ولم يزل علىٰ ذلك ست سنين ، ثم حُط رأسه ، وجمع بين رأسه وبدنه ، ودفن في الجانب الشرقي من بغداد ، في المقبرة المعروفة بالمالكية ، يوم الثلاثاء لثلاث خلون من شوال سنة سبع[1] وثلاثين ومئتين رحمه الله ، لقد جاد بنفسه في مرضاة الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال سليمان : سمعت أحمد بن نصر يقول : رأيت مصاباً قد وقع ، فقرأت في أذنه شيئاً من القرآن ، فكلمتني الجِنِّية من جوفه وقالت : يا أبا عبد الله ؛ بالله دعني وإياه ؛ فإنه يقول : إن القرآن مخلوق .

وقال أبو بكر : سمعت أحمد ابن حنبل وذكر أحمد بن نصر فقال : رحمه الله تعالىٰ ، ما كان أسخاه ، لقد جاد بنفسه .

وقال إسماعيل بن خلف : كان أحمد بن نصر صاحبي ، فلما قتل في المحنة وصلب

---

(١) كذا في « الصفوة » ، وفي النسخ : (ست وثلاثين ومئتين) ، ولعل الصواب ما أثبت ؛ لأنه بقي مصلوباً ست سنين بعد وفاته ، وكانت وفاته سنة إحدىٰ وثلاثين ومئتين ، والله أعلم .

رأسه . . أُخبرت أن الرأس يقرأ القرآن ، فمضيت ليلة وبِتُّ قريباً من الرأس مشرفاً عليه ، وكان عنده رجال وفرسان يحفظونه ، فلما هدأت العيون . . سمعت الرأس يقرأ : ﴿الٓمٓ * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ . فاقشعرَّ جسدي وغشي عليَّ[1] .

ثم رأيته بعد ذلك في المنام ، وعليه السندس والإستبرق ، وعلىٰ رأسه تاج ، فقلت له : ما فعل الله عز وجل بك ؟ فقال : يا أخي ؛ غفر لي ، وأدخلني الجنة ، إلا أني بقيت مهموماً ثلاثة أيام ، قلت : ولِمَ ذاك ؟ قال : لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ بي ، فلما بلغ خشبتي . . حوَّل وجهه عني ، فقلت له بعد ذلك : يا رسول الله ؛ قتلتُ على الحق أو على الباطل ؟ فقال : « أنت على الحق ، ولـٰكن قتلك رجل من أهل بيتي ، فإذا بلغت إليك . . أستحيي منك » .

وقال إبراهيم بن الحسن : رأىٰ بعض أصحابنا أحمد بن نصر في المنام بعد ما قتل ، فقال له : ما فعل الله بك ؟ فقال : ما كانت إلا غفوة حتىٰ لقيت الله عز وجل ، فضحك إليَّ سبحانه وتعالىٰ ، وقال : (ادخل الجنة) . أو كما قال . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/٢١٩ـ٢٢٠] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) قال الخطيب البغدادي في « تاريخه » (٥/ ٣٨٦ـ٣٨٧) : عن أحمد بن كامل القاضي [قال] : أخبرني أبي أنه رآه ، قال : وكان شيخاً أبيض الرأس واللحية ، وأخبرني أنه وُكِّل برأسه من يحفظه بعد أن نصب برأس الجسر ، وأن الموكَّل بِهِ ذكر أنه يراه بالليل يستدير إلى القبلة بوجهه فيقرأ سورة ﴿يسٓ﴾ بلسان طلق ، ومما ورد في ذلك : أن الواثق قتله خوفاً من خروجه عليه . انظر « سير أعلام النبلاء » (١١/ ١٦٨) .

ومنهم الإمام :

أبو الحسين محمد بن أحمد بن سمعون
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان أبو الحسين محمد بن سمعون يلقب : المُنطَق بالحكمة .

قال أبو بكر الأصبهاني ـ وكان خادم الشبلي رحمه الله ـ : كنت بين يدي الشبلي يوم جمعة في الجامع ، فدخل أبو الحسين ٱبن سمعون ، وهو صبي علىٰ رأسه قلنسوة بشفاشك مطيلس بفوطة ، فجاز علينا وما سلم ، فنظر الشبلي إلىٰ ظهره وقال لي : يا أبا بكر ؛ أتدري أيش لله عز وجل في هٰذا الفتىٰ من الذخائر ؟

وقال الحسن الخَلاَّل : قال لي ابن سمعون : ما اسمك ؟ قلت : حسن ، فقال : قد أعطاك الله عز وجل الاسم ، فسله أن يعطيك المعنىٰ .

وقال عبد الواحد بن عمر : قال ابن سمعون : رأيت المعاصي نذالة ، فتركتها مروءة ، فاستحالت ديانة .

وقال أبو الفتح القواس : لحقتني إضاقة وقتاً من الأوقات ، فنظرت ، فلم أجد في البيت غير قوس لي وخفين كنت ألبسهما ، فأصبحت وقد عزمت علىٰ بيعهما ، وكان يوم مجلس ابن سمعون ، فقلت في نفسي : أحضر المجلس ، ثم أنصرف فأبيع الخفين والقوس ، فحضرته ، فلما أردت الانصراف.. ناداني أبو الحسين ابن سمعون فقال : يا أبا الفتح ؛ لا تبع الخفين ولا القوس ؛ فإن الله عز وجل سيأتيك برزق من عنده .

وكان أبو الحسين يقول : مَن لم ينظر بالعِلم فيما لله عز وجل عليه.. فالعلم عليه وبال .

وقال : الصادقون الحُذَّاق : هم الذين نظروا إلىٰ ما بذلوا في جنب ما وجدوا فاعتذروا .

وقال : كل داء عرف دواؤه.. فهو صغير ، والذي لا يعرف دواؤه.. فهو كبير .

وقال : مِن الوقاحة وقلة الحياء تمنيك مع توانيك .

وقال في قوله تعالىٰ : (لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه) أي : حتىٰ أظهر له حبي ؛ لأنه سبحانه وتعالىٰ لم يزل له محباً .

وقال : الخير كله في هـٰذا الزمان . . ترك الناس وما هم عليه من الخلاف .

وقال الحسن بن غالب : سمعت أبا الحسين ابن سمعون يقول : يا هـٰذا ؛ إن الله عز وجل يقول : (أكرمتك لَمَّا أمرتك ، وصنتك لما نهيتك ، فأمري لك كرامة ، ونهيي لك صيانة ، كلفتك الصلاة ولعلمي بتوانيك لم أجعل لها وقتاً واحداً ، جعلت لها أولاً وآخراً ، وأنت تقول : الوقت واسع ، متى اتسع الوقت علىٰ عاقل ؟! أمَا علمت أن الوقت على العقلاء أضيق من خرم الإبرة ؟! تهتم لنفسك حتىٰ كأني لست مولاك ، وتدع الاهتمام بأمري حتىٰ كأني لست مطالبك ، أمَا علمت أني أعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ؟!) .

وقال محمد بن أحمد : رأيت في المنام رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلىٰ جانبه رجل مكتهل ، فسألت عنه فقيل : هو عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ، وهو يقول للنبي صلى الله عليه وسلم : أليس من أمتي الأحبار ؟ أليس من أمتي الرهبان ؟ قال : فدخل أبو الحسين ابن سمعون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعيسىٰ عليه الصلاة والسلام : « أفي أمتك مثل هـٰذا ؟ » فسكتَ ، فاستيقظت .

وقال محمد بن علي العلاف : حضرته يوماً في مجلس الوعظ وهو علىٰ كرسيه يتكلم ، وكان أبو الفتح القواس جالساً إلىٰ جانب الكرسي ، فغشيه النعاس ، فنام ، فأمسك أبو الحسين عن الكلام ساعة حتى استيقظ أبو الفتح ورفع رأسه ، فقال له أبو الحسين : رأيتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم في نومك هـٰذا ؟ فقال : نعم ، فقال : لذلك أمسكت عن الكلام ؛ خوفاً من أن تنزعج أو تنقطع عما كنت فيه .

وقال أبو بكر البرقاني رحمه الله : قلت لأبي الحسين : أيها الشيخ ؛ أنت تدعو الناس إلى الزهد في الدنيا والترك لها ، وتلبس أحسن الثياب وتأكل أطيب الطعام ، فكيف هـٰذا ؟! فقال : كُلُّ ما يصلحك فافعله ، إذا صلح حالك مع الله عز وجل . . البس ألين الثياب ، وكُلْ أطيب الطعام ، ولا يضرك ما دامت الدنيا ليست في قلبك ، ولا لها عندك بال وَجَدتَ أو عَدِمتَ ؛ فإن الصحابة رضي الله عنهم كانت الدنيا في أيديهم وليست في قلوبهم ، حتىٰ إن أحدهم لَيُسلِمُ بُكْرة لأجل الدنيا ، فما تأتي عشية إلا وليس شيء أبغض إليه من الدنيا ، رضوان الله عليهم أجمعين ، ونفعنا بهم . أو كما قال .

أسند ابن سمعون عن خلق يطول ذِكرهم ، منهم : ابن أبي داوود ، وأملى الحديث .

وتوفي في النصف من ذي القعدة سنة سبع وثمانين وثلاث مئة ، وكان مولده سنة ثلاث مئة ، ودفن في داره ، ثم نقل بعد تسع وثلاثين سنة إلىٰ باب حرب ، وكفنُهُ لم يَبْلَ ، بل يتقعقع كما هو ، رحمه الله . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٢٨٥ـ٢٨٨] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : يقال : إن أبا الحسين محمد بن سمعون رحمه الله كان في بيت المقدس ، وكان صائماً ، فخطر علىٰ قلبه شهوة الرطب في غير أوانه ، فقال لنفسه : مِن أين يحصل لك رطب في هـٰذا الوقت ؟! وكان إفطاره في كل ليلة علىٰ تمر ، فلما كان وقت الإفطار . . جيء إليه بالتمر علىٰ عادته ، فلما مد يده ليأكل منه . . وجده رُطباً ، فنظر إليه وبكىٰ ، ثم تركه ولم يذقه ؛ خشية أن يكون قد عجل له حظه في الدنيا ، ولئلا يعطي نفسه شهوتها .

قالوا : وهـٰذا من أعظم أبواب الزهد ، وهو زهد الولي في كرامته ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

ورُوِّينا عن الحافظ أبي القاسم ابن عساكر ـ رحمه الله ـ بإسناده [٩/٥١] عن الحافظ الخطيب البغدادي قال : كان أبو الحسين الواعظ ـ المعروف بابن سمعون ـ واحد دهره ، وفريد عصره في الكلام علىٰ علم الخواطر والإشارات ، ولسان الوعظ ، دوَّن الناس حِكَمه ، وجمعوا كلامه ، وحدَّث عن عبد الله ابن أبي داوود السجستاني ، وخلائق .

قال : وكان بعض شيوخنا إذا حدث عنه . . قال : حدثنا الشيخ الجليل المنطق بالحكمة أبو الحسين ابن سمعون .

وبإسناده [١٢/٥١] : عن عبد الغفار بن عبد الواحد الأرموي قال : كان القاضي ابن الباقلاني أبو بكر الأشعري والشيخ أبو حامد الإسفراييني يُقبِّلان يد ابن سمعون إذا جاءاه ، وكان القاضي يقول : ربما خفي عليَّ من كلامه بعض الشيء ؛ لدقته .

وبإسناده [٥١/ ١٠ـ١١] : عن أبي محمد السني البغدادي صاحب ابن سمعون قال : كان ابن سمعون في أول عمره ينسخ بأجرة يتقوَّت بها هو وأمه ، وكان كثير البر لها ، فجلس يوماً ينسخ ، فقال لها : أحب أن أحج ، قالت : يا ولدي ؛ كيف يمكنك وما معك نفقة ولا لي ما أنفقه ، وإنما عيشنا من أجرة هـٰذا النسخ ؟! وغلب عليها النوم فنامت ، وانتبهت بعد ذلك ساعة ، وقالت : يا ولدي ؛ حُجَّ ، فسألها عن سبب ذلك ، فقالت له : رأيت رسول الله

صلى الله عليه وسلم الساعة وهو يقول : « دعيه يحج ؛ فإن الخيرة له في ذلك في الآخرة والأولىٰ » ، ففرح وباع من دفاتره ما له قيمة ، ودفع إليها من ثمنها نفقة ، وخرج مع الحُجاج ، فأخذهم العرب وأخذوه من الجملة .

قال ابن سمعون : فبقيت عرياناً ، ووجدت مع رجل عباءة كانت علىٰ عدل ، فقلت : هب لي هـٰذه العباءة أستر نفسي بها ، فقال : خذها ، فجعلت نصفها علىٰ كتفي ونصفها علىٰ وسطي ، وكنت إذا غلب عليَّ الجوع ووجدت قوماً يأكلون . . وقفت أنظر إليهم ، فيدفعون إلي كسرة ، فأتقنَّع بها ذلك اليوم ، ووصلت مكة ، فغسلت العباءة وأحرمت بها ، ودخلت الكعبة المشرفة ، وقلت : اللهم ؛ إنك بعِلمك غني عن إعلامي بحالي ، اللهم ؛ ارزقني معيشة أستغني بها عن سؤال الناس .

قال : فسمعت قائلاً يقول من ورائي : اللهم ؛ إنه ما يحسن أن يدعوك ، اللهم ؛ ارزقه عيشاً بلا معيشة ، فالتفتُّ ، فلم أر أحداً ، فقلت : هـٰذا الخضر أو أحد الملائكة عليهم السلام ، فأعدت القول ، فأعاد الدعاء ، فأعدت ، فأعاد ـ ثلاث مرات ـ وعدت إلىٰ بغداد ، وكان الخليفة قد حرم جارية من جواريه ، وأراد إخراجها من الدار ، فكره ذلك إشفاقاً عليها ، فقال : اطلبوا رجلاً مستوراً يصلح أن نزوج هـٰذه الجارية به ، فقال مَن حضر : قد وصل ابن سمعون من الحج وهو يصلح لها ، فاستصوب الخليفة قوله ، وتقدم بإحضاري وإحضار الشهود ، وزوجوني بالجارية ، ونقل معها من المال والثياب والجواهر ما يحمل مع الملوك .

قال الراوي : فكان ابن سمعون يجلس على الكرسي للوعظ فيقول : أيها الناس ؛ خرجت حاجاً ، فكان من حالي كذا وكذا . . . ويذكر لهم جميع ما جرىٰ له ، ثم يقول : ها أنا اليوم عليَّ من الثياب ما ترون ، وطِيبي ما تعرفون ، ولو وطئت على العتبة . . تألمت من الدلال ، ونفسي هي تلك لم تتغير ، فلله الحمد في الأولىٰ والآخرة ، حمداً يوافي نعمه ، ويكافىء مزيده . أو كما قال . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

عبد الصمد بن عمر

رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان الإمام عبد الصمد من أهل الزهد والصلاح ، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، لا تأخذه في الله لومة لائم .

قال الصيمري ـ أحد الأئمة من أصحاب الشافعي ـ : وكان عند عبد الصمد جزء ، قال : فأخذت نسخته ومضيت أنا وأبو يعلى ابن الخليفة المأمون إليه ، فسلمنا عليه ، وسألناه أن يَحضُرَنا في المسجد لنسمع ذلك الجزء منه عليه ، وسبقناه إلى المسجد ، فلما جاء . . سلم وصلىٰ ركعتين ، ثم جاء ، فجلس بين أيدينا ، فقلنا له : نحن إنما حضرنا لنسمع منك بين يديك ، فإن رأيت أن ترتفع إلىٰ صدر المجلس ، فأبىٰ وقال : هـٰذا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وأشار إلى ابن المأمون ـ وأنت رجل من أهل العلم ، وما كنت لأرتفع عليكما في المجلس .

وقال علي بن محمد : جاء رجل إلىٰ عبد الصمد بمئة دينار ليدفعها إليه ، فقال له : أنا في غنىً عنها ، فقال له : فرقها علىٰ أصحابك هـٰؤلاء الحاضرين ، فقال له : ضعها على الأرض ، ففعل ، فقال عبد الصمد للجماعة الحاضرين : مَن احتاج منكم إلىٰ شيء . . فليأخذ علىٰ قدر حاجته ، قال : فتوزعَها الجماعة علىٰ صفات مختلفة من القلة والكثرة ، ولم يمس منها شيئاً بيده ، ثم جاء ابنه بعد ساعة وطلب منه شيئاً ، فقال له : اذهب إلى البقال ، فخذ منه عليَّ ربع رطل تمراً .

وقال التنوخي رحمه الله : كنت يوم الجمعة في جامع المنصور ، والخطيب على المنبر ، وعلىٰ يساري علي بن طلحة البصري ، فنظرت ؛ فإذا عبد الصمد جالسٌ بالقرب مني ، فهممت أن أقوم وأمشي إليه ؛ لأنه كان صديقاً لي ، ثم استحييت من القيام في مثل ذلك الوقت مع قرب قيام الصلاة ، قال : فقام عبد الصمد ومشىٰ نحوي ، فقمت إليه ، فقال

لي : اجلس أيها القاضي ، فليس إليك قصدت ، ولا إياك أردت بمجيئي ، إنما هـٰذا أردت وإليه قصدت ـ يعني : علي بن طلحة ـ وذلك لأن نفسي تأباه وتكرهه ، فأردت أن أذلها بقصده وأخالف إرادتها فقصدته ، فقام ابن طلحة إليه وقبَّل رأسه ، وعاد عبد الصمد إلىٰ موضعه .

وقال عبد الله بن أحمد : اجتاز عبد الصمد يوماً بسوق الطعام ، فرأىٰ غلاماً قد خرج مع العيارين[١] ، والناس مجتمعون عليهم ، وأبواه يبكيان عليه ويعذلانه ، وهو لا يلتفت إليهما ، ويأبىٰ عليهما ، فلما أكثرا عليه من العذل . . قال لهما : مثلي يقول شيئاً ويرجع عنه ؟! قد قلت لأصحابي إني معكم ، امضيا اطلبا ولداً غيري ، أنا شاروفتي[٢] في جيبي ، قال عبد الله : فاعتبرت بقول الغلام في متابعة الهوىٰ على الوفاء ؛ لقوله مع علمه بأنه إذا وقع في الشدائد أنهم لا يخلصونه ولا يغنوا عنه شيئاً ، فبايعت أنا على الوفاء لله عز وجل ، مع علمي أني إذا وقعت في الشدائد . . ينجيني ويجيرني سبحانه وتعالىٰ .

وقال أبو الوفاء : هجم عيد علىٰ عبد الصمد وبيته فارغ من القوت ، فجاءه رجل بدراهم ، فقال له : خذ هـٰذه ، فقال له : يا هـٰذا ؛ بالله دعني أتلذذ اليوم بفقري كما يتلذذ الأغنياء بغناهم .

وكان يحرض أصحابه على الجد فيقول : هيه! قد فاتتكم الدنيا ، فلا تفوتكم الآخرة .

وقال التنوخي : أخبرني مَن حضر عبد الصمد وقد احتُضِر ، فدخلت عليه أم الحسين[٣] بنت القاضي ، وكانت ممن يقوم بأمره ويراعيه ، فقالت له : أسألك بالله وأقسم عليك ؛ إلا ما سألتني حاجة ، فقال : كوني لفلانة ـ يعني : ابنته ـ بعد موتي كما أنت لها في حياتي ، فقالت : أفعل إن شاء الله تعالىٰ ، ثم أمسك ساعة ، وقال : أستغفر الله ، أستغفر الله ، أستغفر الله عز وجل . وكررها مراراً ، ثم قال : إن الله عز وجل خير لها منك .

وحكى ابن عقيل عمن حضر عبد الصمد عند الاحتضار ، فسمعته وهو يقول : إلـٰهي وسيدي ومولاي ؛ حقق حسن ظني بك ، إلـٰهي وسيدي ومولاي ؛ حقق حسن ظني بك يا أرحم الراحمين .

---

(١) **العيَّار من الرجال** : الذي يخلي نفسه وهواها لا يردعها ولا يزجرها .
(٢) شاروفة : ضرب من العمائم عند أهل العراق .
(٣) هـٰكذا في النسخ ، وفي « الصفوة » : (أم الحسن) .

توفي لسبع بقين من ذي الحجة سنة سبع وتسعين وثلاث مئة ، ودفن في مقبرة الإمام أحمد ، وقبره ظاهر يتبرك به رضي الله عنه وأرضاه . [انتهىٰ « الصفوة » ٢/٢٨٨ـ٢٩٩] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

عثمان بن عيسى بن عمرو الباقلاني
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان يقال له : العابد الصموت ؛ لإمساكه عن الكلام فيما لا يعنيه .

وكان أحد الزهاد العباد ، منقطعاً عن الخلق ، ملازماً للخلوة .

وكان يقول : إذا كان وقت غروب الشمس .. أحسست بنفسي كأنها تخرج ؛ يعني : لاشتغاله تلك الساعة بالإفطار عن الذِّكر .

وقال : أَحبُّ الناس إليَّ مَن ترك السلام عليَّ ؛ لأنه يَشغَلُني بسلامه عن الذِّكر .

وقال محمد بن عبد العزيز العباسي : مضيت يوماً في صحبة خالي إليه ، فلقيناه خارجاً من المسجد إلىٰ منزله وهو يسبح ، فقال له خالي : ادع الله لي ، فقال : يا أبا عبد الله ؛ شغلتَني ، انظر إلى الذي تظنه فيَّ فافعله ، وادع أنت لي ، فقلت له : بالله عليك ادع الله لي ، فقال : رفق الله عز وجل بك ، فاستزدته ، فقال : الزمان يذهب والصحائف تُختم .

وقال محمد بن علي بن المهتدي : هـٰذا الذي أنا فيه من بركة عثمان ، وذلك أني كنت أصلي به ، وكان إذا خلا .. مسح صدري ودعا لي ، فأنا أعتقد أن الذي أنا فيه من بركة دعائه .

وكنت أصلي به في رمضان ، فقرأت (سورة الحاقة) ، فلما بلغت قوله تعالىٰ : ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ .. صاح ووقع مغشياً عليه ، فما بقي في المسجد أحد إلا انتحب .

وكان عثمان يتعمم شاروفة ، وكان يأكل من كسب البواري[1] ، وكان سعيد التركي قد سأله أن يصل إليه منه شيء ، فأبىٰ ، فقال له : إذا أبيت أن تقبل مني شيئاً .. فأْذن لي أن أشتري دهناً تشعله في المسجد ، وكان مأواه المسجد ما كان يخرج منه إلا إلى الجمعة ،

---

(١) **كسب البواري** : صناعة الحصير من القصب .

فأجاب إلىٰ ذلك ، فلما جاء الرسول علىٰ أنه يحمل إلى المسجد دهناً . . قال له : لا تجئني بشيء ، فقد أظلم عليَّ البيت .

أسند عثمان عن المطوعي ، وابن أبي النجم ، وغيرهما .

وتوفي لسبع بقين من رمضان سنة اثنتين وأربع مئة .

وقال عرسٌ الخباز : لما دفن عثمان . . رأيت في المنام بعض مَن هو مدفون في جوار قبره ، فقلت له : كيف فرحكم بجوار عثمان ؟ فقال : وأين نحن وعثمان ؟! لما جيء به . . سمعنا قائلاً يقول : الفردوس ، الفردوس . أو كما قال . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٢٩١ـ٢٩٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو بكر محمد بن عبد الله الدِّيْنَوري
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان أبو بكر يسكن الرصافة ببغداد وكان زاهداً .

وكان أبو الحسن القزويني يقول : عبَر الدينوري القنطرة وخلَّف مَن يعدو وراءه .

قال أبو الوفاء ابن عقيل : لما كنت شاباً حدث السن . . كنت أتردد إلىٰ مجلس ابن نشوان الواعظ ، وكان يعتاد عيني الرمد كثيراً ، فرآني ذات يوم رجل كان يبسط لابن نشوان بساط المنبر ، يقال له : بكار ، فقال لي : أراك تلازم هـٰذا المجلس ؟ فقلت له : لعلِّيْ أستفيد شيئاً ينفعني في دِيني ، فقال لي : اجلس حتىٰ ينقضي المجلس ؛ فإن لي بك حاجة ، فجلست ، فلما انقضى المجلس . . أخذ بيدي ، وحملني إلى الرصافة ، وجاء بي إلىٰ باب وطرقه ، فقال له قائل مِن داخل الباب : مَن ؟ فقال : بكار ، فقال : يا بكار ؛ ألست كنت اليوم هـٰهنا ؟ فقال له : جئت في حاجة مهمة ، ففتح الباب وهو يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

فدخلنا ؛ وإذا شيخ جالس مستقبل القبلة ، علىٰ رأسه نطع كالطرحة[1] ، فسلمنا عليه ، فرد علينا السلام ، فقال بكار : يا سيدي ؛ هـٰذا الصبي يداوم حضور المجلس ، ويحب الخير ، وقد دام مرض عينيه ، فادع الله عز وجل له ، قال : فدعاني إليه ، فأتيته ، فأدخل خنصِره في فيه ، ثم مسح عيني به ، فبقيت بعد ذلك ستين سنة لم ترمد عيني ، فلما خرجت . . سألت عنه ، فقيل : هـٰذا أبو بكر الدينوري .

توفي أبو بكر الدينوري في شعبان سنة ثلاث وأربع مئة . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/٢٩٦ـ٢٩٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) **النطع** : بساط من الجلد ، **والطرحة** : كساء يلقىٰ على الكتف ، ثم استعمل كغطاء يطرح على الرأس والكتفين والصدر .

ومنهم الإمام :

أبو عبد الله الخريبي الزاهد
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال إبراهيم بن شبيب[1] : كنا نتجالس في الجمعة في الجامع ، فأتىٰ رجل عليه ثوب واحد ملتحف به ، فجلس إلينا ، فألقىٰ مسألة ، فما زلنا نتكلم في الفقه حتى انصرفنا ، ثم جاء في الجمعة الثانية ، فأحببناه وسألناه عن منزله ، فقال : في الخريبة ، فسألناه عن كنيته ، فقال : أبو عبد الله ، فرغبنا في مجالسته ، ورأينا مجلسنا مجلس فقه ، ثم مكثنا بعد ذلك زماناً يتردد إلينا في المجلس ، ثم انقطع عنا ، فقال بعضنا لبعض : ما حالنا ؟ قد كان مجلسنا عامراً بأبي عبد الله ، وقد صار موحشاً .

فأتينا الخريبة ـ وكنا جماعة ـ فسألنا عن أبي عبد الله ، وهناك صبيان قد خرجوا من الكُتَّاب ، فقالوا : لعلكم تريدون الصياد ؟ قلنا : نعم ، فقالوا : هـٰذا وقته ، الآن يجيء ، فقعدنا ننتظره ؛ فإذا هو قد أقبل مؤتزراً بخرقة ، وعلىٰ كتفه خرقة ، ومعه أطيار مذبوحة وأطيار بالحياة ، فلما رآنا . . تبسم إلينا وقال : ما جاء بكم ؟ فقلنا : فقدناك ، وقد كنت عمرت مجلسنا ، فما الذي غيبك عنا ؟ فقال : لا بد من عذر ، فقلنا : بالله إلا ما قلت لنا .

فقال : كان لنا جار كنت أستعير منه ذلك الثوب الذي كنت آتيكم فيه ، وكان غريباً ، فسافر إلىٰ وطنه ، فلم يكن لي ثوب آتيكم فيه ، هل لكم أن تدخلوا هـٰذا المنزل فتأكلوا مما رزق الله عز وجل ؟ فقلنا : نعم ، فجاء إلىٰ باب وسلم ، ثم صبر قليلاً ، ثم دخل ، ثم أَذِن لنا ، فدخلنا ؛ فإذا هو قاعد ، وقد أتي بقطع من البواري ، فبسطها لنا ، ثم دخل إلى المرأة ، فسلم إليها الأطيار المذبوحة وأخذ الأطيار الأحياء .

ثم قال : اقعدوا حتىٰ آتيكم إن شاء الله تعالىٰ عن قريب ، فأتى السوق ، فباعها واشترىٰ خبزاً ، ثم جاء وقد صنعت المرأة ذلك وهيأته ، فقدم إلينا خبزاً ولحم طير ، فأكلنا ، وجعل يقوم إلينا بالملح والماء .

---

(١) في نسخة : (شيت) ، وفي أخرىٰ : (شيث) .

فلما فرغنا . . قال بعضنا لبعض : هل رأيتم مثل هـٰذا ؟ ألا تغيرون حاله وأنتم سادات البصرة ؟ فقال بعضهم : عليَّ خمس مئة ، وقال الآخر : عليَّ ثلاث مئة ، وكل واحد قال شيئاً ، وحسبوا الذي جمعوه ، فبلغ خمسة آلاف درهم ، فقالوا : قوموا بنا حتىٰ نأتيه بهـٰذا المال ، ونسأله أن يغير بعض ما هو فيه .

فقمنا وانصرفنا علىٰ حالنا ركباناً ، فمررنا ؛ فإذا محمد بن سليمان أمير البصرة قاعد في منظرة له[1] ، فقال : يا غلام ؛ ائتني بإبراهيم بن شبيب من بين القوم ، فجئت ، فدخلت عليه ، فسألني عن قصتنا ومِن أين أقبلنا ، فحدثته الحديث ، فقال : أنا أسبقكم إلىٰ بره ، يا غلام ؛ ائتني ببدرة دراهم ، فجاء بها ، فقال : ائتني بفرَّاش[2] يحملها ، فجاء ، فقال : احمل هـٰذه البدرة مع هـٰذا الرجل يدفعها إلىٰ مَن أمرناه ، فقمت مسروراً ومضيت أنا والفرَّاش معي ، وهو حامل لتلك البدرة .

فلما أتيت بابه . . سلمت ، فأجابني أبو عبد الله ، ثم خرج إليَّ ، فلما رأى الفرَّاش والبدرة علىٰ عنقه . . تغير لونه حتىٰ كأني سفيت في وجهه الرماد ، وأقبل عليَّ بغير الوجه الأول ، وقال : ما لي ولك يا هـٰذا ؟ أتريد أن تفتنني ؟ فقلت : يا أبا عبد الله ؛ اقعد حتىٰ أخبرك ، فقعد ، فذكرت له الحكاية جميعاً ، وقلت : إن محمد بن سليمان لا يُراجع ، ولا يُرَدُّ عليه ما أخرجه ، فاللهَ اللهَ في نفسك ، فازداد عليَّ غيظاً .

ثم قام ودخل منزله ، وأصفق الباب في وجهي ، فجعلت أقدم رِجلاً وأؤخر أخرىٰ ، ما أدري ما أقول للأمير ، ثم لم أجد بداً من الصدق .

فجئت إليه وأخبرته ، فقال : يا غلام ؛ عليَّ بالسيف ، ثم قال له : خذ بيد هـٰذا حتىٰ يذهب بك إلىٰ هـٰذا الرجل ، فإذا خرج إليك . . فائتني برأسه ، قال إبراهيم : فقلت : أصلح الله الأمير ، الله ، الله ، فوالله ؛ لقد رأينا رجلاً ما هو من الخوارج ، وإنه يرىٰ طاعتك ، ولـٰكن أنا أذهب إليه وآتيك به ، وما أردت بذلك إلا الافتداء منه .

قال : فسكت ، فقمت ومضيت ، فلما أتيت الباب . . سلمت ، وإذا بصوت امرأة تبكي ، ثم فتحت الباب وتوارت وأذنت لي ، فدخلتُ فقالت : ما كان شأنكم وشأن أبي عبد الله ؟ فقلت : وما الخبر ؟ فقالت : انظر هـٰذا حال أبي عبد الله ، فقلت :

---

(١) المَنْظَرة : مكان معد لاستقبال الزائرين .

(٢) الفرَّاش : الخادم ، مأخوذ ممن يتولىٰ أمر الفراش والخدمة في المنازل .

وما حاله ؟ فقالت : إنه بعد أن فارقك دخل وجاء إلى البئر ، فأخذ منها ماءً وتوضأ وصلىٰ ، ثم سمعته يقول : اللهم ؛ اقبضني إليك ولا تفتنِّي ، ثم تمدد وهو يقول ذلك ، فلحقته وقد قضىٰ ، فها هو ميت ، فقلت : يا هٰذه ؛ إن لنا قصة عظيمة ، فلا تُحْدِثوا فيه شيئاً حتىٰ آتيكم ، ثم جئت إلىٰ محمد بن سليمان وأخبرته الخبر ، فقال : أنا أركب فأصلي علىٰ هٰذا ، وشاع خبره بالبصرة ، فشهده الأمير وعامة أهل البصرة ، رحمه الله تعالىٰ . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٧ـ٨] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

❊ ❊ ❊

ومنهم الإمام :

إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل الخواص
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كنيته : أبو إسحاق ، أقام بالري ، ومات بها .

قال أبو جعفر بن محمد الخلدي : سمعت إبراهيم الخواص يقول : سلكت البادية إلىٰ مكة في سبعة عشر طريقاً ، منها طريقا ذهب وفضة .

وحكي عنه أنه قال : كان لي وقت ، فوجدت فترة ، فكنت أخرج كل يوم إلىٰ شط نهر كبير كان حواليه الخوص ، وكنت أقطع شيئاً من ذلك ، وأسفه قفافاً ، وأطرحه في ذلك النهر ، وأتسلىٰ بذلك ، وكنت أجد نفسي كالمطالب بذلك ، فجرىٰ وقتي علىٰ ذلك أياماً .

ففكرت يوماً في نفسي ، وقلت : أمضي خلف ما أطرحه من القفاف في الماء حتىٰ أنظر أين تذهب ، فمشيت علىٰ شاطىء النهر ساعات ، ولم أعمل ذلك اليوم شيئاً ، فرأيت عجوزاً قاعدة علىٰ جنب النهر تبكي ، فقلت لها : ما لك ؟ مم تبكين ؟ فقالت : لي خمسة من الأيتام ، مات أبوهم ، وأصابني الفقر والشدة ، فأتيت يوماً إلىٰ هـٰذا النهر ، فرأيت علىٰ رأس الماء قفافاً من الخوص ، فأخذتها وبعتها ، وأنفقت ثمنها عليهم ، وأتيت اليوم الثاني والثالث والرابع ، والقفاف تجيء علىٰ رأس الماء ، فكنت آخذها وأبيعها ، واليوم ما جاءت .

قال إبراهيم : فرفعت يدي وقلت : إلـٰهي وسيدي ومولاي ؛ لو علمت أن لي خمسة من العيال.. لزدت في العمل ، ثم قلت للعجوز : لا تغتمِّي ؛ فإني أنا الذي كنت أعمل القفاف ، ومضيت معها ، فعلمت موضعها ، وكانت فقيرة ، فقمت بأمرها وأمر عيالها سنين . أو كما قال . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٦٧ـ٦٨] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : قد تقدم في ترجمة خيرٍ النساج رحمه الله ، أن المطلوب في الأموال عدم ضياعها في نفس الأمر ، أو اعتبار ظاهر الأمر ، وإن لم تضع في الحقيقة ؛ فإن في هـٰذه الواقعة وأمثالها إن نظرنا إلىٰ كون القفاف لم تضع في

الحقيقة بل وصلت إلىٰ مستحقها . . فنقول : لا يحرم ذلك ، وإن نظرنا إلىٰ ظاهر صورة إلقائها في الماء فقط . . فنقول : يحرم ، لـٰكن الولي قد يطلعه الله سبحانه علىٰ حقيقة الأمر في ذلك ، فيقدم عليه ، فينظر العوام إلى الظاهر ، وليس لهم اطلاع علىٰ ذلك الأمر الذي قد كُشف للأولياء .

وأيضاً : فإن الأولياء قد منحهم سبحانه بولايته ، واختصهم بمزيد عنايته ، فحفظ عليهم أفعالهم وأوقاتهم وحركاتِهم وأقوالهم ، فضلاً من الله ورحمة ، والله ذو الفضل العظيم . انتهىٰ .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال حامد الأسود : كنت مع إبراهيم الخواص في سفر ، فدخلنا إلىٰ بعض القفار ، فلما أدركنا الليل . . أحاطت بنا السباع ، فجزعت أنا لرؤيتها ، وصعدت إلىٰ شجرة ، ولم يصعد إبراهيم ، وقعد موضعه ، واستلقىٰ علىٰ قفاه ، فأقبلت السباع تلحسه من فرقه إلىٰ قدمه ، وهو لا يتحرك ، فلما أصبحنا ومضينا إلىٰ منزل آخر . . وجدنا فيه مسجداً ، فبتنا فيه ، فرأيت بقة وقعت علىٰ وجه إبراهيم فتأوه ، فقلت : يا أبا إسحاق ؛ ما هـٰذا التأوه مع فِعل البارحة ؟! فقال : ذاك حال كنت فيه بالله عز وجل ، وهـٰذا حال أنا فيه بنفسي . [انتهىٰ « الصفوة » ٤/٦٨] .

وقال في « المناقب » : قال إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل الخواص رحمه الله : مَن لم يصبر . . لم يظفر ، ومَن لم تبكِ الدنيا عليه . . لم تضحك الآخرة إليه .

وقال : ليس العِلم بكثرة الرواية ، إنما العلم لمَن اتبعه واستعمله ، واقتدىٰ بالسنن .

وسئل عن الورع فقال : ألاَّ يتكلم العبد إلا بالحق ، غضِب مَن غضب ، ورضي مَن رضي ، وأن يكون اهتمامه فيما يرضي الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال : العلم كله في حرفين : لا تتكلف ما قد كفيت ، ولا تضيِّع ما قد وُلِّيت ؛ أي : كلفت .

وقال : دواء القلب خمسة أشياء : تلاوة القرآن بالتدبر ، وخلاء البطن ، وقيام الليل ، والتضرع عند السحر ، ومجالسة الصالحين .

وقال : علىٰ قدر إعزاز المرء لأمر الله عز وجل . . يلبسه مِن عزه ، ويقيم له العز في قلوب المؤمنين ، وعقوبة القلوب أشد العقوبات ، ومقامها أعلى المقامات ، وكرامتها

أفضل الكرامات ، وذِكرها أشرف الأذكار ، وتذكّرها يستجلب الأنوار ، وعليها وقع الخطاب ، وهي المخصوصة بالتنبيه والعتاب .

وروي : أن إبراهيم تأوه في وقت من الأوقات ، فقيل له : ما هٰذا التأوه ؟ فقال : كيف يفلح مَن يسره ما يضره ؟ ثم رفع صوته وأنشد :

تعـودت مـس الضـر حتـىٰ ألفتُـه ... وأسلمني حسن العزاء إلى الصبر
وقطَّعت أطماعي من الناس آيساً ... لعلمي بصنع الله من حيث لا أدري[1]

وقال : مَن ترك شهوة فلم يجد عوضها في قلبه . . فهو كاذب في تركها .

وكان إبراهيم يدقق في التوكل ، ومع ذلك فكان لا يفارقه إبرة وخيوط ومقراض وركوة ، فيقال له في ذلك : أنت تمنع من حمل كل شيء ، فكيف تحمل هٰذا ؟ فقال : هٰذا لا ينقض التوكل ؛ لأن الله عز وجل علينا فرائض ، والفقير ليس له إلا ثوب واحد ، فربما تبدو عورته من ثوبه إذا تخرق ، فتفسد عليه صلاته ، وإذا لم يكن معه ركوة . . تفسد عليه الطهارة ، فإذا رأيت الفقير بلا ركوة ولا إبرة ولا خيوط . . فاتهمه في صلاته . [انتهىٰ] .

[ثم قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ] : وقال علي بن محمد الحلواني : كان إبراهيم جالساً في المسجد بالري ، وعنده جماعة ، فسمع صوت المَلاهي من الجيران ، فاضطرب من ذلك ، ثم قام إبراهيم ، فخرج من المسجد نحو الدار التي فيها المنكر ، فلما بلغ طرف الزقاق ؛ إذا كلبٌ رابض ، فلما قرب منه إبراهيم . . نبح عليه وقام في وجهه ، فرجع إبراهيم إلى المسجد ، وفكر ساعة ، ثم قام مبادراً وخرج ، فمر على الكلب ، فبصبص[2] وسكت .

فلما قرب من الدار . . خرج إليه شاب حسن الوجه ، وقال : أيها الشيخ ؛ لِمَ انزعجت ؟ لو أرسلت إليَّ بعضَ مَن عندك . . كنت أفعل كل ما تريد ، وعليَّ عهد الله وميثاقه أني لا شربت أبداً ، وأراق ما عنده من الشراب ، وكسر الأواني ، ونوىٰ صحبة أهل الخير ولزوم العبادة ، فرجع إبراهيم ، فلما جلس . . سئل عن خروجه أول مرة ، ثم رجوعه ، ثم خروجه ثانياً ، فقال : إنما نبح الكلب عليَّ في الأول ؛ لفساد كان قد دخل عليَّ في عقيدتي فيما بيني وبين الله عز وجل ، فلما زال ذلك الفساد . . رجعت ثانياً ، فوقع ما وقع .

وهٰكذا كل مَن خرج لإزالة منكر ، فتحرك عليه شيء من المخلوقات ، فلفساد عقد نيته

---

(١) في نسخة : (وقطعت أطماعي من الناس آنِساً) .

(٢) **بصبص** : حرك ذنبه .

فيما بينه وبين الله عز وجل ، وإذا وقع الأمر على الصحة . . لم يتحرك عليه شيء .

وكان يقول : مَن لم يصبر . . لم يظفر ، وذلك لأن لإبليس وِثاقين أوثق بهما بني آدم : خوف الفقر ، والطمع .

وقال إبراهيم : علىٰ قدر إعزاز المؤمن لأمر الله سبحانه وتعالىٰ . . يلبسه الله عز وجل مِن عزه ، ويقيم له العز في قلوب المؤمنين .

وقال : مَن لم تبك الدنيا عليه . . لم تضحك الآخرة إليه .

وقال خيرٌ النساج : سمعته يقول وقد رجع من سفر ، وكان قد غاب عني سنين ، فقلت له : ما الذي أصابك في سفرك هـٰذا ؟ فقال : عطشت مرة عطشاً شديداً حتىٰ سقطت من شدة العطش ، فبينا أنا علىٰ ذلك ؛ إذ مر بي أعرابي متلثم راكباً علىٰ جمل ، ومعه إداوة من ماء ، فوقف عليَّ وسلم ، ثم قال : ما الذي بك ؟ قلت : العطش ، فسقاني حتىٰ رويت ، ثم قال : ارتدف خلفي ، وكنت بالحاجر ، فلما كان بعد ساعة . . قال : أين مقصدك ؟ قلت : المدينة ، قال : انزل واقرأ علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم مني السلام ، وقل له : الخضر يسلم عليك .

وقال إبراهيم الخواص : لقيني الخضر في سفرة ، فسألني الصحبة ، فخشيت أن يفسد عليَّ سرَّ توكلي بسكوني إليه ، ففارقته .

وكان الخواص من أقران الجنيد والنوري .

توفي بجامع الري سنة إحدىٰ وتسعين ومئتين ، وقيل : سنة أربع وثمانين ومئتين ، وتولىٰ أمره في غسله ودفنه يوسف بن الحسين الرازي رضي الله عنهم أجمعين . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٦٨ـ٧٠] .

وقال في « المناقب » : قال إبراهيم : المراعاة تورث المراقبة ، والمراقبة خلوص السر والعلانية .

وقال إبراهيم : الصادق لا تراه إلا في فرض يؤديه ، أو فضل يعمل فيه .

وروي أنه كان في سفرة ومعه ثلاثة نفر ، فبلغوا مسجداً في بعض المفاوز وباتوا فيه ، ولم يكن عليه باب ، وكان البرد شديداً ، فناموا ، فلما أصبحوا . . رأوه واقفاً على الباب ، فقالوا له في ذلك ، فقال : خشيت أن تجدوا البرد . وكان قد وقف في الباب طول ليلته .

وقال : مَن شرب بكأس الرئاسة . . فقد خرج من إخلاص العبودية .

وقال الكتاني[1] : رأيت كأن القيامة قد قامت ، فأول مَن خرج من عند الله عز وجل أبو جعفر الدينوري ، وكتابه بيمينه ، وهو يضحك ، ثم خرج إبراهيم الخواص ، وكتابه بيمينه ، وهو يقرأ القرآن .

وقال إبراهيم : إن مِن دواعي المقت : ذم الدنيا في العلانية واتباعها في السر .

وقيل له : ما بال الإنسان يتحرك عند سماع غير القرآن ولا يتحرك عند سماع القرآن ؟ فقال : لأن سماع القرآن صدمة عظيمة لا يتمكن أحد أن يتحرك معها ؛ لشدة غلبتها ، وأما سماع غيره . . فترويح يجد فيه السامع ما يجده .

وقال : أصل الدِّين بعد الإيمان بالله وحده : المحاسبة والصدق .

فالمحاسبة : أن يقف العبد قبل كل حركة وقفة حتىٰ يسكن هيجان تلك الحركة ، ثم بعد ذلك يتدبر عواقبها ، فما كان لله عز وجل . . دَخَل فيه ، وما كان لغير الله . . تركه ، فلا يزال العبد كذلك حتىٰ تصح له المحاسبة وتلزم القلب ، فعند ذلك لم يبق للعبد حركة ظاهرة ولا باطنة . . إلا والله تعالىٰ أقرب إلىٰ قلبه من كل حركة ، فعندها لا يسقط له فِعل ولا إرادة .

وقال : كنت بالبادية مرة ، فسِرت في وسط النهار ، فوصلت إلىٰ شجرة بقرب ماء ؛ فإذا سبع عظيم قد أقبل إلي ، فاستسلمت ؛ فإذا هو يعرج ، فحمحم وبرك بين يدي ، ووضع يده في حجري ، فنظرت ؛ فإذا يده منتفخة فيها قيح ودم ، فأخذت عوداً وشققت الموضع الذي فيه القيح ، وأخرجت ما فيه ، ثم شددت عليه خرقة ، فتركني ومضىٰ ، وإذا به بعد ساعة قد عاد ومعه شبلان يبصبصان إلي ، وحملا لي رغيفاً ، ثم ذهبا . انتهىٰ .

وقال في كتاب « زهر الكمام في قصة يوسف عليه الصلاة والسلام » : قال إبراهيم الخواص رحمه الله : طالبَتْني نفسي في وقت من الأوقات بالخروج إلىٰ بلاد الروم ، فمنعت نفسي من ذلك أشد الامتناع ، فلم تَمتنِع ، وعملتُ علىٰ إزالة هـٰذا الخاطر ، فلم يزل ، فخرجت أخترق ديارها إلىٰ أن أتيت مصراً من أكبر أمصارها ؛ فإذا عند باب البلد رجال وعبيد علىٰ رؤوسهم الأسلحة ، فلما رأوني . . قاموا إلي ، وقالوا لي : أطبيب أنت ؟ قلت : نعم ، فاحتملوني إلىٰ ملكهم ، فلما دخلت عليه . . نظر إلي ، وقال لي : أطبيب أنت ؟ قلت : نعم ، فقال : أدخلوه إليها ، وعرِّفوه بالشرط قبل دخوله إليها .

---

(١) في بعض النسخ : (الكتاني) .

قال : فلما خرجت من عنده معهم . . قالوا : إن للمَلك ابنة قد أصابها اعتلال شديد ، وقد أعيى الأطباء علاجُها ، وما مِن طبيب دخل عليها وعالجها فلم ينفع علاجه . . إلا قتله الملك ، فانظر لنفسك إن كنت قادماً علىٰ هـٰذا الشرط ، فقلت لهم : إن المقادير ساقتني إليها ، فأدخلوني عليها ، قال : فاحتملوني إلىٰ بابها ، فلما طرقوا الباب ؛ فإذا هي مِن داخل الدار تقول : أدخلوا الطبيب ، فلي وله سر عجيب :

افتحوا الباب فقد جاء الطبيبْ ... وانظروا نحوي فلي سر عجيبْ

فَلكَمْ مقتربٍ مبتعدٌ ... ولَكَمْ مبتعد وهو قريب

كنت ما بينكمُ في غربة ... فأراد الحق أُنسي بغريب

جمعتنا نسبة بيِّنة ... فتراءينا محب وحبيب

ودعانا للتلاقي مالك ... حجب العاذل عنا والرقيب

فاتركوا عَذْلي وخلوا لومكمْ ... إنني ويحَكمُ لست أجيب

لست ألوي نحوَ فانٍ ذاهبٍ ... إنما قصديَ باقٍ لا يغيب

قال : وإذا شيخ كبير قد فتح الباب مسرعاً وقال : ادخل ، فدخلت ؛ فإذا بيت مبسوط بأنواع الرياحين والفرش ، وإذا بسِتر مضروب في زاويته ، ومن خلفه أنين ضعيف ، قال : فقعدت بإزاء السِّتر ، وأردت أن أسلم ، فتذكرت أنه لا يجوز ابتداء النصارىٰ بالسلام ، فلم أسلم ، فنادت المرأة من داخل الستر ، أين سلام التودد والإخلاص يا إبراهيم الخواص ؟ فعجبت من ذلك ، وقلت لها : مِن أين عرفتيني ؟ فقالت : إذا صفت القلوب والخواطر . . أعربت الألسن عن مخبَّآت الضمائر ، إني سألت الله سبحانه وتعالىٰ أن يقيض لي ولياً من أوليائه يكون لي علىٰ يديه الخلاص . . فنوديت : إنا سنرسل إليك إبراهيم الخواص ، فقلت لها : ما خبرك ؟ قالت : لي أربع سنين قد لاح لي الحق المبين ، وأسلمت لله رب العالمين ، فقلت لها : مَن دلَّك علىٰ ما وصلت إليه ؟ فقالت : براهينه الواضحة ، وآياته اللائحة سبحانه وتعالىٰ .

قال إبراهيم الخواص : فبينا أنا أكلمها ؛ فإذا الشيخ الموكل بها ، وقد دخل علينا ، فقال : ما فعل طبيبك ؟ فقالت له : قد عرف العلة ، وأصاب الدواء ، فظهر عليه السرور ، وشكرني ، وسار مسرعاً إلىٰ ملكهم ، فبشره وأخبره ، فأمر بإعزازي وإكرامي ، فبقيت أختلف إليها سبعة أيام .

فقالت لي : يا أبا إسحاق ؛ الهجرة إلىٰ دار الإسلام ، فقلت لها : كيف يكون الطريق إلىٰ ذلك ، وكيف يكون خروجك ومَن يتجاسر عليه ؟ فقالت : دع عنك هـٰذا الخوف ، وقم بنا حتىٰ نهاجر ، إن الذي أدخلك عليَّ وساقك إلي وهداني للإسلام . . إنما هو الله رب العالمين جل جلاله ، ولا إلـٰه غيره ، ولا رب سواه سبحانه . . هو الذي يخرجنا من بلاد الظالمين ، ويعمي أبصارهم عنا ، فقلت لها : أعلم أنه علىٰ كل شيء قدير .

قال : فلما كان من الغد . . قالت : قم حتىٰ نهاجر ، قال : فخرجنا علىٰ باب البلد ، فحجب الله عز وجل العيون عنا ، فلم يرنا أحد ، وأعمى الله أبصارهم ، فلم نزل سائرين إلىٰ أن دخلنا دار الإسلام .

فقالت : إنما قصدي بيت الله الحرام ، فقلت : أنت وما قصدت ، فقالت : اكتب لي جميع مناسك الحج وعرِّفني بها كما علمتني فرائض الإسلام وسائر أنواع العبادات ، فعلَّمتها ذلك جميعه ، وكتبت لها ذلك ، ثم فارقتني متوجهة إلىٰ مكة زادها الله تعالىٰ شرفاً ، فبلغني أنها أقامت بها سبع سنين ، ثم توفيت إلىٰ رحمة الله تعالىٰ .

فما رأيت أصبر منها على الصيام ، ولا أدوم منها على القيام ، رحمها الله تعالىٰ . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

الحافظ أبو نعيم الأصبهاني
رضي الله عنه

قال الحافظ ابن عساكر ـ رحمه الله ـ : كتب إلي الشيخ أبو الحسن عبد الغافر بن إسماعيل يذكر قال : أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران سبط محمد بن يوسف البنا الصوفي ، الشيخ الإمام الحافظ ، أبو نعيم ؛ واحد عصره في فضله وجمعه ومعرفته ، صنف التصانيف المشهورة ؛ مثل : « حلية الأولياء وطبقات الأصفياء » ، وغير ذلك من الكتب الكثيرة في أنواع علوم الحديث والحقائق ، وشاع ذِكره في الآفاق ، واستفاد الناس من تصانيفه ؛ لحسنها .

توفي بأصبهان في صفر سنة ثلاثين وأربع مئة .

وبلغني أنه ولد في رجب سنة ست وثلاثين وثلاث مئة ، وأنه توفي يوم الإثنين الحادي والعشرين من المحرم الحرام ، سَنة ثلاثين وأربع مئة ، ودفن من يومه بعد صلاة الظهر ، وبلغ أربعاً وتسعين سَنة رحمه الله تعالىٰ .

وسمعت مَن يحكي عن أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الحافظ الخطيب البغدادي قال : لم أَلْقَ من شيوخي أحفظ من الحافظ أبي نعيم ، وأبي حازم العبدوي الأعرج .

وذكر لي الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد الأصبهاني عمَّن أدرك من شيوخ أصبهان : أن السلطان محمود بن سُبُكْتِكِين[1] لما استولىٰ علىٰ أصبهان : ولَّىٰ عليها والياً من قِبله ، ورحل عنها ، فوثب أهل أصبهان به فقتلوه ، فرجع محمود إليها ، وأمنهم حتى اطمأنوا ، ثم قصدهم يوم الجمعة في الجامع ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وكانوا قبل ذلك قد منعوا أبا نعيم

---

(١) محمود بن سُبُكْتِكِين (٣٦١ـ٤٢٢ هـ) : مَلَكَ خراسان وسجستان ، ولم يزل يفتح في بلاد الهند حتى انتهىٰ إلىٰ حيث لم تبلغه في الإسلام راية ، ولم تُتْلَ به قط سورة ولا آية ، وكان قد فرض علىٰ نفسه غزو الهند في كل عام ، وكانت مناقبه محمودة كثيرة ، وسيرته من أحسن السير ، توفي بغزنة سنة اثنتين وعشرين وأربع مئة ، رحمه الله تعالىٰ . انظر « وفيات الأعيان » لابن خلكان (٥/ ١٧٥ـ١٨٢) .

الحافظ من الجلوس في الجامع ، فسلِم مما جرىٰ عليهم ، وكان يعد ذلك من كرامة أبي نعيم الحافظ رحمه الله . انتهىٰ .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : **اعلم** : أن هٰذا هو الحافظ أبو نعيم صاحب « الحلية » ، الذي من بحره اغترفت ، وبأنواره اقتديت ، وإني لم أسْرِ ذلك المسرىٰ إلا بدلالته ، ولم أغترف إلا من فضالته .

فاللهَ أسأل أن يفيض عليَّ عرفانه وبركته ، وأن يجمع بيني وبينه مع سائر الأحبة في دار كرامته ، وجزاه الله عني أفضل الجزاء .

ولو شرعت في ذِكر مناقبه ومآثره ، وما خصه الله به من الكرامات ، وما آتاه من العلوم وسائر أنواع المعارف . . لأوردت من ذلك شيئاً كثيراً ، ولو لم يكن من جلالة قدره ورفيع محله إلا إملاء كتابه « الحلية » حفظاً من صدره بعد أن نَيَّفَ على الثمانين سَنة . . لكان ذلك كافياً ، فكيف وله من التصانيف الحِسان ما لم يُنسج علىٰ منواله ، ولا سمحت قريحة بمثاله .

وبالجملة : فكان الحافظ أبو نعيم قدس الله روحه لسانَ وقته ، وإمام عصره ، جامعاً بين علم الشريعة والحقيقة ، عارفاً بالأصول والفروع ، إماماً في العلم ، ورأساً في الزهد ، بصيراً بالأحكام ، حافظاً للحديث عارفاً بعلله ، قيماً بالأدب ، جامعاً للغة وفنون الأدب .

له التصانيف الكثيرة في علوم غزيرة ، ورث العلم كابراً عن كابر ، فرغ من إملاء « الحلية » يوم الخميس سلخ [ذي] الحجة سَنة اثنتين وعشرين وأربع مئة .

وأما أحواله وكراماته : فإنه يضيق الوقت عن ذِكر بعضها ، رحمه الله ، وأكرم نزله ومثواه .

* * *

وقد رأيت أن أختم ترجمته رحمه الله بذِكر كلام المحتضِرين من الخلفاء الراشدين ، والأئمة المهديين ، والعلماء الربانيين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وتابعيهم ، رضوان الله عليهم أجمعين .

هٰذا وإن كنت قد ذكرت في ترجمة كل إمام كلامه عند الاحتضار ، غير أنه يعز على الناظر استحضاره عند احتياجه إليه ، فكان جمعه في موضع واحد أنفع وأنجع لمن أراد الاتعاظ وسلوك سبيل السلف الصالح ، رضوان الله عليهم أجمعين .

فأقول ـ وبالله التوفيق ـ :

أما أولهم : فخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم الإمام أبو بكر الصديق رضي الله عنه : قالوا : لما احتُضِر . . قال : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ .

قالوا : وقيل له في مرضه : ألا ندعوا لك طبيباً ينظر إليك ؟ فقال : قد نظر إلي ، فقالوا : ما قال لك ؟ قال : إني فعال لما أريد .

وفي رواية قال : ليتني كنت شجرة تعضد وتؤكل .

زاد في رواية : قال له سلمان : يا خليفة رسول الله ؛ أوصنا ، فقال : إن الله فاتح عليكم الدنيا ، فلا تأخذوا منها إلا بلاغاً ، ثم توفي رضي الله عنه .

وثانيهم : الإمام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لما احتضر . . أمر أن يوضع رأسه على الأرض ، وقال : ويلي وويل أمي إن لم يرحمني الله عز وجل! هـٰذا أوان لو أن لي طلاع[1] الأرض ذهباً . . لافتديت به من عذاب الله من قبل أن أراه .

وفي رواية : أخذ تبنة من الأرض وقال : ليتني كنت هـٰذه التبنة ، ليت أمي لم تلدني ، ليتني كنت نسياً منسياً . رضي الله عنه .

الإمام أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه : حين ضرب والدماء تسيل علىٰ لحيته . . جعل يقول : ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ، اللهم ؛ إني أستعديك عليهم ، وأستعين بك علىٰ جميع أموري ، رضي الله عنه .

وفي رواية : كان يقول : لو أني بين الجنة والنار لا أدري إلىٰ أيتهما يؤمر بي . . لاخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلىٰ أين أصير . رضي الله عنه .

الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه : حين طلع لصلاة الفجر يوم قتله . . جَعَلَ يقول :

اشدد حيازيمك للموت ... فإن الموت لاقيكا
ولا تجزع من الموت ... إذا حل بواديكا

ولما ضربه ابن ملجم . . قال علي كرم الله وجهه : فزت ورب الكعبة ، ثم قال : لا إلـٰه إلا الله ، فتوفي رضي الله عنه

(١) طلاع الأرض : ملؤها .

الإمام أمير المؤمنين الحسن بن علي رضي الله عنهما : لما احتضر . . دخل عليه أخوه الحسين رضي الله عنهما ، فوجده جزعاً ، فقال : يا أخي ؛ لأي شيء تجزع من الموت ؟ تقدم علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي بن أبي طالب وهما أبواك ، وعلىٰ خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما أماك ، وعلىٰ حمزة وجعفر وهما عماك ، فقال : يا أخي ؛ إني أقدم علىٰ أمر عظيم ، ثم قال : اللهم ؛ إني أحتسب نفسي عندك ، وتوفي رضي الله عنه .

أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : لما احتضرت . . قالت : والذي نفسي بيده ؛ لوددت أني كنت نسياً منسياً .

وفي رواية : لوددت أني كنت حيضة ملقاة .

الإمام معاذ بن جبل رضي الله عنه : حين احتضر . . قال : اللهم ؛ إنك تعلم أني كنت أخافك ، وأنا اليوم أرجوك ، اللهم ؛ إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجري الأنهار ولا لغرس الأشجار ، ولـٰكن لظمأ الهواجر ، ومكابدة الساعات ، ومزاحمة العلماء بالرُّكَب عند حلق الذِّكر .

ولما اشتد به النزع ـ ونزع نزعاً لم ينزعه أحد ـ فكان كلما أفاق من غمرته . . يفتح طرْفه ثم يقول : اخنقني خنقاً ، فوعزتك ؛ إنك لتعلم أن قلبي يحبك ، ثم يقول : أصبحنا ؟ فيقال : لا ، إلىٰ أن قيل له : قد أصبحنا ، فقال : أعوذ بالله من صباح ليلة إلى النار ، مرحباً بالموت زائر مغب[1] ، حبيب جاء علىٰ فاقة .

الإمام طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه : أوصىٰ أن يكفن في جبة صوف كان قد لقي المشركين فيها يوم بدر ، وأوصىٰ أن يجعل علىٰ قبره جريدة رطبة عند رأسه ورجليه .

الإمام أبو الدرداء رضي الله عنه : حين احتضر . . جعل يقول : مَن يعمل لمثل مصرعي هـٰذا ؟ مَن يعمل لمثل ساعتي هـٰذه ؟ مَن يعمل لمثل يومي هـٰذا ؟ ثم يقول : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ .

الإمام عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : قال له رجل : ما أحب أن أكون من أصحاب اليمين ، أكون من المقربين أحب إلي ، فقال له : لـٰكن هـٰهنا رجل ود أنه إذا مات لا يبعث . يعني : نفسه .

---

(١) مغبٌّ : الذي يزور علىٰ فترات متقطعة .

ولما احتضر . . قال : لو تعلمون ما أعلم من نفسي . . لحثيتم علىٰ رأسي التراب .

وفي رواية : قيل له : ألم تخبرنا أنك تحب الموت ؟ فقال : بلىٰ ، ولـٰكن وعزته وجلاله سبحانه وتعالىٰ ؛ لمَّا تيقنت نفسي الموت . . كرهته ، ثم بكىٰ ، وقال : لقنوني لا إلـٰه إلا الله . ثم لم يزل يرددها حتىٰ مات رضي الله عنه .

الإمام سلمان الفارسي رضي الله عنه : حين احتضر . . بكىٰ ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : ما أبكي جزعاً علىٰ الدنيا ولا خوفاً من الموت ، ولـٰكن عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليكن بلغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب ، أو قال : زاد المسافر »[1] ، وحولي هـٰذه الأساود[2] ، ثم مات رضي الله عنه ، وكان جميع ما حوله إجَّانة[3] وجفنة ومطهرة ونحو ذلك ، فبيع ذلك بنحو بضعة عشر درهماً

وقبل وفاته أمر زوجته أن تأتيه بصُرَّة مسك كان قد ادخرها ، فقال لها : امرثيها[4] بالماء وضعيها حول فراشي ؛ فإنه يأتيني الآن زوار . يعني : الملائكة عليهم الصلاة والسلام .

وعن طاووس رحمه الله : أنه ينبغي للمحتضر أن يوصي بأن يُطْعَم عنه بعد موته سبعة .

الإمام بلال بن رباح رضي الله عنه : لما احتضر . . قالت امرأته : واحزناه! فقال : بل قولي : واطرباه ، غداً نلقى الأحبة ؛ محمداً وحزبه . ثم توفي رضي الله عنه .

الإمام خالد بن الوليد رضي الله عنه : حين احتضر . . قال : ما لي من عمل أرجىٰ من شهادة أن لا إلـٰه إلا الله ، وأنا بها متترس ، ثم قال : لا إلـٰه إلا الله ، فتوفي رضي الله عنه .

الإمام أبو هريرة رضي الله عنه : بكىٰ عند موته ، فقيل له : ما هـٰذا البكاء ؟ فقال : ما أبكي علىٰ دنياكم هـٰذه ، وإنما أبكي علىٰ بعد سفري وقلة زادي ، وإني أصبحت في مهبط جنة ونار ، لا أدري إلىٰ أيتهما يؤمر بي .

الإمام حذيفة رضي الله عنه : حين احتضر . . قال : لولا أني أرىٰ أن هـٰذا اليوم آخر أيامي من الدنيا . . لما تكلمت ، اللهم ؛ إنك تعلم أني كنت أحب الفقر على الغنىٰ ، وأحب الذل على العز ، وأحب الموت على الحياة ، حبيب جاء علىٰ فاقة ، لا أفلح مَن ندم .

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٥٣) بلفظ : « لتكن بلغة أحدكم من الدنيا مثل زاد الراكب » .

(٢) **الأساود** : الشخوص من المتاع الذي كان عنده .

(٣) **الإجَّانة** : إناء تغسل فيه الثياب .

(٤) **مرث الشيء في الماء مرثاً** : نقعه فيه .

وفي رواية : دخلنا عليه في جوف الليل فقال : أي ساعة هـٰذه ؟ فأخبرناه ، فقال : أعوذ بالله مِن صباح إلى النار ، ثم قال : أجئتم بأكفاني ؟ قلنا : نعم ، قال : لا تُغالوا بها ؛ فإنه إن يك لصاحبكم عند الله عز وجل خيراً . . يبدل بكسوة خيراً منها ، وإلا . . تسلب سلباً .

وفي رواية أنه قال : ما أدري علىٰ ما أقدم ، علىٰ رضىً أم علىٰ سخط .

الإمام أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله : حين احتضر . . قيل له : أوص ـ أو اعهد ـ يا أمير المؤمنين ، فقال : أحذركم مثل مصرعي هـٰذا ؛ فإنه لا بد لكم منه .

وفي رواية : أنه دعي له طبيب ، فلما نظر إليه . . قال له : أرى الرجل قد سقي السم ، ولا آمن عليه الموت ، فرفع عمر رأسه ، فقال : ولا تأمن الموت أيضاً علىٰ مَن لم يُسْقَ السم ، قال الطبيب : هل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم ، قد عرفت ذلك حين وقع في بطني ، قال : فعالج يا أمير المؤمنين ؛ فإني أخاف أن تذهب نفسك ، فقال : ربي سبحانه وتعالىٰ خير مذهوب إليه ، واللهِ ؛ لو علمت أن شفائي عند شحمة أذني . . لما رفعت يدي إلىٰ أذني فتناولته ، ثم قال : اللهم ؛ خر لعمر في لقائك . فلم يلبث إلا أياماً حتىٰ مات .

زاد في رواية : قالت زوجته فاطمة : كنت أسمع منه في مرضه يقول : اللهم ؛ أخف عليهم موتي ولو ساعة من نهار ، فلما كان اليوم الذي قبض فيه . . خرجت من عنده وجلست في بيت آخر ، وبيني وبينه باب وهو في قبة له ، فسمعته يقول : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ، ثم هدأ ، فدخلت لأنظر إليه ؛ فإذا هو قد مات ، رحمه الله تعالىٰ .

وفي رواية : قيل له : أبشر ؛ فإن الله قد أَحيا بك سُنناً وأظهر بك عدلاً ، فبكىٰ ، ثم قال : أليس أُوقَف وأسأل عن أمر هـٰذا الخلق ؟! فوالله ؛ لو عدلت فيهم . . لخفت علىٰ نفسي ألاَّ تقوم بحجتها بين يدي الله عز وجل إلا أن يلقنها حجتها ، فكيف بكثير مما صنعناه ؟! وفاضت عيناه ، ولم يلبث إلا يسيراً حتىٰ مات رحمه الله .

وفي رواية : قال : أجلسوني ، أجلسوني ، فأجلسوه ، فقال : أنا الذي أَمَرتَني فقصَّرتُ ، ونهيتني فعصيت ـ ثلاث مرات ـ ولـٰكن لا إلـٰه إلا الله . ثم رفع رأسه فأَحَدَّ النظر ، فقيل له في ذلك ، فقال : إني لأرىٰ حضَرةً ، ما هم إنس ولا جن ، ثم قبض رحمه الله .

الإمام جابر بن زيد رحمه الله : قال حجة الإسلام الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : وقيل لجابر بن زيد عند الموت : ما تشتهي ؟ قال : نظرة إلى الحسن ، فلما دخل عليه الحسن . . قيل له : هـٰذا الحسن ، فرفع طرْفه إليه ، فقال : يا إخوتاه ؛ الساعة أفارقكم إما إلى الجنة أو إلى النار .

وفي رواية أخرىٰ : قال : أعوذ بالله من النار ومن سوء الحساب (ثلاث مرات) .

وقال محمد بن واسع رحمه الله عند الموت : يا إخوتاه ؛ عليكم السلام ، إلى النار إلا أن يغفر الله سبحانه وتعالىٰ .

وتمنىٰ بعضهم أن يبقىٰ في النزع أبداً فلا يبعث لثواب ولا عقاب ، فخوف سوء الخاتمة قطع قلوب العارفين ، وهي من الدواهي العظيمة عند الموت نسأل الله السلامة . [انتهىٰ « الإحياء » ٤/٤٦٥] .

الإمام عامر بن عبد الله بن قيس رحمه الله : لما احتضر . . بكىٰ ، فقيل : ما يبكيك ؟ فقال : ما أبكي حزناً من الموت ولا حرصاً على الدنيا ، ولـٰكن أبكي علىٰ ما يفوتني من ظمأ الهواجر ، وعلىٰ قيام الليل بالشتاء .

وفي رواية : قال : لمثل هـٰذا المصرع فليعمل العاملون ، اللهم ؛ إني أستغفرك من تقصيري وتفريطي ، وأتوب إليك من جميع ذنوبي ، لا إلـٰه إلا أنت . ثم لم يزل يرددها حتىٰ مات .

الإمام مسروق رحمه الله : كان يبكي ويجزع وهو محتَضَر ، فقيل له : ما هـٰذا الجزع والبكاء ؟ فقال : وما لي لا أجزع ، وإنما هي ساعة واحدة ولا أدري أين يُسلك بي ، بين يديَّ طريقان : الجنة والنار ، فلا أدري إلىٰ أيتهما يؤمر بي .

الإمام الأسود بن يزيد النخعي رحمه الله : كان يبكي وهو محتَضَر ، فقالوا له : ما هـٰذا الجزع والبكاء ؟ فقال : وما لي لا أبكي وأجزع ، ومَن أحق بذلك مني ؟ والله ؛ لو أُتيت بالمغفرة من الله عز وجل . . لأهمني الحياء مما قد صنعت ، إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب الصغير فيعفو عنه ، فلا يزال مستحياً منه .

الإمام الربيع بن خثيم رحمه الله : لما احتضر . . بكت ابنته ، فقال لها : يا بنية ؛ لِمَ تبكين ؟ قولي : يا بشراي ؛ لقي أبي الخير .

الإمام عروة بن الزبير رحمه الله : قال : كان يقول : أخشاك ربي وأرجوك . . . إلىٰ أن مات

الإمام هرم بن حيان رحمه الله : قيل له : أوصِ ، فقال : لا أدري ما أوصي ، ولـٰكن بيعوا درعي واقضوا دَيني ، فإن لم يف . . فبيعوا غلامي ، وأوصيكم بخواتيم (سورة النحل) : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ إلىٰ آخرها .

ثم قال : وددت أني كنت شجرة أكلتني هـٰذه الراحلة وقذفتني بعراً .

الإمام أبو العالية رحمه الله : قيل له في مرض موته : يعافيك الله ، فقال : أَحَبُّه إليَّ . . أَحَبُّه إلى الله عز وجل .

[الإمام] عبد الله بن المبارك رحمه الله : فتح عينيه عند الوفاة وضحك ، وقال : لمثل هـٰذا فليعمل العاملون .

وفي رواية : أنه قال لمولاه نصر : اجعل رأسي على التراب ، فبكىٰ نصر ، فقال له : ما يبكيك ؟ قال : ذكرت ما كنت فيه من النعيم ، وها أنت تموت فقيراً غريباً ، فقال : اسكت ؛ فإني سألت الله عز وجل أن يحييني حياة الأغنياء ، وأن يميتني موت الفقراء ، ثم قال له : لقِّنِّي لا إلـٰه إلا الله ولا تُعِد عليَّ ما لم أتكلم بكلام ثان .

زاد في رواية : أنه بكىٰ ، فقيل له في ذلك ، فقال : والله ؛ لا أبكي لذنب أعلم أني أتيته ، ولـٰكن أخاف أني أتيت شيئاً حسبته هيناً وهو عند الله عظيم .

الإمام إبراهيم النخعي رحمه الله : لما احتضر . . بكىٰ ، فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : أنتظر مِن ربي رسولاً يبشرني بالجنة أو النار .

الإمام الفضيل بن عياض رحمه الله : لما احتضر . . غشي عليه ، ثم فتح عينيه وقال : وا بعد سَفَراه! وا قلة زاداه .

وفي رواية : لو خيرت بين أن أُبعث ثم أُدخل الجنة وبين ألاَّ أبعث . . لاخترت ألاَّ أبعث ، فقال محمد بن حاتم : إنما هـٰذا مِن الحياء مِن الله عز وجل .

وفي رواية : لو خيرت بين أن أعيش كلباً وأموت كلباً ولا أرىٰ أهوال القيامة . . لاخترت ذلك .

الإمام محمد بن واسع رحمه الله : كان يقول في مرضه : يا إخوتاه ؛ أتدرون أين يُذهَب بي ؟! والله الذي لا إلـٰه إلا هو ؛ إلى النار أو يعفو الله عز وجل عني .

الإمام مالك بن دينار رحمه الله : لما احتضر . . قال : لولا أني أصنع شيئاً لم يصنعه أحد قبلي . . لأوصيت إذا مت أن تقيدوني ، وأن تجمعوا يدي إلىٰ عنقي ، ثم تنطلقوا بي علىٰ ذلك الحال فأدفن ، كما يصنع بالعبد الآبق ، فإذا سألني ربي عز وجل : لِمَ فعلت هٰذا ؟ فأقول : يا رب ؛ وعزتك وجلالك ؛ لم أرض لك نفسي قط ، وأنت أعلم .

الإمام محمد بن المنكدر رحمه الله : لما احتضر . . جزع جزعاً شديداً ، فقيل له في ذلك ، فقال : أخشىٰ آيةً من كتاب الله : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾ .

وفي رواية : جاء صفوان بن سليم إليه فقال له : يا أبا عبد الله ؛ أراك كأنك قد شق عليك الموت ، قال : فما زال يهوِّن عليه الأمر وينجلي عن ابن المنكدر حتىٰ كأن المصابيح في وجهه ، فقال ابن المنكدر : لو ترىٰ ما أنا فيه . . لقرَّتْ عينك . ثم توفي رحمه الله تعالىٰ .

الإمام عامر بن عبد الله بن الزبير رحمهم الله : سمع الأذان وهو يجود بنفسه ، وكان منزله قريباً من المسجد ، فقال : احملوني إلى المسجد ، فقيل له : وأنت علىٰ هٰذا الحال ؟ فقال : أسمع داعي الله عز وجل ولا أجيب ؟! فلما أدخل المسجد . . أحرم بالصلاة ، فلما ركع . . توفي رحمه الله .

الإمام أبو حازم رحمه الله : لما احتضر . . قيل له : كيف تجدك ؟ فقال : بخير ، راجياً لله عز وجل حسن الظن به سبحانه وتعالىٰ .

الإمام عمرو بن قيس الملائي رحمه الله : كان يبكي وهو محتضر ، فقيل له : علىٰ أي شيء تبكي ؟ فوالله ؛ لقد كنت منغص العيش في أيام حياتك ، فقال : والله ؛ ما أبكي على الدنيا ، إنما أبكي خشية أن أُحرَم خير الآخرة .

الإمام مكحول رحمه الله : كان الغالب عليه الحزن في الدنيا ، فلما احتضر . . وجدوه ضاحكاً مستبشراً ، فقيل له في ذلك ، فقال : كيف لا أستبشر وقد دنا فراق ما كنت أحذره ، وقرب قدومي علىٰ من كنت أرجوه وأؤمله وهو الله سبحانه وتعالىٰ ؟!

الإمام سفيان الثوري رحمه الله : قال : ما أحب أن يلي حسابي أبواي ؛ فإن الله عز وجل أرحم بي منهما .

ولما احتضر . . بكىٰ وجزع ، فقيل له : يا أبا عبد الله ؛ أراك كثير الذنوب ؟ قال : فرفع رأسه ، وأخذ تبنة من الأرض ، ثم قال : والله ؛ إن ذنوبي في عفو الله عز وجل أهون من هٰذه ، وإنما أخاف أن أسلب الإيمان قبل أن أموت .

وفي رواية : أنه كان يتنفس ، فقال له حماد بن سلمة : أبشر ؛ فقد نجوت مما كنت تخاف ، وتقدم علىٰ رب غفور ، فقال له سفيان : يا أبا سلمة ؛ أترىٰ أن الله عز وجل يغفر لمثلي ؟ فقال حماد : إي والله الذي لا إلـٰه إلا هو ، قال : فكأنما سُرِّيَ عنه .

زاد في رواية : أنه كان يقول : ذهب الستر ، ذهب الستر(١) .

الإمام عطاء السليمي رحمه الله : لما احتضر . . دخل إليه عبد الواحد بن زيد ، فجعل ينظر إلىٰ عطاء ويتنفس ، فقال له عطاء : لِمَ تتنفس ؟ فقال : من أجلك ، فقال عطاء : والله ؛ لوددت أن نفسي بقيت بين لهاتي وحنجرتي تتردد إلىٰ يوم القيامة ؛ مخافة أن تخرج إلى النار .

الإمام الشافعي رحمه الله : قيل له في مرض موته : كيف أصبحت ؟ فقال : أصبحت من الدنيا راحلاً ، ولإخواني مفارقاً ، ولكأس المنية شارباً ، ولسوء أعمالي ملاقياً ، وعلى الله الكريم سبحانه وتعالىٰ وارداً ، فلا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنئها ، أم إلىٰ النار فأعزيها ، ثم بكىٰ ، وأنشد :

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلت الرجا مني لعفوك سُلَّما
تَعاظَمَني ذنبي فلما قرنتُه ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما
وما زلتَ ذا عفو عن الذنب لم تَزَل ... تجود وتعفو مِنَّةً وتكرُّما
فإن تَعْفُ عني تَعْفُ عن ذي إساءة ... ظلوم غشوم لا يُزَايلُ مأثَمَا
وإن تنتقمْ مني فلست بآيسٍ ... وإن دخلَتْ روحي بجُرمي جهنما

الإمام أحمد ابن حنبل رحمه الله : أمرهم أن يوضِّئوه عند الاحتضار ، ثم جعل يغرق ثم يفيق ، فيقول : لا بعد ، لا بعد ، فقال له ابنه : يا أبت ؛ ما هـٰذا الذي قد لهجت به ؟ فقال : يا بني ؛ إبليس قائم بحذائي عاض علىٰ يديه يقول : يا أحمد ؛ فُتَّني ، فأقول : لا بعد ، لا بعد ، حتىٰ أموت .

الإمام مالك رحمه الله : لما احتضر . . قال : ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾ .

قال الأئمة : وإنما قرأ هـٰذه الآية تفاؤلاً بما بعدها ، وهو قوله تعالىٰ : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

---

(١) في نسخة : (ذهب الشر) .

زاد في رواية بكر بن سليم الصواف قال : دخلنا علىٰ مالك بن أنس في العشية التي قبض فيها ، فقلنا : يا أبا عبد الله ؛ كيف تجدك ؟ فقال : ما أدري ما أقول لكم ، إلا أنكم ستعاينون من لطف الله سبحانه وتعالىٰ ما لم يكن لكم في حساب .

الإمام يحيى بن سعيد القطان رحمه الله : قيل له في مرضه : يعافيك الله ، فقال : أَحَبُّه إلي . . أَحَبُّه إلى الله . كما تقدم عن أبي العالية .

بعض أهل البيت رضوان الله عليهم أجمعين : لما احتضر . . قال لولده : يا بني ؛ اقرأ عليَّ الرخص لأموت وأنا شديد حُسْنِ الظن بالله عز وجل .

الإمام زياد النميري رحمه الله : قال : لولا ما حضرني من هٰذا الأمر . . ما تكلمت بهٰذا ، والله ؛ لقد صدع ذِكر الموت قلبي ، حتىٰ لقد خشيت أن يقتلني ذاك ، اللهم ؛ فلا تؤيسني مما كنت أؤمل في القدوم عليك يا أرحم الراحمين . ثم توفي رحمه الله .

قيل لرجل من الأنصار : كيف تجدك ؟ فقال : أجدني ـ والله ـ لا أرضىٰ حياتي لموتي . ثم توفي رحمه الله .

قال عبد الأعلى التيمي لرجل قد احتضر : ليكن جزعك لما بعد الموت أكثر من جزعك من الموت ، وأعِدَّ لعظيم الأمور حسن الظن بالله سبحانه وتعالىٰ .

احتضر رجل بالمدينة ، فقال : لا تغرنكم الدنيا كما غرتني .

وفي رواية : إن الدنيا أسحَرُ من هاروت وماروت ، فلا تسخرَنَّ بكم الدنيا كما سخرت بي حتىٰ ذهبت أيامي ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

الإمام ذو النون رحمه الله : لما احتضر . . قال له الفتح بن شخرف : كيف تجدك ؟ فقال ذو النون رحمه الله :

وما لي سوى الإطراق والصمت حيلةٌ ... ووضعي علىٰ خدي يدي عند تذكاري
فإن طرقَتْني عبرة بعد عبرة ... تجرعتها حتىٰ إذا عيل تِصْباري
أفضت دموعاً جَمَّة مستهلة ... أُطَفِّي بها حَرّاً تضمن أسراري
وينعش قلبي حسن ظني بواجدي ... فأحيا ولولا ذاك بُحْتُ بأسراري
فيا منتهىٰ سؤلِ المحبين كلِّهم ... أبحني محل الأنس مَعْ كل زواري
ولست أبالي فائتاً بعد فائت ... إذا كنتَ في الدارين يا واجدي جاري

وعن محمد بن يحيىٰ قال : قيل لذي النون عند النزع : أوصنا ، فقال : لا تشغلوني ؛ فإني متعجب من كثرة لطف الله سبحانه وتعالىٰ بي .

الإمام الجنيد رحمه الله : قال الجريري : كنت عنده في حال نزعه ، وكان يوم الجمعة ويوم نيروز ، وهو يقرأ القرآن ، فختم ، فقلت : في هٰذه الحالة يا أبا القاسم ؟! قال : ومَن أولىٰ بذلك مني وهو ذا يطوي صحيفتي ؟!

وفي رواية : أنه قيل له : قل : لا إلٰه إلا الله ، فقال : ما نسيته حتىٰ أذكره .

الإمام أبو سعيد الخراز رحمه الله : قال رويم : حضرت وفاته وهو يقول :

حنين قلوب العارفين إلى الذِّكرِ ... وتذكارهم وقت المناجاة للسرِّ
أديـرت كـؤوس للمنـايـا عليهِـمُ ... فأغفَوْا عن الدنيا كإغفاء ذي السُّكْرِ
همـــومهُـــمُ جـــوالـــة بمعسكـــر ... بـه أهـل ود الله كـالأنجـم الـزُّهـرِ
فأجسامهم في الأرض قتلىٰ بحبه ... وأرواحهم في الحُجْب نحو العُلا تسري[1]
فمـا عَـرَّسـوا إلا بقـرب حبيبهـم ... وما عرَّجوا عن مس بؤس ولا ضر

وقيل للجنيد : إن أبا سعيدٍ الخراز كان كثير التواجد عند الموت ، فقال : لم يكن بعجب أن تطير روحه اشتياقاً .

الإمام أبو علي الروذباري رحمه الله : قالت أخته فاطمة : لما احتضر أخي وكان رأسه في حجري . . فتح عينيه ، فقال : هٰذه أبواب السماء قد فتحت ، وهٰذه الجنان قد زينت ، وهٰذا قائل يقول : قد بلغناك الرتبة القصوىٰ وإن لم تردها ، ثم أنشأ يقول :

وحقـك لا نظـرت إلـىٰ سـواكـا ... بعيـــن محبـــة حتـــىٰ أراكـــا

ثم طفىء من ساعته .

الإمام الشبلي رحمه الله : قيل لخادمه[2] : ما الذي رأيت منه عند الاحتضار ؟ فقال : قال لي : عليَّ مظلمة درهم ، وقد تصدقت عن صاحبه بألوف ، فما علىٰ قلبي شغل أعظم منه ، ثم أشار بأن أوضئه للصلاة ، ففعلت ، فنسيت تخليل لحيته ، وقد أمسك علىٰ لسانه وعَرِق جبينه ، فقبض علىٰ يدي وأدخلها في لحيته ، ثم مات ، فبكىٰ جعفر ، ثم قال :

---

(١) في نسخة : (وأرواحهم في الحجب مطلوبهم تسري) .

(٢) أي : جعفر بن نصير بكران الدينوري ، وكان يخدم الشبلي رحمه الله .

ما تقولون في رجل لم يفته في مثل هٰذا الحال أدب من آداب الشريعة ؟!

الإمام بشر بن الحارث رحمه الله : لما احتضر ـ وكان يشق عليه ـ قيل له : كأنك تحب الحياة ، قال : القدوم على الله عز وجل شديد .

الإمام الواسطي رحمه الله : قيل له لما احتضر : أوصنا ، فقال : احفظوا مراد الحق جل جلاله فيكم ؛ يعني : أوامره ونواهيه سبحانه وتعالىٰ .

احتضر بعضهم ، فبكت امرأته ، فقال لها : ما يبكيك ؟ فقالت : عليك أبكي ، فقال : إن كنتِ باكية . . فابك علىٰ نفسك ؛ فلقد بكيت لهٰذا اليوم أربعين سَنة .

الإمام السَّريُّ رحمه الله : قال الجنيد : دخلت علىٰ سَريٍّ السقطي أعوده في مرض موته ، فقلت له : كيف تجدك ؟ فأنشأ يقول :

كيف أشكو إلىٰ طبيبِيَ ما بي ... والذي بِي أصابني من طبيبي

فأخذتُ المروحة لأروِّحه ، فقال : كيف يجد روح المروحة مَن روحه من داخل القلب تحترق ؟! ثم أنشأ يقول :

القلب محترقٌ والدمع مستبقُ ... والكرب مجتمعٌ والصبر مفترقُ

كيف القرار علىٰ مَن لا قرار له ... مما جناه الهوىٰ والشوق والقلق

يا رب إن كان شيءٌ فيه لي فرج ... فامنن عليَّ به ما دام بي رمق

وقال بعضهم : اللهم ؛ إنك قلت في كتابك العزيز : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ ، فأسألك أن تجعلني ممن تشاء أن يغفر له ، وليس في صحيفتي الشرك ، وأنت أرحم الراحمين .

حكي : أن قوماً من أصحاب الشبلي دخلوا عليه وهو في الموت ، فقالوا له : قل : لا إلـٰه إلا الله ، فأنشأ يقول :

إن بيتاً أنت ساكنه ... غيرُ محتاج إلى السُّرُجِ

وجهك المأمول حُجَّتُنا ... يوم يأتي الناس بالحُجج

لا أباح الله لي فرجاً ... يوم أدعو منك بالفرج

حكي : أن أبا العباس بن عطاء رحمه الله دخل على الجنيد في وقت نزعه ، فسلم ، فلم

يجبه ، ثم أجابه بعد ساعة ، وقال : اعذرني ؛ فإني كنت في وِردي ، ثم ولىٰ وجهه إلى القبلة وكبر ومات رحمه الله .

الإمام الكتاني رحمه الله : قيل له لما احتضر : ما كان عملك ؟ فقال : لو لم يقترب أجلي . . ما أخبرتكم به ، وقفت علىٰ باب قلبي أربعين سَنة ، فكلما مرَّ بي غير الله عز وجل . . حجبته عنه .

وحكي عن المعمر[1] قال : كنت ممن حضر الحكم بن عبد الملك حين جاءه الحق ، فقلت : اللهم ؛ هون عليه سكرات الموت ؛ فإنه كان وكان ، وذكرت من محاسنه ، فأفاق وقال : مَن المتكلم ؟ فقلت : أنا ، فقال : إن ملك الموت يقول لي : إني بكل سخي رفيق . ثم طفىء .

احتضرت امرأة ، فقالت : يا ذخري وذخيرتي ، ويا من عليه اعتمادي وتوكلي ؛ أسألك بعزتك وجلالك ألاَّ تخذُلَني ، ولا توحِشَني في قبري ، وقني سوء الحساب وأهوال يوم القيامة يا أرحم الراحمين .

الإمام يوسف بن أسباط رحمه الله : لما احتضر . . شهده حذيفة ، قال : فوجدته قِلقاً ، فقلت : يا أبا محمد ؛ هـٰذا أوان القلق والجزع ؟! فقال لي : يا أبا عبد الله ؛ وكيف لا أقلَق ولا أجزع وإني لا أعلم ـ والله ـ أني صدقت الله عز وجل في شيء من عملي ؟! فقال حذيفة : واعجباً لهـٰذا الرجل! يحلف عند موته أنه لا يعلم أنه صدق الله في شيء من عمله ؟!

الإمام ممشاذ الدينوري رحمه الله : دخل عليه بعض المشايخ وهو محتَضَر ، فأخذ يدعو له ، فضحك ممشاذ ، ثم قال : منذ ثلاثين سَنة تعرض عليَّ الجنة بما فيها ، فما أعرتها طرْفي .

وقيل له عند النزع : كيف تجد قلبك ؟ فقال : منذ ثلاثين سنة فقدت قلبي .

الإمام رويم رحمه الله : قيل له وهو محتضر : قل : لا إلـٰه إلا الله ، فقال : لا أُحسن غيره

الإمام النوري رحمه الله : لما احتضر . . قيل له : قل : لا إلـٰه إلا الله ، فقال : أليس إلي ثَمَّ أمرٌ ؟

زاد في رواية : قيل له وقد انكسر لسانه وعرق جبينه : هل تشتهي شيئاً ؟ فقال : إي والله شهوة كبيرة ؛ رؤية الله عز وجل . ثم توفي رحمه الله .

---

(١) في نسخة : (المعتمر) .

الإمام أحمد بن خضرويه رحمه الله : لما حضرته الوفاة. . سئل عن مسألة ، فدمعت عيناه ، وقال : يا بني ؛ باب كنت أدقه خمساً وتسعين سَنة ، هوذا يفتح لي الساعة ، لا أدري أيفتح لي بالسعادة أو الشقاوة ، فأنّىٰ لي أوان الجواب ؟! ثم توفي رحمه الله .

وحكي عن بعضهم : أنه لما قربت وفاته. . قال : يا غلام ؛ اشدد كتافي ، وعفِّر خدي ، ثم قال : دنا الرحيل ، اللهم ؛ إنه لا براءة لي من ذنب ، ولا عذر أعتذر به ، ولا قوة لي فأنتصر ، أنت لي ، أنت لي . ومات ، فسمعوا صوتاً : استكان العبد لمولاه سبحانه وتعالىٰ فَقَبِلَهُ .

وقيل لبعضهم وهو في النزع : قل : لا إلـٰه إلا الله ، فقال : إلىٰ متىٰ تقولون وأنا محترق بالله سبحانه وتعالىٰ ؟!

وقيل لأبي محمد الدبيلي وقد حضرته الوفاة : قل : لا إلـٰه إلا الله ، فقال : هـٰذا شيء قد عرفناه ، وبه نفتي[١] .

الإمام أبو تراب رحمه الله : قال أبو عثمان الإصطخري : رأيت أبا تراب في البادية قائماً ميتاً لا يمسكه شيء ، فقلت : أشهد أن الله علىٰ كل شيء قدير .

الإمام أبو يزيد البسطامي رحمه الله : حين احتضر. . قال : ما ذكرتك إلا عن غفلة ، ولا قبضتني إلا علىٰ فترة .

الإمام أبو علي الروذباري رحمه الله : قال : دخلت مصر ، فرأيت الناس مجتمعين ، فسألت عن ذلك ، فقالوا : كنا في جنازة فتىً سمع[٢] قائلاً يقول :

كبُــــرت هِمَّـــــةُ عبـــــدٍ طمعَـــتْ فـــي أن يـــراكـــا

قال : فشهق شهقة ، فمات رحمه الله تعالىٰ .

قال أبو علي الروذباري رحمه الله : قدم علينا شاب ، فكان كالواله ، أقام عندنا أياماً ، فلما حضرته الوفاة. . رأيته مرة يعبس ومرة يستبشر ، فقلت له : كيف تجدك ؟ فقال : يا أبا علي ؛ إذا نظرتُ إلىٰ نفسي وأعمالي. . أَيِسْتُ ، وإذا نظرتُ إلىٰ عفو ربي جل جلاله وسعة رحمته وكرمه. . فرحتُ . ثم توفي ، فأخذت في أمره ، فلما ألحدته. . كشفت الثوب عن

---

(١) في بعض النسخ : (وبه ثقتي) .
(٢) في المخطوط : (فسمع قائلاً) ولعل الصواب ما أثبت .

وجهه لأضعه على التراب ؛ رجاء أن ينظر الله عز وجل إلىٰ ذله ويرحمه ، ففتح عينيه ، وقال : يا أبا علي ؛ أتذللني بين يدي من يدللني ؟! فقلت له : يا سيدي ؛ أحياة بعد الموت ؟ فقال : بل أنا حي ، وكل محب لله عز وجل حي ، ولأنصرنك غداً بجاهي يا روذباري . رحمه الله تعالىٰ .

الإمام أبو يعقوب النهرجوري رحمه الله : قال أبو عبد الله بن خفيف رحمه الله : سمعت أبا الحسن المزين يقول : لما مرض أبو يعقوب النهرجوري . . قلت له وهو في النزع : قل : لا إلـٰه إلا الله ، قال : فتبسم إلي وقال : إياي تعني ؟ وعزة من لا يذوق الموت سبحانه وتعالىٰ ؛ ما بيني وبينه إلا حجاب العزة . وانطفأ من ساعته ، فكان المزين يأخذ بلحيته ويقول : حجَّام مثلي يلقن أولياء الله الشهادة ؟! وا خجلتاه منه! وكان يبكي إذا ذكر هـٰذه الحكاية .

قال أبو سعيد الخراز رحمه الله : كنت بمكة ، فرأيت شاباً حسن الوجه ميتاً ، فلما نظرت إليه . . تبسم في وجهي وقال لي : يا أبا سعيد ؛ أمَا علمت أن الأحباء أحياء وإن ماتوا ؟! وإنما يُنقلون من دار إلىٰ دار . رحمه الله .

قال أحمد بن منصور : قال لي أستاذي أبو يعقوب السوسي رحمه الله : غسَّلت مريداً ، فأمسك إبهامي وهو على المغتسل ، فقلت : يا بني ؛ خَلِّ يدي ، أنا أدري أنك لست بميت ، وإنما هي نقلة من دار إلىٰ دار ، قال : فخلَّىٰ يدي رحمه الله .

قال : وسمعته أيضاً يقول : سمعت أبا بكر[1] أحمد بن محمد الطرسوسي يقول : سمعت إبراهيم بن شيبان يقول : صحبني شاب حسن الإرادة ، فمات ، فاشتغل قلبي به جداً ، فلما أردت غسله . . بدأت بشماله مِن شُغل قلبي عليه ومِن الدهشة ، فأخذها مني وناولني يمينه ، فقلت : صدقت يا بني ، أنا غلطت ، رحمه الله .

الإمام يوسف بن الحسين الرازي رحمه الله : لما احتضر . . قال : اللهم ؛ إنك تعلم أني نصحت خلقك ظاهراً ، وغششت نفسي باطناً ، فهب لي غشي لنفسي لنصحي لخلقك . ثم قبض رحمه الله .

الإمام ضرغام بن وائل رحمه الله : قال : اللهم ؛ إنك تعلم ـ وعزتك وجلالك ـ أنه

---

(١) في نسخة : (أبا بكر بن أحمد بن محمد الطرسوسي) .

لا براءة لي من ذنب فأنتصر ، ولا عذر لي فأعتذر ، وليس إلا عفوك ومغفرتك يا أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين . ثم توفي رحمه الله .

الإمام مطرف بن الشخير رحمه الله : قال : اللهم ؛ خِرْ لي في الذي قضيته عليَّ يا أرحم الراحمين .

الإمام العلاء بن زياد[1] رحمه الله : كان يبكي ، فقيل له في ذلك ، فقال : كنت ـ والله ـ أحب أن أستقبل الموت بتوبة ، ثم دعا بماء فتوضأ ، ولبس ثوباً جديداً ، واستقبل القبلة ، وأومأ برأسه مرتين ، ثم اضطجع ، فمات رحمه الله .

قيل لضيغم بن مالك رحمه الله في مرضه : أقامك الله إلىٰ طاعته ، فقال : قل : أو قبضك الله إلىٰ رحمته ، فلما قال ذلك . . قال : آمين ، فوالله ؛ ما قام من ذلك المرض .

وفي رواية : قالت له أمه : يا ضيغم ؛ كيف فرحك بالقدوم على الله عز وجل ؟ قال : فصاح صيحة وخر مغشياً عليه ، فجلست أمه عند رأسه تبكي وتقول : ما نستطيع أن نذكر عندك شيئاً من أمر الآخرة .

وعن محمد بن ثابت البناني رحمه الله أنه قال : ذهبتُ ألقن أبي عند الموت ، فقال : يا بني ؛ خَلِّ عني ؛ فإني في وِردي السابع .

الإمام يحيى الإصطخري رحمه الله : قال له بعض الحاضرين : اِشهَدْ أن لا إلـٰه إلا الله ، فجلس مستوياً ، ثم أخذ بيد واحد واحد وقال : قل : أشهد أن لا إلـٰه إلا الله ، حتىٰ فعل ذلك بجميع الحاضرين ، ثم توفي رحمه الله .

الإمام أبو زرعة الرازي رحمه الله : قال أبو جعفر التستري : حضرنا أبا زرعة عند وفاته وكان عنده أبو حاتم ، ومحمد بن مسلمة ، والمنذر بن شاذان ، وجماعة من العلماء ، فذكروا حديث التلقين ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « لقنوا موتاكم لا إلـٰه إلا الله » ، واستحيوا من أبي زرعة وهابوا أن يلقنوه ، فقالوا : تعالوا نذكر الحديث ، فقال محمد بن مسلمة : حدثنا الضحاك بن مخلد ، عن عبد الحميد بن جعفر ، عن صالح ، ووقف ولم يجاوز ، وقال أبو حاتم : حدثنا بندار : أخبرنا أبو عاصم ، حدثنا عبد الحميد بن جعفر ، ولم يجاوز ، والباقون سكتوا ، فقال أبو زرعة ـ وهو في النزع ـ : حدثنا بندار ، أخبرنا أبو عاصم قال : حدثنا عبد الحميد بن جعفر ، عن صالح ابن أبي غريب ، عن كثير بن مرة

---

(١) في بعض النسخ : (مطرف بن الشخير) ولم يذكر العلاء بن زياد فيها .

الحضرمي ، عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان آخر كلامه لا إلـٰه إلا الله . . دخل الجنة » ، فتوفي عند قوله : (الله) رحمه الله .

بعض الأئمة الأكابر من أصحاب الشافعي رحمه الله : كان في صلاة المغرب ، ففاضت نفسه وهو يقرأ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

وقد تقدم في ترجمة خيرٍ النساج كلامه عند موته رحمه الله .

ويستحب أن يقول[1] ـ ما رويناه في « صحيح البخاري » [٧٠٥٠] ـ : « اللهم ؛ أسلمت نفسي إليك ، ووجهت وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا مَنجَىٰ منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت ، ونبيك الذي أرسلت ، فإنك إن مت في ليلتك . . مت على الفطرة ، وإن أصبحت . . أصبت أجراً » .

وقال الشيخ جمال الدين أبو الفرج ابن الجوزي قدس الله روحه : رأيت بعض العلماء لما احتضر . . لم يوجد منه تغير بحال ولا انزعاج ، بل كان قوي النفس في وصيته ، مثل مَن ينتقل من دار إلىٰ دار ، رحمه الله . انتهىٰ .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : بل أقول : إن مِن العارفين مَن يكون شديد الفرح بذلك ، حتىٰ إن روحه تكاد تطير اشتياقاً ، كما سبق عن بلال ، وأبي سعيدٍ الخراز ، رضي الله عنهما .

ولا شك أن مراتبهم في الفرح بالموت وشدة اشتياقهم إلىٰ لقاء الله عز وجل . . بحسَب ما أعطاهم الله عز وجل وما أفاض عليهم من العرفان ، ومَن نظر في سيرهم وأحوالهم . . علم ذلك يقيناً .

ألا ترىٰ إلىٰ قول غالب السلف رضوان الله عليهم كيف يذكرون شوقهم إلىٰ لقاء الله عز وجل ، وإلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى الصحابة رضي الله عنهم ، ويسموا واحداً واحداً .

وقول رابعة العدوية رحمها الله حين سئلت : هل طالت بكِ الأيام والليالي بالشوق ؟ فقال السائل : سمعت تخريق قميصها من وراء الحجاب وهي تقول : إي والله الذي لا إلـٰه إلا هو قد طالت ، قد طالت . رحمها الله .

---

(١) أي : كل ليلة .

وأدنىٰ مراتب فرح المؤمن : أنه يخرج من السجن ومن دار الهموم والأحزان إلىٰ دار الفرح والسرور ، ويقدم على الله رب العالمين جلت قدرته وعظمته ، فهو أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين سبحانه وتعالىٰ .

وَهَبْ أن العبد يكون عاصياً ، فمغفرة الله ورحمته وعفوه تَسَعُ كلَّ شيء ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ ، وقال : (سبقت رحمتي غضبي) .

وينبغي للمحتَضَر أن يكون كثير الاستبشار والفرح بقدوم ملك الموت عليه الصلاة والسلام ، ويقول بصدق : ليَجِيءْ متىٰ شاء الله عز وجل ، فوالله ؛ ما من غائب كنت أنتظره أحب إلي منه ، أهلاً وسهلاً ومرحباً بمن طالت غيبته عليَّ ، حبيب جاء علىٰ فاقة ، لا أفلح مَن ندم .

ثم يقول : اللهم ؛ إنك تعلم أن قلبي يحبك ، وكنت أخافك ، وأنا اليوم أرجوك .

وليكن حَسن الظن بالله عز وجل شديد الفرح بلقائه ، ثم يقول : اللهم ؛ إني أسألك بنور وجهك الذي ملأ أركان عرشك ، وأسألك بقدرتك علىٰ كل شيء أن تغفر لي كل شيء حتىٰ لا تسألَني عن شيء ، وأسألك بعلمك الغيب أن تتوفاني على الإيمان ، وألاَّ تنزعه مني ، ولا تنزعني منه .

اللهم ؛ فاطرَ السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، إني أعهد إليك في هٰذه الحياة الدنيا أنك أنت الله الذي لا إلٰه إلا أنت وحدك لا شريك لك ، وأن محمداً عبدك ورسولك ؛ فإنك إن تكلني إلىٰ نفسي . . تقربني من الشر وتباعدني من الخير ؛ فإني لا أثق إلا برحمتك ، فاجعل لي عندك عهداً توفينيه يوم القيامة ؛ إنك لا تخلف الميعاد ، لا إلٰه إلا الله عدد ما أحصىٰ علمه ، لا إلٰه إلا الله عدد عفوه عن خلقه ، وسبحان الله والحمد لله ولا إلٰه إلا الله والله أكبر مثل ذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ثم يقول : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ ، ثم يقول : **وأنا أشهد بما شهد الله به لنفسه ، وشهدَتْ به ملائكته ، وأولو العلم من عباده ، وأستودع الله هٰذه الشهادة عنده حتىٰ ألقاه غير مبدل تبديلاً .**

اللهم ؛ أجرني من النار ومن سائر أهوال يوم القيامة .

اللهم ؛ إني أسألك النظر إلىٰ وجهك الكريم يا أرحم الراحمين ، وأسألك الفردوس

الأعلىٰ ، وأن تحشرني مع سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ، كلما ذكره الذاكرون ، وكلما سها عن ذكره الغافلون ، وعدد عفوك عن خلقك ، وعدد ما أحصىٰ علمك ، وعلىٰ سائر الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وآل كل وسائر الصالحين .

وينبغي للمحتضر أن يكون منه الهدوء والسكون ، وألاَّ يفتر لسانه عن الشهادة خالصاً بذلك من قلبه ، وأن يكون حسن الظن بالله تعالىٰ ، وأن يتيقن ويعلم أن ما ينتقل إليه خير مما هو فيه بلا شك ، وأن يحرص علىٰ أن يخرج من الدنيا فقيراً لا يملك شيئاً كما دخل إليها ، ويجتهد في أن يعتق سبع رقاب ، وأن يطعم عنه سبعة أيام من يوم موته ، وأن يكون حول فراشه من الطِّيب ؛ كالمسك وغيره ؛ فقد جاء عن سلمان رضي الله عنه أنه جعل حول فراشه مسكاً عند الموت ؛ لقدوم الملائكة عليهم الصلاة والسلام ، وأن يجعل علىٰ قبره جريدة خضراء عند رأسه ورجليه .

ثم يسأل الله تعالىٰ رضاه والجنة والفردوس الأعلىٰ ، وأن يجعل خير أيامه يوم لقائه .

ثم يقول : واشوقاه إلى الصحابة رضوان الله عليهم! ويسميهم ، لا سيما الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم .

ويكثر في مرضه من قراءة (قل هو الله أحد) إلىٰ آخرها ، ويقول : اللهم ؛ إني أسألك تعجيل عافيتك ، أو صبراً علىٰ بليتك ، أو خروجاً من الدنيا إلىٰ سعة رحمتك .

ويقول : أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر (ثلاثاً) .

ثم يقول ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يا أبا هريرة ؛ ألا أخبرك بأمرٍ مَن تكلم به في أول مضجعه من مرضه.. نجاه الله من النار ؟ » قلت : بلىٰ يا رسول الله ، قال : « يقول : لا إلـٰه إلا الله يحيي ويميت وهو حي لا يموت ، سبحان الله رب العباد والبلاد ، والحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه علىٰ كل حال ، والله أكبر ، اللهم ؛ إن أنت أمرضتني لتقبض روحي في مرضي هـٰذا.. فاجعل روحي في أرواح من سبقت لهم منك الحسنىٰ ، وباعدني من النار كما باعدت أولياءك الذين سبقت لهم منك الحسنىٰ يا أرحم الراحمين »[1] .

ثم يقول دعاء الكرب : اللهم ؛ إني أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، اللهم ؛ أنت ربي ورب المستضعفين ، إلـٰهي ؛ إلىٰ مَن تكلني ؟ إلىٰ بعيد

---

(١) أخرجه بنحوه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (٣٨) .

يتجهمني ؟ أو إلىٰ عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضب عليَّ . . فلا أبالي ، ولـٰكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، مِن أن تُنزل بي غضبك ، أو يحل بي سخطك ، فلك العتبىٰ حتىٰ ترضىٰ ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

اللهم ؛ أنت ربي لا إلـٰه إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك ، وأنا علىٰ عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء لك بذنبي ، فاغفر لي ؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .

يا حي يا قيوم ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا بديع السماوات والأرض ؛ لا إلـٰه إلا أنت ، برحمتك أستغيث ، أصلح لي شأني كله ، لا إلـٰه إلا الله عدد ما أحصىٰ علمه .

ويستحب أن يكتب في صدر وصيته : هـٰذا ما أوصىٰ به فلان بن فلان ، أنه يشهد أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴾ ، وأوصىٰ مَن ترك بعده من أهله وسائر المؤمنين أن يتقوا الله حق تقاته ، وأن يصلحوا ذات بينهم ، ويطيعوا الله ورسوله إن كانوا مؤمنين ، وأوصاهم بما وصىٰ به إبراهيم عليه الصلاة والسلام بنيه ويعقوب ﴿ يَـٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

وأن يقول : أُشهد الله ـ وكفىٰ بالله شهيداً وجازياً لعباده الصالحين مثيباً ـ أَني رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد سيد المرسلين نبياً ورسولاً ، وأني آمُرُ نفسي ومَن أطاعني أن يعبدوا الله في العابدين ، ويحمدوه في الحامدين ، وينصحوا لجماعة المسلمين .

اللهم ؛ إني أستغفرك من كل ذنب تبت منه ثم عدت فيه ، اللهم ؛ إني أستغفرك من كل ما أردت به غير وجهك الكريم ، ومِن كل ما ليس فيه رضاك ، اللهم ؛ إني أستغفرك مِن كل ما وعدتك به من نفسي ثم لم أَفِ لك به ، اللهم . . إني أستغفرك مِن كل نعمة أنعمتَ بها عليَّ فقويت بها علىٰ معصيتك .

اللهم ؛ إني أستغفرك من الذنوب التي لا يعلمها غيرك ، ولا يطلع عليها سواك ، ولا يسعها إلا عفوك ورحمتك ، ولا ينجيني منها إلا عفوك ، لا إلـٰه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، اللهم ؛ إني أستغفرك من جميع المظالم التي لعبادك عندي .

اللهم ؛ إني أسألك أن أي عبد وأمة من عبيدك وإمائك ظلمتُه في بدنه ، أو عرضه ، أو ماله ، ولم أستطع الأداء إليه والاستحلال منه . . فأرضهم عني بكرمك من خزائنك التي لا تنقص يا أكرم الأكرمين .

وأسألك أن تتغمدني برحمتك التي وسعت كل شيء ، وقد قلتَ وقولك الحق ، وأنت أصدق القائلين : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ ، وليس في صحيفتي الشرك ، وأنت أعلم ، وأنت مننت عليَّ بذلك ، فاغفر لي ذنوبي ، وارحمني يا أرحم الراحمين .

وأسألك ألاَّ تهينني بعذابك ، ولا تطردني عن بابك ، وأن تعطيني من الخير كله ما سألتك وما لم أسأل ؛ فإنك حقيق بالخيرات ، وأنت علىٰ كل شيء قدير .

ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ، ويذكر الصحابة رضوان الله عليهم واحداً واحداً ، ويترضىٰ عنهم .

ثم يقول : السلام عليك يا رسول الله . . . إلىٰ آخر السلام المذكور في كتاب « الإيضاح في مناسك الحج » للشيخ محيي الدين النووي قدس الله روحه [ص٤٥١] .

ويدعو بدعاء الجنيد رحمه الله المذكور في ترجمته .

وجميع ما ذكرناه في آخر هـٰذا الكتاب من سعة رحمة الله تعالىٰ ؛ ليموت وهو حَسَن الظن بربه سبحانه وتعالىٰ .

ويذكر أيضاً الكلمات التي قالها معروف الكرخي رحمه الله ، وهي خمسة للدنيا وخمسة للآخرة ، مَن دعا بهن . . وجد الله عندهن ، وهي :

حسبي الله لديني ، حسبي الله لدنياي ، حسبي الله الكريم لما أهمني ، حسبي الله الحليم القوي لمن بغىٰ عليَّ ، حسبي الله الشديد لمن كادني بسوء ، حسبي الله الرحيم عند الموت ، حسبي الله الرؤوف عند المُساءلة في القبر ، حسبي الله العظيم الخبير عند الحساب ، حسبي الله اللطيف عند الميزان ، حسبي الله القوي عند الصراط ، حسبي الله لا إلـٰه إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، لا إلـٰه إلا الله العلي العظيم ، لا إلـٰه إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله رب العرش العظيم ، والحمد لله رب العالمين .

اللهم ، فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ؛ لا إلـٰه إلا أنت ، رب كل

شيء ومليكه ؛ أعوذ بك من شر نفسي ، ومن شر الشيطان وشَرَكه[1] ، وأن أقترف علىٰ نفسي سوءاً ، أو أجرَّه إلىٰ مسلم .

وما أحسن ما قال بعضهم رحمه الله :

وقفت علىٰ أبوابهم أشتكي الجفا ... أكلم رسماً للتواصل قد عفا
فقالوا مَن الشاكي فقلت متيَّمٌ ... يروح ويغدو مِن جفاكمْ علىٰ شفا
حزين كئيب قد تناهىٰ به الضنىٰ ... أناخ علىٰ أبوابكم يرتجي الشفا
فقالوا وما تبغي فقلت لهم عسىٰ ... ينال لديكم رحمة وتعطفا
فقالوا لقد أفسدت ما كان بيننا ... قديماً وكدرت الوداد الذي صفا
فقلت هبوني جانياً متجافياً ... أما عندكم عفو لذي هفوة هفا
فقالوا طريق الحب صعب سلوكه ... عليك ومصباح القبول قد انطفا
فقلت ولي ظن جميل ألفته ... فوا أسفاً إن خاب ظني وأَخلفا

وقال بعضهم أيضاً :

قالوا غداً نأتي ديار الحمىٰ ... ونترك الركب بمغناهُمُ
وكل مَن كان مطيعاً لهمْ ... أصبح مسروراً بلقياهم
قلت فلي ذنب فما حيلتي ... بأي وجه أتلقَّاهم
قيل أليس العفو من شأنهمْ ... لا سيما عمن ترَجَّاهم

وقال بعضهم أيضاً :

هنيئاً لمن أضحىٰ وأنت حبيبهُ ... ولو أن نيرانَ الغرام تذيبهُ
وطوبىٰ لقلب أنت ساكنُ سرِّه ... ولو بان عنه إلفه وقريبه
وواه لمطرود عن الباب مُبْعَدٍ ... لقد ضاق في هـٰذا الوجود رحيبه
أيا غاية الآمال مَن أنت أنسه ... فكل بلاء عنده يستطيبه
ومَن أنت راض عنه في طي غيبه ... فما ضره والله مَن يستغيبه[2]

---

(١) شَرَكه : حبل صيده .

(٢) جاء في نسخة :

(ومن أنت راض عنه في طي عيبه ... فما ضره والله من يستعيبه)

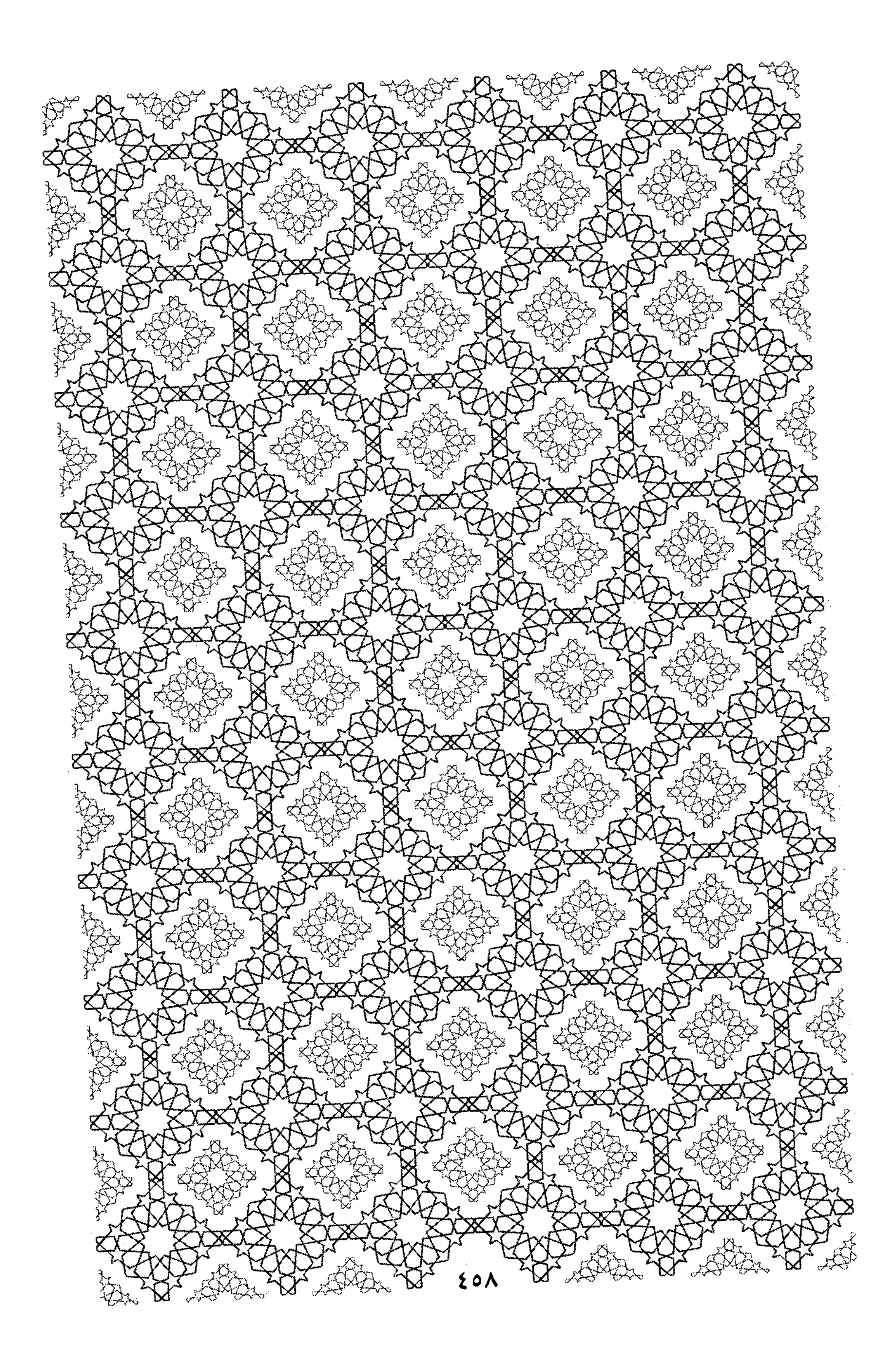
وما ضر صَبّاً أن يبيت وما له نصيب من الدنيا وأنت نصيبه
وحقِّك مَن لا ذاق وصلك ميت يحق عليه ندبه ونحيبه
عُبَيْدُك في باب التطفل سائل إذا لم تجبه أنت من ذا يجيبه
تفضَّلْ علىٰ مَن ضاع منه زمانه ولم يدر حتىٰ لاح منه مشيبه
غَدَا خاسراً والعار يكفيه والشقا وقد حان من ضوء النهار مغيبه
غريب عن الأوطان يبكي لذُلِّه وهل ذاق طعمَ الذُّلِّ إلا غريبُهُ
فقير مِن الأعمال أنت غَناؤه مريض من الآثام أنت طبيبه
إذا ما حَدا الحادي بذِكرك هاجه بلاء تلاقَىٰ ماؤه وَلهيبه

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *



الفصل الأول
في بعض المصطَفَيات من النساء
رضوان الله عليهن أجمعين



فمنهن :

معاذة العدوية
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كانت معاذة العدوية إذا جاء النهار . . قالت : هٰذا يومي الذي أموت فيه ، فما تنام حتىٰ تمسي ، وإذا جاء الليل . . قالت : هٰذه الليلة التي أموت فيها ، فلا تنام حتىٰ تصبح .

وكانت إذا غلبها النوم . . قامت فجالت في الدار وهي تقول : يا نفس ؛ النوم أمامك ، لو قد مُتِّ . . لطالت رقدتك في القبر علىٰ حسرة أو سرور . ثم لا تزال تقول ذلك حتىٰ تصبح .

وكانت تصلي في اليوم والليلة ست مئة ركعة ، وتقرأ جزءها من الليل تقوم به .

وكانت تقول : عجبت لعين تنام وقد عرفت طول الرقاد في ظُلَم القبور .

وقال الحسن بن علي : سمعت أبا السوار العدوي يقول : أَشَدُّ أهلِ هٰذه البلدة اجتهاداً أبو الصهباء ، لا يفطر نهاره ولا ينام ليله ، وهٰذه المرأة معاذة بنت عبد الله العدويةُ لم ترفع رأسها إلى السماء أربعين عاماً .

وقد قدمنا بعض أمرها في ترجمة زوجها صلة بن أشيم .

وكانت معاذة بعد زوجها أبي الصهباء لم تتوسد فراشاً حتىٰ ماتت .

وقالت أم الأسود بنت زيد العدوية : كانت معاذة قد أرضعتني ، فقالت لي معاذة ـ لمَّا قتل أبو الصهباء وقتل ولدها : والله يا بنية ؛ ما محبتي للبقاء في الدنيا للذيذ عيش ولا لرَوح نسيم ، ولٰكن ـ والله ـ أحب البقاء لأتقرَّب إلىٰ ربي عز وجل بالوسائل ، لعله يجمع بيني وبين أبي الصهباء وولده في الجنة .

وكانت معاذة تقول لأم الأسود : لا تفسدي رضاعي بأكل الحرام ؛ فإني جهدت جهدي

حين أرضعتك حتىٰ أكلت الحلال ، فاجتهدي ألاَّ تأكلي إلا حلالاً ، لعلك أن توفقي لخدمة سيدك ، والرضا بقضائه سبحانه وتعالىٰ .

فكانت أم الأسود تقول : ما أكلت شيئاً فيه شبهة . . إلا فاتتني فريضة أو وِرد من أورادي .

وقالت عفيرة العابدة : بلغني أن معاذة العدوية لما حضرتها الوفاة . . بكت ، ثم ضحكت ، فقيل لها : مم بكيت ثم ضحكت ؟ فقالت : أما البكاء . . فإني ـ والله ـ ذكرت مفارقة الصلاة والصيام والذِّكر فكان البكاء لذلك ، وأما التبسم . . فإني نظرت إلىٰ أبي الصهباء وقد أقبل من صحن الدار وعليه حلتان خضراوتان ، وهو في نفرٍ والله ما رأيت لهم في الدنيا شبيهاً ، فضحِكْت إليه ، ولا أراني أُدرك بعد ذلك فرضاً . فماتت قبل أن يدخل وقت الصلاة .

أدركت معاذة عائشة رضي الله عنها ، وروت عنها رحمها الله تعالىٰ . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ١٤ـ١٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهن :

رابعة العدوية
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال عبد الله بن عيسىٰ : دخلت علىٰ رابعةَ العدويةِ في بيتها ، فرأيت علىٰ وجهها النور ، وكانت كثيرة البكاء ، فقرأ رجل آية من القرآن فيها ذِكر النار ، فصاحت ، ثم سقطت ، ودخلت عليها وهي جالسة علىٰ قطعة بوري[1] خلقة ، فتكلم رجل عندها بشيء ، فجعلت أسمع وقْعَ دموعها على البوري مثل الوكف[2] ، ثم اضطربت وصاحت ، فقمنا وخرجنا .

قال مسمع بن عاصم ورياح القيسي : شهدنا رابعة العدوية قد أتاها رجل بأربعين ديناراً ، فقال لها : تستعينين بهٰذه علىٰ بعض حوائجك ، فبكت ، ثم رفعت رأسها إلى السماء وقالت : هو سبحانه وتعالىٰ يعلم أني أستحي منه أن أسأله الدنيا وهو يملكها ، فكيف أريد أن آخذها ممن لا يملكها ؟!

وقال محمد بن عمرو : دخلت علىٰ رابعة العدوية وكانت عجوزاً كبيرة بنت ثمانين سنة ، كأنها الشن ، تكاد تسقط ، ورأيت في بيتها قطع بواري ، ومشجب قصب فارسي طوله قدر ذراعين وستر البيت جله ، وربما كان بوري وحب وكوز ولَبِد ، هو فراشها وهو مصلاها ، وكان لها مشجب من قصب عليه أكفانها .

وكانت إذا ذكرت الموت . . انتفضت وأصابها رعدة ، وإذا مرت بقوم . . عرفوا فيها العبادة . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/١٧ـ١٨] .

وقالت رابعة يوماً : استغفارنا يحتاج إلى استغفار .

وقال حجة الإسلام الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : أما قولها : (استغفارنا يحتاج إلى

---

(١) البوري : الحصير المنسوج من القصب .
(٢) أي : مثل تقاطر الماء من سقف البيت .

استغفار) . . فاعلم : أنه قد ورد في فضل الاستغفار أخبار كثيرة ، وقد جعل الله عز وجل الاستغفار مقروناً ببقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ .

وكان بعض الصحابة رضي الله عنهم يقول : كان لنا أمانان : **أحدهما** : كون رسول الله صلى الله عليه وسلّم كان فينا ، وبقي الاستغفار ، فإن ذهب . . هلكنا .

فنقول : الاستغفار الذي هو توبة الكذابين : هو الاستغفار بمجرد اللسان من غير أن يكون للقلب فيه شركة ، كما يقول الإنسان بحكم العادة عن رأس الغفلة : (أستغفر الله) وكما يقول إذا سمع صفة النار : (نعوذ بالله من النار) من غير أن يتأثر قلبه .

وكان بعضهم يقول : أستغفر الله من قولي : أستغفر الله .

وقيل : الاستغفار باللسان توبة الكذابين ؛ فإن هٰذا يرجع إلىٰ مجرد حركة اللسان ، ولا جدوىٰ له ، فإذا انضاف إليه تضرُّع إلى الله عز وجل وابتهالٌ في سؤال المغفرة عن صدق وإرادة وخلوص رغبة . . فهٰذه حسنة في نفسها ، فيصلح أن يدفع بها السيئة ، وعلىٰ هٰذا تُحمَل الأخبار الواردة في فضل الاستغفار ، حتىٰ قال صلى الله عليه وسلّم : « ما أصر مَن استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة »(1) ، وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب .

والاستغفار درجات ، وأوائله لا تخلو عن الفائدة ، ولهٰذا لما سئل سهل رحمه الله عن الاستغفار الذي يكفر الذنوب . . فقال : أول الاستغفار الاستجابة ، ثم الإنابة ، ثم التوبة ، فالاستجابة : أعمال الجوارح ، والإنابة : أعمال القلوب ، والتوبة : إقباله علىٰ مولاه جل جلاله بأن يترك الخلق ، ويستغفر من التقصير الذي هو فيه ، ومن الجهل بالنعمة ، وترك الشكر .

فالاستغفار باللسان لا يخلو عن فائدة كما تقدم ، فلا ينبغي أن يُظَن أن وجوده كعدمه ، فإن أرباب البصائر والمشاهدات عرفوا معرفة لا ريب فيها أن قول الله عز وجل : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ . . أنه حق وصدق ، وأنه لا تخلو ذرة من ذرات الخير عن أثر ، كما لا تخلو شعيرة تطرح في الميزان عن أثر ، ولو خلت الشعيرة الأولىٰ عن أثر . . لكانت الثانية مثلها ، ولكان لا يترجح الميزان بأحمال ،

---

(1) أخرجه البيهقي في « الكبرىٰ » (١٠/١٨٨) .

وذلك بالضرورة محال ، بل ميزان الحسنات يرجح بذرات الخيرات إلىٰ أن يثقل ، فيشيل كفة السيآت .

فإياك أن تستحقر ذرات الطاعات فلا تأتيها ، وذرات المعاصي فلا تتقيها ؛ فإن الاستغفار باللسان حسنة ؛ لأن حركة اللسان به ولو عن غفلة . . خير من حركة اللسان بغِيبة مسلم ، أو فضول فيما لا يعنيه ، بل هو خير من السكوت المجرد ، فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه ، وإنما هو قاصر بالإضافة إلىٰ عمل القلب .

ولذلك قال بعضهم لشيخه أبي عثمان المغربي : إن لساني في بعض الأحوال يجري بالذِّكر والقرآن وقلبي غافل ؟ فقال : اشكر الله عز وجل إذ استعمل جارحة من جوارحك في خير ، وعوَّدَهُ الذِّكر ، ولم يستعمله في الشر ، ولم يعوده الفضول .

وما ذكره حق ؛ فإنَّ تَعَوُّدَ الجوارح للخيرات حتىٰ تصير لها كالطبع . . يدفع جملة من المعاصي ، فمَن تعود لسانه الاستغفار إذا سمع مِن غيره كذباً . . سبق لسانه إلىٰ ما تعوَّدَ ، وقال : أستغفر الله .

فقول رابعة رحمها الله : (استغفارنا يحتاج إلى استغفار) . . لا يُظَن أنها تذم حركة اللسان من حيث إنه ذكر الله عز وجل ، بل تذم غفلة القلب ؛ فهو يحتاج إلى الاستغفار مِن غفلة قلبه لا من حركة لسانه ، فإن سكت عن الاستغفار باللسان أيضاً . . احتاج إلى استغفارين لا إلى استغفار واحد .

فهٰكذا ينبغي أن يُفهَم ذمُّ ما يذم وحمدُ ما يحمد ، وإلا . . جهلت معنىٰ قول العارفين : (حسنات الأبرار سيئات المقربين) فإن هٰذه أمور تثبت بالإضافة ، فلا ينبغي أن تؤخذ من غير إضافة ، بل ينبغي ألاَّ تحتقر ذرات الطاعات والمعاصي .

ولذلك قال جعفر الصادق رحمه الله : إن الله تعالىٰ خبأ ثلاثاً في ثلاث :

ـ رضاه في طاعته ، فلا تحقروا منها شيئاً ، لعل رضاه سبحانه فيه .

ـ وغضبَه في معاصيه ، فلا تحقروا منها شيئاً ، فلعل غضبه فيه .

ـ وولايتَه في عباده ، فلا تحقروا منهم أحداً ، فلعله وليٌّ لله سبحانه وتعالىٰ[1] .

---

(١) الإحياء (٤/ ٤٧ـ٤٩) .

وقيل لرابعة رحمها الله : ما تقولين في الجنة ؟ فقالت : الجار قبل الدار ، أو : الجار ثم الدار .

قال الغزالي : فبينت رابعة أنه ليس في قلبها التفات إلى الجنة ، بل إلىٰ رب الجنة جل جلاله[1] ؛ فإن سفيان الثوري رحمه الله لما سأل رابعة العدوية قال لها : ما حقيقة إيمانك ؟ قالت : ما عبدته خوفاً من ناره ولا حباً لجنته ، فأكون كالأجير السوء ، بل عبدته حباً له وشوقاً إليه جل جلاله[2] .

ثم قال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : وكل مَن لم يعرف الله عز وجل في الدنيا . . فلا يراه في الآخرة ، وكل مَن لم يجد له لذة المعرفة في الدنيا . . فلا يجد له لذة النظر في الآخرة ؛ إذ ليس يستأنف لأحد في الآخرة ما لم يصحبه في الدنيا ، فلا يحصد أحد إلا ما زرع ، ولا يحشر المرء إلا علىٰ ما مات عليه ، ولا يموت إلا علىٰ ما عاش عليه .

فما صحبه من المعرفة في الدنيا . . هي التي يتنعم بها فقط إلاَّ أنه يصير مشاهدة في الآخرة بكشف الغطاء ، وذلك هو منتهىٰ لذته ، وهي الرؤية .

فإذاً : نعيم الجنة بقدر حب الله عز وجل ، وحبُّ الله سبحانه وتعالىٰ بقدر معرفته ، فأصل السعادات هي المعرفة بالله سبحانه وتعالىٰ . انتهىٰ [« الإحياء » ٤/ ٣١٠ـ٣١٤] .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري : سُئلت رابعة رحمها الله : متىٰ يكون العبد راضياً ؟ فقالت : إذا سرته المصيبة كما تسره النعمة .

وقال أيضاً : قيل : إن رابعة رحمها الله خاطت شقاً في قميصها في ضوء مشعل سلطاني ، ففقدت قلبها زماناً . . . حتىٰ تذكرت ، فشقت ذلك الموضع من القميص ، فوجدت قلبها . انتهىٰ [« الرسالة القشيرية » ٥٢ و٩٣] .

وقال أبو الفرج : وقال لها رجل : ادعي لي ، فالتصقت بالحائط وقالت : مَن أنا يرحمك الله حتىٰ أدعو لك ؟ أطع ربك عز وجل وادعه ؛ فإنه يجيب المضطر إذا دعاه .

ودخل رجل علىٰ رابعة ، فوجدها ساجدة ، فلما أحست بدخوله . . رفعت رأسها ، قال : فإذا موضع سجودها كهيئة الماء المستنقع من دموعها ، فسلمت ، وأقبلت عليَّ ،

---

(١) الإحياء (٤/ ٣١٣) .

(٢) الإحياء (٤/ ٣١٠) .

وقالت : يا بني ؛ ألك حاجة ؟ فقلت : جئت لأسلم عليك ، فبكت ، وقالت : سِترَك اللهم سترك ، ودعت بدعوات ، ثم قامت إلى الصلاة ، فانصرفْتُ .

وقال أزهر بن مروان : دخل علىٰ رابعة العدوية رياح القيسي وصالح بن عبد الجليل وغيره ، فتذاكروا الدنيا وأقبلوا يذمونها ، فقالت : إني لأرىٰ للدنيا في قلوبكم محلاً وربيعاً ، فقالوا : ومِن أين توهَّمْتِ علينا ذلك ؟ فقالت : لأنكم نظرتم إلىٰ أقرب الأشياء من قلوبكم ، فتكلمتم فيه .

وقيل لها : هل عملت عملاً ترين أنه قد قُبِل منك ؟ قالت : إن كان . . فمخافتي أن يُرَدَّ عليَّ .

وقال جعفر بن سليمان : أخذ بيدي سفيان الثوري وقال : امض بنا إلى المؤدِّبة التي لا أجد مَن أستريح إليه إذا فارقتها ، فلما دخل عليها . . رفع سفيان يديه وقال : اللهم ؛ إني أسألك السلامة ، فبكت رابعة ، فقال لها : ما يبكيك ؟ فقالت : أنت عرَّضتني للبكاء ، فقال لها : وكيف ذاك ؟ فقالت : أمَا علمت أن السلامة من الدنيا ترك ما فيها ؟! فكيف وأنت متلطخ بها ؟!

وقال سفيان الثوري مرة بين يدي رابعة : واحزناه ، فقالت : لا تقل هـٰذا ؛ فإنه قد يكون كذباً ، ولـٰكن قل : واقلة حزناه ، لو كنت محزوناً . . ما هنأك العيش .

وقالت رابعة لسفيان : إنما أنت أيام معدودة ، فكلما مضىٰ يوم . . ذهب بعضك ، ويوشك إذا ذهب البعض . . أن يذهب الكل ، وأنت تعلم فاعمل .

وكانت تصلي الليل كله ، ثم تهجع هجعة خفيفة حتىٰ يسفر الفجر ، ثم تَثِبُ من رقدتها وهي منزعجة ، وتقول : يا نفس ؛ كم تنامين ؟ وإلىٰ كم تقومين ؟ يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور .

وكان هـٰذا دأبها حتىٰ ماتت ، فلما حضرتها الوفاة . . دعت امرأة كانت تخدمها ، فقالت : يا عبدة ؛ لا تؤذني بموتي أحداً ، وكفنيني في بتي هـٰذه . جبة من شعر كانت تقوم فيها .

قالت عبدة : ففعلت ذلك ، ورأيتها بعد ذلك بسَنة ـ أو نحوها ـ في منامي وعليها جبة من إستبرق خضراء ، وخمار من سندس أخضر ، لم أر شيئاً أحسن منه ، فقلت : يا رابعة ؛ ما فعلت الجبة التي كفَّنَّاك فيها والخمار الصوف ، فقالت : إنه ـ والله ـ نُزِع عني ، وأُبدِلْتُ

عنه هـٰذا الذي ترينه ، وطُويَتْ أكفاني ، ورفعتُ في عليين ؛ ليكمل لي ثوابها يوم القيامة .

قالت : فقلت لها : لهـٰذا كنت تعملين في أيام الدنيا ؟ فقالت : وما هـٰذا عند ما رأيتُ من كرامة الله عز وجل لأوليائه .

قالت : فقلت لها : ما فعلت عبيدة بنت أبي كلاب ؟ قالت : هيهات هيهات! سبقتنا إلى الدرجات العلىٰ ، فقلت لها : وبم ذاك وقد كنتِ عند الناس أكبر منها ؟ فقالت : إنها لم تكن تبالي علىٰ أي حالة أصبحت من الدنيا وأمست .

قالت : فقلت : فما فعل ابن مالك ؛ تعني : ضيغماً ؟ فقالت : يزور الله عز وجل متىٰ شاء .

قالت : فقلت : فما فعل بشر بن منصور ؟ قالت : بخ بخ! أعطي والله فوق ما كان يؤمل .

قالت : قلت : فأْمريني بأمر أتقرب به إلى الله عز وجل ، فقالت : أكثري من ذِكر الله تعالىٰ ، فيوشك أن تُغبَطي بذلك في قبرك . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/١٨ـ١٩] .

توفيت سنة خمس وثلاثين ومئة رحمها الله .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : كانت رابعة تقول : مقام المحبة أشرف من مقام الخلة ؛ لأن المحبة تكون من غير مكافأة والخلة لا تكون إلا عن مكافأة ، وإن كانت الخلة هي انزعاج يتخلل الأنفاس والأرواح والشغاف والأشباح . وأنشدت :

قد تخللتَ مسلكَ الروح مني ... وبذا سُمِّيَ الخليلُ خليلا

فإذا ما نطقتُ كنتَ حديثي ... وإذا ما سكتُّ كنتَ الغَليلا

وحكي في « بهجة الأسرار » : عن أبي خليفة قال : كان جعفر بن سليمان الهاشمي له بالبصرة غلة كل يوم ثمانين ألف درهم ، فبعث إلىٰ علماء أهل البصرة يستشيرهم في امرأة يتزوجها ، فأجمعوا علىٰ رابعة العدوية ، فكتب إليها :

بسم الله الرحمـٰن الرحيم .

أما بعد : فإن الذي هو مِلكي من غلة الدنيا في كل يوم ثمانين ألف درهم ، وليس يمضي إلا قليلٌ حتىٰ أتمها مئة ألف إن شاء الله عز وجل ، وأنا أخطبك إلىٰ نفسك ، وقد بذلت لك من الصداق ثلاث مئة ألف ، وأنا أرسل إليك من بعدها أمثالها ، فأجيبيني .

فكتبت إليه :

بسم الله الرحمـٰن الرحيم .

فإن الزهد في الدنيا راحة القلب والبدن ، والرغبة فيها تورث الهَمَّ والحزن ، فإذا أتاك كتابي هـٰذا . . فهيِّء زادك ليوم فقرك وحاجتك ، وقدِّم لمعادك ؛ لتحيا حياة طيبة ، وكن وصيَّ نفسك ، ولا تجعل وصيَّك غيرَك ، وصم دهرَك ، واجعل الموت فطورك ، فما يسرني ـ واللهِ ـ أن الله عز وجل خوَّلَني أضعاف ما خولك ، فيشغلني به عنه سبحانه وتعالىٰ طرفة عين . والسلام .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهن :

امرأة رياح القيسي
رضي الله عنهما

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال الحسن بن يوسف البزاز : تزوج رياح القيسي امرأة ، فبنىٰ بها ، فلما أصبح . . قامت إلىٰ عجينها ، فقال لها : لو نظرت امرأة تكفيك هـٰذا ، فقالت : إنما تزوجت رياحاً القيسي ، ولم أرني تزوجت جباراً عنيداً .

فلما كان الليل . . نام ليختبرها ، فقامت ربع الليل ، ثم نادته : قم يا رياح ؛ فقال لها : أقوم ، فقامت الربع الآخر ، ثم نادته : يا رياح ؛ قم ، فقال : أقوم ، فلم يقم ، فقامت الربع الآخر ، ثم نادته : قم يا رياح ، فقامت الربع الآخر ، ثم نادته : يا رياح ؛ قم فقد مضى الليل وعسكر المحسنون وأنت نائم ، فليت شعري مَن غرني بك يا رياح ؟

وقال : اغتممت مرة في شيء من أمر الدنيا ، فقالت لي : أراك تغتم لأمر الدنيا ، غرني بك شميط[1] ، ثم أخذت هدبة من مِقْنَعَتها[2] وقالت : الدنيا كلها أهون عليَّ من هـٰذه .

وكانت إذا صلت العشاء . . تطيبت ولبست ثيابها ، ثم جاءتني ، فتقول : ألك حاجة ؟ فإن قلت : نعم . . كانت معي ، وإن قلت : لا . . قامت ، فنزعت ثيابها ، ثم صلت إلى الفجر ، رحمها الله تعالىٰ . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٢٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) **شميط بن عجلان** : أحد عباد البصرة المشهورين .

(٢) **المِقْنَعَةُ** : ما تقنع به المرأة رأسها .

ومنهن :

ماجدة القرشية
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال إياس بن حمزة : قالت لي ماجدة القرشية : طوىٰ أملي طلوع الشمس وغروبها ، فما من حركة تسمع ولا من قدم يوضع . . إلا ظننت أن الموت في إثرها .

وكانت تقول : سكان دار أذنوا بالنقلة ، وهم حيارىٰ يركضون في المهلة ، كأن المرادَ غيرهم ، والتأذين ليس لهم ، والمعنيَّ بالأمر سواهم ، يا لها من عقول ما أنقصها! ومِن جهالة ما أتمها! بؤساً لأهل المعاصي ، ماذا غروا به من الإمهال والاستدراج ؟!

وكانت تقول : بسطوا آمالهم ، ونَسُوا آجالهم ، وأضاعوا أعمالهم ، ولو نصبوا الآجال قدام عيونهم وطردوا الآمال . . خفَّت عليهم الأعمال .

وكانت تقول : لم ينل المطيعون ما نالوا من حلول الجنان ، ورضى الرحمـٰن . . إلا بتعب الأبدان لله الواحد القهار ، والقيام له بحقه سبحانه وتعالىٰ في المنشط والمكره .

وكانت تقول : لو رأت أعين الزاهدين في الدنيا ما أعد الله لأهل الإعراض عن الدنيا . . لذابت أنفسهم شوقاً إلى الموت ؛ لينالوا ما أعد الله تعالىٰ لهم مما أمَّلوه بفضله وكرمه سبحانه وتعالىٰ . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٤٨] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهن :

فاطمة بنت عمران
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كانت فاطمة كثيرة التهجد والاجتهاد .

وقال الحسن بن علي رحمه الله : قدم علينا أبو محمد الرملي ، فلقي فاطمة بنت عمران رحمها الله ، فقال : هـٰذه رابعة وقتها .

وكانت مجابة الدعوة ، مقيمة علىٰ تعهد الفقراء والغرباء إلىٰ أن ماتت رضي الله عنها وأرضاها . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٧٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهن :

فاطمة النيسابورية
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : عن محمد بن الحسن أنه قال : سمعت ابن ملول ـ وكان شيخاً كبيراً رأىٰ ذا النون المصري رحمه الله ـ قال : سألته[1] : مَن أَجلُّ مَن رأيت ؟ قال : ما رأيت أحداً أجلَّ من امرأة رأيتها بمكة يقال لها : فاطمة النيسابورية ، وكانت تتكلم في فهم القرآن ، وتعجبت منها ، فسألت عنها ذا النون ، فقال لي : هي ولية من أولياء الله تعالىٰ ، وهي أستاذتي ، سمعتها تقول : مَن لم يراقب الله عز وجل في كل حال . . فإنه يتخطىٰ في كل ميدان ، ويتكلم بكل لسان ، ومَن راقب الله عز وجل في جميع الأحوال . . أخرسه إلا عن الصدق ، وألزمه الحياء منه والإخلاص له .

وقالت : مَن عمل لله عز وجل على المشاهدة . . فهو عارف ، ومَن عمل علىٰ مشاهدة الله تعالىٰ إياه . . فهو مخلص .

وقال السلمي : كانت فاطمة من قدماء نساء خراسان ، أتىٰ إليها أبو يزيد ، وسألها ذو النون عن مسائل ، وكانت مجاورة بمكة ، فربما دخلت إلىٰ بيت المقدس ثم رجعت إلىٰ مكة .

وقال أبو يزيد البسطامي رحمه الله : ما رأيت في عمري إلا رجلاً وامرأة ، فالمرأة فاطمة النيسابورية ، ما أخبرتها عن مقام من المقامات إلا كان الخبر لها عِياناً .

وقال لها ذو النون : عظيني ـ وقد اجتمعا ببيت المقدس ـ فقالت له : الزم الصدق ، وجاهد نفسك في أفعالك .

ماتت فاطمة رحمها الله بمكة في طريق العمرة ، سَنة ثلاث وعشرين ومئتين رضي الله عنها وأرضاها . [انتهىٰ « الصفوة » ٤/٨٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

---

(١) أي : محمد بن الحسن سأل ابنَ ملول .

ومنهن :

رابعة بنت إسماعيل ، زوج أحمد ابن أبي الحواري

رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال أحمد ابن أبي الحواري : قلت لرابعة بنت إسماعيل بعد أن تزوجتها وقد قامت بليل : قد رأينا أبا سليمان وتعبدنا معه ، ما رأيناه يقوم من أول الليل ، فقالت : سبحان الله! مثلك مَن يتكلم بهٰذا ؟! إنما أقوم إذا نوديت .

وقال أحمد : جلست مرة آكل ، فاشتغلت هي بالذِّكر لله عز وجل ، فقلت لها : دعينا يهنينا طعامنا ، فقالت : لست أنا ولا أنت ممن يتنغص عليه الطعام إذا ذكر الآخرة .

وقال : قالت : أي أخي ؛ أعلمت أن العبد إذا عمل بطاعة الله عز وجل. . أطلعه الجبار علىٰ مساوىء عمله فتشاغل بها دون خلقه ؟

قال : وكانت لها أحوال شتىٰ ، فمرة يغلب عليها الحب ، ومرة يغلب عليها الأنس ، ومرة يغلب عليها الخوف ، فقال أحمد : ربما قلت لها : أصائمة أنت ؟ فتقول : وما مثلي يفطر في الدنيا ، وربما نظرت إلىٰ وجهها ، فيتحرك قلبي علىٰ رؤيتها ما لا يتحرك مع مذاكرة أصحابنا. . من آثار العبادة .

وكانت تقول لي : لست أحبك حب الأزواج ، إنما أحبك حب الإخوان ، وإنما رغبت فيك رغبة في خدمتك ، وكنت أحب أن يأكل مالي مثلك ومثل إخوانك .

وكانت لها سبعة آلاف ، فأنفقتها عليَّ .

وكانت إذا طبخت. . تقول : يا سيدي ؛ كُلْ فما نضج إلا بالتسبيح .

وكانت تقول : لست أستحل أن أمنعك نفسي ولا غيري ، اذهب فتزوج ، قال : فتزوجت ثلاثاً .

وكانت تطعمني اللحم وتقول : اذهب بقوَّتك إلىٰ أهلك ، وكنت إذا أردت جماعها

نهاراً . . قالت : أسألك بالله لا تفطِّرني اليوم ، وإذا أردتها بالليل . . تقول : أسألك بالله لما وهبتني لله الليلة .

وكانت تقول : ما سمعت الأذان قط . . إلا ذكرت منادي القيامة ، ولا رأيت الثلج . . إلا ذكرت تطاير الصحف ، ولا رأيت حرّاً[1] . . إلا ذكرت الحشر .

وقالت يوماً : أبعدوا عني هٰذا الطشت ؛ فإنه مكتوب عليه : مات أمير المؤمنين هارون الرشيد ، قال : فنظروا ؛ فإذا هو قد مات اليوم .

قال : وسمعتها تقول : ربما رأيت الجن يذهبون ويجيئون ، وربما رأيت الحور العين يستترن مني بأكمامهن . وقالت بيدها علىٰ رأسها هٰكذا .

قال : ودعوتها يوماً فلم تجبني ، فلما كان بعد ساعة . . أجابتني ، وقالت : إنما منعني أن أجيبك أن قلبي كان قد امتلأ فرحاً بربي عز وجل ، فلم أقدر أن أجيبك . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٢١٢ـ٢١٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) في « الصفوة » جراداً .

ومنهن :

أم هارون
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال عبد العزيز بن عمير : كانت أم هارون من الخائفين العابدين ، قد أنزلت الدنيا منزلتها ، فكانت تأكل الخبز وحده .

وكانت إذا أتى الليل عليها . . تقول : ما أطيبَه! إني لأغتم بالنهار حتىٰ يجيء الليل .

وكانت تقوم الليل كله ، فإذا جاء السحر . . تقول : دخل قلبي الرَّوح .

وقال أحمد : خرجت أم هارون من قريتها تريد موضعها ، فصاح صبي : خذوه ، فسقطت أم هارون ، فوقعت علىٰ حجر ، فدميت وظهر الدم من مقنعتها .

وقال أبو سليمان : مَن أراد أن ينظر إلىٰ صعِقٍ صحيح . . فلينظر إلىٰ أم هارون .

وقال أبو سليمان : ما كنت أرىٰ أن يكون بالشام مثلها .

وقال أحمد ابن أبي الحواري : قالت لي زوجتي رابعة : ما دهنَتْ أم هارون رأسها منذ عشرين سَنة ، فإذا كشفنا رؤوسنا . . كان شعرها أحسن من شعورنا .

وقال قاسم الجوعي : مرضَتْ أم هارون ، فأتينا نعودها أنا وصاحب لي ، فدخلنا عليها وهي علىٰ طرف الدرجة ، فسألناها عن حالها ، فقلت : يا أم هارون ؛ أيكون من العُبَّاد من يشغله خوف النار عن الشوق إلى الجنان ؟! فقالت : أواه! وسقطت من الدرجة مغشياً عليها .

وقال قاسم : كانت أم هارون تأتي بيت المقدس من دمشق كل شهر علىٰ رجليها ، فدخلت عليها ، فقالت لي : يا قاسم ؛ كنت أمشي في طريق بيت المقدس ؛ فإذا قد عرض لي هـٰذا الكلب ـ يعني : الأسد ـ فمشىٰ نحوي ، فلما قرب مني . . نظرت إليه وقلت : تعال يا كلب ، إن كان لك رزق فيَّ . . فكُلْ ، فلما سمع كلامي . . أقعىٰ ، ثم ولىٰ راجعاً .

وقال أحمد : قلت لأم هارون : أتحبين الموت ؟ فقالت : لا ، قلت : ولم ؟ قالت :

لو عصيت آدمياً . . ما أحببت لقاءه ، فكيف أختار الموت مع كثرة ذنوبي وعصياني ؟! أو كما قال . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٢١٤] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهن :

عمرة امرأة حبيب أبي محمد
رضي الله عنهما

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : عمرة امرأة حبيب كانت من المجتهدات في العبادة ، استيقظت ذات ليلة من منامها ، فوجدت زوجها نائماً ، فأيقظته ، ثم قالت له : قم يا رجل ، فقد ذهب الليل وجاء النهار ، وبين يديك طريق طويل بعيد ، وقوافل الصالحين قد سارت أمامنا ، وقد بقينا نحن متأخرين عنهم .

وقال حبيب أبو محمد : اشتكت عمرة من عينيها ، فقلت لها : كيف تجدين عينيك ؟ وما حالهما ؟ فقالت : وجع قلبي أشد عليَّ من وجع عيني . رضي الله عنها . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٢٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهن :

أمةُ الجليل بنتُ عمروٍ العدوية
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال مسمع بن عاصم : اختلف العابدون في تعريف الولاية علىٰ أقوال كثيرة ، ثم جاؤوا إلىٰ أمة الجليل ، واستأذنوا في الدخول إليها في منزلها ، فلما دخلوا . . قالوا لها ما جرىٰ بينهم من الكلام في تعريف الولاية ، وأن كل شخص ذهب إلىٰ شيء ، فما الذي عندك في ذلك ؟ فقالت : ساعات الولي ساعات شغل عن الدنيا ، ليس لولي في الدنيا من ساعة يتفرغ فيها لشيء من ذلك ، ثم أقبلت علىٰ أحدهم وقالت له : مَن حدثك أن ولياً من أولياء ٱلله سبحانه وتعالىٰ له هَمٌّ غير ٱلله عز وجل . . فلا تصدقه . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٢٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

❊ ❊ ❊

ومنهن :

عبيدة بنت أبي كلاب
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كانت عبيدة من المراقبين لله تعالىٰ ، قيل لها يوماً : يا عبيدة ؛ ما الذي تشتهين ؟ فقالت : أشتهي الموت ، قيل لها : ولِمَ ؟ فقالت : لأني في كل يوم أصبح أخشىٰ أن أجني علىٰ نفسي جناية يكون فيها عطبي أيام الآخرة .

وقال عبد العزيز بن سليمان : كانت عبيدة وأبي يختلفان إلىٰ مالك بن دينار عشرين سَنة ، قال أبي : فما سمعتها يوماً تسأل مالكاً عن شيء ، إلا أنها قالت ذات يوم : يا أبا يحيىٰ ؛ متىٰ يبلغ المتقي الدرجة العليا التي ليس فوقها درجة ؟ فقال مالك : بخ بخ يا عبيدة! إذا بلغ المتقي تلك الدرجة التي ليس فوقها درجة . . لم يكن شيء أحب إليه من القدوم على ٱلله عز وجل ، قال : فصرخت عبيدة صرخة ، فخرت مغشياً عليها ، فما أفاقت إلا بعد حين .

قالوا : لقد ماتت عبيدة يوم ماتت وما خلَّفت في البصرة أفضل منها .

ولما ماتت رابعة العدوية رحمها الله . . رئيت في المنام ، فقيل لها : ما فعلت عبيدة بنت أبي كلاب ؟ قالت : هيهات هيهات! سبقتنا إلى الدرجات العُلىٰ ، فقيل لها : وبم ذاك وقد كنت عند الناس أكبر منها ؟ فقالت : فإن عبيدة لم تكن تبالي علىٰ أي حال أصبحت من الدنيا أو أمست ، رضي الله عنها . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٢١ـ٢٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهن :

عفيرة العابدة
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه ٱلله ـ : قصد جماعة من العابدين زيارة عفيرة العابدة ، فلما دخلوا منزلها . . قال بعضهم : يا عفيرة ؛ ادعي ٱلله عز وجل لنا ، فبكت ، ثم قالت : لو خرس الخاطئون . . ما تكلمت عجوزكم ، ولـٰكن المحسن سبحانه وتعالىٰ قد أمر المسيء بالدعاء : جعل ٱلله عز وجل قِراكم من بيتي الجنة ، وجعل ذِكر الموت مني ومنكم علىٰ بال ، وعفا عنا أجمعين ، وحفظ علينا الإيمان ، وهو أرحم الراحمين ، وصلى ٱلله علىٰ سيد المرسلين محمد وآله وصحبه وسلم أجمعين ، كلما ذكره الذاكرون ، وكلما سَها عن ذكره الغافلون . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٢٠ـ٢١] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهن :

شعوانة
رضي الله عنها

قال أبو الفرج : كانت شعوانة لا تفتر من البكاء ، فقيل لها في ذلك ، فقالت : وٱلله ؛ لوددت أني أبكي حتىٰ تنقطع دموعي ، ثم أبكي دماً حتىٰ لا تبقىٰ جارحة من جسدي فيها دم ، وأنَّىٰ لي بالبكاء ؟!

وكانت تقول : مَن استطاع منكم أن يبكي . . فليبكِ ، وإلا . . فليرحم الباكين ؛ فإن الباكي إنما يبكي لمعرفته بنفسه وبما جنىٰ عليها .

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : أتيت شعوانة فسألتها أن تدعو لي ، فقالت : يا فضيل ؛ أما بينك وبين ٱلله عز وجل ما إن دعوتَه استجاب لك ؟ قال الراوي : فشهق الفضيل شهقة وخر مغشياً عليه ، وما أفاق إلا بعد حين .

وكانت شعوانة تقول : إلـٰهي وسيدي ومولاي ؛ إنك لتعلم أن العطشان من حبك لا يروىٰ أبداً .

وقيل لكردوية بنت عمرو البصرية وكانت تخدم شعوانة[1] : ما الذي حصل لك من بركات خدمة شعوانة ؟ فقالت : ما أحببت الدنيا منذ خدمتها ، ولا اهتممت لرزقي ، ولا عَظُمَ في عيني صاحب دنيا لأجل دنياه ، ولا استصغرت أحداً من المسلمين . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٣٣ـ٣٥] .

(١) الصفوة (٤/٢٥ـ٢٦) .

خاتمة

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا ٱلله عنهما ـ : أول مقامات العبد : التوبة النصوح ، وهي ما كان لله عز وجل خالصاً ، وعنها تنشأ استنارة القلب .

وقيل : أول المقامات اليقظة ، وهي القومة لله عز وجل ؛ قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ ، وهي في الحقيقة عبارة عن الانتباه من رقدة الغفلة ، والتجافي عن دار الغرور والمهلة ، وهي الأصل في عمدة التائبين .

وقيل : اليقظة تنبيه من الحق جل جلاله بسبب وبغير سبب .

فأما الذي بغير سبب . . فهي نفحة من نفحات الحق[1] ، فيشهد الحق من غير نصب ولا تعب .

وأما الذي بسبب . . فهو إما أن يحصل من نفس العبد أو من غيره .

فأما الذي من نفسه . . فقد يكون بنظر واستدلال ؛ كالنظر في الآفاق وفي الأنفس ، كما قال تعالىٰ : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ، وقد يكون مما أجراه ٱلله عز وجل علىٰ لسانه ؛ كما جرىٰ لشعوانة العابدة رحمها الله وهي تضرب بالدف وتقول :

خاطبني الحق من جَناني ... فكان وعظي علىٰ لساني

فتنبهَتْ ، وكسرت العود ، وأقبلت على العبادة والزهادة ، والعزوف عن الدنيا وعن كل ما يقطعها عن ٱلله عز وجل .

وأما الذي من غيره . . فهو إما من كتاب ٱلله عز وجل ؛ كما جرىٰ لغير واحد من العارفين ، منهم : الفضيل بن عياض رحمه الله حين سمع قارئاً يقرأ : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ ، قال : بلىٰ يا رب ؛ قد آن قد آن ، فتوجه إلىٰ مكة ـ شرفها ٱلله تعالىٰ ـ وأقام بها إلىٰ أن مات ، وكان من أمره ما كان .

أو أن يكون من سُنة رسول الله صلى الله عليه وسلّم ؛ كما قد ورد عنه صلى الله عليه

---

(١) في بعض النسخ : (الجذب) .

وسلّم أنه قال : « لو تعلمون ما أعلم . . لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » .

وإما أن يكون من واعظ آخر ، وهو إما بلسان الحال أو بلسان المقال .

فأما ما كان بلسان المقال . . فهو إما مِن أعلىٰ منه فتنفعل النفس له ؛ لعظمة وَعْظه ووقور حرمته في صدره ، وأصل ذلك صدق الواعظ مع ٱلله عز وجل ، وقصده بالموعظة وجه ٱلله عز وجل ، والنصح لعامة المسلمين ؛ كما جرىٰ لغير واحد من العارفين ، منهم : أبو محمد حبيب الفارسي رحمه الله حين حضر مجلس الإمام أبي سعيد الحسن البصري رحمه الله .

وإما أن يكون الواعظ مساوياً ؛ كما جرىٰ لغير واحد من العارفين ، منهم : الشبلي والخواص رحمهما الله ؛ فإنهما تابا في مجلس خير النساج رحمه الله .

وإما أن يكون دونه ؛ كما جرىٰ لغير واحد من العارفين ، منهم : أبو سليمان الداراني رحمه الله حين حضر مجلس واعظ ثلاث مرات ، فكسر آلات المخالفة ، ولزم الطريق ، وتعبد ، فقال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله : عصفورٌ اصطاد كَرْكياً . أراد بالعصفور : الواعظ ، وبالكَرْكي : أبا سليمان الداراني .

وقد تكون الموعظة من العدو ؛ كما جرىٰ لغير واحد من العارفين ، منهم : شقيق البلخي رحمه الله حين سافر إلىٰ بلاد الكفر لتجارة ، فدخل بيت الأصنام ، فرأىٰ كبيرهم وعالمهم وهو شاب حسن الصورة ، وعليه ثياب أرجوانية ، وقد حلق رأسه ولحيته ، فقال له شقيق : يا هـٰذا ؛ إن لك إلـٰهاً صانعاً حياً عالماً قادراً خالقاً رازقاً ، فهلا عبدته وتركت عبادة هـٰذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ؟ فقال له : إن كان ما تقول حقاً . . فلأي شيء تعنيت في التجارة إلىٰ هـٰهنا وهو قادر علىٰ أن يرزقك ببلدك وتربح التعب ؟ فقال له : صدقت ، واستيقظ ، ولزم الطريق ، وتعبد إلىٰ أن كان من أمره ما كان ، وأنشد بلسان الحال :

جزى ٱلله مَن عاديتُ خيراً فإنني	سأحمَده من حيث لا أحمَد الخِلاَّ
تتبَّعَ عيبي جاهداً فاجتنبتُه	وناقشني فضلاً قبلت به الفضلا

وأما ما كان بلسان الحال . . فهو إما بحسب العادة أو بخرقها .

فأما ما كان بحسب العادة . . فهو كثير ؛ مثل : رؤية الموتىٰ ، والاتعاظ بأهل البلايا ، وقد قالوا : السعيد مَن وُعِظ بغيره ، والشقي مَن اتعظ به غيره .

وأما ما كان بخرق العادة . . فكما جرىٰ لغير واحد من العارفين :

منهم : أبو الفيض ذو النون المصري رحمه الله ، أنه قال : خرجت من مصر إلىٰ بعض

القرىٰ ، فنمت تحت شجرة وفتحت عيناي ؛ فإذا بقنبرة عمياء قد سقطت من وكرها على الأرض ، فانشقت الأرض ، فخرج منها سكرجتان ، إحداهما : من ذهب فيها سمسم ، والأخرىٰ : من فضة فيها ماء ، فجعلت تأكل من هـٰذه وتشرب من هـٰذه ، فقلت : حسبي ، ولزمت الباب .

ومنهم : شاه بن شجاع الكرماني ، وقد ذكرنا سبب عزوفه عن الدنيا وزهده فيها في ترجمته .

وقد يكون التنبيه أيضاً من حيث خرق العادة بالمقال في نوم أو يقظة ؛ كما جرىٰ لغير واحد من العارفين ، منهم : إبراهيم بن أدهم رحمه الله ؛ حيث نودي من قربوس سرجه كما مر في ترجمته .

وقد يكون بطريق ما يسمعه من الناس ؛ كما جرىٰ لغير واحد من العارفين ، منهم : داوود الطائي رحمه الله ، حيث نحاه المطرقون[1] بين يدي حميد كما مر في ترجمته .

وقيل : إنه سمع قائلاً يقول : الخيار سبعة بدانق ، فقال : هـٰذا الخيار سبعة بدانق ، فما ظنك بالأشرار ؟! أو كما قال .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) هم الذين يفسحون الطريق أمام السلطان .

ومنهن :

آمنة الرملية
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه ٱلله ـ : قال جعفر بن محمد : اعتل بشر بن الحارث رحمه الله ، فعادته آمنة من الرملة ، فبينما هي عنده ؛ إذ دخل أحمد ابن حنبل رحمه الله يعوده ، فقال : مَن هٰذه ؟ فقال بشر : هٰذه آمنة الرملية ، بلغتها علَّتي ، فجاءت من الرملة تعودني ، فقال أحمد لبشر : سلها تدعو لنا ، فقال لها بشر : ادعي ٱلله لنا ، فقالت : اللهم ؛ إن بشر بن الحارث وأحمد ابن حنبل يستجيران بك من النار . . فأجرهما .

قال أحمد ابن حنبل : ثم انصرفت ، فلما كان من الليل . . طُرِحَتْ إليَّ رقعة مكتوب فيها : بسم ٱلله الرحمـٰن الرحيم ، قد فعلنا ذلك ولدينا مزيد . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٢١٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهن :

منفوسة بنت زيد ابن أبي الفوارس
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه ٱلله ـ : أصيبت منفوسة بابن لها ، فجاء الناس إليها يعزونها ، فوجدوه في حجرها وهي تقول : وٱلله ؛ لَتقدُّمُكَ أمامي.. أحب إلي من تأخرك خلفي ، ولَصبري عنك.. أولىٰ من جزعي عليك ، ولئن كان فراقك حسرة.. فإن توقع أجرك لخيرة .

ثم قالت : لله در عمرو بن معدي كرب حيث يقول :

وإنـــا لَقـــوم لا تفيـــض دمـــوعنـــا على هالك منا وإن قصم الظهرا[1]

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

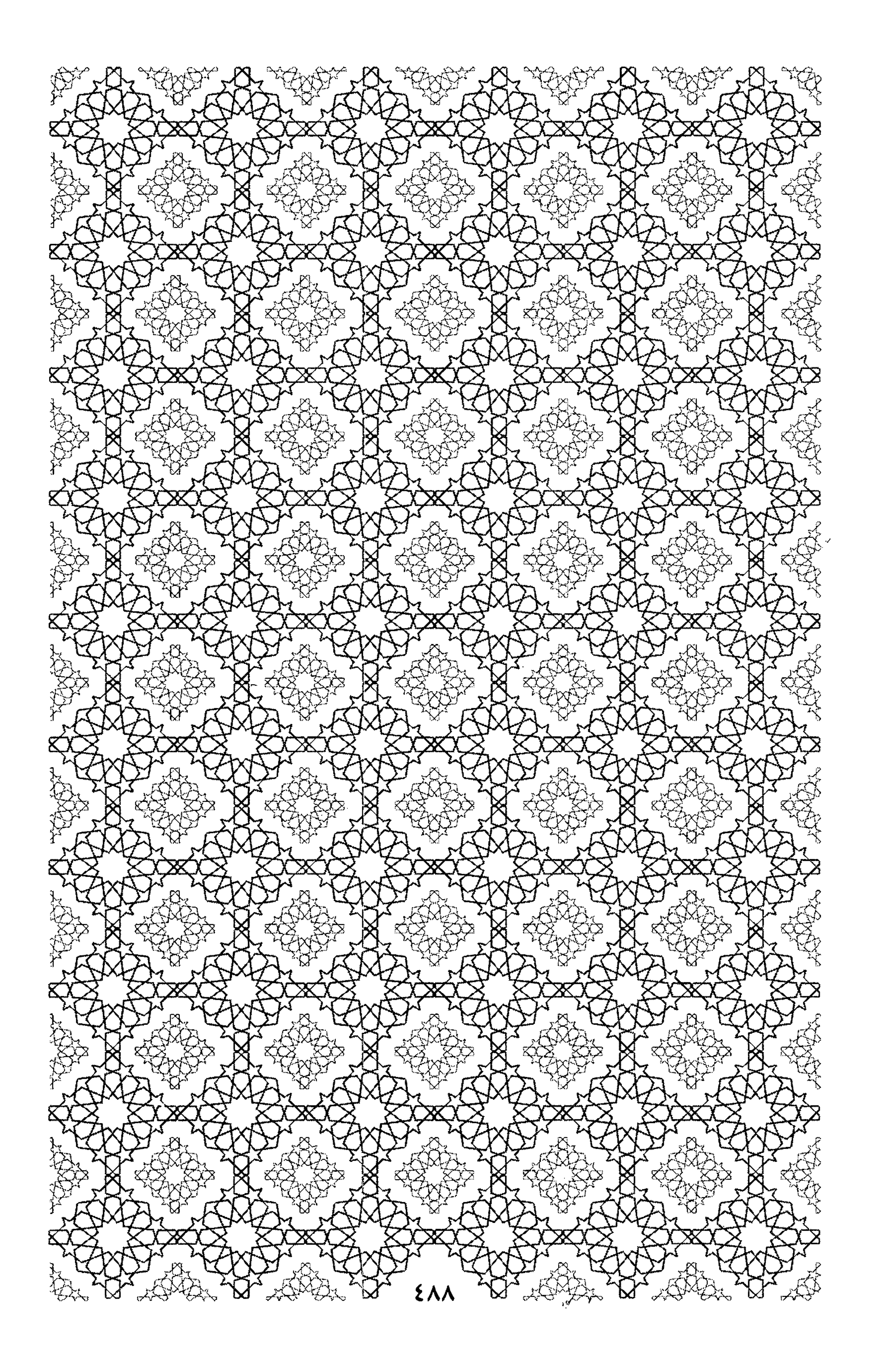
---

(١) الصفوة (٤/ ٢٧١) .



الفصل الثاني

في جماعة عرفت أحوالهم
وخفيت أسماؤهم من الرجال والنساء
رضوان الله تعالىٰ عليهم أجمعين



قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه ٱلله ـ : فمنهم من حاله عَلِيٌّ واسمه خَفِيٌّ :

قال أبو عبيد البسري : سألت رجلاً باللُّكَّام[1] : ما الذي أجلسك في هٰذا الموضع ؟ فقال لي : وما سؤالك عن شيء إن طلبتَه . . لم تدركه ، وإن لحقته . . لم تقع عليه ؟! فقلت له : بالله أخبرني ؛ لعل ٱلله عز وجل أن ينفعني به .

فقال : علمي بأن مجالستي مع الله عز وجل ساعة واحدة بل لحظة واحدة . . تستغرق جميع نعيم الجنان كلها ، ثم قال : أوه! قد كنت أظن أن نفسي ظفرَتْ ، ومِن الخلق قد هربَتْ ، فإذا أنا كذاب في مقامي هٰذا ، لو كنت محباً لله عز وجل صادقاً . . لَمَا اطلع أحد من الناس عليَّ .

فقلت له : أمَا علمت أن المحبين لله عز وجل هم خلفاء الله عز وجل في أرضه ، لا يزالون مستأنسين بخلقه يرشدونهم إلىٰ طاعته ؟

قال : فصاح فيَّ صيحة عظيمة وقال لي : يا مخدوع ؛ لو شممت رائحة الخلد وعاين قلبك ما وراء ذلك من القرب . . لما احتجت إلىٰ أن ترىٰ فوق ما رأيت .

ثم قال : يا سماء ويا أرض ؛ اشهدا عليَّ أنه ما خطر علىٰ قلبي ذِكر الجنة والنار قط ، اللهم ؛ إن كنت صادقاً . . فأمتني الآن . قال : فوٱلله ما سمعت له كلاماً بعد ذلك ، ووقع ميتاً ، فخفت أن يسبق إليَّ ظنٌّ من الناس ، قال : فتركته ومضيت ، فبينا أنا مار . . نظرت ؛ فإذا بجماعة قالوا : آجرك ٱلله ، قد قبض الفتىٰ رحمه ٱلله تعالىٰ ، قال : فرجعت معهم وصلينا عليه ، ثم قلت لهم : بالله مَن هٰذا الرجل ؟ ومَن أنتم ؟ قال : فقالوا : ويحك! هٰذا رجل به كان يُمطِر الله عز وجل من السماء المطر ، قلبه علىٰ قلب إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، أمَا سمعته يخبر عن نفسه أن ذِكر الجنة والنار ما خطر علىٰ قلبه قط ، فهل كان أحد هٰكذا إلا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ؟

قال : قلت : فبالله مَن أنتم ؟ قالوا : نحن السبعة المخصوصون من الأبدال ، قلت : فبالله علموني شيئاً أنتفع به ، قالوا : لا تُحِبَّ أن تُعرَف ، ولا تحب أن يُعرف أنك ممن لا يحب أن يعرف . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ١٦٧ـ١٦٨] .

---

(١) **اللُّكَّام** : جبل بالشام امتداد لجبال لبنان ، مطل علىٰ أنطاكية ، وكان يأوي إليه كثير من العباد .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه ٱلله ـ : قال محمد بن المنكدر : كنت ليلة مواجهاً المنبر في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلّم ؛ وإذا شخص في جوف الليل قد قنَّع رأسه ، فسمعته يقول : اللهم ؛ يا رب ؛ يا رب ؛ إن القحط قد اشتد علىٰ عبادك وأنت أعلم ، وإني أسألك ـ أو قال : أقسم عليك ـ يا ربي بعزتك وجلالك إلا سقيتهم .

قال ابن المنكدر : فلم تكن إلا ساعة وإذا سحابة قد أقبلت ، ثم أرسل ٱلله سبحانه وتعالى المطر كأفواه العَزَالي[1] ، فقلت : مثل هـٰذا بالمدينة وأنا لا أعرفه ؟! فلما سلم الإمام من صلاة الصبح . . تقنع وانصرف ، قال : فتبعته ، فدخل دار أنس ، ثم إنه دخل موضعاً وأخرج مفتاحاً ، ففتح ثم دخل[2] .

قال ابن المنكدر : فرجعت ، فلما أسفر النهار . . أتيته ، فسمعت نجراً في بيته ، فسلمت ، ثم قلت : أأدخل ؟ قال : ادخل ، فإذا هو ينجر أقداحاً ، فقلت له : كيف أصبحت رحمك ٱلله تعالىٰ ؟ قال : فاستعظم هـٰذا القول مني ، فقلت له : إني سمعت إقسامك البارحة على ٱلله عز وجل ، يا أخي ؛ هل لك في نفقة تغنيك عن هـٰذا وتفرغك لما تريد من أمر الآخرة ؟ فقال : لا ، ولـٰكن أريد غير ذلك ، ألاَّ تذكرني لأحد ، ولا تذكر هـٰذا لأحد حتىٰ أموت ، ولا تأتيني يابن المنكدر ؛ فإنك إن تأتيني . . شهرتني للناس ، فقلت : إني أحب أن ألقاك ، قال : اِلْقَني في المسجد ، وكان فارسياً ، قال : فما ذكرت ذلك لأحد حتىٰ مات رحمه الله تعالىٰ .

قال ابن وهب : ثم إن الفارسي انتقل من تلك الدار في ذلك اليوم ، فلم يُرَ ولم يعلم أين ذهب ، فقال أهل الدار : الله بيننا وبين ابن المنكدر ، أخرجَ عنا الرجل الصالح . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ١٧٢] . والله أعلم .

---

(١) العزالي : جمع : عزلاء ، وهي : مصب الماء من القربة ونحوها ، وهـٰذا كناية عن شدة المطر وغزارته .
(٢) في « الحلية » : (حتىٰ أتىٰ دار أنس ، فأخرج مفتاحاً ففتح ثم دخل) .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه ٱلله ـ : قال عبد ٱلله بن عمير : خرجت مع أبي من قرية نريد قرية أخرىٰ ، فضللنا عن الطريق ، فبينا نحن كذلك ؛ إذا برجل قائم يصلي ، فدنونا منه ، فإذا عنده حوض يابس وقربة يابسة ، فانتظرناه ليفرغ من صلاته ، فلم يفرغ ، فأقبل إليه أبي وقال : يا هـٰذا ؛ إنا قد ضللنا عن الطريق ، فخفَّفَ الصلاة وانفتل ، وأومأ إلينا بيده إلى الطريق .

فقال له أبي : ألا تجعل في قربتك ماء ؟ فأومأ بيده أن لا ، قال : فما برحنا حتىٰ جاءت سحابة ، فأمطرت ، فامتلأ ذلك الحوض من الماء ، ثم مضينا حتىٰ أتينا القرية ، فذكرنا لهم شأن الرجل ، فقالوا : ذلك فلان ، لا يكون بأرض . . إلا سقوا ، فقال أبي : الحمد لله ، كم من عبد لله صالح لا نعرفه! انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ١٧٢ـ١٧٣] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه ٱلله ـ : قال مالك بن دينار : حبس عنا المطر بالبصرة ، فخرجنا يوماً بعد يوم نستسقي ، فلم نر أثر الإجابة ، فخرجت أنا ، وعطاء السَّليمي ، وثابت البناني ، ويحيى البَكَّاء ، ومحمد بن واسع ، وأبو محمد السختياني ، وأبو محمد حبيب الفارسي ، وحسان ابن أبي سنان ، وعتبة الغلام ، وصالح المري ، حتىٰ صرنا إلىٰ مصلىٰ بالبصرة ، وخرج الصبيان ، واستسقينا ، فلم نر أثر الإجابة .

فلما انتصف النهار ، وانصرف الناس ، وبقيت أنا وثابت البناني في المصلىٰ ، فلما أظلم الليل ؛ إذا بشخص أسود ، مُهيَّج الوجه[1] ، دقيق الساقين ، عظيم البطن ، عليه مئزران من صوف ، فقومت جميع ما عليه يساوي درهمين ، فجاء إلىٰ ماء ، فتوضأ ، ثم دنا من المحراب فصلىٰ ركعتين خفيفتين ، ثم رفع طرْفه إلى السماء وقال : إلـٰهي وسيدي ومولاي ؛ أسألك بعزتك وجلالك أن تسقي عبادك من خزائنك التي لا تنقص ولا تنفد ، إلـٰهي ؛ بحبك لي إلا سقيتنا غيثك الساعة ، قال مالك : فما تم الكلام حتىٰ تغيمت السماء وجاء المطر كأفواه القرب .

قال : فتبعناه ، وقلنا له : كيف قلتَ بحبك لي ؟ من أين علمت أنه يحبك ؟ فقال : تنحّ عن همتي ، لا تعذبها يا من اشتغل عن الله عز وجل بنفسه ، أين كنتُ أنا حين قَسَم لي التوحيد وخصني بمعرفته ؟! أفترُاه سبحانه وتعالىٰ بدأني بذلك إلا لمحبته إياي سبحانه وتعالىٰ ؟! ومحبتي له سبحانه وتعالىٰ علىٰ قدري حقير ضئيل لا يُذكر ، أيش أنا ؟ وأيش محبتي ؟ إنما يقع الإقسام علىٰ رب الأرباب به عز وجل سبحانه وتعالىٰ .

قال : ثم بادر يسعىٰ ، فقلت له : ارفق بنفسك ، فقال : أنا مملوك ، عليَّ فرض من طاعة مالكي الصغير ، قال : فتبعناه حتىٰ دخل دار نخَّاس ، فأتيت النخاس قلت له : عندك

---

(١) **مُهَيَّج الوجه** : مضطرب الوجه ، وفي بعض النسخ : (بهيج الوجه) بمعنىٰ حسن الوجه .

غلام للخدمة ؟ قال : نعم ، عندي مئة غلام ، وجعل يعرض عليَّ واحداً واحداً ، وأنا أقول : غير هٰذا .

فلما أردنا الخروج . . دخلت أنا حجرة خربة في خلف داره ، وإذا الأسود نائم وكان وقتَ القيلولة ، فقلت للنخاس : بعني هٰذا الأسود ، فقال : يا أبا يحيىٰ ؛ ذاك غلام ليس يقدر على الخدمة لضعفه ، وليس له همة إلا البكاء بالليل والنهار والصلاة والنوم ، فقلت : ولذلك أريده ، فدعاه ، فخرج وهو ناعس ، فاشتريته بعشرين ديناراً بعد أن أبرأت مالكه من كل عيب فيه .

فلما أتيت به المنزل . . قال : يا مولاي ؛ لماذا اشتريتني وأنا لا أصلح لخدمة المخلوقين ؟ فقلت له : حبيبي ؛ إنما اشتريناك لنخدمك بأنفسنا علىٰ رؤوسنا ، فقال : ولِمَ ذاك ؟ فقلت له : ألست صاحبنا البارحة في المصلىٰ ، فقال : وقد اطلعتما علىٰ ذلك ؟ فقلت له : أنا الذي اعترضت عليك في الكلام .

قال : فجعل يمشي حتىٰ صار إلى المسجد ، فقال : أريد أن أصلي ركعتين في هٰذا المسجد ، فدخل ، فلما صلىٰ . . رفع طرْفه إلى السماء وقال : إلٰهي وسيدي ومولاي ؛ سرٌّ كان بيني وبينك أظهرته للمخلوقين ، وشهرتني ، فكيف يطيب لي العيش بعد ذلك وقد اطلع علىٰ حالي غيرك ؟!

إلٰهي ؛ بعزتك وجلالك أقسمت عليك إلا قبضت روحي الساعة ، ثم سجد ، فانتظرته ساعة ، فلم يرفع رأسه ، فحركته ؛ فإذا هو ميت ، فمددت يديه ورجليه ، وإذا وجهه قد ارتفع السواد عنه وصار كالقمر ، وإذا بشاب قد أقبل من الباب ، وقال : السلام عليكم ورحمة ٱلله وبركاته ، أعظم الله أجركم وأجرنا في أخينا ، هٰذا الكفن فكفنوه فيه ، فناولني ثوبين ما رأيت مثلهما ، ثم خرج ، فكفناه بهما .

وقال مالك : وبقبره يستسقىٰ وتطلب الحوائج إلىٰ يومنا هٰذا .

قال ثابت البناني : كنت واقفاً بعرفة ، وإذا بشابين عليهما العباء ، فقال أحدهما لصاحبه : كيف أنت يا حبيب ؟ فأجابه الآخر : لبيك يا محب ، فقال : أترىٰ أن الله عز وجل الذي تحاببنا فيه وتوادنا من أجله سبحانه وتعالىٰ يعذبنا غداً في القيامة ؟ قال : فسمعت قائلاً يقول ـ سمعَتْه الآذان ولم تره العيون ـ : ليس بفاعل ، ليس بفاعل . انتهىٰ ["الحلية" ١٠/ ١٧٣ـ١٧٧] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه ٱلله ـ : قال محمد بن المنكدر : كنت جالساً إلىٰ سارية في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وحصل في سَنة من السنين قحط لأهل المدينة ، فخرجوا يستسقون . . فلم يُسقَوا ، فلما كان من الليل وأنا مستند إلىٰ تلك السارية ؛ وإذا رجل أسود تعلوه صفرة ، متزر بكساء ، وعلىٰ رأسه كساء أصغر منه ، فتقدم إلىٰ سارية أخرىٰ قدامي وصلىٰ ركعتين ، ثم جلس ورفع يديه ، وقال : يا رب ؛ خرج أهل حرم نبيِّك يستسقون ، وأنت أعلم بما يصلحهم ، وأنا أقسم عليك بعزك الذي لا يرام إلا سقيتهم .

قال ابن المنكدر : فما وضع يديه حتىٰ سمعت الرعد ، ثم جاءت السماء كأفواه القرب ، فلما رأى المطر . . حمد ٱلله تعالىٰ بمحامد لم أسمع بمثلها .

ثم قال : إلـٰهي وسيدي ومولاي ؛ مَن أنا ؟! وما قدري حيث استجبت لي ؟ ولـٰكن أنت الجابر للكسير الحقير ، وأنت علىٰ كل شيء قدير ، ثم قام وتوشح بكسائه الذي كان متزراً به ، وألقى الكساء الآخر تحت رجليه ، ولم يزل ساجداً وراكعاً إلىٰ أن برق الصبح ، فلما أحس بالصبح . . أوتر ، ثم صلىٰ ركعتين سُنة الفجر ، ثم أقيمت صلاة الصبح ، فدخل مع الناس في الصلاة ، ودخلت معه ، فلما سلم . . قام فخرج ، فخرجت خلفه ، ولم يزل يرفع ثوبه وهو يخوض الماء ، ولم أدر أين ذهب .

فلما كانت الليلة الثانية . . جئت إلى السارية ، فاستندت إليها ، فجاء ، ولا زال يصلي إلى الصبح ، ثم صلىٰ مع الناس الفجر وخرج ، فخرجت خلفه أتبعه ، فدخل داراً أعرفها ، فرجعت إلى المسجد ، فلما طلعت الشمس . . صليت الضحىٰ وخرجت حتىٰ أتيت الدار ، وإذا هو قاعد يخرز[1] ، وإذا هو إسكافي[2] ، فلما رآني . . عرفني ، وقال : يا أبا عبد ٱلله ؛

---

(١) **يخرز** : يخيط .
(٢) **الإسكافي** : صانع الأحذية ومصلحها .

ألك حاجة ؟ تريد أن أعمل لك خفاً ؟ فجلست وقلت : ألست صاحبي بارحة الأولىٰ ؟ فتغير وجهه وصاح بي وقال : يابن المنكدر ؛ ما أنت وذاك ؟! وغضب ، وخفت أنا ـ وٱلله ـ من غضبه ، وقلت : أخرج من عنده الآن ، فخرجت .

فلما كان الليلة الثالثة . . جئت إلى السارية في المسجد ، فلم يجىء ، قال : فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون مما صنعت .

فلما أصبحت . . أتيت الدار التي كان فيها ، وإذا الباب مفتوح ، وليس فيه أحد ، ولا شيء من الحوائج ، فقال أهل الدار : أي شيء بينك وبين الذي كان ساكناً هنا ؟ أيش قلتَ له ؟ فإنك لما خرجت من عنده . . أخذ حوائجه جميعها في وسط كسائه ، ثم خرج ، فلم ندر أين ذهب .

قال محمد بن المنكدر : فما تركت بالمدينة داراً أعلمها إلا وقد طلبته فيها ، فلم أجده . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ١١١-١١٢] .

وٱلله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه ٱلله ـ : قال أبو عامر الواعظ : بينا أنا جالس في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلّم ؛ إذ جاءني غلام أسود برقعة ، فإذا فيها مكتوب : بسم ٱلله الرحمـٰن الرحيم ، متعك ٱلله تعالىٰ بمسامرة الفكرة ، ونعَّمك بمؤانسة العبرة ، وأفردك بحب الخلوة .

يا أبا عامر ؛ أنا رجل من إخوانك ، بلغني قدومك المدينة ، فسررت بذلك ، وأحببت زيارتك ، وبي من الشوق إلىٰ مجالستك والاستماع لمحادثتك ما لو كان فوقي . . لأظلَّني ، أو لو كان تحتي . . لأقلَّني ، فسألتك بٱلله الذي حباك بالبلاغة لما أسعدتني بزيارتك . والسلام .

قال أبو عامر : فقمت مع الرسول حتىٰ أتىٰ بي إلىٰ فناء ، فأدخلني منزلاً رحيباً خرباً ، فقال لي : قف هـٰهنا حتىٰ أستأذن لك ، فوقفت ، فدخل ، ثم خرج وقال : ادخل ، فدخلت ؛ فإذا بيت مفرد في الخربة له باب من جريد النخل ، وإذا كهل قاعد مستقبل القبلة تخاله من الوله مكروباً ، قد ظهر في وجهه الأحزان ، وقد ذهبَتْ من البكاء عيناه ومرضت .

فسلمت عليه ، فرد عليَّ السلام ، ثم تحلحل[1] للقيام ، فإذا هو أعمىٰ أعرج مسقام[2] ، فقال لي : يا أبا عامر ؛ غسَّل ٱلله عز وجل من رين الذنوب قلبك ، لم يزل قلبي إليك تواقاً ، وإلى استماع الموعظة منك مشتاقاً ، وبي جرح قد أعيى المتطببين دواؤه ، وقد بلغني نفع مراهمك للجراحات ، فعالجني ببعضها ؛ فإني ممن يصبر علىٰ مرارة الدواء رجاءً للشفاء .

قال أبو عامر : فنظرت إلىٰ منظر بهرني ، وسمعت كلاماً قطَّعني ، فقلت له : يا شيخ ؛ ارم ببصر قلبك في ملكوت السماء ، واجعل سمع معرفتك بالقيوم بجميع من في الأرض

---

(١) **تحلحل** : تحرك وزال عن موضعه .

(٢) **مسقام** : بمعنىٰ سقيم ، وهو المريض الكثير السقام .

والسماء ، ومثِّل في حقيقة إيمانك جنة المأوىٰ ، فترىٰ ما أعد ٱلله تعالىٰ فيها للأولياء ، ثم فكِّر في نار لظىٰ ، فترىٰ ما أعد ٱلله تعالىٰ للأشقياء ، فشتان ما بين الدارين ، أليس الفريقان في الموت سواء ؟! قال : فصاح الشيخ صيحة والتوىٰ ، وقال : يا أبا عامر ؛ وقع ـ وٱلله ـ دواؤك في قلبي علىٰ دائي ، وأرجو أن يكون فيه شفائي ، زدني رحمك ٱلله تعالىٰ .

فقلت له : راقب ٱلله عز وجل في الخلوات ؛ فإنه سبحانه وتعالى العالم بكل الخفيات ، والمطلع علىٰ ما تجنُّه الأسرار والضمائر .

قال : فصاح كصيحته الأولىٰ ، ثم قال : يا مولاي ؛ مَن لفقري ؟! مَن لفاقتي ؟! مَن لذنبي ؟! مَن لخطيئتي غير عفوك ورحمتك ؟! أنت لي يا أرحم الرحمين ، ثم خر ميتاً .

قال أبو عامر : فقلت : ماذا جنيت علىٰ نفسي ؟ فبينا أنا كذلك ؛ إذ خرجت إلي جارية عليها مدرعة وخمار من صوف ، وآثار النحول من العبادة ، وقد تورمت قدماها ، فقالت لي : أحسنت ـ وٱلله ـ يا حادي قلوب العارفين ، يا أبا عامر ؛ هـٰذا أبي وهو مبتلىٰ منذ عشرين سَنة ، صلىٰ حتىٰ أقعد ، وبكىٰ حتىٰ عمي ، وكان يتمنىٰ لقاءك .

وكان يقول : إنه حضر مجلسك مرة ، وإنك أحييت موات قلبه .

وكان يقول : إن سمعته مرة أخرىٰ . . قتلني ، فجزاك ٱلله مِن واعظ خيراً ، ثم أكبت علىٰ أبيها تقبل عينيه وتبكي .

قال أبو عامر : فقلت لها : إن أباك قد قضىٰ نحبه ، وانتقل إلىٰ دار الجزاء ، وعاين كل ما عمل ؛ فإن أعماله محفوظة عليه وعلىٰ جميع الخلق في كتاب ، فمَن كان محسناً . . فله الزلفىٰ ، ومَن كان مسيئاً . . فله نار تلظىٰ .

قال : فصاحت الجارية صيحة كصيحة أبيها ، وجعلت ترشح عرقاً ، ثم خرجت مبادرة إلىٰ مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، ولا زالت تصلي وتدعو وتستغفر ٱلله تعالىٰ إلى العصر ، ثم رجعت فماتت ، فحضرت جنازتهما ، وسألت عنهما ، فقيل لي : مِن ولد الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين .

قال أبو عامر : فما زلت جزعاً حزيناً مما رأيت من حالهما ، واتفق لي في بعض الليالي أني رأيتهما في المنام وعليهما حلتان خضراوان ، فقلت : مرحباً بكما وأهلاً وسهلاً ، فما زلت حذراً مما وعظتكما به ، فما الذي صنع ٱلله تعالىٰ بكما ؟ فقال الشيخ :

أنـت شـريكـي فـي الـذي نلتُـه ... مستـاهـلاً ذاك أبـا عـامـرِ

وكـل مَـن أيقـظ ذا غفلـة ... فنصـف مـا يعطـاه للآمـرِ

ثم قال : قد غفر ٱلله تعالىٰ لنا ، وأباحنا الجنة بفضله وكرمه ، قال : ثم استيقظت .

انتهىٰ [« الصفوة » ٢/١١٣ـ١١٥] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر من عقلاء المجانين
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه ٱلله ـ : قال محمد ابن أبي فديك : كان عندنا رجل يكنىٰ بأبي نصر ، ذاهبَ العقل ، في غير ما الناس فيه ، لا يتكلم حتىٰ يُكلَّم .

وكان يجلس في آخر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وكان إذا سئل عن شيء . . أجاب جواباً حسناً ، فأتيته يوماً وعنده جماعة من الفقراء ، فوجدته منكِّساً رأسه ، واضعاً جبهته بين ركبتيه ، فحركته ، فانتبه فزعاً ، فأعطيته شيئاً ، فأخذه وقال : قد صادف منا حاجة ، فقلت له : يا أبا نصر ؛ ما الشرف ؟ قال : أن تتحمل عن عشيرتك ما نابهم ، وأن تقبل عذر محسنهم ، وتتجاوز عن قبيح مسيئهم .

قلت : فما المروءة ؟ قال : إطعام الطعام ، وإفشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام .

قلت : فما السخاء ؟ فقال : جُهد من مُقِلٍّ .

وقال محمد ابن أبي فديك : قدم هارون الرشيد ، فأُخلي له المسجد ، فوقف عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلّم وفي موقف جبريل عليه الصلاة والسلام وعند منبره صلى الله عليه وسلّم ، ثم قال : قفوا بي في الموضع الذي كان فيه أصحاب الصفة ، وكان في ذلك الموضع جماعة من الفقراء منهم أبو نصر ، فلما جاء الرشيد إلى الموضع الذي هُمْ فيه . . حول أبو نصر وجهه ، فقيل له : هٰذا أمير المؤمنين ، فرفع رأسه إليه وقال له : أيها الرجل ؛ إنه ليس بين عباد ٱلله وبين ٱلله عز وجل أحد من الخلق مسؤول عنهم غيرك ، وإن ٱلله عز وجل لَمُسائِلُك عنهم كلِّهم ، فأَعِدَّ للمسألة جواباً ، وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لو ضاعت سخلة علىٰ جانب الفرات . . لخاف عمر أن يسأله ٱلله تعالىٰ عنها ، فبكى الرشيد ثم قال : يا أبا نصر ؛ إن رعيتي وزماني غير رعية عمر رضي الله عنه وزمانه .

فقال له : ليس هـٰذا ـ وٱلله ـ بمغن عنك ، فانظر لنفسك ؛ فإنك وعمرَ رضي الله عنه تُسألان عما خولكما الله تعالىٰ .

فدعا الرشيد بصُرَّة فيها ثلاث مئة دينار فقال : خذ هـٰذه يا أبا نصر ، فقال أبو نصر : ما أنا إلا واحد من هـٰذه الفقراء ، ادفعوها إلىٰ شخص يفرقها عليهم بالسوية ، ويجعلني رجلاً منهم .

وكان أبو نصر يخرج في كل جمعة لصلاة الغداة ، ثم يدخل السوق مما يلي الثنية ، فلا يزال يقف علىٰ مَرْبَعَةٍ مَرْبَعَةٍ ، ويقول : يا أيها الناس ؛ ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ .

ثم يقول : إن العبد إذا مات . . صحبه أهله وماله وعمله ، فإذا وضع في قبره . . رجع أهله وماله وبقي عمله ، فاختاروا لأنفسكم ما يؤنسكم في قبوركم . ولا يزال يفعل ذلك في مربعة مربعة ، حتىٰ يأتي مصلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، ثم يمضي إلى الجمعة ، فلا يخرج من المسجد حتىٰ يصلي العشاء الآخرة ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/١١٦ـ١١٧] . وٱلله أعلم .

* * *

ومنهن :

عابدة من عابدات أهل المدينة
رضي الله عنها

وقال أبو الفرج ـ رحمه ٱلله ـ : قال مالك بن دينار : بينا أنا أطوف بالبيت ؛ وإذا بامرأة في الحجر تدعو ، فسمعتها تقول : إلـٰهي وسيدي ومولاي ؛ أتيتك من شقة بعيدة ، مؤملة لمعروفك ، يا ذا المعروف الذي لا ينقطع أبداً ، ولا يحصيه غيره ؛ أنلني معروفاً من معروفك تغنيني به عن جميع خلقك ، يا معروفاً بالمعروف ، ويا من هو بالجود والكرم موصوف .

قال مالك : فأخبرت أيوب السختياني بما رأيت ، فقال : تحب أن نزورها ؟ قال : فسألنا عنها وعرفنا منزلها وقصدناها ، فلما أن رأيناها وسلمنا عليها . . قال لها أيوب : موعظة يرحمك ٱلله تعالىٰ ، فقالت : وما عسىٰ أن أقول ؟ أشكو إلى ٱلله تعالىٰ قلبي وهواي ، فقد أضرَّا بي وشغلاني عن عبادة ربي عز وجل ، قُوْمَا عني ؛ فإني أبادر طيَّ صحيفتي .

قال أيوب : وما كنت حدثت نفسي بتزوج امرأة قبلها ، فقلت لها : لو تزوجت رجلاً . . كان يعينك علىٰ ما أنت عليه ، فقالت : لو كان مالك بن دينار أو أيوب السختياني . . ما أردته .

قال مالك : فقلت : أنا مالك بن دينار ، وهـٰذا أيوب السختياني ، فقالت : كنت أظن أنه يشغلكما ذِكر ٱلله تعالىٰ عن محادثة النساء ، ثم أقبلت علىٰ صلاتها ، فخرجنا من عندها وسألنا عنها ، فقالوا : هـٰذه مليكة بنت المنكدر رحمها الله . انتهىٰ [« الصفوة » ١١٨/٢] ، وٱلله أعلم .

* * *

ومنهن :

عابدتان

رضي الله عنهما

قال أبو الفرج ابن الجوزي ـ رحمه ٱلله ـ : قال عبد ٱلله بن أخت مسلم بن سعد : أردت الحج ، فدفع إلي خالي مسلم عشرة آلاف درهم وقال لي : إذا قدمت المدينة . . فانظر أفقر أهل بيت في المدينة فأعطهم إياها .

فلما دخلت المدينة . . سألت عن أفقر أهل بيت في المدينة ، فدُلِلتُ علىٰ أهل بيت ، فطرقت الباب ، فأجابتني امرأة : مَن أنت ؟ فقلت لها : أنا رجل من أهل بغداد ، أُودعت عشرة آلاف درهم وأُمرت أن أسلمها إلىٰ أفقر أهل بيت في المدينة ، وقد دللت عليكم ، وها هي فخذوها .

فقالت : يا عبد ٱلله ؛ إن الذي أودعك اشترط عليك أن تدفعها إلىٰ أفقر أهل بيت في المدينة ، وهٰؤلاء الذين هم جيراننا بإزائنا أفقر منا ، قال : فتركتهم وأتيت أولـٰئك وطرقت الباب ، فأجابتني امرأة ، فقلت لها مثل الذي قلت لتلك المرأة ، فقالت : يا عبد ٱلله ؛ نحن وجيراننا في الفقر سواء ، فاقسمها بيننا وبينهم سواء ، قال : فقسمتها . انتهىٰ [« الصفوة » ١٢١/٢] .

وٱلله سبحانه وتعالىٰ أعلم

❊ ❊ ❊

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه ٱلله ـ : قال أبو عبد ٱلله ابن الجَلاَّء : سمعت أبي يقول : كنت عند معروف [الكرخي] في مجلسه ، فدخل عليه رجل فقال : يا أبا محفوظ ؛ رأيت في هـٰذه الليلة عجباً ، قال : وما رأيت رحمك ٱلله تعالىٰ ؟ قال : اشتهىٰ أهلي عليَّ سمكاً ، فذهبت إلى السوق ، واشتريت لهم سمكة ، وحملتها مع صبي حمال ، فمشىٰ معي .

فلما سمعت أذان الظهر . . قال لي الحمال : يا عم ؛ هل لك أن نصلي ؟ فكأنه أيقظني من غفلة ، فقلت : نعم ، نصلي ، فوضع الطبق والسمكةُ عليه علىٰ مصطبة في باب المسجد ودخل المسجد ، فقلت في نفسي : الحمال قد جاد بالطبق ، أجود أنا أيضاً بالسمكة ، فلم يزل يركع حتىٰ أقيمت الصلاة وخرجنا ، فإذا الطبق علىٰ حاله موضوع .

فجئت إلى البيت وحدثت أهلي بهـٰذا ، فقالوا : قل له يأكل معنا من هـٰذا السمك ، فقلت له : تأكل معنا من هـٰذا السمك ؟ فقال : إني صائم ، فقلت له : أفطر عندنا الليلة ، قال : نعم ، أروني طريق المسجد ، فأريته ، فدخل المسجد وجلس إلىٰ أن صلينا المغرب ، فجئت إليه فقلت له : تقوم رحمك ٱلله تعالىٰ ؟ فقال : أوَنصلي عشاء الآخرة ؟ فقلت في نفسي : وهـٰذه ثانية ، فلما صلينا . . جئت به إلىٰ منزلي ، ولنا ثلاثة أبيات ، بيت فيه أنا وأهلي ، وبيت فيه صبية مقعدة ـ كذلك وُلدَت ـ لها فوق العشرين سَنة ، وبيت كان فيه ضيفنا .

فبينا أنا مع أهلي ؛ إذ دق داق الباب في آخر الليل ، فقلت : مَن ؟ فقالت : أنا فلانة ، فقلت : فلانة قطعة لحم مطروحة في البيت ، كيف يستوي لها أن تمشي ؟! فقالت : أنا هي ، افتحوا لي الباب ، ففتحنا لها ، فإذا هي ، فقلت لها : أيُّ شيءٍ الخبرُ ؟

فقالت : سمعتكم تذكرون ضيفنا هـٰذا بخير ، فوقع في قلبي أن أتوسل إلى ٱلله سبحانه وتعالىٰ به ، فقلت : اللهم ؛ بحق ضيفنا هـٰذا أو بجاهه عندك إلا ما أطلقت أسري ،

فاستويت وقمت ، وأنا في عافية كما تروني ، قال : فقمت إليه أطلبه في البيت ، فإذا البيت خال ليس فيه أحد ، فجئت إلى الباب ، فوجدته مغلقاً بحاله ، فقال معروف : نعم ، فيهم صغار وكبار ؛ يعني : الأولياء ، رضي الله عنهم أجمعين ، ونفعنا بهم ، آمين . انتهىٰ
[« الصفوة » ٢/ ٣٠٢ـ٣٠٣] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان الجنيد جالساً ، فجاء إليه أبو حفص النيسابوري رحمهما الله ، فقام إليه وعانقه ، فقال له أبو حفص : دعنا من هٰذا ، عندك شيء تطعمنا ؟ فقال : أي شيء يشاء الشيخ ؟ قال : أريد بطيخاً ، فأمر الجنيد بعض أصحابه بإحضار ما قال ، فلما حضر البطيخ . . قال : يا أخي ؛ قد أحببت أن أوثر به لله عز وجل ، فقال : إني أحب ما تحب .

ثم قال الجنيد لبعض أصحابه أن احمل هٰذا مع الشيخ إلىٰ أين عزم ، فقام معه إلىٰ أن وصل إلىٰ دار ، فدق الباب ؛ فإذا شخص من داخل الباب يقول : ادخل إن كان معك بطيخ ، فدخلنا ، وإذا شيخ قاعد وخيش مرسل علىٰ باب .

قال أبو حفص : فوضعت البطيخ وصرفت الذي حمله ، ثم قلت للشيخ : أخبرني أمر هٰذا البطيخ ، فقال : وراء هٰذه الخيشة صبيان وبنات سألوني البطيخ منذ مدة ، ولم تسامحني نفسي أن أسأل الله عز وجل لهم في ذلك ، ثم وجدت البارحة مسامحة أن أسأل الله سبحانه وتعالىٰ ، فسألته وعلمت إجابة الدعاء بوجود المسامحة للسؤال ، فدعوت ، فلما وقفتَ على الباب . . علمت ما معك . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٣٠٤ـ٣٠٥] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال أبو الصقر الصوفي : دخلت في يوم عيد علىٰ بعض مشايخنا ، فرأيت عنده خَلاًّ وهندباء ، فاشتغل قلبي ، فخرجت من عنده ودخلت إلىٰ بعض أهل الدنيا وأخبرته ، فدفع إلي صُرَّة فيها دراهم وقال : احملها إليه ، فجئت بها إليه في الحال ، وقلت : جئت بهـٰذه لتستعين بها علىٰ وقتك .

فقال : وما الذي رأيت من حالي ؟ فقلت له : رأيت عندك خلاًّ وهندباء ، فقال : كأنك افتقدت بيتي ، لو كان في بيتي امرأة. . لكنتَ افتقدتَها ؟! قم فوالله ؛ لا كلمتك شهراً ، فخرجت ، فضرب البابُ وجهي ، فسال الدم ، فأتيت الشبلي وقلت له : يا أبا بكر ؛ رجل مشىٰ في طاعة الله عز وجل ، فانفتح وجهه ، ما سبب هـٰذا ؟ قال : لعله أراد أن يأتي إلىٰ شيء صافٍ يكدره . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/٣٠٧] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال أبو الحسين بن سمعون رحمه الله : اجتزت يوماً على الصراة[1] ، فرأيت امرأة تلتقط من ورق البقل الذي يأتي به الماء ، فقلت : لا شك أن هٰذه امرأة فقيرة ، فوقفت حتىٰ رجعتْ ، فتبعتُها ، فأتت إلىٰ دار ، فدخلتْ ، فرجعتُ إلىٰ بيتي ، فما استقر بي الجلوس حتىٰ أتاني خادم ومعه دنانير ودراهم ، وقال لي : ادفع هٰذه إلىٰ محتاج ، فأخذتها وقمت ، فأتيت بيت المرأة ، فطرقت الباب ، فخرج إلي رجل من خواص مجلسي ، ومن الملازمين لي ، فلما رآني . . قال : ما حاجتك ؟ فقال : جئتكم بهٰذه الدنانير تستعينون بها على الوقت ، فنظر إلي مغضباً وقال لي : يا شيخ ؛ تحذرنا من الدنيا وتأتينا بها ، ثم رد الباب في وجهي ودخل ، فرجعت منكسراً إلىٰ بيتي ، ثم قلت في نفسي : لا بد أن أعود إليه فأعتذر .

فأتيته في اليوم الثاني ، فطرقت الباب مراراً ، فلم يجبني أحد ؛ فإذا بامرأة من الجيران تقول : ما لَك يا رجل ؟ فقلت لها : ما فعل أهل هٰذه الدار ؟ فقالت : كان في هٰذه الدار رجل مع والدته وكنا نتبرك بهم ، فجاء بالأمس رجل ، فكلمهم بما كرهوا ، فانتقلوا عنا .

قال : فرجعت وأنا شديد الحزن علىٰ ما فعلت ، وجعلت أتفقد مجلسي فلا أرى الرجل .

فلما كان يوم عرفة وأنا أتكلم على الناس . . رأيته في أواخرهم ، فلما انقضى المجلس . . مضيت إليه وسلمت عليه ، فرد عليَّ السلام وقال : لا تُعِد ما فات ، ولا تقل شيئاً ، فلولا أني أعتقد أن كلامك دواء لقلبي . . لم أحضر ، وإنما غبت عنك لأنا انتقلنا إلىٰ مكان آخر حتىٰ لا نُعرف ، فقلت له : ما أتيت إلا معتذراً ، ولا أعود ، ثم فارقته . [انتهىٰ] . [« الصفوة » ٢/٣٠٧ـ٣٠٨] .

* * *

(١) المثبت من « الصفوة » ، **والصراة** : نهر قريب من بغداد يصب في دجلة ، وفي بعض النسخ : (القراة) ، وفي بعضها : (الفرات) ، ولعل الصواب ما أثبت ، والله أعلم .

ومنهم :

عابد آخر من عقلاء المجانين يقال له : سعدون
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ في كتاب « عقلاء المجانين » : أبو عطاءٍ سعيدٌ المجنون الملقب بسعدون ، بصري .

حدثنا محمد بن الحسين ، عن راشد بن علقمة البصري : قال لي عطاء السليمي : احتبس القطر علينا بالبصرة ، فخرجنا نستسقي ؛ فإذا بسعدون المجنون ، فقال : يا عطاء ؛ إلىٰ أين ؟ قلت : خرجنا نستسقي ، فقال : بقلوب سماوية أم بقلوب خاوية ؟ قلت : بقلوب سماوية ، فقال : لا تبهرج[1] ؛ فإن الناقد بصير سبحانه وتعالىٰ ، فقلت : ما هو إلا ما حكيت لك ، فاستسقِ لنا ، فرفع رأسه إلى السماء وقال : إلـٰهي ؛ بعزتك وجلالك إلا ما سقيتنا الغيث ، ثم أنشأ يقول :

أيا من كلما نودي أجابا ... ومن بجلاله ينشي السحابا
ويا من كلم الصدِّيق موسىٰ ... كلاماً ثم ألهمه الصوابا
ويا من رد يوسف بعد ضر ... علىٰ مَن كان ينتحب انتحابا
ويا من خص أحمَدَ باصطفاءٍ ... وأعطاه الرسالة والكتابا

اسقنا اللهم اسقنا .

قال : فأَزَخَّتِ[2] السماء شآبيبَ[3] كأفواه القرب ، قلت : زدني ليس ذا الكيل من ذاك البيدر ، ثم أنشأ يقول :

سبحان مَن لم تزل له حُجَجٌ ... قامت علىٰ خلقه بمعرفتِهْ

---

(١) بهرج الكلام وغيره : زيَّفه .
(٢) زخَّت السماء بالمطر : رمت به .
(٣) الشآبيب : دفعات المطر .

قـــــد علمـــــوا أن مليكَهُـــــمُ يعجـز وصـف الأنـام عـن صفتِـهْ

وكتب سعدون بفحمة علىٰ جدار قصر خراب :

يـا خـاطـب الـدنيـا إلـىٰ نفسـه إن لهـا فـي كـل يـوم خليـلْ[1]

مـا أقبـح الـدنيـا لخُطَّـابهـا تقتلهـم عمـداً قتيـلاً قتيـلْ

تستنكـح البعـلَ وقـد وَطَّنَـتْ فـي مـوضـعٍ آخـرَ منـه البـديـلْ

إنـي لمغتـرٌّ وإن البِلـىٰ يعمـل فـي جسمـي قليـلاً قليـلْ

تـزودوا للمـوت زاداً فقـد نـادىٰ منـاديـه الـرحيـل الـرحيـلْ

وكان من دعاء سعدون رحمه الله : اللهم ؛ لك خشعت قلوب العارفين ، وإليك طمحت آمال المحبين الراجين .

وكان ينشد :

وكـن لـربـك ذا حُـبٍّ لِتخـدمَـه إن المحبيـن لـلأحبـاب خـدامُ

ومن شعره أيضاً :

هَـبِ الـدنيـا تـواتيكـا أليـس المـوت يـأتيكـا

فمـا تصنـع بـالـدنيـا وظِـل المِيـل يكفيكـا

ألا يـا طـالـب الـدنيـا دَعِ الـدنيـا لشـانيكـا

كمـا أضحكـك الـدهـر كـذاك الـدهـر يُبكيكـا

زاد في « بهجة الأسرار » : قال الفتح بن شخرف رحمه الله : كان سعدون رحمه الله صاحب محبة لله عز وجل ، صام ستين سنة حتىٰ خف دماغه ، فسماه الناس مجنوناً ؛ لتردد قوله في المحبة .

قال الفتح : فغاب عنا زماناً ، فكنت إلىٰ لقائه مشتاقاً ، فبينا أنا بفسطاط مصر ؛ رأيته قائماً علىٰ حلقة ذي النون ، وعليه جبة صوف علىٰ ظهرها مكتوب : لا يُباع ولا يُشترىٰ ، وذو النون يتكلم في علم الباطن .

فناداه سعدون : متىٰ يكون القلب أميراً بعد أن كان أسيراً ؟ فقال : إذا اطَّلع الخبير على

---

(١) كذا في « عقلاء المجانين » للنيسابوري (ص١١٦) ، أما في النسخ : (يا طالب الدنيا) .

الضمير ، فلم ير فيه غير اللطيف الخبير . . صار أميراً بعد أن كان أسيراً ، فصرخ سعدون صرخة وخر مغشياً عليه ، فلما أفاق . . أنشد :

ولا خير في شكوىٰ إلىٰ غير مشتكىٰ ... ولا بد من شكوىٰ إذا لم يكن صبرُ

ثم قال : أستغفر الله ، اللهم ؛ اجعلني ممن يغلب علىٰ قلبي حبك يا أرحم الراحمين .

ثم قال : يا أبا الفيض ؛ أمِنَ القلوب قلب يستغفر قبل أن يُذنب ؟ قال : تلك قلوب تثاب قبل أن تطيع ، فقال : يا أبا الفيض ؛ اشرح لي حالهم ، قال : يا سعدون ؛ أولـٰئك أقوام أشرقت قلوبهم بضياء روح اليقين ، ففطموا النفوس من روح الشهوات ، فهم رهبان من الرهابين ، وملوك في العبَّاد ، وأمراء في الزهاد ، للغيث الذي أمطر في قلوبهم الوالهة بالقدوم على الله عز وجل شوقاً إلىٰ لقائه جل جلاله ، فليس منهم مَن يأنس بمخلوق ، فهم كما وصفهم سيد البشر محمد رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « رُبَّ أشعثَ أغبر . . . » .

فقال : يا ذا النون ؛ فمتىٰ يصل العبد إليه ؟ فقال : يا سعدون ؛ إذا صحح العزم بترك كل ما سواه سبحانه وتعالىٰ ، ولا يكون له هَمٌّ ولا مقصود غيره سبحانه وتعالىٰ .

وكتب سعدون رحمه الله إلى الخليفة أبي جعفر المتوكل :

أما بعد : يا أخي ؛ فإنك قد طمعتَ في الحياة ، ونسيتَ تراصف الأقدام ، وتطاير الصحف في الأيمان والشمائل ، فاذكر الحسرة عند انكشاف الغطاء ، واقرأ : ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ .

وكتب إلىٰ بعض الخلفاء :

أما بعد : يا هـٰذا ؛ فإنك إن لم تستح من نفسك . . فاستح من ربك سبحانه وتعالىٰ ، ولا يغرنك بسطه عليك ؛ فإنه إن غافصك[1] . . أهلكك وهتكك ، ثم كتب عنوانه : ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ .

وكتب إلىٰ بعض الخلفاء أيضاً :

أما بعد : فإن الله سبحانه وتعالىٰ أخذ على السماوات والأرض والجبال عهداً ، فأودعه إياهن ، فأما السماوات . . فتناثرت نجومها ، وانطمس شمسها ، واضمحل قمرها ، وتراصت أقدام ساكنيها ، وارتعدت أكنافها ، وأما الأرض . . فانزوت أطرافها ، واكدودر

---

(١) غافصه : أخذه علىٰ غِرّة .

ماؤها ، وتناثرت أوراقُ أشجارها وأغصانُها وثمارُها ، وأما الجبال. . فتجلد شوامخها ، وسالت أوديتها ارتعاداً وانتفاضاً من شدة الأمانة التي كُلفتها .

وأما أنت. . فمع ضعف حيلتك ، وبلادة خاطرك ، وعجزك كل العجز مذ قد كُلِّفتَ الأمانة ما تحرك عليك عضو ، ولا تزعزع منك مفصل ، قد ركبت نجائب مخادعتك ، وجعلت الدنيا نزهة بطالتك ، فانتبه من رقدة الغفلة قبل أن يكتنفك الحزن . والسلام .

وكتب إلىٰ بعض إخوانه :

أما بعد : يا أخي ؛ فارحل قبل أن يُرحل بك ، وتزود قبل المسير إلىٰ ربك ؛ فإنك تريد قطع مفاوزَ لا يقطعها البطالون ، قطع الله عز وجل عنك الطمع ، وجعلك ممن وصف في كتابه الكريم : ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ .

وكتب أيضاً :

أما بعد : فيا أخي ؛ كن حيِيّاً. . تسلم ، واقطع كل قاطع يقطعك عن الله عز وجل ، فإن قبلت ذلك ، وإلا. . هلكت .

وكتب أيضاً : فإنه ـ يا أخي ـ مَن تعرض لعقوبة الله عز وجل. . هوي وشقي ، ومَن تعرض لرضى الله سبحانه وتعالىٰ. . كفي ووقي ، فاجعل حظك من دنياك الاشتغال بطاعة مولاك سبحانه وتعالىٰ . والسلام .

وكتب :

تحب الصالحين بزعم قلبكْ ... وتخلو إن فقدتَهُمُ بذنبكْ
فمَن حَبَّ الخليل يفر منه ؟! ... فهٰذا كله من كِذْب حبك
ستندم حين لا ندَمٌ بمُجْدٍ ... وتعلم ما يحل غداً بجنبك

قال أيضاً أبو الفرج ـ رحمه الله ـ في « مختصر الحلية » : قال يحيى بن أيوب : خرجت يوماً إلى المقابر التي بباب خراسان ، فجلست في موضع أرىٰ مَن يدخل المقابر ، فنظرت إلىٰ رجل مقنع قد دخل المقابر وهو يجول ، كلما رأىٰ قبراً محفوراً أو منخسفاً. . وقف عليه وبكىٰ .

قال : فجئت إليه رجاء أن أنتفع به ، فلما قابلته ؛ إذا هو سعدون المعتوه ، فقال لي :

يا يحيىٰ ؛ هل لك أن تجلس فنبكي علىٰ بلاء هـٰذه الأبدان قبل أن نبلىٰ فلا يبكي علينا باك ؟!

قال : ثم قال : يا يحيىٰ ؛ البكاء من القدوم على الله عز وجل أولىٰ بنا من البكاء على الأبدان ، ثم قرأ : ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ ، ثم صاح صيحة شديدة وقال : واغوثاه بالله تعالىٰ مما يقابلني في الصحف ، قال يحيىٰ : فغُشي عليَّ ، فأفقت وهو جالس يمسح وجهي بكمه ويقول : يا يحيىٰ ؛ مَن أشرف منك لو مُتَّ ؟!

وقال ذو النون : خرج الناس إلى الاستسقاء بالبصرة ، فخرجت فيمن خرج ، فبينما أنا مار بين الناس ؛ إذا بشخص قد قبض علىٰ يدي ، فنظرت ؛ فإذا هو سعدون .

فقال : يا أبا الفيض ؛ أين تريد ؟ قلت : المصلىٰ ندعو الله عز وجل أن يسقينا ، فقال : بقلب سماوي أو بقلب خاوي ؟ فقلت : بقلب سماوي إن شاء الله تعالىٰ .

فقال : انظر يا ذا النون لا تبهرج ؛ فإن الناقد سبحانه وتعالىٰ بصير ، ثم قال : تدعو الله عز وجل وأؤمن علىٰ دعائك أو أدعو وتؤمن علىٰ دعائي ؟ فقلت : تدعو وأؤمن .

قال : فصف قدميه وقال : إلـٰهي ؛ بحق ما كان في البارحة إلا ما أمطرتنا ، فقال ذو النون : فوالله ؛ لقد رأيت الغيوم قد ارتفعت عن اليمين والشمال حتى التقت ، فجاءنا المطر كأفواه العَزَالي ، فقلت له : بالله أي شيء كان في البارحة ؟ فقال : لا تدخل بيني وبين مولاي رب العالمين سبحانه وتعالىٰ .

وكان من دعائه : يا غياث المستغيثين ؛ أغثنا .

وقال الأصمعي : مررت بسعدون ؛ فإذا هو جالس عند شيخ سكران يذب عنه ، فقلت له : ما لي أراك جالساً عند هـٰذا الشيخ ؟! فقال : إنه مجنون ، فقلت له : أنت عند الناس مجنون .

فقال : بل هـٰذا هو المجنون ، فقلت له : مِن أين قلت هـٰذا ؟ فقال : لأني صليت الظهر والعصر جماعة ، وهـٰذا لم يصل لا جماعة ولا فرادىٰ . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/٣٠٩ـ٣١١] .

وقال في « **بهجة الأسرار** » : إن ذا النون رحمه الله قال : بينا أنا أطوف ليلاً ؛ فإذا بشخص قد حاذى الباب وهو يقول : يا رب ؛ عبدك الطريد الشريد المسكين مِن بين خلقك ، أسألك أن ترزقني ما رزقت أولياءك ، وأن تعطيني ما أعطيتهم ، وتنعم عليَّ بما أنعمت عليهم ، وتكشف عن قلبي أغطية الجهل ، وتزيل عني حجب الهموم والغموم ؛ حتىٰ

ترقىٰ روحي بأجنحة الشوق إليك ، فأناجيَك بين رياض بهائك ، وأنظرَ إلىٰ وجهك الكريم الباقي يا ذا الجلال والإكرام .

قال : ثم بكىٰ حتىٰ سمعت لدموعه وقْعاً على الحصىٰ كوقع البَرَد ، ثم ضحك وقهقه ومضىٰ .

قال ذو النون : فتبعته ، وقلت : عارف ، ولم أزل أتبعه إلىٰ أن دخل خرابات مكة ، فالتفت إلي وقال : ما لك ؟ ارجع يا ذا النون عني ، فقلت له : ناشدتك الله إلا ما وقفت لي ، فوقف وقال : ويحك يا ذا النون! أما لك مِن شغل ؟! ثم قال : استغفر الله ، فقلت : ما اسمك رحمك الله ؟ قال : عبد الله ، قلت : قد علمتُ أن أهل السماوات والأرض كلهم عبيد الله عز وجل ، فقال : سماني أبي سعدون ، قلت : المعروف بالمجنون ؟ قال : نعم ، قلت : كيف علمت أني ذو النون ؟ فقال : كنت واقفاً علىٰ يمين الخضر وهو علىٰ يمين إلياس ، فقالا : هـٰذا ذو النون ، قلت : ومَن القوم الذين ذكرتَهم ؟

فقال : أولـٰئك قوم ساروا إلى الله عز وجل سَيْرَ مَن قد نصبت المحبة بين أعينهم ، وتجردوا تجرد مَن قد أخذ الزبانية بحقوهم[1] ، وأحجب النار من أجلهم .

فقلت : إن العارف ليبكي ، وإن البكاء لمِنْ شأنه ، فكيف ضحكتَ ؟ فقال : نعم ، والضحك والقهقهة من شأن العارف أيضاً ، ألا ترىٰ إلىٰ قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ ؟ .

قلت له : فأي المقامات أفضل وأعلى ؟ فقال : المعرفة بالله عز وجل هي الأصل الثابت ، وعنها تنشأ المقامات .

ثم قال : يا ذا النون ؛ بلغني أنك تقول شيئاً ، فقل حتىٰ أسمع شيئاً في أسباب المعرفة ، فقلت : أنت الذي نقتبس من علمك ، ثم فارقني ومضىٰ .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : قيل : كان سعدون رحمه الله يجن ستة أشهر ويفيق ستة أشهر ، فإذا هاج . . صعد السطح بالليالي ، ويقول بصوت رفيع : يا نيام ؛ تنبهوا من رقدة الغفلة قبل انقطاع المهلة ، واعلموا بأن أعمالكم محفوظة ، وآجالكم منقوصة ، والموت يأتي بغتة .

---

(١) **الحقو** : معقد الإزار ، تشدهم الزبانية منه .

وكتب سعدون رضي الله عنه بفحمة علىٰ جدار :

ما بال من سكن الثرىٰ ما حـالُـهُ ... أمسىٰ وقـد درست هناك حبـالُـهُ

أمسىٰ وقـد درست محـاسـن وجهـه ... وتفـرقـت فـي قبـره أوصـالـه

واستَبـدَلـت منـه المحـاسـن غيـرَهـا ... وتُقُسِّمَـتْ مـن بعـده أمـوالـه

مـا زالـت الأيـام تلعـب بـالفتـىٰ ... والمـال يـذهـب صفـوه وحـلالـه

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم :

عابد آخر يقال له : بهلول المجنون
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال في كتاب « عقلاء المجانين » : أبو وهب بهلول بن عمرو المجنون ، كوفي .

قال محمد بن إسماعيل بن أبي فديك : رأيت بهلولاً في بعض المقابر وهو ينشد :

يـا مـن تمتَّـع بـالـدنيـا وزينتهـا ... ولا تنـام عـن اللـذات عينـاهُ
أشغلت نفسك فيما ليس تدركه ... تقـول لله مـاذا حيـن تلقـاهُ

وقال علي بن سعيد الكندي : خرج الرشيد إلى الحج ، فلما كان بظهر الكوفة ؛ إذا بهلول المجنون علىٰ قصبة ، وخلفه صبيان ، وهو يعدو ، فقال الرشيد : مَن ذاك ؟ قالوا : بهلول المجنون .

قال : كنت أشتهي أن أراه ، فادعوه غيرَ مروَّع ، فقالوا له : أجب أمير المؤمنين ، فعدا علىٰ قصبته ، فقال الرشيد : السلام عليك يا بهلول ، فقال : وعليك السلام يا أمير المؤمنين .

قال : كنت إليك بالأشواق ، قال بهلول : لٰكني لم أشتق إليك ، قال : عظني يا بهلول ، قال : وبماذا أعظك ؟ هٰذه قصورهم وهٰذه قبورهم .

قال : زدني ؛ فقد أحسنتَ ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ مَن رزقه الله جمالاً ومالاً فعف في جماله وواسىٰ في ماله . . كُتب في ديوان الأبرار ، فظن الرشيد أنه يريد شيئاً ، فقال : قد أمرنا بقضاء دَينك ، فقال : كلا ، لا تقض دَيناً بدَين ، اردد الحق إلىٰ أهله ، واقض دَين نفسك من نفسك .

قال الرشيد : فإنا قد أمرنا بأن نجري عليك رزقاً ، قال : لا تفعل يا أمير المؤمنين ؛ إن الله سبحانه وتعالىٰ لا يعطيك وينساني ، ثم ولىٰ هارباً ، ثم التفت وقال : يا أمير

المؤمنين ؛ فكيف بك إذا أقامك الله بين يديه فسألك عن النقير والفتيل والقطمير ؟!

قال : فخنقته العبرة ، فقال الحاجب : حسبك يا بهلول ، فقد أوجعت أمير المؤمنين ، فقال الرشيد : دعه ، فقال بهلول : إنما أفسده أنت وأضرابك .

فقال الرشيد : أريد أن أصلك بصلة ، فقال بهلول : ردها علىٰ مَن أخذتها منه ، فقال الرشيد : فحاجة ؟ فقال : لا تراني ولا أراك . ثم قال : يا أمير المؤمنين ؛ أخبرَنا أيمن بن نابل ، عن قدامة بن عبد الله قال : (رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يرمي جمرة العقبة علىٰ ناقة له صهباء لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك)[1] ، ثم ولىٰ بقصبته ، وأنشأ يقول :

وَهَبْكَ ملكتَ كل الأرض طرّاً ... ودان لك العباد فكان ماذا ؟
ألست تصير في قبر ويحوي ... ترابك كله هٰذا وهٰذا[2]

وقيل لبهلول : أي شيء أولىٰ بك ؟ فقال : العمل الصالح .

وكان بهلول رحمه الله مجاب الدعوة .

وقال صباح الوراق الكوفي : لقيت بهلولاً يوماً ، فقال لي : أنت الذي تزعم أهل الكوفة أنك تشتمُ أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ، فقلت : مَعاذ الله أن أكون من الجاهلين ، فقال : إياك ثم إياك يا صباح ؛ فإنهما ـ رضي الله عنهما ـ جبلا الإسلام وكهفاه ، ومصباحا الخلد وقنديلاه ، وحبيبا محمد صلى الله عليه وسلّم وضجيعاه ، وشيخا المهاجرين وسيداهم ، ثم قال : جعلنا الله من الذين هم على الأرائك يسمعون كلام الله إذا زُف القوم إلىٰ سيدهم ومولاهم تبارك وتعالىٰ .

ومِن شعره رحمه الله :

دع الحرص على الدنيا ... وفي العيش فلا تطمعْ
وما تجمعْ من المال ... فما تدري لمن تجمعْ
فإن الرزق مقسوم ... وسوء الظن لا ينفع
فقيرٌ كلُّ ذي حرص ... غنيٌّ كلُّ مَن يقنعْ

---

(١) أخرجه الترمذي (٩٠٣) وقال عنه : حديث حسن صحيح ، والنسائي في « المجتبىٰ » (٥/ ٢٧٠) . والمعنىٰ : لا يضرب الناس بين يديه ، ولا يطردون من أمامه ، ولا ينحَّون عن طريقه .

(٢) في « الصفوة » (٢/ ٣١١) :

(أليس غداً مصيرك جوف ترب ... ويحثوا التُّرب هٰذا ثم هٰذا)

اجتماع سعدون وبهلول رحمهما الله :

قال **سعدون** لبهلول : أوصني ، وإلا . . أوصيك ، فقال بهلول : أوصني يا أخي ، فقال : أوصيك بحفظ نفسك من نفسك ، وفكِّها مِن حبسك ؛ فإن هـٰذه الدنيا ليست لك بدار ، فقال له بهلول : وأنا أوصيك يا أخي ، فقال : قل ، فقال : اجعل جوارحك مطيتك ، واحمل عليها زاد معرفتك ، واسلك بها طريق بقائك ، فإن ذكَّرتْك ثقل الحمل . . فذكِّرها عاقبة البلوغ ، فلم يزالا يبكيان جميعاً ، رحمهما الله تعالىٰ .

وكتب بهلول إلى الخليفة الواثق :

أما بعد : فإن المِراء قد لعب بدِينك ، والأهواء قد أحاطت بك ، ومقالات أهل البدع قد سلخت عنك عقلك ، وابن أبي دؤاد المشؤوم قد بدل عليك كلام ربك سبحانه وتعالىٰ ، اقرأ : ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى * وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ * إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي ﴾ ، أفيكون هـٰذا الكلام مخلوقاً ؟ فرماك الله بـ ﴿ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴾ .

وكتب عنوانه : من الخائف الذليل إلى المخالف لكلام الله عز وجل .

وكتب إلى ابن أبي دؤاد :

أما بعد : فإنك قد ميزت كلام الله مِن الله ، فإن يك ما ذكرت باطلاً . . فرماك الله بقارعة من عنده ، ويلك ! ! أكنت معه حين كلم موسىٰ عليه الصلاة والسلام ؟ فإن كنت راداً عليه . . فاقرأ ﴿ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ * تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴾ .

ثم كتب عنوانه : مِن الصادق المتواضع إلى الكاذب الكافر المتجبر .

وكتب إلىٰ بشر المريسي :

أما بعد : فإنك قد بعت الكثير الجليل بالمهين القليل ، وبدلت كلام الله سبحانه وتعالىٰ وحرَّفته ، فلعنك الله سائر دهرك ، ولعن مَن قال بقولك ، وسلط عليك عذاباً ، فجعلك رماداً تشتد به الريح في يوم عاصف .

ثم كتب عنوانه : من المجنون الوَجِل إلى الملعون الفَشِل . انتهىٰ .

قال أيضاً أبو الفرج ـ رحمه الله ـ في « صفوة الصفوة » : قال السَّرِيُّ : اجتزت يوماً في المقابر ؛ فإذا أنا ببهلول وقد أدلىٰ رجليه في قبر ، وهو يلعب بالتراب ، فقلت له : لِمَ تكثر

الجلوس هٰهنا ؟ فقال : نعم ؛ **أنا عند قوم لا يؤذونني ، وإن غبت عنهم . . لا يغتابونني** ، فقلت : يا بهلول ؛ إن الخبز قد غلا ، فادع الله عز وجل ، فقال : والله ما أبالي ولو أن كل حبة بمثقال ، عليَّ أن أعبده سبحانه وتعالىٰ كما أمرني ، وعليه أن يرزقني كما وعدني عز وجل .

وقال الفضل بن الربيع : حججت مع هارون الرشيد ، فمررنا بالكوفة ؛ فإذا ببهلول المجنون يهذي ، فقلت له : اسكت ؛ فقد أقبل أمير المؤمنين ، فسكت ، فلما حاذى الهودج . . قال : يا أمير المؤمنين ؛ حدثنا أيمن بن نابل قال : أخبرنا قدامة بن عبد الله العامري قال : (رأيت النبي صلى الله عليه وسلّم بمنىٰ علىٰ جمل وتحته رَحْل رث ، فلم يكن ثَمَّ ضرب ولا طرد ولا إليك إليك) ، فقلت له : يا أمير المؤمنين ؛ إنه بهلول ، فقال : قد عرفته . [انتهىٰ « الصفوة » ٢/ ٣١١ـ٣١٢] .

زاد في « **لوامع أنوار القلوب** » : ثم قال : يا أمير المؤمنين ؛ لا تكن أبخل الناس علىٰ نفسك ، إن الله سبحانه وتعالىٰ أعطاك جميع الدنيا ، فاشترِ منه ببعضها نفسَك ، واحذر وقوفك للحساب ، فالمناقشة صعبة ، واللهِ ؛ إن محاسبة رجل واحد في خاصة نفسه صعبة ، فكيف بحساب واحد في أمور الخلائق أموالاً وحدوداً ؟!

فبكى الخليفة ثم قال : قد أمرنا أن نجري عليك نفقة ، فقال : لا تفعل يا أمير المؤمنين ، إن الذي أجرىٰ عليك هو الذي أجرىٰ عليَّ ، ثم ولَّىٰ وهو يقول :

تـوكلـت علـى اللهِ ... ومـا أرجـو سـوى اللهِ
ومـا الـرزق مـن النـاسِ ... بـل الـرزق مـن اللهِ

فقال الفضل : قلب جريح ، وعقل سلب وهو صحيح ، ودمع سكوب يقع كلامه الموقع الصحيح . انتهىٰ .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : رأيت في بعض المجاميع قال : كتب بهلول علىٰ كفه : يا رب ؛ حقق حسن ظني بك يا أرحم الراحمين .

وسئل بهلول عن رجل مات وخلف أماً وبنتاً وزوجة ، ولم يترك من المال شيئاً ، فقال : للبنت اليتمُ ، وللأم الثكلُ ، وللزوجة خراب البيت ، وما بقي من الهَمِّ والغم فللعصبة ، والله سبحانه أعلم .

* * *

ومنهم :

عابد آخر يقال له : أبو عليٍّ المعتوه

رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال خلف بن سالم : قلت لأبي علي المعتوه : أمَا لك مأوىٰ ؟ فقال : بلىٰ ، قلت : فأين ؟ قال : في دار يستوي فيها العزيز والذليل ، فقلت : وأين هٰذه الدار ؟ قال : المقابر ، قلت : أمَا تستوحش في ظلمة الليل ؟ قال : إني إذا ذكرت ظلمة اللحد ووحشته . . تهون عليَّ ظلمة الليل ، قلت : فربما رأيت في المقابر شيئاً تنكره ، فقال : ربما كان ذلك ، ولٰكن في هول الآخرة ما يشغل عن هول المقابر .

قال الأشهلي : قلت لأبي : يا أبت ؛ مثل هٰذا الكلام الجيد الصحيح يتكلم به مجنون ؟! فقال : **يا بني ؛ هٰؤلاء قوم كان لهم فضل ودِين ومعرفة ، فزالت عقولهم وبقي ذلك الفضل ، فلم يختلط فيما اختلط** . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٣١٢ـ٣١٣] .

❊ ❊ ❊

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال الشبلي رحمه الله : رأيت يوم الجمعة معتوهاً عند جامع الرصافة قائماً عرياناً ، وهو يقول : أنا مجنون ، أنا مجنون ، فقلت له : لِمَ لا تدخل الجامع وتتوارىٰ وتصلي ؟ فأنشد :

يقولون زرنا واقض واجبَ حقِّنا	وقد أسقطَتْ حالي حقوقَهُمُ عني
إذا هم رأوا حالي ولم يأنفوا لها	ولم يأنفوا منها أنفتُ لهم مني[1]

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : اعلم : أن هٰذا المعنى الذي قاله هٰذا المجنون صحيح من جهة سقوط الفرض عنه بالجنون ؛ لأن مناط التكليف هو العقل ، فحيث لا عقل ، لا تكليف ، فلا مطالبة .

وقد سئل موفق الدين صاحب « المغني » من الحنابلة عن هٰؤلاء المعتوهين الذين تمر عليهم أوقات الصلاة ولا يصلون ، فقال : **هٰؤلاء وهبهم الله عز وجل ما وهب ، وسلب عنهم ما سلب ، فأسقط عنهم ما وجب لِمَا وهب سبحانه وتعالىٰ** .

* * *

(١) الصفوة (٢/٣١٣) .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال ابن القصاب الصوفي : كنا جماعة ، فدخلنا المارستان يوماً ، فرأينا فتىً مصاباً شديدِ الهوس ، فولعنا به وزدنا في الولع ، فاتَّبعناه ، فصاح وقال : انظروا إلىٰ شعور مطررة(١) ، وأجساد معطرة ، قد جعلوا الولع بضاعة ، والسخف صناعة ، وجانبوا العلم رأساً ، فقلنا له : أفأنت تحسن العلم فنسألك ؟ فقال : إي والله ؛ إني لأحسن علماً عما تسألوني ، فقلنا له : مَن الكريم في الحقيقة ؟ فقال : الذي رَزَقَ أمثالكم سبحانه وتعالىٰ وأنتم لا تساوون قوت يوم ، فضحكنا ، وقلنا : مَن أقل الناس شكراً ؟ فقال : مَن عوفي مِن بلية ثم رآها في غيره ، فترك العبرة والشكر ، واشتغل بالتطنز(٢) واللهو .

قال : فكسر قلوبنا بذلك ، فقلنا : ما الظَّرْف ؟ فقال : خلاف ما أنتم عليه ، ثم بكىٰ وقال : يا رب ؛ إن لَمْ تردَّ عقلي عليَّ . فردَّ عليَّ يدي لعلي كنت أصفع واحداً من هـٰؤلاء . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/٣١٣] .

* * *

---

(١) مطررة : مقصوصة ومصففة .
(٢) الطَّنْزُ : السخرية ، وفي بعض النسخ : (البطنة) .

ومنهن :

أخوات بشر الحافي
رضي الله عنهنَّ

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : أخوات بشر رحمهن الله ثلاث : مضغة ، ومخة ، وزبدة ، بنات الحارث ، وأكبرهن مضغة ، وكانت زبدة تكنىٰ أم علي ، وكانت مضغة أكبر من بشر ، وماتت قبله .

وقيل : لما ماتت مضغة . . توجع عليها بشر توجعاً شديداً ، وبكىٰ ، فقيل له في ذلك ، فقال : قرأت في بعض الكتب : إن العبد إذا قصر في خدمة مولاه سبحانه وتعالىٰ . . سلبه الله تعالىٰ أنيسه ، وهـٰذه كانت أنيستي من الدنيا .

وقال القحطبي : كانت مضغة صوامة قوامة .

وقال بشر : تعلمت الورع من أختي ؛ فإنها كانت تجتهد ألاَّ تأكل ما للمخلوق فيه صنع .

وقال عبد الله بن أحمد : كنت عند أبي يوماً ، فدق داق الباب ، فقال لي : اخرج فانظر مَن بالباب ، فخرجت ، فرأيت امرأة ، فقالت لي : استأذن لي علىٰ أبي عبد الله أحمد ، فقلت له ، فقال : ائذن لها ، فدخلت وسلمَت ، وقالت : يا أبا عبد الله ؛ أنا امرأة أغزل بالليل في السراج ، فربما طفىء السراج ، فأغزل في القمر ، أفعَلَيَّ أن أبيِّن غزْل القمر من غزل السراج ؟ فقال لها : إن كان عندك بينهما فرق . . فعليك أن تبيِّني .

فقالت له : يا أبا عبد الله ؛ أنين المريض شكوىٰ ؟ فقال : أرجو ألاَّ يكون شكوىٰ ، ولـٰكنه اشتكاء إلى الله عز وجل .

قال : فودعتْه وخرجت ، فقال : يا بني ؛ أسمعت إنساناً يسأل عن مثل هـٰذا ؟ ثم قال : اتبع هـٰذه المرأة ، فانظر أين تدخل ، قال : فتبعتها ، فإذا هي قد دخلت بيت بشر ، فإذا هي أخته ، فرجعت إلىٰ أبي وأخبرته ، فقال : محال أن يكون مثل هـٰذه إلا أخت بشر .

وقال عبد الله : جاءت مخة أخت بشر إلىٰ أبي ، فقالت له : إني امرأة رأس مالي

دانقان ، أشتري قطناً وأغزله وأبيعه بنصف درهم ، فأتقوَّت بدانق من الجمعة إلى الجمعة ، فمر ابن طاهر الطائف ومعه مشعل ، فوقف يكلم أصحاب المسالح[1] فغزلتُ في ضوء المشعل طاقات معينة ، ثم غابت عني تلك الطاقات ، فعلمت أن الله عز وجل يطالبني ، فخلِّصني خلصك الله تعالىٰ ، فقال لها : تخرجين الدانقين ، ثم تبقين بلا رأس مال حتىٰ يعوضك عز وجل خيراً منه .

قال عبد الله : فقلت لأبي : يا أبت ؛ لو قلتَ لها أخرجي الغزل الذي فيه تلك الطاقات ، فقال : يا بني ؛ سؤالها لا يحتمل التأويل ، ثم قال : تدري مَن هـٰذه ؟ هـٰذه مخة أخت بشر .

وكانت مخة تقصد أحمد وتسأله عن الورع والتقشف ، وكان يعجب من مسائلها .

وقال أبو عبد الرحمـٰن السلمي : قالت زبدة أخت بشر : أثقل شيء على العبد . . الذنوب ، وأخف شيء عليه . . التوبة ، فما له لا يدفع أثقل شيء بأخف شيء ؟! انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٣١٥ـ٣١٧] .

* * *

(١) في النسخ : (يكلم أصحابه المشايخ) ، والمثبت من « الصفوة » ، والمعنىٰ : أي قوم ذوو سلاح .

ومنهن :

عابدتان
رضي الله عنهما

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان ببغداد رجل تاجر له ثروة ، فبينما هو جالس في حانوته ؛ إذ أقبلت إليه امرأة تطلب منه شيئاً تشتريه ، فبينا هي تحادثه ؛ كشفت وجهها في خلال ذلك ، فتحير وقال : قد ـ والله ـ تحيرت مما رأيت .

فقالت : ما جئت لأشتري شيئاً ، وإنما ليَ أيام أتردد إلى السوق ليقع قلبي علىٰ رجل أتزوجه ، وقد وقعتَ أنت بقلبي ، ولي مال ، فهل لك في التزوج ؟ فقال لها : لي ابنة عم ، وهي زوجتي ، وقد عاهدتها ألاَّ أغيرها ، ولي منها ولد ، فقالت : أنا قد رضيت أن تجيء إلي في الأسبوع يومين ، فرضي وقام معها ، فعقد العقد ومضىٰ إلىٰ منزلها ، فدخل بها ، ثم ذهب إلىٰ منزله ، وقال لزوجته : إن بعض أصدقائي قد سألني أن أكون هـٰذه الليلة عنده . ومضىٰ فبات عندها ، وكان يمضي كل يوم بعد الظهر إليها ، فبقي علىٰ هـٰذا ثمانية أشهر .

فأنكرت ابنة عمه أحواله ، فقالت لجارية لها : إذا خرج سيدك . . فانظري إلىٰ أين يمضي من حيث لا يراك ، قال : فتبعته الجارية ، فجاء إلى الدكان ، فقعد ، فلما جاء وقت الظهر . . قام ، فتبعته وهو لا يشعر ، إلىٰ أن دخل بيت تلك المرأة الجديدة .

فجاءت الجارية إلى الجيران ، وسألتهم : لمَن هـٰذه الدار ؟ فقالوا : لصبية قد تزوجت برجل تاجر ، فعادت إلىٰ سيدتها وأخبرتها ، فقالت لها : إياك أن يعلم بهـٰذا أحد ، ولم تظهر لزوجها شيئاً .

فأقام الرجل تمام العام ، ثم مرض ومات ، وخلف ثمانية آلاف دينار ، فعمدت المرأة التي هي ابنة عمه إلىٰ ما يستحقه الولد من التركة وهو سبعة آلاف دينار ، فأفردتها ، وقسمت الألف الباقية نصفين ، وتركت النصف في كيس .

وقالت للجارية : خذي هـٰذا الكيس ، فاذهبي به إلى المرأة ، وأعلميها أن الرجل قد

مات ، وخلف ثمانية آلاف دينار ، وقد أخذ الابن حقه سبعة آلاف ، وبقيت الألف ، فقسمتها بيني وبينك ، وهٰذا حقك ، وسلِّميهِ إليها ، فمضت الجارية ، فطرقت عليها الباب ودخلت ، وأخبرتها خبر الرجل وحدثتها بموته ، وأعلمتها الحال ، فبكت ، ثم فتحت صندوقاً ، وأخرجت منه رقعة ، وقالت للجارية : عودي إلىٰ سيدتك وسلمي عليها ، وأعلميها أن الرجل طلقني قبل موته ، وكتب لي براءة ، وردي عليها المال ؛ فإني ما أستحق في تَرِكَتِهِ شيئاً ، فرجعت الجارية وأخبرتْها . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٣٢٠ـ٣٢١] .

* * *

ومنهم :

عابدان كوفيان
رضي الله عنهما

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال الشعبي : جاء رجلان إلىٰ شريح القاضي ، فقال أحدهما : اشتريت من هٰذا داراً ، فوجدت مدفوناً فيها عشرة آلاف درهم ، فقلت له : خذها ، فقال : لا آخذها ؛ لأنك اشتريت مني الدار جميعها ، فقال القاضي : ما أدري ما أصنع بينكما ، فأَتيا زياداً فأخبراه ، فقال : ما كنت أرىٰ أن أحداً بقي هٰكذا ، ثم قال : اتركاها في بيت مال المسلمين . [انتهىٰ « الصفوة » ٣/ ٩٤] .

* * *

ومنهن :

عابدة أخرىٰ
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال حماد بن سلمة : خرجت في ليلة ظلماء ، وفي جِواري امرأة من المتعبدات لها بنات أيتام ، فوكف[1] السقف عليهن ، فسمعتها تقول : يا رفيق ؛ ارفق بي ، فسكن المطر ، فأخذت صرة فيها عشرة دنانير وقرعت بابها ، فقالت : اجعله ابن سلمة[2] ، فقلت : أنا حماد بن سلمة ، سمعتك وقد تأذيت بالمطر ، فقلتِ : يا رفيق ؛ ارفق بي ، فما بلغ مِن رفقه سبحانه وتعالىٰ ؟ فقالت : سكن المطر ، وأدفأ الصبيان ، وجفف البيت ، فأخرجتُ الدنانير وقلت لها : انتفعي بهـٰذه ، فإذا صبية عليها مدرعة من صوف تستبين خروقها قد خرجت إلي وقالت : ألا تسكت يا حماد ؟ تعترض بيننا وبين ربنا ومولانا سبحانه وتعالىٰ .

ثم قالت : يا أماه ؛ قد علمتُ أَنَّا لَمَّا شكونا . . أن الله سبحانه وتعالىٰ سيبعث إلينا بالدنيا ؛ ليطردنا من بابه جل جلاله ، ثم ألصقت خدها بالتراب وقالت : أمَا وعزتك وجلالك لا زايلت بابك وإن طردتني .

ثم قالت : يا حماد ؛ رد عنا ـ عافاك الله ـ دنانيرك إلى الموضع الذي أخرجتها منه ؛ فإنا رفعنا حوائجنا إلىٰ مَن يحفظ الودائع ، ولا يخيب أمل الآملين ، ولا يضيع أجر العاملين ، سبحانه وتعالىٰ . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٣١] .

* * *

---

(١) وكف : أي : تقاطر الماء من السقف .

(٢) أي : اجعله يا رب ابن سلمة .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال أبو إسحاق الهروي : كنت مع ابن الحنوطي[1] : بالبصرة ، فأخذ بيدي وقال : قم حتىٰ نخرج إلى الأُبُلَّة[2] ، فلما قربنا منها ونحن نمشي علىٰ شاطئها في الليل والقمر [طالع] ؛ إذ مررنا بقصر لجندي فيه جارية تضرب بالعود ، فوقفنا في فناء القصر نسمع ، وفي جانب القصر في ضوء القمر فقير متزر بخرقتين ، فقالت الجارية :

كـــلَّ يـــوم تتلـــوَّنْ　　　غيـــر هٰـــذا بـــك أجمـــلْ

قال : فصاح الفقير : أعيديه ، فهٰذا حالي مع الله عز وجل ، فنظر صاحب الجارية إلى الفقير وهو يقول هٰذا حالي مع الله سبحانه وتعالىٰ ، فقال للجارية : اتركي العود وأقبلي عليه وأعيدي القول ؛ فإنه صوفي ، فأخذت تقول وتعيد القول :

كـــل يـــوم تتلـــون　　　غيـــر هٰـــذا بـــك أجمـــل

والفقير يقول : هٰذا حالي مع الله عز وجل ، والجارية تردد إلىٰ أن زعق الفقير زعقة خر مغشياً عليه ، فحركناه ؛ فإذا هو ميت .

فلما سمع صاحب القصر بموته . . نزل ، فأدخله القصر ، ثم صعد الجندي ، وكسر كل ما كان بين يديه من آلات اللهو ، فلما أصبحنا . . كأنما نودي بالصلاة ، فخرج الخلائق للجنازة ، وإذا الجندي يمشي خلف الجنازة حافياً حاسراً حتىٰ دُفن .

فلما هَمَّ الناس بالانصراف . . قال الجندي للقاضي والشهود : اشهدوا أن كلَّ جارية لي حرةٌ لوجه الله سبحانه وتعالىٰ ، وكلَّ ضِياعي وعقاري حَبْسٌ في سبيل الله تعالىٰ ، وفي صندوق لي أربعة آلاف دينار وهي في سبيل الله تعالىٰ .

---

(١) في بعض النسخ : (ابن الخيوطي) وفي « الصفوة » : (ابن الخروطي) .
(٢) الأُبُلَّة : بلد قرب البصرة .

ثم نزع الثياب التي كانت عليه ، فرمىٰ بها وبقي في سراويل ، ثم عمد إلىٰ مئزَريْ صوف من وجههما وخرج سائحاً ، فكان بكاء الناس عليه أكثر من بكائهم على الميت . انتهىٰ

[« الصفوة » ٤/ ٣٢ـ٣٣] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال مسلم بن زرعة بن حماد : حدثني أبو الرضا شيخ بعبَّادان له عبادة وفضل[1] ، قال : مَلُحَ الماء عندنا نيفاً وستين سَنة ، وكان هاهنا رجل من الساحل له فضل ، ولم يكن في الصهاريج شيء ، وحضرت المغرب ، فهبطت لأتوضأ من النهر ، وذلك في رمضان وحر شديد ؛ وإذا به وهو يقول : سيدي ؛ أرضيت عملي حتىٰ أتمنىٰ عليك ؟ أم رضيت طاعتي حتىٰ أسألك ؟ وعزتك وجلالك يا سيدي ؛ غسالة الحمَّام لمن عصاك كثير ، إلـٰهي وسيدي ؛ لولا أني أخاف غضبك . . لم أذق الماء وقد أجهدني العطش .

قال : ثم أخذ بكفه وشرب شرباً صالحاً ، فتعجبت مِن صبره علىٰ ملوحته ، فجئت وأخذت من الموضع الذي أخذ ؛ فإذا هو بمنزلة السُّكَّر ، فشربت حتىٰ رويت ، ثم صاحبته زماناً .

فقال لي في بعض الأيام : رأيت البارحة في المنام كأن قائلاً يقول لي : قد فرغنا من بناء دارك ، فلو رأيتها . . قرت عيناك ، وقد سميناها : دار السرور ، وبعد سبعة أيام تجيء إليها ، فأبشر .

فلما كان يوم السابع وهو يوم الجمعة . . بَكَّر للاغتسال ، فنزل إلىٰ النهر ، فزلق وغرق ، فأخرجناه بعد الصلاة ، فدفناه .

قال أبو الرضا : فرأيته بعد ثلاثة أيام في النوم وهو يجيء إلى القنطرة ويكبر ، وعليه حلل خضر ، فقال لي : يا أبا الرضا ؛ أنزلَني الكريم جل جلاله في دار السرور ، فماذا أعدَّ لي

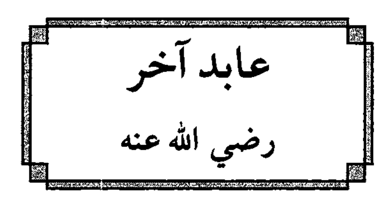
---

(١) كذا في النسخ ، وعبارة « الصفوة » : (سلم بن زرعة بن حماد ، أبو المرضىٰ ، شيخ بعباذان له عبادة وفضل) .

فيها ؟ فقلت له : صف لي ، فقال : هيهات! يعجز الواصفون عن أن تنطق ألسنتهم بما فيها ، فاكتسب مثل ما اكتسبت ، وليت عيالي يعلمون أنه قد هيئت لهم منازل معي ، فيها كل ما اشتهته أنفسهم ، نعم وإخواني وأنت معهم إن شاء الله تعالىٰ . ثم انتبهت . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٣٧ـ٣٨] .

* * *

ومنهم :



قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال علي بن سعيد : مررت بعبادان برجل مكفوف مجذوم ، وإذا الزنبور يقع عليه فيقطع لحمه ، فقلت في نفسي : الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاه به ، وفتح مِن عيني ما أغلق مِن عينيه .

قال : فبينا أنا أردد الحمد ؛ إذ صرع ، فبينما هو يتخبط . . نظرت إليه ، فإذا هو مقعد ، فقلت في نفسي : مكفوف مصروع مقعد مجذوم ؟ قال : فما تمَّ كلامي حتىٰ صاح بي وقال : يا متكلف[1] ؛ ما دخولك فيما بيني وبين ربي عز وجل ؟! دعه يفعل بي ما يشاء ، ثم قال : وعزتك وجلالك لو قطعتني إرباً إرباً وصببت البلاء صباً . . ما ازددت لك إلا حباً ، بتوفيقك إياي يا أرحم الراحمين . انتهىٰ [« الصفوة » ٣٨/٤] .

* * *

---

(١) المتكلف : المتعرض لما لا يعنيه .

ومنهن :

عابدة أخرىٰ
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ وغيره : قال عبد ربه الخواص رحمه الله تعالىٰ : رأيت امرأة فارسية بأرَّجان[1] ، وهي تقول : إلـٰهي وسيدي ومولاي ؛ تدبرت حكمك بين خلقك . . فإذا العدل منك يقصمهم ، ثم رجعت بعد ذلك إلىٰ معرفتي بسعة رحمتك . . فعلمت أن عفوك يسعهم وأمثالَهم وأمثالَ أمثالهم إلىٰ ما لا نهاية له .

ثم قالت : يا مولاي ؛ وعزتك وجلالك ؛ لقد أخرت الخاطئين فلم تعجل عليهم بالعقوبة ، فأطمعهم حسن إنظارك لهم في حسن عفوك عن جرائمهم ، وما يمنعهم من ذلك وقد تقدم إحسانك إلى الخلائق كلهم ، والأمم قبلهم من الأزل والأبد ، وأنت أهل التقوىٰ وأهل المغفرة ، وولي الخيرات في الدنيا والآخرة . وكانت تنوح وتبكي علىٰ نحو هـٰذا الكلام . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٤٤] .

* * *

---

(١) أرَّجان ـ بتشديد الراء ، وخففها بعضهم ـ : مدينة بفارس تبعد عن شيراز ستون فرسخاً ، وكانت مدينة كثيرة الخير ، وهي برية بحرية ، سهلية جبلية ، افتتحها أبو موسى الأشعري وعثمان ابن أبي العاص في آخر خلافة عمر رضي الله عنهم .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال صالح بن أحمد ابن حنبل رحمهم الله تعالىٰ : جئت يوماً إلىٰ منزلي ، فقيل لي : قد وَجَّه إليك أبوك أمس في طلبك ، فقمت لوقتي وأتيت إليه ، فقال لي : يا بني ؛ وجهت إليك في طلبك بالأمس ، وسبب ذلك : أنه جاءني أمس رجل كنت أحب أن تراه ، بينما أنا قاعد في حر الظهيرة ؛ وإذا برجل يسلم بالباب ، فكأن قلبي ارتاح إليه ، ففتحت الباب ، وإذا برجل عليه فروة وعلىٰ أم رأسه خرقة ، وما تحت فروته قميص ، ولا معه ركوة ولا عكاز ، قد لوحته الشمس .

فقلت له : ادخل ، فدخل ، فقلت له : مِن أين أقبلت ؟ قال : من ناحية المشرق ، أريد بعض هٰذه السواحل ، ولولا مكانك . . لما دخلت هٰذه البلد ؛ لأني نويت السلام عليك .

ثم قال لي : ما الزهد في الدنيا ؟ فقلت : قصر الأمل ، وجعلت أعجب منه ، وقلت في نفسي : ما عندي ذهب ولا فضة ، فدخلت البيت وأخذت أربعة أرغفة وخرجت إليه ، وقلت له : ما عندي ذهب ولا فضة ، وإنما هٰذا من قوتي .

فقال : أوَ يسرُّك أن أقبل ذلك يا أبا عبد الله ؟ فقلت : نعم ، قال : فأخذها ، وجعلها تحت حضنه ، وقال : أرجو أن تكفيني هٰذه إلى الرَّقة ، أستودعك الله تعالىٰ ، ثم ولىٰ ، فلم أزل قائماً أنظر إليه حتىٰ خرج . وكان أبي يذكره كثيراً . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/١١٨] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال أحمد بن علي الإخميمي : كنا يوماً عند ذي النون وقد ذكر كرامات أولياء الله تعالىٰ ، فقال بعض مَن حضرنا : يا أبا الفيض ؛ أخبِرْنا عن بعضهم ، فقال : كان عندي فتىً مِن أهل خراسان ، بقي في المسجد سبعة أيام لا يطعم الطعام ، وكنت أعرض عليه فيأبىٰ .

فدخل ذات يوم سائل يطلب شيئاً ، فقال له الخراساني : لو قصدت الله عز وجل دون خلقه . . أغناك عنهم ، فقال السائل : ما بلغت إلىٰ هـٰذه المرتبة ؟ فقال له الخراساني : أي شيء تريد ؟ قال : ما يسد فاقتي ويستر عورتي ، فقام الخراساني إلى المحراب وصلىٰ ركعتين ، ثم أتاه بثوب جديد وطبق فيه طعام وفاكهة ، فأعطاه للسائل .

قال ذو النون : فقلت له : يا عبد الله ؛ لك هـٰذه المنزلة عند الله عز وجل وأنت منذ سبعة أيام لم تطعم شيئاً ؟ فجثا علىٰ ركبتيه وقال : يا أبا الفيض ؛ كيف تنبسط الألسن بالمسألة ، والقلوب ممتلئة بأنوار الرضىٰ عنه سبحانه وتعالىٰ ؟!

قال ذو النون : فقلت له : والراضون لا يسألون شيئاً ؟ فقال : منهم مَن يسأل من باب الإدلال ، ومنهم مَن يملؤه غنىً به ، ومنهم مَن يستخرج المسألة مِن عطفه علىٰ غيره .

قال ذو النون : ثم أقيمت الصلاة ، فصلىٰ معنا العشاء الآخرة ، وأخذ ركوته وخرج من المسجد كأنه يريد الطهارة ، فلم أره بعد ذلك ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ١١٩/٣] .

* * *

ومنهن :

عابدة أخرىٰ
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال أبو قدامة الشامي رحمه الله : كنت أميراً علىٰ جيش في غزاة ، فدخلت بعض البلاد ، فدعوت الناس إلى الغزو ، ورغبتهم في جزيل الثواب ، وذكرت فضل الشهادة ، وما أعد الله تعالىٰ لأهلها .

فلما تفرق الناس وركبت فرسي وصرت إلىٰ منزلي . . جاءتني امرأة من أجمل النساء ، تنادي : يا أبا قدامة ؛ قلت : هـٰذه مكيدة من الشيطان ، فمضيت ولم أجب ، فقالت : ما هـٰكذا كان الصالحون ، قال : فوقفت ، فجاءت ودفعت إلي رقعة وخرقة مشدودة وانصرفت باكية ، فنظرت في الرقعة ، فإذا فيها مكتوب : إنك دعوت إلى الجهاد ورغّبت في الثواب ، ولا قدرة لي علىٰ ذلك ، يعلم الله سبحانه وتعالىٰ ذلك من قلبي ، وقد قطعت أحسن ما فيَّ وهما ضفيرتاي ، فأنفذتهما إليك لتجعلهما بالله عز وجل قيداً لفرسك ، لعل الله عز وجل أن يرىٰ شعري قيداً لفرسك في سبيل الله تعالىٰ فيغفر لي .

قال أبو قدامة : ونشرت الخرقة ، فإذا فيها الضفيرتان ، فلما كان يوم القتال . . أخرجتهما وجعلتهما قيداً لفرسي ، وباكرنا القتال ، وإذا نحن بغلام بين يدي الصفوف يقاتل قتالاً شديداً ، فتقدمت إليه ، وقلت له : يا فتىٰ ؛ أنت غلام غر وراجل ، ولا آمن عليك أن تجول الخيل فتطؤك بأرجلها ، فارجع عن موضعك هـٰذا .

فقال : أتأمرني بالرجوع وقد قال الله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ ؟ .

قال أبو قدامة : فحملته علىٰ هجين كان معي ، فقال : يا أبا قدامة ؛ أقرضني ثلاثة أسهم ، فقلت : أهـٰذا وقت القرض ؟ فما زال يلح عليَّ حتىٰ قلت له : بشرط : إن مَنَّ الله عز وجل عليك بالشهادة . . أكون في شفاعتك ، قال : نعم ، فأعطيته ثلاثة أسهم ، فوضع

سهماً في قوسه ، وقال : السلام عليك يا أبا قدامة ، ثم رمىٰ به فقتل رومياً ، ثم رمىٰ بالآخر ، ثم رمىٰ بالثالث .

وقال : السلام عليك سلامَ مودِّع ، فجاءه سهم ، فوقع بين عينيه ، فوضع رأسه علىٰ قربوس دابته ، فتقدمت إليه ، وقلت له : لا تنسها ، فقال : نعم ؛ ولـٰكن لي إليك حاجة ، إذا دخلت المدينة . . فأت والدتي وسلم عليها ، وادفع إليها خرجي هـٰذا ، وأخبرها بأمري ، فهي التي أعطتك شعرها لتقيد به فرسك ، وأخبرها بأمري ؛ فإنها في العام الأول أصيبت بوالدي ، وفي هـٰذا العام بي . ثم مات رحمه الله .

فحفرت له ودفنته ، فلما هممت بالانصراف عن قبره . . قذفته الأرض ، فألقته علىٰ ظهرها ، فقال أصحابي : إنه غلام غر ، ولعله خرج بغير إذن أمه ، فقلت لهم : إن الأرض لتقبل كل أحد ، ولـٰكن لهـٰذا سر ، فقمت وصليت ركعتين ودعوت الله سبحانه وتعالىٰ ، فسمعت صوتاً يقول : يا أبا قدامة ؛ اترك ولي الله عز وجل علىٰ حاله على الأرض .

قال فما برحت حتىٰ نزلت عليه طيور ، فأكلته قال : فلما أتيت المدينة ؛ أتيت دار والدته ، فلما قرعت الباب ؛ خرجت أخته إلي ، فلما رأتني . . عادت ، وقالت : يا أماه ؛ هـٰذا أبو قدامة قد جاء وليس معه أخي ، فخرجت أمه ، فسلمت عليَّ ، ثم قالت : أمعزياً جئت أم مهنئاً ؟

فقلت : ما معنىٰ هـٰذا الكلام ؟ فقالت : إن كان ابني قد مات . . فعزني ، وإن كان استشهد . . فهنئني ، فقلت لها : بل استشهد ، فقالت : الحمد لله علىٰ ما أنعم .

ثم قالت : له علامة هل رأيتها ؟ قلت : نعم ، لم تَقْبله الأرض ، ونزلت طيور فأكلت لحمه وتركت عظامه فدفنتها ، فقالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، الحمد لله علىٰ ما أعطىٰ وعلىٰ ما أنعم .

ثم دفعتُ إليها الخرج ، وإذا فيه مِسح[1] وغل من حديد ، فقالت : إنه كان إذا جنه الليل . . لبس هـٰذا المسح وغل نفسه بهـٰذا الغل ، وناجىٰ مولاه سبحانه وتعالىٰ ، ويقول في مناجاته : (اللهم ؛ احشرني من حواصل الطيور) فقد استجاب عز وجل دعاءه ، رحمه الله تعالىٰ . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/١٣٤ـ١٣٥] .

---

(١) المِسْح : الكساء من الشعر .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : اعلم : أن هـٰذا الفعل ـ وهو قطع الشعر ـ وقع لثلاثة من النساء ، وكل واحدة منهن لها مقصود صحيح ؛ فإن كل واحدة منهن عللت فعلها بما تبتغي به رضوان الله عز وجل .

أما واحدة منهن : فإنها عللت قطع الشعر بأنها طالما تمتعت به في غير طاعة الله عز وجل ، فأحبت أن تجبر ذلك العصيان بالطاعة ، وهـٰذا تعليل صحيح يشهد له الشرع بالاعتبار فيما إذا وقع لقصد الطاعة ولا مانع فيها .

وأما الأخرىٰ : فإنها عللت بأنها إذا فعلت ذلك ؛ حصل لها ذلة وانكسار ، فيرى الله سبحانه وتعالىٰ ـ وهو أعلم ـ ذلتها وانكسار قلبها فيه فيرحمها ، وهـٰذا أيضاً تعليل صحيح ، بل هو أقوىٰ من الأول ، عرف ذلك مَن خاض بحار القوم .

وأما هـٰذه الثالثة صاحبة هـٰذه الواقعة : فعللت بما ذكرناه من كونها لا تقدر على الجهاد بنفسها ، فأحبت أن يكون لها حظٌّ من الجهاد بحسب ما تقدر عليه ، وهـٰذا أيضاً تعليل صحيح .

وبالجملة : فمقاصدهن صالحة ، وإذا علم الله سبحانه وتعالىٰ قصد عبده . . أثابه علىٰ ما علم منه إذا كان ذلك الفعل مما فيه قربة ، ولم يَرد فيه منع خاص .

إذا عُرف هـٰذا . . فقد بلغني عن الشيخ جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي ـ رحمه الله ـ أنه منع جواز هـٰذا الفعل مطلقاً من غير أن أقف علىٰ كلامه في ذلك ، والذي تقتضيه الأدلة وكلام الأئمة من أصحابنا وغير أصحابنا الجواز ، ولولا خوف الإطالة . . لأوردت من ذلك شيئاً كثيراً .

لـٰكن ملخص ما أقوله هـٰهنا : أنه لا يخفىٰ علىٰ ذي لُبٍّ أن هـٰذه المرأة قصدها صحيح ؛ لأنها قصدت بذلك التقرب إلى الله سبحانه وابتغاء رضوانه ، وتعليلها مصرح بذلك .

فإن قيل : مجرد صحة القصد في الطاعة لا تكفي في الجواز ؛ لاحتمال ألاَّ يدل على اعتباره دليل شرعي ، وأن يكون ثَمَّ ما يمنع من الجواز .

قلت : هـٰذا صحيح ، ولـٰكن مسألتنا لم يَدُلَّ فيها بخصوصها دليل شرعي علىٰ عدم الجواز ، ولا ثَمَّ مانع ، فانتفى الأمران .

وكل قضية وجد فيها المقتضي وانتفىٰ فيها المانع . عملت عملها ، وهـٰهنا لا نجد دليلاً شرعياً يدل علىٰ تحريم هـٰذا الفعل ، ولا ثَمَّ مانع يمنع منه فيستصحب الجواز .

وحينئذ فنقول : لا يحرم علىٰ هـٰذه المرأة قطع شعرها ، حيث لا تشبُّه ولا سبب دنيوي ؛ كالزينة وما أشبه ذلك ، وحيث لا زوج لها أو أن يكون لها زوج وأذن . . فالتحريم إنما يكون إذا وجد أحد هـٰذه الأسباب أو جميعها .

ومعلوم أن هـٰذه المرأة ليس لها زوج ، ولا فعلت ذلك للتشبه ولا لشيء مما تقدم ، وانضم إلىٰ ذلك حسن قصدها ، وهو ابتغاء رضوان الله تعالىٰ ، ولم يمنع من ذلك مانع ، فانتهض الجواز .

بل أقول بالاستحباب والحالة هـٰذه ولم يبق ما يتطرق إليه النظر ، إلا أن يقال : هل يحل استعمال شعر الآدمي ؟ فإنه قد يقال بأنه لا يحل ذلك لتكريمه .

وقضية ذلك : ألا يمتهن بالاستعمال .

والجواب عن هـٰذا من وجوه :

أما أولاً : فلأن هـٰذا السؤال ـ علىٰ تقدير وروده ـ فإنما يرد علىٰ فعل صاحبة هـٰذه الواقعة لا غير .

وأما ثانياً : فإن هـٰذا لا يَرِد علىٰ فعل واحدة منهن ، لا صاحبة هـٰذه الواقعة ولا غيرها ؛ لأني لم أر أحداً من الأئمة صرح بأن الشعر المبان من الآدمي يحرم استعماله ، ومعلوم أن شعور الآدميين تحلق وترمىٰ ، ولم يقع من أحد منع ولا نكير ؛ إذ الشعر بعد الإبانة لا يتعلق به تكريم ولا امتهان .

نعم ؛ إنما تكلموا في جلد الآدمي فقالوا : لا يجوز استعماله ، والمعنىٰ فيه ظاهر جداً ؛ فلا يقال : إن الشعر مثله .

وأما ثالثاً ـ علىٰ تقدير التنزل[1] ـ : فالاستعمال ليس من فعلها ، إنما هو من فعل الغير ، والمانع للجواز لم يتعرض لذلك ، وإنما قال : يحرم عليها قطع شعرها .

وغاية ما يقال : إنها هي السبب في الاستعمال ، وقد تقدم أن قوله بالتحريم ليس عليه دليل يدل عليه ، فوجب تركه إلىٰ قيام الدليل .

فإن قلت : هل شعرها بعد الإبانة عورة فيحرم النظر إليه أو لا ؟

---

(١) في نسخة : (التبرك) ، وفي أخرىٰ : (البذل) ، ولعل الصواب ما أثبت .

قلت : إن قيل بأنه لا يحرم النظر إليه بعد الإبانة وهو الذي يتجه ، لا سيما إذا كان مجهولاً . . فلا كلام ، وإن قيل بأنه يحرم النظر إليه وهو بعيد جداً ولٰكنه قد صار إليه بعض الأصحاب . . فهٰذا ـ كما تقدم ـ ليس من فعل المرأة وإن كان ينشأ عن فعلها ؛ إذ كانت هي السبب ، ولٰكن المانع للجواز لم يعتبر ذلك ، ولا جعله المسلك المعتبر في التحريم ، والمسألة تحتاج إلىٰ مزيد نظر وتحرير ، سأعود إليه إن شاء الله عز وجل ، والله أعلم .

* * *

ومنهن :

عابدة أخرىٰ
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال سعيد الإفريقي رحمه الله تعالىٰ : كنت في بيت المقدس ؛ فإذا بجارية في المسجد عليها درع شعر وخمار صوف ، وهي تقول : إلـٰهي وسيدي ؛ ما أضيق الطريق علىٰ مَن لم تكن دليله ، وما أوحش خلوة مَن لم تكن أنيسه .

فقلت لها : يا جارية ؛ ما الذي قطع الخلق عن الله عز وجل ؟ فقالت : حب الدنيا ، إلا أن لله عز وجل عباداً اختصهم بخالص محبته سبحانه وتعالىٰ ، فولهت قلوبهم بحبه سبحانه وتعالىٰ .

ثم قالت :

تـزوَّدْ قـريناً مـن فعـالـك إنمـا ... يزِيْن الفتىٰ في القبر ما كان يعملُ
ألا إنمـا الإنسـان ضيـف لأهلـه ... يقيـم قليـلاً عنـدهـمْ ثـم يـرحـل[1]

* * *

---

(١) الصفوة (٤/١٧٦) .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال في « زهر الكُمَام في قصة يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام »[1] : روي أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه جهز جيشاً إلى العدو قِبَل الشام ، وكان في المسلمين رجلان أَخَوان قد آتاهما الله سبحانه وتعالىٰ قوة وشجاعة زائدة ، فقتلا من المشركين خلائق .

وكان أمير المشركين يقول لبطارقته[2] ووجوه دولته : لو أن هٰذين المسلمَين حُصِّلا وقتلا . . لانتصرتم وكفيتم مَن سواهما من المسلمين ، ولم يزل يحرض المشركين علىٰ قتالهما أو أسرهما ، ويرغبهم في المال ، والأخوان يقاتلان قتالاً شديداً ، إلىٰ أن قتل بعضُ المشركين أحدَ الأخوين وأسروا الآخر .

فجاؤوا به إلىٰ ملكهم ، فلما نظر إليه . . قال : إن قتْل هٰذا لمصيبة عظيمة ، وإن رجوعه إلى المسلمين لآفة كبيرة علينا ، ووددت لو دخل في النصرانية وأعطيه من مالي كذا وكذا ؛ فإنه يكون لدِين النصرانية عوناً وعضداً .

فقال له بطريق من بطارقته : أنا أفتنه عن دِينه ، فقال له ملكهم : وكيف تقدر علىٰ ذلك ؟ فقال البطريق : إن العرب تكثر الصبوة والحب للنساء ، ولي ابنة جميلة ، وليس في مملكتك أجمل منها ، فلو رآها . . افتتن بها وصار إلىٰ ما تريد منه .

فقال له ملكهم : خذه إليك واحتفظ به ، قال : فسار به البطريق إلىٰ منزله ، وفرش فيه من الفرش الجميلة ، وألبس ابنته أفخر الملابس ، وزينها بالحلي والحلل ، وأعلمها بصورة الحال ، وأنها لا تبقي ممكناً في ملاطفته ومداعبته إلىٰ أن ينقاد لها .

---

(١) وهو لعمر بن إبراهيم الأنصاري ، انظر « كشف الظنون » (٢/ ٩٦١) .

(٢) **البطريق** : القائد من قواد الروم ، كما يطلق على الحاذق بالحرب ، وعلىٰ رئيس رؤساء الأساقفة .

ثم أدخل الرجل إلىٰ ذلك المنزل ، وأحضر له الطعام ، ثم خرج البطريق ، فلم يبق في المنزل غير ابنته ، فجاءت ووقفت النصرانية بين يديه كالخادم المطيع تنتظر أن يأمرها بما يشاء فتفعله .

فلما رأى المسلم ما نزل به . . اعتصم بالله سبحانه وتعالىٰ ولجأ إليه ، وغض بصره ، واشتغل بعبادة الله عز وجل وقراءة القرآن ، وكان صوته حسناً يؤثر في قلب كل من يسمعه .

فلما قرأ وسمعته النصرانية . . أثر في قلبها ، فأحبته حباً شديداً ، وكَلِفت به كلفاً عظيماً ، وهو لا ينظر إليها ، ولا يلتفت ، ولا يكلمها ، ولم يزل علىٰ ذلك سبعة أيام ، حتىٰ إن النصرانية صارت تقول في نفسها : ليته لو رضي بدخولي في الإسلام ، فلما عيل صبرها وضاق ذرعها ورأت أنه لا يكلمها ؛ ترامت بين يديه وقالت : أسألك بالله إلا ما سمعت كلامي .

قال : تكلمي ، قالت : اعرض عليَّ الإسلام ، فعرض عليها الإسلام ، فأسلمت وتطهرت ، وعلمها شرائع الإسلام ، فأتت بجميع ما يأمرها به من العبادة علىٰ أحسن وجه ، ثم قالت له : يا سيدي ؛ إنما دخلت في الإسلام بسبب حبي لك وطمعاً في أن أتزوجك .

فقال لها : إن الإسلام يمنع من النكاح إلا بشروط ، وليس لي هـٰهنا قدرة على الإتيان بتلك الشروط ، فلو خرجت أنا وأنت إلىٰ بلادي . . لتزوجت بك وعاهدتُ الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ ألاَّ يكون لي زوجة غيرك .

فقالت له : الله علىٰ ما تقول وكيل ؟ فقال : نعم ، فقالت : أنا أحتال في خروجنا ، ثم إنها دعت أباها وأمها ، وأعلمتهما بأن هـٰذا المسلم قد مال قلبه إلى الدخول في الدِّين ، ولـٰكنه اعتذر بأنه لا يقدر علىٰ أن يدخل في هـٰذا الدِّين في البلد الذي قتل فيه أخوه ؛ لشدة حزنه عليه وكثرة تأسفه ، وأنه لو خرج من هـٰذا البلد . . لرجوت أن يدخل في الدِّين ؛ لأنه يسلو قلبه عن أخيه ، ولـٰكن قال : إنما أفعل هـٰذا بشرط أن يصل مني إلىٰ ما يريده ، وأنا قد عاهدته أنه إذا دخل في الدِّين أن أوصله إلىٰ ما يريد مني .

والرأي في ذلك رأيكم ، فما أقطع أمراً دونكم ، لـٰكن لو أخرجتموني معه إلىٰ قرية كذا وكذا . . لرجوت أن يصير إلىٰ ما تريدون ، وأنا ضامنته لكم وللمَلِك .

قال : فسار والدها إلى الملك ، وأخبره بما قالت ابنته ، فسُرَّ بذلك سروراً عظيماً ، ثم أمر بإخراجهما إلى القرية الفلانية التي عينتها .

قال : فلما وصلا إلىٰ تلك القرية ؛ أقاما فيها بقية يومهما ، فلما جن الليل ؛ قالت : الرحيل الرحيل ، فأخذا في السير ، فسارا جميع تلك الليلة .

وكان الشاب قد ركب جواداً وأردفها خلفه ، فما زالا يقطعان الأرض حتى الصباح ، فنزلا يصليان الفجر ، فلما فرغا من الصلاة . . سمعا قعقعة السلاح وصهيل الخيل ، فخافا .

فقال : يا فلانة ؛ هـٰذا تبع من النصارىٰ رجالاً وركباناً ، ثم رفع يديه وتضرع إلى الله سبحانه وتعالىٰ في أن ينجيهما ، فسمع هاتفاً يقول : لا تخف ولا تحزن فقد نجوتما ، وإنك في غد في جبال المدينة بإذن الله ، فإذا وصلت إلىٰ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه . . فأقرئه مني السلام ، وقل له : جزاك الله عن الإسلام خيراً .

قال : ثم لم يزالا سائرين يومهما وليلتهما حتىٰ أصبحا في جبال المدينة ، قال : فلما صلىٰ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الصبح . . قال لأصحابه : اخرجوا بنا لنلتقي العروس ونعقد العقد ، فلم يفهموا معنىٰ هـٰذا الكلام ، لـٰكنهم امتثلوا أمره وخرجوا معه ، فلما كان ضحوة نهار . . أقبل الفارس والمرأة ، فسلما علىٰ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وجاء المسلمون فسلموا عليهما ، وعقدوا نكاحها عليه ، فدخل المدينة وهي زوجته ، ورزق منها جملة أولاد ، ولم تزل في عصمته إلىٰ أن ماتت رحمها الله تعالىٰ . انتهىٰ .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال حجة الإسلام الغزالي ـ قدس الله روحه ـ في « الإحياء » : وعن ابن المهاجر قال : قدم أمير المؤمنين المنصور مكة ، فكان يخرج من دار الندوة إلى الطواف في آخر الليل ، يطوف ويصلي ولا يُعلَم به ، فإذا طلع الفجر . . رجع إلىٰ دار الندوة ، وجاءه المؤذنون فسلموا عليه ، وأقيمت الصلاة ، فيصلي بالناس ، فخرج ذات ليلة حين أسحر ، فبينما هو يطوف ؛ إذ سمع رجلاً عند الملتزم وهو يقول : اللهم ؛ إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع .

فأسرع المنصور في مشيه حتىٰ ملأ مسامعه من قوله ، ثم رجع ، فجلس في ناحية من المسجد ، وأرسل إليه يطلبه ، فأتاه الرسول فقال له : أجب أمير المؤمنين ، فصلىٰ ركعتين واستلم الركن ، وأقبل مع الرسول ، فسلم عليه ، فقال له المنصور : ما هـٰذا الذي سمعتك تقوله من ظهور البغي والفساد في الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع ؟ فوالله ؛ لقد حشوت مسامعي ما أمرضني وأقلقني .

فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن أمَّنتني علىٰ نفسي . . أنبأتك بالأمور من أصولها ، وإلا . . اقتصرت علىٰ نفسي ، ففيها لي شغل شاغل ، فقال له : أنت آمن علىٰ نفسك .

فقال : إن الذي دخله الطمع حتىٰ حال بينه وبين الحق وإصلاح ما ظهر من البغي والفساد في الأرض . . أنت ، قال : وكيف يدخلني الطمع ، والصفراء والبيضاء بيدي ، والحلو والحامض في قبضتي ؟!

قال : وهل دخل أحد من الطمع ما دخلك يا أمير المؤمنين ؟ إن الله عز وجل استرعاك أمور المسلمين وأموالهم ، فأغفلت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر ، وأبواباً من الحديد ، وحُجَّاباً معهم السلاح ، ثم سجنت نفسك فيها معهم ، وبعثت عمالك في جمع الأموال وجبايتها ، واتخذت وزراء وأعواناً ظلمة ، إن

نسيت . . لم يذكروك ، وإن أحسنت . . لم يعينوك ، وقويتهم علىٰ ظلم الناس بالأموال والكراع والخيل والسلاح .

وأمرت بألاَّ يدخل عليك من الناس إلا فلان وفلان نفر سميتهم ، ولم تأمر بإيصال المظلوم ، ولا الملهوف ، ولا الجائع ، ولا العاري ، ولا الضعيف ، ولا الفقير ، ولا أحد من المسلمين إلا وله في هـٰذا المال حق .

فلما رآك هـٰؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك ، وآثرتهم علىٰ رعيتك ، وأمرت بألاَّ يحجبوا عنك خاصة ، ورأوك تجبي الأموال ولا تقسمها . . قالوا : هـٰذا قد خان الله ورسوله صلى الله عليه وسلّم ، فما لنا لا نخونه وقد سُخِّر لنا ؟

فأتمَروا فيما بينهم علىٰ ألاَّ يصل إليك مِن علم أخبار الناس إلا ما أرادوا ، وعلىٰ ألاَّ يخرج لك عامل فيخالف لهم أمراً ، فإن خالفهم ؛ أقصوه حتىٰ تسقط منزلته ويصغر قدره .

فلما انتشر ذلك عنك وعنهم . . أعظمهم الناس وهابوهم ، وكان أوَّلَ مَن صانعهم عمَّالُك بالهدايا والأموال ؛ ليتَقَوَّوْا بها علىٰ ظلم رعيتك ، ثم فعل مثل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيتك ؛ لينالوا ظلم مَن دونهم من الرعية ، فامتلأت بلاد الله جوراً وظلماً ، وطمعاً وبغياً وفساداً ، وصار هـٰؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل لا تدري ولا تشعر .

فإن جاء متظلم . . حالوا بينك وبينه ، ولا يُمكَّن من الوصول إليك ولا الدخول عليك ، وإن أراد رفع قصة إليك عند ظهورك وحدك . . لا يستطيع ذلك ؛ لأنك قد نهيت عن ذلك ، وهم لا يأخذونها منه ، وأنت غافل في سلطانك ، تراهم أو لا تراهم ، ومع ذلك فلا تتكلم ، ولا تقول : أين أرباب الظلامات ؟!

ثم إن الرعية لما رأت أنك قد أقمت للناس رجلاً ينظر في مظالمهم ، فإن جاء متظلم فبَلَغَ بطانتَك . . سألوا صاحب المظالم ألاَّ يرفع مظلمته ، وإن كانت للمتظلم به حرمة وإجابة . . لم يمكنه مما يريد ؛ خوفاً منهم ، فلا يزال المظلوم يختلف إليه ويلوذ به ويشكو ويستغيث ، وهو يدفعه ويعتلُّ عليه ، فإذا تجاسر المظلوم مرة وصرخ بين يديك . . ضرب ضرباً كثيراً مبرِّحاً ؛ ليكون نكالاً لغيره ، وأنت تنظر فلا تُنكر ولا تُغيِّر .

فما بقاء الإسلام وأهله علىٰ هـٰذا ؟! وقد كانت بنو أمية وقبلهم العرب في الجاهلية لا ينتهي إليهم مظلوم . . إلا رفعت ظلامته إليهم ، فيُنصَف ، ولقد كان الرجل يأتي من أقصى البلاد حتىٰ يبلغ باب سلطانهم فينادي : يا أهل الإسلام ؛ فيبتدرونه : ما لك ؟ ما لك ؟

فيرفعون مظلمته إلىٰ سلطانهم ، فينتصف له .

وقد كنتُ ـ يا أمير المؤمنين ـ أسافر إلىٰ أرض الصين وبها ملك ، فقدمتها مرة وقد ذهب سمع ملكهم ، فجعل يبكي ، فقال له وزراؤه : ما لَك تبكي لا بكت عيناك ؟ فقال : أمَا إني لست أبكي على المصيبة التي نزلت بي ، ولـٰكن المظلوم بالباب يصرخ فلا أسمع صوته .

ثم قال : أمَّا إن كان قد ذهب سمعي . . فإن بصري لم يذهب ، فنادوا في الناس : ألاَّ يلبس أحد ثوباً أحمرَ إلا مظلوم ، وكان يركب الفيل طرفي النهار ، هل يرىٰ مظلوماً فينصفه .

هـٰذا ـ يا أمير المؤمنين ـ كافر مشرك بالله سبحانه وتعالىٰ ، قد غلبت رأفته بالمشركين ، وأنِف لنفسه أن يشاركه أهل دولته في مملكته ، وأنت مؤمن بالله عز وجل ، وابن عم نبي الله صلى الله عليه وسلّم ، هَلاَّ تغلبك رأفتك بالمسلمين وتغار لنفسك عن ألاَّ يكونوا هـٰؤلاء شركاء في سلطانك فتشقىٰ بهم ؟!

فإن حدثتك نفسك أنك تجمع الأموال لطلب غاية هي فوق الغاية التي أنت فيها وأحشم منها . . فوالله ؛ ما فوق ما أنت فيه من الغاية والحشمة إلاَّ منزلةٌ لا تدرك إلا بالعمل الصالح ، وهي التقوىٰ ولزومها يا أمير المؤمنين .

ثم إن العدل لا ينافي جمع الأموال ، بل يزيدها دواماً وكثرة ، فإن المُلك بالعدل يدوم ، والجور سبب لسرعة زواله ، والجور قد يكون من المَلِك نفسه ، وهـٰذا ـ والحمد لله ـ قد أعاذك الله بفضله ومنِّه منه ، وقد يكون من الذين أقمتهم ببابك ، فصاروا شركاء في سلطانك ، وأنت غافل لا تشعر ، فتنبهْ لهم ، واكشف ظلامتهم بنفسك ، ولا تجعل بينك وبين المظلومين حجاباً ولا بواباً .

واعلم : أن الله سبحانه وتعالىٰ يعاقب من عصاه بالعذاب الأليم ، وهو سبحانه وتعالىٰ يرىٰ منك ما عقد عليه قلبك ، وأضمرته جوارحك .

فماذا تقول إذا أوقفت للحساب ؟! هل يغني عنك من ذلك شيء ؟! لا والله ، هيهات هيهات! فعند ذلك تود أن لو كان بينك وبين المُلك بعد المشرقين ، وأنك كنت راعياً ترعى الغنم في رؤوس الجبال ، وأنك لا وُلِّيت من أمر هـٰذه الأمة شيئاً .

فانظر لنفسك يا أمير المؤمنين قبل أن يحال بينك وبين النظر ، فحينئذ تندم فلا ينفعك الندم .

قال : فبكى المنصور بكاء شديداً حتىٰ نحب وارتفع صوته ، ثم قال : يا ليتني لم أخلق ولم أك شيئاً ، ثم قال : كيف احتيالي فيما خُوِّلت ولم أر من الناس إلا خائناً ؟! قال : يا أمير المؤمنين ؛ عليك بالأئمة الأعلام المرشدين .

قال : ومَن هم ؟ قال : العلماء الربانيون العاملون ، قال : قد فروا مني ، قال : إنما هربوا منك مخافة أن تحملهم علىٰ ما ظهر من جَور عُمالك وأهل مشورتك ، واستيلائهم عليك ، وحَجْبِهم الناس عنك حتىٰ يصلوا إلىٰ مرادهم ، وأنت المسؤول عن جميع ذلك .

ولـٰكن افتح الباب ، وسهل الحجاب ، وانتصر للمظلوم ، وامنع الظالم من الظلم ، وخذ الشيء مما حل وطاب ، واقسمه بالحق والعدل ، وأنا ضامن عمن هرب منك أن يأتيك فيعاونك علىٰ صلاح أمرك في رعيتك .

فقال المنصور : اللهم ؛ وفقني أن أعمل بما قال هـٰذا الرجل .

وجاءه المؤذنون فسلموا عليه ، وأقيمت الصلاة ، فخرج ، فصلىٰ بهم ، ثم قال لبعض حرسه : ائتني به وما أظنك تقدر عليه ، فخرج الحرسي يطلب الرجل ، فبينما هو يطوف ؛ إذا بالرجل يصلي ، فقعد حتىٰ فرغ من صلاته ، ثم قال له : أجب أمير المؤمنين ، قال : ليس إلىٰ ذلك من سبيل ، قال : يقتلني ؛ قال : ولا يقتلك ؛ فإني أعطيك دعاء الفرج ، قال : قلت : وما دعاء الفرج ؟ قال : لا يُرزَقُه إلا الشهداء ، قلت : فما فضله ؟ قال : من دعا به مساء وصباحاً . . هدمت ذنوبه ، ودام سروره ، ومحيت خطاياه ، واستجيب دعاؤه ، وبسط له في رزقه ، وأعطي أمله ، وأعين علىٰ عدوه ، وكتب عند الله صديقاً ، ولا يموت إلا شهيداً ، وهو أن تقول :

اللهم ؛ كما لطفت في عظمتك دون اللطفاء ، وعلوت بعظمتك على العظماء ، وعلمت ما تحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك ، وكانت وساوس الصدور كالعلانية عندك ، وعلانية القول كالسر في علمك ، وانقاد كل شيء لعظمتك ، وخضع كل ذي سلطان لسلطانك ، وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك ؛ اجعل لي من كل هَمٍّ أمسيت فيه فرجاً ومخرجاً .

اللهم ؛ إن عفوك عن ذنوبي وتجاوزَك عن خطيئتي وسترك علىٰ قبيح عملي . . أطمعني أن أسألك ما لا أستوجبه مما قصرت فيه ، أدعوك آمناً ، وأسألك مستأنساً ؛ فإنك المحسن إلي ، وإني المسيء إلىٰ نفسي فيما بيني وبينك ، تتودد إلي بالنعم ، وأتبغض إليك

بالمعاصي ، ولٰكن الثقة بك حملتني على الجرأة عليك ، فعد بفضلك وإحسانك إلي ، وتب علي ، إنك أنت التواب الرحيم .

قال : فأخذته ، فصيرته في جيبي ، ثم لم يكن لي هَمٌّ غير أمير المؤمنين ، فدخلت ، فسلمت عليه ، فرفع رأسه ونظر إلي وتبسم ، ثم قال لي : ويلك! وتحسن السحر ؟ فقلت : لا والله يا أمير المؤمنين ، ثم قصصت عليه أمري مع الشيخ ، فقال : هات الرق الذي أعطاك ، ثم جعل يبكي ، وقال لي : قد نجوتَ ، وأمر بنسخه ، وأعطاني عشرة آلاف درهم ، ثم قال : أتعرفه ؟ قلت : لا ، قال : ذاك الخضر عليه الصلاة والسلام ، أو كما قال . انتهىٰ [٢/ ٣٥١ـ٣٥٣] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : قال حيان بن عبد الله : تنزه هارون الرشيد ومعه سليمان ابن أبي جعفر من بني هاشم ، فقال له هارون الرشيد : قد كانت لك جارية تغني ، فجئنا بها ، قال : فجاءت الجارية ، فغنت ، فلم يعجبه غناؤها ، فقال لها : ما شأنك ؟ فقالت : هـٰذا العود ليس هو بعودي ، فقال للخادم : جئها بعودها ، قال : فجاء بالعود .

فوافق في الطريق شيخاً يلقط النوىٰ ، فقال له : الطريق يا شيخ ، قال : فرفع الشيخ رأسه ، فرأى العود ، فأخذه وضرب به الأرض ، فأخذه الخادم ، فذهب به إلىٰ صاحب الربع ، فقال : احتفظ به ؛ فإنه طلبة أمير المؤمنين ، فقال له صاحب الربع : ليس ببغداد أعبد من هـٰذا ، فكيف يكون طلبة أمير المؤمنين ؟! فقال له : اسمع ما أقول لك .

ثم دخل علىٰ هارون الرشيد ، فقال : إني مررت علىٰ شيخ يلقط النوىٰ ، فقلت له : الطريق ، فرفع رأسه ، فرأى العود ، فأخذه فضرب به الأرض ، فاستشاط هارون غضباً ، واحمرت عيناه ، فقال له سليمان ابن أبي جعفر : ما هـٰذا الغضب يا أمير المؤمنين ؟ ابعث إلىٰ صاحب الربع يضرب عنقه ويرمي به في دجلة .

قال : لا ، ولـٰكن نبعث إليه حتىٰ يأتي فنناظره أولاً ، فجاء الرسول فقال : أجب أمير المؤمنين ، فقال : نعم ، فقال له الرسول : اركب ، قال : لا ، فجاء يمشي حتىٰ وقف علىٰ باب القصر .

فقيل لهارون : قد جاء الشيخ ، فقال للندماء : أي شيء ترون ؟ أنرفع ما قدامنا من المنكر حتىٰ يدخل هـٰذا الشيخ أم نقوم إلىٰ مجلس آخر ؟ فقالوا : نقوم إلىٰ مجلسٍ آخرَ أَصلَحَ ، فقاموا صُغُراً إلىٰ مجلس آخر ليس فيه منكر ، ثم أمر بالشيخ ، فأدخل وفي كمه الكيس الذي فيه النوىٰ .

فقال له الخادم : أخرج هٰذا من كمك وادخل علىٰ أمير المؤمنين ، فقال : مِن هٰذا عشائي الليلة ، فقال : نحن نعشيك ، قال : لا حاجة لي في عشائكم .

فقال هارون للخادم : أي شيء تريد منه ؟ فقال الخادم : في كمه نوىٰ ، قلت له : اطرحه وادخل علىٰ أمير المؤمنين ، قال : لا أفعل ، قال : دعه لا يطرحه .

قال : فدخل فسلَّم وجلس ، فقال له هارون الرشيد : يا شيخ ؛ ما حملك علىٰ ما صنعت ؟ قال : وأي شيء صنعت ؟ وجعل هارون يستحيي أن يقول كسرت عودنا ، فلما أكثر عليه ؛ قال الشيخ : إني سمعت أباك وأجدادك يقرؤون هٰذه الآية على المنبر : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

ورأيتُ منكراً فغيرتُه ، فقال له : فغيِّر ما شئت ، فوالله ؛ ما قال إلا هٰذا ، فلما خرج الشيخ ؛ دفع الخليفة إلىٰ رجل بدرة وقال له : اتبع الشيخ ؛ فإن رأيته يقول : قلتُ لأمير المؤمنين وقال لي ؛ فلا تعطه شيئاً ، وإن رأيته لا يكلم أحداً ؛ فأعطه البدرة .

فلما خرج من القصر . . رأىٰ نواة في الأرض قد غاصت ، فجعل يعالجها ولم يكلم أحداً ، فقال له : يقول لك أمير المؤمنين : خذ هٰذه البدرة انتفع بها ، فقال : قل لأمير المؤمنين يردها من حيث أخذها ، قال : ثم فارقني ومضىٰ مسرعاً .

ويروىٰ أنه قد أقبل يعدو وهو يقول بعد فراغه من كلامه ، وبعد أن عالج النواة ، وقلعها من الأرض :

أرى الدنيا لمن هي في يديهِ ... عذاباً كلما كثرت لديهِ
تهين المُكرمين لها بصُغْرٍ ... وتُكْرِم كلَّ من هانت عليه
إذا استغنَيْتَ عن شيء فدعه ... وخذ ما أنت محتاج إليه[1]

* * *

---

(١) الإحياء (٢/ ٣١٦ـ٣١٧) .

ومنهم :

عابد آخر

رضي الله عنه

وقال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : وقد روي عن المأمون أنه بلغه : أن رجلاً محتسباً يمشي في الناس يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ولم يكن مأموراً من عنده بذلك ، فأمر بأن يُدخَل عليه ، فلما صار بين يديه . . قال له : بلغني أنك قد رأيت نفسك أهلاً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير أن نأمرك ، وكان المأمون جالساً علىٰ كرسي ينظر في كتاب ـ أو قصة ـ وأغفله ، فوقع منه ، فصار تحت قدمه من حيث لا يشعر .

فقال المحتسب : ارفع قدمك عن أسماء الله ، ثم قل ما شئت ، فلم يفهم المأمون مراده ، فقال : ماذا تقول ؟ حتىٰ أعاده ثلاثاً ، فلم يفهم ، فقال : إما رفعت أو أذنت لي أن أرفع ، فقال : قد أذنت لك ، فنظر المأمون تحت قدمه ، فرأى الكتاب ، فأخذه وقبَّله وخجل ، ثم عاد وقال : لِمَ تأمر بالمعروف وقد جعل الله عز وجل ذلك إلينا أهل البيت ، ونحن الذين قال الله تعالىٰ فيهم : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ ؟ فقال : صدقت يا أمير المؤمنين ، أنت كما وصفت نفسك من السلطان والتمكين ، غير أنَّا أعوانك وأولياؤك فيه ، لا ينكر ذلك إلا من جهل كتاب الله وسُنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلّم ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ، وقال صلى الله عليه وسلّم : « من رأىٰ منكم منكراً . . »[1] ، وقال صلى الله عليه وسلّم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه

(١) أخرجه مسلم (٤٩) . وهو بتمامه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول : « من رأىٰ منكم منكراً . . فليغيره بيده ، فإن لم يستطع . . فبلسانه ، فإن لم يستطع . . فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » .

بعضاً »[1] ، وقد مُكِّنْتَ في الأرض ، وهـٰذا كتاب الله عز وجل وسُنة رسوله صلى الله عليه وسلّم ، فإن انقدت لهما . . شكرت لمن أعانك على العمل بشيء منهما ، وإن استكبرت عنهما ولم تنقد لما لزمك منهما . . أنت تعرف ما يجب عليك في ذلك ، فإن الذي إليه أمرك وبيده عزك قد قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ ، فقل الآن ما شئت .

فأعجب المأمون بكلامه وسُرَّ به ، وقال : مثلك يجوز له أن يأمر بالمعروف ، فامض علىٰ ما كنت عليه بأمرنا وعن رأينا ، فاستمر الرجل علىٰ ذلك إلىٰ أن مات رحمه الله تعالىٰ .

[انتهىٰ « الإحياء » ٢/٣١٧] .

* * *

(١) أخرجه البخاري في (٤٦٧) .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : ودخل أعرابي علىٰ سليمان بن عبد الملك ، فقال : تكلم يا أعرابي ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إني مكلمك بكلام فاحتمله وإن كرهتَه ؛ فإن وراءه ما تحب إن قبلتَه .

فقال : يا أعرابي ؛ إنا لنجود بسعة الاحتمال علىٰ مَن لا نرجو نصحه ، ولا نأمن غشه ، [فكيف بمن نأمن غشه ونرجو نصحه ؟!] .

فقال الأعرابي : يا أمير المؤمنين ؛ إنه قد يكنفك رجال أساؤوا الاختيار لأنفسهم ، وابتاعوا دنياهم بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم سبحانه وتعالىٰ ، خافوك في الله عز وجل ، ولم يخافوا الله فيك ، حرب للآخرة ، سلم للدنيا ، فلا تأمنهم علىٰ ما ائتمنك الله عز وجل عليه ؛ فإنهم لم يألوا في الأمانة تضييعاً ، وفي الأمة خَسْفاً وعَسْفاً ، وأنت مسؤول عما اجترحوا ، وليسوا مسؤولين عما اجترحت ، فلا تُصلِحْ دنياهم بفساد آخرتك ؛ فإن أعظم الناس غبناً مَن باع آخرته بدنيا غيره .

فقال سليمان : أمَا إنك ـ يا أعرابي ـ قد سللت لسانك ، وهو أقطع سيفيك ، قال : أجل يا أمير المؤمنين ، ولٰكن هو لك لا عليك .

ثم قال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : فهٰكذا كان دخول علماء الآخرة على السلاطين ، فالدخول عليهم ليس بممنوع ، ولٰكن تعلَّم الدخول عليهم وادخل .

وأما علماء الدنيا . . فيدخلون ليتقربوا إلىٰ قلوبهم ، فيَدلُّونهم على الرخص ، ويستنبطون بدقائق الحيل طرق السعة فيما يوافق أغراضهم ، وإن تكلموا بمثل ما ذكرناه في معرض الوعظ . . فإنه لم يكن قصدهم الإصلاح ، بل اكتساب الجاه والقبول عندهم ، فلا تنجع موعظتهم ولا تقبل ولا تنفع .

ثم قال : وفي هـٰذا غُرورَانِ يغتر بهما الحمقىٰ :

أحدهما : أن يُظهِر أن قصدي في الدخول عليهم إصلاحهم بالوعظ ، وربما يلبسون علىٰ أنفسهم بذلك أيضاً وهم لا يشعرون ؛ فإن الباعث لهم شهوة خفية ، وعلامة الصدق في طلب الإصلاح : أنه لو تولىٰ ذلك الوعظ غيره ممن هو من أقرانه من العلماء ، ووقع موقع القبول ، وظهر به أثر الصلاح . . فينبغي أن يفرح ويشكر الله تعالىٰ علىٰ كفايته هـٰذا الهَمَّ .

والثاني : أن يزعم أن قصدي الشفاعة لمسلم في دفع ظلامة ، وهـٰذا أيضاً مظنة الغرور ، ومعناه مثلما تقدم ذِكره .

فلينظر العالم كيف يكون دخوله عليهم ثم يدخل ، والله أعلم . انتهىٰ [« الإحياء » ٢/١٤٨] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو أمية الغفاري ـ رحمه الله ـ : كنا في غزاة لنا ، وحضر العدو ، وقام الصفان في يوم شديد الريح ؛ فإذا رجل يخاطب نفسه ويقول : أي نفس ؛ ألم أُشْهِدْكِ مشهد كذا وكذا ، فقلتِ لي : أهلك وعيالك ، فأطعتك ورجعت ؟ ألم أشهدك مشهد كذا وكذا ، فقلت لي : أهلك وعيالك فأطعتك ؟ والله ؛ لأَعْرِضَنَّكِ اليوم على الله سبحانه وتعالىٰ أخَذَكِ أو تَرَكَكِ ، قال : فحمل الناس على العدو ، فكان في أوائلهم ، ثم إن العدو حمل على الناس فانكشفوا ، فكان في حماتهم ، ثم إن الناس حملوا فكان في أوائلهم ، ثم حمل العدو فانكشف الناس ، فكان في حماتهم ، فوالله ؛ ما زال ذلك دأبَه حتىٰ رأيته صريعاً ، فعددت به وبدابته ستين ـ أو أكثر من ستين ـ طعنة رحمه الله . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٢٩٤] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال في كتاب « التوابين » : قال عبد الواحد بن زيد رحمه الله : كنت في مركب ، فطرحتنا الريح إلىٰ جزيرة ، فرأيت فيها رجلاً يعبد صنماً ، فقلنا : يا رجل ؛ مَن تعبد ؟ فأومأ إلى الصنم ، فقلنا : إن معنا في المركب من يسوِّي مثل هـٰذا وأمثاله ، هـٰذا ليس بشيء .

قال : فأنتم مَن تعبدون ؟ قلنا : نعبد الله عز وجل ، قال : وما الله ؟ قلنا : الذي في السماء عرشه ، وفي الأرض سلطانه ، وفي الأحياء والأموات قضاؤه .

فقال : كيف علمتم به ؟ قلنا : بعث إلينا هـٰذا المَلِكُ سبحانه رسولاً كريماً فأخبر بذلك .

قال : فما فعل الرسول ؟ قلنا : لما أدى الرسالة وبلغ الأمانة وظهر الدين . . توفاه الله عز وجل ، قال : فما ترك عندكم علامة ؟ قلنا : بلىٰ ؛ ترك عندنا كتاب المَلِك جل جلاله .

قال : أروني كتاب الملك ، فينبغي أن تكون كتب الملك حساناً ، فأتيناه بالمصحف ، فقال : ما أعرف أقرأ ، فقرأنا عليه سورة من القرآن ، فلم يزل يبكي من حين القراءة إلى الفراغ منها .

ثم قال : ما ينبغي لصاحب هـٰذا الكلام أن يعصىٰ ، ثم أسلم ، فحملناه معنا ، وعلمناه شرائع الإسلام وسوَراً من القرآن .

فكان إذا جن الليل وأخذنا مضاجعنا لننام . . يقول لنا : يا قوم ؛ الإلـٰه الذي دللتموني عليه وهو ربنا ورب كل شيء إذا جنه الليل ينام ؟ قلنا : لا ينام سبحانه وتعالىٰ ، هو عظيم قيوم ، فقال : بئس العبيد أنتم ، تنامون ومولاكم لا ينام ؟ فأعجبنا كلامه ، فلما قدمنا عبادان . . قلت لأصحابي : إن هـٰذا قريب عهد بالإسلام فجمعنا دراهم وأعطيناه .

فقال : ما هـٰذا ؟ قلنا : تنفقها ، فقال : لا إلـٰه إلا الله ، دللتموني علىٰ طريق

ما سلكتموها ، أنا كنت في جزائر البحر أعبد صنماً دونه ، فما ضيعني الله عز وجل ، فكيف يضيعني وأنا أعرفه وأعبده سبحانه وتعالىٰ ؟!

فلما كان بعد مدة طويلة . . قيل : إنه في الموت ، فأتيته ، فقلت : هل من حاجة ؟ فقال : قضىٰ حوائجي من جاء بكم إلىٰ جزيرتي سبحانه وتعالىٰ .

قال عبد الواحد : فغلبني النوم ، فنمت عنده ، فرأيت مقابر عبادان روضة ، وفيها قبة ، وفي القبة سرير عليه جارية لم أر أحسن منها ، فقالت : سألتك بالله إلا ما عجلت به ، فقد اشتد شوقي إليه ، فانتبهت ، فإذا به قد فارق الدنيا ، فغسلته وكفنته وواريته .

فلما جن الليل . . نمت ، فرأيته في القبة مع الجارية ، وهو يقرأ ، ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۞ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ . انتهىٰ [٣٠٠-٣٠٢] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال في « لوامع أنوار القلوب » : قال أبو عاصم : قال ذو النون : قلت لحكيم : كم باب يرقاه العبد حتىٰ يصل إلى الله عز وجل ؟ قال : أربعة أبواب : الخوف ، والرجاء ، والمحبة ، والشوق .

قال : قلت : فما مفاتيح هٰذه الأبواب ؟ فقال :

مفتاح الخوف : المداومة علىٰ أداء الفرائض مع الإخلاص .

ومفتاح باب الرجاء : المداومة على النوافل مع الورع .

ومفتاح باب المحبة : المداومة على المراقبة مع المشاهدة .

ومفتاح باب الشوق : المداومة على الذِّكر بالقلب واللسان .

وقال : قال بعض العارفين وقد سئل عن الفرق بين المحبة والحياء فقال : المحبة : رغبة وهي زَعْجَة[1] ، والحياء : خَجْلة ، والمحب طالب غائب ، والمستحي حاضر ، وبينهما فرق واضح ؛ لأن المحبة تصح مع الغَيبة ، والحياء مع المشاهدة ، فشتان بين غائب غريب . . وحاضر قريب .

وقال : قال بعض العارفين في حكاية : إذا زفرت جهنم زفرة . . كُلٌّ يقول : نفسي نفسي ، إلا محمد سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ؛ فإنه يرجع إلىٰ حد الشفاعة ، فيقول : أمتي أمتي ، فلا يبقىٰ لأحد نفَس واحد بلا علة ؛ ليعلم أن محل الحوادث لا يخلو من العلل .

قال : ورأىٰ بعض المشايخ سبحة في يد مريده ، فقال : ما تعمل بها ؟ فقال : أعد التسبيحات ، فقال : عليك بعدِّ السيئات .

---

(١) زَعْجَة : انزعاج ، أي : قلق .

واعلم : أن طلب الحلال فريضة علىٰ كل مسلم ، وترك الحلال فريضة علىٰ أولياء الله تعالىٰ ما عدا قدر الضرورة ؛ فإنه من الدِّين .

وقال بعضهم : لو دُفعت إلى الاهتمام بدجاجة . . ما أمنت علىٰ نفسي أن أصبح شرطياً .

وقال : مكابدة العفة أيسر من القيام على العيال .

وقال : رأيت الصبر عنهن أسهل من الصبر عليهن .

قال : وسئل بعض العارفين عن الصحبة فقال : أولها معرفة ، ثم مودة ، ثم ألفة ، ثم عِشرة ، ثم صحبة ، ثم أُخُوَّة .

وقد قيل : غذاء النفس في العِشرة ، وغذاء القلوب في الصحبة ، وإذا صحبت إنساناً . . فانظر عقله ودِينه ، وليكن اهتمامك بكثرة عقله أكثر من نظرك إلىٰ كثرة دِينه ؛ فإن دِينه له وعقله لك ، ولا تصحب مَن كان أكثر همه النفس والهوىٰ ؛ قال تعالىٰ : ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ .

وسئل بعضهم عن الأكل الذي لا يضر فقال : أن تأكل بالأمر لا بالهوىٰ .

وروي عن رويم قال : منذ عشرين سنة لم يخطر ببالي الطعام حتىٰ يحضر ، ثم قال : قال بعض العارفين : كانت بلية آدم عليه الصلاة والسلام في أكلة ، وهي بليتكم إلىٰ يوم القيامة ، ثم فارقني ومضىٰ .

* * *

ومنهن :

عابدة أخرىٰ
رضي الله عنها

قال **عبد الله بن محمد** : سمعت امرأة تقول : إلـٰهي وسيدي ومولاي ؛ وعزتك وجلالك ؛ لقد سئمت من الحياة ، حتىٰ لو وجدت الموت يباع . . لاشتريته ؛ شوقاً إليك وحباً للقائك ، يا أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين .

قال : فقلت لها : أَفَعَلىٰ ثقةٍ أنت من عملك ؟ قالت : لا والله ، وأي شيء عملي ؟! وما قدري ؟! وهل للعبد فعل في الحقيقة ؟! إنما الكل من عطائه ، فله المنة العظمىٰ فيما وفَّق وأقدر ، وعلينا الحجة الكبرىٰ فيما خالفنا وضيعنا من أمره ونهيه سبحانه وتعالىٰ ، وإنما بحبي إياه سبحانه وتعالىٰ ، وحسن ظني به عز وجل ، أفَتُراه يعذبني وأنا أحبه وهو أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين ؟! حاشا كرمه . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٣٠٧ بنحوه] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال في « **بهجة الأسرار** » : قال أبو سعيد الخراز رحمه الله : دخلت المسجد الحرام وأنا أريد الطواف ؛ فإذا بشخص قاعد في حاشية الطواف ، عليه قطيفة[1] مقطوعة بنصفين ، رداء وإزار خَمْلُه[2] خارج ، وهو يعظ الحاج ، ويقول : تزينتم لغير الله عز وجل ، واتخذتم كذا وكذا ؛ يخبرهم بعيوبهم ومساوئهم التي فعلوها من الرياء والسمعة وغير ذلك بكلام صحيح .

فلما أكثر عليهم . . دعوا الحرس ، فقالوا : أقم عنا هـٰذا مِن هـٰهنا ، فقال : البيت بيت ربي وبساط ربي جل جلاله ، وأنا عبده ، مَن يقيمني ؟! فانصرفوا وقالوا : هـٰذا مجنون .

قال أبو سعيد : وكان عليَّ إزارين : رداء ومئزر صوف ، وكان في مئزري قطيعات ما علم بها إلا الله عز وجل ، فقلت له : أسألك عن مسألة ، فنظر إلي نظراً شافياً وقال : الدراهم التي في مئزرك أخرجها ، ثم تعال سل ، فقلت : هي مِن قلبي خارجة ، فإنما ملكتها على التعبد لا على السكون إليها .

فأعجبه كلامي ، فقام ومشىٰ ، وتبعته حتىٰ جاء إلىٰ باب إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وقعد على الدرج ، وكان قد رآه الناس وهو يتكلم ، فجاءه رجل بصُرَّة دراهم فقال له : خذ هـٰذه ، فضرب يده على الحصا ، فقبض منه قبضة ، ثم قال لصاحب الصُّرَّة : ذاك من هـٰذا وهـٰذا من ذاك ، ثم قام ومشىٰ ، فتبعته ، فجاء إلي باقلاني ، وأراد أن يلبِّس عليَّ ، ومر بنا قطار جمال ، فحالت بيني وبينه ، ثم رأيته بعد أيام كثيرة وهو يقرأ (سورة الفجر) في

---

(١) **القطيفة** : كساء له خَمْلٌ .

(٢) **الخَمْل** : هدب القطيفة ونحوها مما يُنسج وتفضل له فضول .

المصحف ، وقد وقف على هٰذه الآية : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ * ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ * فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ ، فكان يكررها أوقاتاً كثيرة ولا يجوزها ، ولا يأكل ولا يشرب ، فسألته أن يأكل شيئاً ، فقال : أليس في هٰذا كفاية وهو غذاء الأنفس ؟!

ثم قال لي : إن أحدكم إذا اجتهد في بر أخيه . . أتاه بدراهم يشغله بها عن الله عز وجل ؟!

وكان مقامه الخوف رحمه الله . انتهىٰ .

* * *

ومنهن :

عابدة أخرىٰ
رضي الله عنها

قال فتح الموصلي رحمه الله : سمعت امرأة متعبدة عندنا تقول : إلـٰهي وسيدي ومولاي ؛ إنك لو عذبتني بعذاب الخلق كلهم لِلذي فاتني من قربك . . لكان ما فاتني من قربك جل جلالك أعظم من ذلك العذاب ، ولو نعَّمتني بنعيم الجنة . . لكان لذة حبك في قلبي أكبر ، يا حي يا قيوم ؛ لا إلـٰه إلا أنت . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/١٢٨] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال في « لوامع أنوار القلوب » : قال مالك بن دينار رحمه الله : رأيت في البادية في يوم شديد البرد شاباً عليه طمران رثان ، وعليه آثار العمل ، وشواهد القَبول ، ونور الإجابة ، فعرفته ، وكنت أعهده بالبصرة ، وله نعمة وافرة وثروة ظاهرة .

فبكيت لَمَّا رأيته علىٰ تلك الحال ، فلما رآني . . بكىٰ وقال : يا مالك ؛ ما تقول في عبد أبق من مولاه ؟! فاشتد بكائي .

ثم قلت له : وهل يستطيع العبد ذلك ، والخلقُ عباده والبلاد بلاده ؟! فأين منه المهرب للمسكين ؟! فقال : يا مالك ؛ سمعت قارئاً يقرأ : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ ، فأحسست بنار وقعت في أضلاعي ، فلا تخمد ولا تهدأ إلىٰ يومي هـٰذا .

يا مالك ؛ ترىٰ أُرحَم يوماً وتنطفىء هـٰذه الجمرة من قلبي .

وأنشدوا في معناه :

تُرىٰ مَن كوىٰ قلبي بنار فِراقه	وصيَّر حظي من محبته بُعدا
تفكر يوماً فيَّ أو قال مرة	تركنا لنا عبداً إساءته جِدا

قال : فقلت له : أحسِن الظن بمولاك سبحانه وتعالىٰ ؛ فإنه الغفور الرحيم ، ثم قلت : إلىٰ أين تريد ؟ فقال : إلىٰ حضرته وبيته ؛ فعسىٰ أن أكون ممن إذا ٱلْتَجَأَ إلى الحرم . . استحق رعاية الذمم .

قال مالك : ثم فارقني ، فعجبت من وقوع الموعظة موقعها ، وشربهِ الكأس بمنافعها ، وما يتأجج بين جوانحه من نار الانتباه والاتعاظ ، والدعاء والإجابة .

وقال : اشترىٰ بعض العارفين عبداً ، فقال له : أي شيء تأكل ؟ فقال : ما أطعمتني ،

فقال له : أي شيء تلبس ؟ فقال : ما كسوتني ، فقال له : فما تعمل ؟ قال : فيما تستعملني ، قال : فما أرىٰ لك إرادة ، فقال : ليس للعبد إرادة مع سيده ، فراجع ذلك العارف نفسه وبكىٰ ، ثم قال : يا مسكين ؛ هل كنت لله عز وجل في عمرك ساعة واحدة مثل ما كان لك العبد في هٰذه الحالة ، بل تتغير في كل ساعة ، وتقف مع نفسك ولا تستحي ، ثم أنشد :

كـــــلَّ يـــــوم تتلـــــونْ　　　غيـــرُ هٰـــذا بـــك أجمـــلْ

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

روي عن مالك بن دينار رحمه الله : أنه دخل علىٰ شاب تائب ، فوجده خيالاً علىٰ فراشه كالشن البالي من المرض ، فسأله عن حاله ، فلم يستطع الجواب بلسانه ، وأشار بطرفه .

فبينما هم كذلك . . وإذا بصوت المؤذن ، قال : فسمعته يقول مثل ما يقول المؤذن ، ويشير بأصبعيه عند الشهادتين ، ثم أمر والده ، فوضأه ، ثم وجهه إلى القِبلة ليصلي مومئاً ، فلما فرغ . . قال : يا مالك ؛ البلاء منه سبحانه وتعالىٰ راحة مع بقاء الإيمان ، يا مالك ؛ نعمه سبحانه لا تعد ، وبلواه واحدة .

قال مالك : فتعجبت من يقينه وصبره ، وخالص محبته ، وصدق وفائه رحمه الله . انتهىٰ .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال في « لوامع أنوار القلوب » : قال محمد بن سالم : رأيت في البادية شيخاً قد أخذ الدهر منه ، وهو مع ذلك ـ ظاهر المراقبة ، دائم المجاهدة ، سريع الدمعة ، كثير الحسرة ، فسلمت عليه ، فقال : وعليك السلام يا محمد بن سالم .

فقلت : هل سبقت معرفة ؟ قال : نعم ، فقلت : متىٰ ؟ فقال : مِن المعرفة الأولىٰ ، جواباً عن قول الله عز وجل : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ ، والثانية : أذان الخليل عليه الصلاة والسلام بالحج ، ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾ ، والثالثة : شهادة الشفيع المشفع في المحشر صلى الله عليه وسلّم في قوله صلى الله عليه وسلّم : « قلوب المؤمنين جنود مجندة ، فما تعارف منها . . ائتلف ، وما تناكر منها . . اختلف »[1] .

فقلت له : كيف الطريق ؟ فقال : الحلال بيِّنٌ والحرام بيِّنٌ ، والطريق واسع لسالكه ، وإنما يصعب طلب دليل التوفيق .

فأخذ كلامُه مني ، وفارقني وهو يبكي .

قال : ثم دخلت مكة شرفها الله تعالىٰ ، وخرجت إلىٰ منىٰ ؛ وإذا بحلقة عظيمة وشيخ قائم بينهم ، وهو يقول : بَرِح الخفاء وكُشف الغطاء ، وحان التفتك وطاب التهتك . فلم يبق قلب إلا أشجاه ، ولا طرف إلا أبكاه ، فتأملت الحلقة ؛ وإذا هو الشيخ صاحبي ، وقد وقع مغشياً عليه . [انتهىٰ] .

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٥٨) عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلّم بلفظ : « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها . . ائتلف ، وما تناكر منها . . اختلف » .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال في « **لوامع أنوار القلوب** » : قال ذو النون رحمه الله : بينما أنا في بعض كهوف التِّيه ؛ وإذا بصوت حزين باكياً يقول : سيدي ومولاي . . لا تقطعني دون أملي منك ، ولا تشغلني عنك بغيرك ، وقربني منك ، وأوحشني ممن سواك ، وآنسني بقربك يا أرحم الراحمين .

فقربت منه ؛ وإذا به شيخ في أصل الكهف ضئيل نحيل ، وهو ساجد ، فلما رفع رأسه . . سلمت عليه ، فرد السلام وقال لي : مَن أنت ؟ وما حاجتك ؟ فقلت : مريدُ فضلٍ وطالبُ شفيعٍ إلى الله عز وجل بمغفرة وزلفىٰ ، فقال : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ ، طَلبتُ كما طلبتَ ، فلما تعذر عليَّ . . تشفعت به سبحانه وتعالىٰ ، وأقسمت عليه بما منَّ عليَّ من الإيمان به ، وحسن الظن بجميل عفوه ، وانقطعت إليه ؛ فهو أنيسي من كل شيء ، واتكلت عليه ؛ فهو كفايتي من كل أحد ، فلا تُدخِلْ بينك وبينه أحداً ؛ فإنه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ لا يخيب مَن انقطع إليه .

قال : فقلت : فأي العبادات أفضل وأقرب إليه جل جلاله ؟ فقال : عليك بالخوف ، والورع ، والرجاء ، والمراقبة ، وأصل الكل : الإخلاص مع الصدق ، فلا تنظر غيره ، ولا تَخَفْ غيره ، ولا ترج غيره ، ولا تراقب غيره ؛ فإنه سبحانه غيور ، واحفظ الأدب ؛ لئلا يراك حيث نهاك ، ولا يفقدك حيث أمرك . انتهىٰ .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أحنف الهمذاني ـ رحمه الله ـ : كنت في البادية ماشياً ، فتعبت ، فقلت : إلـٰهي وسيدي ومالكي جل جلالك ؛ بدني ضعيف ناحل ، وقد جئتك ضعيفاً ، فاحملني بقوتك يا ذا القوة المتين .

قال : فنوديت في سِرِّي : مَن دعاك حتىٰ جئت ؟ فقلت : إلـٰهي ؛ المملكة عظيمة ، والرحمة واسعة ، وأصناف الجود والكرم علىٰ خلقك فائض ، والضيافة عامة فتحتمل الطفيلي .

قال : وإذا بصائح من ورائي ، فالتفتُّ ، وإذا بأعرابي علىٰ راحلة ، فقال : يا فارسي إلىٰ أين ؟ فقلت : إلىٰ مكة إن شاء الله عز وجل ، فقال : أليس قد شرط الله عز وجل الاستطاعة ، فقلت : المملكة واسعة وتحتمل الطفيلي .

فقال : تقدر أن تخدم الراحلة ؟ فقلت : نعم ، إن شاء الله تعالىٰ ، فقال : خذ هـٰذه الراحلة ، قال : فأخذتها وسرت عليها ، فما رأيت من مشقة الراحلة عليَّ كان أكثر :

نفسي إليك بكلها قد أجمعتْ ... لو أن فيك هلاكَها ما أقلعتْ

تبكي عليك بكلها عن كلها ... حتىٰ يقال من البكاء تقطعت

فانظر إليها نظرة بتعطف ... فلطالما متعتَها فتمتعت[١]

وقال جعفر بن سليمان ـ رحمه الله ـ : مررت بالبادية ، فرأيت عجوزاً مكفوفة تنوح علىٰ نفسها ، فقلت لها : ما معاشك هـٰهنا ؟ فقالت : دع عنك هـٰذا الكلام ، بلغت هـٰذا المبلغ فما أحوجني إليك ولا إلىٰ غيرك ، فعليَّ أن أعبده وهو سبحانه وتعالىٰ يرزقني ، ثم قرأت : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ . انتهىٰ .

* * *

(١) في نسخة : (فلطالما منعتها فتمنّعت) .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال **أبو الأزهر** : مضيت يوم جمعة إلىٰ جامع المهدي ببغداد ، فبينما أنا بالرصافة عند القصر ؛ وإذا بعَليٍّ الموسوس ، وكان كثير المحفوظ ، فتقدمت إليه وكلَّمْته وداريته حتىٰ قام معي إلى المسجد ، فقلت له : يا أخي ؛ كيف وجدت غاية المحبة ؟ فقال : استكفي البلاء ، هٰذا أول منازلها ، والله ؛ إن الصادقين فيها سكارىٰ ، ثم هُمْ في سكرهم هاموا وهَذَوْا ، فالسكران لا يؤاخَذ بما يقول .

ثم إنه أنشد أبياتاً فيها هزل ، فقلت له : يا علي ؛ أمَا تستحي تنشد مثل هٰذه الأبيات في طريق الجامع قبل الصلاة ؟!

فقال : الحلال والحرام قبل الصلاة وبعدها سواء ، ألم أقل لك إن السكران لا يؤاخذ بما يقول ؟ إن كان معك ما يؤكل . . فلا بأس قدِّمه ، فبعثت غلامي فأحضر له شيئاً ، ودخلنا الجامع ، فأكل ، ثم حمد الله سبحانه وتعالىٰ .

ثم التفت إلي وقال لي : الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به ، ثم قال : إن المحبة إحسان بإخلاص القلب ، والمعصية إساءة بظاهر البدن ، والله سبحانه وتعالىٰ أكرم مِن أن يضيع تحقيق إخلاص الضمائر بتمحيق أحوال الظواهر .

ثم قال رافعاً صوته : ويلك يا أبا الأزهر! أيش نأكل الليلة عندك ؟ فاستحييت وقلت له : اخفض صوتك وأطعمك ما تشتهي ، فكرر الكلام .

ثم أنشد أبياتاً في الهَزْل ، ثم قال : يا أبا الأزهر ؛ من كان لا يستحي من الله عز وجل في حال معصيته . . كيف يستحي منه في حال ما يتكلم بالمباح ؟ امض عني ، فلست من زبوني .

فأمرت غلامي أن يمسكه ويداريه حتىٰ صلينا الجمعة ، ثم قال لي : اقعد حتىٰ نصلي

العصر مكاننا ؛ لنجمع بين الحج والعمرة[1] ، ففعلت ذلك ، ثم انصرفت إلى البيت وقدمت له ما يأكل ، فلما أكل وغسل يديه وحمد الله تعالىٰ . . ألحَّ عليَّ بالخروج إلى المسجد لصلاة المغرب ، فوافقته .

فلما دخلنا المسجد . . صلينا المغرب ثم العشاء ، ثم رجعنا إلى البيت ، فبينما أنا أمشي معه . . أنشد أبياتاً فيها ذِكر الخمر فأردت أن أختبره ، فقلت لغلامي : أحضر ما ذكر ، فلما سمع ذلك . . صاح ونادىٰ صارخاً وتلبَّب بالغلام[2] وقال له : يا بطال ؛ أما يكفي الذنوب السالفة حتىٰ تريد أن توصلها بذنوب آنفة ؟

ثم إنه لم يزل يقول : الله ، الله ، الله ، ويبكي ويستغفر حتىٰ نام .

فلما كان في السحر . . أتيته وهو يتشاهد ويذكر الله تعالىٰ بقلب حاضر وخشوع وبكاء وتضرع إلى الفجر ، ثم قام إلىٰ وضوئه فصحبته وسلمت عليه ، وقلت له : لا تبرح حتىٰ تتغدىٰ ، فقال لي : أمسك حتىٰ نخدم ربنا سبحانه وتعالىٰ ساعة ، ثم توضأ ، فأحسن الوضوء ، ثم خرج إلى المسجد ، ووقف يصلي تارة ، ويتلو القرآن تارة بخشوع وبكاء لم أسمع أطيب منه ، ولم يسمع أحد من الجيران قراءته . . إلا غلبته الدمعة والبكاء ، ثم التفت إلي وأنشد :

نزف البكاء دموع عينك فاستعِرْ عينـاً لغيـرك دمعُهـا مـدرارُ
مَـن ذا يعيـرك عينـه تبكـي بهـا أرأيـت عينـاً للبكـاء تُعـارُ

ثم إنه رجع إلىٰ صلاته ، فصلىٰ ما شاء الله عز وجل ، فلما فرغ . . أنشد :

كـأن فـؤادَه كُـرَةٌ تنـزَّىٰ حـذارَ البيـن لـو نفـع الحـذارُ[3]
أبـت عينـي عـن التغميـض حتـىٰ كـأن جفـونهـا عنهـا قصـارُ

فكثر ذلك الوقت البكاء ، وتضاعف أمره ، ثم رجع إلىٰ صلاته ، فخرجت ووقفت بباب

---

(١) هـٰذا إشارة إلى الحديث الذي أخرجه البيهقي مرفوعاً في « الشعب » (٣/ ١١٥) : « إن لكم في كل جمعة حجة وعمرة ، فالحجة الهجيرة للجمعة ، والعمرة : انتظار العصر بعد الجمعة » .

(٢) **تلبَّب بالغلام** : شد عليه ثيابه عند لبته ، واللبَّةُ : موضع القلادة من العنق .

(٣) في النسخ : (كرة بتربِ) ، والمثبت من « ديوان بشار بن برد » و« لسان العرب » ، مادة : نزىٰ ، **والتنزي** : التوثب والتسرع .

المسجد أسترق عليه السمع ، وأسمع صوته وحسن قراءته وطيبها ، فصلىٰ ركعات ، ثم سلم وأخذ يبكي ويدعو ، ثم قام وخرج من المسجد وهو ينشد :

إلى الله أشكو لوعة في فؤاديا ... وشوقاً شديداً في الجوانح باديا

وطولَ حنين قاتلٍ ما أطيقه ... أقام بقلبي والحشا متواليا

يساعد ما ألقىٰ من الوجد زفرة ... يظل لها قلبي من السقم ساهيا

إذا ما هَدَى النُّوَّام في حندس الدجىٰ ... أبيت حزيناً ساهر العين باكيا[1]

وحُقَّ لذي ذنب إذا جل ذنبه ... يبيت سَهوداً للمضاجع قاليا

ينادي رحيماً في سجودٍ وباكياً ... تراه به في ظلمة الليل خاليا

يناديه يا ذا العز طالت محبتي ... إليك اشتياقي أنت تعلم حاليا

فغث مستهام القلب صبّاً متيماً ... عن الخلق جمعاً في ودادك ساليا

أضرَّ به ذنب وحزن مبرِّح ... ولازمه سُقْم فتلقاه باليا

أيا منتهىٰ سؤلي أنا المذنب الذي ... مددت يدي أرجو لديك دوائيا

دوائي ودائي أنت يا غايةَ المنىٰ ... فدائي بقائي والشفاء فنائيا

فأَحْبِبْ به عبداً أطاع رشاده ... وأَكْرِمْ به عبداً أجاب المناديا

فعمَّا قليل سوف يلقىٰ مراده ... وينعَمُ في قرب المهيمن ثاويا

ثم فارقني ومضىٰ . انتهىٰ .

* * *

---

(١) الحِنْدِس : الظلمة .

ومنهن :

عابدة أخرىٰ
رضي الله عنها

قال ذو النون : رأيت في جبال بيت المقدس شخصاً قد أقبل إلي من جبل ، فدنوت منه ؛ فإذا هي امرأة سوداء بيدها عكاز ، وعليها جبة صوف ، فقلت لها : إلىٰ أين ؟ قالت : إلى الله عز وجل .

قال ذو النون : قلت : عارفة والله ، وكان معي دينار ، فأخرجته وقلت : استعيني بهٰذا علىٰ طاعة الله عز وجل ، فحركت يدها في وجهي وقالت : يا ذا النون ؛ وهٰذا من سخافة عقلك ، أعمل مع الله سبحانه وتعالىٰ وآخذ من غير الله عز وجل ؟! والله ؛ لا عملت إلا مع الله ، ولا أخذت إلا من الله ، وتركتني ومضت . انتهىٰ .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال ذو النون : خرجت في سفر ، فبينا أنا أسير في البرية وقد اعتكر الليل وسكنت حركات البر ؛ وإذا أنا بشخص مار بين يدي ، فلحقته ، فإذا هو رجل كهل ، حسن الوجه ، طيب الريح ، فصيح اللسان ، عليه بزة حسنة ، فسلمت عليه ، فرد السلام ، فقلت له : يا شيخ ؛ ما الذي دعاك إلى الوحدة والانفراد في هٰذا المكان البعيد من الناس ؟ فقال : طلبت الوصول إلىٰ من يملك البشر ، وهو علىٰ كل شيء مقتدر ، فقلت : علىٰ ماذا مقيم أنت في يومك هٰذا ؟ فقال : قد كادت عيني ترىٰ أعلام المستأنسين ، وروحي أن تشرب بكؤوس المحبين ، وقلبي أن يخامر قلق المشتاقين .

فقلت له : ما الذي قطع بك عن الوصول إلىٰ ما هناك ؟ فقال : يا ذا النون ؛ ها أنذا دائم القلق ألجأ إليه سبحانه وتعالىٰ في الوصول ، وأتضرع إليه في الراحة ، وأسأله بلوغ الأمنية ، وهو العليم الخبير بما يصلح النفوس .

فقلت له : هل تجد علىٰ قلبك من الخلوة شدة ؟ فقال : ما أظن أن أحداً عرفه سبحانه فيحتاج مع أنسه إلىٰ رؤية الأهلين ، ولا مَن انقطع إليه أن يكله إلىٰ أحد من المخلوقين .

فقلت له : هل مِن وصية ؟ فقال : مبادرتك إليه جل جلاله إذا دعاك ، وترك التخلف عنه إذا ناداك ، ودوام الإقبال عليه ، مع سرعة المبادرة إليه بخلع الراحة من نفسك ، وحذف كل ما دعاك إلىٰ ما يبعدك منه سبحانه وتعالىٰ ، أو يحول بينك وبين الظفر بالمراد ، فلا يفقدك من حيث أمرك ، ولا يراك حيث نهاك ، وإياك ثم إياك أن يكون لك هَمٌّ في الدارين غيرَ الله سبحانه وتعالىٰ ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم . ثم فارقني ومضىٰ . انتهىٰ .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

سئل بعض العارفين عن مقام المحبة فقال : مقام المحبة : هو أن تعبد الله عز وجل لا خوفاً من النار ولا رغبة في الجنة ، وتكون عبادتك له خالصةً له وحده لا شريك له ، فإن شاء.. أدخله جنته ، وإن شاء.. أدخله ناره ، كما قال صلى الله عليه وسلّم : « نعم العبد صهيب ، لو لم يخف الله.. لم يعصه »[1] .

وسأل رجل معروفاً الكرخي فقال : أي شيء أهْيَجُ للعبادة وأقطع لهوى النفس ؟ فقال : خوفُ الموت ، قال : وأشد من ذلك ؟ قال : هول الموقف ، قال : وأشد من ذلك ؟ فقال : خوفُ النار ورجاءُ الجنة ، وأعظم من ذلك كله أن تنسىٰ هٰذه كلها وتعبده لأجله خالصاً ، فإذا قويت علىٰ هٰذه المنزلة وارتقيت إلىٰ هٰذه المرتبة.. كفاك جميع الأهوال ، وأعطاك أعلى الدرجات في الجنان ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر علىٰ قلب بشر .

وما أحسن ما قال بعضهم :

ولـه خصـائـص يـركضـون محبـة … واختـارهـم مـن سـالـف الأزمـانِ
اختـارهـم مـن قبـل فطـرة خلقهـم … لـــولايـــة ولحكمـــة وبيـــانِ

* * *

(١) المعنىٰ : نعم العبد صهيب ؛ فإنه عابد لله لا خوفاً من النار ، ولا طمعاً في الجنة ؛ بحيث لو لم يكن هناك عقاب من الله عز وجل.. لم يعصه ، فهو محب لله عز وجل وعابد له علىٰ كل حال .

ومنهن :

عابدة أخرىٰ
رضي الله عنها

قال ذو النون رحمه الله : وصفت لي جارية عابدة ، فسألت عنها ، فقيل لي : إنها في دير خراب ، قال : فأتيت الدير ؛ فإذا بجارية قد أَثَّر فيها الليل بكلكله[1] ، وذبحها بسكاكين سهره ، فسلمت عليها ، فردت السلام ، فقلت : يا جارية ؛ وفي مسكن النصارىٰ ؟! فقالت : مه يا هـٰذا ، ارفع رأسك ، وانظر بعين قلبك ، فهل ترىٰ في الدارين غير الله عز وجل ؟!

فقلت لها : يا جارية ؛ فهل تجدين وحشة الوحدة ؟ فقالت : إليك عني ، فوالذي حشا قلبي من لطيف محبته ، وأترع قلبي بخالص حبه سبحانه وتعالىٰ ، وأوقر خاطري من دقيق الشوق إلىٰ رؤيته ، وخصني بصفو محبته ؛ ما علمت في قلبي موضعاً لغيره جل جلاله .

قلت : أراك عارفة ، فأخرجيني من الضيق وأرشديني إلى الطريق ، فقالت : يا فتىٰ ؛ اجعل التقوىٰ زادك ، والزهد محجتك ، والورعَ مطيتَك ، واسلك في طريق الخائفين حتىٰ تصل إلىٰ باب ليس دونه حجاب ولا بواب ، فعندها تؤمر الخزنة ألاَّ يعصوا لك أمراً ، ثم ولت وهي تقول :

مَـن عـرف الـرب فلـم تغنِـهِ ... معـرفـة الـرب فـذاك الشقـيْ
مـا ضـر ذا الطـاعـة مـا نـالـه ... فـي طـاعـة الله ومـاذا لقـيْ
مـا يصنـع العبـد بعـز الغنـىٰ ... والعـز كـل العـز للمتقـيْ

* * *

---

(١) **كلكل الليل** : صدره .

ومنهن :

عابدة أخرىٰ
رضي الله عنها

قال في « لوامع أنوار القلوب » : روي أن بعضهم قال : رأيت أعرابية ، فقلت لها : أين تنزلون ؟ قالت : البادية ، فقلت لها : ما تستوحشون ؟! فقالت : ما أغفلك! وهل يستوحش مع الله عز وجل أحد ؟!

فقلت : من أين ترزقون ؟ قالت : أمسك عن هٰذا ، الله أعلم مِن أين يرزق عباده ، يا بطال ؛ إن الحق جل جلاله يرزق مَن جحده ، فكيف لا يرزق مَن عَبَده ؟ قلوب طاشت في معرفته ، وأرواح تلاشت في محبته سبحانه وتعالىٰ ، غذاؤهم الأمن[1] والمشاهدة ، فهم ربانيون روحانيون ، يسبحون الليل والنهار لا يفتُرون .

* * *

---

(١) في نسخة : (الأنس) .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال في « بهجة الأسرار » : قال بعض العارفين : رأيت في منامي كأني واقف بين يدي الله عز وجل ، فقال لي : عبدي ؛ سل حاجتك ، فقلت : يا رب ؛ تعلم حاجتي ، فقال : أنا أعلم ، وكيف لا أعلم وأنا كونتها وكمنتها في صدرك ؟! ولـٰكن أحب أن أُسأل ، فالمسارعة في اتباع محبتي أولىٰ بك من التعلق بمرادك .

عبدي ؛ أنا الذي أطلقت لسانك بمسألتها ، عبدي ؛ اجمع بين مرادك من الأمور كلها وبين مرادك مني ، فإن يكن مخالفاً لمرادي . . فلا تزال في دهرك منقطعاً عني ، فاتبع ـ عبدي ـ محابِّي من الأمور ، واحذر حبَّ دار أبغضتُها وحذرتُكَها ، فأخرج قلبك منها ، وكن حذراً ؛ فإن متاعها قليل ، والعيشَ فيها قصير ، فتقرب إلي ببغضها وبغض أهلها ، وكن محترزاً منها ومن أهلها ، وقِفْ بين يدي في مقام مَن أسقط نفسه وحيلته وتعلق بمالكه ، وعليك بالذلة والافتقار إلي ؛ فبهما تصل ، والله أعلم . انتهىٰ .

❋ ❋ ❋

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو حامد : كنت شديد المحبة للفقراء ، وأنفق عليهم ، وأتبعهم في مجالسهم ، فبينما أنا أمشي مع طائفة منهم بالبصرة إلى الجامع ، وفيهم رجل أعتقد فيه الصفاء والوفاء والمجاهدة والمشاهدة ؛ فاستقبلَنا شخص جميل الصورة منظوراً إليه ، سبحان خالقه ، فكرر ذلك الرجل النظر إليه وأطاله .

قال أبو حامد : فسمعت صوتاً عظيماً ولم أعلم ما هو ، فرأيته قد طأطأ وٱتّكَأَ ساعة علىٰ ركبته ، وهو يقول : السمع والطاعة ، السمع والطاعة ، ثم رفع رأسه وهو يقول : سيدي ؛ وعزتك وجلالك قد تأدبت فلا أعود ، فدنوت منه ؛ فإذا بُنْدُقة[1] قد غاصت في جبينه فشجته ، فغمني ذلك وهالني ، فأخذت أمسح الدم عن وجهه ، فقال : دعني وربي جل جلاله ومالكي وخالقي سبحانه وتعالىٰ يؤدبني ، كيف نظرت إلىٰ ما لا يحل لي ؟! إلـٰهي ؛ قد تبت فلا أعود :

أعطـــاك دمعُـــك جُهــدَهُ	فشكـــا فـــؤادك وجـــدَهُ
يـــا شـــامتـــاً بـــي إذ رأىٰ	هجـــر الحبيـــب وصـــدَّهُ
لا تَشمَتَـــنَّ فـــإنـــه	مـــولـــىً يـــؤدب عبـــده

وهـٰذا نظير ما روي عن يوسف بن الحسين الرازي رحمه الله حيث قال : صحبت ذا النون ، فبينما نحن نسير في بعض المزارات . . اتفق لنا يوم جمعة ، فأوينا إلىٰ قرية لأداء الفرض ، فلما كان بعد العصر . . انصرفنا ، فسلم ذو النون علىٰ رجل مكفوف عليه آثار الخدمة وبهاء الطاعة ، فاغتم ذو النون لكف بصره في سره ، فقال المكفوف : يا ذا النون ؛

---

(١) **بُنْدُقة** : مفرد بندق ، وهي : ما يرمىٰ بها في القتال والصيد .

لا تعترض على العادل جل جلاله ؛ فإن مَن نظر إلىٰ سواه سبحانه وتعالىٰ . . كان هـٰذا جزاءه .

فلما خرجنا . . سألته عن حاله فقال : كان في الجامع ، فنظر إلىٰ شخص لا يحل له النظر ، فعمي من ساعته . انتهىٰ .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال **خلف بن موسىٰ** : رأيت زمِناً مجذوماً علىٰ بعض الطرق ، والزنابير قد وقعت عليه تقطع لحمه ، وهو يقول : وعزتك وجلالك ؛ لو أمرت الهوام جميعهن فيقسمنني بضعة بضعة . . ما ازددت لك إلا صبراً ورضاً وتسليماً لقضائك وقدرك ، فاحكم بما شئت ؛ فإنك الحكم العدل اللطيف الخبير جل جلالك ولا إلـٰه غيرك ، ارحمني واغفر لي يا أرحم الراحمين .

قال : فسألت عنه ، فقالوا : هـٰذا عبدون المحب ، منذ ستين سنة لم يزل صائماً ، صابراً علىٰ بلائه ، محافظاً علىٰ أوراده بحسب جهده وطاقته ، رحمه الله . انتهىٰ .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

روي أن علي بن يحيىٰ قال : صاحبت شيخاً من عسقلان سريع الدمعة ، حسن الخدمة ، كامل الأدب ، متهجداً بالليل ، صائماً بالنهار ، ناسكَ المسلمين ، فكنت أسمع أكثر دعائه الاعتذار والاستغفار .

فدخل يوماً بعض كهوف لكام وغيرانه[1] ، فلما مشىٰ . . رأيت أهل الجبل يهرعون إليه ويتبركون به ، فلما أصبح وعزم على الخروج . . قام إليه أحدهم وقال له : عظني ، فقال : عليك بالاستغفار والاعتذار ؛ فإنه سبحانه وتعالىٰ إن قبل عذرك وفزت منه بالمغفرة . . سلك بك إلىٰ أعلىٰ درجات المقامات ، فوجدتَها من أعلى الدرجات ، ثم بكىٰ وشهق ، وخرج من الموضع ، فلم يلبث إلا قليلاً حتىٰ مات ، فرأيته في النوم ، فقلت له : ما فعل الله عز وجل بك ؟ فقال : إن الله سبحانه وتعالىٰ أكرمُ مِن أن يَعتَذِر إليه مذنب فيُخيِّبَ ظنه ورجاءه ولم يقبل عذره ، قَبِل ـ وعزته وجلاله ـ عذري ، وغفر ذنبي ، وشفعني في أهل جبل لكام .

وهـٰذا نظير ما روي عن شجاع الموصلي رحمه الله قال : كنت في البادية ، فرأيت أعراباً يسوقون إبلاً لهم ، ورأيت رجلاً منهم قد انفرد بذِكر الله سبحانه وتعالىٰ ، فشهد قلبي له بالخير ، فجلست إليه أستفيد منه فائدة ، فسلمت عليه ، فأحسن الرد ، فقلت : يرحمك الله أفدني ، فقال : ذِكر الله عز وجل شغلني عنك ، فسألته بالله ، فقال : مسكين ابن آدم مسكين ، رَكَنَ من الدنيا إلىٰ غير رَكِينٍ ، هو ما بين مصائبَ وأخطارٍ ، وهو مع ذلك يلهو ويلعب .

قلت : وأي مصيبة وأي خطر ؟ قال : مصيبة الذنوب ، وخطر المحاسبة ، فقلت له : يا سيدي ؛ فما الحيلة ؟ فقال : الاعتذار بلسان الاحتقار ، مع كثرة الاستغفار ، بذُلِّ

---

(١) الغيران : جمع غار ، وهو أصغر من الكهف .

الافتقار ، والتضرع إليه في الأسحار ، مع قطع الأطماع عما سواه سبحانه وتعالىٰ ، يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، فقلت : زدني ، فقال : يكفيك هـٰذا إن وفقت للعمل به :

لا شيءَ أعظمُ من ذنبي سوىٰ أملي ... في حسن عفوكَ عن جُرمي وعن زللي
فإن يكن ذا وذا في القَدْر قد عَظُما ... فـإن عفـوك يـا مـولاي أطمـعُ لـي

وكان بعض العارفين رحمهم الله يقول في دعائه : إلـٰهي ؛ أخشاك لأني مذنب ، وأرجوك لأني مؤمن ، وأعتمد علىٰ فضلك لأني معتذر ، وأثق بكرمك لأني مستغفر ، وأنبسط إلىٰ مناجاتك لأني حسن الظن بك ، وأنت أهل التقوىٰ وأهل المغفرة ، وولي الخيرات في الدنيا والآخرة ، التي عرفناها برسولك الصادق الأمين صلى الله عليه وسلّم . انتهىٰ .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو جعفر الهروي رحمه الله : كان لي جار إذا دخل المسجد . . بكىٰ بكاءً شديداً إعظاماً لِحَقِّ المسجد ، وإذا خرج . . بكىٰ علىٰ نفسه وعلىٰ ما أسلف من الذنوب ، وكان هٰذا دأبه مع ملازمة العبادات وأنواع المجاهدات .

قال : ثم رأيته في مكة شرفها الله تعالىٰ وهو يضحك ، فتعجبت من ذلك وسألته ، فقال : تلك ديار المعرفة والشوق والمحبة ، وهي منازل الهموم والغموم والأحزان ، وأما هٰذه . . فهي منازل المؤانسة والمواصلة والمناجاة والمشاهدة ، وهي منازل الفرح والسرور ، يا حبيبي ؛ ما أعرف رَبعاً آنس من ربع الحبيب الملك الغفور جل جلاله .

فقلت له : كيف استطعت أهوال البادية ؟ فقال : وما عسىٰ أن تكون أهوال البادية ؟ واللهِ ؛ لو أني سعيت علىٰ جفون عيني . . لما أديت ما يجب عليَّ لله عز وجل .

قال : فقلت : متىٰ يستوجب العبد من الله الولاية ؟ فقال : إذا نشرت عليه خلع الهداية ، وقلد بسيف الكفاية ، فهي ولاية ما لها ولاية . انتهىٰ .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال محمد بن صالح : بينا أنا في الطواف ؛ إذ نظرت إلىٰ أعرابي يتعلق بأستار الكعبة ، وقد شخص ببصره إلى السماء ، وهو يقول : يا حي يا قيوم ؛ قد أحاطت بي ذنوب كثيرة لا تسعها الأرض ، ولا تغسلها البحار ، وأسألك أن تغفر لي وترحمني يا أرحم الراحمين .

ثم أقبل على الناس بوجهه فقال : معاشر الناس ؛ ادعوا لمن وكزتْه الخطايا ، وغمرتْه البلايا ، ارحموا أسير ضُرٍّ[1] ، وغريب فاقة ، سألتكم بالله الذي لا إلـٰه إلا هو ؛ إلا ما سألتم الله تعالىٰ أن يهب لي جرمي ويغفر لي ذنوبي .

ثم عاد وتعلق بأستار الكعبة وقال : إلـٰهي وسيدي ومولاي ؛ عظم الذنب بمكروب ، عن صالح الأعمال محجوب .

ثم رأيته بعرفات وقد وضع يديه علىٰ أم رأسه يصرخ ويبكي ويشهق ، وهو يقول : وعزتك وجلالك ؛ إن نفسي لواثقة لي ولسائر المؤمنين منك بالمغفرة والرضا ، وكيف لا تكون كذلك وأنت أرحم الراحمين ؟! أشهد أنك قد أمرت بمكارم الأخلاق ، فاجعل قِراي منك ووفودي عليك عتق رقبتي من النار يا أرحم الراحمين ، يا حي يا قيوم ، يا بديع السماوات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ؛ لا إلـٰه إلا أنت ، برحمتك أستغيث ، أصلح لي شأني كله ، وتب عليَّ إنك أنت التواب الرحيم . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٢٨٧-٢٨٨] .

* * *

(١) في بعض النسخ : (صبر) .

ومنهن :

عابدة أخرىٰ
رضي الله عنها

قال ذو النون رحمه الله : بلغني أن بجبل المقطب[1] جارية متعبدة ، فأحببت لقاءها ، فخرجت إلى المقطب فلم أرها ، فلقيت جماعة من المتعبدين ، فسألتهم عنها ، فقالوا : أتترك العقلاء وتسأل عن المجانين ؟!

فقلت : دلوني عليها وإن كانت مجنونة ، فقالوا : إنا نراها في أوقات تقع مرة وتقوم أخرىٰ ، وتصيح مرة وتسكت أخرىٰ ، وتبكي مرة وتضحك أخرىٰ .

فقلت : علىٰ كل حال دلوني عليها ، فقال أحدهم : هي في الوادي الفلاني ، فذهبت إلى الوادي الفلاني ، فلما أشرفت عليه . . سمعت صوتاً حزيناً طيباً وهي تقول :

يا ذا الذي أَنِسَ الفؤاد بقربه ... أنت الذي ما إنْ سواك أريدُ

قال : فاتبعت الصوت ؛ فإذا بجارية جالسة علىٰ صخرة كبيرة ، فسلمت عليها ، فقالت : وعليك السلام يا ذا النون ، ما لَكَ والمجانين تطلبهم ؟ فقلت : وأنت مجنونة ؟ فقالت : لو لم أكن مجنونة . . لما نودي عليَّ بالجنون .

فقلت : ما الذي جننك ؟ فقالت : يا ذا النون ؛ حبه سبحانه وتعالىٰ هو الذي جنني ، وشوقه هيمني ، ووجده أقلقني .

فقلت : يا جارية ؛ وأين محل الشوق منك ؟ وأين محل الحب منك ؟ وأين محل الوجد منك ؟ فقالت : يا ذا النون ؛ الحب في القلب ، والشوق في الفؤاد ، والوجد في السر .

فقلت : يا جارية ؛ الفؤاد غير القلب ؟ قالت : نعم ، الفؤاد نور القلب ، والسر نور الفؤاد ، والقلب يحب ، والفؤاد يشتاق ، والسر يجد .

---

(١) كذا في النسخ ، ولعل المقصود جبل المُقَطَّم ، وهو جبل مشرف على القرافة مقبرة فسطاط مصر والقاهرة .

قلت : وما الذي يجد ؟ قالت : يجد الحق سبحانه وتعالىٰ ، قلت : فكيف يجد الحق جل جلاله ؟ قالت : يا ذا النون ؛ وُجْدانُ الحق جل جلاله بلا كيف .

فقلت : يا جارية ؛ وما دليل صدق وجدانك للحق سبحانه وتعالىٰ ؟ فبكت بكاءً شديداً حتىٰ كادت نفسها تزهق ، وغشي عليها ساعة طويلة ، فلما أفاقت . . نادت : أوه منك! واها منك وواها عليك! وأنشأت تقول :

فوجدي به وجدٌ بوَجْدِ وُجودِهِ ... ووَجْدُ وُجودِ الواجدين لهيبُ
لئن مُتُّ حقاً في محبة سيدي ... فإن المنايا في الفؤاد تطيب

ثم صاحت صيحة عظيمة ونادت : هٰكذا يموت الصادقون ، وغشي عليها ساعة ، فحركتها ؛ فإذا هي ميتة ، رحمها الله تعالىٰ . انتهىٰ .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : روىٰ علي بن سعيد قال : مررت بعبَّادان[1] بمكفوف مجذوم ، والزنابير قد وقعت عليه تقطع من لحمه ، فقلت في نفسي : الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاه به ، وفتح من عيني ما أغلق من عينه .

قال : فبينا أنا أردد الحمد ؛ إذ صرع ، فنظرت إليه وإلىٰ حركاته ؛ فإذا هو مقعد ، فقلت : مكفوف مصروع مقعد مجذوم!! فما استتممت كلامي حتىٰ صاح بي : يا متكلف ، يا متكلف ؛ ما دخولك فيما بيني وبين حبيبي ومالكي ومولاي جل جلاله ؟! دعه يصنع بي ما يشاء .

ثم قال : وعزتك وجلالك لو قطعتني إرباً إرباً ، وصببت عليَّ البلاء صباً . . لما ازددت لك ـ وحقك ـ إلا حباً[2] ، وأنشد :

هجرت الخلق طراً في رضاكا ... وأيتمت العيال لكي أراكا[3]
فلو قطعتني إرْباً فإرْباً ... لَمَا حن الفؤاد إلىٰ سواكا

* * *

(١) عبادان : موضع قرب البصرة نسبة إلىٰ عباد بن الحصين ، قال في « معجم البلدان » (١/ ١٨٩) : وهٰذا اصطلاح قديم لأهل البصرة ، إذا نسبوا النهر والقرية إلىٰ رجل . . زادوا في آخر اسمه ألفاً ونوناً .
(٢) مرَّ هٰذا الخبر قريباً ، وقد نقله المؤلف رحمه الله عن « الصفوة » دون الشعر .
(٣) طراً : جميعاً .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

سئل بعض العارفين عن أوصاف المحبة فقال : المحب مَن لا يجاوز همُّه محبوبَه ، وحيث وقفه حبيبه . . وقف ولو كان فيه تلف روحه ؛ فإن أقل ما في الحب بذل الروح .

وأما المحبة . . فهي الموافقة في جميع الأحوال ، والصبر : ترك الشكوىٰ ، والرضا : استلذاذ البلوىٰ ، واليقين : تحقيق المشاهدة ، والتوكل : إسقاط الوسائط ، والأُنس : استيحاش غير المطلوب ، والإخلاص : ارتفاع رؤية العمل ، والفتوة : غفران الزلات المتعلقة بالعباد مع الإحسان بعده ، والمروءة : التوسعة على الإخوان مع التضييق على النفس ، والحكمة : اتباع العلم مع استعماله ، والورع : مخالفة الهوىٰ مع الزهد .

وهـٰذه كلها أصول المحبة ، والمحبة اسم جامع لها ؛ فإن المحب مطالَب بهـٰذه الخصال كلها ، ولهـٰذا قيل : معاتبة الخلق بالإرفاق ، ومعاتبة المحبين بالمناقشة والإرهاق ، ثم أنشد :

لـو كنـتِ عـاتبـة لتسكـن لـوعتـي ... أملـي رضـاك وزرتُ غيـرَ مـراقَـبِ
لـٰكـن مللـتِ فلـم يكـن لـي حيلـةٌ ... صد الملول خلاف صد العاتب

* * *

ومنهم :

عابد آخر

رضي الله عنه

قال في « **بهجة الأسرار** » : قال أحمد بن مسروق : سمعت سرياً يقول : بينا نحن نسير في بلاد الشام ؛ إذ مِلْنا عن الطريق إلىٰ ناحية جبل عليه عابد وهو يبكي ، فقال له السَّريُّ : ما الذي أبكى العابد ؟

فقال : وما لي لا أبكي وقد توعرتِ الطرقُ وقَلَّ السالكون فيها ، وهُجرت الأعمال وقَلَّ الراغبون فيها ، وقَلَّ العلماء ، وقَلَّ الحق ، وكثر الباطل ، ودرس هـٰذا الأمر ، فلا أراه إلا في لسان كل بطال ينطق بالحكمة ويفارق الأعمال وقد افترش الرخص ، وتمهد التأويل ، واعتذر بزلل العاصين .

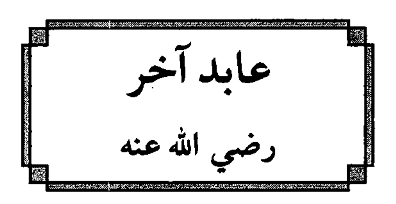
ثم صاح صيحة عظيمة وقال : كيف سكنت قلوبهم إلىٰ رَوح الدنيا ، وانقطعت عن ملكوت السماء . ثم ولىٰ صارخاً وهو يقول : واغمَّاه! من فتنة العلماء ، واكرباه! من حيرة الأدلاء .

وجال جولة ثم قال : أين الأبرار من العُبَّاد ؟ بل أين الأحبار من الزهاد ؟ ثم بكىٰ وقال : شَغَلهم ـ واللهِ ـ ذِكر الوقوف وهَمُّ الجواب والخوف من الملك الجبار جل جلاله عن ذِكر الجنة والنار .

وذَكَرَ الثوابَ ثم قال : أستغفر الله مِن شهوة الكلام ، تنحَّوا عني . فخليناه يبكي ، وقد مُلئنا منه همّاً وغماً . انتهىٰ .

* * *

ومنهم :



عابد آخر

رضي الله عنه

سئل بعض العارفين عن المراقبة فقال : علىٰ ثلاثة مقامات : مراقبة النفس ، ومراقبة القلب ، ومراقبة الحق جل جلاله .

فأما مراقبة النفس : فبالمحاسبة والمناقشة .

وأما مراقبة القلب : فبجمع الهم وعدم الغفلة .

وأما مراقبة الحق جل جلاله : فبالمشاهدة مع التعظيم والاحترام ، فتعلم أنه مطلع عليك ، وأنه مأخوذ عليك في سمعك وبصرك وفؤادك ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ .

ثم إن آفة مراقبة النفس بتخلية النفس مع الحظوظ ، وآفة مراقبة القلب الأشغال والعلائق ، وآفة مراقبة الحق جل جلاله الغفلة عن ذِكره ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال ذو النون : عطشت في بعض أسفاري عطشاً شديداً ، فقصدت بعض السواحل أريد الماء ؛ فإذا بشخص قد ائتزر بمئزر الحياء والأحزان ، وتدرع بدرع البكاء والأشجان ، قائمٍ علىٰ ساحل البحر يصلي ، فلما سلَّم . . دنوت منه وسلمت عليه ، فقال : وعليك السلام يا ذا النون ، فقلت له : يرحمك الله ، مِن أين عرفتني ؟ فقال : اطلع شعاع أنوار المعرفة من قلبي علىٰ صفو أنوار المعرفة من قلبك ، فعرفت روحي روحك بحقائق الأسرار ، وأَلِف سِرِّي سرَّك في محبة الله الواحد القهار جل جلاله ولا إلـٰه غيره .

ثم قال لي : أنت عطشان ؟ قلت : نعم ، فدَلني علىٰ ماء بالقرب ، فشربت ، ثم رجعت إليه ، فرأيته يبكي بشهيق وأنين .

فقلت له : يرحمك الله ، ما يبكيك ؟ فقال : يا أبا الفيض ؛ إن لله عز وجل عباداً شربوا بكأس محبته شربة أذهبت عنهم ألفة الكرىٰ .

فقلت له : دُلَّني علىٰ أهل الولاية ، فقال : هم الذين أخلصوا في الخدمة ، فخصهم الله سبحانه وتعالىٰ بالولاية ، وراقبوا مولاهم جل جلاله ، ففتح لهم نور القلب .

فقلت له : ما علامة المحبة ؟ فقال : إن المحب لله عز وجل غارق في بحار الحزن إلىٰ قرار المعرفة(١) .

فقلت له : ما علامة المعرفة ؟ فقال : العارف بالله لم يطلب مع معرفته دخول جنة ولا نجاة من نار ، ثم شهق شهقة عظيمة ، فمات رحمه الله . انتهىٰ .

* * *

---

(١) في نسخة : (قرار التحيُّر) .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال إبراهيم بن المهلب أبو الأشهب السائح ـ رحمه الله ـ : رأيت غلاماً قائماً يصلي في البَرِّية عند بعض الأميال وما معه أحد ، فانتظرته حتىٰ فرغ من صلاته ، فسلمت عليه ، وقلت له : ما معك مؤنس ؟ قال : بلىٰ ، قلت : وأين هو ؟ فقال : أمامي ومعي وخلفي ، وعن يميني ويساري وفوقي ، قال الله تعالىٰ : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ .

قال : فعلمت أن عنده معرفة ، قلت : فما معك زاد ؟ قال : بلىٰ ، قلت : فأين هو ؟ قال : الإخلاص لله عز وجل ، والتوحيد ، والإيمان الصادق مع توكل واثق .

قلت : فهل لك في مرافقتي ؟ فقال : الرفيق يشغل عن الله عز وجل ، لا أحب أن أرافق أحداً فأشتغل به عنه طرفة عين ، فيقطعني عن بعض ما أنا عليه .

فقلت : أفما تستوحش في هـٰذه البَرِّية وحدك ؟ فقال : إن الأُنس بالله عز وجل قطع عني كل وحشة ، حتىٰ لو كنت بين السباع . . لما خفتها ولا استوحشت منها .

قلت : فمِن أين تأكل ؟ فقال : الذي غذاني في ظلم الأحشاء والأرحام صغيراً . . قد تكفل بي كبيراً سبحانه وتعالىٰ ، ومتى احتجت إلى الطعام . . وجدته في أي موضع كنت ، وهو سبحانه عالم بما يصلحني ويصلح سائرَ عباده ، وهو بكل شيء عليم .

قلت : فهل لك حاجة ؟ قال : نعم ، قلت : وما هي ؟ قال : إن استطعت ألاَّ تنسني من دعائك ، وعند الشدائد إذا نزلت بك .

فقلت : وكيف يدعو مثلي لمثلك ، وأنت أفضل مني خوفاً ويقيناً وتوكلاً ؟! فقال : لا تقل هـٰذا ، إنك قد صليت لله عز وجل وصمت له قبلي ، ولـٰكن حق الإسلام بمعرفة الإيمان .

قال : قلت : فإن لي أيضاً إليك حاجة ، قال : وما هي ؟ قلت : ادع الله عز وجل لي ، فقال : حجب الله عز وجل عن طرفك كل معصية ، وألهم قلبك الفكر فيما يرضيه ؛ حتىٰ لا يكون لك هَمٌّ إلا هو سبحانه وتعالىٰ .

فقلت : حبيبي ؛ متىٰ ألقاك ؟ وأين أطلبك ؟ فقال : أما في الدنيا . . فلا تحدث نفسك بلقائي فيها ، وأما في الآخرة . . فاطلبني مع الناظرين إلى الله عز وجل ، وإياك أن تخالف الله عز وجل فيما أمرك أو تقصر فيما ندبك إليه ، واجتهد ألاَّ يراك حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك .

فقلت : وكيف علمت أنك مع الناظرين إلى الله عز وجل ؟ فقال : قد سألته سبحانه وتعالىٰ ذلك ، وهو سبحانه يجيب دعوة الداعي إذا دعاه ، وهو القريب المجيب ، ثم صاح ، وأقبل يسعىٰ حتىٰ غاب عني ، فلم أره بعد ذلك رحمه الله تعالىٰ ، انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٢٨١ـ٢٨٢] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال في « لوامع أنوار القلوب » : قال ذو النون : كنت في بعض الفيافي ؛ وإذا أنا بغلام قد انتقع لونه ، ونحل جسمه ، يتلألأ نور الخدمة من بين عينيه ، وتنطق آثار القَبول علىٰ وجنتيه ، وعليه آثار الطاعة والمجاهدة ، وهبة المؤانسة والمشاهدة ، وعليه طمران[1] وجبة صوف مفتقة الأكمام والذيول ، وعلىٰ أحد كُمَّيه مكتوب : ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ ، وعلى الكُمِّ الآخر : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ ، وعلىٰ ذيلها : لا تباع ، ولا توهب ، ولا تكترىٰ ، وعلىٰ صدرها مكتوب : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ ، وعلىٰ ظهرها مكتوب : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ ، وعلىٰ رأسه مئزر صوف عليه مكتوب : حب مولاي بلائي ، حب مولاي دوائي .

قال : فما رأيت ألطف من طمرين كانا عليه ، فهِبت خطابه ، ثم دنوت منه بعد ساعة ، فقلت : السلام عليك يا عبد الله ، فقال : وعليك السلام يا ذا النون .

فقلت له : ومِن أين عرفتني يا أخي ؟ فقال : اطلع حقائق حق الحق علىٰ مكنون ضمير ضمائري ، فشاهد صفاء معرفتك في غياهب غيوب همتك ، فتناطقا وتعارفا ، فعرفت أنك ذو النون المصري .

فقلت : يا أخي ؛ ما ابتداء المحبة ؟ فقال : الاعتبار بهٰذه الآيات والعظات التي تراها وتسمعها ، فأشار إلى المكتوب علىٰ طمريه .

فقلت : يا أخي ؛ وما انتهاء المحبة ؟ فقال : يا ذا النون ؛ انتهاؤها محال .

فقلت : يا أخي ؛ الزهدُ في الدنيا لطلب العقبىٰ ، أم لطلب المولىٰ جل جلاله ؟ فقال : يا ذا النون ؛ الزهد في مخلوق لطلب مخلوق آخر خسران . . وإنما يصح الزهد في الدنيا

---

(١) الطِّمْرُ : الثوب الخلق .

المخلوقة لطلب المولى الخالق سبحانه وتعالىٰ ، صغرت همة عبد رضيَتْ بغير الله سبحانه وتعالىٰ .

فقلت له : ما معنى المحبة ؟ فقال : هي اجتناب الأغيار وتتبع الآثار والأخبار ، يا أخي ، يا ذا النون ؛ العارف ليس له هَمٌّ ولا مأمول إلا الله سبحانه وتعالىٰ ، والنظر إلىٰ وجهه الكريم ، وحلول الرضوان عليه .

قال ذو النون : ثم أنشأ يقول :

ليس قصدي من الجنان نعيماً غير أني أحبها لأراكا

* * *

ومنهن :

عابدة أخرىٰ
رضي الله عنها

قال في « لوامع أنوار القلوب » : روي أن امرأة مسرفة علىٰ نفسها كانت تدعو في أكثر دعائها : اللهم ؛ أرني محمداً عبدَك ورسولَك صلى الله عليه وسلّم في منامي قبل موتي ، فكان ذلك دأبها ، مع إكثار الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلّم .

فقيل لها : إذا رأيتِهِ صلى الله عليه وسلّم . . ماذا كنت تطلبين منه من الحاجات ؟ فقالت : كنت أشتهي النظر إلىٰ وجهه الكريم ، وهو حسبي صلى الله عليه وسلّم .

ولم تزل علىٰ ذلك إلىٰ أن ماتت ، فرُئيت في المنام ، فقيل لها : ما فعل الله عز وجل بك ؟ قالت : غفر لي .

قيل لها : بماذا ؟ قالت : بمحبتي لرسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وكثرة صلاتي عليه صلى الله عليه وسلّم ، وشهوتي النظر إلىٰ كريم وجهه ، وقد نوديت : أن من اشتهى النظر إلىٰ حبيبنا . . نستحي أن نذله بعتابنا ، بل نجمع بينه وبين مَن يحبه .

وشاهد هـٰذا في الحديث الصحيح : « المرء مع من أحب »(١) والله سبحانه أعلم .

* * *

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٣٩) .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال في « بهجة الأسرار » : لقي حكيم حكيماً ، فقال له : عظني وأوجز ، فقال : الحالة التي أنت عليها كيف تراها ؟ قال : صالحة .

قال : ترضاها لأمر آخرتك أن تخرج بها إلى الله عز وجل ؟ قال : لا والله .

قال : فإذا خرجت إلى الله تبارك وتعالىٰ لك نفس غير نفسك تعمل في فكاك رقبتك من النار ؟ قال : لا .

قال : فإذا صرت إلى الله عز وجل تُمْهلُ أن تعمل في تلك الدار ؟ قال : ليس تلك الدار دار عمل ، فقال : لا يقيم علىٰ هـٰذه الحالة عاقل .

قال : وكتب رجل إلىٰ أخ له : يا أخي ؛ لا الأيام تعظك ، ولا الموت يزجرك ، ولا مواعيد الآخرة تحذرك ، وإنما يعد عليك نفَساً مكتوباً ، ويساق إليك رزقاً معلوماً ، ويكتب عليك عملاً محفوظاً ، فإذا بالنَّفَس وقد نفِد ، والرزق وقد فني ، والكتاب وقد طوي ، ثم تصير إلىٰ موردك من أرماس القبور[1] ، وبعد ذلك الحشر والحساب والميزان والصراط ، وإنما الفوز في التزحزح عن النار والوصول إلىٰ دار القرار .

ثم كتب أسفل ذلك : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ . والله أعلم .

* * *

---

(١) رمس القبر : ترابه .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو جعفر ـ رحمه الله ـ : وقف سائل علىٰ باب بعض العارفين يسأل شيئاً ، فقال لزوجته : هل عندك شيء ؟ قالت : نعم ، أربع بيضات ، قال : ادفعيها إلى السائل ، قال : فدفعت إليه ثلاثة وتركت واحدة لأجل فطره .

فلما كان بعد ساعة . . جاء شخص من قرية ومعه مخلاة فيها بيض أهداها إلى الشيخ ، فقال لزوجته : كم بيضة أهدي لنا ؟ قالت : ثلاثون بيضة ، فقال : ويحك! أعطيت السائل أربعاً . . جاءك ثلاثون بيضة ؟ أي حساب هٰذا ؟! فقالت : هي أربعون ، إلا أن العشرة مكسرة في المخلاة [في] جوف التبن لا ينتفع بها .

فقال : ويحك! أعطيت السائل ثلاثاً ؟! قالت : نعم ، أعطيته ثلاثاً وتركت لأجل فطرك واحدة ، فقال : ويحك ما أبخلك علىٰ نفسك! ويحك! الله عز وجل كريم حليم ، أما يعطيني واحدة بعشرٍ في الدنيا وعشرٍ في الآخرة ؟ انتهىٰ .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال في « **لوامع أنوار القلوب** » : قال سالم : بينا أنا أسير مع ذي النون المصري في جبل لبنان ؛ إذ قال لي : مكانك يا سالم حتىٰ أعود إليك ، فغاب عني ثلاثة أيام في الجبل .

فلما كان بعد ثلاث . . عاد إلي متغير اللون ، ذاهب العقل ، فقلت : السبع عارضك ؟ فقال : دعني من تخويف البشرية ، إني دخلت كهفاً من كهوف هـٰذا الجبل ، فرأيت رجلاً أبيض الرأس واللحية ، أشعث أغبر ، نحيفاً ، كأنه قد خرج من قبره ، ذا منظر مهول ، وهو يصلي ، فسلمت عليه ، فرد عليَّ السلام وقام إلى الصلاة ، فما زال راكعاً وساجداً حتىٰ صلى العصر واستند إلىٰ حجر بحذاء محرابه ، وهو لا يكلمني ، فبدأته بالكلام وقلت له : يرحمك الله ، أوصني بشيء ، وادع لي دعوة .

فقال : يا بني ؛ آنسك الله بقربه ، ثم قال : يا بني ؛ مَن آنسه الله بقربه . . أعطاه أربع خصال : أُنساً من غير جماعة ، وعزاً من غير عشيرة ، وعلماً من غير طلب ، وغنىٰ من غير مال .

ثم شهق شهقة عظيمة ، فلم يُفِق إلا بعد ثلاثة أيام ، حتىٰ توهمت أنه ميت ، فلما أفاق . . قام وتوضأ من عين ماء إلىٰ جانبه ، وسألني عما فاته من الصلوات ، فأخبرته ، فقضاهن ، ثم قال لي :

إن ذكر الحبيب هيَّج شوقي ... ثم حب الحبيب أذهل عقلي

ثم قال لي : إني استوحشت من ملاقاة المخلوقين ، وأَنِسْت بذِكر رب العالمين جل جلاله ، ثم انصرف عني بسلام .

فقلت له : رحمك الله ، وقفت عندك ثلاثة أيام ؛ رجاء الزيادة منك ، فقال : أَحِبَّ مولاك جل جلاله شوقاً إلىٰ لقائه ، ولا ترد لحبه بدلاً ؛ فالمحبون لله سبحانه وتعالىٰ هم

تيجان العُبَّاد وأعلام الزهاد ، وهم أصفياء الله وأحباؤه .

ثم صرخ صرخة عظيمة ووقع ، فحركته ؛ فإذا هو ميت ، فما كان إلا هنيهة[1] ، وإذا بجماعة من الزهاد ينحدرون من الجبل حتىٰ وارَوه تحت التراب .

فسألتهم : ما اسم هٰذا الشيخ ؟ فقالوا : شيبان المصاب ، قال سالم : فسألت أهل الشام عنه فقالوا : نعم ، هو مجنون خرج من أذى الصبيان له وولوعهم به .

قال : فقلت : هل تعرفون من كلامه شيئاً ؟ قالوا : نعم ، كان يتغنىٰ بهٰذا البيت إذا ضجر منهم :

إذا بـــك لـــم أُجَـــنَّ يـــا سيـــدي فبمـــن

قال سالم : فقلت لهم : عمَّىٰ عليهم حاله ، وكتمهم سره ، رحمه الله تعالىٰ . انتهىٰ .

* * *

(١) هنيهة : قليل من الزمان .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال في « بهجة الأسرار » : قال أبو الحسن عمرو بن عثمان رحمه الله : الناس في طريق الله عز وجل ثلاثةٌ :

[الأول] : عالم بالعلم ، مشغول بدرسه وفهمه وحفظه وبثه ، يطلب بذلك إثبات القَدْر ، وعلو المرتبة ، وطلب الرياسة ، قد كشف وجهه لذلك ، وأَنْصَب عقله نحو ما طلب ، فهو بذلك مشغول ، وبمحبة ما طَلَب مفتون .

فهو حارس العلم والعلم لا يحرسه ، وخادم العلم والعلم لا يخدمه ، منفعته لغيره ومضرته لنفسه ، حجابه ما عَلِم ، وفتنته ما طَلَب ، فهو عبرة لأهل البصائر ، مستدرَج بالنطق ، مفتون بالعبادة ، لا يعقل الفتنة ، ولا ينظر في بليته ، قد ملكه الهوىٰ ، وأضرت به فتن الدنيا ، نعوذ بالله من ذلك .

والثاني من العلماء : عالم قد عَلِمه ، فأطلق نداء العلم علىٰ نفسه يكدها بالسهر ليلاً ، ويظمئها بالنهار صياماً ؛ رغبة في الثواب لما قد وُعد به من جزيل الثواب ، وقد غلب علىٰ قلبه ملاذ نعيم الآخرة وزهرتها ، ودوام الحياة بها ، ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ ، قد ساعده بذلك التوفيقُ ، فهو مشغول بما يطلب .

فهٰذا وإن كان مشغولاً بطلب الآخرة وعلىٰ سبيل من سبل الحق وذريعة من قُرَب الوسيلة . . فوسيلته لنفسه ، وكده وسعيه لحظه ، لم يؤذن بالدخول في ميدان أهل العلو ، ومطلب نسيم روائح القرب ، ولو تكشفت له بصائر هدي إيمانه . . لما طلب بعلمه إلا الله سبحانه وتعالىٰ .

والثالث من العلماء : عالم قد عتق من كل رق ، مغيَّب عن كل غيب ، وَلِهَ بذكر الله عز وجل ، لا يطلب بعلمه إلا النظر إلىٰ وجهه الكريم سبحانه وتعالىٰ ، سكران في محبته ،

لا يسمع إذا نودي ، ولا ينظر إذا نُظِر ، أنفاسه تتردد في صدره ، مكروب قد ضاقت به الحياة ، فلولا بقاء المدة حتىٰ يبلغ الكتاب أجله . . لانفصلت آرابه[1] ، وانفطر قلبه مما يجد بأسراره .

فهٰذا رجل مخصوص بذِكره ، مكرم بمحبته ، معروف بين قبائل ملائكته في سماواته وأرضيه ، والله أعلم .

* * *

---

(١) آرابه : أعضاؤه .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال في « لوامع أنوار القلوب » : قال أبو علي الشرواني ـ رحمه الله ـ : اشتقت إلىٰ عليان من كثرة ما كان يبلغني عنه من المناقب السَّنية والأحوال البرة العلية ، فدخلت البصرة في طلبه ، فقالوا : هو في المقبرة ، فذهبت إليه .

فلما رآني . . هرب ودخل المسجد ، ورد الباب عليه ، فدخلت الباب ؛ فإذا هو يصلي ، فقعدت إلىٰ أن أقبل في مناجاته وهو يقول : إلـٰهي ؛ توجه إليك الطالبون وأرادوك ، وانقطع المشتاقون إليك وتمنوك ، واشتاق إليك العارفون بك وذكروك .

فدنوت منه وقلت : يا حبيبي ؛ ما تشتهي ؟ فقال : ما اشتهيت منذ أربعين سَنة مِن غير مولاي سبحانه وتعالىٰ شيئاً ، فقلت له : ألا أتخذ لك عصيدة[١] ؟ فقال : هـٰذا إليك .

فاتخذت له عصيدة من سكر ووضعتها بين يديه ، فقال : ما أريد منك هـٰذا ، ولـٰكن أريد كما أصفه لك ، فقلت : صف لي ، فقال : خذ تمر الطاعات ، وأَخرِجْ منه نوى العُجب ، وخذ دقيق العبودية ، وزعفران الرضا ، وسمن المجاهدة ، واجعل ذلك في طنجير التواضع ، وصُبَّ عليه من ماء الصفا ، وأَوقِدْ تحته نار الشوق ، وحركه بإِسطام[٢] المراقبة ، واجعله علىٰ طبق الشكر ، فمَن أكل منه ثلاث لقم . . كانت شفاء لصدره ، ونوراً لفكره ، وكشفاً لسره ، وبقاء لروحه .

ثم قام ونفض ذيله وهو يقول : آه من لوعة الفراق! هـٰذا دواء المحبة ، هـٰذه عروق المحبة ، هـٰذا غذاء المحبين ، هـٰذه شهوة المريدين ، ولهـٰؤلاء قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ ، ثم أنشد :

أفلـح الـزاهـدون والعـابـدونـا ... إذ لمـولاهـمُ أجـاعـوا البطـونـا

---

(١) **العَصِيدة** : دقيق يلتُّ بالسمن ويطبخ .
(٢) **الإِسطام** : الحَديدة التي تُحرَّك بها النار .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال في « بهجة الأسرار » : قال أحمد بن سعيد العابد الكوفي : عن أبيه قال : كان عندنا بالكوفة شاب متعبد لم يزل ملازماً للمسجد ، وكان حسن الوجه ، حسن القامة ، حسن السمت ، فنظرت إليه امرأة ذات عقل وجمال ، فشغفت به ، فطال ذلك عليها .

فلما كان ذات يوم . . وقفت له في طريقه إلى المسجد ، فقالت له : يا فتىٰ ؛ اسمع مني كلمات أكلمك بهن ، ثم اعمل ما شئت ، فمضىٰ ولم يكلمها ، ثم وقفت له بعد ذلك في طريقه إلىٰ منزله فقالت : يا فتىٰ ؛ اسمع مني كلمات أكلمك بهن .

قال : فأطرق وقال لها : هـٰذا موضع تهمة ، وأنا أكره أن أكون للتهمة موضعاً ، فقالت له : والله ؛ ما وقفت موقفي هـٰذا جهالة مني بأمرك ، ولـٰكن معاذ الله أن تتشوف[1] العباد إلىٰ هـٰذا مني ومنك ، والذي حملني علىٰ أن لقيتك في هـٰذا بنفسي . . أن القليل من هـٰذا عند الناس كثير ، وأنتم ـ معاشر العُبَّاد ـ في مثال القوارير أدنىٰ شيء يعيبه .

وجملة ما أكلمك به : أن جوارحي مشغولة بك ، فالله الله في أمري وأمرك .

قال : فلما مضى الشاب إلىٰ منزله ؛ وأراد أن يصلي . . فلم يعقل كيف يصلي ، فأخذ قرطاساً ، وكتب كتاباً ، وخرج من منزله ، فإذا المرأة واقفة في موضعها ، فألقى الكتاب إليها ورجع إلىٰ منزله ؛ فإذا في الكتاب :

بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، اعلمي ـ أيتها المرأة ـ أن الله تبارك وتعالىٰ إذا عُصي . . غضب ، وإذا غضب . . حلم ، فإذا عاد العبد إلى المعصية . . ستره سبحانه وتعالىٰ ، فإذا عاد إليها ولبس لها ملابسها . . غضب الله عز وجل عليه ، وغضبه يفطر السماوات والأرض والجبال والشجر والدواب ، فمَن ذا يُطيق غضبه جل جلاله ؟!

---

(١) **تتشوف** : تطلع .

فإن كان ما ذكرت باطلاً . . فإني أذكرك يوماً تكون السماء كالمهل ، وتكون الجبال كالعهن ، وتجثو الأمم لصولة الجبار العظيم جل جلاله ولا إلـٰه غيره ، وإني ـ والله ـ قد ضعفت عن إصلاح نفسي ، فكيف بإصلاح غيري ؟!

وإن كان ما ذكرتِ حقاً . . فالجئي إلى الله عز وجل رب العالمين جل جلاله ، فاقصديه علىٰ طريق المسألة ؛ فإني مشغول عنك بقوله عز وجل : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ * يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ ، فأين المهرب من هـٰذه الآية ؟! ثم جاءت بعد ذلك بأيام ، فوقفت له علىٰ طريقه ، فلما رآها من بعيد . . أراد الرجوع ، فقالت له : يا فتىٰ ؛ لا ترجع ، فلا كان الملتقىٰ بعد هـٰذا أبداً إلا بين يدي الله رب العالمين جل جلاله ، وبكت بكاء كثيراً ، ثم قالت : أسأل الله الذي بيده مفاتيح قلبك أن يجمع بيني وبينك في الفردوس الأعلىٰ .

ثم قالت : أسألك موعظة أو وصية أعمل بها ، فقال لها الفتىٰ : أوصيك بحفظ نفسك من نفسك ، وأذكرك قوله عز وجل : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ﴾ .

قال : فأطرقَت وبكت أشد من بكائها الأول ، ثم فارقته ولزمت العبادة ، فلم تزل علىٰ ذلك حتىٰ توفيت إلىٰ رحمة الله تعالىٰ . انتهىٰ .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال في « لوامع أنوار القلوب » : روي عن عبد الصمد قال : جمعتني وبشر الحافي طريق العمرة ، ومعنا شاب متعبد ، سريع الدمعة ، قليل الكلام ، كثير التفكر .

فقلت له : هٰذا بشر الحافي فتبرك به ، فقام إليه وسلم عليه وقبَّل يده ، ثم قال له : يا أبا نصر ؛ ما جزاء مَن خالف محبوبه ؟ قال : يقتل بسيف العتاب ، ثم يحرق بنار الهوىٰ ، ثم يذرُّ في هواء الذُّل ، فإن شاء . . جمعه ، وإن شاء . . قمعه .

قال : فشهق الغلام لما سمع ذلك ووقع ، ولم يزل يئنُّ ويرتعد إلىٰ أن مات .

قال عبد الصمد : فندمت علىٰ ذلك ، وواريناه في مكانه في ثوبَي إحرامه .

البَيْنُ فيه لمن ذاق الهوىٰ أجلُ ... به النفوس عن الأجساد ترتحلُ
والبين يسكن في أعضائهم زمناً ... ونار لوعته تذكىٰ وتشتعل
والبين بينٌ لروح المستهام إذا ... ما قيل قد بان من يهواه واحتملوا
يا سائلي كيف مات الوالهون فما ... ماتوا ولٰكن بأسياف الهوىٰ قُتِلوا

قال : وكان بشر بن الحارث يقول : المحبة ذُل في عز المحبوب ، ومشاهدة للحتف المجلوب ، مع امتناع المطلوب .

وقال : قال أيضاً : أما حقيقة المحبة . . ترك مخالفة المحبوب بكل حال ، والتسليم إليه في الحال والمآل .

قال : وروي عن بشر أيضاً أنه قال : شاطِرٌ[1] متواضع . . أحبُّ إلى الله عز وجل من قارىء متكبر ، وعاصٍ خائف . . أحب إلى الله من طائع واثق .

ثم قال : هَبْ أنك ما تخاف ، أما تشتاق ؟ والله أعلم .

---

(١) **الشاطر** : قاطع الطريق ، والإنسان غير المستقيم .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال في « لوامع أنوار القلوب » : قال الكتاني رحمه الله : كان رجل يحاسب نفسه ، فبلغ من العمر ستين سنة ، فحسب أيامها ، فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمس مئة يوم ، فصرخ وخر مغشياً عليه .

وقال : يا ويلاه ؛ إني ألقى الله عز وجل بأحد وعشرين ألف ذنب وخمس مئة ذنب ، بتقدير أن أعمل كل يوم ذنباً واحداً ، فكيف وكل يوم عشرة آلاف ذنب ؟!

ثم قال : آه عليَّ! عمرت دنياي وخربت عقباي ، وأغضبت مولاي جل جلاله ، ثم لا أشتهي أن أنتقل من العمران إلى الخراب ، وكيف أشتهي النقلة إلىٰ دار الحساب والكتاب والعذاب والعتاب بلا عمل ولا ثواب ؟ وأنشد :

منازلَ دنياك شيَّدتَها ... وخرَّبت دارك في الآخرهْ
وأصبحت تَكْرَهُها للخراب ... وترغب في دارك العامرهْ

وشهق شهقة عظيمة ، فحركوه ؛ فإذا هو ميت ، رحمه الله . انتهىٰ .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

وقال في « **بهجة الأسرار** » : قيل لبعض العارفين : صف لنا الغني بالله عز وجل ، فقال : ومِن صفة الغني بالله عز وجل . . إظهارهُ للنعم ، وستره للفقر ، وسروره بفقد الأعراض ، واعتدال البقاع عنده في باب الأرزاق ، وحسن الإفضال بما وَجَد ، وترك المسألة إذا فَقَد ، إلا قدر الضرورة ، ونزاهة النفس إذا انبسط ، وحسن العذر إذا بُسط ، وحفظ الأمانة إذا عقد كما وقع العقد ، وبعدُهُ من أهل اليسار والافتخار إلا لمنفعة في دينهم يوصلهم إليها عطفاً منه عليهم ، ورأفة بهم ، وتحنناً عليهم ، مع معانقة الجِد في الصبر على الأذىٰ والمحن والفقر بلا عتب ولا عذل ولاشكوىٰ ، وترك الانتصار للنفوس مع توقير الكبير ، ورحمة الصغير ، وتعظيم يسير النعم ، وترك الرجوع إلى المخلوقين في شيء إلا في بر ونصيحة وفائدة ، مع دوام الشكر لله عز وجل ، وترك الصول علىٰ مَن هو دونهم ؛ لأنه ضعف حلم ، وترك الصول علىٰ مَن هو فوقهم ؛ لأنه قلة حياء ، وشكر من أنعم عليهم وعلىٰ يديه ، ويَعذِرون مَن لم يُنِلْهُم معروفاً ، ولا يعيبونه ؛ لمجاري الأقدار والأحكام عليهم من الله عز وجل .

ومن صفاتهم : ما قال عمار بن ياسر رضي الله عنه في حديثه المشهور عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « اللهم ؛ إني أسألك العدل في الرضا والغضب ، والقصد في الغنىٰ والفقر ، والصبر وخشية الله عز وجل في السر والعلانية »[1] .

وكلَّ مَن رأيتَه يدعي مقام الغنىٰ بالله سبحانه وتعالىٰ ، وليس فيه عزوف عن الدنيا ، ولا هو مالك لنفسه عند القدرة عليها ، ولا مسرور بعدم الإعراض عنها . . فاعلم أن ما غاب عنه من علم حاله أكبر من شغله بغير اتصاله .

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٩٣٤٨) .

واعلم : أن الموعظة للعوام ، والنصيحة للإخوان ، والتذكرة للخواص . . فرض افترضه الله عز وجل على العقلاء المؤمنين ، ولولا ذلك . . لانقطعت السُّنن وبطلت الفرائض ، والله سبحانه أعلم . انتهىٰ .

❊ ❊ ❊

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال في « لوامع أنوار القلوب » : قال أبو الوزير : كنت أسمع بعليٍّ الموسوس ، وسكره بالمحبة ، وولهه في عقله مع كثرة عشيرته ، وكنت أشتهي لقاءه .

فلما بلغت قرب النعمانية[1] . . رأيت على الشاطىء شيخاً وعليه جبة صوف ، وحوله الفلاحون والملاحون ، وهو يبكي ، ولا يحس بما يقول ، ولا ما يقال له ، فسألت عنه ، فقيل : إنه علي الموسوس ، فدنوت منه وسلمت عليه ، فأشار بالجواب ، ثم قال : يا بني ؛ أسعدَ قوماً بخِلَعِ معرفته ، وسقاهم بكأس محبته من شراب مؤانسته ، وأسكرهم في إخلاص مجاهدته ، وأضناهم في ميادين خدمته ، وأفناهم في سكرهم عن بريته ، ثم أوقفهم علىٰ بساط مراقبته ، وشرفهم بتحيات مشاهدته ، فهم سكرىٰ في الظواهر ، صحاة في الضمائر والسرائر .

ثم حلاَّهم علىٰ لسان عبده ورسوله وحبيبه محمد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وأخفاهم عنك ؛ لأنهم بحال ودائع المحبة ، وحصول خزائن المعرفة ، فهم العارفون ، فقال فيهم صلى الله عليه وسلّم : « رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له ، لو أقسم على الله . . لأبر قسمه » .

ثم أقامهم بين صلح وقتال ، ووشاة وعذال ، ولوَّام وآلام ، وحلال وحرام ، فهم سكارىٰ حيارىٰ دَهشىٰ عطشىٰ .

يا حبيبي ؛ سمعاً وطاعة لك ، ورضاً وتسليماً لقضائك وأمرك ، تفعل ما تشاء ، وتحكم ما تريد ، لا إلـٰه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين .

ثم قام شاهقاً يعدو ، وراكضاً يشدو ، فأعجبت بطيب قلبه ومنظره أكثر من إعجابي بحسن خبره ومخبره ، والله أعلم .

---

(١) **النعمانيةِ** : بلدة بين واسط وبغداد .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال في « بهجة الأسرار » : قال يوسف بن الحسين : قال ذو النون : وُصِف رجل بالمغرب ، وذكر بالمعروف والحكمة ، ووصف لي من كلامه ما حملني علىٰ لُقِيِّه ، فرحلت إليه إلى المغرب ، فأقمت علىٰ بابه أربعين يوماً علىٰ أن يخرج من منزله ، ويجلس في مسجده ، ويتكلم ، وأسأله ، فما هو إلا أن يخرج من منزله في وقت كل فريضة ، ويرجع كالواله لا يكلمني ولا يكلم أحداً ، فضاق لذلك صدري .

فقلت له يوماً : يرحمك الله يا هـٰذا ، إني مقيم هـٰهنا منذ أربعين يوماً لا أراك تكلمني ، فقال : يا هـٰذا ؛ إن لساني سبُع ، فإن أنا أطلقته . . أكلني .

فقلت له : يرحمك الله ، عظني موعظة أحفظها عنك ، فقال : وتفعل ؟ قلت : نعم إن شاء الله عز وجل ، فقال : لا تحب الدنيا ، وعُدَّ الفقر غنىً ، والبلاء من الله نعمة ، والمنع من الله عطاء ، والوحدة مع الله أنساً ، والذل عزاً ، والحياة موتاً والمباهاة حظاً ، والطاعة حرفة ، والتوكل معاشاً ، والله عز وجل لكل أمورك عُدَّة . ودخل إلىٰ منزله ، ثم مكث بعد ذلك شهراً لا يكلمني .

فلما خرج ذات يوم . . قلت له : يرحمك الله ، إني أريد الرجوع إلىٰ بلدي ، فإن رأيت أن تزيد لي في الموعظة ، فقال : وما كفاك ما سمعت ؟!

فقلت : يرحمك الله ، إني رجل مبتدىء لا علم لي ، قال : هـٰكذا ؟ قلت : نعم ، فقال : اعلم أن الزاهد في الدنيا قوته ما وجد ، ولباسه ما ستر عورته ، ومسكنه حيث أدرك ، والخلوة مجلسه ، والقرآن حديثه وأنيسه ، والله سبحانه جليسه ، والمراقبة سميره ، والصمت ضميره ؛ لاستيلاء سلطان الهيبة عليه لا يفارقه ، والخوف محجته ، والرجاء مع الشوق مطيته ، والنصح همته ، والاعتبار فكرته ، والصبر وسادته ، والتراب فراشه ،

والصديقون إخوانه ، والحكمة كلامه ، والعقل دليله ، والحلم خليله ، والتوكل كسبه ، والجوع أُدْمُه ، والبكاء مع الحزن حرفته ، والجنة منزله ، والله عز وجل عونه .

فقلت له : يرحمك الله ، فمتىٰ يتبين للعبد الزيادة في هٰذا المقام ؟ فقال : بالمحاسبة لنفسك والمناقشة لها ، حسبك الآن حسبك . انتهىٰ .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال في « **لوامع أنوار القلوب** » : قال الأصمعي ـ رحمه الله ـ : رأيت في الطواف شيخاً بالياً فانياً ، وله خلوات حسنة ، ومجاهدات كثيرة ، فأعجبني حاله ، فسمعته ليلة بفناء الكعبة يقول باكياً بصوت حزين : إلـٰهي ؛ إن لم تجب دعوتي . . فمن لي ؟ إلـٰهي ؛ إن لم ترحم عَبْرتي . . فمن لي ؟ إلـٰهي ؛ إن لم تُقِل عثرتي . . فمن لي ؟ إلـٰهي ؛ أغثني ، وإن لم تغثني . . فمن لي ؟ إلـٰهي ؛ اغفر ذنوبي ، وإن لم تغفر لي . . فمن لي ؟ إلـٰهي ؛ ارحمني ، وإن لم ترحمني . . فمن لي ؟

فلم يبق في الحرم عين إلا أبكاها ، ولا قريحة[1] إلا أنكاها[2] .

وأنشدوا في المعنىٰ :

يـا مَـن بهجـري يـريـد قتلـي	قـد عيـل صبـري ورَثَّ حبلـي
قـد كنـتُ قبـل الهـوىٰ عـزيـزاً	فبعـتُ عـزي بطـول ذُلـي
وصـرت أشكـو فـلا تبـالـي	إن لـم تجـب دعـوتـي فمـن لـي

* * *

---

(١) **القريحة** : الطبع الجيد .

(٢) **أنكاها** : النكاية هي كثرة القتل والجرح في العدو ، ولعل المراد هنا : الجرح فقط ، وهو كناية عن شدة تأثر الحاضرين حتىٰ كأنه قد جرح أفئدتهم .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو عبد الله الطبري : قال رجل لأبي محمد الجريري رحمه الله : كنتُ علىٰ بساط الأنس ، وفُتح لي طريق إلى الانبساط ، فزللت زلة ، فحجبت عن مقامي ، فكيف السبيل إلى العود إليه ؟ دلني على الوصول إلىٰ ما كنت عليه ؟ فبكىٰ أبو محمد وقال له : يا أخي ؛ الكل في قهر هـٰذه الخطة[1] وفي هـٰذه الرزية ، ثم شهق ، ثم سكت ساعة ، وأنشد :

قـف بـالـديـار فهـٰـذه آثـارهـم ... تبكـي الأحبـةَ حسـرةً وتشـوُّقـا
كم قد وقفت بها أسائل مُخبِراً ... عـن أهلهـا أو صـادراً أو مشفقـا
فأجابني داعي الهوىٰ في رسمها ... فارقتَ مَن تهوىٰ فعَزَّ الملتقىٰ[2]

* * *

(١) المعنىٰ والله أعلم : أن الإنسان في مجاهدة ومكابدة حتىٰ يحقق الوصول إلىٰ مقام أعلىٰ ، ويحافظ علىٰ ما وصل إليه ، وهو في ذلك متحفظ ومتحذر لشرور النفس والهوىٰ والدنيا والشيطان ، وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ .

(٢) طبقات الصوفية (٢٠٦) .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

سئل بعض العارفين عن أخص أحوال المحبة فقال : أخص أحوالها أربعة أشياء : ظاهران وباطنان .

أما الظاهران : فالسياسة والرياضة ، وأما الباطنان : فالحراسة والرعاية .

أما السياسة : فهي حفظ النفس ومعرفتها ، وبه يصل العبد إلى التطهير ، وميزانها القيام علىٰ وفاء العبودية .

وأما الرياضة : فهي مخالفة النفس ، وبها يصل العبد إلى التحقيق ، وميزانها الرضا عند الحكم .

وأما الحراسة : فهي معاينة بر الله تعالىٰ ولطفِهِ ، وألاَّ مانع ولا معطي ولا ضار ولا نافع إلا هو سبحانه وتعالىٰ ، وبها يصل العبد إلىٰ منازل المعرفة ، وميزانها الصفو والمشاهدة .

وأما الرعاية : فهي مراعاة حقوق الله عز وجل بالسرائر ، والمسارعة إلى الإتيان بالمأمورات منها ، واجتناب المنهيات عنها ، مع الالتذاذ بذلك ، وبها يصل العبد إلىٰ درجات المحبة ، وميزانها الوفاء والرجاء والخوف والهيبة ، ثم إن الوفاء متصل بالصفاء ، والرضا متصل بالمحبة ، عَلِمه مَن عَلِمه ، وجهِله من جهِله . والله أعلم[1] .

❊ ❊ ❊

---

(١) طبقات الصوفية (٢١٥) .

ومنهن :

عابدة أخرىٰ
رضي الله عنها

قال في « لوامع أنوار القلوب » : قال أبو الأشهب السائح : بينا أنا في الطواف ؛ وإذا بجارية قد تعلقت بأستار الكعبة وهي تقول : يا وحشتي بعد الأنس! ويا ذلي بعد العز! ويا فقري بعد الغنىٰ!

فقلت : يا جارية ؛ أذهب لك مال أو أصبت بمصيبة ؟ فقالت : خل هـٰذا ، وما قدر هـٰذا ؟! ولـٰكن كان لي قلب فقدته .

فقلت : وهـٰذه مصيبتك التي تبكين فيها ؟ فقالت : وأي مصيبة أعظم من فَقْدِ القلوب وانقطاعها عن المحبوب ؟!

فقلت لها : إن حُسن صوتك قد عطل علىٰ من سمع كلامك الطواف ، فقالت : يا شيخ ؛ البيت بيتك أم بيته جل جلاله ؟ قلت : بل بيته سبحانه وتعالىٰ ، قالت : فدعنا نتضرع إليه سبحانه وتعالىٰ .

ثم قالت : سيدي ومولاي ؛ بحبك لي إلا رددت إلي قلبي ، فقلت لها : يا جارية ؛ مِن أين تعلمين أنه سبحانه يحبك ؟ فقالت : إليك عني يا بطال ، لولا محبته سبحانه وتعالىٰ . . لما جيَّش الجيوش في طلبي ، وأنفق الأموال بسببي ، حتىٰ أخرجني من بلاد الشرك وأدخلني في التوحيد ، وعرَّفني نفسه سبحانه وتعالىٰ بعد جهلي ، فهل هـٰذا ـ يا عبد الله ـ إلا العناية ومحبة سبقت منه سبحانه ؟!

قلت : فكيف حبك له ؟ قالت : أعظم شيء وأجله .

قلت : وتعرفين الحب ؟ قالت : إذا جهلتُ الحب . . فأي شيء أعرف ؟! قلت : فكيف هو ؟ قالت : أرق من الشراب ، وأحلىٰ من الحِلاب[1] .

---

(١) **الحِلاب** : اللَّبن .

قلت : وأي شيء هو ؟ قالت : طينة عجنت بالحلاوة ، حلو المجتنىٰ ما اقتصد ، فإذا أفرط . . صار قتلاً .

ثم ولت وهي تقول :

وذي قلق ما يعرف الصبر والعَزا ... لـه مقلـة عبـرىٰ أضـر بهـا البكـا
وجسم نحيل من شَجَا لاعج الهوىٰ ... فمن ذا يداوي المستهام من الضنا[1]
ولا سيمـا والحـب صعـب مَـرامـه ... إذا عطفـت منـه العـواطـف بـالقنـا

* * *

(١) الشجا : الغَصَص ، أيك الفصة التي تولدت من اضطراب هواه .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

سئل عارف عن حقيقة المحبة فقال : حقيقة المحبة : حفظ السر مع المراقبة[1] ، وحفظ الظاهر مع الخلق بحسن العشرة ، والنظر إلى الدنيا بعين الزوال ، فمَن نظر إليها بعين محبة . . أكبَّه الله عز وجل عليها .

واعلم : أن ثمرة الشكر هو الخوف من الله والحب له سبحانه وتعالىٰ ، وثمرة الخوف الذِّكر ؛ فإن كان الذِّكر باللسان . . فهو كفارات ودرجات ، وإن كان بالقلب . . فهو زلفىٰ وقربات .

وأما ثمرة الحب . . فهي عزيزة ؛ لأن الحب يورث **علماً بالله عز وجل** ؛ وهو معرفة أسمائه وصفاته ، **وعلماً من الله** ؛ وهو معرفة الحلال والحرام والأمر والنهي والأحكام ، **وعلماً مع الله** ؛ وهو معرفة الرجاء والخوف ، والمحبة والشوق ، والبكاء والمراقبة ، والسهر والرعاية .

ثم قال : قد روي أن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام رأىٰ رجلاً يعبد الله عز وجل في الهواء ، فقال له : بم نلت هـٰذه المنزلة ؟ فقال : يا خليل الله ؛ ما شَغَل الله عز وجل قلبي بغير حبه سبحانه وتعالىٰ ، وصَمَمْت نفسي عن الدنيا ، ولم أشرع قولاً ولا فعلاً فيما لا يعنيني ، وعملت بما أمرني ، وانتهيت عما نهاني ، فهو سبحانه وتعالىٰ إن سألته . . أعطاني ، وإن دعوته . . أجابني ، وإن أقسمت عليه . . أبر قسمي ، فسألته أن يسكنني في الهواء لأتجرد عن الأغيار ، فأسكنني في الهواء ، وأسكن حبه في قلبي تبارك وتعالىٰ .

ثم قال : سئل بعض العارفين عن التنازع بين العقل والهوىٰ فقال : العقل والهوىٰ يتنازعان ، فَقَرِينُ العقل التوفيق ، وقرين الهوى الخذلان ، والنفس واقفة بينهما ، فأيهما

---

(١) في بعض النسخ : (الموافقة) .

ظفر . . كانت مِن حزبه ، ومخالفة النفس هي الغرض الصحيح ، واتباع رضى المحبوب هو المطلوب الصريح .

لســانــي كتــوم لأســراركــمْ	ودمعــي لأســرار قلبــي مــذيــعْ
فلــولا دمــوعــي كتمــت الهــوىٰ	ولـولا الهـوىٰ لـم يكـن لـي دمـوع

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

سئل عن الحال التي يستغنىٰ بها عن الدنيا وأهلها فقال : عليك بتلاوة القرآن أو الذِّكر أو هما ليلاً ونهاراً ، حتىٰ لا يكون فيك فضل لغيرهما من النوافل ، وكن معظماً لحرمات الله سبحانه وتعالىٰ ، مراقباً لله على الدوام .

واعلم : أنك مخاطَب بالوعد والوعيد ، واحْتَمِ عن الدنيا ، وأَكْثِرِ الخلوة ، واعتزل الناس ، ولا تخالطهم إلا في الجمعة والجماعة وما لا بد منه . والسلام .

وسئل أيضاً عن وجه فضل الفقير على الغني[1] فقال : إن الفقير مع نومه بالأدب . . أفضل من الغني مع عبادته طول دهره ؛ لأن مَن راعى الحقوق مع ما يسوؤه . . هو أفضل ممن يراعي الحقوق مع ما يسره ، وما انقطعوا ، وإنما طولبوا برعاية حكم الأوقات فاقتُطعوا .

واعلم : أن الله عز وجل يطالب العبد بجمع همه ، ومَن لم يشرب في فقره كؤوس الاختيار . . فهو طريح الضر ، والله أعلم . انتهىٰ .

* * *

(١) المفاضلة بين الفقير والغني : ترجع لاختلاف المشارب والأذواق والمعارف ، فكل يعبر من وجهة نظر تناسب حاله وطبعه ؛ ولذلك اختلفوا في هـٰذا الأمر والله أعلم .

ومنهن :

عابدة أخرىٰ
رضي الله عنها

قال في « لوامع أنوار القلوب » : قال ذو النون : رأيت في بعض السواحل جارية سوداء علىٰ جسمها آثار المجاهدة ، وعلىٰ وجهها أنوار المشاهدة ، فقلت لها : مِن أين ؟ فقالت : من ميدان المحبة ، فقلت : وإلىٰ أين ؟ فقالت : إلىٰ مَن حبه هيمني تقدس عن أن تحاط ذاته بالأينية ، أو تُعرَف محبته بالإحاطة والكيفية ، وإنما هو وصف علىٰ حسب إدراك العبد ، وكلام بلسان التقصير والعجز في الحَيرة .

ثم أنشدت :

الصبر يجمل إلا عنك مولايَ ... وكيف أصبر عن سري ومعنايَ
أُوحِي إلى القلب في سري وفي علني ... أنت الذي كل هَمٍّ فيك مأوايَ
أَعرِفْ محلي وقدري إنني وَجِلٌ ... وحق حقك يا ذخري ومولايَ
إن كنت تعرفني فأكثر مذاكرتي ... فإن أكثر ذكري من أَحِبَّايَ

❊ ❊ ❊

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال بعض العارفين وقد سئل عن علامات المحبة فقال : أعلامها أربعة أشياء لا بد منها : الخوف ، والرجاء ، واليقين ، والرضا .

ثم إن هـٰذه الأربعة مقرونة بأربعة : الخوف مقرون بالبكاء ، والرجاء مقرون بالأنس ، واليقين مقرون بالتوكل ، والرضا مقرون بصحة التسليم .

وأنشد :

تفكرت في ما قد تقدم من عمري ... وفي ما مضىٰ من حَلِّ عهدي ومن غدري

فقلت لقلبي عند ذاك تنصُّحاً ... أيا عجباً يا قلب أنت من الصخر

لأنك باشرت القبيح جهالة ... وأسرفت فيما قد أتيتَ من الأمر

فدونك فٱمْحُ ما جنيت وداوِهِ ... وكن صادقاً في ذاك في السر والجهر

زجرتك يا قلبي ولُمْتُك واعظاً ... فلستُ أرىٰ تنقاد للوعظ والزجر

مقيماً علىٰ كسب الذنوب تمرداً ... مصرّاً علىٰ هـٰذا كأنك لا تدري

فإنك تلقىٰ كل ما قد جنيتَه ... وقدَّمْتَه بالجهل في سالف الدهر

فلا تك ممن باع رشداً بِغَيِّهِ ... فليس له يوم القيامة من عذر

أَنِبْ وارعوي تَحظىٰ بذلك كالذي ... أناب فنال الفوز في ساعة الحشر

وصار إلىٰ دار يدوم نعيمها ... وحَلَّ بقرب الله ذي العز والكبر

له كل ما يلقاه فيها مخلَّدٌ ... ويُتْحَف بالخَوْد المنعَّمة البِكْرِ[1]

وقرأ قارىء عند أبي إسحاق إبراهيم الخواص رحمه الله : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ

---

(١) الخَوْدُ : الشابَّةُ النَّاعِمة ، الحسنةُ الخَلْقِ .

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ ، فقال : **ما ينبغي للعبد بعد هٰذه الآية أن يلجأ إلىٰ أحد غير الله عز وجل .**

وقال بعض العلماء : لا يشغلك المضمون لك من الرزق على المعروض عليك من العمل ، فتضيع أمر آخرتك ، ولا تنال من الدنيا إلا ما كتبه الله عز وجل لك .

وقال هرم بن حيان رحمه الله : قلت لأويس القرني رحمه الله : أين تأمرني أن أكون ؟ فأومأ إلى الشام ، فقلت له : فكيف المعيشة بها ؟ فقال أويس : فهٰذه القلوب قد خالطها الشك ، فما تنفعها الموعظة .

وقال بعضهم : متىٰ رضيتَ بالله عز وجل وكيلاً . . وجدتَ إلىٰ كل خير سبيلاً ، إِي والله الذي لا إلٰه إلا هو عالم الغيب والشهادة الرحمٰن الرحيم .

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله لأحمد ابن أبي الحواري : لي مِن كل مقام نصيب ، إلا من التوكل المبارك ؛ فإني ما شممت منه رائحة .

قال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : هٰذا كلامه مع علو قدره ، ولم ينكر كونه من المقامات الممكنة ، ولٰكنه قال : (ما أدركته) ، ولعله أراد إدراك فضله .

ومَن لم يُكمِلِ الإيمانَ بأنه لا فاعل إلا الله سبحانه ، ولا رازق سواه ، وبأن كل ما يقدره على العبد من فقر وغنىً ، وصحة وسقم ، وموت وحياة ، وغير ذلك فهو خير له مما يتمناه . . لم يَكمُل حاله في التوكل .

وقال عبد الواحد بن زيد رحمه الله : مررت برجل نائم في الثلج ، فقلت له : أما تجد البرد ؟ فقال : مَن شغله حب الله عز وجل . . لم يجد البرد . [انتهىٰ « الإحياء » ٤/ ٢٧٠ و٢٩٥] والله أعلم .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال معروف الكرخي رحمه الله تعالىٰ : رأيت رجلاً في البادية شاباً حسن الوجه ، عليه قميص كتان ، وعلىٰ رأسه رداء قصب ، وفي رجليه نعل طاق .

قال معروف : فتعجبت منه في مثل ذلك المكان وفي زيه ، فقلت : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، فقال : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته يا عم .

فقلت : الفتىٰ من أين ؟ فقال : من مدينة دمشق ، فقلت له : متىٰ خرجت منها ؟ فقال : ضحوة نهار ، قال معروف : فتعجبت منه ، وكان بينها وبين الموضع الذي رأيته فيه مراحل كثيرة .

قلت له : فأين المقصد ؟ فقال : مكة إن شاء الله تعالىٰ ، فعلمت أنه محمول ، ثم ودعني ومضىٰ ، ولم أره حتىٰ مضت ثلاث سنين .

فلما كان ذات يوم وأنا جالس ؛ إذ مر بخاطري ، فتفكرت فيه وفي أمره ، وإذا الباب قد طُرق ، فخرجت ؛ فإذا أنا به ، فسلمت عليه وقلت : مرحباً وأهلاً ، وأدخلته المنزل ، فرأيته منقطعاً والهاً حزيناً حاسراً .

فقلت له : أي شيء الخبر ؟ فقال : يا أستاذ ؛ وعزته وجلاله لقد لاطفني سبحانه وتعالىٰ ، ثم أنعم عليَّ بأنه مرة يُجيعُني ومرة يُشبعني ، ومرة يهددني ومرة يُكرمني ، فأسأله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ أن يُنعِم عليَّ بتوفيق لما يرضيه عني ، وبعمل صالح يقبله مني ثم بكىٰ .

قال معروف : فأبكاني ـ والله ـ كلامه ، فقلت له : حدثني ببعض ما جرىٰ عليك منذ فارقتني ، فقال : هيهات أن أُبدِيَه وهو سبحانه وتعالىٰ يريد أن أخفيه! ولـٰكن بعدما أنعم عليَّ سبحانه وتعالىٰ جوعني ثلاثين يوماً ، ثم جئت إلىٰ قرية فيها مَقْثَأة[1] وقد نبذ منها المدود

(١) **المقثأة** : المكان الذي يزرع فيه القِثَّاءُ .

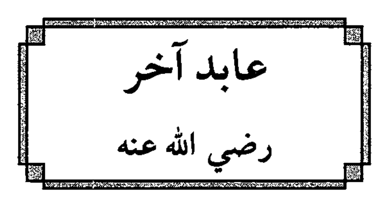
وطرح ، فقعدت آكل منه ، فرآني صاحب المقثأة ، فأقبل إلي ، فضرب ظهري وبطني ، وجعل يقول لي : ما أخرب مقثأتي غيرك ، منذ كم أنا أرصدك حتىٰ وقعت عليك ؟! فبينا هو يضربني ؛ إذ أقبل فارس نحوه مسرعاً إليه ، وقلب السوط في رأسه ، وقال له : تعمَدُ إلىٰ ولي من أولياء الله سبحانه وتعالىٰ فتقول له يا لص ؟! فأخذ صاحب المقثأة بيدي ، وذهب بي إلىٰ منزله ، فما أبقىٰ من الكرامة شيئاً إلا عمله ، واستحلَّني ، وجعل مقثأته لله عز وجل ولأصحاب معروف الكرخي .

فقلت له : صف لي معروفاً ، فوصفك ، فعرفتك .

قال معروف : فما استتم كلامه حتىٰ دق صاحب المقثأة الباب ودخل ، وكان موسراً ، فأخرج جميع ماله وأوقفه على الفقراء ، وصحب الشاب سَنة ، وخرجا إلى الحج ، فماتا بالربذة ، رضي الله عنهما أجمعين . [انتهىٰ « الصفوة » ٤/٢٠٣ـ٢٠٤] .

* * *

ومنهم :



عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج : قال إبراهيم الزهري[1] رحمه الله تعالىٰ : قدمت من المَصِّيصَة ، فمررت بجبل اللُّكام ، فأحببت أن أرى الزهاد هناك ، فقصدتهم ووافقت صلاة الظهر عندهم ، فعرفني رجل منهم ، فقلت له : دُلَّني علىٰ رجل منكم أنتفع بموعظة منه .

فقال : هٰذا الشيخ الذي يصلي بنا ، فصليت خلفه الظهر والعصر ، فقال له ذلك الرجل : هٰذا رجل من ولد عبد الرحمـٰن بن عوف صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وأمَّا جده من قبل أمه . . فسعدُ بن معاذ .

قال : فبَشَّ بي وسلم عليَّ كأنه قد كان يعرفني ، قال : فقلت في نفسي : مِن أين يأكل هٰذا الشيخ ؟ فقال لي الشيخ في الحال : أقم عندنا الليلة ، قال : فأقمت .

ثم أخذ بيدي وجعل يحدثني ويؤانسني حتىٰ جاء إلىٰ كهف ، فقعدت ودخل الكهف ، فأخرج قَعْباً[2] يسع رطلاً ونصفاً قد أتىٰ عليه زمن طويل ، فوضعه بين يدي وقعد يحدثني ، حتىٰ إذا كادت الشمس تغرب . . اجتمع حوله ظباء ، فاعتقل منهن ظبية ، وحلبها حتىٰ ملأ ذلك القدح ، ثم أرسلها .

فلما سقط القرص[3] . . حَسَا منه وسقاني ، ثم قال لي : ما هو غير ما ترىٰ ، وربما احتجت إلى الشيء مِن هٰذا ، فتجتمع حولي هٰذه الظباء ، فآخذ حاجتي ، ثم أُرسلها . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٢٤١] .

* * *

(١) كذا في النسخ ، أما في « الصفوة » : (أبو إبراهيم الزهري) .
(٢) **القَعْب** : قدح ضخم غليظ .
(٣) أي : قرص الشمس ، وهو كناية عن أنه كان صائماً .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج : قال السري السقطي رحمه الله تعالىٰ : مكثت أربعين سَنة أسأل الله عز وجل أن يُرِيَني ولياً من أوليائه ، قال : فخرجت إلى الثغر ، فصعدت إلىٰ جبل لُكام ، فبينا أنا أمشي في المحجة ؛ إذ رأيت قوماً جلوساً نحو ثلاثين نفساً مرضىٰ عليهم خلقان ، فسلمت عليهم ووقفت ، وقلت لهم : لأي شيء أنتم جلوس هـٰهنا ؟

فقالوا : نحن من هـٰذه المدينة التي أسفل الجبل ، وإذا كان في كل شهر مثل هـٰذا اليوم في هـٰذا الموضع عند الظهر . . يقبل علينا رجل من هـٰذا الموضع ، فنقوم إليه ، فيدعو الله عز وجل لنا ، فقعدت معهم .

فلما كان الظهر . . أقبل رجل أسمر شديد السمرة عليه مئزر صوف ، فقاموا إليه ، فقرأ علىٰ كل واحد منهم ودعا له ، ثم مضىٰ .

قال : فلحقته ، وقلت له : قف عليَّ رحمك الله تعالىٰ أكلمك ، قال : فالتفت إلي ، وقال : يا سري ؛ لا تعامل غيره سبحانه وتعالىٰ ، فتسقط من عينه ، ثم مضىٰ .

زاد في رواية أخرىٰ : احذره عز وجل ؛ فإنه غيور لا يحب أن يرىٰ في قلب عبده غيره سبحانه وتعالىٰ . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٢٤٢] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال قاسم الجوعي رحمه الله تعالىٰ : خرجت حاجاً علىٰ طريق الشام ، فبينما أنا أسير بالليل ؛ إذ غلطت في الطريق ، فسمعت صيحة ؛ فإذا أنا بجماعة قد أصابهم ما أصابني من الغلط في الطريق ، وقد وقفوا علىٰ رجل من المتعبدين في جبل ، وهو يبكي ، ويقول في بكائه : أترىٰ بكائي نافعي ومنقذَ رقبتي من جرائم أصبتها ؟! أتراك ـ يا سيدي ويا مولاي ـ آخذاً من نفسي بتقصيرها عن واجب حقك وموبخها علىٰ رؤوس الأشهاد بما ضيعت من أمرك ؟!

ثم صاح : واسوأتاه مِن وقوفي بين يديك يا سيداه! فقال له بعض القوم : يا عبد الله ؛ إنا غلطنا في الطريق ، فسلكنا غيرها ، فقال : وأنا أيضاً غلطت في الطريق ، فمَن لي ولكم بالاستقامة علىٰ وجهها ؟!

ثم قال : يا دليل الأدِلاَّء ؛ دُلَّني ودلهم ولا تخزني وإياهم ، قال : فكشف لنا عن الطريق في الحال ، فسلكناها وتركناه واقفاً في موضع عبادته . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٢٥٦ـ٢٥٧] .

* * *

منهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج : قال عبد الله بن أبي نوح ـ وكان من العابدين ـ : لقيت شيخاً في طريق مكة ، فأعجبتني هيئته ، فقلت : إني أحب أن أصحبك ، فقال : أنت وما أحببت ، قال : فكان يمشي بالنهار ، فإذا أمسىٰ . . أقام ، منزلاً كان أو غيره ، ويقوم الليل كله يصلي ، وكان يصوم في شدة ذلك الحر ، فإذا أمسىٰ . . عمد إلىٰ جراب معه ، فأخرج منه شيئاً ، فألقاه في فيه مرتين أو ثلاثاً .

وكان يدعوني فيقول : هلم فأصب مِن هـٰذا ، فأقول في نفسي : ما هـٰذا بمجزيك ، فكيف أشركك فيه ؟! فلم يزل علىٰ ذلك حتىٰ دخلَتْ له في قلبي هيبة عندما رأيت من اجتهاده وصبره .

قال : فبينما نحن في بعض المنازل ؛ إذ رأىٰ حماراً يسوقه رجل ، فقال لي : انطلق فاشترِ هـٰذا الحمار .

فانطلقت وأنا أقول في نفسي : والله ؛ ما معي ثمنه ، ولا أعلم أن معه ثمنه ، فكيف أشتريه ؟!

قال : فأتيت صاحب الحمار وساومته ، فأبىٰ أن ينقصه عن ثلاثين ديناراً ، قال : فجئت إليه وأخبرته ، فقال : استخر الله ، ثم خذه وقل : باسم الله ، ثم أدخِل يدك في هـٰذا الجراب .

ففعلت ذلك ، وقلت باسم الله ، وأدخلت يدي فيه ، وإذا صرة فيها ثلاثون ديناراً لا تنقص ولا تزيد .

قال : فدفعتها إلى الرجل ، فأخذت الحمار وجئت به ، فقال لي : اركبه ، فقلت له : أنت أضعف مني ، فاركب أنت .

قال : فلم يراجعني ، فركب ، وكنت أمشي مع حماره وهو على العادة ، حيث أدركه الليل أقام ، حتىٰ أتينا عُسْفان ، فلقيه شيخ ، فسلم عليه ، ثم تنحيا عني خلوة وجعلا يبكيان ، فلما أرادا أن يتفرقا . . قال صاحبي للشيخ : أوصني ، قال : نعم ؛ أَلْزِمِ التقوىٰ قلبك ، وانصُب ذِكر الموت والمعاد أمامك .

قال : زدني ، فقال : استقبِلِ الآخرة بالحَسَن من عملك ، وباشر عوارض الدنيا بالزهد من قلبك ، واعلم : أن الأكياس . . الذين علموا عيب الدنيا حين عمي أهلها عن عيبها . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

قال : ثم افترقا ، فقلت لصاحبي : مَن هـٰذا الشيخ رحمك الله ؟ فما رأيت كلاماً أحسن من كلامه ، فقال : عبد مِن عبيد الله تعالىٰ .

قال : ثم خرجنا من عسفان حتىٰ أتينا مكة ، فلما انتهينا إلى الأَبْطَح . . نزل عن حماره وقال لي : اثبت مكانك حتىٰ أنظر إلىٰ بيت الله عز وجل نظرة ، ثم أعود إليك إن شاء الله تعالىٰ .

قال : فانطلق وعرض لي رجل ، وقال : أتبيع الحمار ؟ فقلت : نعم ، فقال : بِكَمْ ؟ فقلت : بثلاثين ديناراً ، فقال : قد أخذته منك ، فقلت له : يا هـٰذا ؛ والله ما هو لي ، وإنما هو لرفيق لي ، وقد ذهب إلى المسجد الحرام لعله يجيء الآن .

فبينما أنا معه في الكلام ؛ إذ جاء الشيخ ، فقلت له : إني قد قلت لهـٰذا في مشترى الحمار بثلاثين ديناراً ، فقال : بعه ، فأخذت من الرجل ثلاثين ديناراً ، وجئت بها إليه .

فقال : ما أصنع بها ؟! هي لك فأنفِقْها ، فقلت : لا حاجة لي فيها ، فقال : ألقها في الجراب ، فوضعتها فيه .

قال : ثم طلبنا منزلاً بالأبطح ، فنزلنا فيه ، فقال : جئني بدواة وقرطاس ، فأتيته بهما ، فكتب كتابين ، ثم شدهما ودفع أحدهما إلي .

وقال : انطلق به إلىٰ عبَّاد بن عبَّاد ، فهو نازل في موضع كذا وكذا ، أقرئه مني السلام ومَن حضره من المسلمين .

ثم دفع إلي الكتاب الآخر ، وقال : ليكن هـٰذا معك ، فإذا كان يوم النحر . . فاقرأه إن شاء الله تعالىٰ ، فأخذت الكتابين ، وجئت بالكتاب الذي لعبَّاد بن عبَّاد إليه ، فوجدته قاعداً

يحدث وعنده خلق كثير ، فسلمت ، ثم قلت : رحمك الله تعالىٰ ، هـٰذا كتاب بعض إخوانك إليك ، فأخذ الكتاب ؛ فإذا فيه :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أما بعد يا عبَّاد : فإني أحذرك الفقر يوم يحتاج الناس إلى الذخر ؛ فإن فقر الآخرة لا يسده غنىٰ ، وإن مصاب الآخرة لا تُجبَر مصيبته أبداً ، وأنا رجل من إخوانك قد حضرني أمر الله عز وجل ، وأنا ميت الساعة إن شاء الله تعالىٰ ، فاحضُر غسلي والصلاةَ عليَّ وإدخالي قبري ، والسلام ، وأستودعك الله تعالىٰ وجميع المسلمين ، واقرأ السلام علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وعلىٰ آله وأصحابه ، وأزواجه وذريته ، وسائر المرسلين والنبيين ، وآل كل وسائر الصالحين .

قال : فلما قرأ عبَّاد الكتاب . . قال : يا هـٰذا ؛ أين هـٰذا الرجل ؟ فقلت : بالأبطح ، فقال : أمريض هو ؟ قلت : لا والله ، تركته الساعة صحيحاً ، قال : فقام وجاء الناس معه حتىٰ دخل عليه ؛ فإذا هو مستقبل القبلة ميت مسجىٰ ، عليه عباءة ، فقال لي عبَّاد : هـٰذا صاحبك ؟ قلت : نعم ، تركته الساعة صحيحاً .

قال : فجلس يبكي عند رأسه ، ثم أخذ في تجهيزه والصلاة عليه ، ثم دفنه ، قال : فاجتمع خلق كثير علىٰ جنازته ، ثم مضيت متعجباً ، فلما كان يوم النحر . . أخرجت كتابه الآخر لأقرأه كما أمرني ، ففتحته ؛ فإذا فيه :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أما بعد : فأنت يا أخي نفعك الله بمعروفك يوم يحتاج الناس إلىٰ صالح أعمالهم ، وجزاك الله تعالىٰ عن صحبتنا خيراً ؛ فإن صاحب المعروف يجد لجنبه يوم القيامة مضطجعاً ، وإن حاجتي إليك إذا قضى الله تعالىٰ نسكك أن تنطلق إلىٰ بيت المقدس ، فتدفع ميراثي إلىٰ وارثي . والسلام عليك ورحمة الله تعالىٰ وبركاته .

قال : فقلت في نفسي : كل أمرك ـ رحمك الله تعالىٰ ـ عجَب ، وهـٰذا من أعجب أمرك ، كيف آتي بيت المقدس ؟ ولم تسم لي أحداً ، ولا وصفت لي موضعاً ، ولا أدري إلىٰ مَن أدفعه .

قال : وكان قد خلف قدحاً وجرابه ذلك وعصا كان يتوكأ عليها ، وكنا قد كفناه في ثوبي إحرامه ، ولففت العباءة فوق ذلك .

قال : فلما انقضى الحج . . قلت : والله ؛ لأذهبن إلىٰ بيت المقدس ، فلعلي أن أقع علىٰ وارث هـٰذا الرجل .

قال : فانطلقت حتىٰ أتيت بيت المقدس ، فدخلت المسجد ، فوجدت فيه حِلقاً حِلقاً ، فقراء ومساكين وغير ذلك .

فبينا أنا أدور وأتصفح الناس لا أدري عمن أسأل ؛ إذ ناداني رجل من بعض تلك الحِلَق باسمي : يا فلان ، فالتفت إليه ؛ فإذا شيخ كأنه صاحبي .

فقال لي : هات ميراث أخي فلان ، قال : فدفعت إليه العصا والقدح والجراب ، ثم وليت راجعاً .

قال : فوالله ؛ ما خرجت من المسجد حتىٰ قلت لنفسي : تضرب من مكة إلىٰ بيت المقدس وقد رأيت من الشيخ الأول ما رأيت ، ورأيت من الشيخ الثاني ما رأيت ، ولا تسأل مَنْ هـٰؤلاء القوم ، ولا عن حالهم ، ولا عن أمرهم ؟ قال : ثم رجعت ، وعزمت علىٰ ألاَّ أفارق الشيخ الآخر حتىٰ يموت أو أموت أنا ، قال : فجعلت أدور الحِلَق وأتصفح الناس ، وأجتهد علىٰ أن أعرفه أو أقع عليه . . فلم أقع عليه .

قال : وجعلت أسأل عنه ، وأقمت أياماً ببيت المقدس أطلبه ، وأسأل عنه ، فلم أجد أحداً يدلني عليه ، قال : فرجعت منصرفاً إلى العراق . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٢٧٨ـ٢٨٠] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج : قال محمد بن سهل رحمه الله تعالىٰ : كنت أمشي في طريق مكة ؛ إذ رأيت رجلاً مغربياً علىٰ بغل وبين يديه منادياً ينادي : مَن أصاب همياناً[1] فردَّه.. له ألف دينار .

قال : وإذا بإنسان أعرَجَ عليه أطمار رثة وخلقان ، فجاء إلى المغربي وقال له : أي شيء علامة الهميان ؟ فقال : كذا وكذا ، وفيه بضائع لقوم ، وإني أعطي مِن مالي ألف دينار لمن يرده عليَّ .

فقال ذلك الفقير : مَن يقرأ الكتاب ؟ فقال رجل ـ يقال له : ابن عسكر ـ : أنا أقرأ ، اعدلوا بنا عن ناحية الطريق ، فعدلنا ، فأخرج الفقير الهميان ، وأخرج المغربي كتاباً فيه : جبتان لفلانة ابنة فلان بخمس مئة دينار ، وجبة لفلان بمئة... وجعل يعدد والفقير يخرج من الهميان شيئاً شيئاً ، فيجده كما هو مكتوب في كتاب المغربي ، فدفعه إليه ، فقال المغربي للفقير : خذ هـٰذه ألف دينار التي جعلتها علىٰ وجادة الهميان .

فقال ذلك الفقير الأعرج : لو كانت قيمة الهميان الذي أعطيتك تساوي عندي بَعْرتين.. ما كنت تراه ، فكيف آخذ منك ألف دينار علىٰ ما هـٰذا قيمته عندي ؟! وقام ومضىٰ ، ولم يأخذ منه شيئاً . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٢٨٠] .

* * *

---

(١) الهميان : كيس للنفقة يُشد في الوسط .

ومنهم :

عابد آخر

رضي الله عنه

قال أبو الفرج : قال قاسم الجوعي رحمه الله تعالىٰ : رأيت في الطواف رجلاً لا يزيد علىٰ قوله : إلـٰهي وسيدي ؛ قضيت حوائج المحتاجين وحاجتي لم تقض .

فسألته عن ذلك فقال لي : إنا كنا سبعة أنفس من بلاد متفرقة ، ترافقنا في غزاة ، فاتفق أن العدو ظفر بنا وأخذونا إلىٰ بلادهم ، فجعلونا أسارىٰ ، ثم اعتزل بنا إلىٰ موضع لتضرب رقابنا ، فنظرت إلى السماء ؛ فإذا فيه سبعة أبواب مفتوحة ، وإذا في السماء سبع جَوارٍ من الحور العين ، علىٰ كل باب جارية قائمة ، فكلما قُدّم رجل لتُضرَب عنقُه . . هبطت جارية في يدها منديل إلى الأرض ، فضُرب أعناق ستة وبقيت أنا وبقي باب واحد .

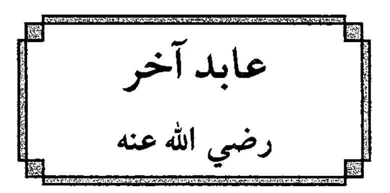
فلما قدِّمتُ لتُضرَب عنقي . . استوهبني منه بعض أصحابه ، فوهبني له ، فسمعتها تقول : أي شيء فاتك يا محروم ؟! وأَغْلقتِ الباب ، فأنا ـ يا أخي ـ متحسر كل الحسرة علىٰ ما فاتني .

قال قاسم الجوعي : أراه أفضلهم ؛ لأنه رأىٰ ما لم يروا ، وتُرك يعمل على الشوق .

انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٢٨٦ـ٢٨٧] .

* * *

ومنهم :



قال أبو الفرج : قال إبراهيم بن أحمد الخواص رحمه الله تعالىٰ : رأيت شاباً في الطواف متزراً بعباءة متشحاً بالأخرىٰ ، كثير الطواف والصلاة ، فوقع في قلبي محبتُه ، وكان قد فُتح عليَّ بأربع مئة درهم ، فجئت بها إليه وهو جالس خلف المقام ، فوضعتها علىٰ طرف عباءته وقلت له : يا أخي ؛ اصرف هـٰذه القطيعات في بعض حوائجك ، فنفض عباءته ، وبذرها في الحصىٰ ، وقال لي : يا إبراهيم ؛ اشتريت هـٰذه الجلسة من الله عز وجل بسبعين ألف دينار ، وأنت تريد أن تخدعني عن الله عز وجل بهـٰذا الوسخ ؟! قال إبراهيم : فما رأيت أعز منه وهو ينظر إلي ، ولا أذل مني وأنا أجمعها ، قال : ثم قام وذهب . انتهىٰ [« الصفوة » ٢٨٨/٤] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج : عن سهل بن عبد الله رحمه الله تعالىٰ قال : كان عبد الله بن صالح رجلاً له سابقة جليلة ، وكان يفر من الناس من بلد إلىٰ بلد ، حتىٰ أتىٰ مكة ، فطال مُقامه بها ، فقيل له : لقد طال مقامك بها ، فقال : لِمَ لا أقيم فيها ولم أر بلداً تنزل فيه الرحمة والبركة أكثر من هـٰذا البلد ؟! الملائكة تغدو وتروح وأنا أرىٰ فيه عجائب كثيرة ، أرى الملائكة يطوفون علىٰ صور شتىٰ لا يقطعون ذلك ، ولو قلت لك كل ما رأيت . . لصغَّرت عقولَ قوم ليسوا بمؤمنين .

فقلت له : أسألك بالله إلا ما أخبرتني ، فقال : ما مِنْ ولي لله عز وجل صحت ولايته . . إلا وهو يحضر هـٰذه البلد في كل جمعة ، ولا يتأخر عنه ، فمقامي [هـٰهنا] لأجل مَن أراه منهم .

ولقد رأيت رجلاً يقال له : مالك بن القاسم جبلي ، وقد جاء ويده غمرة ، فقلت له : إنك حديث عهد بالأكل ، فقال لي : أستغفر الله تعالىٰ فإنني منذ أسبوع لم آكل ، ولـٰكن أطعمت والدتي وأسرعت لألحق صلاةَ الفجر . وبينه وبين الموضع الذي جاء منه سبع مئة فرسخ ، فهل أنت مؤمن ؟ فقلت : نعم ، فقال : الحمد لله الذي أراني مؤمناً موقناً . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/١٧٨] .

قوله : (غمرة) : إنما يقال هـٰذا في اللحم خاصة ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم بالصواب .

* * *

خاتمة

فيما كتب بعض أصحاب الأحوال على المرَقَّعات

قال في « لوامع أنوار القلوب » : روي أن الشبلي رحمه الله كتب علىٰ مُرَقَّعته :

بـاح مجنـون عـامـرٍ بهـواه	وكتمت الهـوىٰ فمـتُّ بـوجـدي
وإذا كـان فـي القيـامـة نـودي	مَن قتيلُ الهوىٰ تقدمت وحدي

وكتب سمنون المحب رحمه الله علىٰ مُرَقَّعته : لو طولب أصحاب الدعاوىٰ بالمعاني . . لافتضحوا .

وكتب يحيى بن علي علىٰ عكازته : الطاعة بعد الطاعة . . علامة القَبول ، والمعصية بعد المعصية . . علامة الرد .

وكتب عتبة الغلام علىٰ صدرته[1] : بئس العبد أنا له ، ونعم الرب هو لي سبحانه وتعالىٰ .

وكتب أبو الحسن المروزي رحمه الله علىٰ سجادته : هـٰذا ميدان الطاعة ، وبساط الخدمة ، ومقعد[2] المناجاة ، وموضع المراقبة ، فاحفظ . . تسلم .

وكتب علي بن نجم رحمه الله علىٰ سجادته : ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ .

وكتب أبو بكر النهاوندي رحمه الله علىٰ مرقعته : عبد مذنب ورب غفور .

وكتب أبو جعفر الهروي رحمه الله : ثق بمولاك واستحيي ممن يراك .

وكتبت شعوانة رحمها الله علىٰ سجادتها : مَن وجد لذة الطاعة كما وجد لذة المعصية . . رجي خيره .

وكتب عليان رحمه الله علىٰ جبته : مَن اجتهد في تحصيل الطاعة كما اجتهد في تحصيل المعصية . . يوشك أن يصل إن شاء الله عز وجل .

---

(١) **الصَّدْرة** : الدرع .

(٢) في نسخة : (بقعة) .

وكتب بهلول رحمه الله علىٰ جبته : ارفع طرف قلبك ، هل ترىٰ غير ربك سبحانه وتعالىٰ ؟!

وكتب صندل الساحلي رحمه الله علىٰ مدرعته : لا تباع ولا توهب .

قال ذو النون : بينما أنا سائر في بعض الأودية ؛ وإذا بحبشي في يده عكازة ، وعليها مكتوب :

من كان همته الدنيا ليجمعها	فسوف يوماً علىٰ رغمٍ يخليها
لا دارَ للمرء بعد الموت يسكنها	إلا التي كان قبل الموت يبنيها
فإن بناها بخير طاب مسكنه	وإن بناها بشر خاب بانيها

فقال ذو النون : فقلت : السلام عليك ، فقال : وعليك السلام يا ذا النون ، فقلت له : من أين عرفتني ؟ فقال : عرفتك بنسيم طِيب المحبة هبَّ ما بين حجب المعرفة .

فقلت له : ما اسمك ؟ فقال : صندل ، فقلت : يا صندل ؛ متىٰ يستوجب العبد خِلَع القرب وأنس المشاهدة ؟ فقال : إذا أفنىٰ كليته في المجاهدات ، وأحياها في المشاهدات . . بقي مع الحي القيوم جل جلاله علىٰ بساط الكفاية ، متقلداً سيف العناية ، طامحاً إلىٰ منازل الولاية ، فذلك قرب لا بعد معه ، وصفاء لا كدر يلحقه ، وأنشأ يقول :

عِرفان حبك في ضمير الخاطِرِ	يختال بين سرائري وضمائري
فإذا تذكرك الفؤاد فإنما	يلقاك سراً في ضمير سرائري
وإذا تشوق ناظري لك طلعةً	لاقىٰ جمالَك في سواد الناظر
فالكل منك بكل قلب ساكن	وإليك منك مواردي ومصادري

قال ذو النون : ثم فارقني ومضىٰ ، رحمه الله تعالىٰ . انتهىٰ .

* * *



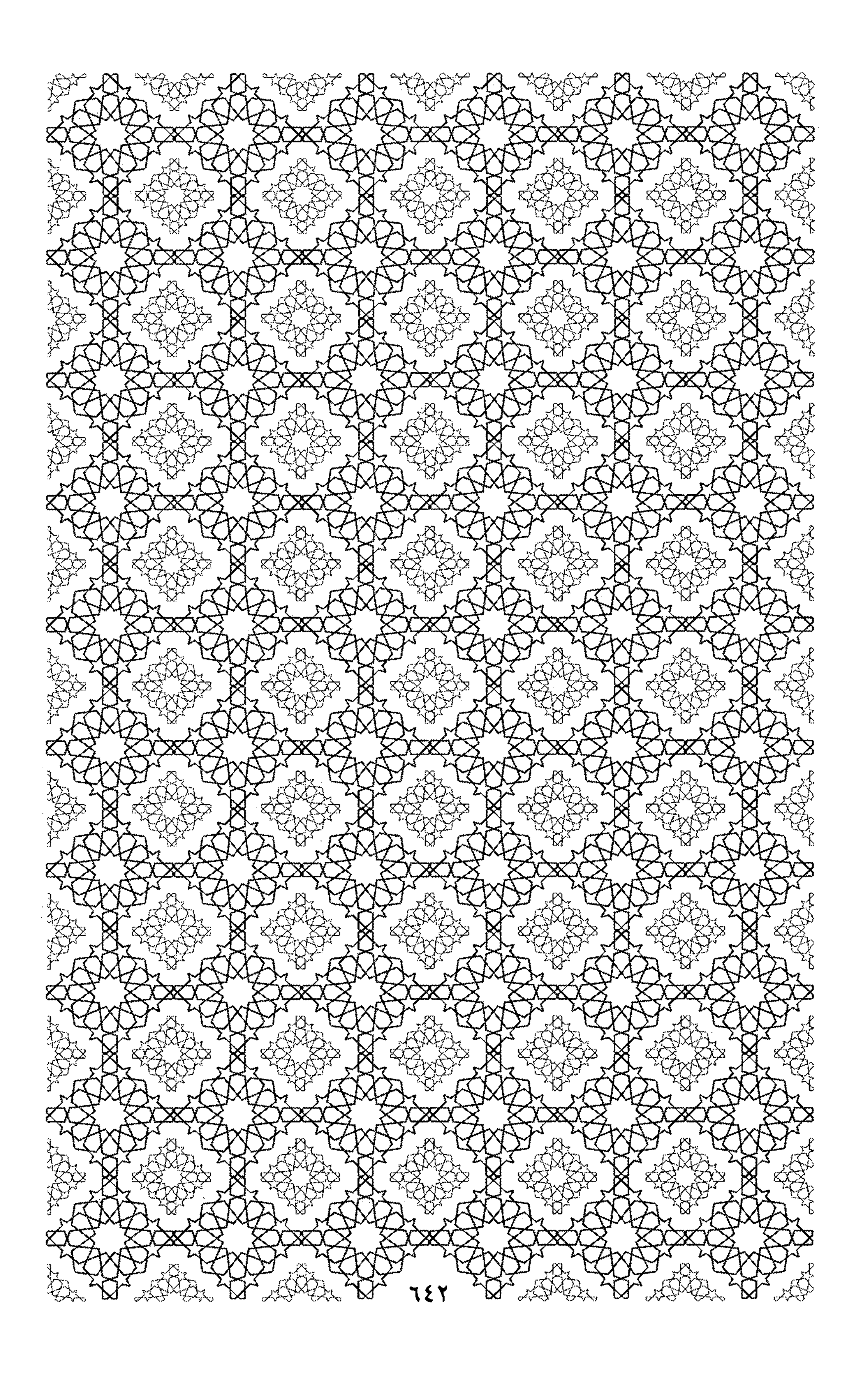
الفصل الثالث

في ترجمة العادل نور الدين الشهيد

قدس الله روحه ونوَّر ضريحه

وبه يختم الكتاب إن شاء الله تعالىٰ(*)

(*) وقد أضاف المؤلف رحمه الله بعد ذلك بعشر سنين ترجمة صلاح الدين الأيوبي فكانت هي خاتمة تراجم الكتاب .



قال الشيخ الإمام العالم العلامة شهاب الدين عبد الرحمـٰن بن إسماعيل بن إبراهيم أبو شامة الشافعي(١) **ـ رحمه الله ـ في كتابه المسمىٰ بـ« الروضتين في أخبار الدولتين »** :

أما الدولة النورية

فسلطانها الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن عماد الدين أتابك ، وهو أبو سعيد زنكي ابن قسيم الدولة آقْ سُنْقر التركي ، ويلقب : زنكي أيضاً بلقب والده .

وقال الحافظ أبو القاسم في « تاريخه » : ولد نور الدين سنة إحدىٰ عشرة وخمس مئة ، ومَلَك حلب سنة إحدىٰ وأربعين وخمس مئة .

ثم خرج غازياً ، وافتتح حصوناً كثيرة ، وأظهر العدل ، وقتل ثلاثة آلاف إفرنجياً ، ووقف بها أوقافاً كثيرة ، وأظهر العدل ، ثم قصد دمشق مرتين ، وفي الثالثة ـ وهي سنة تسع

---

(١) أبو شامة (٥٩٩ـ٦٦٥ هـ) : عبد الرحمـٰن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي ، مؤرخ ، محدث ، باحث ، أصله من القدس ، ومولده في دمشق ، وبها منشؤه ووفاته ، ولي بها مشيخة دار الحديث الأشرفية ، كنيته أبو القاسم ، ولقب بأبي شامة ؛ لشامة كبيرة كانت فوق حاجبه الأيسر ، وله مؤلفات كثيرة . ومما ذكره في مقدمة كتابه « الروضتين » (١/ ٢٥) أنه لخص كتاب تاريخ ابن عساكر ، وأثناء اختصاره مَرَّ بالملوك المتأخرين فأعجبه ما قرأه عن الملك نور الدين فقال (١/ ٢٦) : (ومَرَّ بي فيه من الملوك المتأخرين ترجمة الملك العادل نور الدين ، فأطربني ما رأيت من آثاره ، وسمعت من أخباره ، **مع تأخر زمانه وتغير خلانه** ، ثم وقفت بعد ذلك في غير هـٰذا الكتاب علىٰ سيرة سيد الملوك بعده الملك الناصر صلاح الدين ، فوجدتهما في المتأخرين كالعمرين رضي الله عنهما في المتقدمين ؛ فإن كل ثان من الفريقين حذا حذو من تقدمه في العدل والجهاد ، واجتهد في إعزاز دين الله أيَّ اجتهاد ، وهما مِلِكا بلدتنا وسُلْطانا خطَّتنا ، خَصَّنا الله تعالىٰ بهما ، فوجب علينا القيام بذكر فضلهما . فعزمت علىٰ إفراد ذكر دولتيهما بتصنيفٍ يتضمن التقريظ لهما والتعريف ، **فلعله يقف عليه من الملوك مَنْ يسلك في ولايته ذلك السلوك ، فلا أُبعد أنهما حُجَّة من الله على الملوك المتأخرين** ، **وذكرىٰ منه سبحانه ؛ فإنَّ الذكرىٰ تنفع المؤمنين** ، فإنهم قد يستبعدون من أنفسهم طريقةَ الخلفاء الراشدين ، ومن حذا حَذْوهم من الأئمة السابقين ، ويقولون نحن في الزمن الأخير ، وما لأولـٰئك من نظير ، فكان فيما قدر الله سبحانه من سيرة هـٰذين الملكين إلزام الحجة عليهم ، **بمن هو في عصرهم من بعض ملوك** دهرهم ، فلن يعجز عن التشبه بهما أحد إنْ وفَّقَ الله تعالى الكريم وسدد ، وأخذت **ذلك** من قول أبي صالح شعيب بن حرب المدائني رحمه الله ـ وكان أحد السادة الأكابر في الحفظ والدين ـ قال : إني لأحسب يجاء بسفيان الثوري يوم القيامة حجة من الله تعالىٰ علىٰ هـٰذا الخلق ، يقال لهم : إن لم تدركوا نبيكم . . فقد أدركتم سفيان ، ألا اقتديتم به ؟! وهـٰكذا أقول : هـٰذان حجة على المتأخرين من الملوك والسلاطين فَلِلهِ دَرُّهُما من مَلِكَيْن تعاقبا علىٰ حُسْن السيرة وجميل السريرة) .

وأربعين ـ ملكها ، وحصَّن سورها ، وبنىٰ بها المدارس والمساجد ، ونشر العدل ، ووقف بها أوقافاً كثيرة .

وكان عالماً ، فقيهاً ، ديِّناً ، خيِّراً ، متواضعاً ، عادلاً ، يحب أهل الدِّين ويكرمهم ويَبَرُّهم ، وكان أقرب الناس منه وأحبهم إليه العلماء والفقراء .

وكان في الحروب ثابت القدم ، حسن الرمي ، صليب[1] الضرب ، يتقدم على الجيش في القتال راجياً الشهادة .

وكان يسأل الله عز وجل أن يحشره من بطون السباع وحواصل الطير .

وأقطع أمراء العرب إقطاعات ؛ لئلا يتعرضوا إلى الحاج ، وأمر بإكمال سور المدينة المشرفة صلوات الله وسلامه علىٰ من شرفت به ، وأمر بإجراء العين التي بأُحُد .

وحصل في أسره جماعة من أمراء الإفرنج ، وكسر الروم والأرمن والفرنج علىٰ حارم ، وكان عدتهم ثلاثين ألفاً ، ثم فتح حارم ، وأخذ أكثر قرىٰ أنطاكية ، ثم فتح الديار المصرية ، وكان العدو قد أشرف علىٰ أخذها .

وأظهر السُّنة في أيامه ، وانقمعت البدعة .

وكان حريصاً علىٰ فعل الخيرات ، مقتصداً في الإنفاق ، متحرياً في مطعمه وملبسه ، لم يُسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في غضبه ، أحب ما إليه كلمة حق يسمعها ، أو إرشاد إلىٰ سُنة يتبعها ، قد قَصَرَ ليله ونهاره علىٰ عدل ينشره ، وجهاد يتجهز له ، ومظلمة يزيلها ، وعبادة يقوم بها ، وإحسان يوليه .

وكان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف إلا فيما يخصه من مِلْك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ، ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين .

أحضر الفقهاء واستفتاهم في أخذ ما يحل له من ذلك ، فأخذ ما أفتوه بحله ، ولم يتعَدَّهُ إلىٰ غيره .

ولم يلبس قط ما حرمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضة ، ومَنَع من شرب الخمر ، ومن بيعها في جميع بلاده ، ومن إدخالها إلىٰ بلد ما .

وكانت الخاتون ابنة معين الدين زوجة نور الدين إذا جاء إليها . . يجلس في المكان

---

(١) صليب الضرب : شديده .

المختص به ، لا تتقدم إليه إلا بإذنٍ في أخذ ثيابه عنه ، ثم تعتزل عنه إلى المكان الذي يختص بها .

وينفرد يطالع قصص أصحاب الأشغال ، أو في شيء مما يتعلق بمصالح المسلمين ، وله في الليل قيام كثير ، وله في النهار أوراد يحافظ عليها مع قيامه في مصالح المسلمين .

وكان قد قرر لزوجته مقداراً من النفقة ، فقَلَّتْ عليها النفقة ، ولم يكفها ما كان قرره لها ، فأرسلت إليه تطلب زيادة علىٰ ما كان قرر لها ، وذكرت أن ذلك لا يكفيها ، فلما قيل له في ذلك . . تنكَّر وجهه واحمرَّ ، ثم قال : مِن أين أعطيها ؟ أما يكفيها ما لها ؟ والله ؛ لا أخوض نار جهنم في هواها ، وإن كانت تظن أن هـٰذه الأموال التي بيدي هي لي . . فبئس ما ظنت ، إنما هـٰذه أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم ، ومُعَدَّةٌ لِفَتْقٍ[1] إن كان في الإسلام ، وأنا خازنهم عليها لا أخونهم فيها .

ثم قال : لي بمدينة حمص حصص في ثلاثة دكاكين مِلكاً ، وقد وهبتها إياها ، فلتأخذها ، وكان يَحْصُل منها قدر قليل نحوُ ثلاثين درهماً .

وكان بالجزيرة رجل صالح كثير العبادة والورع ، شديد الانقطاع عن الناس ، وكان نور الدين يكاتبه ويراسله ، ويعتقد فيه ، ويرجع إلىٰ قوله ، فبلغه عن نور الدين أنه يكثر من اللعب بالكرة ، فكتب إليه يقول له : ما كنت أظن أنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل بغير فائدة دينية .

فكتب إليه نور الدين بخط يده يقول له : والله ؛ ما يحملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر ، إنما نحن في ثغر العدو ، وهو قريب منا ، وبينما نحن جلوس نخشىٰ أن يقع صوت ، فنركبَ في الطلب ، ولا يمكننا ملازمة الجهاد ليلاً ونهاراً شتاءً وصيفاً ؛ إذ لا بد من الراحة للجند ، ومتىٰ تركنا الخيل علىٰ مرابطها . . صارت جماماً[2] لا قدرة لها علىٰ إدمان السير في الطلب ، ولا معرفةَ لها أيضاً بسرعة الانعطاف في الكر والفر في المعركة ، فنحن نركبها ونروضها بهـٰذا اللعب ، فيذهب جمامها ، وتتعود سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحروب ، فهـٰذا ـ والله ـ الذي يبعثنا على اللعب بالكرة .

---

(١) **الفَتْقُ** : الخلاف بين الجماعة ، وتصُّدعِ الكلمة ، والمعنىٰ : إن حدث في الإسلام خلاف بذلنا من هـٰذا المال ؛ لجمعِ كلمة المسلمين وتوحيد صفهم .

(٢) **صارت جِماماً** : أي أصابها الفتور .

وحكى الأمير بهاء الدين علي بن السكري ـ وكان خصيصاً بنور الدين ، قد صحبه من الصبا ، وأنس به ـ قال : كنت معه يوماً في الميدان ، والشمس في ظهورنا ، فكلما سرنا . . تقدمنا الظل ، فلما عدنا . . صار ظلنا وراء ظهورنا ، فأجرىٰ فرسه وهو يلتفت وراءه ، وقال لي : أتدري لأي شيء أُجري فرسي وألتفت ورائي ؟ قلت : لا ، قال : قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا تهرب ممن يطلبها ، وتطلب من يهرب منها .

وقد قيل في هـٰذا المعنىٰ :

مَثَـلُ الـرزقِ الـذي تطلبـهُ	مَثَـلُ الظـل الـذي يمشـي معـكْ
أنـت لا تُـدرِكـه إن رُمْتَـه	وإذا أعـرضـتَ عنـه تبعـكْ

وكان نور الدين قد جمع مع الشجاعة كثرة العبادة والخشوع :

ما أحسن المحرابَ في المحرابِ[1]

وكانت أعماله بنيَّةٍ .

وكان عارفاً بالفقه علىٰ مذهب الإمام أبي حنيفة ، ليس عنده تعصب ، بل الإنصاف سجيته في كل شيء .

سمع الحديث وأسمعه ، وجدد للملوك اتِّباع سُنة العدل والإنصاف ، وتَرْك المحرمات ، وألزم أَتْباعه وذويه العدل والإحسان ، فكل مَن اقتدىٰ به من بعده . . كان له نصيب من حسناته ، فإنَّ مَن سَنَّ سنة حسنة . . كان له أجرها وأجر من عمل بها إلىٰ يوم القيامة[2] .

وكان من جملة عدله : أنه لم يترك في بلدة من بلاده مكساً[3] ولا عشراً ولا ضريبة ، بل أزال جميعها من الشام ، والجزيرة ، والموصل وأعمالها ، وديار مصر ، وغيرها في جميع مملكته .

---

(١) هـٰذا صدر بيت وعجزه : جمع الشجاعة والخشوع لربه .
والمحراب الأولىٰ : المراد بها الرجل الشديد الحرب الشجاع ، **والثانية** : المكان المعد للعبادة في المسجد أو نحوه .

(٢) إشارة إلىٰ ما أخرجه مسلم (١٠١٧) : عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلّم قال : « من سن في الإسلام سنة حسنة فعُمِل بها بعده . . كُتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن في الإسلام سنةً سيئةً فعُمِل بها بعده . . كُتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء » .

(٣) **المكس** : الضريبة التي تؤخذ ممن يدخل البلد من التجار والفلاحين على البضائع القادمين بها .

وكان يسمع شكوى المظلوم ، ويتولىٰ كشف حاله بنفسه ، ولا يَكِلُ ذلك إلىٰ حاجب ولا أمير ولا غيره .

لا جَرَم سار ذِكره شرقاً وغرباً .

وكان واقفاً عند أوامر الشرع ، معظماً لحرماته ، ويقول : نحن شِحَنٌ[1] له .

واتفق أنه كان يوماً يلعب بدمشق بالكرة ، وأنه التفت فرأىٰ رجلاً يحدث آخر ، ويومىء بيده إليه ، فأرسل إليه يسأله عن حاجته ، فقال : لي مع الملك العادل حكومة ، وهـٰذا غلام القاضي ليُحضِرَه إلىٰ مجلس الحكم العزيز بسبب المِلْك الفلاني ، فعاد إليه الرسول ولم يتجاسر أن يعرِّفه ما قال ذلك الرجل ، فقال له : قل وما عليك في ذلك ، إنما أنت مخبر ، فذكر له مقالة الرجل ، فألقى الجوكان[2] من يده مسرعاً وقال : قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ ، سمعاً وطاعة لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلّم .

ثم خرج من الميدان ، وسار إلى القاضي ، وأرسل إليه يقول له : إنني قد جئت مُحاكَماً ، فاسلك معي مثل ما تسلك مع غيري .

وكان القاضي يومئذ كمال الدين الشهرزوري ، فلما حضر نور الدين . . ساوىٰ بينه وبين خصمه وحاكمه ، فلم يثبت علىٰ نور الدين حق ، وثبت المِلك له .

فقال نور الدين حينئذ للقاضي ومن حضره : هل ثبت له عندي حق ؟ قالوا : لا ، قال : فاشهدوا علىٰ أني قد وهبت له المِلك الذي قد حاكمني عليه ، وهو في حل منه ، وقد جعلته له دوني ، وأنا كنت أعلم أنه لا حق له عندي ، وإنما حضرت معه تعظيماً لحرمات الشرع ، ولئلا يظن بي أني ظلمته ، فحيث ظهر أن الحق لي . . فقد وهبته له .

واستدعي نور الدين أيضاً مرة أخرىٰ بحلب إلىٰ مجلس الحكم بنفسه أو نائبه ، فدخل حاجبه عليه متعجباً ، وأعلمه أن رسول الحاكم بالباب ، فأنكر عليه تعجبه وقام مسرعاً ، فوجد في أثناء طريقه ما منعه من العبور مِن حفر جُبٍّ في بعض الحشوش ، واستخراج ما فيه ، فوكَّل مِن ثَم وكيلاً ، وأشهد عليه بالتوكيل ورجع .

---

(١) **الشِّحن** جمع شحنة ، وهي : الجماعة التي يقيمها السلطان في بلدٍ ما لضبطه .

(٢) **الجوكان** : عصا معقوفة يلعب بها السلطان في قذف الكرة ، وهي من الرياضات التي كان يمارسها سلاطين الدولة النورية والأيوبية والمملوكية .

وكان من جملة عدله : أنه لم يكن يعاقب على الظنة والتهمة ، بل علىٰ وفق الشرع الشريف بطلب البينة على المتهم ، فإن قامت البينة الشرعية . . عاقب العقوبة الشرعية من غير تعد ولا مجاوزة عليها .

وقامت بهـٰذا الفعل والقصد الجميل بلاده كلها مع سعتها ، وقلَّ المفسدون ببركة العدل واتباع أوامر الشرع الشريف ، واندفع عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولايته ، مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة .

وحكىٰ قاضي القضاة بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم : أن نور الدين كان في كل سَنة في شهر رمضان يطلب من الشيخ عمر المَلاَّء شيئاً يفطر عليه ، فكان الشيخ عمر يرسل إليه الأكياس فيها الفتيت والرُّقَاقُ[1] وغير ذلك ، فكان نور الدين يفطر عليه ، وكان إذا قدم الموصل . . لا يأكل إلا من طعام الشيخ عمر الملاء .

وكان قد أمر نوابه في جميع بلاده ألا يعملوا شيئاً إلا بالشرع الشريف ، وهو الذي يأمر به القضاة .

وكان يقول لقاضي الموصل ولنائبه أن يأتمروا بما يقوله الشيخ عمر الملاء ؛ لعلمه وصلاحه ، فكان النائب بالموصل لا يعمل شيئاً بالسياسة ، ويطلب الشحنكية[2] .

فجاء أكابر الدولة وقالوا للنائب : قد كثر الدُّعَّار[3] وأرباب الفساد ، وهـٰذه الأشياء لا تجيء إلا بالقتل والصلب ، فلو كتبت إلىٰ نور الدين تستأذنه في ذلك .

فقال : أنا لا أجسر أن أكتب إليه في هـٰذا المعنىٰ ، ولـٰكن قولوا للشيخ عمر يكتب إليه ، فحضروا عنده ، وسألوه في ذلك ، وأخبروه بأن هـٰذه الأشياء لا تقوم إلا بالقتل والصلب ، وتحتاج إلىٰ نوع سياسة ، وقالوا : إذا أُخذ مال إنسان في البَرِّية . . من يجيء يشهد له ؟!

فكتب الشيخ عمر إلىٰ نور الدين وقال : إن الدُّعَّار والمفسدين وقطاع الطريق قد كثروا ، ويحتاج هـٰذا إلىٰ نوع سياسة ، ومثل هـٰذا لا يجيء إلا بقتل وصلب وضرب ، وإذا أُخذ مال الإنسان في البرِّية . . من يجيء يشهد له؟! فلما وصل إليه الكتاب . . قلبه وكتب علىٰ ظهره :

---

(١) **الفتيت والرقاق** : من أنواع الخبز ، فالأول ما فُتَّ من الخبز وتكسر ، والثاني : الخبز المنبسط الرقيق .

(٢) **الشحنكية** : طائفة من المحاربين مهمتهم حراسة البلد ومنشآتها ، يرأسهم الشِّحنة ؛ أي : رئيس الشرطة أو العسس .

(٣) **الدُّعار** : جمع داعر ، وهو : المفسد في الأرض بتمرده وعدم قبوله للموعظة .

إن الله سبحانه وتعالىٰ خلق الخلق ، وهو أعلم بمصلحتهم ، وشرع لهم شريعة ، وعلم سبحانه وتعالىٰ أن مصلحتهم تحصل فيما شرعه لهم علىٰ وجه الكمال فيها ، ولو علم سبحانه وتعالىٰ أن على الشريعة زيادة في المصلحة. . لشرعه لهم ، فما لنا حاجة إلىٰ زيادة علىٰ ما شرعه الله تعالىٰ .

قال : فجمع الشيخ عمر المَلاَّء أهل الموصل ، وأقرأهم الكتاب ، وقال : **انظروا كتاب الزاهد إلى الملك ، وكتاب الملك إلى الزاهد** .

وكان هٰذا الشيخ عمر يعرف بعمر الملاء ، سمي بذلك لأنه كان يملأ تنانير الجص بأجرة يتقوَّت بها ، وكان جميع ما عليه من الكسوة عاريَّة ؛ لئلا يجري له مِلك في شيء ، وكان له مال وهبه لأحد مريديه ، فكان ذلك المريد يتجر فيه لنفسه ، وإذا ورد على الشيخ ضيف. . جاء ذلك المريد بشيء لأجل ذلك الضيف من المأكل والملبس علىٰ حسَب ما يكون .

وكان الشيخ عمر له معرفة تامة بالأحكام الشرعية من الكتاب والسُّنة ، وكان العلماء والفقهاء والملوك يزورونه ويتبركون به وبدعائه ، وينتمون إليه .

وكان نور الدين من أخص أصحابه ، يستشيره في أموره ، ويكاتبه في مصالح أمور المسلمين .

وكان بالموصل خربة واسعة قد شاع عنها أنه ما شرع أحد في عمارتها إلا توفي ولم يتم عمارتها ، فأشار الشيخ عمر الملاء علىٰ نور الدين بشرائها وبنائها جامعاً ، فاشتراها وبناها ، فجاءت جامعاً عظيماً ، أنفق فيه أموالاً كثيرة ، ووقف عليه ضَيعة من ضِياع الموصل .

وكان الشيخ عمر هو الذي تولىٰ صرف أجرة الصُّنَّاع فيه ، ورتب فيه خطيباً ومُدرِّساً ، وكان قد قدم في تلك السَّنة عماد الدين النوقاني الشافعي من أصحاب محمد بن يحيىٰ ، فجعله مدرساً في ذلك الجامع ، وكتب له منشوراً بذلك .

ومِن عدله : أنه بنىٰ بدمشق داراً للكشف ، وسماها : دار العدل ، وكان سبب بنائها أنه لما طال مقامه بدمشق وأقام بها أمراؤه ، وفيهم أسد الدين شيركوه أكبر أمرائه ، وكان الأمراء قد اقتنوا الأملاك ، وتعدىٰ كل واحد منهم علىٰ مَن يجاوره في قرية أو غيرها ، فكثرت الشكاوي إلى القاضي كمال الدين ، فأنصف بعضهم من بعض ، ولم يقدِر على الإنصاف من أسد الدين شيركوه ، فأنهى الحال إلىٰ نور الدين ، فأمر ببناء دار العدل .

فلما سمع أسد الدين بذلك. . أحضر نوابه جميعهم ، وقال لهم : اعلموا أن نور الدين

ما بنىٰ هـٰذه الدار إلا بسببي وحدي ، وإلا . . فمَن هو الذي يمتنع على القاضي كمال الدين ؟! ووالله ؛ لئن أحضرت إلىٰ دار العدل بسبب أحد منكم . . لأصلبنه ، فامضوا إلىٰ كل من كان بينكم وبينه منازعة ، فأعطوه وأرضوه بأي شيء أمكن ، ولو أتىٰ ذلك علىٰ جميع ما بيدي .

فقالوا له : إن الناس إذا علموا ذلك . . اشتطُّوا في الطلب ، فقال : خروج أملاكي عن يدي أسهل عليَّ مِن أن يظن نور الدين أني ظالم ، أو يساوي بيني وبين آحاد العالم في الحكومة ، فخرجوا مِن عنده ، وفعلوا ما أمرهم به ، وأرضوا خصماءهم ، وأشهدوا عليهم .

فلما فرغت دار العدل . . جلس نور الدين فيها لفصل الخصومات والمحاكمات ، وكان يجلس في الأسبوع يومين ، وعنده القاضي والفقهاء ، وبقي ذلك مدة ، فلم يحضر إليه أحد يشتكي مِن أسد الدين ، فقال نور الدين للقاضي : ما جاءنا أحد يشتكي مِن أسد الدين ، فعرَّفه القاضي الحال ، فسجد نور الدين شكراً لله عز وجل وقال : الحمد لله الذي [جعل] أصحابنا يُنصِفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا .

وكان إنما بعثه علىٰ ذلك صِدْقُه في عدله وحسن نيته .

وأما شجاعته : فقد كانت النهايةُ إليه فيها ؛ فإنه كان أصبر الناس في الحروب ، وأحسنَهم مكيدة ورأياً ، وأتمهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم ، وبه كان يضرب المثل في ذلك .

وقالوا : إنه لم يُرَ علىٰ ظهر الفرس في زمنه أحسنُ منه ، كأنما خلق عليه ، لا يتحرك ولا يتزلزل .

وكان من أحسن الناس لعباً بالكرة ، وأقدرِهم عليها ، لم يرتفع جوكانه فوق رأسه قط ، وكان ربما ضرب الكرة فتجري الفرس ، فيتناول الكرة بيده من الهواء ويرميها إلىٰ آخر الميدان .

وكانت يده لا تُرىٰ والجوكان فيها ، بل تكون في كم قبائه استهانة باللعب .

وكان إذا حضرت الحرب . . أخذ قوسين وتَرْكَشَين[1] ، وباشر القتال بنفسه .

---

(١) تَرْكَشَين ، مفردها : تركاش ، وهي لفظة فارسية معناها : الجعبة .

وكان يقول : طالما تعرضت للشهادة فلم أدركها ، فسمعه يوماً من الأيام قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي وهو يقول ذلك ، فقال له : بالله لا تخاطر بنفسك وبالإسلام وبالمسلمين ؛ فإنك عمادهم ، ولئن أُصِبتَ ـ والعياذ بالله تعالىٰ ـ في معركة . . لا يبقىٰ أحد من المسلمين إلا أخذه السيف وأُخذت البلاد ، فقال : يا قطب الدين ؛ ومَن محمود حتىٰ يقال له هـٰذا ؟! قبلي مَن حفظ البلاد والإسلام والمسلمين ، وذلك هو الله الذي لا إلـٰه إلا هو رب العالمين سبحانه وتعالىٰ ، وكان يكثر إعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج خذلهم الله تعالىٰ .

وأكثر ما ملكه من بلادهم إنما كان بجودة الرأي وحسن السلوك ، بعد إقدار الله تعالىٰ له علىٰ ذلك ، وما زال يخدع ملكَ الروم ويستميله حتىٰ جعله في خدمته سفراً وحضراً ، وكان يقاتل به الفرنج ويقول : إنما حملني على استمالته ؛ لأن بلاده حصينة وعرة المسلك ، وقلاعه منيعة ، وليس لنا إليها طريق ، وهو يخرج منها إذا أراد فينال من بلاد الشام ، فلما رأيت الحال هـٰكذا . . بذلت له شيئاً من الإقطاع علىٰ سبيل التأليف حتىٰ أَجاب إلىٰ طاعتنا وخدمتنا ، وساعدنا على الفرنج .

وكان إذا توفي واحد من أجناده وخلَّف ولداً . . أقر الإقطاع عليه ، فإن كان الولد كبيراً . . استقل بنفسه ، وإن كان صغيراً . . رتب معه رجلاً عاقلاً يثق إليه إلىٰ أن يكبر ، فكان الأجناد يقولون : هـٰذه الإقطاعات أملاكنا يرثها الولد عن الوالد ، فنحن نقاتل عليها ، فكان ذلك سبباً عظيماً للصبر في المشاهد والحروب .

وكان يُثبِت أسماء أجناد كل أمير في ديوانه ، وسلاحَهم وما لهم من الإقطاع عنده ؛ خوفاً من حرص بعض الأمراء وشُحه ؛ لئلا يقتصر علىٰ بعض العُدد ، ولئلا ينقص من إقطاعهم شيئاً .

وأما فعله في بلاد الإسلام من المصالح مما يعود نفعه على المسلمين . . فكثير ، من ذلك : أنه بنىٰ أسوار [مدن] الشام جميعها وقلاعها ، حلب وحمص وحماة ودمشق ، وغيرها من القلاع والحصون ، وبنى المدارس بها أيضاً ، وأخرج من الأموال في ذلك شيئاً كثيراً ، وبنى الجوامع في جميع بلاده ، وجامعه في الموصل إليه النهاية في الحسن والإتقان .

ومِن أحسن ما عمل فيه : أنه فوض أمر عمارته والصرف في جميع آلاته

وآلىٰ[1] جميعَ صُنَّاعه إلى الشيخ عمر الملاء ، وكان من الصالحين ، فقيل له : إن هـٰذا لا يصلح لمثل هـٰذا العمل ، فقال : إذا وليت العمل بعض الأجناد أو الكتاب . . أعلم أنه يَظلم في بعض الأوقات ، وما أحب أن يقوم الجامع ولا غيره بشيء من الظلم ، وإذا ولَّيت هـٰذا الشيخ . . غلب علىٰ ظني أنه لا يظلم ، فإذا ظلم . . كان الإثم عليه لا عليَّ .

وبنى البيمارستانات في البلاد ، ومِن أعظمها البيمارستان الذي بدمشق ؛ فإنه كثير الخرج جداً ، وقد قيل : إنه لم يجعله على الفقراء فقط ، بل علىٰ كافة المسلمين مِن غني وفقير ، وكان سبب بنائه وما وقفه عليه . . بعض كرامات اتفقت له ، وذلك أن نور الدين وقع في أسره بعض ملوك أكابر الفرنج ، فدفع ذلك الأسير في فدائه مالاً جزيلاً ، فشاور نور الدين الأمراء ، فكلهم أشاروا بعدم إطلاقه ؛ لما كان فيه من الضرر على المسلمين وما صنع معهم من القبيح .

فلما تفرق الأمراء . . استخار اللهَ تعالىٰ نورُ الدين في أخذ الفداء أو قتله ، فمال قلبه إلىٰ إطلاقه ، فأطلقه ليلاً ، وتسلم منه ذلك المال ؛ لئلا يعلم الأمراء أنه أطلقه ، فيوم بلوغ الإفرنجي إلىٰ بلاده ومأمنه . . مات ، ووصل الخبر إلىٰ نور الدين بذلك ، فطلب الأمراء وأعلمهم بذلك ، وكان ذلك مِن صدق نيته وحسن طويته للمسلمين .

وجمع الله عز وجل لهم الفداء وموت ذلك اللعين ، فعمد نور الدين إلىٰ ذلك المال ، وبنىٰ به البيمارستان ، واشترىٰ منه ما أوقفه عليه .

ومن جملة أفعاله : أنه بنى الخانات في الطريق وقاية لأموال الناس ، وليستظلوا من الحر والبرد والمطر .

وبنىٰ أيضاً الأبراج على الطرق بين المسلمين والفرنج ، وجعل فيها مَن يحفظها ، ومعهم الطيور الهوادي ، فإذا رأوا من العدو واحداً . . أرسلوا الطيور ، فأخذ الناس حذرهم ، فاحتاطوا لأنفسهم ، فلم يبلغ العدو منهم غرضاً .

وبنى الرُّبُط[2] والخانقاهات[3] في جميع بلاده للصوفية ، ووقف عليها الوقوف الكثيرة ،

---

(١) آلى الأمير رعيته أي : ساسها ، فالمعنى المراد هنا : أن نور الدين ترك سياسة الصُنَّاع للشيخ عمر الملاء .

(٢) **الرُّبط** : جمع رِباط ، والرباط دار للمسلمين يقيمون فيها لأغراض حربية ودينية في المناطق الفاصلة ما بين الدولة الإسلامية وغيرها من الدول الأخرىٰ ، وذلك لدفع الغارات ، وأثناء الاستقرار والسلم . . كانت تتحول هـٰذه الربط إلىٰ أماكن للعبادة والدروس من قبل المجاهدين الذين كانوا في غالبيتهم من الجماعات الصوفية .

(٣) **الخانقاهات** : مفردها خانقاه ، وهي : لفظة فارسية معناها : المكان الذي يجتمع فيه جماعة الصوفية ويقومون =

وكان يُحضر مشايخهم عنده ، ويقربهم ، ويدنيهم ، ويتواضع لهم ، ويَصِلُهم بصلات كثيرة ، وإذا أقبل أحدهم إليه . . يقوم له من حين يراه ، ويجلسه معه علىٰ سجادته ، ويُقبل عليه بحديثه ، وكذلك كان يفعل مع العلماء ، ويعاملهم بالتعظيم والتوقير والاحترام ، ويجمعهم عنده للبحث والنظر ، وقصدوه من البلاد الشاسعة من خراسان وغيرها .

وبالجملة : كان أهل الدِّين عنده في أعلىٰ محل وأعظمه ، وكان أمراؤه يحسدونهم علىٰ ذلك ، وكانوا يقعون فيهم عنده ، فينهاهم أشد النهي ، وإذا نقلوا عن إنسان عيباً . . يقول : ومَن المعصوم ؟! وإنما الكامل مَن تُعَد ذنوبه .

وكان نور الدين قد استقدم قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي من خراسان ، فلما قدم . . بالغ في إكرامه والإحسان إليه ، فحسده بعض الأمراء ، ونال منه يوماً عند نور الدين ، فقال له : يا هـٰذا ؛ إن صح عنه ما تقول . . فله حسنة تُغفر له بها كل زلة ذكرتها ، وهي العلم والدِّين ، وأما أنت وأصحابك . . ففيكم أضعاف ما ذكرتَ ، وليست لكم حسنة تغفر بها ، ولو عقلتَ . . لشغلك عيبك عن غيرك ، وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم ، أفلا أحتمل سيئة هـٰذا ـ إن صحت عنه ـ مع وجود حسنته ، علىٰ أني لا أصدقكم فيه في الذي تقولون عنه ، وإن عدت ذكرتَه أو غيره بسوء . . لأؤدبنك

وبنىٰ بدمشق داراً للحديث ، ووقف عليها أوقافاً كثيرة ، وهو أول من بنىٰ داراً للحديث في دمشق فيما قيل .

وبنىٰ في كثير من بلاده مكاتب للأيتام ، وأجرىٰ عليهم وعلىٰ معلميهم الجرايات .

وبنىٰ مساجد كثيرة ، ووقف عليها وعلىٰ من يقرأ بها .

وحكىٰ مَن هو عارف بأعمال الشام : أن نور الدين وقف إلىٰ وقتنا هـٰذا ـ وهي سنة ثمان وخمسين وخمس مئة[(١)] ـ ما يبلغ ريعه كلَّ شهر تسعة آلاف دينار صورية ، جميع ذلك مِلك صحيح شرعي ، ملكه بطريقه الشرعي ، ثم وقفه علىٰ جهات البر والخير .

وأما وقاره وهيبته : فكان ـ كما قيل ـ شديداً من غير عنف ، رفيقاً من غير ضعف ،

= بتلاوة الأذكار والأوراد ، ففيها أجنحة للعبادة ، وأخرىٰ للطعام ، وغيرها للنوم .

(١) كذا في النسخ ، وفي « الروضتين » (١/ ٤٨) : ثمان وست مئة ، نقلاً عن ابن الأثير في كتابه « الباهر » ، والذي في « الروضتين » هو الصواب ؛ لأن ابن الأثير ولد سنة (٥٥٥هـ) وتوفي سنة (٦٣٠ هـ) فيستحيل أن يكون روىٰ هـٰذا الخبر وهو في الثالثة من عمره ، والله أعلم .

اجتمع له ما لم يجتمع لغيره من ضبط ناموس المُلك[1] مع أمرائه وأجناده ، فإنه كان يلزمهم القيام بوظائف الخدمة ، ولم يجلس عنده أمير إلا بإذنه ، إلا أمير واحد ، وهو نجم الدين أيوب ، والد صلاح الدين يوسف ، وأما من عداه كأسد الدين شيركوه وغيره . . فإنهم كانوا يقفون قياماً إلىٰ أن يأذن لهم بالجلوس ، وكان مع ذلك إذا دخل عليه العالم أو الفقيه أو الصوفي الفقير . . يقوم له ، ويمشي بين يديه ، ويجلسه إلىٰ جانبه ، كأنه أقرب الناس إليه .

وإذا أعطىٰ أحداً منهم شيئاً . . يقول : هـٰؤلاء لهم حق في بيت المال ، فإذا قنعوا منا ببعضه . . فلهم المنة علينا ، كل ذلك تسكيناً لقلوب الأمراء وتألفاً لهم .

وكان مجلسه لا يذكر فيه إلا العلم ، وأحوال الصالحين ، والمشورة في الجهاد ، وما يتقرب به إلى الله عز وجل في يوم المعاد .

وكانت أمور الدِّين في زمانه محفوظة لا يجسر أحد أن يتظاهر ببدعة ، وكان يقول : نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق ، والأذى الحاصل منهما قريب ، أفلا نحفظ أمور الدِّين ، ونمنع أهل البدع ، ونحمل الناس على الكتاب والسُّنة إذ هُما الأصل ؟!

وفي سَنة تسع وستين وخمس مئة ـ وهي السنة التي توفي فيها نور الدين ـ أكثر من الأوقاف والصدقات وعمارة المساجد ، وأزال جميع ما فيه شبهة من الأموال ، ولم يُبْقِ سوى الجزية والخراج ، وأمر بكَتْب مناشير بذلك إلىٰ جميع بلاده ، وكتب ألف منشور ، وحُسب ما تصدق به على الفقراء في تلك الأشهر ، فزاد علىٰ ثلاثين ألف دينار .

وكانت عادته في الصدقة : أن يحضر جماعة من أماثل البلد من أهل الخير من كل محلة ، ويسألهم عمن يعرفون في جوارهم من أهل الحاجة والفقر ، ثم يدفع إليهم الصدقة ، فيصرفها أولـٰئك علىٰ ذوي الحاجات ، وكانت نفقته في خاصة نفسه في كل شهر من جزية أهل الذمة مبلغ ألفي قرطيس[2] يصرفه في الكسوة والنفقة وما يحتاج إليه ، حتىٰ أجرة الخياطة وجامكية[3] الطباخ ، ويستفضل منه ما يتصدق به في آخر الشهر .

وأما ما يهدىٰ إليه من الملوك . . فكان يضعه في بيت المال للمسلمين ، أو يودعه عند

---

(١) **ناموس الملك** : قانونه وشريعته .

(٢) **قرطيس** : مفرد قراطيس ، وهي : نقود فضية أو نحاسية ، متداولة في العصر الأيوبي ، أصلها قضبان من الفضة أو النحاس ، تقص فتصبح نقوداً .

(٣) **جامكية** : لفظ فارسي معناه : مرتب الجندي أو الخادم ، أطلق في العصر العثماني على الأعطيات والمرتبات الشهرية أو السنوية التي كان يتقاضاها الجند ، يجمع علىٰ جوامك .

القاضي ، فإذا اجتمع . . صرف ثمنه في مصالح المسلمين من عمارة المساجد والقناطر وغير ذلك .

ولو ذكرنا جميع أوقافه وصدقاته في كل بلد . . لطال الكتاب ، لكن نذكر طرفاً يسيراً .

فمن ذلك : عمارة أسوار البلاد والرُّبُط والمدارس على اختلاف المذاهب .

وكان يواظب علىٰ مجالس الوُعَّاظ ، ونصب لهم الكرسي في القلعة ، وكان الواعظ الفقيه النيسابوري قطب الدين [أكبرَهم] ، ثم قدم من بغداد ابن الشيخ أبي النجيب الأكبر ، وكان يعظ في كل أسبوع ، وكذلك قدم من أصبهان الفقيه شرف الدين عبد المؤمن ، وكان يعظ أيضاً .

وكان نور الدين يلازم مجالسهم ، ويرفع يديه مع العامة ، ويغتنم تلك الفوائد من القلوب العامرة بالتقوىٰ ، ويا لها من أساس ما أعظمه ، ومن كنز ما أفخره .

وقد حكى الحسن بن محمد ابن هبة الله : أنه حضر مع عمه الحافظ أبي القاسم مجلس نور الدين لسماع الحديث ، فمر في أثناء حديث أن النبي صلى الله عليه وسلّم خرج متقلداً سيفاً ، وكان الجند لا يربطون السيوف علىٰ أوساطهم ، فلما كان من الغد . . خرج نور الدين متقلداً سيفاً وكذلك جميع العسكر ؛ لأنه كان كثير الاتباع للسُّنة الشريفة .

وكان نور الدين قد أمر بإسقاط جميع ألقابه في الدعاء على المنابر .

وقال له وزيره خالد ابن القَيْسَراني : أنا رأيت في المنام أني أغتسل ببابك ، فلما قص عليه الرؤيا . . فكر ساعة ، ثم أمره بإسقاط جميع المكوس وقال له : هـٰذا تفسير منامك ، اكتب أني قد أمرت بإسقاط جميع المكوس .

ثم إنه لما أبطل جميع المكوس . . أرسل إلى البلاد ، وأمر الخطباء بأن يسألوا من الناس أن يحاللوه في المدة الماضية ، وقال لهم : ما أخرجناها إلا في جهاد عدو إسلام ؛ يعتذر إليهم بذلك .

وكان له وِرد من الليل ، فإذا تهجد وأراد الدعاء . . يقول : اللهم ؛ ارحم المَكَّاس العَشَّار .

وكتب ورقة إلىٰ وزيره بأن يكتب صورةَ ما يدعىٰ له به على المنابر ، وأن الخطيب لا يقول ما ليس فيه ؛ صيانة [له] عن الكذب .

فكتب الوزير الجواب ، وصورته :

أعلى الله تعالىٰ قدر المولىٰ في الدارين ، ويلغه آماله في نفسه وذريته ، وختم له بخير بمنه وجوده .

ووقف الخادم على الرقعة وتضاعف دعاؤه وابتهاله إلى الله عز وجل ، وقد رأى الخادم ما يَعرضه على العَلَم الأشرف زاده الله تعالىٰ شرفاً ، وهو أن يقول الخطيب على المنبر : اللهم ؛ أصلح عبدك الفقير إلىٰ رحمتك ، الخاضع لهيبتك ، المعتصم بقوتك ، المجاهد في سبيلك ، المرابط لأعداء دينك ، أبا القاسم محمود بن زنكي ناصر أمير المؤمنين . فإن هـٰذا جميعه لا يدخله كذب .

والرأي في ذلك أسمىٰ وأعلىٰ إن شاء الله تعالىٰ ، فلما وقف نور الدين على الورقة . . كتب علىٰ رأسها بخطه : مقصودي ألاَّ يُكْذَب على المنبر ، وإذا كنت أنا بخلاف كلّ ما يقال . . كيف أفرح بما لا أنا عليه ؟! قلة عقل عظيم .

الذي كتبتَ جيدٌ هو ، اكتب به نُسَخاً حتىٰ نرسلها إلىٰ جميع البلاد .

وكتب في آخر الرقعة : ثم يبدأ بالدعاء : اللهم ؛ أره الحق حقاً ووفقه لاتباعه ، وما أشبه ذلك .

وكان نور الدين يوماً في الميدان ، فأرسل يطلب ابن أبي عصرون في جماعة عيَّنَهم ، فلما حضروا . . أشهدهم أنه قد وقف جميع الحوانيت التي له علىٰ سور حمص ، فلما شهدوا . . التفت إليهم وقال : سألتكم بالله تعالى الذي لا إلـٰه إلا هو ؛ أي شيء عرفتموه من أبواب الخير والبر دلوني عليه وأشركونا في الثواب .

فقال شرف الدين ابن أبي عصرون : ما ترك المولىٰ شيئاً من أبواب الخيرات . . إلا وقد أتىٰ به فيما علمت .

واتفق أنه في ليلة من الليالي وجدوه مفكراً فكراً عظيماً ، فعجب الحاضرون من ذلك ، ثم سألوه عن سببه فقال : والله ؛ إني أفكر في وال وليته أمراً من أمور المسلمين فلم يعدل فيهم ، أو فيمن يظلم من الأمراء والأجناد والأعوان ؛ فإن ذلك كله أُسأَل عنه ، وأخاف المطالبة به ، فبالله عليكم ؛ عرفوني بجميع ما يصل إليكم من ذلك ، وكل قصة ترفع عرفوني بها .

قالوا : وكان الفرنج ـ خذلهم الله تعالىٰ ـ يقولون : هـٰذا نور الدين له عند الله تعالىٰ سريرة ؛ فإنه ما ينتصر علينا بكثرة الأجناد والعساكر ، إنما ينتصر علينا بالدعاء وقيام الليل ؛

فإنه يصلي بالليل ويسأل الله تعالىٰ ، فيستجيب له دعاءه وما يرده خائباً ، فينتصر علينا .

ولقد حكي : أن نور الدين غزا في بعض الغزوات وانكسر ، وكان الشيخ الصالح برهان الدين البلخي في ذلك الوقت ، فلما بلغه كسر المسلمين . . قال : أتريدون أن تنتصروا وفي عسكركم الطبول والزمور ؟! وذكر مثل ذلك وأشباهه ، فلما سمعه نور الدين . . قام مسرعاً وعاهد الله تعالىٰ على التوبة ، ونزع تلك الثياب التي كانت عليه ، وأبطل جميع المكوس ، فلما جاءت وقعة حارم . . انتصر المسلمون وانكسر الفرنج خذلهم الله تعالىٰ .

قالوا : وكان نور الدين إذا قام في الليل . . لبس مِسحاً ، ثم يصلي ويتضرع ويبكي ويقول : اللهم ؛ ارحم المَكَّاس العَشَّار ، ارحم المَكَّاس العَشَّار .

وحكىٰ قاضي القضاة بهاء الدين : أن نور الدين أرسل إلىٰ بغداد أيضاً كتاباً أعلم فيه الخليفة بما أسقطه من المكوس ، وسأل منه أن يتقدم إلىٰ جميع الوُعَّاظ بأن يسألوا له المحاللة مما كان وصل إليه من جميع الناس ، فتقدم الخليفة بجميع ذلك ، وأقام الخطباء والوُعَّاظ ينادون على المنابر بذلك ، ثم إن نور الدين أمر بكتابة منشور بإطلاق جميع المظالم في دمشق ، وحلب ، وحمص ، وحَرَّان ، وسنجار ، وسائر بلاده ، فكان مبلغ ذلك في كل سَنة من العين مئة ألف دينار وستة وخمسين ألف دينار .

وأما رَيْع ما وقفه وحبسه في سبيل الخيرات . . فيحصل منه في كل سَنة ستة وثلاثين ألف دينار ، وقُدِّرَ ثمن الوقوف[1] نحو مئتي ألف دينار .

وقد ذكرنا أن المسلمين انكسروا في بعض الغزوات ، فلما انكسروا . . استمر نور الدين واقفاً ثابتاً علىٰ تل مع جمع قليل ، فلما قرب العدو منه . . وقف بحذائهم ، واستقبل القبلة وقال : يا رب ؛ أنا عبدك الضعيف ، ملكتني هـٰذه الولاية ، وأعطيتني هـٰذه النيابة ، عمرت بلادك ، ونصحت خلقك وعبادك ، وأنت ـ يا رب ـ أعلم ، وأمرتهم بما أمرتني ، ونهيتهم عما نهيتني ، ورفعت المنكر من بينهم ، وأظهرت شعار دِينك ، كل ذلك بتوفيقك وعطائك ، فلك المنة والحجة علىٰ جميع خلقك ، وقد انهزم المسلمون ، وأنا لا أقدر علىٰ دفع هـٰذا العدو أعداء دِينك وأعداء نبيك محمد صلى الله عليه وسلّم ، ولا أملك إلا نفسي ، وقد سلمتها إليهم لإعلاء دينك ولنصرة أمة نبيك محمد صلى الله عليه وسلّم . ثم بكىٰ .

فعلم الله عز وجل منه صدق الالتجاء ، فاستجاب دعوته ، ونصره ، وألقىٰ في قلب

---

(١) الوقوف : جمع وقف .

العدو المخذول الرعب ، وأرسل إليهم الخذلان ، فوقفوا موضعهم ، وما جسروا على الإقدام عليه ، وظنوا أنه قد عمل حيلة عليهم ، وأن عسكر المسلمين في الكمين ، فرجعوا ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ .

ولما كان في مستهل صفر سنة خمس وخمسين وخمس مئة[١] . . كتب قاضي القضاة زكي الدين أبو الحسن علي قاضي دمشق ورقة يسأل فيها الإعفاء من القضاء ، فأجاب نور الدين سؤاله ، وولَّىٰ قضاء دمشق لكمال الدين الشهرزوري .

وفي سنة تسع وخمسين وخمس مئة خلا الشام من الفرنج ، فاغتنم نور الدين خلوها منهم ، ثم خرج إليهم غازياً ، واجتمعوا علىٰ حارم ، وضرب معهم المُصَافَّ[٢] ، فنصره الله سبحانه وتعالىٰ عليهم ، وأسر منهم خلائق ، وقتل منهم خلائق ، وكانوا نحواً من ثلاثين ألف مقاتل .

قالوا : ولما التقى الجمعان . . انفرد نور الدين علىٰ تل حارم ، ثم صلىٰ ركعتين ، وجعل يتضرع ويتمرغ في التراب ، وهو يقول : يا رب ؛ هـٰؤلاء عبيدك وهم أولياؤك ، وهـٰؤلاء عبيدك وهم أعداؤك ، فانصر أولياءَك علىٰ أعدائك ، أيش فضول محمود في الوسط ؟! يا رب ؛ إن نصرت . . نصرت دينك ، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود ؛ فإنه غير مستحق للنصر ، اللهم ؛ انصر دِينك ولا تمنعهم النصر بسبب محمود ، مَن هو محمود الكلب حتىٰ يُنصَر ؟! فاستجاب الله عز وجل منه ونصرهم .

وفي سنة ستين وخمس مئة فتح نور الدين قلعة بانياس من الفرنج ، وكان معه في العسكر أخوه نصرة الدين ، فأصابه سهم أذهب إحدىٰ عينيه ، فلما رآه نور الدين . . قال له : يا أخي ؛ لو كشف لك عن الأجر الذي أعده الله لك عز وجل . . لتمنيت أن تذهب الأخرىٰ .

قالوا : وكان لباسه غليظاً خشناً ، ولم يخلِّف مالاً ، بل أنفدَ الجميع بين يديه ، وكان يشد علىٰ وسطه جميع ما يحتاج إليه ، وكان من أشجع الناس ، لم تنهزم له راية قط ، وكان تركياً ، أسمر اللون ، خفيف العارضين[٣] .

---

(١) في النسخ : (سنة ثمان وخمسين وخمس مئة) ، ذكر أبو شامة رحمه الله هـٰذا الخبر في سنة خمس وخمسين وخمس مئة ؛ فأُثبت التاريخ من كتابه « الروضتين » .

(٢) **المصاف** : الجيش المصفوف .

(٣) هـٰذا الوصف أورده صاحب « الروضتين » (٢/ ٤٠) في زين الدين صاحب إربل ، وليس في نور الدين كما أورده المصنف .

وفي سنة أربع وستين ملك قلعة جعبر ، وفي سنة خمس وستين نزل الفرنج ـ خذلهم الله تعالىٰ ـ علىٰ دمياط ، فاهتم نور الدين لذلك أشد الاهتمام ، حتىٰ إنه قرىء عليه جزء من أجزاء الحديث المسلسل ، فطلب منه بعض السامعين أن يتبسم لتتم سلسلة الإسناد بالتبسم ، فامتنع من ذلك وقال : إني أستحي من الله عز وجل أن أتبسم والعدو المخذول محاصر للمسلمين ، كيف يكون ذلك ؟!

ثم إنه جهز إليهم العساكر شيئاً فشيئاً ، ثم تجهز نور الدين بمن بقي من الجيش إلىٰ بلاد العدو ، وانتهز الفرصة في خلو بلادهم منهم ، ونهبها وأخربها وأغار علىٰ جميع ما فيها ، وكان هـٰذا الترتيب من أعظم أسباب النصر والخلاص للمسلمين من المحاصرة ؛ فإن نور الدين جعل الجيش قسمين :

قسم منه : يقاتلون الكفار ويدفعونهم عن محاصرة المسلمين .

وقسم منهم : قد دخلوا إلىٰ بلاد العدو ، فأخذوا أموالهم ، وخربوا ديارهم ، فلما عرف الفرنج بدخول نور الدين والجيش إلىٰ بلادهم ورأوا العساكر التي قصدتهم . . رجعوا خائبين .

وكان ذلك من فضل الله سبحانه وتعالىٰ والله ذو الفضل العظيم .

قالوا : وكانت مدة المحاصرة خمسين يوماً ، فلما رجع العدو المخذول إلىٰ بلادهم . . وجدوها خاوية علىٰ عروشها .

وفي ليلة رحيل الفرنج عن دمياط رأى الإمام الذي يصلي بنور الدين في منامه النبي صلى الله عليه وسلّم ، فقال له : « أَعْلِمْ نور الدِّين أن الفرنج قد رحلوا عن دمياط في هـٰذه الليلة » ، فقال له : يا سيدي يا رسول الله ؛ ربما لا يصدقني ، فقال له : « قل له : بعلامة ما سجدتَ علىٰ تل حارم ، وقلت : يا رب ؛ انصر دِينك ولا تنصر محموداً ، مَن هو محمود الكلب حتىٰ يُنصر ؟! » قال : فلما استيقظت . . جئت المسجد ، وكانت عادة نور الدين أنه يجيء إلى المسجد بليل يصلي إلى الصباح ، قال : فتعرضت له ، فسألني عن خبري ، فأخبرته بالمنام ، وذكرت له العلامة ، إلا أنني لم أذكر لفظة الكلب ، فقال لي نور الدين : اذكر العلامة كلها ، فذكرتها ، قال : فبكىٰ ، وسُرَّ بذلك سروراً عظيماً ، ثم إني أرَّخت تلك الليلة ، فجاء الخبر برحيل الفرنج في تلك الليلة ، والله أعلم .

وفي سنة تسع وستين وخمس مئة في يوم عيد الفطر أمر نور الدين بتطهير ولده الملك

الصالح إسماعيل ، وفي يوم الإثنين ـ ثاني العيد ـ ركب في الموكب ، وكان معه همام الدين بن مودود ، فقال همام الدين لنور الدين : تُرىٰ هل نكون في الحياة إلىٰ مثل هـٰذا اليوم في العام القابل ؟ فقال نور الدين : تُرىٰ هل نعيش إلىٰ شهر ؛ فإن السنة بعيدة ؟ فجرىٰ علىٰ منطقهما ما جرىٰ به القضاء السابق ؛ فإن نور الدين لم يبق إلى الشهر ، وهمام الدين لم يبق إلى العام .

ثم إن نور الدين بعد ذلك مرض أسبوعاً ، وأشار الأطباء إليه بالفصد ، فلم يفعل ، وكان رجلاً مهيباً ، فما روجع ، واستمر مريضاً إلىٰ حادي عشر شوال من السَّنة المذكور ، ثم توفي إلىٰ رحمة الله تعالىٰ ، ودفن بقلعة دمشق .

ثم نقل بعد ذلك إلىٰ تربة جوار مدرسته التي للحنفية جوار الخواصين في الشارع الغربي .

ويقال : إن عند قبره يستجاب الدعاء .

وقال الشيخ شهاب الدين أبو شامة ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ :

اعلم : أني قد نظرت في سير الملوك ، فما رأيت فيهم من بعد عمر بن عبد العزيز رحمه الله مثل نور الدين الشهيد رحمه الله ، وكفىٰ بهـٰذا منقبة وفخراً ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم[1] .

---

(١) وحتىٰ نجعل ختام ترجمة هـٰذا الأمير العادل مسكاً . . نذكر واحدة من كراماته التي كرمه الله بها ، وأهَّلَه ليقوم بها :

خَاتِـمَة

روى الإمام العلامة علي بن أحمد السمهودي رحمه الله تعالىٰ في كتابه : ما نصُّهُ فيما نقل من عمل نور الدين الشَّهيد لخندق حَوْلَ الحجرة الشريفة مملوء بالرصاص ، وذكر السبب في ذلك ، وما ناسبه :

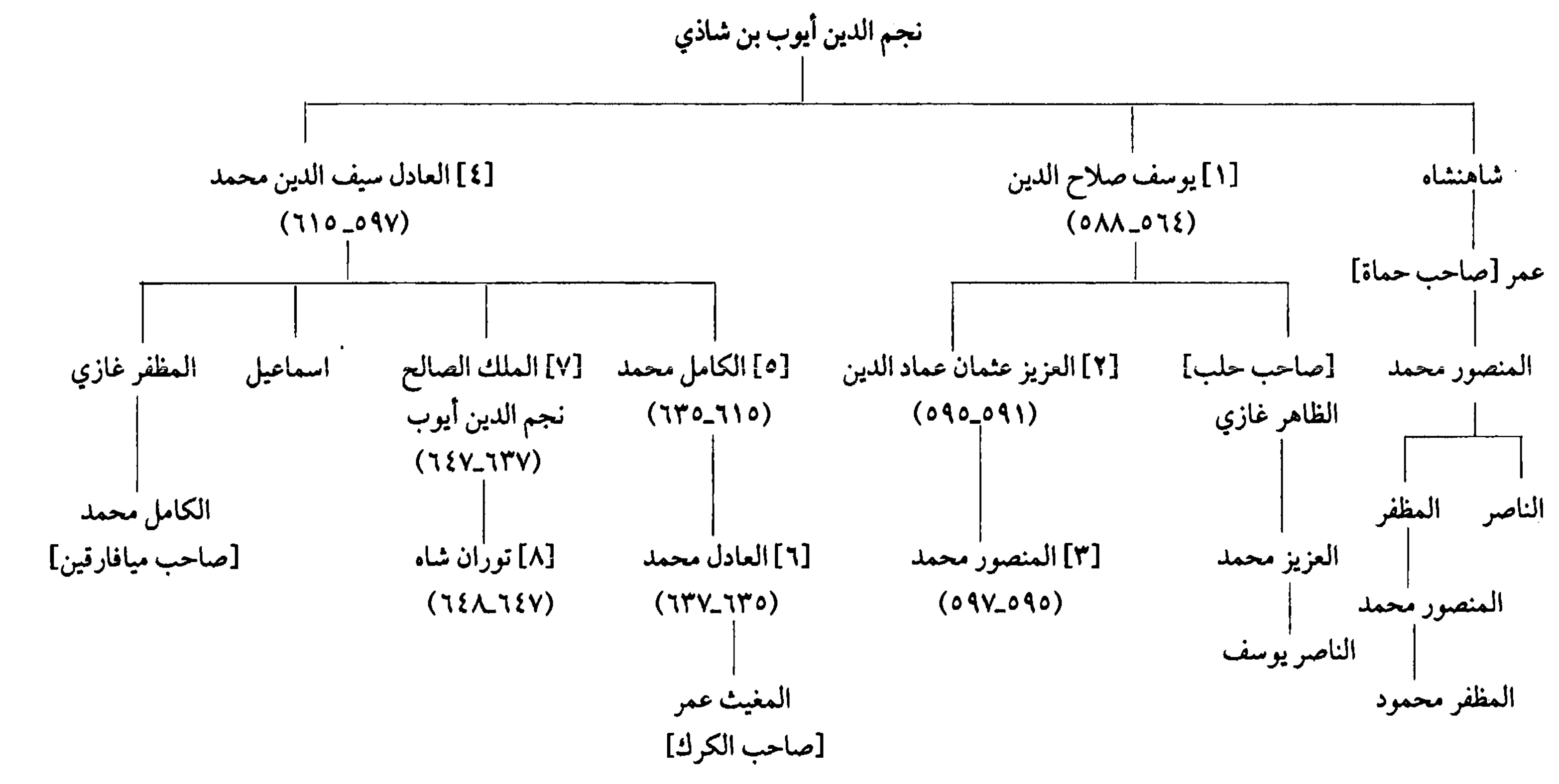
اعلمَ أني قَدْ وَقَفْتُ علىٰ رسالة قد صنَّفها العلامةُ جمال الدين الأسنوي في المنع من استعمال الوُلاَة للنصارىٰ ، وسماها بعضهم : « الانتصارات الإسلامية » ، ورأيت عليها بخط تلميذه شيخ مشايخنا زين الدين المراغي ما صورته : « نصيحة أولي الألباب ، في منع استخدام النصارىٰ كُتَّاب » لشيخنا العلامة جمال الدين الأسنوي ، ولم يسمه ؛ فسميته بحضرته فأقرني عليه . انتهىٰ [« وفاء الوفا » ٢/٦٤٨ـ٦٥١] .

فرأيته ذَكَرَ فيها ما لفظه : وقد دعتهم أنفُسهم ـ يعني النصارىٰ ـ في سَلْطنة الملك العادل نور الدين الشهيد إلىٰ أمر عظيم ، ظنوا أنه يتم لهم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، وذلك أن السلطان المذكور كان له تهجُّد يأتي به بالليل ، وأوراد يأتي بها ، فنام عقبَ تهجده ، فرأى النبي صلى الله عليه وسلّم في نومه وهو يشير إلىٰ رجلين أَشْقَرَيْن ويقول : « أَنْجِدْني ؛ أَنْقِذْنِي من هـٰذين » فاستيقظ فَزِعاً ، ثم توضَّأ وصلَّىٰ ونام ، فرأى المنامَ بعينه ، فاستيقظ وصلىٰ ونام ، فرآه أيضاً مرة ثالثة ، فاستيقظ وقال : لم يبق نَوْم ، وكان له وزير من الصالحين يقال له : جمال الدين الموصلي ، فأرسل خَلْفَه ليلاً ، وحكىٰ له جميعَ ما اتفق له ، فقال له : =

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

= وما قُعُودك ؟! اخْرُجِ الآنَ إلى المدينة النبوية ، واكتم ما رأيت ، فتجهَّز في بقية ليلته ، وخرج علىٰ رَوَاحلَ خفيفة في عشرين نَفَراً ، وبصحبته الوزيرُ المذكور ، ومال كثير ، فقدم المدينة في ستة عشر يوماً ، فاغتسل خارجهَا ، ودخل ، فَصَلَّىٰ بالروضة ، وزار ، ثم جلس لا يدري ماذا يصنع ، فقال الوزير وقد اجتمع أهل المدينة في المسجد : إن السلطان قَصَد زيارة النبي صلى الله عليه وسلّم ، وأحضر معه أموالاً للصَّدَقة ، فاكتبوا مَنْ عندكم ، فكتبوا أهل المدينة كلهم ، وأمر السلطان بحضورهم ، وكل مَنْ حضر ليأخذ.. يتأمله ليجد فيه الصفة التي أراها النبي صلى الله عليه وسلّم له ، فلا يجد تلك الصفة ، فيعطيه ، ويأمره بالانصراف ، إلىٰ أن انقضتِ الناس ، فقال السلطان : هل بقي أحد لم يأخذ شيئاً من الصدقة ؟ قالوا : لا ، فقال : تفكروا وتأملوا ، فقالوا : لم يبق أحد إلا رجلين مَغْربيين لا يتناولان من أحد شيئاً ، وهما صالحان غَنِيَّان ، يكثران الصدقة على المحاويج ، فانشرح صدرهُ وقال : عليَّ بهما ، فأتي بهما ، فرآهما الرجلين اللذَيْن أشار النبي صلى الله عليه وسلّم إليهما بقوله : « أنجدني ، أنقذني من هٰذين » ، فقال لهما : مِنْ أين أنتما ؟ فقالا : من بلاد المغرب ، جئنا حاجَّيْنِ فاخترنا المجاورة في هٰذا العام عند رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فقال : اصْدُقاني ، فصمَّما علىٰ ذٰلك ، فقال : أين منزلهما ؟ فأخَبر بأنهما في رباط بقرب الحجرة الشريفة ، فأمسكهما وحضر إلىٰ منزلهما ، فرأىٰ فيه مالاً كثيراً ، وخَتْمَتَين ، وكتباً في الرقائق ، ولم ير فيه شيئاً غير ذلك ، فأثنىٰ عليهما أهلُ المدينة بخير كثير ، وقالوا : إنهما صائمان الدهر ، ملازمان الصلوات في الروضة الشريفة ، وزيارة النبي صلى الله عليه وسلّم ، وزيارة البقيع كل يوم بكرة ، وزيارة قباء كل سبت ، ولا يَرُدَّانِ سائلاً قط ؛ بحيث سَدَّا خَلَّة أهل المدينة في هٰذا العام المجدب ، فقال السلطان : سبحان الله! ولم يظهر شيئاً مما رآه ، وبقي السلطان يطوف في البيت بنفسه ، فرفع حَصِيراً في البيت ، فرأىٰ سرداباً محفوراً ينتهي إلىٰ صَوْب الحجرة الشريفة ، فارتاعت الناس لذلك ، وقال السلطان عند ذلك : اصدُقاني حالكما ، وضَرَبَهُما ضرباً شديداً ، فاعترفا بأنهما نصرانيان ، بَعَثَهُما النصارىٰ في زيِّ حجاج المغاربة ، وأمالوهما بأموال عظيمة ، وأمروهما بالتحيل في شيء عظيم ، خَيَّلته لهم أنفسهم ، وتوهموا أن يمكنهم الله منه ، وهو الوصول إلى الجناب الشريف ، ويفعلوا به ما زَيَّنه لهم إبليسُ في النقل وما يترتب عليه ، فنزلا في أقرب رباط إلى الحجرة الشريفة ، وفَعَلاَ ما تقدم ، وصارا يَحْفِران ليلاً ، ولكل منهما محفظة جلد علىٰ زي المغاربة ، والذي يجتمع من التراب.. يجعله كل منهما في محفظته ، ويخرجان لإظهار زيارة البقيع ، فيُلقِيانه بين القبور ، وأقاما علىٰ ذلك مدة ، فلما قربا من الحجرة الشريفة.. أرْعَدَتِ السماء وأبرقت ، وحصل رَجِيف عظيم ؛ بحيث خيل انقلاع تلك الجبال ، فقدم السلطان صبيحةَ تلك الليلة ، واتفق إمساكهما واعترافهما ، فلما اعترفا وظهر حالهما علىٰ يديه ، ورأىٰ تأهيلَ الله له لذلك دون غيره.. بكىٰ بكاء شديداً ، وأمر بضرب رقابهما ، فقتلا تحت الشباك الذي يلي الحجرة الشريفة ، وهو مما يلي البقيع ، ثم أمر بإحضار رَصَاص عظيم ، وحَفَر خندقاً عظيماً إلى الماء حول الحجرة الشريفة كلها ، وأذِيبَ ذلك الرصاص ، وملأ به الخندق ، فصار حول الحجرة الشريفة سور من رصاصٍ إلى الماء ، ثم عاد إلىٰ مُلْكه ، وأمر بإضعاف النصارىٰ ، وأمر ألاَّ يُستعمل كافرٌ في عمل من الأعمال ، وأمر مع ذلك بقطع المكوس جميعها . انتهىٰ .



ملاحظة: هذا جدول يبين تاريخ حكم الأسرة الأيوبية، والأرقام بين معقوفين تدل على مدة استلام كل واحد للحكم. والتواريخ بين قوسين تدل على التسلسل في استلام الحكم.

وأما الدولة الصلاحية

فسلطانها السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن نجم الدين أيوب بن شاذي الكردي ، من أشرف شعوب الأكراد ، وأكثرهم فتحاً للبلاد ، وأعظمهم في إدامة الجهاد ، فاتح بيت المقدس والسواحل وغيرها .

لم يزل منذ أقامه الله عز وجل وإلىٰ أن توفاه الله إلىٰ رحمته ورضوانه قائماً بأعباء الدِّين ، مجاهداً في سبيل الله رب العالمين ، قاتلاً للكفرة والمشركين ، سيفاً مسلولاً في رقاب الملحدين ، مبيداً للطغاة والمعتدين ، دائباً ليله ونهاره فيما فيه صلاح الإسلام والمسلمين ، حامياً لحوزة المسلمين ، ناصراً لكافة المؤمنين ، حاملاً لراية الموحدين ، بائعاً نفسه ومالَه لله رب العالمين ، قاصداً إعلاء كلمة الله عز وجل ، وألاَّ يُبقي علىٰ وجه الأرض أحداً من الكافرين ، حتىٰ إنه في يوم واحد ضرب رقاب تسعة وعشرين ملكاً من ملوك الفرنج الملاعين .

فهنيئاً له رحمه الله ، لقد عمل بقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ ، فما أربح هـٰذا البيع ، وما أعظم هـٰذا الشراء ، وما أسعد مَن وُفِّق لذلك .

وفي الآية الكريمة أسرار شريفة ، ولطائف نفيسة ، أودعت بعضها في كتابي « الجوهر الفريد » في السادس منه ، وهو قسم الأسماء .

والقدر الذي أذكره هـٰهنا : أن العِوَض والمعوَّض كل منهما ملك لله عز وجل ، فقد اشترىٰ سبحانه وتعالىٰ مِلكه بمِلكه ، وهـٰذا بدع في الأصول ، علىٰ أن في المكاتب يأتي مثل هـٰذه الغرابة أيضاً[1] .

ومن هـٰهنا نظر أبو محمد حبيب العجمي رحمه الله لما قرأ قوله تعالىٰ : ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ قال : واعجباه! هو أعطىٰ وهو أثنىٰ ؟!

---

(١) قال القرطبي في « تفسيره » (٨/ ٢٦٧) : (هـٰذه الآية دليل علىٰ جواز معاملة السيد مع عبده وإن كان الكل للسيد . انتهىٰ . فإذا كاتب العبدُ سيدَه . . فالسيد يملك العبد ، وما يملكه العبد للسيد ، وبالتالي العوض والمعوَّض هو للسيد ، فيشتري العبدُ نفسه من مولاه بدفع مال مولاه ، وهـٰذه صورة ما يجري بين العبد وربه) .

وهٰكذا لما سمع بعض العارفين قوله تعالىٰ : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ فقال : بحقٍّ أحبهم ، فَرَّع بحبهم ؛ إشارة إلىٰ أن الكل صنعه ، فهو سبحانه وتعالىٰ إنما أحب صنعه .

والمقصود : أن السلطان صلاح الدين رحمه الله لم يزل باذلاً مهجته وماله وأولاده في سبيل الله عز وجل ، لا يأخذ لنفسه راحة ولا قراراً ، ولا يدع لها لذة ولا مهناً إلىٰ أن تقر عينه بالنظر إلىٰ وجه ربه الكريم ، ويُحِلَّ عليه رضوانه في جنات النعيم ، طالما تعرض للشهادة وسألها وبادر إليها ، ولذلك كان يدخل وحده بين صفوف المشركين .

والله سبحانه وتعالىٰ عند قصد عبده لا عند حاصله ، فإذا حصل من العبد الصدق والإخلاص ـ وهو الذي يعطيه ذلك ويوفقه له ـ أنعم عليه بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر .

فهناك :

تبقى الأمانيُّ صرعىٰ دون مبلغه   فمـا يقـول لشـيء ليـت ذلـك لـي

واعلم : أن سيرة السلطان صلاح الدين قدس الله روحه وما انطوت عليه من جليل مناقبه وجميل مآثره . . أَجَلُّ من أن يحيط بها وصف ، وأشرف من أن يَضُم جواهرها نظم أو رَصْف .

فلو جرى القلم إلىٰ أن يحفىٰ ، وصَرَّ لسانه إلىٰ أن يخفت ويخفىٰ . . لما استوعب معظم شمائله ودرر صفاته ، ولا نال علىٰ ظمئِه من ذلك البحر غير صبابة يسيرة .

لا جرم أن العلماء رحمهم الله أكثروا من المصنفات في مناقبه وأحواله ، ومِن أحسنها ـ فيما علمت ـ « كتاب الروضتين في أخبار الدولتين » ، وهو كتاب حافل جليل ، أذكر منه إن شاء الله عز وجل مقاصده وعيونه ، وأضم إليه من النفائس المستجادات والفوائد المهمات ما لا بد منه .

فأقول وبالله التوفيق :

إن مولد السلطان صلاح الدين قدس الله روحه سنة اثنتين وثلاثين وخمس مئة ، بقلعة تِكريت[1] ، وكان والده نائباً بها .

ثم انتقل مع أبيه وعمه أسد الدين شيركوه إلى الموصل إلىٰ عند أتابك زنكي ، ثم إلى

---

(١) **تكريت** : بفتح التاء وكسرها ، والكسر أشهر ، بلدة مشهورة بين بغداد والموصل .

الشام ، فلم يزل يتربىٰ في حجر السعادة ويرتضع من ثدي السيادة إلىٰ أن توسم فيه الملك نور الدين قدس الله روحه أنه سيصير له شأناً مذكوراً وسعياً مشكوراً ، فجعله من خواصه والمقدمين عنده ، وعول عليه حتىٰ صار خازنَ سره والمشارَ إليه ، لا يقطع أمراً دون مراجعته ، ولا يستقل برأي دون مشاورته .

ولم يزل كلما تقدم قدماً . . يظهر منه ما يوجب تقديمه إلىٰ ما هو أعلىٰ منه ، وكذلك إلىٰ أن صار منه ما صار ، ففتح البلاد ، ومصَّر الأمصار ، وملك العباد بإدامة الجهاد .

لا جرم أن الله عز وجل أحيا ذِكره في العالمين ، وجعل عمله جارياً إلىٰ يوم الدين ، وأبقىٰ له الثناء المنشور ، إلىٰ يوم العرض والنشور ، وجعل أجره باقياً ما دامت الأعوام والشهور ، فسبحان مَن خصه بفتح الأرض المقدسة ، وجعل أعماله على البر والتقوىٰ مؤسسة ؛ قال تعالىٰ : ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ .

اعلم : أن الملك العادل نور الدين الشهيد قدس الله روحه هو الأصل في ذلك الخير كله ؛ لتمهيده الأمور بعدله وجهاده وهيبته في جميع بلاده ، مع شدة الفتق ، واتساع الخرق ، وفتَح من البلاد ما صار عوناً علىٰ مداومة الجهاد ؛ فإنه انتزع من أيدي الكفار نيفاً وخمسين مدينة ، وقد كان كما يكنىٰ ، فهان علىٰ مَن جاء بعده سلوك تلك الطريقة ، والاستضاءة بأنوار تلك الحقيقة ، بَيْدَ أن السلطان صلاح الدين قدس الله روحه أكثرُ جهاداً وفتوحاً للبلاد ، وأوسع ممالك ، وأعم نفعاً للعباد ، وأشرف فتحاً ، ادخر الله عز وجل له من الفتوح أنفسَه وأشرفه ، وهو فَتْحُ الأرض المقدسة .

فلله دَرُّهما من ملكين عادلين ، دخلا في قوله صلى الله عليه وسلّم : « سبعة يظلهم الله . . . »[1] ، بدأ فيه أولاً ؛ بالإمام العادل .

فهنيئاً لهما من ملكين حنفي وشافعي[2] ، إذا ما جاهدا الكافرين ، وفتحا بلاداً . . قرت بها أعين المؤمنين ، وأقاما العدل في العالمين ، ونشرا الولاية والإحسان في المؤمنين ، وأبقيا لهما ذِكراً جميلاً في الصالحين .

---

(١) أخرج البخاري (١٣٥٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلّم قال : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عدل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتىٰ لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » .

(٢) أما الحنفي . . فهو الملك العادل نور الدين محمود ، وأما الشافعي . . فهو الملك الناصر صلاح الدين .

وأظن ـ والله أعلم ـ أنهما حجة علىٰ مَن بعدهما من السلاطين ، كما قال بعض العارفين رحمهم الله : أرىٰ أن أهل زمان سفيان الثوري رحمه الله سيعاتَبون ، فيقال : ألم يكن فيكم مثل سفيان ؟!

فسبحان مَن أسعدهما وأسعد بهما المؤمنين .

ومِن عجائب الاتفاق وبدائع الوفاق . . تقاربهما في السيرة والعمر والولاية ببلدة معينة .

أما تقاربهما في حسن السيرة . . فظاهر لا يخفىٰ ، وأما في العمر . . فإن كل واحد منهما لم يبلغ ستين سنة ، وأما الولاية ببلدة معينة ـ وهي دمشق ـ : فإن نور الدين ملكها سنة تسع وأربعين ، وتوفي سنة تسع وستين ، وملكها صلاح الدين سنة سبعين ، وتوفي سنة تسع وثمانين ، فبقيت في المملكة النورية عشرين سنة ، وفي المملكة الصلاحية تسع عَشْرة سنة .

فكانت زيادة مدة نور الدين كالتنبيه علىٰ زيادة فضله ، والإرشاد إلىٰ رفيع محله ، والفضلُ للمتقدم ، علىٰ أن صلاح الدين قدس الله روحه اتسع له من الممالك ما لم يبلغ لنور الدين عشرها .

فرحمهما الله ، وجزاهما عن الإسلام خيراً ، وجمع بيننا وبينهما مع سائر الأحبة في دار النعماء ، إنه سميع الدعاء ، وأنعم علىٰ من نبهنا عن غفلة ذِكر السلطان صلاح الدين حتىٰ ألحقناه في كتابنا هـٰذا بجنات النعيم .

فإن أول بركته على المؤمنين وما أجراه الله عز وجل علىٰ يديه من سعادة الإسلام والمسلمين . . فَتْحُ الديار المصرية ، وإزالة دولة الطغاة المدعين الذين ادعوا كونهم فاطميين ، وعُلِم كذبهم بإجماع المسلمين ؛ لأن أصلهم يهود ، وهم في أفعالهم شر من المنافقين الكافرين ؛ لإظهارهم الرفض ، وانطوائهم على الكفر المحض .

لا جرم أفتىٰ علماء العصر بأن قتالهم مساوٍ لقتال المشركين ، بل ربما كان أرجحَ في نظر العالِم من المجتهدين .

وملخص فتح الديار المصرية : أن في سنة أربع وستين وخمس مئة كان العاضد العبيدي الدعي هو الخليفةَ بها ، ووزيره شاور اللعين قد تغلب عليه ، وضعف أمر العاضد معه ، وقد راسل الفرنج ، وأمدهم بالأموال ؛ ليأخذوا الديار المصرية .

فجاءت الفرنج وطغت في البلاد ، حتىٰ أشرفوا علىٰ أخذ الديار المصرية ، فخاف العاضد خوفاً عظيماً ، وأرسل كتبه ومعها شعور نسائه يستصرخ بالملك نور الدين ، وقال :

هـٰذه شعور نسائي من قصري يستصرخن بك لتنقذهن من الفرنج .

فلما وصلت الكتب إلىٰ نور الدين وهو بحلب ـ كان قد سافر إليها لأخذ قلعة جعبر ـ هاله ذلك أمراً عظيماً ، وقام له وقعد ، وقال لصلاح الدين : تسير الآن إلىٰ حمص ، وتأتي بعمك أسد الدين شيركوه سريعاً ؛ فإن هـٰذا الحال لا يقر لي معه قرار ، ولا يحتمل التأخير .

فسار صلاح الدين لوقته ، وأبلغ الخبر عمه ، فسار أسد الدين من حمص إلىٰ حلب في ليلة واحدة ، فأعجب نور الدين ذلك ، وجعله المقدم على الجيوش ، وأنفق فيهم النفقات العظيمة ، وأمدهم بالخيل والأسلحة ، إلىٰ غير ذلك من الأموال التي منها مائتا ألف دينار .

فقال أسد الدين : لا بد من مسير يوسف ابن أخي معي ، فترسم له بذلك وتأمره به ، فقال نور الدين لصلاح الدين : سر مع عمك ، فقال : سمعاً وطاعة ، ولم يمكنه مخالفته ؛ لأن نور الدين مع تواضعه ولينه كان رجلاً مهيباً لا يراجع .

لـٰكن شكا إليه الضائقة وقلة الدواب ، فدفع نور الدين إليه جميع ما يحتاج إليه ، فلما لم يبق إلا المسير . . سار بهم نور الدين والعساكر بين يديه إلىٰ رأس العين .

ثم أقام هناك متوكلاً على الله عز وجل ومفوضاً أمره إليه ، منتظرَ الفرج والنصر من الله سبحانه وتعالىٰ .

وسار أسد الدين بالعساكر ، فحين أشرفوا على الدخول إلىٰ مصر . . وجدوا المبشِّرين يخبرون برحيل الفرنج عنها ورجوعهم إلىٰ بلادهم ، فأرسلوا البشارة إلىٰ نور الدين ، وأخبروه برحيل الفرنج عنها ، وأنهم ندموا علىٰ خروجهم من بلادهم لما حل بهم من الدمار والبوار ، ففرح نور الدين فرحاً عظيماً ، وجلس مجلساً عاماً للتهنئة ، وأنشده الشعراء عدة قصائد في فتحها ، وأمر بضرب البشائر في بلاده كلها وتزيينها .

وأما أسد الدين شيركوه . . فدخل الديار المصرية ومعه عساكره ، ففرح بهم المسلمون فرحاً عظيماً ، وخرج شاور الوزير مع جيشه إلىٰ لقائه .

فقال صلاح الدين لشاور : أول ما نبدأ به في هـٰذا اليوم زيارة قبر الإمام الشافعي رحمه الله ، فقال أسد الدين : لا يمكن غير هـٰذا ، فلم يجد شاور بداً من موافقتهما .

فسار أسد الدين وصلاح الدين ومعهما شاور والعساكر إلىٰ أن وصلوا إلى المكان الذي فيه قبر الإمام الشافعي رحمه الله ، فقال صلاح الدين لشاور : ندخل أنا وأنت وعمي أسد الدين لا غير ، فقال : نعم .

فلما دخلوا إلىٰ دهليز الصهريج . . أمر صلاح الدين بقبض شاور وقتله سريعاً ، وأخرج رأسه إلىٰ جيشه ، فانقلبوا خاسئين ، فلو لم يكن لصلاح الدين إلا قتل شاور اللعين . . لكفاه ذلك يوم العرض علىٰ رب العالمين .

ثم زاروا ورجعوا ، وبلغ الخبر إلى العاضد ، فأرسل في الحال خلعة الوزارة إلىٰ أسد الدين شيركوه ، فلبسها وسار حتىٰ دخل القصر ، وترتب وزيراً ، ولقب الملك المنصور أمير الجيوش ، وفوض الأحكام وجميع الأمور إلى ابن أخيه صلاح الدين ، فكان صلاح الدين هو المباشر لزمام تلك الأمور وسائر الأحكام .

فلم يلبث أسد الدين سوىٰ شهرين وخمسة أيام ومات فجأة رحمه الله . فولي الأمر بعده صلاح الدين ، ولقب الملك الناصر ، فأحسن إلى الرعية إحساناً عظيماً ، وعمهم بالعدل والإحسان ، والأيادي الحسان إلىٰ كل إنسان ، وزاد في إقطاعات المجاهدين .

فعظم شأنه عندهم وقويت أركانه ، واستقر أمره ، وزادت محبته في صدورهم ، وضعف أمر العاضد في أيامه جداً ، واضطهد غاية الاضطهاد .

وهو معىٰ هـٰذا التمكن في ملكه وعظمته في صدور رعاياه . . صفته نائب للملك نور الدين ، يخطب له على المنابر ، ورسله متواترة إليه ، لا تخالف له أمراً ، ولا تخرج عما يرسم له به .

قال الشيخ شهاب الدين ـ قدس الله روحه ـ : وقَتَل العاضد في هـٰذه السَّنة أولاد شاور الثلاثة ، وطِيفَ برؤوسهم بمصر ، وكان قتل شاور من الفتوح العظيمة ، يعد بألف ألف من الفرنج .

ثم إن الطواشي مؤتمن الخلافة ـ لعنه الله ـ كتب إلى الفرنج بأن يقدموا إلى الديار المصرية ، ويخرجوا منها الجيوش الشامية والعساكر النُّورية .

فاطلع السلطان صلاح الدين على الكتاب وكتم الأمر ، فاستشعر مؤتمن الخلافة بأن السلطان قد اطلع علىٰ ذلك ، فلازم القصر مدة طويلة خوفاً علىٰ نفسه .

ثم إنه خرج في بعض الأيام إلى الصيد ، فأرسل السلطان صلاح الدين مَن قبض عليه وقتله وحمل رأسه إليه ، ثم عزل جميع الخدام الذين كانوا في القصر ، واستناب عليه عوضهم بهاء الدين قراقوش ، وأمره بأن يطلعه علىٰ جميع الأمور كبيرها وصغيرها .

ثم إنه لما قتل مؤتمن الخلافة الحبشي وعزل بقية الخدام . . غضبوا لذلك واجتمعوا قريباً

من خمسين ألفاً[1] لقتال السلطان صلاح الدين ، فاقتتلوا بين القصرين هم وجيش السلطان ، فنصر الله عز وجل السلطان وجيشه ، وانقلب السودان خائبين ، وأمر السلطان بإحراق محلتهم المعروفة بالمنصورة التي فيها دورهم وأولادهم بباب زويلة ، وركبهم السيف ، وقتل منهم خلائق .

ثم طلبوا الأمان من السلطان ، فأجابهم إلىٰ ذلك ، وأخرجهم إلى الجيزة ، ثم خرج إليهم شمس الدولة تورانشاه أخو السلطان ، فقتل أكثرهم أيضاً ، ولم يبق منهم إلا القليل ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ ﴾ .

وفيها : كانت وفاة الأمير أسد الدين شيركوه ـ كما تقدم ـ في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة منها ، وهو واقف الخانقاه الأسدية داخل باب الجابية ، والمدرسة الأسدية بالشرف القبلي ، وفيها مذهبان شافعي وحنفي .

وكان أسد الدين هو وأخوه نجم الدين أيوب قد خدما عند الأمير مجاهد الدين [وهو] شحنة العراق ، فاستناب نجم الدين علىٰ قلعة تكريت ، واتفق أن الملك عماد الدين زنكي دخلها هارباً من قراجا الساقي[2] ، فأحسنا إليه وخدماه ، فعرف لهما ذلك .

فلما انتقلا من تكريت . . قصدا عماد الدين زنكي ، فأحسن إليهما ، وحظيا عنده وعند ولده نور الدين ، فاستناب عماد الدين زنكي نجم الدين أيوب علىٰ بعلبك ، وأقره عليها ولده نور الدين .

وصار أسد الدين شيركوه أكبرَ أمرائه وأخصَّهم عنده ، وكان قد أقطعه الرحبة وحمص ، مع ما لَهُ عنده من الإقطاعات ، وذلك لشهامته وشجاعته وصرامته ، وجهاده في أعداء الله عز وجل الفرنج وغيرهم .

وأعجَبُ من ذلك : ما فعله يوم فتح دمشق بين يدي الملك نور الدين ، ثم ما فعله بالديار المصرية من فتحها ، فرحمه الله ، وبَلَّ بِوَابل الرحمة ثراه ، وأكرم نزله ومثواه .

* * *

---

(١) وسبب كثرتهم في مصر : أن أم المستنصر الفاطمي كانت سوداء ؛ فاستكثرت من أبناء جنسها من العبيد حتىٰ أصبح لهم قوة .

(٢) وذلك إثر وقعة مشهورة خلاصتها ـ كما قال ابن خلكان في « وفيات الأعيان » (٧/ ١٤٢) ـ : إن مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي وعماد الدين زنكي صاحب الموصل قصدا حصار بغداد في أيام الإمام المسترشد ، فأرسل إلىٰ قراجا الساقي ـ واسمه برس ـ صاحب بلاد فارس وخوزستان يستنجد به ، فأتاه وكبس عسكرهما وانهزما بين يديه وانكسرا . انتهىٰ .

سنة خمس وستين [وخمس مئة]

في صفر منها حاصرت الفرنج دمياط خمسين يوماً ، بحيث إنهم ضيقوا علىٰ أهلها ، وكانوا في أمم لا يحصون كثرة من البر والبحر ، رجاء أن يملكوا مصر ، وخوفاً من استيلاء المسلمين على القدس .

فكتب الملك صلاح الدين إلى الملك نور الدين يستنجده عليهم ، وأن يمده بالجيوش ، واعتذر بأنه [إن] خرج من مصر . . خَلَفَهُ أهلها بشَرٍّ ، وإن غفل عن الفرنج . . أخذوا دمياط وجعلوها معقلاً لهم يتقوَّوْن به علىٰ أخذ مصر .

فأرسل إليه بجيوش كثيرة تترىٰ يتلو بعضها بعضاً ، واغتنم غفلة الفرنج عن بلادهم ، فسار إليهم في جيشه ، فجاس خلال ديارهم ، وغنم أموالهم ، وقتل من رجالهم ، وسبىٰ من نسائهم وأطفالهم شيئاً كثيراً ، فجزاه الله عن الإسلام خيراً .

ثم سار في جمادى الآخرة إلى الكرك ، فحاصرها ، وكانت مِن أمنع البلاد .

فلما كاد أن يفتحها . . بلغه أن مقَدَّمَينِ من الفرنج قصدا دمشق ، فخاف أن يلتف إليهما الفرنج ، فترك حصار الكرك وأقبل إلىٰ دمشق ، فحصَّنها .

وبلغ الفرنج أن نور الدين قد حاصر بلادهم ، فولوا علىٰ أدبارهم منقلبين خائبين ، ورحلوا عن دمياط ، ﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ .

وكان في جملة من أرسل نور الدين : نجم الدين أيوب والد صلاح الدين ؛ لأنه كان قد أرسل في طلبه ، فجعله نور الدين أمير تلك الجيوش ، ومعه بقية أولاده ، فتلقاه الجيش من مصر ، وخرج العاضد لتلقيه إكراماً لولده صلاح الدين ، وأقطعه إسكندرية ودمياط .

وقد أمد العاضد للملك صلاح الدين في هـٰذه الواقعة بألف ألف دينار .

ولما توجه نجم الدين إلى ابنه صلاح الدين إلىٰ مصر . . أوصاه الملك نور الدين بأن يأمر ابنه صلاح الدين بأن تكون الخطبة للخليفة المستنجد العباسي ، وذلك أن الخليفة بعث من بغداد يعاتبه في ذلك ، فقال : سمعاً وطاعة ، يكون ذلك إن شاء الله عز وجل .

* * *

سنة ست وستين [وخمس مئة]

فيها : سار الملك نور الدين إلى الرقة ، فأخذها ، وكذلك نصيبين والخابور وسنجار ، وسلمها إلىٰ زوج ابنته ابن أخيه عماد الدين زنكي بن مودود .

ثم سار إلى الموصل وأقام بها أربعة وعشرين يوماً ، وأقرها على ابن أخيه سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود مع الجزيرة ، وزوجه ابنته الأخرىٰ ، وأمر بعمارة جامعها وتوسعته ، ووقف علىٰ تأسيسه بنفسه ، وجعل له خطيباً ومدرساً ، وولي التدريس أبو بكر النوقاني تلميذ محمد بن يحيى الغزالي ، ووقف عليه قرية من قرى الموصل .

وكان ذلك كله بإشارة الشيخ الصالح الزاهد العابد عمر المَلاَّء ، وكان نور الدين يستشيره في أموره وما يعتمده من المهمات ، وهو الذي أشار عليه في مدة مقامه بالموصل بجميع ما فعله من الخيرات ، التي منها إبطال المكوس ، إلىٰ غير ذلك من المظالم إلىٰ أن تمهد أمر الموصل واستقر أمره على السداد .

هـٰذا كله ولم يدخل إلىٰ داخل البلد ، وإنما قام علىٰ ظاهره أربعة وعشرين يوماً كما مر ، فلما كانت آخر ليلة من إقامته بها . . رأىٰ رسولَ الله صلى الله عليه وسلّم في المنام وهو يقول له : « طابت لك بلدك وتركت الجهاد وقتال أعداء الله عز وجل ؟! » .

فنهض من ساعته ، وما أصبح إلا وهو سائر إلى الشام ، واستقضىٰ للشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون ، وكان معه علىٰ سنجار ونصيبين ، فاستناب ابن أبي عصرون فيها نواباً ، وسار مع نور الدين .

وفي تلك السَّنة : عزل السلطانُ صلاح الدين قضَاةَ مصر كلهم ؛ لكونهم شيعة ، وولّىٰ قضاء الشافعية بها لصدر الدين عبد الملك بن درباس ، واستناب في سائر الأعمال شافعية .

ثم بنىٰ مدرسة للشافعية وأخرىٰ للمالكية ، واشترى ابن أخيه تقي الدين عُمر داراً ، وكانت تعرف بمنازل العز ، وجعلها مدرسة للشافعية ، وأوقف عليها الروضة وغيرها .

وعَمَّر صلاح الدين أسوار البلد وأسوار إسكندرية ، وأحسن إلى الرعايا إحساناً كثيراً .

ثم ركب فأغار علىٰ بلاد الفرنج بنواحي عسقلان وغزة ، وهدم قلعة لهم بأيلة ، وقتل خلقاً كثيراً منهم ، وتلقىٰ أهله وهم قادمون من الشام ، واجتمع شمله بهم بعد فرقة طويلة .

وفيها : قطع صلاح الدين الأذان بحيَّ علىٰ خير العمل من ديار مصر كلها وسائر أعمالها ، وشرع في تمهيد الخطبة لبني العباس .

وفيها : كانت وفاة المستنجد وخلافة ابنه المستضيء ببغداد .

* * *

سنة سبع وستين [وخمس مئة]

في أول جمعة منها : أمر الملك صلاح الدين بإقامة الخطبة لبني العباس بمصر ، وفي الجمعة الثانية بالقاهرة ، وكان ذلك يوماً مشهوداً .

ولما وصل الخبر إلى الملك نور الدين بدمشق . . أرسل إلى الخليفة يعلمه بذلك مع ابن أبي عصرون ، وهو شهاب الدين أبو المعالي ، وزينت بغداد بزينة عظيمة ، وغلقت الأسواق ، وفرح المسلمون فرحاً عظيماً .

وكانت الخطبة لبني العباس قد قطعت من ديار مصر من سنة تسع وخمسين وثلاث مئة في خلافة المطيع العباسي حين تغلب الفاطميون عليها أيام المعز الفاطمي باني القاهرة إلىٰ هٰذا الأوان ، وذلك مئتا سنة وثمان سنين .

وفي أولها : مات العاضد آخر خلائف العبيديين المدعيين .

والعاضد لغةً : القاطع « لا يعضد شجرها » وفيه قطعت دولتهم ، ولله الحمد والمنة ، وهٰذا من كرامات الملك صلاح الدين قدس الله روحه ، وكم له من كرامات ظاهرة ، وآيات متناصرة ، ورايات متظافرة .

وأول ملوك العُبَيْديين عبيد الله اليهودي ، ودخل المغرب ، وتسمىٰ بعُبَيْد الله[1] ، وادعىٰ أنه شريف فاطمي[2] ، وسمىٰ نفسه المهدي ، وهو من أهل سلمية ، كان صنَّاعاً ، وراج له ما افتراه من الكذب بتلك البلاد إلىٰ أن تمكن ، فبنىٰ مدينة سماها المهدية ، وصار ملكاً مطاعاً ، يُظهِر الرفض ، وينطوي على الكفر المحض ، وهٰكذا أولاده وأولاد أولاده ، حتىٰ

---

(١) أي : بعد أن كان اسمه سعيداً .

(٢) يقول أبو شامة ـ رحمه الله ـ تتمةً لهٰذا الكلام في « الروضتين » (٢/ ٢١٤) : (وكان والد عبيد هٰذا من نسل القدَّاح الملحد المجوسي ، وادَّعىٰ نسباً ليس بصحيح ، لم يذكره أحد من مصنفي الأنساب العلويَّة ، بل ذكر جماعة من العلماء بالنَّسب خلافه . وقال في (٢/ ٢٢٣) : وقد صنف الشريف العابد الدمشقي رحمه الله كتاباً في إبطال نسبهم إلىٰ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وفصَّل ذلك تفصيلاً حسناً) .

كان آخرهم العاضد ، فجملتهم أربعة عشر دعياً ، ومدتهم مئتان وثمان وستون سنة ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وقد صنف الأئمة رحمهم الله في بيان كفرهم وما كانوا عليه من البدع والمنكرات تصانيف ، فمِن أجَلِّ ما صنف في ذلك : كتاب القاضي أبي بكر الباقلاني قدس الله روحه ، سماه : « كشف الأسرار وهتك الأستار » .

وقال الشيخ شهاب الدين أبو شامة ـ قدس الله روحه ـ : قد أفردت كتاباً سميته : « كشف ما كان عليه بنو عبيد من الكفر والكذب والمكر والكيد » .

وفي دولتهم تغلب الفرنج علىٰ سواحل الشام بكماله ، فأخذوا القدس الشريف ، ونابلس ، وعجلون ، والغور ، وبلاد غزة ، وعسقلان ، وكرك الشوبك ، وطبرية ، وبانياس ، وصيدا ، وبيروت ، وعكا ، وصفد ، وطرابلس ، وأنطاكية ، وجميع ما والىٰ ذلك إلىٰ بلاد إياس وسيس ، واستحوذوا علىٰ بلاد آمد والرُّها وبلاد شتىٰ .

وقتلوا خلقاً كثيراً من المسلمين ، لا يعلم عددهم إلا الله تعالىٰ ، وسبَوا من ذراريهم ونسائهم وولدانهم ما لا يدخل تحت الحصر ، وكادوا مرة يتغلبون علىٰ دمشق ، ولـٰكن الله صانها بعنايته ، وسلمها برعايته .

وحين زالت أيامهم وانتقض إبرامهم . . أعاد الله عز وجل هـٰذه البلاد علىٰ أهلها السادة المسلمين ، ورد الله سبحانه وتعالى الكفرة خائبين ، وأركسهم بما كسبوا في هـٰذه الدنيا ويوم الدين .

والمقصود : أن ابن أبي عصرون لما ورد بغداد بهـٰذه البشارة الجليلة ـ وهي إقامة الخطبة لبني العباس ـ خرج الموكب لتلقيه وغالب أهل بغداد ، وقرأ عليهم المنشور العظيم ، ونثرت عليه دنانير الذهب ، وأكرم غاية الإكرام ، وأرسل الخليفة التشريفات الجليلة إلى الملك نور الدين والملك صلاح الدين مع عماد الدين صندل ، وهو من أكابر الخدم ، وأولي الحزم والهمم ، فألبسه الخلعة للملك نور الدين ، وقلده بسيفين ، فخرج نور الدين وهو راكب من داخل القلعة ، واللواء منشور بين يديه ، فقيل : ما معنىٰ تقليده بسيفين ؟ فقال : هما الشام ومصر ، والجمع له بين البلدين .

وكان من جملة التشريف : [أن] الطوق مع أُكْرَته[1] وزنه ألف دينار ، وأرسلوا إلى

---

(١) **أُكْرته** : الكرة التي توجد به .

الملك صلاح الدين تشريفاً آخَر ، لـٰكنه دون تشريف الملك نور الدين ، ووصل أيضاً مع رسل الخليفة أعلام وبنود ورايات سود ، وأُهَبٌ عباسية للخطباء في الديار المصرية ، فأُرسلت إلى الملك صلاح الدين ، ففرقها على الجوامع والمساجد والخطباء والقضاة والعلماء .

ولما فرغ صلاح الدين من إقامة الخطبة لبني العباس . . استحوذ على القصور ، وأخذ جميع ما فيها من الأموال والفرش والأسلحة والذخائر ، وغير ذلك من أشياء بديعة يعز وجود مثلها في خزائن الملوك .

فمِن ذلك : ثلاث قطع بَلَخْش[١] ، أكبرها نيف وثلاثون مثقالاً ، والثانية ثمانية عشر مثقالاً ، والثالثة دونها ، ومن الطيب والعطر ما لا يجتمع مثله في الأعصار .

ومنها : قصب[٢] زمرد طوله شبر وكَسْر ، قطعة واحدة ، وحجمه مقدار الإبهام .

ومنها : طبل للقُوْلَنج[٣] .

ومنها : إبريق من الحجر المانع .

ومنها : سبع مئة درة يتيمة من الجوهر .

ومنها : خزانة كتب كانت من عجائب الدنيا ، تحتوي علىٰ ألفي ألف وست مئة ألف مصنف ، منها ألف ومئتان وعشرون نسخة « تاريخ ابن جرير الطبري » .

ولما استولىٰ صلاح الدين علىٰ جميع ما في القصور . . أرسل إلى الملك نور الدين يخبره بذلك ، ويستأمره في ما يصنع فيه ؛ لأنه كان ـ مع عظمة سلطانه وقوة تمكنه بمصر ـ لا يخرج عن أمر نور الدين ، ويعمل بجميع ما يأمره به عمل القوي الأمين ، ويرجع في مصالحه إلىٰ رأيه المتين ؛ لأنهما لم يزالا قائمين بالعدل والإحسان ، فرحمهما الله ، وجزاهما عن الإسلام خيراً .

وفي هـٰذه السنة [٥٦٧] : أسقط السلطان صلاح الدين عن أهل الديار المصرية جميع

---

(١) **بَلَخْش** : نوع من الجواهر ، يضاهي الياقوت في الجوهر والرونق .

(٢) **قصب** : يأتي بمعنىٰ أنبوب من جوهر ، وهو هنا من زمرد .

(٣) **القُولَنْج** : مرض معوي مؤلم ، وسببه التهاب القولون ، وأما **طبل القولنج** : فكان من خاصته أن الإنسان إذا ضربه خرج الريح من مخرجه ، ولهـٰذه الخاصية كان ينفع من القُولَنْج . انظر « وفيات الأعيان » (٣/ ٢٣٧) .

المكوس ، وكتب بذلك منشوراً ، وقرىء علىٰ رؤوس الناس يوم الجمعة بعد الصلاة ثالث صفر .

ومِن جملة ما في المنشور : فإنا نحمد الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ ما مكن لنا في الأرض ، ووفقنا لأداء كل نافلة وفرض ، ونصبنا لإزالة النَّصْب والظلم عن عباده ، واختارنا لنجاهد في الله حق جهاده ، وزهدنا في متاع الدنيا ؛ إذ هو الفاني القليل ، وألهمنا من محاسبة أنفسنا على النقير والقطمير والفتيل ، وأولانا من شجاعة السماحة .

فيوماً نَهَب ما اشتملت عليه الدواوين ، ويوماً نقطع ما سقاه النيل ، فالبشائر في أيامنا تترىٰ ، شفعاً ووتراً ، والمَسار كنظام الجوهر تتبع الواحدةَ منها الأخرىٰ .

ولما تقلدْنا أمور الرعية . . وجب علينا إسقاط المكوس الديوانية ، وأن نجعلها كأمس الذاهب ، ونضعها فلا ترفعها بعد ذلك يد كاتب ، ولا قلم حاسب ، وخرج أمرنا بكتابة هـٰذا المنشور ؛ ليوم العرض والنشور .

وفيه : أن مَن ناقضها . . نقض إبرامه ، ومَن أزالها . . زلزلت أقدامه ، ومَن أحلها . . حل دمه ، ومَن تعقبها . . حلت اللعنة عليه وعلىٰ عقبه ، ومَن زعم أنه إذا أخذها فقدِ احتاط بها لدنياه . . فقد أحاط به الجحيم الذي هو من حطمته .

وفي هـٰذه السَّنة [٥٦٧] : وقعت نفرة يسيرة بين الملك نور الدين وصلاح الدين رحمهما الله .

وذلك أن الملك نور الدين كان قد غزا في هـٰذه السَّنة بلاد الفرنج التي في السواحل ، وأحل بهم بأساً شديداً ، واستقر في أنفسهم منه نقمة ووعيداً .

ثم عزم علىٰ محاصرة الكرك ، فكتب إلىٰ صلاح الدين بأن يلتقيه بالعساكر المصرية ، إلى الكرك ؛ ليجتمعا هناك علىٰ مصلحة الإسلام والمسلمين ، فتوهم صلاح الدين من ذلك ، ومع ذلك فقد ركب في جيشه من الديار المصرية امتثالاً لأمره وسار أياماً ، ثم كر راجعاً معتذراً بقلة الظهر والخوف على الديار المصرية[١] .

فلما وصل كتابه بذلك إلىٰ نور الدين . . لم يقبل له عذراً ، وشق عليه ، وعظم لديه ،

---

(١) وذكر ابن خلكان في « وفيات الأعيان » (٧/ ١٦٣) سبب اعتذار صلاح الدين عن خروجه إلىٰ مصر فقال : (فأرسل كتابه يعتذر فيه عن الوصول باحتلال البلاد المصرية ؛ لأمور بلغته عن بعض شيعة العلويين ، وأنهم عازمون على الوثوب بها ، وأنه يخاف عليها مع البعد عنها ، فعاد إليها) .

وعزم على الدخول إلىٰ مصر لإخراج صلاح الدين عنها .

فبلغ الخبر إلىٰ صلاح الدين ، فجمع أهله وفيهم والده نجم الدين وخاله شهاب الدين الحارمي ، ومعهم سائر الأمراء وأعلمهم بالحال ، واستشارهم فيما يصنع ، فلم يجبه أحد منهم بشيء ، فقام ابن أخيه تقي الدين عمر وقال : إذا جاءنا . . قاتلناه وصددناه عن البلاد ، فشتمه الأمير نجم الدين وأسكته ، وأنكر ذلك عليه واستعظمه ، وكان ذا رأي ودين ومعرفة تامة وعقل وافر .

وقال لصلاح الدين : أنا أبوك ، وهـٰذا شهاب الدين خالك ، أتظن أن في هـٰؤلاء كلهم مَن يحبك ويريد لك الخير مثلنا ؟ فقال : لا ، فقال : والله ؛ لو رأيت أنا وهـٰذا خالك نورَ الدين . . لما أمكننا إلا أن نرحل إليه ونقبل الأرض بين يديه ، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف . . لفعلنا ، فإذا كنا نحن هـٰكذا . . فكيف يكون غيرنا ؟ وكل من تراه من الأمراء والعساكر لو رأىٰ نور الدين وحده . . لما تجاسر على الثبات علىٰ سرجه ، ولا وسعه إلا النزول وتقبيل الأرض بين يديه .

وهـٰذه البلاد له وقد أقامك فيها ، فإن أراد عزلك . . فأي حاجة له إلى المجيء ؟! يأمرك بكتاب مع نجَّاب[1] ؛ حتىٰ تقصد خدمته ويولي بلاده من يريد .

وقال للأمراء الحاضرين وغيرهم : قوموا عنا ، فنحن مماليك نور الدين ، يفعل بنا ما يريد ، فتفرقوا علىٰ ذلك .

وكتب أكثر الأمراء بصورة المجلس إلىٰ نور الدين ، فلما خلا نجم الدين بابنه . . قال له : أنت ما لَكَ عقل ؟! تجمع هـٰذا الجمع وتطلعهم علىٰ ما في نفسك ؟! فإذا سمع نور الدين أنك عازم علىٰ منعه من البلاد . . جعلك أهم الأمور إليه وأولاها بالقصد ، ولو قصدك . . لم تر معك من هـٰذا العسكر أحداً ، وكانوا يسلمونك إليه ، وأما الآن بعد هـٰذا المجلس ؛ فإن الأمراء يكتبون إليه ويعرفونه قولي ، وتكتب أنت إليه أيضاً في هـٰذا المعنىٰ ، وتقول له : أي حاجة إلىٰ قصدي ؟ يجيء نَجَّاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي حتىٰ أحضر بين يديك ، فإنه إذا سمع هـٰذا . . عدل عن قصدك ، واشتغل بما هو أهم عنده ، والأيام تندرج .

فكتب صلاح الدين كل ما أشار به والده ، فلما بلغ نور الدين ذلك . . طاب قلبه

---

(١) **نجَّاب** : راكب إحدى النجب ، وهي المليحة من الإبل .

وانصرفت همته عنه ، واستقل بجهاد الكافرين ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ .

وفيها : اتخذ الملك نور الدين الحَمَام الهوادي ، وذلك لامتداد مملكته واتساعها ؛ فإنها من حد النوبة إلىٰ همذان لا يتخللها إلا بلاد الفرنج لعنهم الله ، وكلها تحت قهره وهدنته .

فلذلك اتخذ في كل قلعة وحصن الحَمام التي تحمل الرسائل إلى الآفاق في أسرع مدة وأيسر عدة ، وما أحسن ما قال فيهن القاضي الفاضل[1] : الحمام ملائكة الملوك .

فكانت الأخبار تأتيه لوقتها ؛ لأنه رتب في كل ثغر رجالاً لذلك ، فإذا سمعوا أمراً . . كتبوه لوقته وعلَّقوه على الطائر ، فيصل في ساعته ، فينقل الرقعة منه إلى الطائر الآخر ، وهـٰكذا إلىٰ أن يصل إلىٰ نور الدين .

فحُفظت البلاد بذلك ، حتىٰ إن طائفة من الفرنج قصدوا ثغراً له ، فلما أشرفوا عليه . . بلغه الخبر في يومه ، فكتب إلى العساكر المجاورة لذلك الثغر بالاجتماع والمسير إليهم بسرعة ، وكبس العدو ، ففعلوا ذلك ، فظفروا بهم ، والفرنج كانوا قد أمنوا لبعد نور الدين عنهم ، فرحمه الله ، ما كان أحسن نظره للرعايا والبلاد!

* * *

وفي سنة ثمان وستين [وخمس مئة]

فيها : حاصر الملك صلاح الدين الكرك والشوبك ، فضيق علىٰ أهلها ، وخرَّب أماكن كثيرة ، ولـٰكن لم يظفر بها عامَه ذلك .

وفيها : اجتمعت الفرنج بالشام لأخذ زرع ، فوصلوا إلىٰ شمسكين[2] ، فبرز إليهم الملك نور الدين ، فهربوا منه إلى العراد ، فبعث خلفهم سرية ، فقتلوا خلقاً كثيراً منهم ، وغنموا ، ورجع باقي الفرنج خائبين ، ولله الحمد والمنة .

وفيها : أرسل الملك صلاح الدين أخاه شمس الدولة تورانشاه إلىٰ بلاد النوبة فافتتحها ، واستحوذ علىٰ معقلها ، وهو حصن يقال له : أبريم ، ثم استخلف على الحصن المذكور رجلاً من الأكراد ، وانضاف إليه جماعة من الأكراد البطالين ، فكثرت أموالهم ، وحسنت

---

(١) عبد الرحيم بن علي بن السعيد اللخمي ، كان سريع الخاطر ، كثير الرسائل ، قيل : لو جمعت رسائله وتعليقاته لم تقصر عن مئة مجلد ، توفي رحمه الله تعالىٰ سنة (٥٩٦هـ ـ ١٢٠٠م) .

(٢) زرع وشمسكين : قريتان في حوران ، لعل الأولىٰ تسمى اليوم : إزرع ، والثانية : الشيخ مسكين ، والله أعلم .

أحوالهم ، وحصلوا على المغانم والمسرات ، فلله الحمد والمنة .

وفيها : كانت وفاة الأمير نجم الدين والد الملك صلاح الدين ، سقط عن فرسه فمات بعد ثمانية أيام ، في السابع والعشرين من ذي الحجة منها .

وكان صلاح الدين قد حاصر الكرك والشوبك ، فلما بلغه الخبر . . تألم كثيراً ، وعز عليه ، وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وتأسف أيضاً لعدم حضوره عنده ، ثم قال : هبني حضرت ، فماذا كنت أصنع ؟!

وكان نجم الدين رحمه الله كثير الصلاة والصيام والصدقة ، كريم النفس ، جواداً ، مُمَدَّحاً ، شجاعاً ، باسلاً ، غزير الفضائل والخيرات ، عظيماً في أنفس الناس ، قد قنع من الدنيا باليسير ، يحب خشونة العيش في ملبسه ومأكله ، كثير الإفضال على الإخوان ، موصوفاً بكثرة الخير والدين وحسن السياسة ، لا يمر به أحد من أهل العلم . . إلا وصله وأحسن إليه ، ولا يسمع بأحد من أهل الزهد والعلم في بلد من البلاد . . إلا وأرسل إليه السلام مع الصِّلات .

وله خانقاه بمصر ، ومسجد وقناة خارج باب النصر في القاهرة ، وله بدمشق أيضاً خانقاه تعرف بالنجمية ، ولقد استنابه ابنه صلاح الدين على الديار المصرية حين خرج إلى الكرك وحكمه في الخزائن ، وكان مِن أكرم الناس ، وقد امتدحه الشعراء كالعماد الكاتب وغيره ، وأكثروا فيه من المراثي .

ولما مات . . دفن عند أخيه أسد الدين بدار الإمارة ، ثم نقلا إلى المدينة المشرفة في سنة ثمانين ، فدفنا بتربة الوزير جمال الدين الموصلي ، الذي كان مؤاخياً لأسد الدين .

فهنيئاً لهم ، فما أسعد حالهم موتاً وحياة! وما أحسن ما قيل في ذلك :

إذا كان قبري في البقيع بطيبة فلا شك أني في حمىٰ صاحب القبر

وفيها : سار الملك نور الدين إلىٰ بلاد عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج بن أرسلان بن سليمان السلجوقي ملك الروم ، وتفقد في طريقه بلاده ، وأصلح ما وجد فيها من الخلل ، وسار فافتتح مرعش وبَهَسْنىٰ ، وعمل في كل منهما بالحسنىٰ .

وفيها أيضاً : وصل الإمام الفقيه الكبير قطب الدين النيسابوري[1] ، كان فقيه عصره ،

(١) **قطب الدين النيسابوري** (٥٠٥ـ ٥٧٨هـ) : مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري ، أبو المعالي ، قطب=

ونسيج وحده ، فسُرَّ به الملك نور الدين سروراً كثيراً ، وأنزله بحلب بمدرسة باب العراق ، ثم أطلعه إلىٰ دمشق ، فدرَّس بزاوية الجامع الغربية المعروفة بالشيخ نصر المقدسي ، وشرع نور الدين في إنشاء مدرسة كبيرة للشافعية ، فأدركه الأجل قبل ذلك .

قال أبو شامة ـ قدس الله روحه ـ : وهي العادلية الكبرى التي عمرها بعده الملك العادل أبو بكر بن أيوب ، رحمهم الله تعالىٰ .

وفيها : هزم ملك الأرمن عساكر الروم ، وغنم منهم أموالاً جزيلة ، بعث أكثرها إلى الملك نور الدين وثلاثين رأساً من رؤوسهم ، فأرسلها نور الدين إلى الخليفة المستضيء بأمر الله العباسي ببغداد .

وفيها : بعث الملك صلاح الدين سرية قراقوش مملوك تقي الدين عمر إلىٰ بلاد إفريقية ، فملكوا بلاداً كثيرة ، منها : مدينة طرابلس الغرب وعدة مدن معها .

* * *

سنة تسع وستين [وخمس مئة]

فيها : سار الملك نور الدين إلىٰ بلاد الروم وفي خدمته الجيش ، وملك الأرمن ، وصاحب ملطية ، وخلق من الملوك والأمراء ، وافتتح حصوناً كثيرة من بلادهم ، ولله الحمد والمنة .

وحاصر قلعة الروم ، فصالحه صاحبها بخمسين ألف دينار جزية ، ثم عاد إلىٰ حلب مؤيداً منصوراً .

وفيها : كان فتح بلاد اليمن علىٰ يد الملك صلاح الدين ؛ لأنه بلغه أن ملكها سيِّىء السيرة والسريرة ، وأنه واجب الإزالة ، فعزم صلاح الدين علىٰ إرسال جيش إليه ، فقال أخوه الكبير تورانشاه : أنا أتوجه إليه ، فجعله مقدماً على الجيش ، وسار إليه في رجب ، فورد مكة شرفها الله تعالىٰ ، فاعتمر بها ، ثم سار منها إلىٰ زبيد .

فخرج إليه ملك اليمن ، وهو الذي يقال له : عبد النبي ، فقاتله ، فانكسر جيشه وولوا

= الدين ، فقيه شافعي ، تعلم بنيسابور ومرو ، ودخل دمشق سنة (٥٤٠ هـ) ، ثم استقر بها ، واتصل بالسلطان صلاح الدين الأيوبي ، وصنف له « عقيدة » كان السلطان يُقْرِئها أولاده الصغار ، وألف كتباً ، منها : « الهادي » في الفقه ، مختصر لم يأت فيه إلا بالقول الذي عليه الفتوىٰ ، وتوفي بدمشق . انظر « الأعلام » (٧/ ٢٢٠) .

مدبرين ، وأسر ملكهم عبد النبي وزوجته ، وأُخذت منهم أموال جزيلة وذخائر جليلة .

ثم سار إلىٰ عدن ، فقاتله ملكها ، فهزمه أيضاً وأسره ، وأخذ البلد ، ومنع الجيش من نهبها ، وقال : ما جئنا لنخرب البلاد ، وإنما جئنا لعمارتها .

ثم سار في الناس سيرة جميلة عاملهم بالعدل والإحسان والأيادي الحسان إلىٰ كل إنسان ، فأحبوه محبة عظيمة ، وتسلم بقية الحصون والمعاقل والمخاليف[1] .

واستوىٰ[2] له ملك اليمن ، وخطب فيها للخليفة المستضيء العباسي ، وقتل الدعي المسمىٰ بعبد النبي .

وكتب تورانشاه إلىٰ أخيه الملك صلاح الدين يخبره بما فتح الله عز وجل علىٰ يديه ، فكتب الملك صلاح الدين إلى الملك نور الدين يبشره بفتح اليمن ، فأرسل الملك نور الدين إلى الخليفة ببغداد يخبره بذلك وبإقامة الخطبة له فيها ، ففرح الخليفة والمسلمون بذلك فرحاً عظيماً .

وفيها[3] : كانت وفاة نور الدين رحمه الله تعالىٰ .

* * *

سنة سبعين [وخمس مئة]

في أولها : عزم السلطان صلاح الدين على الدخول إلى الشام ؛ ليحفظه من الفرنج ، ولـٰكن دهمه ما هو أهم من ذلك ، وهو أن الفرنج قدموا إلىٰ ساحل البلاد المصرية بجيوش كثيرة ، ومعهم من آلات الحصار والرجال والمقاتلة شيء كثير ، من ذلك مئتا شيني[4] ، في كل منها مئة وخمسون مقاتلاً وأربع مئة قطعة أخرىٰ .

وكان قدومهم من صقلية إلىٰ ظاهر إسكندرية قبل رأس السَّنة بأربعة أيام ، فنصبوا

---

(١) **المخاليف** : واحدها مخلاف ، وهي عند أهل اليمن : ما اجتمع من القرىٰ والمحال الكثيرة الأشجار .

(٢) أي : استقر .

(٣) أي : في السنة المذكورة .

(٤) **شيني** : طراز من السفن المستخدمة للأغراض الحربية عرفها اليونان والرومان واستعملها العرب في العصر الإسلامي ، تسير بالشراع ، يصل عدد مجاديفها إلىٰ ١٠٠ ، وهي مزودة بأبراج خاصة ، وتحمل علىٰ متنها حوالي ١٥٠ من المقاتلين المزودين بأسلحتهم .

المنجنيقات والدبابات حول البلد ، وبرز أهلها إليهم ، فقاتلوهم قتالاً شديداً ، واستمر القتال أياماً ، وقتل من الفريقين خلائق .

ثم اتفق أهل البلد علىٰ إحراق المنجنيقات والدبابات ، فأحرقت ، فأضعف ذلك قلوب الفرنج وخذلهم ، ثم كبسهم المسلمون في منازلهم ، فقتلوا خلقاً كثيراً ، وغنموا أموالهم ، وانهزم الكفار من كل وجه ، ولم يبق لهم ملجأ إلا البحر أو القتل أو الأسر ، وغنم المسلمون أموالهم وخيلهم وأثقالهم وما لهم من الخيام ، ورجع مَن بقي من الفرنج إلىٰ بلادهم خائبين .

ثم بعد ذلك ظهر رجل يعرف بالكنز ، وكان من مقدَّمي الديار المصرية من العبيديين الدعيين ، واستخف قوماً من الرعاع ، وجمع عليه خلقاً من الأسواق ، وقال : إنه يعيد الدولة الفاطمية ، ويدحض الجيوش الصلاحية ، فاجتمع عليه جمع كثير .

وقصد قوص[1] وأعمالها ، وقتل طائفة من أمرائها ورجالها ، فجرد إليه الملك صلاح الدين طائفة من الجيش ، وجعل المقدم عليهم أخاه الملك العادل أبا بكر ، فلما التقيا . . هزمه أبو بكر ، وبدد شمله ، وشرد أهله ، ثم قتله .

وهـٰذا كما جرىٰ لمقدم بني حنيفة[2] في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، لا جرم أن الله عز وجل جعل دولة بني أيوب عالية منيعة .

ثم إنه لما تمهدت البلاد المصرية ولم يبق بها رأس من جهة الدولة العُبَيْدية . . سار السلطان صلاح الدين متوجهاً إلى الشام قاصداً إصلاحها ، وخوفاً من استيلاء الفرنج عليها ، وقصد ـ رحمه الله ـ جمع الكلمة ، والإحسان إلىٰ أهلها ، ونصرة الإسلام ، ودفع الطغام[3] ، وخفض الصلبان ، ورضا الرحمـٰن جل جلاله .

فسار من مصر إلى البِركة[4] في أول صفر ، وأقام هناك حتى اجتمع العسكر ، واستناب علىٰ مصر أخاه العادل .

---

(١) **قُوْص** : مدينة عظيمة واسعة في صعيد مصر ، بينها وبين الفسطاط اثنا عشر يوماً ، وأهلها أرباب ثروة واسعة ، وهي محط التجار القادمين من عدن .

(٢) أي : مسيلمة الكذَّاب .

(٣) **الطَّغَامُ** : أوغاد الناس .

(٤) **البركة** : متَنزَّه بظاهر القاهرة من الجهة البحرية ، ويسمىٰ بِركة الجُبّ ، أو بركة الحُجَّاج .

ثم سار إلىٰ بِلْبيس ، ثم إلىٰ بصرىٰ ، فسار في خدمته صاحبها صدِّيق بن جاولي ، فدخل دمشق يوم الإثنين سلخ ربيع الأول ، مِن غير أن يقع منع أو خلف ، ولله الحمد والمنة علىٰ ذلك ، وذلك لأن صاحبها شمس الدين بن مقدم كان يكاتب الملك صلاح الدين ، ويحضه على القدوم ، ويعرفه بما في قدومه من مصلحة الإسلام والمسلمين .

فلما قدم . . سلمه البلد ، فنزل السلطان صلاح الدين أولاً في دار والده ، وهي دار العقيقي ، وهي التي تنسب : مدرسة الملك الظاهر .

وكان نائب القلعة الطواشي جمالَ الدين ريحان ، فجاء إلىٰ خدمة السلطان ، وقبَّل الأرض بين يديه ، فأكرمه واحترمه وأحسن إليه ، وقال : أنا أحق بتربية ولد الملك نور الدين ؛ لِمَا له عليَّ من الإحسان .

وأقام في دمشق العدل والإحسان ، وأزال كل ظلم وعدوان ، وأبطل المكوس التي أحدثت بعد نور الدين .

ولما استقر أمر دمشق له . . استناب عليها أخاه طغتكين ، الملقب سيف الإسلام ، ثم سار منها إلىٰ حلب ، فأخذ حمص ، ثم حماة ، ثم حلب ، ثم كر راجعاً إلىٰ دمشق .

فلما كان بحماة . . جاءت رسل الخليفة المستضيء من بغداد ومعهم الخلع والتشريفات والأعلام السود ، وتوقيع من الديوان بالسلطنة ببلاد مصر والشام ، وأفيضت الخلع علىٰ أهله وأقاربه وأصهاره وأصحابه وأعوانه وأنصاره .

وكان يوماً مشهوداً ، واستناب علىٰ حماة ابن خاله وصهره الأمير شهاب الدين محمود .

ثم سار إلىٰ حمص ، فأطلقها لابن عمه ناصر الدين كما كانت من قبل لأبيه الأمير أسد الدين شيركوه ، ثم إلىٰ بعلبك ، ثم البقاع ، ثم رجع إلىٰ دمشق في ذي القعدة مؤيداً منصوراً .

* * *

سنة إحدىٰ وسبعين [وخمس مئة]

فيها : أقام السلطان بدمشق في مرج الصُّفَّر ، وطلب الفرنج منه المهادنة ، فأجابهم إلىٰ ذلك ؛ لأن الشام كان مجدباً ، فاحتاج إلىٰ ذلك ، وأرسل جيشه إلىٰ مصر مع القاضي الفاضل إلىٰ أن يستغلوا[1] ، ثم يقدموا .

---

(١) **يَسْتَغِلُّوا** : يأتوا بالغلال .

وكانت إقامته بالشام غاية الحزم والتدبير والمصلحة للمسلمين لوجوه :

منها : حفظ ما استجد له من الممالك .

ومنها : إرهاب الأعداء من الفرنج وغيرهم عن قصد تلك البلاد .

وفي ذي الحجة عاد شمس الدولة تورانشاه أخو السلطان صلاح الدين من اليمن ؛ لكثرة شوقه إلىٰ أخيه وذويه ، ففرح به أخوه والمسلمون فرحاً عظيماً ، واستنابه علىٰ دمشق وأعمالها .

وفيها : بعث تقي الدين عمر ابن أخي السلطان مملوكَه بهاء الدين قراقوش في جيش عظيم إلى المغرب ، ففتح بلاداً كثيرة هنالك ، وغنم أموالاً جزيلة ، ثم عاد إلىٰ مصر ، وطابت له ، وترك البلاد .

* * *

سنة اثنتين وسبعين [وخمس مئة]

فيها : ولَّى السلطان صلاح الدين حلب وأعمالها لولد نور الدين الملك الصالح ، فأرسل الملك الصالح أختاً له صغيرة إلى السلطان ، وهي الخاتون بنت نور الدين تطلب منه زيادةً قلعة عزاز ، فحين رآها السلطان . . قام إليها وأكرمها ، وأطلق لها من الجواهر النفيسة والتحف شيئاً كثيراً ، وأجاب سؤالها ، ثم رحل عن حلب إلىٰ دمشق ، فدخلها سابع عشر صفر .

وفيه [أي : في صفر] وقف الضيعة المعروفة بحزم(١) على الزاوية الغزالية(٢) .

وفيه [أي : في صفر] أيضاً : تزوج بالست خاتون عصمة الدين بنت معين الدين ، وكانت زوجة نور الدين ، وولي تزويجها منه أخوها الأمير سعد الدين مسعود ، وحضر القاضي ابن أبي عصرون العقد ، ثم سار إلى الديار المصرية ، فوصل سادس عشر ربيع الأول ، وتلقاه أخوه الملك العادل إلىٰ بحر القلزم ، ومعه من التحف والهدايا شيء كثير ، فأقام إلىٰ شعبان .

ثم سار إلى الإسكندرية ، فأسمع ولديه الأفضل علي والعزيز عثمان على الحافظ

---

(١) حزم : قرية في حوران .

(٢) **الزاوية الغزالية** : وهي الزاوية الغربية من المسجد الأموي ، سميت بالغزالية لنزول الإمام الغزالي فيها .

السِّلَفي ، وتردد معهما إليه ثلاثة أيام متوالية في أول رمضان ، وأكمل عمارة سورها ، وأمر بتجديد مراكب وسفن ، وشحنها بالرجال والمقاتلة ، وأمرهم بأن يغزوا جزائر البحر ، وأقطعهم إقطاعات كثيرة ، وأرصد لمصالح المسلمين ما يكفيهم .

ثم عاد إلى القاهرة في أثناء رمضان ، فأكمل صومه بها .

وفيها : أمر ببناء قبة الشافعي رحمه الله ، وبنىٰ مدرسة عظيمة للشافعية عنده ، وفوض البناء والتدريس إلى الشيخ الإمام العلامة الزاهد نجم الدين الخُبُوشاني رحمه الله ، وقد ذكرت ترجمتَه وشيئاً من مناقبه الجليلة ومآثره الجميلة في كتابي « المطالب العلية في طبقات الشافعية »[1] .

وفيها أيضاً : أمر ببناء المارستان بالقاهرة ، ووقف عليه أوقافاً كثيرة جليلة ، رحمه الله .

* * *

سنة ثلاث وسبعين [وخمس مئة]

فيها : أمر السلطان صلاح الدين قدس الله روحه ببناء قلعة الجبل ، وإحاطة سور على القاهرة ومصر .

وفي جمادىٰ منها : سار من مصر قاصداً غزو الفرنج ، فانتهىٰ إلى الرملة ، فسبىٰ وسلب ، وغنم وغلب ، وأسر وقسر ، وكسب وكسر .

ثم إن جيشه تشاغلوا بالغنائم ، وتفرقوا في القرىٰ والمحال ، وبقي السلطان في طائفة من الجيش منفرداً ، فهجمت عليهم الفرنج في عدد كبير من المقاتلة ، فما سلم السلطان إلا بعد جهد جهيد ، وتراجع الجيش بعد تفرقهم ، واجتمعوا على السلطان ، وخاف أهل مصر على السلطان خوفاً عظيماً ، وما صدقوا برؤيته حتىٰ رأوه سالماً ، ففرحوا بسلامته فرحاً عظيماً ، وضربت البشائر في البلاد فرحاً بسلامته ؛ فإنه حصن المسلمين ، ولقد صبر وثبت ثباتاً عظيماً راجياً للشهادة في سبيل الله عز وجل .

وأُسر ولد الملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخي السلطان ، فبقي عندهم سبع سنين

---

(١) **الخُبُوشاني** (٥١٠ـ٥٨٧ هـ) : محمد بن الموفق بن سعيد بن علي ، أبو البركات نجم الدين ، فقيه شافعي ، والخبوشاني نسبةً إلىٰ خبوشان في نيسابور ، حظي عند السلطان صلاح الدين ، وصنف « تحقيق المحيط » ـ وهو ستة عشر مجلداً ـ في الفقه ، شرح فيه كتاب « الوسيط » للإمام الغزالي ، وقال السخاوي : رد علىٰ أهل البدع واستتابهم ، وأظهر معتقد الأشعرية بالديار المصرية ، توفي بالقاهرة . انظر « الأعلام » (٧/ ١٢٠) .

مأسوراً ، وقتل ولده الآخر وكان شاباً قد طرَّ شاربه ، فحزن على المقتول والمفقود ، وصبر واحتسب ، وقال : ما ثَم إلا الرضا والتسليم لأمر العزيز العليم ، إنا لله وإنا إليه راجعون .

وأُسِر الفقيهان الأخوان : ضياء الدين وظهير الدين الهكاريان ، فافتداهما السلطان بعد سنين بتسعين ألف دينار .

وفيها : قصدت الفرنج حارم ، فسمع بهم السلطان ، فسار إليهم من مصر ، فدخل دمشق في آخر شوال ، فلما سمع الفرنج بقدوم السلطان . . وَلَّوا مدبرين خائبين ، فلله الحمد والمنة عدد عفوه عن خلقه ، وعدد ما أحصىٰ علمه ، لا إلـٰه إلا هو العزيز الحكيم .

* * *

سنة أربع وسبعين [وخمس مئة]

فيها : ورد كتاب القاضي الفاضل من مصر إلى السلطان وهو بدمشق يهنئه بسلامة أولاده الملوك الاثني عشر ، يقول في بعضه : وهم ـ بحمد الله ومنِّهِ ـ بهجة الدنيا وزينتها ، ولذة الحياة الدنيا وزهرتها .

وفيها أيضاً : أسقط المكوس عن الحُجاج بمكة ، وقد كان يؤخذ منه شيء كثير ، لا سيما حجاج المغرب ، حتىٰ كانوا يأخذون على الرؤوس ، فمَن عجز عن أداء ما عليه . . حبس أيام الحج ، فيفوته الحج .

وأمر أن يعوِّض أمير مكة بغلال تحمل إليه في كل سنة ، وهي ثمانية آلاف إردَب[1] ؛ لتكون عوناً له ولأتباعه ، وأنها تباع في مكة ؛ ليحصل بها الرفق للمجاورين ، وقرر أيضاً للمجاورين غلات تُحمل إليهم ، وصِلات تَصِل إليهم ، فرحمه الله ورضي عنه ، وجزاه عن الإسلام خيراً .

وفي رمضان وصلت خلع الخليفة إلى السلطان من بغداد وهو بدمشق ، وزيد في ألقابه مُعِزُّ أمير المؤمنين ، وخلع علىٰ أخيه تورانشاه ، ولقب بمصطفىٰ أمير المؤمنين .

وفيها : جهز السلطان ابن أخيه فَرُّخشاه بين يديه لقتال الفرنج ، وأمره أن يدانيهم حتىٰ يتوسطوا البلاد ، ولا يقاتلهم حتىٰ يقدم عليه .

---

(١) الإردَبُّ : مكيال ضخم لأهل مصر ، يسع أربعة وعشرين صاعاً .

فلما التقوا . . عاجلوه بالقتال ، فنصره الله عز وجل وكسرهم ، وقتل من ملوكهم صاحب الناصرة وغيرهم ، وكان من أكابر ملوكهم .

ثم سار السلطان في أثر ابن أخيه ، فما وصل إلى الكسوة . . إلا وقد تلقته الرؤوس على الرماح والغنائم والأسارىٰ .

وفي هٰذه السَّنة : شرعت الفرنج في بناء قلعة جعلوها مرصاداً لحرب المسلمين وقطع الطريق عليهم ، ونقضت أيضاً ملوكهم العهود التي كانت بينهم وبين السلطان ، وأغاروا علىٰ نواحي البلاد من كل جانب حتىٰ يشتغل السلطان عنهم ، وتتفرق جيوش المسلمين .

فجعل السلطان ابن أخيه تقي الدين عمر بحماة ومعه شمس الدين ابن المقدم وسيف الدين علي بن أحمد المَشْطُوب ، وبحمص ابن عمه ناصر الدين بن أسد الدين .

وبعث إلىٰ أخيه الملك العادل أبي بكر نائب مصر يأمره بأن يرسل إليه ألفاً وخمس مئة فارس يستعين بهم على الفرنج .

وكتب إلى الفرنج يأمرهم بأن يخربوا الحصن الذي بنوه ، فلم يجيبوا إلىٰ ذلك ، إلا أن يبذل لهم ما غرموه ، فبذل لهم ستين ألف دينار ، فأبوا ، فوصلهم إلىٰ مئة ألف دينار ، فلم يقبلوا .

فقال ابن أخيه تقي الدين عمر : ابذل هٰذا المال علىٰ أجناد المسلمين ، وسِرْ بهم إلىٰ هٰذا الحصن فخرِّبْهُ ، ففعل ذلك ، فكان كما قال ، كما سيأتي بيانه في السَّنة الآتية إن شاء الله عز وجل .

* * *

سنة خمس وسبعين [وخمس مئة]

استهلت هٰذه السَّنة والسلطان وجيشه في بانياس ، فقصده الفرنج ، فنهض إليهم ، فما هو إلا أن تواجه الفريقان واصطدم الجيشان ، فنصر الله عز وجل أولياءه المؤمنين ، وهزم أعداءه الكافرين ، ففرت ألوية الصلبان ذاهبة ، وخيل الله عز وجل لرقابهم راكبة ، فقتل منهم خلقاً كثيراً ، وجماً غفيراً ، وأسر من ملوكهم جماعات ، وأنابوا إلى السمع والطاعة ، منهم : صاحب الرملة ، وصاحب طبرية ، وقسطلان ، وآخرون من ملوكهم ، وخلائق من أبطالهم والمقدمين عندهم ، ومن فرسان القدس جمع كثير نحو ثلاث مئة أسير من أكابر النصارىٰ .

فاستعرضهم السلطان في الليل حتىٰ أنار الفجر ، وصلىٰ يومئذ الصبح بوضوء العشاء الآخرة ، وكان السلطان في تلك الليلة جالساً في نحو العشرين ، وهم في هـٰذه العِدة الكثيرة ، ولـٰكن الله سلَّم إنه عزيز حكيم .

ثم أرسل بهم إلىٰ دمشق ؛ ليحبسوا في قلعتها ، فافتدىٰ صاحب الرملة نفسه بعد سنة بمئة ألف وخمسين ألف دينار صوري ، وإطلاق ألف أسير من بلاده ، فأجيب إلىٰ ذلك كله ، وكذلك افتدىٰ جماعة منهم أنفسَهم بالأموال الجزيلة ، ومنهم مَن مات في السجن .

وكان قد رتب السلطان على الفرنج جيشاً آخر مقيماً في البحر ، فجاءت مراكب فيها إفرنج ، فقصدهم المسلمون وكسروهم ، وغنموا منهم ألف رأس من السبْي وعادوا إلى الساحل .

وقد امتدح الشعراء السلطان في هـٰذه الغزاة بمدائح كثيرة ، وطولع بذلك إلىٰ بغداد ، فضربت بها البشائر ، وفرح المسلمون فرحاً عظيماً .

وكان الملك المظفر تقي الدين عمر غائباً عن هـٰذه الغزاة مشتغلاً بما هو أعظم منها ، وهو أن ملك الروم قليج[1] أرسلان أرسل يطلب حصن رعبان ، وزعم أن نور الدين اغتصبه منه ، وأن ولده قد أغضىٰ له عنه ، فلم يجبه السلطان إلىٰ ذلك .

فبعث ملك الروم عشرين ألف مقاتل من أجل ذلك ، فأرسل السلطان ابن أخيه تقي الدين عمر في ثمان مئة فارس ، منهم سيف الدين علي بن أحمد المشطوب .

فلما التقى الجيشان . . نصر الله المسلمين وكسر جيش الكافرين ، واستقرت يد السلطان علىٰ حصن رَعْبان .

وكان تقي الدين يرىٰ أن هـٰذه كرامة أكرم الله عز وجل بها أولياءه المؤمنين ؛ فإنهم كانوا ثمان مئة ، فهزموا عشرين ألفاً ، وقيل : ثلاثين ألفاً ، ولما ولوا مدبرين . . كثر فيهم القتل ، وأخذوا جميع ما تركوه في خيامهم ، ولله الحمد والمِنة .

أما تخريب حصن بيت الأحزان وهو قريب من صفد . . فإن السلطان سار بجيشه إلىٰ هـٰذا الحصن ، وكان عرض حائطه يزيد علىٰ عشرة أذرع ، وكل حجر من أحجاره يكون سبعة أذرع ، وعدتها تزيد علىٰ عشرين ألف حجر ، بحيث إن الحجر لا يستقر في مكانه إلا بأربعة

---

(١) في النسخ : (قرا أرسلان) والمثبت من « الروضتين » .

دنانير فصاعداً ، وقصده وحاصره ، ونقبه من جميع جهاته ، وألقىٰ فيه النيران ، فجعله دكاً ، وغنم المسلمون جميع ما فيه من الحواصل ، فكان فيه مئة ألف قطعة من السلاح ، إلىٰ غير ذلك ، وأخذ منه سبع مئة رجل ، فقتل بعضاً وأسر بعضاً ، وأرسلهم إلىٰ دمشق ، ثم عاد إلىٰ دمشق مؤيداً منصوراً ، ولله الحمد والمِنة .

ومات من أمرائه في هـٰذا الحصار عشرة بسبب ما أصابهم من الحر والوباء مدة الحصار ، وهي أربعة عشر يوماً .

وفي هـٰذه السنة : أقطع السلطان لابن أخيه عز الدين فَرُّخشاه بعلبك ، وأغار علىٰ صفد وأعمالها ، فقتل طائفة كثيرة .

وفيها : توفي المستضيء بأمر الله ، وولي ابنه الناصر لدين الله أبو العباس أحمد رحمه الله .

***

سنة ست وسبعين [وخمس مئة]

فيها : هادن السلطان الفرنج ، وسار إلىٰ بلاد الروم ، وأصلح بين ملوكها ، وكرَّ علىٰ بلاد الأرمن ، وفتح كثيراً من حصونهم ، وأخذ غنائم كثيرة جداً ، ثم صالحه علىٰ مال يحمله إليه ، وأسارىٰ يطلقهم من أسره ، ثم عاد السلطان مؤيداً منصوراً ، فدخل حماة آخر جمادى الآخرة .

وفيها : توفي الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه أكبر إخوة السلطان ، فبلغه الخبر وهو بظاهر حمص ، فحزن حزناً شديداً ، وجعل ينشد باب المراثي من الحماسة ، وكان يحفظها ، فمنها :

أَلِمَّا علىٰ معن وقولا لقبره ... سقتك الغوادي مربعاً ثم مربعا
فيا قبر معن أنت أول حفرة ... من الأرض خطَّتْ للسماحة مضجعا
ويا قبر معن كيف واريت جوده ... وقد كان منه البر والبحر مترعاً
بلىٰ قد وَسِعْتَ الجودَ والجود ميت ... ولو كان حياً ضقت حتىٰ تصدعا
فتىً عِيشَ في معروفه بعد موته ... كما كان بعد السيل مجراه مرتعا
ولما مضىٰ معن مضى الجود وانقضىٰ ... وأصبح عِرنِينُ المكارم أجدعا

وفي رجب قدمت رسل الخليفة الناصر بالخِلَع والهدايا إلى السلطان ، فلبس الخلعة بدمشق وزُينت البلد ، وكان يوماً مشهوداً ، ثم سار من دمشق إلىٰ مصر لينظر في أحوالها ومصالح المسلمين ويصوم هناك ، وعَزْمُه الحجُّ ، واستناب على الشام ابن أخيه عز الدين فرُّخشاه ، فيوم دخوله إلىٰ مصر . . كان يوماً مشهوداً ، ولم يتفق له الحج ؛ لاشتغاله بالجهاد .

* * *

سنة سبع وسبعين [وخمس مئة]

استهلت والسلطان مقيم بالقاهرة ، مواظب علىٰ سماع الأحاديث النبوية ، علىٰ قائلها أفضل الصلاة والسلام .

وفي شوالٍ توجه إلى الاسكندرية ؛ لينظر ما أَمَر به من تحصين سورها ، وعمارة أبراجها وقصورها ، وليسمع « موطأ مالك » رحمه الله على الشيخ أبي طاهر بن عوف عن الطُّرْطُوشي[1] ، وأرسل القاضي الفاضلُ يهنىء السلطان بهـٰذا السماع .

وفي هـٰذه السنة : عزم البرنس صاحب الكرك ـ لعنه الله ـ علىٰ قصد أرض الحجاز ؛ ليتوصل منها إلى المدينة المشرفة ، فجهز له السلطان جيشاً من دمشق ؛ ليكون حاجزاً له عن أن يصل إلىٰ أرض الحجاز ، ففعل الجيش ذلك ، وصده الله عز وجل عن ذلك بحوله وقوته سبحانه وتعالىٰ .

وفيها : ولى السلطان أخاه سيف الإسلام طغتكين نيابة اليمن بعد وفاة أخيه المعظم تورانشاه الذي كان افتتحها أولاً ، كما مر بيانه .

وفيها : غدرت الفرنج ونقضوا عهودهم ، وقطعوا السبيل على المسلمين براً وبحراً ، سراً وجهراً ، ففرَّج الله عز وجل عن المسلمين ، وأغرق خلقاً كثيراً من الفرنج نحو ثلاثة آلاف ، وذلك كله قبل خروج السلطان من مصر .

---

(١) في النسخ : (الطرسوسي) ، والمثبت من « الروضتين » ولعله الصواب ؛ وذلك أن أبا الطاهر هـٰذا هو السِّلفي ، وهو الذي روىٰ عن الطرطوشي شيخ المالكية ، فهو : محمد بن الوليد الأندلسي ، فقيه ، زاهد ، متواضع ، نسبته إلىٰ طُرْطُوشة ، وهي آخر حد المسلمين من شمالي الأندلس . انظر « سير أعلام النبلاء » (١٩/ ٤٩٠ـ٤٩٣) .

ثم إن السلطان جهز إليهم سرية ، فكسروهم وأسروا منهم ألفاً وسبع مئة أسير ، فلله الحمد والمنة .

وفيها : سار قراقوش ـ أحد مماليك تقي الدين عمر ـ إلىٰ بلاد إفريقية ، ففتح بلاداً كثيرة ، وقوي أمره وتمكنه في تلك البلاد ، وصار ذا كلمة مطاعة ، ثم عاد إلىٰ مصر ، فأمَره السلطان بإتمام السور المحيط بالقاهرة ومصر .

وولد للسلطان ولدان ، وهما : المعظم تورانشاه ، والملك المحسن أحمد ، وكان بين ولادتهما سبعة أيام ، فزينت البلاد ، واستمر الفرح أربعة عشر يوماً .

* * *

سنة ثمان وسبعين [وخمس مئة]

في خامس المحرم منها : توجه السلطان من مصر إلى الشام لجهاد أعداء الله الكافرين ، والإحسان إلىٰ أولياء الله المؤمنين ، وكان ذلك آخر عهده بمصر ، وذلك بعد أن أراه الله عز وجل بلوغ مناه قبل حلول الوفاة ، فأقر عينه من أعدائه ، وفتح علىٰ يديه بيت المقدس وما حوله وما حواه .

ولمَّا عزم على السفر . . أحضر أولاده حوله ، وجعل يشمهم ويقبلهم ويضمهم ، فأنشده أحد مؤدبي أولاده :

تَمتَّع من شَميم عِرارِ نجدٍ ... فما بعد العَشيَّة من عِرارِ

فكان كما قال ، لم يعد إليها بعد ذلك .

ولمَّا توجه . . أغار في طريقه علىٰ أطراف بلاد الفرنج بأرض الكرك ، وجعل المقدم على الميمنة أخاه تاج الملوك ، وأمره بأن يسير ناحية عنه ؛ ليتمكن من بلاد العدو .

فالتقوا على الأزرق[1] بعد سبعة أيام ، وقد أغار نائب دمشق أخو السلطان عز الدين فرُّخشاه علىٰ بلاد طبرية وما حولها ، وافتتح حصوناً كثيرة ، وأسر منهم ألفاً ، وغنم عشرين ألف رأس من الأنعام ، فلله الحمد والمِنة .

ودخل السلطان دمشق سابع عشر صفر ، ثم سار في أول ربيع الأول ، فقاتل الفرنج في

---

(١) **الأزرق** : موضع في طريق حجاج الشام .

نواحي طبرية وبيسان تحت حصن كوكب ، فقُتل من الفريقين خلائق ، لٰكن كان النصر للمسلمين والحمد لله رب العالمين ، ورجع السلطان مؤيداً منصوراً .

ولما عجز البرنس صاحب الكرك ـ لعنه الله ـ عن إيصال الأذىٰ إلى المسلمين في البر . . عمل مراكب في بحر القلزم ؛ ليقطعوا الطريق على الحُجاج والتجار ، فوصل أذاهم إلىٰ عَيْذَاب ، وخاف أهل المدينة المشرفة مِن أذاهم .

فوصل الخبر إلىٰ نائب مصر ، وهو العادل أبو بكر ، فتقدم إلى الأمير حسام الدين لؤلؤ صاحب الأسطول بأن يعمل مراكب في بحر القلزم لمحاربة أصحاب البرنس ، ففعل ذلك ، فظفروا بهم من كل موطن ، وقتَلوا منهم خلقاً كثيراً ، وحرَّقوا وغرَّقوا ، وسبوا وأسروا ، وقهروا في مواطن كثيرة ومواقف هائلة ، وحصل الأمن ـ والحمد لله ـ في البر والبحر بإذن الله عز وجل ونصرِه وتأييده .

وأرسل السلطان إلىٰ أخيه يشكر مساعيه ، وأرسل إلى الخليفة أيضاً يخبره بما فتح الله عز وجل علىٰ يديه من الفتوحات براً وبحراً ، وبما أسبغ عليه من نعمه سراً وجهراً .

* * *

سنة تسع وسبعين [وخمس مئة]

في رابع المحرم منها : تسلم السلطان مدينة آمد بعد حصار طويل ، فوجد فيه شيئاً كثيراً من الحواصل(١) وآلات الحرب والسلاح ، حتىٰ إنه وجد برجاً مملوءاً من نصول النُّشَّاب ، وبرجاً آخر فيه مئة ألف شمعة ، وأشياء يطول شرحها ، ووجد فيه أيضاً خزانة كتب فيها ألف ألف مجلد وأربعون ألف مجلد ، فوهبها كلها للقاضي الفاضل ، فانتخب منها حمل سبعين جمَّازة(٢) .

ثم إن السلطان وهب جميع البلد بما فيه لنور الدين محمد بن قرا أرسلان ؛ لأنه كان قد وعده بها ، فرأىٰ إيجاب الوفاء بالوعد ، فقيل له : إن الحواصل لم تدخل في وعدك ، فقال : لا أبخل بها عليه وقد صار من أصحابنا وأنصارنا ، وكان في خزائنها ثلاثة آلاف ألف دينار .

---

(١) **الحواصل** : جمع حاصل ، وهو : ما خلص من الفضة ونحوها من حجارة المعدن .
(٢) **الجَمَّازَةُ** : مركب سريع يتخذه الناس في المدن شبه العجلة التي تجرها الخيل .

وقد امتدحه الشعراء علىٰ ذلك الصنيع الجميل ، وهو حقيق بالثناء الجزيل ، وما أحسن ما قال بعضهم في ذلك :

قل للملوك تنحُّوا عن ممالككم فقد أتىٰ آخذ الدنيا ومعطيها

ثم سار السلطان في بقية المحرم إلىٰ حلب ، فتسلمها بعد خطوب كثيرة ، واستقر الحال في ذلك علىٰ عوض يطلقه السلطان لصاحب حلب ، وهو عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي بن آق سنقر ، وهو أن يرد عليه سنجار ، فأجاب إلىٰ ذلك ، فخرج صاحب حلب ، ونزل إلىٰ خدمة السلطان ، فزاده الخابور ، والرقة ، ونصيبين ، وسروج ، واشترط عليه إرسال العسكر في الخدمة للغزاة ، فقال : سمعاً وطاعة .

ثم سار وودعه السلطان ، ومكث السلطان بعد ذلك أياماً بحلب غير مكترث بها ، ثم طلع إلى القلعة في السابع والعشرين من صفر ، وعمل له الأمير طُمان وليمة عظيمة ، وكان يوماً مشهوداً مشهوراً ، وسمعه بعضهم وهو داخل إلى القلعة يتلو هـٰذه الآية : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ .

ولما دخل دار المُلك . . قرأ قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ﴾ .

ولما دخل مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام . . صلىٰ فيه ركعتين ، وأطال السجود والدعاء والتضرع ، وعمل بعد ذلك وليمة عظيمة ، وضربت البشائر وخلع السلطان على الأمراء ، وأحسن إلى العلماء والفقهاء والفقراء ، وألقت الحرب أوزارها ، وقضت القلوب أوطارها ، وكانت كما قيل :

فألقت عصاها واستقر بها النوىٰ كما قر عيناً بالإياب المسافر

وامتدحه الشعراء بمدائح كثيرة ، وأسقط عن حلب وسائر بلاد الجزيرة المكوس والضرائب ، فجزاه الله عن الإسلام خيراً .

وبشره بعض الأئمة بفتح القدس ، فقال له :

وفتحك القلعةَ الشهباء في صفرٍ مبشر بفتوح القدس في رجبِ

وكان كما قال ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله عز وجل .

ثم سار من حلب في أواخر ربيع الآخر ، وجعل النائب بها ولده غازي ، وفوض القضاء بها إلىٰ محيي الدين بن الزكي ، فاستناب ابن الزكي فيها نائباً ، وسار في خدمة السلطان .

فدخل دمشق ثالث جمادى الأولىٰ ، وقد عزم علىٰ قتال الفرنج ، فسار في أول جمادى الآخرة نحو بيت المقدس .

فوصل إلىٰ بيسان ، فنهبها ، ونزل علىٰ عين جالوت ، وأرسل بين يديه سرية عظيمة فيها مملوك عمه أسد الدين ، فوجدوا جيش الكرك من الفرنج قاصدين [نجدة الفرنج] ، فقاتلوهم ، فقتل من الفرنج خلائق ، وأسر منهم مئة أسير ، ولم يفقد من المسلمين ـ والحمد لله ـ غير شخص واحد .

ثم عاد في آخر ذلك اليوم ، وبلغ السلطان أن الفرنج قد اجتمعوا لقتاله ، فبرز إليهم وتصدىٰ لهم ، لعلهم يصافُّونه ، فنَكَلوا عنه ، فقتل منهم خلقاً كثيراً من أطرافهم ، وجرح كثيراً منهم ، وهرب الباقي ناكصين علىٰ أعقابهم ، خائفين منه كل المخافة ، فلله الحمد والمنة ، ولم يزل السلطان سائراً خلفهم يقتل ويأسر إلىٰ أن غَوَّروا في بلادهم ، فرجع عنهم مؤيداً منصوراً .

وكتب الفاضل إلى الخليفة يعلمه بهـٰذا النصر العظيم ، وكان لا يفعل شيئاً أو يريد أن يفعل شيئاً . . إلا طالع به إلى الخليفة ؛ أدباً واحتراماً وطاعة واحتشاماً .

وفي رجب : سار السلطان إلى الكرك ، فحاصرها ، وكان معه ابن أخيه تقي الدين عمر ، وكتب إلىٰ أخيه العادل نائب مصر ليحضر إليه ؛ ليوليه حلب ، وجعل ابن أخيه تقي الدين عمر نائباً بمصر عِوَضَه ، ومعه القاضي الفاضل .

وولىٰ أخاه حلب ؛ ليكون قريباً منه ؛ فإنه كان لا يقطع أمراً دون مشاورته ، واقترض منه السلطان مئة ألف درهم[1] .

واستقدم ولده الظاهر ، وكذلك نوابه ، ومَن يَعِزُّ عليه ؛ ليكونوا عنده ، واستمر الحصار على الكرك شهر رجب ، ولم يظفر بها ، ثم بلغه أن الفرنج قد اجتمعوا كلهم ليمنعوا منه الكرك ، فرجع إلىٰ دمشق ؛ ليجمع العساكر ويقاتلهم .

* * *

(١) في نسخة : (مئة ألف دينار) .

سنة ثمانين [وخمس مئة]

في أولها أرسل في طلب العساكر من مصر وحلب والجزيرة ، فقدم ابن أخيه من مصر ومعه القاضي الفاضل ، وقدم العادل من حلب وملوك الجزيرة وسنجار وتلك النواحي .

فسار بهم السلطان إلى الكرك ، فأشرفوا عليها في رابع جمادى الأولىٰ ، ونصب عليها المنجنيقات وهي تسعة ، ولم يزل يحاصرها إلىٰ أن قارب فتحها ، فبلغه أن الفرنج قد اجتمعوا ليمنعوا منه الكرك ، فرجع عن الكرك ، وقصد الفرنج ، ونزل علىٰ [قرية] حُسبان مقابلهم ، فحين التقى الجيشان. . انهزم الفرنج وساروا نحو الكرك ، فأرسل السلطان وراءهم ، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وجماً غفيراً ، وغارت الجيوش الإسلامية على السواحل لخلوها عن المقاتل ، فنهب جميع ما في نابلس وما حولها من العرايا[1] والرساتيق[2] ، وأخذوا شيئاً كثيراً ، ولله الحمد والمنة .

ثم عاد السلطان إلىٰ دمشق ، وأذن للعساكر بالمسير إلىٰ بلادهم ، وأقام السلطان بدمشق ؛ ليؤدي فرض الصيام ، ولتَجِمَّ[3] الخيل ، ويُحد الحسام ، وجاءت الخلع من الخليفة إلى السلطان ، فلبسها ، وألبس أخاه العادل ، وابن عمه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه .

ثم خلع السلطان خلعته علىٰ نور الدين بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا وآمد التي أطلقها له السلطان .

وفي أواخر هٰذه السنة : بلغ السلطان أن صاحب الموصل نازل أربل ، فأرسل صاحبها يستصرخ بالسلطان ، فركب من فوره إليه ؛ لأن صاحب أربل كان من الأولياء الأبدال والعاملين لله عز وجل آناء الليل وأطراف النهار ، ومعه عساكره ، فسار إلىٰ بعلبك ، ثم إلىٰ حمص ، ثم إلىٰ حماة ، فأقام بها أياماً ينتظر وصول العماد الكاتب ، فانقضت السَّنة وهو بها .

* * *

---

(١) **العرايا** : النواحي .
(٢) **الرَّساتيق** : جمع رستاق ، وهو الموضع المشتمل علىٰ مزارع وقرىٰ كثيرة .
(٣) **تجمَّ** : تستريح .

سنة إحدىٰ وثمانين [وخمس مئة]

استهلت وقد خيم السلطان بظاهر حماة ، وتلقاه أخوه العادل ، وسار إلىٰ أن قطع الفرات ، ثم إلىٰ حران ، ثم إلى الموصل ، فجاءت الملوك إليه من كل ناحية ، وجرت أمور طويلة أفضت إلى الصلح بينه وبين أهل الموصل ، علىٰ أن يكونوا من جنده إذا طلبهم لغزو الفرنج ، وعلىٰ أن يُخطَبَ له ، وتُضرَب السكة[1] باسمه ، فأجابوا إلىٰ ذلك .

وخُطِب له ، وضربت السكة باسمه في تلك البلاد كلها ، وانقطعت خطبة السلاجقة بتلك البلاد كلها ، ثم إنه اتفق للسلطان ضعف شديد كاد يسلبه ثوب المَحْيَا ويسلمه إلىٰ أبي يحيىٰ[2] .

وكان مع ذلك الضعف الشديد يتجلد ولا يظهر شيئاً من التألم ، ولم يزل يتزايد عليه الضعف إلىٰ أن وصل إلىٰ حران ، فأقام هناك لشدة الألم ، وشاع في البلاد ضعفه ، فخاف الناس عليه ، ومرضوا لمرضه ، وأرجف الكفرة والملحدون بموته .

ووصل إليه أخوه العادل من حلب بالأطباء والأدوية ، فوجدوه في غاية الضعف ، فأشار عليه بأن يوصي ويعهد ، فقال : ما أبالي وأنا أترك من بعدي أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً ؛ يعني : أخاه العادل أبا بكر ، وتقي الدين عمر صاحب حماة وهو إذ ذاك نائب مصر ، وبها مقيم ، وابنيه : العزيز عثمان ، والأفضل علياً .

ثم نذر لله عز وجل لئن شفاه الله عز وجل من مرضه هـٰذا . . ليصرفن جهاده كله إلىٰ قتال الكافرين ، وألاَّ يقاتل بعد ذلك مسلماً ، وليجعلن أكثر همه فتح بيت المقدس ، ولو صرف في سبيل ذلك جميع ما يملكه من الأموال ، وليقتلن البرنس صاحب الكرك بيده ؛ لنقضه العهد الذي عاهد عليه السلطان ، وذلك أنه غدر بقافلة تجار جاءت من مصر ، فأخذوا أموالهم ، وضرب رقابهم صبراً بين يديه ، فلم يمض بعد النذر إلا شيئاً يسيراً ، وشفاه الله عز

---

(١) السِّكَّة : الدراهم المنقوشة .

(٢) أبو يحيىٰ : كناية عن ملك الموت ، وإنما كني بهـٰذه الكنية تفاؤلاً ، كما قيل للَّديغ : سليم ، وللصحراء : مفازة ، قال الشاعر :

عـذيـري مـن الأيـام مـدت صـروفهـا	إلىٰ وجه من أهوىٰ يد النسخ والمحو
وأبـدت بـوجهـي طـالعـات أرىٰ بهـا	سهـام أبـي يحيـىٰ مسـدَّدة نحـوي

انظر : « ثمار القلوب » (ص٦٧) .

وجل من ذلك المرض ، الذي كان فيه كفارةُ ذنوبه ورفع درجته ، وفرح المسلمون بعافيته فرحاً عظيماً ، وضربت البشائر ، وزينت البلاد ، ولله الحمد والمِنة .

ثم سار السلطان من حران ، فدخل حلب ، ثم اجتاز بحماة وحمص ، ولم يزل إلىٰ أن دخل دمشق ، وكان يوماً مشهوداً ، وصباحاً محموداً ، أكمل الله عز وجل فيه فرح المؤمنين ، وكبت به الكافرين وسائر الملحدين ، والحمد لله رب العالمين .

وفيها : توفي الأمير محمد بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة ، وهو ابن عم السلطان ، وزوج أخته ست الشام بنت أيوب ، وكانت وفاته بحمص ، فنقلته زوجته ست الشام إلىٰ تربتها بدمشق في المدرسة الشامية البرانية ، فقبره هو الأوسط بينها وبين أخيها المعظم تورانشاه صاحب اليمن ، وخلف ناصر الدين من الأموال والذخائر شيئاً كثيراً ينيف علىٰ ألف ألف دينار ، وكانت وفاته ـ رحمه الله ـ يوم عرفة فجأة ، رحمه الله تعالىٰ .

* * *

سنة اثنتين وثمانين [وخمس مئة]

في ثاني ربيع الأول منها : دخل السلطان إلىٰ دمشق ، واجتمع بالقاضي الفاضل وزاره واستشاره ، وكان لا يقطع أمراً دون مشاورته إذا كان حاضراً ، وجعل علىٰ دمشق ولده الأفضل ، ونزل العادل عن حلب لصهره زوج ابنته الملك الظاهر غازي ابن السلطان .

فأرسل السلطان أخاه العادل مع ولده الآخر عماد الدين عثمان الملك العزيز علىٰ مصر ، وأن يكون العادلُ أتابكه[1] ، ولا يقطع أمراً دون مشاورته ، و[أن يكون] له إقطاع عظيم جداً ، وعزل تقي الدين عمر عن نيابة مصر واستقدمه إليه .

فلما قدم . . أكرمه غاية الإكرام ، واحترمه ، وأقطعه حماة وبلاداً كثيرة كانت له ، وزاده علىٰ ذلك مدينة مَيَّافارِقين .

وفي هـٰذه السَّنة : هادن قومص صاحب طرابلس للسلطان ، وصالحه وصافاه ، حتىٰ إنه كان يقاتل لأجله ملك الفرنج أشد القتال ويسبي منهم النساء والأطفال ، وكاد أن يسلم ،

---

(١) **أتابك** : لفظ تركي مركب من : أتا ، بمعنىٰ أب ، أو الشيخ المحترم ، وبك : بمعنى الأمير ، يعود استخدامه إلىٰ نهاية العصر العباسي حيث كان لقباً لمربي ومراقب أبناء ملوك السلاجقة ، وأول من حمل هـٰذا اللقب نظام الملك وزير ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي سنة (٤٦٥ هـ) ، وتطور فيما بعد ؛ ليطلق علىٰ أمير الجيش وقائده .

وكانت هـٰذه المصالحة من أقوىٰ أسباب نصرة المسلمين على الفرنج ، ولم يدخل على الفرنج من الذل والهوان أشد مما دخل عليهم من هـٰذه المصالحة ، فلله الحمد والمِنة .

* * *

سنة ثلاث وثمانين [وخمس مئة]

سار السلطان من دمشق مستهل المحرم منها إلىٰ رأس الماء ، فترك ولده الأفضل في طائفة من الجيش هناك ، وسار السلطان بنفسه بباقي الجيش إلىٰ أن وصل إلىٰ بصرىٰ ، فخيم علىٰ قصر أبي سلامة ينتظر قدوم الحُجاج ، وفيهم أخته ست الشام ومعها ولدها حسام الدين محمد خوفاً عليهم من معرة البرنس الذي غدر ونقض العهد .

فلما قدم الحُجاج في أواخر صفر . . سار السلطان ، فنزل[1] ، الكرك وقطع ما حوله من الأشجار ، ورعى الزروع ، وأكلوا الثمار ، وجاءته العساكر المصرية ، فنزلوا عند ولد السلطان علىٰ رأس الماء ، وبعث الأفضل سرية نحو بلاد الفرنج ، فقتلت وغنمت وسلمت ، وكسرت وأسرت ورجعت ، فبشرت بمقدمات الفتح والنصر .

وجاء السلطان بعساكره ، واجتمعت له الجيوش ، فرتب الجيوش والأطلاب[2] ، وتوجه إلىٰ بلاد الساحل ، وكان جملة مَن معه من المقاتلة اثني عشر ألفاً غير المطوِّعة .

فتسامعت الفرنج بمقدمه ، فاجتمعوا كلهم ، وتصالحوا فيما بينهم ، ودخل معهم في الصلح قومص صاحب طرابلس الغادر الفاجر ، وصاحب الكرك البرنس .

وجاؤوا بجموع كثيرة ، ومعهم صليب الصَّلبوت ، يحمله منهم عباد الطاغوت ، وكان قد خوفهم القومص صاحب طرابلس من بأس المسلمين وشدتهم ، فاعترض عليه البرنس أرناط صاحب الكرك ، فقال له القومص : ما أنا إلا واحد منكم ، وسترون غِبَّ ما أقول لكم .

وهـٰكذا وقع ؛ فإن الجميع انكسروا بإذن الله عز وجل ، وقدم الفرنج في خلق لا يحصي عددهم إلا الله سبحانه وتعالىٰ ، يقال : إنهم كانوا في خمسين ألفاً ، وقيل : ثلاثة وستين

---

(١) في النسخ : (فنازل) ، والمثبت من « الروضتين » ، ولعله الصواب ، والله أعلم .

(٢) الأَطْلاب ـ جمع طُلْب ـ اصطلاح عسكري من العصر الأيوبي وما بعده ، يقصد به فرق الجيش النظامي ، وكل طُلب ـ فرقة ـ يتكون من سبعين إلىٰ مئتي جندي ، وعلىٰ رأس كل طلب من هـٰذه الأطلاب أمير .

ألفاً ، وأقبل السلطان صلاح الدين ففتح طبرية ، وتقوىٰ بما فيها من الأسلحة والأطعمة والأمتعة وغير ذلك .

وتحصنت عنه القلعة ، فلم يشتغل بها ، وحاز البحرة في حوزته ، ومنع الكفرة أن يصلوا منها إلىٰ غرفة ماء ، واقتتلوا في عطش لا يعلمه إلا الله تعالىٰ .

فبرز لهم السلطان إلىٰ سطح الجبل الغربي من طبرية عند قرية يقال لها : حِطِّين ، التي يقال : إن فيها قبر [سيدنا] شعيب عليه الصلاة والسلام ، فتواجه هنالك الجيشان ، وتقابل الفريقان ، وأسفر وجه الإيمان ، واغبر وأقتم وجه الكفران بالخسران ، وذلك عشية يوم الجمعة .

فبات الناس علىٰ مَصافِّهم ، وأصبح الصباح عن يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الآخر ، جعله الله على الكافرين يوماً عسيراً من شدة الحر وشدة العطش ، فتراهم سكارىٰ وما هم بسكارىٰ ، ولـٰكن عذاب الله شديد .

وكان تحت أقدام خيولهم حشيش ، فأمر السلطان بإلقاء النار فيه ، فتأججت خيولهم ناراً ، فاجتمع عليهم حر الشمس ، وحر العطش ، وحر النار من تحت أرجلهم ، وحر رشق السهام ، فتبارز الشجعان في حومة الوغىٰ .

ثم أمر السلطان بالتكبير والحملة الصادقة ، فكان النصر من الله عز وجل ، فمنحهم الله عز وجل أكتاف الكفرة الفجرة ، فقُتل منهم ثلاثون ألفاً في ذلك اليوم ، وأُسر ثلاثون ألفاً من شجعانهم وفرسانهم .

وكان من جملة الأسارىٰ جميع ملوكهم سوىٰ قومص صاحب طرابلس ؛ فإنه انهزم في أول المعركة .

وأُخذ صليبهم الأعظم عندهم ، وقد غلفوه بالذهب واللآلىء والجواهر النفيسة ، وكان يوماً على الكافرين عسيراً .

ولم يُسمع بمثل هـٰذا اليوم في عز الإسلام وأهله ، ودمغ الباطل وذله ، حتىٰ إن بعض الفلاحين رُئي وهو يقود نيفاً وثلاثين أسيراً من الفرنج ، قد ربطهم بطُنُب[1] خيمة ، وباع بعضهم أسيراً بنعلٍ لَبِسَهُ في رجله ، فقيل له في ذلك ، فقال : أحببت أن يقال : باع أسيراً بمداس .

---

(١) طُنُب : حبل لشد الخيمة والخباء .

وجرت أمور جميلة لم يُسمع بمثلها ، ولا وقعت العيون علىٰ شكلها ، فلله الحمد عدد عفوه عن خلقه ، وعدد ما أحصىٰ علمه دائماً أبداً ، حمداً كثيراً طيباً مباركاً .

ولمَّا أنعم الله على المؤمنين بهـٰذه النعمة العظيمة العميمة . . أمر السلطان بضرب مخيم عظيم ، وجلس فيه علىٰ كرسي المملكة ، وعن يمينه أَسِرَّة وعن يساره مثلها ، وجيء بالأسارىٰ تهادىٰ في قيودها ، فضربت أعناق جماعة من مقدمي الدَّاوية[١] والاسبتارية[٢] صبراً[٣] بين يديه ، ولم يترك منهم مَن كان يذكر الناس عنه ذِكراً .

ثم جيء بملوكهم ، فأجلسوا عن يمينه ويساره ، وأجلس ملكهم الكبير عن يمينه ، وبجنبه أرناط البرنس صاحب الكرك ـ قبَّحه الله ـ وبقية الملوك عن يساره ، فجيء إلى السلطان بشراب من الجُلاَّب[٤] فيه ثلج ، فشرب منه الساقي ، ثم ناول السلطان ، فشرب ، ثم تحول إلىٰ خيمة داخل الخيمة .

واستدعىٰ أرناط البرنس ـ لعنه الله ـ فلما أوقف بين يديه . . قام إليه بالسيف ، وقال : نَعم ؛ أنا أنوب عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم في الانتصار لأمته ، ثم دعاه إلى الإسلام ، فامتنع ، فقتله وأرسل برأسه إلى الملوك ، وقال : إن هـٰذا تعرض لسب رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فقتلته[٥] .

ثم دعا باقي ملوكهم واحداً واحداً ، فمن امتنع عن الإسلام . . قتله ، فقتل ذلك اليوم نيفاً وعشرين ملكاً من ملوكهم صبراً ، ثم عرض بقية الأسارىٰ ، فمن امتنع عن الإسلام . . قتله صبراً ، فيقال : بلغت القتلىٰ ثلاثين ألفاً ، وكذلك الأسارىٰ كانوا ثلاثين ألفاً ، وكان جملة الجيش ثلاثة وستين ألفاً .

---

(١) **الدَّاوية** : تسمية يطلقها الفرنجة على الطائفة الدموية ، وهم جمعية فرسان المعبد ، وهي جمعية دينية أسسها(Hyghdepugers) سنة (١١٣٩م) لحماية طريق الحجاج المسيحيين بين يافا وبيت المقدس ، ثم تحولت إلىٰ هيئة حربية .

(٢) **الاسبتارية** : جماعة من فرسان الصليبيين لها كثير من خصائص الداوية ، ويطلق عليهم أيضاً اسم الهسبتارية أو الهستبالين التي تأسست سنة (١٠٩٩م) بعد استيلاء الصليبيين علىٰ بيت المقدس ، وإن كانت قد نشطت قبل ذلك بكثير ، وكان هدفها الأول علاج المرضىٰ وإيواء الحجاج ومساعدتهم .

(٣) **القتل صبراً** : هو أن يوثق أي شيء فيه روح ثم يقتل .

(٤) **الجلاب** : ماء الورد .

(٥) والقصة في ذلك : أنه عبر جماعة من الديار المصرية في حال الصلح بالبرنس أرناط ، فنزلوا عنده بالأمان ، فغدر بهم وقتلهم ، فناشدوه الله والصلح الذي بينه وبين المسلمين ، فقال ما يتضمن الاستخفاف بالنبي صلى الله عليه وسلّم وقال : قولوا لمحمدكم يخلصكم .

ومَن سلم منهم ـ مع قلتهم ـ فأكثرهم جرحىٰ ماتوا ببلادهم بعد رجوعهم ، وممن مات كذلك سريعاً قومص صاحب طرابلس ؛ فإنه انهزم جريحاً ، فعجل الله بروحه إلى النار .

ثم إن السلطان أرسل أكابر الأسرىٰ ورؤوس أعيان القتلىٰ وصليب الصلبوت إلىٰ دمشق مع القاضي ابن أبي عصرون ؛ ليودعوا في قلعتها ، فدخل بالصليب منكوساً بين يدي القاضي إلىٰ دمشق ، وكان يوماً مشهوداً ، ولله الحمد والمِنة .

ثم سار السلطان إلىٰ قلعة طبرية ففتحها ، وقد كانت طبرية تقاسم بلاد حوران والبلقاء وما حولها من الجولان وتلك الأراضي كلها بالنصف ، فأراح الله المسلمين من تلك المقاسمة ، وتوفرت عليهم .

ثم سار إلىٰ عكا ، فنزل عليها يوم الأربعاء سابع ربيع الآخر ، فافتتحها صلحاً يوم الجمعة ، وأخذ ما كان فيها من حواصل وأموال وذخائر وغير ذلك ، واستنقذ من كان بها من أسارى المسلمين ، فوجد بها أربعة آلاف أسير ، ففرَّج الله عنهم ، ولله الحمد والمنة .

وأمر بإقامة الجمعة بعكا ، فكانت أول جمعة أقيمت بالساحل بعد أن أخذه الفرنج من نحو سبعين سنة ، فلله الحمد والمِنة .

ثم سار منها إلىٰ صيدا وبيروت وتلك النواحي من السواحل ، فأخذها ؛ لخلوها من المقاتلة والملوك .

ثم سار إلىٰ غزة وعسقلان ونابلس وبيسان وأراضي الغور ، فملك ذلك كله بحول الله عز وجل وقوته ، واستناب السلطان علىٰ نابلس ابن أخته حسام الدين عمر بن محمد بن لاجين ، وهو الذي افتتحها .

فكان جملة ما افتتحه في هـٰذه المدة القريبة خمسين بلداً له معاقله وقلعه ومنعه ، ولله الحمد والمنة .

وغنم المسلمون وسَبَوا شيئاً كثيراً لا يحد ولا يوصف ، واستبشر الإسلام وأهله شرقاً وغرباً بهـٰذا النصر العظيم والفتوحات الهائلة ، وترك السلطان جيوشه ترتع في هـٰذه الفتوحات والغنائم الكثيرة مدة شهور ؛ ليستريحوا ويَجِمُّوا أنفسهم وخيولهم ، وليتأهبوا لفتح بيت المقدس الشريف .

وطار في الناس أن السلطان عزم علىٰ فتح بيت المقدس ، فقصده العلماء والصالحون والمتطوِّعة من كل فج عميق ، وجاء أخوه العادل بعد وقعة حطين وفتح عكا ، ففتح بنفسه

حصوناً كثيرة أيضاً ، فاجتمع من العساكر ومن المتطوعة خلق كثير وجم غفير ، فعند ذلك سار السلطان إلىٰ فتح بيت المقدس بمن معه ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله عز وجل .

وقد امتدح الشعراء السلطان بسبب وقعة حطين ، فقالوا وأكثروا وأطنبوا وأَطيبوا .

ذكر فتح بيت المقدس في هـٰذه السنة [٥٨٣]
واستنقاذه من أيدي النصارىٰ بعد اثنتين وسبعين سنة

وذلك أنه لما افتتح السلطان ما حول بيت المقدس من الأماكن المباركة والسواحل القريبة منها . . أمر العساكر فاجتمعت ، والجيوش المتفرقة في البلدان للغنائم فأبلغت ، وسار نحو بيت المقدس بتلك العساكر المنصورة ، والرايات الكاسرة لا المكسورة ، فنزل غربي بيت المقدس يوم الأحد خامس عشر رجب من هـٰذه السنة ، وقد حصنت الفرنج ـ لعنهم الله ـ الأسوار بالمقاتلة ، وكانوا نحو ستين ألفَ مقاتل دون الذين في بيت المقدس ، وكان صاحب البلد يومئذ رجل يقال له : باليان بن بارزان ، ومعه مَن سلم من وقعة حطين من الدَّاوية والاسبتارية أتباع الشيطان وعبدة الصلبان ، عليهم لَعائن الرحمـٰن .

فأقام السلطان بمنزله المذكور خمسة أيام ، وسلم إلىٰ كل طائفة من الجيش المنصور ناحية من أبرجة السور ، ثم تحول إلىٰ ناحية الشمال ؛ لأنه رآها أوسع وأنسب للمجال والجِلاد والنزال ، وقاتل الفرنج دون البلد قتالاً هائلاً ، واستشهد بعض أمراء المسلمين إلىٰ رضوان رب العالمين .

يا ليتني كنت ذاك ، فعند ذلك حَنِق كثير من أمراء الإسلام ، واجتهدوا إلى القتال بكل خطي[١] وحسام ، وقد نصبت المنجنيقات والعرَّادات[٢] ، وشهرت السيوف وعملت السمهريات[٣] ، والعيون تنظر إلى الصلبان منصوبة فوق الجدران ، حتىٰ فوق قبة الصخرة قبلة أهل الأديان .

---

(١) الخطِّيُّ : الرمح المنسوب إلى الخط ، وهو موضع ببلاد البحرين تنسب إليه الرماح الخطية ؛ لأنها تباع بها .

(٢) العَرَّادَات ـ مفردها عرَّادة ـ : آلة حربية استعملها العرب في عمليات الحصار وقذف الحصون في العصر الإسلامي ، وهي علىٰ هيئة المنجنيق ، إلا أنها أصغر حجماً .

(٣) السَّمْهريات ـ مفردها سمهري ـ : الرُّمح الصليب العود ، ويقال : هو منسوب إلىٰ (سَمْهر) : رجل كان يقوِّم الرماح .

فزاد ذلك أهلَ الإيمان الحنقَ الكبير ، وأخذوا في الجد وشدة التشمير ، فكان يوماً عسيراً ، على الكافرين غير يسير .

فبادر السلطان بأصحابه إلى الزاوية الشرقية الشمالية من السور فنقبها ، وعلقها وحشاها وأحرقها ، فسقط ذلك الجانب ، وخرَّ البُرج برّمته ؛ فإذا هو واجب[1] .

فلما شاهد الفرنج ـ خذلهم الله ـ ذلك الحادث المفظع والخطب المؤلم الموجع . . قصد أكابرهم السلطان ، وتشفعوا إليه بكل إنسان أن يعطيهم الأمان ، فامتنع من ذلك وقال : لا أفتحها إلا كما فتحوها عنوة ، ولا أترك بها أحداً من النصارىٰ إلا قتلته كما قَتلتم أنتم مَن كان مِن المسلمين .

فطلب صاحبها باليان من السلطان الأمان ، ليحضر عنده ، فأمَّنه ، فلما حضر . . ترقرق له ، وتشفع إليه بكل ما أمكنه ، فلم يجبه إلى الأمان ، فقالوا : لئن لم تعطنا الأمان . . رجعنا فقتلْنا كل أسير من المسلمين عندنا ، وهم قريب من أربعة آلاف ، وقتلنا أولادنا الصغار ، وخربنا الدور والأماكن الحسنة ، وأتلفنا ما بأيدينا من الأموال ، ونقبنا فيه الصخرة ، ولا نبقي في إتلاف ما نقدر عليه ممكناً ، وبعد ذلك نقاتل قتال الموت ، فلا يقتل واحد منا حتىٰ يقتل أعداداً منكم ، فماذا ترتجي بعد هـٰذا من الخير ؟!

فلما سمع السلطان ذلك . . أجاب إلى الصلح علىٰ أن يبذل كل رجل منهم عن نفسه عشرة دنانير ، وعن المرأة خمسة دنانير ، وعن كل صغير وصغيرة دينارين ، وأن تكون الغلات والأسلحة والدور للمسلمين ، ويتحولوا منها إلىٰ مأمنهم ، وهي مدينة صور .

فكتب الصلح علىٰ ذلك ، ومَن لا يبذل ما شرط عليه إلىٰ أربعين يوماً . . فهو أسير ، فكان جملة من أسر بهـٰذا الشرط ستة عشر ألف أسيرٍ من رجال ونساء وولدان .

ودخل السلطان والمسلمون البلد يوم الجمعة قبيل وقت الصلاة يوم السابع والعشرين من رجب ، وهي ليلة الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلّم علىٰ قول مشهور ، ولم تتفق صلاة الجمعة يومئذ لضيق الوقت ، خلافاً لمن زعم أنها أقيمت يومئذ ، وأن السلطان خطب بنفسه بالسواد يومئذ ، والصحيح : أن الجمعة إنما أقيمت في الجمعة الثانية .

وشرع المسلمون في تنظيف المسجد الأقصىٰ مما كان فيه من الصلبان والرهبان والخنازير ، وخربوا دور الداوية التي بنوها غربي المحراب الكبير ، وجعلوا المحراب

---

(١) واجب : ساقط .

حُشّاً[1] لعنهم الله وقبحهم ، فأزيل ذلك كله ، وأعيد المسجد إلىٰ ما كان عليه في الأيام الإسلامية ، وغسلت الصخرة بالماء ، وأعيد غسلها بماء الورد ، وأبرزت للناظرين ، وقد كانت محجوبة عن الزائرين ، ووضع[2] الصليب المنصوب علىٰ قبتها ، وعادت إلىٰ حرمتها .

وقد كان الفرنج قطعوا منها قطعاً ، فتعذر استعادة ذلك ، وقبض من الفرنج ما كانوا بذلوه عن أنفسهم من الأموال ، وأطلق السلطان خلقاً منهم من بنات الملوك بمن كان معهم من النساء والرجال ووقعت المسامحة في كثير منهم ، وشفع في أناس كثير . . فعفا عنهم ، وفرق السلطان جميع ما قبض منهم في العسكر ، ولم يدع منه شيئاً مما يقتنىٰ ويدخر ، وكان ـ رحمه الله ـ حليماً كريماً شجاعاً مقداماً رحيماً قدس الله روحه .

حكاية حسنة

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة ـ قدس الله روحه ـ : حدثني شيخنا أبو الحسن علي بن محمد السخاوي قال : قرأت بخط شيخنا أبي الفضائل بن رشيق بمصر عقيب موته في سنة ثلاث وسبعين وخمس مئة قال : رأىٰ إنسان كأن شخصاً ذا جهامة واقفاً علىٰ حائط بجامع دمشق وهو يقول :

مَلَكَ الصياصي والنواصي ناصرٌ ... للـديـن بعـد إيـاسـه أن يُنصـرا
وسيفتـح البيـتَ المقـدَّس بعـدمـا ... يُطـوى الطـراز لـه ويقتـل قيصـرا

وهٰذا قبل أن يفتح السلطان صلاح الدين البلاد بعشر سنين .

وحكي أيضاً : أن رجلاً جاء إلى الشيخ عمر المَلاَّء رحمه الله بالموصل في سنة خمس وخمسين وخمس مئة ، فقال له : أيها الشيخ ؛ رأيت البارحة في المنام كأني بأرض غريبة لا أعرفها ، وكأنها مملوءة خنازير ، وكأن رجلاً في يده سيف وهو يقتل الخنازير ، والناس ينظرون إليه .

فقلت لرجل : هٰذا عيسى ابن مريم ؟ هٰذا المهدي ؟ قال : لا ، فقلت : من هٰذا ؟ فقال : يوسف ، ما زادني علىٰ ذلك ، قال : فتعجبت الجماعة من هٰذه الرؤيا ، وقالوا :

---

(١) الحَش : مكان قضاء الحاجة .

(٢) أي : أزيل .

إنه يقتل النصارىٰ رجل اسمه يوسف ، فكان يوسف هو السلطان صلاح الدين رحمه الله .

قال : وكانت والدة السلطان صلاح الدين ـ رحمهما الله ـ تخبر أنها لما كانت حاملة بالسلطان . . رأت في منامها قائلاً يقول لها : إن في بطنك سيفاً من سيوف الله سبحانه وتعالىٰ ، وهٰكذا كان ، سيف وأي سيف ؟! بل ألف ألف سيف .

ذِكرُ أول جمعة أقيمت في بيت المقدس بعد فتحه

لَمَّا نُزِّه بيت المقدس عما كان فيه من الصلبان والنواقيس والرهبان والخنازير والقساوسة ، وجاء أهل الإيمان ، ونودي بالأذان ، وهرب الشيطان ، وقرىء القرآن ، وطهر المكان . . فكان إقامة أول جمعة فيه في رابع شعبان بعد يوم الفتح بثمان .

فنُصب المنبر إلىٰ جانب المحراب المطهر ، وبسطت البسط الرفيعة في تلك العِرَاص[1] الفسيحة ، وعلقت القناديل ، وتلي التنزيل ، عوضاً عما يقرأ من التحريف في الإنجيل ، وجاء الحق وبطلت الأباطيل ، وصُفَّت السجادات ، وأطيلت السجدات ، وصَفَتِ العبادات ، ورُغب في الدعوات ، ونزلت البركات ، وانجلت الكربات ، وأقيمت الصلوات .

ونطق الأذان وخرس الناقوس ، وحضر المؤذنون وغاب القسوس ، وزال العبوس والبوس ، وطابت الأنفاس والنفوس ، وأقبلت السعود وأدبرت النحوس .

وحضر العباد والزهاد والأبدال والأقطاب ، وعُبد فيه الواحد القهار جل جلاله ، وكثر الراكع والساجد ، والقائم والقاعد ، والطاهر والمجاهد ، وامتلأ الجامع ، وأحفلت المجامع ، وسالت لرقة القلوب المدامع ، وقال الناس : هٰذا يوم كريم ، وفضل عميم ، وموسم عظيم ، هٰذا يوم تجاب فيه الدعوات ، وتصب البركات ، وتسال العبرات ، وتقال العثرات .

ولما أذن المؤذنون للصلاة وقت الزوال . . كادت القلوب تطير من الفرح بذلك الحال .

ولم يكن السلطان إلىٰ تلك الساعة قد عين خطيباً ، وقد تهيأ لها خلق من العلماء خوفاً أن يدعىٰ إليها فلا يكون مجيباً ، فبرز المرسوم السلطاني الصلاحي وهو في قبة الصخرة أن يكون القاضي محيي الدين ابن الزكي اليوم خطيب الخطباء ، فلبس الخلعة السوداء ، فصعد المنبر

---

(١) العِرَاص ـ جمع عرصة ـ : البقعة الواسعة .

وقد كساه الله البهاء ، وألزمه كلمة التقوىٰ ، وأعطاه السكينة والوقار والسناء .

فخطب الناس خطبة عظيمة سنية فصيحة بليغة ، ذكر فيها شرف بيت المقدس ، وما ورد فيه من الترغيبات والفضائل ، وما فيه من الدلائل والأمارات ، وما مَنَّ الله عز وجل به على المؤمنين من هـٰذه النعمة .

فكان أول ما قال حين تكلم : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ثم أورد تحميدات القرآن كلها .

ثم قال : الحمد لله معزِّ الإسلام بنصره ، ومذل الشرك بقهره ، ومصرِّف الأمور بأمره ، ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكافرين بمكره ، الذي قدر الأيام دولاً بعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاء علىٰ عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين كله ، القاهرِ فوق عباده فلا يمانع ، والظاهر علىٰ خليقته فلا ينازع ، والآمر بما يشاء فلا يراجع ، والحاكم بما يريد فلا يدافع .

أحمده علىٰ إظفاره وإظهاره ، وإعزازه لأوليائه ، ونصره لأنصاره ، وتطهيره لبيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره ، حَمْدَ من استشعر الحمدَ باطنُ سره ، وظاهر جهاره .

وأشهد أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له ، الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، شهادةَ مَن طهَّر بالتوحيد قلبه ، وأرضىٰ به ربه .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، رافعُ الشك ، وداحض الشرك ، وراحض الإفك[1] ، الذي أسري به من المسجد الحرام إلىٰ هـٰذا المسجد الأقصىٰ ، وعُرج به منه إلى السماوات العلا إلىٰ سدرة المنتهىٰ ، عندها جنة المأوىٰ ، ما زاغ البصر وما طغىٰ صلى الله عليه وسلم ، وعلىٰ خليفته الصديق السابق إلى الإيمان ، وعلىٰ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، أول من رفع عن هـٰذا البيت شعار الصلبان ، وعلىٰ أمير المؤمنين عثمان ذي النورين جامع القرآن ، وعلىٰ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مزلزل الشرك ومكسر الأوثان ، وعلىٰ آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان .

أيها الناس ؛ أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوىٰ والدرجة العليا ؛ لما يسره الله عز وجل علىٰ أيديكم من استرداد هـٰذه الضالة من الأمة الضالة ، وردها إلىٰ مقرها من الإسلام ، بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريباً من مئة عام ، وتطهير هـٰذا البيت الذي

---

(١) **الرحض** : الغسل .

أذن الله أن يرفع وأن يذكر فيه اسمه ، وإماطة الشرك عن طرقه بعد أن امتد عليها رواقه ، واستقر فيها رسمه ، ورفع قواعده بالتوحيد ؛ فإنه بني على البر والتقوىٰ .

فهو موطن أبيكم إبراهيم ، ومعراج نبيكم ، وقبلتكم التي كنتم تصلُّون إليها في ابتداء الإسلام ، وهو مَقرُّ الأنبياء ، ومقصد الأولياء ، ومَفرُّ الرسل ، ومهبط الوحي ، ومنزل ينزل فيه الأمر والنهي ، وهو في أرض المحشر ، وصعيد المنشر ، وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها الله عز وجل في كتابه المبين ، وهو المسجد الذي صلىٰ فيه سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلّم بالملائكة المقربين ، والأنبياء والمرسلين ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

وهو البلد الذي بعث الله إليه عبدَه ورسوله وكلمته التي ألقاها إلىٰ مريم وروحَه عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ، الذي شرفه الله برسالته وكرَّمه بنبوته ، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته ، فقال تعالىٰ : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ ﴾ ، وقال : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ .

وهو ثاني المسجدين ، وثالث الحرمين ، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه ، ولا تُعقَد الخناصر بعد الموطِنَين إلا عليه .

ولولا أنكم ممن اختاره الله عز وجل من عباده ، واصطفاه من سكان بلاده . . لَمَا خصكم بهٰذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مُجارٍ ، ولا يباريكم فيها مُبارٍ .

فطوبىٰ لكم من جيش ظهرت علىٰ أيديكم المعجزات النبوية ، والوقعات البدرية ، والعزمات الصديقية ، والفتوحات العمرية ، والجيوش العثمانية ، والفتكات العلوية ، جددتم للإسلام أيام القادسية ، والوقعات اليرموكية ، والمنازلات الخيبرية ، والهجمات الخالدية .

فجزاكم الله عن نبيه سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلّم أفضل الجزاء ، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم في مقارعة الأعداء ، وتقبل منكم ما تقربتم به إليه من مُهراق الدماء ، وأثابكم الجنة ، فهي دار السعداء ، فاقدُروا ـ رحمكم الله ـ هٰذه النعمة حق قدرها ، وقوموا لله تعالىٰ بواجب شكرها ، فله النعمة عليكم بتخصيصكم بهٰذه النعمة ، وترشيحكم لهٰذه الخدمة .

فهٰذا هو الفتح الذي فُتحت له أبواب السماء ، وتبلجت بأنواره وجوه الظَّلْماء ، وابتهج

به الملائكة المقربون ، وقرَّ به عيناً الأنبياء والمرسلون صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

فماذا عليكم من النعمة بأن جعلكم الجيشَ الذي يفتح عليه بيت المقدس في آخر الزمان ، والجند الذين تقوم سيوفهم بعد فترة من النبوة أعلام الإيمان ، [فيوشك أن تكون التهاني به بين أهل الخضراء . . أكثر من التهاني به بين أهل الغبراء] .

أليس هو البيت الذي ذكره الله عز وجل في كتابه ، ونص عليه في خطابه فقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ ؟! ، أليس هو البيت الذي [عظمته الملوك] ، وأثنت عليه الرسل ، وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة من الله عز وجل ؟! أليس هو البيت الذي أمسك الله الشمس علىٰ يوشع لأجله أن تغرب ، وباعد بين خطواتها ؛ ليتيسر فتحه ويقرب ؟! أليس هو البيت الذي أمر الله نبيه موسىٰ أن يأمر قومه باستنقاذه ، فلم يجبه إلا رجلان ، وغضب عليهم لأجله ، فألقاهم في التيه عقوبة للعصيان ؟!

فاحمَدوا الله الذي أمضىٰ عزائمكم لما نَكَلَتْ عنه بنو إسرائيل ، وقد فضلهم على العالمين ، ووفقكم لما خذل فيه مَن كان قبلكم من الأمم الماضين ، وجمع لأجله كلمتكم وكانت شتىٰ ، فليَهنِكُم أن الله عز وجل قد ذكركم به فيمن عنده ، وجعلكم ـ بعد إذ كنتم جنوداً لأهويتكم ـ جنده ، وشكركم الملائكة المقربون علىٰ ما أهديتم إلىٰ هـٰذا البيت من طيب التوحيد ، ونشر التقديس والتحميد ، وما أمطتم عن طرقهم فيه من أذى الشرك والتثليث ، والاعتقاد الفاجر الخبيث .

فالآن تستغفر لكم أملاك السماوات ، وتصلي عليكم الصلوات المباركات ، فاحفظوا ـ رحمكم الله ـ هـٰذه الموهبة فيكم ، واحرسوا هـٰذه النعمة عندكم بتقوى الله عز وجل التي مَن تمسك بها . . سلم ، ومن اعتصم بعروتها . . نجا وعُصم .

واحذروا من اتباع الهوىٰ ، وموافقة الردىٰ ، ورجوع القهقرىٰ ، والنكول عن العدىٰ ، وجدوا في انتهاز الفرصة ، وإزالة ما بقي من الغصة ، وجاهدوا في الله حق جهاده ، وبيعوا ـ عباد الله ـ أنفسكم في رضاه ؛ إذ جعلكم من عباده ، وإياكم أن يستزلَّكُم الشيطان وأن يتداخلكم الطغيان ، فيخيل لكم أن هـٰذا النصر بسيوفكم الحِدَاد ، وبخيولكم الجياد ، وبجِلاَدِكم في مواطن الجلاد ، ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

واحذروا عباد الله [بعد] أن شرَّفكم بهـٰذا الفتح الجليل ، والمَنْح الجزيل ، وخصكم

بهٰذا الفتح المبين ، وجعلكم مستمسكين بحبله المتين . . أن تقترفوا شيئاً من مناهيه ، وأن تأتوا عظيماً من معاصيه ، فتكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً[1] ، أو كالذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين[2] .

والجهادَ الجهادَ ؛ فهو من أفضل عباداتكم ، وأشرف طاعاتكم ، ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ ، اذكروا الله يذكركم ، واشكروه يزدكم ، وجِدُّوا في حسم الداء ، واقطعوا شأفة الأعداء ، مع فروع الكفر واجتثاث أصوله .

فقد نادت الأيام : يا للثّارات الإسلامية ، والملة المحمدية! الله أكبر فتح الله ونصر ، غلب الله وقهر ، أذل الله من كفر .

واعلموا ـ رحمكم الله ـ أن هٰذه فرصة عظيمة فانتهزوها ، وقربة[3] جليلة فناجزوها ، ومهمة كبيرة فأخرجوا لها هممكم وبَرِّزوها ، وأمضوا إليها سرايا عزائمكم وجهزوها ؛ فالأمور بأواخرها ، والمكاسب بذخائرها ؛ فقد أظفركم الله عز وجل بهٰذا العدو المخذول وهم مثلكم أو يزيدون ، فكيف وقد أضحىٰ في قبالة الواحد منهم منكم عشرون ؟! قال تعالىٰ : ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ﴾ .

أعاننا الله وإياكم على اتباع أوامره ، والازدجار بزواجره ، وأيدنا ـ معشر المسلمين ـ بنصر من عنده ، ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ .

ثم قال ـ بعد الخطبة الثانية والدعاء ـ للخليفة : اللهم ، وأدم سلطان عبدِك الخاضِع لهيبتك ، الشاكر لنعمتك ، المعترف لموهبتك ، سيفك القاطع ، والمحامي عن دينك المدافع ، المجاهد في سبيلك ، السيد الأجل ، الملك الناصر ، جامِع كلمةِ الإيمان ، وقامع عبدة الصلبان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، مطهر البيت المقدس عن أرجاس المشركين ، أبي المظفر يوسف بن أيوب ، محيي العدل في العالمين ، وسيف أمير المؤمنين .

اللهم ؛ وعُمَّ بدولته البسيطة ، واجعل ملائكتك براياته محيطة ، وأَحسِن عن الدين الحنيفي جزاءه ، واشكر عن الملة المحمدية عزمتاه .

---

(١) هٰذا اقتباس من قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ﴾ .

(٢) هٰذا اقتباس من قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ .

(٣) كذا في النسخ ، أما في « الروضتين » : (وفريسة) .

اللهم ؛ وأَبْقِ للإسلام مهجته ، ووَقِّ لأهل الإيمان حوزته ، وانشر في المغارب والمشارق دعوته .

اللهم ؛ فكما فتحتَ علىٰ يده البيت المقدس بعد أن ظُنَّت الظنون وابتُلي المؤمنون . . فافتح علىٰ يده أداني الأرض وأقاصيها ، وملِّكْه صياصي الكفرة ونواصيها ، فلا يلقاه منهم كتيبة إلا مزقها ، ولا جماعة إلا فرقها ، ولا طائفة بعد طائفة إلا ألحقها بمن سبقها .

ثم قال : اللهم ؛ ثبت الملك فيه وفي عقبه إلىٰ يوم الدين ، واحفظه في بنيه وبني أبيه الملوك الميامين ، واشدد عضده ببقائهم ، واقض بإعزاز أوليائه وأوليائهم .

اللهم ؛ كما أجريت علىٰ يده هـٰذه الحسنة التي تبقىٰ على الأيام ، وتتخلد علىٰ مر الشهور والأعوام . . فارزقه المُلك الأبدي الذي لا ينفد في دار المتقين ، وأجب دعاءه في قوله : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

ولما كان بعد صلاة الجمعة . . جلس الشيخ زين الدين أبو الحسن علي بن نجا المصري علىٰ كرسي الوعظ بإذن السلطان ، فوعظ الناس موعظة بليغة ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، وكان وقتاً مشهوداً ، وحالاً محموداً ، فلله الحمد والمنة ، علىٰ ما أسبغ علينا من النعمة .

واستمر القاضي محيي الدين ابن الزكي يخطب بالناس أربع جمع ، ثم قرر السلطان للقدس خطيباً مستقلاً ، وأقام السلطان بالقدس الشريف إلىٰ أن تسلم جميع ما فيه من مال وسلاح وغير ذلك ، وأمر بإغلاق كنيسة قُمامة[1] ، وتفاوض العلماء عنده في إبقائها أو هدمها ، واستقر الرأي آخراً علىٰ إبقائها ؛ إذ لا فائدة في هدمها ؛ لأن النصارىٰ لا يتركون الحج إلىٰ هـٰذه البقعة ولو تركتها قاعاً صفصفاً ، وقد فتح هـٰذا البيت سيد المسلمين وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في صدر الإسلام وأقرهم عليه ، ولم يأمر بهدمه ، فعند ذلك قال : لا يسعني إلا الاقتداء بأمير المؤمنين وسيد المسلمين عمرَ رضي الله عنه ، ولم يتعرض لهدمها ، لـٰكنه لم يترك بها من النصارىٰ سوىٰ أربعة ، وحال بين النصارىٰ وبينها ، وهدم المقابر التي كانت لهم عند باب الرحمة ، وعَفَّىٰ آثارها ، وهدم ما كان هناك من القباب .

---

(١) **قُمامة** : اسم امرأة نصرانية بنَتِ الكنيسة المشار إليها فسميت باسمها .

ثم إنه عمد إلى الأموال التي أخذها ، ففرقها علىٰ ذوي الاستحقاق ، وكانت شيئاً كثيراً ، فعذلوه في إنفاق جميع تلك الأموال ، فقال : كيف أمنع الحق عن مستحقيه وهـٰذا الذي أنفقه هو الذي أبقيه ؟! فإنه يخلصني من أداء الأمانة ، ويطلقني من وثاقها ، وإن الذي في يدي وديعة أحفظها لذوي استحقاقها .

فقيل له : لو تركت منه شيئاً لنائبة أو حادث ، فقال : إن الله عز وجل هو المؤمَّل لكل شدة وحادث .

وقد قيل مثل هـٰذا القول لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فكان جوابه بالمحل العالي ، وقد ذكرناه في ترجمته .

ثم إن السلطان جمع الأسارى المطلقين وكانوا ألوفاً من المسلمين ، فكساهم وأعطاهم وواساهم ، وأطلق كل واحد إلىٰ حيث شاء وأراد مِن ظُعن[١] وإقامة ، ورتب في قبة الصخرة إماماً ، ووقف عليها داراً وأرضاً وبستاناً ، وحمل إليها وإلىٰ محراب المسجد الأقصىٰ مصاحفَ وختماتٍ ورَبعاتٍ[٢] لا تزال بين أيدي الزائرين على الكراسي .

ورتب للقبة وللبيت المقدس قَوَمَةً[٣] برسم الخدمة ، وأرسل إلىٰ حلب لأجل المنبر الذي كان قد عمله الملك نور الدين رحمه الله في حياته لأجل بيت المقدس رجاء أن يفتح علىٰ يديه ، وكان منبراً عظيماً هائلاً ، فحمل إلىٰ بيت المقدس إعمالاً لنيَّة نور الدين رحمه الله ، لـٰكن وضْعُه في البيت المقدَّس إنما كان علىٰ يد السلطان صلاح الدين ، فرحمهما الله[٤] .

وتنافس الملوك من بني أيوب فيما يفعلونه من الخيرات ، ويؤثرونه من الآثار الجميلة وسائر وجوه المبرات ، فما منهم إلا من أحسن وأجمل بالله .

لقد أتى العادل أبو بكر بكل صنيع جميل ، وتقي الدين عمر بكل فعل جليل ، فمن جملة أفعاله المشكورة وآثاره المشهورة : أنه حضر يوماً في قبة الصخرة ومعه من ماء الورد أحمال ، ولأجل الصدقة أموال ، فانتهز فرصة هـٰذه الفضيلة التي ابتكرها ، وتولىٰ بيده كنس تلك الساحات والعِرَاص ، ثم غسلها بالماء مراراً حتىٰ تطهرت ، ثم أتبعها بماء الورد صباً

---

(١) **الظُّعُن** : الإبل التي عليها الهوادج .

(٢) **رَبعات** ـ جمع ربعة ـ : المصحف المجزأ ثلاثين جزءاً .

(٣) **قَوَمَة** ـ جمع قوَّام ـ : المتولي للأمور والقائم بها .

(٤) وقد تعمد اليهود ـ أحفاد القردة والخنازير ـ إلىٰ حرق هـٰذا المنبر طمساً لهـٰذا الأثر وما يتبعه من التاريخ الخالد ، وذلك عند حرقهم المسجد الأقصىٰ في عام ١٩٦٩م ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

حتىٰ تعطرت ، وكذلك طهر حيطانها وغسل جدرانها ، ثم أتىٰ بمجامر الطيب ، فتبخرت وتضوعت[1] ، ثم فرق ذلك المال فيها علىٰ ذوي الاستحقاق .

وأما الأفضل نور الدين علي . . فإنه جاء بكل نور جلي وكرم ملي ، فبسط فيها البُسُط الرفيعة ، إلىٰ غير ذلك مما اعتمده من بناء أسوار القدس ، وحفر خنادقه ، وأعجز بما أعجب من سوابق المعروف ولواحقه .

وأما الملك العزيز عثمان : فإنه لما عاد إلىٰ مصر . . ترك خزانة سلاحه كلها بالقدس الشريف ، وكانت أحمالاً بأموال عظيمة .

وكان من جملة ما شرط على الفرنج أن يتركوا خيلهم وعُدَدهم للمسلمين .

وأما محراب داوود عليه الصلاة والسلام . . فإنه رتب له إماماً ومؤذنين وقُوّاماً ، وهو مزار الغادين[2] والرائحين ، وأمر بعمارة جميع المساجد .

وكان موضع هـٰذه القلعة دار داوود وسليمان عليهما الصلاة والسلام .

وفاوض السلطان العلماء والفقراء وسائر الرؤساء والأكابر في عمل مدرسة للشافعية ، وبناء رباط للصوفية ، فعين للمدرسة الكنيسة المعروفة بصندحنَّة عند باب أسباط ، وعين دار البطرك التي بقرب كنيسة قمامة للرباط ، ووقف عليهما أوقافاً جليلة ، فما أبْرَكَهما من مدرسة ورباط ، وارتاد أيضاً مدارس لباقي الطوائف ، إضافة إلىٰ ما أولاه من العوارف ، وتصدق يوم الرحيل عن القدس بمئتي ألف دينار .

ولما قرر السلطان بالقدس الشريف هـٰذه الأمور التي لا بد منها . . سافر في الخامس والعشرين من شعبان وأمر ولده العزيز بالرجوع إلىٰ مصر ، وسار العساكر إلىٰ صور ؛ لأنه كان قد تأخر فتحها من بين تلك النواحي ، وكان قد استحوذ عليها بعد وقعة حطين رجل من التجار يقال له : المركيس ، فحصنها وضبط أمرها ، وحفر حولها خندقاً من البحر إلى البحر .

وجاء السلطان بالعساكر ، فحاصرها مدة واستدعى الأسطول من مصر في البحر ، فأحاط بها براً وبحراً ، فعدت بعض الفرنج في بعض الليالي علىٰ خمس شواني[3] من الأسطول ،

---

(١) تضوعت : انتشرت .

(٢) في النسخ : (العابدين) ، والمثبت من « الروضتين » ، ولعله الصواب .

(٣) الشواني : هي سفن حربية كبيرة تشن الهجوم مجهزة بمدافع .

فأخذتها ، فأصبح المسلمون واجمين وقد دخل عليهم البرد ، وقلَّتْ أزوادهم ، وكثرت الجراحات ، وكَلَّ الأمراء من المحاصرات ، فسألوا من السلطان أن ينصرف بهم إلىٰ دمشق حتىٰ يستريحوا ، ثم يعودوا إليها ، فأجابهم إلىٰ ذلك بعد تمنُّع كبير ؛ وذلك أنه كان قد قرب فتحها ، فتوجه إلىٰ دمشق ، واجتاز في طريقه علىٰ عكا ، وتفرقت العساكر إلىٰ كل بلد .

وأما السلطان : فإنه لما وصل إلىٰ عكا . . نزل بقلعتها ، وأسكن ولده الأفضل برج الدَّاوية ، وجعل نائبها عز الدين جرديك ، وأشار عليه بعضهم بتخريب عكا خوفاً من عَود الفرنج إليها ، فكاد ولم يفعل ، وليته لو فعل ، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ .

ثم إنه وكل بعمارتها بهاء الدين قراقوش النقري ، ووقف دار الاسبتار نصفين على الفقهاء والفقراء ، وجعل دار الأسقف بيمارستاناً ، ووقف علىٰ ذلك أوقافاً كثيرة ، وجعل الناظر في ذلك قاضيها ، وهو الشيخ جمال الدين ابن الشيخ أبي النجيب .

ولما فرغ من هـٰذه الحروب ، وأزال عن المسلمين تلك الكروب . . عاد إلىٰ دمشق مؤيداً منصوراً ، وقد أبهج العيون وسر القلوب ، وجاءته رسل الملوك بالتهاني من سائر الأقطار ، والتحف والهدايا من سائر الأمصار .

وكتب الخليفة إليه يعتب عليه في أمور :

منها : أنه بعث بشارة الفتح بحطين مع شاب بغدادي كان وضيعاً عندهم .

ومنها : أنه أرسل بفتح القدس الشريف مع نَجَّاب .

ومنها : أنه لقب نفسه بالملك الناصر مضاهاة للخليفة الناصر ، فتلقى الرسول بالبشر واللطف ، وأرسل يعتذر عما وقع بأن الحرب كانت قد شغلته عن التروي في كثير من الأمور ، وأما لقبه بالناصر . . فهو من أيام الخليفة المستضيء ، ومع ذلك فمهما لقبني به أمير المؤمنين . . فهو الذي لا يُعدَل عنه . وتأدَّب مع الخليفة غاية الأدب ، رحمه الله .

* * *

سنة أربع وثمانين [وخمس مئة]

في المحرم منها : حاصر السلطان حصن كوكب ، فرآه منيعاً صعباً ووقته مشغول بغيره مما هو أهم منه ، فوكل به الأمير صارم[1] الدين قايماز النجمي في خمس مئة فارس يضيقون

(١) في النسخ : (نجم الدين) ، والمثبت من « الروضتين » ، ولعله الصواب ؛ لأن نجم الدين توفي في سنة ثمان وستين وخمس مئة .

عليه المسالك ، وكذلك وكَّل بصفد خمس مئة فارس مع طغرل الجاندار[1] يمنعون وصول الميرة[2] إليه والتقاوي[3] ، وكانت للداوية .

وبعث إلى الكرك والشوبك جيشاً آخر يضيقون علىٰ أهله ويحاصرونهم ؛ ليتفرغ من أموره لقتال أهل هـٰذه الأماكن .

ودخل السلطان من هـٰذه الغزوة السعيدة إلىٰ دمشق في ربيع الأول ، فكان يوماً مشهوداً ، فرح به المسلمون ، وضربت البشائر ، وزينت دمشق ، ووجد الصفي بن القابض وكيل الخزانة قد بنىٰ بالقلعة داراً هائلة للسلطان ، فغضب عليه ، وعزله من وظيفته وقال : إنا لم نخلق للمقام بدمشق ، وإنما خلقنا للعبادة والجهاد .

وجلس بدار العدل ، ثم زار القاضي الفاضل ببستانه ، وحكىٰ له ما كان من الأمور ، واستشاره فيما يفعل من الغزوات والمهمات .

ثم سار من دمشق إلى البقاع ، وخيم علىٰ بعلبك ، ثم سار إلىٰ حمص وجاءته عساكر الجزيرة ، فسار إلى السواحل الشامية ، ففتح طرسوس وغيرها من الحصون ، وفتح جَبْلة واللاذقية ، وفتح صهيون ، وفتح قلعتين على العاصي ، وفتح حصناً آخر عظيماً فيه قلعة علىٰ شاهق جبل تحته أودية عميقة ، يضرب المثل بحصانته ، فحاصرها أشد حصار ، وركب عليها المنجنيقات الكبار ، وفرق الجيش ثلاث فرق تقاتل كل فرقة إلىٰ أن تتعب ، ثم تقاتل الفرقة الأخرىٰ ، حتىٰ لا يزال القتال مستمراً ليلاً ونهاراً ، فجاء فتحها في نوبة السلطان ، فأخذها عنوة ، واستولىٰ علىٰ جميع ما فيها من الحواصل والأموال ، وكان شيئاً كثيراً ، وقتل رجالها ، وسبىٰ ذراريها وأطفالها ، ثم عدل عنها ، ففتح حصن دَرْبَسَاك ، وحصن بَغْرَاس .

ثم إنه سار إلىٰ أنطاكية ؛ لأنه كان قد أخذ ما حولها من القرىٰ ، فلما سمع صاحب أنطاكية . . طلب منه الهدنة علىٰ أن يطلق من عنده من أسارى المسلمين ، فأجابه السلطان

---

(١) في النسخ : (الخزندار) ، والمثبت من « الروضتين » ، ولعله الصواب ؛ لأن الجاندار هو المسؤول عن صنف من العسكر ، أما الخزندار . . فهو المسؤول عن الخزينة ، والجاندار : لفظ فارسي مركب من (جان) بمعنىٰ : سلاح ، و(دار) بمعنىٰ : ممسك ، فصارت : ممسك السلاح .

(٢) **الميرة** : الطعام .

(٣) **التَّقَاوِي** : بذور القطن والقمح والفول ونحوها مما يُبْذر في الأرض للزراعة .

إلىٰ ذلك ؛ لعلمه بضجر الجيش ، فوقعت الهدنة علىٰ سبعة أشهر ، وكان مقصود السلطان أن تستريح الجيوش من تعبها ، وتَجِمَّ النفوس من نَصَبها ، فأرسل السلطان إليه مَن تَسلَّم الأسارىٰ منه .

ثم سار السلطان ، فسأله ولده الظاهر أن يجتاز بحلب فأجابه ، ونزل بقلعتها ثلاث ليال ، ثم سار ، فاستقدمه ابن أخيه إلىٰ حماة فنزل بقلعتها ليلة ، وأقطعه جبلة واللاذقية ، ثم سار ، فنزل في قلعة بعلبك ، ودخل الحمَّام .

ثم عاد إلىٰ دمشق في أوائل رمضان ، ثم جاءته البشارة بفتح الكرك ، وأراح الله عز وجل تلك الناحية على السالكين من الحجاج وغيرهم .

ثم إن السلطان أقام بدمشق أياماً ، ثم سار بجيشه قاصداً فتح صفد وحصن كوكب وتلك البلاد ، فوصل إليها في العشر الأوسط من رمضان ، وحاصرها بالمنجنيقات ، وكان البرد شديداً ، [بحيث] يصبح الماء جليداً ، فما زال حتىٰ فتحها صلحاً ثاني شوال ، ثم راح إلىٰ صور ففتحها ، ثم إلىٰ حصن كوكب ، وكانت معدن الاسبتارية ، كما أن صفد كانت معقل الدَّاوية .

فحاصر قلعة كوكب حتىٰ قهرها ، وقتل مقاتلتها وأسرها ، وأراح المارة من شرها وكبتها ، وتمهدت تلك السواحل .

هٰذا والسماء تصب ، والرياح تهب ، والسيول تعُب ، والأرجل في الأوحال تخب ، والسلطان في كل ذلك صابر محتسب ، وكان القاضي الفاضل معه في هٰذه المواقف ، فكتب عن السلطان إلىٰ أخيه صاحب اليمن سيف الإسلام يستدعيه إلى الشام ، وأنه قد عزم علىٰ حصار أنطاكية بنفسه ، وأن تقي الدين يكون محاصراً طرابلس إذا انسلخ العام وعزم الفاضل على التوجه إلىٰ مصر .

فسار معه السلطان مودعاً له ، ثم سار إلى القدس الشريف ، فصلىٰ فيه الجمعة ، ثم سار معه أخوه العادل إلىٰ عسقلان ، ثم أقطع أخاه الكرك عوضاً عن عسقلان ، وأمره بالانصراف ؛ ليكون عوناً لابنه العزيز عثمان ، وعاد السلطان ، فأقام بعكا حتى انقضت السَّنة .

* * *

سنة خمس وثمانين [وخمس مئة]

فيها : قدم رسل من الخليفة يخبرونه بولاية العهد لابنه أبي النصر محمد الملقب بالظاهر ، فأمر السلطان خطيب دمشق أبا القاسم عبد الملك الدَّوْلَعي أن يذكره على المنبر ، ثم أرسل السلطان مع الرسل تحفاً وهدايا جليلة ، وأرسل بأسارىٰ من الفرنج علىٰ هيئتهم في حال حربهم ، وأرسل بصليب الصلبوت ، فدفن تحت عتبة باب النوبىٰ من دار الخلافة ، فكان يداس بعدما كان يقبل ويُباس ، ويُبصَق عليه بعدما كان يضعون جباههم عليه .

والصحيح : أن هـٰذا الصليب إنما هو الذي كان منصوباً علىٰ قبة الصخرة ، وكان من نحاس مطلياً بالذهب ، وقد انحط إلىٰ أسفل الرتب .

قصة عكا وما كان من أمرها

في رجب اجتمع من كان بصور من الفرنج ، وساروا إلىٰ عكا ، فأحاطوا بها يحاصرونها ، فتحصن من بها من المسلمين ، وأعدوا للحصار ما يحتاجون إليه ، وبلغ السلطانَ خبرُهم ، فسار إليهم من دمشق مسرعاً ، وما زال يمانعهم منها حتىٰ جعل طريقاً إلىٰ باب القلعة يصل إليه كل ما أراد من آلات وأمتعة ومُقاتِلة ورجال ، ودخل بنفسه الكريمة رحمه الله ، فارتقىٰ علىٰ سورها ، ونظر إلى الفرنج وجيشهم وكثرة عددهم وعُدَدهم ، والميرة تفد إليهم في البحر في كل وقت ، وكل يوم هم في ازدياد ، ثم عاد السلطان إلىٰ مخيمه وجيوش الإسلام تفد إليه من كل جهة ومكان .

وقعة مرج عكا

ثم وردت الفرنج في نحو من ألفي فارس وثلاثين ألف راجل في العشر الأخير من شعبان ، فبرز إليهم السلطان ، فاقتتلوا بمرج عكا قتالاً عظيماً ، وانهزم جماعة من المسلمين أول النهار ، ثم كانت الدائرة على الفرنج آخر النهار ، والعاقبة للمتقين ، فقتل من المسلمين نحو مئتين ، وقتل من الفرنج ما ينيف علىٰ سبعة آلاف .

ولما تمت هـٰذه الواقعة العظيمة . . انتقل السلطان من مكانه إلىٰ موضع آخر بعيد عن القتلىٰ ؛ لأجل الوخم والأذىٰ ، ولأجل استراحة الخيالة والخيل ، وما علم السلطان أن ذلك من أكبر مصالح العدو المخذول ؛ لأنهم اغتنموا هـٰذه الفترة ، فحفروا حول مخيمهم خندقاً يعم جيشهم من البحر إلى البحر محدقاً ، واتخذوا من ترابه سوراً شاهقاً ، وجعلوا له أبواباً

يخرجون منها متىٰ أرادوا ، وتمكّنوا في منزلهم ذلك .

وقوي الخطْب ، وصار الداء عضالاً ، وازداد الحال وبالاً ، وكان رأي السلطان أن يناجزوهم سريعاً ، وألاّ يُتركوا حتىٰ يطيب البحر ، فتأتيهم الأمداد من كل صوب ، فاعتذر الأمراء بالملال والضجر ، وكلٌّ منهم لأمر الفرنج قد احتقر ، ولم يدر ما خيم في القدر .

فأرسل السلطان إلىٰ جميع الملوك يستنفر ويستنصر ، وكتب إلى الخليفة أيضاً ، فجاءته الأمداد من كل جهة ، وأرسل إلىٰ مصر يطلب أخاه يقدم عليه ويستعجل الأسطول .

فوصل إليه في خمسين قطعة في البحر مع الأمير حسام الدين لؤلؤ ، فحين وصل الأسطول . . حاذت مراكب الفرنج يمنة ويسرة عنه ، وخافت منه كل الخوف ، ووصل إلى البلد الميرة والعَدد والعُدد ، وانشرحت الصدور بعد الضيق والكمد ، وانقضت هـٰذه السَّنة والحال علىٰ ما هو عليه ، ولا منجىٰ ولا ملجأ من الله عز وجل إلا إليه .

* * *

سنة ست وثمانين [وخمس مئة]

استهلت والسلطان محاصر[1] لمحاصري عكا ، وأمداد الفرنج تقدم عليهم من البحر في كل وقت ، حتىٰ إن نساءهم ليخرجن بنية القتال ، ومنهن مَن تأتي بنية إراحة العزبان في الغربة ، قدم إليهم مركب فيه ثلاث مئة امرأة حسناء بهـٰذه النية ، واشتهر الخبر بذلك ، ونودي أن ملك الألمان قد أقبل في نحو من ثلاث مئة ألف مقاتل من ناحية القسطنطينية قاصداً أخذ الشام وقتْل مَن فيه من أهله وملوكه انتصاراً لبيت المقدس .

فحمل المسلمون همّاً عظيماً ، وخافوا غائلة ذلك ، مع ما هم فيه من الشغل العظيم والحصار الهائل ، ولـٰكن . . لَطَفَ الله عز وجل بالمؤمنين ، وأهلك غالب جيش الألمان في الطرقات بالبرد والجوع والضلال في المهالك ، علىٰ ما سيأتي ذِكره إن شاء الله عز وجل .

وكان سبب نَفْر النصارىٰ لهـٰذا النفر العام : أن جماعة من الرهبان والقسوس ركبوا من صور في أربعة مراكب يطوفون البلدان البحرية يحثونهم على الانتصار لبيت المقدس وما جرىٰ علىٰ أهل السواحل ، وقد صوروا صورة المسيح عليه السلام وصورة رجل عربي يضربه ، فإذا سألوهم : مَن هـٰذا الذي يضرب المسيح ؟ قالوا : هـٰذا نبي العرب يضربه ،

---

(١) في « الروضتين » : (استهلت هـٰذه السنة وهو علىٰ مرابطة المحاصرين لعكا) .

وقد جرحه ومات ، فينزعجون لذلك انزعاجاً عظيماً ، ويحمَون ويخرجون من بلادهم لنصرة دينهم على الصعب والذلول ، حتى النساء المخدرات ، والأبناء الذين هم عند أهلهم من أعز الثمرات .

وفي نصف ربيع الأول تسلم السلطان شقيف أرنون بالأمان ، وكان صاحبه مأسوراً تحت الذل والهوان ، وكان من أدهى الفرنج وأخبرهم بأيام الناس ، وربما قرأ في كتب الحديث وتفسير القرآن ، وكان مع هـٰذا غليظ الجلد ، كافر القلب ، لعنه الله .

ولما انفصل الشتاء وأقبل الربيع . . جاءت الملوك من بلدانها بجيوشها وشجعانها ورجالها وفرسانها ، فأرسل الخليفة إلى السلطان أحمالاً من النفط والرماح الخطية ، ونفاطة[1] متقنين لهـٰذه الصناعة غاية الإتقان ، ومرسوماً بعشرين ألف دينار ، وانفتح البحر ، وتواترت الفرنج والنصارىٰ من كل جزيرة ينصرون إخوانهم ، ويمدونهم بالقوة والميرة .

وعملت الفرنج ثلاثة أبرجة من خشب وحديد ، عليها جلود مسقاة بالخل ؛ لئلا يعمل فيها النفط ، يسع البرج منها خمس مئة مقاتل ، وهي أعلىٰ من أبرجة البلد ، وهي مركَّبة علىٰ عجل بحيث يديرونها كيف شاؤوا ، علىٰ ظهر كل برج منها منجنيق كبير ، فأهمَّ أمرها المسلمين ، وكانوا عليها حنقين .

فأعمل السلطان فِكْره في إحراقها وإهلاكها ، فاستحضر النَّفَّاطين ، ووعدهم بالأموال الجزيلة ، فانتدب شاب نحَّاس من دمشق ، يعرف بعلي ابن عريف النحاسين ، والتزم بإحراقها ، فأخذ النفط الأبيض ، وخلط إليه أدوية عرفها ، وغلىٰ ذلك في ثلاثة قدور من نحاس ، حتىٰ صار ناراً تأجج ، ورمىٰ كلَّ برجٍ منها بقدر من تلك القدور بالمنجنيق من داخل عكا ، فاحترقت الأبرجة الثلاثة بإذن الله عز وجل حتىٰ صارت ناراً لها ألسنة في الجو متصاعدة .

فصرخ المسلمون صرخة عظيمة واحدة بالتهليل والتكبير ، واحترق في كل برج من مقاتليهم ما ينيف علىٰ تسعين كفوراً ، وكان يوماً على الكافرين عسيراً ، وذلك يوم الإثنين الثامن والعشرين من ربيع الأول من هـٰذه السَّنة .

وكانت الفرنج قد تعبوا فيها سبعة أشهر ، فاحترقت في يوم واحد بإذن الله سبحانه

---

(١) **النَّفَّاطة** : جمع نَفَّاط ، وهو : الخبير بحرفة النِّفَاطة ، حيث يصنع أدوات من النحاس يُرمىٰ فيها بالنفط والنار للإحراق .

وتعالىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ .

وطلب السلطان ذلك الشاب ، وعرض عليه أموالاً جزيلة ، وخلع عليه خلعاً جليلة مع العطية السنية الجميلة ، فامتنع من قَبول شيء من ذلك ، وقال : أنا إنما عملت هـٰذا ابتغاء لوجه الله عز وجل ، فلا أريد منكم جزاء ولا شكوراً . هنيئاً له رحمه الله ، لقد بذل الفاني القليل ، وتعوض بالباقي الجليل .

وأقبل الأسطول المصري وفيه الميرة الكثيرة لأهل البلد ، فعمر الفرنج أسطولهم ليحاربوا أسطول المسلمين ، فنهض السلطان بجيشه يشغلهم عن قتال الأسطول ، وقاتلهم أهل البلد أيضاً ، واقتتل الأسطولان في البحر ، فكان يوماً عظيماً وحرباً كبيراً براً وبحراً ، فظفرت الفرنج بشيني واحد من الأسطول ، وسلَّم الله عز وجل الباقي ، فوصل إلى البلد بما فيه من الميرة التي اشتدت حاجتهم إلىٰ عشرها .

وأما ملك الألمان المتقدم ذِكره . . فإنه أقبل في عدد كبير وجم غفير قريب من ثلاث مئة ألف لانتصار بيت المقدس ، وأخذه من أيدي المسلمين ، فما زال كلما مر ببلد بعد بلد . . يُتخطف جيشه في كل مكان ، ويُقتلون كما يقتل الحيوان حتى اجتاز ملكهم بنهر شديد الجريان ، فدعته نفسه إلى السباحة فيه ، فلما صار فيه . . حمله الماء إلىٰ جذم شجرة[(١)] فشجت رأسه ، وأخمدت أنفاسه ، وأراح الله عز وجل منه المسلمين ، وتعجلت روحه إلىٰ سِجِّين .

فأقيم ولده الصغير في الملك بعده ، وقد تمزق شملهم ، وقلَّت منهم العدة ، ثم أقبلوا لا يمرون ببلد . . إلا ويُقتلون فيه ويُتخطفون ، ولم يزالوا في نقص وقتل حتىٰ وصلوا إلىٰ أصحابهم المحاصِرين لعكا وهم في ألف فارس ، وليس لهم قدر ولا قيمة ، حتىٰ ولا عند أهل ملتهم ولا غيرهم .

وهـٰكذا سُنة الله عز وجل فيمن أراد مخالفة الإسلام وأهله في إهلاكه وتمزيق شمله ، ولله الحمد والمنة علىٰ إحسانه وفضله عدد عفوه عن خلقه .

وقال العماد في سياقه : إن الألماني وأصحابه وصلوا في خمسة آلاف ، وإن ملوك الفرنج كلهم كرهوا قدومه عليهم ؛ لأنه مشؤوم الطلعة ، يخافون من زوال دولتهم بدولته ، ولم يفرح به إلا صاحب صور الذي [هو] أصل هـٰذه الفتنة لعنه الله ؛ فإنه تقوَّىٰ به وبكيده ،

---

(١) جِذْم شجرة : أي أصلها .

وكان خبيراً بالحروب والقتال ، وقد أخذ شيئاً كبيراً من آلات الحرب لم يخطر لأحد ببال ، فصب دبابات أمثال الجبال تسير بعجل ، ولها زلوم حديد ينطح السور فيكسره ويثلم جوانبه .

فمَنَّ الله العظيم ـ وله الحمد أجمع ـ بإحراقها وإتلافها ، وأراح الله المسلمين من شرها ولله الحمد .

ونهض بالعسكر الفرنجي ، فصادم به جيش المسلمين ، وناصب بالحرب السلطان صلاح الدين ، فمَنَّ الله سبحانه بالنصرة عليه ، وتقدم الجيوش برمتها إليه ، فقتلوا من الكفار خلقاً كثيراً وجماً غفيراً ، وهجموا مرة على المخيم بغتة ، فنهبوا شيئاً من الأمتعة .

فنهض إليهم الملك العادل أبو بكر وكان رأس الميمنة ، فركب بأصحابه وأمهل الفرنج حتىٰ توغلوا بين الخيام ، ثم حمل عليهم بالرماح والحسام ، فهربوا من بين يديه ، فما زال يقتل منهم جماعة بعد جماعة وفرقة بعد فرقة حتىٰ قتل منهم فيما بين الظهر إلى العصر عشرة آلاف ، ولله الحمد ، ولم يقتل من المسلمين سوىٰ عشرة ، ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ، فالحمد لله علىٰ هـٰذه النعمة العظيمة والنصرة العميمة ، وقد أوهن هـٰذا الجيش الفرنج وأضعفه ، وكادوا يطلبون الصلح وينصرفون عن البلد .

فاتفق قدوم مدد عظيم إليهم مع ملك من ملوكهم ومعه أموال كثيرة ، فأنفق فيهم وعزم عليهم أن يخرجوا معه لقتال السلطان ، ونصب علىٰ عكا منجنيقين غُرِّم علىٰ أحدهما ألفاً وخمس مئة دينار ، فأحرقهما أهل البلد .

وجاءت كتب صاحب الروم من القسطنطينية تعتذر إلى السلطان صلاح الدين من جهة ملك الألمان ، وأنه لم يجاوز بلده باختياره ، وإنما جاوزه لكثرة جنوده ، ومع ذلك . . فليبشر السلطان بأن الله عز وجل سيهلكهم في كل مكان ، وكذلك وقع ، ولله الحمد والمنة .

وكتب متولي عكا إلى السلطان ـ وهو بهاء الدين قراقوش ـ في العشر الأول من شعبان يقول : إنه لم يبق عندنا من المؤونة إلا ما يكفي إلىٰ ليلة النصف .

فلما وصل الكتاب إلى السلطان . . كتمه ولم يبده لأحد خوفاً من شيوع ذلك .

وكان قد كتب إلىٰ أمير الأسطول بمصر ليقدم بميرة كثيرة إلىٰ عكا ، فتأخر سيره ، ووصلت ثلاث بطس[1] ليلة النصف فيها من الميرة ما يكفي أهل البلد طول الشتاء ، وهي في

---

(١) بُطُس : جمع بطسة وهي : مركب للحرب أو للتجارة من أصل إسباني .

صحبة الأمير الحاجب لؤلؤ ، فلما أشرفت على الناس . . تقدم إليها أسطول الفرنج ، واقتتلوا في البحر قتالاً عظيماً ، والمسلمون في البر يتضرعون إلى الله عز وجل ، وقد ارتفع الضجيج والدعاء ، فنصر الله عز وجل عباده المؤمنين ، وسلَّم مراكبهم فسارت ، واحترقت المراكب الفرنجية المحيطة بالميناء ، ودخلت [مراكب المسلمين] البلد سالمة ، ففرح بها أهل البلد والجيش فرحاً عظيماً ، ولله الحمد .

وكان السلطان قد جهز قبل هٰذه الثلاث بطس المصريات بطسة عظيمة من بيروت فيها أربع مئة غِرَارة[1] من الخبز ، والبصل ، والشحم ، والقديد ، والنشاب ، والنفط .

وكانت هٰذه البطسة من بطس الفرنج المغنومة ، وأمر من فيها من البحارة أن يتزايَوْا بزي الفرنج ، حتىٰ إنهم حلقوا لحاهم ، وشدوا الزنانير في أوساطهم ، واستصحبوا معهم في البطسة شيئاً من الخنازير ، وقدموا بها علىٰ مراكب الفرنج ، فاعتقد الفرنج أنهم منهم ، وهي سائرة كأنها السهم إذا خرج من الرمية .

فحذرهم الفرنج غائلة الميناء من ناحية المسلمين ، فاعتذروا بأنهم قد غلبوا معها ، والريح قوية لا يمكنهم أن يقفوا ولا ينصرفوا ، وما زالوا كذلك حتىٰ وصلوا إلى الميناء ، وأفرغوا ما كان معهم من الميرة ، فعبرت الميناء وعين الكفر عَبْرَىٰ ، وامتلأ الثغر بها خيراً وسروراً وأثرىٰ .

وكان ميناء البلد يكتنفها برجان يقال لأحدهما : برج الذُّبَّان ، فاتخذ الفرنج بطسة عظيمة لها خرطوم وفيه حركات ، إذا أرادوا أن يضعوه علىٰ شيء من الأسوار والأبرجة . . قلبوه ، فوصل إلىٰ ما أرادوا ، فعظم أمر هٰذه البطسة على المسلمين ، ولم يزالوا في أمرها محتالين حتىٰ أرسل الله عز وجل عليها شواظاً من نار فأحرقها وغرّقها ، وذلك أن الفرنج أعدوا فيها نفطاً عظيماً وحطباً جزلاً ، فأصابت النار شيئاً من الحطب والنفط ، فاضطرمت ناراً ، ولله الحمد والمنة علىٰ هٰذه النعمة .

وذلك لأنه كان للفرنج بطسة أخرىٰ لهم مقاتلة فيها ، فلما أرسلوا النفط علىٰ برج الذُّبَّان . . انعكس الأمر عليهم بقدرة الرحمٰن ، وذلك لشدة الهواء في تلك الليلة ، فوصلت النار إلىٰ بطستهم ، فاحترقت ووصل الحريق إلى الأخرىٰ فغرقت ، ووصل إلىٰ بطسة

---

(١) الغِرَارة : وعاء من الخيش يوضع فيه القمح ونحوه .

المقاتلة فتلفت ، وهلكت بجميع من فيها ، فساوىٰ حالهم حال من سلف من أهل الكتاب الكافرين ، الذين قال الله عز وجل في حقهم في كتابه المبين : ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

وفي ثالث رمضان اشتد حصار الفرنج للبلد ، حتىٰ نزلوا إلى الخندق ، فبرز إليهم أهل البلد ، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وتمكنوا من حريق الكبش[1] الذي أعدوه لحصار الأسوار ، وسرىٰ حريقه إلى السفود ، فارتفعت له لهبة عظيمة في عَنان السماء ، ثم اجتذبه المسلمون إليهم بكلاليب من حديد في سلاسل ، فحصَّلوه عندهم ، وألقوا عليه الماء فبرد بعد أيام ، فكان فيه من الحديد مئة قنطار بالدمشقي ، ولله الحمد والمنة .

وفي الثامن والعشرين من رمضان توفي الملك زين الدين صاحب إربل ، وكان مع السلطان علىٰ عكا ، فتأسف الناس والسلطان عليه لشبابه ، وغربته ، وجودته ، وشجاعته ، وشهامته ، وسخائه ، وفضله ، وعُزِّيَ أخوه مظفر الدين فيه ، وهو الذي قام في الملك بعده ، وسأل السلطان أن يضيف إليه شهرزور وينزل حران والرُّها وسميساط وغيرها ، ويحمل مع ذلك خمسين ألف دينار نقداً ، فأجيب إلىٰ ذلك ، وكتب له تقليداً ، وعقد له لواءً .

وأضيف ما تركه من البلاد المذكورة إلى الملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخي السلطان ، ووصل كتاب القاضي الفاضل من مصر إلى السلطان ، فيه : أن سبب هـٰذا التطويل في الحصار إنما هو بسبب كثرة الذنوب ، وارتكاب المحارم من الناس .

ويقول في بعضها : إن الله عز وجل لا يُنال ما عنده إلا بطاعته ، ولا تفرج الشدائد إلا بالرجوع إليه والامتثال لشريعته ، والمعاصي في كل مكان ثاوية ، والمظالم في كل موضع فاشية .

وفيه : أنه قد بلغه أن بيت المقدس قد ظهر فيه من المنكرات والفواحش والظلم في بلاده ما لا يمكن تلافيه إلا بكلفة كثيرة ، وكان قد حصل للسلطان في هـٰذه السَّنة سوء مزاج وضُعف من كثرة ما كابده من الأمور التي هي أمرُّ من العلقم ، فطمع العدو المخذول ـ لعنهم الله ـ في الإسلام ، فتجرد منهم جماعة للقتال ، وثبت آخرون على الحصار ، وأقبلوا

---

(١) الكبش : آلة حربية من العصر الإسلامي المتأخر ، لها رأس ضخم وقرنان ، يدفعها الجنود نحو الأسوار لنقبها .

في عدد كثير ، فرتب السلطان الجيوش المنصورة يمنة ويسرة وقلباً وجناحين .

فلما رأوا ما عاينوا من تلك الجيوش الإسلامية . . فروا عن آخرهم من موقف الحرب ، وحادوا عن حومة الوغىٰ ، فلحقهم المسلمون ، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وجماً غفيراً ، ولله الحمد والمنة .

ولما دخل فصل الشتاء . . سارت مراكب الفرنج عن البلد خوفاً من الهلاك بسبب اعتلائهم البحر ، وسأل المسلمون الذين في البلد من السلطان أن يريحهم مما هم فيه من الحصر العظيم ، والمقاتلة ليلاً ونهاراً ، وصباحاً ومساءً ، سراً وجهراً ، وأن يرسل إلى البلد بدلهم ، فرقَّ لهم السلطان ، وعزم علىٰ ذلك ، وكانوا قريباً من عشرين ألف مسلم ما بين أمير ومأمور ، فجهز جيشاً آخر غيرهم .

قالوا : ولم يكن ذاك بالرأي الجيد ، ولـٰكن ما قصد السلطان إلا خيراً ، وهو أن هـٰؤلاء يدخلون البلد ولهم همم جديدة وعزم قوي ، وهم في راحة بالنسبة إلىٰ أولـٰئك ، ولـٰكن أولـٰئك قد صارت لهم خبرة بالبلد وبالقتال ، ولهم صبر عظيم ، وقد عرفوا ما هم فيه من مصابرة الأعداء براً وبحراً .

وجُهزت لهـٰؤلاء الداخلين سبع بطس فيها ميرة كثيرة تكفيهم سَنة كاملة ، فقدَّر الله عز وجل ـ وله الأمر من قبل ومن بعد ـ أنها لما توسطت البحر واقتربت من الميناء . . هاجت ريح عظيمة في البحر ، فتلعبت بتلك البطس علىٰ عظمها ، فاختبطت واضطربت وتصادمت ، فتكسرت وغرقت ، وغرق جميع ما كان فيها من الميرة والرجال البحارة .

فدخل على المسلمين بسبب ذلك همٌّ كبير ووهن كثير ، واحتد مرض السلطان ، وازداد مرضاً إلىٰ مرضه ، وكان ذلك عوناً علىٰ أخذ البلد ـ كما سيأتي ذِكره ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وكان المقدم على البدل الداخلين إلىٰ عكا سيف الدين علي بن أحمد المشطوب .

وفي يوم السابع من ذي الحجة سقطت ثلمة عظيمة من سور عكا ، فبادر الفرنج إليها ، فسبقهم المسلمون إلىٰ سدها بصدورهم وقاتلوا عنها بنحورهم ، وما زالوا يمانعون عنها حتىٰ بنوها أشد مما كانت وأقوىٰ وأحسن .

ووقع في هـٰذه السَّنة وباء عظيم في المؤمنين والكافرين ، فكان السلطان يقول في ذلك :

اقتلـــــونـــــي ومـــــالكـــــاً واقتلـــوا مـــالكـــاً معـــي[1]

ومات ابن ملك الألمان ـ لعنهما الله ـ في ثاني ذي الحجة من هـٰذه السَّنة وجماعة كثيرة من أكابر الفرنج ، فحزن الفرنج على ابن ملك الألمان حزناً عظيماً ، وأوقدوا ناراً عظيمة من كل خيمة ، وصار في كل يوم يهلك من الفرنج المئة والمئتان ، واستأمن إلى السلطان جماعة منهم من شدة ما هم فيه من الجوع والضيق والحصر ، وأسلم خلق كثير منهم ، ولله الحمد والمنة .

وفي هـٰذا الشهر قدم القاضي الفاضل من مصر على السلطان ، وكان قد طال شوق كل واحد منهما إلىٰ صاحبه ، فأفضىٰ كل واحد منهما إلى الآخر ما كان يسره ويكتمه من الآراء التي فيها مصالح المسلمين .

وقد كان القاضي الفاضل بالديار المصرية يدبر الممالك بها ، ويجهز إلى السلطان ما يحتاج إليه من الأموال والنفقات ، وعمل الأسطول وما يحتاج إليه من محصول ، والكتب السلطانية واردة إليه في كل حين ، يستشيره فيما يصلح به أمر المسلمين ، وكذلك الكتب الفاضلية قادمة على السلطان في كل حين وأوان .

* * *

سنة سبع وثمانين [وخمس مئة]

استهلت والحصار قائم علىٰ عكا في حالة من الجانبين ، وقد استكمل دخول البدل إلى البلد ، والملك العادل مخيم إلىٰ جانب البحر ؛ ليتكامل دخولهم ودخول ميرتهم وما يحتاجون إليه .

وفي مستهل ربيع الأول خرج المسلمون من عكا ، فهجموا علىٰ مخيم الفرنج ، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وأخذوا شيئاً كثيراً ، وسبوا اثنتي عشرة امرأة ، وانكسر مركب عظيم للفرنج ، فغرق فيه خلق منهم ، وأسر باقيهم ، وأغار صاحب حمص علىٰ سرح الفرنج بطرابلس ، فاستاق منه شيئاً كبيراً من الخيل والبقر والغنم ، وظفر الترك بخلق كثير من

---

(١) البيت لسيدنا عبد الله بن الزبير رضي الله عنه ، وكان من قصته : أنه اقتتل مع الأشتر يوم الدار وتعاركا ، فاتحدا وصرع الأشتر ابن الزبير ، فلم يتمكن من القيام عنه ، بل احتضنه ابن الزبير وجعل ينادي :

اقتلـــــونـــــي ومـــــالكـــــاً واقتلـــوا مـــالكـــاً معـــي

فجعل الناس لا يعرفون مالكاً من هو ، وإنما هو الأشتر ؛ إذ اسمه : مالك بن الحارث بن الأشتر ، وهو معروف بالأشتر ، وغدا كلامه بعد هـٰذا مثلاً يقوله كل من أراد بصاحبه مكروهاً وإن ناله منه ضرر .

الفرنج ، فقتلوهم ولم يقتل من المسلمين غير طواشي[1] صغير عثر به فرسه .

وفي ثاني عشر ربيع الأول وصل ملك الفرنج إفرنسيس في ست بطس ملعونة مشحونة بعبدة الصليب ، وحين وصل إليهم وقدم عليهم . . لم يبق لأحد معه من ملوكهم كلام ، وذلك لعظمته عندهم ، وقدم معه باز عظيم أبيض ، وهو الأشهب ، هائل ، فطار من يده ، فسقط علىٰ سور عكا ، فأمسكه أهلها وبعثوه إلى السلطان[2] ، فبذل الفرنج فيه ألف دينار ، فلم يجابوا ، وقدم بعده شخص آخر من أكابر ملوكهم أيضاً ، ووصلت سفن ملك الإنكليز ، ولم يقدم هو ؛ لاشتغاله بجزيرة قبرص ، وأخذها من يد صاحبها .

وتواصلت ملوك الإسلام من بلدانها في أول فصل الربيع إلىٰ خدمة السلطان ، وكان للمسلمين لصوص يدخلون إلىٰ خيام الفرنج ، فيسرقون ، حتىٰ إنهم يسرقون الرجال .

فاتفق أن بعضهم أخذ صبياً رضيعاً من مهده ابن ثلاثة أشهر ، فوجدت أمه عليه وجداً شديداً ، واستبكت إلىٰ ملوكهم ، فقالوا لها : إن سلطان المسلمين رحيم القلب ، وقد أذِنَّا لك أن تذهبي فتشتكي أمرك إليه ، فجاءت إلى السلطان ، فبكت بكاء شديداً ، وجعلت تمرغ وجهها على الأرض ، فسأل عن أمرها ، فأنهت إليه حالها ، فرقَّ لها رقة شديدة حتىٰ دمعت عينه ، وأمر بإحضار ولدها ؛ فإذا هو قد بيع في السوق ، فرسم بدفع ثمنه إلى المشتري ، ولم يزل من مجلسه حتىٰ أحضر الغلام ، فدفعه إليها ، فأخذته ، فأرضعته ساعة وهي تبكي من شدة فرحها وشوقها إليه ، ثم أمر بحملها إلىٰ خيمتها علىٰ فرس ، رحمه الله ، وبلَّ بِوابل الرحمة والرأفة ثراه .

فَصْلٌ

في كيفية أخذ العدو المخذول مدينة عكا من يد السلطان قسراً

لما كان شهر جمادى الأولى اشتد حصار الفرنج ـ لعنهم الله ـ لعكا ، وتمالَؤُوا عليها من كل فج عميق ، وقدم عليهم ملك الإنكليز في جم غفير ، وجمع كثير في خمسة وعشرين قطعة مشحونة بالمقاتلة ، وملأ الثغر منه ببلاء لا يشبه ما قبله .

---

(١) **الطواشي** : لفظ فارسي تركي ، معناه : مخصي ، ودخل العربية في العصر الإسلامي المتأخر ؛ ليصبح لقباً للخصي المملوك الذي كان يستخدم في القصور السلطانية ضمن أجنحة الحريم .

(٢) في النسخ : (وبعثوه إلى الفرنج) ، ولعله وهم من الناسخ ، والمثبت من « الروضتين » .

فعند ذلك حُرِّكت الكوسات[1] في البلد ، وكانت علامة بينهم وبين السلطان ، فحرك السلطان كوساته ، واقترب من البلد ، وتحول إلىٰ قريب منهم ليشغلهم عن البلد ، وقد أحاطوا به من كل مكان ، ونصبوا عليه من المنجنيقات سبعة ، وهي تضرب في البلد ليلاً ونهاراً ، فأثرت فيه أثراً بيناً ، وشرعوا في ردم الخندق بما أمكنهم من دواب ميتة ، وبمن قتل منهم ومات أيضاً .

وقابلهم أهل البلد ينقلون ما ألقوه فيه إلى البحر ، وظفر ملك الإنكليز ببطسة عظيمة للمسلمين قد أقبلت من بيروت مشحونة بالأمتعة والأسلحة ، فأخذها ، وكان واقفاً في البحر في أربعين مركباً لا يترك شيئاً يصل إلى البلد بالكلية ، لعنه الله .

وكان فيها ست مئة من المقاتلة الصناديد الأبطال ، فهلكوا عن آخرهم ؛ لأنهم لما أحيط بهم من الجوانب كلها وتحققوا إما الغرق أو القتل . . خرقوها من جوانبها كلها ، فغرقت ولم تقدر الفرنج علىٰ أخذ شيء منها ، لا من الميرة ولا من الأسلحة ، وحزن المسلمون علىٰ هـٰذا المصاب حزناً شديداً ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

ولـٰكن الله عز وجل جبر هـٰذا البلاء بلطفه وكرمه ، بأن أَقْدَرَ المسلمين علىٰ إحراق دبابة للفرنج كانت أربع طبقات ، الأولىٰ من خشب ، والثانية من رصاص ، والثالثة من حديد ، والرابعة من نحاس ، وهي مشرفة على السور ، والمقاتلة فيها ، وقد قلق أهل البلد منها ، بحيث إنهم خوفاً من شرها حدثتهم أنفسهم بأن يطلبوا الأمان من الفرنج ويسلموا البلد ، ففرج الله عنهم ، وأمكنهم من إحراقها ، واتفق وقوع ذلك في اليوم الذي غرقت فيه البطسة المذكورة ، فأرسل أهل البلد إلى السلطان يشكون إليه كثرة الحصار وقوته عليهم منذ قدم ملك الإنكليز ، لعنه الله .

ومع هـٰذا فقد مرض وجرح ملك الإفرنسيس أيضاً ، وما يزيدهم إلا شدة وغلظة ، وعتواً ونفوراً ، وفارقهم المركيس وسار إلىٰ بلده صور خوفاً منهم أن يخرجوا مُلكها من يده .

وبعث ملك الإنكليز إلى السلطان صلاح الدين يذكر أن عنده جوارح قد جاء بها من البحر ، وهو علىٰ نية إرسالها إليه ، ولـٰكنها قد ضعفت ، وهو يطلب لها دجاجاً لتتقوىٰ به .

فعرف السلطان أنه إنما يطلب ذلك لنفسه يتلطف ، فأرسل إليه بشيء من ذلك كرماً

---

(١) **الكُوسات** : الطبول ، وفسرها بعضهم بأنها صنوج من نحاس شبه الترس الصغير ، يدق بإحداها على الآخر .

وسجية وحشمة ، ثم أرسل يطلب فاكهة وثلجاً ، فأرسل إليه أيضاً ، فلم ينفع معه الإحسان ، بل لما عوفي . . عاد إلىٰ شر مما كان عليه .

واشتد الحصار ليلاً ونهاراً ، وأرسل الذين في البلد يقولون للسلطان : إن لم تعملوا معنا غداً شيئاً وإلا . . طلبنا من الفرنج الأمان ، فشق ذلك على السلطان أمراً عظيماً ، وذلك أنه كان قد جعل فيها أسلحة الشام ومصر وسائر السواحل ، وما بقي مما غنمه من وقعة حطين ومن بيت المقدس ، وهي مشحونة بذلك ، فعزم السلطان علىٰ مهاجمة العدو .

فلما أصبح . . ركب في جيشه ، فرأى الفرنج قد ركبوا من وراء خندقهم ، والرَّجَّالة منهم قد ضربوا سوراً حول الفرسان ، وهم قطعة حديد صَمَّاءُ لا ينفذها شيء ، فأحجم عنهم ؛ لِمَا يعلم من ملال جيشه وصدهم عما يريده .

هٰذا وقد اشتد الحصار بالبلد جداً ، ووصلت الرَّجَّالة منهم إلى الخندق ، وعلقوا بَدَنَةً من السور وحشوها وأحرقوها[1] فسقطت ، ودخلت الفرنج إلى البلد ، فمانعهم المسلمون وقاتلوهم أشد القتال ، وقتلوا من أكابرهم ستة أنفس ، فاشتد حنق الفرنج عليهم جداً بسبب ذلك ، وجاء الليل ، فحال بين الفريقين .

فلما أصبح الصباح . . جاء أمير المسلمين بالبلد ، فاجتمع بملك الإفرنسيس ، وطلب منه الأمان علىٰ أنفسهم ، ويتسلمون منه البلد ، فلم يجبه إلىٰ ذلك ، وقال : بعدما سقط السور جئتَ تطلب الأمان ؟! فأغلظ له الأمير في الكلام ، ورجع إلى البلد في حالٍ الله بها عليم .

ولما أخبر أهل البلد بما وقع . . خافوا خوفاً شديداً ، وأرسلوا إلى السلطان يعلمونه بما وقع ، فأرسل إليهم أن يسرعوا الخروج من البلد في البحر ، ولا يتأخروا عن هٰذه الليلة ، فلا يبقىٰ بها مسلم ، فما أصبح إلا والخبر عند الفرنج من مملوكَين صغيرين سمعا بما رسم به السلطان ، فهربا إلىٰ قومهما ، فأخبروهم بذلك ، فاحتفظوا على البحر احتفاظاً عظيماً ، فلم يتمكن أحد من أهل البلد أن يتحرك بحركة ، ولا خرج منها شيء بالكلية .

وعزم السلطان علىٰ كبس العدو في هٰذه الليلة ، فلم يوافقه الجيش علىٰ ذلك ، وقالوا : لا نخاطر بالإسلام كله .

فلما أصبح . . بعث إلىٰ ملوك الفرنج يطلب منهم الأمان لأهل البلد علىٰ أن يطلق عدتهم

---

(١) جاء في « الروضتين » : (وتمكن العدو من الخنادق ، فملؤوها ، ونقبوا سور البلد ، وحشوه وأحرقوه) .

من الأسرى الذين تحت يده من النصارىٰ ، ويزيدهم علىٰ ذلك صليب الصلبوت ، فأبوا إلا أن يطلق كل أسير تحت يده ، ويعيد إليهم جميع البلاد الساحلية التي أخذت منهم حتىٰ بيت المقدس ، فأبىٰ ذلك ، وترددت المراسلات في ذلك .

والحصار يتزايد علىٰ أسوار البلد ، وقد تهدمت ثُلَم كثيرة ، وأعاد المسلمون كثيراً منها ، وسدوا ثغر تلك الأماكن بنحورهم ـ رحمهم الله ورضي عنهم ـ وصبروا صبراً عظيماً ، وصابروا ، ثم كان آخر أمرهم إلى الشهادة صبراً ، وقد كتبوا إلى السلطان في آخر أمرهم يقولون : يا مولانا ؛ لا تخضع لهـٰؤلاء الملاعين الذين قد أبوا عليك الإجابة فينا ، فنحن قد بايعنا الله عز وجل على الجهاد حتىٰ نقتل عن آخرنا ، وبالله المستعان ، فما أسعد هـٰذه الصفقة! وما أربح هـٰذا البيع! هنيئاً لهم رحمهم الله .

فلما كان وقت الظهر من اليوم السابع عشر من جمادى الآخرة من هـٰذه السَّنة . . لم يشعر الناس إلا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه وشعاره وناره علىٰ أسوار البلد ، وصاح الفرنج صيحة واحدة ، فعظمت المصيبة على المسلمين ، واشتد الحزن على المؤمنين ، وقالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وأصاب الناسَ بهتة عظيمة وغشية وحيرة شديدة ، ووقع في العسكر الصياح والعويل ، والبكاء والنحيب ، ودخل المركيس ـ لعنه الله ـ وقد عاد إليهم سريعا بهدايا إلىٰ ملوكهم ، فدخل في هـٰذا اليوم بأربعة أعلام للملوك ، فنصبها في البلد واحداً على المئذنة يوم الجمعة ، وآخر علىٰ برج الدَّاوية ، وآخر علىٰ برج القتال ، وآخر على القلعة عوضاً عن أعلام السلطان ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وحبس المسلمين الذين بها في ناحية من البلد محتاط بهم ، ومضيق عليهم ، قد أسرت النساء والأبناء ، وغنمت منهم الأموال ، وقيدت منهم الأبطال ، وأهين الرجال ، ولـٰكن الحرب سجال ، والحمد لله علىٰ كل حال .

وأمر السلطان الجيش بالتأخر عن هـٰذه المنزلة إلى التي بعدها ، وتأخر هو جريدة[1] ؛ لينظر ماذا يصنعون ، وماذا عليه يعولون ، وهم ـ عليهم لعائن الله تترىٰ ـ مشغولون بالاستيلاء على البلد ، وبتحصيل الأموال جملة وتفصيلاً مدهوشون .

ثم سار إلى العسكر وعنده من الحزن والهم ما لا يعلمه إلا الله عز وجل ، وجاءت الملوك الإسلامية والأمراء وأكابر الدولة يعزونه بما وقع ، ويسلونه عما عنه الحال انقشع ، وهو في

---

(١) الجريدة : كتيبة مقاتلة ليس فيها رجَّالة ، ولا دروع ثقيلة للفرسان .

حالٍ الله بها عليم ، ويقول في ذلك : ما ثم إلا الرضا والتسليم لأمر العزيز العليم ، إنا لله وإنا إليه راجعون .

ثم أرسل إلىٰ ملوك الفرنج في خلاص مَن بأيديهم مِن أسراء المسلمين ، فطلبوا منه عدتهم من أسراهم ، ومئة ألف دينار ، وصليب الصلبوت إن كان باقياً ، فأجاب إلىٰ ذلك ، فأحضر المال والصليب ، ولـٰكن لم يتهيأ له من الأسارىٰ إلا ست مئة أسير .

فطلب الفرنج منه أن يريهم الصليب من بعيد ، فلما رفع لهم . . سجدوا له ، وألقوا أنفسهم إلى الأرض ، وبعثوا يطلبون منه ما أحضره من المال والأسارىٰ والصليب ، فامتنع حتىٰ يرسلوا مَن بأيديهم مِن الأسارىٰ ، أو يبعثوا إليه برهائن عنده علىٰ ذلك خشية غدرهم ، فقالوا : لا ، ولـٰكن يرسل هو أولاً ذلك ، ويرضىٰ بأيماننا ، ففهم منهم إرادة الغدر والمكر ، فلم يرسل إليهم ، وأمر بردِّ الأسارىٰ إلىٰ أهاليهم بدمشق ، وبعث بالصليب إلىٰ دمشق مهاناً .

وبرَّزت الفرنج ـ لعنهم الله ـ خيامهم إلىٰ ظاهر البلد ، وأحضروا ثلاثة آلاف من المسلمين ، فأوقفوهم بعد العصر ، وحملوا عليهم حملة رجل واحد ، فقتلوهم في صعيد واحد ، رحمهم الله تعالىٰ ورضي عنهم ، وأكرم نزلهم ومثواهم ، وجعل جنة الفردوس منقلبهم ومأواهم .

ولم يستبقوا بأيديهم من أسرى المسلمين إلا من يرونه في عملهم قوياً ، أو امرأة أو صبياً ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، ولو شاء ربك ما فعلوه .

وكان مدة مقام السلطان ـ رحمه الله ـ علىٰ عكا ـ صابراً مصابراً مرابطاً ـ سبعة وثلاثين شهراً ، وجملة من قتل من الفرنج خمسين ألفاً في هـٰذه المدة .





فيما جرىٰ من الحوادث بعد أخذ الفرنج لعكا

وهو أنه سار الفرنج برمتهم قاصدين عسقلان ، والسلطان بجيشه يسايرهم ويعارضهم منزلة منزلة ، ومرحلة مرحلة ، والله عز وجل يحميه وجيشَه منهم ، والمسلمون يتخطفونهم ويسلبونهم في كل مكان ، وكل أسير يؤتىٰ به إلى السلطان ، فيأمر بقتله في ذلك المكان حال الأذان ، وجرت بين الجيشين وقعات متعددات ، وخطوب كثيرة .

ثم طلب الإنكلتير أن يجتمع بالملك العادل أخي السلطان يطلب منه الصلح والأمان علىٰ أن تعاد إلىٰ أهلها بلاد الساحل ، فقال له العادل : إن دون ذلك قتل كل فارس منكم وراجل ، فغضب اللعين ونهض من عنده وهو مغضب .

ثم اجتمعت الفرنج علىٰ حرب السلطان عند غابة أرسوف ، فكانت النصرة للمسلمين والحمد لله رب العالمين ، فقتل منهم عند غابة أرسوف عدة ألوف بعد ألوف ، وقتل من المسلمين أيضاً خلق كثير .

وقد كان الجيش فرَّ عن السلطان في أول الوقعة ، ولم يبق معه سوىٰ سبعة عشر مقاتلاً ، وهو ثابت صابر ، والكوس تدق لا تفتر ، والأعلام منشورة ، ثم تراجع الناس ، وكانت النصرة للمسلمين والكسرة على الكافرين .

ثم تقدم السلطان بعساكره ، فنزل ظاهر عسقلان ، فأشار ذو الرأي على السلطان بتخريب عسقلان خشية أن يتملكها الكفار ، ويجعلونها وسيلة إلىٰ أخذ بيت المقدس صانه الله تعالىٰ ، وأن يجري عنده من القتال مثل ما جرىٰ عند عكا .

فبات السلطان ليلته تلك مفكراً في ذلك ، فلما أصبح . . أوقع الله عز وجل في قلبه أن ذلك هو المصلحة ، فقال لمن حضره : والله ؛ لَموت جميع أولادي أهون عليَّ من تخريب حجر واحد منها ، ولـٰكن إذا كان فيه مصلحة المسلمين . . فلا بأس .

ثم طلب الولاة وأمرهم بتخريب البلد سريعاً قبل وصول العدو المخذول ، فشرع الناس في خرابه ، وأهله ومَن حضره يبكون علىٰ حسنه ، وطيبة مقيله ، وكثرة زرعه وثماره ، ونضارة أنهاره وأزهاره ، وألقيت النيران في أرجائه وجوانبه ، وخربت قصوره ودوره ورحابه ، وأتلف ما فيه من الغلات التي لا يمكن تحويلها ولا نقلها ، ولم يزل الخراب والحريق فيه إلىٰ سلخ شعبان من هـٰذه السَّنة .

ورحل منها السلطان في رمضان ، وقد تركها قاعاً صفصفاً ليس فيها مغنم لأحد ، ثم اجتاز بالرملة ، فهدم حصنها ، وخرب كنيسة لد ، وزار بيت المقدس ، وعاد إلى المخيم سريعاً ، تقبل الله منه .

ثم بعث ملك الإنكليز إلى السلطان يقول له : إن الأمر قد طال ، وهلك الفرنج والمسلمون ، وإنما مقصودنا ثلاثة أشياء لا سواها : رد الصليب ، وبلاد الساحل ، وبيت المقدس ، لا نرجع عن هـٰذه الثلاث ومنَّا عينٌ تطرف .

فأرسل إليه السلطان جوابَ ذلك أشد جوابٍ وأسوأ خطاب .

ثم عزمت الفرنج ـ خذلهم الله ـ علىٰ أخذ بيت المقدس ، فتقدم السلطان بجيشه إلىٰ بيت المقدس ، فنزله وسكن في دار الأقساء[1] قريباً من قُمامةَ في ذي القعدة ، وشرع في تحصينه وتعميق خنادقه ، وعمل هو فيه بنفسه وأولاده والأمراء والقضاة والعلماء والصوفية بأنفسهم ، وكان وقتاً مشهوداً ، واليَزَك[2] في البلد من ناحية الفرنج ، وفي كل وقت يستظهر المسلمون على الفرنج ، فيقتلون منهم ويأسرون ويغنمون منهم ، ولله الحمد والمنة .

وانقضت السَّنة والأمر علىٰ ذلك ، وتوفي في هـٰذه السَّنة الملك المظفر تقي الدين عمر ، كان عزيزاً عند عمه السلطان ، استنابه بمصر وغيرها من البلاد ، ثم أقطعه حماة ومدناً كثيرة معها حولها ومن بلاد الجزيرة ، وكان مع عمه السلطان علىٰ عكا ، ثم استأذنه في الإشراف علىٰ بلاده المجاورة للفرات ، فأذن له ، فاتفق موته ، وحملت جنازته حتىٰ دفن بحماة ، وله مدرسة هناك هائلة ، وكذلك بدمشق مدرسة مشهورة ، عليها أوقاف كثيرة مبرورة ، وأقام بالمُلك بعده ولده المنصور ناصر الدين محمد ، فأقره السلطان علىٰ ذلك .

وتوفي أيضاً الأمير حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين ، وأمه ست الشام بنت أيوب واقفة الشاميتين[3] بدمشق في ليلة الجمعة تاسع عشر رمضان ، ففجع السلطان بابن أخيه وابن أخته في ليلة واحدة ، فقد كانا له من أكبر الأعوان وأعز الإخوان ، ودفن حسام الدين في الشامية البرانية ، رحمهم الله تعالىٰ .

وفيها : توفي الأمير علم الدين سليمان الحلبي ، وكان من أكابر الدولة الصلاحية ، وفي خدمة السلطان حيث كان ، وهو الذي أشار على السلطان بتخريب عسقلان ، واتفق مرضه بالقدس ، فاستأذن في أن يمرض بدمشق ، فأذن له ، فسافر حتىٰ وصل غباغب ، فمات بها في أواخر ذي الحجة ، رحمه الله تعالىٰ .

وفيها : توفي الشيخ نجم الدين الخُبُوشاني الذي بنىٰ تربة الشافعي بمصر بأمر السلطان صلاح الدين ، وأوقف عليها الأوقاف السَّنية ، وولاه تدريسها ونظرها ، وقد كان السلطان يحترمه ويكرمه .

---

(١) في النسخ : (دار القساقس) ، والمثبت من « الروضتين » .

(٢) **اليزك** : كلمة فارسية تعني : طلائع الجيش .

(٣) **الشاميتان** : مدرستان تعرفان بالشامية البرانية ، والشامية الجوانية .

سنة ثمان وثمانين [وخمس مئة]

استهلت والسلطان مقيم بالقدس الشريف ، وقد قسم السُّورَ بين أولاده وأمرائه ، وهو يعمل فيه بنفسه ، ويحمل الحجر بين القربوس وبينه ، والناس يقتدون به من الأمراء والعلماء والفقراء ، وسائر الأكابر يعملون بأنفسهم ، والفرنج ـ لعنهم الله ـ حول البلد من ناحية عسقلان وما والاها لا يتجاسرون أن يتقدموا من الحرس واليَزَك الذين نصبهم السلطان حول القدس الشريف ، إلا أنهم علىٰ نية المحاصرة للقدس مصممون ، وعلىٰ كيد الإسلام مجمعون ، وهم والحرس تارة يَغلبون وتارة يُغلَبون ، وتارة يَنهبون وتارة يُنهبون .

وفي ربيعِ الآخِرِ دخل الأمير سيف الدين المشطوب إلى السلطان ـ وهو بالقدس ـ من الأسر ، وكان نائباً علىٰ عكا حين أخذت ، فافتدىٰ منهم بخمسين ألف دينار ، فأعطاه السلطان شيئاً كثيراً ، واستنابه علىٰ نابلس ، فتوفي بها في شوال منها .

وفي ثالث ربيع الآخر قُتل المركيس صاحب صور لعنه الله ، أرسل إليه ملك الإنكليز اثنين من الفداوية ، فأظهرا التنصر ولزما الكنيسة حتىٰ ظفرا بالمركيس فقتلاه وقُتلا إلىٰ لعنة الله .

وفي تاسع جمادى الأولى استولى الفرنج علىٰ قلعة الدارم[1] فخربوها وقتلوا خلقاً كثيراً من أهلها ، وأسروا طائفة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

ثم أقبلوا بخيلهم ورَجلهم نحو القدس الشريف ، فبرز إليهم السلطان في حزب أهل الإيمان ، وهو مشتمل على الرَّجَّالة والفرسان والأبطال والشجعان ، فلما تراءى الجمعان . . نكص حزب الشيطان علىٰ عقبيه ، وانقلبوا راجعين قبل القتال والنزال ، وعاد السلطان إلى القدس الشريف ، ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ .

ثم إن الإنكلتير ـ لعنه الله ، وهو من أكبر ملوك الفرنج في ذلك الوقت ـ ظفر ببعض قفول المسلمين ، فكبسهم ليلاً ، فقتل منهم خلقاً كثيراً ، وأسر منهم خمس مئة أسير ، وأخذ شيئاً كثيراً من الأموال والجمال والخيل والبغال ، وكان من جملة الجمال ثلاثة آلاف بعير .

فتقوَّى الفرنج بذلك شيئاً كثيراً ، وعز ذلك على السلطان وشق عليه مشقة عظيمة جداً ،

---

(١) في « الروضتين » : (قلعة الداروم) .

وخاف من غائلة ذلك ، واستخدم الإنكلتير الجمالين على الجمال ، والخربَنْدية[1] على البغال ، والساسة على الخيل ، وأقبل الملعون وقد قويت نفسه ، وصمم علىٰ محاصرة القدس الشريف ، وأرسل إلىٰ ملوك الفرنج الذين بالساحل ، فاستحضرهم ومن معهم من المُقاتِلة ، فتهيأ السلطان لذلك ، وأكمل السور ، وعمق الخنادق ، ونصب الآلات والمنجنيقات ، وأمر بتغوير جميع الماء الذي حول القدس ؛ ليبقى المشركون علىٰ غير ماء .

وأحضر السلطان جميع الأمراء ليلة الجمعة تاسع عشر جمادى الآخرة ، وفيهم أبو الهيجاء السمين ، والمشطوب ، والأسدية بكمالهم ، فاستشارهم السلطان فيما قد دهمهم من هٰذا الأمر الفظيع الموجع المؤلم ، فأفاضوا في الكلام ، وأشار كل برأي ، وأشار العماد الكاتب بأن يتحالفوا على الموت عند الصخرة كما فعلت الصحابة رضوان الله عليهم ، فأجابوا إلىٰ ذلك .

هٰذا كله والسلطان ساكت واجم مفكر ، فسكت القوم كأنما علىٰ رؤوسهم الطير ، ثم قال : الحمد لله ، والصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومَنَعَتُه ، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة في ذممكم ، وأن هٰذا العدو ليس هنا من يلقاه ويقاتله من المسلمين غيركم ، فإن لويتم أعِنَّتكم ـ والعياذ بالله ـ طوى البلاد كطي السجل للكتاب ، وكان جميع ذلك في ذمتكم ، ويصير كأنكم أنتم الذين قصدتم لهٰذا كله ، وأعاذكم الله من ذلك ، وأنتم الآكلون لبيت مال المسلمين ، فالمسلمون في سائر البلاد معلقون بكم ، والسلام .

فانتُدِب لجوابه سيف الدين المشطوب ، وقال : يا مولانا ؛ نحن مماليكك وعبيدك ، وأنت الذي أنعمت علينا وكرمتنا وعظمتنا وأعطيتنا وأغنيتنا ، وليس لنا إلا رقابنا ، وهي بين يديك ، واللهِ ؛ ما يرجع أحد عن نصرة الإسلام حتىٰ نموت .

فقال الجماعة مثل ما قال ، ففرح السلطان بذلك ، وطاب قلبه ، ومد لهم سماطاً[2] حافلاً ، وانصرفوا من بين يديه علىٰ ذلك .

وكان قد أقام من الجمعة إلى الأحد لم يتناول من الغذاء إلا شيئاً يسيراً جداً ، كل ذلك اهتماماً بأمر المسلمين رحمه الله .

---

(١) هم المكارون ، مفردها المكاري : الذي يكري دابته ؛ أي : يؤجرها .

(٢) **السماط** : ما يوضع عليه الطعام .

ثم بلغه بعد ذلك عن بعض الأمراء أنه قال : نخاف أن يجري علينا في هـٰذه الليلة كما جرىٰ في عكا ، ثم يأخذون بلاد الشام ، والمصلحة أنا نلتقيهم بظاهر البلد ، فإن هزمناهم . . أخذنا بقية بلادهم ، وإن يكن الأخرىٰ . . سلم العسكر ومضىٰ إلى القدس ، وقد انحفظت بلاد الشام بدون القدس مدة طويلة .

وكان مما بعثوا يقولون : وإن كنت تريدنا نقيم بالقدس لحصار الفرنج . . فلا بد وأن تكون أنت معنا أو بعض أهلك ، ليكون الجيش تحت أمره ؛ فإن الأكراد لا تطيع الترك ، والترك لا تطيع الأكراد .

فلما بلغه ذلك . . شق عليه مشقة عظيمة ، وبات ليلته كلها في هَمٍّ عظيم مفكراً فيما قالوا ، ثم انجلى الأمر ، واتفق الحال علىٰ أن يكون الملك الأمجد صاحب بعلبك مقيماً عندهم نائباً عنه بالقدس الشريف ، وكان ذلك في يوم الجمعة ، فلما حضر السلطان لصلاة الجمعة . . قام فصلىٰ ركعتين بين الأذانين ، وسجد طويلاً ، وتضرع إلى الله عز وجل تضرعاً عظيماً ، وتذلل وتمسكن ، وألح في الدعاء والسؤال من القريب المجيب سبحانه وتعالىٰ ، الذي يجيب دعوة المضطر إذا دعاه في أن يكشف عنهم هـٰذه الضائقة العظيمة .

فأجاب الله عز وجل دعاءه ، وكشف ما بهم من الضائقة ، وذلك لأنه لما كان يوم السبت من غدها . . جاءت الكتب من الحرس الذي للمسلمين حول البلد يخبرون بأن الفرنج قد اختلفوا فيما بينهم في محاصرة القدس الشريف ، فقال ملك الإفرنسيس : إنما جئنا من البلاد البعيدة وأنفقنا الأموال الكثيرة في أخذ بيت المقدس ، ورده إلينا ، وقد بقي بيننا وبينه مرحلة ، وقال الإنكلتير : إن هـٰذا البلد يشق علينا حصاره ؛ لأن المياه حوله قد عدمت ، فيبقىٰ جيشنا بغير ماء ، ومتىٰ بعثنا من يأتينا بالماء . . تعطل أمر الحصار علينا ، وتلف الجيش .

ثم اتفق الحال علىٰ أن حكَّموا عليهم ثلاث مئة منهم ، فرَدَّ أولـٰئك أمرَهم إلى اثني عشر ، وردَّ أولـٰئك أمرهم إلىٰ ثلاثة منهم ، فباتوا ليلهم ينظرون ويفكرون ، ثم أصبحوا وقد حكموا عليهم بالرحيل ، فلم يمكنهم مخالفتهم ، فانقلبوا خائبين عليهم لعنة الله أجمعين ، فساروا حتىٰ نزلوا على الرملة في بكرة الحادي والعشرين من جمادىٰ .

وسار السلطان بجيشه إلىٰ خارج البلد قاصداً نحوهم ؛ خوفاً أن يسيروا إلى الديار المصرية ؛ لكثرة ما معهم من الظهر والأموال .

وكان الإنكلتير يلهج بذلك كثيراً ، فصرفهم الله عز وجل عن ذلك ، وخذلهم ، وترددت الرسل من الإنكلتير إلى السلطان في طلب الصلح ووضع الحرب بينهم ثلاث سنين وستة أشهر ، علىٰ أن يعيد السلطان عليهم عسقلان ويترك لهم أكبر كنيسة ببيت المقدس ، وهي القُمامةُ ، وأن يمكن الزوار منهم وحجاجهم أيضاً بغير شيء ، فامتنع السلطان من إعادة عسقلان ، وأطلق لهم قمامة ، وفرض على الزوار مالاً يؤخذ منهم ، فامتنع الإنكلتير إلا أن تعاد إليهم عسقلان ، ويُعمَّر سورها كما كان .

وصمم السلطان علىٰ عدم الإجابة ، ثم ركب السلطان في جيشه حتىٰ وافاها ، فحاصرها حصاراً شديداً ، وفتحها وغنم منها شيئاً كثيراً ، وامتنعت القلعة ، فبالغ في أمرها حتىٰ هانت ولانت ودانت ، وكادوا أن يبعثوا إليه بمفاتيحها ويأخذوا الأمان .

فبينما هم علىٰ ذلك . . إذ أشرفت عليهم مراكب الإنكلتير ، فقويت رؤوسهم ، واستصفت نفوسهم ، وهجم اللعين فاستعاد البلد إليه ، وقتل مَن تأخر بها من المسلمين صبراً .

وسار السلطان من منزلة الحصار إلىٰ ما وراءَها خوفاً على الجيش من معرة الفرنج ، وجعل الإنكلتير يعجب من شدة سطوة السلطان كيف فتح مثل هـٰذا البلد العظيم في يومين ، وغيره لا يمكنه فتحه في عامين ، ويقول مع ذلك : ولـٰكن ما ظننت أنه مع شهامته وشجاعته وشدة بأسه أن يتأخر من منزله بمجرد قدومي ، وأنا ومن معي لم نخرج من البحر إلا جرائد بلا سلاح القتال ولا أهبة النزال .

ثم ألح في طلب الصلح ، علىٰ أن تكون عسقلان داخلة في صلحهم ، فامتنع السلطان من ذلك أشد الامتناع ، ثم إن السلطان كبس في بعض تلك الليالي الإنكلتير وهو في سبعة عشر فارساً وقليل من الرَّجَّالة ، فأوكب السلطان بجيشه حوله وحصره حصراً لم يبق منه نجاة لو صمم معه الجيش ، ولـٰكنهم نكلوا عن الجملة ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ، وجعل السلطان يحرضهم غاية التحريض ، فكلهم يمتنع ، هـٰذا والإنكلتير ـ لعنه الله ـ قد ركب في أصحابه وأخذ في قتاله ، والسلطان وحده داخل بين صفوف المشركين ، ولم يتجاسر أحد منهم أن يتقدم إليه ، وهو كالوالدة الثكلىٰ يحول فرسه من طلب إلىٰ طلب ، ويحث الناس على الجهاد ، وينادي بنفسه : (يا للإسلام) ، وعيناه تفيضان دموعاً .

وكلما تذكر ما حل بعكا وما جرىٰ بها من المصاب . . اشتد في الزحف والحث على

القتال ، ولم يَطعم في ذلك اليوم طعاماً ألبتة ، وإنما شرب شيئاً يسيراً أشار به الطبيب .

ولما هجم الليل . . عاد إلى المخيم ، وقد أخذ منه التعب والكآبة والحزن ، ثم ركب سحراً والحرب علىٰ ما هي عليه ، وقد أحزنه نكول جيشه عن الفرنج ، وأنه لم ير من الجيش سامعاً ولا مطيعاً ، ولعل الخِيرة كانت في ذلك .

وعرض للإنكلتير مرض شديد ، فأرسل إلى السلطان يطلب منه فاكهة وثلجاً ، فأمده السلطان بذلك عسىٰ أن يرجع عن طغيانه ، فلم يرجع ؛ لأنه لما عوفي . . استمر علىٰ ما كان عليه ، وتكررت رسله بطلب الصلح من السلطان ، وترك طلب عسقلان ، وأنه قد رضي بما شرط عليه السلطان .

فكُتب كتاب الصلح علىٰ ما أمر به السلطان في ثامن شعبان ، وأكدت العهود والمواثيق من كل ملك من ملوكهم ، وحلف الأمراء من المسلمين ، وكتبوا خطوطهم بذلك .

واكتفىٰ من السلطان بالقول المجرد كما جرت به عادة السلاطين ، وفرح كل من الفريقين فرحاً كثيراً ، ووقعت المصالحة علىٰ وضع الحرب ثلاث سنين وستة أشهر ، وعلىٰ أن يقر ما بأيديهم من البلاد الساحلية ، وأن للمسلمين ما يقابلها من البلاد الجبلية ، وأما ما بينهما من المعاملات . . فإنه يقسم على المناصفة .

وأرسل السلطان مئة نقَّاب صحبة أمير لتخريب سور عسقلان ، وإخراج من بها من الفرنج والألمان ، ثم عاد السلطان إلى القدس الشريف مؤيَّداً منصوراً ، ولله الحمد والمنة .

فرتب أحواله وأطَّدها ، وسدد أموره وأكدها ، وزاد وقف المدرسة ورباط الصوفية بساتينَ ودكاكينَ وغير ذلك ، وعزم على الحج في ذلك العام .

فكتب القاضي الفاضل بأن المصلحة تأخير الحج عن هـٰذا العام خوفاً من استيلاء الفرنج على البلاد وغدرهم ، هـٰذا مع ما يحتاج إليه المسلمون من النظر في مصالحهم وأمورهم ، وسد ثغورهم ، ومصابرة أعدائهم في هـٰذا الوقت ، وجميع ذلك أفضل من الحج ، والعدو المخذول مخيم بالشام لم يقلع منه مركب إلىٰ بلادهم ، وأنت تعلم أنهم إنما يهادنون ليتقوَّوا ويكثروا ، ثم إنهم يمكرون ويغدرون .

فقبل السلطان نصحه ، وشكرَه علىٰ ذلك ، ولم يحج ، وكتب بذلك إلىٰ سائر الممالك .

واستمر مقيماً بالقدس الشريف جميع رمضان ، وكل ما كان أخذه من رؤساء النصارىٰ

للزيارة رده إليهم ، وأولاهم من الإكرام والإحسان شيئاً كثيراً يتألفهم بذلك .

فلما كان في خامس شوال توجه إلىٰ دمشق ، واستناب على القدس عز الدين جرديك ، وعلى القضاء بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم الشافعي .

وسار إلىٰ أن وصل نابلس ، فنظر في أحوالها وأمورها ، ثم سار عنها وهو يمر بالمعاقل والحصون والبلدان وينظر في أحوالها وأمورها ، وفي أثناء الطريق جاء إلىٰ خدمته البرنس صاحب أنطاكية سامعاً مطيعاً ، فأكرمه وأحسن إليه ، وأطلق له مالاً جزيلاً وخلعاً جميلة يتألفه بذلك .

ولم يزل سائراً إلىٰ يوم الأربعاء سادس عشر شوال ، فدخل دمشق وكان يوماً مشهوداً ، فرح به المسلمون واستبشروا ؛ لطول غيبته عنهم ؛ فإن غيبته عن دمشق كانت قد طالت أربع سنين ، واجتمع شمله بأولاده الكبار والصغار ، وجاءت إليه رسل الملوك من سائر الأمصار ، فأقام بقية عامه علىٰ عادته قائماً بالعدل ، ناشراً ألوية الإحسان ، فرحمه الله .

فَصْلٌ
في المراسلات

كتب السلطان إلى الفاضل بمصر كتاباً من بلاد الفرنج يخبره بما لاح له من أمارات النصر ، ويقول : ما أخاف إلا من ذنوبنا أن يأخذنا الله بها .

فكتب إليه الفاضل : فأما قول مولانا : (إننا نخاف أن نؤخذ بذنوبنا) فالذنوب كانت مثبتة قبل هٰذا المقام وفيه محيت ، والآثام كانت مكتوبة ثم عفي عنها بهٰذه الساعات وعفيت ، فيكفي مستغفراً لسانُ السيف الأحمر في الجهاد ، ويكفي قارعاً لأبواب الجنة صوتُ مقارعة الأضداد ، وبعين الله سبحانه وتعالىٰ موقفك ، وفي سبيل الله عز وجل مقامك ومنصرفك ، وطوبىٰ لقدم سعت في منهاجك ، وطوبىٰ لوجه تلثَّم بمثار عَجاجك ، وطوبىٰ لنفس بين يديك قَتَلت وقُتِلت .

كتاب آخر من الفاضل ، فيه : إنما أُتينا من قبل أنفسنا ، ولو صدَقناه . . لعجَّل لنا عواقب صدقنا ، ولو أطعناه . . لما عاقبنا بعدونا ، ولو فعلنا ما نقدر عليه من أمره . . لفعل لنا ما لا نقدر عليه إلا به من أمرنا ، فلا يستخصم أحد إلا عمله ، ولا يلُمْ إلا نفسه ، ولا يرج إلا ربه .

ولا ينتظر العساكر أن تكثر ، ولا الأموال أن تحضر ، ولا فلان الذي يُعتقد عليه أن

يقاتل ، ولا فلان الذي ينتظر أنه يُشير ، فكل هٰذه مشاغل عن الله عز وجل ليس النصر بها ، ولا نأمن أن يكلنا الله عز وجل إليها ، وإنما النصر به سبحانه وتعالىٰ ، واللطف الجميل منه عزَّ وجلَّ ، ونستغفر الله عز وجل من ذنوبنا .

فلولا أنها تسد طريق دعائنا . . لكان جواب دعائنا قد نزل ، وفيض دموع الخاشعين قد غَسَلَ ، ولٰكن في الطريق عائق ، خار الله لمولانا في القضاء السابق واللاحق .

ومن كتاب آخر : وعسكرنا لا يشكو ـ والحمد لله ـ منه خَوَراً ، وإنما يشكو منه ضجراً ، والقوى البشرية لا بد أن يكون لها حد ، والأقدار الإلـٰهية لها قصد ، وكل ذي قصد خادم قصدها وواقف عندها ، وإنما ذكر المملوك هٰذا ليرفع المولىٰ من خاطره مقت المتقاعس من رجاله ، كما يثبت فيه شكر المسارع من أبطاله ، قال تعالىٰ لسيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلّم : ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ ، يا مولانا ؛ لك البشرىٰ العظيمة بأن الله سبحانه وتعالى اطَّلع علىٰ قلوب أهل الأرض ، فلم يؤهل ، ولم يستصلح ، ولم يختر ، ولم يسهل ، ولم يستخدم في إقامة دينه ، وإعلاء كلمته ، وتمهيد سلطانه ، وحماية شعاره ، وحفظ قبلة موحديه . . إلا أنت .

هٰذا وفي الأرض مَن هو للنبوة قرابة ، ومَن له المملكة وراثة ، ومَن له في المال كثرة ، ومَن له في العدد ثروة ، فأقعدهم وأقامك ، وثبطهم ونشطك ، وقبضهم وبسطك ، وحبب الدنيا إليهم وبغضها إليك ، وصعبها عليهم وهونها عليك ، وأمسك أيديهم وأطلق يدك ، وأغمد سيوفهم وجرد سيفك ، وثبطهم وسيَّرك ، ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴾ .

وهو كتاب طويل ، قال في آخره : لا شبهة أن المملوك قد أطال ، ولٰكن قد اتسع المجال ، وما مراده إلا أن يشكر الله علىٰ ما اختاره الله عز وجل له ، ويسَّره عليه وحببه إليه ، فرب ممتحَن بنعمة ، ورب مُنعَم عليه بمشقة ، وكم مغبوط بنعمة هي داؤه ، ومرحوم من بلوىٰ هي دواؤه .

ومراد المملوك بهٰذا ألاَّ يتغير لمولانا ـ أبقاه الله عز وجل ـ وجه عن بشاشة ، ولا صدر عن سعة ، ولا لسان عن حسنة ، ولا تُرىٰ منه ضجرة ، ولا تُسمع منه نهرة ، فالشدة تذهب ويبقىٰ ذِكرُها ، والأزمة تنفرج ويبقىٰ أجرُها .

وكما لم يحدث استمرار النعم لمولانا ـ عز نصره ـ بطراً . . فلا تحدث له ساعات

الامتحان ضجراً ، والمملوك يستحسن بيتَيْ حاتم ، ومولانا ـ أيده الله وحفظ سلطانه وملكه ـ يحفظهما :

شربنا بكأس الفقر يوماً وبالغنىٰ ... وما منهما إلا سقانا به الدهرُ
فما زادنا بغياً علىٰ ذي قرابة ... غِنانا ولا أزرىٰ بأحسابنا الفقر

ومن كتاب آخر : المملوك يوصي المولىٰ بالإسلام ، والإسلام هو قلب المولىٰ ، فيروِّحه ولا يحمِّله ما يُثقله ويَشْغَله ، ويوصي المولىٰ بقلوب المسلمين ، وقلوب المسلمين جسم مولانا ، وفيه قد بلغ المملوك من حمله علىٰ نفسه ما يخشىٰ علىٰ مولانا الإثم فيه ، وإنما نتجشم كل مشقة لنسلم منه .

ونحن في ضر قد مسنا ، ولا نرجو لكشفه إلا مَن ابتلىٰ به ، وفي طوفان فتنة ، ولا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، ولنا ذنوب قد سدت طريق دعائنا ، فنحن أولىٰ بأن نُلزِم أنفسنا .

ولله عز وجل قَدَر لا سلاح لنا في دفعه ، إلا أن نقول : لا حول ولا قوة إلا بالله .

وقد أشرفنا علىٰ أهوال ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ﴾ وقد جمع العدو لنا ، وقيل لنا : اخشوه ، فقلنا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، متنجزين بذلك موعود الانقلاب بنعمة من الله وفضل ، فما نرجو إلا ذلك الفضل العظيم ، وليس إلا الاستعانة بالله العزيز الحكيم ، فما دلنا الله عز وجل في الشدائد إلا بالالتجاء إليه والتضرع والدعاء له .

وفيه : إنْ عَلِمَ الله عز وجل من جند مولانا أنهم قد بذلوا المجهود . . فقد عذرهم ، فيعذرهم المولىٰ ، وإن علم أنهم قد قصروا في نصرة كلمة الله . . فيكفيهم مقت الله .

والمملوك يذكِّر مولانا بحسن صبره ، وبرُحْب صدره ، وبفضل خُلُقه ، وبتقواه لربه ، وبمداراة مزاجه ؛ فإن القلوب الإسلامية إنما تبرأ ببرء جسمه ، ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ ، والمولىٰ أولىٰ بهـٰذا البيت :

لا بَطِرٌ إن تتابعت نِعَمٌ ... وصابرٌ في البلاء محتسبُ

وقيل للمهلب ابن أبي صفرة : أيسرُّك ظَفَر ليس فيه تعب ؟ فقال : أكره عادة العجز .

ولا بد وأن تنفذ مشيئة الله عز وجل في خلقه ، لا راد لحكمه ، فلا يتسخطْ مولانا ـ

والعياذ بالله ـ بشيء من قدره ، فلأَن يجري القضاء وهو راض مأجور . . خير من أن يجري وهو ساخط موزور .

وفيه : من شكا بثَّه وحزنه إلى الله . . شكا إلىٰ مشتكىٰ ، واستغاث بقادر ، ومن دعا ربَّه دعاء خفياً . . استجاب له استجابة ظاهرة ، فلتكن شكوىٰ مولانا إلى الله عز وجل خفية عنا .

وفيه :

قـد قلـتُ للـرجـل المُقَسِّـمِ أمـرَه فـوِّض إليـه تنـم قـريـر العيـنِ

يا مولانا ؛ هـٰذه الليالي التي رابطتَ فيها والناس كارهون ، وسهرت فيها والعيون هاجعة ، وهـٰذه الأيام التي ينادىٰ فيها : يا خيل الله ؛ اركبي ، وهـٰذه الساعات التي تزرع الشيب في الرؤوس ، وهـٰذه الغمرات التي تفيض فيها الصدور بمائها بل بنارها . . هي نعمة الله عز وجل عليك ، وغراسك في الجنة ، ومجملات مَحضرك ، ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾ ، وهي مجوِّزاتُك الصراط ، وهي مثقلات الميزان ، وهي درجات الرضوان ، فاشكر الله عز وجل عليها كما تشكره على الفتوحات الجليلة .

واعلم : أن مثوبة الصبر فوق مثوبة الشكر ، ومِن ربط جأش أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله : لو كان الصبر والشكر بعيرين . . ما باليت أيَّهما ركبت .

وبهـٰذه العزائم سبقونا وتركونا لا نطمع بالغبار ، وامتدت خطاهم ونعوذ بالله من العِثار ، ما استعمل اللهُ عز وجل في القيام بحقه إلا خيرَ الخلق سيدَ المرسلين محمداً صلى الله عليه وسلّم ، ولنا فيه أسوة حسنة ، وقد عرفت ما جرىٰ في سير الأولين .

وفيه من الوصايا : إن المولىٰ لا يحمل همّاً يضعف به جسمه ، ويضر مزاجه ، والأمة بنيان ، وهو ـ أبقاه الله ـ قاعدته ، والله تعالىٰ ثبت تلك القاعدة القائمة في نصرة الحق .

ومما يستحسن من وصايا الفُرْس : إن نزل بك ما فيه حيلة . . فلا تعجز ، وإن نزل بك ما ليس فيه حيلة . . فلا تجزع ، ورُبَّ واقع في أمر لو اشتغل عن حمل الهم به بالتدبير فيه مع مقدور الله عز وجل . . لانصرف همُّه ، وكُفي خطبَه ، ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ .

وفيه : هـٰذا سلطان هو بحول الله أوثقُ منه بسلطانه ، قاتَلَتِ الملوكُ بطمعها ، وقاتل هـٰذا بإيمانه ، وإذا نظر [الله] إلىٰ قلب مولانا فلم يجد فيه ثقة بغيره سبحانه وتعالىٰ ، ولا تعويلاً علىٰ قوم إلا على القوي العزيز . . فهناك الفرج ميعاده ، واللطف الجزيل ميقاته ، فلا يقنط من روح الله ، ولا يقُل متىٰ نصر الله ، وليصبر ؛ فإنما خلق للصبر ، بل يشكره ؛

فالشكر في موضع الصبر أعلىٰ درجات الشكر ، وليقل لمن ابتلي : أنت المعافىٰ ، وليرض عن الله سبحانه ؛ فإن المرضي عند الله سبحانه وتعالىٰ هو المسلم الراضي ، ولْيَسَعِ الخَلَفَ ما وسع السلف من الأدب ، وليعلم العبد أنه يكتب كتاباً إلىٰ ربه ، فليفكر فيما كتب وإلىٰ من كتب .

ومن كتاب آخر : وأما تبرم مولانا بكثرة المطالبات منه . . فلا أخلى الله عز وجل مولانا من القدرة عليها ، وهنيئاً له أن الله سبحانه وتعالىٰ يطالبه بحفظ دِينه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلّم يطالبه بحسن الخلافة في أمته .

والسلف الصالح من هٰذه الأمة يطالبونه بمباشرة ما لو حضروه . . لما زادوا علىٰ ما يفعله المولىٰ .

وأهل الحرب يطالبونه بإزاحة علَّتهم[1] من الذهب والفضة والحديد ، وبقية الأمة تطالبه بالأمن في سربهم ، والاستقامة في كسبهم ، والخفارة[2] في سُبُلِهِم ، ونفسه الكريمة تطالبه برضوان الله عز وجل في جنات الفردوس بلَّغه الله إليها ، وبمعالي الأمور أعانه الله عليها ، وإذا عُدِّد ما يراد منه . . فلا بد أن يعدَّد ما يُسِّر عليه .

فهل عدِمَ من الله تعالىٰ قط نصرةً ؟! فهل استمرت به قط عسرة ؟! فهل تمت لعدو قط عليه كرة ؟! هل بات قط إلا راجياً ؟! هل أصبح إلا راضياً ؟!

ألاَ يعلم أن الله تعالىٰ ذخر له من الصالحات ما لم ير كفؤاً له غيرَه ؟! ألاَ يحصي من سبقه من الملوك إلىٰ هٰذه الدنيا فعجزوا عما سبق إليه المولىٰ من الأعمال الصالحة في الآخرة ؟!

هل يعرف راية تقاتل في سبيل الله عز وجل إلا رايته ؟! هل يعرف مالاً يُنفق في سبيل الله إلا ماله ؟! هل يسمع في مجلسه إلا كتاب الله يتلىٰ أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلّم تقرأ ؟! أو هل يرىٰ به إلا الخيل تُعرض والسلاح يُقلَّب ؟!

وبالجملة : فمجلس مولانا أحق بأن يكون مسجداً من كل مجلس .

ومن كتاب آخر فيه شفاعة : أدام الله سلطان مولانا الملك الناصر ، وثبته ، وتقبل عمله بقبول حسن وأنبته ، وأخذ عدوه قائلاً[3] أو بيَّته[4] ، وأرغم أنفه بسيفه وكبته .

---

(١) في النسخ : (بإزاحة أغدادهم) ، والمثبت من « الروضتين » .

(٢) **الخفارة** : الحراسة .

(٣) **قائلاً** : نائماً في وقت القيلولة .

(٤) **بيَّته** : أتاه وهو نائم ليلاً .

خدمةُ المملوك هـٰذه واردة علىٰ يد فلان خطيب عيذاب ، ولما نَبَا به المنزل منها ، وقل عليه المرفق فيها ، وسمع بهـٰذه الفتوحات العظيمة التي طبَّق الأرضَ ذِكرُها ، ووجب علىٰ أهلها شكرُها ، وحصل لمن جرت علىٰ يده أجرها . . هاجر من هجير عيذاب وملْحِها ، سارياً في ليلة أمل كلِّها صباح ، فلا يسأل عن صبحها ، وقد رغب في خطابة الكرك وهو خطيب ، وتوسل بالمملوك في هـٰذا الملتمس وهو قريب ، ونزع من مصر إلى الشام ، ومن عيذاب إلى الكرك وهو عجيب ، والفقر سائق عنيف ، والمذكور عائل ضعيف ، ولُطف الله تعالىٰ بالخلق ـ بوجود مولانا ـ لطيف ، ورأيه أعلىٰ إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

سنة تسع وثمانين [وخمس مئة]

فيها : كانت الرزية الكبرىٰ ، والمصيبة العظمىٰ ، وفجيعة المسلمين وسائر أهل الفضل في الدنيا والدين ، وذلك بوفاة السلطان صلاح الدين قدس الله روحه ، وانتقاله من دار الفناء إلىٰ دار البقاء .

وذلك أنه في أول هـٰذه السَّنة طلع هو وأخوه العادل إلى الصيد في شرقي دمشق ، واتفق الحال بينه وبين أخيه أنه بعد أن تفرَّغ من أمر الفرنج هـٰذه المدة . . أن يغتنم هـٰذه الفرصة ، ويسير بنفسه إلىٰ بلاد الروم ، ويبعث أخاه العادل إلىٰ ما والاها ، وقال له : إذا فرغنا منها . . نسير جميعاً إلىٰ بلاد أذربيجان والعجم ؛ فإنه ليس دونها أحد يمانع عنها .

ولم يزل علىٰ هـٰذه النية إلىٰ أن قدم الحُجاج من مكة ـ شرفها الله تعالىٰ ـ حادي عشر صفر ، فخرج للقائهم ، وقدِم معهم ابن أخيه سيف الإسلام صاحب اليمن ، فأكرمه واحترمه ، وعاد إلى القلعة ، فدخلها من باب الحديد ، فكان ذلك آخر ما ركب من الدنيا ، وذلك لأنه حصل له حمىٰ صفراوية ليلة السبت سادس عشر صفر ، فلما أصبح . . دخل القاضي الفاضل وابن شداد وابنه الأفضل ، فأخذ يذكِّرهم كثرة قلقه البارحة ، وطاب له الحديث معهم ، وطال مجلسهم عنده .

ثم تزايد المرض ، وقصده الأطباء في اليوم الرابع ، فاعتراه يبس ، وحصل له عرق شديد بحيث إنه نفذ إلى الأرض ، وقوي اليبس أيضاً ، فطلب الأكابر من الأمراء والرؤساء وسائر وجوه الناس ، وبويع لولده الأفضل نور الدين عليٍّ علىٰ دمشق .

ولم يزل يتزايد به الضعف إلىٰ ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر ، وكان الشيخ

أبو جعفر يبيت عنده ويقرأ القرآن ، فذَكر أنه لما كان في الغمرات وأنا أقرأ ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ . . فقال : صحيح .

فلما أذن الفجر وهو بآخر رمق وأنا أقرأ ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ . . تبسم وتهلل وجهه ، وفاضت نفسه إلىٰ رحمة الله ورضوانه ، وله من العمر سبع وخمسون سَنة .

فرحمه الله وأكرم مثواه ، وجعل جنة الفردوس مأواه ، فلقد كان حصناً عظيماً للإسلام ، وحرزاً وكهفاً كبيراً من كيد الكفرة اللئام .

وكأن أهل دمشق لم يصابوا بمثل مصابه ، يود كل منهم لو فداه بنفسه وأولاده وأحبابه وأصحابه ، وما أحسن ما قال الشاعر :

عُقِمَ النساء فلا يلِدن شبيهه ... إن النساء بمثله لعقيمُ

وتولىٰ غسله الخطيب الدولعي ، ولم يخلف كفناً ، وإنما كان الكفن ومؤنة التجهيز من مال القاضي الفاضل ، وصلىٰ عليه القاضي ابن الزكي ، ودُفن في داره بالقلعة المنصورة ، وشرعوا في بناء تربة له ومدرسة للشافعية بالقرب من مسجد القدم ؛ لأنه كان قد أوصىٰ بذلك قديماً ، ثم إنه لم يتفق له إتمام ذلك ، فاشترىٰ له ابنه الأفضل داراً شمالي الكلاسة بقدر ما زاده القاضي الفاضل في الكلاسة ، فجعلها تربة له ، هطلت سحائب الرحمة عليها ، ووصلت ألطاف الرأفة إليها .

وكان نقله إليها يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين [وخمس مئة] ، وصلىٰ عليه ابن الزكي عن إذن ولده الأفضل ، ودفن تحت قبة النسر ، ودخل الأفضل لحْدَه فدفنه بنفسه وهو سلطان الشام .

ويقال : إن تحت رأسه لبنة من غبار الجهاد تقبل الله منه ، وإنه دفن معه سيفه الذي كان يحضر به الجهاد ؛ تفاؤلاً بأن يكون يوم القيامة متوكئاً عليه حتىٰ يدخل الجنة إن شاء الله عز وجل ؛ ولِمَا أنعم الله عز وجل به عليه من نصر الأولياء وكسر الأعداء ، وأَعْظِمْ بتلك المنة ، ثم عمل عزاه في الجامع الأموي ثلاثة أيام .

وقد حكي : أنه رئي النبي صلى الله عليه وسلّم مع جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم قد جاؤوا إلىٰ قبر صلاح الدين زائرين له ، وأن عند قبره يستجاب الدعاء .

ورأىٰ رجل صالح ليلة وفاته قائلاً يقول : قد خرج الليلة يوسف من السجن ، وهٰذا صحيح ؛ فإن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر .

وقد رثاه الشعراء وأكثروا فيه من المراثي ، ومن أحسنها ما ختم به العماد الكاتب كتابه « البرق الشامي » ، وهي مئتان واثنان وثلاثون بيتاً ، فمنها :

شَمْلُ الهدىٰ والمُلكِ عم شتاتُه ... والدهرُ ساء وأقلعت حسناتُه
بالله أين الناصر المَلِك الذي ... لله خالصةً صَفَتْ نياته
أين الذي ما زال سلطاناً لنا ... يرجىٰ نَداه وتتقىٰ سطواته
أغلالُ أعناق العِدىٰ أسيافه ... أطواق أجياد الورىٰ مِنَّاته
مَن في الجهاد صِفاحه ما أُغمدت ... بالنصر حتىٰ أُغمدت صفحاته
مَن في صدور الكفر صدرُ قناته ... حتىٰ توارت بالصفيح قناته
لَذَّ المتاعبَ في الجهاد فلم تكن ... مذ عاش قطُّ لِذاتِه لَذَّاتُه
مسعودة غَدَواته محمودة ... رَوْحاته ميمونة ضَحْواته
في نصرة الإسلام يسهر دائباً ... ليطول في روض الجنان سُباتُه
لا تحسبوه مات شخص واحد ... فممات كل العالمين مماته
ملك عن الإسلام كان محامياً ... أبداً إلىٰ أن أسلمته حُماته
قد أظلمت مذ غاب عنها دوره ... لما خلت من بدره داراته
دفن السماح فليس تُنشر بعدما ... أودىٰ إلىٰ يوم النشور رفاته
الدين بعد أبي المظفر يوسُفٍ ... أَقْوَتْ قواه وأقفرت ساحاته
بحر خلا من وارديه ولم تزل ... محفوفة بوفوده حفَّاته
مَن لليتامىٰ والأرامل راحم ... متعطف مفضوضة صدقاته
فعلىٰ صلاح الدين يوسُفَ دائماً ... رضوان رب العرش بل صلواته
مَن للثغور وقد عداها حفظه ... من للجهاد ولم تَعُد عاداته
بكت الصوارم والصواهل إذ خلت ... من سلها وركوبها غزواته[1]
يا وحشتا للبيض في أغمادها ... لا تنتضيها للوغىٰ عَزْماته
يا وحشة الإسلام يوم تمكنت ... في كل قلب مؤمن روعاته
ملأت مهابته البلادَ فإنه ... أَسَد وإن بلاده غاباته
ما كان أسرعَ عصرَه لما انقضىٰ ... فكأنما سنواته ساعاتُه

(١) في النسخ : (سهلها) ، والمثبت من « الروضتين » .

لم أنس يوم السبت وهْوَ لِمَا به … يبدي السبات وقد بدت غشياته
والبشر منه تبلجت أنواره … والوجه منه تلألأت سبحاته
ويقول : لله المهيمنِ حكمة … في مَرْضَةٍ حصلت بها مَرْضَاتُه
هذي مناشير الممالك تقتضي … توقيعه فيها فأين دَواته
قد كان وعدك في الربيع بجمعها … هٰذا الربيع وقد دنا ميقاته
والجند في الديوان جُدِّدَ عرضه … وإذا أمرت تجدَّدت نفقاته
والقدس طامحة إليك عيونه … عَجِّل فقد طمحت إليه عِداته(١)
والغرب منتظر طلوعك نحوه … حتىٰ تفيء إلىٰ هداك بُغاته
والشرق يرجو عُرف عزمك ماضياً … في ملكه حتىٰ تطيعَ عُصاته
مُغرىً بإسداء الجميل كأنما … فُرضَتْ عليه كالصلاة صِلاتُه
هل للملوك مضاؤه في موقف … شُدَّت علىٰ أعدائه شداته
كم جاءه التوفيق في وقعاته … من كان بالتوفيق توقيعاته
يا راعياً للدِّين حين تمكنت … منه الذئاب وأسلمته رعاته
فارقْتَ مُلكاً غير باق متعِباً … ووصلتَ ملكاً باقياً راحاته
أبَني صلاح الدين إن أباكمُ … ما زال يأبىٰ ما الكرام أُباتُه
لا تقتدوا إلا بسنة فضلِهِ … لتطيب في مهد النعيم سِناته
ورِدوا موارد عدله وسماحه … لتردَّ عن نهج الشَّمات شُماته

* * *

فَصْلٌ

قال شيخنا شيخ الإسلام برهان الدين الفزاري ـ قدس الله روحه ـ في تعليقه علىٰ « التنبيه » ومن خطه نقلت فائدة غريبة تتعلق بباب النذر :

قال الشيخ الإمام العلامة القاضي ناصر الدين ـ المعروف بابن المُنَيِّر(٢) قاضي الإسكندرية

---

(١) في النسخ : (طمحت إليك) ، والمثبت من « الروضتين » .

(٢) ابن المُنَيِّر : (٦٢٠ـ٦٨٣هـ) أحمد بن محمد بن منصور من علماء الإسكندرية وأدبائها ، ولي قضاءها وخطابتها ، له تصانيف ، منها : « تفسير حديث الإسراء » ، علىٰ طريقة المتكلمين .

وخطيبها رحمه الله في مصنفه في « الإسراء » ، في الباب الرابع ، بعد مضي نحو أربعة كراريس من النسخة التي وقفت عليها ـ :

نكتة لطيفة : نذر صلاح الدين رحمه الله في بعض نصارى الساحل إن ظفر بهم . . أن يقتلهم ولا يمن عليهم ، ثم ظفر بهم أحد نوابه ، فأعطاهم الأمان ، فاستفتىٰ صلاح الدين رحمه الله فيما أعطاه النائب من الأمان ، هل يلزمه هو ، أم لا ؟

فاختلف عليه الفقهاء ، وكانت فتيا الشيخ شهاب الدين الطوسي ـ رحمه الله ـ أن لا أمان لهم ؛ لقبح ما تعاطَوْه في الإسلام .

فأخذ صلاح الدين رحمه الله بفتيا الشيخ شهاب الدين ، وأحضره معه علىٰ قتلهم تحرياً في التقليد ، وتبرياً من الاستبداد ، فلما أخذتهم السيوف . . التفت صلاح الدين ، فإذا الشيخ شهاب الدين يبكي ، فقال له : ما هٰذا ؟ رجوعاً عن الفتيا بعد الفوات ؟! فقال : لاها الله[1] ، ولٰكن رحمة جِبِلِّيَّةٌ لهٰذه الصور الإنسانية .

نكتة أُخرىٰ : انظر هل يصح من الإمام ونحوه من ولاة النظر في أمور المسلمين أن ينذر تعيين خصلة من الخصال كما فعل صلاح الدين ؟ أو يحلف ألاَّ يستعمل فلاناً ؟ أو يحلف القاضي ألاَّ يعزل أحداً مدة بعينها ؟

فالحق أن ذلك كله لا ينبغي ؛ فإن الإمام لا يحكم بالهوىٰ ، ولا يعين خصلة من الخصال بالتشهي ، ولا يستعمل أحداً لمثل ذلك ، وإنما هو منقاد لمقتضى الاجتهاد في الوقت الحاضر ، فمهما اقتضته المصلحة في وقت الحكم ودخول زمان الحاجة . . وجب عليه أن يتبعه .

قال : وقد تكون المصلحة في وقت اليمين في الامتناع ، ثم تتغير المصلحة .

ثم قال : فإن قلت : قد حلف النبي صلى الله عليه وسلّم لما استحمله أبو موسىٰ الأشعري وقومه في بعض الغزوات ، فقال صلى الله عليه وسلّم : « والله ؛ لا أحملكم ، ولا أجد ما أحملكم عليه »[2] ، ثم حملهم .

ثم أجاب : فقال : **قلت** : إنما حلف النبي صلى الله عليه وسلّم ألاَّ يتكلف لهٰؤلاء حملاً ، بقرض ونحوه ما دام لا يجد لهم حملاً ، والأحسن أن تكون الواو واو الحال في

---

(١) **لاها الله** : أي لا والله ، وقد تكون بمعنى القسم .

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٦٤) ، ومسلم (١٦٤٩) .

قوله : « ولا أجد ما أحملكم عليه » ، كأنه قال : لا أحملكم ما دمت فاقداً للظَّهر ، ولهٰذا قال صلى الله عليه وسلّم : « ما أنا حملتكم ، الله حملكم » أي : سخر الله لكم بظهرٍ حملتكم عليه ، فلا حِنث إذاً .

وأما قوله صلى الله عليه وسلّم : « إني لا أحلف يميناً . . . » الحديث . . فهو استئناف قاعدة لا تدل علىٰ أن النبي صلى الله عليه وسلّم حنث في يمينه التي حلفها علىٰ أبي موسىٰ وقومه ، بل خرج الكلام على التقدير ، كأنه قال : ولو حنثت في يميني حيث كان الحنث خيراً وكفَّرت عنها . . لكان ذلك شرعاً واسعاً ، بل ندباً راجحاً .

هٰذا كله كلام القاضي ناصر الدين المذكور أحمد بن محمد رحمه الله تعالىٰ . انتهىٰ .

فَصْلٌ
في تركة السلطان وذِكر بعض مناقبه الجميلة ومآثره الجليلة

قال العماد الكاتب وابن شداد وغيرهما : إنه لما مات السلطان . . لم يترك في خزانته من الذهب سوىٰ جرماً واحداً صورياً ، ومن الفضة ستة وثلاثين درهماً أو سبعة وأربعين درهماً ، ولم يترك داراً ولا عقاراً ، ولا مزرعة ولا بستاناً ، ولا شيئاً من أنواع الأملاك .

هٰذا وله من الأولاد سبعة عشر ذَكراً وابنة صغيرة ، وتوفي له من الأولاد في حياته غيرهم .

وكان مشغوفاً بالإنفاق في سبيل الله تعالىٰ ، وما عُقر لأحد من العسكر فرس في سبيل الله عز وجل أو جرح . . إلا وعوض مالكه مثله وزاده من فضله ، وحسب ما وهبه من الخيل العراب والأكاديش[1] الجياد للحاضرين معه في الجهاد في مدة ثلاث سنين وشهر ، فكان اثنا عشر ألف رأس .

وأما الأموال التي أطلقها بسبب الخيل المصابة في القتال . . فشيء كثير لا يحصيها إلا الله تعالىٰ ، ولم يكن له فرس يركبه . . إلا وهو موهوب أو موعود به ، وصاحبه ملازم في طلبه ، وما حضر للقتال . . إلا واستعار فرساً يقاتل عليه ، فإذا نزل عنه . . جاء صاحبه وأخذه .

وكانت مجالسه حافلة بأهل العلم والدِّين والفضل ، يحب مناظرة العلماء بين يديه ، ويشاركهم في المناظرة أحسن مشاركة في المسائل الكثيرة الغامضة ، حتىٰ صار لمداومة

---

(١) **الأكاديش** : الأفراس غير الأصيلة .

المناظرة مع العلماء أعرف منهم بالأحكام الفرعية بل بالأدلة الشرعية ، وكان كل مَن جالسه من العلماء لا يحسب من يراه عنده إلا كأنه أخ من إخوته ؛ لشدة إكرامه واحترامه للعلماء ، وتواضعه لهم ، وحسن أخلاقه ورأفته .

وكان حليماً كريماً حسيباً عفيفاً ، مجالسه كلها مجالس الآخرة لا غير ؛ لأنها إما في إقامة عدل ينشره ، أو جهاد يتجهز له ، أو سماع الأحاديث النبوية ـ علىٰ قائلها أفضل الصلاة والسلام ـ أو برٍّ يوليه ، وإحسان يوصله إلىٰ ذوي الحاجات وأرباب الضرورات ، إلىٰ غير ذلك من سائر أنواع البر وأبواب القربات .

هٰذا مع ما انطوىٰ عليه من السجايا الجليلة ، والأخلاق الطاهرة الجميلة ، والحياء الذي لا مزيد عليه ، والسخاء الذي لا يُلحق فيه ، فهو حقيق بقول الشاعر :

كريم لا يغيِّره صباحٌ ... عن الخلق الكريم ولا مساءُ
إذا أثنىٰ عليه المرء يوماً ... كفاه من تعرضه الثناء
وعلمك بالحقوق وأنت قرم ... لك الحسب المهذب والسناء
وأرضك كل مكرمة تقيها ... بنو تيم وأنت لها سماء
أأذكر حاجتي أم قد كفاني ... حياؤك إنَّ شيمتَك الحياء

ومع ذلك فكان يهب الجزيل فلا يراه ، بل يرى الفضل للآخذ منه ذلك ، كما قيل فيه :

يا ذا الذي يَهَب الجزيلَ وعنده ... أني عليه بأخذه أتفضل

فانظر إلىٰ هٰذه النفس الزكية ما أكثر تقواها ، وما أعظم سخاها ، فسبحان من أعطاها ، ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ .

وكان ـ رحمه الله ـ حليماً كثير الأفضال علىٰ إخوانه ، لا سيما القاصدين إليه والسائلين له والوافدين إليه ، مقيلاً للعثرات ، متجاوزاً عن الهفوات ، يتغابىٰ عن الزلات ، كما قيل :

ليس الغبي بسيد في قومه ... لٰكنَّ سيِّدَ قومه المتغابي

وكان تقياً نقياً ، براً وفياً صفياً ، يغضي ولا يغضب ، دائم البِشر والبشاشة ، لا يرد سائلاً ، ولا يصد نائلاً ، ولا يُخجل قائلاً ، ولا يخيِّب آملاً .

سأل بعض الأمراء عن سبب تخلفه عن الغزاة ، فذكر دَيناً عليه ، فأحضر الغرماء وتقبل بالدَّين وهو اثنا عشر ألف دينار مصرية وكسراً ، وحوسب صاحب ديوانه عما تولاه في

أيامه ، فكان سياقة الحساب سبعين ألف دينار باقية عليه ، فما طلبها ولا ذكرها ولا أراه أنه عرفها ، مع أن صاحب الديوان ما أنكرها .

ثم إنه بعد ذلك ولاه ديوان جيشه مضافاً إلىٰ ديوانه ، وقال لهم : لا تُعلموه بأني قد عرفت بالباقي .

وكان يرضىٰ من عماله بما يحملونه إليه عفواً صفواً ، علىٰ أن جميع ما يدخله ينفقه في الجهاد وسائر أنواع البر ، ويعم بصدقاته الفقراء والمساكين .

وكتب إلىٰ نُوَّابه في البلاد بإخراج الصدقات في بلادهم ، وكتب إلى الصفي بن القابض بدمشق أن يتصدق بخمسة آلاف دينار صورية ، فقال العماد الكاتب : إن الذي عنده مصري ، فقال : يتصدق بخمسة آلاف دينار مصرية .

ويوم رحيله من حران كان علىٰ بابه عشرة أنفس من أبناء السبيل ، فأعطاهم أربع مئة دينار .

وكان إذا أطلق لمحتاج شيئاً وقيل له : هـٰذا ما يكفيه . . ردّها مضاعفة .

وكان يغضب للكبائر ، ولا يغضي عن الصغائر ، ويرشد إلى الهدىٰ ، ويهدي إلى الرشاد ، ويسدد الأمر ، ويأمر بالسداد ، فكان كل مماليكه وخواصه وجميع أمرائه وأجناده أعف من الزهاد ، وأكثر عبادة من العباد .

قال العماد : ورأىٰ يوماً دواة لي محلاة بالفضة وهو شيء يسير ، فأنكرها ، فقلت له : إن الشيخ أبا محمد الجويني ـ قدس الله روحه ـ ذكر وجهاً في جوازها ، فقال : لا تتبع الرخص ، فلم أكتب بها بعد ذلك .

وكان محافظاً على الصلوات في أول أوقاتها مع الجماعة ، حتىٰ في مرضه لا يُفَوِّت الجماعة ، بل يدخل الإمام الذي له يصلي به ومَن حضر من خواصه ، مواظباً على السنن الرواتب ، كثير الأوراد والتلاوة والذكر ، أوقاته كلها مستغرقة بالعبادة علماً وعملاً ، قلباً وقالباً ، قد هجر لذَّة الدنيا وزينتها ، وأخرج من قلبه محبتها وبهجتها ، فهو كالأسير في هـٰذه الدار ، لا يصدق بفك الأسر عنه إلىٰ دار القرار .

اللهم ؛ فبلغه ذلك ، وأقر عينه بالنظر إلىٰ وجهك الكريم يا أرحم الراحمين ، واجمع بيني وبينه في دار كرامتك مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

وكان يحب سماع الأحاديث النبوية علىٰ قائلها أفضل الصلاة والسلام ، حتىٰ إنه بلغ من

حبه إياها أنه سمَّع بين الصفَّين والرؤوس تندر والرماح تقصر ، وبسبب ذلك وببركة رسول الله صلى الله عليه وسلّم حصل النصر العظيم والفتح المبين .

ولما توجه إلى الإسكندرية لأجل عمارة أسوارها . . قال : نغتنم حياة الشيخ أبي طاهر بن عوف ، فحضر عنده وسمع عليه « موطأ مالك » ، كما تقدم بيانه ، وكتب الفاضل إليه يهنئه بهٰذا السماع ، فمن ذلك : أدام الله دولة المولى الملك الناصر صلاح الدين والدنيا ، سلطان الإسلام والمسلمين ، محيي دولة أمير المؤمنين ، وأسعده برحلته للعلم وأثابه عليها .

وفيه : ولله في الله رحلتاه ، وفي سبيل الله يوماه ، وما منهما إلا أغر محجل ، والحمد لله الذي جعله ذا يومين ، يوم يسفك فيه دم المحابر تحت قلمه ، ويوم يسفك فيه دم الكافر تحت قدمه وعَلَمه .

واتفق أن العَلَمَ خطيب المِزة زَوَّرَ على السلطان مقالاً يتضمن إدراراً كثيراً ، فعرف نائب الشام الأمير عز الدين تزويره وهَمَّ بالإيقاع به ، فهرب إلىٰ مصر ، وقصد السلطان ، وأطلعه على الحال ، فما اكترث به ، وقال : نحن نجعل ما زوَّرته حقيقة ، وأمر أن يُكتب له توقيع بضعف ذلك الإدرار .

وكان له إمام يصلي به ، وهو يكتب مثل خطه سواء ، فزوَّر عليه شيئاً كثيراً مدة سنين ، فلما انكشف له الحال . . جاء أخوه السلطان والأمراء يغرونه به ، فلم يلتفت إليهم ، وقال : نحن نطلقه للقرآن ، واستبدل غيره في إمامة الصلاة .

ولقد قلب الخازن في خزانته كيسين فيهما ذهب مصري جعل مكانهما كيسين من الفلوس ، فلما علم . . لم يعمل بالخازن شيئاً ، ولا أعلمه أنه علم بما صنع ، لٰكنه صرفه عن الخزانة .

وكان ـ رحمه الله ـ حسن العشرة ، لطيف الأخلاق ، جميل المحاضرة ، طيب المفاكهة ، حافظاً لأنساب العرب ووقائعهم ، عارفاً بسِيَرهم وأحوالهم ، عالماً بعجائب الدنيا ونوادرها ، بحيث إن محاضره يستفيد منه ما لا يسمعه من غيره .

وكان يحفظ « الحماسة » و« التنبيه » ، فإذا ذكر القاضي الفاضل منها بيتاً . . يقول له : تمم القصيدة ، فيبقىٰ[1] ؛ لأنه لم يكن حافظاً لها ، فيسرد السلطان القصيدة بكمالها حفظاً من صدره .

---

(١) أي : فيبقىٰ ذاهلاً ، ولا يرد جواباً .

وكان كثير الشفقة والتلطف والرفق بإخوانه ، حتىٰ إنه ليسأل الواحد منهم عن مرضه ومداواته ، ومطعمه ومشربه ، وسائر تقلبات أحواله .

وكان إذا سمع بعالم كبير : فإن كان ممن يحضر عنده . . أحضره إليه وأكرمه واحترمه ووصله ، وإلا . . حضر هو بنفسه إليه ، وحمل إليه الصِّلات ، وبالغ في إكرامه وقضاء حوائجه .

وكان يحب أن يقرأ الحديث بنفسه ، ولقد قرأ شيئاً كثيراً ، فإذا مر بحديث فيه عبرة . . رق قلبه ودمعت عينه .

وكان كثير التعظيم لشعائر الله سبحانه وتعالىٰ ، شديد القيام على المبتدعين والفلاسفة ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، ولقد أمر ولده الظاهر صاحب حلب بقتل شاب يقال له : السهروردي[1] ؛ لزندقة ظهرت عليه ، وكان قد قبض عليه وَلَدُه المذكور ، فلما بلغه خبره . . أمر بقتله وصلبه أياماً ، فقتل وصلب .

وكان [السلطان] حسن الظن بالله تعالىٰ ، كثير الاعتماد والالتجاء إليه ، عظيم الإنابة والتوبة لله عز وجل ، وكان مجاب الدعوة ، سريع الدمعة ، عادلاً رؤوفاً ، رحيماً حليماً ، كريماً حيياً ، ناصراً للضعيف والمظلوم ، يجلس في دار العدل الإثنين والخميس في مجلس عام لا يحجب عنه أحد حتىٰ أهل الذمة ، ويحضر العلماء والفقهاء والقضاة ، يفعل ذلك سفراً وحضراً ، وفي باقي الأيام يأخذ بيده قصص الناس ، ويكشف ما فيها من الظلامات ، ويوقع علىٰ كل قصة بما يقتضيه الشرع الشريف .

وما استغاث به أحد . . إلا ووقف له ، واستمع كلامه من غير ترويع ، وكشف ظلامته ، وقضىٰ حاجته .

واستغاث إليه إنسان ، وأظهر أن ابن أخيه تقي الدين قد ظلمه ، فأمر بإحضاره إلىٰ مجلس الحُكم العزيز ، وبسماع دعواه ، والعمل بما يقتضيه الشرع الشريف ، فعلم ابن

---

(١) السُّهْرَوَرْدي (٥٤٩ ـ ٥٨٧ هـ) : يحيى بن حبش بن أميرك ، أبو الفتوح ، شهاب الدين السهروردي ، فيلسوف ، ولد في سهرورد ونشأ بمراغة وسافر إلىٰ حلب ، فنسب إلى انحلال العقيدة ، وكان علمه أكثر من عقله ، فأفتى العلماء بإباحة دمه ، فسجنه الملك الظاهر غازي ، وخنقه في سجنه بقلعة حلب ، من كتبه « التلويحات » و« هياكل النور » .

أخيه ، فوكل في المحاكمة ، وحاكمه الوكيل ، وانفصل الأمر علىٰ أحسن نظام .

واستعدىٰ شخص على السلطان إلى القاضي ابن شداد ، وذكر أن له عليه دعوىٰ شرعية ، وهي : أن سنقر الخلاطي كان مملوكاً له ، وأنه لم يزل في ملكه إلىٰ أن مات وفي يده أموال عظيمة ، وأنه يستحقها .

قال القاضي : فعرَّفْتُ السلطان بذلك ، فأمر بإحضاره وقربه إليه ، وأدناه ، وتلطف به ، وأجلسه بين يديه ، ثم انحرف عن طراحته حتىٰ ساواه ، ثم ادعى الرجل ، وفُتح كتابُه وقُرِىء تاريخه ، فأقام السلطان بينة متقدمة علىٰ ذلك التاريخ بسَنة : أن سنقر الخلاطي كان في ملكي وفي يدي بمصر وإني اشتريته مع ثمانية أنفس في تاريخ متقدم علىٰ هـٰذا التاريخ وإنه لم يزل في ملكي وفي يدي إلىٰ أن أعتقته .

وحضر جماعة من الأمراء المجاهدين فشهدوا بذلك ، قال : فسكت الرجل ولم يحر جواباً ، فقلت له : يا مولانا السلطان ؛ هـٰذا الرجل ما فعل هـٰذا إلا طلباً لمراحم السلطان ، وما يحسن أن يرجع خائب القصد ، فقال : هـٰذا باب آخر ، وقد تقدم له بخلعة سنية ونفقة كثيرة بالغة .

فانظر إلىٰ هـٰذا التواضع العظيم ، والانقياد للحق في موضع المؤاخذة مع القدرة التامة .

وأما كرمه : فإنه بلغ الغاية ، حتىٰ إنه كان يهب الأقاليم بكمالها وجميع ما فيها ، فَتَحَ آمد ، فطلبها منه ابن قرا أرسلان ، فأعطاه إياها ، ووفد عليه جماعة بالقدس الشريف ولم يكن عنده في الخزانة ما يعطيهم ، فباع ضيعة له ودفع جميع ثمنها إليهم .

وكان عطاؤه في وقت الضائقة كعطائه في وقت السعة ؛ إذ ليس للدنيا عنده قدر ولا قيمة ، وكان نوَّابُ خزائنه يكتمون عنه شيئاً من المال حَذَرَ أن يفجأهم مُهِمٌّ فلا يجدون شيئاً ؛ لعلمهم بأنه متىٰ علم بشيء في خزائنه . . أمر بإطلاقه .

وكان يعطي فوق ما يؤمل الطالب ، وما سمع منه يوماً من الأيام أنه يقول : أعطَينا فلاناً ، وكان يعطي الكثير ، ويبسط وجهه للمعطىٰ بسط من لم يعطه شيئاً .

وكان الناس يستزيدونه في كل وقت فيزيدهم ولا يتبرم بذلك ، ولا يقول كم أزيدكم ؟! ولا يقول قد زدتكم مراراً .

قال القاضي ابن شداد : وكانت أكثر الرسائل والزيادات بالعطاء علىٰ لساني ويدي ، وكنت أخجل من كثرة ما يطلبون ولا أخجل منه ؛ لعلمي بعدم مؤاخذته بذلك ، وما خدمه

أحد قط . . إلا وأغناه عن سؤال غيره ، ولو ذهبنا نعدد عطاياه . . لنفد القرطاس وضاقت الأنفاس .

فمِن ذلك : ما وهبه من الخيل بمرج عكا كما تقدم ، ومَن شاهد مواهبه . . يستقل هٰذا القدر .

اللهم ؛ أنت الذي ألهمته الكرم وأقدرته علىٰ ذلك وأنت أكرم الأكرمين ، فتكرم عليه برحمتك ورضوانك يا أرحم الراحمين .

وأما شجاعته : فكان من عظماء الشجعان ، قوي النفس والقلب ، شديد البأس ، عظيم الثبات ، لا يهوله أمر ، ولقد رأيته مرابطاً في مقاتلة جمع كثير من الفرنج ، هٰذا مع أن نجدتهم كانت تتواصل ، وعساكرهم تتواتر ، وهو مع ذلك لا يزداد إلا قوة نفس وصبر ، ولقد وصل في ليلة واحدة من الفرنج ما ينيف علىٰ سبعين مركباً إلىٰ عكا وأنا أعدها من بعد العصر إلىٰ غروب الشمس ، وهو لا يزداد إلا قوة نفس وشجاعة وشهامة .

وكان يعطي الجيش دستوراً في أوائل الشتاء ، ويبقىٰ هو في طائفة يسيرة في مقابلة عدتهم الكثيرة .

قال القاضي ابن شداد : وسألت بالْيان ـ وكان من كبار ملوك الساحل يوم انعقاد الصلح ، وهو جالس بين يدي السلطان ـ عن عدتهم ، فقال : خمس مئة ألف ـ أو ست مئة ألف ـ قلت : فكم هلك منهم ؟ فقال : أما بالقتل . . فقريب من مئة ألف ، وأما بالموت والغرق . . فلم يعلم ، وما رجع منهم إلا الأقل .

وكان السلطان لا بد له أن يطوف حول العدو كل يوم مرة أو مرتين إذا كان قريباً منهم ، وكان إذا اشتد الحرب . . يطوف بين الصفين ومعه صبي واحد ، علىٰ يده جنيب[1] ، ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة ، ويرتب الأطلاب ، ويأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع يراها .

وكان يشارف العدو ويجاوره ، وقرىء عليه جزء من الحديث وهو بين الصفين وذلك أني قلت له : قد سمعتَ الحديث في جميع المواطن الشريفة إلا بين الصفين ، فإنك لم تسمع الحديث فيه ، فأحضر جزءاً من الحديث وقرىء عليه ونحن علىٰ ظهور الخيل بين الصفين يمشي تارة ويقف أخرىٰ .

---

(١) **الجنِيب** : المقود إلى الجنب من الخيل وغيرها .

وما رأيته استكثر العدو قط ، ولا استعظم أمرهم أصلاً ، ولقد انهزم المسلمون يوم المصاف الأكبر بمرج عكا حتى القلب والرَّجَّالة ، ووقع الكُوْس والعلم ، وهو ثابت القدم في نفر يسير ، وقد انحاز إلى الخيل يجمع الناس ويردهم ويخجلهم حتىٰ يرجعوا ، ولم يزل مصابراً لهم إلىٰ أن عاد المسلمون إلى القتال ، وقتلوا من العدو نحو سبعة آلاف ، ولم يزل ثابتاً لهم وهم في العدة الوافرة إلىٰ أن ظهر له ضعف المسلمين ، فصالح الكفار وهو مسؤول من جانبهم ؛ فإن الضعف والهلاك كان فيهم أكثر ، ولـٰكنهم كانوا يتوقعون النجدة ونحن لا نتوقعها ، وكانت المصلحة في الصلح .

وكان مع هـٰذا كله يمرض ويصح ، وتعتريه أحوال مهولة وهو مصابر مرابط ، وتتراءى الناران فنسمع صوت الناقوس ويسمعون منا الأذان ، إلىٰ أن انقضى الأمر .

وكان شديد المواظبة على الجهاد ، كأنه لم يخلق إلا له ، عظيم الاهتمام به ، حتىٰ لقد كان الجهاد وحبه له والشغف به قد استولىٰ علىٰ قلبه وسائر جوارحه استيلاء عظيماً ، بحيث إنه ما كان له حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا في آلته[١] ، ولا اهتمام إلا به ، ولا يميل إلا إلىٰ من يذكره ويحثه عليه .

ولقد هجر في محبة الجهاد أهله وأولاده ، ووطنه وسكنه ، وسائر ملاذه ، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة ، ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريح وبرد بمرج عكا ، فسلمه الله تعالىٰ بنيته الصالحة ؛ لأنه كان في البرج ، ومع ذلك فلم يزدد إلا محبة ورغبة ومصابرة واهتماماً .

وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه . . يحثه على الجهاد ويذكر له شيئاً من الأحاديث فيه .

وقد صُنف له عدة كتب في ذلك ، وأنا ممن جمع له فيه كتاباً كبيراً حافلاً به ، وكان كثير المطالعة له ، ولم يزل معه إلىٰ أن أخذه منه ولده الأفضل .

وكان يقول : متىٰ يَسَّرَ الله الكريم فتح بقية السواحل . . قسمت البلاد ، وأوصيت ، وودعت ، وركبت البحر إلىٰ جزائرهم أتتبَّعهم فيها ، حتىٰ لا يبقىٰ علىٰ وجه الأرض مَن يكفر بالله سبحانه وتعالىٰ ، وأموت شهيداً ، فقيل له : أنت حصن الإسلام ، ولا ينبغي أن تخاطر

---

(١) في النسخ : (ولا نظر إلا إليه) ، والمثبت من « الروضتين » .

بنفسك ، فقال : أشرف أحوال الإنسان أن يموت شهيداً ، وأنا أرجوها من كرمه سبحانه وتعالىٰ .

وأما صبره : فإنه لما كان بعكا . . اعتراه مرض بسبب كثرة دماميل من وسطه إلىٰ ركبته ، بحيث إنه لا يستطيع الجلوس ، وكان لا يزال متكئاً علىٰ جانبه وهو في الخيمة ، وامتنع من مد الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس ، وكان يأمر أن يفرق على الناس .

وهو مع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى الظهر يطوف على الأطلاب صابراً علىٰ شدة الألم ، وقوة ضربان الدماميل ، وكنا نتعجب من شدة صبره ، فكان يقول لنا : أنا إذا ركبت . . يزول عني ألمها حتىٰ أنزل .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : اعلم : أن هٰذه كرامة عظيمة أكرم الله عز وجل بها وليه السلطان صلاح الدين قدس الله روحه ، وقد سبق وقوع مثل ذلك لجماعة من الأئمة رضي الله عنهم .

منهم : عبد الواحد بن زيد علىٰ ما رواه الحافظ أبو نعيم وغيره من رواية أبي سليمان الداراني قال : أصاب عبد الواحد بن زيد الفالج ، فسأل الله تعالىٰ أن يطلقه في وقت الوضوء ، فكان إذا أراد أن يتوضأ . . أُطلق ، وإذا رجع إلىٰ سريره . . عاد إليه الفالج . [« الحلية » ٦/١٥٥] .

ومنهم : سهل التستري رحمه الله ، حصل له فالج في آخر عمره ، فكان إذا حضرت الصلاة . . زال عنه ، فإذا فرغ منها . . عاد إليه .

ومنهم : مَن ذهب بصره ، فكان إذا فتح المصحف للقراءة فيه . . رجع إليه بصره ، فإذا فرغ من القراءة . . ذهب بصره .

ومنهم : أبو الحسين النوري رحمه الله ، قالوا : إنه أقام سبعة أيام في منزله لم يأكل ولم يشرب ولم ينم ، ويقول في ولهه ودهشه : (الله ، الله) ، وهو قائم يدور ، فأُخبر الجنيد رحمه الله بذلك ، فقال : انظروا أمحفوظ عليه أوقاته ، أم لا ؟ فقيل له : إنه يصلي الفرائض في جماعة ، فقال : الحمد لله الذي لم يجعل للشيطان عليه سبيلاً ، ثم قال : قوموا بنا حتىٰ نزوره ، إما نستفيد منه ، أو نفيده .

فدخل عليه وهو في ولهه ، فقال له : يا أبا الحسين ؛ ما الذي دهاك ؟ قال : أقول : الله ، الله ، زيدوا عليَّ زيدوا عليّ ، فقال له الجنيد : انظر هل قولُكَ : اللهَ . . الله ؟

أم قولُكَ . . قولُكَ ؟ إن كنتَ القائلَ : (اللهَ اللهَ) باللهِ . . فلست القائلَ له[١] ، وإن كنتَ تقولُ بنفسك . . فأنت مع نفسكَ ، فما معنى الوَلَه ؟ فقال له : نِعم المؤدب أنت . وسكت عن ولهه .

وهٰذا مقام عزيز يختص الله عز وجل به من يشاء من عباده ، وأرباب العلم الذين يسمونه الفرق الثاني ، وهو أن يُرَدَّ إلى الصحو عند أداء الفرائض في أوقاتها ، فيكون رجوعاً [لله] بالله لا للعبد بالعبد ، وهو معنىٰ كونه محفوظاً ، وسيأتي لهٰذا زيادة بيان .

وإذ قد وصلنا إلىٰ هنا . . فلا بأس بإيراد شيء من ذلك علىٰ لسان القوم رضي الله عنهم علىٰ سبيل الاختصار .

فأقول وبالله التوفيق : قال الأستاذ أبو علي الدقاق رحمه الله في التفرقة والجمع[٢] :

الفرق : ما نسب إليك ، **والجمع** : ما سلب عنك .

ومعناه : أن ما يكون كسباً للعبد من إقامة وظائف العبودية وما يليق بأحوال البشرية . . فهو فرق ، وما يكون من قِبل الحق جل جلاله من إبداء معان وابتداء لطف وإحسان . . فهو جمع .

ولا بد للعبد منهما ؛ فإن مَن لا تفرقة له . . لا عبودية له ، ومَن لا جمع له . . لا معرفة له ، فقول العبد له : ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ . . [إشارة إلى الفرق ، وقوله] : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ . . طلب للجمع .

فإذا خاطب العبد ربه إما سائلاً ، أو داعياً ، أو مُثنياً ، أو شاكراً ، أو مبتهلاً . . قام في مقام التفرقة ، وإذا أصغىٰ بسره إلىٰ ما يناجيه [به] مولاه جل جلاله ، واستمع بقلبه ما يناديه . . فهو في مقام الجمع .

وأنشد قَوَّال بين يدي الأستاذ الإمام أبي سهل الصعلوكي رحمه الله :

جعلت تنزهي نظراً إليكا

وكان الإمام أبو القاسم النصرآباذي رحمه الله حاضراً ، فقال أبو سهل : (جعلتَ) بفتح التاء ، وقال النصرآباذي : بل بضمها ، فقال له أبو سهل : أليس عين الجمع أتم ؟ فوافقه النصرآباذي .

---

(١) أي : إن قلت : (أنا القائلُ : اللهَ اللهَ) بقدرة اللهِ . . فلستَ أنت القائل حقيقةً .

(٢) انظر « الرسالة القشيرية » (ص٦٠) وما بعدها .

وهـٰذا ظاهر ؛ لأن معناه مع الفتح : أن الله سبحانه وتعالىٰ خصص عبده بذلك منحة من فضله وكرمه ، لا صنع للعبد فيه ، ومعناه مع الضم : إثبات فعل العبد ، فكان الأول جمعاً والثاني تفرقة .

وأما جمع الجمع : فهو مقام آخر أتم من الجمع ، فالجمع شهود الأشياء بالله عز وجل ، والتبري من الحول والقوة إلا بالله ، وجمع الجمع الاستغراق بالكلية ، والفناء عما سوى الله سبحانه وتعالىٰ ، فلا يشاهد شيئاً سواه عند غلبة سلطان الحقيقة .

وإيضاح هـٰذا وبسْطُه قد ذكرته في كتابي « الجوهر الفريد » في الرابع منه ، عند الكلام على التوحيد ومراتب الموحدين .

وبعد ذلك مقام عزيز يسمونه : الفرق الثاني : وهو أن يُرَدَّ إلى الصحو عند أداء الفرائض في أوقاتها ، فيكون رجوعاً [لله] بالله ، لا للعبد بالعبد ، وهو معنىٰ كونه محفوظاً .

وقال بعض المحققين : المراد بلفظ (الجمع والتفرقة) : أن الله عز وجل خلق الخلق كلهم في الأزل ، وخاطبهم بقوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ ثم فرقهم بالإسعاد والإشقاء ، والتقريب والإبعاد ، والإكرام والإهانة ، إلىٰ غير ذلك .

ولأبي القاسم الجنيد رحمه الله في معنى التفرقة والجمع علىٰ طريق أرباب الموهبة ـ وهي الأَولىٰ ـ :

قـــد تحققتـــك فـــي	ســري فنــاجــاك لســانــي
فـــاجتمعنـــا لمعـــانٍ	وافتـــرقنـــا لمعـــانـــي
إن يكـــن غيَّبـــك التـ	ـعظيـم عـن لحـظ عيـانـي
فلقـــد صيَّـــرك الـ	ـوجـد مـن الأحشـاء دانـي

وبعد ذلك يترقى العارف إلىٰ مقام آخر أعلىٰ وأرفع مما قبله ، وهو **التجلي** ، وهو مقام عظيم حقيقته التوحيد المحض ، والكلام فيه طويل ، نذكر منه هـٰهنا قدراً يسيراً علىٰ طريق القوم رحمهم الله .

قال العارفون : أما التجلي . . فاعلم أنه إذا تجلىٰ للعبد قدرةُ الله عز وجل علىٰ عباده . . فحينئذ لا يخاف غيره ، وإذا تجلىٰ له كفايةُ الله سبحانه وتعالىٰ لعباده . . فحينئذ لا يرجو غيره ، وكذلك سائر الصفات ، كما قال حارثة رضي الله عنه : (كأني أنظر إلىٰ عرش ربي

بارزاً) . . . الحديث ، وكان قد تجلىٰ له كلامه في أخباره سبحانه وتعالىٰ ، فصار الخبر عنده كالعيان .

وقال بعض الأئمة الكبار رحمهم الله : علامة تجلي الحق جل جلاله على الأسرار : هو أن يشهد العبد ما لا يمكنه العبارة عنه ؛ لأنه لا يشهد إلا تعظيماً وهيبة ، فيسقط ذلك عن تحصيل ما شاهد من الحال .

وأنشدوا :

إذا مـا بـدت لـي تعـاظمتهـا	فـأَصـدُرُ فـي حـال مـن لـم يَـرِدْ
أَجِـدْهُ إذا غِيـبَ عنـي بـه	وأشهـد وَجْـدي بـه قـد فُقِـدْ
فـلا الـوصـل يُشهِـدنـي غيـره	ولا أنـا أشهـده منفـردْ
جُمِعْـتُ وَفُـرِّقـتُ عنـي بـه	ففـرد التـواصـل مثنـى العـدد

معناه : إذا بدت لي الحقيقة . . غلب عليَّ التعظيم ، فأغيب في شاهد التعظيم عن شهود التحصيل ، وإذا غبت . . فقدت وجودي ، وحالة الوصل التي هي فنائي لا تُشهدني غيره ، وحالة الانفراد وقيامي بصَفتي يغيبني عن شهوده ، فكأنَّ جمعي به فرقني عني ، فتكون حالة الوصل هي أن الله تعالىٰ مصرفي ، فلا يكون لي فعل ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ ، ومن جهة العلم أن الله تعالىٰ مصرفي ، وأنا به منصرف ، فيجتمع المعبود جل جلاله والعبد .

وقال بعضهم : **التجلي** : رفع حجب البشرية .

والاستتار : هو أن تكون البشرية حائلة بينك وبين شهود الغيب .

ومعنىٰ **رفع الحجب** البشرية : أن ترىٰ أن الله عز وجل هو الذي يقيمك تحت موارد ما يبدو لك من الغيب ؛ لأن البشرية لا تقاوم أحوال الغيب ، والاستتار الذي يعقب التجلي : هو أن تستتر الأشياء عنك فلا تشهدها ، والفناء والبقاء كالجمع والتفرقة ، أو هو أخص ، **فالفناء** : هو أن تفنىٰ عنه الحظوظ ، فلا يكون له في شيء حظ ، ويسقط عنه التمييز لفنائه عن الأشياء كلها شغلاً بمن فني به ، كما قال عامر بن عبد الله رحمه الله : ما أبالي امرأةً أتيت أم حائطاً .

والحق جل جلاله يتولىٰ تصريفه في وظائفه وموافقاته ، فيكون محفوظاً فيما لله عز وجل عليه ، مأخوذاً عمَّا له وعن جميع المخالفات ، فلا يكون له إليها سبيلاً ، وهو العصمة ،

وذلك معنىٰ قوله : (كنت له سمعاً وبصراً . . .) الحديث .

والبقاء الذي يعقبه : هو أن يفنىٰ عمَّا له ويبقىٰ بما لله عز وجل عليه .

وقال بعض الأئمة : أما البقاء . . فهو مقام المرسلين والنبيين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ؛ فإنهم أُلبسوا السكينة ، فلا يمنعهم ما حل بهم عن فرضه ولا عن فضله ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

والباقي : هو أن تصير الأشياء كلها شيئاً واحداً ، فتكون حركاته في موافقات الحق جل جلاله دون مخالفاته ، فيكون فانياً عن المخالفات باقياً في الموافقات ، علىٰ معنىٰ أنه لا يجري عليه إلا ما أُمر به وما يرضاه الله عز وجل دون ما يكرهه ، ويفعل ما يفعل لله عز وجل لا لحظٍّ له فيها لا في عاجل ولا في آجل .

وهـٰذا معنىٰ قولهم : يكون فانياً عن أوصافه باقياً بأوصاف الحق ؛ لأن الله عز وجل إنما يفعل الأشياء لغيره لا له ؛ لاستحالة عَود الضُّر والنفع إليه سبحانه وتعالىٰ ، وإنما يفعل الأشياء لينفع عباده ويضرهم ، فلا يكون قصدُ العبد بفعله جرَّ النفع أو دفعَ الضر .

فالباقي بالحق الفاني عن نفسه يفعل الأشياء علىٰ معنىٰ أنه لا يقصد في فعله جر المنفعة ودفع المضرة عن نفسه ؛ إذ قد سقطت عنه حظوظ نفسه ومطالبة منافعها بمعنى القصد والنية لا غير ، لا بمعنىٰ أنه لا يجد حظاً فيما فعل لله عز وجل ، بل بمعنىٰ أنه إنما فعله لله عز وجل لذاته جل جلاله لا لطمع ثواب ولا لخوف عقاب ، وإن كان الخوف والرجاء لا يفارقانه ، ولـٰكن تكون رغبته في الثواب لموافقة الله عز وجل حيث رَغَّب فيه ، وأمر أن يسأل ذلك ، ولا يفعله للذة نفسه قصداً وإن كانت اللذة حاصلة ضمناً ، كما يقول أصحابنا في فروع الفقه في نية التبرد في الوضوء وغيره .

وهـٰكذا في الخوف ، يخاف عقاب الله عز وجل لموافقته له ؛ لأنه سبحانه وتعالىٰ أحب أن يُخاف عقابُه ، فهو يَخاف العقاب لذلك لا من أجل الإثم الذي هو حظ نفسه ، ويفعل سائر الحركات لله عز وجل لا لحظ نفسه .

واستيفاء الكلام علىٰ هـٰذه المقامات يطول ، ومن جملة الفناء هنا : هو الغيبة عن الأشياء رأساً ، كما كان فناء موسى الكليم عليه الصلاة والسلام لمَّا تجلىٰ ربه للجبل جعله دكاً وخر موسىٰ صعقاً .

وقال أبو سعيد الخراز رحمه الله : علامة الفاني : ذهاب حظه من الدنيا والآخرة إلا

من الله سبحانه وتعالىٰ ، ثم يبدو له بادٍ من قدرة الله عز وجل ، فيريه ذهاب حظه ويبقىٰ رؤية ما كان من الله عز وجل .

ومعنىٰ ذهاب حظه من الدنيا : عدم مطالبة الأعراض ، ومن الآخرة : عدم مطالعة الأعواض ، فيبقىٰ حظه من الله عزَّ وجلَّ وهو رضاه عنه ، وقربه منه سبحانه وتعالىٰ .

ويشهد لهـٰذا ما ورد في « الصحيح » : (أُحِلُّ عليكم رضواني . . .) الحديث .

ثم تَرِدُ عليه حالة أخرىٰ من إجلال الله سبحانه وتعالىٰ : من أن يُقرِّب مثله أو أن يرضىٰ عن مثله استحقاراً لنفسه وإجلالاً لربه سبحانه وتعالىٰ ، كما هو الواقع .

ثم تَرِدُ عليه حالة ثالثة : تستوفيه حق الله تعالىٰ ، فتغيِّبه عن رؤية صفته التي هي رؤية حظ نفسه ، فلا يبقىٰ فيه إلا ما مِن الله إليه ، ويفنىٰ عنه ما منه إلى الله ، ويكون كما كان ؛ إذ كان في علم الله عز وجل قبل أن يوجده ، سبق له منه ما سبق من غير فعل كان منه .

ومنهم : مَن جعل هـٰذه الأحوال كلها حالة واحدة وإن اختلفت عباراتها ، فجعل الفناء بقاء ، والجمع تفرقة ، وكذلك الغَيبة والشهود ، والسكر والصحو ، وذلك لأن الفاني عما له . . باقٍ بما للحق ، والباقي بما للحق . . فانٍ عما له ، والفاني مجموع ؛ لأنه لا يشهد إلا الحق ، والمجموع مفارق ؛ لأنه لا يشهد إياه ولا الخلق ، وهو باق ؛ لدوامه مع الحق ، وهو مجموع به ، وهو فانٍ عما سواه مفارقٌ لهم ، وهو غائب سكران ؛ لزوال التمييز عنه .

ومعنىٰ زوال التمييز عنه : هو ما تقدم من عدم فرقة بين الآلام والملاذِّ ، وبمعنىٰ أن الأشياء تتوحد عنده فلا يشهد مخالفة ؛ إذ لا يصرِّفه الحق جل جلاله إلا في موافقاته ، فأنىٰ يميز بين الشيء وغيره إذ صارت الأشياء عنده شيئاً واحداً ؟! فلذلك سقط التمييز عنه ، وقد أطلنا القول في ذلك .

وما أحسن ما قال الحسن بن علي رحمه الله حيث قال : كنت في مجلس أبي الحسين النوري رحمه الله ، فقال لي أبو عبد الله بن الفضل : سئل الشيخ ـ يعني : النوري ـ كيف الطريق إلى اجتماع القلب ووجود الرب جل جلاله فيه ولو طرفة عين ؟ قال : فسألته ، فتبسم ، ثم قال : هيهات هيهات! أنا أعرف إنساناً منذ عشرين سنة بين الوجد والفقد ، إذا وجد ربه عز وجل . . فقد قلبه ، وإذا فقد قلبه . . وجد ربه سبحانه وتعالىٰ ، ولم يجتمعا له منذ صحب المعرفة ، فأنىٰ له بمعرفة الوصول إلىٰ ذلك والاهتداء إلىٰ أن أدل عليه غيري ؟!

وأنشد أبو العباس ابن عطاء رحمه الله لأبي الحسين النوري رحمه الله :

الوجد يُطرِب مَن بالوجد راحتُه ... والوجد عند حضور الحق مفقودُ
فكان يطربني وجدي فأفقدني ... عن رؤية الوجد مَن بالوجد موجود

قيل : قام الشبلي رحمه الله يصلي ، فبقي طويلاً ، ثم صلىٰ ، فلما انفتل من صلاته . . قال : يا ويلاه! إن صلَّيت . . جحدت ، وإن لم أصلِّ . . كفرت ؛ أي إن نسبت الفعل إلىٰ نفسي . . فهو نوع جحود ؛ إذ الفعل فعل الله عز وجل ، فهو الفاعل في الحقيقة .

ولهٰذا قال أبو بكر الواسطي رحمه الله : ادَّعىٰ فرعون الربوبية على الكشف ، وادعت المعتزلة الربوبية على السر ؛ فإنهم قالوا : ما شئنا فعلنا ؛ أي : نحن خالقون لأفعالنا ، والله أعلم . انتهىٰ .

وقال الشيخ شهاب الدين أبو شامة ـ قدس الله روحه ـ وغيره : حصل للسلطان صلاح الدين ضعف شديد ، وكان علىٰ تل الخَرُّوبة ، فبلغ الفرنج ذلك ، فطمعوا في أن ينالوا من المسلمين بسبب مرضه وهي نوبة النهر ، فخرجوا بجيوشهم قاصدين له ، فركب السلطان رحمه الله علىٰ مضض ، ورتب العساكر للحرب ، وجعل أولاده في القلب ، وقدم أولاده بين يديه احتساباً ، الأفضل والظاهر والظافر ، وغيرهم ممن هو حاضر عنده ، وكرَّتْ عساكره على الفرنج أياماً وليالي ، وضايقهم مضايقة شديدة إلىٰ أن كسرهم ، فانقلبوا خاسئين .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : قد قدم غير واحد من الأئمة أولاده بين يديه في القتال ، منهم : الإمام صلة بن أشيم العدوي رحمه الله ، فيما رواه الحافظ أبو نعيم ـ قدس الله روحه ـ : في رواية ثابت البناني رحمه الله ، قال : كان صلة في مغزىً له ومعه ابن له ، فقال له : أي بُني ؛ تقدم فقاتل حتىٰ أحتسبك ، فتقدم فقاتل حتىٰ قتل ، ثم تقدم هو فقاتل حتىٰ قتل ، فجاء النساء إلى امرأته معاذة العدوية ، فقالت : إن كنتن جئتُنَّ لتهنِّئْنَنِي . . فمرحباً بكنَّ ، وإن كنتن جئتن لغير ذلك . . فارجعن . انتهىٰ [« الحلية » ٢/٢٣٩] .

قال الشيخ شهاب الدين ـ رحمه الله ـ : وكان السلطان ليلة علىٰ صفد وهو يحاصرها ، فقال : لا ننام حتىٰ نَنصبَ خمس منجنيقات ، ثم إنه رتب لكل منجنيق قوماً ، وبقي طول ليلته في عمل ذلك إلىٰ أن طلع الفجر وقد فرغ منها ، وكانت من أطول الليالي وأشدها برداً .

وجاءه خبر وفاة ولد له اسمه إسماعيل ، فوقف على الكتاب ولم يخبر بذلك حتىٰ سمع من غيره ، ولم يظهر عليه شيء من ذلك ، سوىٰ أنه لما قرأ الكتاب . . دمعت عينه ، وكذلك

لما وصله أيضاً خبر وفاة تقي الدين . . لم يظهر عليه شيء من ذلك .

وكان ـ رحمه الله ـ يركب وهو في مقابلة الفرنج جريدة على الرملة وفي كل ليلة تقع الصيحة ، فيُقلع الخيام ، ويقف الناس على الجبل إلى الصباح ، وبيننا وبين العدو شوط فرس لا غير ، وهو مع ذلك صابر ثابت .

وكان شديد المحبة لأولاده ، لا سيما الصغار منهم ، وهو مع ذلك صابر علىٰ مفارقتهم ، راضٍ ببعدهم ، صابر علىٰ مُر العيش وخشونته مع القدرة التامة .

هـٰذا هو الزهد كما قال داوود الطائي رحمه الله : إنما الزاهد مَن قَدَر فزهد .

وكان من عادته أنه بعد الركوب يمد الطعام ويأكل مع الناس ، ثم يقوم إلىٰ خيمة خاصة ، فينام قليلاً ، ثم يستيقظ ويصلي ، ثم يقرأ شيئاً من الأحاديث أو الفقه وغير ذلك .

وتقدم إليه يوماً مملوك له كبير ، وعرض عليه قصة ، فقال : أخِّرها الساعة ، فلم يفعل وقدمها إلىٰ قريب وجهه ، فلما رآها . . قال : هـٰذا رجل مستحق يوقع له ، وكانت الدواة في صدر الخركاه[1] ، فتطاول إليها ، ومد يده حتىٰ أخذها ، ووقَّع له ، وكانت طراحته[2] تداس من كثرة التزاحم عنده في عرض القصص عليه وهو لا يتأثر بذلك ولا ينهىٰ عنه ، بل يتبسم ويفرح ، ويأمر بقضاء حوائجهم ومصالحهم سريعاً .

قال القاضي ابن شداد : ولقد نفرت بغلتي يوماً وأنا راكب في خدمته ، فزَحَمَتْ وركه حتىٰ عرفت تألمه ، وهو مع ذلك يتبسم .

ودخلت يوماً بين يديه في يوم شديد المطر والوَحل إلى القدس الشريف ، فنضحَت البغلة من ذلك الوحل عليه شيئاً كثيراً ، حتىٰ إنها أفسدت جميع ما عليه ، وهو مع ذلك يتبسم ، فأردت أن أتأخر عنه لأجل ذلك ، فما تركني .

وكان يسمع من المتظلمين أغلظ ما يكون من الكلام ، فيغضي عن ذلك ويتلقاه بالبِشر والقَبول ، ويقول : هـٰؤلاء مساكين ، غفلنا عنهم إلىٰ أن استغاثوا ، كان ينبغي لنا رفع مظالمهم بدون الاستغاثة .

---

(١) **الخركاه** : لفظ فارسي ، معناه : سرادق أو خيمة كبيرة ـ دخل العربية منذ بداية العصر الأيوبي ، تطور مدلوله ليطلق علىٰ بيت مصنوع من الخشب علىٰ هيئة معينة ـ مغلقة من الداخل بالجوخ أو الأنسجة ، كانت تحمل في أسفار الملك أو السلطان ليبيت فيها داخل خيمته ؛ وقاية له من برد الشتاء .

(٢) **طراحته** : شعار أسود يتقلده القضاة .

وكان ـ رحمه الله ـ كثير المروءة ، ندي الكف ، كثير الحياء ، منبسط الوجه ، لا سيما لمن يرد عليه من الأضياف ، يكرم الوافد ولو كان كافراً ، ولقد وفد عليه البرنس صاحب أنطاكية ، فما أحس به إلا وهو واقف علىٰ باب خيمته بعد وقوع الصلح في شوال عند منصرفه من القدس إلىٰ دمشق ، وطلب منه شيئاً ، فأعطاه شيئاً كثيراً ، ودخل عليه صاحب صيدا ، فأعطاه شيئاً كثيراً ، وعرض عليه الإسلام ، وذكر له أشياء من محاسنه .

وكان كثير الوصية لنا بألاَّ نغفل عمن يجتاز بالمخيم من المشايخ والعلماء حتىٰ يُحضِرَهم عنده ؛ لينالوا من إحسانه .

ولقد تسامَع به العلماء ، ورحلوا إليه من أقطار الدنيا ، فكان يعطيهم العطاء الجزيل ، ويعاملهم بالإكرام والاحترام .

وكان مجلسه مصوناً عن الغِيبة والنميمة ، لا يُذكر فيه إلا الخير ومحاسن الأعمال .

وكان حَسَن العهد والوفاء ، لا يقصده أحد إلا نال من بره ، ووَصَلَهُ بإحسانه ، ولا أحضر بين يديه يتيم إلا وترحم علىٰ مخلِّفه ، وجبر قلبه ، وأعطاه مالاً جزيلاً ، فرحمه الله ورضي عنه .

ثم إن الصلح الذي أجاب السلطانُ إليه من وضع الحرب ثلاث سنين وستة أشهر . . كان من أعظم مصالح الإسلام والمسلمين .

ومن جملة الرحمة التي خص الله بها عباده المؤمنين ؛ فإنه ما انقضت تلك السنون حتىٰ ملك البلاد أخوه الملك العادل أبو بكر ، فعز به المسلمون وذل به الكافرون .

وكان السلطان صلاح الدين ـ رحمه الله ـ قد قسم البلاد بين أولاده وإخوته ، فجعل الديار المصرية لولده العزيز عماد الدين عثمان أبي الفتح ، وبلاد دمشق وما حولها لولده الملك الأفضل نور الدين علي ، وهو أكبر أولاده ، والمملكة الحلبية لولده الظاهر غازي غياث الدين ، ولأخيه العادل الكرك والشوبك وبلاد كثيرة إلىٰ قاطع الفرات ، وحمصَ والرحبةَ وغيرَهما لأسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه الكبير ، عم السلطان صلاح الدين ، واليمن بجميع معاقله ومخاليفه لابن أخي السلطان ظهير الدين سيف الإسلام طغتكين ، وبعلبك وأعمالها للأمجد فرُّخشاه ، وبصرىٰ وأعمالها للظافر بن الناصر .

ثم شرعت بعده الأمور تضطرب وتختلف ، وتتفاقم الأهوال[1] في جميع تلك الأحوال ، حتىٰ آل الأمر إلىٰ ما آل ، واستقرت بعد ذلك الممالك كلها ، وأجمعت المحافل علىٰ أخي السلطان الملك العادل ، وصارت المملكة في أولاده الأماجد والأفاضل ، رحمهم الله تعالىٰ ، والله أعلم .

وفرغت منه مستهل رمضان المعظم سنة ثمان وستين وسبع مئة ، بعد فراغه من أصله بما ينيف علىٰ عشرة أعوام ، والله أعلم .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : اعلم : أني نظرت في سِيَر الملوك . . فلم أر فيهم من بعد عمر بن عبد العزيز رحمه الله مثل العادل نور الدين الشهيد والسلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف رحمهما الله تعالىٰ ورضي عنهما ، وكفىٰ بذلك منقبة وفخراً ﴿ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ .

* * *

---

(١) في النسخ : (الأحوال) .



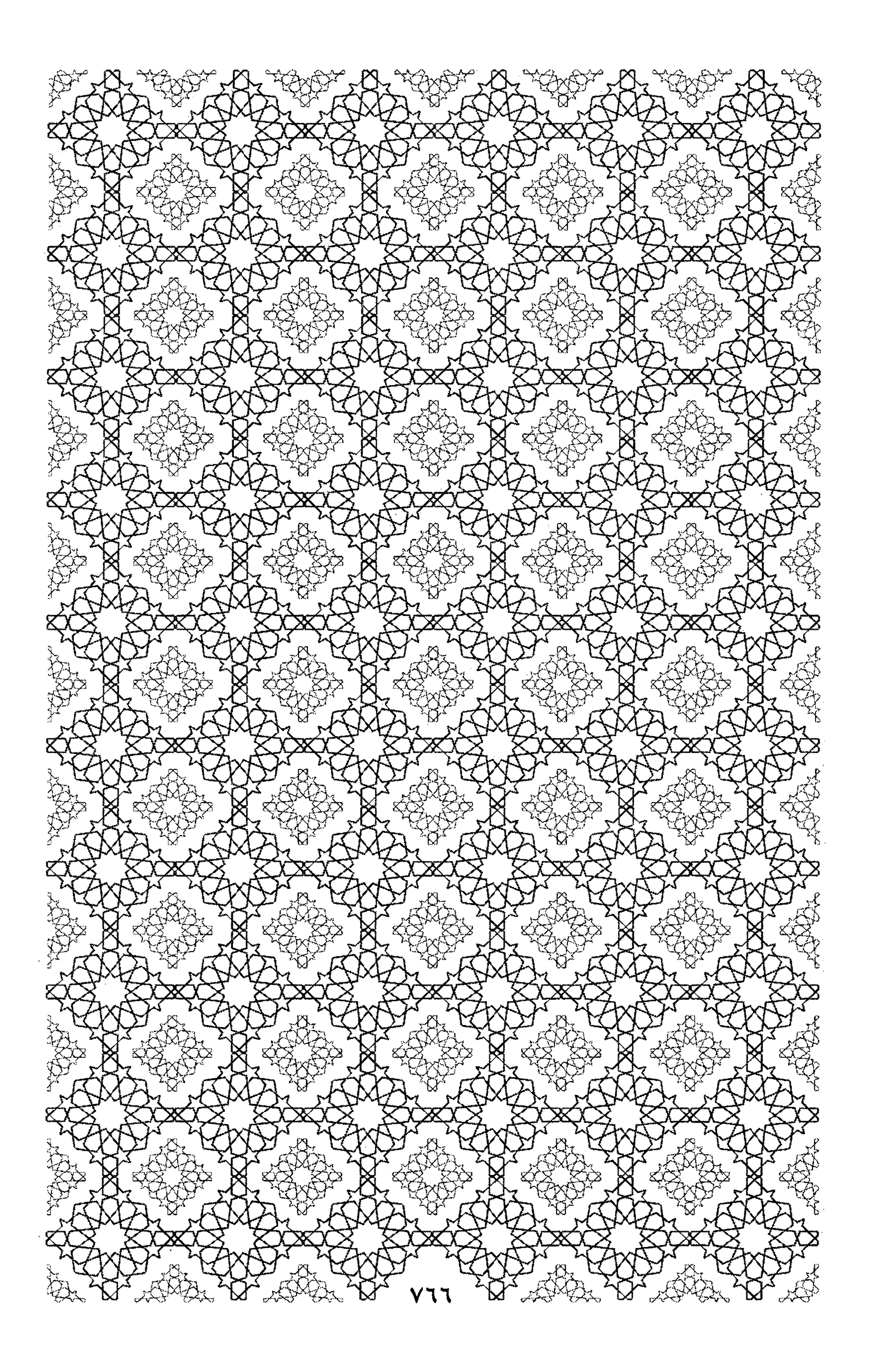
[خاتمة الكتاب]

ونختم الكتاب بمقامين :

المقام الأول : قصة آدم ، وإبراهيم الخليل ، وابنه إسماعيل ، عليهم الصلاة السلام .

والمقام الثاني : في سعة رحمة الله سبحانه وتعالىٰ .

* * *



أما المقام الأول . . وهو القصص :

فأولها :

قصة آدم عليه الصلاة والسلام

قال الشيخ الإمام العالم العامل شمس الدين ابن الملحي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ :

بسم الله الرحمن الرحيم

لما أراد الله تعالىٰ فيما تقادم أن يخلق أبا البشر آدم . . أمر جبريل أن ينزل إلى الأرض فيقبض قبضة من طولها والعرض ، فنزل جبريل لأمر الجليل سبحانه وتعالىٰ ، فانزوت الأرض فَرَقاً ، وكادت تتقطع فِرَقاً ، وقالت : أقسمت عليك بالمَلِك أيها الملَك ، أن تراجع فيَّ مَن أرسلك ؛ فإني أخاف مِن الجبار أن يخلق مني خلقاً يعصيه فيدخل النار .

فرجع جبريل لهـٰذا القسم الجليل ، وجرىٰ مثل ذلك لميكائيل وإسرافيل ، فبعث الله سبحانه وتعالىٰ عزرائيل ، فقالت الأرض مقالها ، فما أقالها ، ورَجَا لَها أن توحد اللهَ رِجالُها ، وقال : إن الذي أرسلني حكيم حاكم ، وهو بما تقولين سميع عالم ، وأنا أخاف من مخالفته ، كما تخافين من عقوبته .

ثم قبض قبضة من أديم التراب ، مختلفة الألوان والأضراب ، ولذلك خرج الناس من خبيث ومستطاب :

فكل من يَقرب في شكله	وكل من يَرغب في مثله
وكل من لَمْ يُدرَ ما أصله	ففعله يخبر عن أصله

فقال الجبار جل جلاله : (يا عزرائيل ؛ أقبضت من ترابها ولم تَرِقَّ لخِطابها ؟! سأخلق من قبضتك جميع الناس ، على اختلاف الأجناس ، وأجعلك قابض أرواحهم ، وناظر أشباحهم) .

فقال : يا رب ؛ إذاً يُبغضوني ، وبالسوء يذكروني .

فقال : (لا تخف منهم غضباً ؛ فإني أجعل لكل موتة سبباً) ، فيقولون : فلان مات بالغَرَق ، وفلان قتل واحتَرَق .

فالدنيا ـ كما قيل ـ كالطبق بين يدي عزرائيل ، ينظر بحرها وبَرَّها ، ويعرف عاصيَها وبَرَّها ، فينظر لكل محتضر بشكل من أشكاله ، علىٰ قدر سابق أعماله ، وله من الملائكة أجناد ، كثيرة الأعداد .

وقيل : هو يقبض العالم الناطق ، وهم يقبضون بقية الخلائق ، وقد يكون الموت في أكباد كالغرقىٰ في البحار ، والحرقىٰ بالنار ، فيدعو الأرواح فتأتيه كالأطيار .

فإذا كان ليلة نصف شعبان . . كتب له كتاب باسم فلانة وفلان ، فربما شَرَع في الحاجات ، وفعل المنكرات ، وأَخَّرَ التوبة ، وأَمِنَ الفوات ، واسمه قد كتب في ديوان الأموات .

قيل : كانت الأرض تتشامخ ارتفاعاً ، فلما قبض ترابها . . نزلت أربعين ذراعاً ، فقالت : تباركت ربنا وتعاليت ، اللهم ؛ إنك أنت الفعال لما تريد ، وقد نقصتني بعد المزيد ، فأسألك أن ترد ترابي وتعيد ، وما أنت بظلام للعبيد .

فأقسم الله سبحانه وتعالىٰ ليردن عليها التراب ، من أجسام أتراب ، ويطهره بالماء ويكفنه في الأثواب ، ويطيبه للتسليم بأحسن الأطياب ، فلا تزال الأرض تبتلع الإناث والذكور ، من عالَم الفَلَوات والبحور ، حتىٰ إذا بلغت حدها المذكور . . جاء الأمر ونفخ في الصور .

ألا إننا نحو الممات نسارع ... وكل فتىً يلقى الذي هو صانع
ونحن جميعاً للتراب وديعة ... ولا بد يوماً أن تُرَدَّ الودائع

ثم أمطر الله عز وجل مطرة من ماء الأفراح ، وأربعين مطرة من ماء الأتراح ، ولذلك يتعب الإنسان أضعاف ما استراح ، ثم خمَّره حتىٰ صار حمأً[1] متغيراً ، ولهـٰذا ينتن الإنسان بعدما كان عطراً ، ثم أيبسه حتىٰ صار صلصالاً كالفخار ، فخلق منه آدم يوم الجمعة آخر النهار ، وجعله صورة طين بين مكة والطائف ، وكل من الملائكة به طائف ، غير أنهم يطوفون بالجسد ، وإبليس اللعين قد حمل الحسد ، ولذلك سجدوا وما سجد ، فبقي طيناً أربعين عاماً مقدوراً فيه قوله تعالىٰ : ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴾ .

سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه هـٰذه الآية فقال : ليتها تَمَّتْ ، ليت أم عمر لم تلده .

---

(١) **الحمأ** : الطين الأسود .

بـــأي بحـــر غـــرقنـــا | بـــأي قيـــد علقنـــا
لقـــد خلقنـــا لهـــول | يـــا ليتنـــا مـــا خلقنـــا

ثم رفعه علىٰ أكتاف الملائكة المقربين ، فجعله علىٰ باب الجنة وهو بعد طين ، ثم أمر الروح أن تدخل فيه ، وتسكن في خافيه ، فرأت الجسد قفصاً عاتقاً[1] ، مظلماً متضايقاً ، فجعلت تدور حوله وتجول ، ولا يطيب لها الدخول ، ومن يطيب له بعد الرفعة النزول :

هبطَتْ إليك من المحل الأرفع | ورقـــاءُ ذاتُ تعـــزز وتمنُّـــعِ
محجـوبـة عـن كـلِّ مقلـةِ عـارف | وهـي التـي سَفَـرَتْ ولـم تتبـرقـع
وَصَلَـتْ علـىٰ كـره إليـك وربمـا | كرهت فراقك وهْيَ ذات تفجع
أنفَـتْ ومـا أَنِسَـتْ فلمـا واصلـت | ألفـت مجـاورة الخـرابِ البلقـعِ

فقال لها الجبار جل جلاله : (وعزتي التي لا تحد ولايتها ؛ لأدخلنك كرهاً ، ولأخرجنك كرهاً) ، فإذا مات المطيع . . تشبث الجسد بالروح ، وطلب أنه معها يروح ، يقول : خذيني معك إلىٰ ذلك الجناب ، ولا أبلىٰ بعدك في التراب .

وإذا مات العاصي . . تشبثت الروح بالجسد ، تقول : خذني معك إلى التراب ، ولا ألقىٰ بعدك أليم العذاب ، فلذلك يشتد النزع والاجتذاب ، فيخفت الصوت ، وتجري الدموع للفوت ، ويقع الوداع للموت :

خـــذونـــي مَعْكُـــمُ يـــا راحلينـــا | فـــإنـــا قـــد تصـــاحبنـــا سنينـــا
وجـودوا بـالـوداع فعـن قـريـب | سنـوحشكـم وأنتـم تـوحشـونـا

حكي أنّ الشبلي رحمه الله كان يقول عند موته : يجوز يجوز ، فسئل عن ذلك فقال : شارك الله بين الروح والجسد ليتَّجرا مدة هٰذا الزمان ، فاتَّجرا ، ثم جلسا اليوم يتحاسبان ، فإذا هما خاسران ، وهما يقولان : ما تقول في شريكين اتفقا على التجارة فمضت مدتهما في خسارة ؟ فهل يجوز أن يتفرقا من بعدما اتفقا ؟ وأنا أقول : يجوز يجوز :

صحبنـاكـمُ حينـاً ومعكـمْ تـآلفنـا | إلـىٰ أن تجملنـا بكـم وتشـرفنـا
وكنـا جميعـاً بـالحمـىٰ وأهيلـه | ولـم نك ندري أن وقت الحمىٰ يفنىٰ
ومنـــذ تعـــرَّفنـــا يُفـــرَّق بيننـــا | فيـا ليـت أنَّـا عمـرَنـا مـا تعـرَّفنـا

---

(١) جاء في نسخة : (عانقاً) .

ثم نزلت روحه من الخياشيم ، فانحصر فيها النسيم ، فأخذه العطاس والملائكة تشهد ، فحمد الله تعالىٰ ومجد ، فقالت له الملائكة عليهم الصلاة والسلام : يرحمك الله يا أبا محمد ، فقال : ومَن ذاك ؟ قالوا : ولد صورتك ووالد معناك ، ولولاه . . ما خلقك مولاك .

فلما وقع آدم بالذنْب الذي فعله . . أقسم على الله بمحمد صلى الله عليه وسلّم أن يغفر له ، فقال له الجبار جل جلاله : (كيف عرفته وما نظرته ؟) فقال : رأيت علىٰ قائمة العرش مكتوباً : لا إلـٰه إلا الله محمد رسول الله ، فعرفت من حكمة حكمك ألاَّ أحد أشرف ممن قرَنْتَ اسمه باسمك .

وبشرف آدم بهـٰذا المولود الكريم صلى الله عليه وسلّم أُمرت الملائكة له بالسجود ، فكانت لله سبحانه وتعالىٰ طاعتهم وعبادتهم ، وآدم قبلتهم تعظيماً له وتنزيهاً ، إذ قالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ فسجد الملائكة عليهم السلام لله سبحانه وتعالىٰ طاعة ، وأبىٰ إبليس اللعين فطرد إلىٰ قيام الساعة .

وألبس آدم عليه السلام الملابس الحسان ، ثم أدخل إلى الجنان ، وأبيح له كل ثمرة ، إلا تلك الشجرة ، وخلقت حواء من ضِلَعه الشمال ، ولذلك تتآلف النساء مع الرجال ، فطلب إبليس اللعين دخول الجنة ، فمنعه رضوان فدله الطاووس على الحية ، وكان من الخُزان ، ولذلك أهبط الطاووس من رفيع منازله ؛ لأن الدال على الشيء كفاعله ، فأدخلته الحية في فيها ، فهو موضع السم فيها :

فلـــم تـــك تصلـــح إلاَّ لـــهُ ولـــم يـــك يصلـــح إلا لهـــا

رأىٰ بعض الحكماء عقرباً علىٰ شوكة فوق الماء ، فقال : ما أشبه المَلاَّحَ بالسفينة .

فوسوس لهما الشيطان ، فأكلا من تلك الشجرة ، فأصبحت العيشة الصافية وهي كدرة ، بينا هم قد نزلوا حمىً منيعاً ، واستطابوا ظلاً ظليلاً ، وربعاً وربيعاً ، ووَرَدَا منهلاً مريئاً مريعاً . . قلنا : اهبطوا منها جميعاً ، فأُهبط آدم عليه السلام في الهند علىٰ جبل سرنديب ، وعليه من أوراق الجنة شيء عجيب ، فمِن ذلك صار يُجلب منه الطيب ، وحواء في جدة ، والحية في نصيبين ، والطاووس في ميسان[1] ، وفي الأُبُلَّة إبليس اللعين .

---

(١) في نسخة : (بيسان) ، والله أعلم بالصواب .

واجتمع آدم وحواء بعد سنة في جمع مزدلفة ، وقيل : في نَعمان بعرفات ، فسمي يوم عرفة ، وأمره الله سبحانه وتعالىٰ ببناء البيت ، فبناه وطاف به سبعاً ، وتضرع إلىٰ مولاه سبحانه وتعالىٰ ، فغفر له ذنبه ، وتاب عليه وهداه ، وإنما تاب علىٰ آدم لرجوعه إلى الاستغفار ، ولم يتب علىٰ إبليس لعصيانه بالإصرار .

قيل : كانت الكلمات التي تلقاها آدم عليه السلام من رب العالمين : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ .

وولدت حواء من آدم في عشرين بطناً ، أربعين ما بين بنات وبنين ، فتناسلوا حتىٰ رآهم بالعدد ، أربعين ألف ولد .

وكان يبكي علىٰ خطيئته ، ويتأسف علىٰ منزلته ، وإذا رأى الملائكة تصعد . . تصعَّدت نار حسرته ، وأنشد لسان حاله شوقاً إلىٰ جنته :

يـا جنـةً كـان لـي عيـش بمـأواكِ ... واليـوم مـا لـي سبيـل نحـو رؤيـاكِ
قد كنتِ عندي على الأيام مُرخَصةً ... فـأيُّ شـيءٍ علـيَّ اليـوم أغـلاك

بكىٰ ثلاث مئة سنة علىٰ ذنبه ، ولم ينظر السماء مئة سَنة حياء من ربه ، وحج أربعين حجة من الهند علىٰ قدميه يخوض في الطواف بدموع عينيه ، وفي الجمعة يوم عاشوراء تاب الله عز وجل عليه .

وبلغ آدم عليه الصلاة والسلام من العمر ألف عام ، ثم حضره الحِمام ، فقال لبنيه : أشتهي قطف عنب من الجنة ، فبشر الله سبحانه وتعالىٰ نفسه المطمئنة ، فجاءت الملائكة بالبشارات ؛ لنقل روحه إلى الجنات ، فودع بنيه ومات .

وجهزه جبريل الأمين ، وصلىٰ عليه مع الملائكة المقربين ، وجمع حوله البنات والبنين ، ودفنه في أبي قبيس حتىٰ جاء الطوفان ، فاستخرجه نوح عليه الصلاة والسلام من ذلك المكان ، فلما نضب الماء . . رده إلىٰ ما كان ، عليه أفضل الصلاة والسلام وعلىٰ جميع الأنبياء والمرسلين الأعيان ، ورزقنا ببركتهم خاتمة الخير والغفران ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد سيد ولد عدنان ، وعلىٰ آله وصحبه وسلم .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

قصة إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه

قال الشيخ شمس الدين ابن الملحي رحمه الله تعالىٰ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

جاء لقوم إبراهيم عليه الصلاة والسلام يوم عيد ، فخرجوا بأجمعهم للتَّعييد ، وسألوا المرافقة من إبراهيم ، وقد عزم علىٰ أن يقيم ، فاحتج عليهم معرِّضاً إني سقيم ، فلما خلا له الوقت كما يريد . . أخذ بيده قَدُومَ[1] الحديد ، وأقدم تقدم مَن يفتح الوصيد ، فوجد بين يدي الأصنام نفائس الشراب والطعام ، فنادىٰ عليه الصلاة والسلام : أيها الأصنام ؛ ما لكم لا تأكلون ؟! وكرر ثانياً وهم لا ينطقون ، ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ .

فلما عرف القوم بالأمر . . تلاحقوه ، وأخبروا نمرود ليهلكوه ، وأجمعوا أمرهم وأقروه ، فقال واحد منهم : حرقوه ، تالله ؛ لقد خسفت الأرض بقائل هٰذا الكلام ، فهو يتجلجل بها إلىٰ يوم القيامة .

وأمر نمرود[2] ـ عليه اللعنة ـ أن يُبنىٰ له شراع ، طوله في السماء ستون ذراعاً ، ونادىٰ مناد : أن احتطبوا الأحطاب ، فاحتطب أربعون يوماً شيوخهم والشباب ، حتىٰ كانت المرأة إذا أهمها أمر عظيم . . نذرت حطباً لإحراق إبراهيم ، ثم أضرمت النار في الحطب ، فارتفع القَتَام[3] واللهب ، حتىٰ صار الطائر إذا تأمَّلها الْتَهب .

فلما لم يبق من شدة الحريق إلى النار طريق . . أظهر لهم إبليس ـ عليه اللعنة ـ المنجنيق ، فنصبوه علىٰ جبل شاهق المنار ، ثم قذفوه إلى النار ، فبينا هو في الهواء قد علا . . نزل جبريل من العلا ، فناداه وهو في عظيم البلا : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا .

---

(١) القَدُوم ـ بالفتح وتخفيف الدال ـ : الفأس التي ينحت بها الخشب .

(٢) **نمرود** : يجوز فيه الدال والذال .

(٣) **القَتَام** : الغبار الأسود ، والمراد هنا : الدخان .

قال : فسَلْ ربك المتعالي ، فقال : علمه بحالي يغني عن سؤالي .

هٰذا والنار قد عجَّت ، والأطيار قد هجَّت ، والأصوات قد ضجَّت ، والعيون قد ثجَّت[1] ، والأرض قد ارتجَّت ، ونادت الملائكة عليهم الصلاة والسلام : يا جبار ؛ خليلك إبراهيم يلقىٰ في النار ، فقال الجبار جل جلاله : (إن استغاث بكم . . فأغيثوه ، وإن استغاث بي . . فدعوه) .

إن كـــان محبنـــا لنـــا مختـــارا	فليَسِـرْ دجـىً ويـركـب الأخطـارا
لا تمنعـــه الجحيـــم عـــن رؤيتنـــا	من نحن له كيف يخاف النارا ؟!

غيره :

قالوا حَذِر المحبُّ واشِيَه وخافْ	لولا الواشي لكان قد حج وطافْ
إن كـان كـذا فليـس هـٰـذا بطـلا	مَن نحن لَهْ ترىٰ لمن قَطُّ يخافْ

لما اطلعنا علىٰ قلبه السليم ، فلم نجد فيه إلا الرضىٰ والتسليم . . ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ ، فظنت نار الدنيا أن الخطاب على الإجمال ، فلم يبق نار إلا خمدت في الحال .

هٰذا ولو لم يتبعها بقوله : ﴿ وَسَلَـٰمًا ﴾ . . لصار إبراهيم ببردها حطاماً .

الناس يظنون أن إبراهيم في النار ، وهو علىٰ كرسي قد استدار ، وحوله الأشجار والثمار والأطيار ، وجبريل عنده علىٰ بساط الأزهار ، وقد ألبسه ثوب الانتصار ، ولم يحترق غير وثاقه ؛ إذ كان من الكفار .

فبقي أربعين يوماً في نار نمروذ ، لا يجسر أحد من حرها يلوذ .

فتشفع أبوه أن يخرج عظامه ، فركب نمروذ بجنوده أمامه ؛ لينظر هل أبقت النار من إبراهيم علامة .

فلما كَشَف عن إبراهيم الجدار . . وَجَد ما هو عليه فحار ، ونادىٰ : يا إبراهيم ؛ إن معبودك لعظيم ، نحن لا نطيق السعي إليك ، فاسع إلينا ، فأنت اليوم عزيز علينا ، ولولا أن يذهب عني الملك العزيز . . لعبدت إلـٰهك الكبير ، ثم ذبح نمروذ أربعة آلاف بقرة قرباناً لله سبحانه ومعذرة ، والله تعالىٰ لا يقبل قربان الكفرة .

---

(١) ثجت : سالت بالدموع .

مسلك آخر :

سبحان مَن أخرج مِن آزر إبراهيم الخليل ، وعرفه الإسلام في الصغر ، فعَرَفه بالدليل ، قال للكواكب ما قال وعمره أربع سنين بالتكميل .

فأضرم له نار البغض كل نسيب وحميم ، ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ .

عبدٌ أحب مولاه ، وهجر هواه من صباه ، ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ ﴾ ، ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ، ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ .

أحب اللهَ فأبغض الأصنام ، فكان أبوه يسلمها إليه ليبيعها وهو غلام ، فيجرها في الطريق ويقول فيها قبيح الكلام ، فكلما رأوه.. يبدر الشر من قلب كل لئيم ، ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ .

أول مَن سَنَّ القِرىٰ للمضيف ، فكان يحمل الطعام علىٰ رأسه الشريف ، ويبقى الأيام جائعاً ولا يأكل إلا مع ضعيف ، فكم أطفأ نار جوع لها عذاب أليم ، ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ .

قدَّمَ ماله للضيفان ، وسلم ولده للقربان ، واستسلم للقاء النيران ، فنزل توقيع الأمان من رب رحيم ، ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ .

بنوا له بيتاً إلىٰ جبل وثيق ، وأتوه بالأحطاب من كل طريق ، وألقوه إلى النار من كفة المنجنيق ، وخرج نمرود اللعين وقد اشتعل الحريق ، فظهر توقيع القِدم بأمر القديم ، ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ .

وكان عمره ست عشرة سنة حين ألقي في النار ، فتلقاه جبريل عليه الصلاة والسلام بخلعة الأنوار ، وأجلسه علىٰ سرير حوله الأنهار والأشجار ، فيا عجباً جنة نعيم في سواء الجحيم! ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ .

اعترضه جبريل في الهواء العالي ، وهو يهوي في الهويِّ ولا يبالي ، فقال : ألك حاجة ؟ فأجابه يقول : ما لي إليك ما لي ، قال : فسل ربك المتعالي ، قال : علمه بحالي يغني عن سؤالي ، فمن هنا سلمناه لقلبه السليم ، ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

قصة إسماعيل عليه الصلاة والسلام

قال الإمام العالم شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الملحي الواسطي ، شيخ الوعاظ في عصره ـ رحمه الله تعالىٰ ـ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لما اتخذ الله سبحانه وتعالىٰ إبراهيم خليلاً ، فرفع له بذلك قدراً جليلاً . . قالت الملائكة : ربنا اتخذته خليلاً ، وله أهل ومال ، والخليل لا يشتغل عن خليله بحال .

فقال سبحانه وتعالىٰ لملائكته : (إن إبراهيم لا يشتغل عني بنعمتي ، وَهَبَ قلبه للرحمـٰن ، وبدنه للنيران ، وماله للضيفان ، وولده للقربان ، يا ملائكتي ؛ جربوه . . تعرفوه) .

فأري ليلة في المنام قائلاً يقول : إن الله يأمرك أن تقرب لله قرباناً ، فانتبَه يتروىٰ ولا يعرف بياناً ، فسمي يوم التروية ، فرأى الليلة الثانية ذلك القائل يقول : قرب أعز الأشياء عليك وأحبها إليك ، فانتبه يوم عرفة ، وقد تحقق المعنىٰ وعرفه .

ثم رأى الليلة الثالثة : يا خليل ؛ قرب ولدك إسماعيل ، فانتبه يوم النحر بالرضا والتسليم ، قائلاً لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، إلـٰهي ؛ أنا وولدي عبداك ، وإن كان ثمرة فؤادي . . فليس أحب إليَّ من رضاك :

فليتك تحلو والحياة مريرة	وليتك ترضىٰ والأنام غضابُ
وليت الذي بيني وبينك عامر	وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الودُّ فالكل هين	وكل الذي فوق التراب تراب

ثم قال : يا هاجر ؛ إذا انتبه إسماعيل . . فقربيه ، واغسلي شعره وطهريه ، وألبسيه ثيابه وطيبيه ، وإن استطعت أن تودعيه . . فودعيه ، فعسىٰ بعد اليوم لا تنظريه ، ومريه أن يتبعني إلى الأَبْطَح بالحبل والحديد ؛ لنقرب قرباناً فاليوم يوم عيد .

ففرحت هاجر بقول الخليل ، فلما انتبه من النوم إسماعيل . . فعلت هاجر ما أَمر ،

وسلمت إليه ما ذَكر ، وقالت له : يا بني ؛ اِلْحَقْ أباك إلى الأبطح ، وساعده في قربان يذبح .

فخرج إسماعيل يسرع بخطاه ، ويطير بالفرح ليلحق أباه ، فالتفت الخليل وراءه فتغرغرت بالدموع عيناه ، ونادىٰ لسان وقته معرباً عن بلواه :

نـــاديتُهـــم وعيسهـــم تستبـــقُ	والقلـب بنـار وجـدهـم يحتـرقُ
بـــالله قفـــوا هُنَيَّـــةً أنظُـــرْكُـــمُ	هيهـات نعــود بعــدهـا نتفــق

ثم استرجع ورجع :

مـا كـان أقصرَ عمرَ ليلـة وصلنـا	حتـىٰ كـأن عِشـاءه مَـعْ فجـرِهِ
نــذر الــزمــان بــأن يفــرق بيننــا	والآن قــد أوفــى الــزمـان بنـذره

فظهر إبليس اللعين ، في صورة شيخ حزين ، فوقف للخليل ودموعه تسيل ، فقال له الخليل : يا شيخ ؛ ما الذي دهاك حتىٰ أبكاك ؟ فقال : اعلم أني رزقت علىٰ كبري ولداً ، ورجوته عند عجزي عضداً ، فأتاني في المنام آت يقول لي : قرب ولدك لله تعالىٰ ، فلما ذبحت ولدي ـ وهو ثمرة فؤادي ـ أتاني عفريت ينادي : سخرت بك وبلغت مرادي ، فعضضت بالندم يدي ، ودخلت الحسرة علىٰ كبدي ، فقال له إبراهيم عليه الصلاة والسلام : إن خبري ليس كهـٰذا الخبر ، وأظن أنك إبليس المحتَقَر ، فاخسأ عني ولا تتبعني ، فساخ في الأرض وغاب .

وظهر لإسماعيل في صورة شاب ، فقال له : إلىٰ أين تمضي يا صبي ؟ فقال : أقرب القربان مع أبي .

فقال : هيهات هيهات! أنت تضحك ، وإنما أبوك يريد ذبحك ؟ فقال له : ويحك! إن أبي يحبني ، فكيف يذبحني ؟! فقال : إن ربه أمره بذلك ، فانج بنفسك وإلا . . فأنت هالك ، فقال له : ويلك! إن كان الله سبحانه وتعالىٰ يرتضيني للقربان . . فيا فرحتي بالأمان .

إن كـــــان سكـــــان الغضـــــا	رضـــوا بقتلـــي فَـــرِضـــا
والله لا كنــــــــت لمـــــــا	يـــرضـــي الحبيـــب مبغضـــا

فذهب إبليس اللعين إلىٰ دار هاجر ووقف على الباب ، وأبدى الانتحاب ، فقالت له : يا شيخ ؛ ما لَكَ ؟ وما الذي أهالك ؟ فقال : ما أغفلكِ عن ولدك وثمرة كبدك! قد ذهب به

أبوه إلىٰ وادي الأراك ، يريد أن يذبحه هناك ، فقالت له : يا شيخ ؛ ما أجهلك! مَن يعترض على المالك فيما ملك ؟! إن إبراهيم لا يفعل إلا ما أمره به الله ، وسواء لإسماعيل الموت والحياه ، إذا كان ربه قد ارتضاه ، أنت يا شيخ شيطان ، فاذهب بالخزي والهوان .

نعـــــم هُـــــمُ أحبتـــــي	وكـــــل قلبـــــي لهـــــمُ
إن وصلـــــوا محبّهـــــمْ	وإن جفـــوا فهُـــمْ هُـــمُ
تصـــرفـــوا فـــي مِلكهـــمْ	فـــلا يقـــال ظلمـــوا

فلما رقيا الجبل . . حدثه بما جرىٰ ، فـ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ ، فأجابه بالرضا والتسليم لرب العالمين ، فـ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ .

فعندها شد الخليل وثاقه ، وقد غلبت الدموع آماقه .

فقال إسماعيل : يا أبت ؛ كن على البلاء صابراً ، وعلى النعماء شاكراً ، وأطع فيَّ صاحب الحضراء ، ولا تأخذك فيَّ رقة الآباء على الأبناء ، واحمل إلىٰ أمي ثيابي ، حيث عز عليها إيابي ، وحول مكتب الصبيان عنها ؛ لئلا تستوحش من أترابي ، وإن سألتك عني . . فقل : خلفته عند مَن هو خير منك ومني .

فأمرَّ السكين علىٰ نحره ، فَنَبَتْ[1] ، فأعادها فانقلبت ، فقال : أيتها السكين ؛ كيف تغير طبعك في قطعك ؟! فصاحت فصاحةُ الحال في الحال : **يا خليل ؛ لَمَّا تغير طبع البشرية بذبح الأولاد . . تغير طبعي المعتاد ، فتغيير بتغيير ، ولا تعيير** .

فلما لم يكن من السِّكِّين علىٰ مريه معنىٰ . . صاح إسماعيل : يا أبتِ ؛ اُطعَن بها في الحلق طَعْنا .

هٰذا والحق جل جلاله مطلع عليهما ، والأرض تموج لفعلهما ، والجو قد أقتم ، والفضاء قد أظلم ، والجبال قد تصدعت ، والجن قد خشعت ، والملائكة تضج بالتقديس والتهليل : أيَذبح الخليلُ ولده إسماعيل ؟!

وإذا النداء من رب العالمين : كلٌّ بعيني وأنا أرحم الراحمين .

فلما هَمَّ أن يطعن بالسكين . . نودي ﴿أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ * قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي

(١) نبا الشيء : تجافىٰ وتباعد ، ونبا السيف : إذا لم يعمل في المضروب .

ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ، ويا إسماعيل ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ﴾ ، ونزل الروح الأمين بالبشارات الحسنة ، بكبش قد رعىٰ في الجنة أربعين سَنة ، فهلل الخليل وكبر ، ونحر الكبش في المَنحر ، فصار ذلك سُنة لأمة المظلَّل بالغمامة ، إلىٰ يوم القيامة .

فما أكل منه صاحب عاهة . . إلا شُفي ، ولا فقير . . إلا كُفي .

وقيل : لما أتى الكبش . . فرح الخليل وبكىٰ إسماعيل ، فقيل له : أتبكي في ساعة السرور ؟! فقال : كيف لا يبكي مَن أبعده الحبيب ، ولم يرضه للتقريب ؟!

أمَّلْتُ في ذا العام أن أزوركم ... في جملة العيس فخاب ظني
أقعدني الحرمان عن قصدِكُمُ ... ورمت أن أسعىٰ فلم يدعني

وحكىٰ بعض العارفين : أن إبراهيم الخليل عليه أفضل الصلاة والسلام لما قال لولده إسماعيل عليه الصلاة والسلام : يا بني ؛ إني أرىٰ في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترىٰ . . قال إسماعيل : يا أبت ؛ أما علمت أنك إذا كنت خليله وحبيبه ثم نمت عن خدمته . . أن تعاقَب بأعز الأشياء عليك ؟! صلوات الله وسلامه عليهما .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

أما المقام الثاني . . ففي سعة رحمة الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ سبيل التفاؤل به :

فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم يحب الفأل ، وليس لنا من الأعمال ما نرجو به المغفرة ، وما ثَمَّ إلا سعة رحمة الله عز وجل وعفوه ، ونرجو من فضله العظيم العميم أن يختم الله عاقبتنا بالخير في الدنيا والآخرة ، كما ختمنا الكتاب بذِكر سعة رحمة الله سبحانه وتعالىٰ .

فقد قال الله تعالىٰ ـ وهو أصدق القائلين ـ : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ ، فعسىٰ أن يجعلنا من ذلك الشيء .

وقال عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ .

وقال عز وجل : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ ، ونحن نستغفره سبحانه من كل ما زل به القدم ، أو طغىٰ به القلم ، في كتابنا هٰذا وفي سائر ما كتبناه ونكتبه .

ونستغفر الله سبحانه وتعالىٰ من أقوالنا التي لا توافقها أعمالنا ، ونستغفر الله مما ادعيناه وأظهرناه من العلم والبصيرة بدين الله تعالىٰ مع التقصير فيه ، ونستغفر الله سبحانه وتعالىٰ من كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ، ثم خالطه فيه غيره .

ونستغفره عز وجل من كل وعد وعدناه من أنفسنا ، ثم قصرنا في الوفاء به ، ونستغفره تبارك وتعالىٰ من كل نعمة أنعم بها علينا ، ثم استعملناها في معصيته ، ونستغفره سبحانه وتعالىٰ من كل تصريح وتعريض بنقصان ناقص وتقصير مقصر كنا متصفين به .

ونستغفره من كل خطرة دعتنا إلىٰ تصنع وتكلف تزيناً للناس في كتاب سطرناه ، أو كلام نظمناه ، أو علم أفدناه أو استفدناه .

ونرجو ـ بعد الاستغفار من جميع ذلك كله لنا ولمن طالع كتابنا هٰذا أو كتبه أو سمعه ـ من الله الكريم الرؤوف الرحيم . . المغفرة والرحمة ، والتجاوز عن جميع السيئات ظاهراً وباطناً ؛ فإن الكرم عظيم عميم ، والرحمة واسعة ، والجود علىٰ أصناف الخلائق فائض ،

ونحن خلق من خلق الله سبحانه وتعالىٰ ، لا وسيلة لنا إليه جل جلاله . . إلا فضله العظيم وجوده العميم .

وقد صح عن سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلّم أنه قال : « إن لله عز وجل مئة رحمة ، أنزل منها رحمة واحدة بين الإنس والجن والبهائم ، فبها يتراحمون ، وبها يتعاطفون ، وأخَّر تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة ، فإذا كان يوم القيامة . . ضم تلك الرحمة إلى التسع والتسعين »(١) .

وقد صح أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال : « إن الله تعالىٰ لما قضى الخلق . . كتب عنده فوق العرش : إن رحمتي سبقت غضبي »(٢) .

وقال صلى الله عليه وسلّم : « يقول الله عز وجل : (من جاء بالحسنة . . فله عشر أمثالها أو أزيد ، ومن جاء بالسيئة . . فجزاء سيئة سيئة مثلها أو أغفر ، ومَن تقرب مني شبراً . . تقربت منه ذراعاً ، ومَن تقرب مني ذراعاً . . تقربت منه باعاً ، ومَن أتاني يمشي . . أتيته هرولة ، ومَن لقيني بقُراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئاً . . لقيته بمثلها مغفرة »(٣) .

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنه قال : « يتجلى الله عز وجل لعباده يوم القيامة فيقول : أبشروا يا معشر المسلمين ؛ فإنه ليس منكم أحد إلا وقد جعلت مكانه في النار يهودياً أو نصرانياً »(٤) .

وقال صلى الله عليه وسلّم : « يقول الله عز وجل يوم القيامة للمؤمنين : (هل أحببتم لقائي ؟ فيقولون : نعم يا ربنا ، فيقول : لِمَ ؟ فيقولون : رجونا عفوك ومغفرتك ، فيقول الله تبارك وتعالىٰ : قد أوجبتُ لكم مغفرتي »(٥) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « يقول الله تعالىٰ يوم القيامة : أخرجوا من النار مَن ذكرني وخافني في مقام »(٦) .

وقد رُوِّينا عن البخاري [٧٠٧١] قال : حدثنا يوسف بن راشد ، حدثنا أحمد بن عبد الله ،

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٦١٠٤) ، ومسلم (٢٧٥٢) .
(٢) تقدم تخريجه مراراً .
(٣) أخرجه مسلم (٢٦٨٧) .
(٤) أخرجه بنحوه أحمد (٤/ ٤٠٧) .
(٥) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٨) .
(٦) أخرجه الديلمي (٥/ ٢٤٤) .

حدثنا أبو بكر بن عياش ، عن حميد قال : سمعت أنساً يقول : سمعت النبي صلى الله عليه وسلّم يقول : « إذا كان يوم القيامة . . شفعت ، فأقول : يا رب ؛ أَدخِل الجنة مَن كان في قلبه خردلة ، فيدخلون ، ثم أقول : أدخل الجنة مَن كان في قلبه أدنىٰ شيء » ، فقال أنس : كأني أنظر إلىٰ أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلّم .

ورُوِّينا عن البخاري [٧٠٧٢] قال : حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا معبد بن هلال العنزي قال : اجتمعنا ناسٌ من أهل البصرة ، فذهبنا إلىٰ أنس بن مالك ، وذهبنا معنا بثابت البناني إليه[1] يسأله لنا عن حديث الشفاعة ؛ فإذا هو في قصره [فوافقناه] يصلي الضحىٰ ، فاستأذنَّا ، فأذن لنا وهو قاعد علىٰ فراشه ، فقلنا لثابت : لا تسأله عن شيء أَوَّلَ من حديث الشفاعة ، فقال له : يا أبا حمزة ؛ هـٰؤلاء إخوانك من أهل البصرة ، جاؤوا يسألونك عن حديث الشفاعة ، فقال : حدثنا محمد صلى الله عليه وسلّم قال : « إذا كان يوم القيامة . . ماج الناس بعضهم في بعض ، فيأتون آدم ، فيقولون : اشفع لنا إلىٰ ربك ، فيقول : لست لها ، ولـٰكن عليكم بإبراهيم ؛ فإنه خليل الرحمـٰن ، فيأتون إبراهيم ، فيقول : لست لها ، ولـٰكن عليكم بموسىٰ ؛ فإنه كليم الله ، فيأتون موسىٰ ، فيقول : لست لها ، ولـٰكن عليكم بعيسىٰ ؛ فإنه روح الله وكلمته ، فيأتون عيسىٰ ، فيقول : لست لها ، ولـٰكن عليكم بمحمد صلى الله عليه وسلّم .

فيأتوني ، فأقول : أنا لها ، فأستأذن علىٰ ربي ، فيؤذن لي ، ويلهمني محامد أحمده بها لا تحضرني الآن ، فأحمده بتلك المحامد ، وأَخِرُّ له ساجداً ، فيقال : يا محمد ؛ ارفع رأسك ، وقل يُسمَعْ لك ، وسل تعط ، واشفع تشفع ، فأقول : يا رب ؛ أمتي أمتي .

فيقال : انطلق ، فأَخْرِجْ منها من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان ، فأنطلق ، فأفعل ، ثم أعود ، فأحمده بتلك المحامد ، ثم أَخِرُّ له ساجداً ، فيقال : يا محمد ؛ ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعط ، واشفع تشفع ، فأقول : يا رب ؛ أمتي أمتي .

فيقال : انطلق ، فأَخْرِجْ منها من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان ، فأنطلق ، فأفعل ، ثم أعود ، فأحمده بتلك المحامد ، ثم أَخِرُّ له ساجداً ، فيقال : يا محمد ؛ ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسَل تعط ، واشفع تشفع ، فأقول : يا رب ؛ أمتي أمتي .

---

(١) في بعض النسخ : (وذهب معنا ثابت البناني إليه) .

فيقول : انطلق ، فأخرج من كان في قلبه أدنىٰ أدنىٰ أدنىٰ مثقال حبة من خردلة من إيمان فأخرجْه من النار ، فأنطلق ، فأفعل » .

فلما خرجنا من عند أنس . . قلت لبعض أصحابنا : لو مررنا بالحسن [البصري] ـ وهو متوار في منزل أبي خليفة ـ فحدثْناه بما حدَّثَنا أنس بن مالك ، فأتيناه ، فسلمنا عليه ، فأذن لنا ، فقلنا له : يا أبا سعيد ؛ جئناك من عند أخيك أنس بن مالك ، فلم نر مثل ما حدثنا في الشفاعة .

فقال : هِيهْ[1] ، فحدثْناه بالحديث ، فانتهىٰ إلىٰ هـٰذا الموضع ، فقال : هيه ، فقلنا : لم يزد لنا علىٰ هـٰذا .

فقال : لقد حدثني وهو جميع[2] منذ عشرين سَنة ، فلا أدري أنسي أم كره أن تتكلوا ، قلنا : يا أبا سعيد ؛ فحدِّثْنا ، فضحك وقال : خلق الإنسان عجولاً ، ما ذكرته إلا وأنا أريد أن أحدثكم .

حدثني كما حدثكم به وقال : « ثم أعود الرابعة ، فأحمده بتلك المحامد ، ثم أَخِرُّ له ساجداً ، فيقال : يا محمد ؛ ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأقول : يا رب ائذن لي فيمن قال لا إلـٰه إلا الله ، فيقول : وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي ؛ لأخرجن منها مَن قال لا إلـٰه إلا الله » انتهىٰ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « إذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة . . قال الكفار للمسلمين : ألم تكونوا مسلمين ؟ قالوا : بلىٰ ، فيقولون : ما أغنىٰ عنكم إسلامكم إذ أنتم معنا في النار ؟ فيقولون : كانت لنا ذنوب ، فأُخِذْنا بها ، فيغار الله عز وجل ويأمر بإخراج مَن في النار مِن المسلمين ، فيخرجون ، فإذا رأى الكفار ذلك . . قالوا : يا ليتنا كنا مسلمين ، فنخرج كما أُخرجوا ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلّم : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾[3] » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « لَلَّهُ أرحم بعبده المؤمن من الوالدة بولدها »[4] .

---

(١) هِيْه : اسم فعل أمر يقال لمن تستزيده في كلام .

(٢) **الجميع** : الرجل الذي بلغ أشده ، أراد أنه كان شاباً حين حدثه بذلك .

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في « السنة » (٢/ ٤٠٥) ، وأخرجه بنحوه الحاكم (٢/ ٢٦٥) .

(٤) أخرجه بنحوه البخاري (٥٦٥٣) ، ومسلم (٢٧٥٤) .

وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : (مَن زادت حسناته علىٰ سيئاته يوم القيامة . . فذلك الذي يدخل الجنة بغير حساب ، ومَن استوت حسناته وسيآته يوم القيامة . . فذلك الذي يحاسب حساباً يسيراً ، ثم يدخل الجنة ، وإنما شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلّم لمن أوثق نفسه وأثقل ظهره) .

وقال صلى الله عليه وسلّم : « ينادي منادٍ يوم القيامة : يا أمة محمد ؛ أمَّا ما كان لله عز وجل . . فقد وهبكم إياه ، وأما التبعات . . فتواهبوها وادخلوا الجنة برحمة الله تعالىٰ »[١] .

ويروىٰ : أن أعرابياً سمع ابن عباس رضي الله عنهما يقرأ : ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ ، فقال الأعرابي : والله ؛ ما أنقذهم منها وهو يريد أن يوقعهم فيها ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما : خذوها من غير فقيه .

وقال الصنابحي : دخلت علىٰ عبادة بن الصامت رضي الله عنه وهو في الموت ، فبكيت ، فقال : مهلاً لا تبك ؛ فوالله ؛ ما من حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلّم . . إلا حدثتكم ، إلا حديثاً واحداً ، وسوف أحدثكموه اليوم وقد أحيط بنفسي ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول : « مَن شهد أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلّم . . حرم الله عليه النار »[٢] .

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « عَرَضَ لي جبريل في جانب الحرة ، فقال عليه السلام : بشِّر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله تعالىٰ شيئاً . . دخل الجنة ، قال : فقلت : يا جبريل ؛ وإن زنىٰ وإن سرق ؟ قال : وإن زنىٰ وإن سرق »[٣] .

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلّم : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ ، فقلت : يا رسول الله ؛ وإن زنىٰ وإن سرق ؟ فقال صلى الله عليه وسلّم : « وإن زنىٰ وإن سرق ، وإن رغم أنف أبي الدرداء »[٤] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « إذا كان يوم القيامة . . دُفع إلىٰ كل واحد من

---

(١) أخرجه بنحوه الديلمي (٥/٤٩٦) .
(٢) أخرجه بنحوه ابن حبان في « الإحسان » (٢٠٢) .
(٣) أخرجه البخاري (٦٠٧٨) ، ومسلم (٩٤) .
(٤) أخرجه بنحوه النسائي في « الكبرىٰ » (٦/٤٧٨) .

أمتي يهودي أو نصراني ، ويقال له : هـٰذا فداؤك من النار »[1] .

وقال الله عز وجل : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ قال محمد بن علي رحمه الله : هـٰذه أرجىٰ آية للمؤمنين .

وقد روي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم سأل ربه عز وجل في ذنوب أمته فقال : « يا رب ؛ اجعل حسابهم إلي ؛ لئلا يُطَّلع علىٰ مساوئهم ، فأوحى الله عز وجل إليه : هم أمتك وهم عبادي ، وأنا أرحم بهم منك ، لا أجعل حسابهم إلىٰ غيري ؛ لئلا تنظر أنت ولا غيرك في مساوئهم » .

وقال صلى الله عليه وسلّم : « يا كريم العفو » ، فقال له جبريل عليه السلام : (أتدري ما تفسير يا كريم العفو ؟ هو أن يعفو عن السيئات برحمته ، ثم يبدلها حسنات بكرمه)[2] .

وفي الحديث الصحيح : « إذا أذنب العبد واستغفر الله . . يقول الله عز وجل لملائكته : انظروا إلىٰ عبدي ، أذنب ذنباً ، فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ، أشهدكم أني قد غفرت له »[3] .

وجاء في حديث أنس رضي الله عنه : أن أعرابياً قال : يا رسول الله ؛ مَن يلي حساب الخلق ؟ فقال : « الله عز وجل » ، فقال : هو بنفسه ؟! فقال : « نعم » ، قال : فتبسم الأعرابي ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « كيف ضحكت ؟ » فقال : إن الكريم إذا قدر . . عفا ، وإذا حاسب . . سامح ، فقال صلى الله عليه وسلّم : « ولا كريم أكرم من الله عز وجل ؛ فإنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين »[4] .

وقد ورد : أن الله عز وجل ليغفرن يوم القيامة مغفرة ما خطرت علىٰ قلب أحد ، حتىٰ إن إبليس لَيَتطاوَلُ رجاء أن تصيبه .

وروىٰ محمد بن الحنفية عن علي رضي الله عنه : أنه لما نزل قوله تعالىٰ : ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ . . قال صلى الله عليه وسلّم : « يا جبريل ؛ وما الصفح الجميل ؟ » قال : إذا عفوت عمن ظلمك فلا تعاتبه ، فقال : « يا جبريل ؛ فالله عز وجل أكرم من أن يعاتب مَن

---

(١) أخرجه بنحوه الطبراني في « الأوسط » (١/ ٥) .
(٢) أخرجه بنحوه عن سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام . . البيهقي في « الشعب » (٥/ ٣٨٩) .
(٣) أخرجه بنحوه البخاري (٧٠٦٨) ، ومسلم (٢٧٥٨) .
(٤) أخرجه بنحوه البيهقي في « الشعب » (١/ ٢٤٧) .

عفا عنه » ، فبكىٰ جبريل عليه السلام وبكى النبي صلى الله عليه وسلّم ، فبعث تبارك وتعالىٰ إليهما ميكائيل ، فقال : إن ربكما يقرئكما السلام ويقول : (كيف أعاتب مَن عفوت عنه ، هـٰذا ما لا يشبه كرمي) .

والأخبار الواردة في هـٰذا الباب أكثر من أن تحصر .

ونسأل الله العظيم أن يرضىٰ عنا ، وأن يحفظ علينا الإيمان ويتوفانا عليه ، فهو وديعة لنا عنده ، فإنه سبحانه وتعالىٰ ما اسُتوْدِع شيئاً . . إلا حفظه ، ﴿فالله خير حِفْظاً وهو أرحم الراحمين﴾[1] .

ونختم الكتاب بما بدأناه به أولاً ، وهو حمد الله عدد عفوه عن خلقه ذي الجلال والإكرام ، وولي الطول والإنعام ، ونصلي علىٰ رسوله وحبيبه وخليله سيد الأنام محمد صلى الله عليه وسلّم ، وعلىٰ آله الكرام ، وصحبه نجوم الهدى الأعلام ، وسلم تسليماً كثيراً ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم .

والحمد لله علىٰ نعمه التي لا تحصىٰ ، وكرمه الذي لا يخفىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم[2]

---

(١) هـٰذه قراءة أبي عمرو بن العلاء وغيره ، وقرأ حفص : ﴿حَـٰفِظًا﴾ .

(٢) **خواتيم المخطوطات المعتمدة :**

جاء في خاتمة النسخة (١) : وكان الفراغ من هـٰذه النسخة المباركة الشريفة ليلة يسفر صباحها من سابع شهر رجب الفرد من شهور سنة تسع وتسعين وألف ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم .

تـــم الكتـــاب وربنـــا محمـــود ... ولـــه المكـــارم والعـــلا والجـــود
وعلـــى النبـــي محمـــد صلـــواتـــه ... مـــا نـــاح قُمـــريٌّ وأورق عـــود

وجاء في خاتمة النسخة (٢) : الحمد لله عدد عفوه عن خلقه ، ما بين الأزل والأبد ، حمداً يوافي نعمه ويكافىء مزيده ، وصلى الله علىٰ سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد عبده ورسوله وحبيبه وخليله صلى الله عليه وسلّم ، كلماذكره الذاكرون ، وغفل عن ذكره الغافلون ، اللهم ؛ صل علىٰ محمد ما تقلقل فلك في دورانه ، وصل علىٰ محمد ما رمق طرف بإنسانه ، وعلىٰ آله وصحبه وأزواجه وذريته الطيبين الطاهرين وسلم تسليماً كبيراً إلىٰ يوم الدين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .
قد استراح القلم من مضايق التحرير والتسطير بعون الله الملك القدير ، وكان الفراغ منه في مستهل شوال سنة=

= خمس وستين وسبع مئة بدمشق المحروسة حرسها الله وسائر بلاد الإسلام ، وغفر لمؤلفه وكاتبه ولجميع المسلمين آمين ، وصلواته وسلامه الأتمان الأكملان علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وأزواجه وذريته ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ومـــا مـــن كـــاتـــب إلا سيبلـــىٰ	ويبقــي الــدهــرُ مــا كتبــت يـــداه
فـــلا تكتـــب بكفـــك غيـــر شـــيءٍ	يســـرك فـــي القيـــامـــة أن تـــراه

وجاء في خاتمة النسخة (٣) : تم الجزء الأول ، والحمد لله وحده ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد ، سيد المرسلين وخاتم النبيين ، وإمام المقربين ، وقائد الغر المحجلين ، وحبيب رب العالمين ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه أجمعين ، كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون .

وجاء في خاتمة النسخة (٤) : الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والتسليم علىٰ أشرف المرسلين محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلىٰ يوم الدين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

نظر في هـٰذا المختصر المبارك من أوله إلىٰ آخره بقوة الله وعونه العبد الفقير إلى الله تعالى الراجي عفو ربه الكريم ، كثير الزلل والخطايا. . . سبع الشافعي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين ، وجعله من أهل القرآن العظيم آمين .

نظر في هـٰذا المختصر المبارك من أوله إلىٰ آخره بحمد الله وعونه العبد الفقير إلى الله تعالىٰ ، الراجي عفو ربه الذي بذنبه اعترف محمد بن إبراهيم عفا الله عنه وعن والديه وعن جميع المسلمين ، واجعلني وإياهم من عبادك الصالحين. . . وصلى الله علىٰ سيدنا محمد .

الحمد لله أهل الحمد ومستحقه ، كتبتُ هـٰذا. . . . المبارك من أوله إلىٰ آخره وقرأته في الجامع الكبير ببعلبك المحروسة مرتين ، مترحماً علىٰ مؤلفه وكاتبه ومالكه الأول ، داعياً لمالكه الثاني بطول البقاء فسح الله تعالىٰ. . . . ونفع المسلمين بعلومه الفقير إلىٰ عفو الله ورحمته يوسف بن عبد القادر بن أبي الحسن القادري .

وجاء في خاتمة النسخة (٥) : وافق الفراغ من كتابته **وهو منقول من خط المصنف عفا الله عنه** يوم السبت حادي عشر ربيع الآخر سنة تسع وستين وسبع مئة .

وجاء في خاتمة النسخة (٦) : وكان الفراغ من كتابته يوم الأحد حادي عشر من ربيع الآخر سنة سبعين وسبع مئة والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد خاتم النبيين وعلىٰ آله وأصحابه وأزواجه رضوان الله عليهم أجمعين .

كتبه محمد بن عثمان السلمي غفر الله له ولمؤلفه ومالكه ولجميع المسلمين آمين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

وجاء في خاتمة النسخة (٧) : هنا بحمد الله تعالى انتهى الجزء الثالث من « مجمع الأحباب وتذكرة أولي الألباب » وبتمامه تم جميع الكتاب والحمد لله أولاً وآخراً ، وباطناً وظاهراً ، وسراً وعلانيةً ، وكان الفراغ من كتابته يوم الثلاثاء ثامن عشر ربيع الأول سنة (٨٤٣ هـ) أحسن الله عاقبتها ، بمحمد وآله ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد خاتم النبيين ، وعلىٰ آله وأصحابه وأزواجه رضوان الله عليهم أجمعين ، وذلك علىٰ يد العبد الفقير المسكين الراجي عفر ربه ومغفرته ورضوانه محمد بن أحمد بن عثمان بن عبد الله بن سليمان بن محمد التكروري نسباً ، المالكي مذهباً ، بصَّره الله عيب نفسه ، وجعل يومه خير من=

* * *

= أمسه ، وغفر لمن دعا له بالرحمة والمغفرة ، ولجميع المسلمين وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ، آمين .

الحمد لله رب العالمين بدأه قراءةً وما قبله وما قبل. . . علىٰ سيدنا ومولانا وشيخنا الإمام العلامة الشيخ زين الدين. . . عبد الرحمـٰن الأجهوري. . . أحسن الله إليه وأسبغ نعمه عليه الفقير الحقير أحمد المدعو. . . الدين بن أبو البقاء بن أحمد محب الدين بن محمد الهنيدي المالكي الأشعري المدرسة الأفغادية المجاورة لجامع الأزهر عمره الله بذكره في ليلة يسفر صباحها عن يوم الجمعة. . . من شهر رمضان المكرم سنة : (١٣٤٠ هـ). . . بمحمد وآله ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

الحمد لله أنهى الكتاب أجمع الفقير علي بن أحمد القلعي ، وله أن يدونه عني وجميع ما عليه. . . العبد يوسف بن عبد الله الحسني. . . الشافعي ، وكتب رابع عشر في شهر ربيع الأول. . .

الحمد لله رب العالمين ، وأيضاً أنهاه قراءةً الفقير الحقير موسى النشابي الشافعي على الشيخ الشريف الحسيب النسيب يوسف الجمالي الأرميوني [تلميذ السيوطي (ت ٩٥٨ هـ)] وذلك في جامع الأزهر عند خزانة الشيخ المذكور ، بجوار باب الطهارة ، وكان ختمه ليلة الإثنين بادىء ست عشر جمادى الآخرة سنة. . . وأربعين وتسع مئة ، والحمد لله رب العالمين .

مُحتَوى الكِتاب